

جلجامتش
علاء شحات

تراث الإنسانية

سلسلة تتناول بالتحليل والتعميل
مواضع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية

بإسلام

الصفوة المتميزة من الأدباء والكُتّاب والعلماء

هديتي للصديق علي المدن

المجلد الثامن

دار الرشاد الجديدة

بعثة (المتحدة) للكشف العلمى للمحيطات و للسير و قبل طومس

بمستلم
الدكتور أنور عبد العليم

أستاذ ورئيس قسم علوم البحار بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية

مقدمة

الاستوائية الخائفة بشجاعة ، ولم تكن الأجهزة والآلات التى فى متناول أيديهم متقدمة بالقدر الذى نعرفه الآن . وعلى الرغم من كل هذا فإن النتائج التى حصلت عليها البعثة ظلت ثابتة لا تتزعزع حتى اليوم ، إلا فى أحوال يسيرة . ومبلغ العظمة فى هذه البعثة أيضاً أنها أخذت على عاتقها مهمة المبادأة والتحريك السريع للكشف عن أعماق المحيطات فى وقت كانت فيه دول أخرى من شمال أوروبا تفكر فى هذا العمل ، فاستأثرت وحدها بالفخر كله .

لقد أبحرت السفينة « المتحدة » من ميناء سوهامبتون الإنجليزى فى السابع من شهر ديسمبر سنة ١٨٧٢ وعادت أدراجها فى ٢٤ مايو سنة ١٨٧٦ ، ثم صدرت مجلداتها الخمسون التى أشرنا إليها فى الفترة فيما بين عامى ١٨٨٠ - ١٨٩٥ حاوية لنتائج فحص العينات التى جمعتها البعثة ووزعت للدراسة على عدد كبير من العلماء المتخصصين كل فى فرع تخصصه ، وروعى فى اختيارهم أن يكونوا من ألع علماء العصر وأقدرهم بصرف النظر عن جنسياتهم ، ومن ثم فقد ساهم فى كتابة هذه المجلدات علماء ينتمون لجنسيات مختلفة بالإضافة إلى العلماء البريطانيين ، إلا أن مهمة الإشراف

قلما تخلو مكتبة من مكتبات الجامعات الكبرى أو معهد من معاهد علوم البحار المعروفة اليوم من نحو خمسين مجلداً ضخماً تضم بين دفتيها ثلاثين ألفاً من الصفحات كتبها ٧٦ عالماً وسجلت فيها بدقة وأمانة نتائج أول بعثة علمية منظمة خرجت تجوب المحيطات العظمى لمدة ثلاث سنوات ونصف السنة ، قطعت خلالها قرابة ٦٩,٠٠٠ ميل بحرى لتدرس أعماق المحيطات والخواص الطبيعية والكياوية لمياهها ، وأحياءها الغريبة التى تعيش بين نور السطح وظلمات أعماق السحيقة ، إلى جانب تركيب قيعان المحيطات وماعليها من جبال وهضاب وأخوار وأخاديد . تلك هى بعثة السفينة « تشالنجر » Challenger Expedition أو « المتحدة » التى ضرب ملاحوها وعلمائها المثل الأعلى فى الشجاعة والبطولة والمثابرة والإيثار ليحققوا للعلم نصراً مؤكداً . هذه الحفنة من الرجال عملت أغلب الوقت تحت أسوأ الظروف المعروفة فى البحر التى قد تتعرض لها سفينة تسير بالشرع كسفينتهم ، وتحملوا زمهرير البرد فى المناطق القطبية وحارة القيظ فى الأجواء

على إصدار هذه المجلدات ونسقيتها قد وكلت على التوالى إلى عالين بريطانيين من أعضاء البعثة هما السير ويفيل طومسن C. Wyville Thompson (١٨٨٠ - ١٨٨٢) ثم السير جون مري John Murray (١٨٨٣ - ١٨٩٥) .

ولما كانت الطبعة الأولى لمجلدات هذه البعثة قد نفذت منذ زمن طويل ، فقد فكر الإنجليز مؤخراً في إعادة طبعها مرة أخرى ، وبدأ هذا العمل منذ سنتين : هذه المجلدات الخمسون لم تكتب في الواقع إلا للعلماء المتخصصين ، وفيها وصف دقيق للمحطات الهيدروجرافية وهى مليئة بالأرقام والقراءات والرسوم البيانية والمنحنيات والجداول ، وبها تسجيلات لخواص المياه الطبيعية والكياوية ، ووصف علمى مصور للأنواع الفريدة الجديدة للعلم من عالمى النبات والحيوان ومشاهدات عن مميزاتا وتشرحها وبيئتها ، وذلك إلى جانب دراسات عميقة لجزر المحيطات والجزر وللتيارات والمد والجزر وللرواسب البحرية التى تكسو قاع المحيط وتوزيعها وأنواعها . الخ .

وإلى جانب ما تقدم ذكره فقد أصدر السير ويفيل طومسن مجلدين إضافيين عقب عودة البعثة بزمن قصير (عام ١٨٧٧) دون فيها ملخصاً ميسراً للبعثة ونتائجها العامة اعتمد فيه إلى حد كبير على يومياته التى كان يسجلها أولاً بأول ، وهو ما نعرضه فى هذا المقال : وقبل أن نفعل ذلك نرى لزماً علينا أن نستعرض فى نحات سريعة تاريخ الكشوف الاقياوسية قبل بعثة المتحدة (تشالنجر) حتى يتيسر لنا إدراك الأثر الذى تركته هذه البعثة فى علم البحار :

الكشوف الاقياوسية قبل بعثة المتحدة

إن أغلب الكشوف الاقياوسية التى تمت قبل بعثة «تشالنجر» كانت تهدف فى الواقع إلى البحث عن طرق جديدة للملاحة والتجارة أو إلى اكتشاف أراض جديدة

لم تكن معروفة من قبل . وإذا رجعنا إلى الماضى البعيد لوجدنا فى حضارة المصريين والفيثيين القدماء كل المقومات التى تجعل منهم ملاحين مهرة لا يرههم ركوب البحر أو التوغل فيه . ولربما كان هؤلاء الناس أول من بنى سفناً كبيرة تستطيع التوغل فى البحر ، كما أعانهم علم الفلك الذى نبغوا فيه على الاهتداء بالنجوم فى السير فى البحر . ويحدثنا التاريخ عن قناة ملاحية شقها المصريون القدماء فى عهد الملك سيزوستريس كانت تصل البحر الأحمر بالنيل ، كما يحدثنا أيضاً عن أنباء البعثة التى أرسلت فى عهد الملكة حتشبسوت إلى جنوب البحر الأحمر وبلاد «بنت» ثم عادت محملة بأشجار الطيب والأفاويه والعاج وريش النعام ودونت أخبارها على جدران المعابد ، هذا إلى جانب أخبار بعثة بحرية أخرى عرفت باسم بعثة «نخاو ابن بسمتيك» أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين وقد دارت هذه البعثة حول سواحل إفريقيا وعادت من الغرب عن طريق جبل طارق .

أما اليونان القدامى فقد توغلوا هم الآخرون بسفنهم فى البحر الأبيض المتوسط شرقاً وغرباً ودون هوميروس فى الياذته الكثير من هذه المغامرات كما أشرفوا على المحيط الأطلسى الذى راعهم أمواجه فأطلقوا عليه اسم بحر الظلمات وحسبوه جزءاً من الاقياوس العظيم المحيط لإحاطة دائرية بالأرض ، ولم تجرؤ مراكبهم على السير فيه ، باستثناء ملاح منهم يدعى «بيثياس» فى القرن الرابع قبل الميلاد يقال إنه توغل شمالاً فى المحيط الأطلسى حتى بلغ سواحل الترويج .

وفى عهد اليونان القدامى ظهرت الجغرافيا الرياضية والفلكية وطلعت شخصية بطليموس بمصنفاته الفلكية الجغرافية على ما سواها وامتد أثرها طويلاً فى العصور الوسطى : كما تقدم الهنود والفرس القدماء فى تلك العلوم أيضاً .

الملاح البرتغالي قد عدد في عام ١٤٩٧ من السفن العربية إلى الشمال من موزمبيق نحو ١٥٠٠ سفينة . وعنها يقول « يحمل الربابة (العرب) بوصلات لتوجيه السفن وآلات للرصد وخارطات بحرية » .

ومن قبل ابن ماجد بزمان طويل أيضاً تحدثنا المخطوطات عن رحلة « التاجر سليمان » (٨٥١ م) الذي عاش في القرن الثالث الهجري وفيها وصف تمتع للمناطق بين سيرا ف و كانتون وللظواهر الجوية كالزوايع والأنواء الحلزونية المعروفة في بحر الصين والفلبين ولغريب حيوانات البحر ووحوشه بما فيها الحيتان . ومن القرن التاسع الميلادي تأتينا من ناحية أخرى أنباء مغامرات الملاحين الترويج المعروفين بقبائل الفيكنج ومحاولتهم الوصول إلى جرنيلاندة وأمريكا وقد تحدثنا عنهم بما فيه الكفاية في مقال نانسن والأصقاع الشمالية الذي نشر من قبل في « تراث الإنسانية » (١) .

وما إن دالت دولة العرب في الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر حتى رجعت كفة البرتغال في السيادة البحرية في الغرب وإن كان العرب لا يزالون حتى ذلك الوقت مسيطرين على زمام الأمور في المشرق . فاكتشف كولمبس جزر الهند الغربية في عام ١٤٩٢ ودار ماجلان حول الأرض بين أعوام ١٥١٩ - ١٥٢٢ م وما يؤثر عن هذا الملاح الأخير أنه اعتقد بأن أعرق بقعة في المحيطات تبلغ ٧٠٠ متر ، وتقع بين جزيرتي سان بول وتيبوروس في المحيط الهادي وتبين فيما بعد أن العمق الحقيقي لهذا الغور يزيد عشرة أضعاف عن ذلك ولكن محاولة ماجلان كانت الأولى من نوعها على أية حال .

ثم إن علم الخرائط كان متقدماً في إيطاليا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي ثم انتقلت هذه الشهرة إلى إسبانيا في القرن السادس عشر وأصبحت

ثم جاء العرب وامتدت دولتهم من المحيط إلى الخليج وازدهرت العلوم على أيامهم وكانوا قد هضموا علوم الهند وفارس واليونان وزادوا عليها ، ونبغوا في علوم الرياضيات والفلك وفي تأليف الأزياج الكبرى ، واشتهر منهم من علماء القرنين التاسع والعاشر الميلادي الخوارزمي وكان أول من عرف العرب والغرب بمنهج الحساب الهندي ثم الكندي وله رسالة « في البحار والمد والجزر » والبتاني وابن يونس وغيرهم وغيرهم . كما أدخل العرب تعديلات هامة على « الاسطرلاب » وعرفوا « بيت الابرة » وهما من أهم أدوات الملاحة ، وبفضل هذا التقدم تجاوزت معرفة العرب لحدود العالم الذي عرفه اليونان من قبل وتوغلوا في البر والبحر أكثر مما توغلت الأمم التي سبقتهم ، فعرفوا سواحل آسيا حتى كوريا الشمالية والمحيط الهندي بأسره وأرخبيل الملايو ، ويقال إنهم داروا حول إفريقيا من الشرق إلى الغرب .

وصنف منهم في الجغرافيا الطبيعية والوصفية والفلكية الكثيرون من أمثال ابن خردادبة واليعقوبي والمسعودي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي والبيروني والقزويني والإدريسي وابن بطوطة وغيرهم وغيرهم ممن أثروا الفكر الأوربي فيما بعد لقرون طويلة . كما نبغ من الملاحين العرب ربابة مهرة من أمثال أحمد بن ماجد النجدي (القرن التاسع وأوائل العاشر الهجري) وهو الذي أرشد أسطول فاسكو دي جاما من ساحل إفريقيا الشرقية إلى الهند ومولفاته وأرجيزه في علوم البحار والجغرافيا الملاحية مثل « حاوية الاختصار في أصول علم البحار » و « كتاب القوائد » تعد بمثابة المرشديات البحرية للملاحسة في المحيط الهندي أو « البورتولانات » Portulans كما عرفها الغرب . وكان هذا الملاح العظيم يلقب بالمعلم لمهارته . وليس أدل على سيادة العرب في الملاحة من أن فاسكو دي جاما

لهذه الدولة هي الأخرى السيادة البحرية لفترة طويلة من بعد ذلك ، وإن ظلت هولندا تنافسها فيها من آن لآخر . ويعزى ابتكار آلة « السدس » إلى اسحق نيوتن وبفضل هذه الآلة أمكن تحديد المواقع البحرية بدقة ، كما تمكن الفرنسي « بوشيه » من ابتكار فكرة خطوط الأعماق المتساوية وتمثيلها على الخرائط البحرية .

وفي القرن الثامن عشر انتقلت السيادة البحرية إلى الإنجليز فسمح جيمس كوك السواحل حول أستراليا ونيوزيلاندة في الفترة بين ١٧٦٩ - ١٧٧٢ كما اكتشف جزر ساندويتش في المحيط الهادى . وكان الدافع إلى التوغل في البحار الجنوبية في تلك الفترة هو الاعتقاد في نظرية قديمة تقول بوجود أراض مجهولة ذات مساحات شاسعة لم تعرف بعد في نصف الكرة الجنوبي لتحدث التوازن بين مساحة اليابسة والمساحة المغطاة بالماء وهي الأراضي التي كانت تسمى باسم Terra incognita australis وفي الفترة بين ١٨٣٩ - ١٨٤٣ م اكتشف السير جيمس كلارك روس الإنجليزى مزيداً من المناطق والجزر غير المعروفة في البحار الجنوبية أيضاً وتمكن من قياس عمق المحيط إلى ٢٤٢٥ قامة .

ويعزى إلى البارون بلنجهاوزن الروسي أنه كان أول من رأى شواطئ القارة المتجمدة الجنوبية وذلك في عام ١٨٢٠ .

وفيما يتعلق بدراسة الظواهر الطبيعية والبيولوجية للبحر بالإضافة إلى الملاحظات التي تقدم ذكرها عن قياس الأعماق وعن المد والجزر وعن الأعاصير والزوابع البحرية وعن غرائب حيوان البحر وحيثانه التي وردت في كتب الأقدمين - نجد أن الدراسات العلمية قد اتخذت شكلاً آخر منذ أوائل القرن الثامن عشر وإن سارت ببطء شديد هي الأخرى وأول دراسة منظمة من هذا النوع قام بها الكونت لويجي فرناندو مرسيلي في عام

١٧٣٥ م في خليج مرسيليا ، إذ قاس الأعماق ودرجة حرارة الماء وملوحته كما اختبر طبيعة القاع واستعمل أنواعاً من الشباك البدائية والجرافات في استخراج العينات من قاع الخليج الضحل نسبياً . وقد كتب هذا الباحث رسالة بعنوان « التاريخ الطبيعي للبحر » وكان أول من عارض مبدأ « البحر ليس له قرار » .

وفي عام ١٧٧٠ أصدر بنيامين فرانكلين في أمريكا خريطته المشهورة لتيار الخليج لأول مرة . كما قام « موري » Maury عالم الأرصاد الأمريكى بعد ذلك بنحو قرن من الزمان بدراسة أكثر تفصيلاً لتيار الخليج وللعوامل الطبيعية الأخرى في البحر كالرياح والتيارات ودرجات الحرارة . وألف عن ذلك كتابه المشهور المسمى « بالعوامل الطبيعية للبحر » كما دعا إلى تأسيس الجمعية الدولية للملاحة والأرصاد الجوية ونظم أول مؤتمر لها من نوعه في بروكسل ببلجيكا في عام ١٨٥٣ . وفي عام ١٨٦٥ تمكن عالم دانمركى يدعى فورشهامر من تحليل عينات من ماء البحار والمحيطات بدقة واكتشف حقائق قيمة عن نسبة الأملاح إلى بعضها في ماء البحر ، ساعدت مستقبلاً على ابتكار طريقة لتقدير درجة ملوحة البحر .

ولا يفوتنا أن ننوه في ختام هذه العجالة بفضل صيادى الحيتان الذين جابوا البحار القطبية الشمالية والجنوبية من دول اسكندناوة وإنجلترا وأمريكا مقتفين أثر الحوت ، وما جمعوه من معلومات ومشاهدات قيمة عن الشواطئ والجزر وعن خواص البحار التي جابوها مما كان له أثر أيضاً في تراكم المعلومات عن البحار والمحيطات حتى القرن التاسع عشر الميلادى .

استكشاف الأعماق

وعلى الرغم من كل هذه المشاهدات السطحية للظواهر الطبيعية والبيولوجية في البحر فقد ظلت أعماق

وتبدأ منطقة العدم أو «اللا حياة» على أعماق تزيد على ٣٠٠ قامة .^(١)

«ثم جاء عالم يدعى «واليش» Wallich (١٨٦٠ م) كان يعمل على مركب من مراكب مد أسلاك التلغراف على قاع البحر ، وحدث بأن نجوم البحر التي استخرجها من عمق ١٢٠٠ قامة كانت معدتها تحتوي على أنواع من الكائنات الأولية الدقيقة مما زرع الاعتقاد السائد بأن قاع البحر يجذب قاحل . ولم يقبل الناس بطبيعة الحال هذا الرأي بسهولة على أساس أن الأحوال السائدة في الأغوار البعيدة لا تساعد بحال من الأحوال على قيام الحياة . وعلى الرغم من أن مثل هذه الأحوال كانت في حكم المجهولة إلا أنه كان من الممكن التكهن ببعضها بالحساب . ومن ذلك أن الضغط يزداد بزيادة العمق حتى إن الكائن الحي الذي قد يعيش على عمق ٣٠٠٠ قامة يتعرض جسمه لضغط يعادل ثلاثة أطنان على البوصة المربعة ! وكان مجرد التفكير في مثل هذا الأمر يجعل العلماء يترددون في بحث أمر الحياة على الأغوار البعيدة ! ثم جاءت بعد ذلك بارقة من الأمل أنبأت عنها بحوث العلماء في اسكتلندا ، فقد أدلى هؤلاء العلماء بجرافاتهم إلى أعماق تتراوح بين ٣٠٠ - ٤٠٠ قامة في البحار الشالية وتمكنوا من استخراج أنواع مختلفة من الحيوانات البحرية . وكانت هذه التجربة بمثابة ضربة قاضية على المدرسة الانجليزية التي اعتنق علماءها نظرية «اللا حياة» حتى ذلك الوقت .

وكان ذلك حافزاً لعالم اسكتلندي من علماء الحيوان في أدنبرة يدعى ويفيل طومسن الذي أوردنا كلامه فيما

(١) من العلماء الذين نادوا بهذا الرأي عالم الحيوان الإنجليزي المشهور «ادوارد فوربس» E. Forbes الذي قام بدراسات على أحياء القاع ببحر إيجه باليونان عام ١٨٤٠ - ١٨٤١ م واعتقد بأن الحيوانات البحرية تنقل في العدد والتوزيع بزيادة العمق حتى تنعدم كلية بعد عمق ٣٠٠ قامة .

البحار سراً لا يعرف الناس عنه شيئاً لأجيال طويلة . وما يرح العلماء أنفسهم حتى منتصف القرن التاسع عشر يعتقدون بأن قاع البحر في الأغوار السحيقة يجذب قاحل لا أثر للحياة فيه . وكان هذا الأمر في حد ذاته حافزاً من الحوافز التي عجلت تجهيز بعثة علمية كبعثة «المتحدية» لاستكشاف هذه الأعماق .

ويسرد السير ويفيل طومسن في كتابه عن البعثة نتائج الحوادث التي أدت إلى اختار فكرة القيام ببعثة لاستكشاف الأعماق في ذهنه فيقول : «بدأت هذه الحوادث بتنفيذ الشركات لمشروع جليل هو مد «كابلات» التلغراف على قاع المحيط ليصل بين الدنيا الجديدة والدنيا القديمة (في منتصف القرن التاسع عشر) . فقد لفت هذا المشروع نظر العلماء إلى منطقة طالما كانت مبعثاً لكثير من الروايات والأساطير ، ألا وهي قاع البحر العميق . وكانت أول معالم الطريق إلى هذا العالم الغريب المغمور تحت سطح الماء هي بطبيعة الحال القيام بحسابات لتحديد الأعماق ، ثم أعقبها نجاح العلماء في الحصول على فئات صغير من رواسب الأعماق لمعرفة تركيب قاع البحر .

وبينما كانت الأمم تسعى لتقريب المسافات بينها وتحقيق الاتصال التلغرافي عبر المحيط ، كان هناك فريق آخر من العلماء يعيش في عالم آخر ، لا يعنيه شيء قدر معرفة أنواع الحياة البسيطة والمعقدة التي تعمر الأرض والمحيطات . وكانت وسائلهم في جمع هذه العينات من المحيطات محدودة للغاية . ومن ثم نشأ الاعتقاد بأن الحياة على قاع البحر لا يعدو توزيعها سوى نطاق ضيق يحيط بالسواحل حتى عمق محدود ، تنعدم بعده الحياة كلية ؛ أما الحياة النباتية في البحر فتتعدى على أعماق مائة قامة وأما الحيوانات فتندر ندرة عجيبة بعد هذا العمق ولا يمثلها سوى الكائنات الأولية بسيطة التركيب .

وفي هذه الأثناء أدخلت تعديلات هامة على ترمومترات الأعماق وذلك بإحاطتها من الخارج بمحار آخر من الزجاج السميك وكان زجاجها من قبل يتأثر بالضغط السائد على الأعماق البعيدة فيعطى قراءات غير دقيقة . وقد استرعت هذه البحوث عن الحياة في الأعماق البعيدة انتباه الرأي العام كما استرعت انتباه الشركات التي كانت تعمل في مد خطوط التلغراف على قاع البحر وكان يهتمها معرفة طبيعة هذا القاع وتركيبه ومدى تأثير أسلاك التلغراف بالحرارة وبأنواع الحيوانات التي تنمو عليها من الخارج وذلك إلى جانب تحديد العمق بدقة .

تجهيز البعثة

وتشجع « ولفيل طومسن » و « كاربنتر » على أن يعدا العدة لبعثة طويلة الأمد لاكتشف العلمى عن أعماق المحيطات وبخاصة بعد أن فشلت محاولات بعض دول أوروبا في تجهيز بعثات مماثلة . وكتب الدكتور كاربنتر خطاباً بهذا المعنى لقائد الأسطول فأعدت البحرية مذكرة بالموضوع عرضت على « لوردات البحرية » الذين أبدوا استعدادهم لتجهيز البعثة إذا جاء الاقتراح من الجمعية الملكية . . وفيما يلي مقتطفات من خطاب الدكتور كاربنتر المؤرخ ١٥ يونيه سنة ١٨٧١ إلى الجمعية الملكية بلندن وقد أرفقه بنسخة من مجلة « نيتشر » العلمية^(١) تعزز رأيه .

« . . إن ما نرى إلى علمنا مؤخراً حول نشاط بعض الدول الأخرى لاقتحام ميدان الكشف العلمى الطبيعية والبيولوجية لأغوار البحر ليحملنا على تنبيه حكومتنا إلى أن الوقت قد حان لضرورة إعداد برنامج علمى أكثر استكمالاً وتنظيماً مما نفذناه بغية دخول هذا الميدان الجديد . . كما ينبغي أن تدرج الاعتمادات اللازمة (لمثل

(١) مجلة Nature مجلة علمية تسجل فيها ملخصات من نتائج البحوث الهامة قبل نشرها بالتفصيل .

تقدم ولزميل له يدعى كاربنتر على التقدم في عام ١٨٦٨ إلى الجمعية الملكية بلندن بالتماس لتمنحهم الأميرالية التسهيلات اللازمة لبحث موضوع العوامل الطبيعية والبيولوجية على قاع البحر في المناطق العميقة . وأجيب العالمان إلى طلبهما ووضعت البحرية تحت تصرفهما مركباً صغيراً قديماً أجرياً عليه اختبارتهما في المنطقة الواقعة بين سواحل اسكتلندا وجزر فارو لمدة شهرين متتابعين تحت ظروف قاسية في البحر . وكان جزاؤهما من هذه التجارب حصيلة من الحيوانات المختلفة جمعها بالجرافات من أعماق تزيد على ٦٠٠ قامة لأول مرة ، وقد خيل للعالمين في ذلك الوقت أن هذه الحيوانات تربطها صلات بأنواع الحيوانات المنقرضة ، كما فوجئنا بحقيقة أخرى توصلا إليها عن طريق قياس درجات الحرارة على الأعماق البعيدة ، وهى أن درجة حرارة الماء على الأعماق البعيدة ليست كما كان يظن الجميع بأنها درجة ٤ م بل إنها تزيد أو تنقص عن ذلك تبعاً للظروف . وبناء على هذه التجربة قرر العالمان بأن أعماق البحار فيها طبقات مختلفة من المياه تحتفظ كل طبقة منها بخصائص معينة من حيث توزيع الحرارة وتعيش فيها أنواع من الحيوانات تتلاءم مع درجات الحرارة السائدة في كل طبقة ، كما أثبتنا أيضاً بأن ماء البحر بين السطح والقاع يحتوى على مواد عضوية ذائبة أو معلقة فيه .

وقد حضرت هذه النتائج المبدئية ولفيل طومسن وزميله على تكرار هذه التجارب خلال فصل الصيف التالى ووضعت الأميرالية هذه المرة تحت تصرفهما لهذا الغرض مركباً أحسن حالاً من زميلتها الأولى . وساعدهما الحظ أيضاً في هذه المرة فقد كان الطقس ملائماً فتمكنا من استخراج حيوانات حية بالجرافة من عمق لم يتوصل إليه أحد سواهما من قبل وهو عمق ٢٤٣٥ قامة !

هذه البعثة (في ميزانية العام القادم منذ الآن دون تأخير إذا أريد تنفيذ مثل هذا البرنامج .. ولأنى أقترح أن يقوم مجلس الجمعية الملكية بالمبادرة ويتبنى هذا الموضوع - وهو الذى عمل دائماً على تشجيع العلوم وتقدمها في بلادنا - فيعين لجنة لوضع خطة العمل بالاتفاق مع رئيس المجمع العلمى ورؤساء الجمعيات العلمية الكيماوية والجغرافية والجيولوجية والزولوجية وجمعية لينوس ، بحيث تكون الخطة جاهزة للعرض على الحكومة في نهاية شهر نوفمبر القادم » .

وقد لقي هذا المطلب استجابة وفي ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٧١ شكلت لجنة من رئيس الجمعية الملكية ومن الدكتور كارينر وفرانكلاند وهوكر وماكسلى والدكتور وبيل طومسن وضم إليها أعضاء عن البحرية كما فوضت لتضم من تراه إلى عضويتها .

وفي آخر نوفمبر من نفس العام كانت اللجنة قد انتهت من إعداد تقريرها وأوصت بضرورة تهيئة سفينة تتحمل السير في البحر لمدة أربع سنوات متصلة ، وعليها من المؤن والمعدات والتجهيز المعلى ما يكفى لتحقيق أغراض البعثة . وقد وقع الاختيار بالفعل على سفينة حربية تدعى المتحدة (تشالنجر) H.M.S. Challenger حمولتها ٢٣٠٦ طناً تسير بالشرع وعليها ماكينة إضافية تعمل بالبخار قوتها ١٢٣٤ حصاناً لتنفيذ هذه المهمة ، واختير لقيادتها القبطان ناريس G. Nares وهو رجل كفء على جانب كبير من الخبرة بأعمال المسح البحرى . ويساعده طاقم من الضباط والمهندسين عددهم ٢٢ رجلاً^(١) . أما مجموعة العلماء فقد رشحتهم الجمعية الملكية وربطت مرتباتهم وذلك على الوجه التالى :

(١) بخلاف بخارة السفينة وعددهم ٢٤٠ رجلاً توفى منهم في الطريق أحد عشر بحاراً وغادر منهم السفينة في الموانى المختلفة ١٥ بحاراً نتيجة المرض .

الدكتور وبيل طومسن : رئيساً علمياً للبعثة بمرتب سنوى قدره ١٠٠٠ جنيه

المستر وايلد : سكرتيراً للرئيس ورسام البعثة ومرتبه السنوى ٤٠٠ ج

المستر بوكانان : كياوى بمرتب ٢٠٠ جنيه
المستر موسى : للتاريخ الطبيعى بمرتب ٢٠٠ جنيه

المستر جون مرى : للتاريخ الطبيعى بمرتب ٢٠٠ جنيه

الدكتور فون فليموس سوم : للتاريخ الطبيعى بمرتب ٢٠٠ جنيه

ويلاحظ أن الأخير هو من علماء الفسا ووقع الاختيار عليه في آخر لحظة بعد أن اعتذر عالم بريطانى يدعى ستارلينج عن الانضمام للبعثة بعد ترشيحه ، هذا وقد أدخلت بعض التعديلات على السفينة لتلائم المهمة الجديدة التى أسندت إليها فأزيل ستة عشر مدفعا من مدافعها الثمانية عشر وعدلت مقصوراتها وحولت صالاتها لمعامل للبحث والدراسة وركبت عليها أوناش وآلات جديدة وأضيفت إلى حجراتها معامل جديدة كما روى أن تثبت جميع الأجهزة والآلات المعملية بما يضمن عدم قلقها أثناء اضطراب البحر . كما زودت مخازن السفينة بجميع ما يحتاج إليه العمل بالبحر من أدوات ورتب كل صنف منها في صناديق خاصة وذلك إلى جانب آلاف من صناديق الزجاجات والأوانى لحفظ العينات وأوعية مملأ بالفورمالين والكحول لحفظها . وحملت السفينة على ظهرها أيضاً أطناناً من الحبال المختلفة السمك والطول لشئ الأغراض ، من بينها نحو ٢٥٠٠٠ قامة من حبال الكتان المثينة لجر الجرافات وحبل طوله ١٠,٠٠٠ قامة لسبر الأعماق وغيرها متعددة الطول والسمك للعمليات الثقيلة والخفيفة هذا فضلا عما اشترته المركب أثناء وقوفها بالموانى من

جبال إضافية . ولقد اتبعت السفينة في سبر الأعماق نفس الطريقة التقليدية القديمة التي تعتمد على ربط ثقل بحبل وإدلائه إلى القاع مع تعديلات بسيطة تلائم العمل في الأعماق البعيدة وزود الثقل أيضاً بأنبوبة معدنية تغوص قليلاً في رواسب القاع لتجمع عينة منها . والطريقة المشار إليها متعبة للغاية وتستنفد الكثير من الوقت عند جس الأعماق البعيدة . ويكفي أن تقول إن سبر غور قاع على عمق ٤٠٠٠ قامة كان يقتضي يوماً بأكمله من أيام عمل البعثة ، هذا فضلاً عن عدم دقة العمق المسجل بهذه الطريقة لانحراف الحبل بواسطة التيارات تحت الماء .

هذا وقد زودت السفينة بقوارب مساعدة يعمل بعضها بالمحركات لتيسر الدراسة في المناطق الضحلة وحول الجزر .

وما أن تمت كل هذه الاستعدادات حتى أبحرت السفينة كما أشرنا من ميناء سوثهامبتون بين دقات الطبول وعزف الموسيقى وتوديع الأهالي ، وعشية إبحارها تفقدها « لوردات البحرية » وبعض الوزراء . وجدير بالذكر أن البعثة المذكورة فقدت في رحلتها الدكتور فون فليموس سوم النمساوي وكان قد أصابه المرض في الطريق بين جزر هوائي وتاهيتي ، كما فقدت اثنين من ضباطها أيضاً .

ومن عجب أن هذه الفئة القليلة من العلماء على سطح السفينة تمكنوا من جمع ذخيرة من العينات والمعلومات وسعها المحلدات الخمسون وكانت في حد ذاتها فتحاً جديداً للعلم .

خط السير وخطة العمل

ورد في تقرير اللجنة الرسمية التي عهد إليها أمر وضع برنامج العمل للبعثة بأن « الغرض الأساسي لها يتضمن بحث العوامل الطبيعية والبيولوجية لأحواض

المحيطات العظمى » كما رسمت اللجنة المذكورة خط سير السفينة وحددت برنامج العمل على الوجه الآتي : « تتجه السفينة من ميناء سوثهامبتون إلى سواحل البرتغال وأسبانيا ثم تعبر المحيط الأطلنطي من ماديرا إلى جزر الهند الغربية ومن ثم تتجه إلى جزيرة برمودا ومنها إلى جزر الأزور والرأس الخضراء ثم تيمم شطر سواحل البرازيل وأمريكا الجنوبية ثم تعبر الأطلنطي مرة أخرى من الجنوب إلى رأس الرجاء الصالح . ومن هناك تتجه إلى جزر مريون والكروزية وكيرجولين ثم إلى أستراليا ونيوزيلاندة وتواصل السير إلى الجنوب من منتصف المحيط الهندي حتى تقترب قدر الإمكان وفي الحدود التي تتطلبها سلامة المركب من حواجز الجليد على شواطئ القارة المتجمدة الجنوبية .

ومن نيوزيلاندة تخترق السفينة بحر المرجان ومضيق توريس وتتجه غرباً حتى تصل إلى ما بين جزيرتي بالي وملوك ومن هناك إلى جزر السليز وبحار السولو ثم إلى مانايلا . ومن مانايلا تتجه السفينة شرقاً في المحيط الهادئ وتزور غينيا الجديدة وجزر السلمون . ثم تواصل رحلتها إلى اليابان حيث تمضي بعض الوقت هناك .

ومن اليابان تعبر السفينة المحيط الهادئ إلى جزيرة فانكوفر ثم تتجه جنوباً إلى الحوض الشرقي لهذا المحيط وتعود إلى الجزر البريطانية من حول رأس هورن (في جنوب أمريكا الجنوبية) .

ومن ثم يتضح أن خط سير السفينة يكون قد شمل المحيطات العظمى الثلاثة وهي المحيط الهادئ والمحيط الأطلنطي والمحيط الهندي إلى جانب المحيط الجنوبي العظيم الذي يتكون من تلاقى المحيطات الثلاثة الكبرى في نصف الكرة الجنوبي وتكون السفينة قد مسّت أيضاً سواحل القارة الجنوبية المتجمدة .

إن هذا الطريق ليهي الفرصة لدراسة العديد من ظواهر المحيطات الكبرى بما فيها تيار الخليج والتيارات

أولاً - بحار مياه الشريعة :

تقوم البعثة خلال عبور أحواض المحيطات العظمى بجمع المعلومات من محطات محددة الموقع بدقة . بين كل محطة وأخرى مسافة معقولة . وفي كل محطة منها « موقع » الوقت وحالة البحر ودرجات الحرارة على السطح وفي الأعماق المختلفة . كما تقاس كثافة المياه ويرصد العمق وطبيعة القاع . وتؤخذ عينة من القاع بالجرافة كلها ستحت الظروف . وفي مسار التيارات تقاس درجات الحرارة على الأعماق : صفر : ١٠ : ٥٠ : ١٠٠ قامة . ولتقدير أعماق المحيطات المقام الأول في أعمال البعثة ومن ثم فيجب قياسها في جميع الأحوال الممكنة حتى ولو لم تكن الظروف لتسمح بالقيام بعمليات أخرى سوى ذلك . إن معرفة « كورتورات الأعماق » في المحيطات لتلقى الضوء على المشاكل المتعددة المتعلقة بالتاريخ القديم لكوكب الأرض وجغرافية المحيط في الأحقاب الجيولوجية المختلفة : كما تلقي الضوء على مشاكل التوزيع الجغرافي المعاصر للحيوانات والنباتات البحرية وعلى طبيعة دورة المياه . وتمثل درجات الحرارة على منحنيات بيانية ليسهل مقارنتها وتجميع معلومات عن شدة الريح واتجاهها وعن التيارات السطحية وسرعتها واتجاهها وعن درجة رطوبة الجو . والدرجات حرارة الماء على الأعماق المختلفة أهمية كبرى في تمييز الطبقات المختلفة من المياه . وبضيف طومر : « ومن خبراتنا في شمال الأطلنطي وجد أن درجة الحرارة على أعماق تزيد على ألف قامة لا تزيد عن الصفر (المثلث) كثيراً » .

وثمة مسألة احتمال صعود المياه الثقيلة إلى أعلى (ضد قوى الجاذبية) عندما يصطدم تيار قاعي بحرف أو جبل يعترض مساره وهي مسألة تثار حولها جدل كبير : وجزر « الأزور » من أحسن المواقع التي يمكن اختيار هذه المسألة عندها . ولتقدير درجات الحرارة

الاستوائية وكذلك لدراسة الأحوال البيولوجية لبحر الأنتيل وحيوانات المياه العميقة في جنوب الأطلنطي التي لا تزال مجهولة حتى اليوم . وذلك بالإضافة إلى القيام بدراسات هامة عن الأحياء التي تعيش على حواف البحر الجنوبي » .

ويضيف التقرير بأن أهمية خاصة يجب أن تعطى للدراسات النباتية والحيوانية على جزر ماريون والكروزيه وكيرجولين أو لأية مجموعات أخرى من الجزر يحتمل العثور عليها في المنطقة الواقعة جنوب شرق رأس الرجاء الصالح . ومن المحتمل أن يكتنف البحث في تلك المناطق صعوبات جمة إلا أننا يجب ألا نغفل عن أن « الفونة »^(١) البحرية لهذه المناطق تعتبر في حكم المجهولة كما يحتمل أن توجد أوجه شبه بينها وبين « فونة » العروض المتطرفة في نصف الكرة الشمالي . وقد لا تسنح فرصة أحسن من هذه الرحلة لدراساتها وكل إضافة جديدة عنها تعتبر إضافة قيمة للعلم .

« ولنفس هذه الأسباب أيضاً يجب أن تعرج البعثة قدر الامكان على جزر « أوكلاند وكامبل » وبصفة خاصة على جزر الماركيز وفيجي وفريدلي إذ من المحتمل أن توجد حيوانات المنطقة القطبية الجنوبية هناك على أعماق قليلة نسبياً . . . » .

وينوه التقرير أيضاً بضرورة القيام بدراسات عن تركيب الشعاب المرجانية وجمع مزيد من الصخور والمعادن ودراسة التيارات البحرية والاهتمام بالجغرافيا الطبيعية وتوزيع الأحياء في النصف الشمالي للمحيط الهادئ . وكل هذا بالإضافة إلى القيام بدراسات أنثروبولوجية وأثنولوجية لشعوب جزر المحيط .

هذا وقد احتوى برنامج الرحلة على تفصيلات لأقسام الدراسات المختلفة نجلها فيما يلي :

(١) « الفونة Fauna » هي مجموعة الحيوانات التي توجد في منطقة من المناطق مرتبة حسب التقسيم الطبيعي لمناطق عالم الحيوان ، ويقابلها لفظ فلورا Flora بالنسبة للنباتات .

على الأعماق المختلفة وبخاصة في البحار الجنوبية أهمية كبرى أيضاً في تحديد التيارات الباردة أو الدافئة ومساراتها .

ولدراسة حركات المياه السطحية والعميقة أهمية كبرى في فهم الدورة العامة للمياه في المحيطات واما إذا كانت هناك تيارات عميقة من الأحواض القطبية نحو خط الاستواء . ولا يجب أن ندع فرصة تمر دون أن تسجل مشاهدات عن المد والجزر في أية بقعة من العالم . كما تؤخذ قراءات دقيقة لمستوى سطح البحر مرة في كل ساعة قمرية (١) .

وتقدر كثافة المياه السطحية والعميقة بدقة مع استعمال الميزان الحساس كلما اقتضى الأمر ، كما تقدر درجة شفافية المياه مع تسجيل حالة السماء وارتفاع الشمس في الأفق وقت القياس .

ولما كان الأستاذ « شوف » قد نشر بحثاً قديماً في عام ١٨٣٢ عن العلاقة بين قراءة البارومتر عند مستوى سطح البحر وبين خط العرض فعلى البعثة أن تحقق هذه العلاقة .

ثانياً - الدراسات الكيميائية :

وتتضمن التعليقات الخاصة بهذا القسم معلومات عن طريقة جمع عينات المياه وحفظها وتحليلها وتقدير درجة ملوحتها وكذلك تقدير الغازات الذائبة في ماء البحر وتلك التي تحتويها المثانات الهوائية للأسماك حال استخراجها بالشباك .

ثالثاً - الدراسات النباتية :

ويجمل البرنامج وظيفة عالم النبات على السفينة في أمرين أولهما أن يجمع مجموعات كاملة من نباتات المناطق التي تزورها البعثة ويحفظها كما يدون ملاحظات عن النبات الحلى وتركيبه وبيئته وأطواره

(١) الساعة القمرية تساوي ساعة واحدة شمسية ودقيقتين .

كلما اقتضى الأمر ذلك . وعلى الضباط والبحارة أن يعاونوه على أداء مهمته في الحالة الأولى .

وبلاحظ أن دراسة النباتات على الجزر المعزولة في وسط المحيط لها أهمية خاصة بالنسبة للتطور ، فبعض هذه النباتات تمثل الأثر الباقي من « فلورة » منقرضة كما هي الحال على جزيرة سانتا هيلينا في المحيط الأطلنطي وبعضها الآخر يمثل أنواعاً متطورة ، مع الاهتمام بدراسة نباتات كل جزيرة على حدة من مجموعات الجزر المختلفة . كما أن الكثير من الجزر التي ستمر عليها البعثة لا تزال نباتاتها مجهولة . ثم يعدد البرنامج بعد ذلك أسماء الجزر والمناطق التي يجب أن يعتنى بدراستها من الوجهة النباتية في المحيطات الثلاثة الكبرى وعلى سواحل أستراليا وفي أرخبيل الهند ، ومنها في الأطلنطي جزر : الرأس الخضراء وترتسيان دى كونها وترينيداد (والساحل الإفريقي بين مراكش والسنغال) ، وفي المحيط الهندي جزر : سيشيل وأميراثي ومدغشقر وسقطرة بالإضافة إلى الساحل الشرقي لأفريقيا شمال إقليم ناتال . أما في المحيط الهادئ فتهم البعثة بشمال اليابان وكوريل وجزر البوشن فضلاً عن المناطق المدارية مثل جزر فيجي وتاهيتي ومارشال وسلمون وكارولينا وذلك بالإضافة إلى شواطئ المكسيك وأمريكا الجنوبية بين لима وفالبريزو :

كما يراعى تصوير النباتات بالفوتوغرافيا أو رسمها رسماً دقيقاً وتعطى عناية خاصة لموضوع إنبات البذور بعد تعرضها لماء البحر وعن طرق انتشار النباتات المختلفة :

ثم يدخل البرنامج بعد ذلك في تفاصيل دقيقة كأن ينوه مثلاً بجمع النباتات من أماكن بعينها على الجزر أو الاهتمام بشجرة خاصة مجهولة النوع ويطلب المزيد من العينات منها أو بزيارة تلك الجزر في مواسم غير تلك المواسم التي سبق أن جمع الرحالة منها عينات ، مع العناية بجمع النباتات الطبية والنباتات اللازهرية

كالسراخس والطحالب والفطريات والدياتومات ،
والنباتات العالقة بالأصداف والمرجان وكذلك النباتات
الدقيقة التي توجد معلقة في الماء وأثرها في تلون ماء
البحر . حالات خاصة .

رابعاً - الدراسات الحيوانية :

ولما كان رئيس البعثة من علماء الحيوان ولديه من
الخبرة ما يمكنه من إرشاد زملائه أثناء الرحلة فلم ترد
نصوص كثيرة مفصلة في هذا الباب سواء عن طرق
جمع الحيوانات المختلفة أو حفظها وتثبيتها فيما عدا
ملاحظات بسيطة عن الأماكن الهامة من وجهة نظر
توزيع « الفونة » مثل منطقة بولينيزيا وماكرونيزيا مع
فحص الأعماق وطبيعة أحياء القاع على خط وهمي
يصل ما بين اليابان وجزيرة فانكوفر في الشمال وعلى
خط آخر يمتد جنوباً إلى جزيرة فالبريزو ، وذلك
بالإضافة إلى دراسة التوزيع على جانبي « خط والاس »
الهيدروغرافي في أرخبيل الملايو :

كما يؤكد البرنامج ضرورة فحص الضوء المنبعث
من أية كائنات بحرية بواسطة المنشور أو بواسطة
المطيف ليبان تركيبيه وألوانه .

والواقع أن الدراسات الحيوانية قد احتلت الجانب
الأكبر من موسوعة مجلدات البعثة فيما بعد وذلك
بالإضافة إلى المشاهدات الهامة عن الحيوانات النادرة
أو الغريبة التي وصفها وبفيل طومسن في مجلديه
الإضافيين عن الرحلة . كما يجب أن ننوه أيضاً بمجهود
العالم جون مري وملاحظاته عن الأصل العضوي
للتكوينات الطباشيرية وغيرها على قيعان المحيطات
وعلاقتها بالأحياء التي تعيش على السطح .

خامساً - دراسات تكميلية :

وتشمل التركيب الجينولوجي للمناطق غير
المعروفة حتى ذاك الوقت مع جمع عينات من الحفريات

والمعادن والضحور منها ، وكذلك الاهتمام بجمع الأدلة
عن الارتفاعات أو الانخفاضات التي اعتورت ساحل
البحر في العصور المختلفة .

« وعلى البعثة أن تنهز الفرصة أيضاً لتصوير أنماط
من أجناس البشر الذين تقابلهم بمقياس موحد ليسهل
مقارنة الصور مع تدوين الملاحظات عن المميزات
الطبيعية لكل جنس وعن اللغة والعادات والمخلفات
الأثرية والأدوات التي يستعملونها ، كما تجمع عينات
من شعر الرأس للسلالات غير المختلطة من البشر » .

ويعطى لكل محطة من المحطات رقم مسلسل في
يوميات السفينة بحيث يدون هذا الرقم مع كل عينة من
العينات التي تجمعها البعثة من نفس المحطة . وعلى كل
باحث أن يحتفظ بمذكرة يدون فيها مشاهداته يوماً
بيوم ويقدم هذه المذكرة من آن لآخر لرئيس البعثة
الذي يدون بدوره في يومياته الرسمية كل ما يفيد العلم
من ملاحظات :

نتائج البعثة وأثرها في تقدم علوم البحار

ولئن دلت الملاحظات السابق ذكرها على شيء
فعلى أن البعثة المذكورة كانت قد أعدت لكل أمر
عدته واتخذت كل الاحتياطات الضرورية التي تكفل
نجاحها في مهمتها . ومنها حسن اختيار الرجال ، سواء
المدنيين منهم أو العسكريين ، وقد نوه الرئيس العلمي
للبعثة بالتعاون الممتاز الذي لوحظ بين الفريقين ، وكان
له أكبر الأثر فيما أحرزت البعثة من نجاح . وبالإضافة
إلى ذلك فقد جهزت السفينة بالعدد والآلات وبأجهزة
جمع العينات من أحسن ما عرف حتى ذلك الوقت ،
كما عهدت البعثة إلى بعض الصانع المهرة بتحويل أو
ابتكار الأجهزة الجديدة التي كانت في حاجة إليها ،
وتشيد البعثة أيضاً بالمعونة التي تلقتها من بعثة ألمانية
صغيرة زارت بريطانيا قبل إبحار « تشالنجر » وأطلعها
على بعض الأجهزة الجديدة .

ويبدل برنامج البعثة على دراسة عميقة وإلزام بكل ما عرف أو كتب عن البحار والجزر وحيواناتها ونباتاتها حتى وقت قيامها ، ويضاف إلى كل ذلك الصفات الإنسانية الممتازة التي يجب أن يتحلى بها مجموعة من الناس كتب على أفرادها أن يعيشوا معاً ليل نهار لمدة ثلاث سنوات ونصف السنة على ظهر سفينة تمخر بهم غياهب المحيطات في أجواء متقلبة .

ويمكن القول بأن البرنامج الذي وضع للبعثة قبل قيامها قد تحقق على أحسن وجه ممكن . وعرف العالم لأول مرة الكثير من خبايا أعماق المحيطات وأسرارها . فقد وصفت البعثة لأول مرة أعداداً هائلة من أنواع الأسماك التي تعيش في البيئات السحيقة وألقت الضوء على طرق معيشتها وطباعها ، ومنها الأسماك « الفوسفورية » التي ترصع جسمها بقع تضيء بضوء خافت جميل وترتب هذه البقع بنظام خاص يتميز به كل نوع منها كما ألقت البعثة الضوء أيضاً على الأحوال السائدة على هذه البيئة السحيقة . ومنها على سبيل المثال أن درجة حرارة الماء على أعماق تزيد على ألف قامة ثابتة تقريباً في جميع المحيطات وهي درجة منخفضة تقرب من الصفر المئوي . ثم إن التوزيع الجغرافي لحيوان القاع العميق متجانس تقريباً من القطبين إلى خط الاستواء ، حيث لا يوجد أثر لتقلب الفصول أو لتعاقب الليل والنهار على هذه الأعماق التي يسودها ظلام مطبق .^(١)

كما وضحت البعثة لأول مرة أيضاً « كتدورات الأعماق » للمحيطات وإليها يرجع الفضل في اكتشاف سلسلة جبلية ممتدة من شمال المحيط الأطلنطي إلى جنوبه وهي المعروفة باسم « السلسلة الفقرية » لهذا المحيط وتقسمة إلى قسمين كبيرين أحدهما يعرف باسم الحوض الشرقي والآخر باسم الحوض الغربي .

(١) انظر كتابها بعنوان « أضواء على قاع البحر » رقم ٤٨ في سلسلة المكتبة الثقافية .

ولقد جمعت البعثة من رواسب قيعان المحيطات نحو ١٢,٠٠٠ عينة غني بدرواساتها جون مري والأب رينار الفرنسي وقاما بتقسيمها ودراسة خواصها وثبت أن هذه الرواسب هي هياكل صلبة لحيوانات أو نباتات دقيقة عاشت في الطبقات السطحية للمياه وعند موتها تساقطت كرهاذا المطر على القاع العميق فكسته ببساط ممتد فسيح يتركب أحياناً من هياكل تدخل المادة الجيرية أو الطباشيرية في تركيبها وهي تنتمي لأنواع من الكائنات تسمى المنخربات تنضوي تحت قبيلة الحيوانات الأولية المعروفة باسم « الأولي » وأحياناً أخرى تنتمي إلى قبيلة الصدفيات المنحثة « البيروبودا » كما قد يكون بساط الرواسب آنف الذكر من مادة طينية أخرى أكثر صلابة هي مادة « السيليكا » ومنها تتكون أغلفة كائنات دقيقة تعرف بالدياتوم وهي تنتمي لعالم النبات وليس لعالم الحيوان . وثمة أنواع من الحيوانات الدقيقة لها هياكل من السيليكا أيضاً وتعرف باسم « الراديولاريا » وهي تساهم بدورها أيضاً في تكوين بساط الرواسب على القيعان العميقة للمحيطات . وهذه الهياكل وتلك تقاوم عوامل البلى والذوبان نظراً لصلابتها وترسب ببطء شديد على قيعان المحيطات وتغطي مساحات شاسعة منها .

ولبعثة المتحدية (تشالنجر) الفضل في اكتشاف نوع جديد من الرواسب الطينية على أعماق كبيرة جداً يسمى بالطين الأحمر وتغطي هذه الرواسب مساحات شاسعة هي الأخرى من قاع المحيط ويتركب هذا الطمي من مواد مختلفة بعضها معدني وبعضها من أصل بركاني وتتناثر فوقه عقد المنجنيز وأسنان أسماك القروش المنقرضة .

وثمة رواسب أخرى تكسو القيعان القريبة من شواطئ القارات وهذه تتركب في جملتها من رواسب الأنهار والحصي والأصداف وحبوبات الرمل والطيني

والرعد ، وتختلف كل الاختلاف في خواصها عن رواسب القيعان العميقة . ومن عجب أن توجد في بعض الأحابن قطع كبيرة من الجلاميد على قاع المحيط العميق ، وهذه صخور أرضية من غير شك حملتها التلاجات وجبال الجليد التي انفصلت من شواطئ القارات وظلت هائمة في المحيطات حتى ذابت فسقطت تلك الحجارة إلى القاع .

وأثبتت البعثة أيضاً أن قاع المحيط ليس مستوياً دائماً ، بل تتوره جبال وهضاب وأخاديد أو أخوار عميقة ، وأقصى عمق سجلته البعثة بالطريقة التقليدية التي اتبعتها في قياس الأعماق هو ٤٧٥٠ قدم (١) وذلك في جنانق على القاع بجوار جزر ماريانا في المحيط الهادى ، كما رسمت البعثة كثيراً من خطوط الأعماق المتساوية للمحيطات .

وأما عن أنواع الحيوانات الجديدة التي وصفها البعثة من الأعماق المختلفة فقد بلغت ٤٧١٧ نوعاً جديداً وهي بذلك تكون قد ساهمت مساهمة فعالة في الكشف عن أنواع جديدة من الأحياء على كوكب الأرض لم تكن معروفة من قبل . وتنتمى هذه الأنواع التي جمعتها البعثة من بين السطح وأعماق وصلت إلى نحو ٤٥٠٠ قدم إلى قبائل وفصائل مختلفة من أقسام عالم الحيوان مثل القشريات ونجوم البحر وقنابد البحر وخيار البحر والأصداف ، ومنها أنواع من القاع العميق لا مثيل لها اليوم على ظهر الأرض بين الكائنات الحية وأقرب أشباهها يوجد في الحفريات التي انقرضت من ملايين السنين . وبذلك تكون البعثة

(١) القائمة ١٥٨٢ مترأ وأقصى عمق سجل في المحيطات إلى اليوم هو ١١٠٥٠ مترأ وسجلته سفينة الأبحاث السوفيتية «فيتياز» صيف عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٩٥ لم يكن معروفاً في جميع المحيطات سوى ٥٥٠٠ بقعة يربو عمقها على ٥٥٠٠ متر . ويرجع الفضل اليوم إلى جهاز سبر الأعماق بصدى الصوت المعروف «بالاكوسوندر» في مسح قيعان المحيطات بدقة .

قد نقلت منطقة «الاحياء» التي كان «فوربس» قد حددها بنحو ٦٠٠ متر من قبل إلى نحو ٨٥٠٠ متر على الأقل . .

كما دحضت البعثة بعض المعتقدات القديمة التي ظلت كحقائق ثابتة لزمان طويل ، ومنها فكرة وجود قارة مغمورة تحت سطح الماء هي قارة اطلانتيس التي ظلت حية في الأذهان منذ عهد اليونان القدامى . وكذلك فكرة وجود أصل الحياة على قيعان المحيطات على شكل «أميبا ضخمة» ، هي «أميبا الأعماق» . وكان أول ما نادى بها العالم الألمانى ارنست هيكل ، وقد أثبتت البعثة أنها مادة جيوية لا أثر فيها للبروتوبلازم أو مادة الحياة .

ويرجع الفضل لبعثة المتحدية (تشانجر) أيضاً في عمل أول دراسة مفصلة للحاجز المرجاني الأعظم وحيواناته ، وكذلك في وضع أسس التوزيع الجغرافي للأحياء البحرية على نطاق واسع . ومن وجهة نظر الملاحة استطاعت البعثة أن تدرس الكثير عن التيارات البحرية والمناخ كما اكتشفت جزراً جديدة وضحتها على الخرائط .

ويرى كثير من العلماء أن موسوعة بعثة المتحدية العلمية التي دونت فيها نتائج الرحلة هي بمثابة «الكتاب المقدس لأعماق البحر» .

ولا غرو والحال كذلك أن جعل هؤلاء العلماء تاريخ هذه البعثة بمثابة بداية لعلم جديد هو علم البحار والمحيطات الذي يطلق عليه اسم «الاقيانوغرافيا» أو «الاقيانولوجيا» .

ولذا كان الأمر كذلك فإن لهذه البعثة الفضل أيضاً فيما وصل إليه هذا العلم في وقتنا الحاضر من تقدم . فقد دفعت عجلة البحث العلمى في هذا المجال خطوات كبيرة إلى الأمام ، وشجعت بعثات أخرى على ارتياد أعماق المحيطات ، مزودة بمراكب حديثة وأجهزة

جديدة وآلات الكترونية تجمع الأرصاد وتحصى النتائج ، بل وتمكن الإنسان نفسه مؤخراً من ارتياد أعماق بقعة في المحيطات وهو بداخل غواصة صغيرة يرى من خلال نافذتها الزجاجية ما لا عين رأت من قبل من أسرار القاع العميق ، بل واكتشف الإنسان مؤخراً أن هذا العالم الصامت الذي طالما أبدع الشعراء في وصفه لم يعد عالمًا صامتاً بعد اليوم ، بل يعج بمختلف الأصوات والنغمات من جميع الطبقات . ويكفى أن نعلم أن في وقتنا الحاضر تجوب أكثر من خمسين سفينة علمية بحار العالم ومحيطاته في كل يوم وليلة .

ونختتم هذا المقال بفقرات من كلام السير ويفيل طومسن من كتابه آنف الذكر وفيها وصف ممتع لظاهرة السراب الذي شاهده على سواحل نوفا سكوتيا ونيوفوندلاند وعنه يقول :

« أشرفنا على هاليفاكس صبيحة التاسع من شهر مايو وكان الجو صحوًا ساكنًا لا يبدد صفوه سوى

ضباب خفيف . وما إن توغلنا بالسفينة في الخليج حتى فوجئنا بسراب مخيف لم نعهده من قبل ، اختلطت علينا فيه صور البحر والأرض والسماء بحيث أصبح من المتعذر على الراى أن يفرق بينها . وتجردت المعالم على الشاطئ من أبعادها الحقيقية ، فبدت الأكواخ البيضاء كالأعمدة أو المنارات العظيمة ، بينما خيل إلينا أن جميع الجزر الصخرية المنخفضة قد توجت بالعمارات والأبراج وظهرت لنا على الأفق جزر جديدة لا محل لها في الواقع على الخرائط ، وبدت كأنما تشكل نهاية الأفق وما لبثت أن تبددت كالأشباح رويداً رويداً كلما أطال المرء النظر إليها . .

أما القوارب الخفيفة التي عمت شطر الشاطئ فقد بدت هي الأخرى كأنما شدت إلى السماء وارتفعت على قوائم فوق البحر بينما علتها صورها المقلوبة التي بدت في الواقع أوضح من الأصل . وكأن هذه الصور قد طبعت فوق أرضية ناعمة من الضباب الرمادي .



الشاهنامة للفردوسي

بمستم
الدكتور مجي الخشاب

- ١ -

دولة فارسية داخل دولته ، فقد تبع ذلك قيام دويلات منها القوية والضعيفة ، الصفارية والسامانية والعلوية والزيارية والبويهية ، وكلها فارسية . ثم جاءت دولتان تركيتان ، الغزنوية والسلجوقية . واستتب قيام الدويلات الفارسية لإحياء الروح الفارسي والحنين إلى إحياء اللغة الفهلوية في صورتها الإسلامية الحديثة لتكون لغة للعلم والأدب والديوان ، ومن هذا الاتجاه الفارسي كان عزم الفردوسي على أن يتفرغ لينظم الشاهنامة . ولم يكن قيام الدويلات التركية ليقف معارضاً لهذا التيار فكثير من وزراء السلاطين الأتراك كانوا فرساً وكانت أمنيته تشجيع الأدب الفارسي واستخدام اللغة الفارسية في أعمال الديوان .

• • •

اختلف الكتاب في اسم القرية التي ولد بها الفردوسي ذهب البعض إلى أنها شاداب (دولتشاه) وذهب آخر إلى أنها رزان (مقدمة بايستر) وذهب العروضي صاحب « جهار مقاله » - وقد زار طوس بعد وفاة الفردوسي بحوالى مائة سنة - إلى أنه ولد في قرية باز من ناحية الطابران . ويأخذ الكتاب المحدثون برأى العروضي في هذا . واختلف الكتاب أيضاً في اسم الفردوسي ،

الفردوسي هو أكبر شعراء القرن الخامس الهجري وأحد الشعراء الفرس العظام . نظم الشاهنامة فبلغ الأوج في نظمه ، وهي الملحمة الفارسية التي تصور القصص الإيراني القديم كما تعطي صورة تاريخية صادقة لكثير من جوانب الحياة في العصر الساساني الذي سبق الفتح العربي لبلاد الفرس . ثم إنه نظم « يوسف وزليخة » متجهاً في نظمه القصة نحو الأدب الإسلامي الخالص .

عنى كتاب السير وأدباء الفرس بالفردوسي وحاكوا حول حياته الكثير . من القصص حتى أن استخلاص حقيقة حياة الرجل من هذه القصص المختلفة أصبح أمراً لا جدوى منه ، وإنما على الباحث أن يقرأ كتابي الفردوسي ، الشاهنامة وقصة يوسف وزليخة ، للتعرف على حياة الشاعر الذي كرس حياته للنظم والذي حرص أشد الحرص على أن ينظم الكتاب الإيراني المعروف في الفهلوية باسم خدای نامه والذي يعد أعظم أثر أدبي باللغة الفارسية .

والفردوسي حين قام بهذا العمل الأدبي الكبير إنما كان يعمل على إحياء القومية الإيرانية التي بعثها المأمون (١٩٨ / ٨١٣) حين أذن بقيام الدولة الطاهرية ، أول

منصور أو حسن أو أحمد . أما كنيته « أبو القاسم »
فيتفقون عليها . وكذلك يتفقون على لقبه الشعري
« الفردوسى » ، وفي طوس بستان يعرف باسم الفردوس
ولعله ينسب إلى هذا البستان .

ويذهب العروضى إلى أن الفردوسى كان من دهاقين
(أصحاب الضياع) طوس . ويؤيد هذا قوله في الشاهنامه .
ولم يذكر كتاب التذكار تاريخ ميلاد الفردوسى .
ولكن يتبين من بعض أشعاره في الشاهنامه ما يرجح
هذا التاريخ . فهو يقول إنه فرغ من آخر فصل في
كتابه في اليوم الخامس والعشرين من شهر اسفندرامز ،
وكان قد مضى على الهجرة أربعائة سنة ، وكان عمره
في ذلك التاريخ قد اقترب من الثمانين .

ومن هذا يتضح أنه فرغ من الشاهنامه في ٢٥
فبراير عام ١٠١٠ (٥٤٠٠ هـ) . فإذا ذهبنا إلى أنه كان
في السادسة والسبعين أو السابعة والسبعين حينذاك فإن
مولده قد يكون بين سنتي ٣٢٠ / ٩٣١ و ٣٢٣ / ٩٣٤ .
وفي الشاهنامه نصوص أخرى قد تغير هذا
التاريخ قليلا ، ذلك أن الفردوسى يذكر السنوات
بالتقريب لا بالتحديد . وقد أخذ الإيرانيون ، حين
احتفلوا بالعيد الألفى للفردوسى ، بهذا التاريخ الأخير
وعلى أساسه أقاموا حفلهم الذى مثل مصر فيه الأستاذان
الراحلان عزام والعبادى . في هذا الاحتفال قال المغفور
له السيد فروغى « إن الخلاف على تاريخ مولد الفردوسى
ليس أمراً هاماً فإن الخلاف في سنتين من ألف سنة
لا يقدم ولا يؤخر شيئاً فإذا قلنا إن مدى الخلاف خمس
سنوات فليس هذا شيئاً لأن المهم هو إحياء ذكرى
الفردوسى » . وأقيم العيد الألفى للفردوسى في يناير
سنة ١٩٣٤ .

ويبدو أن الشاعر كان يعيش في صباه من غلات
ضبعته ، وأنه كان حريصاً على رى ضبعته رباً معتدلاً
بحيث لا يفرقها الماء إذا فاضت القناة ولا يحرقها الجفاف
إذا امتنع الماء . بهذا يتحدث في الشاهنامه .

وعرف شاعرنا العربية معرفة جيدة وعرف
الفهلوية معرفة جيدة كذلك . وكانت درايته بتاريخ
إيران دراية عميقة شاملة . أما العربية فهى لغة الثقافة
في ذلك العصر ، ومهما يكن من ظهور النزعة الفارسية
 والاتجاه إلى إحياء اللغة الفارسية فإن لغة القرآن لم يهمل
أمرها . وقد كتب العلماء حينذاك باللغتين العربية
والفارسية ومنهم من كان يكتب الكتاب نفسه باللغتين
جميعاً . كتب ابن سينا والغزالي والرازى وغيرهم
باللغتين ومن هنا عرف أن الحضارة العربية الإسلامية
تقوم على العربية والفارسية . والفردوسى نفسه حين
سَم سِر الملوك في إيران اتجه إلى القرآن الكريم يأخذ
منه سورة يوسف لينظم قصة دينية فيها الدليل على إتقانه
اللغة العربية . ولا خلاف بين الكتاب على معرفة
الفردوسى للغة العربية إنما الخلاف على معرفته اللغة
الفهلوية . تولدكه يرى أنه لم يكن يعرفها . أما عزام
وماسيه فيذهبان إلى أنه كان يعرف هذه اللغة ، ونحن
معهما في هذا . فالفردوسى في قصة « بيزن و منزه »
يقول إن صاحبه حدثه بقوله : « إن كنت لا تنام فاصنع
إلى حتى أقرأ عليك من الكتاب الفهلوى قصة لتنظمها »
و « كان يقرأ وأنا أنظم » . ويقول « فإن كنت تجهل
الفهلوية فاعلم أن أروند هو دجلة عند العرب » . و « أن
ورز رود هو ما وراء النهر عند العرب » . ويفسر كلمة
بيوراسب - وهى لقب الضحاك - بأن بيور في
الفهلوية هى ده هزار في الفارسية (عشرة آلاف في
العربية) . ويقول إن بيت المقدس يسمى بالفهلوية
كنك دز هوخت . وهكذا .

ويذكر حوفى في « لباب الألباب » شعراً للفردوسى
يقول فيه إنه اجتهد كثيراً وقرأ كثيراً بالعربية والفهلوية .
وإذا كان مصدر الشاهنامه « الخديانامه » قد عرف
عنه الكثير باللغتين العربية والفارسية قبل الفردوسى فإنه
من غير المحتمل أن يتم نظم الكتاب كله مما عرف من

أجزائه التي نقلت إلى العربية أو الفارسية . إنما المحتمل أن يكون لدى الفردوسي هذه الترجمات الجزئية بالعربية والترجمة الفارسية له ثم النص الفهلوي أيضاً . إلى هذا الرأي الأخير اتجه فون روزن في بحثه الأخير عن التراجم العربية لخداي نامه . وقد انتهى فون روزن إلى أن ترجمة ابن المقفع ، وهي أولى ترجمات الخداينامه ، تلتها ترجمات منها ما كان نقلاً صادقاً عن النص الفهلوي كالذي عمله محمد بن الجهم البرمكي وزادويه بن شاهويه الإصفهاني ، ومنها ما كان تأليفاً عن طريق الترجمة كالذي عمله محمد بن مطيار الإصفهاني وهشام بن قاسم الإصفهاني ، وقد استعان هذان الكاتبان بنصوص فهلوية من كتب أخرى ، ومنها ما كان تصنيفاً عن طريق الترجمة كالذي عمله موسى بن عيسى الكسروي والموبد بهرام بن مردانشاه ، وقد أضافا روايات من نصوص أخرى أو مما سمعاه من الموابذة والدهاقين . ويذكر حمزه الإصفهاني في تاريخه أن الموبد بهرام راجع نيفاً وعشرين من الترجمات العربية لخداي نامه وأن الكسروي لم يجد نصين متفقين من هذه الترجمات .

وتتفق المقدمتان المبكرتان للشاهنامه على أن « أبو منصور المعمرى » ترجم إلى الفارسية - عن الفهلوية - كتاب خداينامه الذي كتبه دانشور وذلك بأمر من « أبو منصور بن عبد الرازق » وإلى طوس في العهد الساماني حوالي سنة ٣٤٧ / ٩٥٧ . وقد ساعد المعمرى في ترجمته أربعة من الفرس هم : تاج الخراساني ، يزدان داد بن شاپور ، ماهويه بن خورشيد ، شادان ابن برزق . ومهما يكن من أمر رواية المقدمتين فإن عزام وماسيه يلاحظان أن الفردوسي ذكر شادان بن برزق في أول قصة كليله ودمنة كأنه الذي حدثه بهذه القصة . ويقول عزام ، نقلاً عن تولدكه ، أن شاهوى الذى يذكره الفردوسي راوياً في مفتتح قصة وضع الشطرنج قد يكون تحريف ماهويه أحد الأربعة المترجمين ، وأن

ماخ مرزبان هراة الذى يروى الفردوسي عنه سيرة هرمز بن أنوشروان يمكن أن يكون هو تاج أحد هؤلاء الأربعة . ولاحظ عزام أن الأربعة الذين ترجموا الكتاب كانوا مجوساً « ولم يكن غير المجوس إذ ذاك يعنى بالفهلوية ويجيد قراءتها » ، ولستأ نوافقه على هذا الرأي فإن إسلام الرجل لا يحول دون حبه لثقافة أمته ، وأسماء المترجمين الذين ذكرهم حمزة الإصفهاني والبيروني والبلعمي وغيرهم تدل على أنهم كانوا مسلمين . ولكن قد يكون من هؤلاء المترجمين الذين قصدهم أستاذنا عزام مجوس . أما ماسيه فيرى أن هؤلاء الأربعة إيرانيون من الولايات الشرقية ، فهم من هراة وسيستان ونيسابور وطوس .

من هذا يتبين أن آثار الفرس وقصصهم كانت معروفة باللغتين العربية والفارسية وأن الفردوسي كان لديه هذه التراجم ، أو بعضها ، وكان لديه النص الفهلوي أيضاً .

• • •

عهد نوح بن منصور الساماني إلى شاعر شاب ذاع صيته في الشعر الفارسي حينذاك - القرن الرابع الهجري - اسمه الديققي (أبو منصور محمد بن أحمد) بأن ينظم الشاهنامه فبدأ بنظم قصة كشتاسب الذى ظهرت رسالة زردشت في عهده والذى خصصته الأوستا (الأيستاق) بفصل تضمن تصح زردشت له بالإيمان بالدين الجديد ودخول هذا الملك في الزردشتية .

نظم الديققي ألف بيت من هذه القصة وحال الموت دون مضيه في نظم الكتاب ، يقول الفردوسي « ولكن سوء الخلق كان خلدن شابيه ، فكان يقطع أوقاته بالبصالة وصحبة الأشرار حتى بغته الموت فتوجه بثاجه الأسود . لقد سلط الخلق الدمع على الروح الجميل ، وما نعم يوماً بالحياة . ثم انقلب به جده فقتله أحد عبيده » . ويعبر الفردوسي عن ترحيب الفرس بالديققي

في نظم الشاهنامه قائلا : « قال الدقيقي سأنظم هذا الكتاب
ففرح الناس به أي فرح » .

• • •

وعزم الفردوسي على نظم الكتاب فإن ما لقيته
قصص الأبطال من ترحيب الفرس شجعه على المضي
فيما أتحق فيه سلفه الدقيقي . « ورغبت في الحصول على
كتاب خدای نامه كي أنقله إلى لغتي وكمن من رجل
سألت عن الكتاب دون جدوى ، وكنت أعتشى مر
الزمان وقصر الأجل فأتركه لغيري ، ثم ما آمل من
ورائه من مجد قد يذهب سدى ، وقد لا أبجد العظيم
الذي يثبني بصلة على قد ما بذلت من جهد ، فإن الدنيا
تعج بالخلف والزمن غير موات لمن ينشدون حسن
الثواب . ومضى زمان لم أفض فيه لأحد بمكنون صدرى
فلن لم أبجد من هو جدير بأن أحدثه بسرى . . ثم كان
الصديق الأمين الذي هو قطعة من نفسى فكاشفته
بالأمر فقال : إنها فكرة حسنة وسوف تسعد بها .
سأتيك بالكتاب الفهلوى (الفهلوى) فامض قدماً
ولا تتوان . إن لك موهبة النظم . وإنك على سبك قصص
الأبطال قادر . قص على الناس من جديد حوادث هذا
الكتاب بقدرك أصحاب السلطان وتنازل الجزاء الذي
تبغى » . وجاءه صاحبه بالكتاب فاعلم أن الفردوسي إلى
أن الطريق بدأ يفتح لتحقيق رسالته .

كان الفردوسي قد بلغ حوالى الأربعين من العمر
حين بدأ ينظم الشاهنامه ، وكان عليه أن يتفرغ للنظم
والقراءة والاستماع إلى قصص شيوخ الموازنة أو غيرهم
من يعون قصص إيران في صدورهم . كان عليه إذن
أن يترك ضيعته فلا يفلحها بنفسه فإن الفلاحة والأدب
لا يجتمعان . ويتاح له أمير ذكى من فرية الأبطال ،
له دراية بالشعر وله ولع بأن يرى أجداد أمته منظومة في
سفر باللغة الحديثة ، هذا الأمير هو والى طوس
« أبو منصور محمد » الذى يتعهد الفردوسي ويهيئ له

من أسباب الحياة ما يجعله فى غنى عن سؤال غيره ،
« ورعافى رعاية حسنة ولم يكن شئ » يكدر صفو حياتى
حتى لقد رقيت من أرضنا الدنيا إلى السموات العلى
بفضل ما غمرنى به من المال ، فقد كان يرى الذهب
والفضة لا يساويان أكثر مما يساوى التراب » :

وأخذ الشاعر فى المضي فى النظم ، وأخذ الناس
يتناقلون ما نظم من قصص وأصبح الفردوسي ذائع
الصيت فى كل مكان حتى أنه هداً نفساً إذ أصبح من
الخالدين .

واغتيل الأمير « أبو منصور » حاميه وراعيه ،
وكاد النور الذى يضى له حياته أن ينطفئ لولا أن قبض
الله له حى (حسين) بن قتيبة والى خراج طوس الذى
لم يكن يتلقى شعر الفردوسي دون أن يبعث له بعهاء
جزيل « وهو الذى أعطانى الغذاء والكساء وذهب لى
الذهب والفضة فكنت أدفع ما على من الخراج دون
مشقة وعشت فى رغد وهناء » .

ولم تكن الحياة السياسية مستقرة لآل سامان ،
وبدأت القبائل التركية تتطلع إلى الحكم ، والقصة الأثرية
التي تصورها الشاهنامه للحرب بين توران وإيران بدأت
جليه وقد اقترب الفردوسي من الفراغ من كتابه .
وعلائم الإبداء بادية على الدولة السامانية التي احتفى في
ظل حكامها وعلائم الإقبال بدت واضحة للتورانيين
الذين كانوا أمراء للجند السامانيين . ففي ٣٥١ / ٩٦٢
يظهر الب تكين التركي فى غزنة . وفى ٣٩٠ / ٩٩٩
يستولى الب على غور وخراسان ، وتأخذ الدولة
الإيلخانية ما وراء النهر . وهذه الأحداث تؤثر أشد
التأثير فى حياة الشاعر الذى تخلى عنه الأمراء الذين
ساندوه ، واضطر أن يعتمد على غلات ضيعته مرة
أخرى ، والنظرة السوداء سيطرت على رؤيته للأشياء ،
وجاء ضيقاً على إيالة سقوط الثلج الذى أتلّف الزرع
وأحبال الحياة إلى موات . « وتجمع السحاب وأظلم

الذى يدل فيها ، فقد قبول عمله المجيد بالصد وتكران
الجميل « بلغت الخامسة والستين وإن روحى قلق
كثير . وأشعر أنى كلما مضيت أبحث فى سير الملوك
يتوقف عن السير نجمى وبأفل . كم من عظيم بلغ الأوج
فى نفسه وعلمه بفضل كتابى وكم من حاكم اشتهر
بكلامى . كلهم يستنسخ شعرى بالحنان وأنا فى مكان
قصى أنظر وأرى . إنهم يحسبوننى أجيراً مرتزقاً فى
أسرم . لست ألقى منهم غير « أحسنت » ولقد خارت
قواى مع هذا الثناء الرخيص ، أما خزانهم العامة
فوصدة أمام قلبى الكبير . »

بعض مخطوطات الشاهنامه تذكر أن الفردوسى
أتمها فى هذه الظروف الحزينة سنة ٣٨٤ / ٩٩٤ ،
والبندارى مترجم الشاهنامه للعربية (٦٢٠ / ١٢٢٣ -
٦٢٤ / ١٢٢٧) من هذا رأى . ويرى مناسيه أنه يمكن
القول بأن الفردوسى أتم فى « هذا التاريخ كتابته الأولى
للشاهنامه ، ثم إنه استكمل ما فاتة فى الكتابة الأولى
وفرغ من هذا كله سنة ٤٠٠ / ١٠١٠ .
ويذكر الفردوسى فى مقدمة « يوسف وزليخة »
أنه مل ذكر الملوك .

وضاقت خراسان فى وجه الشاعر ولم ير بداً من
التفكير فى الهجرة إلى العراق . وكان من الطبيعى أن
يفكر الفردوسى فى الدولة البويهية ، فأمرأوها فرس
يحبون إحياء التراث الفارسى وهم شيعة وهوى الفردوسى
معهم . ثم إن دولتهم تمتد إلى الغرب والجنوب من فارس
فهى بعيدة عن خراسان . ومهما يكن من أمر
الخصومات بين أمراء البويهيين فلأنها أقل خطراً من فتن
خراسان . وسار الفردوسى إلى مدينة الرى (من نواحي
طهران) ليتوجه منها إلى إصفهان ثم إلى إقليم الأهواز .
كان أمير البويهيين حينذاك « بهاء الدولة أبو منصور
فيروز » (٣٧٩ - ٤٠٣) ، وكان من رجاله الموفق

القمر وهطل الثلج من السحاب الأسود فلا ترى نهراً
ولا سهلاً ولا جبلاً ولست بقادر على رؤية جناح الغراب
ولم يبق لى من زاد أطعمه أو وقود أصطل بناره ، وعلى
أن أنتظر الموسم القادم للشعر . فى هذه الأيام التى أظلم
نهارها ، وفى حالة الفزع الذى ينتابنى مما على من
الخروج ، وبينما كسا الثلج الأرض فكانها جبل من
العاج ، كسدت بضاعتى والأمل معلق بصديق يأتى
لنجدنى ؟ »

كانت هذه حالة الفردوسى وهو فى الثامنة
والخمين من عمره ، وتحمل الأديب مشاق الحياة ،
حاملاً العسر على اليسر ، ولكنه حين قارب الخامسة
والستين أوجعه ريب المنون فقد مات ولده وكان فى
السابعة والثلاثين . وبكى الشيخ ولده وزهد من بعده فى
المجد الذى كان يرتقب وأصبحت الدنيا لديه لا تساوى
شيئاً ، لقد هذه الحزن وأحس بأنه لاحق مستتبع .
« لقد كانت نوبتى فى الرحيل ولكن ولدى الشاب ارتحل
فخلف لى الحزن الذى أحوالى جسداً بغير روح . لى
أحث خطاى حساى أن ألقى به ، لى معه حين ألقاه
عتاب رقيق : لقد كانت التوبة نوبتى فى الرحيل فلم
ارتحلت يا بنى دون إذن منى ورضا وحرمتنى راحة
البقاء . لقد كنت لى الفرج عند الشدة فما الذى حملك على
أن تسلك طريقاً غير طريق صاحبك الشيخ الكبير .
ألقيت فى الشباب رفاقاً فأثرتهم على ومضيت وخلفتنى
وحدى » .

« إنه حين بلغ السابعة والثلاثين لم تعجبه هذه الدنيا
فغادرها . . غادرها وقد ترك لى الحزن والقهر وأغرق
فى الدم عني . إنه الآن فى عالم النور وسيختار لأبيه
مكاناً يقربه فيه . لقد انقضى زمن طويل ولم يعد أحد
من رفاقه فى الطريق ، لعله ينتظرنى ويود أن ألقى به .
والشاهنامه التى كبرت ونمت وكادت تم والى
كانت رسالة يعمل لها أصبحت شيئاً لا يستحق الجهد

(أبو علي حسن بن محمد بن إسماعيل الإسكافي) الذي
حدث الفردوسي على نظم « يوسف وزليخة » وذلك بين
سنتي ٣٨٠ / ٩٩٠ و ٣٨٦ / ٩٩٦ . وأشرقت آمال
الشاعر من جديد . فإنه قد يظفر برضا « ملك الإسلام »
وحسبه أن يظفر بإحدى مراتب حاشية بهاء الدولة إذا
ما تقبل شعره قبولاً حسناً .

هكذا يصف المؤرخون والشاعر نفسه إقامته في
العراق وإلى من كتب يوسف وزليخة . وهناك رواية
أخرى تقول إن الشاعر في أواخر حياته سار إلى بغداد
حيث طلب إليه الخليفة أن يكفر عن نظمه مجد إيران
المزدية بنظم قصة مستمدة من القرآن . وعندنا أن هذه
الرواية وضعت رداً على توهم بعض الكتاب أن الشاهنامه
قامت على أساس من الشعبية ومحاولة رد الشاعر إلى
الطريق المستقيم . والحق أن الشاهنامه عمل فني رائع
قصد به إحياء تراث إنساني عظيم حرص العرب على
إخراجه باللغة العربية قبل أن يحرص الفرس على إخراجه
نثراً أو نظماً بالفارسية الحديثة . وأمهات الكتب العربية
ملينة بالكثير من الأخبار الواردة في الشاهنامه . وإحياء
النص العربي للشاهنامه : ترجمة البنداري ، كان أول
رسالة للدكتوراه قدمت إلى الجامعة المصرية (جامعة
القاهرة) . والنظر إلى الشاهنامه على أنها وليدة عصبية
معينة يتجافى مع ما لهذا الأثر الخالد من قيمة فنية لا مراء
فيها . وينفى ماسيه رواية توجيه الخليفة للفردوسي لينظم
قصة من القرآن .

أرضت قصة « يوسف وزليخة » الأوساط الدينية
ولكنها لم تستطع أن تعلق على الشاهنامه وتنال شهرتها
وذيوها . وكان الفردوسي ينشد الأمان والسلام في
العراق ولكنه وجد الأحوال فيه تتبدل . والموفق :
الذي عاونه وهياً له سبيل الاتصال بالأمير البويهى ،
يفقد مكانته عند الأمير الذي يأمر بإلقاء القبض عليه .
 ويفقد الشاعر مكانته أيضاً ويفكر في الانتقال إلى

إصفهان ثم إلى موطنه ، طوس ، حيث كانت الدولة
في يد محمود الغزنوى .

لم يكن قد مضى وقت طويل على وفاة الصاحب بن
عباد الذي كان من وزراء البويهيين ، والذي شجع
الشعراء والكتاب . وكانت سيرة الصاحب سنة متبعة
من بعده ، ولعل الفردوسي أراد أن يحظى في خان
لنجان — من ضواحي إصفهان — بعطف الحاكم الذي
قد يحقق له بعض الرجاء ..

جاء في مخطوطين للشاهنامه أبيات تقول بارتحال
الفردوسي إلى إصفهان وتصوره وقد بلغ خان لنجان
معلماً لا يقدر على شيء فيأخذ به الحاكم ويكسوه
ويطمعه . ولكن رجل سوء يسعى بالشر ، كالجار ،
بينه وبين الحاكم ويخاف الفردوسي أن يتغير قلب
الحاكم عليه . ويحدث أن يخرج الشاعر في رحلة
معه في نهر « زرين رود » ويقع الفردوسي من القارب
ويكاد يغرق فيشمر الحاكم ويجذبه من شعره وينقذه
ويرده سالماً إلى السفينة ويبدى الفرح بنجاته فيهب
الفقراء ذبيحة فداء له .

ويختلف الكتاب في نسبة هذه الأبيات للفردوسي .
يرى قروغى أنها متحلة فهي ثم عن أسلوب أحد
النساخ المتأخرين . ويرى تقي زاده أنها صحيحة وكان
نولدكه وشيفر يريان صحتها كذلك . ونحن نؤيد نسبة
الأبيات للفردوسي .

ويخرج الفردوسي من إصفهان قاصداً خراسان ،
طوس ، حيث الدولة التركية : الغزنوية ، قد استقر
لسلطاتها محمود الأمر في المشرق الإسلامي . ترى هل
يريد الشاعر الذي بلغ من الكبر عتياً والذي يصف
نفسه « بأن دوحه شبابه ذبلت » وظاهر إهابه تغضن ،
وألف قامته بعد الاعتدال صارت كالدال ، وعقد
لآلئ أسنانه آذن بالانسلال والانحلال » هل يريد أن
يعود لوطنه حينئذ إليه ؟ أم أن بلاط السلطان محمود قد

استهواه وجذبه إليه . يصور العروضي في جهازه مقالته كيف كان محمود يجمع أهل الأدب والعلم في بلاطه ورسالته لخوارزمشاه معروفة ومعروف أن ابن سينا رفض التوجه إليه . ويصور العتيبي في تاريخه أن وزير السلطان : « أبو العباس الفضل بن أحمد » كان يؤثر اللغة الفارسية ويستخدمها في الدواوين والرسائل وأن العربية في عهده أهمل شأنها « حتى كسدت سوق البيان وبارت بضاعة الإجابة والإحسان » ، فمن الطبيعي أن يلقى الشاعر الذي نظم الشاهنامه بألفاظ تكاد تكون قاصرة على الفارسية عطف هذا الوزير الذي قد يتيح له فرصة القربى من السلطان محمود . مهما يكن فإن الفردوسي سار إلى طوس وفي نيته تقديم كتابه لسلطان الدولة الجديدة التي أدالت من السامانيين . وما أيسر أن يسطر الشاعر أبيات الشعر في مقدمة كتابه وفي ثناياه وخاتمته ، يقول « ما عرف الناس مثل هذا الملك من خلق الله العالم . لقد لاح تاجه على العرش فازدانت الأرض كأنها قطعة من العاج وضياء . كلا لا تجعل الشمس المضيئة مثلاً له ، فمحمود قد وضع على تاج الشمس عرشه . . وقد طلع نجمي به وكان غارباً ، وفاض معين الفكر وكان ناضباً . . » .

وفي طوس لبث بعض الوقت ، لعله كان يكتب مدائح محمود ويوجه النصائح له في ثنايا كتابه ، وفيها لقي أخا محمود حاكم خراسان « الأمير نصر » كما لقي الحاجب أرسلان الجاذب ، والفردوسي يحفظ لها حسن لقائه .

ويذكر العروضي في جهازه مقالته أن رجلين عاونا الفردوسي في هذه الفترة هما « علي الديلمي » الذي كتب الشاهنامه في سبعة مجلدات و « أبو دلف » الذي كان ينشدها . ومع هذين الصديقين توجه الفردوسي إلى غزنة ، إلى حضرة السلطان محمود ، وإلى وزيره « الفضل بن أحمد » الذي يحب اللغة الفارسية ويؤثرها

في أعمال الديوان . هو إذن يسير قاصداً « محمود » الملك الشجاع الأصيل ، الذي يقرب على الغير يرثي الأسد . ملك العالم - محمود - مسعر الهيجاء ، وناثر رؤوس الأبطال على الغبراء ، وقاصداً « الفرائش المبسوط على الزمان » الذي لا بطويه الحدثنان ، مكان السرير من ذلك البساط الممهد ، مجلس « الفضل بن أحمد » الذي نشر في المملكة الطمأنينة ، وأوحى إلى الكبراء العقل والسكينة . ما ظفرت الملوك بمثله وزيراً ، حزمياً وجوداً ورأياً مثلاً ، طاهر اليد ، فصيح اللسان ، مخلص لله وللسلطان . لقد كشف عن الغم والحزن ذلك الوزير العادل رب الفطن . وهو في سعيه إلى غزنة ينشد « الجواد المفضل الذي لا تضرب دون نواله الأقوال » ، وفي يمينه كتابه « تمر عليه السنين وبتلوه كل حكيم فطين » ، « وطلته قصر أعظم الخطر » ، يهزأ بعصافات الريح والمطر .

ولكن القدر الذي حرم الفردوسي من حماته وورعته يضمن عايه بالإقبال هذه المرة أيضاً وقد أوشك على الثمانين . من قبل اغتيال الأمير « أبو منصور محمد » وإلى طوس ، فلما ذهب للبويهيين وحماه « الموفق » لم يلبث هذا أن غضب عليه السلطان فعزله وقتله . وفي هذه الرحلة الأخيرة يظهر الوزير « الميمندي » وهو أفغاني - من غزنة - وينجح في إقصاء منافسه « الوزير الفضل بن أحمد » ويقتله ، وتعود اللغة العربية لغة الديوان ، ويتوارى إلى حين محبو التراث الفارسي واللغة الفارسية ، وعلى أية حال يتغير الجو بالنسبة للفردوسي ، ويذهب الأمل في أن يكون الكتاب « عوني في الكبر ويمدني بالمال والمجد والصيت الأغر » يذهب هذا الأمل أخرج الرياح . محمود تركي صميم لا يستطيع أن يتذوق ما ذكره الفردوسي من غلبة أبطال إيران على توران ، مهما تكن روعة هذا القصص الإيراني . ومحمود بنى سياسته على التشدد في التسلك بالدين فلا يستطيع أن يجيز الإشادة بالمزدية . والوزير الميمندي يعرف

لشاهنامه قدرها ولكنه لم يكن يستسغ استخدام الفارسية في الأدب وفي الديوان فهو لا يستطيع أن يكافئ الفردوسي المكافأة التي يستحقها صاحب هذا العمل العظيم . ثم إن هذا الوزير جاء على أثر ضائقة مالية هي التي أودت بسلفه وكان السلطان محمود في حاجة إلى المال الكثير لغزواته في الهند فلم يكن في مقدور الميمندى أن يشير بإعطاء الفردوسي صلة تناسب مع قيمة الشاهنامه وهو الحريص على توفير المال للسلطان . وقد رأينا أن الفردوسي ذهب إلى بلاط البويهيين حين رأى ما سبق القضاء على الدولة السامانية من فتن ، فهو إذاً شيعي من طوس ، وهو يلجأ إلى الدولة الشيعية . فهو إذاً شخص غير مرغوب فيه من الدولة الجديدة الغزنوية . ولو أن الميمندى قدر الشاهنامه كعمل فني لا دخل للمذهب الديني فيه فإنه قد يعرض نفسه لمنافسه ولمن يحيطون بالسلطان الذي كان بنفسه حريصاً أشد الحرص على أن يقصى الشيعة من حوله . وقد تعرض رجل من كبار رجال هذا السلطان لسخط خلفه مسعود ولم تكن جريرته تؤدي إلى شتمه لولا أنه أتهم بصلته بالخليفة الفاطمي بالقاهرة . فالتشيع كان أمراً غير مرضي عنه من الغزنويين ، ومن هنا كان الوزير الميمندى غير حريص على مكافأة الفردوسي المكافأة التي يستحقها . والفردوسي لم يذكر الميمندى في الشاهنامه ، فقد كان عازماً على تقديمها للسلطان في عهد وزيره القتيل « الفضل » . يحدثنا العروضي في جهاز مقالته بأن السلطان سأل من حوله كم يعطى الشاعر فقالوا خمسين ألف درهم واستكثروا هذا المال فأرسل السلطان له عشرين ألف درهم . ولا تعد هذه الصلة شيئاً إذا قيس بما كان يبذله محمود للشعراء الذين يمدحونه . وكان « محمود » لم يلتفت إلى الكتاب الذي جمع « تراث الفرس » الذي حرص على إحيائه العرب والفرس جميعاً ، إنما عنى بذكر اسمه في الكتاب فتمثل جوده في هذا المبلغ الضئيل مكافأة على حشر اسمه بين أسماء الأبطال الذين أشاد

بهم الفردوسي في كتابه . وكما فكر ابن سينا في أن يلجأ إلى الزياريين فكر الفردوسي ، وهو الخبير بتاريخ إيران القديم ، في أن يلجأ إلى أمير لا شك في صحة نسبه إلى الساسانيين ، وهو أمير تابع في ذلك الوقت للزياريين (ابن الأثير سنة ٣٨٨) . وشد الشاعر ، وهو ضيق الصدر ، رحاله إلى طبرستان . هناك يحكم رجل من أسرة قارن ، إحدى الأسرات الست القديمة في تاريخ إيران ، اسمه شهریار . والمعروف أن طبرستان — كما يقول « لوسترانج » في « بلدان الخلافة الإسلامية » — هي آخر إقليم إيراني دخل في الإسلام . وأن حكامه الذين حملوا لقب اصهبند (مهابد) ظلوا بعد الفتح العربي لبلادهم يحكمون مستقلين ، لم تقوهم الفهلوية ولم دينهم الزردشتي ، وكانوا كما يقول « كريستنسن » فرعاً من الأسرة المالكة الإيرانية القديمة . وظلت أسرة قارن تتمتع بامتيازها في تحديد سلطة الملك ، وفي التتوج بتاج أصغر من تاج الملك ، في العهد البرقي وكانوا يحملون لقب « پهلو » . وشهریار الذي قصده الفردوسي هو « شهریار بن شروين بن رستم بن سرخاب بن قارن بن شهریار بن شروين بن سرخاب بن مهر مردان بن مهرب » . سار الفردوسي إلى طبرستان التي يظنها جبل دنيوند موطن السيمرغ الذي تبنى زال والد رستم ، وهما البطلان اللذان أشادت بهما الشاهنامه ، لعله يجد عند أميرها ملاذاً بعد أن اقترب من الثمانين وأصبح خالي الوفاض وإن كان بين يديه أعظم كتاب في الأدب الفارسي . ويلتقي بشهریار ويقول : « سأحول هذا الكتاب من اسم محمود إلى اسمك فإن هذا الكتاب كله أخبار أجدادك ومآثرهم » . ولكن شهریار يهدي من روح الشيخ الكبير ، فهو عاطف عليه ، يحب للعمل الرائع الذي قام به ، عازم على أن يمنحه بعض المال ليعينه عوناً ما . خفى على الفردوسي أن الزياريين ، والأمير من أتباعهم ، قد أصبح هواهم مع محمود منذ سنة ١٠١٢ / ٤٠٣ ، ولا يستطيع شهریار أن يأتي بعمل

بغضب « محمود » ، والشاهنامة التي لم يقتلها محمود
لا يستطيع هو أن يبدي إعجابه بها ولا أن يصل الشاعر
بما يتكافأ معها . هو ن على الفردوسي وأكد له « أن
محموداً حمل على هذا وأن الكتاب لم يعرض عليه وأنه
سمى بك » ثم أنت رجل شيعي ، وكل من تولى
آل البيت لم تستقم له أمور الدنيا إذ لم تستقم لم أنفسهم .
وكان الفردوسي قد نظم مائة بيت في هجاء السلطان
محمود فعرض شهریار أن يشتري هذه الأبيات ، كل
بيت بألف درهم ، على أن تبقى الشاهنامة باسم محمود
وعلى أن يحو شهریار أبيات الهجاء . وقبل الفردوسي .
وبعد قراءة مائة عام يذكر العروضي ستة أبيات من
هذا الهجاء تبين مدى غضب الشاعر على محمود الذي
خيب أمله فيه . « لقد قالوا طاعنين : إن هذا المنطوق
شاب على حب النبي وعلى ، ولئن حكيت لم حبي
لأحمن مائة مثل محمود . إن ابن الأمة لا يرجي خيره
ولو كان أبوه ملكاً . حتام أطبل الكلام في هذا ،
وهو كالبحر لا أعرف له قراراً . لم يكن للملك قدرة
على الخير وإلا لرفعني على العرش ، ولم يكن عظيم
الأصل فلم يحسن أن يستمع أسماء العظماء » .

والأرجح أن محموداً لم يسمع هذا الهجاء فلو أنه
لم يسمع وعرف به محمود لما عرف لشهریار حقه فكافأه
ولما استطاع الفردوسي أن يعود إلى بلده طوس
بعد مرأضة شهریار له . ومن المستبعد أن يعيد
الفردوسي سطر هجائه لمحمود بعد أن قبل شراء شهریار
لهذا الهجاء ، وبعد أن وعد ببقاء الشاهنامة باسم محمود ،
وترك مدحه لإياه — وهو في جميع مخطوطاتها — .

وعاد الفردوسي إلى طوس مهد شبابه ، جسداً
محطماً وروحاً حزيناً : « قليل من الناس يتجاوزون السبعين
وأنا أدري أن ليس هؤلاء غير الألم والبكاء على حياة
أبة حياة . لقد مس المرض قدي فافعدني وأذقني فقيهما
وقر . وعدت على السنين وأسلمتني إلى الفقر والعوز » .

ثم يتجه إلى السماء يسألها : « أيها السماوات العلى لماذا
أفترتني في شيخوختي ، لقد كنت سمحة معي في
صباي فلما كبرت تركتني للهوان . . . » .

وفي غزاة كان السلطان محمود قد ندم على سوء
تصرفه مع الفردوسي . هل هي وساطة شهریار الذي
قدم لمحمود بدأ عظيمة وقد عرف له محمود حقه « كما
يقول العروضي ؟ أو هل هو « نصر » وإلى خراسان
الذي تدخل عند أخيه السلطان محمود ليرضى عن
الفردوسي ويقتدر عمله ؟ أو هل هي قصص الشاهنامة
وكان بتغني بها الناس في كل مكان عرفت فيه ؟ كل
هذه الفروض جائزة كما يقول « ماسيه » . وبيروى
العروضي أنه « سمع سنة ٥١٤ في نيسابور من الأمير
معزى أنه سمع من الأمير عبد الرزاق بطوس أن
محموداً كان في الهند مرة ، وبينما هو عائد منها إلى غزاة
عرض له نائر في قلعة حصينة وكان منزل محمود في اليوم
الثاني عند باب هذه القلعة ، فأرسل إليه رسولا أن ائت
غداً وقدم الطاعة . . فلما كان الغد ركب محمود . وبينما
الرئيس الكبير (أحمد بن حسن الميخندي) يسير عن
يمينه إذ عاد الرسول وأقبل شطر السلطان . فقال السلطان
لرئيس الكبير ، ماذا يكون الجواب . فأشد الرئيس
بيت الفردوسي : إن لم يأت الجواب كما أريد فأنا
والجرز والميدان وأفراسياب . قال محمود لمن هذا
البيت الذي تنبعث الشجاعة منه ؟ قال للمسكين
الفردوسي الذي احتمل العناء خمساً وعشرين سنة وآثم
هذا الكتاب وما جنى أية ثمرة . قال محمود : أحسنت
بما ذكرتني فقد آسفني أن أحرم عطائي هذا الرجل
الحر ، ذكرتني في غزاة لأرسل إليه شيئاً . . ثم أمر له
بستين ألف دينار ، يعطاها نيلجا وتحمل على الإبل
السلطانية إلى طوس ويعتذر إليه . ومضت سنون
والرئيس في شغل هذا . . وأخيراً وصل النبلج سالماً
إلى الطابران . (كانت طوس تتألف من المدينتين
التوأمين الطابران ونوقان) .

والمعروف آن الوزير الميمندى عزل سنة ٤١٦ / ١٠٢٥ . وسبق عزله هزات عنيفة لمركزه ، ورغم أخوته فى الرضاة للسلطان محمود ومع ما بلغه من قوة حين أصبح وزيراً ، فإن خصومه كثر عددهم ، وتنجحوا آخر الأمر فى إقصائه وولى مكانه حسنك (أبو على الحسن بن أحمد العباس) .

وبصور سيف الدين حاجى فى كتابه « آثار الوزراء » (منشورات جامعة طهران ١٩٥٨) ما كان من محاولات للإيقاع بالميمندى وقد طالت سنوات قبل عزله . وحسبك هذا شق : كما قلنا ، فى عهد السلطان مسعود بحجة صلته بالخليفة الفاطمى بمصر وكان شقيقه بإيعاز من خليفة بغداد (القائم بأمر الله) . ومن المحتمل إذاً أن الميمندى ، مجارة لميل أقوى خصومه ، رق للفردوسى وعمل على كسب رضا السلطان عنه .

ومهما يكن فإن الشاعر الشيخ المظم يتوفى قبل أن ينال صلة السلطان « فبينما الإبل تدخل من باب رودبار كانت جنازة الفردوسى تخرج من باب رزان » .

أما صلة السلطان فهناك روايتان عنها . واحدة تقول إن الفردوسى خلف بنتاً عظيمة النفس أرادوا أن يسلموا إليها هبة السلطان فأبت : حرصاً منها على كرامة أبيها وإجلالاً للشاهنامة التى أصبحت بعد موت ناظمها فوق الصلوات . قالت « لا حاجة لى إلى هذا المال » ، فعمروا به رباط جاهه فى حدود طوس . والرواية الثانية تقول إن المالك عرض على أخت الفردوسى فأخذته وأنفقتة على إقامة جسر على النهر الذى كان يروى أو يطغى على أرض الفردوسى فحققت لأخيها أملاً طالما تمناه فى أشعاره .

وتلاحق تهمة التشيع جنازة الفردوسى ، يقول العروضى إن واعظ الطبران المتعصب لم يجز حمل جنازة الفردوسى إلى قرافة المسلمين بحجة أنه كان رافضياً وأن الناس أطلوا الحديث إلى هذا الواقع

دون جدوى ، وكان للفردوسى حديقة عند هذه البوابة - اقتناها من صلة شهباز - فدفنوه بها . وزار العروضى قبره فيها سنة ٥١٠ / ١١١٦ .

» » »

أقام أرسلان الجاذب « حاجب طوس من قبل السلطان محمود » قبة على قبر الفردوسى . وهدمت القبة وأعيدت فى عهد المغول . وفى القرن العاشر الهجرى كتب دولتشاه أن قبر الفردوسى معروف بوزره المعجون به . وفى القرن نفسه كتب نور الله الشسترى أن القبر أصبح خراباً كطوس نفسها وأن هدمه كان بأمر من عبيد الله خان الأوزبكي و« أن كثيراً من الناس . وخاصة من الشيعة الإمامية ، يزورون هذا القبر الذى شرفت بزيارته » . (تاريخ بخارى ، فامبرى ، ترجمة الساداقى) .

ورأى سايكس ، صاحب تاريخ إيران : القبر وصوره فى كتابه ، ولا يتبين فى الصورة إلا أحجار منتورة فى العراء .

ومن بلغ شهرة الفردوسى ، وخلف أثره كالشاهنامة ، هو أس التراث فى أمة ، لا يعنيه قبر مشيد ، وكان مولانا الروى يعنيه حين يقول :

« لا تبحث تحت الثرى عن ثرابنا »

فقلوب أحبائنا خير قبورنا »

فى عام ١٩٢٥ تألفت فى طهران جمعية لإحياء ذكرى الفردوسى وتشيد قبر له . وفى سنة ١٩٣٤ احتفلت إيران بمرور ألف عام على الفردوسى وأقامت له قبراً مهيباً حيث دفن ، براه الزائر على مسافة أربعين كيلو متراً من مشهد . مدينة الرضا عليه السلام .

— ٢ —

والشاهنامة ستون ألف بيت بالتقريب ، والمطبوع والمخطوطات تختلف فى العدد . وإذا استثنيت الأبيات الألف التى نظمها الدقيقى وأدخلها الفردوسى فى

ثم الأشكانيين (البرت أو ملوك الطوائف) الذى ينهى
عهدهم اردشير مؤسس الأسرة الساسانية .

والساسانيون حكموا حسب الشاهنامه ، ٥٠١ سنة
وملوكتهم ٢٩ . وفى التاريخ أنهم حكموا ٤٤١ سنة
وملوكتهم ٣٦ ملكاً . وتاريخهم ثابت مما كتب عنهم
سواء عند مؤرخى اليونان أو فى الكتب البهلوية ثم
العربية . وفى هذا القسم الأخير تعتبر الشاهنامه مصدراً
تاريخياً للحضارة الإيرانية بوجه عام .

• • •

تصور الفترة الأولى من الشاهنامه التحول الحضارى
لشعب إيران . فالملك قد اختير على أساس القدرة على
فض المنازعات بين القبائل المتخاصمة أو على الحكم فى
الخلاف بين الأفراد . فهو القاضى الذى يرتضى الناس
حكمه ولذا يجب أن يعرف بالعدل . وهو قريب من
الله وفيه من روحه ولذا فإنه يعبد وهو يفضى بالملك إلى
أبنائه من بعده . والدنيا سكنت بالإنس والجن فكان على
هذا الملك أن يحمى الشعب من الشر الذى يذيعه
الشياطين ، وأن يحارب هذه الشياطين التى تتمثل فى
التين وغيره من الحيوانات الخفية المفسدة . وفى هذه
الفترة اكتشف الملوك وسائل الحياة من الملابس والنار
والزراعة والكتابة وأكل لحم الحيوان . كما قسموا
المجتمع إلى طبقات وأقاموا العاشر ونظموا الجيش .

فالملك هو شئت مثلاً بجنتاز الجبل ذات يوم مع بعض
رجاله فبى ثعباناً ضخماً يتطاير الشر من عينيه وتظلم
الدنيا من حر أنفاسه ، فياخذ حجراً ويلقيه عليه بكل
قوته فاذا الثعبان يجرى ليختبئ ولكن الحجر يقع على
صخرة فتخرج شرارة من تكسرها ويحمر موضع
الشر . وبدأ ظهور النار . وقد دعا الملك الناس إلى
التوجه بالشكر إلى الله لأنه هداهم إلى النار . وفى الليل
أشعل ناراً عظيمة التف حولها مع صحبه وشربوا
الخمر . وسما هذا الاحتفال سده (السدق) .

كتابه : فإنها تكون كلها نتاج شاعر واحد . ولا يبارى
الشاهنامه فى طوعاً كملحمة إلا بعض الملاحم الهندية
ولكن الشاهنامه تمتاز بأنها نظم شاعر واحد

وهى تتناول قصص وتاريخ أربع أسرات :
البيشدادية (أهل العدل) ، الكيانية (كى) ، كاوى
بمعنى الملك) ، الأشكانية ثم الساسانية .
ولم يمتد الشاهنامه إلى الأسرة السلوكية : خلفاء
الإسكندر .

والقصص الذى يروى تاريخ الأسرتين الأولى
والثانية يكاد يكون خرافياً كله . فلوك الأسرة الأولى
عشرة حكموا ٢٤٤١ سنة ، وملوك الأسرة الثانية عشرة
أيضاً حكموا ٧٣٢ سنة .

وقصص الأسرتين موصولة ومتصلة بالأساطير
الهندية إلى عهد لهراسب الذى كان قد ترك الملك وتفرغ
للعباداة ثم جاء الملك التركى ارجاسب وقتله .

بعد لهراسب يأتى عهد كشتاسب ، الذى ظهر فى
أيامه دين زردشت ، وبه تبدأ القصة التاريخية وتكون
أقرب إلى التاريخ ، ويمكن إدخال الدور الأكمنى
(المخامنشى) فى هذا العهد . فكوروش الكبير (الثانى)
هو كيخسرو وقبىز هو كيكاوس وبهم هو
ارت خستر (اردشير الأول - ارتجزرسيس) وهكذا .
والشاهنامه ، على خلاف التاريخ ، تنهى هذه الأسرة
بحكم الإسكندر المقدونى وتجعله ضمن الكيانيين ، فهو
ليس أجنبياً عن إيران حتى بعد غزياً لها إنما هو ابن
داراب ، وداراب هو أخو الملك دارا الثالث الذى
تزوج بنت فيليب ملك الإغريق فأنجبت له الإسكندر
الإيراني .

والأسرة الثالثة ، الأشكانية (دولة البرت) ،
حكمت فى الشاهنامه ٢٠٠ سنة ، ولا تذكر الشاهنامه
أسماء حكامها جميعاً ، وهى تعدم أجناب ولا تعنى
بهم . والتاريخ يذكر ، بعد الإسكندر ، السلوكيين

والملك جمشيد الذي حكم ٧٠٠ سنة استخدم الحديد وأعد منه السيوف والرماح ونسج منه الدروع وعمل الجواشن والتجايف وسائر أدوات الحرب في زمانه . وعرف الملابس من الكتان والإبريسم وعلم الناس كيف يغزل الغزل وينسج . واستحدث الأبنية وشاد المدن . واستخرج الذهب والفضة والياقوت والفيروز فرصع بها المناطق والأساور والعصائب . ثم استخرج الطيب : المسك والكافور والبنبر . وأظهر علوم الطب وخواص الأدوية . وصنع المراكب وجاس بها البحار . وكان يسخر الجن فعمل تحتاً مرصعاً بالجواهر ورتب له حملة منهم فكان يجلس عليه وهم يرفعونه في الهواء ويحملونه إلى حيثما أراد . ووضع عيد النوروز فقد كان حمل الجن لتخته أول يوم في السنة والشمس في برج الحمل فعيد اليوم وسماه النوروز . وقد طفى وله في الحكم ٣٠٠ سنة ونسى ربه فنهاه رجال الدين عن ذلك فلم يأبه لقولهم فكان أن غلبه الضحك وحمله على الحرب ٤٠٠ سنة ثم قده في نهاية الأمر نصفين بمنشور .

والضحك (ازدهاق) وهو بيوراسب (صاحب عشرة آلاف فرس) ، كان أبوه مرداس ملكاً ثقيلاً في الصحراء التي يسكنها الفرسان رماة السهام - العرب - وجاء إبليس إلى الضحك وزين له قتل أبيه ليرقى عرشه فاستجاب لإبليس وقتل أباه . وكان يحب الأكل فتزيا لإبليس في زى طباط وأخذ يهيئ له خير أنواع الطعام ، وكانت الأطعمة المعروضة قليلة عندهم ، فأثر ذلك في نفس الضحك وقرب الطباط منه حتى صار أقرب الناس إليه . وذات يوم قال الضحك للطباط : اقترح حاجة أقضها إليك . فقال الطباط دعني أقبلك بين كتفيك ، فأذن له ، ثم اختفى الطباط فلم يعد يره الملك ، وخرج من كل واحد من كتفيه حية سوداء ، وجاء الأطباء فقطعوا الحيتين فعدتا ، كفصن الشجرة ، من جديد . وتكاثر الأطباء ولم يجد طبهم في اقتلاع

الحيتين . واتخذ إبليس هيئة الطبيب ودخل على الملك فقال له هذا قدر كتب عليك والعلاج أن نطعم الحيتين حتى لا يضح منهما الملك وطعامهما لا يكون إلا من أدمغة البشر . فأخذ الملك برأى الطبيب وقتل ما لا يحصى من الخلق لإطعام الحيتين بأدمغتهم . كان كل ليلة يأمر بقتل رجلين .

وكان لجمشيد طفل هربت به أمه إلى الهندو أحسنت تربيته حتى إذا شب وعرف ما يجربه الضحك من المظالم في إيران أخذ يستعد لتخليص البلاد من شره . والضحك في الوقت نفسه يسرف في السماء ويتبع أخبار هذا الولد - أفريدون - الذي حدثه المنجمون عن أمره ويجمع الضحك العلماء والزهاد من حوله عسى أن يدفع عن نفسه بعونهم . وذات يوم يثور « جاوه » وهو حداد قتل أحد ولديه وجاءت النوبة في اليوم التالي على الابن الثاني . ورفع « جاوه » قطعة الجلد التي يغطي بها قلميه عند تطريق الحديدية المحاة ونادى من ورائه خلق كثيرون بشعار أفريدون الذي اتجه القوم إلى محبته ليأخذوه ويجلسوه على عرش أبيه . ويقود أفريدون الثوار ويهزم الضحك وفي اللحظة التي يريد أن يهوى بجرزه على رأسه كالصاعقة يمثل ملك أمامه ويقول « إن الله يأمر بحد أجل هذا الثعبان حتى يعذب طوال الزمان ، شد وثاقه والقه حبساً فوق جبل دناوند » ، وبهذا انتهى عهد الضحك الذي دام ألف سنة .

وظل علم جاوه « درفش كاويان » علم إيران منذ ذلك الزمان .

• • •

وعيد أفريدون يوم ارتقاه عرش إيران أول يوم من ماه مهر ، وعرف هذا العيد باسم المهرجان .

وكان له ثلاثة أبناء وزوجهم من ثلاث أخوات هن بنات ملك الجن (سرو) . واستقر له ملك الدنيا فأثر الاعتزال للتبذ وقسم ملكه بين أولاده الثلاثة . فأعطى

«سلم» بلاد الروم و «تور» الصين وبلاد الترك و «ليرج» إيران وجعله ولياً للعهد . وتسّم كل منهم عرشه . ولكن سلم وتور حقدًا على أخيهما وطلعا في القسمة التي أجراها أبوهما وقالاً لهما كانا أحق بولاية العهد من ليرج . وبعثا برسول إلى أفريدون منذرين متوعدين . فلما علم ليرج بهذا عرض على أبيه أن يذهب مسالماً إلى أخويه وأن يعمل على إخماد ما في قلوبهما من الحقد عليه وذلك بأن يترك ملكه قسمة بينهما . وسار إلى أخويه فأحسن استقباله ، وكان يعاملهما معاملة كلها ود وإخاء ، وكلما جرى على لسان أحدهما قول جارح قابله بالكلمة الطيبة . والكبراء حول الأخوة يشهدون عتو سلم وتور وهندو ليرج وسلامة منطقته ورجاحة عقله وإثاره السلام وحقن الدماء ؛ فكانوا يتحدثون عنه في إكبار وإجلال ويتهايمون فيها بينهم بأن رأى أفريدون هو الصواب فهذا الشاب أجبر أخوته بولاية العهد . ويشعر الأخوان بما يتهايم به الناس ويدركان ما كسبه ليرج من تقديرهم . فيشب تور على أخيه ويرميه بكرسي من ذهب فيتوسل إليه ليرج ألا يفلت منه الزمام وأن يهدأ حتى لا تكون فتنة بين التورانيين والإبرانيين ؛ ويقسو قلب تور فيستل شجره ويطن أخاه فيقتله ويحترق رأسه . ويرسل الأخوان رأس ليرج إلى أبيه .

ويحزن أفريدون حزناً شديداً ويبكيه بكاء مرّاً حتى يفقد بصره . ثم يعلم أن جارية بالقمصر حامل من ولده ليرج ، وتلد الجارية بنتاً ، فلما تكبر يزوجه من ابن أخيه فتلد منه منوهر الذي يسعد جده به ويجد فيه عوضاً عن ابنه ليرج ويرد الله إليه بصره .

وبعد منوهر جيشاً ومعه قارن (صاحب الأسرة التي ينتسب إليها شهريار الذي قدم الفردوسي الشاهنامه إليه بعد أن يئس من محمود الغزنوي) ، وسار الجيش إلى توران فهزم جيش تور ثم انقض عليه منوهر واحتز

رأسه . ثم سار إلى حيث سلم ، وكان قارن قد قطع عليه سبل الفرار فقتله أيضاً .

ويعود منوهر منتصراً إلى جده الأكبر أفريدون الذي يقربه عيناً ، فيرى الوقت قد آن لأن يبوّثه عرش إيران وليجعله خليفته ، ثم إنه يعهد برعايته إلى سام ، البطل الإيراني ، ويشعر بدنو أجله ، بعد أن حكم ٥٠٠ سنة . وموت أفريدون يبدأ عهد الأبطال في الشاهنامه ، وتطفي أخبارهم على أخبار الملوك . ولا تشير الأستاق (الأوستا) إلى الأبطال بينما تذكر الملوك الخرافيين .

وهؤلاء الأبطال هم سام وابنه زال ثم رسم بن زال وأخيراً سهراب بن رسم .

• • •

ولد لسام ولد طالما انتظره ، وتطير حين رأى شعره أبيض فأخذه إلى جبل وتركه فيه . وجاءت السيمرغ (العنقاء) فرأت الطفل فأشفقت عليه وحملته إلى عشها ونشأته مع أفراسها . وكبر الولد ورأته القوافل وهي تسير بجانب الجبل وتحدث الناس عن الإنسي الذي يعيش في شفة الجبل بين أفراس العنقاء . وسمع سام بقصة ابنه ورأى في منامه رسولا يخبره بقصته ، وسار إلى الجبل بنفسه بحثاً عن ولده ورأته السيمرغ فأبلغت الولد ، وكانت تسميه داستان ، ونصحته بأن يقبل أن تحمله إلى أبيه : ونزعت ريشة من جناحها وطلبت إليه أن يحتفظ بها حتى إذا ما حزبه أمر أحرق الريشة فتحضر السيمرغ وتقضي حاجته . وعظم شأن زال وتبناه منوهر وأبلى بلاء عظيماً في حكم الهند والسند حين ناب عن أبيه سام الذي وجهه الملك للحرب في مازندران .

وأحب زال روضه بنت ملك كابل ، وهي من نسل الضحاك ، وتزوجها بعد مشاورات طويلة وتردد . فقد كان الملك غشفي مصاهرة بيت الضحاك . ولكن زال ينجح في إقناعه بعد أن يجتاز امتحاناً عقده

الموازنة له وسألوه عن اثنتي عشرة أحجية أجاب عنها .
(أوديب له موقف مماثل) .

وحملت روزبه ، فلما جاءها المخاض تعصرت
وأوشكت على الهلاك . وزال واقف ترتعد فرائصه
ويبكي . وفجأة يذكر ريشة السيمرغ التي معه فيخرجها
من جيبه ويحرقها ، فتحضر السيمرغ ومعها الخير
والأمان ، تأمر زال بأن يأتي بحديدة حادة ويعطيها إلى
أس حاذق ليشق بها خاصرة روزبه ثم يستخرج الولد ،
ثم وصفت له الدواء الذي يوضع على الجرح قبل أن
يغيط . وأمرت بأن تسقى الوالدة من الشراب ما يفقدها
الوعي حتى تتم هذه العملية (القيصرية) . ونظرت
السيمرغ في حنان إلى زال ونزعت ريشة من جناحها
تركها له ثم حلقت . وجاء الآسى وقام بالأمر واستخرج
ولداً لم ير له مثيل ، جمالاً وقوة ، كأنه ابن عشر سنين .
وليست روزبه منشفياً عليها يوماً وليلة فلما أفاقت ورأت
ولدها بجانبها حدثت فيه وحثت عليه وقالت « برسم -
أي نجوت » . فسمى الولد « رسم » .

وجئ للطفل الرضيع بمرضعات عشر ، فلما تم فطامه
كان يأكل أكثر من نصيب خمسة رجال . وفي شبابه
المبكر كان يصرع الفيل النافر بضربة واحدة .

وامتنحه زال ليرى مدى دهائه بجانب ما أوتي من
قوة ، فكلفه بفتح قلعة حصينة . فتخفى رسم ورجاله
في زى التجار وخبأ السلاح في أكيسة الملح ، ودخل
القلعة فجعل عاليها سافلها . فاطمأن الوالد إلى قدرة
ولده وكتب بذلك إلى جده سام .

• • •

ومات الملك منوجهر وكان قد أوصى بالملك لولده
« نوزر » وأوصاه بأن يتبع النبي الجديد إذا ظهر بناحية
المغرب ، وحذره من جنود يشك ملك الترك وابنه
افراسياب ونصحه بأن يستظل بحماية الأبطال ، سام
وأولاده . ولم يكن نوزر جديراً بالملك ، كان لاهياً

عائياً . ويرسل يشك جنوده وعلى رأسهم ابنه
افراسياب . ويموت سام في زابلستان فيذهب افراسياب
إلى إيران منتزاً فرصة تغيب زال الحضور العزاء في أبيه .
ويؤمر الملك نوزر ثم يقتل بعد أن يغلب زال جنود
الترك ويقتل أعيانهم . ويلجأ أولاد نوزر إلى زال ،
وينصب هذا الملك زو بن طهماسب ، وهو أحد أحفاد
أفريدون . ويلم القحط بالبلاد ويعجز جيشا توران
وإيران عن متابعة الحرب ويعقد الصلح بين الطرفين ،
وتذهب الغمة وتختصر الأرض وتكثر الخيرات ولكن
زو يموت ويعود افراسياب ليجتاح إيران . ويموت الملك
الجديد كرشاسب وتزحف طلائع الترك على إيران
ويلجأ الأشراف إلى زال فيعهد إلى ابنه رسم بالأمر
ويطلب إليهم تنصيب ملك على إيران حتى لا يبقى
الملك بغير رجل من آل أفريدون . فأشار المؤيد بكيقباد
وسار رسم ليخبره بهذا وليكون في دولته بطل
الأبطال .

• • •

ويبدأ عهد الكيانين مع البطل رسم . وحول
رسم روايات كثيرة . منها المخاطر التي اجتازها وهو
يخلص كيكائوس من « سبيد ديو » - العفريت الأبيض -
وقتله ملك مازندران الذي كان يستعين بالشياطين .
وتذكر القصص دور « الرخش » فرس رسم .

ولكن القصة التي اشتهرت هي قصة صالة رسم
بسيده من توران ومولده ابنه سهراب ثم الحرب بين
الأب وابنه دون أن يعرف أحدهما الآخر . وهي القصة
التي تلخصها سانت بييف Sainte-Beuve بالفرنسية
كما نقلها للإنجليزية ماتيو آرنولد Mathew Arnold

قال الفردوسي : خرج رسم ذات يوم للصيد عند
حدود توران ، وبعد الصيد نام وترك « الرخش » يرعى
فجاء جماعة من أهل مدينة سمنجان وسرقوا « الرخش »
فسار رسم إلى هذه المدينة وقابل ملكها وطلب منه أن

يحضر الرخش بالحسنى . وهذا الملك من روعه واستضافه في قصره . وفي الليل جاءته تهمينه ابنة الملك ، فعقد عليها برضاها . فلما أذنت الشمس بالطلوع أعطاها خرزة كانت مشدودة على عضده ، وقال لها : « إن رزقت أنثى فاربطها في قرونها ، وإن رزقت ابناً فشديها على عضده » . ثم إن ملك سمنجان دخل غرفته وبشره بالعثور على فرسه . فسر رسم وركب الرخش وانطلق إلى إيران . ووضعت ابنة الملك ولداً سمته سهراب ، كان يشب في يوم ما يشب غيره في سنة . فلما كبر سأل أمه عن أبيه وجده ففقد وجد نفسه أطول أقرانه قدأ ، وأوسعهم صدرأ ، وأشدهم بأسأ . فقالت له أنت ابن رسم من شجرة زال بن سام بن نيرم . وما استعلوك إلا لأن ذلك البيت أصلك . فقال سهراب : لأجمعن جيشأ عظيماً من الترك ولأخلعن كيكائوس عن عرشه وأنقل تاج إيران إلى رسم ، وأعطف إلى بلاد توران وأنزعها من يد أفراسياب فأكون مع أبي ملكي هذه الدنيا . وبلغ أفراسياب أن سهراب جمع جيشأ حوله وأنه يتصدى لاكتساب الخلد . . . وبعث أفراسياب برجلين من ثقافته ليسيرا مع سهراب في مسيرته لإيران ويبذلا أقصى المكر حتى لا يعرف أباه رسم عند الملاقاة . وكان أمه أن يقتل أحدهما الآخر . وفي الطريق التقى رسم بقائد قلعة واشتبكا في المبارزة ، وكتب رجل فيها إلى الملك كيكائوس ينبئه بهذا الفارس التركي الذي لم ير مثله والذي يشبه سام بن نيرمان في عراكه ونيه الكاتب ملك إيران إلى ضرورة الاستعداد للملاقاة جيش هذا الفارس . فلما بلغ الكتاب الملك تشاور مع رجاله واتفقوا على استنهاض رسم في زابلستان ليحضر بنفسه ويدفع شر هذا التركي الشجاع .

واستخدم الشاعر وسائل الإثارة في نفسيتي رسم وسهراب ، وكثيراً من الظروف التي كانت تحول دون معرفة أحدهما الآخر ، واللقاء بين البطلين تم على مراحل ويقرب أمل القارئ من أن البطلين سيعرفان ما بينهما من

صلة الرحم ثم يتبدد هذا الأمل . وتنتهى المعركة بأن يقتل رسم ولده سهراب ويراه وهو يحتضر ويستمع إليه يقول : « إن كنت أنت رسم فلأنا قتلتي وأنت أعمى القلب ، فكم تعرفت إليك وتعلمت لك فما تحرك عرقك ولا لأن قلبك . فحل الآن معاقد جروشنى . . فإن أبى حين ودعتنى شدت على عضدى خرزة وقالت هذه من أبك » . . فلما رأى رسم الخرزة فقد من الحزن الصواب ، فلما تاب إلى رشده أسرع في إرسال رسول يطلب من الملك كيكائوس دواء لإيقاف نزيف ولده . . ويأتى الملك النذل أن يسعف الولد والوالد جميعاً ، غلبه طبعه السيئ . . وعاد الرسول ليخبر رسم بمنع الملك الدواء عن ولده فيسرع بنفسه للملك وفي الطريق يلاحقه الخبير بأن سهراب مات . .

وقد أبدع « عزام » حين نظم ، على مثال شعر الشاهنامه ، سماع أم سهراب بقتله :

وأخبرت الأم أن البطل	بسيوف أبيه أناه الأجل
فزقت الدرع أطفالها	فلاحت تلالأ أبشارها
تن ونجار جهد الحزين	وينتابها الغشى في كل حين
تلف أصابعها بالشعر	فتجتز من أصلهن الطرر
وتندى على الخلد دمع الدم	وتكبو وتنهض في المأتم
ومدت لها سنة في العمر	لنوح الليالى وندب النهر
وأسلمت الروح مما بها	فطارث تحن لسهرابها

وينقل الفردوسى بعد قصة سهراب ورسم إلى قصة جديدة لسياوخش بن كيكائوس . تزوج كيكائوس من سودبه بنت ملك هاموران (حمير) ، كما أنجب ولداً من فتاة تركية يتصل نسبها بأفريديون وسمى الولد سياوخش ، وعهد بتربيته إلى رسم . وتتكرر القصة التي كانت بين امرأة بوتيفار وسيدنا يوسف (امرأة العزيز وسيدنا يوسف في القرآن) . فتراود سودبه ابن زوجها سياوخش عن نفسه فلا يجاوب وتخبز الملك

كيكاوس بخيانة ولده له فيأمر الملك بأن يجرى الابتال على ولده ، ويأمر بإشعال النار ويمرق سياوخش بفرسه هذه النار فتكون برداً وسلاماً عليه ويخرج منها سالماً . ويأمر الملك بقتل سوذبه ولكن سياوخش ، مقدراً حب أبيه لما وما سيكون من نعمته عليه بعد قتلها ، يناشد أباه أن يعفو عنها ، فيعفو .

ويعود أفراسياب فيحشد الجيوش لغزو إيران ويتقدم ، وينتهاز سياوخش الفرصة لينجو بنفسه من حبال كيد سوذبه فيعرض على أبيه أن يخرج لدفع العدو مع رسم . ويخرج البطلان ويضطرب أفراسياب ويرسل رجلاً من قبله يطلب الصلح . ويتشاور بطلا إيران ويقرران القبول . لقد بعث إليهما أفراسياب مائة نفس من الأمراء الكبار تأكيداً لصدق ميله وإيثاره السلم . وبعد التشاور أوفد سياوخش رسم لشرح الأمر لكيكاوس . ويغضب هذا ويهين رسم : « أحسب أن سياوخش شاب غر لم تصبه المكارة ولم تعضه النوايب . ألسنت أنت الجذيل الخنك والعذيق المرجب ومن يتعلم منه الملوك ؟ سأمره أن يهجم غير متلبث على أفراسياب في غيابه ويضع فيهم السيف ويوسعهم القتل والأسر . أما الأمراء الذين أوفدهم أفراسياب فيحضرون عندي لأستقيم كأس المنون » .

وتمسك رسم بأهداب السلم وآداب الحرب وقال لكيكاوس : « ليس يحسن في الأحذوثة أن ينتشر عن سياوخش أنه أخفر الذمة وغدر بالرهائن » . ويتهم الملك رسم بأنه يشير بهذا إشاراً لللغة ، وركوناً للرأفة ويحتد رسم ويخرج غاضباً ويذهب إلى زابلستان .

أما سياوخش فيلقى رسول أبيه الذي يقص عليه ما جرى مع رسم ويحمل إليه أمر الملك بأن يحل « طوس » محل رسم ، ثم يبين له الرسول مدى حق أبيه عليه والمصير الذي ينتظره إذا هو عاد دون قتال أفراسياب . فوجم سياوخش لما حزنه من تنكر أبيه عليه وما يخشى من

عاقبة ذلك ، ويأبى أن يسلم الرهائن إلى أبيه . وكان على سياوخش أن يختار أحلى أمرين كلاهما مر . فهو لا يريد أن يذهب إلى إيران حيث أبوه الملك الترق الشرير الضعيف الذي وقع في هوى امرأة لعوب وهو مجبر على أن يختار اللجوء إلى أفراسياب فيتخذ من العدو صديقه . ويشير رجال أفراسياب بوجوب استقبال سياوخش على الرحب والسعة ، ويقبل ملك الترك هذا الرأي بعد تردد شديد فقد كان المنجمون يخشون هذا اللقاء الوديع ، والناصحون يرون أن ملك إيران صائر إلى سياوخش والخبر أن يكرمه الترك وهو في محنته . ويلقى سياوخش أود الخالص من أفراسياب الذي يزوجه ابنته فرنكيس ، ويهب له ولاية في دولته . هناك يعيش سياوخش ويحكم ويشيد مدينة كنتكدر فتكون كالجنة في الأرض . وكان نجم سياوخش إلى النحس أميل ، فإنه يثر حقد كراسيوز أخى الملك فيوقع هذا بينه وبين أخيه وينجح مسعى السوء بين الصديقين « إنه قد تغير عما كان عليه ، وقد تكررت الرسل إليه من أبيه كيكاوس في السر ، وكذلك تأتيه الرسائل من أطراف الروم والصين ، وهو لا يشرب الآن إلا على اسم كيكاوس » ، ويقرر أفراسياب إنه سلم لمن سألته وحرب لمن حاربه . ويقتل سياوخش . أما فرنكيس فتحزن لقتل زوجها وتحاول أبوها إسقاط الجنين الذي في بطنها ولكن أميراً تركياً يلقها وهو بمكيدة كراسيوز من العالمين ، ويسمى المولود كيخسرو كما أراد أبوه .

أما كيكاوس فيدرك أنه تسبب في قتل ولده فيجلس للغراء ويجي رسم كالأسد الغاضب فيشيع الملك تعنيفاً ولوماً ويسرع إلى بلاطه فيدخل إلى حيث تقيم زوجته سوذبه فيجلسها من شعرها ويخرجها ويقدها بسيفه نصفين . ثم يأخذ جيشه ويسير إلى بلاد الترك . ويحتل رسم توران ويأسر ابن أفراسياب . أما هذا فيهرب إلى الصين ويصحب معه كيخسرو بن

مياوخش ، وينجح جيو ابن أخى رسم فى اختطاف كيخسرو . وكان كيخسرو ينتظر هذا الخلاص الذى حدثته أمه به وكان نبوءة لأبيه قبل مقتله .

ويحضر كيخسرو إلى إيران ويلاقى جده كيكائوس الذى قام ونزل له عن نخته واعتقه وقبل وجهه ، وحضر جميع الأصهبذية والأمراء وسلموا عليه بالسلطنة عدا « طوس » ، « صاحب الكوس والمداس الذهبى وحافظ الدرفش الجاويانى » فكان يتعصب لهم كيخسرو « فرى برز » ويقول « كيف يجوز أن يكون الحافد وارث التاج والتخت مع وجود الابن . ونحن لا نرضى ملكاً من نسل أفراسياب » . ويختلف الأمراء ويلجأون إلى كيكائوس ليقضى برأيه فيشير بأن من يفتح منهما قلعة هبمن يكون صاحب الحق فى التاج . وينجح كيخسرو فى فتح قلعة الشياطين ويعود إلى إيران فيبايعه الأمراء جميعاً ملكاً عليهم .

وكيخسرو هو كوروش فى (الآثار الباقية) ، للبيرونى ، وهو ثالث الكينانيين والثالث عشر من ملوك الشاهنامه . وهو بقية من المقدسين فى الدين الآرى القديم . وهو آخر الملوك الذين تشرك فيهم أساطير الأبتاق والفيدا . وقصة ولادة كيخسرو فى توران وتربيته بين الرعاة وما كان من إشتاق جده أفراسياب من زوال ملكه على يده ، وقتل الجلد بيد حافده فى النهاية تشبه كل الشبه ما يرويه هردوت عن ولادة كوروش وما كان بينه وبين جده لأمه استياجس ملك ميدبا . (پيرنيا وعزام) . وتدور الحرب بحالا مع الثورانيين أيام كيخسرو ويلعب رسم دور البطل الأعظم فيها . وتجرى وقائع : كاموس الكشافى ، ورسم مع أكوان الجنى ، وحرب الإثنى عشر رخا وغيرها .

وتنتهى حياة كيخسرو فى غموض . فهو يعزل فى آخر أيامه ويخلو إلى ربه ويطلب إليه أن يأخذه إلى جواره . كان وقد نصره الله ومكنه من أعدائه وأتاح

له الثأر لأبيه وبلغه ملك المشرق والمغرب ، يخشى أن يملك العجب مقاده فيصير مثل الضحاك وجمشيد وأفراسياب وهراسب الذين كفروا بالله وجعلوا أنفسهم آلهة من دونه . ويجتمع عظماء إيران الذين هالهم تصوف الملك وعزلته وانصرافه عن الملك بعد أن استقر له الأمر وهدأت الفتن ، وكما كانوا يلجأون إلى زال ورسم فى الحروب والمعارك استعانوا بهما لإقناع الملك بأن يعود إلى الحكم ويترك مناجاة ربه . ويشد زال فى حديثه مع كيخسرو ويصبر هذا ولا يخاشن زال فى الجواب فليس هذا حسناً عند الله وهو لا يأمن موجودة رسم إن هو تطاول على أبيه الشيخ المهيب ، يقول له : « لى ستمت التاج والتخت والأمر والنهى ووقفت بين يدى ربي فى هذه الأسابيع الخمسة أنضرع إليه وأسأله أن يخلص روحى من هذه الأرض المكدره حتى استجاب دعوى وحقق أملى . ولقد رأيت فى المنام كأن ملكاً نزل على وهمس فى أذنى : « لك قد أعطيت ما سألت فتجهز لى جوار الله الكريم ، ولا تقم فى هذه الدنيا الكلدرة ، وفرق الأموال على المحتاجين والفقراء والمساكين . » فاعتزل زال عما بدر منه ، وأدرك الحاضرون أن كيخسرو ليس بمجنون إنما هو من الواصلين .

وكما انتهت حياة « يدهشتر » وأخوته والذين كانوا فى وداعهم تنتهى حياة كيخسرو ومرافقيه . تقول « المهابرته » إن يدهشتر وإخوته يسرون بعد أن اعتزل الملك ويودعهم الرجال والنساء ثم يرجع المودعون ، ويستمر السائحون فى رحلتهم حتى يبلغوا متاهة يهلكون فى رمالها ما عدا يدهشتر الذى يسير قدماً لا يعبأ بشيء ومن ورائه كلبه حتى يدخل الساءحياً (ورتز) ، وتقول « الشاهنامه » إن كيخسرو صعد إلى جبل وفى أثره العطاء والنساء والرجال زهاء مائة ألف نفس ييكون ويضجون حتى طن بصياحهم السهل

وصمم كشتاسب وأمره مطاع وعصيانه حرام في دين
زردشت .

وبذل رستم الكثير من الود نحو الشاب البطل
ويقبل أن يصحبه إلى كشتاسب ولكن دون قيد ،
وتلعب الأقدار دورها ويحسب اسفنديار أن رستم
يخدعه . وينشب القتال بين البطلين ، ومن حولهما
رجالهما ، ودون إذن بقتال يشتبك الرجال ويقتل
ولدان من أبناء اسفنديار ، فيفقد هذا صوابه ويمطر
رستم وابلا من سهام تصيبه وتضطره إلى أن يعتصم بجبل
ويطلب استئناف القتال في الصباح . ويجد أفراسياب أن
الليل أقبل بظلامه فلا يلاحق خصمه . ويلجأ زال ،
الشيخ الكبير الذي لم يفلح مسعاه للسلام ، إلى اللجوء
فيحرق جزءا من ريشتها التي سلمتها له عند مولد
رستم ، فتحضر العنقاء وترفرف على رستم وتغمره
بخانها ثم تدخل متقارها في جراحاته وتخرج منها نصالا
أربعة ثم تمسحها بمناحها فتلتهم . وصنعت مثل ذلك
بالرخش واستخرجت منه ستة نصال . ثم قالت لرستم
« لأى معنى تعرضت لقتال اسفنديار . » وقاتله لا يرى
الخبر بعده . . وتقتصر مدته ويلقى العناء بقية عمره ،
ويذوق العذاب بعد موته . فإن رضيت بهذه الحالة
فاركب وأبصر العجب . فركب رستم وسار إلى
ساحل البحر ، فأسفت العنقاء على شجرة من الطرفاء
فقالته : « أقطع من هذه الشجرة قضيباً مستقيماً . .
وركب عليه نصلاً عتيقاً ، واجعل له قذذا . ثم إذا جاء
اسفنديار يطلب قتالك فتضرع إليه وايلك بين يديه
فلعلك تصرفه عن قتالك بلحو لسانك . فإذا لم يفعل
فوتر قوسك وسدد نحو عينه هذا السهم . . فلأنه يصيب
عينه ، ويكون في ذلك حينه . » وأرشدته إلى الطريق ،
ثم ودعت « زال » وطار .

ونزل البطلان إلى الميدان فلما تقاربا قال اسفنديار :
« أيها السجزي ! كأنك قد نسيت صنيعي بك بالأمس ،
وكان ظنى أنك تكون اليوم محمولاً إلى الرمس . إنك لم

والجبل . ثم إن الملك التفت إليهم ونبههم إلى أنه يجتاز
طريقاً صعباً لا ماء فيه ولا عشب ، فانصرف عنه زال
ورسم وجودرز ، وتبعه الباقون . . ولما طلعت الشمس
ركب الملك وغاب عن أعينهم فهاموا على وجوههم
يطلبونه ويبكون . . ثم تغيرت السماء واشتد الهواء
ومطروا ثلجاً هلكوا تحته أجمعين .

وكان كيخسرو قد بايع لهراسب ليخلفه ، ولم
يكن زال ورستم عن هذا الاختيار راضين . ويأتى بعد
لهراسب كشتاسب . وفي عهده ظهر زردشت فاعتق
ديانته . واشتهر ابنه اسفنديار (أمه كتابون بنت ملك
الروم) بالبطولة .

واسفنديار هو بطل قصة المنازل السبعة (هفتخوان
اسفنديار) وقد وضعت هذه القصة محاكاة لقصة رستم
المعروفة بهذا الاسم . فكما اجتاز رستم ، في مازندران ،
سبع عقبات : رخش رستم والأسد ، العطش يضعف
رستم ، رستم يقتل الثنين ، قتل رستم امرأة ساحرة ،
رستم يأسر أولاد ، حرب رستم أوزنك الجني ، قتل
رستم الجني الأبيض ، يجتاز أفراسياب سبعة خطوب .
واسفنديار هو بطل دين زردشت أيضاً . تعاون
في نشره بالسيف وعاون الوزير جاماسب في إحيائه .
واسفنديار هو الذى خلص والده كشتاسب أكثر من
مرة وهو الذى قتل ملك الترك ارجاسب .

ويلقى اسفنديار من أبيه مثل ما لقي سياوخش :
فإن كشتاسب حريص على الملك حرصاً أنساه الشفقة على
ولده البطل ، فهو يستمع إلى كرزى الذى سعى إليه
بالوقية وصور له أن ابنه يتأمر عليه ، وقر في نفس
كشتاسب أن يتخلص من اسفنديار .

وكان رستم في زابلستان ملكاً لم يبايع ملك الملوك ،
فأمر هذا ابنه اسفنديار أن يذهب إلى زابلستان ويأتى
برستم أسيراً في القيد . وعيثاً يحاول الابن أن يثنى أباه
عن طلبه ، ذاكرة رستم وحروبه وإيقاده إيران .

تبرأ إلا بهرقة أبيك وسحره . وأسند عليك اليوم سبيل
حياته ومكره . فأجعل بدنك كالغربال بصادات
النبال فقال رسم : « إني ما جئت اليوم
للقاتل . وإنما جئت لأتضرع إليك عساك تجنح إلى
السلم وتطفئ من قلبك نار الحقد » . ولكن القدر يدفع
أفراسياب إلى الشر ويصوب رسم عليه السهم فيصيب
عينه فينقلب عن ظهر فرسه ثم يماسك وينزع السهم
ويجري إليه ولده بهمن . ويختصر اسفنديار ورسم قائم
في مكانه ويلتفت إليه البطل وهو في نزعه الأخير
ويقول له : « لم يقتلني غير أبي كشتاسب حيث أكرمته
على قتالك والآن فهذا ولدي بهمن تسلمه مني واحمله
معك إلى زابلستان وربه تربية الوالد لولده » . ويضع
رسم يده في يد اسفنديار ويعاهده على أن يربي ولده
ويسعى له حتى يكون ملكاً . ويموت اسفنديار .

أما رسم فيقتله أخ له من أبيه اسمه شغاذ . هياً له
حفرة غرز في قاعها نصولاً محددة ثم غطاها . ودعا
رسم إلى الصيد فوق برعشه في الحفرة فرزقه الحراب
ولكنه يخرج مشخماً بالجراح القاضية من الحفرة ويطلب
إلى أخيه أن يعطيه قوسه ونشابين ليذود بها السباع عن
نفسه حتى يموت . وقدم شغاذ لأخيه قوسه ووترها
فتناولهما رسم وخاف شغاذ فتتس بشجرة دلب كانت
هناك مجوفة قد أنت عليها السنون : فرمى رسم الشجرة
بنشابته فنفذت فيها وخلصت إلى شغاذ فخاطته مع
الشجرة وأصمته . ويموت رسم وتنتهي حياة أعظم
أبطال الشاهنامه .

• • •

وتعصى الشاهنامه بعد ذلك : فتم تاريخ الأكيمين
وتجعل الغزو الإغريقي لإيرانياً صرفاً فالإسكندر منهم
وليس أجنبياً ثم تتحدث عن الأشكانيين ثم الساسانيين
فتصور عصورهم الزاهية ثم عصر التحلل الذي جعلهم
فريسة سهلة المنال للفتح العربي .

• • •

لا بد من الانتقال الآن إلى فن الفردوسي في
الشاهنامه فالحديث يطول لو تحدثنا عن العهد الساساني
كما تصفه الشاهنامه : إنما يكون هذا موضوع مقال
على حدة .

والشاهنامه وهي تقص وقائع البطولة والانتصارات
الكثيرة والمزائم القليلة لا تكتفي بالحرب وحدها . إنما
هي تتحدث عن الحرب والمآدب - رزم ويزم -
وتتحدث عن الحب حديثاً عذباً كالذي ذكرنا بين
زال وروذبه كالذي كان في العهد الساساني بين خسرو
وشيرين . وعينت الشاهنامه بالحديث عن الخيل فرخش
رسم وبهزاد سياوخش لما نصيب مرموق في الكتاب .
وتتحدث الشاهنامه أيضاً عن الصيد . وكان رياضة
الفرس المفضلة . ولعب الكرة والصولجان والأدب
وتذوق الموسيقى .

واللاحظ في الشاهنامه أن الكلمات العربية قليلة
فيها . لا تتجاوز ٤٣٠ كلمة . وربما عمد بعض النساخ
إلى وضع هذه الكلمات . والفردوسي عمد إلى أن يجعل
الشاهنامه إيرانية خالصة فهي تروي تراث أمة وعلى
الشاعر الفنان أن ينظم هذا التراث بلغة هذه الأمة
ما استطاع . فليس عن تعصب أن يعتمد الشاعر إلى
إحياء لغة الإيرانيين . وإذا نحن رجعنا إلى الترجمة
العربية لبعض أجزاء الخدای نامه أو لكتاب تنسر فإننا
نجد في هذه الترجمة آيات من القرآن والحكم والأمثال
العربية . لأن المترجم إلى العربية يكتب إلى العرب
ويحاول التقريب بين العرب والفرس . أما الفردوسي
فينظم الشاهنامه بالفارسية للفرس فلم يكن عليه أن يذكر
من الألفاظ العربية . وروعة الشاهنامه في أسلوبها هذا
وهي بهذا الأسلوب . الذي يعد أوج الشعر الفارسي
الذي يتحدث عن التراث : من أيسر النصوص فهما
لطلاب الثقافة الفارسية . فهو السهل الممتنع كما يقولون .

• • •

حبيب ، وأترج كأنه يفوح عن مسك يهوى وعنبر
فتيق . ففقد بين يدي ينثر الجنك ويترنم ، ويسقيني
المدام ويزمزم ثم قال : إن كنت لا تنام فاصغ إلى حتى
أقرأ عليك من الكتاب الفهلوى قصة لتنظمها .

• • •

منوهر يختبر ذكاء زال :

فأحضر منوهر موايدته وعقد مجلساً عظيماً ،
وجاءوا بزأل فأمرهم أن يباحثوه ويسائلوه : فتصدى
موبد وسأله عن اثنتي عشرة شجرة جذب بأضباعها
السموق ، ومد من أعضادها البسوق ، قد تشعب من
كل واحدة ثلاثون غصناً لا يرى الناس فيها زيادة
ولا نقصاً .

وسأله آخر عن فرسين أحدهما كبحر من القار
والآخر كالبلور النضار ، لا يزالان يتراكضان ،
يتعاقبان ولا يتسابقان .

وسأله آخر عن ثلاثين فارساً يعرضون على
السلطان ، إذا عبروا نقص منهم واحد ، وإذا رجعوا
فلا ناقص ولا زائد .

وسأله آخر عن روضة معشبة يرف نباتها في رونق
الفضارة ، وتروق العيون بالبهجة والنضارة ، ثم ينحى
عليها ذو منجل ينزل بساحتها مكروه الخطب ، ويجمع
في حصدها بين اليابس والرطب .

وسأله آخر فقال : شجرتان من بواسق الأشجار ،
نابتان في البحر الزخار ، على كل واحدة منهما وكر
لطائر يصبح على أحدهما ويمسى على الأخرى ، إذا
طار من هذه تساقطت أوراقها ، وإذا وقع على الأخرى
راق العيون بإبراقها ، فتكون أبدأ أحدهما ناضرة
والأخرى ذابلة .

وسأله آخر عن بلدة طيبة حصينة في ذروة جبل ،
تركها الناس وعمدوا إلى أرض ثنبت القتاد فأرسوا بها
الأوتاد ، وبنوا بها الدور وشيدوا فيها القصور وتناسوا

كان للفردوسي مقلدون كثيرون من الفرس ،
على مدى التاريخ ، ولكن أحداً لم يبلغ بنظمه روعة
شعر الفردوسي ، فشتان بين رجلين أحدهما يتخذ من
عمله رسالة يكرس لها حياته والثاني يقلد مجرد تقليد .
وقد ذكر الكتاب أسماء هؤلاء المقلدين (عزام وندا)
وأما الأدب الأوربي فقد تأثر بترجمة مول للشاهنامه ،
فقد تلها ترجمات كثيرة بلغات مختلفة . واتخذ بعض
الكتاب قصة من قصص الشاهنامه وأقام عليها قصة
جديدة وقد ذكرنا بعض هذا في ثانيا البحث .

والشاهنامه بأسلوبها هذا السهل الممتنع ، وبروعة
ما فيها من قصص حافز للهمم ، مهذب للنفوس ،
شاهد بالقيم الإنسانية العالية ، لا تزال جذيرة بالقراءة
العميقة التي قد تلهم بأدب ينفع الناس . وقد تابه
المصريون لهذا الأثر العظيم فنقله البنداري للغة العربية
في القرن السابع الهجري ، وكان عزام في القرن العشرين
أول من نبهنا إلى الشاهنامه حين نشر ترجمة البنداري .

- ٣ -

قال قبل أن يكتب قصة يزن ومنيزه :

« لله ليلة سوداء ذات جناح أحمر كأنه طلي بالمداد
أو لبس ثوب الحداد . لا يرى فيه بهرام ولا كيوان
ولا عطار ، وكان النجوم فيها مثل العيون رواقه .
قد تواري قمرها بالحاق ، وقطعت ظلماً أشواط
الأحداق . وقد ألقت على الأرض بالجران ، ووقف
الفلك فيها عن الدوران . لا حس فيها ولا همس ، كأن
الأحياء فيها حالقوا الموت . فاستولى على السهاد ، ونبأ
في الوساد . فصحت بالغلام وقلت : قد طال الظلام ،
وشرد عن عيني المنام . فقم وأشعل الشمعة وهيئ المجلس
وأحضير الشراب واستنطق الجنك والرباب ، فقام
والنعاس يرتق في عينيه ، والترف يميل بعطفه . وجاء
بشمعة كالذهب على رأسها تاج من الذهب . ثم جاء
برحيق ، ورمز كصبر عتيق ، وسفرجل كأنه سرور

ومن قصة مزدك :

واتصل بقباد رجل فصيح اللسان ، غزير العلم ذو رأى وعقل ، اسمه مزدك . وأقبل عليه قباد واتخذهُ دستوراً (وزيراً) وخازناً . فاتفق أن أصاب الناس في ذلك العهد لزبة شديدة احتبس فيها القطر وهلك الزرع فاجتمع أكابر إيران على باب قباد ، وضجوا بما هم فيه من الضيق والشدة وعدم الأقوات . فقال لهم مزدك : إن الملك سيزيل ظلامتكم ويحقق طلبتكم . ودخل على الملك وقال : ماذا تقول في رجل معه جملة من الترياق المحرب ، وعنده رجل قد لدغته الحية وهو على شرف الموت وصاحب الترياق يمنعه عنه ويفض به عليه ويدعه حتى يموت ؟ قال الملك إن صاحب الترياق مأخوذ بدم هذا اللدغ ويحب أن يقتل به . فقام مزدك وخرج وقال للمتظلمين : إني فاورضت الملك في أمركم فانصرفوا الآن وعودوا إلى الدركاه غداً . قال فانصرفوا وعادوا بكرة ، كما سبق الوعد . فدخل مزدك على الملك ودعا له وأثنى عليه ثم قال : قد أجبتني أسس عن مسألتى ، وأريد اليوم أن تجيبني عن مسألة أخرى أسألك عنها . فقال : سل . فقال مزدك : ماذا تقول فيمن حبس رجلاً وقيدته ومنعه الطعام والشراب حتى مات ؟ فقال : هذا المسكين متولد دم لم يسفكه . فخرج مزدك عند ذلك وقال لمن حضر من المتعلمين : إن الملك قد أباحكم ما في الأهراء من الغلات فابسطوا أيديكم وأينما وجدتم منها شيئاً فاستبيحوه . ففعلوا ذلك وطنت المدينة وماجت العامة الذين أخرجتهم المحاجة وانتهت غلات السلطان وغيره . فأنهى إلى الملك ذلك وأخبر بأن مزدك هو الذى رخص لهم في ذلك . فاستحضره وسأله عن السبب الذى حمله على ما كان . فقال : إن الجائع هو اللدغ والطعام هو الترياق ، وقد أباح الملك دم صاحب الترياق إذا لم يتدارك حشاشة اللدغ المشرف على الموت وقد رأيت الناس يموتون جوعاً ولا خبر عند أرباب

تلك البلدة الطيبة ، غيبتا هم كذلك إذ خسفت بهم أرضهم ، وقامت عليهم القيامة ، وحالقتهم الحسرة والندامة .

قالوا لزال : إن أوضحت هذه الرموز كنت العالم الخبير ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وأعاد تلك المسائل ، ثم قال :

أما الشجرات الاثنتا عشرة فهى عدة الشهور مع الأيام ، على تعاقب الأزمنة والأعوام .

وأما الفرسان فهما الملوان يتعاقبان ولا يتسابقان .

وأما أعداد الفرسان وما يظهر فيها من النقصان فذلك إلى نقصان الشهر وأنه تارة يكون تسعة وعشرين وتارة ثلاثين .

وأما الشجرتان اللتان عليهما معشش الطائر فإن العالم من وقت حلول الشمس في برج الحمل إلى أن تبلغ إلى الميزان يتبرج كالخريدة المعطار ، في حل الرياحين والأزهار ، ومن حين حلولها العقرب إلى أن تحمل الحوت يقبع بين أنصاف الحداد وأطوار السواد . فالشجرتان كتابتان عن عضدى الفلك الدوار والطائر عبارة عن الشمس الباهرة الأنوار .

وأما البلدة الطيبة فهى دار القرار ومنزل الأبرار ، والأرض التى آثروها عليها فهى الدنيا قرارة الأكدار وموطن الأخطار . . . بينا أنت إلى نعيمها راكن ، وفي ظلالها وادع ساكن ، إذ تزلزلت من تحتك ، وأمطرت مكارهاها من فوقك . . . إن هذا الإنسان ، وإن طاول الكيوان ، فليس يصحبه منها غير ستره تحت حفرة ، فإن اكتسب فيها الذكر الجميل ، أحرز هنالك الأجر الجزيل ، وإن زرع العدل والإحسان ، حصد الروح والريحان . ثم إن صاحب المنجل كتابة عن الأجل يحصدنا كحصد النبات . . .

• • •

الغلات المدخرة من ذلك ، فأباحتهم إياها على مقتضى
حكم الملك وقوله . فسكت قباد . واستعلى أمر مزدك
وطالت باعه وكثرت أشياعه وأتباعه : وخالف الأنبياء في
في مللهم وباين العلماء في طرقهم . وكان يقول : ينبغي
أن تكون أمور العالم على السواء : ولا يقع تفاوت في
نعم الله بين الأغنياء والفقراء : ويكون الغنى كالسدى
والفقر كاللحممة . . . (البندارى) .

• • •

ومن حكم بزرجمهر التي يذكرها الفردوسي :
أخلاق العاقل المنجية له خمسة : وأخلاق الجاهل
المردية سبعة . أما الخمسة المنجية فهي ألا يجزع على
ما فات ولا يفرح بما هو آت ، ولا يرجو ما لا يكون ،
ويحذر من عواقب الأمور ، وإذا حزبه حازب كافحه
من غير جبن ولا نخور . وأما السبعة المهلكة فأحدها
أن يغضب من غير موجب للغضب ، والثاني أن يعطى
من لا يستحق فيكون غير مأجور ولا مشكور .

والثالث ألا يعرف قدر نفسه فيكفر نعمة ربه . والرابع
ألا يكتم سره ويفشيه . والخامس أن يتكلم بما لا يعنيه
فيقعد ملوماً مهموماً . والسادس أن يأمن غير ثقة
ويصاحب غير ذي مقرة . والسابع أن يكذب ويصر على
الكذب . (البندارى) .

ومن وصف الفردوسي للعنقس حين تكثر الثلوج ،
رحلة لكيكاوس :

« كان ذلك في أحد أيام الربيع التي تهب القلب
وتنضر الأرض . وفي تلك اللحظة هبت ربيع عاصف من
الجليل هلع من هولها قلب كيكاوس . أظلمت الدنيا
كأنها جناح الغراب . وتعذرت معرفة السهل في الأودية
واحتجبت قمم الجبال تحت الثلوج التي كست الأرض
بردائها الأبيض الكثيف . وأخذت الرياح العنيفة تهب
بقوة وتصب جام غضبها على هذا المكان ثلاثة أيام
بلياليها . وتركز البلل على الخيام وما فيها : وسرى البرد
القارس في الوجود كله فلم يعد لأحد قدرة على شيء »



اللاؤوكون بجهولت لسنج

بمعلم
الدكتور احمد محمد محمد

فقد اتجهت إلى البحث عن أدب ألماني أصيل يتبع أسلوباً قومياً متميزاً ، ويجعل الألمان لغريق العصر الحديث . فتعمقوا دراسة الحضارة الهلينية ، ولم يقنعوا بالرواسب التي ظلت سائدة في الروايات المتناثرة عن اليونان ، والتي اقتصر عليها الإيطاليون والفرنسيون ، والتي أسموها بالمذهب الكلاسيكي الجديد ، بل درسوا نفائس الحضارة اليونانية ذاتها وأعادوا تقويمها .

وخشوا أن يتحولوا كغيرهم إلى مجرد مقلدين ليونان ، فدرسوا حضارات الشمال والحضارة القوطية ، واكتشفوا أمجادهم في العصور الوسطى وقاموا بدراساتها وأسفرت هذه الدراسات عن غاية شاقة بحق وهي محاولة التوليف بين كل هذه العناصر المتناثرة . وخذعوا أنفسهم أحياناً ، وتجاهلوا كثيراً من النقائص والمتقالات . فتصوروا شكسبير ، مثلاً ، ممثالاً لسوفوكليس ، وتصوروا فلسفة أرسطو في كتاب فن الشعر صالحة للتطبيق على آداب الأمم كافة في شتى العصور . ثم نسبوا لأنفسهم في النهاية هذا المزاج الغريب من المكونات التي قد تعد متنافرة وأسموه أدباً قومياً ، بعد أن قاموا بتطعيمه بأساطيرهم وحكاياتهم الشعبية وأحلامهم وتطلعاتهم لإنشاء أمة موحدة ، فرسموا

الألمان مصابون بداء المثالية بمعناها الفلسفي ومعناها العام : فهم يعشقون التأمل لذاته ، ويبغضون كل التصاق بالواقع . وقيل إنهم حرموا نعمة رؤية الأشياء على حالتها . فالنظرة المباشرة في ظنهم دليل على السطحية ولذا غاصوا في أغوار بعيدة تعرضوا بسببها للضلال ، وإلى رؤية الحقائق الواضحة في صورة مشوهة محاطة بستائر كثيفة من الغموض : وهم يسرفون في الإطلاع في كافة جوانب موضوعات دراساتهم ، ولكن كثيراً ما حدث تفاوت بين غزارة اطلاعهم وضآلة ما يستخلصون من موضوع البحث .

فالألمان إذن في نظرهم إلى الحياة وفي أساليبهم الفكرية على حد سواء يتميزون بالمثالية مخبرها وشرها . وبوسعنا أن نلاحظ هذه الظاهرة حتى في تاريخ أدبهم الذي لم يبدأ بمعناه الصحيح إلا في القرن الثامن عشر . وعندما بدأ الوعي الألماني الحديث لم يحذ إلا قلة من الألمان ، أغلبهم من الأريستقراطيين ، اتباع الأساليب التي عرفتها البلدان المجاورة لهم ، التي استطاعت الإرتقاء بالفن والأدب بفضل عدم تعرضها لمؤثرات سياسية مماثلة للمؤثرات التي تعرض لها الألمان . أما الأغلبية العظمى (وعلى الأخص أبناء الطبقة المتوسطة المتنورة)

بذلك الطريق أمام كل أمة حاولت فيما بعد إنشاء أدب قومي .

هذا الحلم الكبير ، وهذه المهمة العسيرة ، التي قد يسميها البعض معجزة قد تحققت بفضل جهود عدة أدباء ومفكرين قد نسبت أسماء أغلبهم الآن . ولكن أهم الشخصيات التي ساهمت في خلق هذا الأدب الألماني القومي كانت بغير مرء شخصية جوتهولت إفرايم لسنج ، الذي تفخر به جميع المراجع الأدبية الألمانية ، بل وجميع المراجع في سائر البلدان ، باعتباره مثلاً أعلى للكفاح والنضال في سبيل تحقيق غاية سامية دون تورط في ردائل أو سخافات .

ولد جوتهولت إفرايم لسنج في ٢٢ يناير سنة ١٧٢٩ في بلدة كامنتس في إقليم سكسونيا بألمانيا . وهو ينتمي إلى عائلة من القساوسة كانت شديدة الحرص على أداء رسالتها الدينية في الدعوة للمذهب لوثر ، وإن كان بعض أفرادها قد تميزوا أيضاً بحرية العقيدة . ومن بين هؤلاء جد جوتهولت ، الذي حصل على شهادة الدكتوراه لبحث قدمه عن الحرية الدينية . أما والد جوتهولت فكان إلى جانب نشاطه الديني ، من أصحاب الاستعداد الحسن للبحث العلمي ، ومن المتمكنين في اللغتين الفرنسية والإنجليزية وبعض اللغات الشرقية القديمة . وترجم عدة مراجع هامة ، وكان يميل إلى اشتغال ابنه في نفس العمل الذي كرس حياته له .

والتحق جوتهولت بمدرسة كامنتس ، ثم قصد إلى مايسين وهو في الثالثة عشر من عمره حيث تعلم بأحدى مدارسها . وهناك بدأت عنايته بالأدب . فقرأ في ثم بلاوتوس وتيرنس ، كما ألف قصيدة شعرية لاتينية في مدح الجنود الساكسونيين .

وفي السابعة عشرة من عمره ، اتجه إلى لايبزج ، والتحق بجامعة وأتم دراسته في خريف عام ١٧٤٦ .

وحرص أثناء إقامته هناك على تهذيب نفسه وحملها . فتعلم الرقص والمباولة وركوب الخيل ، وبدأ يشاهد المسرح ، وكتب قصة أسماها الباحث الصغير ، عرضت على مسرح لايبزج وصادت نجاحاً عند الجماهير . ودفعه الوله بالمسرح إلى تمضية سهراته في رفقة الممثلين من الجنسين . ولم تكن موارده المالية تسمح بأية حياة من هذا النوع فتورط في الدين ، واضطر إلى مغادرة لايبزج والاتجاه إلى برلين ، بحثاً عن عمل . وعرف والداه من رسائله شدة تعلقه بالمسرح ومحاولة تقليد مولير واقتفاء أثره لإنشاء مسرح ألماني على غرار مسرح مولير . كما عرفا بتشككه في التعاليم البروتستانتية ، واعتقاده أن الإيمان مسألة شخصية لا بد أن يقررها كل فرد لنفسه . فغضب أبوه وأرسل إليه ينصحه بالعودة إلى الصراط المستقيم ، ولكن جوتهولت كان قد قرر اتباع نهج يتوافق مع ميوله وتأملاته ، ولهذا لم يحرص بتاتاً على اتباع مثل هذه النصيحة أو غيرها . فلقد تميز منذ حداثة بشدة الحيوية والقدرة على السخرية وبالميل إلى القراءة والقدرة على استيعاب ما يقرأ في أسرع وقت ، كما كان من بين صفاته الثورة على القيود وسهولة التحرر من الصداقات إن أحس بتعارضها مع أهدافه . واشتهر أيضاً بكرهه للعنف والإيمان بضرورة تقبل الأوضاع على علاتها ، وعدم افتعال التغيير والإصلاح . هذه الصفات المتعارضة تفسر قلقه الدائم وعدم استقراره في مكان واحد بمجرد شعوره بالاصطدام مع أية عقبات . وفي أحيان أخرى ، على العكس من ذلك ، فإنه كان يرحل من أي مكان بمجرد شعوره بالاستقرار وبأنه قد حقق غايته ، وبأن إقامته في هذا المكان لم تعد مستساغة ! فعندما غادر برونزفيك إلى برسلو مثلاً قال في تبرير مسلكه : « إن هذا لا يرجع إلى نفوري من برونزفيك ، ولكنه يرجع إلى أن البقاء طويلاً في أي مكان يميل إليه المرء لن يعود عليه بالنفع » .

فاذا تبينا في إيجاز خطواته سنرى أنه قد اتجه بعد انتهائه من الدراسة في لايبزج إلى برلين في نوفمبر ١٧٤٨ ، ولكنه غادرها مرة أخرى إلى لايبزج سنة ١٧٥٥ ، ثم عاد ثانية إلى برلين سنة ١٧٥٨ . وبعد سنتين نزع إلى برسلاو ولم يستقر فيها طويلاً ، بل بارحها إلى هامبورج وأخيراً استقر في سنواته الأخيرة في برونزفليك . وكان طبيعياً أن يصحب هذه الهجرة الدائمة ، تغلب في الوظائف المختلفة ، وتعرض للفشل جملة مرات . فقد اشتغل أحياناً في تنظيم المكتبات ، كما حدث في بداية حياته عندما قام بتنظيم إحدى المكتبات العامة التي يملكها أحد الأثرياء ، وفي نهاية حياته كذلك ، عاد إلى أعمال المكتبات عندما عين في وظيفة صغيرة (١٧٧٠) هي أمانة مكتبة فوق برونزفليك في فولفنبوتل .

وأصدر مجلة الرسائل الأدبية (١٧٥٩) وشاركه في تحريرها مندلسون (الذي أصبح فيلسوفاً فيما بعد) والناشر الألماني نيقولاى . وظلت الرسائل الأدبية تظهر حتى سنة ١٧٦٥ ، وإن كان لسنج قد مل الكتابة فيها بعد سنوات قليلة وترك هذه المهمة لكل من مندلسون ونيقولاى .

وفي برسلاو أصبح سكرتيراً للجنرال تاوننسين الذي تعرف إليه عن طريق الشاعر كلايست . وعاش هناك حياة خصيبة مختلفة غاية الاختلاف عن حياته الأولى . فقد أنجز فيها أهم كتبه كاللاوكون ومينافون بارثيلم . وتعلم هناك المقامرة ، واستمر ممارستها فترة طويلة .

وأخفق في محاولة شغل عدة وظائف ، كان من بينها إدارة المكتبة الملكية في برلين . وكان اسمه واسم فنكلمان من بين الأسماء المرشحة لشغل هذه الوظيفة . ولكن الملك فردريك - وكان مولعاً بالفرنسيين - عدل عن اختيارهما ، وعين فرنسياً في هذه الوظيفة بعد أن استكثر مرتب هذه الوظيفة على أى ألماني .

ولما قتل فنكلمان في تريستا ، حاول شغل مكانه في روما ، ولكنه عدل عن هذه الفكرة لعدم عثوره على مال يكفي لدفع نفقات السفر إلى هناك ، فقد عرف لسنج دواماً بأساة التدبير ، وبشدة ارتباك أحواله المادية ، حتى اضطر قبل مغادرته برسلاو إلى بيع مكتبة زاخرة بالمؤلفات القيمة ، بأرخص الأسعار ، وندم على ذلك أشد ندم .

ومن الأحداث التي تبينا في تاريخ الأدب صلة لسنج القصيرة بفولتير . فلقد كان مقياً ببرلين عندما وصل فولتير إليها سنة ١٧٥٠ . وهناك تعرف إليه عن طريق سكرتيره ريشتر . وأعجب به فولتير في البداية إعجاباً كبيراً ، وكلفه بكل أعمال الترجمة التي كان في حاجة إليها . وكان من المتوقع أن تتولد هذه الصداقة ، وأن تعود بأعظم فائدة على لسنج بسبب الصداقة المشهورة بين الملك فردريك وفولتير ، ولكن العلاقات ساءت بين فولتير ولسنج بسبب سادحة مختلف المراجع المختلفة في تأويلها وفي رواية أحداثها .

والرواية التي أرجحها هي استعارة لسنج مخطوطة كتاب لويس الرابع عشر قبل نشره من سكرتير فولتير - بغير علمه - وتسرب بعض محتويات المخطوطة مما أدى إلى تشكك فولتير (وكان معروفاً بشدة الحرص والدهاء) ومقاطعته لسنج . ويميل المؤرخون إلى رد كل المصائب التي لحقت بلسنج إلى هذه الواقعة ، لأن مقاطعة فولتير كانت تعني سحق الملك على لسنج ، واضطهاده له ، وحرمانه من أية وظيفة مرموقة ، كما حدث في حالة وظيفة مدير مكتبة برلين .

ولكن يبدو أن النحس الذي صادفه لسنج كان يرجع إلى ما هو أبعد من ذلك ، كما نستطيع أن تبين من حادث ألم حدث له عندما كان في قرابة الخمسين من عمره . فلقد تأخر لسنج في الزواج ، إذ تزوج سنة ١٧٧٦ من أرملة تاجر للحرير في هامبورج تعرف إليها

في هذه البلدة ، وكانت تتميز بثقافتها ورقة شعورها . وكان متوقفاً أن يعود زواجه منها عليه بالخير العميم ، لأنه كان سيحقق له الاستقرار الذي ينشده . ولكن زوجته مرضت مرضاً خطيراً دام أسبوعين قبل أن تضع مولودهما الوحيد الذي لم يعيش أكثر من أربعة وعشرين ساعة . وبعد ساعات من موته ماتت الزوجة كذلك . وكتب لسنج إلى أحد أصدقائه في الفترة القصيرة التي كانت تعيشها زوجته في غيبوبة بعد موت الطفل رسالة حزينة قد تعد من أفضل الرسائل الحزينة الصادقة في الأدب العالمي . فلقد قال في هذه الرسالة : « إنني أنتهز فرصة استغراق زوجتي في غيبوبة لأشكرك على عظيم اهتمامك . . . كانت فرحتي قصيرة إلى أبعد حد . لقد فقدت هذا الابن ، وأنا شديد التعلق به ! لقد بدت عليه ملامح الفطنة ، وكما كان فطناً إلى حد بعيد ! . ألا يدلنا على فطنته أنهم قد اضطروا إلى صبه إلى العالم الخارجي بواسطة ملقط من الحديد ؟ . وألا يدلنا على ذلك أيضاً أنه سرعان ما اكتشف شقاء هذا العالم ، فانتهز أول فرصة وهرب منه ؟ ونجح المخادع في صلب أمه إليه ، لأن الأمل واهن للغاية في بقائها إلى جوارى . . . كم تمنيت أن أسعد مثل الآخرين . ولكن الأمور قد جاءت على غير ما أشتي . »

وبرغم هذه الكارثة ، استمر لسنج في كفاحه واستفاد من المصائب التي حلت به بدلاً من أن ينحني لها ، بل لقد تميزت سنوات حياته التي عاشها بعد ذلك بوفرة ما فيها من إبداع وأصالة ، حتى مات في ١٥ فبراير سنة ١٧٨١ بعد أن وضع الأساس الأول للأدب الألماني بمعناه الصحيح ، وبعد أن عانى الأمرين من إساءة فهم الكثيرين له . فلم يفهمه على حد قول جوته : « سوى العظماء من أمثاله . أما أوساط الناس فقد رأوه دواماً خطراً يهددهم » .

• • •

لم يترك لسنج ناحية من نواحي الأدب إلا طرقها . وتفاوت حظه من النجاح في هذه المجالات المختلفة ، وبوجه عام ، استطاع حصر مؤلفاته في نوعين . النوع الأول : هو أعماله الإبداعية من روايات تمثيلية (١) (شعرية ونثرية) ودواوين شعر . والنوع الثاني : هو أعماله النقدية . وسوف نتناول النوع الأول في إيجاز شديد . فإن ما حققه لسنج في هذه الناحية قد كان عظيم الأثر في نظر الألمان وحدهم ، لأن لسنج قد عرفهم في رواياته (التي بدا فيها سعة الاطلاع) جوانب لم يعرفوها ، أو عرفوها في صورة ممسوخة . ولكن هذه الروايات لم تترك أثراً يستحق الذكر خارج ألمانيا ، ولم تستطع أن تنافس الروائع الكلاسيكية الفرنسية ، كما ظهرت فيها بحاكة واضحة لبعض القصص والروايات الإنجليزية ، كما حدث مثلاً في رواية « مس سارة سامسون - ١٧٥٥ » ، التي صادفت نجاحاً كبيراً في ألمانيا ، وتنبه المفكرون والنقاد إلى شدة تشابهها مع رواية The Merchant of London « تاجر لندن » تأليف ريتشاردسون ، التي اعتمدت حوادثها أيضاً على شخوص من الطبقة المتوسطة . وكانت هذه النزعة سائدة في القرن الثامن عشر ، واعتبرت انجهاً ثورياً . إذ جرت العادة في ذلك العهد أن تكون أحداث الروايات إما خاصة بالطبقة الأرستقراطية ، أو متجهة إلى السخرية من العوام للترفيه عن الأرستقراطيين .

وفي كوميديا « مينا فون بارنهيلم - ١٧٦٧ » استمر في اختيار شخوص روايته من أبناء الطبقة المتوسطة ، وتميزت هذه الرواية بأصالتها . إذ اختار لها شخصية حقيقية عرفها في حياته . هذه الشخصية هي شخصية الماحور المتقاعد فون تلهام . كما كان من بين شخصيات هذه الرواية : شخصية الأرملة التي ذهبت

(١) أول رواياته هي Der Freigeist (المفكر المتحرر) و Der Schatz (الكنز)

تطلب العون من المأجور ، وشخصية خطيبته التي تزوجها رغم أنه ، وشخصية الوصيفة اللعوب (التي تأثر فيها بالأدب الفرنسي) . ولم ينس لسنج في هذه الرواية تمجيد القومية الألمانية والجيش البروسي (الذي اشترك فيه زهاء أربع سنوات) وإظهار الولاء للملك فردريك . كما لم ينس السخرية من الفرنسيين . فن بن شخصيات هذه الرواية شخصية مغامر فرنسي يتكلم الألمانية بلكنة غريبة تثير الضحك .

وبلغت رواياته البورجوازية ذروتها في دراما « إميليا جالوتى » ١٧٧٢ التي عرض فيها الصراع بين البلاط والطبقة البورجوازية . وتمشياً مع الروح الجديدة التي اشهر بها القرن الثامن عشر ، تمثلت في الشخصيات البورجوازية التي ظهرت في هذه الرواية كل المثل العليا للفضيلة عند صراعها مع مؤامرات البلاط ودسائسه ، ومجون أبناء الطبقة الأرستقراطية .

وربما اعتبرت آخر رواياته الشعرية « ناثان الحكيم » ١٧٧٩ ، أفضل الدرامات التي ألفها . فقد بثها خلاصة تجاربه ومعتقداته . وفيها دعوة إلى التسامح ودعاية للسامونية واستنكار للجمود الدينى وضيق أفق بعض رجال الدين . ولعل مخطط رجال الدين البروتستانتين على هذه الرواية كان من أسباب شهرتها في خارج ألمانيا . وحاول لسنج تناول أسطورة الدكتور فاوستوس التي تدور حول حب العالم للحقيقة والآلام التي عاناها في سبيلها ، ولكنه عدل عن مشروعه ، بعد عدم اعتدائه إلى قرار حاسم حول دور الشيطان .

هذه الروايات كلها قد أثبتت حقيقة بالغة الأهمية ، وهي أن الإحاطة بالأصول الدرامية والشكل الفنى وطرافة الموضوع ليست سبباً كافياً لخلود أى عمل فنى . فهناك سر آخر وراء الخلود ، لعلنا ما زلنا بعيدين عن فهمه .

فاذا إنتقلنا إلى النوع الثانى ، وهو الكتابة النقدية التي توافقت أعظم توافق مع شخصية لسنج وجرائه وتعلقه بالحقائق ، والتي تركزت فيها عبقرية لسنج في النقد وكفاحه المستميت لإنشاء أدب ألماني متميز يمكن التفرقة بينه وبين الآداب المحيطة به ، ويجمع خلاصة مميزات الفن في عصوره المختلفة (هذه الكتابات التي دفعت ماكولاى إلى اعتبار لسنج أول ناقد عظيم يظهر في أوروبا وتناسى في هذا الرأى مونتاني الفرنسي في القرن السادس عشر) - فسرى أصالة حقة وألمعية فائقة قد جعلت كتبه في هذه الناحية جذيرة بكل إعجاب وبحث ودراسة واستقصاء . وفي هذه المقالات النقدية التي تناولت أهم قضايا الفن والأدب واللاهوت والتي كتبت في عبارة مشرقة مركزة خالية من الغموض والإبهام اللذين عرفا عن أكثر أدباء ألمانيا ، كتب لسنج نوعين من المقالات . اتجه النوع الأول إلى وضع أسس للأدب الألماني ، كما اتجه النوع الثانى إلى المشاركة في حل مشكلات الاستطيقا .

وظهرت مقالات النوع الأول في مجموعة مقالاته ودراساته التي نشرها في (١٧٥٨) في Litterature Briefe « الرسائل الأدبية » كما ظهرت أيضاً في المقالات التي نشرها في هامبورج عن الدراما تحت عنوان Hamburgische Dramaturgie ، والتي قصد بها النهوض بحركة التمثيل في ألمانيا . وكانت هذه المقالات تنشر في مجلة تصدر مرتين في الأسبوع وقصد بها نقد الممثلين ، وتعريفهم بأخطائهم ، كما قصد بها أيضاً تثقيف رواد المسرح والارتقاء بذوقهم الفنى .

وكتب لسنج أغلب هذه المقالات . ولكن المشروع توقف بعد سنتين بسبب نفور الممثلين من أية انتقادات توجه إليهم ، وبسبب عدم اقبال الجماهير على المناقشات المجردة التي تناولت الدراما ومهمتها وتاريخها . وإلى جانب ما تضمنته هذه المقالات من انتقادات لجوتشيد

ونبرات صوته ، وبعدهم التشبه بالبيغاوات ، كما أبدى أكثر من مرة إعجاباً بالممثلين اليونانيين القدامى (اعتماداً على ما ترويه المراجع عنهم ، ولو أنه شاهدتهم بنفسه لما اختلفت نظرتهم إليهم عن نظرتهم إلى معاصريه) وأرجع براعتهم في الأداء إلى تعلمهم البلاغة والخطابة اللتين كانتا في عهد لسنج قد بدأتا في الاضمحلال والتدهور .

وأغلب الانتقادات التي ذكرناها كانت موجهة إلى كورني بالذات ، وإن كان لسنج لم ينس غيره من الأدباء الفرنسيين ، وقد يستثنى من ذلك مولير وديدرو وحدهما . ففى هذه المقالات على سبيل المثال نقد وحرية لاذعان لرواية سميراميس لفولتير (لا أظن أن فولتير قد أحس بهما) وكيف ظن الكلاسيكيون الفرنسيون أن عظمة الدراما تستند إلى فخامة مناظرها وحشد الجموع على المسرح ، وحرر لسنج من الشبح الذى ظهر في سميراميس ، وقارنه بشبح هاملت الشهير ووصفه بأنه لا يثير رعب الأطفال أنفسهم . وعندما جعل فولتير الشبح يقتحم البرلمان في وضع النهار فانه قد دل بذلك على جهله بطبائع الأشباح ، لأنه قد نسى أن الأشباح لا تتصف بمثل هذه الجراءة . وأية امرأة عجوز تستطيع أن تعرف مدى خوف الأشباح من ضوء الشمس ومن اقترحام الجموع الكبيرة . وحرر لسنج أيضاً من شدة حرص فولتير على إرضاء السيدات المتأنقات عنسده تأليفه مسرحياته .

على هذا النحو ، كتب لسنج مقالات كانت بعيدة الأثر في إثارة اهتمام الألمان بالمسرح ، وكان لها بفضل طرافتها وأصاله نقدها وأسلوبها الساخر أثر عظيم خارج ألمانيا . واليوم هدأت المعركة الحامية الوطيس التي دارت في القرن الثامن عشر حول أى الفريقين أكثر تمثيلاً للروح الكلاسيكية الخلفية . واتضح لنا أن كليهما قد انحرف بتأثير روح القرن الثامن عشر عن القيود القديمة

بسبب انجذابه إلى محاكاة الكلاسيكيين الفرنسيين ، وانتقاد للشاعر كلويشتوك بسبب إصرافه العاطفى ، تناولت هذه المناقشات عدة مسائل أثارت الإهتمام خارج ألمانيا مثل نقده للأسس التي ابتكرها الأدباء والمفكرون الفرنسيون وقيدوا بها حرية الفن والأدب ، وارتكنوا عند اختراعها إلى بعض ملاحظات عابرة جاءت عند أرسطو كمسألة الوحدات الثلاث التي قدسها الفرنسيون ، ولم ينتبهوا إلى أن حالة التمثيل عند اليونان هي التي أرغمتهم على ضرورة التقيد بوحدة الزمن ووحدة المكان ، وإن كان أرسطو ذاته قد اعترف أن وحدة الفكرة هي الوحدة الأساسية في الدراما وأن الوحدتين الأخريين تابعتان لها .

واندفع لسنج أحياناً في الدفاع عن وجهة نظره فذكر مثلاً صلاحية تطبيق مذهب أرسطو في الدراما على درامات شكسبير ! . وكان شكسبير هو مثل لسنج الأعلى في الدراما . فهو وحده الذى فهم الإنسان ، وقدم أروع نماذج له كالتى نصادفها في شخصيات الملوك والمتسولين والبخلاء والمهرجين . كما أنه أفضل من أحاطوا بالعواطف الإنسانية كالغيرة والحسد والحقد . . . الخ . ودافع لسنج عن اتهام شكسبير بالخلط بين الكوميديا والمأساة ، وكان الحياة الإنسانية تعرف أى انفصال بينهما . وأشاد لسنج ببراعته في الربط بين الأحداث ورسم الشخصيات واختيار الشخصوى التي تساعد على توضيح الفكرة التي يسعى لعرضها على هكس ما يحدث في التراجيديات الفرنسية التي لا تعرف فيها سبباً لدخول الممثل المسرح أو خروجه منه ، والتي تفاجأ فيها بأحداث غريبة لا تمت بصلة إلى موضوع الرواية .

وكان لسنج ينصح الممثلين دوماً في هذه المقالات بالاندماج في أدوارهم والابتعاد عن كل آلية وتكلف ، وضرورة التحكم في كلماتهم وتعبيرهم وإيماءاتهم

ثعبانين كبيرين من جزيرة تنلوس لقتله وقتل إبنه ، وإن كان السبب الحقيقي لمقتله هو زواجه بغير إذن من أبولون .

واشتهرت القصة بعد ذلك عندما ردها فرجيل في إحدى قصائده ، وعندما صنع تمثال من الرخام يمثل الأب وإبنه في صراع مرير مع الثعبانين . وهذا التمثال محفوظ حالياً في الفاتيكان وهو من آيات المدرسة البرجانية ، وقام بنحته ثلاثة مثاليين من رودس هم : اجيساندر وبوليديوروس ، و أثيندورس (من مدرسة النصف الثاني من القرن الأول الميلادي) . وعرض هذا التمثال في قصر الإمبراطور تيتوس ، وكانت له قيمة فنية عظيمة في ذلك العهد . وعندما أعيد الكشف عن الآثار الرومانية كان من أوائل التماثيل التي ذاعت شهرتها . واختار لسنج لاسم هذا التمثال عنواناً طريفاً لكتابه الذي يتناول قضية إستراتيجية هامة هي إثبات الاختلاف بين التصوير والشعر ، واستحالة تطبيق قواعد واحدة على هذين الفنون . إذ يلزم مراعاة الفروق الكامنة في طبيعة كل منهما .

وما جعل الناس لا ينتبهون إلى هذه الحقيقة هو اعتقادهم أن الشعر والتصوير متشابهان ما دام الاثنان يتركان أثراً حسناً مهنياً في النفس ، أو اعتقاد الفلاسفة أن قواعد جمال الأجسام التي تراعى في التصوير ، يمكن تطبيقها على الأفعال والأفكار على نحو مشابه لتطبيقها على الأجسام . واندفع بعض النقاد وأرغموا الشعر على طرق مجالات لا يحسن الإفصاح عنها غير التصوير ، وسمح البعض للتصوير بتناول موضوعات لا تتناسب مع غير الشعر . وظهرت آثار هذا الخلط في الشعر في صورة افتتاح بالوصف ، وفي التصوير في صورة افتتاح بالمعاني الرمزية والمجازية . لقد أراد هؤلاء النقاد من المصورين إبداع لوحات مصورة ناطقة ، فكانت النتيجة هي ظهور قصائد شعرية خرساء .

ولا اختلاف في هذه الناحية يستحق الذكر بين كورني ولسنج . ففي هذا القرن كانت الروح الرومانتيكية قد بدأت تتسرب إلى الأدب والفنون في صور مختلفة . وبانت آثارها عند لسنج في شدة تحمسه لشكسبير واهتمامه بأشعار المايسترزينجر (أساطين الغناء) ، والميتزنجر ، ومحاولة الربط بينهما وبين القوالب الكلاسيكية القديمة .

ويبدو أن لسنج قد تأثر بالفرنسيين دون أن يدري ، ولقد اعترف هو ذاته بشدة تأثره بديدرو . وكل من يقرأ مقالاته ويعجب ببراعة منطقها وبما فيها من تدرج في عرض قضايا الفكر . إذ لا تستخلص فيها النتائج إلا بعد تريث في عرض خلاصة وجهات النظر ومناقشتها - يلمح على الفور مدى تأثره بالفرنسيين وبراعتهم في كتابة المقال .

وإن صح القول بأن اهتمامنا بهذه المقالات قد قل بعض الشيء عن اهتمام القرن الثامن عشر بها ، فإن الأمر لم يكن كذلك فيما يتعلق باللاؤوكون . فقد تناول لسنج في هذا الكتاب عدة مشكلات إستراتيجية قد أثرت تأثيراً هاماً على الإستراتيجية (الألمانية بوجه خاص) وما زلنا نشعر بآثار هذه المشكلات حتى وقتنا الحاضر . وهذه ناحية سرجى الكلام عنها حتى تنتهي من عرض الكتاب

اللاؤوكون

لاؤوكون أمير طرواى أسطوري كان أحياناً لأحد الكهنة الأبولونيين . وفي رواية أخرى أنه كان من كهنة بوسيدون . ولقد تناول مأساته كثيرون ، في طلبهم سوفكليس في رواية لم يبق منها إلا شذرات قليلة .

والرواية التي يقلها الثقات إلى حد بعيد هي القول بأن لآؤوكون قد أصر على مقاومة الحصان الخشبي الذي أنشئ لغزو طروادة ، فانتقم منه أبولون بأن دفع

ما قاله فنكلان إذن لم يكن صحيحاً ، فهو قد خلط بين التربية الأوروبية الحديثة التي تدعو الناس إلى ضبط النفس وعدم إظهار أى انفعال ، وبين أحوال اليونانيين الذين كانوا لا ينجلون من انفعالاتهم أو من أية مظاهر للضعف الإنساني ، بل كانوا يتركون أنفسهم على طبيعتها . ومع هذا فقد كان اليوناني يبذل قصارى جهده حتى لا يجعل أوجاعه وآلامه تحول دون إقدامه على القيام بأسمى أعمال البطولة التي تتجاوز كل حدود إنسانية . فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا أسمى أبطالهم ، وأخلداهم ذكراً ييكون في مواضع البكاء ، وبولولون ويندبون بغير شعور بأى خجل . وبوسعنا أن نذكر في هذا المقام هرقل الذي قد تبدو صرخاته وعويله هشة للسخرية في وقتنا الحالى ، ومتعارضة مع ما عرف عنه من شجاعة وجراءة وقوة .

خصائص التصوير

وبعد أن أثبت لسنج أن علامات المدوء التي ظهرت على تماثيل اللاووكون لا ترجع إلى خصائص يونانية فحسب ، كما بين فنكلان الذى خلط بين خصائص اليونانيين وخصائص الفنون التشكيلية ، أتجه في سبيل التهديد لنظريته إلى الكلام عن خصائص الفنون التشكيلية (التصوير والنحت) ، فقال إن التصوير وفقاً لمفهومه في القرن الثامن عشر ينزع إلى محاكاة الأشياء بغير التفات إلى مميزات الجمالية ، ولكنه كان عند اليونانيين مقصوراً على تصوير الأشياء الجميلة وحدها . فلم يتجه الفنانون اليونانيون إلى تصوير أى شيء غير الجميل ، وكانت أعمالهم الفنية تبعث السرور بسبب اكتمال الأشياء التي تمثلها . ونفروا لهذا السبب من رسم الأشياء القبيحة ، وبدلنا على ذلك إحجام أى مصور عن رسم أى شخصية تنسم بالانحراف أو تدعو إلى النفور ، بعكس ما يصنعه المحدثون (في رأى لسنج) . واشتركت الدولة أيضاً في إرغام الفنانين على ملاحظة الاقتصار على رسم الأشكال

هذه هي القضية التي تذكرها لسنج عندما قرأ وصف فنكلان (من أوائل مؤرخي الفن التشكيلي في العصر الحديث) لتمثال اللاووكون ، وقوله عنه إنه يمثل الصفاء والهدوء الروحي والبساطة ، أى الخصائص التي عرفت عن اليونانيين . فتعاير الأعمال الفنية عند اليونانيين - في نظر فنكلان - برغم اختلاف انفعالاتها لا تكشف إلا عن روح صافية وديعة . فلقد تعرض لاووكون وولده لآلام مبرحة يمكننا أن نتمثلها من منظر الشعبان المتضيقين حول بطنه . ولكن الوجه لا يظهر هذا الألم . ولم ينبعث من جوفه أى شيء بخلاف بعض الآثات الصامتة . فهو يتألم ، ولكن ألمه قد بدا في صورة اتسعت بالنبل والسمو ، بحيث أننا نتمنى تحمل الكوارث ونحن بروح سمحة مماثلة لروح هؤلاء الأبطال اليونانيين . أما الرومان - في نظر فنكلان أيضاً - فكانوا مختلفين عن اليونانيين . وبدلنا على ذلك أن الشاعر فرجيل قد تناول موضوع اللاووكون نفسه ، ولكننا نستطيع أن نستمع إلى صراخه في كل نبذة من نبرات قصيدته .

فسر فنكلان إذن الخلاف بين تماثيل لاووكون اليوناني وقصيدة لاووكون الرومانية ، بأنه اختلاف بين اليونانيين والرومان . ويرد لسنج على هذه الدعوى بالرجوع إلى أمثلة أدبية أخرى عند اليونان ، وبين أن هوميروس قد سمح لبعض شخصيات رواياته بالصراخ والعويل (على عكس اعتقاد فنكلان) . فالأله مارس ذاته عندما تعرض لسهم ديوميد قد صرخ صرخة هائلة وكان عشرة آلاف من المحاربين قد اشتركوا في الصراخ . وبرغم شدة عناية هوميروس بابرار اختلاف الآلهة عن الآدميين ، إلا أنه قد عمد في مسائل الألم والصراخ ، إلى جعلهم يتأوهون وبولولون كالآدميين سواء بسواء . فهم من حيث السلوك وحده آلهة ، أما من حيث مشاعرهم وانفعالاتهم فانهم يتأوهون ويعبرون مثل سائر البشر .

الجميلة . فقد حثت بعض القوانين اليونانية الفنانين على ضرورة مراعاة الجمال ، ودفعتهم إلى العناية باظهار الأشكال التي يقومون برسمها في صورة مثالية ، ومنعهم من الإساءة إلى كل مقاييس الجمال . وإلى نفس هذه الروح ، يمكن أن يذرى أيضاً تقليد إقامة نصب تذكاري لكل منتصر أولمبي ، وإقامة تماثيل للأبطال الذين ينتصرون في ثلاث مرات متعاقبة .

من هذا يتضح أن الجمال عند القدامى كان أسمى غاية تسعى لتحقيقها الفنون التشكيلية . وأدرك القدامى أن هناك بعض انفعالات ستبدو عند تصويرها على شكل تجميعيات قبيحة تسمى إلى جبال الوجه ، ومن ثم عملوا إما إلى تجنب إظهار هذه الانفعالات ، أو إظهارها في صورة مخففة لا تؤدي إلى تشويه الجمال ومسخه .

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية ، تحول تعبير مثل التعبير عن الغيظ والحنق إلى تعبيرات جادة وقوية ، وتحولت الكتابة والغم إلى أسمى وأسف ، واختفت كل مظاهر سوررات الغضب من أعمالهم الفنية . وعلينا عندما نشاهد اختلافاً بين الأعمال الفنية والأشياء التي تعبر عنها ألا نرجع ذلك إلى عجز الفنانين أو عدم قدرتهم على محاكاة التعابير التي تبدو قبيحة في حالة نقلها إلى التماثيل أو اللوحات ، بل علينا أن نرد ذلك إلى قاعدة أساسية شاعت عند اليونانيين وهي الاكتفاء بالمشاعر التي تجمع بين الجمال والسمو . ولذا كان الفنان يفضل إخفاء أية مشاعر تبدو في صورة غير مستحبة ، تسمى إلى عمله الفني . فكان لا يظهر مثل هذه المشاعر تاركاً للآخرين تأويلها أو استنباطها .

هذه القاعدة نصادفها في تماثيل اللاووكون . فقد حاول مبدعه تحقيق أسمى قدر من الجمال يتوافق مع الآلام التي تعانيها شخصيات هذا التمثال . فاضطر إلى تحويل الولولة والصيحات إلى تهديدات ، لا لأن الصيحة تدل على روح تفتقر إلى سمو ، إنما بسبب إساءة

شكل الصيحة إلى الجمال المراد إبرازه في التمثال ، ويمكننا أن نترك ذلك إذا تخيلنا لاووكون فاغراًفه ، أو مثأوها . إن شكله في هذه الحالة ، لن يبدو جميلاً حتى إذا عبر عن الجمال والألم في نفس الوقت . ولكننا سنراه شكلاً مفزعاً يثير الإشمئزاز . لأن منظر الألم من المناظر الكريمة ، ولن يدعونا إطلاقاً منظر المعاناة إلى الشعور بالشفقة . فشكل الغم وهو مفتوح سيبدو في أية لوحة مصورة كأنه بقعة سوداء . وفي النحت سيبدو مجرد فجوة قائمة ، وكلاهما من الأشياء التي تنفر منها العين .

وتغيرت الأحوال في الفن التشكيلي بعد ذلك في المصور الحديثة . فقبل إن غايتها قد أصبحت الحقيقة والتعبير . وكما نضحى الطبيعة بالجمال في سبيل غايتها ، كذلك ينبغي أن يخضع الفنان الجمال لغايات عمله الفني ، وألا يسمح بغير القدر الكافي من هذا الجمال الذي يتناسب مع الحقيقة والتعبير .

ويعترض لسنج عما يقال عن إمكان تحول غاية التصوير من الجمال إلى التعبير . وأول حجة يسوقها هي القول أن المصور لن يستطيع أن يرسم أكثر من لحظة عابرة للطبيعة الدائمة التغير والتقلب . وكل ما يهم المصور هو اختيار لحظة موفقة تحقق الغاية التي يسعى إليها ، وهي تقديم موضوع يصلح للمشاهدة والتأمل مراراً . فالتخيل إذن يلعب دوراً كبيراً في التصوير ، لأنه يحاول أن ينزع من الطبيعة أفضل ما تتضمنه من معان غير عابرة ، كما يحاول أن يصلح من عيوبها حتى يتسم بما ينتقيه منها بالكمال . ومن ثم يستبعد المصور التأوهات والصيحات لأنها مجرد أشياء عابرة لن تستمر طويلاً ، ولو ظهرت في أية لوحة ، أو في أي تمثال وعبرت عن معنى ثابت ، لدلت في هذه الحالة على الأنوثة بدلاً من دلالتها على القهولة . وكان هذا المعنى هو الذي جال مخاطر صاحب تمثال اللاووكون .

وإذا رجعنا إلى تيموماخوس (وكان من المصورين المولعين بتصوير المشاهد الشديدة الانفعال ،

فيلجأ لهذا السبب إلى إضافة مؤثرات أخرى تحقق هذه الغاية . فأحداث التعذيب مثلاً عندما تمثل على المسرح قد تدفعنا إلى الاستخفاف بها لشعورنا بأنها غير حقيقية ، ولذا يلجأ الشاعر الدرامي إلى سبل أخرى قد تحقق ما يبتغيه من تأثير ، كأن يعرض البطل للجوع أو العطش ، أو يجعله يشعر بآس قاتل . ومن الشخصيات الخالدة في الأدب اليوناني ، التي استطاعت تحقيق مثل هذا الأثر شخصية فيلوكتيس الذي ظهر محاطاً بكافة مظاهر الحرمان .

ولم يفهم كتاب الدراما الفرنسيون هذا المعنى ، وكادوا ينجحون في القضاء عليه ، عندما أحاطوا فيلوكتيس بالرفاق . وزارته في مكان عزله في الجزيرة الفقراء أميرة جميلة تصحبها وصيفتها ! وعلى حد تعبير لسنج : « لست أدري هل كان الموقف يتطلب مثل هذه الوصفة أم أن الشاعر الفرنسي هو الذي كان يشتهي مثل هذه الوصفة لنفسه . . فلا يمكن دئى شاعر فرنسي أن ينسى إظهار امرأة جميلة ذات عينيْن ساحرتين » .

أما أبطال الدرامات اليونانية فكانوا يعبرون عن كافة المشاعر التي يتعرض لها الإنسان ، فكان من بين هذه المشاعر ما يستدر الشفقة ، كما كان بينها ما يثير الملع والخوف . شيء واحد فقط كان الكاتب الدرامي يحرص عليه وهو عدم إساءة هذه المشاعر إلى بطولة شخص دراماته ، أو استحثاثنا على إزدراءها .

تمثال اللاووكون وقصيدة اللاووكون

وبعد أن تحدثت لسنج عن الاختلافات العامة بين الفنون التشكيلية والشعر أجه إلى الحديث عن كيف ظهرت آثار هذه الاختلافات في كل من تمثال اللاووكون وقصيدة اللاووكون .

ففي قصيدة اللاووكون وصف الشاعر الحيثيين ، وتعتمد المبالغة في إظهار طولها وإثارتها للرعب . إذ

ولوحته التي رسمها لأجاكس في حالة غضب ، والتي رسمها ميديا وهي تقتل أولادها من أخلد اللوحات في الفن اليوناني (سري إذا تأملنا لوحاته أن المصور قد تجنب إظهار اللحظة العارضة التي يرتفع فيها الانفعال إلى ذروته حتى لا تحدث أثراً سيئاً عند من يتأملون الصورة . فاختار لحظة أخرى سابقة لها . فلم يرسم ميديا مثلاً وهي تذبح أطفالها ، بل رسم موقفاً آخر . إذ فضل خضوعاً لغاية الجمال التي ينبغي أن تتحقق في التصوير أن يصور تردد ميديا الذي تغلب عليه عاطفة الأمومة ، على تصوير وحشيتها التي تتعارض مع الجمال . كما أن أجاكس لم يرسم في حالة هذيانه وغيابه عن الوعي ، بل رسمه تيمو ماخوس جالساً ، يشعر بالضيق بعد أن مرت نوبة الجنون التي تعرض لها . لقد رأى المصور أن الهدوء الذي يعقب العاصفة أكثر تعبيراً عن الجمال من منظر ثورة أجاكس وهذيانه .

خصائص الشعر

وبعد أن بين لسنج أن غاية التصوير هي الجمال ، انتقل إلى الكلام عن الشعر وذكر أن الشاعر غير مرغم البته على اختيار لحظة واحدة تمثل موضوعه الفني ، كما هو الحال عند المثال أو المصور ، لأن ما يعنيه هو عرض فكرة واحدة أو فعل واحد يستغرق لحظات متعددة . ففي قصيدة اللاووكون قام الشاعر بعرض قصة هذه الصبيحة ، وعرفنا بواعثها . ولم ينس المتحدث عن بطولة لاووكون ، وماضيه الوطني المجيد وبذلك أمكنه تعريفنا بأن صيحاته لا ترجع إلى نقص فيه ، بل هي ترجع إلى ألم تصعب مقاومته .

هذا يدل على أن الشعر لا يتجه إلى تخفيف التعبير أو إخفائه كما هو الحال في التصوير ، بل يعتمد إلى إبرازه ، لأنه غايته الأولى . فلا عجب إذن إذا رأينا الشاعر الدرامي في بعض أحيان يخشى ألا تكون الآلام التي يعرضها علينا غير كافية في التأثير على مشاعرنا ،

استطاعتنا الالتفاف حول الإبتين وحول الأب عندما هرع لإغاثنهما . وصور الشاعر الآلام التي لحقت بالجميع في صراعها مع هاتين الحيتين ، وكيف نفتت السم في وجه الأب هنا . حاول تخليص ولديه . وجعل الشاعر الدراعين حرتين طليقتين حتى يتسنى للأب وابنيه مقاومة الحيتين فيزداد من جراء ذلك الأثر الدرامى . فهل ٤٤ المثال إلى محاكاة الشاعر بغير قيد أو شرط ؟ . الواقع أن المثال قد اشترك مع الشاعر في ناحية واحدة فقط وهي عدم تقييد الدراعين . ولكن ثمة اختلافاً بعد ذلك بين التمثال والقصيدة . ففي القصيدة لفتت الحيتان مرتين حول جسم لاوؤكون ومرتين حول عنقه ، وكانت رأسهما تحلقان عالياً فوق رأس لاوؤكون . ونجح الشاعر بهذه الوسيلة في تحقيق غايته ، لأننا نستطيع أن ندرك الأوجاع التي لحقت بلاوؤكون بتأثير التضاف الثعبانين حول الجسم ، وتأثير السم الزعاف الذى نفث في وجهه . أما المثال ، فكان مضطراً إلى عدم تغطية سائر أجزاء الجسم ، لأن ما يهمه هو إبراز شكل عضلات جسم لاوؤكون ، و . . . تنقلص بتأثير مقاومتها للحيتين . والتضاف الحيتين حول العنق كان سيؤدى إلى إفساد الشكل المرمى للتمثال الذى ترتاح له العين . وعلو رأس الثعبانين فوق رأس لاوؤكون سيؤدى إلى جمال التمثال بغير شك ، كما نستطيع أن نلاحظ إذا تأملنا الصورة القبيحة التي رسمها أحد المصورين فيما بعد لهذا المشهد .

وتنبه المثالون القدامى إلى ضرورات فهم ، ولذا نقلوا التضافات الثعبانين من العنق وجذع الجسم إلى الأنفخاذاً والقديمين ، لأن إخفاءهما لن يؤدى إلى إضعاف التأثير الجمالى للتمثال . ولم يؤثر هذا المصروف البتة على معنى التمثال . فمن يتأمله يشعر على الفور بمحنة لاوؤكون وعدم قدرته على الحركة أو تحرير أعضائه جسمه .

ويذكر لسنج اختلافاً آخر بين القصيدة والتمثال : ففي القصيدة ، يرتدى لاوؤكون ملابس مهيبة : أما المثال فقد اتجه إلى تجريد شخصيات تمثاله من الثياب ، مما أدى إلى توجيه بعض انتقادات إليه بسبب تناسيه الأصول المرعية ، وعرضه مثل هذه الشخصية المهيبة في مثل هذه الصورة غير اللائقة . ولكن هؤلاء النقاد وأمثالهم قد تناسوا ضرورات فن النحت ، فنظر أى رداء سميك لن يكون مقبولا عند نحتته بواسطة الأحجار . ولهذا فضل المثالون الإبتعاد عن الحقيقة على علم مراعاة أصول فهم ، وعلى عدم مراعاة غاية النحت ، وهي الجلال ، لأن الرداء لن يبدو في صورته المنحوتة أجمل منه في الطبيعة على الإطلاق . ولن ينساوى شكل الرداء مع شكل الجسم في الجمال بأية حال . أما في القصيدة ، فلن وجود الرداء لن يفسد البتة من تأثير القصيدة . فهو لن يحول دون شعورنا بالآلام التي عاناها لاوؤكون ، بل لعله يزيد من هذا الأثر ؟

ويفترض لسنج الرأى المقابل لرأيه ، والذي لجأ إليه كثيرون من النقاد والمفكرين (أى القول بأن المثال قد أبدع التمثال قبل ظهور قصيدة الشعر ، أى أن القصيدة مستلهمة من التمثال . وهذه قضية هامة قد تعمقها كثيرون من المفكرين الألمان كان بينهم جوته وشوبنهاور ، ولن نخوض في تفاصيلها هنا) ويقول إنه لو حدث ذلك ما قنع الشاعر فرجيل إطلاقاً بمثل هذه الفكرة البسيطة التي ظهرت في تمثال اللاوؤكون ، ولصح قول ريشاردسون بأن الشاعر لم يلجأ إلى قصة اللاوؤكون إلا بوصفها مقدمة للوصف المؤثر للتدمير النهائى للمدينة . ولعل الشاعر قد قصد عندما أبرز الكارثة التي حلت بأحد المواطنين أن يسترعى انتباهنا إلى الكارثة الكبرى التي حلت بالمدينة .

اعتراضات على تناسي المفكرين الفروق بين الشعر والتصوير

وانتقل لسنج بعد ذلك إلى مناقشة المفكرين الذين أصرّوا على تأكيد التشابه بين التصوير والشعر والذين اعتقدوا أن الصلة بين الفنانين والشعراء صلة قائمة منذ الأزل ، فطالما تبادلاً التأثير . وفي مساواة هؤلاء المفكرين الشعر والتصوير تناسل للفروق الأساسية بينهما ، وكأنهما فن واحد تخضع لقواعد واحدة . واختار لسنج مفكراً إنجليزياً ثانوياً (لم يعد معروفاً الآن) هو جوزيف سبنس ، وصوب سهام نقده إليه . فقد تعرّس سبنس هذا عندما صادف اختلافات بين الشعر والتصوير عجز عن تفسيرها ، إذ تساءل — في دهشة — عن سرّ تحلى الإله باكوس بالقرون ، في الشعر ، بينما لا توجد قرون مماثلة في التماثيل . ولجأ سبنس إلى حجج مختلفة لتعليل ذلك كالقول بمجهل القدامى ، أو القول بصغر حجم القرون بما جعلها تختفي وراء النيجان أو أغصان الغار التي تحلى رؤوس الآلهة . كل هذه الحجج الباطلة قد أبعدته عن التفسير الحقيقي . فقد نسي أن قرون باكوس لم تكن قروناً حقيقية مثل قرون « الفون » و « الساتيرات » إنما كانت مجرد حلية توضع فوق الرأس ، ترتدى أو تنزع وفقاً للمناسبة . . والشاعر يستطيع اعتماداً على القرون الإيحاء بأفعال الآلهة ، وصفاتها . أما إظهار القرون في الفن التشكيلي ، فانه يؤدي إلى إفساد جمال الصورة ، أو جمال المثال .

ومثل آخر هو وصف الشاعر ستاتيوس والشاعر فاليريوس فلاكوس لفينوس وهي غاضبة ، بحيث بدت في تشبيهاً أحياناً شبيهة بعاصفة هوجاء ، بدلا من أن تشبه آلهة الحب . ولم يعثر سبنس في الأعمال الفنية القديمة على صورة لفينوس في حالة غضب . وفسر ذلك بالظن أن الشاعر يتميز بحرية أعظم من الحرية التي يتميز بها النحات أو المصور . ولكن غاب

عن فطنته أن كثيراً من الأشياء التي تبدو حسنة في الوصف الشعري ، لا تظهر كذلك في حالة المثال أو الصورة . وبدلاً من أن ينتهي سبنس إلى هذه النتيجة فانه قد وجه اللوم إلى الشاعرين المشار إليهما ، وذكر أنهما ينتميان إلى عصر اضمحل فيه الشعر الروماني ، فيدأ لهذا السبب في وصفهما لفينوس قدر كبير من سقم الذوق وفساد الحكم ، على عكس العصور الذهبية للشعر التي لا يصادف فيها أي ابتعاد عن قواعد التعبير الفني .

فلم ينتبه سبنس إذن إلى أن الآلهة والكائنات الروحية لا تظهر في الشعر والتصوير على نحو واحد . فالفن يعرض أشكالاً تجمع بين المعاني الجردة والمشخصة ، ويحاول استحثاثنا على الالتفات إلى المعاني الجردة وحدها ، وإلى إقناعنا بأن أي ملامح شخصية تحيط بها إنما جاءت بفعل ضرورات هذا الفن . أما عند الشاعر ، فإن الآلهة كائنات حقيقية فعالة تتصف إلى جانب خصائصها العامة بخصائص ومشاعر شخصية ، قد تغلب في بعض الأحيان على خصائصها العامة . وفينوس مثلاً لا تمثل في نظر الفنان أي شيء آخر غير الحب . ولذا فإنه مضطر إلى الاختصار في تعابيره الفنية على ما يوحى لنا بهذا المعنى . وبماكانه أن يصفى عليه بقصد استهواننا للنظر إليه بعض الملامح الجميلة الرشيقة — باعتبار أن الحب يقترن بالجمال والسحر . وأي انحراف عن هذه التأثيرات يؤدي إلى عدم تذوقنا للصورة أو المثال . فلماذا اتجه المصور إلى جعل الجمال يتصف بالسمو والجلال بدلا من التواضع فستتحول فينوس على الفور إلى آلهة أخرى هي يونون . ولو أنه جعل صعرها نابعا من الجبروت لتحولت إلى ميتراف .

من هذا يتضح أن ظهور فينوس في صورة غاضبة أو اتجاهها إلى الانتقام سيبدو في نظر المثال دليلاً على التناقض الصارخ :

أما في نظر الشاعر فإن فينوس لا تمثل الحب وحده بل هي آلهة حب . وإلى جانب هذه الصفة فإن لها صفاتها الأخرى المتصلة بشخصيتها . فلا بأس إذن إذا جعلها الشاعر ثور وتغضب .. الخ . والشاعر يستطيع أن يلجأ عند الوصف إلى معان سلبية وإلى الجمع بين أية خصائص مختلفة برغم تناقضها . فلا يهيمه أن تظهر فينوس دائماً في صورتها الرشيق ، أو أن ترتدى ثياباً ذات لون لازوردى . كل هذه الاختلافات بين الشعر والتصوير يدركها كل من يفهم التصوير فهما حقيقياً ، ويعرف أن أحكام أى منها لا تلزم بالضرورة في الفن الآخر .

وعند المقارنة بين المصور والشاعر ينبغي الالتفات إلى مدى الحرية التي تمتع بها الإثنان في إنجازهما لعملهما . فمن الواجب دراسة المؤثرات التي تأثر بها العمل الفني . وكثيراً ما كان للدين مثل هذا الأثر . ويظهر هذا في التماثيل المخصصة للعبادة ، والتي كثيراً ما اتجه الممثلون إلى إنقاذها بالرموز لكي تحدث الأثر المطلوب = وأدى عدم نقاء العمل الفني أحياناً بتأثير ذلك إلى إساءة تفسيره ، ونسبة أشياء بعيدة عن الفن إليه .

فالقرون التي ظهرت في تماثيل باكوس في معبد ليمنوس مثلاً ، كان الدافع لإبداعها هو إمساك ابنته بها لإنقاذ أبيها . ولكن الفنانين الذين لم يقصدوا إنشاء تماثيل لكي توضع في المعابد ، قد تمتعوا بحرية جعلتهم لا يلجأون إلى مثل هذا النوع من الرمز أو المسخ . ويستخلص لسنج من ذلك أن العمل الفني هو الشيء الذي أراد الفنان بإبداعه غاية فنية فحسب ، أى كان الجمال هو هدفه الوحيد . أما الأعمال الأخرى التي تشتمل منها أية غايات غير فنية فلا يصح نسبتها إلى الفن . والفنون التشكيلية - كما رأينا - لا تستهدف أى شيء آخر غير الجمال ، ولكنها إذا اضطرت إلى التعبير عن أية معان أخرى بعيدة عن رسالتها الأصلية ، فلنأخذ

نضطر إلى ابتكار رموز ، تصبح بمرور الزمن وبسبب كثرة تكرارها أصولاً مرجعية في الفن . وواضح أن الشاعر غير مرغى على اتباع مثل هذه الرموز ، لأن لغته تسمح بالتعبير في وضوح عن أى معنى يقصده بغير لجوء إلى رموز أو إشارات متفق عليها . ولذا تظهر في الفن رموز في كثير من الأحيان مثل شكل الأنثى التي تمسك باللجام في يدها للتعبير عن العفة أو التي تستند إلى عمود للتعبير عن الوفاء . والمصور ربما كان مضطراً إلى الاستعانة بهذه الرموز للتعبير عن مثل هذه المعاني ، ولكن هل هناك ضرورة تتطلب قيام الشاعر بالمثل .

وبعد أن انتهى لسنج من نقد سبنس تابع فكرته الأساسية لبيان الاختلاف بين الشعر والتصوير فانتقد الكونت كابلوس (Caylos) من أشراف فرنسا في القرن الثامن عشر ، وكان مولماً بالآثار والدراسات الكلاسيكية) ، لأنه قد خلط هو الآخر بينهما فظن أن من الواجب أن يلجأ الشاعر إلى الرموز وإلى المعاني الرمزية في شعره ، كما رأى أن الشعراء كثيراً ما تأثروا بالأعمال الفنية وقاموا بمحاكاتها في قصائدهم .

ولو صح هذا الكلام ، ولو صح قيام هوميرس بنقل المعاني التي ذكرها من بعض الأعمال الفنية التي اطلع عليها لأدى ذلك إلى انحطاط منزلته في تقديرنا بغير مراء .

ويميل لسنج إلى الاعتقاد بإمكان استيحاء المصور موضوعه من الشاعر ، وإن كان العكس غير صحيح . وتعليل ذلك هو أن التنفيذ في التصوير أعسر من الإبداع بعكس الشعر ففيه الإبداع هو كل شيء ، لأن انزعاع المعنى الشاعرى من الخيال أعسر بكثير من التعبير عنه في كلمات . والتعبير في الفنون التشكيلية اعتماداً على مادة وسيطة كالرخام مثلاً أشق بكثير من التعبير بوساطة الكلمات . من هذا يتضح أن التنفيذ (أو الناحية التقنية

في الفن كما نقول حالياً) في الفنون التشكيلية أكثر صعوبة من الإبداع والأصالة .

ويجذب لسنج فكرة استلهام الشعر في التصوير ويقول إن المصور الذي اتبع الأوصاف التي ذكرها الشاعر تومسون ، قد صور مشهداً جميلاً يفوق في جماله من اعتمد على الطبيعة اعتماداً مباشراً . فالمصور الثاني لا يصادف أى عناء لأنه يرى الأصل أمامه ، أما الأول فإنه يضطر إلى قدح زناد فكره حتى يتمكن من تمثيل الشيء الذي أمامه . والأول يبدع عملاً جميلاً اعتماداً على المحسوسات التي يراها ، أما الآخر فإنه لا يعتمد على أكثر من تمثيلات واهنة غامضة .

ولكن لسنج يستدرك ويذكر أن شعور الفنانين بأن الابتكار ثانوى في فهم لم يكن دائماً ذا أثر محمود . فإن معرفة الفنانين اعتماد براعتهم على التنفيذ قد جعلتهم أحياناً لا يبالون بالأصالة . ولهذا لم تتقدم الفنون التشكيلية تقدماً مماثلاً لما حدث في سائر الفنون . ولكن هذا التكرار ليس أمراً سيئاً كما يبدو لأول وهلة ، لأنه يساعد كثيراً على سرعة تأثير الفن التشكيلي وفوريته . ولعل السبب الذي دفع الفنانين إلى الخوف من الابتكار ليس صعوبات الناحية الآلية في التصوير واستغراقها وقتاً طويلاً كما ذهب الكونت كابلوس إنما يرجع بمعنى أصح إلى سبب أعمق من ذلك ، وهو التزام التصوير بحكم طبيعته موضوعات محددة كما سنرى .

وثمة اختلاف آخر بين الشعر والفن لأن الشعر قادر على تناول الموضوعات المرئية وغير المرئية على حد سواء . أما التصوير ، فإن موضوعه أساساً هو المرئيات . والمصور قد يتناسى أحياناً الاختلاف بين المرئيات وغير المرئيات فيترتب على ذلك إبداع أشياء ممسوخة أو تدعو إلى الحيرة . ويضرب لسنج مثلاً لبيان الاختلاف بين الشاعر والمصور في هذا الصدد فيذكر أن الشاعر عندما يتناول الصراع بين الآلهة ، فإنه يتناول

جوانب كثيرة غير مرئية ويتيح للخيال فرصة تأملها وتخييل الآلهة في عظمتهم وفي تسامهم على الآدميين ، ولكن المصور مقيد بعوائق فنه التي تترجمه على الاقتصار على المرئيات . فهو مرغم في حالة الآلهة على تصويرها في صورة أشخاص . ولو لجأ إلى تصخيمها أو تغيير ملامحها لبدت أقرب إلى الوحوش منها إلى الآلهة . والمبالغات التي قد يطالعنا بها الشعر عن قوة الآلهة وقدرتها على زحزحة الأحجار أو تصويبها مهما كان ثقلها — كالحجر الذي ألقيه مينرفا على مارس مثلاً — ستبدو غريبة لا معنى لها إذا أقدم أى مصور على تصويرها . فصور الآلهة قد نستطيع أن نتخيلها لو قرأنا الشعر ، ولكن التصوير يفسدها . ومهما انصف المصور بالبراعة ، فإنه لن يستطيع تصوير الآلهة في أية صورة أخرى غير صورة البشر .

ويلجأ المصورون عندما يحاولون الإيحاء بالأشياء غير المرئية إلى إحاطة الأشياء العادية بسحب رقيقة . والقصد من هذه الفكرة هو الإيحاء لمناهل الصورة بتناسى ما يرى في الصورة ، وبتخييل هذه الأشياء كأنها غير مرئية . وهذه الفكرة مأخوذة عن الشاعر هوميروس الذي كان يحيط أبطاله بسحابة رقيقة ، أو بالظلام ، عندما يريد إخفاءها من رماح الأعداء . هذا التعبير الشعري اللطيف عندما يتم نقله إلى التصوير فإنه يظهر في شكل سحابة حقيقية تختفي وراءها البطل ، وكأنه يختفي وراء ستار . مثل هذه الفكرة لن تبدو مستحبة على الدوام في التصوير ، ولن تمنى نفس المعنى المحازى الذي يقصده الشاعر ، لأن ما يقصده الشاعر هو القول : « عليك أن تتخيله وكأنه غير مرئي » .

ويحاول لسنج إثبات عدم صلاحية كل موضوعات الشعر للتصوير بالقول بأننا إذا افترضنا ضياع مؤلفات هوميروس كلها (الإلياذة والأوديسا) ، وأن ما بقي ليدكرنا بها كان مجرد لوحات مصورة تمثل بعض المشاهد التي استشهد بها الكونت كابلوس . فهل نستطيع

بمجرد الاطلاع على مثل هذه اللوحات نذكر ما كتبه هوميروس ؟

فلنتصور مثلاً قيام أى مصور بتصوير مشهد الطاعون ، كل ما يستطيع المصور فى هذه الحالة أن يفعله هو رسم جثث ومراسم جنازية ، وإله قابح فوق إحدى السحب (للإيهام بأنه شئ غير مرئى) . مثل هذا المعنى سيبدو هزئياً للغاية بالنسبة لأشعار هوميروس وناحية أخرى يتميز بها الشعر وهى الموسيقى التى تتردد أصداؤها فى مقاطعه ونبراته ، والتى تعجز فرشة المصور عن محاكاتها أو ترديدها . والتصوير لا يتفوق إلا فى رسم المربيات الثابتة بعكس الشعر الذى يستطيع أن يصور أى حركات متتابعة متلاحقة ، كصورة بانداروس مثلاً فى الكتاب الرابع من الإلياذة . وفيها صور لنا هوميروس بانداروس وكيف أمسك بالقوس فى يده ، كما صور لنا الحركات المتتالية للسهم ، بحيث يستطيع من لا يعرف أى شئ عن هذا الموضوع أن يتعلم فن القوس والسهم بمجرد اطلاعه على هذا الوصف . من هذا يتضح أن الشعر قادر على وصف المربيات التى تتعرض للتغير . بعكس التصوير ، فإنه لا يستطيع أن يعرفنا بغير المربيات الثابتة . فالتصوير إذن يعنى بالمكان وحده وبالأشياء المتجاورة ويتناسى وجود الزمان والأحداث التى تتعاقب فيه .

التصوير فى المكان والشعر فى الزمان

وبعد هذه المقارنات التفصيلية بين الشعر والتصوير ، حدد لسنج الموضوعات التى تصلح للتصوير فقال إنها الأجسام التى تتألف من أجزاء متراصة تقع فى مكان واحد . أما موضوع الشعر فهو الأفعال التى تحدث متعاقبة ومتتالية فى زمان .

ولو حاول التصوير عرض موضوعات الأفعال المتغيرة ما استطاع أن يقدمها إلا فى مجموعة من الصور

المتعاقبة التى لا تظهر فيها غير أجسام ثابتة . أما الحركة ، والأفعال وما تتعرض له من تغير ، فلأنها تستخلص من الاختلاف الذى يظهر فى هذه الصور .

والشعر يعنى بالأفعال ، ولكن الأفعال لا تحدث فى فراغ أو خواء ، بل يضطلع بها أشخاص . وقارئ الشعر يستطيع أن يدرك صورة الشخص القائم بهذه الأفعال من خلال وصف الشاعر .

ومن يتأمل هوميروس سيرى أنه لم يصف غير أحداث متعاقبة ولم يرسم صورة لشخصية أو لأجسام إلا عندما تطلبت الأحداث ذلك . فالصور التى رسمها لن تصلح مادة للتصوير - كما توهم النقاد - لأن ما يحتاج إليه المصور لكى يصوره هو كل مكتمل وليس أجزاء متعاقبة . ولو أقدم المصور على محاكاة هوميروس لكان بحاجة إلى عدد لا حصر له من الصور . ويكفى فى هذا الصدد ذكر مشهد إبحار السفينة ورسوها . مثل هذا المشهد لن يحتاج إلى ما هو أقل من خمس صور أو ست لو أريد التعبير بالصور عن كل المعانى التى قصدها هوميروس . وهوميروس لم يتورط إطلاقاً فى رسم الموضوعات التى يتفوق فيها التصوير بحكم طبيعته فهو مثلاً عندما أراد تصوير الصولجان لم يستطع بالطبع أن يظهر ألوانه المتعددة الساحرة فلبجأ إلى فكرة أخرى وهى سرد تاريخه وكيف صنعه الإله فولكان ، وكيف اكتسب بريقاً بفضل جوبيتر ، ثم تحلى به بعد ذلك الإله ميركورى ، وأصبح يمثل صولجان الحرب فى يد بتلوب ، كما يمثل عصا اترىوس الراعى المسالم .

ويقارن لسنج بين الشعر والتصوير فى ناحية هامة وهى ناحية البراعة فى الوصف . وهو يرى أن إدراك معالم أى شئ تتطلب نظرة خاطفة تنتقل بين أجزاء الشئ المختلفة بحيث تبدو كأنها نظرة واحدة . فالسرعة لازمة لكى ندرك أى شئ فى كليته وشموله . ولكن هذه السرعة تتعارض مع رسالة الشاعر ، لأنه فى انتقاله

من وصف جزء إلى جزء آخر غالباً ما يترتب : وغالباً ما يركز على جزء ما عندما يرى أن التركيز سيحدث الأثر الشاعري المطلوب . ويترب على ذلك في النهاية نسيان المستمعين للشعر ما قيل في أول الأبيات عند استماعهم وصف الأجزاء الأخيرة التي يصفها الشاعر . وما يسفر عنه ذلك هو تعذر الإحاطة بالكل في السرعة المطلوبة ، اللهم إلا إذا كان المستمعون يتمتعون بذاكرة فذة تساعدهم على نسيان هذه الفواصل الزمنية وعلى تجميع الأوصاف الجزئية بحيث تتحقق صورة شاملة واضحة .

إن مثل هذه الصورة الشاعرية الجامعة في وصف الأشياء غالباً ما تكون أكثر وهناً وتفككاً من أية صورة مرسومة تعتمد على الخطوط والألوان . صحيح أن اللغة لا تعجز عن تمثيل أى كل مادي ، ولكن يلزم في هذه الحالة مراعاة خاصيتين من خصائصها وهي أنها تتألف من ألفاظ لا تدل إلا على أشياء متتابعة وأنها قد نبعت من الأشخاص ولم تنبع من الأشياء ولذا تحتل كثرة من التأويلات . وإذا أمكن للمستمع التغاضي عن هاتين الخاصيتين وتناسى أن اللغة لا تعنى بغير الأشياء المتعاقبة في الأزمان ، وليس من شأنها وصف الأجسام المتجاورة في مكان واحد ، فإنه سيرضى عن الأوصاف التي يقرأها في الشعر ويستفيد منها .

ولكن هل يعد تمثيل اللغة عن هاتين الخاصيتين (عدم تحديداتها وتركيزها على الأشياء المتعاقبة) ميزة لها . إن الشعر في الواقع لا يهدف إلى الأوصاف الواضحة ، لأن هذه هي مهمة النثر . أما ما يرمى إليه الشعر فهو استحثاثنا على تخيل المشاعر التي كنا نشعر بها في حضرة الأشياء التي يتحدث عنها الشاعر . فإذا ترك الشاعر مثل هذه المهمة الجلييلة كان هذا دليلاً على إفلاسه . فلا عجب إذا نظر بوب في سنواته الأخيرة بازدياد إلى أشعار الوصف التي أضاع فيها وقته في صباه . كما أن كلايست قد نظر إلى قصيدته « الربيع »

نظرة خالية من كل تقدير . ولو قدر له أن يحيا طويلاً لما كان من المستبعد إقدامه على تغييرها . ويستخلص لسنج من هذه المناقشة قاعدة أساسية هي ضرورة تخصص الشاعر في المتعاقبات في الزمان ، وتخصص المصور في النواحي المتجاورة في المكان .

وتبعاً لهذه القاعدة انتقد قيام بعض المصورين مثل فرانسكر ما زولى لقيامه بتصوير مشهدين في نفس الصورة ، كما انتقد تيسان لإقدامه على تصوير قصة الابن المنحل وحياته التي سادها الإخلال ، وتعاسنه ثم تكفيره عن خطايا ، في صورة واحدة . فتجاوز مهمة التصوير (وهي رسم شيء مكتمل) والقيام برسم أحداث متفرقة متباعدة في الزمان يدل على عدم إدراك المصور لمهمته . ويعمد المصور البارع الذي يدرك قصور التصوير وإضطراره إلى التركيز على لحظة واحدة ، إلى اختيار أفضل اللحظات وأغناها بالمعاني ، كما يلجأ إلى البراعة في ترتيب شخوص صورته ، وإلى الاقتصاد في اختيار مكونات الصورة .

والشاعر بحكم هذه القاعدة مضطر إلى التركيز على جانب من الأحداث أو الأشياء التي يتحدث عنها ، بدلاً من سردا جملة واحدة . ولكن الشاعر ببراعته في اللغة قد يستطيع اختيار كلمات مشبعة بالمعاني تجعلنا نتوهم أنه قد جمع فيها أكبر قدر من الأوصاف التي يرى التعبير عنها . ولتضرب مثلاً لذلك هو وصف الدرع عند هوميروس « (وهي مسألة قد شغلت كثيرين من المفكرين في القرن الثامن عشر نذكر منهم الشاعر بوب ومدام دارسيه) فهو لم ينس في هذا الوصف الدقيق أن يعرفنا مادته وشكله وكل الصور التي كانت مرسومة على سطحه الرحيب مما ساعد المصورين المحدثين على إبداع رسوم تمثل هذه الأشكال تمثيلاً دقيقاً . ولا يفهم من ذلك أن هوميروس قد اعتدى على حدود الشعر . فهو لم يصف الدرع جملة واحدة ، بل وصف المراحل المتتابعة التي يمر بها صنع الدرع . فنحن

الجمال والدمامة في التصوير والشعر

وننتقل المقارنة بين الشعر والتصوير بعد ذلك إلى ناحية أخرى وهي القدرة على عرض الأشياء الجميلة . والجمال الطبيعي يعنى وجود اتساق وانسجام بين الأجزاء المختلفة . ولكي يظهر هذا الاتساق ينبغي أن توجد هذه الأجزاء متجاورة . لذا أصبح الجمال هو الموضوع الذى تتميز به الفنون التشكيلية .

أما الشاعر وبحكم اضطرابه إلى عرض الجمال اعتماداً على صور جزئية متعاقبة ، فإنه لا ينجح في إحداث تأثير مماثل لتأثير المصور ، ومن ثم فإنه يتجنب أى وصف للجمال على هذا النحو . فثمة اختلاف بين منظر أى شيء مكتمل الأجزاء ومنظره مجزأ إلى أجزاء متعاقبة . إن الحالة الأخيرة لا تستحثنا إلى الشعور بالجمال . اللهم إلا إذا تذكرنا حالات مكتملة مماثلة بمجرد رؤيتنا للقطات الجزئية التى يعرضها الشاعر :

وهوميروس هو أفضل من تنبه إلى هذه القاعدة أيضاً . فهو يكتفى بالإشادة بجمال هيلن ، ولكنه لا يقحم نفسه فى عرض تفاصيل مفاتها ، لأنه واثق أن مثل هذا العرض لن يساعد على إحداث الأثر المطلوب . فلا صحة إذن لاعتقاد بعض النقاد أن الشعراء العباقرة قادرون على تحقيق ما تنجح فى إبرازه اللوحة المصورة ويرى لسنج أن ما يمكن الإفصاح عنه على أفضل وجه بواسطة الخطوط والألوان ، هو شيء تعجز الكلمات عادة عن التعبير عنه . فإذا كان دولشي قد أنقذ على وصف الشاعر أريوستو لإحدى النساء الجميلات ، فإن لسنج بعد أن قرأ هذا الوصف يرى هذه القصيدة أفضل تحذير لجميع الشعراء بعدم اتباع مثل هذا الاتجاه غير السديد .

ربما استشفنا من بعض قصائد أريوستو بعض قواعد التناسب التى عرفها القداى : وربما اعتقد البعض أن هذه القصائد قد دلت على معرفة كاملة بالتلوين

لا نتخيل عندما نقرأ الوصف الدرع ذاته ، بل نتخيل اله اتع البارح عندما قام بصنعه ، فنراه وهو يمسك بالقادوم ، ويقف أمام الستدان ، ونرى الحديد عند صهره وسبكه ، كما نرى الصانع الفنان وهو يتخيل الأشكال المختلفة التى ينوى تزيين الدرع بها . ولكن النقاد الذين لم يرضوا عن وصف هوميروس للدرع قد انتقدوا هذا الوصف لعدم درايتهم بما بين الشعر والتصوير من اختلاف . فقليل إن هوميروس قد ملأ الدرع بعدد كبير من الأشكال ، ما كان ميسوراً أن يحتويها سطحه : وأثبت بوفان (عالم اليونانيات الفرنسى جان بوفان) ذلك عندما قام برسم تخطيطي للدرع وفقاً للأبعاد التى ذكرها هوميروس ، ولكنه نسي أن الشاعر لا يعنى بالأحداث أو الأوصاف باعتبارها متجاورة فى مكان واحد ، بل إن ما يعنيه هو اللحظات المتعاقبة التى قد لا يستوعبها مكان واحد . ولهذا فإنا إذا جمعنا صور هوميروس على شكل لحظات أى حولناها من صورتها الشعرية إلى الصورة التى تناسب التصوير . لاحتجنا بغير جدال إلى عدد كبير من الصور كل منها تمثل لحظة من الزمان . فكل مشهد من هذه المشاهد العديدة التى صورها الشاعر بأشعاره فى حاجة إلى صورة منفردة . هذه المعانى يستطيع الشاعر إدماجها فى صورة مركزة غير مقيدة بأى تجاوز فى المكان ، أو اشتراك فى لحظة واحدة كما هو الحال عند المصور .

وظن الشاعر بوب أن هوميروس قد صور هذه المشاهد وفقاً لقواعد التصوير ، أى أنه لاحظ التباين وقواعد المنظور . الخ . ولكنه تناسى أن فن التصوير أثناء حرب طروادة لم يكن قد توطد بعد كما شهد المؤرخ بوليني وآخرون ، وبدلاً من أن يعترف بوب بالاختلاف بين التصوير والشعر ، فإنه قد جعل الشاعر يتنبأ بقواعد التصوير التى ظهرت بعد أكثر من ألف سنة من وفاته .

لا تختلف عن معرفة تيسان بها ، ولكن ما هي الفائدة التي سنجنيها من قراءة بعض أشعار تعرفنا بالجمال في صورة مادية ؟ إن الشعر يرمى إلى شيء آخر وهو تعريفنا بالجمال الذي ينبض بالحياة ، والقصيدة الشعرية الحقة هي التي تدفعنا إلى الإحساس بالانفعال الصحيح الذي نشعر به في حضرة الجميل . فلا قيمة إذن لترديد الشاعر أوصاف الجمال التي نراها مصورة ، أو لترديده النسب المختلفة لتقاطيع الوجه . وكأن الشاعر مدرس رسم يعرف تلاميذه الصغار كيف يرسمون بعض نماذج الجمال :

وأحسن فرجيل (ولم يكن لسنج عليه كثيراً خصوصاً عندما كان يقارنه هوميروس) عندما أكد عجزه عن تصوير جمال هلين كما ينبغي ، وإن كان هذا لا يرجع إلى خطئه ، بل يرجع إلى حدود فنه . فهو إذن جدير بالثناء لأنه قد عرف كيف يراعى حدود هذا الفن ، لذا لجأ إلى حيلة طريقة لوصف الجمال . إذ تخيل رساماً يرسم معبودته في حضرتها . ولم يكن الشيء الذي ينبغي هو رؤية أجزاء الوجه وهي ترسم أمامه ، بل تخيل المحبوبة حاضرة أمامه وكأنها تتحدث أو تبسم . والشعر لن يخسر كثيراً إذا تجنب وصف الأشياء الجميلة لأنه يعوض ذلك بشيء آخر يتناسب مع قدراته وهي وصف الأثر الذي يحدثه الشيء الجميل ، وهكذا يستطيع أن يوحي لنا بوجود الشيء الجميل دون أن يعرض لنا تفاصيله . والشيء الذي تحدث عنه الشاعرة اليونانية سافو وجعلها تفقد وعيها وصوابها ، لا أخالنا نتصوره من الأشياء القبيحة . والشعر قادر على منافسة التصوير في وصف الجمال على نحو آخر عندما يحول الجمال إلى محر . والسحر عبارة عن جمال في صورة متحركة ، ومن ثم لا يصبح من الموضوعات التي تناسب التصوير . وموضوع الفن التشكيلي يقتصر على الموضوعات الثابتة كما رأينا ، لذا يترك المصور استخلاص الحركة لفطنة التأملين للوحاته .

ولقد طالب الشاعر أناكربون بالمستحيل من المصورين عندما طالبهم بجعل صورة محبوبته تنسم بالسحر الذي ينبغي أن يشع من ذقنها الرقيقة ومن عتقها المرمرى . فهل كان هذا ميسوراً ؟ . إن التصوير بمعناه الصحيح ليس قادراً على تحقيق ما يبتغيه أناكربون . فالمصور يستطيع رسم الذقن في أكمل استدارة ممكنة ، ويستطيع أن يبرز فتنة الوجه وملاحمه ، وأن يختار أفضل الألوان التي تناسب العنق بحيث يجعلها قريبة إلى الحياة ، ولكنه سينعثر لا محالة إذا حاول أن يخطو أية خطوة بعد ذلك . وبعد أن تحدث لسنج عن الجمال انتقل إلى الدمامة ، وما تعنيه في كل من الشعر والتصوير . ولكي نحكم على أي شيء بالدمامة علينا أن نراه مكتملاً ، لأن الدمامة لا تظهر كما ينبغي في حالة النقاط الجزئية . وهي في هذه الناحية ماثلة للجمال . وفقاً لذلك ، فإنها ليست من الموضوعات المناسبة للشعر . ومع كل هذا فقد رسم هوميروس الدمامة في أبشع صورها عندما تحدث عن أحد أبطاله . فما الذي دفعه إلى وصف الدمامة مع معرفته أن الشعر يختص بالصور المتلاحقة ، ومع إحجامه عن القيام بفعل مماثل في حالة الجمال ؟ . ألا تؤدي تجزئة أوصاف الدمامة إلى التخفيف من حدتها ، وإلى إضعاف الوصف كما يحدث في حالة الجمال ؟ . ويعترف لسنج بصحة هذا الرأي ، وإن كان هوميروس محقاً فيما اتبعه ، لأن تجزئة أوصاف الدمامة تؤدي إلى التخفيف من خصائصها المنفرة (!) ومن ثم يستطيع الشاعر تحويل هذه الدمامة إلى أشياء مثيرة للسخرية أو الرعب . فهوميروس قد صور الشخصية (التي أشرنا إليها) قبيحة لكي يجعلها مثيرة للسخرية . ولم يعتمد على الدمامة وحدها لإحداث هذا الأثر ، بل لجأ إلى إظهار التباين بين هذه الصورة القبيحة التي تبين عدم الاكتمال وبين صورة أخرى تمثل الكمال . والشيء المثير للسخرية لا يعتمد على قبح الملامح وحدها ، بل يجب أن تكمله صفات خلقية قبيحة كذلك . فايزوب كان سيتصف

إلى تخفيف نفورنا ، بل سيدهونا إلى التساؤل عما دفع الفنان إلى تخيله مثل هذا المعنى المنفر ، وإلى التشكك في سلامة ذوقه .

وربما قبل اننا قد نعجب بمثل هذه الصور التي تمثل الدمامة باعتبارها تشيع فضولنا وميلنا للاستطلاع . ولكن مثل هذا الشعور مؤقت لا يعتد به ، وسرعان ما يزول ولا يبقى سوى الشعور بالنفور من الأشياء الدميعة أو ما مماثلها .

والأمثلة التي ذكرها أرسطو للدمامة لا تمثل أشياء دميعة في الواقع ، لأن الحيوانات المتوحشة ليست دميعة ولكنها تثير الرعب . وسر شعورنا بالارتياح عندما نتأمل صورها هو أنها لا تماثلها من ناحية إثارتها للرعب ، إنما هي تشبهها من حيث المظهر وحده . وعلى ذلك يرفض لسنج اعتبار الدميم موضوعاً للفنون التشكيلية ، لأن الدمامة تثير النفور على الدوام ، ولا شيء يخفف من وطأتها . فهي قد تثير السخرية أمداً قصيراً في حالة عدم إحداثها أى ضرر ، ولكنها تظل بعد ذلك على الدوام موضع استهجان واستنكار .

والشاعر يستطيع تطعيم مبدعاته ببعض النواحي الدميعة المنفرة التي تنبأين مع الطابع العام لشعره فزبد من تأثيره . والأشياء المنفرة تساعد على إشاعة السخرية في حالة مقارنتها بالأشياء الجميلة ، كما يظهر لنا عنه أريستوفان . وأهم شرط عند تقديم المنفر في الشعر هو إحسان اختيار الموضع المناسب الذي لا يتعارض مع الأثر العام للقصيدة الشعرية أو الدراما في صورتها الكلية كما نلاحظ عند هوميروس وعند سوفوكليس .

• • •

واضح من هذا العرض شدة تعلق لسنج بالشعر ، واعتقاده أنه أسعى منزلة من التصوير . ولا أميل إلى إرجاع ذلك كما جاء في كثير من مراجع تاريخ الفن إلى نقص في معرفة لسنج بالفنون التشكيلية . فالأرجح في رأيي هو شدة تعصب المفكرين في القرن الثامن عشر

بقبح مماثل لشخصية هوميروس التي تحدثنا عنها ، لولا حكمته وفضله وأثرهما في الحيلولة دون إثارته للسخرية . والدمامة عندما لا يتسبب عنها أى ضرر تثير السخرية ، ولكنها عندما تحدث ضرراً تصبح شيئاً مثيراً للرعب . واستشهد لسنج بشكسبير في هذه الناحية ، وقارن بين شخصيتين من شخصياته أشهراً بميلهما للشر وهما إدموند الابن الحرام لإيرل جلوستر في رواية الملك لير ، وريتشارد دوق جلوستر الذي لجأ إلى كل الحيل الدينية والحيثية للحصول على العرش ، ونجح وأسمى نفسه ريتشارد الثالث . والشخصية الأولى لا تثير فينا رعباً مماثلاً للرعب الذي تحدثه الشخصية الثانية . فإن الشخصية الأولى - برغم شعورنا بما فيها من جوانب شريرة - تستدر شفقتنا وهي تشكو المجتمع وظلمه ، وأحكام الناس الخالية من كل شفقة . ولكن شخصية إيرل جلوستر في صورتها الشرسة المتغطرسة لا تمثل أى شيء سوى الشيطان ذاته .

ومن حيث الصلة بين الدمامة والتصوير ، فإن المصور قادر على محاكاة الدمامة ، لأنه يستطيع محاكاة جميع المراتبات ، الجميلة والقيحة على حد سواء . ولكن الفن الرفيع يمنع ذلك .

وقد يقال إن صور الأشياء القبيحة كثيراً ما تتحول إلى أشياء مستحبة . ويدلنا على ذلك أن المشاهد المروعة أو المحزنة ليست من المشاهد التي نفور منها عندما نراها مصورة ، لأننا لا نبغض الشر إلا إذا تصورناه شيئاً حقيقياً ، فاذا عرفنا أن الشرور أشياء موهومة مصطنعة ستتحول مشاعرنا من النفور إلى الارتياح .

ولكن النفور ليس مرتبطاً بحقيقة الشيء المنفر فحسب ، لأننا نشعر بنفور حتى إذا أدركنا أن ما نراه ليس شيئاً حقيقياً البتة . والأمر بالمثل فيما يتعلق بقبح الأشكال ، لأن الأشكال القبيحة تثير الاشتزاز ، وتعد شيئاً متعارضاً مع ميلنا إلى النظام والاتساق . واعتقادنا أن الأشياء التي نراها ليست حقيقية لن يؤدي

للحضارة الهلينية والرومانية . وفنونها . هذا التعصب هو الذى دفع لسنج إلى تناسى نقائص الفن التشكيلى القلمنى الأقرب عهداً من الفن اليونانى والرومانى . (وهو نفس السبب الذى دفع فنكلمان برغم معرفته الواسعة بالفنون التشكيلية إلى إصدار عدة أحكام يسخر فيها من الفن القلمنى) .

وأدى تركيز لسنج دراسته على الفن اليونانى إلى توهمه أن الجمال وحده هو غاية الفنون التشكيلية . هذا الحكم وإن صح عن آثار اليونان والرومان ، فإنه إن يصح إطلاقاً على العصور الذهبية للتصوير سواء عند الإغاليين فى عصر النهضة ، أو عند القلمنيين . أو عند الأسبان . أو عند المدارس الفرنسية المتعددة التى ظهرت فى القرن التاسع عشر . والتى لم يعرفها لسنج ، والتى أثبتت - كما أثبت رمبرانت من قبل - أن الفن التشكيلى لا يعرض لحظة من الزمان فحسب . كما اعتقد لسنج متأثراً بالمفكر الإنجليزى كيجز : بل هو قادر على عرف تاريخ طويل حافل . وما يميز به المصورون العبارة هو قدرتهم على رسم لوحات تظهر التغلب على كل معوقات فهم . ففى مثل هذه اللوحات : لا نرى ألواناً أو أشكالاً ثابتة فحسب . بل نتوهم أحياناً أنها تتحرك أمامنا . ونادر أن تشابهت نظراتنا المتكررة إلى أية لوحة خالدة . ففى كل مرة ننتبه إلى شىء جديد لم نكتشفه فى المرات السابقة .

وربما كان لسنج متشككاً فى صحة ادعائه . كما يتبين من ثائق اختبارات التى قمت بترجمتها فى نهاية البحث ، والتى تبين كيف يتعاقب المصورون على مظاهر الثبات والسكون فى لوحاتهم : فتبدو اللحظة الواحدة المشار إليها وكأنها تجر فى أذيالها جملة لحظات أخرى .

ومن الأفكار الهامة التى تضمنها كلام لسنج وأحدثت أثراً كبيراً فى الاستطيقا ، تفرقه بين فنون المكان وفنون الزمان . والألمان مولعون بمثل هذا النوع من

النظريات . كما تدلنا على ذلك تفرقة أخرى مشهورة لهم بين النظرة الطبيعية إلى الحياة والواقع والنظرة التاريخية . ولا أستطيع أن أؤكد وجود صلة واعية بين هاتين الفكرتين . ولست بحاجة إلى بيان بطلان هذه الفكرة . أو إلى القول بتغير نظرتنا إلى المكان والزمان تغيراً شاملاً . أى أننا نراها الآن فى صورة مغايرة إلى أبعد حد للصورة التى روعها لسنج .

هذا النقد لا يعنى تناسى قيمة الكتاب وأصالته : فلقد عرض مشكلة هامة بانت آثارها فى تاريخ الاستطيقا وفى تاريخ الفن ، وترتبت عليها عدة نتائج ما زلنا نعانى من آثارها حتى الآن . ففى أغلب الإستطيقيات التى ظهرت بعد لسنج (خصوصاً الألمانية منها) نصادف ترتيباً هرمياً للفنون . وهذه الفكرة تعنى وجود شىء مشترك بينها يسمح بمثل هذه المقارنة . وربما حدث تجاهل الاختلاف بين الفنون على نحو آخر . إذ اعتقد أحياناً أن مضمون الفن واحد والاختلاف هو اختلاف فى الشكل فحسب ، فقام الفنانون وفقاً لذلك بتقل موضوعات الفنون الأخرى وإعادة عرضها فى صورة لم تتناسب غالباً مع خصائص فهم .

وأغلب الظن أن الفنون التشكيلية : كانت أكثر الفنون تأثراً بهذه النزعة . إذ اعتبرتها أكثر المذاهب المثالية الألمانية أحط الفنون مرتبة بسبب شدة تقيدها بأخاكة الواقع . وهذا هو ما دفعها إلى التحرر من طابعها . فحاولت تقليد الموسيقى تارة وتقليد فن العمارة تارة أخرى . . . الخ . وما زال التصوير يعانى الأمرين بسبب حيرته التى تورط فيها ، أو بسبب إساعة المفكرين فهمه : أو تصورهم أنه أحط منزلة من الشعر والموسيقى .

فكتاب لسنج ، برغم عدم اكتماله : (لأن الشية كانت متجهة فى البداية إلى تأليف ثلاثة أجزاء فى هذا الموضوع) عظيم القيمة إذن : لأنه محاولة قيمة للتنبه

إلى ضرورة الالتفات إلى أوجه الخلاف بين الفنون ،
وإلى عدم افتعال أى تأثير متبادل بينها . وهو الأمر
الذى يعزى أحياناً إلى نبوع كل الفنون من الإنسان ،
أو من روح حضارية واحدة .

نماذج من الكتاب

التصوير فن المكان والشعر فن الزمان
(من الفصل السادس عشر)

... لو صبح القول أن التصوير يلجأ فيما يحاكي إلى
وسائل أو رموز مختلفة عن الوسائل والرموز المستعملة
في الشعر (التصوير يستخلم أشكالاً وألواناً في المكان ،
والشعر من ناحية أخرى يستخلم أصواتاً منطوقة في
الزمان) ، وإذا سلمنا بأن هذه الرموز ينبغي أن تتصل
اتصالاً مناسباً بالأشياء التي ترمز إليها . في هذه الحالة
فإن هذه الرموز عندما ترص متجاورة لن تستطيع أن
تعبّر إلا عن الموضوعات التي تتألف من أجزاء متراسة
بجوار بعضها البعض . كما أن الرموز المتتالية لن تعبّر
إلا عن موضوعات تتألف من أجزاء متتالية .

والموضوعات التي تتألف من أجزاء متجاورة
متراسة تسمى بالأجسام ، ومن ثم فإن الأجسام
بخصائصها المرئية هي الموضوع الذي يختص به التصوير
والموضوعات التي تتألف من أجزاء متتالية تسمى
بوجه عام بالأفعال ومن ثم فإن الأفعال هي الموضوع
الذي يختص به الشعر .

على أن الأجسام ليست موجودة في مكان فحسب ،
بل هي موجودة أيضاً في زمان . فهي مستمرة في
الوجود . وقد تظهر في أية لحظة من لحظاتها في مظهر
مختلف ، أو تتجمع مكوناتها في صورة مختلفة . وكل
مظهر من هذه المظاهر المؤقتة ، أو كل تكوين من
هذه التكوينات نتيجة لأشياء سابقة له . ومن ثم فإنه يعد
المحور الذي يتركز عليه أى فعل . من هذا يتضح أن

التصوير يستطيع أيضاً أن يحاكي الأفعال ، وإن كان
هذا لا يتحقق إلا في صورة غير مباشرة بوساطة
الأجسام .

ومن ناحية أخرى ، فإن الأفعال لا تستطيع أن
تحدث اعتماداً على نفسها ، بل ينبغي أن تكون مرتبطة
بكائنات معينة . فن حيث أن الكائنات إذن عبارة عن
أجسام ، أو ينظر إليها على هذا النحو ، لذا يستطيع
القول أن الشعر قادر على تصوير الأجسام ، وإن كان
هذا لا يتحقق إلا في صورة غير مباشرة بوساطة الأفعال .
فالتصوير بسبب تألف مبدعائه من أشياء متراسة
لن يستطيع أن يصور غير لحظة واحدة من اللحظات
التي يستغرقها أى فعل ، ومن ثم فإنه مضطر إلى اختيار
أنسب اللحظات التي توحى بالفعل ، وتشرح في
وضوح ما سبقها وما يعقبها .

وبالمثل ، فإن الشعر في مبدعائه التي تعتمد على
أحداث متلاحقة لن يستطيع الإفصاح عن أكثر من
خاصة واحدة من خصائص الأجسام ، ومن ثم فإن عليه
لاختيار الخاصة التي يستطيع أن تعرفنا في أكمل صورة
حسية مستطاعة الجسم المقصود ، والناحية التي يراد
تمثيلها .

...

مضى يمكن تجاوز حدود الشعر والتصوير
(من الفصل الثامن عشر)

... مرة أخرى إذن أوكد أن موضوع الشاعر
هو الأحداث المتعاقبة في الزمن ، أما المصور فموضوعه
هو ما يظهر في المكان .

وإن عرض حادثتين متباعدتين بالضرورة في نفس
الذرة الواحدة -- (كما فعل قرآنشكو مازول في عندما
صور لإغته اب نساء بعض القبائل ، كما بين في نفس
الذرة مصالحة النساء لأرواجهن وأقاربهن) أو كما
حدث عند تيسان الذي صور (قصة الابن المتهتك

وحياته المنحلة وتعاسته ثم ندمه في النهاية) - يعد تطفلاً من ناحية المصور في عالم الشاعر . وهو أمر لا يرضى عنه إطلاقاً أى ذوق سليم .

ومحاولة تعريف القارئ صورة الكل بتعداد الأجزاء المختلفة أو الأشياء المختلفة الواحدة تلو الأخرى (أى الأشياء التى لا يمكن الإحاطة بها في الحياة الفعلية إلا بمجرد نظرة خاطفة لو أريد التأثير بالشئ في شموله) يعد تطفلاً من الشاعر على عالم التصوير ، ويؤدى إلى تبديد قدر كبير من الخيال بغير مبرر .

إن التصوير والشعر يشبهان عالَمين متجاورين متحابين ، وبينهما لا يسمح الواحد منها للآخر بأى اعتداء على أراضيه ، إلا أنهما قد يسمحان في ترقق بأى أشياء تحدث على حدودهما ، أى أنها يتفاضيان في سلام عن أية اعتداءات صغيرة على حقوقهما بتأثير الظروف أو العجلة .

ولتأييد هذا الرأى لن أذكر ما يحدث في اللوحات التاريخية الكبرى عندما تمتد اللحظة الواحدة بعض الشئ ، ولكننى أكتفى بالقول بأنه قلما توجد لوحة واحدة غنية بالشخص ، تقوم فيها الشخصيات بعرض الحركة المناسبة أو الوضع الذى يتناسب مع حركة الفعل المطلوب . ففي بعضها تبدو الحركة أسرع مما يجب ، وفي البعض الآخر تظهر أبطأ قليلاً . هذه الحرية التى يتمتع بها الفنان ، ينبغى أن يحرص على موازنتها أثناء قيامه بترتيب مكونات لوحته كأن يبرز بعضها إلى الأمام أو يرجعها إلى الخلف وسوف أكتفى بذكر ملاحظة ذكرها امر منجز عن الأردية التى عرضها رافايل في لوحاته . فهو يذكر أن كل ثنايا الأردية في صورته كان لها ما يبررها . إذ كانت تدل على حركة الأطراف ، كما كانت تدل على اتجاهها . وفي بعض الأحيان كانت هذه الثنايا تعرفنا أشياء سابقة للوحة وبمكنتنا أن ندرك من شكل هذه الثنايا

هل تحركت الساق أو الذراع إلى الأمام أو إلى الخلف . أو هل بدأت حركتها من الانقباض إلى الاستقامة أو العكس . ولا يمكن أن ينكر أن الفنان في مثل هذه الحالات ، يحاول الجمع بين لحظتين في الوقت نفسه . فثلاً عندما تتحرك أية قدم إلى الأمام بعد انثنائها إلى الخلف ، يتبع ذلك على الفور حركة مماثلة في الرداء المحيط بها ، اللهم إلا إذا اتصف قماش الرداء بصلابته وفي هذه الحالة فإنه لن يناسب التصوير على الإطلاق . ولا يمكن للرداء أن ينثنى إلا الانثناءات التى يتطلبها وضع الساق على الذراع . وحتى ظهور ثنايا أخرى هو الجمع بين حركة الرداء في هذه اللحظة ، وحركته التى حدثت في لحظة سابقة لذلك . ولكن منذ الذى يصرف في هذه الحالة على ضرورة دقة المصور ، الذى ارتأى ضرورة عرض حادثتين ترجعان إلى لحظتين مختلفتين . ومنذ الذى لا يثنى عليه لأنه قد أدرك ذلك ، وتمتع بالشجاعة التى جماعته بقرص خطأ عديم الأهمية لتحقيق قدر أعظم من الكمال في التعبير .

ويغفر للشاعر اقتراف خطأ مماثل . فهو عندما يحاكي الأشياء المتعاقبة لا يسمح له في أية لحظة بتناول أكثر من جانب أو خاصية من الأشياء التى يعرضها . ولكن إذا تميزت لغته ببراعة تساعد على التعبير عن أكثر من معنى بوساطة أى كلمة واحدة ، فلماذا لا يفعل ذلك إننى لا أبغى من ذلك تبرير ما يقوم به الشاعر والمصور الاذان سبق أن جعلتهما شبيهين بالجارين المتحابين . فإن التشبيه ليس برهاناً على صحة هذه القضية ، أو مبرراً لعدم اتباعها . على أننا نستطيع القول بأنه كما تقترب في حالة المصور اللحظتان المتضادتان بحيث نتصورهما بغير تردد وكأنهما لحظة واحدة ، كذلك في حالة الشاعر ، فإن الملامح المتعددة التى تصور الأجزاء ، والتي تتبع زمانين بينهما تعاقب سريع ، يضيق فيه الفاصل الزمنى ، بحيث أننا نتخيل كأنهما قد حدثتا في وقت واحد

عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي

بمعلم

الدكتور أحمد عبد الرحمن مصطفى

وقد عاش المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي في الوقت الذي خيم فيه الركود على الوطن العربي ، وسجل في كتابه « عجائب الآثار » تاريخ مصر منذ أواخر القرن السابع عشر حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وقدم لنا صورة عن مصر لا تكاد تختلف في خطوطها العريضة عن صور الحياة في الخواضر العربية الأخرى ؛ الصورة التي قدمها البديري عن دمشق والغزي عن حلب ومطالع السعود عن بغداد . فصور الحياة في هذه الولايات العربية لا تكاد « تختلف إحداها عن الأخرى ، لأن المقومات التي قامت عليها حياة المجتمعات فيها تكاد تكون واحدة ، والأنظمة التي وضعها السلاطين العثمانيون لحكمها كانت واحدة »^(١) . ويسجل الجبرتي أن من أسباب تدوير الكتابة التاريخية في مصر العثمانية تسرب الكتب التاريخية من البلاد : « فلما لم نر من ذلك كله إلا بعض أجزاء مدشنة بقيت في بعض خزائن كتب الأوقاف في المدارس » ؛ كما يربط هاهنا الظاهرة بتعدد الفتن واستفحال النزاع بين الفرق العثمانية والبيوتات المملوكية وما ترتب على ذلك من تلف كثير من المكتبات :

ازدهرت مدرسة التاريخ في مصر في العصور الوسطى وبلغت أوجها في القرن الخامس عشر الميلادي^(٢) ، وكان هذا الازدهار مرتبطاً بوجه عام بما بلغته الحضارة العربية من تقدم وانتعاش . ثم طرأت عدة عوامل كان لها أثرها في اضمحلال الحضارة العربية ليس فقط في مصر ، بل في قواعدها الأخرى في المشرق والمغرب ؛ فقد استهلكت الحضارة العربية - الإسلامية حيويتها ، ثم تأثرت تأثراً بالغاً بتحول طرق التجارة عن مصر والمشرق العربي - في أعقاب حركة الكشف الجغرافية - إلى اخيطات والعالم الجديد ورأس الرجاء الصالح . وفي النهاية وقعت الكتلة العربية من العالم الإسلامي في أيدي الأتراك العثمانيين الذين آثروا لأسباب عسكرية ودينية ، أن يعزلوا ملكهم من العالم الخارجي . وحدث كل ذلك في الوقت الذي عرفت فيه أوروبا النهضة والإصلاح الديني وظهور الملكيات الحديثة التي ضعضعت الإقطاع وتحالفت مع الطبقة الوسطى لتدعيم الدولة الحديثة ، مصطنعة أساليب حديثة تقوم على وسائل الكشف والمخترعات .

(١) أحمد عزت عبد الكريم : حوادث دمشق اليومية ،

ص ١٠ .

(٢) انظر محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في

القرن الخامس عشر .

« ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب وأخذ الفرنسيون ما وجدوا إلى بلادهم » - هذا إلى ازورار الخاصة عن كتابة التاريخ : « وعدوه من شغل البطالين وقالوا أساطير الأولين » .

لهذا فإن ظهور مؤرخ كعبد الرحمن الجبرتي يعد ظاهرة متفردة ليس لها تفسير واضح ، وإن يكن هذا متصلاً بالبيئة العلمية التي نشأ فيها وبالظروف المادية التي أحاطت به ، وهي ظروف يسر لم تتح للكثير من الكتاب سواء في عصر الجبرتي أم في غير عصره . هذا إلى وضعه الاجتماعي الذي سهل عليه الإحاطة بأحداث عصره ، وحببه للاستطلاع الذي انتقل به إلى مواطن الأحداث ، وما تميز به من دقة وموضوعية . وأخيراً فإن معاصرته لعصور ثلاثة قد أضفى على تاريخه أهمية خاصة : فقد عاش الجبرتي في أواخر العصر المملوكي - العثماني وشهد الحملة الفرنسية وأوائل حكم محمد علي . وهو أول مفكر في مصر الحديثة نستطيع أن نستخلص من آثاره موقفه من حضارة الغرب ، لا لأنه - كما هو الحال بالنسبة إلى رفاة رافع الطهطاوي - قد لمس الحضارة الأوروبية في منابعها الأصلية ، بل لأنه عاصر أول عدوان أوروبي على مصر في العصر الحديث ، وبجمل انعكاساته لدى المصريين ، وهي انعكاسات يشبهها المؤرخ أرنولد توينبي بموقف بني البشر من أعمال مجموعة من السوهرمن .

عبد الرحمن الجبرتي

ولد عبد الرحمن الجبرتي في عام ١٧٥٤ م ، وكان الوحيد الذي تبقى من الأبناء الذكور الذين أنجبهم الشيخ حسن الجبرتي - وكان من علماء الأزهر - وهو ينتسب إلى أسرة نزع أجدادها من جبرت بالحيشة : وكان الشيخ حسن ذا أوقاف وأملاك تدر عليه موارد غير يسيرة وتضفى عليه بحبوحة من العيش وتمكنه من الإنفاق على كثير من المشايخ الناشئين والمهاجرين الذين

كانوا هم وغيرهم دائبي الترداد على منزله الكائن بجهة الصنادقية بالقاهرة العزبة . وقد لمس الشيخ حسن في ابنه ووحيد عبد الرحمن غايل النجابة : فقد حفظ القرآن وهو في سن الجادية عشرة ، وكان يصنى إلى أحاديث والده ويحاول أن يفهم ويستوعب ما يسمعه . لهذا أخذ الوالد يقص على الابن أحداث العصر وأخبار الولاة والأمراء والمشايخ الذين عرفوه - حتى إذا ما توفي ترك له أموالاً طائلة وصدقات وطيدة أطرافها الأشياخ والمريدون من الطلبة والأصدقاء من الأمراء والكبراء . وما نبث عبد الرحمن أن تخرج في الأزهر بعد أن درس شتى علوم الفقه واللغة . ثم أكب على خزانة والده يستزيد من علوم الفلك والحساب والهندسة وغير ذلك ، وعقد حلقات التدريس وفق ما جرت به عادة المبرزين من مشايخ الأزهر . ولم يكن الجبرتي راضياً عن زملائه في المهنة - وعدم الرضى « لهذا هو المشلول في كثير من الأحيان عن عادة التفكير الجاد والكتابة ، فقد أخذ عليهم أنهم « افتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم ، لا بمقدار حفظ التاموس مع ترك العمل بالكلية . وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء : : . واتخذوا الخدم والمقدمين والأعران وأجروا الحبس والتعزير والضرب بالفلقة والكرايج : . واستخدموا كتبة الأقباط وقطاع الجرائم والإرساليات فليلاد وقتلوا حتى طرف لأتباعهم ، وصارت لهم استعجالات وتحذيرات وإنذارات عن تأخر المطلوب مع عدم سماع شكاوى الفلاحين - . ومخاصمتهم القديمة مع بعضهم بموجبات الفحاسد والكراهية المحبولة والمركوزة في طباعهم الخبيثة . وانقلب الوضع فيهم بضده ، وصار دينهم واجتماعهم ذكر الأمور الدايوية والخصص والالتزام وحساب الميرى والفائز والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات والتشكى والتناجى مع الأقباط واستدعاء عظمائهم في جمعياتهم وولائهم والاعتناء بشأنهم والتفاخر بتردادهم والترداد عنهم والمهاداة فيما

بينهم . . . زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفام والتكالب على سقاسف الأمور وحفظ النفس على الأشياء الواهية مع ما جبلوا عليه من الشح والشكوى والاستجداء وفراغ الأعين والتطلع للأكل في ولائم الأغنياء والفقراء والمعاتبة عليها إن لم يدعوا إليها ، والتعريض بالطلب وإظهار الاحتياج لكثرة العيال والأتباع واتساع الدائرة وارتكابهم الأمور المخلة بالمروءة المقسطة للعدالة : كالاتحاد في سماع الملامى والأغاني والقيان والآلات المطربة وإعطاء الجوائز والنقود بمناداة الخلبوص وقوله وإعلامه في السامر^(١) « وقد زالت هيئتهم ووقارهم من النفوس وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحفظ النفسانية والوساوس الشيطانية ومشاركة الجهال في المآثم والمسارعة إلى الولاثم في الأفراح والمآثم ، يتكالبون على الأسطة كالبهاثم — فتراهم في كل دعوة ذاهبين وعلى الخوانات راكعين وللكيب والمحمرات خاطفين وعلى ما وجب عليهم من النصح تاركين »^(٢).

ولا شك أن الجبرتي قد سر حين طلب منه أستاذه محمد مرتضى الزبيدي أن يغاونه فيما بدأ فيه من الترجمة لأعلام المائة سنة المنصرمة : من مصريين وحجازيين ، خاصة وأن عبد الرحمن كان قد نشأ في بيت علم واتصل برجال مصر من أمراء وكبراء ومشايخ وأعيان . وقد أوصاه الزبيدي بالالتفات إلى الأعلام المشهورين و « بالتخير والتحرز » . وطلق الجبرتي يدون الأسماء — وكان من الطبيعي أن يبدأ بالمشايخ ، ومن كان منهم شيخاً للأزهر ، ثم أشياخ الأروقة وأرباب الحلقات ومن كان أبوه يطلق عليهم اسم « الطبقة العليا » ، ثم الطبقة التي تليها ممن اشتهروا بالعلوم الفقهية والعقلية والنقلية والشعر والأدب والخطابة

— وغير ذلك . كما شرع يدون أسماء أمراء الوجاقات والصناجق ومن بلغ منهم مشيخة البلد ومن شاركه في الحكم . وحين اتسع العمل أمامه طلب مساعدة صديقه إسماعيل الخشاب . ولما كان الخشاب من عدول المحكمة ، وبها صكوك وحجج : فقد طلب منه الجبرتي أن يدون أسماء الناس وأعمارهم — وكان يتردد على الديوان حيث دفتر الكتبة والمباشرين . وقرر الجبرتي الطواف بالقراصات لقراءة المتقوس على القبور ، والاتصال بأقرباء الذين ماتوا للرجوع إلى أوراقهم . إن كانت لهم أوراق .

وقد تعجل الجبرتي الترجمة لأشهر أعلام المائة المنصرمة ، وبذل جهداً كبيراً في تحري الأخبار الصادقة والتواريخ الدقيقة وتفصى آثار المترجم ثم لدى أهلهم وأصدقائهم . وجمع هذه التراجم في كراريس عديدة ، كما جمع إلى جانبها كثيراً من الحوادث والوقائع في أوراق متناثرة يسميها طيارات ، تستقل كل منها بحادث معين ينوى تحقيق صحته فيما بعد — وهذه الطيارات لا تكاد تختلف عن « الفيشات » التي يلجأ إليها الكتاب المحدثون .

وتبدو جدية الجبرتي في تحري الحقيقة التاريخية والدقة الموضوعية من قوله : « وانقضت السنة (١٢٢٥ هـ) بحوادثها التي قصصنا بعضها — إذ لا يمكن استيفائها للتباعد عن مباشرة الأمور وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم في الرواية — فلا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار — وغالبها من الأمور الكلية التي لا تقبل الكثير من التحريف . وربما أخرت قيد الحادثة حتى أثبتنا ويحدث غيرها وأنساها ، فأكتبها في طيارة حتى أقيدها في محلها إن شاء الله تعالى عند تهذيب هذه الكتابة — وكل ذلك من تشويش البال وتكدر الحال وهم العيال وكثرة الاشتغال وضعف البدن وضيق العطن (ج ٤ ، ص ١٢٤) .

(١) ج ٤ ص ٦٨ - ٩ .

(٢) نفس الجزء ص ٢٤٥ .

التركية - وتم ذلك في عام ١٨٠٧ ، بل إن يوسف باشا قد استشف تضلع الجبرقي في علم الفلك فعهد إليه بتحرير التقويم والتوقيت ورتب له مكافأة على قيامه بذلك .

وأغلب الظن أن الجبرقي لم يعتزل الحياة العامة بعد خروج الفرنسيين ، ولم يقتصر نشاطه على العلم والتأليف ، بل خاض مع المشايخ فيما خاضوا فيه من الاهتمام بشئون الرعية بقدر ما يسمح له بالالتفات إلى مشاغله الخاصة ، لا سيما وأن الثناء على كتابه « مظهر التقديس » قد قوى عزمه على متابعة مشروعه التاريخي : وفي عام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) ، وهو العام الذي اشتعلت فيه الثورة في القاهرة ضد فوضى الحكم العثماني وشهد تولية محمد علي ، رأى أن يجمع التاريخ الذي انشغل به خمس عشرة سنة ، وقد سهل عليه ما كتبه عن الحملة الفرنسية متابعة مشروعه ، فأخذ يستعين بأوراقه وكراريسه ويؤكد ذاكرته : فوضع تمهيداً تحدث فيه عن التاريخ وفائدته ، ثم أتبعه مقدمة ضافية تفلسف فيها في تقسيم طبقات الناس ، ثم بسط النصيحة للحكام بمراعاة العدل وحسن السياسة . ثم ألم إلمامة سريعة بتاريخ مصر حتى الفتح العثماني ، وتدرج منه إلى أواخر المائة الحادية عشرة . وإن يكن تاريخه يبدأ بالفعل بعام ١١٠٠ هـ (١٦٨٨ - ٩ م) ، يحكم أن نهاية المقدمة ليست بأى حال من الأحوال عرضاً منتظماً للأحداث ، بل إنها لا تحتوى على أية مادة تاريخية إلا في القليل النادر . وبعد المقدمة شرع يتابع السنين واحده فواحدة : يبسط حوادثها ثم يترجم لمن ماتوا فيها . ولما وصل إلى الحملة الفرنسية اكتفى بإثبات كتابه « مظهر التقديس » برمته بعد أن حذف مقدمته وبعض فصوله ، وعاد إلى أمانته التاريخية وقوم بعض الحوادث وصححها . ثم والى تنسيق الأحداث على النمط الذي اختطه لنفسه : فقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء ، وسار بالجزء الأول حتى آخر عام ١١٨٩ هـ وبالثاني

وحين أنت إلى مصر الحملة الفرنسية دون في كراريسه أعمالها ومنشورات القادة ومراسلاتهم كما وصلت إليه ، خاصة وأنه تردد على بعض منشاتهم وأقام بعض الصلات مع رجال الحملة وأصبح عضواً في الديوان الوطني في عهد الجنرال منو . وحين خرجت الحملة من مصر في عام ١٨٠١ رأى أن يشارك المصريين أفراسهم وأن يحتفى بالعثمانيين الذين عادوا إلى حكم مصر ، فوضع كتاباً سماه « مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين »^(١) أهده إلى الوزير العثماني يوسف باشا . ولا يستبعد أن الجبرقي الذي كان قد تعاون مع الفرنسيين قد خشي على نفسه بعد ذهابهم ، خاصة وقد انقلب المصريون على من تعاونوا مع الفرنسيين ، فألف كتاب « مظهر التقديس » ليبرئ نفسه ويعلن ولاءه للدولة العثمانية . وقد أفاض في هذا الكتاب في سرد أحداث الحملة الفرنسية ، ولم يذكر فيه شيئاً عن اتصاله بالفرنسيين وحضور حفلاتهم ومشاهدة تجاربهم العلمية ومفاوضة علمائهم ، وأغفل ورائق محاكمة سليمان الحلبي ، ولم يذكر عن نفسه أنه كان عضواً بالديوان الذي أنشأ منو . وأثر الجبرقي في كتابه أن يكون أسلوبه مرسلًا حين يسرد الأحداث اليومية ، ومسجوعاً حين يصف المارك والفتن - وهو نفس الأسلوب الذي اتبعه فيما بعد حين وضع كتابه « عجائب الآثار » . وحين عاد الوزير العثماني إلى الآستانة عرض الكتاب على السلطان سليم الثالث الذي أمر كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى

(١) يقال إن المؤرخ الراحل محمد شفيق غربال قد حقق « مظهر التقديس » تحقيقاً علمياً قبل وفاته . وقد نشرت وزارة التربية والتعليم المصرية تحقيقاً للكتاب قام عليه أحمد زكي عطية وعبد المنعم حامر ومحمد فهمي عبد اللطيف وحنفى حامر (١٩٩١) . كما قام محمد عطا بنشر مظهر التقديس في جزأين في سلسلة اخترنا لك (٥٩ - ٦٩ سنة ١٩٥٨) .

والجبرقي مخطوطة تحت عنوان « تاريخ مدة الفرنسيين بمصر » هي جزء من كتاب مظهر التقديس : يحتمل أنه وضعها في عام ١٢٩٨ بسبب انفعاله بمجادة احتلال الفرنسيين لمصر .

حتى آخر عام ١٢١٢ هـ وبالثالث حتى آخر عام ١٢٢٠ هـ - وأسماؤه عجائب الآثار في التراجم والأخبار - .
وقد انتهى الجبرتي من تدوين هذه الأجزاء الثلاثة في عام ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) (١).

وقد وقف الجبرتي من محمد علي موقف المعارضة العنيفة منذ أوائل حكمه ، وظل حتى عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) - وهو عام وفاته - يدون الحوادث على الطريقة التي شرحناها ، ويسندها إلى مصدر ثقة أو شاهد عيان أو شاهد سماع . وفيما يتعلق بالأحداث العامة كان يتوجه بنفسه لمعاينتها ، وكان يتصل بمن يأنس فيهم الاتصال بالأحداث . لهذا فإن الجزء الرابع أقرب إلى مذكرات كان يبنى النفس بتدبيرها وتنسيقها ، وفصوله مسهبة وسياقه منتظم ، وإن بدت بعض الفصول ممعنة في القصر .

وفي عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م) قتل ابنه خليل . وقد كثرت الإشاعات والأقاويل بهذا الصدد ، وقيل إن الحادثة متصلة بنقده لحكم محمد علي . وأياً كان الأمر ، فقد تأثر الجبرتي تأثراً عميقاً بهذه المفاجعة ، فلم يقو على استكمال تاريخه - وكان قد وصل فيه إلى أحداث الثورة اليونانية . وظل يندب ابنه حتى ذهب بصره ، وقبع في داره أعمى لا يقرأ ولا يكتب إلى أن أدركته الوفاة - وهذا مما يفسر أن نهاية الجزء الرابع من تاريخه تبدو مبتورة (٢).

(١) أدى انتشار هذه الأجزاء الثلاثة في حياته إلى عدا بعض المشايخ له بوجه خاص . وذلك لما احتوى عليه تاريخه من نقد مرير لبعض الناس .
(٢) يذكر موريه في بحثه :

Reputed Autographs of Abd al-Rahman al-Jabarti and Related Problem.

أن الجبرتي ظل حتى نهاية حياته يبيع وينسخ الكتب في القاهرة ، وأنه لهذا خط أكثر من نسخة من كتبه التاريخية . قارن هذا بتحليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتي .

وقد بقي تاريخ الجبرتي معظوراً طبعه وتداوله إلى أن رفع الخطر في عهد الخديو توفيق - فطبع الجزءان الثالث والرابع ، ثم طبع الجزءان الأول والثاني في عهد الخديو عباس الثاني . وفيما بين عامي ١٨٨٨ و ١٨٩٦ ظهرت له ترجمة فرنسية كاملة في تسعة أجزاء قام بها شفيق منصور (يكن) وعبد العزيز خليل وجبرائيل نقولا كحبل وإسكندر عمون تحت عنوان :

Merveilles topographiques et historiques ou chroniques du Cheikh Abd el-Rahman el-Djabarti.

وترجم بعض الجزءين الثالث والرابع إلى اللغة الروسية ، مع مقدمة وبعض الملاحظات تحت عنوان :

I.M. Fil'shtinsky, Egipet v period ekspeditsii Bonaparta, 1798-1801 ; Kh. I. Kil'berg. Egipet pod vlast'yu Mukhammada Ali, 1806-1821 ; (Moscow, 1962-63).

وصدر لتاريخ الجبرتي فهرس تاريخي وضعه جاستون ثييت وعبد الرحمن زكي تحت عنوان « فهرس عجائب الآثار في التراجم والأخبار » (١). هذا إلى المختصرات التي توخت تبسيط هذا التاريخ وتقديمه إلى القارئ العادي - ومن ذلك « المختار من تاريخ الجبرتي » الذي قام عليه محمد قنديل البعلی ونشرته مطابع الشعب في عام ١٩٥٨ في عدة أجزاء .

أهمية تاريخ الجبرتي

لم يقتصر الاهتمام بتاريخ الجبرتي علينا نحن العرب بل إنه أثار الاهتمام في العالم الخارجي حيث اهتم به الباحثون والمستشرقون واعتبروه مصدراً رئيسياً لا غنى عنه بالنسبة إلى تاريخ مصر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . ومن ذلك أن ماكسونالد - في دائرة المعارف الإسلامية - يقول عن تاريخ الجبرتي إنه « باعتباره صورة تفصيلية للحياة الشرقية له

(١) القاهرة ١٩٥٤ .

قيمة اجتماعية عظيمة — وقد أفاد منه لين لهذا الغرض في التعليقات التي وضعها لكتاب ألف ليلة وليلة . وما يجعل كتاب « عجائب الآثار » مصدراً من الدرجة الأولى ما تميز به مؤلفه من دقة واستقصاء للأحداث والتحفظ في ذكرها . كما أنه يتميز بالموضوعية التي نستشفها من تأكيده أنه يكتب للحقيقة والتاريخ : « ولم أقصد بجمعته خدمة ذي جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير . ولم أداهن فيه دولة بفتاق أو مدح أو ذم مبالغ للأخلاق . . . ليل نفساني أو غرض جسماني » . وهذه الموضوعية لا تجعل من تاريخ الجبرتي عرضاً بارداً للأحداث ، بل إن كتاباته تفيض بالحرارة التي من ورائها عمق انفعاله بالأحداث . ثم إن الجبرتي يحب لبلده ، يشاركه أفراحه وأتراحه — فهو لا يقتصر على تسجيل الأحداث والنظر إليها من بعيد بحجة التجرد والموضوعية المطلقة التي هي خرافة في مجال العلوم الإنسانية ، طالما أن من يكتب كائن حي لا بد له ميوله وانجذاراته وانفعالاته . وما يجعل تاريخ الجبرتي صورة نابضة بالحياة أن تاريخ مصر العثمانية أغنى بكثير من تاريخ سوريا أو العراق في نفس هذه الفترة ، وإن يكن هذا لا يقلل من تمكنه كؤرخ : فقارئ الجبرتي يحس دائماً بالحياة الجياشة التي يصورها وأنه يعيش في أجو الحقيقي لمصر وللعصر ، خاصة وأنه تميز بالتسخر المباشر إلى لب الموضوع الذي يدونه ومن رسم صورة كاملة نابضة بالحياة .

وقد امتاز الجبرتي عن تقدمه من مؤرخي مصر بأنه لم يقصر اهتمامه على عالية القوم والأحداث الهامة : فقد عنى بالأمور الجليلية والحقيرة والرفيعة والوضيعة ، ولم يدع شيئاً نهي إلى علمه ، مهما عظم أو صغر ، إلا ودونه في دقة مذهشة . وهو يحب للإتيان حيناً ، عجل بزم أحياناً . لذلك نراه دقيق التحري أميناً في النقل نزيهاً في الرواية ، يكشف عن آرائه فيما يعرض له : فينبسط ويتقبض ويسخر ويتهمك ويشط ويغضب .

وهو دقيق الملاحظة ألمع الذكاء نفاذ البصيرة . إلا أنه مهما حاول السمو عن مستوى عصره ، فقد بقي مشدوداً إليه لا يسمو إلى النظرة الشاملة . وهو ضيق الأفق يحكم بيئته ، لا يعرف شيئاً عما نسميه بالسياسة العليا ، ولا يتنبه إلى كبار الأوروبيين الذين زاروا مصر في حياته . وقد أولع بالتغني بالعدل والتشجيع على ظلم الحكام — وهو يفهم أن العدل إنما هو إقامة الشريعة والرفق بالريعية ، مما جعله يقف موقف النقد والتحدى من مستحذات الأمور ، وخاصة ما جاءت به الحملة الفرنسية . فهو من رجال الدين يحكم بيئته ووضعه الاجتماعي ووظيفته ، لا يسمو إلى مستوى فحول الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ممن وصلت بهم حضارتهم إلى درجة من الثقة بالنفس لا تستنكف الأخذ والعطاء ، بل تعدد مصدراً من مصادر تجديد الحوافز وشحن العزائم .

وقد تأثر الجبرتي كثيراً بالصدقة والصحبة : فهو يعلن ميوله الشخصية وإثارة هذا على ذلك . ولهذا كان لوالده وأصدقائه والده وأشياخه نصيب وافر من تاريخه ، مع محاولة الإنصاف وإجتهاد النفس على تحري الحق أو ما يراه حقاً . وقد أتقن فن الترجمة بقدر ما أتبع له ، وبرع في تصوير الشخصية وإبراز خلق المترجم لم براعة فائقة . على أن ولعه بالتراجم جعله يترجم لكل من عرفهم ومن لم يعرفهم من كبراء وأمرأ ، ومن كل ربيع ووضع ، حتى إنه ترجم لخدمة النعال في المساجد والوقادين والمجنوبين ، بل لمن لا يعرف لم ترجمة . ولعله انفرد بين المؤرخين بالتوسع في وصف القاهرة ومساجدها وشوارعها وعطفاها وتاريخ ما فيها من قصور وقلاع ومنازل . ولقد أسهب في ذكر الشعراء ، يستشهد بالكثير من شعرهم ، وقد يستشهد بشعر بعض المتقدمين ، ولكنه لا يشعر بتضلعه في الأدب والشعر . ثم إنه فقيه صوفي لا بد أن يولي همه مشايخ الصوفية ويشرح نعمياتهم وأغازهم . وهو أيضاً

عالم فلكي يجب أن يذكر الأحداث الفلكية ويحاول تفسير الحوادث على ضوءها في بعض الأحيان — ولعل تضلعه في العلوم الحسابية جعله يطيل الجدل في النقود وسكها وما فيها من ذهب وقضة . ولقد عني عناية خاصة بالسلع وأثمانها وتوفرها ونقصها ، وأصبح يستعيد الذكريات القديمة حتى يصلها بما سبق له تدوينه أيام اشتغاله بالتراجم لشيخه مرتضى الزبيدي : فيسرد حوادث السنة متابعاً ترتيب الشهور ، ثم يحتملها بتلخيص الحالة العامة وتراجم الذين ماتوا .

والجبرتي في الجزئين الأول والثاني من « عجائب الآثار » ينقل عن غيره من المؤرخين : كالإسماعلي والدمرداشي وأحمد شاذي عبد الغني . ولهذا فإن قيمة مؤلفه في هذين الجزعين — باستثناء ما عاصره ودونه في النصف الثاني من الجزء الثاني — لا يعتد بها كثيراً من الناحية العلمية بسبب نقله من عدة مصادر دون تمحيص . وفي بداية الجزء الأول نجده متحفظاً إلى أقصى حد فيما يتعلق بمصادر أوائل الحكم العثماني لمصر — ومن ثم فليس ثمة دليل على إشارته إلى ابن إياس والقرماني وابن زنبيل باعتبارهم ثقات عن الفتح العثماني — إذ أن وصفه لهذه الحادثة من القصر بحيث لا يمكننا التحقق من مصادره . ومع ذلك فإنه أسهب في وصف تعادى الفرق العثمانية وتنافس أمراء المماليك على الحكم ووسائلهم ومصارعهم . والحملة الفرنسية التي يبدأ بها الجزء الثالث تعتبر حداً فاصلاً في تاريخ الجبرتي . فقد كانت مصر حتى الحملة لا تزال غارقة في سبات العصور الوسطى ، إلى أن آذنت الحملة برجعها إلى المشاركة في الفكر العالمي . والفارق كبير بين العقلية الأوروبية التي مثلتها الحملة وبين العقلية الشرقية التي كانت تتمثل في مصر المملوكية — العثمانية بمقدار الفارق الزمني الطويل الذي قطعناه في تأخر وقطعته أوروبا في تقدم . ولقد حدث الأثر الجديد في مصر في عهد الحملة الفرنسية ذاتها وإن كان قد بدأ ضعيفاً . فالصريون قد ذهلوا لمقارنة

تأخرهم بتفوق حكامهم الجدد — ونلاحظ ذلك كله في الجبرتي ذاته ، فإنه يمثل أفكار عصره . ومما يدل على الأثر الجديد الذي امتد إليه أنه بات بعد وفود الفرنسيين إلى مصر أكثر نقداً وجرياً وراء الأسباب والنتائج ، وقد قل تعصبه الديني للدرجة التي أدت به إلى تمحي زوال العثمانيين . كما قل أثر غيبية التفكير في تفسيره للأحداث ، وإن ظل حتى نهاية حياته محدود الأفق : إذ لم يستطع التخلص من إطار العام الذي شكل تفكيره وبنيت عليه شخصيته .

وهو يبدأ الجزء الثالث بالكلام عن سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) — عام نزول الفرنسيين أرض مصر ، وبعد هذه السنة « أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل المائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأحوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب — وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » . وبهذا يلمح الجبرتي إلى استحقاق أهل مصر لما نزل بهم من كارثة الغزو الأجنبي . والصفحات القائمة التي خصصها لحكم إبراهيم ومراد في الجزء الثاني من تاريخه لا تترك مجالاً للشك في أنه كان يكن لهذا العهد مقتناً شديداً مرده ألوان المظالم التي أنزلها الحكام بالمحكومين وفساد طوية الرعية . فالأجناد « متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم وزفاهيتهم ، مختالون في ريشهم مغترون بجمعهم محفرون شأن علومهم مرتبكون في رويهم مغمورون في غفلتهم — وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم » . أما الفلاحون فقد سلط الله عليهم « بسوء أفعالهم وعدم ديانتهم وإضرارهم لبعضهم البعض من لا يرحمهم ولا يعفو عنهم . . . وإذا التزم بهم ذو رحمة ازدروه في أعينهم واستهانوا به وبخدمه وماطلوه في الخراج وسموه بأسماء

النساء وتمنوا زوال التزامهم وولاية غيره من الجبارين الذين لا يخافون ربهم ولا يرحمهم لينالوا بذلك أغراضهم بوصول الأذى لبعضهم . وكذلك أشياخهم إذا لم يكن الملزم ظالماً يتمكنون هم أيضاً من ظلم فلاحهم لأنهم لم يحصل لهم رواجع إلا بطلب الملزم . أما العلماء فقد سبق أن أشرنا إلى رأى الجبرقي فيهم ، وهو رأى يدل على انحذار مستواهم وعدم ارتفاعهم إلى مستوى الوضع الذى خلعه على أنفسهم ، أو خلعته عليهم القيم الإسلامية كما كانت عليه في العصور الوسطى .

وبرتبط أثر الحملة الفرنسية في تفكير الجبرقي بما أثارته في آفاق المصريين بوجه عام : فقد كانت بالنسبة إلى المصريين بمثابة تحد ضخم لم ولقوماتهم . حقيقة إنها فشلت في خلق نظام سياسى - اجتماعى على أنقاض فوضى الممالك ، كما فشلت في تطوير نوع من الحكم الذاتى لم يكن مقصوداً لذاته على أى حال . بل كان مجرد وسيلة للربط بين الحاكم والمحكوم ، وفي محاولة إرساء دعائم إدارة مدنية حديثة تحت السيطرة الفرنسية . وحقيقة أيضاً إن قصر مدة الاحتلال الفرنسى وعداء السكان للفرنسيين قد عرقلا انتشار أية مؤثرات أوروبية في المجالين الاجتماعى والثقافى . إلا أنها - من ناحية أخرى - مهدت قوى الممالك المادية والمعنوية . ومهدت للقضاء النهائى عليهم وبالتالى أفسحت المجال لإدخال النظم الحديثة . وأهم من هذا أنها أوجدت أمام المصريين نمطاً حضارياً متفوقاً نظروا إليه بعين الشك لمخالفته لمألوفهم . ولكنهم لم يكونوا يستطيعوا مدافعة أثره في بعضهم : كالشيخ حسن العطار وعقوب حنا وغيرهما .

ويستقيم الجبرقي ما شاءت له ميوله وتقاليده مستحدثات الفرنسيين : كانهفلات بعض الرجال والنساء وتحللهم من التل الأخلاقية التى انطبع بها المجتمع المصرى خاصة وقد أبيع البغاء العلنى ، وسفرت بعض النساء ولبسن الملابس الملونة واختلطن بالرجال ،

وتمردت بعض الفئات الاجتماعية على الأوضاع الموروثة وارتدت ما كان محرماً عليها من ملابس وامتنعت الخيول وتحدثت العرف الإسلامى بالأكل والشرب علناً في رمضان وبتعاطى المسكرات . وتداخل الفرنسيون في صميم حياة الناس فنهبوا عليهم بالامتناع عن دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن ، وبشرب الثياب والأمتعة والفرش والأسطحة عدة أيام وبتبخير البيوت خوفاً من الطاعون . وهدموا المساطب والبوابات جرياً وراء تحصين القاهرة واشتدوا في الإرهاب والتنكيل خاصة كلما نشبت ثورة أو اضطراب . ومع ذلك فهو يندد بالهياج الشعبى وما اتصف به من إسراف - فهو يقول في وصف ثورة القاهرة الأولى : « وخرجت العامة عن الحد وبالفوا في القضية بالعكس والطرء . وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب ، فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور التصارى الشوام والأروام ، وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام . وأخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات » .

وتبدو موضوعية الجبرقي من إشارات بحب الفرنسيين للعلم - فهو يسجل أنهم أفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية وأنهم جعلوا بيت حسن كدشف جركس مكتبة رحبوا بزوارها : « حتى أسافلهم من العساكر إذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمتنعون الدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بلباشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له كل مودتهم ومحبتهم - ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء » وأشد بأنهم « كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرهم المعتادة ويصرفونهم بعد الظهر ويستعينون في الأشغال

وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة في العمل وقلة الكلفة : كاستعمال العربات ذات العجل لنقل التراب بدلا من النقل اليدوي البحت في الغلقان والقصاع وغير ذلك . ومن الأمثلة التي يسوقها الجبرتي لتزخعي الفرنسيين احترام القانون ما ذكره من إعدام بعض جنودهم الذين قاموا بأعمال السطو — فقد « قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيين وبنّدقوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة قبل إنهم من المتسلقين على الدور » . ومنها أيضاً ما ذكره وهو نص بيان الديوان الذي أشار إلى عقاب بونايرت للخارجين على القانون ولو كانوا من جنسه أو ملته : « وقد اقتصر من عسكره الذين أساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهري وقتل منهم اثنين بقراميدان وأنزل طائفة منهم من مقامهم العالي إلى أدنى مقام ، لأن الخيانة ليست من عسادة الفرنسيين خصوصاً مع النساء والأرامل ، فإن ذلك قبيح عندهم لا يفعله إلا كل خسيس » . وقد استفاض في وصف محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر وأعجب بطريقة الفرنسيين في المحاكمة التي أحيطت بكافة ضمانات العدالة ، واكتشف أن الإجراءات الجنائية لها قوانين تنظمها ، كما أورد تقرير الطبيب الشرعي والجراح عن إصابات كليبر وسبب وفاته وشهادة الشهود وكل ما ورد بملف القضية من استجوابات في محضر التحقيق وأشاد بعناية المحاكمة .

وهكذا كان الجبرتي من القليلين الذين أعجبوا بما يستحق الإعجاب من أعمال الفرنسيين . فلقد حاول بونايرت أن يرضى المصريين بشق الوسائل : فهو يفهمهم أنه أتى إلى مصر برضى السلطان العثماني ، ويلوح لهم بالحكم الذاتي ، ويستثير فيهم مصر الفرعونية التي تقطعت بها الأسباب ، ويخاطبهم بلغة الثورة الفرنسية الداعية إلى الحرية والمساواة . ولكن العلماء أبوا تزوين صدورهم بالطيلسان المثلث الألوان رمز الثورة الفرنسية الذي كان يتلقفه الأحرار في أوروبا — بل رأوا فيه رجساً من

عمل الشيطان — ويصف هذه الحادثة بقوله : « طلب صاري عسكر بونايرته المشايخ ، فلما استقروا عنده نهض بونايرته من المجلس ورجع ويده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلي — فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشرفاوي فرمى به إلى الأرض واستغفى وتغير مزاجه وامتقع لونه واحتد طبعه . فقال الترجمان : يا مشايخ أنتم صرتم أحباب الصاري عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تميزتم بذلك عظمتمكم العساكر والناس وصار لكم منزلة في قلوبهم — فقالوا له : لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا المسلمين » . ورفض العلماء أن يعينوا قاضياً من بينهم بدل القاضي التركي قائلين إن تعيينه من حق السلطان ، وأنكروا عرض بونايرت الوظائف عليهم وقالوا له إن العامة لا يخشون سوى الأتراك . واشتد المصريون في قتال الفرنسيين حين اصطدم تصورهم للحكم ووظيفته ومداه بتصورهم — فقد كانوا لا يكادون يعرفون لهم حكومة حقيقية تحكمهم وكان تدخل الإدارة العثمانية في شئونهم ضيقاً متقطعاً — هذا بينما الفرنسيون قد جاءوا من عالم تطور فيه الحكم إلى حلقة متتابعة من الأنظمة الدقيقة المتصلة بنشاط الأفراد جميعاً . وكان هذا التطور هو الذي وجههم إلى تنظيم الملكية وترتيب الأحوال الشخصية وإعادة ربط الضرائب . وكان هذا كله ، بالإضافة إلى الشعور الديني ، من وراء ثورة القاهريين مرتين على الحكم الفردي واستمرار أعمال التمرد في الأقاليم .

وجلا الفرنسيون عن مصر في عام ١٨٠١ ، وتعرضت البلاد للقلق العام المترتب على النزاع على السلطة وسوء سلوك الجند العثمانيين الذين اعتبروا مصر بلداً مفتوحاً يسوغ لهم أن يطلقوا فيه العنان لغرائزهم ولصوصيتهم . وخرج الشعب يدافع عن وجوده وكرامته ، فنهأت مصر لحركة شعبية إيجابية وصلت

إلى حد الثورة ، وحاصرت الطوائف الشعبية القلعة وأعلنت خلع الوالى العثماني خورشيد باشا الذى اعترض على ما حدث وعده اعتداء على حقوق السلطان وقال إن الفلاحين لا يملكون حق خلعهم . وركب الجميع إلى بيت محمد على وقالوا له : « إننا لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا ولا بد من عزله من الولاية » - فقال : « ومن تريدونه يكون والياً ؟ » قالوا له : « لا نرضى إلا بك وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير » . وتزعم هذه الحركة قادة المصريين من المشايخ - وعلى رأسهم نقيب الأشراف عمر مكرم - الذين اعتبروا أنفسهم أولى الأمر لأنهم حملة الشريعة المتصدون لرفع الظلم .

وناصب الجبرتي محمد على العداء « لأن في طبعه داء الحسد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم » ، ولأنه « فتح بابه لنصارى الأروام والأرمن فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم ولبسوا الملابس الفاخرة وركبوا البغال والرهوانات وأخذوا بيوت الأعيان التي يحصر القدماء وعمروها وزخرفوها وعملوا فيها بساتين وجنائن وذلك خلاف البيوت التي لم يداخل المدينة - ويركب الكلب منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم والقواسم » - ولأنه « يحب الشوكة ونفوذ أوامره في كل مرام ولا يصطفى ويحب إلا من لا يعارضه ولو في جزئية أو يفتح له باباً يهب منه ريح الدراهم والدنانير أو يدله على ما فيه كسب أو ريح من أى طريق أو سبب من أى ملة كان » - ولأنه « لم يكن له من الشغل إلا صرف همته وعقله وفكرته في تحصيل المال والمكاسب وقطع أرزاق المسترزقين والحجر والاحتكار لجميع الأسباب ، ولا يتقرب إليه من يريد قربه إلا بمساعدته على مراداته ومقاصده ومن كان بخلاف ذلك فلا حظ له معه مطلقاً ، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب ، ولو على سبيل التشفع ، حقد عليه وأبعدته وعاداه معاداة من لا يصفو أبداً » :

وضاق الجبرتي بإجراءات الاحتكار التي طبقها محمد على وما كان من « استمرار المبتدعات والمكوس والتحكير وإهمال السوقه والمتسبين حتى عم غلو الأسعار في كل شيء » . وبحكم وضعه الطبقي والاجتماعي أخذ يندد بتضييق الوالى الجديد على الطبقات الغنية القديمة : من ملتزمين وأعيان ونظار أوقاف وكبار تجار - وغير ذلك . بل إن إبراهيم باشا ، ابن الوالى وحاكم الصعيد ، اشتد على أصحاب الحقوق المكتسبة : « وإذا قال المتشفع والمترجى للمتأمر ينبى مراعاة مثل هذا ومساعدته لأنه يطعم الطعام وتنزل بداره الضيقان فيقول له : ومن كلفه بذلك ؟ فيقال له : وكيف يفعل إذا نزلت به الضيوف على حسب ما اعتادوه ؟ فيقول : يشترى ما يأكلون بدراهمهم من أكياسهم وينقلون أبوابهم ويشغلون بأنفسهم وعيالهم ويقتصدون في معاشهم فيعتادون ذلك ، وهذا الذى يفعلونه بتبذير وإسراف ونحو ذلك على حسب حالهم وشأنهم في بلادهم ، ويقول الديوان أحق بهذا ، فإن عليه مصاريف ونفقات ومهمات ومحاربات الأعداء » .

ولكن الجبرتي لا يتخلى عن موضوعيته ، فيشيد ببعض ما قام به محمد على من أعمال كإعادته لاسد الموصل إلى الإسكندرية ، وكان قد تخرب وزحف منه ماء البحر المالح وأتلف أراضى كثيرة وخربت منه قرى ومزارع . ووصف محمد على بأنه له « مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذا الزمان » ، وإن يكن قد تحفظ بقوله : « فلو وفقه الله لشيء من العدالة ، على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » . وحين بنى محمد على حائطين في رشيد على يمين البوغاز وشماله ينحصر بينهما الماء فلا تطنى الرمال وقت ضعف النيل ، أكبره الجبرتي ووصف ما قام به بأنه « من أعظم النعم الملوكية التي لم يسبق لمثلها » . وحدث أن مصرياً - اسمه حسين جلبي عجوه - ابتكر جهازاً يوفر نصف الطاقة الحيوانية

اللازمة لدق الأرز ، فشجعه محمد على واقنعه بأن في أولاد مصر نجابة وقابلة للمعارف - فعمل على تعليم بعضهم .

وهكذا يقف الجبرتي شامخاً باعتباره المؤرخ المصري الذي توخى الحقيقة التاريخية ، ولم يقف من الأحداث موقفاً سلبياً ، بل انغمس فيها وعمل على تسجيلها . وهو من آخر من كتبوا الحوليات في مصر : إذ ما لبث أن انصبت على البلاد الموجة الغربية التي جرفت الكثير من الأساليب والعادات القديمة . وفي مجال التاريخ أخذت تظهر المؤلفات التي تتوخى الاهتمام بالأسباب والنتائج ، وتنحو منحى الوحدة الموضوعية وربط أطراف الموضوعات التاريخية بعضها ببعض . كما ظهرت الكتابات التاريخية المتخصصة ، وتطورت كتابة التراجم ، وظهرت فيها اتجاهات تنزع إلى التحليل النفسي وتبرز أثر البيئة المادية والمعنوية . على أن كل ذلك يتصل بتاريخ النهضة الفكرية في مصر الحديثة .

مصادر البحث

أ - العربية

- أحمد عزت عبد الكريم : حوادث دمشق البيوتية (١١٥٤ - ١١٧٠ هـ - ١٧٤١ - ١٧٦٢ م) -
 جمعها الشيخ أحمد قليدري الخلاق ونقحها
 الشيخ محمد سيد القاسمي (القاهرة ١٩٥٩) .
 جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر . (القاهرة ١٩٥٨) .
 خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتي - سلسلة اقرأ : رقم ٧٠ (القاهرة ١٩٤٩) .
 صبحي وحيد : في أصول المسألة المصرية (القاهرة ١٩٥٠) .
 عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار - طبعة بولاق .
 : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين - نشر وزارة التربية والتعليم المصرية (١٩٦١) .
 لويس عوض : المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث - المبحث الثاني : الفكر السياسي والاجتماعي - القسم الأول : من الحملة الفرنسية إلى عهد إسماعيل . (القاهرة ١٩٦٣) .
 محمد أحمد أنيس : مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني . (القاهرة ١٩٦٢) .
 : حقائق عن عبد الرحمن الجبرتي مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية - المجلدان التاسع والعاشر من المجلة التاريخية المصرية (١٩٦٠ - ١٩٦٢) .
 محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر (القاهرة ١٩٤٩) .

ب - الافرنجية

- Ayalon, David, The Historian al-Jabarti, in : Historians of the Middle East, edited by Bernard Lewis and P.M. Holt. (London, 1962).
 — Holt, P.M., Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt (B.S.O.A.S., XXV, part I, London, 1962, pp. 38-51).
 — Moreh, S., Reputed Autographs of Abd al-Rahman al-Jabarti and Related Problems. (B.S.O.A.S., XXVIII, part 3, London, 1965, pp. 524-540).

مؤلفات الجبرتي

- ١ - عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٤ أجزاء) .
- ٢ - مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين .
- ٣ - تاريخ مدة الفرنسيين بمصر .
- ٤ - مختصر تذكرة الشيخ داوود الأنطاكي .
- ٥ - نقد لكتاب ألف ليلة وليلة :

تريستان وايزولد لجوتفريد فون شتراسبورج

بمقام
الدكتور مصطفى ماهر

تمهيد

تريستان وايزولد «Tristan und Isold» ، قصة شعرية أنشأها الشاعر الألماني الفذ جوتفريد فون شتراسبورج Gottfried Von Strassburg حول عام ١٢١٠ ، ولم ينشئ غيرها على قدر ما نعرف ، لا من النثر ولا من الشعر ، بل إنه ترك درته هذه ناقصة ، لم يتمها ، ولا بد أن يد المنون اختطفته ، بعد أن سطرت يده هو البيت رقم ١٩٥٤٨ بقليل . ولكنه صنع للإنسانية تحفة من أعظم تحفها ، لا تقتصر عظمتها على إفادة القارئ المتأمل وامتناعه ، بل تتجاوز ذلك إلى إلهام الأديب الخلاق والشاعر المبدع في كل زمان ومكان ، وهي تحفة إنسانية بكل ما في هذه الكلمة النعمة من معان ، فلم تكن مادة «تريستان وايزولد» ملكاً لجوتفريد ، ولا ملكاً لمن سبقه إلى معالجتها ، ولن تكون ملكاً لمن تبعه ويتبعه إلى معالجتها . إنها ملك الإنسان .

عصر جوتفريد

وينبغي علينا في محاولتنا فهم جوتفريد فون شتراسبورج وعمله أن نضع أنفسنا في زمانه ومكانه حتى لا نعامل الأحياء معاملة الموتى أو الجوامد . جوتفريد

فون شتراسبورج واحد من عمالقة قلائل حملوا عصرهم يعرف في الأدب الألماني بعصر الازدهار الأول أو بعصر الكلاسيكية الأولى أو بعصر الفروسية أو بالعصر البلاطي أو بعصر الملوك الاشتوفيين . وهذه الأسماء كلها صحيحة ، وقد تعددت لأنها تذهب في تحديد هذا العصر أكثر من مذهب ، ونبصر به في أكثر من ناحية . عند هذا العصر من الربع الأخير للقرن الثاني عشر إلى مشارف القرن الرابع عشر ، أي أنه يعد نحو ثلاثة عشر عقداً أو نحو قرن وربع قرن من الزمان . أما العمالقة الآخرون الذين نهضوا بأدب هذا العصر مع جوتفريد فون شتراسبورج فهم :

— هرتمن فون أوى (بين عام ١١٦٨ و ١٢١٥ على وجه الاحتمال) صاحب القصص الشعرية الجميلة : ايريك — جريجوريوس — هاينريش المسكين — ايفانين .

— فولفرم فون اشينباخ (بين عام ١١٧٠ وعام ١٢٢٠ تقريباً) صاحب القصص الشعرية الفريدة : بارتسيفال — فيلالاهم — تيتوريل .

— هاينريش فون فيلديكه (بين منتصف القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر) صاحب الانباده

— فالتر فون در فوجلهايد (بين عام ١١٦٨ وعام ١٢٢٨) صاحب الأغاني والقصائد التي لم يطاوها من بعده أحد حتى جاء جوته .

هؤلاء الأدباء كانوا من غير رجال الدين . فاعظم التعبير ١ من قبل كان الأدب حرفة رجال الدين يكلفون به ويحتكرونه احتكاراً ويشكلونه بقولهم (اذكر جامع الأناجيل لتاسيان و هلياند أو حياة المسيح المخلص وكتاب الأناجيل وغير ذلك كثير) لأنهم هم الذين أخذوا بنصيب من العلم . أما الآن فحملة الأدب « دنيويون » منخرطون في سلك الفروسية أو مؤمنون بثقافة الفروسية ، مقيمون في بلاط الأمراء أو متصلون بهم ومتخذون أمزجتهم وميولهم . كان أهل أوروبا في القرون القليلة الماضية قد امتصوا مجموعة من الحضارات أتت على الأغلب عنوة ، امتصوا الفكر المسيحي وما أتى معه من طرف من ثقافة الإغريق والرومان ، وامتصوا الكثير من الثقافة العربية من أسبانيا تارة ، ومن جنوب فرنسا (البروفانس) المتأثرة بحضارة الأندلس تارة أخرى ، وأخذوا عن العرب والمسلمين الكثير عبر إيطاليا وأثناء التحامات الحروب الصليبية . كانت الحياة في ألمانيا من قبل التأثير العربي الإسلامي — سواء من المشرق العربي أو من المغرب العربي — تعرف بلاط الأمير وتعرف طبقة الفرسان ، ولكن الصورة التي تشكل بها بلاط الأمير والقالب الذي ظهر فيه الفارس في ذلك العصر المزدهر ، يحملان على الجزم بتأثير أنماط الحضارة العربية . وقد حدثت تطورات سياسية مختلفة في الديار الألمانية شجعت على هذا التحول الذي شهدته المجتمع والذي تهمنا منه ناحية حلول « الدنويين » أو أهل الدنيا محل أهل الدين أو رجال الدين في حمل رسالة الأدب ، وناحية ازدياد قوة ورفاهية الأمراء واهتمامهم بالآداب . ويمكننا أن نلخص هذه التطورات السياسية أو الأحداث السياسية هنا ونستعين بملخصها على التعمق نوعاً ما في فهم

أصول هذه التطورات وعلى تصور المكان الذي اتصلت فيه .

كانت حقبة الملوك الزالين قد انتهت بظهور صراع شديد بين القيصر الألماني الذي كان عمد سلطانه إلى شمال إيطاليا وبين البابا الذي لم يكن يرضى أن يترك السياسة والحكم في الدنيا لأهل الدنيا (قارن هابزبريش الرابع وما حدث بينه وبين البابا) . وأصبح البابا طرفاً في انتخاب القيصر الألماني ، وكان القيصر الألماني في حقيقته أميراً من بين الأمراء ، صاحب إمارة من بين أصحاب الإمارات ، ولا يقوى إلا بالجيش والفرسان والاعتماد على إخوانه . وهكذا تمكن البابا من دفع الأمراء الألمان على اختيار قيصر ضعيف هو كونراد الثالث (١١٣٨ — ١١٥٢) حتى نخلو له الجو . وقد تم للبابا ما أراد ، وتعثّر كونراد في ألمانيا وتعثّر أكثر في إيطاليا . هكذا بدأ الأشتوفيون بداية فاشلة . وكونراد الثالث هذا ، القيصر الأشتوفي الأول (كلمة اشتوفي صفة من « شتوفن » اسم قلعة في منطقة شفاين بجنوب غرب ألمانيا) هو الذي اشترك مع لويس السابع ملك فرنسا في الحملة الصليبية الثانية التي منيت بالفشل . وإذا كانت سياسة البابا قد نجحت مع كونراد الثالث ، فقد فشلت مع خلفه « فريدريش الأول » بارباروسا ، الذي كان قيصرأ قوياً محتكاً مستنداً على عصبة من أولى القوة والبأس . فأعاد سلطان ألمانيا على شمال إيطاليا ، ودعم قبضته على ألمانيا نفسها ، وحارب البابا الكسندر الثالث فلم يتقلب عليه لتحالفه مع الفرنسيين ، ولكنه مهد للسياسة المستقبلية وهي ضم جنوب إيطاليا إليه عن طريق زواج ابنه مع الأميرة كونستانسه ، لكي يضع البابا بين شقي الرحى . وخلف فريدريش بارباروسا ابنه هاينريش السادس (١١٩٠ — ١١٩٧) الذي كان أقوى القيصرية الألمان نفوذاً وأوسعهم ملكاً . وهنا ينبغي أن نتوقف وقفة قصيرة ونشير إلى فشل الحرب الصليبية بعد أن قاد المسلمين صلاح الدين الأيوبي الذي

حول الحروب الصليبية إلى نهايتها خاصة بعد انتصاره في حطين عام ١١٨٧ . ونعود الآن إلى هاينريش السادس لتجده يموت مبكراً ولنجد موته يبدأ عهداً جديداً من الفوضى في أوروبا وألمانيا . عاد البابا إلى التدخل في انتخاب القيصر الألماني ، وعاد الانقسام بين الأمراء الألمان . تولى أوتو الرابع (١١٩٨ - ١٢١٥) وهو من حزب البابا ، ونصب حزب الاشتوفيين فيليب ابن بارباروسا . وقامت حروب أهلية انتهت بموت فيليب عام ١٢٠٨ . فلما استتب الأمر لأوتو حارب البابا . فخلعه الأمراء ونصبوا فريدریش الثاني (١٢١٥ - ١٢٥٠) الذي حمل التاج في روما عام ١٢٢٠ وانجبه إلى الشرق في محاولة صليبية جديدة باءت بالفشل . ثم حدث له ما حدث لأسلافه ، إذ اختلف مع البابا ، فأخرجه البابا من المسيحية وأعلن خلعه ، فهاجم هو البابا واضطر البابا إلى الفرار إلى فرنسا . ونصب الأمراء الألمان جماعة من الملوك ضد فريدریش الثاني . وشاعت الفوضى والحروب الأهلية . ومات فريدریش عام ١٢٥٠ فانت الإمبراطورية الألمانية .

يظهرنا هذا العرض الموجز على أسباب ظهور الاتجاه الديوى في الأدب خاصة منذ عهد بارباروسا ، وعلى أسباب قوة الفرسان الذين كان العصر كله يتحرك بمشيتهم لاتصال النزاع ، وعلى أسباب استقلال الأمراء ككل في إمارته سيد وفي بلاطه ملك . هذا هو الزمان الذي نشأت فيه الكلاسيكية الأولى وهذا هو المكان الذي احتواه . وفي هذا الزمان والمكان عاش جوتفريد فون شتراسبورج وأنتج .

من هو جوتفريد فون شتراسبورج ؟

هذا سؤال لا نعرف له جواباً شافياً . واضح من الاسم أنه من مدينة شتراسبورج الألزاسية . هذا هو كل ما في الأمر . كذلك وصلتنا قصة شعرية ضخمة اسمها تريستان وايزولد لم يتمها صاحبها ، ولم يذكر

اسمه ، وما كان يمكن أن يذكر اسمه إلا في آخرها على عادة العصر . ولكن جماعة من الأدباء تناوات القصة وحاولت اكتمالها وذكرت أن اسم المؤلف هو جوتفريد وأنه من شتراسبورج فنسبت القصة إلى اسمه ، نسبة صحيحة لا نكاد نشك فيها ، ولكننا لا نعرف عن الرجل شيئاً . وقد سعى الباحثون في القرن الماضي إلى استجلاء هذا المكتون وظنوا أن جوتفريد كان كاتب مدينة شتراسبورج . ولكن البحث الحديث كذبهم . ومما يذكر عن جوتفريد ، استقاء من قصته ، أنه لم يكن من رجال الدين ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ، وأنه كان يتقن اللغة الفرنسية إتقاناً كبيراً ، وأنه كان من عامة الشعب ولم يكن فارساً أو نحو ذلك فلم يذكره معاصروه ومن أدركوه بما يفيد غير ذلك . لم يسمه أحداً « السيد جوتفريد » بل سموه « جوتفريد » مما يقطع بأنه كان من عامة الناس .

رفع جوتفريد فون شتراسبورج يده عن قصته « تريستان وايزولد » حول عام ١٢١٠ أى في الوقت الذي أتم فيه معاصره العظيم فولفرم فون اشينباخ دهرته « بارتسفال » . ولهذا يمكننا دون التورط في تواريخ بعينها . أن نقول إن جوتفريد أدرك القيصر فريدریش بارباروسا وعصره المجيد وأدرك القيصر هاينريش السادس وأدرك أوتو الرابع وغيره فيليب ، وأنه على الأرجح لم يشهد تنصيب القيصر فريدریش الثاني (١٢١٥) . وهذا يعنى أنه عاش جزءاً كبيراً من حياته في ظل القياصرة المظفرين ، وفي ظل الاستقرار . وهذا يعنى أيضاً أنه عاش مرحلة الحروب الصليبية الخامسة وأنه تأثر بما كان فيها من ثيارات .

أحداث « تريستان وايزولد »

يشمل النص الذي بين يدينا من قصة تريستان وايزولد ١٩٥٤٨ بيتاً تنظمها ٢٤٥ صفحة مزدوجة (أى ذات نهريين) هي طبعة العلامة فريدریش رانكه .

(اعتمدنا على الطبعة التاسعة منها التي ظهرت في عام ١٩٦٥ في زيوريخ وبرلين) .

ويمكن أن تقسم الأحداث إلى ثلاثة فصول كبيرة : نشأة تريستان ورحلته الأولى إلى أيرلنده - رحلة تريستان إلى أيرلنده للمرة الثانية وهيامه بايزولد - نفى تريستان ونهايته . وهذا هو التقسيم الذي أخذ به هلموت دى بور (المجلد الثاني من تاريخ الأدب الألماني ، نشر هلموت دى بور ورشارد نيفالد - ميونيخ ١٩٦٥ ، ص ١٣٠ وما بعدها) . وهناك تقسيم آخر أكثر تفصيلاً اصططنه العلامة الفرنسي جوزيف بدييه في رواية « تريستان وايزولده » هو :

- ١ - طفولة تريستان .
- ٢ - مورولت الأيرلندي .
- ٣ - الحسنة ذات الشعر الذهبي .
- ٤ - الشراب السحري .
- ٥ - برانجين والوعول .
- ٦ - شجرة الصنوبر الكبيرة :
- ٧ - القزم فرونسن .
- ٨ - قفزة من الكنيسة .
- ٩ - غابة موروا .
- ١٠ - الناسك أوجرين .
- ١١ - الخاضعة العجيبة .
- ١٢ - حكم بالسلاح .
- ١٣ - دعاء البلبل .
- ١٤ - الجرس العجيب .
- ١٥ - ايزولد ذات الأيادي البيضاء .
- ١٦ - قاهردين .
- ١٧ - ديناس دى ليدان .
- ١٨ - تريستان مجنوناً .
- ١٩ - الموت .

وقد قسم الناسخ الذي كتب مخطوط هامبورج الورقي في عام ١٧٢٢ أو الذي كتب الأصل الذي نسخ

هذا عنه : القصة إلى ٢٦ فصلاً حسب الأحداث لا الفكرة كما فعل بدييه فيما بعد .

تبدأ القصة بحديث عن الأمير « ريفالين » أمير بارمينيرلانده وحرية المظفرة ضد واليه « مورجن » وتقتل منه إلى وصفه رحلة قام بها إلى الملك الشهير « مارك » . ملك كورنيفال وإنجلترا . ولقد أحسن الملك مارك استقبال ضيفه ريفالين وأقام حفلاً عظيماً تبارى فيه الفرسان ما شاء لهم التبارى . وبرز فيه ريفالين وتفوق على الآخرين بما أوتي من مهارة وسرعة وقوة وبراعة فأعجبت به النساء كل الإعجاب . وكان إعجاب النساء بالفارس أسمى تقدير لقروسيته في ذلك العصر . وكانت الحسنة بلنشفلور أخت الملك مارك أكثر النساء إعجاباً بريفالين . بل إنها أحبه وأوسعت له في قلبها مكاناً . وما لبثت أن أحبا هو أيضاً . ويصف جوتفريد هذا الحب وصفاً رائعاً :

ريفالين ذو الفكر واللب

حدث له ما بين

أن الروح المحيية

تشبه الطائر الطليق تماماً

الذي ينطلق بالحرية التي لديه

إلى الغصن المدهون بالصمغ (= انخبط) فيحط عليه

وعندما يحس بالصمغ ويتملص منه

ويهم بالطيران

تزداد ساقاه النضاقاً .

فيحرك ريشه وينفض

فلا يلمس من الفرع

جزءاً مهماً رقيق

إلا ويزيد قيده وبحكم وثاقه .

فيضرب بكل ما أوتي من قوة

من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا

حتى ينتهي في النهاية

إلى هزيمة ذاته بمقاومته

والى الرقود لصيقاً على الفصن

.....

هذا ما حدث لريفالين .

(الآيات من ٨٤١ إلى ٨٥٨ ثم ٨٧١) وجوتفريد

فون شتراسبورج يتوسع دائماً في وصف الحب ، وتحليله ، وله فيه نظرية سنعرض لها في جزء خاص . وخرج ريفالين ، على ما كان متبعاً في ذلك العصر ، لمنازلة أعداء الملك مارك . فأبلى في ذلك بلاء حسناً ولكنه أصيب بجرح شديد قربه من الموت . فذهبت إليه بلنشفلور واعتنت به حتى برأ . فلما امتعاد قوته أخذها إلى دياره زوجة له . ولكن حياة ريفالين امتلأت بعد ذلك بالمعارك كما كانت ممثلة بها من قبل ، وانتهى أمره فيها إلى إصابة أودت بحياته . وكانت زوجته بلنشفلور حاملاً فوضعت ابناً هو تريستان وماتت عقب الوضع وترك الصغير يتيم الأبوين .

وشب تريستان في رعاية عامل ريفالين « روال » كأنه من أبنائه ، حتى بلغ الرابعة عشر فغامر حتى نزل بلاطاً هو بلاط الملك ماركة أو مارك ، وهو خاله . ولكنه لم يكن يعلم بأمر القرابة وكذلك الملك لم يكن يدري شيئاً عنها . وتقدم تريستان في الفروسية حتى رسم فارساً وأظهر من الشجاعة والقوة ما لم يستعلمه الآخرون . وكان أمم عمل قدر عليه هو منازلة العملاق الهائل مورولت الذي كان يثير الرعب في البلاد ويفرض على الملك مارك أداء أتاوة أو جزية كان هذا يؤدها صاغراً . ولم تكن منازلة هذا العملاق فرداً لفرد أمراً هيناً ، بل أمراً بالغ الخطورة : فقد تلقى تريستان من سيفه المسموم ضربة أحدثت به جرحاً لم يعرف أحد سبيل مداواته .

وعلم تريستان أن العملاق مورولت له أخت هي ملكة أيرلنده وأنها متضلعة من الطبابة وأنها وحدها تعرف مرهماً إذا وضع شيء منه على الجرح برأ والتأم . فتنكر في زي اللاعب تنناريس وقصد ديار الملكة الأيرلندية واستمال الملكة ببراعته الموسيقية فعالجته حتى شفى وعينه مدرساً

للموسيقى لا يبتها الحسناء إيزولد . وجاء اليوم الذي قرر أن يعود فيه إلى بلاده ، فخرج سليماً معافى متصراً سعيداً ، وسلك طريق الإياب . ولقيه خاله أعظم لقاء ، وسعد لعودته أعظم السعادة ، وعينه وريثاً له مما أثار حقد الحاقدين ممن يعتقدون أنهم أوتوا بسطة في الجسم والمال وأنهم أولى بالعرش منه . فلا عجب إذن أن يكلف الملك مارك ولي عهده تريستان بأكثر وأصعب مهمة ألا وهي مهمة خطبة إيزولد لتكون زوجة له - أي للملك مارك - وهي ابنة العدو القديم . والمهمة صعبة لأسباب كثيرة ، فقد أقام تريستان في بلاط ملكة أيرلنده متنكراً ، وظل مدة طويلة يدعى أنه لا يزيد على أن يكون العازف تنناريس ، وقد أحب تريستان إيزولد وأحبته هي ولم يزد الحب عن مجرد الحب شيئاً ولعل لإيزولد منت نفسها أن يعود تريستان إليها يوماً ليخطبها لنفسه ، وقد طلب تريستان عون الملكة فعاونته وشفته من جرح كان لا محالة مهلكه وكان هو قاتل أخيها العملاق مورولت . فكيف يعود الآن إلى الملكة ؟ وبأى وجه يرجع الآن إلى إيزولد ؟ لا بد له من الإتيان بعمل هائل ، بعمل خارق للعادة يكون فيه خير وسعد لأيرلنده وملكها حتى يحق له أن يسلك السبيل إليها .

وهكذا جاءت الرحلة الأيرلندية الثانية لتريستان . نزل تريستان سراً ودخل في صراع أليم مع التنانين القضيعة التي كانت تفسد على أهل أيرلنده أمرهم كله أو جله وكانت تجعلهم يعيشون في رعب دائم ، حتى رصد البلاط جائزة رفيعة لمن يخلص البلاد من شر هذه التنانين . ولم تكن هذه الجائزة الرفيعة سوى يد الحسناء إيزولد . من قتل التنانين وخلص البلاد من شرها حق له أن يتال إيزولد ذات الشعر الذهبي . وهكذا غلب تريستان التنانين . فلما تم له ذلك وقع مغشياً عليه من فرط التعب ، فوجدته النسوة وحملته إلى البلاط . وهناك عرفت الملكة أنه هو قاتل مورولت ، عرفت ذلك من سيفه ومن أثر القتلة الباقي فيه . واغتاضت

الملكة ، ولكن تريستان استطاع ، مستعيناً برنجنين الخادم المخلص ، أن يهتدي من روعها ويصور لها الأمر على نحو آخر أقرب إلى صالحه . كذلك تعرض تريستان في الوقت نفسه إلى محنة أخرى ، إذ ادعى تروكسيس الجبان أنه هو الذي قهر التناين . ولكن تريستان لم يعدم الحيلة ليكشف كذب الجبان وليؤكد قوته وانتصاره . وأعلن تريستان على الفور مهمته فطلب يد إيزولد الجميلة لخاله وسيد الملك مارك . ونجحت المهمة وبدأ الاستعداد للعودة إلى كورنيفال . وكانت إيزولد ما تزال تحمل في قلبها كرهاً شديداً لتريستان قاتل خالها مورولت ، حل محل جها الشديد له قديماً . ولكن الأمر لاح كأنه قد قضى ، فقد تقرر زواجها من الملك مارك وخرج تريستان من الموضوع . وأعدت الملكة الأم شرباً سحرياً ليشرّب منه إيزولد ومارك . كان هذا الشراب السحري يؤدي بشاربيه إلى التأجج حباً ، وإلى الارتباط برباطه إلى الأبد ولم يكن هناك شيء يخفف منه أو يوقف مفعوله .

وفي الطريق ظمئ تريستان وظمئت إيزولد فشرب تريستان وسقى إيزولد من الكأس التي وضعت الملكة الأم فيها مشروبها السحري . وجاءت الخادم برنجنين الوفية متأخرة ورأت ما حدث ففزعت أشد الفزع وأخذت الاناء وألقت به في البحر . ولكن المقدّر حدث فتحول كره إيزولد إلى حب عنيف ملتهب وامتلاً قلب تريستان بمثله . وتحدد هذا مصير الاثنين : الحب الذي لا تقف أمامه عقبة . والحيلة النافذة التي تمهد لهذا الحب كل طريق . وتمتع الحبيبان بالحب الحرام طوال أيام الرحلة دون أن يفكر أحدهما في الأثم الذي يتورطان فيه ، فما كان يليق بتريستان أن يفعل ما فعل وقد كلفه خاله وسيدته بالمهمة واتمته عليها ، وما كان يليق بإيزولد أن ترتكب ما ترتكب وهي في الطريق إلى من سيصبح زوجها . ولكن ما الحيلة والشراب السحري يجري في دماهما ويصب فيهما لهما لا يهدأ ؟

ولما بدت كورنيفال في الأفق أفاقاً إلى نفسيهما ، وأحسا بإثمهما ، ولكنهما قررا مع الخادم الوفية برنجنين أن يستمرا في حبهما وأن يستعينا على أمرهما بالحيلة والخداع ، وتعاهد الثلاثة على الاخلاص حتى الموت بعضهم للبعض . ووصل الركب . واستقبله الملك أحسن استقبال . وأخذ الملك يستعد لعقد القران والثلاثة يقررون الخطط لخداعه . وفي ليلة عقد القران بدأ تنفيذ أول خطة إذ قاسمته القرائش « برنجنين » دون أن يدري ، وبهذا بقي سر الجريمة التي ارتكبتها تريستان وإيزولد في الطريق مكتوناً . وسرعان ما فكر تريستان وإيزولد في التخلص من برنجنين بالقتل لأنها هي الوحيدة التي تعلم السر والتي يخشى أن تبوح به . ولكن خطة القتل لم تنجح . وتعرض القصة حكاية لا تمس صلبها هي حكاية خطف الفارس « جاندين » لإيزولد ، وكثيراً ما تعرض القصص في العصور الوسطى فصول اعتراضية من هذا النوع . وسارت حياة تريستان وإيزولد في بلاط الملك مارك على الحب والخديعة . ظل الاثنان على علاقتهما ، بتبادلان الحب ، وبطيعة ما يتأجج في دهما ، وكلما لاحظ أحدهم شيئاً وحذر الملك ، عرف الاثنان كيف يكبدان ويمكران ويخرجان من الموقف . وظل الملك مارك يؤمن بظهر إيزولد ولا يشك فيها أدنى شك ، وظل يثق في تريستان ولا يرتاب فيه أقل ريبة . ولكن سرعان ما تغير الوضع ، وكثر الكلام وتردد الملك مارك بين التصديق والتكذيب ، وأراد أن يلزم جانب العدل فلا يحكم على إيزولد إلا بعد تثبيت . وهنا تبدأ سلسلة من المحاولات لكشف الحقيقة لا تصل إلى شيء لشدة مكر الحبيين . وأول من وشى بالحبيين هو تروكسيس الذي كان له دور مشين أثناء إقامة تريستان الثانية في أيرلندة . من محاولات مارك مثلاً وقوفه متخفياً في قلب أغصان شجرة ليفاجئ الحبيين ، ولكنهما يلاحظان وجوده فيحدثان بحديث يبعد عنهما الشبهة تماماً . كذلك هناك فصل مؤثر جرت فيه محاولة تحكيم الله باستعمال حديد

متأجج ، وفي هذه المحاولة أيضاً تمكنت إيزولد من إثبات براءتها كذنباً . وينتهي الأمر بالملك مارك إلى نفى إيزولد وتريستان . فيذهبان إلى الغابة ويعيشان هناك في كهف أجمل عيشة ، يطلقان لأنفسهما العنان ، وينطلقان في الحب لا يتنصص عليهما متنصص ، ولا يقترب منهما عزول . ويكتشف مارك غيابهما في كهف الحب ، ويتصادف أن يجدهما راقيدين أحدهما بجوار الآخر وبينهما سيف . وكانت تلك علامة على الطهر في ذلك العصر (راجع النيبلونجليد) فانخدع الملك مارك مرة أخرى ولام نفسه وعفى عن الاثنين وأعادهما إلى البلاط . وعاد الاثنان إلى البلاط ، ولم يكفيا عن حبهما الأبدى . وذات يوم فاجأهما الملك مارك في البستان متعاقبين أوثق عناق ، فلم يعد به حاجة إلى دليل . ورأى الاثنان أن الملك مارك قد اكتشف العلاقة ، فقرر أن يبتعد أحدهما عن الآخر .

لم يعاقب الملك مارك إيزولد وتابع في ذلك نصيح أصدقائه ، وترك تريستان ينفي نفسه ويرحل بعيداً . فرحل إلى نورمانديا ، ولكن الحب لم يفارق قلبه ، بل ظل يتأجج به ويؤرقه ، وظل الحنين إلى إيزولد يملك عليه نفسه ، ولا يفارقه لحظة . وراح تريستان ينزل ويصارع ويقهر العناء ويغلب الفاصين حتى قربه أمير أروندل «قايدين» إليه ، وعرض عليه أن يتزوج من أخته واسمها إيزولد ذات الأباى البيضاء أو إيزولد بيضاء اليدين .

وهنا تقف قصة جوتفريد فون اشتراسبورج .

ولكننا نعرف من المصادر المختلفة بقية القصة . يتزوج تريستان من إيزولد بيضاء اليدين ، ويستمر في حياته المضطربة ، فيكثر من الزوال والصراع ، ولا ينسى إيزولد الشقاء قط ، بل يدفعه حبه لها ، وحنينه إليها ، إلى التماس كل السبل للوصول إليها ويتم له ذلك . مرة يتنكر جاعلاً نفسه مريضاً مصاباً بالبرص يتلمس العلاج على يد إيزولد المتضلعة من الطليابة

ويتزل بلاط مارك فلا يعرفه أحد إلا إيزولد ، ومرة أخرى يتخفى في هيئة مجنون ويلتقي بإيزولد .

وبينما تريستان يخوض المعارك من أجل الأمير قايدين ، يصيبه جرح مميت لا يستطيع أحد علاجه إلا إيزولد ، فيرسل إليها من يبلغها الخبر ويرجوها الحضور لإنقاذه من موت محقق ، ويرجو الرسول أن يرفع على المركب وهو قادم علماً أبيض اللون إذا كانت إيزولد معه ، وأسود اللون إذا أتت بدونها ، حتى يعرف الخبر قبل أن ترسو السفينة . ولكن إيزولد بيضاء اليدين تغتاظ ويتحرك قلبها بغيرة سوداء مقبلة فتكذب على زوجها المحتضر وتدعى أن المركب مقبلة بعلم أسود فيلطف أنفاسه الأخيرة . وتصل إيزولد الشقراء بعد فوات الأوان فترى تريستان جثة «أمدة» فترتمي عليها وتموت من فورها . ويصل خبر موت تريستان وإيزولد إلى الملك مارك ، ويعلم بقصة الشراب السحري فيغفر للحبيين ، وكيف لا يغفر لها وقد علم أنهما كانا من تأثير الشراب السحري كالريشة يحركها الريح فلا تستطيع رداً أو صدأ . ويقرر أن يدفنها في مقبرتين متجاورتين ، فإذا بشجرة تخرج من قبر تريستان وتدخل فروعها في قبر إيزولد ، وكلما قطعت الشجرة نمت ومدت فروعها إلى قبر الحبيبة ، فما كان للموت أن يفرق بين اثنين وعلمهما الحب .

مادة تريستان وإيزولد

ليس جوتفريد فون اشتراسبورج أول من عالج قصة تريستان وإيزولد من الألمان ، فقد سبقه إلى ذلك أبلهارت فون أوبرج بقصته «تريسترانت وإيزالده» . والمعتقد أن أبلهارت من قرية أوبرج قرب مدينة براونشفايغ وأنه كان متصلاً ببلاط هذه المدينة وربما كان متصلاً أيضاً بالبلاط الإنجليزي هنري الأسد وزوجه الثانية ماتيلده (ابنة هنري الثاني والبانور دي بواتو) . ويحتمل أن يكون أبلهارت قد فرغ من قصته «تريسترانت وإيزالده» حول عام ١١٨٠ . وقصته

هي أقدم رواية كاملة لمادة تريستان وإيزولد . وليس هناك شك في أن أيلهارت استخدم مصدراً أو مصادر مختلفة ، ربما نفس المصدر الذي استخدمه بيرول الفرنسي في قصته التي وصلتنا في ١٥٠٠ بيتاً . في قصة أيلهارت نجد الفصول الرئيسية المختلفة التي في قصة جوتفريد فون اشتراسبورج ونجد أيضاً بقية الأحداث التي لم يعش جوتفريد ليروها بقلمه . أيلهارت يحكي عن مولد تريستان (تريسترانت) ونشأته ووالديه ريفالين وبلنشفلور (أخت الملك مارك) . كذلك يحكي عن موت الوالدين وتيم تريستان ودخوله في ولاية آخر ويتبعه عندما يكبر ويصارع مورولد (أو مورولت) ويصاب بجرح ثم يسافر إلى الملكة الأيرلندية طالباً الشفاء ، ويلتقي بالحسناء أيزالده (إيزولده) . ثم يعود به إلى خاله الملك مارك الذي يكلفه بالذهاب إلى أيرلنده وطلب يد إيزولده زوجة له . فيذهب إلى هناك ويصارع الثنائي ، وينجح في مهمته ويعود بإيزولد . وفي الطريق يشرب معها خطأ من المشروب السحري وتشتعل نار الحب بين الاثنين . وفي رحاب الملك مارك تتصل سلسلة من الخيانات ، تبدأ بوضع الخادم برنجين (أو برنجينه) في فراشه بدلاً من زوجه حتى لا يعلم بسوء ما حدث ، وتتطور إلى محاولة قتل الخادم الوفية ، ثم إلى تصنت الملك مارك على تريستان وإيزولد وراء شجرة ثم تجارب إثبات براعة البريء ، ثم هرب الاثنين إلى الغابة والحياة في كهف الحب . وتصل إلى نفى تريستان وبقاء إيزولد في معية الملك مارك . ويذهب تريستان إلى الملك هافيلين ويعاونه بقتله ويصادق ابنه كيهينيس ويلتقي بإيزولده بيضاء الديدن ، ويعود متخفياً إلى إيزولده الشقراء ويرأها سراً . وتنتهي القصة بموته ، على نحو ما ذكرنا من قبل .

الأحداث مشابهة تقريباً لما في قصة جوتفريد . والحقيقة أن مادة تريستان وإيزولد تشغل الباحثين منذ زمن طويل يريدون أن يعرفوا مصدرها وأن

ينابعوا تطورها من بد ليد أو على الأصح من قلم إلى قلم . ولا شك في أن مادة تريستان وإيزولد شأنها شأن المواد الأدبية القديمة ترجع في أصلها الأول إلى وقائع تاريخية لا يستطيع البحث أن يكشف عنها دائماً . ثم تتحول هذه الوقائع التاريخية إلى أساطير بإضافة عنصر التحويل إليها وبتغيير أشخاصها وأماكنها أحياناً وبمزج الأشياء المتفرقة المتباعدة بعضها مع البعض الآخر . كما أوضحنا في مقالنا « النيبلونجليد » الذي نشر في هذه المجلة منذ بضعة أشهر . والمعتقد أن قصة تريستان وإيزولد تجمع على الأقل أسطورتين رئيسيتين . أولاً أسطورة حب الإنسان لجنية . . وتبدأ هذه الأسطورة عادة باجتماع الجنية للإنسان بقوة السحر - وهذا هو ما يجري على تريستان إذ يتورط في صراع العملاق مورولت ، وهو أخو الجنية الأم (الملكة) ، فيجرح جرحاً يقربه من الجنية ، لأنها هي الوحيدة التي تستطيع علاجه . ثم تحمله سفينة إلى حيث الجنية (الجنية - العملاق - الجرح - السفينة) - والمرحلة الثانية في هذه الأسطورة هي عودة الإنسان إلى جماعة البشر وإلى حب امرأة من البشر . . وهذا هو ما يحدث لتريستان عندما يذهب إلى الملك هافيلين أو الأمير قايدين ويتزوج من إيزولد بيضاء الديدن ، وهي امرأة من البشر . والمرحلة الثالثة هي استعادة الجنية لحبيبها الإنسان والالتجاء وإياه إلى ملكوت الجنيات وكثيراً ما تستعمل الجنية في هذه المهمة السفينة - وفي قصة تريستان شيء من هذا مثلاً : التجاء تريستان وإيزولد إلى الغابة وإلى كهف الحب وكذلك منظر موته وحضور إيزولد الشقراء إليه . ولكن قصة تريستان وإيزولده لا تنتهي هذه النهاية لأنها ممزجة بأساطير أخرى كما قلنا ، تشير منها إلى الأسطورة الرئيسية الثانية وهي أسطورة الخيانة الزوجية وهي قديمة جداً في الثقافة الكلتية ، وتسير في خط واضح هو اثنان رجل آخر على زوجته وخيانة هذا الأمانة .

وهناك عناصر من أساطير أخرى مثل عنصر فرار تريستان وهو عنصر معروف في الأساطير الأيرلندية وفيها ينبذ المجتمع الحبيب أو الأحباء فيلود أو يلوذون بالغابة . كذلك هناك عنصر سفر الشاب بحثاً عن حبيبة أو زوجة ، وعنصر قتال التنانين ومشروب الحب والعروس المدسوسة ، واغتيال الشريك (هنا برنجين) وعنصر التنكر ، كلها عناصر ربما أخذت من مصادر أيرلندية . وقد أظهر الباحثان زنجر وبورداخ أن شخصية ايزولد بيضاء اليدين مستقاة من مصادر عربية . وليست شخصية ايزولد بيضاء اليدين وهي العنصر العربي الوحيد في القصة ، بل إن القصة مليئة بالعناصر العربية صغيرة وكبيرة ، في الأحداث وفي الشخصيات وفي الأسلوب .

أما البحث وراء تاريخية تريستان وإيزولد فلم يؤد إلى نتائج حاسمة . تمكن البحث مثلاً من الكشف عن أصل اسم تريستان والجزم بأنه اسم بكثي (نسبة إلى ملوك البكت الذين سكنوا أسكتلنده قبل الكلتيين) كثيراً ما استعمل في القرون السابع والثامن والتاسع وكان أصلاً « دريستان » ومنه تفرعت الأسماء تريستان وتريسترات وتريستان . أما الملك مارك فقد كان له وجود حقيقي ، كان ملكاً مشهوراً في كورنويل (كورنيغال) . وأما اسم إيزولد فأغلب الظن أنه اسم جرمانى من « إيسلد » أو « اسفالدا » أو « ايشلدا » ومن هذه الأصول تفرعت أسماء ايزولد المختلفة : ايزنت – ايزويت – ايزيه – ايزولت – ايزول – ايزيلت – ايزود – ايزوته .

ومكان قصة تريستان وإيزولد هو أرض الكلتيين : أيرلنده (ايزولد ومورولد) وكورنيغال (مارك) وبريتاني (مسقط رأس تريستان وإيزولد بيضاء اليدين)

تريستان وإيزولد عند الفرنسيين

لم ينشئ جوتفريد فون شتراسبورج ولا سلفه أبلهارت فون أوبرج مادة تريستان وإيزولد التي بينا في

شئ من الإيجاز طرفاً من مكوناتها الأسطورية والتاريخية الكثيرة المعقدة . والمتخصصون في تريستان وإيزولد ينترون وجود أصل قديم للقصص التي عرفت في فرنسا ثم تناقلتها البيئات الأخرى ، ويطلقون على هذا الأصل الافتراضى اسم « أورترستان » أى الصيغة الأولى لتريستان ويضعونه في منتصف القرن الثاني عشر أو قبله بقليل أو بعده بقليل (بدييه – شوبرله) . هذه الصياغة الأولى أو هذه القصيدة البدائية أو النمط القديم أو الأورترستان شئ لا طاقة لأحد على وصفه أو تحديده ، وكذلك لا طاقة لأحد على انكار وجوده . ويدفعنا الظن إلى القول بأنه كان أقصر من الصيغ المتأخرة وبأنه لم يكن يضم قصة والدى تريستان ريفالين وبلانشفلور وبأنه لم يستعمل عنصر الشراب السحري الذى يشعل الحب أبداً ، وبأنه كان يقف عند هرب الحبيبين إلى كهف الحب بالغابة . ويرى رانكه أن الصياغة الأصلية لا بد كانت تشتمل على الأجزاء التالية :

(أ) صراع تريسان ومورولت ثم الرحلة الخطيرة

إلى الجنية . ثم العودة إلى كورنيغال د

(ب) إيزولد هي زوجة مارك ، تقع في هوى

تريستان وتريد دفعه إلى الاتصال بها ،

فيهرب الاثنان إلى الغابة برفقة كلب أمين .

ولكن تريستان يظل مخلصاً لسيدة فلا يمس

إيزولد ، بل يدع السيف يفصل بين

فراشيهما . ويصل مارك إليهما ويأمرهما

والسيف بينهما .

(ج) ذات مرة يخوض تريستان وإيزولد عبر نهر

فترفع المياه إلى أعلى ساقى إيزولد فتعنفه ،

ويتطور الأمر إلى تورط تريستان في خيانة

سيدة مارك .

(د) يلقي تريستان النصل في الماء وهكذا يصل

مارك إلى اكتشاف مكانهما . ثم يصيب

مارك تريستان بجرح غيب ، وترثي ليزولد على صدره ويتعانقان فيخنفها ويموتان معاً . من هذه الصياغة الأصاية بصورتها هذه أو بصورة شبيهة خرجت قصص توماس وبيروول وأبلهارت ، وقصة الصياغة الأولى وكذلك قصص صياغات توماس وبيروول وأبلهارت مرتبطة بامرأة شهيرة هي « اليانور دى بواتو » وابنتها « ماتيلده » . ولدت اليانور دى بواتو (في عام ١١٢٢) وسط بيئة مهتمة بالأدب والفن ومثله العليا من فرسانية وشهامة وحب وغزل . وكان جدها الدوق وليم التاسع دوق إقليم الأكيتين الفرنسى القريب من أسبانيا ، ولا يخفى أن إقليم بواتو الذى تنتسب إليه اليانور هو الإقليم الذى شهدت عاصمته « بواتيه » المعركة الشهيرة بين المسلمين والفرنجية والذى ظل على اتصال بالبيئة الثقافية العربية الإسلامية النشطة في أسبانيا . وجد اليانور هو أول شاعر بروففسالى (تروبادور) نسمع به ، أما وليام العاشر والد اليانور فقد مات في عام ١١٣٧ وترك اليانور في سن الخامسة عشرة تصبح أغني أميرة في أوروبا وسيدة على أوسع ملك فيها . وفي العام نفسه تزوجت من الملك لويس السابع ملك فرنسا وكانت تعتقد أنها تزوج ملكاً بمعنى الكلمة يعيش في اسبة الملوك ويحفل بالأدب والفنون ، فاذا بها تكتشف أنه أشبه شيء بالراهب الزاهد الذى لا يعرف له شيئاً يهم به إلا الحروب الصليبية . وقد اشترك لويس السابع في الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩) مع القيصر الألماني كونراد الثالث والأمير فريدرش الذى سيصبح القيصر فريدرش بارباروسا ، وأخذ لويس السابع زوجه اليانور معه إلى الشرق في هذه الحملة التى فشلت فشلاً تاماً . ولم تحتمل اليانور البقاء مع لويس أكثر مما فعلت فطلقت منه في عام ١١٥٢ وتزوجت هنرى « بلانكا جينيه » الذى سيصبح هنرى الثانى ملك إنجلترا وكان يصغرها بأكثر من عشر سنين . وكان هنرى يحب الأبهة ويشجع الفنون والآداب :

وهكذا أتيح لخفيذة الشاعر البروففسالى الأول أن نعيد الحياة التى ألقها في البلاط في بواتيه ، إلى بلاط وستمنستر ، واهتمت بالأدباء والشعراء وأشعلت جذوة مبدعة منذ عام ١١٥٤ خاصة عندما أصبحت « ملكة إنجلترا ومدينة أيرلنده ودوقة نورمانديا والأكيتين وجاسكونيا » وكونتيسة بواتو وسانتونج وأنجوموا ولیموزان وأوفيرني وبوردو وآجن وأنجوومين وتورين « وابنتها ماتيلده (من هنرى الثانى) تزوجت من هنرى الأسد ، ويعتقد غالبية النقاد أنها كانت « سيدة » الشاعر أبلهارت فون أوبرج ، صاحب تريسرات وايزالده وملهمته ، فقد مدحها ورفعها ما استطاع . فلما عزل القيصر بارباروسا هنرى الأسد من ساكسونيا ذهبت ماتيلده وزوجها إلى بلاط أبيها وكان لماتيلده هناك تأثير أدبي هام . أما الابنة الأخرى لاليانور وهى ماري (من لويس السابع) فقد تزوجت هنرى الأول أمير شامبانيا ، وكانت ماري هذه هى سيدة وملهمه كريستيان دى طروا شاعر فرنسا الشهير في ذلك الحين الذى يهمننا هو ملاحظة الاتصال الوثيق بين البيئات الأوروبية المختلفة بعضها البعض وارتباطها في شخصية اليانور وبناتها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ملاحظة اتصال هذه البيئات بالشرق وقربها منه على الأقل (اليانور في بواتيه وفي سوريا) . ويكاد العلماء يجمعون على أن الأورترستان أو الصياغة الأولى لتريستان وايزولد نشأ في بلاط اليانور في بواتيه قبيل منتصف القرن الثاني عشر على يد شاعر مجهول لنا . وقد استند هذا الاجماع على شواهد منها أبيات للشاعر البروففسالى برنارت دى فتادور (حول عام ١١٥٠) التى تذكر « العاشق تريستان والعذاب الذى لقيه من ايزوت الشقاء » .

وإذا قلنا إن الأورترستان نشأ في بلاط بواتيه فعنى ذلك أن واحداً أو كثيرين حملوا المادة من مهدها إلى هناك . وقد أظهر البحث منذ حوالى ثلاثين سنة أن عملية

النقل هذه تمت على يد قصاص يدعى بلزيريكوس أو بليرى أو بريرى ، وأنه فعل ذلك أيام أبي اليانور . وقد ورد ذكر بريرى هذا فى شعر توماس على أنه من العليمين بحكايات الملوك البريطانيين . وإذا كان هذا هو الاسم الوحيد الذى وصلنا ، فليس معنى هذا أن عملية النقل أنجزها هذا الرجل وحده ، فالمؤكد أن بلاط وليم العاشر كان يعج بالقصاصين العليمين بالأساطير الكلتية وغيرها . المهم أن مادة تريستان وايزولد وصلت إلى هذا البلاط وأنها اختلطت بعناصر من مصادر مختلفة منها المصدر العربى وصيغت على نحو يوافق المزاج الأوروبى فى صياغة قديمة أو فى صياغات قديمة .

وأول من أنشأ قصة حول مادة تريستان وايزولد هو شاعر فرنسا العظيم فى العصر الوسيط كريستيان (أو كريتيان) دى طروا . وقد ضاعت قصته ، ولكن إشاراته إليها فى قصصه الذى بقى ، وخاصة فى «كليجيه» يقطع بوجودها ، ويوحى بأنه استعمل صيغة أقدم ، وكانت عادة الكتاب المتبعة فى العصر الوسيط عامة هى «الاقباس» ، هى التماس المادة فى «مصادر» والتشرف بذكر هذا المصدر لا التخرج منه . وصيغة تريستان ، على قدر ما تجمع لدينا من أخبارها ، تتحدث عن الصراع بين الحال وابن أخته على حسناء ، ولكنها تتصرف فى أمر الحب المحرم الآثم وتجده له حلاً من السحر .

وهناك قصة بيروول ، التى يسمونها أيضاً الصيغة العامة ، التى وصلتنا فى قطع مجموع أبياتها حوالى ٤٥٠ بيتاً ، تحكى جل الحكاية ، على ما يبدو للجمهور واسع ، ومن هنا تسميتها بالصيغة العامة . والعلاقة بين قصة بيروول وقصة أيلهارت غامضة . بعض النقاد يذهب إلى أن أيلهارت استمد مادة قصته من بيروول ، والبعض الآخر يرفض ذلك . والرأى الوسط هو أن الاثنين استعمالاً مصدرأ ، تالياً على الأورثريستان فى الأغلب ،

هو ما يسمى «بالقصة» . وقد أشرنا من قبل إلى علاقة أيلهارت باليانور التى ارتبط اسمها واسم بلاطها بتريستان أوثق ارتباط . وتنقسم قصة بيروول (نشأت بين عام ١١٧٠ و ١١٩٠ أو بعد ذلك أو قبل ذلك ؟) تنقسم إلى قسمين قسم أول (بيروول الأول) وقسم ثان (بيروول الثانى) . فى القسم الأول يعالج بيروول الحوادث إلى حياة الحبيبين فى الغابة ، على نحو يشابه أيلهارت . أما القسم الثانى - بيروول ٢ - فيختلف عن أيلهارت أشد الاختلاف . فلعل بيروول استخدم مصدرأ آخر غير «القصة» أو لعل كاتب «بيروول ٢» شخص آخر والقصة الأخرى التى يعرفها تاريخ الأدب الفرنسى هى قصة توماس . والموجود منها حوالى ٣٠٠ بيت من الشعر تصل بالحكاية إلى ختامها . توماس البريطانى ألف قصته باللهجة الأنجلو نورمانية فى وقت مناظر لوقت بيروول تقريباً ، ولنا نعرف هل كان توماس إنجليزياً أم كان من بلاد أخرى ؟ المهم أنه صاحب فضل كبير فى تطوير مادة تريستان وايزولد وتشكيلها بشكل رفيع متأثر بلدوق البلاط ، الذوق الاليانورى : مصطنعاً أسلوباً ليناً حسن الجرس ، مرهف الغنائية . نجد توماس مثلاً يخفف وصف العاطفة الجياشة من الأصل الوحشى العنيف الغليظ وينتج نهجاً رقيقاً نافذاً إلى أعماق نفوس شخصياته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وحديث توماس عن الحب حديث مفعم بالمفاهيم البلاطية ، أو حديث يدور حول تحديد مفهوم الحب البلاطى . والحقيقة أن معالجة توماس لتأثير المشروب السحرى على قلب تريستان وايزولد ومارك معالجة جديرة بالاعجاب . فتوماس يرفض فكرة الحب بغير لقاء سابق ، ففى حين يتورط بعض المؤلفين فى جعل تريستان يحب ايزولد على غير لقاء سابق ، يشترط توماس هذا اللقاء ويتسلك به ، ثم يأتى المشروب السحرى فيقوى علاقة نشأت بالفعل . وإذا كان المشروب السحرى من شأنه أن يثير الحب ، وإذا كانت مقتضيات القصة تفرض أن

يظل مارك على حب ايزولد ، فإن توماس يبقى في كأس المشروب السحري شيئاً يصل إلى مارك ويشربه فيمتلئ قلبه بحب ايزولد إلى النهاية : إنك تحس أن توماس رجل تعلم وعرف المنطق واجتهد في أن يربط الأسباب والمسببات .

جوتفريد فون شتراسبورج وتريستان وايزولد

تأثر جوتفريد فون شتراسبورج بتوماس خاصة ، واتبع نصه اتباعاً وثيقاً . ولكنه كان يعرف المؤلفين الآخرين ونصوصهم ، وخاصة أيلهارت . في الأبيات ١٣١ وما بعده يقول متحدثاً عن مصادره :

« أنا أعرف أن هناك كثيرين

قرأوا (وحكوا ؟) عن تريستان .

ولكن ما أقل

أولئك الذين أحسنوا القراءة (والحكاية ؟) .

فإذا كنت أسلك السبيل نفسه الآن

وأقول فيه كلمتي

.....

فإنني أنصرف على نحو آخر :

ولا ألومهم : فقد تكلموا

بنية كريمة خالصة

وأرادوا خيراً وخير الدنيا .

ولا ريب أنهم تصرفوا عن حسن نية :

وكل ما يفعله الإنسان عن حسن نية

هو أيضاً خير وعمل صالح .

أما ما قلته

من أنهم لم يحسنوا القراءة (والحكاية ؟)

فأمر واقع ، على نحو ما تحدثت .

لم يقص هؤلاء بالحق (= اعتماداً على مصدر)

مثلاً فعل توماس البريطاني ،

الذي كان أديباً سيئاً في القصة

وقرأ في الكتب البريطانية :

حياة الأمراء جميعاً

وحكاها لنا وعرفنا بها .

ومثلاً قال عن تريستان

الصواب وذكر الحقيقة (المصدر ؟) .

بدأت أنا أبحث بحثاً حاراً

في كل أنواع الكتب

الرومانية واللاتينية

ورحت أجهد وأكد

حتى أنشئ

هذا الأدب على صواب .

جوتفريد يقرأ إذن مصادر مختلفة باللغات الرومانية

(يعني الفرنسية ؟) واللاتينية - ربما توارىخ الأمراء ،

ويعتمد على توماس البريطاني الذي كان في رأيه الوحيد

الذي لزم الصواب والذي استمد القصة من مصادر

الحقيقية والذي أنشأ قصة جعلته سيئاً في ميدان الأدب :

ولكن جوتفريد أصيل ، يتحدث عن الحب حديث من

خبره وعرفه ، ويرتب الأحداث ترتيباً يدل على أنه

تصورها على نحو متكامل وأنه اتخذ له فيها مذهباً .

والعنصر الرئيسي في قصة تريستان وايزولد في

صياغة جوتفريد هو الحب الذي يرتبط به الكيان

الفرسافي بمغامرات أخلاقية وغير أخلاقية . وقد شهدت

هذه الفترة من العصر الوسيط اهتماماً كبيراً بالحب ،

وأنشأت له وحوله الكثير من الشعر الغنائي ، وألفت له

الكتب . تبحث في أسبابه وأحواله وقواعده . والبحث في

احتمال تأثير البيئة العربية الأسبانية على ظهور هذا الاتجاه

في أوروبا بحث هام خليف بأن يفرد له مقال خاص :

المهم أنه في عصر تأليف تريستان ظهر كتاب أندريه

كاييلان (أو شابلان) أو على الأصح ظهرت كتبه

الثلاثة في الحب (باللاتينية) ، وبها جزء طريف عن

قواعد الحب ، يلخصها فيما يلي :

١ - ليس الزواج مبرراً لعدم الحب :

٢ - من لا يعرف الغيرة لا يقدر على الحب :

٢٣ - من أرقه التفكير في الحب قل طعامه وقل نومه .

٢٤ - كل فعل من المحبوب مرتبط بالتفكير في المحبوبة .

٢٥ - الحب الحق لا يستحسن إلا ما يعتقد أنه سيسر محبته .

٢٦ - الحب لا يمنع شيئاً عن الحب .

٢٧ - لا يمكن أن يمل المحبوب من وصال محبته .

٢٨ - أقل الظن يدفع العاشق إلى الشك في محبته

٢٩ - ما عرف الحب من أرقه الاثم .

٣٠ - العاشق الحق لا يفتأ يتأمل محبته .

٣١ - ليس هناك ما يمنع المرأة من حب رجلين ،

ولا الرجل من حب امرأتين .

هذه القواعد تقريباً من مفهوم الحب عند جوتفريد :

الحب عنده شيء قوى ، هائل يملك الإنسان ويأسط

عليه ويجرده من إرادته . وما شراب الحب إلا رمز على

هذه القوة الهائلة . وما أسعد جوتفريد عندما وجد عنصر

« الشراب السحري » ، فقد حسم به مشكلة العلاقة

بين الحب والأخلاق ، لأن الشراب السحري مجرد

الإنسان من إرادته ، ومن تجرد من إرادته أصبح تأليه

عبثاً أو ظلماً . فلا إثم إلا على من كان في وعيه ،

وكان يتصرف عن عمد وإرادة . جوتفريد يجعل الشراب

السحري رمزاً ، ويلبخل في مفهومه عن الحب عناصر

من الصوفية ، كما بينت البحوث الحديثة . جوتفريد

فون شتراسبورج يصور حبيبين تريستان وإيزولد في

سعيهما نحو الوحدة الصوفية أو الاتحاد الصوفي على

صعيد الحب ونهايتهما نهاية الشهداء ، شهداء العشق ،

لوقوف الدنيا مبهماً موقف العدو . ولهذا نجد جوتفريد

في مقدمته يتجه بقصة الحب الصوفية هذه إلى أصحاب

« القلوب الكريمة » وحدهم ، ولا يتجه بها إلى العامة ،

الذين لا يطبقون الصوفية ولا يفهمون الربط بين الحب

٣ - لا يمكن أن يرتبط إنسان بحبين .

٤ - الحب دائم الزيادة أو النقصان .

٥ - ما ينال المحب من محبته ضد إرادتها لا

لا طعم له .

٦ - لا يمكن أن يحب الرجل إلا إذا بلغ الرجولة

الكاملة .

٧ - ينبغي أن يحزن الأحياء على حبيب مات

لمدة عامين .

٨ - لا يحق أن يحرم إنسان من الحب بغير سبب

كاف .

٩ - لا يمكن أن يحب إنسان إلا إذا جذبته إغراء

الحب إلى ذلك .

١٠ - من عادة الحب تجنب دار البخل دائماً .

١١ - من غدير المقبول أن يحب الإنسان من قد

يخجل من الزواج بها .

١٢ - الحبيب الحق لا يميل إلى التمتع بحب واحدة

سوى حبيبته .

١٣ - نادراً ما يدوم الحب بعد أن يكتشف .

١٤ - سهل المنال من الحب يصبح مقبلاً ، وصعب

المنال من الحب يصير عزيزاً .

١٥ - كل حبيب يشحب عادة عندما يرى حبيبته

١٦ - قلب العاشق يرتجف عندما يرى حبيبته فجأة

١٧ - الحب الجديد يطرد القديم .

١٨ - حسن الخلق وحده يجعل الإنسان خليقاً

بالحب .

١٩ - إذا خفت الحب فما أسرع ما ينهى وما أنذر

ما يعود .

٢٠ - العاشق دائماً خجول .

٢١ - عاطفة المحب تزداد دائماً بالغيرة الصادقة .

٢٢ - اندفاع المحب وعاطفته يزدادان عند الشك

في المحبوبة .

والألم ، بين الحياة والموت في كل واحد ، في وحدة واحدة على طريقة أهل الصوفية .

وجوتفريد يحدثه « إذا عن أصحاب القلوب الكريمة يقسم الواقع إلى قسمين ، قسم رفيع وقسم وضعيف ويضع القسمين أحدهما ضد الآخر . والقسم الرفيع هو الذي ذاق الحب ، وخبره خبرة عميقة ، فبلغ الفضيلة وبلغ الشرف والرفعة (انظر القاعدة رقم ١٨ من قواعد كابيلان) . جوتفريد ينقل مفاهيم الصوفية من صعيد الدين إلى صعيد الحب ، ويستعمل مصطلحاتها . هدف العاشقين هنا اتحاد بلدي وروحي على أرقى مستوى ، ولا شأن له بالمعروف في الاتحاد الصوفي ، اللهم إلا إذا صغينا المنهج . في مفهوم الاتحاد الصوفي « الغرامى » نقرأ هذه الأبيات :

هائم وهائمة

رجل ، امرأة — امرأة رجل ،

تريستان ايزولد — ايزولد تريستان .

نراه يبدأ في البيت الأول بربط الهائم والهائمة بحرف العطف « و » ، ثم ينتقل إلى التوحيد بينهما فيرفع حرف العطف ، فكأنما تريستان وايزولد كائن واحد . والحب عند جوتفريد شيء يقصد لذاته ، تريستان يحب ايزولد وينالها لا لأنه برع في المغامرات وأتى بالكثير من أعمال القوة ، وإنما ينالها لأنه جدير بالحب (انظر قواعد كابيلان) ، وايزولد تستجيب للحب وتقابله بحب ولا تفعل ذلك مقدمة ثمناً أو مكافأة ، بل لاحتساسها بلقاء من يملأ قلبها . إنه حب فوق كل شيء ، حب لا حدود له . والحب هنا لا يسعى إلى الزواج ، وأنى له هذا ؟ (انظر القاعدة الكابيلانية الأولى) إنه حب لذاته ، فيه الحس وفيه الروح . وجوتفريد لا يجرد الحب من ناحيته الحسية ، بل يراها جانباً الظاهري الذي لا بد منه لكمال الحب . وهكذا يخرج جوتفريد بمفهومة هذا عن المفهوم الاجتماعي . والمجتمع لا يعترف من الحب إلا بالزواج . وقد يعترف بالحب

المجرد عن الحس . أما هذا الحب فلا بد له من مكان آخر غير المجتمع بصورته المعروفة . ومن هنا يأتي تقسيم المجتمع إلى قسمين .

وقد كان تقسيم المجتمع إلى قسمين ، واحد نوعياً وواحد علياً ، شائعاً في ذلك العصر ، فعاصر جوتفريد الشاعر فولفرم فون اشينباخ يقسم المجتمع إلى قسمين ولكن على أساس آخر هو : المقدرة الفرسانية . وفي قصة جوتفريد نشاط فرسانى ، على عادة العصر ، ولكنه لا يقسم المجتمع ، بل لا يواجه هذه المشكلة أبداً . هذا النشاط الفرسانى ثانوى ، يمهّد للأحداث الرئيسية ، مثلاً الصراع بين تريستان ومورولت : يمهّد للقاء تريستان وايزولد لا أكثر من ذلك ، فلست نجد تريستان يتوسل ببراعته وتفوقه على مورولت ليصل إلى قلب ايزولد ، بل على العكس لا بد لتريستان أن يخفى أمر هذا الصراع لأن مورولت هو خال ايزولد الحسنة . ويؤكد جوتفريد على ثقافة تريستان ، ويصفه بأنه كان يجيد القراءة ويحسن العزف ويتقن الكلام بأنه كان رجلاً يتميز بأدب الندماء . وكذلك ايزولد ، أروع ما يصفه بها جوتفريد هو « أنوثتها » هو طبيعتها الرقيقة . وأن ايزولد لتبقى امرأة في كل حال ، امرأة بكل ما تتصف به المرأة من صفات مميزة . (قارن صورة المرأة في النبيلر نجليلد مثلاً) .

والفصل الخاص بكهف الحب ، يصور قمة الاتحاد الصوفي بين الحبيبين اللذين عجز المجتمع بقسمه الوضع عن شمولها . ليس كهف الحب عند جوتفريد ، كما كان عند سابقه ، مكان هاربين طريدين ، بل هو رمز الاتحاد على أعلى مستوى له . الحبيبان عند جوتفريد لا يخرجان طريدين ، بل يسعيان إلى مكان خليق محبهما . وجوتفريد يصور هذا المكان ، هذا الكهف ، كأنه الجنة ، ويضع فيه « سريراً من البللور » يرفع به مفهومه عن الحب إلى أعلى درجات النقاوة والصفاء .

ويظهر أن جوتفريد كان مقتنعاً من أن هذا اللون من الحب لا دوام له ، لأنه لا يستند على أساس من الواقع ، وأنه كان يريد أن يسير بقصته إلى المتقلب ، قياساً على سوء ما حدث للمحبين ، ويتابع التراجيديا إلى انحطاط الحب من الرفعة إلى الضعة . وربما أراد جوتفريد بعد مشهد الانحطاط ، أن يصور انتصار مفهومه في النهاية ، بقاء المحبين الخالدين ، واتحادهما في الموت إلى الأبد .

مخطوطات تريستان وإيزولد لجوتفريد

وصلتنا قصة تريستان وإيزولد الشعرية لجوتفريد فون شتراسبورج في مخطوطات أهمها ١١ مخطوطاً ، منها ستة مخطوطات من الرق :

م - مخطوط ميونيخ ويرجع إلى القرن الثالث عشر وهو على الكثير من الصور ، ويرجع إلى القرن الثالث عشر ، ولكنه غير كامل .
هـ - مخطوط هابدلبرج ويرجع إلى القرن الثالث عشر أيضاً .

ب - مخطوط بلا نكنهايم ، وهو محفوظ الآن في الأرشيف التاريخي لمدينة كولونيا ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر ، وهو على الصور .

ف - مخطوط فلورنسا ، بالمكتبة القومية هناك ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

ن - مخطوط برلين ، وهو بمكتبة برلين ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

ف - مخطوط فيينا بالمكتبة الملكية ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

أما المخطوطات الورقية الخمسة فهي ترجع غالباً إلى القرن الخامس عشر وهي خالية من الصور وبعضها يحمل عناوين لفصول قسم النسخة القصص إليها . وهذه المخطوطات محفوظة في مودينا ، وفي كولونيا وفي برلين

وفي بروكسل وفي هامبورج (نسخة هامبورج هذه صنعت في القرن الثامن عشر في عام ١٧٢٢ نقلاً عن نسخة خطية قديمة ، وهي تقسم القصة إلى ٢٦ فصلاً لكل عنوان مفصل يلخص مضمونه) .

وهناك مجموعة كبيرة من بقايا المخطوطات أو من المخطوطات الجزئية استعمالها العلماء في تحقيق النص وفي الدراسات الفيلولوجية والأدبية المختلفة ، تكفي بالإشارة إلى وجودها . أما الطبقات التي ظهرت للنص محققاً فنذكر منها طبعة ر . بيششتاين (لايبنتسج ١٨٦٩ وبعد ذلك) وطبعة مارولد (لايبنتسج ١٩٠٦ وبعد ذلك) ثم الطبعة الهامة التي أخرجها ف . رانكه عام ١٩٣٠ والتي اعتمدنا عليها في طبعة عام (١٩٦٥) ،

وأول من أخرج نص تريستان وإيزولد في العصر الحديث (وكان أدب العصر الوسيط قد توارى تحت غبار الماضي والنسيان عدداً من القرون) هو كريستيان هاينريش مولر في مجموعته المسماة « سلسلة الآداب الألمانية في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر » ، المجلد الثاني ، برلين عام ١٧٨٥ . ومنذ ذلك الحين كثرت الطبقات ، خاصة بعد أن أصبحت دراسات الآداب الألمانية في العصر الوسيط علماً خاصاً على يد الأخوين جريم في القرن التاسع عشر .

مكملو تريستان وإيزولد

علمنا أن جوتفريد لم يتم قصته ، وأنه تركها ناقصة على الأرجح لموته . وقد تناول اثنان من الأدباء القدماء قصة جوتفريد واستعانوا بمؤلفات أخرى مشابهة لا كافيها . هذان هما أولريش فون تورهايم (بين ١٢٢٥ و ١٢٣٥) وهاينريش فون غرايبرج (حول عام ١٢٩٠) . ولا شك أن اهتمام جماعة من الأدباء (ربما بايعاذ من الأمراء) بإكمال هذا العمل الناقص دلالة على تقدير لقيمه ، وعلى استحسان القراء له . وقد أفدنا من هذا الاهتمام إفادة جوهرية تلخص في معرفة اسم صاحب

« تريستان وايزولد » لأنه كان من عادة الأدباء ألا يذكرُوا أسماءهم إلا في آخر مؤلفاتهم (وربما ذكر بعض الأدباء اسمه في مقدمة مؤلفه كما فعل هرتمن فون أوى في « هاينريش المسكين ») ، وهكذا لم يرد اسم جوتفريد في قصته . ولكن أولريش فون تورهايم وهاينريش فون فرايبرج ذكرا اسم جوتفريد فصحت نسبة العمل إليه . وقد اعتمد الأدبيان المكملان على نص أيلهارت رغم اتهام جوتفريد له بعدم معرفة القصة على حقيقتها ، وكان الأخرى بهما أن يعتمدا على المصدر الذي رجع هو بصفة أساسية إليه وهو نص توماس . ولكن نص أيلهارت كان أقرب مثالا وأكثر إغراء .

والمحقق الذي أضافه أولريش فون تورهايم يتميز بالإيجاز الشديد ، وليست له قيمة أدبية كبيرة . ولأولريش فون تورهم نشاط مشابه في اكمال قصة فيللاهالم للشاعر الألماني العظيم فولفرم فون اشينباخ . ويبدو أن العصر عرف انجاساً يميل إلى اكمال أعمال الكبار التي لم تتح لهم الفرصة لاكتمالها .

تريستان وايزولد بعد جوتفريد

لقيت مادة تريستان وايزولد رواجاً شديداً في البلاد المختلفة . في الترويج مثلاً ظهرت عام ١٢٢٦ قصة تريسترام الترويجي ، وفي إيطاليا ظهرت في مطلع القرن الرابع قصة حول تريستان ، وفي القرن الرابع عشر نشأت قصة تريستان التشيكية . وفي الوقت نفسه تقريباً ظهرت قصة السيد تريستاند في إنجلترا . أما في فرنسا فقد ظهرت — علاوة على ما سبق أن أشرنا إليه — قصة نثرية عن تريستان في النصف الأول من القرن الثالث عشر . وقد حظيت القصة بصيغها المختلفة باهتمام العلماء في فرنسا ، ولا بد أن نشير هنا إلى « رواية تريستان وايزو » التي صاغها جوزيف بدييه من جديد منذ أكثر من ربع قرن ، والتي نقلنا تقسيمها في موضع آخر من هذه الدراسة . والطريف في هذه الرواية أن بدييه

استخدم فيها النصوص الأساسية المعروفة كلها تقريباً ، استخدم توماس وبيرون وأيلهارت وجوتفريد ، واتبع منهجاً وسطاً بين الترجمة والتأليف ، واصطنع أسلوباً شبيهاً بأسلوب العصر الوسيط .

أما الألمان فقد ألفوا قصة أخرى (قصيرة) عن تريستان في نهاية القرن الثالث عشر أو في مطلع القرن الرابع عشر في براج ، وألفوا في الوقت نفسه أو قبله بقليل في منطقة الألزاس عن الموضوع نفسه بعنوان « تريستان راهباً » وهي قصة مغامرات طريفة . ولما دخلت المطبعة ظهرت في ألمانيا رواية نثرية عن تريستان وايزولده طبع في أواخر القرن الخامس عشر أكثر من مرة ، وكانت عملاً بالصور ، واعتمد النص على قصة أيلهارت خاصة وقد ترجمت هذه الرواية الألمانية الشعبية إلى اللغة الدنمركية في منتصف القرن التاسع عشر ، وكانت الدنمرك تعرف رواية دنمركية باسم « تريستان وانديانا » منذ نهاية القرن الثامن عشر لا يعرف مصدرها ، وإن كان المعتقد أن يكون رواية ألمانية ضاعت . وأوحت الرواية الألمانية المطبوعة التي تحدثنا عنها ، إلى الشاعر العامل هانز زاكس بخمس أغان وبتراجيديا (عام ١٥٥١ و ١٥٥٣) . وفي عصر الرومانتيكية ظهر اهتمام مجدد بتريستان وايزولد فألف كارل امبرمن قصة شعرية (ملحمة) لم يتمها (١٨٤١) على أن الفضل يرجع إلى ريشارد فاجنر ، الشاعر الموسيقي ، في صياغة مادة تريستان وايزولد الصياغة النهائية في الدراما الموسيقية « تريستان وايزولده » . كتب فاجنر النص في عام ١٨٥٧ ووضع موسيقاه في عام ١٨٥٩ ، ومنلت الأوبرا لأول مرة في ميونيخ في عام ١٨٦٥ . وكان فاجنر في هذا الوقت متأثراً بحب ماتيلده فيرنلوند وما لقيه فيه من خبرة عميقة خلقة . وقد قرأ فاجنر تريستان وايزولد في ترجمة هـ . كورتس (عام ١٨٤٤) وترجمة زيمروك (١٨٥٥) وتأثر « بشوبنهاور » وربما « بنوفاليس » ، فتم له من هذه

وسارت السفينة بايزولد وتريستان ومن معهما إلى
أرض الملك مارك . وكانت ايزولد حزينة وكان
تريستان يواسيها (١١٥٤٠ وما بعده) :

وأعطيت السيدة (ايزولد) في الرحلة

بإشارة من تريستان

حجرة بالسفينة

خفية متوارية

لتقيم فيها .

هناك كانت الملكة

وفتياتها معها

ولا يدخل إلين رجل أبداً

إلا تريستان من وقت لآخر :

فكان يدخل أحياناً

ويواسي الملكة

عندما كانت تجلس باكية .

كانت تبكي وتنتحب

لأنها تركت هكذا بلدها

الذي تعرف أهله

وتركت أصدقاءها جميعاً

لترحل مع قوم لا تعرفهم

.....

وهكذا كان تريستان يواسيها

على أحلى ما يستطيع

في كل ساعة .

عندما كان الحزن يحل عليها .

كان يأخذها بين ذراعيه

بكل حلاوة ورقق

بطريقة لا تختلف عن

الزوج مع زوجه .

كان الرجل المخلص يجتهد

في أن يكون للحسناء

المؤثرات جميعاً خلق العنصر الجوهري وهو الحب إلى
الموت وفي الموت ، هو الحنين إلى الحب والوصال في
الموت ، هو الرمز الخالد لخلاص الإنسانية في وحدة
الكل وانسجامه .

أمثلة من قصة تريستان وأيزولد

أعدت الملكة ايزولد الأم مشروب الحب السحري
وأعطته للوصيفة برانجين وأوصتها الوصيفة التالية (البيت
١١٤٤٩ وما بعده) :

أخذت السيدة الحكيمة (الملكة ايزولد الأم) الشراب

وتكلمت مع برانجين بصوت خفيض ،

قالت لها : « أى برانجين ، يا عزيزتى وبنت أخى

أرجو ألا يكون كلامي ثقبلا عليك ،

فقد قررت أن تذهبي مع ابنتي في سفرها .

لذلك فافتحي لى ذهنك

وانتهى لى كل ما أقول لك :

خذى هذا الكأس بما فيه من شراب

واجعليه فى حفظك وصونك ،

وانتهى إليه جداً أكثر من كل ما عداه .

حذار أن يأتى كائن من كان على الأرض

ويمد يده إليه !

احفظيه بكل جد وجهد

حتى لا ينعم به أى إنسان .

واجتهدى أشد الاجتهاد

عندما تقترب ايزولد ومارك

من وصال الحب

أن تقدي لها هذا الشراب على أنه نبيذ

ليشرباه معاً كله .

.....

إنه شراب الحب والهيام :

فلا تنسى هذا قط .

تحقيقاً عما بها من هم .

فلما تكرر

تطويقه اياها بذراعيه ،

فكرت ايزولد الجميلة

في موت خالها

وقالت له محذرة :

« كفالك يا ريس » (ريس المركب !) ، ابتعد ،

وابعد ذراعيك عني !

أنت رجل جاد شرير ،

فلماذا تلمسني ؟

فيقول : « آه ، أيتها الجميلة ، هل أسئ التصرف ؟

فترد : « نعم ، لأنني أكرهك » .

ويتقرب تريستان إلى ايزولد ويحدث بينهما كلام

وعتاب . وفي الطريق يقتربان من الشاطئ طلباً للراحة ،

ويذهب من بالسفينة كل في ناحية ، ويبقى تريستان مع

ايزولد ، ويعطشان ، ويشربان على غير علم من الاناء

الذي به الشراب السحري ، فإذا بالحب يشتعل في

قلبيهما . (١١٧٤٥ وما بعده) :

فلما أحس تريستان بالحب

فكر على الفور

في الاخلاص والشرف

وأراد أن يحسم الأمر حسماً .

ولكنه ما لبث أن ثار على نفسه وقال :

« دع يا تريستان الأمور تجري مجراها

ولا تهتم » .

كان قلبه يريد أمراً

وكان هو يصارع إرادته ،

وكان يشتهي ضد رغبته .

كان يريد هذا ، ثم يريد ذاك .

وفي الطريق حاول الرجل الضائع

مراراً وتكراراً

محاولات كثيرة ، واجتهد في الاستقامة طويلاً .

وكان أمره مع الاخلاص

بضطرب بين حالين متلاصقتين قاسيتين :

كان كلما رآها بعينه

بدأ الحب الجميل

يؤجج قلبه ويوقد حسه ،

ثم يفكر في الشرف ، فيصرفه فكره عن الحب ،

ثم ما يلبث الحب أن يعاوده ،

والحب صاحب الأمر والنهي ،

فيتحتم عليه الامثال .

اختلجت في نفسه : الرغبة

والاخلاص والشرف في وقت واحد .

ولكن اختلاج الحب كان أقوى

وكان يحدث به ما هو أشد من الألم ،

وكان يؤرقه

أكثر مما يؤرقه الاخلاص والشرف مجتمعين .

وكان قلبه ينظر إلى الاثنين ويضحك

وتشيع حينئذ عنهما .

كان إذا لم يرها

يحس بالقلق أشد القلق .

وكثيراً ما كان يرى نفسه ،

مثل الأسير

الذي يريد الحرب

ثم يعود إلى التفكير ويقول في نفسه :

« قف في وجه هذا ! ورد ذاك !

اصرف هذه الرغبة !

ابعد هذا الحب ! وفكر في شيء آخر »

ولكنه كان إذا تناول قلبه وحسه

وهو في الطريق

وحاول أن يغيرهما

لم يجد فيهما

إلا ايزولد والحب » .



مفاتيح العلوم

للخوارزمي

بمقام
الاستاذ سعيد زايدي

وضع مصطلحات علمهم ، وهم - فوق ذلك - قد يطلقون لفظاً واحداً في علم واحد على معنيين مختلفين ، ما داموا قد ارتضوا ذلك واصطلحوا عليه ، وهم كما يعتمدون لفظاً من الفصحى فإنهم يستمدون آخر من العامية ، وكما يستعينون باللغة الحية فإنهم يستعينون باللغة الميتة .

والمصطلحات العلمية قديمة قدم العلم ، عرفت أيام قدماء المصريين ، وأيام ازدهار حضارة اليونان والرومان وقد عرفها العرب قبل ظهور الإسلام بقدر ما كان لديهم من علوم محدودة تدور في فلك محدود وتناسب مع حياتهم داخل الجزيرة العربية . وازدهرت بظهور الإسلام وما أتى به من نظم تغلغلت في حياتهم الخاصة والعامة ونظمت العلاقات الفردية والعلاقات العامة . فوضعت أسس المعاملة في داخل الأسرة ، وأسست الصلة بين أفراد القبيلة وجمهور الأمة ، بل الإنسانية جمعاء ، وما ينبغي أن يسير عليه الأفراد بالنسبة لربه وما تقتضيه العبادات من شروط وأحوال . فكما شرع الرسول صلى الله عليه وسلم أسس الأحكام الدينية ، فقد شرع أيضاً أسس الاصطلاح واستعمال الألفاظ ، فنبتت على يديه بذور الاصطلاحات الفقهية في القرن

١ - المصطلح العلمي هو اللفظ الذي يتفق عليه العلماء ليدلوا به على شيء محدود ، ويميزوا به معاني الأشياء بعضها عن بعض . وهو جزء من المنهج العلمي وركن أساسي في كل علم ، فـ العلم لغة أحكم وضعها ، كما قيل قديماً . فهو لغة التفاهم بين العلماء ، وهو الذي يعين على حسن الأداء ويدور عليه تبادل الآراء والأفكار ، وهو أيضاً النافذة التي يطل منها العلماء على غيرهم من الدارسين والمتفقيين ، والأساس الذي يتبلور فيه التعاون بينهم ، إذ هو من ضرورات العلم وإحدى وسائله الهامة في التعليم ونقل المعلومات . فبالمصطلحات العلمية تقرب المسافة ، ويختصر الطريق ، وتوضح الدلالة ، وتستساغ الحقيقة العلمية .

والمصطلحات العلمية تتبع بالضرورة تقدم العلوم وازدهارها ، بما يصاحبها من اكتشافات واختراعات . فليس من شك في أن التقدم والتطور - في مجال العلوم - تنتج عنه أشياء جديدة تقتضي مسميات فيصطلح العلماء على تسميتها تسمية توأمت بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي الذي يختارونه أو لا توأمته ، فإن العالم حر في اختيار اللفظ الذي يؤدي به الحقيقة العلمية . إذ من البديهي أن علماء كل علم هم ذوو الاختصاص المباشر في

الأول للهجرة ، وذلك بنقله بعض الألفاظ من معانيها اللغوية إلى حقائق عرفية شرعية . وقد ظهرت آثار هذا الثبت وأبنت في القرن الثالث الهجري بفضل المدنية التي ازدهرت من أواخر القرن الثاني الهجري فأثرت في كل شيء بما في ذلك تفكير الناس وتعبيرهم ، وبفضل التدوين ، فإن التدوين يستلزم تحديد المعاني في ألفاظ تدون للدلالة عليها . وبقتضى صيغ الأحكام بالصيغة العلمية . ولقد كان للاختلاف بين فقهاء الحجاز وفقهاء العراق أثره الواضح في إمعان النظر في أدلة الأحكام ومصادرها وتحديد ما يدل عليه الدليل وتمييزه عن غيره . وقد أدى ذلك إلى وضع كثير من المصطلحات التي كانت ثروة ضخمة ظهر أثرها جلياً في دراسة العلوم القانونية باللغة العربية .

وكما أثرت المدنية الإسلامية في الدراسات الفقهية ، فقد ظهر أثرها أيضاً في العلوم الأخرى . فنشأت دراسات أسفرت عن علوم واضحة المعالم منهجية الأسس في اللغة والدين والقرآن والحديث والشرعية بصفة عامة ، علوم تداولها العلماء وعلموها لطلابهم وذاخرت بالمصطلحات العلمية .

ولقد كان لمدرسة المفكرين الأحرار في الإسلام وهي مدرسة المعتزلة بحوث عقلية هدفها الملاءمة بين العقل والنقل . فكان من الطبيعي أن تظهر في كتاباتهم مصطلحات واضحة ذات مفهوم محدد ، استعملوها في مجادلاتهم ومجلوها في كتبهم ، مثل كتاب المغني لشيخهم القاضي عبد الجبار الهمداني الذي نشرت أغلب أجزائه أخيراً . فن أصولهم الخاصة اصطلاحات العدل والتوحيد ، والوعد والوعيد ، وما يتبعها من الصلاح والأصلح والحسن والقبيح العقليين والجبر والاختيار وما إلى ذلك ، ثم المنزلة بين المنزلتين ، والقول بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد تبني الفلاسفة المسلمون ، بعد ذلك ، كثيراً من مصطلحاتهم مثل الجزء الذي لا يتجزأ أو الجوهر

الفرد ، والجوهر والعرض ، والحركة والسكون ، والجسم والروح ، وهي كلها ألفاظ عربية اختبرت في دقة متناهية بما يلائم المعاني التي يراد التعبير عنها .

أما عصر الترجمة ، فقد مر بدورين : دور النقل المعجل إشباعاً للنهم العقلي ، وقد كان من الطبيعي أن تتسلل في هذا الدور بعض المصطلحات الأعجمية مثل : هوبل وأسطقس : وفنطاسيا ، وناموس . . . الخ . ودور التحييص والإتقان فيما ترجم ويترجم . وفيه ظهر العقل العربي مارداً جباراً مستبصر المدارك مستنير الملكات ، فراجع ما نقل في هدوء ووضع مصطلحات عربية خالصة بدلا من المصطلحات الأعجمية ، بل جدد وزاد وأبدع وأجاد .

وقد نقل المسلمون عن العبرية والسريانية والفارسية والهندية واللاتينية واليونانية . وترجموا بعض الكتب عدة مرات وفقاً للأصول التي عثروا عليها . وغذت مدارس الإسكندرية وجنديسابور وحران المسلمين بالكتب والترجمات من مسيحيين ويهود وصابئة وهنود وفرس . وقد تكونت بفضل الترجمة مصطلحات علمية في الطب والكيمياء والفلسفة والمنطق والسياسة وجميع العلوم التي ترجمت . واعتمد المترجمون في هذا المجال على اللغة العربية أولاً ، فاستعملوا الحجاز باستعارة ألفاظ ذات دلالات لغوية معروفة ، وشاءوا لها تأدية معاني جديدة ، ولجأوا في بعض الأحيان إلى العلوم الأسبق تكويناً مستعملين بعض مصطلحاتها للتعبير عن المعاني الجديدة ، وبدا ظهر بعض المصطلحات المشتركة بين العلوم المختلفة عند المسلمين ، كما أشار الخوارزمي ، وكما سنبين ذلك في جزء لاحق من هذا الفصل إن شاء الله .

ولم يقف العرب عند هذا ، بل نحتوا ، واشتقوا ، واستعملوا المصدر الصناعي . فقالوا بالهوية والماهية وما إلى ذلك ، وضمو « لا » النافية لينشوا لفظاً جديداً

فقالوا باللاأدوية واللاهائية وهو ما يسمى بالتركيب المزجى .

وهكذا نرى أن العرب قد لجأوا في مصطلحاتهم العربية والدخيلة إلى الحجاز والاشتقاق والترجمة والتعريب ولم يستعينوا بالنحت إلا في النادر ، ولجأوا أيضاً إلى التركيب المزجى .

وهناك كتب كثيرة تناولت المصطلحات العربية ، منها كتب عامة أى تعرضت لمجموعة من العلوم ، وكتب خاصة تخصصت في فن معين . ونذكر منها على سبيل المثال - لا الحصر - كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى المتوفى سنة ١١٥٨ هـ ، وكليات العلوم لأبى البقاء الحسينى المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ ، والتعريفات للجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ هـ ، والبصائر النصيرية في علم المنطق للساوى المتوفى سنة ٥٣٨٠ هـ . وكتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى .

٢ - حياة الخوارزمى

إن الخوارزمى الذى نقصده هنا ، هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب البلخى الخوارزمى ، وهو باحث من أهل خراسان . وقد قال عنه ابن خلكان في « وفيات الأعيان » والمقرئى في « خطط المقرئى » إنه محمد بن أحمد بن يوسف ، وانفرد المقرئى بإضافة لقب « البلخى » بدلا من قوله « الخوارزمى » . وهو عالم آخر غير أبى عبدالله محمد بن موسى الخوارزمى ، الرياضى المعروف ، والذى عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجرى . إذ أن عالمنا هذا عاش في القرن الرابع الهجرى ، وألف كتابه الوحيد وأهداه إلى أبى الحسن عبيدالله بن أبى العتبى الذى كان وزيراً من وزراء نوح الثانى السامانى ، فقد كان يشغل منصباً إدارياً في بلاطه بنيسابور من سنة ٣٦٦ حتى سنة ٣٨٧ هـ .

وبقدر ما ذخرت المراجع العامة بأخبار محمد ابن موسى الخوارزمى ، وأفاضت في ذكر أخباره وكتبه ، فقد ضلت على محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى ، فلم يذكر أغلبها عنه شيئاً ، والذى ذكر عنه لم يزد على مقتطفات هزيلة ، وكذلك الحال بالنسبة للمراجع الأجنبية التى حفلت بذكر أخبار العالم الأول . فقد نال شهرة عظيمة عند الإفرنج ودخل اسمه المعاجم الإفرنجية فقليل : *Algorithmus Guarismo Algorithm* . وقد تعلم أهل الغرب علم الحساب عن كتابه في الحساب بعد أن ترجم إلى اللاتينية وعن كتب أخرى بنيت على هذا الكتاب . وقد نشر فردريك روزن النسخة العربية لكتاب الجبر والمقابلة للخوارزمى سنة ١٨٣١ م وطبعها في لندن ونشر معها ترجمة إنجليزية له مع تعليق باللغة الإنجليزية . وبعد ذلك ترجم « مار » الفصل الخاص بالمساحات معتمداً على النسخة التى حققها روزن . وفي سنة ١٩١٥ نشر كاربنسكى ترجمة عن النسخة اللاتينية التى ترجمها روبرت أوف تشستر عن الأصل العربى . هذا ، وقد حقق الكتاب المرحوم الدكتور على مصطفى مشرفة والدكتور محمد مرسى أحمد عن نسخة محفوظة بأكسفورد ، ونشر هذا التحقيق في القاهرة سنة ١٩٣٧ . وللخوارزمى هذا غير كتاب الحساب وكتاب الجبر والمقابلة كتاب في تقويم البلدان شرح فيه آراء بطليموس وكتاب رابع جمع بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك . (الدليل البيولوجرافى ، ط . مركز تبادل القيم الثقافية ، ص ٣٢٠ ، القاهرة ١٩٦٥) .

ويقول فان فلوطن G. Van Vloten الذى نشر كتاب « مفاتيح العلوم » في لندن في يناير سنة ١٨٩٥ وقدم له باللغة اللاتينية إن الخوارزمى (أبو عبدالله محمد ابن أحمد بن يوسف) كان يستعمل مقاييس وأوزان أهل خراسان في إشرافه على توزيع المياه في مرو . وكان الخوارزمى على علم تام باللغة الفارسية ، فقد كان يرجع الكلمات العربية إلى أصلها الفارسي . ومن المحتمل أنه

كان يعرف شيئاً من اللغات اليونانية والسرانية والسنسكريتية . ومما لا شك فيه أن معرفته بهذه اللغات أفادته من مؤلفات العلماء أمثال أفليدس ونيقوماخوس وهيرودوت وفيلون . غير أنه لم تكن من عاداته ذكر أسماء المراجع التي اعتمد عليها إلا فيما ندر ، عدا ما يتعلق بالخليل بن أحمد الذي جاء ذكره في كتابه ثلاث عشرة مرة ، وذكر أيضاً أسماء ابن درستويه والأصمعي وابن المقفع ورسائل إخوان الصفاء .

ولم تذكر المراجع تاريخ مولد الخوارزمي ؛ وانفق أغلبها على ذكر تاريخ الوفاة ، فقد ذكر المستشرق فيدمان E. Wiedemann في دائرة المعارف الإسلامية وحاجي خليفة في كشف الظنون وفان فلوطن G. Van Vloten في مقدمته لمفاتيح العلوم وبروكلمان في تاريخ الآداب العربية وجورج سارتون في المدخل إلى تاريخ العلوم Introduction to the History of Science أن الخوارزمي توفي سنة ٣٨٧ هـ . ولكن البغدادي في كتابه تاريخ العارفين قال إنه توفي حوالي سنة ٣٨٠ هـ . وفي رأينا أن التاريخ الأول هو الأصح إذ أنه ظل يعمل في بلاط نوح الثاني الساماني من سنة ٣٦٦ هـ حتى سنة ٣٨٧ هـ .

٣ - مفاتيح العلوم

لم يدلنا أي مرجع من المراجع العامة التي تحدثت عن الخوارزمي أن له كتاباً آخر غير كتاب مفاتيح العلوم . وقد نشر الكتاب في القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ أي منذ ثلاثة وأربعين عاماً في مائة وخمسين صفحة من القطع الكبير ، وذيل بفهرس عام في أربع صفحات . ولم يكتب على غلافه إلا العبارة التالية التي تقول « عني بتصحيحه ونشره للمرة الأولى سنة ١٣٤٢ هـ إدارة المطبعة المنيرية » . وقد قام النشر على نسخة خطية مكتوبة بخط نسخ منقوط واضح القراءة ، على ما يبدو من إحدى ورقات المخطوط التي صورت وظهرت في أول الكتاب . ومن أسف لم يكشف الناشر عن اسم

المخطوط ولا عن المكان الذي حفظ فيه ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فلما لا نستطيع القول بأن هذا النشر محقق ، فهو لا يعدو أن يكون طبعاً للمخطوط كما هو بدون تطبيق أو شرح أو حتى تصحيح .

وليس صحيحاً أن هذا النشر هو الأول كما ذكرت طبعة القاهرة ، إذ أن كتاب مفاتيح العلوم طبع طبعة علمية أخرى منذ أكثر من سبعين عاماً في ليدن ، بتحقيق فان فلوطن G. Van Vloten في يناير سنة ١٨٩٥ م معتمداً في نشره على خمس مخطوطات ، متخذاً مخطوطة ليدن أساساً ، ومراجعاً لها على أربع مخطوطات أخرى : ثلاث مخطوطات من المتحف البريطاني ، والرابعة هي مخطوطة برلين التي توجد ضمن مجموعة لانديج . وقد قدم له الناشر مقدمة ضافية ، وإن لم يذيله بفهرس عام كما فعلت نشرة القاهرة ، اكتفاء بالتقسيم الذي ذكره المؤلف في أول الكتاب للمقالات والأبواب والفصول وقد وقعت نشرة فلوطن في ثلاثمائة وثمان وعشرين صفحة من القطع الكبير ، منها مائتان وستة وستون صفحة للنص ، وثلاث وخمسون صفحة للمصطلحات التي وردت في الكتاب ، وتسع صفحات لأسماء البلدان عدا مقدمة باللغة اللاتينية في سبع صفحات . ١

هذا ، وقد نشرت الألفاظ الاصطلاحية التاريخية التي وردت في الكتاب في المجلد السابع من المجلة التاريخية المصرية سنة ١٩٥٨ م مضمونة محققة بعرفة الدكتور يحيى الخشاب والدكتور الباز العريفي ومقدماً لها بقلم المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال . وقد انفرد الدكتور يحيى الخشاب بضبط الفصولين الأول والثاني من الباب الثاني من المقالة الأولى المختص بعلم الكلام : وموضوع الفصل الأول « في مواضع متكلمي الإسلام » ، وموضوع الفصل الثاني « في ذكر أسامي أرباب الآراء والمذاهب الإسلامية » . وأورد شروحاً على ما ورد فيها من مصطلحات من كتب : كشاف اصطلاحات الفنون للهانوي ، وكتاب تبصرة العوام في معرفة مقالات

الأنام للسيد المرتضى ، والترجمة العربية لكتاب بيان الأديان ، وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ، والترجمة العربية لكتاب شرفنامه ، وكتاب اليزيدية ومنشأ نحلهم لأحمد تيمور ، وكتاب تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم لعباس العزاوي ، وكتاب مختصر كتاب الفرق بين الفرق للبهنادي ، ومختصر كتاب الفرق بين الفرق للبهنادي بقلم عبد الرزاق بن رزق الله الرسفي ، وكتاب الفهرست لابن النديم ، وكتاب أصل الشيعة وأصولها للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، وكتاب تنسر ترجمة يحيى الخشاب عن الفارسية ، وكتاب التبصير في الدين للاسفرائيني ، وكتاب ناصر خسرو (بالفرنسية) ليحيى الخشاب ، وغير ذلك من المراجع .

واشترك الدكتور يحيى الخشاب مع الدكتور الباز العريفي في ضبط وتحقيق الفصل الخامس من الباب الثاني من المقالة الأولى أيضاً ، وعنوانه « في أسامي أرباب الملل والنحل المختلفة » ، والفصل السادس الذي يتكلم عن « عبدة الأصنام من العرب وأسماء أصنامهم » ، والباب الرابع بأكمله ويحتوي على ثمانية فصول تناول الكلام عن الألفاظ التي تستعمل في كتابة الدواوين كديوان الخراج وديوان الخزن وديوان البريد وديوان الجيش وديوان الضياع والنفقات وديوان الماء ، ومواصفات كتاب الرسائل ، وكذلك الفصول الأول والثالث والسادس والثامن والتاسع من الباب السادس الذي يتكلم في الأخبار فيذكر ملوك الفرس وألقابهم وملوك اليمن في الجاهلية وألقابهم ، ويذكر بعض الألفاظ التي يكثر جريها في أخبار الفرس وأخبار عرب الإسلام وملوك عرب الجاهلية وملوك الروم . وقد قام الدكتور يحيى الخشاب بضبط وتحقيق الألفاظ الفارسية وقام الدكتور الباز العريفي بضبط وتحقيق الألفاظ العربية معتمدين على بعض المراجع العامة .

قلنا إن الخوارزمي كتب كتابه للوزير أبي الحسن عبيد الله بن أحمد العتيبي . وقد بين ذلك في المقدمة

القصيرة التي قدم بها الكتاب . ومفاتيح العلوم - كما يتبين من اسمه - يعد مدخلاً للعلوم ومفتاحاً لأكثرها . ويتحدث عن الألفاظ المصطلح عليها في كل علم والتي تواضع عليها العلماء واتفقوا على معانيها والمحال الذي تستعمل فيه ، وهي ألفاظ - كما يقول الخوارزمي - خلقت منها أو من أجلها كتب اللغة . وقد تحرى في مصطلحاته « الإيجاز والاختصار » ، وتوق التطويل والإكثار ، وابتعد عن ذكر المشهور والمتعارف بين الجمهور ، وكذلك الغامض الغريب الذي يحتاج إلى شرح طويل وتفسير كثير .

وقد قسم الخوارزمي « مفاتيح العلوم » إلى مقاليتين : تحتوى المقالة الأولى على ستة أبواب ، فيها اثنان وخمسون فصلاً ، وتحتوى المقالة الثانية على تسعة أبواب ، فيها واحد وأربعون فصلاً ، وبذلك يكون الكتاب كله يحتوي على خمسة عشر باباً ، فيها ثلاثة وتسعون فصلاً . وقد خصص المقالة الأولى بالعلوم الأدبية أو ما يغلب عليها روح الأدب من فقه وعلم كلام ونحو وكتابة دواوين وشرع وعروض وأخبار . وخصص المقالة الثانية بالعلوم التي تغلب فيها روح العلم من فلسفة ومنطق وطب وحساب وهندسة وعلم النجوم وموسيقى وحيل وكيمياء .

ويبدأ الخوارزمي كتابه بالحديث عن الفقه في الباب الأول من المقالة الأولى ، فيتكلم في أصول الفقه والطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج وشروطه والبيع والنكاح والديات والغريضة والنواذر . فهو في أصول الفقه يذكر أنها ستة أصول : ثلاثة متفق عليها وهي الكتاب والسنة والإجماع ، وثلاثة مختلف فيها وهي القياس والاستحسان والاستصلاح ، وهو في كل ذلك يضع شروحاً وتعريفات توضح السبيل لمن يشتغل بعلم الأصول . أما فيما يتعلق بالطهارة ، فيعرف الخوارزمي الماء المضاف ، والماء المطلق ، والماء المستعمل ، وسور الكلب ، والتحري ، والاستنثار . وفي فصل

الصلاة والأذان يعرف الثوب والترجيع والتحريم والتشهد . ويتحدث عن الصوم فيعرف القلس والاعتكاف ، والفجر الأول ، والفجر الثاني . ثم يعرف - عند الكلام على الزكاة - الورق ، والنصاب ، والركاز ، والكسعة ، وما إلى ذلك من أوزان ومكاييل تستعمل في مجال الفرض الثالث من فروض الإسلام وعندما يتكلم عن الحج يعرف القران ، والتمتع ، والإفراد ، والاستلام ، والمئذنة ، والتجمير . وفي الفصل السابع يتكلم عن البيع والشركة ، فيعرف بيع العرايا ، وبيع الفرر ، وبيع المزابنة ، وبيع المحاقلة ، وبيع النجش ، وبيع المضاربة . ثم يتناول الكلام عن النكاح والطلاق في الفصل الثامن ، فيعرف زواج الشغار ، وزواج المنة ، وطلاق الظهار ، والإيلاء ، والملاعة ، والقرء ، والاستبراء ، والحلل . ويتكلم عن الدييات في الفصل التاسع ، فيعرف الفرة والقسامة ، والأرض والشجاج . وفي الفصل العاشر يتكلم في الفريضة فيعرف العسبة ، والكلالة ، والأكلرية ، ثم يعرف التناسخ في مجال الوراثة . وعندما يتكلم عن النوادر في الفصل الحادي عشر يعرف اليمين ، والنكول ، والجرح والحجر والتدبير ، والمكاتب ، والتعجز ، والرقبي .

وهكذا يسر الخوارزمي فيما يتعلق ببقية أبواب وفصول المقالة الأولى من كتابه ، فيعرف المصطلحات التي ترد في علوم اللغة والكلام والنحو والشعر والعروض والأخبار .

أما المقالة الثانية من « مفاتيح العلوم » فهي - كما قلنا - تتناول الفلسفة والمنطق والطب وعلم العدد والهندسة وعلم النجوم وعلم الموسيقى وعلم الحيسل والكيمياء . ويبدأ الخوارزمي مقالته هذه بالكلام في الفلسفة ، وقد اعتبرها من علوم العجم وهي العلوم التي وقف عليها هذا الجزء من كتابه ، وقد قسم الباب الخاص بها إلى ثلاثة فصول : تكلم في الفصل الأول عن

أقسام الفلسفة وأصنافها ، وفي الفصل الثاني عن « جمل ونكت عن العلم وما يتصل به » ، وفي الفصل الثالث عن « ألفاظ ومواضع يكثُر جريها في كتب الفلسفة » أما فيما يتعلق بأقسام الفلسفة ، فيبدأ الخوارزمي الكلام فيها بأن كلمة الفلسفة مشتقة من كلمة يونانية وهي فيلاسوفيا وتفسيرها محبة الحكمة ، ومعنى الفلسفة علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصح . ثم قسمها قسمين : جزء نظري ، وآخر عملي . والنظري له ثلاثة أقسام : قسم يفحص فيه عن الأشياء التي لها عنصر ومادة ويسمى علم الطبيعة ، وقسم يفحص فيه عن ما يخرج عن العنصر والمادة ويسمى علم الأمور الإلهية ، وقسم يفحص فيه عن أشياء موجودة في المادة لا عن أشياء لها مادة مثل المقادير والأشكال والحركات ويسمى العلم التعليمي والرياضي . وهذا القسم متوسط بين العلم الأعلى وهو الإلهي وبين العلم الأسفل وهو الطبيعي . ثم يتناول الخوارزمي الفلسفة العملية فيقسمها إلى ثلاثة أقسام أيضاً : القسم الأول هو علم الأخلاق ، والثاني تدبير المنزل ، والثالث السياسة . ويرجع المؤلف مرة أخرى إلى الفلسفة النظرية ليذكر الفروع التي تقع تحت أقسامها ، فيذكر أن العلم الطبيعي يندرج تحته علم الطب وعلم الآثار العلوية وعلم المعادن والنبات والحيوان وجميع طبائع الأشياء التي تقع تحت فلك القمر ، وكذلك صناعة الكيمياء . ويذكر أن العلم التعليمي والرياضي ينقسم إلى أقسام أربعة : الأريثماتيقي أي علم العدد والحساب ، والجومطري أي علم الهندسة ، والاسطرانوميا أي علم النجوم ، وعلم الموسيقى . هذا فيما يتعلق بأقسام العلم الطبيعي والعلم التعليمي . أما العلم الإلهي فقد أفرد له الخوارزمي فصلاً خاصاً به سماه « في جمل العلم الإلهي » ، فذكر أن « الله تبارك وتعالى عز وعلا هو موجد العالم وهو السبب الأول والعلة الأولى وهو الواحد والحق ، وما سواه لا مخلو من كثرة من جهة أو جهات ، وصفته الخاصة أنه واجب الوجود ، وسائر الموجودات

ممكنة الوجود . ثم عرف العقل الفعال بأنه القوة الإلهية التي يهتدى بها كل شيء في العالم العلوى والسفلى من أفلاك وكواكب وجباد وحيوان وإنسان . وعرف أيضاً العقل الهولاني ، والنفس ، والنفس الكلية ، والنفس العامة . ويخلص الخوارزمي بعد ذلك إلى الفصل الثالث الذي خصه بالأنفاظ التي تذكر كثيراً في الفلسفة ، فعرف الهول ، والصورة ، والأسطقس ، والكيفيات الأولى ، والمكان ، والخلاء ، والزمان ، والمدة ، والجسم الطبيعي ، والجسم التعليمي ، والتجزؤ الطبيعي ، والتجزؤ التعليمي ، وفنطاسيا التي قال فيها إنها القوة المخيلة من قوة النفس وهي التي يتصور بها المحسوسات في الوهم وإن كانت غائبة عن الحس وتسمى القوة المتصورة والمصورة . وعرف أيضاً الأرواح عند الفلاسفة ، ورأى أنها ثلاثة أقسام : الروح الطبيعية وتشترك بين الحيوان والنبات ، والروح الحيوانية وتشترك بين الحيوان الناطق وغير الناطق ومكانها القلب والروح النفسانية وهي تخص الإنسان ومكانها الدماغ . ثم عرف الكون والاستحالة والإرادة والمحال والكيان والنواميس .

أما الباب الثاني من المقالة الثانية فقد خصه الخوارزمي بالكلام في المنطق وقسمه إلى تسعة فصول : تكلم في الفصل الأول عن إيساغوجي أي المدخل ، والثاني عن قاطيغورياس أي المقولات ، والثالث عن باري ارمينياس أي العبارة ، والرابع عن أنولوطيقا أي القياس ، والخامس عن أفودقطيقي أي البرهان ، والسادس عن طوبيقي أي الجدل ، والسابع عن سوفسطيقي أي السفسطة ، والثامن عن ريطوريقي أي الخطابة ، والتاسع عن بيوطيقي أي الشعر . ويلاحظ أنه اتبع التقسيم التقليدي لأجزاء المنطق الذي عرف منذ أرسطو وسار عليه فلاسفة الإسلام ، وما كان له أن يفعل غير هذا ، وهو الذي لا يهتم بالموضوع بقدر اهتمامه بالمصطلحات الواردة في العلم .

وقد تناول المؤلف في الباب الثالث من هذه المقالة موضوعات الطب في سبعة فصول : فتكلم في الفصل الأول عن التشريح كما عالج الأمراض والأدواء والأغذية ثم الأدوية المفردة والمركبة وأوزان الأطباء ومكاييلهم في بقية فصول هذا الباب . وقد عرف الشرايين والعروق والعضلات والأعصاب والمشيمة والشبكة والقرنية والاثني عشر وغيرها ، كما عرف من الأمراض السمنة والهبرية والبهق والحصف والقوباء والجذام والسح والسرطان والصرع والبرقان ، كما تكلم عن الأدوية المفردة فقال : لأنها إما نباتية وهي ثمر أو جنور أو زهر أو ورق أو قصبان أو أصول أو قشور أو عصارات أو ألبان أو صموغ ، وإما معدنية ، وإما حيوانية ، وشرح الأفاقد والسبل الهندي والمبعة والساذج والضررو والجنطيانا والبروج وعصى الراعي وعنب الثعلب ولسان الثور .

وفي الباب الرابع تعرض الخوارزمي لموضوعات الأريماطيقى ، فعرف الكمية المفردة والكمية المضافة والأعداد والنسبة وحساب الهند وحساب الجمل ومبادئ الجبر والمقابلة .

وتناول في الباب الخامس الهندسة وعالج موضوعاتها في أربعة فصول : الأول في مقدمات الصناعة ، والثاني في الخطوط ، والثالث في البسائط ، والرابع في المجسمات .

وتحدث في الباب السادس عن علم النجوم ، فعرض أسماء النجوم السيارة والثابتة وصورها وتركيب الأفلاك وآلات المنجمين كالاسطرلاب وأنواعه المختلفة من هلالى وكروى وزورقي وصدقي وغيرها .

وخص الباب السابع بالموسيقى وآلاتها وإيقاعاتها . والباب الثامن بالحيل من نحو جر الأثقال بالقوة اليسيرة وآلاته ، وآلات الحركات .

وختم الخوارزمي كتابه بالباب التاسع من المقالة الثانية وخصه بالكيمياء وقسمه إلى فصول ثلاثة : فصل

في آلات الصناعة ، وآخر في العقاقير والأدوية من
الجواهر والأحجار ، وثالث في تدبيرات هذه الأشياء
ومعالجتها .

والخوارزمي في جميع فصول كتابه يعرف
المصطلحات تعريفات مختصرة أحياناً ، أو تعريفات
تقرب من الشروح أحياناً أخرى ، وإن كان إلى المنهج
الأول أميل . وهو في تعريفاته على العموم يراعى الدقة
والإيجاز ويضع اللفظ في مكانه المناسب ويستخدم
التعابير العلمية .

وبما لا شك فيه أن الخوارزمي في كتابه « مفاتيح
العلوم » يعد من العلماء المستقرئين ذوى الاطلاع الواسع
والقراءة الشاملة ؛ فقد اطلع على ما كتبه غيره من علماء
وفقهاء وفلاسفة ومتكلمين ، واستخلص تعريفاته من
بجالات استعمالهم لها ، وهذا شأن من يريد أن يبرز
المصطلح العلمى في الحقل الثقافى ، فهو يهتم أساساً بما
تواضع عليه علماء كل علم وبما اصطالحوا عليه ،
وباللفظ الذى نال حياة في كتاباتهم ، ثم يسجل هذا
كله في قاموس مصطلحاته . فالمهمة الأساسية لواضع
القاموس الاصطلاحي هي التسجيل بالإضافة إلى الثقافة
الواسعة والتزام المنهج العلمى في التبويب ، وهو
ما نلاحظه في كتاب مفاتيح العلوم وما يبلو واضحاً في
فصوله المختلفة . فإنه يذكر المصطلح الواحد في أماكن
متفرقة في كتابه حسب التبويب الذى سار عليه ،
ويفرق - بالطبع - بين استعماله عند طائفة من أهل العلم
وبين طائفة أخرى غيرهم . فهو في الفصل الأول من
الباب الثانى من المقالة الأولى الذى خصه بالكلام عن
« مواضع متكلمى الإسلام » يذكر تعريف « الشيء »
عند المتكلمين بأنه « ما يجوز أن يخبر عنه وتصح الدلالة
عليه » . وفي مكان آخر من الكتاب يذكر أن « الشيء »
في كلام أهل الجبر والمقابلة هو الجنس المجهول ، وذلك
في الفصل الخامس الذى عنوانه « في وجوه الحسابات »

من الباب الرابع من المقالة الثانية عند الكلام في
الأريثمطيقى .

ويعرف « المعلوم » - عند المتكلمين - بأنه
« ما يصح أن يقال فيه هل يوجد ، والمعلوم هو المنتهى
الذى ليس بكائن ولا ثابت » ؛ ويقول بصدده - في
مجال الكيمياء - « إن الخارصينى جوهر غريب شبيه
بالمعلوم » .

ويعرف « الجوهر » - عند المتكلمين بأنه « المحتمل
للأحوال والكيفيات المتضادات » ويعرفه - عند
الفلاسفة - بأنه « كل ما يقوم بذاته كالماء والكواكب
والأرض وأجزائها والماء والنار وأصناف النبات والحيوان
وأعضاء كل واحد منها » .

ويذكر معنى « الاسم » - عند النحويين - بأنه
أحد أجزاء الكلام الثلاثة . ثم يذكره - عند المنطقيين -
بأنه « كل لفظ مفرد يدل على معنى ولا يدل على زمانه
المحدود ، كزيد ونحوه » .

ويعرف « الخط » - عند المتكلمين - بأنه « المجتمع
من الجواهر طولاً فقط » ؛ ويقول - عند الكلام في
الأعداد المسطحة والمخسمة - « إن الواحد بمنزلة النقطة
لأنه لا ينقسم ، الاثنان بمنزلة الخط لأنهما لا ينقسمان
إلا مرة واحدة ، كما أن الخط لا ينقسم إلا طولاً » .
وفي مجال علم الجغرافيا يعرف خط الاستواء قائلاً : إن
« خط الاستواء من الأرض هو الخط الذى يقابل معدل
النهار ، وهو حيث يرى القطبان الجنوبي والشمالي
ملاصقين للأرض ، والليل والنهار مستويان فيه أبداً » .
وعند الكلام « في آلات المنجمين » يقول : « إن خط
الاستواء هو الخط المقسوم الآخذ من المشرق إلى
المغرب المار على مركز الصفيحة . وخط نصف النهار
هو الخط الذى يقطع خط الاستواء على زوايا قائمة
وابتداؤه من المروة » .

ويُعرف « الرجعة » عند الشيعة - بأنها عند بعضهم
« رجوع الإمام بعد موته » ، وعند بعضهم الآخر

— في المنطق — « اسم للمقولة السابعة ويسمى النصفة وهي مثل القيام والقعود . . . » .

هذه بعض المصطلحات التي وردت في كتاب « مفاتيح العلوم » والتي تستعمل في علوم مختلفة ، سقناها للدلالة على مدى الدقة التي وصل إليها المصطلح العلمي عند القدماء ، ومدى وضع المعنى الاصطلاحي في تعبير موجز دال ، ومدى أهمية كتاب الخوارزمي في محاولة دراسة شاملة للمصطلحات العلمية عند العرب . وإن المتأمل فيها ليروعه تلك العقلية الفذة التي كان لها أثر واضح في كل مجالات العلم الموضوعية وكيف امتد هذا الأثر إلى المجال الاصطلاحي .

٤ — منتخبات من الكتاب

١ — في أصول الفقه : أصول الفقه المتفق عليها ثلاثة : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإجماع الأمة . والمختلف فيها ثلاثة : القياس ، والاستحسان ، والاستصلاح . فأما كتاب الله سبحانه ، فإن سبيل الفقيه أن يعرف تأويله ووجوه الخطاب فيه من الخصوص والعوم ، والناسخ والمنسوخ ، والأمر والنهي ، والإباحة والحظر ، ونحوها مما شرح في التفسير وكتب الدين . وأما سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فهي ثلاثة أضرب : أحدها القول ، والثاني الفعل ، والثالث الإقرار . فالقول ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال . والفعل ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه فعله . والإقرار ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أقر عليه قومه ولم ينكره عليهم . ثم من الأخبار (خبر التواتر) وهو ما رواه جماعة من الصحابة وقد اتفق عامة الفقهاء على قبوله . ومنها ما هو (خبر الواحد) وهو ما يرويه الرجل الواحد من الصحابة ، وأكثر الفقهاء يقولون بقبوله على شرائط يطول الكلام بذكرها . ومن الحديث ما هو متصل ، وهو الذي إلى النبي صلى الله عليه وسلم

« رجوعه بعد غيبته » . ويقول عنها — عند علماء الفلك — « بأن رجوع الكواكب ورجعتها هو سيرها طولاً على خلاف نضد البروج » . ويعرفها — في ألفاظ ديوان الكتابة — بأنها « حساب يرفعه المعطى في بعض المساكر بالنواحي لطمع واحد إذا رجع إلى الديوان » ، و « الرجعة الجامعة يرفعها صاحب ديوان الجيش لكل طمع من صنوف الاتفاق » .

ويعرف « الردف » — في علم العروض — بأنه « حرف لين قبل الروي مثل ياء . . . » ، ويعرفه — في علم الأخبار — بأنه « هو خليفة ملك الحيرة وكان له المرباع من الغنائم وكان يجلس على يمين الملك ويشرب يفده قبل الناس كلهم » ، والردافة هي الخلافة . ويقول عنه — في المنطق — بأن « النتيجة ما ينتج من مقدمات كقولك كل إنسان حي ، وكل حي نام ، فنتيجة ما بين المقدمتين كل إنسان نام » ، ويسمى الردف أيضاً .

ويعرف « الضرب » — في علم العروض — بأنه « الجزء الأخير من البيت » ، ويعرفه — في الأريثماتيقي — بأنه « تضعيف أحد العددين بأحد الآخر » .

ويعرف « العرض » — في الفلسفة — بأنه « ما يتميز به الشيء عن الشيء لا في ذاته ، كالبياض والسواد والحرارة والبرودة ونحو ذلك » ، ويعرفه — في علم الكلام — بأنه « أحوال الجوهر ، كالحركة في المتحرك ، والبياض في الأبيض ، والسواد في الأسود » .

ويعرف « القلس » — في الفقه — بأنه « هو ما خرج من الخلق ملء الفم أو دونه » ، ويعرفه — في علم الحيل — بأنه « الحيل الغليظ الذي يشد به السفن وغيرها » .

ويعرف « القول » — في الفقه — بأنه « ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قاله » ، ويعرفه — في المنطق — بأنه « ما تركب من اسم » .

ويعرف « الوضع » — عند كتاب ديوان الجيش — بأنه « يحلق على اسمه فيوضع عن الجريدة » ، وهو

الرابع المجبرة وهم خمس فرق . . والمذهب الخامس مذهب المشبهة وهم ثلاث عشرة فرقة . . والمذهب السادس المرجئة وهم ست فرق . . . والمذهب السابع مذهب الشيعة وهم خمس فرق .

٤- في وجوه الإعراب على مذهب فلاسفة اليونانيين - الرفع عند أصحاب المنطق من اليونانيين واو ناقصة : وكذلك الضم وأخواته المذكورة . والكسر وأخواته عندهم ياء ناقصة . والفتح وأخواته عندهم ألف ناقصة . وإن شئت قلت الواو الممدودة اللينة ضمة مشبعة والياء الممدودة اللينة كسرة مشبعة والألف الممدودة فتحة مشبعة وعلى هذا القياس . الروم والإشمام نسبتها إلى هذه الحركات كنسبة الحركات إلى حروف المد واللين أعني الألف والواو والياء .

٥- قانون الخراج أصله الذي يرجع إليه وتبني الجباية عليه وهي كلمة يونانية معربة . الرزنامج تفسيره كتاب اليوم لأنه يكتب فيه ما يجري كل يوم من الخراج أو نفقة أو غير ذلك . . . الموافقة والجامعة حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل ولا يسمى موافقة ، ما لم يرفع باتفاق بين الراجع والمرفوع إليه فإن انفرد به أحدهما دون أن يوافق الآخر على تفصيلاته سمي محاسبة .

٦- الفئ ما يؤخذ من أرض العنوة . . الخراج ما يؤخذ من أرض الصلح . . . العشر ما يؤخذ من زكاة الأرض التي أسلم أهلها عليها والتي أحياء المسلمون من الأرضين أو القطائع . . . صدقات الماشية هي زكاة السوائم من الإبل والبقر والغنم دون العوامل والمعلوفة .

٧- التسيب أن يسبب رزق رجل على مال متعذر ليعين المديب له العامل على استخراجها فيجعل ورداً للعامل وإخراجاً إلى المرتزق بالقلم . . . الحبة سدس سدس مثقال ، وإن شئت قلت ربع تسع مثقال ، والدينار ست وثلاثون حبة ، والشعيرة ثلث الحبة ،

واحد عن آخر من غير أن يتقطع ، والمرسل والمنقطع ما يرويه أحد التابعين الذين لم يروا النبي صلى الله عليه وسلم ، مثل الحسن البصري وابن سيرين وسعيد بن المسيب ، ويقول : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غير أن يذكر من حدثه به عنه - وقد قبله كثير من العلماء وزيفه بعضهم . وأما الإجماع فهو اتفاق الصحابة من المهاجرين والأنصار . وكذلك اتفاق العلماء في الأمصار في كل عصر دون غيرهم من العامة . وأما القياس فقد قال به جمهور العلماء غير داود بن علي الأصفهاني ومن تبعه . والقياس نوعان : قياس علة ، وقياس شبه . فقياس العلة أن تجمع المقيس والمقيس به علة ، وقياس الشبه أن لا تجمع المقيس والمقيس به علة ولكن يقاس به على طريق التشبيه . وكثير من الفقهاء لا يفرقون بينهما . وطرد العلة هو أن تجعل مطردة في جميع معلولاتها . وأما الاستحسان فهو ما تفرد به أبو حنيفة وأصحابه ، ولذلك سموا أصحاب الرأي : ومثال ذلك جواز الخمام وإن كان ما يستعمل فيه من الطين والماء مجهول المقدار . وقيل : الاستحسان هو قياس ، لكنه خفي غير جلي . وأما الاستصلاح فهو ما تفرد به مالك بن أنس وأصحابه : ومثاله ما أجازته من تعامل الصيارفة وتبايعهم الورق بالورق والعين بالعين بزيادة ونقصان ، وإن كان ذلك محظوراً على غيرهم لما فيه من الصلاح للعامة .

٢- أيس هو خلاف ليس . قال الخليل بن أحمد ليس إنما كان لا في أيس فأسقطوا الهمزة وجمعوا بين اللام والياء ، والدليل على ذلك قول العرب : ابتنى بكذا من حيث أيس وليس .

٣- في ذكر أسامي أرباب الآراء والمذاهب من المسلمين وهي سبعة مذاهب : أحدها المعتزلة ويتسمون بأصحاب العدل والتوحيد وهم ست فرق . . والمذهب الثاني الخوارج وهم أربع عشرة فرقة . . . والمذهب الثالث أصحاب الحديث وهم أربع فرق . . . والمذهب

والدينار مائة وثمان شعيرات ، والشعيرة ثلث ربع تسع مثقال ، وقد تختلف هذه المقادير باختلاف البلدان لكن ذكرت ما هو أهم وأشهر .

٨- الترصيع أن يكون الكلام مسجماً متوازن المباني والأجزاء التي ليست بأواخر الفصول مثل قول أبي البصير : حتى عاد تعريضك تعريضاً وتعريضك تصبحاً التعريض هو ضد الترصيع وهو أن لا تراعى توازن الألفاظ ولا تشابه مقاطعها . . المضارعة أن يكون شبيهاً بالاشتقاق ولا يكونه ، كما قال بعضهم ما خصصتني ولكن نخسنتي .

٩- العروض هو الجزء الأخير من النصف الأول من البيت وهي مؤنثة ، وبها سمي علم العروض لأنه إن عرف نصف البيت سهل تقطيعه . . . الضرب هو الجزء الأخير من البيت . . . السبب الخفيف حرفان أولهما متحرك والثاني ساكن مثل قد وعلامته ١٥ والسبب الثقيل حرفان متحركان مثل أر وعلامته ٥٥ وذلك أن علامة الحركة عند العروضيين حلقة كالهاء وعلامة الساكن خط كالألف .

١٠- المرازية جمع المازبان وهم ما وراء الملوك ، وهم ملوك الأطراف ، ومرز هو الحد بالفارسية مرزبان وهو صاحب الحد ، وكانت الفرس تسمى صاحب النهر أعني جيحون مرز توران أي حد الترك ، وكان أهل خراسان يسمونه مرز إيران أي حد العراق .

١١- الله تبارك وتعالى وعز وعلا هو موجد العالم وهو السبب الأول والعلّة الأولى وهو الواحد والحق وما سواه لا يخلو من كثرة من جهة أو جهات وصفته الخاصة أنه واجب الوجود وسائر الموجودات ممكنة

الوجود . . . العقل الفعال هو القوة الإلهية التي مهتدى بها كل شيء في العالم العلوي والسفلي من الأفلاك والكواكب والجماد والحيوان غير الناطق والإنسان لاجتلاب مصلحته وما به قوامه وبقاؤه على قدر ما تنبأ له وعلى حسب الإمكان ، وهذه القوة التي في الأشياء التي في العالم الطبيعي تسمى الطبيعة . . العقل الحيواني هو القوة في الإنسان وهي في النفس بمنزلة القوة الناطقة في العين : والعقل الفعال لها بمنزلة ضوء الشمس للبصر ، فإذا خرجت هذه القوة التي هي العقل الحيواني إلى الفعل تسمى العقل المستفاد .

١٢- الشرايين هي العروق النابضة ، واحدها شريان ، ومنبتها من القلب تنتشر فيها الحرارة الغريزية أي الطبيعية وتجري فيها المهجة وهي دم القلب : وأما العروق غير النوايض فنبتها من الكبد وتجري فيها دم الكبد ، ومن الشرايين الأبرار وهما يخرجان من القلب ثم يتشعب منها سائر الشرايين .

١٣- الترياق مشتق من تريون باليونانية ، وهو اسم لما ينهش من الحيوان كالأنعاعى ونحوها ويقال له بالعربية أيضاً الدرياق السكنجيين هو المركب من الخل والعسل ثم يسمى بهذا الاسم وإن كان مكان العسل سكر ومكان الخل رب السفرجل أو غيره .

١٤- علم النجوم يسمى بالعربية التنجيم وبال يونانية اصطنروميا : واصطر هو النجم ونوميا هو العلم .

١٥- علم الهيئة هو معرفة تركيب الأفلاك وهيئتها وهيئة الأرض فلك البروج هو الدائرة التي ترسمها الشمس بسيرها من المغرب إلى المشرق في سنة واحدة وهو مقسوم اثني عشر قسمًا وهي البروج .

التغيرات أو فلسفة ألين واليانج

بمستم
الأستاذ فؤاد محمد شبل

معان محدودة . واتسمت قراءة هذه الشقوق بالصعوبة البالغة ، فكان أن اتخذ العرافون متواليات ثلاثية ، وضعوا لكل متوالية معنى خاصاً ، وشاعت هذه الطريقة لمعرفة الطوالع ، حتى أصبحت الجيوش تستخدمها في المعارك ، ويستعين بها الملوك في رسم سياساتهم ، ويعتمد عليها أفراد الشعب في توجيه شئونهم الخاصة . ثم أقبل العلماء أنفسهم على الاستعانة برموز كتاب التغيرات في أبحاثهم ودراساتهم ، حتى أصبحت عماد الفكر الصيني في السياسة والفلسفة والأدب والأخلاقيات والاجتماع والقانون والطب .. الخ . ولم تبرا مدرسة فلسفية واحدة من الاستعانة بكتاب التغيرات بطريقة أو بأخرى . وما برح لهذا الكتاب تأثيره على الفكر الصيني حتى وقتنا الحاضر .

٢ - المتوالية الثلاثية

قوام كتاب التغيرات أن ظواهر الكون بأسره تتألف في جوهرها من عاملين : إيجابي ، وسلبى . وقد حصر مؤلف الكتاب هذه الظواهر في ثمان أساسية ومثل كلا منها في متوالية ثلاثية الخطوط :

١ - التعريف بالكتاب

يعتبر كتاب التغيرات Yi Ching من أمهات تراث الصين الثقافي التي يحرصها فلاسفتها في مؤلفات خمسة هي :

- ١ - كتاب التغيرات
- ٢ - كتاب التاريخ (أو الوثائق)
- ٣ - كتاب الأناشيد (أو الأشعار) والموسيقى
- ٤ - كتاب الطقوس
- ٥ - حوليات الربيع والخريف

ولكتاب التغيرات منزلة رفيعة عند المفكرين الصينيين ، أنزلته منزلة التقديس : وينسب إلى الملك الحكيم فو هسي Fu Hsi . وترجع الأساطير العهد بتأليفه إلى عام ٣٣٢٢ قبل الميلاد .

والكتاب - في الأصل - سجل للعرافة والكهانة . إذ يضم بين دفتيه رسوماً اقتبسها مؤلفه - أو مؤلفوه - من الرسوم التي تنشأ عن إحراق صدف السلحفاة . فهذه الرسوم ، بعضها مستقيم ، والبعض الآخر مكسور . فكان أن وضع الكهان والعرافون لكل مجموعة من الخطوط مفزى خاصاً ورموزاً تشير إلى

وترمز المتوالية إلى تلاقى ظاهرة كونية سلبية
بأخرى ايجابية ، ونتيجة هذا التلاقى :

فالظاهرة الايجابية يطلق عليها كتاب التغيرات
اسم اليانج . ويعنى فى الأصل « الشمس » ويرمز
إليها بشرطة متصلة —

ويطلق على الظاهرة السلبية اسم « الين » ويعنى
الاصلاح « القمرى » ويرمز إليه بشرطة متقطعة —
ويتكون كتاب التغيرات — أساساً — من تجميع
ثمانى متواليات ترمز إلى العناصر الثمانية الأساسية :
السما — الرعد — الرياح — النار — الماء — الجبلان —
المستنقعات . وهاك بياناً بهذه المتواليات ؟

(١)	(٢)	(٣)	(٤)
=====	=====	=====	=====
(٥)	(٦)	(٧)	(٨)
=====	=====	=====	=====

فالمتوالية (١) ترمز إلى السماء . ولذا كانت هى
الرب الأعظم ، لأن السماء مصدر الأمطار ، فقد
أصبحت ترمز إلى الأب . ونظراً لأن الرب هو رمز
الأسرة ، ترمز المتوالية الى ، القوة ، السيادة .. الخ .
وتألف المتوالية من خطوط سليمة (يانج) ، وفى هذا
توكيد مبدأ المذكورة المطلق .

والمتوالية (٢) ترمز إلى الأرض ، وهى الأم
التي تتلقى الأمطار . وفى مجال المعانى تدل على :
الحنان ؛ المودة ، العطف ، الطاعة ... الخ . وتألف
المتوالية من خطوط جميعها متقطع ، توكيداً لمبدأ
الأنودة المطلق .

ومن اتحاد المتوالتين (١) و (٢) ينتج :
المتوالية (٣) ؛ وتدل على الابن الأكبر . ويلاحظ
أن الخط الأسفل سليم مثل الخطوط التي تمثل الأب ،
وتشير المتوالية فى مجال المعانى إلى : التحرك والانطلاق
والتحفز .

المتوالية (٤) تدل على البنت الكبرى . ويلاحظ
أن الخط الأخير من المتوالية متكسر (ين) . وتدل
المتوالية فى مجال المعانى على اختراق الأشياء والنفوذ
إليها .

المتوالية (٥) ترمز إلى الابن الثانى ، وفى مجال
المعانى الوعورة وشدة الانحدار .

المتوالية (٦) ترمز إلى البنت الثانية . وفى مجال
المعانى إلى السطوع واللمعان ... الخ .

المتوالية (٧) ترمز إلى أصغر الأبناء ، وفى مجال
المعانى إلى التوقف والصد ... الخ .

المتوالية (٨) ترمز إلى صغرى البنات . وتدل
فى مجال المعانى على الرضاء والمسرة والحبور
والغبطة .. الخ .

وبعدما تحددت هذه المعانى الأساسية ؛ أخذ
الباحثون من شراح كتاب التغيرات ، يقيمون عليها
المظاهر الكونية المختلفة ، وشرعوا يطابقونها على
جميع الأشياء :

فالعاصفة ابن أكبر يرمز إليه بالمتوالية =====
بينما أن الريح بنت كبرى يرمز إليها بالمتوالية ===== .
ويعتبر الماء ابناً ثانياً يرمز إليه بالمتوالية =====
بينما أن النار بنت ثانية يرمز إليها بالمتوالية ===== .

ويعتبر الجبل ابناً أصغر يرمز إليه بالمتوالية
===== ، لكن تعتبر المستنقعات بنتاً صغرى يرمز
إليها بالمتوالية ===== .

وبعبارة أوضح ، كانت المتواليات الثمان
— الثلاثة الخطوط — تمثل لدى قدماء الصينيين
عناصر الكون ذات الأهمية القصوى لهم وهى فى السماء
الشمس والقمر والرياح والعواصف ؛ وعلى الأرض :
الجبال والمستنقعات ، ومن الأشياء ؛ الماء والنار .
وقد ربطوا بين هذه المتواليات بعلاقات الأبوة
والأمومة والبنوة .

٣- المتوالية السادسة

من المتواليات الثمان ذات الخطوط الثلاثة -
السالفة للذكر - ركبت في العصور التالية متواليات
تتألف الواحدة من ستة خطوط. . وتم ذلك عن
طريق مزج متوالتين من ذواتي الخطوط الثلاثية -
إحداهما بالأخرى . فيتكون - من ثمة - أربع وستون
متوالية جديدة تتألف الواحدة من ستة خطوط .

وبطالعنا كتاب التغيرات بمقتضى سداسية الخطوط
فريدة في نوعها ، وتركيبها :

وترمز إلى القيام بعمل عظيم . فها هنا تبدأ
المتوالية بحالة سكون (خط متقطع —) ،
تتلوه حركة (بانج خط متصل —) ، يتلوه ين ثم
بانج ثم ين ثم بانج . وباجتماع الين والبانج تتم عملية
البانج (أى الحركة والانطلاق) . ويعنى تكرار
الاجتماع ، توكيد عملية الارتقاء .

والأشياء بفطرتها في تغير مستمر . ويحمل
التغير في الكون بين طياته الزيادة والنقصان ، القدوم
والذهاب ، الهدم والبناء . . . الخ . فلا نهاية
اطلاقاً لعملية التغير ؛ لأن ما يأتي ، يجب أن يذهب ؛
وما يذهب ، يجب أن يأتي مرة أخرى .

ومصافاً لهذا الرأي ، يرمز إلى الرخاء واليسر
والرفاهية . . . وما إلى ذلك من المعاني بالتوالي
السداسية الخطوط :



(أى ثلاثة خطوط ين أسفلها ثلاثة خطوط
يانج) . فان تغيرت الأحوال وحل القحط والإحمال
والضيق . . . وما إلى ذلك من المعاني ؛ انقلب وضع

وبفسر كنفوشيوس نشوء المتواليات الثلاثية الثمان بأن « الأول الأعظم » هو مصدر التغير وعلمته . وهو قد قسم نفسه اثنين كونا السماء (اليانج) والأرض (الين) . وانقسم الاثنان إلى أربع كوّنات الفصول : الربيع والخريف والشتاء والصيف . وعلى أساس فكرة اليانج والين (الجامد واللين) ، تكونت المتواليات الثلاثية الثمان . وعندما اتخذت تلك المتواليات ترتيبها المناسب توطد بذلك — كما يقول كنفوشيوس — منهاج السماء والأرض وتحددت رموز كل من : الرعد ، الريح و الماء و النار و الجبال و المستنقعات .

وباستكمال دورة المتواليات الثلاثية الثمان يتم :
أولاً - تحديد الفوارق بين مواضع جهات البوصلة
الأصلية الأربعة وجهاتها الفرعية .

ثانياً - انجاز عمليات الإنتاج والنماء والحصاد
والتحزين .

ثالثاً - التعرف على الصور الين واليانج
رابعاً - اصفاء القدرة على الاحتراق والنفوذ
على طاقة الفعل الروحية الحرة .

خامساً - ابلاغ الأشياء جميعها مرتبة الكمال .
ويربط شراح كتاب التغيرات بين المتواليات الثمان
والفضائل الخمس الثابتة التي عينها كنفوشيوس في
مختاراته : الحب والعدالة والحشمة والحكمة ،
الإيمان الحق .

فالسُّلوك الصَّالح : نَسْتَتِرُهُ المحبة، وتوطئه الحشمة
وتنظم العمالة أوضاعه، ويحدد الإيمان الحق أبعاده،
وتكمله الحكمة :

وهذه الفضائل الخمس - وفقاً لكونفوشيوس -
 هي جماع الفضائل البشرية وهي الروابط التي تصل
 السماء بالإنسان ، وعن طريقها يتمكن الحكيم من
 فهم دلالة السماء وتنظيم العلاقات البشرية وإدراك
 أسمى أشكال السلوك .

٤ — مدرسة الين واليانج الفلسفية

استخدم الصينيون — منذ عهد بعيد — فكرة الين واليانج لتوضيح ظواهر الوجود : فالتاوية (١) — أبان ازدهارها — قد استخدمت الاصطلاحين لشرح مبادئها . وبطالعنا في هذا المقام عبارة تنسب إلى لاو تزو تقول : « ان التساو (أى السبيل أو النهج) قد أنتج الواحد ، والواحد أنتج الثنائية ، وتطورت الثنائية إلى التثليث ، وانبعث عن التثليث الآلاف المولفة من الأشياء . وتضم الأشياء جميعها بين طياتها « الين » وتشتمل على اليانج ، وبفضل الين واليانج ، يتوافر للأشياء التناسق والإنسجام » . وتأسيساً على هذا الرأي ، يرتب كل شيء في الوجود تحت أى من الفصيلتين ، باعتبار الين أنثى ، واليانج ذكر :

وبالتالى :

تنتمى السماء والشمس والنار إلى فصيلة اليانج .
وتلحق الأرض والقمر والماء بفصيلة الين .

ويدل كتاب التغيرات على صدق الفكرة بأن العدسة المحرقة تستجلب النار من الشمس ، فى حين أن المرأة — وهى يانج — إذا ما تركت فى العراء ليلاً تلتقط الندى — أى الماء — من القمر :

وتجب ملاحظة أن ثنائية الين واليانج ، لا تعنى تلك الثنائية المألوفة خارج الصين . وتعنى لدينا : الخير والشر ، والروح والمادة . وهى ثنائية يتفصل أحد شقيها عن الآخر ويبيانه تماماً ، فعلى العكس ، ينادى المنطق الصينى — كما بسطه كتاب التغيرات — بأن الين واليانج يكمل أحدهما الآخر ، وبفضل هذا التكامل يتوافر للكون انسجامه

(١) رجاء مراجعة بحثنا عن لاو تزو — عدد مارس ١٩٦٦ من تراث الإنسانية .

خطوط اليانج الثلاثة لتوضع فوق خطوط الين الثلاثة ، على النسق التالى :



كذلك ترمز السداسية :



(وهى عبارة عن خط يانج — يتلوه خمسة خطوط ين — —) إلى عملية التحلل : وبإحفظ أن خط اليانج (ويرمز إلى الحركة والانطلاق) قد تلتته خمسة خطوط ين (ويدل على التفتك والسكون) . فاذا تغيرت الحال بعودة الشيء إلى الحركة ، انقلب وضع السداسية فأصبح :



ومنه يبدو أن اليانج قد تغلب فى نهاية المطاف ، فعاد النشاط وتجددت فى الشيء الحياة : وبالمثل ، ترمز السداسية :



إلى الحركة المنطلقة المستمرة المتواصلة : وفيها خطان متقطعان (— —) رمز الين ، يتلوها خط يانج (—) وهو رمز الحركة . فاذا ما توقفت الحركة ، يرمز إلى العملية بالسداسية :



أى خط يانج (رمز الحركة) يتلوه خطان للين (رمز السكون) يتلوها خط يانج الذى يتلوه بدوره خطان للين :

وتناسقه . فالشتاء - وينتسب إلى فصيلة الين - يتحول إلى صيف وهو من فصيلة اليانج .
فالين هو العنصر السهل ، اللين ، المدعن ، وهو السالب الساكن .
واليانج هو العنصر المتين الخشن ، وهو الموجب ، الحامل للحركة .

ويرمز اليانج إلى السيادة ، أما الين فيرمز إلى التكامل .

وإذا كان اليانج - بحكم طبيعته - هو العنصر المبدع ، فإنه يصبح في حالة سكون وقتها يصدف عن الإبداع . فإذا ما أخذ يحقق الإبداع ، يقدو في حالة فعل وحركة .

وإذا كان الين - بحكم طبيعته - على استعداد للاستجابة لنداء القوة المبدعة . فإذا توافرت لديه قابلية الاستجابة ، يصبح في حالة فعل وانطلاق .

وجميع الأشياء توضع - أو ان إبداعها - في قائمة اليانج ، بينما توضع الأشياء - أوقات استجابتها - في قائمة الين . ويتيسر لكل شيء أن يكون في وضع « اليانج » كما يتيسر لكل شيء أن يكون في وضع الين .

وإذا كان لكل من الين واليانج معنى مختلف ، إلا أنهما مترابطان ولا غنى لأحدهما عن الآخر . فالشمس تغرب ، فيطلع القمر ، ولكل وظيفة واحدة هي لإضاءة الأرض ، كذلك إذا ولى الشتاء أقبل الصيف ، فإذا راح الصيف وفد الشتاء . ويتعاقب الصيف والشتاء ثم دورة السنة .

وإذا وصل شيء إلى حد التمام ، يكون قد بلغ - بالضرورة - مكانه السليم . ويقصد بالمكان السليم ، الموضع الذي يجدر أن يكون فيه ، أى يصبح كائناً في البيئة المناسبة له . فوضع الزوجة السليم ، صلتها بثنون الأسرة الداخلية ، ومناطق موضع الزوج السليم صلتها بثنونها الخارجية . إذ

تمثل العلاقة السليمة ركن العدالة الركين في العالم . فإذا فحصنا نظام الأسرة ، نجد أن مكان الزوج الطبيعي أن يصبح - دون بقية أفرادها - الزعيم والمسيطر . فالأسرة الطبيعية هي التي يكون فيها الوالد والداً والابن ابناً .

وإذا كانت الكنفوشيوسية قد انجذبت في بداية عهدها إلى بحث مشكلات السياسة والعلاقات البشرية ، فلم تفر الموضوعات الميتافيزيقية ما تستحقه من رعاية واهتمام ، فلقد انبثقت مدرستان فكريتان لسد هذا النقص في التفكير الصيني ، وتبلورتا في مدرسة الين واليانج ، والمدرسة التأوية .

ويعتبر الفيلسوف « تونج شونج - شو » عن رأي هذه المدرسة الفلسفية في طبيعة الين واليانج بقوله :

« يوجد الين واليانج في نطاق الكون في حالة أثرية وينغمر جميع الناس فيهما على الدوام مثلما ينغمر السمك في الماء على الدوام . والفارق بينهما وبين الماء أن جيشان الماء منظور ، في حين أن فوران الين واليانج غير منظور . على أن وجود الإنسان في الكون مثل ارتباط السمك بالماء . ويوجد هذا الأثر في كل مكان ، لكن ليست به لزوجة الماء . فالمقارنة بينه وبين الماء ، كالمقارنة بين الماء والطين . وعلى ذلك يبدو أن ثمة في الكون عدمية ، ومع ذلك ثمة هيولى : أن الناس مغمرون على الدوام في هذه الكتلة الدوامة التي تحملهم قلما في تيار واحد ، بانتظام أو بغير انتظام » .

وإذا كان الوصف السابق يوحى إلى الذهن باعتبار كل من « الين » و « اليانج » أثراً - مادياً أو سائلاً - لكن لا ينظر إليهما بهذه الصورة المادية . فالحق يقصد من وراء تشبيه هذا الفيلسوف ، تقريب الأمر إلى الذهن . إذ يصف الين واليانج بموضع آخر من مؤلفه بأنهما « قوتان متعارضتان تتبعان سير السماء الراسخ لكنهما

لا ينشأ في وقت واحد : وهذا يعني أنه وقتاً
يقع اليانج ، يتراجع الين ، والعكس بالعكس .
يرخص فلاسفة الصين من دراساتهم لكتاب
التغيرات إلى نتيجة عملية مدارها أنه إذا كان كل
شيء في الحياة ينقلب إلى نقيضه — إذا ما وصل
منها — فعلى الرجل العاقل أن يتخذ أهبة للأحداث
التي تفد مع التغير ويحتاط لصروف الزمان . وعلى
السياسي الحصيف أن يضع في ذهنه دائماً المخاطر التي
لا بد وأن تفد وفقاً لمنطق التغير . ونجد أحاديثهم
« هسي تزو » يقول :

« ان الإنسان الذي يجعل الخطر ماثلاً في ذهنه
هو الذي يحتفظ بمكانته ، والذي يرى النكبات قائمة
أمام ناظره هو الذي يعيش ، والذي يعمل حساباً
للقوى المتفشية ، يصبح في مكنته السيطرة على
المجتمع . ومن تقدر له السيطرة على المجتمع ، يجب
أن ينسى إمكانية تعرض حكمه للاضطراب .
فالسلطان الحكيم هو من لا ينسى العدوان في أوقات
السلم ، والذي يتخذ الحيطة ضد العاثرين بالأمن . ويجب
أن يتحلى المرء بالتواضع لأن الدنيا إذا أقبلت
لا تلبث أن تدبر » .

ويستوقف نظر الباحث في كتاب التغيرات ،
ذلك التشابه المذهل بين المذهب الفيثاغوري ودراسة
الصينيين للرموز والأعداد وفقاً لكتاب التغيرات :
١ - وردت العبارة التالية بالملحق الثالث من
كتاب التغيرات « في التغيرات ، ثمة الأول الأعظم
الذي أبرز الصيغتين (الين واليانج) إلى الوجود » .
إذ تماثل هذه الفكرة القضية الفيثاغورية القائلة « من
الجوهر الفرد ينشأ الاتحاد الزوجي غير المحدد » .

٢ - إذا ما اخبرنا مجموعة عشرة أزواج من
المتناقضات التي ذكرها الفيثاغوريون — كالمحدود
والمطلق — فواضح أن ما يطلق عليه المحدود يطابق
تماماً ما يدعوه شراح كتاب التغيرات باليانج . كما

أن ما يسميه الفيثاغوريون « المطلق » يطابق « الين »
الصينى .

٣ - تستمك الفلسفة اليونانية — عامة — بالفكرة
القائلة بأن المطلق يكون المادة وأن المحدود يكون
الصورة وأن الأشياء الطبيعية هي حاصل تأثير
الصورة على المادة . وبالمثل ، يعتق شراح كتاب
التغيرات في الصين فكرة أن اليانج إيجابي ، فيمنح
— من ثم — القوة ويضفي القدرة ، في حين أن
الين سلبي ، فهو — لذلك — يتلقى ويتسلم
على أن ثمة فارقاً بين النظريتين الصينية واليونانية
يقين في ناحيتين :

الأولى — يجعل شراح كتاب التغيرات من
المحدود (أى اليانج بالاصطلاح الصينى) معادلاً
للمربع ، ومن المطلق — أى اللامحدود — (وهو
الين في الاصطلاح الصينى) معادلاً للمستطيل . ومن
رأهم أن السماء (وهي مظهر اليانج المعين) مستديرة
والأرض — مظهر الين المعين — مربعة .

وهنا تعرض لنا نقطة لا يختلف فيها الفيثاغوريون
عن شراح كتاب التغيرات : فان الفيثاغوريين
يعتبرون الأعداد الفردية — وتطابق المحدود —
أعداداً مربعة ، بينما أن الأعداد الزوجية —
وتطابق المطلق — أعداد مستطيلة . كذلك يعتبر شراح
كتاب التغيرات أعداد اليانج (واليانج هو المحدود)
فردية وأعداد الين (والين هو المطلق) زوجية .
وهذا هو سبب تمثيل اليانج بخط فردى متصل
(—) ، في حين يمثل الين بخط زوجى (متقطع
— —) .

الثانية — يجعل الفيثاغوريون من المحدود مطابقاً
للسكون ، والمطلق معادلاً للحركة . وهذا
يخالف وجهة النظر الصينية على طول الخط لمعادلتها
اليانج (أى المحدود) بالحركة ، والين (أى المطلق)
بالسكون .

٥ - الحكم على مدرسة الين واليانج

تضم نظريات الين واليانج (وهي قوام كتاب التغيرات) الشيء الكثير من السخافات ، لكنها تتضمن - في نفس الوقت - بدايات العلوم والفنون الصينية - فالحق ، يتبلور هدف الآراء المتصلة بالين واليانج في إيجاد نظام فكري شامل جامع إلى أبعد الحدود . وبالأحرى ، خلق مدرسة فكرية تستطيع الإحاطة بظواهر الكون بأسره وتفسرها . فهما يقل عما في منهاجها من قصور علمي ، وما يظهر من ضعف فروضها ، لكن تستبين لنا روح علمية من خلال نشأتها تنظيم ظواهر الكون وتنسيقها في إطار مذهب علمي ، وسعيها إلى معرفة الأسباب والدوافع : وقد يبدو - لاولهة الأولى - زوال تأثير مدرسة الين واليانج من التفكير الصيني ، بفعل اقترام الفكر الأوربي - الغربي والماركسي - معاقل الفكر الصيني . غير أن الاقترام ظاهري محض ، وحسي للتدليل على هذا الرأي ، فكرة الثورة الدائمة عند ماوتسي تونج وغيرها .

فالكون عند الزعيم الصيني في حالة تغير دائم ينبني عليه استمرار قيام التناقضات بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج ، حتى بعد زوال الطبقات . ولا تتأني تسوية هذه التناقضات إلا بسلسلة « لانهائية » من التغيرات الوصفية (النوعية) . إذ لا مناص من نشوء تناقض بين قوى الإنتاج - نمواً متصلاً - وبين جهود الأفراد لتكييف أنفسهم وفقاً لهذا النمو . ويحل هذا التناقض محل الصراع الطبقي .

وتناقض فكرة ماوتسي تونج عن الثورة الدائمة ، الفكرة الماركسية على طول الخط . فها هنا يتبدى لنا تأثير فكرة الين واليانج ، التي تعني - فيما تعنيه - انبعاث الشيء من فقيضه في سلسلة من التوالد والتكاثر لا نهاية لها من التفاعلات : بينما قد تأثر

تفكير كارل ماركس - وهو يهودي الأصل - بفكرة اللجنة الموعودة ، فكان أن دفعه إلى اعتبار المجتمع اللاطقي الذي ينتهي منه عنصر الإرغام - ممثلاً في الدولة - وحيث يحصل الجميع على احتياجاتهم في يسر وسهولة ووفرة ، اعتباره غاية الغايات . أي أنه اللجنة الواردة في الكتب المقدسة ، تنتصب على الأرض في دنيا الناس .

وتقر فكرة الين واليانج أن لكل من الاصطلاحين معنى مختلفاً . لكنهما مترابطان ولا يمكن فهم أحدهما بدون الآخر ، ولهذا تأثيره على نظرية التناقضات عند ماوتسي تونج . فانه يعتقد بأن عملية التحول تقوم على تحويل نوع ما - أي نوع - الى نوع آخر ويتم التحول نتيجة للتغير في العلاقة الكمية بين أوجه التناقض الغالبة وأوجهه الخاضعة المغلوبة على أمرها ، وينجز على طريق لولبي ذي اتجاه واحد . ويقول الزعيم الصيني « الأشياء المتناقضة تشكل وتم - في نفس الوقت - بعضها بعضاً ، وهي تشكل الدعامة التي بفضلها تستند التناقضات بعضها بعضاً ويحافظ أحدها على بقاء الآخر ووجوده . وإذا كانت الأضداد - بحكم طبيعتها - بخالف أحدها الآخر ، فهي - من الناحية الأخرى - مترابطة ترابطاً وثيقاً متداخلة في بعضها متلاحمة ولا غنى لأحدهما عن الآخر : فلا تفهم السهولة عن غير الصعوبة كذلك بدون السهولة لا توجد صعوبة . فالحق أنه من غير الواجهة الأخرى التي تعارض الواجهة ، تفقد كل واجهة مبرر وجودها » . ويطالب ماوتسي تونج بالعمل على كشف وجهة تطور التناقض ، والقاعدة - كما يقول - إن الواجبات المتعارضة تحول نفسها - في ظل ظروف خاصة - إلى أضدادها ، وتتخذ الحركة في جميع الأشياء : اما وضع السكون النسبي واما التغير المطلق الواضح ، وينشأ وضعاً للحركة

— كلامهما — عن صراع عاملين متعارضين الإتجاه داخل الشيء نفسه^(١) ؟

ولمدرسة الين واليانج تأثير آخر على تفكير الزعيم الصيني يتبين من قوله إن الريح قد شرعت تهب من الشرق من جديد . بمعنى أن رياح التغيير أخذت تنطلق وستعود إلى انتقال النفوذ والسلطان من الغربيين إلى الشرقيين . فإن مناط فكرة الين واليانج ، تحول الين إلى يانج وهذا إلى ين وهكذا . أى استحالة استدامة وضع من الأوضاع وثبات موقف إلى ما لا نهاية . فالزعيم الصيني يعتبر نهضة الصين الحالية تغييراً في ميزان القوى الدولية يبشر باسترداد الصين مكانتها الحضارية المرموقة التي فقدتها بانتقال القوة غرباً .

٦ — مقتطفات من كتاب التغيرات

١ — عملية التغير الشامل

السما مرتفة والأرض منخفضة ، وبهذا تتحدد السماء والأرض . ومصدراً لهذا يتحدد مكان الشريف والوضيع ولكل من الحركة والراحة وضعه الثابت ، ومن هنا يختلف القوى عن الضعيف وتتطابق السبل وفقاً لأنواعها ، وتنقسم الأشياء إلى رتب . لذلك يحدث الخط الحسن والخط البسي ، وفي السماء تبدى الظواهر وعلى الأرض تعرض الأشكال ، وعن طريق عرض الأشكال يصبح التغير والتحول واضحاً . وهكذا تتفاعل خطوط المتواليات الثلاثية الثمانية الضعيفة والقوية ويؤثر كل منها في الآخر ويتأثر به . إن الأشياء يستغزها الرعد فينبعث موسم برد يتلوّه موسم حرارة . إن طريق السماء يكون المذكر . أما طريق الأرض فيكون المؤنث . تميز السماء الابتداء العظيم ، بينما

تضفي الأرض على الأشياء تمامها . إن ادراك السماء مستمد من السهولة واليسر :

إن تعاقب حركة الين واليانج يؤلف ما يطلق عليه « السبل القويم » . ومنه ينبعث الشيء الصالح : ويبلغ مرتبة الكمال بفضل الفطرة البشرية . وعندما يميز الإنسان « السبل القويم » يطلق عليه « الانسانية » لكن الحكيم يطلق عليه الحكمة . وتعاقب الين واليانج هو عامل الانشاء واعادة الإنشاء :

٢ — بدايات الثقافة البشرية

عندما كان فوهسي^(١) يحكم العالم ، تطلع إلى السماء لرصد مظاهرها ، وشخص إلى الأرض ليعاين أشكالها . فلاحظ أشكالها وسماها وكيف توائم نفسها وفقاً لبيئتها . وأحوت إليه دراسته لبدنه نفسه ، طائفة من الآراء ، لكنه مضى أبعد من ذلك فاستخلص أفكاراً قيعة من دراسته للأشياء الأخرى وبفضل دراسته هذه ابتكر الثماني المتواليات ذات الخطوط الثلاثية ، لكي يفقه فضائل الكائنات الروحانية وليصف أحوال جميع المخلوقات . وهو أول من عقد الحبال وصنع الشباك لصيد الأسماك واصطياد الطير والحیوان . وقد اقتبس الفكرة من دراسته لإحدى المتواليات الثلاثية .

ولما مات « فوهسي » ظهر شين تونج^(٢) الذي علم العالم فوائد حرث الأرض وتطهيرها من الأعشاب واقتبس ذلك من دراسة إحدى المتواليات الثلاثية . وهو الذي شيد الأسواق وعلم الناس مبادلة منتجاتهم الزراعية والصناعية بمنتجات غيرهم ، سيراً بدراسته لمتواليات الثلاثية .

وبعد موته ظهر في العالم « الامبراطور الأصغر » « ياو » و« شون »^(٣) وقد استفادوا من معرفتهم بكنه

(١) امبراطور الصين الذي ينسب إليه تأليف كتاب التغيرات .

(٢) هؤلاء أباطرة أسطوريون . وما يزال الصينيون إلى وقتنا

الحاضر يضربون بهم المثل في فعل الخير وإيثاء النفع العام .


(٣) وجاء الاطلاع على مقالتنا « فلسفة المتناقضات عند


ماوتسي تونج » بعدد فبراير ١٩٦٦ من مجلة الفكر المعاصر .

التغير في إراحة الناس من متاعب الحياة . إذ أبانوا للناس أن التغيرات إذا بلغت في سيرها منتهاه ، تعدل خط سيرها . فيمكنها هذا من الانطلاق في طريقها إلى أن تصل إلى منتهاه فتعدل سيرها من جديد . وتظل هكذا أبد الآبدين ودهر الدهرين بفضل معونة السماء التي توفر الخير . وبفضل تواضع هؤلاء الأباطرة وسماحتهم ، انتظمت أحوال الدنيا ، واتبعث إلى الوجود الابتكارات الهامة مثل استئناس الحيوانات واستخدامها في النقل ، كما اخترعت القوارب للنقل المائي .

وظهر بعد هؤلاء الأباطرة حكماء أرشدوا الناس إلى تشييد الدور لحمايتهم من الرياح والأمطار والبرد والحر ، وعلموهم دفن موتاهم . ونوجت جهود الحكماء باختراع الكتابة والقراءة . وتم هذا كله بفضل الاستعانة بمنطق التغير .

٣ - سداسية السماء والأرض

جميع خطوط متوالية السماء متصلة  وتعتبر عما هو عظيم ومبدع ونافع وقويم وراسخ . فالسما هي منشأ جميع الأشياء . وبفضلها تنبئ في أشكالها الكاملة . ويتبلور أسابوب السماء في التغير والتبدل بحيث ينال كل شيء في الكون فطرته السليمة التي تحددها السماء . وعندئذ يتحقق للكون الوحدة والتجانس .

أما الأرض فجميع خطوطها الستة متقطعة  وتدين لها جميع الأشياء بمولدها . وهي تتلقى - طائفة - تأثيرات السماء . فهي ساكنة سكوناً تاماً ، صفتها الوداعة والسماحة ، وهي تتبع سيدها .

٤ - الأول الأعظم

إن الأول الأعظم يولد - بفعل تحركه - اليانج . فإذا ما بلغ نشاطه منتهاه ، يركن إلى السكون ، وفي خلال فترة سكونه يولد

والين . فإذا ما بلغ سكونه منتهاه فقد دورة جديدة من النشاط . ومن ثمة ، تتعاقب الحركة والسكون ، ويغدو كل منهما منشأ الآخر .

وعن طريق تحول اليانج والحداده مع الين ، تتولد العوامل الخمسة الرئيسية : الماء ، النار ، الخشب ، المعدن ، التراب ، وبفضل توزيع هذه القوى المادية الخمس توزيعاً متناسقاً ، تسلك الفصول الأربعة سبيلها المعروف .

وتؤلف العوامل الخمسة نظاماً واحداً للين واليانج . ويؤلف الين واليانج « الأول الأعلى » . وتكون السماء عنصر التذكير ، وتكون الأرض عنصر التأنيث . وبوساطة تفاعل هاتين القوتين الماديتين ، يتم تكاثر آلاف الأشياء المولفة وتحولها ، وتتكاثر ألوف الأشياء وتتوالد في تحول لا نهائي .

والإنسان وحده هو الذي يتلقى القوى المادية في أحسن حالاتها ، فهو بذلك أشرف المخلوقات وأذكاه وأبرعها . ويتبدى شكله المادي وينمي روحه الوجدان . ويترب عن احتكاكه بالعالم الخارجي واستجابته لتحدياته ، استئارة المبادئ الخلقية الخمسة الكائنة في طبيعته وهي : الشفقة ، العدالة ، اللوق ، الحكمة ، الايمان الصحيح ، وهنا ينطق صوب الحركة والنشاط ، ويميز الخير من الشر . والإنسان الحصيف هو من ينشئ هذه الصفات في ذاته ، بينما ينهك حرمتها الإنسان الخسيس .

٥ - الإخلاص

الإخلاص جوهر الحكمة ، عظيم هو مبدأ السماء ، الباري . منه تستمد جميع الأشياء بداياتها ، وهي منبع الاخلاص . ويتغير طريق مبدأ السماء ، ويتحول لكي يحصل كل شيء على فطرته السليمة وينال قسمته ونصيبه ، ومناط طريق السماء حركة الين واليانج المتعاقبة ، وما ينبعث عن نهج السماء خير ، والحكيم هو الإنسان المخلص .

الخـراج لأبي يوسف

بمـتـم
الدكتور على حسن الزبوطي

ترجمة حياة أبي يوسف :

كان مولد يعقوب بن إبراهيم ، الذي اشتهر بأبي يوسف ، في عام ١١٣ هـ ، وهو من أسرة عربية ، عربية في أصلها ، فقيرة في مالها . وينحدر من الصحابي الجليل سعد بن حبة ، وهو من أنصار المدينة المنورة . وكان مولد أبي يوسف في العصر الأموي ، وشهد انتشار الدعوة العباسية في العراق وخراسان ، ثم حاصر قيام الدولة العباسية في سنة ١٣٢ هـ وكان حينئذ في التاسعة عشرة من عمره . فشهد مطلع العصر العباسي الزاهر ، وعاصر عهود الخلفاء العباسيين الخمسة الأول

تلقى أبو يوسف علومه الأولى في العراق ، فدرس دراسة دينية من قرآن وحديث وفقه ، ودراسة أدبية من نحو ولغة وشعر . وكان ممن تلقى منهم العلوم الدينية محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى . وأبدى أبو يوسف نبوغاً وتفوقاً ، رشحه ليكون في مقدمة تلاميذ إمام عصره أبي حنيفة . وأدرك أبو حنيفة مواهب تلميذه ونبوغه ، فكان يمدّه بالمال ليسد به حاجات الحياة وحتى يتفرغ لتلقى العلم على يديه . وكان أبو يوسف واحداً من ثلاثة من أبرز تلاميذ أبي حنيفة الملازمين له ، أما

التلميذ الثاني فهو محمد بن الحسن الشيباني ، والتلميذ الثالث هو زفر . وكان أبو يوسف أكثرهم فقراً ، فقد كان للحيثيات موسراً حتى إنه أنفق على تعلمه النحو والشعر والفقه ثلاثين ألف درهم . كما كان هذيل ، والد زفر ، والياً على البصرة .

وكان أبو يوسف يلزم أستاذه في كل مجالسه ليتلقى عنه الدين والفقه والعلم . وكان أبو حنيفة في سعة من العيش ، يحترف التجارة ، يبيع الخبز ويجلس في السوق ، ولذا كان معاصروه يطلقون عليه اسم النعمان ابن ثابت الخزاز . وشارك أبو يوسف أستاذه مجلسه في السوق ، مما أفاده في حياته العملية إذ اطلع على دقائق النشاط الاقتصادي ، وعرف ما يجري في الأسواق من معاملات تجارية وبيع وشراء ، فتمت معلوماته عن الاقتصاد والضرائب . وقد بلور هذه المعلومات فيما بعد في صورة علمية منهجية دقيقة في كتابه الخراج .

حتى إذا أتم أبو يوسف دراسته وحاز نصيباً وافراً من العلم ، أخذ يشق طريقه في الحياة ، ترنوه عينا أستاذه ، فتدرج في المناصب حتى تولى منصب القضاء في عهد الخليفة العباسي الثالث المهدي ، وكان هذا المنصب حينئذ من أبرز مناصب الدولة . وقد اشتهر

المهدي بالعدل ، حتى إنه كان أول الخلفاء الذين جلسوا للنظر في المظالم ، مما أتاح الفرصة لأبي يوسف لممارسة وظيفة القضاء في حرية ، وبدون تدخل من الخليفة : وقد خالف أبو يوسف في ذلك مسلك أستاذه أبي حنيفة الذي رفض أن يتولى منصب القضاء في عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور ، كما تذكر بعض المصادر التاريخية ، كما رفض من قبل هذا المنصب أيضاً حينما عهد به إليه ابن هبيرة عامل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين : وينسب المؤرخون رفض أبي حنيفة منصب القضاء في عهد الخليفة المنصور إلى ميله إلى العلويين ، كما كان المنصور ينقض عهوده ، وشعر أبو حنيفة أنه عاجز عن إرضاء المنصور وحاشيته فقال له : « لو هددتني أن تفرقني في القرات أو أن آتي الحكم لاخترت أن أغرق ، فلك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ، فلا أصلح لذلك » .

ولم يرض كثير من المعاصرين لأبي يوسف عن قبوله منصب القضاء ، ونجد ذلك في كتابات بعض المؤرخين ، فيقول الطبري : « إنه قد تحاشى حديث أبي يوسف قوم من أهل الحديث ، من أجل غلبة الرأي عليه وتفريعه الفروع والأحكام ، مع صحبة السلطان وتقلده القضاء » : فقد كان هناك في مطلع العصر العباسي كثير من العلماء والفقهاء ممن يزهدون في تولى الوظائف العامة في الدولة ، حتى يظل الدين بعيداً عن السياسة ، وحتى لا يضطر العالم أو الفقيه أن يخالف دينه أو ضميره ويمالئ الخليفة وحاشيته .

وإن كنا نجد العذر لأبي حنيفة في رفضه منصب القضاء ، إلا أننا نجد العذر أيضاً لأبي يوسف في قبوله منصب القضاء في عهد المهدي ثم ولديه الهادي والرشيد . فقد رفض أبو حنيفة تولى القضاء في نهاية عصر الدولة الأموية ، وهي فترة قلقه حرجة تحفل بالاضطرابات السياسية وتيارات الشعوبية بين العرب والفرس ، كما رفض أبو حنيفة أن يلى القضاء للخليفة المنصور الذي

كان يؤسس الدولة العباسية ويدعمها ويقضي على خصومها ، ويعمل بمذهب (الغاية تبرر الوسيلة) وينادي بأن الخليفة هو ظل الله في أرضه . وقد نكل المنصور بالإمام العلوي محمد النفس الزكية وبأخيه إبراهيم ، كما قتل أبا مسلم الخراساني عضيد الدولة العباسية . أما أبو يوسف فقد تولى القضاء في عهد الخليفة الثالث المهدي ، الذي كان عهده فترة رخاء واستقرار نعمت فيها الدولة العباسية بالهدوء والأمن ، واشتهر المهدي بالتدين والعدل والتسامح ، ويعتبر عهده مرحلة انتقال بين عهد القمع والشدة الذي شهده عهد أبي العباس السفاح والمنصور ، وعهد الدين والتسامح في عهود الرشيد وأولاده .

كما أن أبا يوسف كان رجلاً فقيراً ، في حاجة إلى العمل وتولى مناصب الدولة ، بينما كان أبو حنيفة تاجراً موسراً ليس في حاجة إلى الوظيفة الحكومية : ويعبر أبو يوسف عن رأيه في المال فيقول : « رموس النعم ثلاثة : أولها نعمة الإسلام التي لا تتم النعمة إلا بها ، ونعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها ، ونعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها » . وقد رأى أبو يوسف أن يجمع بين النعم الثلاثة : الإسلام ، والعافية ، والغنى : ولكن أبا يوسف في عمله القضائي لم ينحرف أو يحيد عن الحق ، بل نراه في كتابه « الخراج » يعط الخليفة هارون الرشيد في حزم وقوة ، ويتوجه إليه بالنصائح ، وحاز إعجاب ثلاثة خلفاء اختلفوا في مشاربهم ووسائل حكمهم .

بل أتاح تولى أبي يوسف منصب القضاء فرصة له ليفي لأستاذه أبي حنيفة حقه ودينه عليه . فقد حافظ أبو يوسف على مذهبه ، ودونه في كتبه . حتى إذا أصبح قاضي القضاء في عهد الرشيد ، عمل على تدعيم مذهب أبي حنيفة وبثه في الأمصار الإسلامية ، وهذه الفرصة لم تمنح لغير أبي يوسف من تلاميذ أبي حنيفة العديدين ، فقد جعل أبو يوسف مذهب أبي حنيفة

يتخذ صورة عملية إيجابية . ولذا يقول الحنفية : « إنه يعمل بقول أبي يوسف في القضاء » .

وبعد وفاة الخليفة المهدي ، أقر ابنه الخليفة الهادي أبا يوسف في منصبه القضائي ، اعترافاً بفضلته وعدله ، رغم أن الهادي قد بدل كثيراً من الرجال البارزين في عهد أبيه المهدي . حتى إذا تولى الخليفة هارون الرشيد ، لمع نجم أبي يوسف ، وأنشأ الرشيد منصب « قاضي القضاة » وكان أبو يوسف أول من تولى هذا المنصب .

وبشبه المؤرخون المحدثون صاحب هذا المنصب بوزير العدل في أيامنا هذه . فكان قاضي القضاة يقيم في عاصمة الدولة ، ويولى قضاة يتوبون عنه في شائر الأمصار الإسلامية ، واتسعت دائرة سلطات أبي يوسف ، فبعد أن كان ينظر في القضايا المدنية والجنائية ، أصبح يفصل في الدعاوى ، والأوقاف وتنصيب الأولياء ، كما تولى الإشراف على الشرطة والمظالم والحسبة وبيت المال ، وتحدث المؤرخ السيوطي عن منصب قاضي القضاة فقال : « كان الخلفاء يولون القاضي المقيم ببلدهم القضاء بجميع الأقاليم والبلاد التي تحت ملكهم ، ثم يستنوب القاضي من تحت أمره من شاء في كل إقليم وفي كل بلد ، ولهذا كان يلقب بقاضي القضاة ، ولا يلقب به إلا هو بهذه الصفة ، ومن عده بالقاضي فقط . . . » ولقد كان قاضي القضاة إذ ذاك أوسع حكماً من سلاطين هذا الزمان .

حاز أبو يوسف رضا وإعجاب الخليفة هارون الرشيد ووزرائه من البرامكة ، حتى إنهم قدموه على سائر القضاة ، وخاصة القاضي محمد بن الحسن الشيباني ، وهو من تلاميذ أبي حنيفة ، كما تتلمذ أيضاً على أبي يوسف . ويعلل المؤرخون ذلك بأن أبا يوسف كان يداري ويحامل ، كما كان متواضعاً سمحاً ، خبيراً بمعاملة الناس . بينما كان الشيباني متعالياً حتى إنه رفض أن يقوم للرشيد حين قدم إلى مجلس كان فيه . ورغم صداقة أبي يوسف للشيباني في صباهما ، إلا أنه

كانت بينهما وحشة في عهد الرشيد . ورغم هذه الوحشة بين الرجلين العظيمين ، فإن الشيباني يذكر في صدر كل باب من أبواب كتابه (الجامع الصغير) : « محمد بن يعقوب (أبي يوسف) عن أبي حنيفة » .

وظل أبو يوسف يتولى منصب قاضي القضاة حتى توفي مدينة بغداد بالعراق في سنة ١٨٢ هـ . وأصبح أبو يوسف قدوة محتذى سائر القضاة الذين أتوا بعده حذوه ، وأصبحت أحكامه في الخراج نافذة طوال العصر العباسي .

آثار أبي يوسف :

تولى أبو يوسف منصباً من أخطر مناصب الدولة العباسية ، ولكن هذا لم يشغله عن البحث والدراسة والاستقصاء ، فوضع أبحاثاً فقهية عظيمة ، وكتباً قيمة أشادت بها المصادر التاريخية القديمة .

اتصل أبو يوسف بالمحدثين ، وروى عنهم ، وفي ذلك يقول المؤرخ الطبري : « كان أبو يوسف يعقوب ابن إبراهيم القاضي فقيهاً عالماً حافظاً ، ذكر أنه يعرف بحفظ الحديث ، وأنه كان يحضر المحدث ، فيحفظ خمسين أو ستين حديثاً ثم يقوم ويعلمها على الناس ، وكان كثير الحديث ، وكان قد جالس محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى ، ثم جالس أبا حنيفة ، وكان الغالب عليه مذهب أبي حنيفة ، وكان ربما خالفه أحياناً في المسألة بعد المسألة » . وكانت هذه الدراية الواسعة بالأحاديث أساساً متيناً لكثير من المؤلفات القيمة .

وكان يحلو لأهل العراق أن يقدروا بين أبي يوسف والشيباني وزفر ، وكلهم من تلاميذ أبي حنيفة . فقد روى عن المزني صاحب الشافعي أنه جاءه رجل فسأله عن أهل العراق ، قال : ما تقول في أبي حنيفة ؟ قال : سيدهم ، قال : فأبو يوسف ؟ قال : أتبعهم للحديث . قال : فمحمد بن الحسن ؟ قال : أكثرهم تفريعاً . قال : فزفر ؟ قال : أحدهم قياساً .

تحدث ابن النديم في كتابه «الفهرست» عن آثار أبي يوسف ، فذكر لنا أسماء كتبه . فقد وضع أبو يوسف كتاباً عن أركان الإسلام وفرائضه ، فكان من كتبه «كتاب الصلاة» ، «كتاب الزكاة» ، «كتاب الصيام» ، «كتاب الفرائض» . كما وضع أبو يوسف كتاباً تناول مسائل فقهية متنوعة ، مثل «كتاب البيوع» ، «كتاب الحدود» ، «كتاب الوكالة» ، «كتاب الوصايا» ، «كتاب الصيد والذبائح» ، «كتاب الغصب والاستبراء» . كما وضع كتاباً عن مظاهر الاختلاف في الأمصار الإسلامية بعنوان «كتاب اختلاف الأمصار» .

وكان العصر الذي عاش أبو يوسف فيه عصر نهضة فكرية ، ظهر فيه كثير من الفقهاء والمحدثين . وقد تأثر أبو يوسف بآراء أستاذه أبي حنيفة ، واهتم بتدوينها وتسجيلها ، مع جانب من التجديد والتطوير ، دون تعصب أو تحيز ، بل طعم آراء أبي حنيفة بآراء أخرى تلقاها عن أستاذ آخر له هو : محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى الذي كان خصماً لأبي حنيفة حتى إن أبا حنيفة كان يجهله في بعض القضايا ويبرز أخطائه ، كما تأثر أبو يوسف في كتبه ببعض آراء الإمام مالك بن أنس وفقهاء الحجاز .

ومن كتب أبي يوسف «كتاب الرد على مالك بن أنس» . وكان أبو يوسف قد رحل إلى المدينة المنورة ، والتقى بالإمام مالك وناظره ، وأخذ عنه ورجع عن بعض آرائه إلى قول مالك وأقوال الحجازيين ، كما خالفهم في بعض آرائهم . وقد أشاد بعض المحدثين بأبي يوسف ، وفي مقدمتهم ابن معين وابن حنبل ، ولكن المحدثين الذين عارضوا الإمام أبي حنيفة عارضوا بالتالي تلميذه أبي يوسف . فيقول في ذلك ابن عبد البر : «كان ابن معين يثنى عليه - أي على أبي يوسف - ويوثقه ، وأما سائر أهل الحديث فهم كأعداء لأبي حنيفة وأصحابه» .

شهد أبو يوسف أعجاز البرامكة في العصر العباسي ، وأدى توليه منصب قاضي القضاة إلى قيام صداقة وطيدة بينه وبين الوزراء البرامكة وخاصة يحيى بن خالد البرمكي ، وزير الرشيد ومربيه . وقد كلف هذا الوزير أبا يوسف بتأليف «كتاب الجوامع» ، فجعله أبو يوسف في أربعين كتاباً ، تحدث فيه عن اختلاف الناس والرأي المأخوذ به .

كما طلب الخليفة هارون الرشيد من أبي يوسف أن يضع كتاب الخراج ، وفي ذلك يقول أبو يوسف : «إن أمير المؤمنين أبده الله تعالى سألني أن أضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج ، والمشور والصدقات والجواري» .

ومما يوثق له ضياع جميع المؤلفات التي وضعها أبو يوسف ، ولم يبق لنا من آثاره سوى «كتاب الخراج» ، إلى جانب بعض الأقوال التي نقلها عنه الفقهاء من بعده ، وأبواب نقلها عنه الإمام الشافعي في كتابه «الأم» .

منهج أبي يوسف في كتاب الخراج :

نلمس في كتاب الخراج مدى تأثر أبي يوسف بآراء أستاذه أبي حنيفة ، فقد حافظ أبو يوسف على جوهر مذهبه ، واهتم بتدوينه ، والاستدلال له ، وترتيب مسأله وتوسيعها . وكان تولي أبي يوسف منصب قاضي القضاة عاملاً على أن يخدم فيه فقه أبي حنيفة بسلطانه . كما أن أبا يوسف نقل إلينا أقوال أبي حنيفة في كل باب من أبواب الفقه وحفظ لنا ما ضاع من تراثه .

سار أبو يوسف على نهج أستاذه أبي حنيفة في التشدد في قبول الحديث ، فلم يقبل الخبر عن الرسول إلا إذا رواه جماعة عن جماعة . وفي ذلك يقول أبو يوسف «فعليك من الحديث مما تعرف العامة ، وإياك والشاذ منه» . وكان عمر فيما بلغنا لا يقبل الحديث عن رسول

الله (ص) إلا بشاهدين ، وكان على بن أبي طالب لا يقبل الحديث عن رسول الله ، والرواية تزداد كثرة ، ويخرج منها ما لا يعرف ولا يعرفه أهل الفقه ، ولا يوافق الكتاب ولا السنة ، فأياك وشاذ الحديث ، وعليك بما عليه الجماعة من الحديث وما يعرفه الفقهاء ، فقس الأشياء على ذلك ، فما خالف القرآن فليس عن رسول الله (ص) وإن جاءت به الرواية

وهذا التشدد في الأخذ بالحديث دفع أبا يوسف إلى التوسع في القياس والاستحسان ، فما لم يكن فيه أثر كتاب ولا أثر صحيح ، فليس فيه أمام المجتهد إلا القياس والاستحسان . وقد ساعده على ذلك خبرته التي اكتسبها من ممارسته شئون القضاء ، فبرز في ذلك على غيره من الفقهاء .

طور أبو يوسف بعض جوانب فقه أبي حنيفة ، فقد رجع عن آراء له إلى الحديث الذي صح عنده ، وضيق حدود الرأي والقياس عما كانت عليه في عهد أبي حنيفة ، نتيجة اتصاله الوثيق بأهل الحديث وفقهائه كما كان لناظرات أبي يوسف مع الإمام مالك وفقهاء الحجاز أثرها في رجوعه عن بعض آرائه إلى آرائهم . كما أدى اتصال أبي يوسف بالحديث إلى تدعيم مذهب أبي حنيفة بالحديث أيضاً ، وتطعيم المذهب ببعض آراء الفقهاء الحجازيين .

تفقه أبو يوسف بفقه أهل الرأي في الكوفة ، وبفقه أهل الحديث في المدينة وغيرها . ونرى أبا يوسف في كتابه الخراج يفاضل بين الأحاديث ويختار أكثرها ذبوحاً وانتشاراً ، وفي ذلك يقول : « واتبعنا الأحاديث التي جاءت عن رسول الله (ص) في مساقاة خيبر لأنها أوثق عندنا وأكثر وأعم مما جاء في خلافها » .

كما تخالف أبو يوسف في كتاب الخراج بعض آراء أستاذه أبي حنيفة ، إذ يرى اتباع الأثر ، فيقول : « وسألت يا أمير المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنب . . . » وقد كان أبو حنيفة وابن أبي ليلى رحمهما

الله يقولان : ليس في شيء من ذلك شيء لأنه بمنزلة السمك ، وأما أنا فإني أرى في ذلك الخمس ، وأربعة أخماس لمن أخرجه لأننا قد روينا فيه حديثاً عن عمر رضي الله عنه ، ووافقه عليه عبد الله بن عباس ، فاتبعنا الأثر ولم نر خلافاً .

وكتاب الخراج هو خلاصة ما تلقاه أبو يوسف من علم وثقافة إلى جانب خبرته في شئون الدولة وتجاربه الشخصية . وأبو يوسف يتحدث فيه عن أمور الدولة المالية ، وهو من أصعب الأبحاث وأدقها ، ولم يكن أبو يوسف بقادر على أن يحيط بأطرافها المتعددة لو لم يكن يتولى هذا المنصب الكبير في الدولة العباسية . وساعده على ذلك أيضاً معاصرته لمهود ثلاثة خلفاء من أبرز الخلفاء العباسيين وهم المهدي والهادي والرشيد .

ويظهر في كتاب الخراج سعة اطلاع أبي يوسف ، فقد اطلع على وثائق الدولة ودفاترها القديمة ، كما اتصل بحكم منصبه بكبار الموظفين ، واكتسب خبرة حكومية كما اتصل بشيوخ عصره في سائر الأمصار الإسلامية على اختلاف آرائهم ومذاهبهم ، فهو يروي عن أبي حنيفة ، وعن مالك بن أنس ، وعن الليث بن سعد وغيرهم ، كما يروي عن « بعض أشيائنا الكوفيين » ، وعن « بعض أشيائنا من أهل المدينة » .

وحفظ أبو يوسف لنا الكثير من أقوال صحابة الرسول وأعمالهم ، كما أبرز لنا سيرة الخليفة عمر بن الخطاب وسياسته في الحكم والإدارة والشئون المالية . فقد تمت الفتوحات الإسلامية في عهده ، ووضع أسس النظم الإدارية والمالية التي سار عليها معظم الخلفاء ، كما كان أول من دون الدواوين . ويراعى أبو يوسف ظروف الزمان والمكان ، فلا يجد حرجاً في مخالفة بعض نظم عمر بن الخطاب ، وخاصة فيما فرضه من ضرائب على الأرض ، ويعلل أبو يوسف هذه المخالفة بقوله : « إن عمر رضي الله عنه رأى الأرض في ذلك الوقت محتملة لما وضع عليها ، ولم يقبل حين وضع عليها

ما وضع من الخراج إن هذا الخراج لازم لأهل الخراج ،
وحتم عليها ، ولا يجوز لي ولن بعدي من الخلفاء أن
ينتقص منه ولا يزيد فيه

اعتمد أبو يوسف فيما جاء في كتابه (الخراج)
من تشريع وأحكام وأخبار على كثير من الرواة نذكر
أشهرهم حسب الترتيب الأبجدي : أبان بن أبي عياش ،
الأحوص بن حكيم ، أبو اسحاق الشيباني ، إسرائيل بن
يونس ، إسماعيل بن أبي خالد ، أشعث بن سوار ،
الأعمش ، ابن جريج ، الخجاج بن أرطاة ، الحسن بن
عمارة ، الصري بن إسماعيل ، سعيد بن أبي عروبة ،
سفيان بن هينة ، شعبة ، عبدالله بن علي ، عبدالله
الزني ، عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ، عبد الرحمن
ابن عبدالله المسعودي ، عطاء بن السائب ، الكلبي ،
الليث بن سعد ، ابن أبي ليلى ، مالك بن أنس ، المخالد
ابن سعيد ، محمد بن اسحاق ، محمد بن السائب الكلبي ،
أبو معشر ، مغيرة ، هشام بن سعد ، هشام بن عروة ،
يحيى بن سعد ، يزيد بن أبي زياد ، وغيرهم .

الملاح العامة لكتاب الخراج :

يذكر معظم المؤرخين أن أبا يوسف كان أول من
وضع كتاباً عن الخراج ، ولكن الحقيقة أن معاوية
ابن يسار وزير المهدي ، والمعاصر لأبي يوسف ، كان
أول من ألف كتاباً في هذا الموضوع ، فيقول المؤرخ
ابن طباطبا في كتابه « الفخري في الآداب السلطانية »
عن هذا الوزير : « وصنف كتاباً في الخراج ذكر فيه
أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده ، وهو أول من صنف
كتاباً في الخراج ، وتبعه الناس بعد ذلك ، فصنفوا
كتب الخراج » . ولكن هذا الكتاب ضاع فلم يصل
إلينا . ولذا يمكننا أن نصحيح رأى هؤلاء المؤرخين ،
فتقول أن كتاب أبي يوسف عن الخراج هو أقدم
الكتب التي حفظتها الأيام لنا .

ولا شك أن أبا يوسف الذي كان يتولى القضاء في
عهد المهدي قد اطلع على كتاب الوزير ، وربما استفاد
منه في تبويب ومنهج كتابه ، وإن كنا لا نستطيع
تأكيد ذلك ، لأن أبا يوسف لم يشر إلى كتاب هذا
الوزير أو إلى شخصه في صفحات كتابه ، رغم أن هذا
الوزير قد أحدث نظماً جديدة في الخراج تغاير ما كان
متبعاً في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، إذ يذكر
المؤرخ ابن طباطبا أن المهدي فوض إليه تدبير أمور
الدولة ، وسلم إليه الدواوين ، فكان مقدماً في صناعته ،
وابتكر أموراً كثيرة ، منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة
وكان الخليفة قبله يأخذ عن الغلات خراجاً مقررأ
ولا يقاسم ، فلما تولى هذا الوزير الوزارة قرر أمر
المقاسمة ، وجعل الخراج على النخل والشجر ،
واستمرت الحال على ذلك طوال العصر العباسي .
ولكن من اليسير علينا أن نفسر إهمال أبي يوسف
لكتاب الوزير معاوية بن يسار ، فقد كان الوزير
متكبراً متعالياً ، كم تهتم ابنته بالزندقة فأمر الخليفة
المهدي بقتله ، واضطر الوزير إلى اعتزال الوزارة
فلزم داره حتى مات سنة ١٧٠ هـ .

حدثنا كثير من الكتاب حذو أبي يوسف في الاهتمام
بموضوع « الخراج » ، فقد وضع يحيى بن آدم كتاباً
في هذا الموضوع وسماه « الخراج » أيضاً . كما تحدث
الإمام الشافعي عن الخراج في كتابه « الأم » . ثم ألف
أبو عبيد بن سلام كتابه « الأموال » وأصبح الخراج
أبرز مواضيع كتابه ، كما نال الخراج اهتمام الماوردي
في كتابه « الأحكام السلطانية » .

وكتاب أبي يوسف ، وغيره من الكتب التي تدور
حول نفس الموضوع ، تمد المؤرخ بكثير من المعلومات
عن أحوال الشعوب الإسلامية ، ونظمهم الإدارية
والمالية ، إذ يطرئ هؤلاء الكتاب الجوانب المختلفة من
حياة هذه الشعوب ، وتمتدنا بصور اجتماعية واقتصادية
مختلفة ، كما تحوى الكتب كثيراً من الفتاوى في كثير

من القضايا والمواضيع التي تشغل الأذهان وتختلف فيها الآراء والمشكلات التي يعانون منها . وإن كان كتاب الخراج لأبي يوسف ليس بكتاب تاريخ ، بل كتاب فقه بهم بصفة خاصة بفقه الخراج ، إلا أنه عمدنا بصور تاريخية تصور تطبيق الأحكام الفقهية في الدولة الإسلامية ويحدثنا عن الفتوح الإسلامية للعراق والشام .

ولندرك تفسر أبي يوسف للخراج ، علينا أن نستعرض بعض الآراء حول كلمة « خراج » . فقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن كلمة « خراج » مشتقة من كلمة (Choregia) الآرامية أو البيزنطية ، ومعناها العام « الضريبة » . أما معاجم اللغة فهي تفسرها تفسيرات مختلفة ، فقد جاء في لسان العرب أن الخراج هو الإتاوة التي تؤخذ من أموال الناس ، كما يوسع لسان العرب نطاق الخراج بحيث يشمل الجزية التي تفرض على أهل الذمة ، ثم يلخص معنى الخراج في كلمة واحدة هي « الغلة » ، أما « القاموس » فيذكر أن الخراج هو الإتاوة . والخراج في لغة العرب اسم للكراء والغلة ، ومن قول الرسول : « الخراج بالضيان » ويذكر « جب » و « كرامرز » في مختصر دائرة المعارف الإسلامية أن كلمة خراج فارسية اقتبسها الفرس عن الكلمة الآرامية « هلاك » ، ويرى الماوردي الخراج في الإسلام بأنه « هو ما وضع على رقاب الأرض من حرق تؤدى عليها » . ويذكر الماوردي أيضاً أن هناك فرقاً كبيراً بين الخراج والعشر ، فالخراج مقابل إيجار الأرض ، أما العشر فيؤخذ من المسلمين كزكاة على الزرع والتمر ، كما يذكر أنه لا يجوز أن يجتمع العشر والخراج ، بل يسقط العشر بالخراج . ويعرف ابن آدم أرض الخراج بأنها هي كل أرض مسحت ووضع عليها الخراج ، ويعرفها النويري في « نهاية الأرب » أنها كل أرض روتها أنهار الخراج ، وخصصت لزراعة الغلات المختلفة ، أو جعلت يساتين للنخل والكروم وغيرها ، أو شغلت بالطواحين .

عرض لكتاب الخراج ومقتطفات منه :

١ - يبدأ كتاب الخراج برسالة وجهها المؤلف إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ، بدأها بالدعاء للخليفة ، ثم تحدث عن هدفه من تأليف الكتاب ، وأنه قد قام بتأليفه بتكليف من الخليفة .

قال أبو يوسف : « إن أمير المؤمنين ، أيده الله تعالى ، سألني أن أصنع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج ، والعشور ، والصدقات ، والجوائى ، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به ، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته ، والصالح لأمرهم . وفق الله تعالى أمير المؤمنين ، وسدده وأعانه على ما تولى من ذلك ، وسلمه مما يخاف ويحذر ، وطلب أن أبين له ما سألني عنه مما يريد العمل به ، وأفسره وأشرحه ، وقد فسرت ذلك وشرحته » .

والآراء مختلفة حول تفسير كلمة « الجوائى » التي أشار أبو يوسف إليها آنفاً . فهناك تفسير يذهب إلى أن الجوائى هي اختيار الأحسن من كل شيء ، سواء أكان من الممتلكات أم من الشاء ، الغزير منها الصغير ، وربما كانت هذه هي وظيفة العامل في الزكاة . أما التفسير الآخر لكلمة جوائى فيذهب إلى جمع كلمة « جالية » ، وأصلها الجماعة التي تفارق وطنها وتنزل وطناً آخر ، ومنه قيل لأهل الذمة الذين أجلاهم عمر بن الخطاب عن الجزيرة العربية « جالية » ثم نقلت هذه اللفظة إلى الجزية التي أخذت منهم ، ثم استعملت في كل جزية وإن لم يكن صاحبها جلاً عن وطنه . والرأى الثاني أقرب إلى الحقيقة والواقع :

ثم يتوجه أبو يوسف إلى الخليفة الرشيد بالنصيحة والموعظة فيقول : « لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، فانك إذا فعلت ذلك أضعت . إن الأجل دون الأمل ، فبادر الأجل بالعمل ، فانه لا عمل بعد الأجل » . إن الرعاية مؤمنون إلى ربهم ما يؤدى الراعى إلى ربه ، فأقم الحق

فيا ولاك الله وقلمك ولو ساعة من نهار ، فان أسعد
الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته ،
ولا تزغ فتزيع رعيته ، وإياك والأمر بالهوى والأخذ
بالغضب وكن من خشية الله على حذر
فإن الحذر بالقلب وليس بلسان ، واتق الله دائماً
ومضى أبو يوسف في نصيحته ، فيذكر الخليفة
بالآخرة ويوم الحساب ، ويدلل على نصيحته بآيات
قرآنية كريمة ، ثم يقول : « فلا تلق الله غداً وأنت
سالك سبيل المعتدين ، فان ديان يوم الدين إنما يدين
العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنازلهم » .

ثم بين أبو يوسف للخليفة أهمية كتابه ، ويطلب
منه أن يتمعن فيه حتى يفهمه ، ثم يضعه موضع التنفيذ ،
حتى لا يقع ظلم على أحد ، ويصلح أمر الرعية ،
فيقول : « وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحت لك
وبينته ، فتمعنه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه ، فاني
قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحاً ،
ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه . وإني لأرجو
— إن عملت بما فيه من البيان — أن يوفر الله لك خراجك
من غير ظلم مسلم ولا معاهد ، ويصلح لك رعيته ،
فان صلاحهم باقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم
والتظالم فيما اشبه من الحقوق عليهم . وكتبت لك أحاديث
حسنة ، فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه ، مما
تريد العمل به إن شاء الله . فوفقتك الله لما يرضيه عنك ،
وأصلح بك ، وعلى يدك » .

ويدعم أبو يوسف نصائحه وتحذيراته بكثير من
الأحاديث النبوية ، تحت على العدل وعمل الخير
وتحقيق صلاح الأمة ، وتستغرق هذه الأحاديث نحو
خمس صفحات . ثم مضى أبو يوسف في تدعيم أقواله ،
فيذكر وصية أبي بكر لخلفه عمر بن الخطاب ، ويتبعها
بخطبة لأبي بكر يوصي فيها الناس بتقوى الله ويذكرهم
بالموت ، ثم يذكر خطبة لعمر بن الخطاب يطلب فيها
من الرعية تقوى الله وطاعته . ثم يذكر أبو يوسف

وصية عمر لمن يتولى الخلافة بعده والتي جاء فيها :
« . . . وأوصيه بأهل الأنصار ، فانهم ردة الإسلام
وغيظ العدو وجباة المال ، أن لا يأخذ منهم إلا فضلهم
عن رضئ منهم » ثم يذكر أبو يوسف كثيراً
من خطب عمر ووصاياہ لولائه في الأمصار . ثم تحدث
أبو يوسف عن عثمان وبكائه حينما كان يتذكر الجنة
والنار ، كما ذكر وصايا علي بن أبي طالب لعماله
ولولائه . ثم تحدث أبو يوسف عن رد الخليفة الأموي
عمر بن عبد العزيز المظالم ، وكان هذا الخليفة هو
الوحيد من بين خلفاء بني أمية الذي ينال تقدير الخلفاء
العباسيين ، مما جعل أبو يوسف ينحصر بالحديث من بين
الخلفاء الأمويين العديدين .

٢- ثم يبدأ باب « قسمة الغنائم » ، ويوجه
أبو يوسف الحديث إلى الرشيد . فيذكر أحكام قسمة
الغنائم كما جاءت في القرآن الكريم ويعدد الآيات
القرآنية ، ثم يتحدث عما فعله الرسول في موقعة بدر
وغيرها من الغزوات : ثم يذكر رأى أستاذه أبي حنيفة
ويتحدث عن تطبيق هذه القواعد في الدولة الإسلامية ،
في عهد الخلفاء الراشدين ، وفي عهد الخليفة الأموي
عمر بن عبد العزيز . ثم ينتهي أبو يوسف إلى إبداء
رأيه الخاص في طريقة قسمة الغنائم .

أما أحكام القرآن الكريم في قسمة الغنائم ، فيقول
أبو يوسف عنها : « أما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين
من قسمة الغنائم إذا أصيبت من العدو وكيف يقسم
ذلك ، فان الله تبارك وتعالى قد أنزل بيان ذلك في
كتابه فقال فيما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم
« واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسة وللرسول
ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم
آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى
الجمعان ، والله على كل شيء قدير » . فهذا والله
أعلم فيما يصيب المسلمون من عساكر أهل الشرك ،
وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع ، فان في

ذلك الخمس لمن سمي الله عز وجل في كتابه العزيز ، وأربعة أخماسه بين الجند الذين أصابوا ذلك : من أهل الديوان وغيرهم ، يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم ، سهمان لفارسه ، وسهم له ، وللراجل سهم على ما جاء في الأحاديث والآثار :

وبعد أن استعرض أبو يوسف سنة الرسول في قسمة الغنائم ، وآراء الفقهاء ، وما سار عليه الخلفاء ، أبدى رأيه فقال : « فعلى هذا تقسم الغنيمة فما أصاب المسلمون من حساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع وغير ذلك ، وكذلك كل ما أصيب في المعادن من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، فإن في ذلك الخمس - في أرض العرب كان أو في أرض العجم - وخمسه الذي يوضع فيه مواضع الصدقات : وفيما يستخرج من البحر من حلبة وعنبر والخميس يوضع في مواضع الغنائم » :

٣- والباب الثالث هو باب « الفئ والخراج » ، فذكر أبو يوسف أن المقصود بالفئ هو الخراج في العصر العباسي ، واستشهد أبو يوسف في ذلك بكثير من الآيات القرآنية الكريمة ، ثم تحدث عن سنة عمر بن الخطاب في الفئ ، وخاصة بعد فتح بلاد العراق والشام عرف أبو يوسف الفئ والخراج فقال : « فأما الفئ يا أمير المؤمنين فهو الخراج عندنا ، خراج الأرض ، والله أعلم . لأن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ، حتى فرغ من هؤلاء ثم قال عز وجل « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » ، ثم قال تعالى « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، ثم قال تعالى « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » ، فهذا والله أعلم لمن جاء من بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة » :

وتحدث أبو يوسف عن سياسة عمر بن الخطاب نحو تقسيم أراضي بلاد العراق والشام فقال : « وقد سأك بلال وأصحابه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام ، وقالوا اقسم الأرضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكرة فأنى عمر ذلك عليهم ، وتلا عليهم هذه الآيات ، وقال : قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفئ ، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء ، ولئن بقيت ليلبغن الراعى بصنعاء نصيبه من هذا الفئ ودوه في وجهه » :

وأبو يوسف كعادته يبدي رأيه الخاص في نهاية كل فصل بعد أن يعرض أحكام الدين ، وسنة الرسول ، وسياسة الخلفاء ، فيقول : « والذي رأى عمر رضى الله عنه من الاتباع من قسمة الأرضين بين من افتتحها عندما عرفه الله ما كان في كتابه من بيان ذلك توفيقاً من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنها إذا خلت من المقاتلة والمرزقة ، والله أعلم بالخير حيث كان » ١ :

٤- ثم يعقد أبو يوسف فصلاً يتحدث فيه عن أرض العراق المعروفة بأرض السواد لما اشتهرت به من خصوبة جعل لوئها أسود ، وجعل عنوان هذا الفصل « ما عمل به في السواد » . ونخص أبو يوسف ما تناوله هذا الفصل فقال : « أما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين

من أمر السواد وما الذي كان أهله عوملوا به في خراجهم وجزية رعوهم ، وما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرضه عليهم في ذلك . وهل يجرى في شيء منه صلح ، وما الحكم في الصلح منه والعنوة .

وتحدث أبو يوسف عن سياسة عمر بن الخطاب نحو أرض السواد فقال : « وافتتح عمر السواد والأهواز فأشار عليه المسلمون أن يقسم السواد وأهل الأهواز وما افتتح من المدن فقال لهم : فما يكون لمن جاء من المسلمين ؟ فترك الأرض وأهلها ، وضرب عليهم الجزية ، وأخذ الخراج من الأرض » .

وفصل أبو يوسف الحديث عن المحاورات ، والمناظرات التي دارت بين عمر بن الخطاب وكثير من الصحابة حول تقسيم أرض السواد . كما تحدث أبو يوسف عن فتح المسلمين للأراضي الفارسية ولقاء المغيرة للقائد الفارسي رستم ، وعدد انتصارات المسلمين على الفرس في كثير من المواقع الحربية ، وخاصة موقعي القادسية ونهاوند .

وكان بلال بن رباح وعبد الرحمن بن عوف يربدان تقسيم السواد ، بينما رأى عمر وعلى وطلحة غير ذلك . قال عمر : « فكيف أقسمه لكم ، وأدع من يأتي بغير قسم ؟ فأجمع على تركه وجمع خراجه وإقراره في أيدي أهله ووضع الخراج على أرضهم والجزية على رؤسهم » .

وأشار أبو يوسف عما انتهجه عمر بعد أن قرر عدم تقسيم السواد ، فقد « مسح السواد فبلغ ستة وثلاثين ألف ألف جريب ، وأنه وضع على جريب الزرع درهماً وقفيزاً ، وعلى الكرم عشرة دراهم ، وعلى الرطبة خمسة دراهم ، وعلى الرجل اثني عشر درهماً ، وأربعة وعشرين درهماً ، وثمانية وأربعين درهماً » .

وتحدث أبو يوسف عن تطبيق سياسة عمر ، فقد ولى عمر عثمان بن حنيف مساحة الأراضي ، وجعل أجره على ذلك ربع شاة يومياً . وقام عثمان بمسح

الأرض ، وجعل على جريب العنب عشرة دراهم ، وعلى جريب النخل ثمانية دراهم ، وعلى جريب القصب ستة دراهم ، وعلى جريب الحنطة أربعة دراهم ، وعلى جريب الشعير درهمين ، اثني عشر درهماً . كما فرض الجزية على أهل الذمة ، فكان الموسر منهم يدفع ثمانية وأربعين درهماً ، ويدفع متوسط الحال أربعة وعشرين درهماً ، ويدفع الفقير اثني عشر درهماً ، مع إعفاء النساء والصبيان .

وقد ولى عمر بن الخطاب حذيفة على بعض أراضي السواد ، واستدعاه يوماً هو وعثمان بن حنيف ، وقال لهما : لعلكما حملتما الأرض ما لا تطيق . فقال عثمان : حملت الأرض أمراً هي له مطيقة ولو شئت لأضعفت أرضي . وقال حذيفة : وضعت عليها أمراً هي له محتملة ، وما فيها كثير فضل . فقال عمر لهما : انظرا لا تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق ، أما لئن بقيت لأرامل أهل العراق لأدعهن لا محتجن إلى أحد بعدئذ . وقبل وفاة عمر أوصى بأهل الذمة « أن يوفى لهم بعدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم » .

٥ - وانتقل أبو يوسف من بلاد العراق إلى بلاد الشام والجزيرة ، فخصص فصلاً جعل عنوانه « فصل في أرض الشام والجزيرة » تحدث فيه عن شروط الصلح الذي عقده المسلمون مع أهل هذه البلاد ، وذكر أبو يوسف مصدره الذي استمد منه معلوماته ، وهو شيخ من أهل الحيرة ، وهي الإمارة العربية التي قامت على مشارف الشام قبل الإسلام .

فقال أبو يوسف : « وأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من أمر الشام والجزيرة وفتوحهما ، وما كان جرى عليه الصلح فيما صولح عليه أهله منهما ، فاني كتبت إلى شيخ من أهل الحيرة له علم بأمر الجزيرة والشام في فتحهما أسأله عن ذلك » . ثم نقل أبو يوسف رسالة هذا الشيخ ، وهي رسالة مطولة تستعرض تاريخ إقليم الجزيرة قبل الإسلام ، وسكانه وحلوه ، ثم

تحدث عن رسالته عن الجيوش الإسلامية وقوادها وفتوحاتها ومعاهدات الصلح المختلفة التي وقعها قواد المسلمين مع أهالي هذه البلاد ، وقد اختلفت هذه المعاهدات في نصوصها وشروطها .

٦- عقد أبو يوسف فصلاً بعنوان « كيف كان فرض عمر لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم » ، بدأه بأن تحدث عن سنة الرسول حينما جاءه مال البحرين ، فقد أعطى كل رجل ما كان قد وعده به ، ثم قسم بقية المال « بالسوية على الصغير والكبير ، والحُر والمملوك ، والذكر والأنثى » : ثم تحدث أبو يوسف عن سياسة أبي بكر ، فقد قسم المال فساوى بين الناس جميعاً ، واغترض البعض على هذه السياسة وقالوا إن بين الناس « أناس لم فضل وسوايق وقدم » ، فأجاب أبو بكر : « أما ما ذكرتم من السوايق والقدم والفضل فما أعرفني بذلك ، وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة » . أما عمر بن الخطاب فقد رسم سياسته فقال : « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » ، ولذا فضل السابقين في الإسلام وقدماء المهاجرين والأنصار محمد شهدوا موقعة بدر « وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر دون ذلك » أنزلهم على قدر منازلهم من السوايق :

وحاول البعض تملق عمر بن الخطاب فقالوا له : ابدأ بنفسك : ولكن عمر كان عادلاً ، فرفض رأيهم « فبدأ بالأقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففرض للعباس ثم لعلي رضي الله تعالى عنهما ، حتى والى بين خمس قبائل حتى انتهى إلى بني عدي بن كعب » .

٧- رأينا أبا يوسف وقد أفرد فصلاً بعنوان « ما عمل به في السواد » أي أنه تحدث عن الماضي ، ثم نراه يعقد فصلاً آخر بعنوان « ما ينبغي أن يعمل به في السواد » ، فقد رأى وجوب تغيير السياسة القديمة المتبعة ، تبعاً لسنة التطور وتغير ظروف الزمان والمكان .

وأراد أبو يوسف أن يدعم رأيه واقترحاته ، فذكر أنه وصل إلى هذه الآراء بعد بحث وحراسة واستشارة المتخصصين في مسائل الخراج :

قال أبو يوسف : « نظرت في خراج السواد وفي الوجوه التي يجبي عليها ، وجمعت في ذلك أهل العلم بالخراج وغيرهم وناظرتهم فيه ، فكل قد قال فيه بما لا يحل العمل به ، فناظرتهم فيما كان وظف عليهم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في خراج الأرض واحتمل أرضهم إذ ذاك لتلك الوخيفة » :

ثم قارن أبو يوسف بين الظروف التي تمت فيها نظم عمر بن الخطاب ، وظروف العصر الذي يعيش أبو يوسف فيه ، فقال : « فذكروا - أي أهل العلم الذين ناظرهم - أن العامر كان من الأرضين في ذلك الزمان كثيراً وأن المعطل كان يسيراً ، ووصفوا كثرة العامر الذي لا يعمل وقلة العامر الذي يعمل وقالوا لو أخذنا بمثل ذلك الخراج الذي كان حتى يلزم للعامر المعطل مثل ما يلزم للعامر المعتمل ثم نقوم بعمارة ما هو الساعة غامر ولا نحدثه لضعفنا عن أداء خراج ما لم يعمل وقلة ذات أيدينا » .

وتحدث أبو يوسف عن مشكلة الغلاء وارتفاع الأسعار أو انخفاضها ، وعلاقة ذلك بنظرية العرض والطلب ، فقال : « والرخص والغلاء بيد الله تعالى لا يقومان على أمر واحد . وكذلك وظيفة الدراهم مع أشياء كثيرة تدخل في ذلك تفسيرها يطول ، وليس الرخص والغلاء حد يعرف ولا يقام عليه إنما هو أمر من السماء لا يلزم كيف هو . وليس الرخص من كثرة الطعام ولا غلاؤه من قلته ، إنما ذلك أمر الله وقضاؤه ، وقد يكون الطعام كثيراً وغالياً ، وقد يكون قليلاً ورخيصاً » :

٨- ثم عقد أبو يوسف فصلاً عن القطائع ، فقال « فأما القطائع من أرض العراق فككل ما كان لكسرى ومرازبه وأهل بيته مما لم يكن في يد أحد » . كما تحدث

عن الصوافي فقال عنها : « وهي التي يقال لها صوافي الأثمار ، وذلك أنه - أي عمر بن الخطاب - كان أصفى كل أرض كانت لكسرى أو لأهله أو لرجل قتل في الحرب أو لحق بأرض الحرب أو مفيض ماء أو دير بريد » . ثم شرح أبو يوسف وضع هذه الصوافي والسياسة الواجب اتباعها فيها : « وذلك بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث ، فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء في الإسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحاي به . . . وإنما صارت القطائع يؤخذ منها العشر لأنها بمنزلة الصدقة ، وإنما ذلك إلى الإمام إن رأى أن يصير عليها حشراً فعل ، وإن رأى أن يصير عليها عشرين فعل ، وإن رأى أن يصيرها خراجاً - إذا كانت تشرب من أنهار الخراج - فعل ذلك موسعاً عليه في أرض العراق خاصة ، وإنما يؤخذ منها العشر لما يلزم صاحب الإقطاع من المئونة في حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض ، وفي هذا مئونة عظيمة على صاحب الإقطاع ، فمن صار عليه العشر لما يلزم من المئونة . والأمر في ذلك إليك - أي إلى هارون الرشيد - وما رأيت أنه أصلح فاعمل به إن شاء الله » .

٩ - ثم عقد أبو يوسف فصولاً صغيرة ، تحدث في أولها عن أراضي الحجاز واليمن والأراضي العربية التي افتتحها الرسول ، ورأى أبو يوسف أنه « لا يزداد عليها ولا ينقص منها لأنه شيء قد جرى عليه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمه » . ثم عقد فصلاً عن أرض البصرة وخراسان فقال : « فأنهما عندى بمنزلة السواد وأما ما افتتح من ذلك عنوة فهو أرض خراج وما صولح عليه أهله فعلى ما صولحوا عليه ولا يزداد عليهم ، وما أسلم عليه أهله فهو عشر » . ثم جعل أبو يوسف فصلاً بعنوان « فصل في إسلام قوم من أهل الحرب وأهل البادية على أرضهم وأموالهم » ، وأبدى أبو يوسف رأيه في السياسة الواجب اتباعها نحوهم فقال : « فإن دماءهم حرام ، وما أسلموا عليه

من أموالهم فلهم ، وكذلك أرضهم لم وهي أرض عشر » .

ثم عقد أبو يوسف فصلاً عن « موات الأرض في الصلح والعنوة وغيرهما ، ويبدى أبو يوسف رأيه في الأرض الموات فيقول : « فإذا لم يكن في هذه الأرضين أثر بناء ولا زرع ولم تكن فينا لأهل القرية ولا مسرحاً ولا موضع مقبرة ولا موضع عتطهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنائهم ، وليست ملك لأحد ولا في يد أحد ، فهي موات ، فمن أحيها أو أحيها شيئاً فهي له . ولك - أي للرشيد - أن تقطع ذلك من أحبيت ورأيت ، وتوابعه وتعمل فيه بما ترى أنه صلاح ، وكل من أحيها أرضاً مواتاً فهي له » .

ويخصص أبو يوسف فصلاً صغيراً بعنوان « الحكم في المرتدين إذا حاربوا ومنعوا الدار » فقال أبو يوسف عن الحكم فيهم : « ولو أن المرتدين منعوا الدار وحاربوا سبى نساؤهم وذرايعهم وأجبروا على الإسلام » ثم تحدث أبو يوسف عن الخراج الذي يفرض على ما يخرج من البحر ، فقال : « وسألت يا أمير المؤمنين عما يخرج من البحر من حلبة وعنبر ، فإن فيما يخرج من البحر من الحلبة والعنبر الخمس ، فأما غيرها فلا شيء فيه » . وخالف أبو يوسف في ذلك أبا حنيفة وابن أبي ليلى فقد اعتبرا كل ما يخرج من البحر بمنزلة السمك ، واعتمد أبو يوسف في رأيه على رأى عمر وعبد الله بن عباس . ثم تحدث أبو يوسف عن الخراج الذي يفرض على العسل والجوز واللوز فقال : « وأما العسل والجوز واللوز وأشباه ذلك فإن في العسل العشر إذا كان في أرض العشر ، وإذا كان في أرض الخراج فليس فيه شيء ، وإذا كان في المفاوز والجبال على الأشجار أو في الكهوف فلا شيء فيه ، وهو بمنزلة الثمار تكون في الجبال والأودية لا خراج عليها ولا عشر » وعقد أبو يوسف فصلاً صغيراً بعنوان « قصة نجران وأهلها » ، وقد كانت مدينة نجران قبل الإسلام

مركزاً للجالية المسيحية في بلاد اليمن . وتحدث أبو يوسف عن سنة الرسول ، والسياسة التي اتبعها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ويرى أبو يوسف أن يعامل أهل نجران معاملة أهل الذمة فيدفعوا الجزية « ولو اشترى نجراني أرضاً من أرض الخراج كان عليه فيها الخراج » .

١٠ - خصص أبو يوسف فصلاً عن « الصدقات » ويرى أبو يوسف أن يتبع الولاية سنة الرسول ثم سياسة الخلفاء ، فقال : « وسألت يا أمير المؤمنين عما يجب فيه الصدقة في الإبل والبقر والغنم والخيول ، وكيف ينبغي أن يعامل من وجب عليه شيء من الصدقة في كل صنف من هذه الأصناف ؟ فرأى أمير المؤمنين الهامليين عليها بأخذ الحق وإعطائه من وجب له وعليه العمل في ذلك بما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الخلفاء من بعده ، وأعلم أنه من سن سنة حسنة كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شيء ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء » ؟ ويشير أبو يوسف إلى حديث الرسول : « تجاوزت لكم عن صدقة الخيل والرقائق » : ويقول أبو يوسف « فأما الإبل والعوامل والبقر والعوامل فليس فيها صدقة . . . ولا تؤخذ الصدقة من الإبل والبقر حتى يحول عليها الحول . . . والمعز والضأن في الصدقة سواء » .

ثم يحتم أبو يوسف حديثه عن الصدقات فيقول : « لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر منع الصدقة ولا إخراجها من ملكه إلى ملك جماعة غيره ليفرقها بذلك فتبطل الصدقة عنها بأن يصير لكل واحد منهم من الإبل والبقر والغنم ما لا يجب فيه الصدقة ولا يحتال في إبطال القدمة بوجه ولا سبب » .

١١ - يتحدث أبو يوسف عن عدة مواضع متنوعة ، يبدأها بالحديث عن (بيع السمك في الآجام) ويقول : « فلا يجوز بيع السمك في الماء لأنه غرر وهو الذي يصيده ، فانه كان يؤخذ باليد من غير أن يصاد

فلا بأس ببيعه » . ثم يتحدث عن « إجارة الأرض البيضاء وذات النخل » فقال : « فإن أصحابنا من أهل الحجاز وأهل المدينة على كراهة ذلك وإفساده ، ويقولون الأرض البيضاء مخالفة للنخل والشجر ولا يرون بأساً بالمساقاة في النخل والشجر بالثلث والربع وأقل وأكثر ، وأما أصحابنا من أهل الكوفة فاختلفوا في ذلك ، فمن أجاز المساقاة في النخل والشجر منهم أجاز المزارعة في الأرض البيضاء بالنصف والثلث . . . » ثم يبدى أبو يوسف رأيه الخاص فيقول : « أن ذلك كله جائز مستقيم صحيح ، وهو عندي بمنزلة مال المضاربة قد يدفع الرجل إلى الرجل المال مضاربة بالنصف والثلث فيجوز هذا وهذا مجهول لا يعلم ما يبلغ ربحه ليس فيه اختلاف بين العلماء » .

ثم يتحدث أبو يوسف عن « الجزائر في دجلة والفرات » واعتبرها بمنزلة الأرض الموات فمن أحيها فهي له ، بشرط عدم الإضرار بالآخرين . ثم يتحدث عن « القنى والآبار والأنهار والشرب » فقال : « وكل نهر له منعة أكثر فلا ينبغي للإمام أن يهدمه ولا يتعرض له ، وكل نهر مضرته أكثر من منفعتها فعلى الإمام أن يهدمه ويظمه ويسويه بالأرض إلا ما كان للشفة » . كما قال « وكل من كانت له عين أو بئر أو قناة فليس له أن يمنع ابن السبيل من أن يشرب منها ويسقى دابته وبعيره وغنمه منها ، وليس له أن يبيع من ذلك شيئاً للشفة » . وله أن يمنع السقى للأرض والزروع والنخل والشجر . . . ولا بأس ببيع الماء إذا كان في الأوعية » . ثم يتحدث أبو يوسف عن « الكلا والمروج » فقال : « ولو أن أهل قرية لم مروج برعون فيها ويحتطبون منها قد عرف أنها لهم ، فهي لهم على حافها يتبايعونها ويتوارثونها ويحدثون فيها ما يحدث الرجل في ملكه ، وليس لهم أن يمنعوا الكلا ولا الماء ، ولأصحاب المواشي أن يرعوا في تلك المروج ويستقوا من تلك المياه . . . » وليس لأحد أن يحدث مرجاً في ملك غيره ، ولا يتخذ

فيه سُهرأ ولا بُرأ ولا مزرعة إلا بأذن صاحبه ،
ولصاحبه أن يحدث ذلك كله » ،

١٢ - عقد أبو يوسف فصلاً عن « شأن نصارى
بنى تغلب وسائر أهل اللّمة وما يعاملون به » . فقال إن
بنى تغلب ضوعف عليهم الصدقة في أموالهم وأسقطت
الجزية عن رؤوسهم وحدد أبو يوسف من تجب عليه
دفع الجزية ومقدارها فقال : « الجزية واجبة على
جميع أهل اللّمة ممن في السواد وغيرهم من أهل الحيرة
وسائر البلدان من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين
والسامرة » ، ما خلا نصارى بنى تغلب وأهل نجران
خاصة ، وإنما تجب الجزية على الرجال منهم دون النساء
والصبيان . وعلى الموسر ثمانية وأربعون درهماً ، وعلى
الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الحراث العامل
بيده الناعشر درهماً ، يؤخذ ذلك منهم في كل سنة ،
وإن جاءوا بعرض قبل منهم ، مثل الدواب والمناخ
 وغير ذلك ، ويؤخذ منهم بالقيمة ولا يؤخذ منهم في
الجزية مئة ولا خنزير ولا خر » . ثم تحدث أبو يوسف
عن لباس أهل اللّمة وزينهم فقال : « لا يترك أحد منهم
يتشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته »
واعتمد أبو يوسف في تفسير ذلك على قول عمر بن
الخطّاب : « حتى يعرف زينهم من زى المسلمين » ،

ويرى أبو يوسف أن تؤخذ الجزية من المجوس
والصابئة والسامرة على ألا يأكل المسلمون من ذبائحهم
ولا يتزاجون معهم . وكان الرسول قد صالح مجوس
أهل هجر « على أن يأخذ منهم الجزية ، غير مستحل
مناكحة نسائهم ولا أكل ذبائحهم » .

١٣ - عقد أبو يوسف فصلاً عن « العشور » ، وقد
حددها فقال : « يؤخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن
أهل اللّمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر ،
من كل ما مر به على العاشر وكان للتجارة ، وبلغ قيمة
ذلك مائتي درهم فصاعداً أخذ منه العشر ، وإن كانت

قيمة ذلك أقل من مائتي درهم لم يؤخذ منه شيء . . .
وما لم يكن من مال التجارة ومروا به على العاشر فليس
يؤخذ منه شيء » . ثم تحدث أبو يوسف عن سياسة عمر
في العشور وأبدى رأيه الخاص فقال : « فإن عمر بن
الخطّاب وضع العشور فلا بأس بأخذها إذا لم يتعد فيها
على الناس ، ويؤخذ بأكثر مما يجب عليهم . وكل ما أخذ
من المسلمين من العشور فسيبيله سبيل الصدقة وسبيل
ما يؤخذ من أهل اللّمة جميعاً وأهل الحرب سبيل
الخراج ، وكذلك ما يؤخذ من أهل اللّمة جميعاً من
جزية رؤوسهم وما يؤخذ من مواشي بنى تغلب فإن
سبيل ذلك كله سبيل الخراج ، يقسم فيما يقسم فيه
الخراج . وليس هو كالصدقة ، قد حكم الله في الصدقة
حكماً قد قسمها عليه فهي على ذلك ، وحكم في الخمس
حكماً فهو على ذلك . فتلك الوجوه التي عليها الصدقات
في المواشي والأموال . وعلى هذا العمل عندنا والله
أعلم » .

١٤ - ثم عقد أبو يوسف فصلاً عن « الكنائس
والبيع والصلبان » فرأى أن يبقى لأهل اللّمة كنائسهم
لأنه « كان الصلح جرى بين المسلمين وأهل اللّمة في
أداء الجزية ، وفتحت المدن على أن لا تهم بيعهم
ولا كنائسهم » . ثم عقد أبو يوسف فصلاً « في أهل
الدعارة والتلصص والجنايات وما يجب فيه من الحدود »
ورسم أبو يوسف للخليقة السياسة الواجب السير عليها
فقال : « لا بد لمن كان في مثل حالهم إذا لم يكن له شيء
بأكل منه لا مال ولا وجه شيء يقيم به بدنه أن يجرى
عليه من الصدقة أو من بيت المال ، من أي الوجهين
فعلت فلذلك موسع عليك ، وأحب إلى أن تجرى من
بيت المال على كل واحد منهم ما يقويه » . ثم تحدث
أبو يوسف عن « الحكم في المرتد عن الإسلام » ،
فقال : « وأما المرتد عن الإسلام إلى الكفر فقد اختلفوا
فيه ، ففهم من رأى استتابته ومنهم من لم ير ذلك » ،

وعرض أبو يوسف كثيراً من آراء الفقهاء ثم أبدى رأيه وسنده في الرأي ، فقال : « وأحسن ما سمعنا في ذلك والله أعلم أن يستأبوا ، فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم على ما جاء من الأحاديث المشهورة ، وما كان عليه من أدركناه من الفقهاء » .

١٥ - تحدث أبو يوسف في ختام كتابه عن عدة مواضيع متنوعة في فصول صغيرة ، أولها عن مصدر المرتبات التي يدفعها الخليفة لقضاة وعلماء ، فقال إنها تدفع من بيت مال المسلمين من جباية الأرض والجزية ، وليس من مال الصدقة . ثم تحدث أبو يوسف « فيمن مر بمسالح الإسلام من أهل الحرب وما يؤخذ من الجواسيس » فقال : « فإن كان هذا الرجل الحربي إذا مر بمسلحة مر ممتنعاً منهم لم يصدق ولم يقبل قوله ، وإن لم يكن ممتنعاً منهم صدق وقبل قوله ، فإن قال أنا رسول الملك بعثني إلى ملك العرب ، وهذا كتابه معي ، وما معي من الدواب والمتاع والرفيق فهذه إليه ، فإنه يصدق ويقبل قوله إذا كان أمراً معروفاً . » وإن قال هذا الحربي المأخوذ إنما خرجت من بلادى وجئت مسلماً فإن هذا لا يصدق وهو في المسلمين إن لم يسلم ، والمسلمون فيه بالخيار إن شاعوا قتلوه وإن شاعوا استرقوه » .

ثم تحدث أبو يوسف عن « قتال أهل الشرك وأهل البغي وكيف يدعون » فقال : « لم يقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً قط فيما بلغنا حتى يدعواهم إلى الله ورسوله » . وتحدث أبو يوسف عن الإغارات على بلاد المشركين ، وطريقة توزيع الغنائم التي يضمنها المسلمون منهم ، وتحدث عن سياسة الرسول حين فتح مكة ، وشروط الهدنة أو الصلح ، وأبرز شروط صلح الحديبية الذي عقده الرسول مع أهل مكة ، كما تحدث أبو يوسف عن السياسة التي انتهجها على بن أبي طالب حين قاتل خصومه السياسيين من المسلمين فقال : « إنه لم يقاتل قوماً قط من أهل القبلة فن خالفه حتى يدعواهم ، وإنه لم يتعرض بعد قتالهم وظهوره عليهم لشيء من مواريتهم ولا لفسائهم ولا لذراريهم ، ولم يقتل منهم أسيراً ، ولم يذف منيهم على جريح ، ولم يتبع منهم مدبراً » . ثم تحدث أبو يوسف عن أهل البغي فقال : « ولا يصل على قتلى أهل البغي ، ويورث قاتلهم من أهل العدل من مواريتهم مثل ما يورث نظراؤه ممن لم يقتل من قبل أن القاتل قتله على حق ، ولا يورث الباغي إذا قتل من أهل العدل أحداً مبرأاً منه إن كان قتله بيده لأنه قتله بباطل » . وكان هذا هو ختام المواضيع التي تحدث عنها أبو يوسف في كتابه الخالد « الخراج » .



الجماعة والمجتمع لفردinand توينز

بمستم

الدكتور السيد محمد بدوي

أستاذ الاجتماع بجامعة الاسكندرية

منذ عام ١٩١٢ . ولذا فلم يكده أحد بتوقع - قياساً على الدراسات التي تلقاها - أن يصبح «توينز» يوماً ما عالم اجتماع ، إذ أنه أثناء دراسته كان يجد ميلاً خاصاً لآراء «سبينوزا» و«نيقشه» ، ثم تأثر بعد ذلك بفلسفة «كانت» و«شوبنهاور» و«أفلاطون» و«أرسطو» .

وفي عام ١٨٧٦ تعرف في برلين على «پاولزن Paulsen» وهو فيلسوف أخلاقى كان له أثر كبير في تشكيل آرائه . فن صحبته اقتبس الفكرة التي تقول بأهمية علم النفس كأساس لكل دراسة تتخذ الإنسان موضوعاً لها وستجد بعد ذلك في آرائه أن الطبيعة الإنسانية يجب أن ينظر لها أولاً من زاوية «الإرادة» و«كما نجد أثر «پاولزن» في معالجته للمسائل الأخلاقية ، ومحاولته ربطها بالنشاط الحيوى وبنمو الاستعدادات الشخصية للفرد سواء أكانت موروثاً أم مكتسبة .

غير أن ما يهتما في هذا المجال ، بصفة خاصة هو توجيه «پاولزن» لتوينز نحو الفلسفة الاجتماعية ، فقد عين له الطريق التي يسلكها في أبحاثه حين نصحه بدراسة «هوبز» و«آدم سميث» و«كارل ماركس»

يعتبر فردinand توينز ، في محيط الدراسات الاجتماعية في ألمانيا رائداً وأستاذاً . إذ نجد الأسس الجوهرية لنظريته عند الفأبية العظمى من علماء الألمان المحدثين . كما أن هذه النظرية أصبحت تدرس وتناقش في كثير من جامعات العالم ، وعلى الأخص في هولندا وبلجيكا ، والولايات المتحدة ، واليابان . وفي ألمانيا ذاتها تغفل تأثير الكتاب الذي نستعرضه في هذا البحث وهو «الجماعة والمجتمع» ، في نفوس الجماهير إلى درجة جعلت بعض الحركات السياسية الشعبية تتخذ منه مادة أساسية لبرامجها وخططها التقدمية :

حياته :

ولد توينز في ٢٦ يوليو ١٨٥٥ في «كير شبييل أولدنزفورت» Kirchspiel Oldenswort بمقاطعة «شلزويج Schleswig» . وعندما بدأ في عام ١٨٧٢ ، دراسته العليا في الفلسفة في جامعة ستراسبورج لم يكن في ألمانيا علم اجتماع بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة . فلم يظهر هناك إلا في أوائل القرن العشرين حيث بدأ تدريسه في الجامعات الألمانية

و «رودبرقوس» و «هيوم» و «سبنسر» و «أوجست كونث». واهتم تونيز بهذه الدراسات اهتماماً جعله يحدد طريقه نحو البحوث الاجتماعية عندما أتم دراسته العليا في عام ١٨٧٧.

ويمكن أن نميز في حياة «تونيز» العلمية مرحلتين أساسيتين. وتمتد المرحلة الأولى من عام ١٨٨١ إلى ١٩١٢، ويتخللها عدد من مرات الفشل. فقد بدأ «تونيز» بالتدريس عام ١٨٨١ في جامعة «كيل»، وفي عام ١٨٨٣ لم يكن يستمع إلى دروسه إلا طالب واحد. وحينئذ ترك التدريس وسافر إلى لندن حيث أقام فيها خلال عام ١٨٨٤، وانتهز هذه الفرصة لتتعمق في دراسة «هوبز» و «سبنسر». وعندما عاد إلى ألمانيا في عام ١٨٨٥ استأنف تدريسه بالجامعة ومنى مرة أخرى بالفشل. وفي عام ١٨٨٧ اعتكف في مكان منعزل وأخرج في العام نفسه مؤلفه الرئيسي «الجماعة والمجتمع» Gemeinschaft und Gesellschaft. ولم يصادف الكتاب في بادئ الأمر، من النجاح أكثر مما صادفته محاضراته في الجامعة، بالرغم من أنه يتضمن الأفكار الرئيسية لنظريته الاجتماعية.

وزاده تخففه من أعباء التدريس إمعاناً في البحث والتأليف. وخصصت له إحدى المحلات العلمية باباً يعرض فيه بانتظام آراءه حول الكتب والبحوث التي تظهر في ميدان علم الاجتماع. ومكنت له اتصالاته بمجالات هذه الدراسة في البلاد الأجنبية من أن يصبح عضواً في «المجمع الدولي لعلم الاجتماع» بباريس عام ١٨٩٤. وفي عام ١٨٩٨ حصل بدراسته عن «المصطلحات» الفلسفية من وجهة النظر النفسية الاجتماعية^(١) على جائزة «ولبي» Welby، ولكن هذه الدراسة لم تنشر إلا في عام ١٩٠٦.

Philosophische Terminologie in (١)
Psychologisch-Soziologischer ansicht. Berlin,
K. Curtius, 1906.

وقام تونيز برحلة إلى الولايات المتحدة حيث اشترك في عام ١٩٠٢ في أعمال «مؤتمر الفنون والعلوم» ونشر مجموعة من البحوث الاجتماعية نذكر منها: «نحو المسألة الاجتماعية» (١٩٠٧). والعادة Die Sitte (١٩٠٨). ثم ذاعت شهرته بعد المحاضرات والبحوث التي ألقاها في «المؤتمر الدولي للفلسفة» في هيدلبرج. وهكذا نرى كيف أخذ تونيز يشق طريقه خطوة فخطوة نحو النجاح. وهنا نقف برهة لنذكر أن فشله في المرحلة الأولى من حياته العلمية كان يرجع لسببين يعتبر الثاني منهما نتيجة للآخر: أما السبب الأول فهو نظر الحكومة البروسية إليه بعين الشك والريبة. فنذ أن نشر كتابه «الجماعة والمجتمع» اعتبره أقطاب السياسة البروسية أحد أتباع ماركس، واعتبروا نظريته مظهراً من مظاهر الفكر الاشتراكي ولم يفهم هؤلاء السياسيون. بل بتعبير أصح لم يحاولوا أن يفهموا أن هذا الكتاب يعالج نظرية اجتماعية من الناحية العلمية المحضة. وكان عذرم في عدم الفهم أن علم الاجتماع لم يكن يدرس بعد في الجامعات الألمانية. أما السبب الثاني للفشل الذي صادفه تونيز في هذه المرحلة، فهو مرتبط بالأول ارتباطاً وثيقاً. ذلك أن جامعات ألمانيا لم تكن تهتم في ذلك الحين إلا بالعلوم السياسية بوصفها أداة للسيطرة البروسية. وكانت المدرسة التاريخية، والفلسفة الهيكلية تقف موقف العداء من كل محاولة لإنشاء نظرية اجتماعية علمية. وبموازرة الحكومة البروسية استطاع علم السياسة أن تكون له الغلبة على الدراسات الاجتماعية الأخرى.

بل إن العلوم الاجتماعية نفسها كانت تقف أحياناً عقبة في سبيل ظهور علم الاجتماع العلمي. إذ كانت تستوحى آراءها من نظريات كونث وآدم سميث وسبنسر. فأدى ذلك إلى تشعب اتجاهاتها وعدم استطاعتها التزام منهج دقيق وتحديد مجالات البحث، فلم يكن من الغريب، في مثل هذه الظروف، أن

بصادف كتاب « الجماعة والمجتمع » علم الاكثارات في بادىء الأمر . إذ أن هذا الكتاب قد أخذ على عاتقه وضع أسس النظرية الاجتماعية في صورتها التحليلية الصرفة ، وكان علماء أواخر القرن التاسع عشر في شغل شاغل عن الاهتمام بمثل هذه الدراسة التحليلية ، ولذلك لم يجد الكتاب من يهتم به ويقدره حق قدره إلا منذ عام ١٩١٢ .

ومنذ هذا التاريخ تبدأ المرحلة الثانية من حياة تونيز العلمية ، وهى مرحلة تتميز بالخصب والنجاح المتواصل . فأعيد في السنة نفسها طبع كتاب « الجماعة والمجتمع » بعد أن بدأ المفكرون ، في المحيط العلمى ، يكتشفون مراميهِ الحقيقية وما احتواه من أسس نظرية عميقة . وفي عام ١٩١٣ عين أستاذاً ولكنه اضطر لتدريس الاقتصاد من ناحيته النظرية والعملية . إذ بالرغم مما ظهر من أبحاثه وأبحاث زميله « زيميل Simmel » - الذى نشر في عام ١٩٠٨ أبحاثه في أشكال المجتمع - فلم يكن قد أنشئ بعد كرسى لعلم الاجتماع في الجامعات الألمانية . غير أن الدراسات والأبحاث الاجتماعية أخذت تتكون وتنتشر في المحيط الهامشى للجامعة . فتأسست في عام ١٩٠٩ « الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع » وانتخب « تونيز » رئيساً لها . وفي عام ١٩١٦ أوقف « تونيز » محاضراته مرة أخرى ليتفرغ قسراً تاماً لأبحاثه ، ثم عاد إلى التدريس في عام ١٩٢١ ، وأصبح ما يشغله منذ ذلك الحين هو تحقيق هدفه الرئيسى ، ونعنى به إرساء قواعد علم الاجتماع العلمى في ألمانيا .

وفي خلال سنوات الحرب أسهم في كتابة عدة مقالات ذات طابع سياسى . نذكر منها : « القيصرية وحلفائها » (١٩١٤) - « مكان ألمانيا تحت الشمس » (١٩١٥) - « السياسة العالمية الانجليزية من وجهة نظر انجلترا » (١٩١٥) - « الدولة الإنجليزية والدولة الألمانية » (١٩١٧) - « الحرب العالمية وحقوق الشعوب »

(١٩١٧) - « مسألة المسئوليات » (١٩١٩) . ومنذ عام ١٩٢٢ بدأ ظهور عدد من مؤلفاته ذات القيمة السبولوجية المتفاوتة . فظهر أولاً « نقد رأى العام » (١) ، ويعتبر الجزء الأول من مشروع علمى ضخم ظهر منه الجزء الثانى في عام ١٩٣٥ بعنوان « روح العصور الحديثة » (٢) وظل الجزء الأخير دون إكمال . ومن مؤلفات « تونيز » الأخيرة نذكر مؤلفه الهام الذى ظهر في ثلاثة مجلدات بعنوان « دراسات ومحاولات نقدية في علم الاجتماع » (٣) وهو مجموعة من المقالات والأبحاث مختلفة تلقى ضوءاً ساطعاً على اتجاهات المؤلف وتعين على فهم نظريته الاجتماعية . وفي عام ١٩٤١ نشر « مقدمة في علم الاجتماع » (٤) .

وحظى « تونيز » قبل وفاته بالحد ، ونعم ، بظاهر التكريم الرسمية والشعبية . وكان أكبر انتصار لجهوده أن شهد دخول علم الاجتماع بصفة رسمية في الجامعات الألمانية . ورأس حتى آخر حياته مؤتمر علم الاجتماع في ألمانيا . وها هى مؤلفاته ونظرياته تدرس الآن في كثير من الجامعات الأجنبية .

وإذا تركنا جانباً القيمة العلمية الأصيلة لمؤلفات « تونيز » من الناحية السبولوجية البحتة ، وجدنا أن من العوامل التى أسهمت في نجاح آرائه وذيوها ، أنها صادفت توافقاً مع الروح الاجتماعية التى ولدها في ألمانيا نمو الصناعة الكبيرة . فنظرية « المجتمع » ، وجدت إلى حد ما صداها في التعارض بين الطبقة الكادحة ورأس المال ، وهو تعارض تحول إلى صراع حاد منذ عام ١٨٤٠ ، وحددت الحكومة البروسية

(١) Kritik der öffentlichen Meinung
Springer, Berlin 1922.

(٢) Geist der Neuzeit, Hans Buske
Leipzig, 1935.

(٣) Sociologische Studien und Kritiken.
Fischer, Iena, 1929.

(٤) Einführung in die Soziologie,
Enke, Stuttgart, 1931.

العيش في المجتمع لأن حياة المجتمع من أهم الوسائل لحفظ النوع .

وقد تعاقبت بعد ذلك النظريات والآراء التي تقول بأن علاقة الإنسان بغيره ، وتأثيره في الغير أو تأثيره به جزء جوهري من الشخصية الإنسانية ، لا نستطيع إذا أغفلناه أن نفهم الدوافع الأساسية التي تسيطر على نشاط الفرد .

وهناك طائفة من العلماء المحدثين نذكر منها « أوتمار سيان Spann » الألماني ، و « ألفريد إسبيناس Espinas » الفرنسي ، هؤلاء قد حاولوا تصوير هذه العلاقة على أساس اعتبار المجتمع كائناً عضوياً تتعاون الأعضاء المختلفة فيه (وهم الأفراد) على القيام بأوجه نشاطه . فالفرد إذا نظرنا إليه كعنصر منفصل عن الجسم كله أو عن الكيان الاجتماعي بأكمله ، ظهر لنا بوضوح أنه لا يستطيع أن يكفى نفسه بنفسه ، وعلى ذلك فالتأثير المتبادل بين الأفراد ، روحياً كان أم مادياً ، هو المبدأ الخالق الذي تتحقق عن طريقه الشخصية الإنسانية .

والفرق بين « المجتمع الطبيعي » ، و « المجتمع المصطنع » في نظر « سيان » ، وكذلك في نظر « تونيز » — كما سنوضحه بعد قليل — يتركز في أن « المجتمع الطبيعي » أو الجماعة التلقائية تعبر عن وحدة متكاملة ، وتبرز فيها فكرة الاندماج والتعاون التي تتجلى بأجلى معانيها في الكائن العضوي ، وهذه الوحدة المتكاملة هي الشرط الأساسي لظهور القيم الروحية أو إذا شئت فقل لأنها تجعل من المجتمع قوة خالقة .

والإنسان بدون اندماجه في هذا الكائن لا يكون إلا إنساناً بالقوة . والمجتمع وحده هو الذي يخرج نشاطه من حيز القوة إلى حيز الفعل ، ويحرك الإمكانيات الكافية فيه نحو تحقيق نموه الروحي .

أما « إسبيناس » فلم يقتصر على هذه الفكرة ، بل زاد عليها أن الفردية في جميع مراحلها ليست في

موقفها منه بمحاربتها للانتماءات الاشتراكية . وحتى بعد أن خضت حادة هذا الصراع فقد وجد جزء من الشعب الألماني في نظريات « تونيز » صدى لآماله ومطامحه . وما يؤيد ذلك أن « تونيز » نفسه قد أوضح التطبيقات العملية لنظريته ، وعرض بصراحة وشجاعة قضية الطبقات الشعبية ، وانتقد في نزاهة لا يشوبها الحقد أو الكراهية مساوئ الرأسمالية العالمية .

وكان استقبال الجماهير لنظريته عن « الجماعة Communauté » أشد حماسة وقوة ، لأنها وجدت فيها تعبيراً عميقاً عن روح الشعب ومزاجه . وإذا كان « المجتمع » يصور مرحلة التدهور العربي ، فإن « الجماعة » تصور على العكس الحالة الاجتماعية التي يجب الرجوع إليها . ومن هذا التعارض بين الواقعي والمثالي استمدت « حركة الشباب » Die Jugendbewegung القوة التي تغذيها واتسع نطاقها في جميع أنحاء ألمانيا منذ عام ١٩١٩ . وهكذا نرى أنه إلى جانب القيمة العالمية لآراء « تونيز » فإنها قد أفسحت المجال لتغبرات ومعان أيديولوجية ظل المؤلف يحتج ضدها لأنها لا تتفق مع روح البحث العلمي .

نظريته الاجتماعية

كان أرسطو أول من أوضح في العصور القديمة أن الحياة الاجتماعية من جوهر الإنسان ، ونلخص ذلك في عبارته المشهورة « الإنسان حيوان سياسي » (أو اجتماعي) . وقد نشر الرواقيون بعد ذلك فكرتهم التي تقول إن الإنسان تتحكم فيه غريزتان أساسيتان . الأولى « أنانية » ، والأخرى « غيرية » . وهاتان الغريزتان تتدبجان اندماجاً كلياً في حياة الإنسان بحيث لا نستطيع أن نفصل أثر إحداهما عن أثر الأخرى . فالإنسان لا يرضى بحياة العزلة حتى ولو تهيأت له جميع أنواع الملذات . وهو حين يحافظ على حياته يدافع من الأنانية يسعى ، في الوقت نفسه ،

٣- تنمية الذاكرة للإفادة بما تعينه في تقدم الإنسان (وهذا المظهر هو حلقة الوصل بين الحياة العضوية والحياة العقلية) .

ويذهب « تونيز » إلى أن هذه الإرادة العضوية هي مصدر الحاسة الخلقية . لأن الخير ليس إلا نوعاً من العقل العملي الغرض منه تحقيق الرفاهية للجنس البشري :

أما الإرادة العاقلة فلإنها تتمثل في الفكر الخالص ومن الغريب أن يدعى « تونيز » أنها تهدف إلى غرض واحد هو سعادة الفرد دون النظر إلى المجموع . ولذلك فلإنها أساس البحث عن مظاهر القوة ، والطمع ، والطموح . ومكانها خارج نطاق الأخلاق لأنها لا تولد إلا روح العدا .

هذا التناقض الذي قد يبدو في فكرة « تونيز » عن الإرادة العضوية وصلتها بالأخلاق والإرادة العاقلة وصلتها بالأخلاق ، والإرادة العاقلة وصلتها باللاخلقية ، لا يفسره إلا تذكر مذهب « نيتشة » عن فلسفة القوة . فالإنسان بالغريزة قد يميل إلى الخير (كما قال روسو) . ولكنه بالذكاء والعقل لا يميل إلا للسيطرة والغلبة .

كما أن هذه التفرقة بين نوعين من أنواع الإرادة تذكرنا بما جاء في فلسفة هسكال من تفرقة بين القلب والعقل ، وبما جاء في فلسفة برجسون من تفرقة بين الإنسان الصانع homo faber ، والإنسان العاقل homo sapiens .

وقد وجد « تونيز » أن المرأة يغلب عندها النوع الأول من الإرادة (أي الإرادة العضوية) : ولذا فإن نشاطها يتميز بتغلب العاطفة . أما الرجل فيغلب عنده النوع الثاني ، ولذا فهو يحكم العقل غالباً ، ويحسب للأمر حسابها اللطيق .

على أن أهم فكرة استخرجها « تونيز » من هذا التضاد بين نوعي الرياضة هي تقسيم أنواع التجمع

الواقع إلا درجة من درجات الحياة الاجتماعية : فالكائن « الحى » مجتمع من الأعضاء بل إن العضو « مجتمع من الخلايا » فن غير الطبيعي إذن ألا تنظر إلى الفرد على أنه عضو في المجتمع الذى يعيش فيه : والحقيقة التركيبية للعناصر التى يتكون منها الكائن العضوى ، ليست من طبيعة أخرى تختلف عن الحقيقة التركيبية للأفراد الذين يتكون منهم المجتمع وليس المجتمع نفسه إلا كائناً حياً . وعلى ذلك فالشعور الاجتماعى أو غريزة الاجتماع ليست ، فى الواقع ، إلا غريزة الحياة نفسها إذ أن الحياة لا تظهر لنا إلا على شكل تجمعات لعدد من العناصر :

وإذا كان « سبان » و « إسبنياس » قد فسرا العلاقات الاجتماعية على أنها تعاون تلقائى يشبه التعاون العضوى الذى يدفع بالكائن الحى إلى النمو والتطور ، فإن « تونيز » على العكس يفسر هذه العلاقات بالرجوع إلى الحركات الإرادية للأفراد أنفسهم : وهو يميز بين شكلين من أشكال الإرادة . الإرادة العضوية « أو إرادة الحياة » (Wesenwille) والإرادة العقلية (Kurwille) .

والإرادة الأولى لا تنفصل من النشاط العملى لأنها تعبر عن الحالة الكاملة لنمو الفرد وتطوره . وهى وثيقة الصلة بنشاط الجسم ولكنها تتضمن كذلك الفكر ، أو على الأقل النشاط الفكرى الذى يهدف إلى تأكيد الكيان العضوى للفرد ، وذلك بمساعدته على التغلب على الصعوبات التى تثيرها أمامه الطبيعة . وهذه الإرادة العضوية تتخذ مظاهر ثلاثة رئيسية .

١- جلب اللذة وإبعاد الألم (وهو المظهر الذى يعبر عن حياة النمو الصرفة (Vie Végétative)

٢- تكوين العادات النافعة (وهو المظهر الذى يعبر عن الحياة الحيوانية) :

إلى قسمين كبيرين : التجمع الطبيعي أو الجماعة
(Gemeinschaft) — Communauté ، والمجتمع السياسي
(Gesellschaft) — Société .

فالتجمع الطبيعي أو الجماعة أساسها العلاقات
العضوية . وهذه العلاقات العضوية تقوم على عواطف
طبيعية وتلقائية ، ولذلك يتولد عنها الوئام وحسن
المعاشرة . وهي على أنواع ثلاثة :

علاقات الدم (وتتصل بإرادة حياة النمو وحفظ
النوع) .

وعلاقات المكان (وتتصل بالحياة الجوانية) .
وعلاقات الروح (أو العلاقات ذات الطابع
المعنوي) وتتصل بإرادة الحياة العليا .

ومعنى ذلك أن العلاقات الجماعية التلقائية الأساسية
هي : علاقة القرابة ، وعلاقة الجوار ، وعلاقة
التعاطف .

والقانون العام الذي يسيطر على التجمع الطبيعي
هو في جوهره قانون الحب .

أما المجتمع السياسي فيقوم ، على العكس ، على
علاقات عقلية بين إرادات مفكرة مدبرة . وإذا
شئت فقل إنه يقوم على حساب وتدبير للمصالح .
والمبدأ الأساسي الذي يسره هو الموازنة الحسابية بين
الوسائل والأغراض . ولذلك تنمو فيه وتنتمش أوجه
النشاط النفعي كالتبادل والتجارة والصناعة والتكنولوجيا .

ومعنى ذلك أن العلاقات الاجتماعية Sociétaires
تقوم في أصلها على التبادل ، وهذا التبادل قد يتم بين
أفراد ليس بينهم أي صلة في الدم ، ولا يستبعد أن
يكونوا أعداء بالطبيعة جمعت بينهم المصلحة :

قانون التملك وقانون التعاقد

ويستخلص «تونيز» من التقسيم السابق لأنواع
التجمع ، تقسيما آخر يقوم على التفرقة بين نوعين من
القانون :

(أ) قانون التجمع الطبيعي Droit Communautaire
ويتميز بفكرة التملك ووضع اليد . وهذا التملك يبدو
في ثلاثة مظاهر أساسية :

١- تملك الإنسان : ومن أهم مظاهره سلطة
الأب المطلقة على أفراد الجماعة (أو الأسرة الكبيرة) ،
وسلطة الزوج المطلقة على نسائه .

٢- تملك الأشياء : ويظهر في الاستحواذ على
كل أرض بواسطة من يفلحها .

٣- تملك الروحي : وأساسه سيطرة العقيدة
وتسلطها على عقول الأفراد .

(ب) أما قانون المجتمع السياسي فلا يقوم على
العواطف والمشاعر ، بل يعتبر الأفراد وحدات
مجردة . وهو لا يصاغ في شكل حكم أو لائحة
Statut تصدر من الكبير إلى الصغير ، بل يعبر
عن نوع من «التعاقد Contrat» بين الأفراد الذين
يتكون منهم المجتمع .

وفكرة الملكية في المجتمع السياسي لا تتخذ شكل
التملك ووضع اليد ، كما كان الحال في التجمع
الطبيعي ، بل تصبح الصلة بين المالك وبين ما يملكه
صلة قانونية . وامتلاك الأشياء لا يصبح غاية تقصد
لذاتها بل وسيلة لتحقيق أغراض أخرى .

ويبدو لنا أن هذا التمييز بين نموذجين للتنظيم
التشريعي ، نموذج «اللائحة Statut» ونموذج
التعاقد Contrat ، قد اعتمد إلى حد كبير على التقسيم
المائل الذي أورده «السير هنري من Maine» في
كتابه المشهور «القانون القديم Ancient Law»

فقانون اللائحة يمثل القانون الطبيعي للجماعة
العضوية ، وتحده العلاقات وأنواع الترابط القائمة
على الإبرادات العضوية الفردية . وهو — كما قلنا —
في أشكاله المختلفة يقوم على فكرة «التملك
Possession» وهو لا يصدر عن الفرد بوصفه

كائناً مجرداً ، بل يعبر عن الإرادة العضوية لمجموعة من الأفراد المرتبطين ، بعضهم مع بعض ، بروابط طبيعية ، ويكونون جماعات قد يضيق نطاقها أو يتسع يطلق عليها « تونيز » اسم « الكائنات الاجتماعية » ، وأبسطها « الكائن الاجتماعي الباطريركى » *L'être social patriarcal* أو الأسرة وقد يتسع نطاق الأسرة فتنبثق عنها جماعات أكثر تركيباً كالجماعات الإقليمية أو الجماعات الدينية. وتتصل بهذه الأشكال الرئيسية الثلاثة للكائنات الاجتماعية ، ثلاثة أشكال من أشكال القانون :

١ - القانون العائلي .

٢ - القانون العرفي .

٣ - القانون الدينى .

هذا مع ملاحظة أن الدين ، في الجماعات العضوية ، يخل في كل شئ وتسم به جميع النظم التشريعية ، وهو الذى يوحى بها ويوجهها .

والقانون العائلي هو التعبير الصريح للإرادة العضوية للكائن الباطريركى . وأول مظاهره الاتحاد الطبيعى بين الرجل والمرأة الذى يقوم على الغريزة الجنسية وعلى إرادة التناسل . ويبدو أن الزواج منذ أصوله البعيدة كان خاضعاً لتنظيم صارم محدد . وكان قانون الجماعة يحمى المرأة - وفقاً لشعائر وقواعد خاصة - طالما أنها لا تنتمى إلى رجل ، فالعلاقات الجنسية يحوطها سياج من التنظيم والمحرمات الصارمة "Tabous" ، والعلاقات الآثمة بين الأقارب *Incest* ممنوعة لما تجره من شرور وخراب على الجماعة ولكن بمجرد أن يتم الزواج تصبح المرأة ملكاً للرجل :

وتبدو ظاهرة « التملك » أيضاً في القانون العائلي بالنسبة للأولاد ، وهى هنا مظهر من مظاهر الغريزة الطبيعية التى نجدها أيضاً عند الحيوان ، ونعنى بها

غريزة الأمومة . غير أنها عند الإنسان تغدو شعوراً بالالتزام ، وهذا الشعور قد ظهر أولاً في صورة « النظام الأمى *Le Matriarcat* » حيث ينتمى الطفل إلى أمه ويحمل اسمها ويتبعها من الناحية القانونية . ويحتمل في رأى « تونيز » أن يكون هذا الشكل البدائي للقانون العائلي قد نتج عن دور المرأة الرئيسى في الإنسان واستمرار الحياة (١) .

ولم تتأكد السلطة الأبوية و « النظام الأبوى *Le Patriarcat* » إلا بصورة تدريجية وبعد تغير ظروف حياة الجماعة وتتخذ صورة « التملك » في هذا النظام ، مظهر القوة بعد أن كانت تقدم على الغريزة الطبيعية عند المرأة . إذ يتمتع الرجل ، الذى يغدو « عامل الأسرة *Pater Familias* » بسلطان مطلق يعترف به القانون ، ويعتمد هذا السلطان لا إلى زوجته أو (زوجاته) فحسب ، بل إلى أبنائه حتى ولو كانوا متزوجين ، وإلى جميع من يظلمهم سقف بيته من خدم وأرقاء وموالى وأسرى حرب .

ولم يبق اليوم في القوانين الحديثة للأحوال الشخصية إلا صوراً باهتة من القانون العائلي القديم مجردة من مبادئ العضوية والعاطفية التى كانت تعطيها كل جوهرها في الماضي .

ويتصل القانون العرفي بالقانون العائلي اتصالاً وثيقاً يعبر عن العلاقات الدائمة بين الاشتراك في المكان والاشتراك في الدم . فالأسرة لا تستطيع أن تعيش دون ارتباط بالأرض التى تستغلها وما يتصل بهذا الاستغلال من روابط وعلاقات قانونية . وينشأ عن « تملك » الأرض وعن العمل الذى يتطلبه هذا التملك عادات اجتماعية تكون في مجموعها ما يسمى بالعرف *La Coutume* وعلى أساس القانون العرفي الذى يعبر

(١) أيدت الدراسات الأنثروبولوجية التى قام بها « باخوفين » وأنتبتها في كتابه المشهور « حق المرأة » *Das Mutterrecht* كثيراً من آراء تونيز حول هذا الموضوع .

مكتوب ولكنه فطرى ؛ لم نتعلمه أو نقرأه ولكن تلقيناه عن الطبيعة واستيقنا من مصادرها ؛
أما بالنسبة للقانون الدينى فإن « تونيز » يميز بين الإيمان والشعائر : وهو يرى أن الإيمان فى جوهره ذو طابع جماعى واضح ، إذ يعبر عن وحدة الجماعة والتفافها حول مبادئ وأفكار واحدة ؛ وليس التدين فى جملته إلا مجموعة من الأفعال تصدر عن الإيمان .

ويصاحب الدين جميع أشكال ومرامم القانون دون أن يكون بالضرورة أساساً لها . وما ذلك إلا لأن الدين والقانون مظهران من مظاهر الحياة الجماعية أحدهما (وهو القانون) يعبر عن الحياة الواقعية والآخر (وهو الدين) يعبر عن الحياة المثالية . وتبدو هذه العلاقة بوضوح فى القانون العائلى : فالدين يكرس الزواج ويضفى عليه طابع القدسية ، ولكن الزواج ، فى حد ذاته ، نتيجة للغريزة الجنسية التى يكسبها القانون صفة الشرعية . ويتدخل الدين بصفة مستمرة فى كل ما يتصل بالعلاقات العائلية ، فتتسم بطابعه جميع المناسبات كالميلاد والوفاة وتقسيم الميراث ، وهو بذلك يدمج ويرفع من الصفة القانونية لهذه المناسبات .

والصفة البارزة فى القانون الدينى هى ، فى الحقيقة ، قيمته الأخلاقية . فبينما يتميز فى القانون العقلى - حسب رأى كانت وفيخته - الفصل بين « الحق » و « الواجب » ، وبين « الأخلاقية » و « القانونية » ، نجد أن التطابق كامل بين القانون الدينى والأخلاق : وتفسير ذلك نجده فى الصفات الأساسية لحياة الجماعة العضوية ، وهى التضامن الوثيق والتعاطف الروحى بين الأفراد . فالقانون الذى يؤسس على هذه الصفات يجب أن يكون تعبيراً خالصاً عن إنكار الذات أو الغيرية ، أو بمعنى أشمل عن المحبة . ولذا فإن مبادئ هذا القانون يصعب

عن الإرادة العضوية للجماعة ينظم الأفراد سلوكهم وأعمالهم ومسلكت الفرد أو الجماعات الخاصة بإزاء هذا القانون يشبه مسلك الأنسجة والأعضاء بالنسبة للكائن الحى فهم محدودون بالإطار العام الذى يسيطر عليهم . وينظم القانون العرفى حياة الجماعة حتى فى أدق تفاصيلها ، فيحدد مثلاً المساحات التى تزرع صيفاً أو شتاء ، ويحدد أجور الزراع فى الحقول والعمال فى القرى ، وينظم العلاقات بين الملاك مقررأ حق الجوار وحق الشفعة ... الخ

والغاية القصوى لهذا القانون - فى رأى تونيز وكما قرر سير هنرى من قبل - هى حفظ السلام للكائن الاجتماعى الذى يعتبر هذا القانون وسيلته الوحيدة للتنظيم : وهو ينجح فى تحقيق هذه الغاية بقدر ما يقوم فى جوهره على « التوافق » ، أى على الانسجام بين عناصر النظام الطبيعى : ولكى يضمن عدم تكبير صفو هذا الانسجام بحجة القانون العرفى أن تتحول العلاقات الفردية ، والخدمات المتبادلة ، والمساعدات الودية إلى « واجبات ملزمة » : ويستمد القانون العرفى سلطته من الاحترام الراسخ فى النفوس لتقاليد السلف . فأعضاء الجماعة يحتفظون بالقواعد التى تلقوها عن أجدادهم ، لا لأنهم يؤمنون بفائدتها فحسب ، بل وأيضاً لأن العرف مناسبة فريدة لإظهار تقديسهم وتبجيلهم للسلف الصالح :

وعلى هذا النحو يرى « تونيز » أن القانون العرفى قانون عضوى ينبثق مباشرة من الحياة الجماعية : وهو قانون طبيعى وتلقائى كالقانون العائلى سواء بسواء ؛ لا يصدر عن الإرادة والمعرفة الموضوعية ، بل عن الشعور وعن الإحساس بضرورة إبعاد الشر وجلب الخير . فهو إذن لا يعبر عن « موقف قانونى » بقدر ما يعبر عن « موقف ضميرى » : وينطبق عليه وصف شيشرون ، المشرع الرومانى بأنه « قانون غير

التعبير عنها وترجمتها في صيغ واضحة ومنطقية كما يحدث بالنسبة للقوانين الفعلية في المجتمع السياسي .

...

وخلاصة نظرية « تونيز » أن الإنسان يوجد في « جماعة طبيعية » مع أهله بمجرد ولادته إذ يتحد معهم في الخير والشر . ولكنه يدخل بعد ذلك في « المجتمع » كما لو كان يدخل في أرض غريبة . والأسرة هي التعبير العام عن فكرة الجماعة الطبيعية . أما العلاقات الاجتماعية فلأنها تتكون تحت شعار « كل يعمل لمصلحته » ، ولا يتنازل أي إنسان عن أي شيء لزميله إلا إذا تأكد أنه سيتلقى منه شيئاً مساوياً على الأقل لما تنازل عنه ، وعلى ذلك فإن المجتمع تسود فيه فكرة الحساب المفروض (كما كان يرى هوبز) ، والعلاقات القائمة على وزن الأمور بميزان العقل ، على حين أن الجماعة تسود فيها العلاقات القائمة على الغريزة وعلى العاطفة .

ونظهر العلاقات « الاجتماعية » في شكل العرف ، وبحكمها نطاق الدين . أما العلاقات « الاجتماعية » فلأنها تظهر في شكل التجارة والصناعة والعلم .

وقد كان سير التاريخ من الجماعة الطبيعية القائمة على السلطة المطلقة إلى المجتمع السياسي القائم على التعاقد . إذ ساد في العصور الوسطى نظام الاقطاع القائم على التملك والاستحواذ ، وكان عصر النهضة بداية التحول نحو الحالة الاجتماعية القائمة على المساواة . أما من حيث التوزيع الجغرافي فإن تونيز يرى أن مجتمعات الغرب تتميز بالمظهر الجماعي communautaire على حين أن مجتمعات الغرب تتميز بالمظهر الاجتماعي sociétaire

ويبدو لنا أن هناك نوعاً من التمسك والتجريد في هذا التقسيم الذي قسمه « تونيز » لأنواع العلاقات الإنسانية . والواقع أن كلا من فكرة « الجماعة » و « المجتمع » كما وصفهما لا تعبر عن حقيقة واقعية

وتصنيفه على هذا النحو لا يعبر إلا عن « نماذج تقديرية » لا تنطبق إلا انطباقاً جزئياً على المجتمعات الكائنة بالفعل .

وبالرغم من اعتراف تونيز بهذه الحقيقة ، فإنه يؤكد أن لتصنيفه أهمية من الناحية التاريخية ، إذ أن التطور الطبيعي للفكر الإنساني قد أدى إلى طغيان « الإرادة الطبيعية » . ولذلك فإنه لا يسهه إلا أن يقرر (مع الأسف) أن النموذج « الجماعي » يترك مكانه ، في مجتمعاتنا الحديثة للنموذج « الاجتماعي » .

ولقد كان لنظرية تونيز أهمية كبيرة في تاريخ علم الاجتماع بألمانيا ، واقتبس كثير من علماء الاجتماع وجهة نظره في التمييز بين الجماعة والمجتمع . ومن هؤلاء « فيركنت Vierkandt » ومدرسته . فهذه المدرسة قد أكدت وجود « العاطفة الاجتماعية » أو الغريزة الاجتماعية ، وصلتها أساساً لتكوين الجماعة . وإذا كنا نجد في تحليلها لمظهرى الحياة الاجتماعية ، أي الجماعة والمجتمع ميلاً إلى منهج علم النفس ، إلا أننا نلاحظ ، في سهولة مقدار التقدم الذي أحرزته هذه المدرسة ، إذا قارنا ما وصلت إليه من نتائج بما وصل إليه ماك دوجال ونارد وأمثالهما من المتطرفين في التشيع لعلم النفس الفردي . فالفرد هنا يحقق ذاته كاملة عن طريق العلاقات الاجتماعية ، وعلى ذلك فعلم النفس الاجتماعي له مجاله الخاص وهو لا يمكن أن يؤول إلى علم النفس الفردي بالرغم من اتخاذ أساساً له . ونحن إذا درسنا الفرد الوحيد ، فلا يمكن أن نجد في هذه الدراسة ما يشابه مع موضوعات البحث في علم النفس الاجتماعي .

كتاب « الجماعة والمجتمع » :

Gemeinschaft und Gesellschaft

يشتمل هذا المؤلف على ثلاثة كتب (أو أقسام) وملحق وموضوع الكتاب الأول هو تحديد المعاني

« توجد الإرادات الإنسانية في علاقات متعددة بين بعضها وبعض . وكل علاقة من هذه العلاقات عبارة عن نشاط متبادل ، بحيث إذا كان النشاط يمارس من جهة فانه يستقبل من جهة أخرى . وهذه النشاطات تبدو لنا كما لو كانت تنزع إما للمحافظة وإما لتدمير الإرادة أو الكائن المقابل ، فهي إما أن تكون إيجابية أو سلبية . »

« والنظرية التي أعرضها ، وموضوعات بحثها لا تهتم إلا بالعلاقات ذات التأثيرات الإيجابية المتبادلة . وكل من هذه العلاقات تمثل وحدة في التعدد ، وتعدداً في الوحدة . فهي تتألف من متطلبات ، ومسكنات ، وأفعال تذهب وتعود ، وتعد تعبيراً عن الإرادات وعن مدى قوتها . »

« والمجموعة التي تتكون من هذه العلاقات الإيجابية ، يوصفها كائناً أو موضوعاً فاعلاً بطريقة متجانسة في الداخل أو الخارج ، — هذه المجموعة تسمى « تجمعاً association » . »

« والعلاقة نفسها ، ومن ثم التجمع ، يمكن أن تفهم على أنها حياة حقيقية أو عضوية ، وحينئذ يكون هذا هو جوهر فكرة الجماعة Gemeinschaft وإما أن تفهم على أنها تصور بالقوة يتحقق بطريقة آلية ، وحينئذ يكون هذا هو مفهوم « المجتمع » Gesellschaft . »

« واستخدام المصطلحات التي اخترناها سيوضح أن أساسها هو الاستعمال المشابه في اللغة الألمانية . ولكن مما يؤسف له أن الكتابات العلمية ما زالت تستخدمها دون أي تمييز ، بل إنها قد تخلط عن قصد بين مصطلح وآخر . ولذا يتعين إثبات بعض الملاحظات التحديدية التي توضح التعارض بين معنى وآخر :

فكل ما يوحى بالثقفة والألفة والمعيشة المشتركة يدخل في نطاق حياة « الجماعة » ، (أو هكذا نحن

الأساسية للنظرية وينقسم إلى فصلين كبيرين ، يعالج المؤلف في الفصل الأول نظرية الجماعة ، وفي الفصل الثاني « نظرية المجتمع » . أما الكتاب الثاني فموضوعه « الإرادة المفكرة » ، وهو ينقسم إلى ثلاثة فصول : فصل عن « أشكال الإرادة الإنسانية » ، وفصل ثان عن « التعارض بين شكلي الإرادة » ، وفصل ثالث يشرح المعاني التجريبية لهذا التعارض كما يظهر عند الرجل والمرأة . وعند الشباب والشيوخ وهكذا ... وينقسم الكتاب الثالث أيضاً إلى ثلاثة فصول وموضوعه « الأسس السبولوجية للحق الطبيعي » وهو في الفصل الأول يهتم بتحديد بعض المفاهيم كالشخصية والإلزام والتعاقد والتجمع والاتفاق . أما الفصل الثاني فيشرح الصلة بين الطبيعة العضوية والقانون . ويوضح الفصل الثالث كيف تتخذ أشكال الإرادة في المجتمع ، ثم يحدد الصلة بين الكائن الاجتماعي والدولة .

وينتهي المؤلف بملحق يوضح النتائج التطبيقية للبحث ، ومدى ما يمكن التطلع إليه في المستقبل . وسنحاول الآن إعطاء القارئ العربي صورة متكاملة عن هذا الكتاب من خلال النماذج التي اخترناها من أجزاء متفرقة وراعيها فيها أن تكون معبرة أصدق تعبير عن آراء المؤلف وموضحة للدقائق نظريته (١) .

العلاقات بين الإرادات الإنسانية — الجماعة والمجتمع في التعبير اللغوي :

يشرح المؤلف في الفصل الأول الفكرة العامة الموجهة لنظريته ويهتم على الخصوص بتحديد معاني المصطلحات الرئيسية التي ترد خلال سرد تفصيلات هذه النظرية فيقول :

(١) اعتمدنا في هذا المرحل على الترجمة الفرنسية التي نشرت بالمعنوان التالي :

Communauté et Société, trad. de J. Leif, P.U.F., 1944.

وحدة الدم ، والمكان ، والشعور ، والقربية ،
والجوار ، والصدقة :

« تنزع جماعة الدم ، كوحدة للوجود ، إلى تأكيد
كيانها عن طريق وحدة المكان ، وتصل إلى ذلك
بتعبير مباشر في المسكن المشترك . ويؤدي هذا بدوره
إلى وحدة الشعور عن طريق النشاط والتنظيم المشترك
في اتجاه واحد ولهدف واحد . ووحدة المكان يمكن
اعتبارها الكل المتناسق للحياة الحيوانية ، على حين
أن وحدة الشعور والتفكير يمكن اعتبارها الكل
المتناسق للحياة العقلية . وهذه الأخيرة هي إذن -
في علاقتها مع الأولى - أكثر أنواع الوحدة تحقيقاً
لصفة الإنسانية وأعلها درجة .

وكما أن وحدة الدم تفرض ارتباطات تنصل
بالقربية ، فكذلك نجد أن وحدة المكان تفرض
علاقات بالنسبة للتربة والأرض ، ونجد أن وحدة
الشعور تفرض علاقات مشتركة بالأماكن المقدسة ،
وبالألهة المعبودة . وهذه الأنواع الثلاثة من الوحدة
الجماعية يرتبط بعضها ببعض في المكان وفي الزمان ،
ومن ثم ترتبط في نموها وفي كل من ظواهر الخاصة ،
وكذلك بصفة عامة في تأثيرها على الحضارة الإنسانية
وتاريخها .

وكلما كان هناك أناس يرتبطون بعضهم ببعض
عن طريق إرادتهم العضوية ، ويقوم بينهم اتفاق
متبادل يمكن القول بوجود « جماعة » من هذا النوع
أو ذاك . ونستطيع أن ننظر إلى هذه الأنواع المختلفة
من الجماعات ، الواحدة بعد الأخرى ، من خلال
أسمائها الأصلية المفهومة :

١ - القربية . ٢ - الجوار . ٣ - الصدقة .

والقربية لها البيت كمكان يجسم حقيقتها ، وفيه
تكون المعيشة المشتركة تحت سقف واحد ، وفيه
يكون الاستمتاع المشترك بما تملك الأسرة وخاصة

نتصورها) . أما « المجتمع » فيعني ما هو عام ، وهو
الاتصال بالعالم الخارجي . ونحن نجد أنفسنا في
« جماعة » مع ذويتنا منذ الولادة ، ونرتبط معهم
ارتباطاً وثيقاً في السراء والضراء ؛ على حين أننا ندخل
« المجتمع » كما لو كنا ندخل أرضاً غريبة . ونحن
نحذر اليافع ضد « المجتمع السيئ » ، ولكن تعبير
« الجماعة السيئة » يارق الأذن كما لو كان فيه تناقض .
صحيح أن المشرعين يتكلمون عن « المجتمع العائلي » ،
ولكنهم حينئذ لا يقصدون إلا المفهوم الاجتماعي
للعلاقة . ولكن « الجماعة العائلية » ، بتأثيراتها اللانهائية
على الروح الإنسانية ، يشعر بها كل واحد من ينتمون
إلى هذه الجماعة . وعلى هذا النحو يشعر الخطيبان
أثما ، بالزواج ، بلخلان في حياة جماعية كاملة
communio totius vitae . أما إذا قلنا إنهما
بلخلان في « حياة مجتمعية » ، فهذا التعبير ينطوي
على تناقض في حدوده .

وتوجد « وحدة جماعية » ثم عن الاشتراك في
اللغة أو العادات أو العقيدة ؛ ولكن يوجد « مجتمع »
للعمل أو للعلوم . ومجتمعات التجارة لها من وجهة
النظر هذه دلالة خاصة ، وحتى مع وجود الثقة
والترابط بين أعضائها ، فلا نستطيع مع ذلك أن
نسبها « جماعات » التجارة .

ونستطيع بمعنى عام أن نتكلم عن « جماعة »
تضم الإنسانية كلها ، على النحو الذي تدعو إليه
الكنيسة . ولكن « المجتمع » الإنساني يفهم على أنه
مجرد تجاوز بين أفراد مستقلين بعضهم عن بعض .
ومجمل القول إن « الجماعة » مفهوم قديم ، أما
« المجتمع » فهو حديث كوجود وإسم . والجماعة هي
المعيشة المشتركة الحقيقية والدائمة ، أما المجتمع فإنه
فقط عابر وظاهري . وعلى ذلك نستطيع أن نفهم
الجماعة على أنها كائن حي والمجتمع على أنه تكتل
آلي ومصطنع .

الأغلبية المستمدة من مؤن واحدة ، والتي تقسمها الأفراد حول مائدة واحدة . كما أن البيت يمثل وحدة العبادة حيث تقام الشعائر للأسلاف (١) حتى تظل أرواحهم غير المنظورة حامية لأهله وبحيث تكون الرهبة والتقديس المشترك حافظاً أكيداً لحياة عائلية مطمئنة ونشاط مستمر ... وهذه الأسباب فإن الإنسان السوى يكون عادة في أتم حالات السعادة وهناء النفس عندما يكون محاطاً بأفراد عائلته ؛ إذ أنه يحس حينئذ بأنه في بيته .

والجوار هو الصفة العامة للمعيشة المشتركة في القرية حيث يكون تقارب المساكن وتجاور الحدود في الحقل من عوامل الاتصالات العديدة بين الناس وحيث تؤدي عادة الحياة المشتركة والمعرفة الوثيقة المتبادلة إلى ضرورة الاشتراك في العمل وفي التنظيم والإدارة وإلى الابتهاج إلى آلهة واحدة تمنح الخير والبركة وتدفع البلاء . وإذا كان الشرط الجوهرى لروابط الجوار هو الاشتراك في مكان الإقامة ؛ إلا أن هذه الروابط قد تظل قائمة في حالة البعد وإن كانت بدرجة أقل من روابط القرابة . وفي هذه الحالة تبحث عما يفيدها في بعض الذكريات المشتركة أو الاجتماعات بين الحين والحين .

وتتميز الصداقة عن القرابة والجوار بهوية ظروف العمل وطرق التفكير التي تغدو نتيجة لها . فهي تنشأ من تشابه الحرفة أو الفن ولكن هذه الرابطة يجب أن تتوطد وتتدهم عن طريق محاولات من التقارب واللقاء بين حين وآخر ويحدث هذا داخل نطاق مدينة واحدة . وهكذا نرى أن أصحاب الفن الواحد وكذلك من يشتركون في عقيدة واحدة

(١) يشير المؤلف إلى عبادة الأسلاف في المجتمع اليوناني القديم انظر كتاب فوستيل دي كولانج « المدينة القديمة »

يأنس بعضهم إلى بعض لأنهم يرتبطون برباط واحد أو يشتركون في عمل واحد .

وإذا كانت الحياة المشتركة في المدينة يمكن اعتبارها نوعاً من الجوار ، وكذلك الحياة تحت سقف واحد ما دام يشترك فيها غير الأقارب والخدم ، فإن الصداقة الروحية تشكل على العكس نوعاً من الرباط غير المنظور ، نوعاً من الاتحاد الصوفي يحركه ويغذيه شعور حدسي وإرادة خالقة . والعلاقات بين الأشخاص بوصفهم أصدقاء أو رفاق ليست لها بالضرورة الصفة العضوية التي تجعلها تتأثر بشروط داخلية . فهي أقل ما تكون خضوعاً للغريزة ، وشرط العادة أقل ظهوراً فيها مما هو بالنسبة لعلاقات الجوار . فهذه العلاقات (أى علاقات الصداقة) ذات طبيعة عقلية ، ولذلك فهي إذا قورنت بعلاقات الجوار نجد أنها تقوم إما على الصداقة أو على الاختيار الحر .

الحياة المنزلية — الدوائر الثلاثة

تتكون الأسرة المنزلية من ثلاث طبقات أو دوائر تتحرك كلها حول مركز واحد . فالطبقة أو الدائرة الداخلية هي أقدم الثلاثة وهي تتألف من الرجل والزوجة أو الزوجات إذا كن يتمتعن بمركز مماثل بالنسبة لبعضهن البعض . وتأتي بعد ذلك الذرية ، وأفرادها يكونون دائرة واحدة حتى ولو كان بعضهم متزوجاً أما الدائرة الخارجية فتتكون من الخدم والأتباع ؛ وهؤلاء ولو أنهم في الحقيقة نبات خارجي ، إلا أنهم ينتمون إلى الجماعة بقدر ما يندمجون في إرادتها وروحها العامة ، ويقدر ما يشعرون بالارتياح للانتماء إليها والانسحاق في تيارها العام . وهذا الوضع أيضاً ينطبق على النساء اللاتي يأتين إلى أزواجهن من الخارج . وبما أن الأولاد هم ثمرة اتحاد الزوج والزوجة فإنهم يألفون ، بوصفهم ذرية وأتباعاً ، حالة وسطاً بين السلطة والتبعية . وكذلك يمكن القول

إن حالة الخدم قد تشبه حالة الأولاد ، ولكنها تنقلب إلى استرقاق عندما تهان كرامة الإنسان .

وهناك اعتقاد خاطيء راسخ في الأذهان بأن الخدمة مهنية في ذاتها ولذاتها لأنها ضد المساواة الإنسانية . والواقع أن أى إنسان يمكن أن يهبط بنفسه أمام إنسان آخر في ظروف متباينة : إما لأنه جبل على العبودية ، أو بسبب الخوف ، أو بالعادة ، أو التأثير بالخرافة ، أو بدافع الحساب المخرص لتحقيق مصلحة ذاتية . وهذا الخضوع يكون أشد وضوحاً كلما ازدادت وقاحة السيد ووحشية وطمعانه ، أو كلما كان جشعه وحبه للاستغلال يدفعانه لامتياز الأشخاص التابعين له . وعلى حين أنه يتعاقد معهم تعاقداً حراً إلا أنه يسمح لنفسه بظلمهم وإيلاهم . وإذا كان من يعامل معاملة سيئة يرضى بذلك ، فإنه « كماشع الجوخ » (أو الممتلق) ذو طبيعة أقرب إلى طبيعة الرقيق ؛ على حين أن الخادم الذى يتقاسم مع الأسرة أفراحها وآلامها ، ويكنّ لسيد الأسرة احتراماً كاحترام الابن الناضج ، ويتمتع بثقة كرفيق يستشره في أموره الخاصة — هذا الخادم يكون ، على العكس ، إنساناً حراً من الناحية الخلقية ، حتى ولو لم يكن كذلك من الناحية القانونية . وينطوى الوضع القانونى للرقيق على الإجحاف والظلم وذلك لأن القانون يهدف إلى أن يكون ، بل يجب أن يكون معقولا . وهو حين يميز ، على هذا الأساس ، بين « الإنسان » و « الشيء » يتطلب في الواقع الاعتراف بإنسانية الكائن العاقل .

الاقتصاد المنزلى — البيت والمائدة

إن أول شيء يجب الاهتمام به في تنظيم المنزل هو الاقتصاد المنزلى على اعتبار أنه المظهر الذى تبدو فيه الجماعة عاملة ومستمتعة في وحدة متناسقة . والمتعة التى تتكرر دائماً — شبيهة بالتنفس — هى متعة الغذاء . ومن

هنا كان صنع الأغذية وتحضيرها هو أشد الأعمال ضرورة وأكثرها انتظاماً . وتتوزع هذه الأعمال عادة بين الأبناء والأحفاد دون الكبار . وكما أن الغاية والحقل هما المجال الخارجى الطبيعى ، فكذلك يعتبر الموقد (١) وشعلته المتوهجة نواة البيت وجوهره الأساسى إذ أنه المكان الذى يجتمع حوله الرجال والنساء ، والشبان والشيوخ ، السادة والخدم ليستمتعوا سوياً بتناول الوجبة الأساسية ولذلك اتخذ الموقد والمائدة معنى رمزياً : فالموقد يرمز للطاقة الحية للبيت واستمراره في تتابع الأجيال ، والمائدة ترمز لاتحاد أعضاء الأسرة في احتفاظهم وتجديدهم للجسم والروح .

ويمكن القول إن المائدة هى البيت نفسه على اعتبار أن كل فرد في الأسرة يتخذ مكانه منها ويحصل على نصيبه من خيرات الجماعة . وإذا كان الأعضاء يتفرقون ويقسمون أنفسهم ليقوموا بالعمل اللازم فانهم هنا (أى حول المائدة) يعاودون التجمع ليقاسموا فيما بينهم ثمار هذا العمل .

ويتعارض التبادل بمعناه الحقيقى مع طبيعة الأسرة وهو لا يوجد إلا خارج القسمة المشتركة للمتع الأساسية ، ويقدر ما يرغب الأفراد في امتلاك شيء مستقل ؛ وفي هذه الحالة يحققون رغبتهم بتبادل أشياء صنعوها لأنفسهم خارج نطاق النشاط الجماعى ويستطيع البيت ذاته كوحدة — عن طريق رئيسه أو من ينوب عنه — أن يحول الفائض من منتجاته إلى سلع يرى أنها ضرورية عن طريق التبادل . ومثل هذا التبادل لا يمكن تصوره إلا إذا حدث بين أسر تلحل في نطاق جماعة تعتبر نفسها أسرة كبيرة واحدة (كما يحدث في القرية ، وفي المدينة أو بين المدينة والريف في منطقة واحدة) . وحينئذ يتم التبادل في هدوء وسلام

(١) في المجتمع اليونانى القديم كانت الشعلة المقدسة في وسط البيت رمزاً لاستمرار الأسرة ، ولذلك كان يقال « شعلة انطفأت » بمعنى أسرة اندثرت . انظر فوستيل دي كولانج « المدينة القديمة » .

وفق مبادئ يظهر علما للتفكير السليم ، وتبدو كما لو كانت تعبيراً عن قسمة مشتركة شبيهة بالمتعة المشتركة حول المائدة الخافتة . وسوف نلاحظ أن هذه الحركة البسيطة هي الأصل في فكرة التبادل وفي دورة البضائع . ولكن مظاهر هذه الفكرة قد تغدو بعيدة كل البعد عن الأصل وتبدو تشويها لها مما يضطرنا - لكي نفهم التبادل في صورته الحقيقية - إلى تفسيره بالعودة إلى حاجات الأفراد وإراداتهم .

نظرية المجتمع

المجتمع عبارة عن مجموعة من الناس يعيشون بعضهم مع بعض ، ويحتفظون لآزاء بعضهم البعض بعلاقات سلمية (كما هي الحال عند أفراد الجماعة) ، ولكن لا تجمع بينهم أية رابطة عضوية ، بل يظلون دائماً منفصلين عضوياً .

« فبينما يكون الأفراد في الجماعة مرتبطين بالرغم من انفصالهم ، فهم في المجتمع منفصلون بالرغم مما قد يؤدي إلى ارتباطهم . وعلى ذلك فلا يوجد في المجتمع نشاطات تصدر عن وحدة قبلية *a priori* وبصورة ضرورية بل يعمل كل واحد من أجل نفسه ، ويصدر سلوكه عن حالة من التوتر والتحفز بإزاء الآخرين . ومثل هذا السلوك السلبي الطبيعي في المجتمع ، فلا يقبل أى شخص أن يقوم بخدمة للآخر ، أو يعطى أى شيء للآخر ، إلا إذا كان ذلك نظير خدمة مقابلة ، أو عطاء يكون على الأقل مساوياً لعطائه . وقد يكون من الضروري أحياناً أن تكون الخدمة أو العطاء الذى يحصل عليه أكثر فائدة ، في نظره ، من ذلك الذى يقدمه ، وذلك لأن الأمل في الحصول على شيء أحسن هو وحده الذى يدفعه إلى عمل الخير .

والمجتمع المسمى هو في الحقيقة مجتمع تبادل Société d'échange بهم الاقتصاد السياسي بمعرفة

طبيعته وتصرفاته ، والأفراد فيه يمكن وصفهم ، حسب تعبير آدم سميث بأن « كل منهم تاجر » . وإمكان العلاقة الاجتماعية لا يفترض شيئاً آخر غير عدد من الأشخاص المحردين ، يكونون قادرين على الإنتاج وبالتالي على بذل الوعود .

والمجتمع من حيث أنه تجمع لعدد من الناس يجب أن يسود بينهم نظام اتفاق من القواعد ، يكون ، بحسب هذا التعريف ، غير محدد بحدود ، إذ أنه يستطيع أن يتخطى باستمرار حدوده الحقيقية . أو المحتملة .

وبما أن كل شخص في المجتمع يبحث عن منفعة الخاصة ، ولا يتفق مع الآخرين إلا بالقدر وفي المدة التي يسعون فيها معاً لتحقيق مصلحة واحدة ، فإن علاقة كل شخص بالآخر قبل الاتفاق وخارجه ، وكذلك قبل وخارج أى تعاقد خاص - هذه العلاقة يمكن تصورها على أنها علاقة عداوة بالقوة ، أو حرب كامنة ، وذلك بغض النظر عن اتفاقات الإرادة التي قد تكون بمثابة معاهدات للصالح . فالمشتركون والباثعون ، في وجوه نشاطهم المختلفة ، يقف كل منهم لآزاء الآخر كما لو كان يرغب ويحاول أن يعطى أقل مما يمكن من ماله الخاص ، ويحصل على أكثر مما يمكن من مال الغير . كما أن التجار الحقيقيين يجرى كل منهم في حلبة السباق . ويحاول أن يتخطى صاحبه ليكون ترتيبه الأول - إذا أمكن - في الوصول إلى الهدف . ومعنى ذلك أن كلا منهم يحاول أن يدفع الآخر بمنكبه حتى يكبو ، وبذلك تكون خسارة الواحد هي في الوقت نفسه مكسباً . للآخر . وهذه هي « المنافسة العامة » التي تحدث في شتى الميادين ، ولكنها أشد ما تكون وضوحاً في ميدان التجارة . وقد وصفها بعضهم للتدليل على ما أطلقوا عليه « حرب الجميع ضد الجميع » ، واعتبروا

هذه الحالة ، هي الحالة الطبيعية العامة التي فُطر عليها الجنس البشري (١) .

غير أن هذه المنافسة ، تحمل في طياتها ككل أشكال الحرب إمكان نهايتها . إذ يقرر الأعداء ولو بتجشم المصاعب أحياناً ، أن بعض المواقف تقتضى منهم الاتفاق لأن ذلك تحقق مصلحة الجميع ، وبذلك يتغاضى كل منهم لصاحبه عن بعض الأمور بل قد يتحدون لتحقيق هدف مشترك (وفي الغالب يكون هذا الاتحاد ضد علو مشترك) ، وعلى هذا النحو تخف وطأة المنافسة وتتحول إلى تحالف coalition .

« هذه العلاقات التي تقوم على تبادل القيم المادية تحدث ما يناظرها في كل اتفاق اجتماعي يقوم على الكياسة ومراعاة الغير . فتبادل كلمات الثناء وعرض الخدمات التي يبدو فيها أن كل شخص يقدر موقف الآخرين ويضع نفسه في موضعهم مثل هذا الموقف في الحقيقة يخفى وراءه تفكير كل شخص في نفسه ، واهتمامه ، على العكس ، بانتصار وجهة نظره وتحقيق مصالحه الذاتية . ولذلك نرى أن كل واحد ينتظر بل يطلب من الآخر قدراً معادلاً على الأقل لما قدمه إليه من صنوف التودد والجمالة ونراه تبعاً لذلك يزن خدماته بدقة وكذلك تملكه وهداياه الخ... على أساس أن هذه الأشياء ستحدد الغايات المطلوبة .

ولكن القول عمومياً إن شروط الحياة الاجتماعية أساسها المقارنة بين خدمات ممكنة أو مقترحة وأن العلاقات بين الأشخاص تتصل بموضوعات حسية أو مادية . أما النشاط المنزه عن الغرض والكلمات الطبية

(١) يشير توينز هنا إلى نظرية هوبز التي أعلنها في كتابه « التنين » Leviathan وذكر فيها أن حالة الطبيعة ، أي قبل نشأة المجتمع ، هي حالة « حرب الجميع ضد الجميع » Bellum omnium contra omnes . ومن الواضح أن توينز يارض هوبز ، إذ يرى ، على العكس أن حالة الحرب أو على الأصح المنافسة لم تظهر إلا بعد ظهور المجتمع .

التي تحمل معناها الحقيقي فجاءها هو الجماعة التي يجمع بينها رباط الدم .

التعارض بين الجنسين

يربط « توينز » التعارض بين الرجل والمرأة بالفرقة الأساسية التي أقامها بين الإرادة العضوية (أو العاطفية) والإرادة الواعية (أو العقلية) . وقد شرح تفاصيل هذا التعارض في القسم الثالث من الكتاب الثاني الذي خصصه لما سماه « المعاني التجريبية لنظريته » .

وهو يقول : « من الحقائق الشائعة والمهمة في الوقت نفسه أن النساء يتحركن في غالب الأحوال مدفوعات بعاطفتين وأن الرجال يخضعون لما عليه عليهم العقل وأنهم أكثر ذكاءً من النساء فهم وحدهم قادرون على العمليات الحسابية المعقدة وعلى التفكير المجرد وربط الأفكار بعضها ببعض في إحكام وفقاً لقواعد المنطق . والقاعدة العامة هي أن النساء قلما يسلكن هذا المسلك . ومعنى ذلك أنه ينقصهن التعبير الجوهري عن الإرادة الواعية » .

على أنه ليس بصحيح أن الرجال يلجأون إلى الإرادة الواعية وحدها عندما يقومون بنوع من النشاط الخاص وأنهم يتخلون موقفاً محايداً إزاء الطبيعة وسيطرون سيطرة تامة عليها . بل كل مافي الأمر أن نشاطهم يتطلب استخدام العقل الواعي أو المفكر ، وأن هذا الاستخدام ينمى هذه الملكة لديهم .

وتفسير ذلك أن الأنثى لا عند البشر فحسب بل وكذلك عند الحيوانات الثديية تكرر منظم وقتها لرعاية صغارها ، أما الذكر فعليه - يقع عبء توفير الغذاء والدفاع ضد العدو المهاجم . ووظيفة الهجوم والاعتصاب - ويلتخل في ذلك اعتصاب الأنثى ذاتها - تستلحق منه أن يكون حليماً يحسن

المراقبة والتدرب أكثر حواسه نشاطاً وهي السمع والبصر حتى تصبح من الخلة والإرهاق بحيث تدرك الأشياء البعيدة . ويؤدي ذلك بطبيعة الحال إلى نمو ملكة التنبؤ وإعداد العدة لكل احتمال . وذلك لأن الرجل هو الموجه لكل نشاط يتصل بمواجهة الطبيعة الخارجية . وهذا أمر طبيعي طالما أنه الأقوى والأكثر استعداداً للصراع وكذلك الأكثر تحركاً والأخف حركة ومقارنتها بالرجل في هذا المجال ، تعتبر المرأة أكثر استكانة وأشد ميلاً للخمول .

وظيفة الرجل كفائد تستلزم منه كذلك أن يعتاد إصدار الحكم بسرعة ، وأن يقرر في حزم ما يجب عمله ، في ظرف ما ، باعتبار أنه التصرف المناسب . فلا يكاد يشعر بخطر قادم حتى يأخذ لكل احتمال عدته ، ويتخذ من علاقات الخطر دعائم لتقليب الأمر على جميع وجوهه ، ومن خبرته السابقة بالأخطار المشابهة أساساً لرسم خطط العمل .

ونبرز عند الرجل عموماً ملكة المقارنة . وتتفرع عنها صفات شكلية خاصة : كالقياس ، والوزن ، والحساب بجميع أنواعه وهذه جميعاً تتلخص في تمييز الكميات وعلاقاتها بعضها ببعض .

كما أن أنواع النشاط التي يقوم بها الرجل تستلزم نمو فكرة « العلية » ؛ فعلى أساس هذه الفكرة يقوم كل نشاط علمي .

ولكن إذا كان الذكاء يُعزى بحسب الأفضلية إلى الرجل فهو لا يساوي على كل حال القوة الذهنية في عمومها . ويقدر ما تكون هذه القوة خلاقة وتركيبية فإن عقل المرأة هو الذي يبرزها في أجلى معانيها . وتفسير ذلك أنه ، مثلما يتميز تكوين الرجل بسيطرة « الجهاز العضلي » يتميز تكوين الأنثى بسيطرة « الجهاز العصبي » . فنياً يتصل بنشاطها السلي المتواصل تتحرك المرأة في دائرة ضيقة وهي

عموماً أكثر استقبالا وأكثر إحساساً بالإنطباعات التي تفرض نفسها عليها من الخارج . وتفضل الاستمتاع بالمتعة القريبة ، الحاضرة ، المنتظمة عن البحث لبلوغ متعة بعيدة ، مستقبلية ، ونادرة .

وتتحرك إرادة المرأة بدافع الانفعال بازاء التغيرات الملائمة أو المنفرة ؛ وبالتالي فإن الإحساس لديها هو واسطة التعبير عن مشاعرها الإيجابية أو السلبية وهذا الإحساس يتكون ويزداد إرهافاً بحيث تكن فيه المقدرة على التمييز بين الخير والشر ، والجميل والقبيح ، وهذا التمييز قد لا ينطبق تمام المطابقة مع معرفة الأشياء والظواهر ، وهي المعرفة الموضوعية . فهذه المعرفة نحصل عليها (بوصفها إدراكاً حسيّاً) عن طريق نشاط العين الفاحصة ، ثم الأذن مع الاستعانة باللمس . أما الإحساس الانفعالي فيعتمد أولاً على حواس الشم والذوق ولا يحتاج إلا للملاحظة عابرة ، وهو ما نجده عند المرأة . ويظهر في جميع التعبيرات المحملة بالمشاعر ، وفي تغيرات المزاج ، وفي الأفكار التي يرحى بها الضمير لا العقل .

ومن طبيعة هذا النشاط الذي يقوم على الإرادة العاطفية أنه يتسم بالصراحة والإخلاص والسذاجة ، وهي الصفات المباشرة والانفعالية عند المرأة . وكذلك عند جميع الرجال الطبيعيين^(١) في كل الظروف . وإلى هذه الصفات يرجع إنتاج العقل والإبداع الذي يصبح بواسطة رقة الشعور وحسن الاختيار والتذوق إنتاجاً فنياً ، حتى ولو كان هذا الإنتاج يحتاج - لكي يخلق أعمالاً عظيمة - إلى القوة العضلية والذكاء ، أو إلى دوافع أنانية تحرك وترفع حافز العمل عند الرجل .

(١) يقصد « توفيز » بكلمة « الطبيعيين » الرجال قبل أن

تغيرهم حياة المجتمع السياسي .

وتؤدى هذه الكلمة إلى رأى غريب عن العبقري
يسرد « تونيز » تفاصيله بقوله : « يبدو لنا على هذا
النحو أن نواة العبقري ، وأن أحسن ما للرجل يرجع
إلى ما ورثه عن طريق الأم . ولذلك فإن الرجل
العبقري يظل في كثير من صفاته ، ذا طبيعة أنثوية ،
فهو ساذج مخلص وديع ، لماح سريع تقلب المزاج ،
هادئ أو ميال إلى الكآبة . وهو بعد ذلك حالم ، شارد
الذهن ، يعيش كما لو كان تحت تأثير نشوة دائمة
يعطى من ذاته للناس بإيمان وثقة .

ونتيجة لكل هذا قد يبدو مثل هذا الإنسان
المتحمس - في نظر الناس العاديين الذين يدبرون
أمورهم بعقل بارد - مقهوراً أو مخبولاً ، بل أبلها
أو سخيلاً ، أو كرجل ثمل بين رجال واعين . وسلوك
المرأة عندما تكون أحكامها حرة غير مقيدة بقبود ،
لا يختلف كثيراً عما ذكرنا ، ولذلك فالرجال العاديون
لا يفهمونها وتبدو في نظرهم سخيفة .

وفي الحقيقة تظهر عند الرجل العبقري في قوة
وعظمة ، الصفات التي قد تظهر في شكل ما عند
الكائنات المزودة بالقدرة على الكلام . وهو أكثر
الغاذج اقتراباً من نموذج الرجل الكامل الذي نريد
أن نصوره كشال أعلى . وذلك لأن القوة العضلية
والشجاعة تتفاضل بها الحيوانات فيما بينها ، أما الطاقة
الذهنية أو العبقري فيختص بها النوع البشرى ، حتى
ولو على سبيل الإمكان لا التحقيق . فالإنسان العبقري
هو الإنسان الفنان ، هو الشكل التام (أو الزهرة)
للإنسان الطبيعي (البسيط والحق) .

وإذا سلكت المرأة وسلك الرجل كل حسب
تكوينه : الأولى ككائن طبيعي ، والثاني ككائن
مصطنع ، فإن الرجل الذي تسود عنده الإرادة
العضوية يكون ، مع ذلك ، ما زال مصطنعاً بالروح
الأنثوية ، وهو يتخلص من هذه الروح عن طريق

الإرادة الواعية ، والمفكرة ، وحينئذ فقط يبدو في صورة
الرجولة الخالصة . وقد يميل الشعراء والمفكرون إلى
امتداح المجهول في المرأة ، والعمق الخفي في كيانها
ومشاعرها ، والصفاء في روحها . وهذا الميل يدل
على أننا نحتاج ، في بعض الأوقات لأن نتذكر كل
ما فقدناه عندما أصبحنا نفكر ببرود ، أي عندما
أصبحنا نعمل في ضوء العقل وحده .

ومع ذلك فالطبيعة لا تدمر نفسها ، إلا لتنمى
بطريقة جديدة عناصر طاقتها . إذ أن الإنسان يعود
إلى لذة التأمل والمحبة اللذين قضى عليهما التدبير
والتطلع ، عن طريق أقصى المعارف وأسائها ،
وذلك حين تصبح المعرفة فلسفة .

تلخيص

وفي ختام هذا البحث نورد ملخصاً للأفكار
الأساسية التي جاءت في كتاب « الجماعة والمجتمع » ،
وقد أثبت هذا التلخيص المؤلف نفسه في بعض فصول
الكتاب :

الفروق بين المرأة والرجل	
المزاج	
عند المرأة	عند الرجل
يتميز باللون العاطفي	يتميز بالنشاط المفروض
الصفة المميزة	
عند المرأة	عند الرجل
سيطرة الشهوة	سيطرة العقل
التفكير	
عند المرأة	عند الرجل
يعتمد على الحدس	يعتمد على المعرفة الموضوعية
الفروق بين الجماعة والمجتمع	
الجماعة	
الإرادة العضوية	الإرادة الواعية
الأنثا (أو الذات)	الشخصية
التملك (أو الاستحواذ)	الملكية التعاقدية
الاعتماد على الأرض أو التربة	الاعتماد على المال
سيادة القانون العائلي	سيادة قانون الائتزام

صورة سيّدة هنرى جيمس

بمستلم

الدكتورة انجيل بطرس سمعان

رفيع وقديسية عمل الفنان الجاد^(١) ، وكرس حياته لتطبيق ما نادى به من مبادئ وآراء في أعماله المبدعة الكثيرة ، فقد سعى جيمس لتوسيع إمكانيات هذا الفن مستخدماً في سبيل ذلك جميع الوسائل والأساليب الفنية الممكنة ، مستعيراً من بعض الفنون الأخرى كالتصوير والمسرح كل ما من شأنه أن يجعل الرواية أعظم تأثيراً وأكثر قدرة على تصوير الحياة ، ولذا اهتم بتأكيد أهمية الشكل والبناء الفني للرواية .

كان جيمس بالرغم من دقته المتناهية واهتمامه الشديد بالإجادة والارتقاء بعمله إلى أعلى مراتب الكمال ، كاتباً خصباً غريز الإنتاج . امتدت حياته الأدبية إلى ما يقرب من الخمسين عاماً كتب فيها تسع عشرة رواية وتسعاً وستين قصة قصيرة وثلاثة أجزاء من السيرة الذاتية إلى جانب ست مسرحيات وعدد كبير من كتب

يعد هنرى جيمس من أعظم الروائيين في العصر الحديث ومن أهم الأسماء في تاريخ الرواية الإنجليزية بوجه خاص ، فبالرغم مما لاقاه في حياته من فتور وما لاقته أعماله من كساد ، كان يعزى في كثير من الأحوال لصعوبتها وتعذر فهمها على القارئ العام ، إلا أنه يشغل الآن مكانة أدبية ممتازة ، وتحظى أعماله باهتمام كبير في الأوساط الأدبية في إنجلترا والولايات المتحدة على حد سواء . وترتكز مكانته الأدبية على سجل حافل من الأعمال الروائية والنقدية . إذ لم يكن جيمس روائياً مبدعاً من الطراز الأول فحسب ، بل كان أيضاً ناقداً هاماً في مجال نقد الرواية ، فكان أول من يمكن أن يقال عنه إنه أقام النقد الروائي على نظام موضوعي . كما أضاف إلى هذا الميدان ثروة كبيرة من الكتابات النقدية والألفاظ والعبارات النقدية التي كان يفتقر إليها .

وهنرى جيمس فنان أصيل واع بقيمة فنه وقلميته ، أهم أكثر ممن سبقه من الروائيين الجادين من أمثال جين أوستن وجورج إليوت بتأكيد فكرة الرواية كفن

(١) انظر مقاله « الفن القصصي » في :

“The Art of Fiction” (New York, 1948),

pp. 3-23.

أو

“Views on the Art of the Novel”, compiled by Angele Botros Samaan (Cairo, 1965), pp. 115-144.

الرحلات والتراجم والدراسات النقدية والمقالات المتفرقة التي جمع منها للآن ستة أجزاء إلى جانب ما طبع من مذكراته . كذلك راسل جيمس عدداً من كبار كتاب عصره وطبعت من رسائله الخاصة والأدبية عدة أجزاء (١) .

وقد امتازت أعمال جيمس بطابع خاص نتيجة لميوله الأدبية الشخصية وظروف نشأته وثقافته من ناحية ولطبيعة مرحلة التطور التي كانت تمر بها الرواية الإنجليزية من ناحية أخرى . فقد جمع جيمس بين ثقافتين عالميتين : الثقافة الأمريكية الحديثة والثقافة الأوروبية العريقة ، كما كتب في فترة تعرضت الرواية الإنجليزية فيها لبعض المؤثرات الأوروبية بحيث جاءت أعماله وليدة تأثره بالتراث الروائي الإنجليزي من ناحية وبعض المؤثرات الخارجية الأوروبية من ناحية أخرى . فلكونه أمريكياً عاش في أوروبا رأى لزماً عليه أن يعالج « موضوعاً عالمياً » وأن يهتم بعلاقة الأمريكي بأوروبا وأثر أوروبا على الأمريكيين . أما تأثره ببعض الاتجاهات في مجال الرواية الأوروبية فلعل أهم مظاهره اهتمامه بالشكل الفني للرواية واحترامه الشديد لبعض الروائيين الأوروبيين من الفرنسيين والروس مثل بلزاك وفلوبير وترجنييف .

نشأته وبدء حياته الأدبية

ولد هنري جيمس في مدينة نيويورك عام ١٨٤٣ وقضى صباه متنقلاً بين الولايات المتحدة وأوروبا ثم عاد إلى أوروبا شاباً يافعاً متفتحاً للحضارة الأوروبية متنقلاً بين مسارحها في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا ، وأخيراً استقر به المقام في إنجلترا وإن لم يتخذ الجنسية البريطانية إلا في عام ١٩١٥ أي قبل موته بسنة واحدة .

نشأ هنري جيمس في أسرة ثرية مثقفة ، فقد ورث أبوه ثروة كبيرة عن والده الإيرلندي الأصل الذي هاجر إلى أمريكا وكون ثروة ارتكز عليها رخاء الأسرة فيها بعد . وقد كانت هذه الثروة أداة لتثقيف الأبناء دون التقيد بالإعداد لمهنة معينة . فقد كان الأب رجلاً مثقفاً بل فيلسوفاً يرى في التقيد بمهنة معينة « تضييقاً » للأفق ، كما حدث عندما أبدى ابنه الأكبر وليم ميلا للفن ورغبة في دراسته ، ولكنه كان يؤمن بهيئة الفرصة لأبنائه للحصول على أكبر قدر من الثقافة . ولعل هذا الميل من جانب الأب نحو عدم التحديد بالرغم من عطفه ورقته المتناهية نحو أبنائه يفسر تصميم هنري فيما بعد على كسب عيشه عن طريق الكتابة منذ سن مبكرة بل وتنازله عن نصيبه في ثروة أبيه لأخته .

ومن حسن حظ الدارس لحياة جيمس وأعماله أن ترك لنا هذا الأديب سلسلة من السير الذاتية كتبها في أواخر أيامه ، تعد سجلاً حافلاً لحياة جيمس المبكرة إلى بداية فترة اشتغاله بالأدب هي : « صبي صغير وآخرون » (١٩١٣) ، « مذكرات ابن وأخ » (١٩١٤) و « السنوات الوسطى » التي لم يتمها جيمس ونشرت بعد وفاته (١٩١٧) .

ويبدو واضحاً في هذه الأعمال احترام هنري لأبيه وتقديره له . أما الأم فقد كانت مصدر حب وحنان وإحساس بالجمال وشعور بالأمن لجميع أفراد الأسرة التي بلغ عدد أبنائها خمسة أكبرهم وليم جيمس الفيلسوف المعروف ، يليه هنري الذي يصغره بثمانية عشر شهراً ثم يتبعه ابنان آخران وابنة تدعى أليس .

وقد شغل الأب بتعليم أبنائه ، وتردد طويلاً بين أوروبا وأمريكا ومزايا كل منهما ، فقد رأى أول الأمر أن يتلقى الأبناء تعليمهم في وطنهم ولكنه عاد فقرر إرسالهم إلى أوروبا عام ١٨٥٥ . فقد كان يريد لأبنائه أن يفيلسوا أكبر إفادة من تلك الثقافة الأوروبية العريقة التي تفتقدها أمريكا ولكنه عاد فاستدعاهم للوطن ليعود

(١) انظر لزيادة التفصيل انثيث البيليوغرافي الملحق بكتاب : F.W. Dupee, "The Question of Henry James" (New York, 1945).

فبرسلهم مرة أخرى لـسويسرا عام ١٨٥٨ حيث بقوا إلى عام ١٨٦٠ عندما عادوا إلى أمريكا حيث استقر بهم المقام في نيويورك أولاً ثم في بوسطن . وهكذا قضى هنرى طفولته متنقلاً بين أوروبا وأمريكا وتلقى تعليمه في مدارس نيويورك وجنيف وباريس وبولونيا على أيدى مدرسين من مختلف الجنسيات . وبالرغم من أن هذا التغيير المستمر قد أقلق هنرى إلا أنه قد استفاد كثيراً دون شك . لم يبرز هنرى في دراسته إذ لم يكن يستطيع معالجة أصغر مسألة ميكانيكية أو هندسية ، ولكنه قرأ كثيراً واكتسب كثيراً من التجارب ،

ومن بادئ الأمر نرى صغر كلمة أوروبا يلهب خيال الصبي الصغير الذى راح يحلم بتلك البلاد إلى أن أصبح الخيال حقيقة عندما أرسله والده إلى سويسرا . وهكذا يظل هنرى الشاب مشدوداً إلى أوروبا مبهوراً بثقافتها وكنوزها الفنية ، يعبر عن ذلك كله عندما يعود إليها ليزور إيطاليا لأول مرة كشاب مستقل لا كطفل يذهب إلى المدرسة كما سنرى .

أما السنوات التى سبقت بدء حياته الأدبية مباشرة فكانت بداية فترة قلق واضطراب لا نعرف عنها الكثير ، فقد بدأت الحرب الأهلية في ربيع ١٨٦١ وأصيب هنرى في أواخر هذا العام إصابة في ظهره منعتة من الاشتراك في الحرب ، فأثر ذلك في حالته النفسية ، ومما زاد الحالة سوءاً أن إصابته لم يمكن تشخيصها على وجه التحديد مما أدى إلى إهمال علاجها ، فقام من جرائها كثيراً من الألم والمرارة .

بدأ نشاط هنرى جيمس الأدبي عام ١٨٦٤ ونشر بين هذا التاريخ وعام ١٨٦٨ اثنتى عشرة قصة قصيرة وحوالى خمسين عرضاً للكتب ، وتعرف ببعض كتاب عصره ممن اتصل بهم بشأن نشر كتاباته مثل لويل ونورتون وبدأ صداقة وثيقة مع و . د . هاولز . ولعل أهم ما يلفت النظر بشأن هذه الفترة ليس نوع كتابته أو درجة جودتها بالرغم من أنها كانت تحوى الكثير من

دلائل القدرة على الكتابة ، بل استمراره في الكتابة وتصميم جيمس على اتخاذ الكتابة مهنة يكسب منها عيشه ، ولعل هذا يعوض ما يشعر به القارئ من أن جيمس لم يكن لديه شيء ذو بال يقوله ، إذ يبدو الكثير من قصصه حول شبان مهزومين حائرين .

لم تدم هذه الفترة طويلاً على أية حال ، ففي عام ١٨٦٩ قام جيمس بزيارة لأوروبا كان لها أكبر الأثر في نفسه وأصبح هذا التاريخ نقطة تحول في حياته وكان هذه التجربة قد فككت عقال نبوغه فأصبح لديه من ذلك الوقت ثروة كبيرة من المادة الهامة للكتابة .

وجدير بنا قبل أن نعالج هذه الفترة الغنية بمصادر الإلهام أن نوضح أن صداقات جيمس أثناء سنوات الحرب الأهلية الصعبة وما بعدها قد تركت في نفسه أثراً لا تمحى وحببت إليه إلى الأبد بعض نواحي الحياة الأمريكية : فنجد مثلاً في « صبي صغير وآخرون » ذكريات سارة عن صفات الشباب الأمريكى الذين عرفهم عن قرب من عدم تكلف وبساطة وإخلاص وحسن نية وروح اجتماعية . وهو يقارنهم بمن عرفهم من شباب بعض الجهات الأخرى التى زارها بصفاتهم المضادة لهذه الصفات الطبيعية غير المتكلفة ، إذ يبدو هؤلاء أكثر تدريباً واستعداداً ونأهياً وتسلحاً لمواجهة الحياة الاجتماعية من الشباب الأمريكى . ولعل أحب شخصيات هذه الدائرة التى عرفها جيمس لنفسه كانت قريبته ميني تمبل التى قضت في شبابه بداء الصدر ولم تبلغ من العمر أكثر من أربعة وعشرين ربيعاً ، والتى تلوح في كتابات جيمس كرمز وضاء لجميع صفات الفتاة الأمريكية الكاملة والتى أوحى لجيمس باثنتين على الأقل من خبرة بطلاته هما إيزابيل آرثرشربطة « صورة سيدة » موضوع هذا المقال وميللى ثيل بطة « جناحى الحمامة » . وعنها يكتب جيمس :

« لقد كانت طبيعية للدرجة تبلغ حد الكمال . . . كانت طبيعية في عدد من النقط وبخصوص عدد من

الأشياء وعملى أكثر اتساعاً من الحرية والبهامة وامتداد الأفق بدرجة تفوق بكثير ما يمكن أن تعلم به الأخريات من بنات الخوالة والعمومة» (١).

لقد كانت «تمثل صورة وقوام ما يشعر به المرء في الحياة من اهتمام ، اهتمام يمتد بعيداً بلطف أو يثبت بألفة وجمال ، كما قد يحدد ذلك رقة إحساسها الرائع المتغير ، إحساسها الخلقى ، الشخصى ، أو العصبى» . لقد كان جوهر حياتها أن تنغمس بنشاط في الحياة «لقد طالبت بها الحياة واستخدمتها وأزعجتها ، وجعلتها تنقل في محسوس طريقها ، طريقها الغض وغير المضي من بداية السلم إلى نهايته» (٢). لقد كان موت ميني تمهل بعد فضال حنيف للتغلب على المرض نهاية مرحلة في حياة هنرى وأخيه ولیم . لقد كانت «نهاية شبابهما» .

أما المصدر الآخر لإلهام جيمس فهو أمريكيتته . وهنا نجد جانباً هاماً من جزائب إعداده . فقد نشأ جيمس في بيئة أمريكية ثم انتقل إلى بيئة أوروبية ولذا أحس بأن لديه القدرة على رؤية هذه البيئة والكتابة عنها من وجهة نظر جديدة ، فهو ككاتب أمريكي يتمتع بامتيازات وفرص لا تتوفر لسواه ، كما يكتب لأحد أصدقائه :

«إننا أمريكيون مولدًا ، وعلينا أن نقوم بدورنا كذلك . إنى أعتبر ذلك عطية عظيمة من السماء . وأعتقد أن كون المرء أمريكياً بعده إعداداً عظيماً للثقافة . إننا كشعب نملك صفات جميلة ويبدو لى أننا نفوق الأجناس الأوروبية في أنه يمكننا أكثر من كل منها أن نعالج بحرية أشكالا من الحضارة غير حضارتنا ويمكننا أن نختار وأن نمتص جمالياً ، بل وأن نجد ما نعتبره ملكاً

(١) «سيرة هنرى جيمس

"Henry James Autobiography", ed. F.W. Dupee (1956), p. 283.

هذا الكتاب يحوى كتب السير الذاتية المشار إليها أعلاه .

(٢) المرجع السابق ص ٥٠٩ .

لنا في أى مكان . . . لا بد أن يكون لنا بالطبع شيء خاص بنا - شيء مميز ومماثل - وأعتقد أننا سنجد هذا الشيء في وعينا الخلقى وفي قوتنا وخفتنا الروحية التى لم يسبق لها مثيل» (١).

ويمكن ربط مثل هذا القول بما سبق الإشارة إليه من صفات الشاب الأمريكى التى تمثله ميني تمهل ، ومما يمكن أن يطلق عليه فكرة «الأمريكية» . فقد أدرك جيمس فيما بعد أن لعلاقة الأمريكى بأوروبا وجوهاً مختلفة عبر عنها بقوله «إن كون المرء أمريكياً مصير مفعم بالتركيب والتعقيد» . ويمكن اعتبار رواياته وقصصه عمليات استكشاف للطرق العديدة المختلفة التى يمكن أن يظهر بها هذا التعقيد ، كما يقول د. هـ. جيفرسون في دراسته لجيمس .

أما زيارته لأوروبا عام ١٨٦٩ فقد حماته إلى إنجلترا ومنها عبر فرنسا وسويسرا إلى إيطاليا بكنوزها الفنية وآثارها ومدنها القديمة وجوها الثقافية الخاص . وقد كان لروما أثر خاص في نفسه كما كتب بغير أخاه ولیم عن هذه التجربة وما كان لها من أثر «لا يمكن التعبير عنه بالكلام ولا يمكن مقارنته بأى شيء آخر» :

«أخيراً - وللمرة الأولى - أحيا ! [إن روما] نفوق كل شيء . . . إنها لا تشبه في شيء روما التى تتخللها - التى قرأت عنها - لقد رحلت أعمايل وأثن وسط الطرقات - في حمى من المتعة . وجدت في ظرف أربع أو خمس ساعات بجميع أنحاء روما ورأيت كل شيء رؤية خاطفة - الفورام والكوليزيوم (الذى يفوق في عظمته كل شيء) ، البانثيون والكابيتول وكنيسة القديس بطرس وعمد تراجان وقصر سانت أنجيلو - وكل الميادين والأضلاع والآثار . إن الأثر الذى

"Selected Letters of Henry (١) James," ed. Leon Edel, 1956, pp. 51-52.

ص ٥١ - ٥٢ .

يتركه ذلك شيء لا يمكن وصفه (١).

ولم تكن روما المكان الوحيد الذي ترك في نفسه أثراً قوياً فقد كتب خطابات أخرى تصف تأثره بإنجلترا وبالإنجليز وبمن قابلهم من مواطنين في الخارج . فقد كان جيمس يتمتع بقوة خارقة للاستجابة للأماكن المختلفة وأنواع السلوك المختلفة المرتبطة بها .

كانت زيارته هذه أصلاً للعلاج ولذا عاد إلى أمريكا في نهايتها بعد أن قضى أربعة عشر شهراً في أوروبا ، ولكنه عاد فقام بزيارتين أخريين بعد أن تحسنت صحته وفي عام ١٨٧٥ قرر أن يقيم في باريس وتعرف أثناء إقامته بالحياة الأدبية الفرنسية عن قرب ، وخاصة ببعض كبار الكتاب مثل فلوير وترجنييف ، ولكنه ما لبث أن قرر ترك فرنسا والاستقرار في إنجلترا في عام ١٨٧٦ . وفي إنجلترا قابل بعض الشخصيات الهامة مثل جورج إليوت ولورد تينيسون وشارك في الحياة الاجتماعية الإنجليزية مشاركة خفيفة أول الأمر إلا أنه جمع مادة غزيرة نتيجة لما حققه من صلات اجتماعية كثيرة فيما بعد .

ولعل أهم ما نجنه من تأملنا لسيرة جيمس الشخصية هو تلك الصورة القيمة لزوغ الفنان المبدع ونموه وتطوره ، وذلك السجل الدقيق لما كان يشغله في مستقبل حياته الأدبية من موضوعات هامة .

أعماله الأدبية وتطور أسلوبه الفني

أما أهم نتائج زيارته الأولى لأوروبا فكان مجموعة من القصص التي ترجع أهميتها إلى وصف الأماكن التي زارها مثل « السائح الشغوف » (١٨٧١) و « سيده المستقبل » (١٨٧٣) ، إلى جانب سلسلة من كتب الرحلات بدأت في الظهور عام ١٨٧٢ .

(١) "The Letters of Henry James," ed. Percy Lubbock (1920), Vol. I, pp. 24-5.

ويمتاز إنتاج جيمس في السبعينات بغزارته وثنوعه فقد بلغ عدد ما نشره في الدوريات في عام ١٨٧٥ نحو سبعين عملاً . فبالإضافة إلى القصص القصيرة وعروض الكتب كان هناك الكثير من أدب الرحلات والنقد الأدبي والمسرحي . وظهرت قدرة جيمس الطبيعية على الوصف البليغ اللامع . وتعكس قصص هذه الفترة ورواياتها قدرة كبيرة على تصوير علاقة الأنماط الأمريكية بجوانب هامة لأوروبا والأوربيين . كما تمتاز بثروة في المادة التسجيلية نتيجة لما تمتع به جيمس من قوة ملاحظة وذكاء فطريين .

وهنا نواجه نقطة طال الجدل حولها وهي إلى أي حد كان جيمس مهتماً بتقديم ما يوصف « بالموضوع العالمي » وإلى أي حد كان مهتماً أصلاً بتقديم أنماط أمريكية ، وفي هذا الصدد يقول جيفرسون : « من السهل أن نخطئ باعتبارنا المواقف العالمية في رواياته ذات أهمية هامشية أو جانبية لأنها تنصب فقط بالطبع على أولئك الأشخاص غير العاديين الذين يتزوجون من أجانب أو الذين يصنعون لأنفسهم حياة مصطنعة مختلطة بالحياة في الخارج أو أولئك الذين تدل حريتهم في السفر على عدم ارتباطهم بمجتمعهم . غير أنه يمكن الرد على ذلك بالقول بأن وضع الأمريكيين والأوربيين جنباً إلى جنب ومقارنتهم كان وسيلة مؤثرة جداً أولاً لاكتشاف الأنماط الأمريكية ثم لتقديم هذه الأنماط تقدماً أكثر حدة وتأكيذاً . فمن صفات القصة العالمية أنها وسيلة « فنية » لتحديد السلوك الأمريكي وتوضيحه . ففي مثل هذه الدراسات الصغيرة مثل « حزمة من الرسائل » ١٨٧٩ و « وجهة النظر » ١٨٨٢ ، حيث يمكن معظم السرور في الملاحظات التي تبديها الشخصيات التي تمثل أنماطاً قومية واجتماعية مختلفة بعضها على البعض الآخر ، يظهر بوضوح كبير فضل وضع الأمريكيين في وسط عالمي . إذ فمن ناحية معينة تتطلب المادة ذاتها هذا التطور . إذ يمكن اعتبار الكثير من حاجات الأمريكيين وأمانهم

وأوامهم وإما متصلة اتصالاً مباشراً بأوروبا أو على الأقل
فالتعبير عنها تعبيراً كاملاً أكثر احتمالاً في بيئة أوروبية .
وهكذا يمكن الجدل بأن أولئك الأمريكيين الذين تزوجوا
فعلاً من أجانب أو الذين أصبحوا أكثر أوروبية من
الأوروبيين في مسائل المعرفة بأمور الفن هم أشكال
نموذجية وحالات مفيدة ومتصلة اتصالاً مباشراً بدراسة
الأمريكية . فعندما أحضر جيمس بعض الشخصيات
لأوروبا كان يهيئ لها الفرصة لتبدو بوضوح أكثر
أمريكية مما لو فعلت دون ذلك ^(١) .

وبالرغم من أن أعمال هذه الفترة لم تكن كلها
ناجحة إلا أنها جميعاً تساعدنا على فهم تطور طريقة
جيمس في الكتابة في الفترة المتأخرة . ولعل «مدام
موف» ١٨٧٤ أول قصة حقق فيها مستوى رفيعاً من
التكنيك أو الأسلوب الفني .

أما «رودريك هندسون» ١٨٧٥ فأول رواية هامة
تحتوي موقفين أمريكيين كبيرين على الأقل ، وتعالج
حياة شاب أمريكي فنان يذهب ليتعلم الفن في روما
ولكنه يفشل . تليها «الأمريكي» (١٨٧٦ - ١٨٧٧) .
وتقدم نيومان الذي يمثل رجل الأعمال الأمريكي ، وتجمع
شخصيته النجاح في عالم الأعمال مع سجل مشرف في
الحرب الأهلية ، في اصطدامه بالنظام الأرستقراطي
الأوروبي - تقدم أكثر الأنماط الأمريكية تميزاً . ويلي
«الأمريكي» «الأوربيان» وفيها يدير جيمس ظهره
لأوروبا مسرح المغامرات والمواقف المتطرفة ويقبل على
معالجة الحياة العائلية الهائلة لأسرة من أسر بوسطن
الحافظة . وينقل لنا بمهارة تدعو إلى الإعجاب جو الجدية
والاهتمام بالحياة الداخلية الذي تتميز به حياة هذه الأسرة .
أما الأوربيان فهما شاب وفتاة ينتميان بصلابة القرابة إلى هذه
الأسرة ، يعودان من أوروبا ويختلفان دون شك في كثير من
أوجه سلوكهما . ويجيد جيمس تصوير عملية الملاعة التي

تحدث بين مرح الزوار وحريتهم الكبيرة نسبياً وبين
جدية حياة الأسرة الأمريكية ووقارها . وتعد
«الأمريكي» من أعمال جيمس الناجحة التي تستحق
من الاهتمام قسطاً أكبر مما تحظى به فعلاً . ويمكن القول
بوجه عام إن أهم موضوعات هذه الفترة هو تصوير
الاتجاهات والمواقف الأمريكية في بيئات أوروبية . غير
أن هذا الموضوع يعالج بأساليب مختلفة تدل على خصوصية
خيال جيمس وراثته .

أما موضوع الفتاة الأمريكية الذي شغل به جيمس
في كثير من أعماله فقد عالجه في عدة أعمال أهمها
قصتنا «ديزي ميلار» و «حدث دولي» وروايتنا
«The Reverbrator» و «صورة سيدة» . أما «ديزي
ميلار» فهي قصة من النوع الذي يطلق عليه لفظ «نوفيللا»
لأنها أطول من القصة القصيرة ولكنها ليست رواية . وتعد
«ديزي ميلار» من خير أعماله وأنجحها . «ديزي فتاة
أمريكية جميلة جذابة ولكنها لا تعرف أصول السلوك
في المجتمع التقليدي . وقد رأى جيمس أن خير وسيلة
للكشف عن نوع سلوك «ديزي» أن يقدمها لنا في هذا
المجتمع . ويصور لنا كيف تفزع السيدات الأمريكيات
المستقرات في أوروبا ويشعرن بالحرج والارتباك من
سلوكها . إذ تمثل هذه السيدات إطاراً من السلوك المقبول
والمتواضع عليه والذي يعد كل عمل مخالف تأتبه «ديزي»
تعدى إرادى أو لا إرادى عليه . ولكن فن جيمس
يتلخص في تقديمه «ديزي» وحقاقتها من وجهة نظر
عريف بطرق هذا المجتمع ولكنه في نفس الوقت
متجاوب مع «ديزي» ، فهو سهل الوقوع تحت تأثيرها
ولكنه يقف منها موقف الناقد الذي لا يتقبلها على علاتها
وكانه يقف منها موقفاً وسطاً يمكنه من الحكم على
سلوكها وتفهمه في نفس الوقت . وهذا الشخص مرفف
الحس وعلى درجة كبيرة من الذكاء تمكنه من تحليل
موقفه بالنسبة ل«ديزي» فهو يشعر مثلاً أنه قد عاش
في جنوه بعيداً عن أمريكا فترة من الزمن جعلته يحس

(١) D.W. Jefferson, "Henry James", (١)
(19٠0), pp. 18-19.

بشيء من الارتباك في هذا الموقف ، فهو يحس أنه قد فقد الصلة بالمزاج الأمريكي الشاب . وتبرز استجابته لديزي ما تهدف القصة إلى إبرازه ، نوع جمالها الذي يصعب تحديده والإحاطة به . فكلماته يصعب تحديدها هذا الجمال بمعناه الواسع والإحاطة به ، وكلما صعب اكتشافه في نجل أعمالها الحمقاء الخاطئة ، زاد السرور عندما ينقذها هذا الجمال في النهاية ، فهي قد تبدو كما تقول إحدى تلك السيدات « عادية » أو خالية من علامات التهذيب والرفق الاجتماعي ، ولكن هذا الوصف لا يمكن أن يحيط بتلك الرشاقة الطبيعية العجيبة التي تتمتع بها . وهكذا نجد ونتربون مشغولاً تماماً بمحاولة الإحاطة بهذه الظاهرة الهائلة وهي سلوك ديزي ، وفي متابعة نشاطه الذهني تبقى القصة حية مثيرة للاهتمام والسرور . وهكذا نرى أن شخصية ديزي تجمع بين جنباتها شيئاً ينلر وجوده في الحياة ، ولعل هذا ما كان يرى جيمس إلى تصويره وما يعنيه عندما قال إن هذا الخط « شعر خالص » . فالرغم من أنها نشأت في بيئة غير مواتية هي المشولة عما في سلوكها من شطط وحقاقة إلا أنها تتمتع بتلك البراعة وعدم التكلف التي تتميز بها الفئاة الأمريكية والتي تنقلها في النهاية من السوقية .

وقد وجد جيمس في موضوع الفئاة الأمريكية مجالاً خصباً ممتاز بالجدة والنضارة ويتحمل التحديات الفنية في المجال الروائي ، فقد كان في جديتها وعدم تكلفها في وجه التقاليد وأنواع السلوك الاجتماعي الثابتة مجال للشعر والمسرح والمهابة والمأساة ، فخلق على غرار ديزي ميلر عدداً من البطلات الأمريكيات الرائعات . وإذا كانت الفئاة الأمريكية في الأعمال الثلاثة

الأولى السالفة الذكر موضوعاً للمهابة الاجتماعية ، فبالرغم مما تثيره المهابة فيها جميعاً من أمور جدية ، إلا أنها في الرواية التالية من أعمال جيمس وهي « صورة سيدة » تعالج على مستوى مختلف تسمام الاختلاف . فهذه رواية مأسوية من الطراز الأول ،

وبطلتها إيزابيل آرثر كما سنين بالتفصيل من أهم بطلات جيمس وأكثرهن إثارة للعطف والاهتمام .

وتعد « صورة سيدة » علامة على الطريق في حياة جيمس الأدبية لأنها تمثل نهاية المرحلة المبكرة وأعظم أعمالها من ناحية ولأنها آخر أعمال جيمس الهامة قبل وفاة والديه في عام ١٨٨٢ وانقطاعه عن زيارة أمريكا إلى أن قام بزيارته الأخيرة في عام ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ من ناحية أخرى :

يلي ذلك إعلان هامان هما « أهل بوسطن » ، و « الأميرة كازاماسيا » (١٨٨٥ - ١٨٨٦) وتعالج الأولى أمريكيين في أمريكا ويعتبرها كثير من النقاد من خير أعمال جيمس ، أما الثانية فتعالج المثالية الثورية وتتخذ لندن مسرحاً لأحداثها . ولعل أهم ما يجب الإشارة إليه هنا بشأن هاتين الروايتين اللتين يتفق معظم النقاد الآن^(١) ، على نجاحهما وروعتهما هو أنهما استقبلتا في الثمانينات استقبالا سيئاً جداً أصاب جيمس بخيبة أمل كادت تحرم الفن الروائي من عبقريته . ولنستمع إليه يحدث صديقه و . د . هاولز في أول ١٨٨٨ قائلا :

« لقد أقيمت على أيام شريفة - ولكن هذا سرّ بيننا - إن هذا يبدو أمراً جليلاً . ولكنه يعني فقط أنني أترنح تحت وطأة هذه الضربة الغامضة التي تبدو أنها قد أصابت موقفى عن طريق « أهل بوسطن » و « الأميرة » التي كنت أتوقع منهما خيراً كثيراً ولكنهما لم تعودا على شيء يذكر . فقد قللتا الرغبة في إنتاجي والطلب له للدرجة الصفر - كما أحكم من أنه بالرغم من كتابتي لعدد من الأشياء الصغيرة الجيدة ، فإنها لا تجد لها مكاناً للنشر ، إذ يؤجلها رؤساء التحرير لشهور ، بل

(١) انظر مثلا رلى ليترز في الأول

F.R. Leavis, "The Great Tradition" (1960), p. 153.

ورلى ليونيل تريلنج في الثانية

Lionel Trilling, "The Liberal Imagination" (1961 edition), p. 61.

لسنوات كما لو كانوا ينجلون منها ، وهكذا يبدو وكأنه قد حكم على بالصحى إلى الأبد .

من هذه « الأشياء الصغيرة الجيدة » « درس المعلم » ، « الكذاب » و « أوراق أسيرين » . وفى عام ١٨٩٠ أصدر « ربة الماسة » ثم « التلميذ » ولكن دون أن يحدث أى تغير فى الموقف . ولكن هذا لم يقل من عزيمته جيمس إذ استمر فى العكوف على الكتابة مؤملاً خيراً فى الأيام المقبلة :

« ولكنى على أية حال لا أبأس إذ أعتقد أنى أحسن حالا مما كنت فى أية فترة أخرى من حياتى ، وما زلت أنوى القيام بأعمال كثيرة . ومن المحتمل أيضاً أن نثرى المليون كله سيرفس الشواهد المقامة على قبره ويبعث حياً دفعة واحدة يوماً ما » .

ولكن جيمس بالرغم من ذلك حاول الحرب من مصيره الذى كان يبدو محتوماً بأن كتب للمسرح عليه ينال شيئاً من التقدير ويربح شيئاً من المال ، ولكنه سمى هذه المرحلة فيما بعد مرحلة « نشارة الخشب وقشر البرتقال » . كافح جيمس مع هذا النوع الأدبى حتى خيل له أنه تمكن منه . وأثارت بعض مسرحياته شيئاً من الاهتمام ، ولكن ما لبث جمهور المسرح أن انصرف عنه وفشلت المسرحية التى ظنها خير مسرحياته « جاي دومفيل » فشلا ذريعاً فى عام ١٨٩٥ .

وتعد هذه الفترة من أسوأ مراحل حياته الأدبية . عبر عن بعض ما عاناه فيها فى بعض قصصه مثل « موت الأسد » (١٨٩٤) ، « السنوات الوسطى » (١٨٩٥) و « المرة القادمة » (١٨٩٥) . وجميع أبطال هذه القصص كتاب مرهفو الحس يؤلمهم إعراض الجمهور العديم الحس ، كما يؤلمهم تماماً اهتمامه الخاطئ بهم . وجدير بالملاحظة أنه وإن صور هؤلاء الأبطال بعض نواحي شخصية جيمس إلا أنهم يختلفون عنه كثيراً أيضاً . ويعتقد النقاد أن هذه الأعمال قد أسهمت بقدر فى الإساءة لسمعته إذ أن هؤلاء الأبطال بإحساسهم

المرهف للدرجة قد تبلغ حد الشذوذ ورقتهم وجمال أسلوبهم كانوا قريبى الشبه بأولئك الجهابذ الذين كان ينظر إليهم بشيء من الاستنكار . ومن المتناقضات أنه بقدر ما كان لجيمس من قدرة على تصوير مثل هذه الاتجاهات بعنف وحموية بقدر ما كان هو نفسه شخصاً مختلفاً تماماً .

ولا يسعنا إلا أن نعتبر فشل مسرحية « جاي دومفيل » حدثاً سعيداً إذ دفع جيمس إلى معاودة آماله ومحاولاته بالنسبة لعمله الأسمى وهو الكتابة الروائية ، ففى الفترة التالية وصل فنه إلى أقصى مراحل تطوره ونضجه .

وفى عام ١٨٩٧ أى بعد مرور عامين على فشل هذه المسرحية قام جيمس بعمل يكاد يكون رمزياً فى مدلوله . فقد أدار ظهره لمدينة لندن وحياتها الاجتماعية الحافلة وصلاتها العديدة واتخذ لنفسه بيتاً قديماً فى بلدة راي بمقاطعة ستسكس حيث كرس حياته لعمله وفنه غير أن هذه العزلة لم تكن عزلة كاملة . فبالرغم من أنه رفض الانتماء إلى أية جمعيات أو منظمات أدبية ، بل واعتذر عن قبول شرف رئاسة الجمعية الأدبية الإنجليزية إلا أنه ظل محتفظاً بعضوية ناديه فى لندن كما ظل باباه مفتوحاً لاستقبال أصدقائه المقربين من كبار الأدباء والكتاب .

فاذا ألقينا نظرة سريعة على الأعمال الروائية التى تلت « أهل بوسطن » و « الأميرة كازاماسيا » لوجدنا جيمس يوجه اهتماماً خاصاً بالمواضيع الإنجليزية أولاً ثم يعود إلى موضوعه الأثير ألا وهو الأمريكى فى أوروبا . ولا يمكن القول بأن هناك نقطة بداية محددة لمرحلة اهتمامه بالمواضيع الإنجليزية فبعد « السائح الشغوف » تمضى سنوات قبل أن تستأثر هذه المواضيع باهتمامه ، وإن كانت هناك أمثلة لذلك مثل مشهد الافتتاح فى « صورة سيده » وشخصية لورد واربرتون بها أيضاً ، إلى غير ذلك من أعمال مثل « الحدث الدولى » و « ليدى

باربارينا» : إلا أن هذه الدراسات تزداد في النصف الثاني من الثمانينات وتسود في التسعينات كما في قصة «الشيء الحقيقي» (١٨٩٣) و «ربة المأساة» (١٨٨٩ - ١٨٩٠) ، و «غنثام بوينتون» (١٨٩٦) و «السن الخرجة» (١٨٩٩) و «النافورة المقدسة» (١٩٠١) .

ويبدى جيمس معرفة تتسم بالدقة والعمق بطرق الحياة في المجتمع الإنجليزي وبتقاليده وتزمته وأرستقراطيته وماديته وقيمه وحدوده . ولكنه بوجه عام لا يؤكد النقد الاجتماعي النوعي هنا ، إذ بينما يرى جيمس نقائص هذا المجتمع وعيوبه إلا أنه يرى فيه أيضاً «ثمرة من أنضج ثمار الزمن» . يقول جيفرسون «وإذا كان جيمس لم ينتم تماماً إلى المجتمع الإنجليزي فحده ذلك من عمله في بعض النواحي ، إلا أن ذلك أعطاه ميزة كبيرة ، إذ جعله أكثر قدرة على التركيز بحدة على بعض المميزات التي بدت له مركزية ونمطية ، وعلى بعض الشئون التي قد لا تلفت نظر الكاتب الإنجليزي أو التي قد لا ينظر إليها من وجهة نظر نقدية» . ويمكن القول بأن جيمس قد صور بعض نواحي المشهد الإنجليزي تصويراً أكثر حيوية وذكاء مما فعله أي كاتب آخر^(١).

أما الفترة الأخيرة من حياة جيمس الأدبية فتشمل ثلاثة أعمال هامة بعدها كثير من النقاد ذروة ما وصل إليه الفن الروائي من ناحية الأسلوب والصناعة الفنية ، لا يشذ عن ذلك سوى نفر قليل يفضلون عليها بعض الأعمال المبكرة مثل «صورة سيدة» و «أهل بوسطن» . وهذه الأعمال هي «أجنحة الحمامة» (١٩٠٢) ، «السفراء» (١٩٠٣) و «الكأس الذهبية» (١٩٠٤) هذا بخلاف عملين لم يتمهما جيمس ونشرا بعد موته هما «البرج العاجي» و «الاحساس بالماضي» (١٩١٧) .

بدا اهتمام جيمس بالحقائق النفسية والخلقية أو بما

(١) المرجع المذكور أعلاه ص ٦١ .

يشار إليه عادة بالحياة الداخلية من بادئ الأمر : وإذا كان من الطبيعي أن تزداد رؤيته للحياة نضجاً وعمقاً بمرور الزمن ، فإن ما يلفت النظر بشكل واضح هو تطور أسلوبه الفني وما يضيفه ذلك على أعماله من إحساس بالعمق وصدق الرؤية وإدراك لدقائق المشاعر والانطباعات : يبدو ذلك واضحاً أشد الوضوح إذا قارنا «ميدان واشنطن» مثلاً «بصورة سيدة» فهما تعالجان موضوعاً متشابهاً بعض الشيء . ولعل أهم ما يلفت النظر أن جيمس استمر فترة طويلة يستخدم الطريقة التقليدية في كتابة رواياته . ولكننا نلاحظ تطوراً في أسلوب التعبير الفني حتى قبل أن يبدأ في استخدام أسلوب «وجهة النظر» القائم على الاعتماد على «وعي مركزي» ، و «عنصر موحد» كما هو الحال في «السفراء» : ويتطور أسلوبه الفني ازداد أسلوبه اللغوي تعقيداً وتكاثر الصور اللفظية وزاد الاعتماد على الرمز : وكأنما أصبح هدفه الأول الوصول بعمله عن طريق جميع الوسائل المختلفة إلى الكمال الفني الذي يستحقه موضوعه . ولا يفوتنا الإشارة هنا إلى ما يؤكد ليفيز من أن أعمال جيمس اتسمت منذ البداية بالنضج والتكامل الفني ، وإن تفاوتت درجتها ، ووصلت إلى أعلاها في أعماله المتأخرة كما يرى غيره من النقاد .

«صورة سيدة» (١٨٨١)^(١)

تعد «صورة سيدة» من خير أعمال جيمس وأنجحها فهي تتسم بكل ما يميز عمله من صفات فنية لم يفسدها بعد إسرافه في الصناعة والاهتمام بمسائل البناء والأسلوب الذين بلغا مبلغاً في أعماله المتأخرة جعل فهمها ومتابعتها أمراً شاقاً على القارئ العادي بل وأضعف - كما يذهب بعض النقاد - الإحساس بالحياة في هذه الأعمال :

(١) ظهرت «صورة سيدة» أولاً في شكل سلسلة في الولايات المتحدة في «مجلة ماكليان» (أكتوبر ١٨٨٠ - نوفمبر ١٨٨١) وإنجلترا في مجلة «أتلانتيك ماث» (نوفمبر ١٨٨٠ - ديسمبر ١٨٨١) .

أما هنا فنجد مثلاً رائعاً لتلازم الفن والحياة الذي نادى به جيمس ، كما نجد درجة رفيعة من الفنية وروعة التصوير وثراء الأسلوب ،

كان جيمس يهتم اهتماماً كبيراً بالشكل الفني لأعماله ويسعى نحو الكمال في تنفيذ فكرته بكل ثراء ووضوح ، ولذا نراه يعنى عناية خاصة ببناء قصته ويستبعد منها كل ما لا يمت إليها بصلة الحتمية . وهو إلى جانب ذلك يفضل التصوير أو تقديم المشاهد الحية على الاعتماد على السرد أو تلخيص الأحداث ، كما يؤمن بضرورة تحميل نسج القصة كل ما يرغب في نقله للقارئ دون تدخل من جانبه ، ولذلك فهو يسعى إلى الاستفادة بكل إمكانيات فنه وأن يستخلص من كل مشهد أو حدث أقصى ما يمكن استخلاصه من تأثير . قوام ذلك كله شخصيات واضحة متميزة نابضة بالحياة ، ذات وعى رائع وضمائر حية متيقظة ، شخصيات تتكشف أمامنا عن طريق الحدث والديالوج ، بل وعن طريق التأمل الذاتي الذي كثيراً ما يقسم بسمة الحدث الذي يخطو بالقصة خطوات إلى الأمام ، وقدرة بالغة على تصوير الأحداث والأماكن تصويراً تجسيمياً بأسلوب معبر غنى بالصور اللفظية ، يتبع حركة الفكرة ويكون جزءاً لا يتجزأ من مادة الرواية وبنائها .

وتتميز « صورة سيدة » إلى جانب ذلك بأنها تجمع بين جنباتها أكثر من موضوع من الموضوعات التي شغلت اهتمام جيمس طيلة حياته الأدبية : إذ نجد هنا مثلاً رائعاً للفتاة الأمريكية بما تتميز به من صفات ، كما نجد الموضوع العالمى الذى يتلخص في علاقة الأمريكى بأوربا يلف الرواية ويكون أحد عناصرها الهامة . كل ذلك في قصة يمكن اعتبارها قصة عن الزواج أو الحرية أو القدر .

« فصورة سيدة » قصة فتاة أمريكية ذكية جميلة مرهفة الحس مستقلة الشخصية توافقه إلى المعرفة ، تؤمن

بحريتها وتعتقد أن الحياة شيء جميل مضى وأنه ما على المرء إلا أن يستمتع بحريته ليختبر الحياة ويحيا حياة كاملة ، ويحصل على المعرفة والسعادة وتحقيق الذات ، ولكنها سرعان ما تكتشف خطأها عندما تقع فريسة خدعة كبيرة في الوقت الذى كانت تظن أنها تمارس حريتها وتختار لنفسها الحياة التى تريدها والتى ترى فيها تحقيقاً لكل آمالها في الحياة الحرة والمعرفة الحقة .

تنشأ إيزابيل آرثرز بطله هذه الرواية ، كما نعرف من مجرى القصة ، في ولاية آلبنى بالولايات المتحدة في أسرة لا يؤمن ربها بالشدة والصرامة في تنشئة بناته فتتمتع هذه الابنة منذ صغرها بقسط وافر من الحرية حتى بالنسبة للفتاة الأمريكية العادية التى لا تتقيد بالتقاليد الاجتماعية الأكثر صرامة والتى تلزم بها الفتاة الأوروبية أو الفتاة الإنجليزية في ذلك الوقت بوجه خاص ،

وتبدأ الرواية بذهاب إيزابيل آرثرز إلى أوروبا بصحبة خالة ثرية لها تتوسم فيها الذكاء والاستقلال فتقرر منحها فرصة زيارة عدد من البلاد الأوروبية ، وتحل بها أولاً في إنجلترا في منزل زوجها مسر تثبتت الذى يعيش معظم الوقت بصحبة ابنه الوحيد رالف بينما تعيش الزوجة بمفردها في منزل لها بإيطاليا فيما عدا فترة قصيرة من كل عام تزور فيها زوجها وابنها ، ثم تصطحبها إلى باريس ثم إلى إيطاليا . وتسعد الفتاة برحلتها وبلقاتها بعدد من الناس وبنجاحها الاجتماعى . وتمارس إيزابيل حريتها في رفض خطيبين يتقدمان لها مفتونين بجائها وذكائها وشخصيتها ، أحدهما نبيل انجليزى يتمتع بالذكاء والوسامة والثراء والجاه وكرم المختد ، والآخر رجل أعمال أمريكى شاب يحبها منذ فترة طويلة ، ولكنها ترفضهما معتمدة دون شك على أين في الحياة مجالا لأشياء أفضل ، ويرى ذلك ابن خالتها رالف تمسيت ، الذى يحبها بدوره ولكن يمنعه المرض بدهاء الصلور من أن ييوح لها بحبه ، ويدرك أنها لا يمكن أن تتمتع بكامل حريتها واستقلالها مع فقرها ، فيقع والده

إلى أعلى مراتب الكمال ولتطور هذا الفن على يديه ،
مما لا نستطيع شرحه هنا بالتفصيل ، فهي تلقى لنا بكثير
من الضوء على الروايات الفردية التي قدم لها وعلى
طريقة معالجته لها والأسلوب الفني الذي اتبعه في كل
منها .

يقول جيمس في مقدمته « لصورة سيدة » التي
كتبها في عام ١٩٠٨ أى بعد حوالى عشرين عاماً من
كتابة الرواية نفسها :

« إننى عندما أحاول أن أستعيد هنا الذاكرة الأولى
لهذه الرواية أرى أنها لم تتكون إطلاقاً من فكرة
حبكة - هذا اللفظ الشرير - أو في وميض من الخيال ،
أو في مجموعة من العلاقات أو في أحد هذه المواقف
التي تبدأ على الفور عن طريق منطلق خاص بها في الحركة
أمام عين القصاص ، في مسيرة عسكرية أو في حركة
اندفاعية ، في قفزة من الخطوات السريعة ، بل تكونت
في الإحساس بشخصية واحدة ، شخصية ومظهر شابة
معينة فاتنة ، شخصية كان لا بد وأن يضاف إليها جميع
العناصر العادية اللازمة للموضوع ، وللمشهد
بالطبع » (١) .

ويوضح جيمس أنه كان - مثله في ذلك مثل
صديقه الروائي الروسي المعروف ليفان ترجنيف -
يحس أول ما يحس بالشخصيات التي تحوم حوله وتشد
انتباهه وليس بالمشهد الذي ستظهر فيه هذه الشخصيات ،
وأنه لم يكن يستطيع التفكير إلا قليلاً في أية قصة لا تحتاج
أولاً إلى أشخاص يدفعون بها إلى الأمام ولا التفكير في
أى موقف لا يعتمد في إثارته للاهتمام على طبيعة
الأشخاص وعن طريق ذلك على طريقة سلوكهم في
هذا الموقف .

ويشرح جيمس كذلك أن نوع ودرجة إحساس
الفنان بموضوعه لها أهمية خاصة إذ يعدا التربة التي سيزرع

أن يترك لها الجزء الأكبر من الثروة التي كان سيورثها
له على أن يكتفى هو بجزء صغير منها ، ممتناً النفس
بالاستمتاع بمشاهدة إيزابيل وهي تتصرف بحرية في
حياتها بعد أن كفّل لها الثراء والاستقلال المادى . ولكن
إيزابيل تحب أمله عندما تقع - رغم ذكائها وفطنتها
وما تعتقد أنها تتمتع به من قدرة على فهم الناس والتمييز
بينهم - في شرك تنصبه لها امرأة أمريكية مستوطنة في
أوروبا هي مدام مرل وعشيقها السابق ، الفنان الأرمل
الفقر جيلبرت أوزموند . وهكذا نجد إيزابيل التي
تؤمن بحريتها وتسعى للاحتفاظ بها فترفض لورد
واربرتون ثم كاسبار جودوود تقع فريسة هذه الحرية
والمثالية . تظن إيزابيل أنها وجدت بغيتها في هذا
الرجل الذي ترى فيه إنساناً حراً وفناناً أصيلاً يمكنها أن
تساعده بما لها فتكتشف بعد زواجها أنه إنسان يحب
للذات ، عبد للتقاليد ، وما فته وجهه للحرية وتعاليه
على التقاليد إلا خداع وادعاء ، وأنه ما تزوجها إلا لما لها
وما سيكفله لا بنته من عشيقته مدام مرل من نصيب
عظم يكفل لها زواجاً ممتازاً .

وقبل أن نتابع أحداث هذه المأساة لنرى كيف
تسلك إيزابيل عندما تكتشف حقيقة شخصية زوجها
وخديعتها الكبرى ، لتجد نفسها في عالم مظلم ومجن
ضيق خائق ، وكيف تحقق المعرفة الذاتية التي كانت
تنقصها بعد أن تدفع ثمن تفاؤلها ومثالياتها ورومانسياتها
غالياً ، لتتوقف برهة لتدرس كيف يقدم لنا جيمس
هذه القصة وكيف يعالجها فنياً .

كتب جيمس في الجزء الأخير من حياته ثمانى عشرة
مقدمة لبعض أعماله الروائية التي أعيد نشرها في طبعة
نيويورك . وتعد هذه المقدمات في مجموعها مرجعاً هاماً
في فن الرواية وتضارح في أهميتها في رأى أحد النقاد
« فن الشعر » لأرسطو في مجال النقد الأدبى . وبالإضافة
إلى أهميتها كتعبير صادق عن كثير من آراء جيمس في
فن الرواية وكوصف لمحاولته للبلوغ بهذا الفن عملياً

(١) أنظر "Views on the Art of the Novel" ،
p. 252.

منها هذا الموضوع وتمثل هذه التربة وقلوبها على أن
نست القصبة بالقوة اللازمة والاستقامة اللازمة رؤيا
الفنان الخلقية للحياة بقوتها أو ضعفها .

أما بالنسبة « لصورة سيدة » فقد كانت الخطوة
الأولى في سبيلها هي « إمساكي بهذه الشخصية الواحدة
التي تملكني منذ فترة من الزمن » . فقد كان من الكافي
أن يبدو لي أنني كنت أملكها تماماً وقد تملكها لمدة
طويلة من الزمن جعلها مألوفة تماماً لي وإن لم يقل ذلك
من صهرها ، فقد كنت أراها بكل وضوح وإلزام
متحركة متقلبة . وهذا يساوي قولي إنى رأيها مصممة
على مصيرها - مصير ما - أما أى مصير من بين هذه
المصائر الممكنة فقد كان هذا هو السؤال الذى يشغلني .
وهكذا كان في حوزتي هذا الفرد المتميز - المتميز
بدرجة قوية - بالرغم من كونه ما زال طليقاً وغير
مقيد بظروف معينة ، وغير مغموس في الحومة التي
تنظر إليها عندما نبحث عن الكثير مما يميز شخصية مثل
هذا الفرد (١) .

ذلك إذن هو موضوع « صورة سيدة » . والسؤال
الآن هو ما الأسلوب الفني الذى صور به جيمس هذا
الموضوع ؟

وللإجابة على هذا السؤال يمكننا الإشارة أولاً إلى
قول لجيمس يعبر خير تعبير عن موقف الفنان الجاد من
فنه واهتمامه وضكوفه على تقديم موضوعه في خير
صورة فنية : يقول جيمس : « إن إحساسى بقيمة هذه
الصورة لطبيعة أننى شابة - كانت تحت يدى طيلة هذه
المدة - هو الذى جعلنى أرغب رغبة دينية في أن أضع
' كنزى ' في المكان الصحيح : وهذا يذكرنى ببائع
العاديات الذى يفضل أن يحتفظ بالقطعة الثمينة في حوز
حريز ، مهما كلفه ذلك ، على أن يبيعها لأبد لا تعرف
قيمتها » .

(١) ص ٢٥٧ .

ثم يستطرد جيمس موضحاً أن النقطة الهامة هي أن
حجر الزاوية الصغير الوحيد هذا كان كل ما يملك
من عتاد لهذا البناء الكبير « لصورة سيدة » ، والذى
صار منزلاً مربعاً فسيحاً ، وبناءً مقاماً بكفاءة هندسية
فائقة ، بل إن ما يثير الاهتمام حقاً هو أن هذا البناء كان
لا بد له أن يوضع حول هذه الشابة بينما تقف هي في
عزلة تامة ، « فبأى عملية منطقية إذن كان لهذه
الشخصية الضئيلة التي لا تعدو أن تكون ظلاً رقيقاً
لفتاة ذكية جريئة أن تعبد نفسها وقد أضفيت عليها كل
الصفات الرفيعة التي تجعل منها موضوعاً لرواية ؟ » ،
فالرواية بطبيعتها « عملية حول شيء ما » .

والسؤال الآن هو هل كان من السهل أن تصبح
ليزابيل آرثرس موضوعاً لرواية ؟ ولعل هذا السؤال
يتضمن بدوره سؤالين آخرين هما : أولاً هل لهذه
الشخصية من الأهمية ما يجعلها أهلاً لهذا الاهتمام ؟ وثانياً
أليس الاهتمام بها أو وضعها في مركز الاهتمام عملاً شاقاً
صعباً ؟ وكان جيمس يجيبنا على هذين السؤالين بقوله :
« لقد أمنت النظر في هذا الإسراف فكانت النتيجة أن
أدركت صهر هذه المشكلة ، فأنت إذا تبصرت أية
مشكلة بذلكاء لأدركت بسرعة أنها مفعمة بالقيمة .
أما العجيب هنا فهو كيف تتسلق الشابات من أمثال
ليزابيل آرثرس ، بل والكثيرات ممن هن أقل منها شأناً
بكثير بأنهن ذوات قيمة كبرى » .

ولعل جيمس يكشف لنا هنا عن سر اهتمامه
بالشخصيات النسائية في أعماله ، فالمرأة تلعب دوراً هاماً
في كثير منها : وكأنه يجيب على سؤالنا الأول عندما
يشير إلى قول الروائية جورج إليوت : « إن هذه الآنية
الضعيفة تحمل بين جنباتها على مر العصور كنز المحبة
الإنسانية » ثم يضيف مؤمناً على ذلك بقرله إنه في
مسرحية شكسبير « روميو وجولييت » يجب أن تكون
جولييت ذات أهمية كبيرة كما أنه في « آدم بيد »
و « ميد لمارش » و « دانيال ديروندا » وغيرها من أعمال

جورج إليوت يجب أن تكون شخصياتها النسائية مثل هيتي سوريل وروزاموند فينسي وجون دولين هارليث شخصيات هامة أيضاً . ثم يضيف وكأنه يجيب على سؤالنا الثاني قائلاً : ولكن هذه الشخصيات تمثل أنماطاً من الصعب وضعها في مركز الاهتمام ، بل يمكن القول إن هذه الصعوبة بلغت حداً جعل كتاباً كبيراً مثل ديكنز ووالتر سكوت ، بل وروبرت لويس ستيفنسون يفضلون الإحجام عن محاولة ذلك ، بينما يحتسى كتاب آخرون وراء القول بأن هذه المحاولة لا تستحق القيام بها وإن كان هذا لا ينقذهم من اللوم ، إذ أن ضعف شعور الفنان بشيء ما لا يبرر تصويره له على أسوأ ما يكون التصوير (١).

ونتضح الصعوبة عندما نرى — كما يشير جيمس — أنه حتى في حالة شكسبير وجورج إليوت فإن تسليمهما بأهمية جوليتاتهم وكليوباتراتهم يعانى من أن تلك الرقيقات عندما تظهرن كالحكام الأساسيات للموضوع فإنه لا يسمع لمن مطلقاً بالاستئثار بأثارة الاهتمام ، بل يكمل نقصهن عن طريق « المساعد الفكاهى » والحبيكات الثانوية كما يقول كتاب المسرح إن لم يكن كلية بحرائم القتل والمعارك والانقلابات العالمية . وإذا أظهرن على أن هن أهمية خاصة إلى أقصى حد ممكن فإن الدليل على ذلك يوجد في مئات من الأشخاص الآخرين الأكثر قوة والذين لم مئات من العلاقات الأخرى الهامة بجانب علاقاتهم الواحدة بهذه الشخصيات النسائية ، كما هو واضح في حالة بطلات شكسبير مثل كليوباترا ، وبورشيا في مسرحية « تاجر البندقية » . ولعل ذلك أكبر دليل على صعوبة المشكلة التى واجهتها جورج إليوت عندما جعلت من آيتها الرقيقة إن لم تكن المركز الكلى من الانتباه فقد جعلت منها على الأقل أكثر مراكز الاهتمام وضوحاً واستثارة .

وهكذا نرى أن « سحر هذه المشكلة » كان يكن دون شك بالنسبة لجيمس في صعوبتها ، تلك الصعوبة التى تجذب انتباه الفنان الجاد وتشجذه همه . فلقد كان من الممكن أن يتجنب تلك الصعوبة وأن يركز اهتمامه لا على هذه الآنية الرقيقة ، بل على علاقتها بالآخرين مثلاً ، ولكنه رفض هذا الشكل بإباء وصمم على البحث عن أصعب الطرق لمعالجته . فهو يحادث نفسه تأيلاً :

« لتضع مركز الموضوع في وعى هذه الفتاة نفسها فتحصل بذلك على صعوبة شائقة جميلة بقدر ما تريد . عليك أن تلتزم بذلك — بمركز الاهتمام — ضع الثقل الأكبر في تلك الكفة التى ستكون لحد كبير كفة علاقتها بنفسها . واجعلها تهتم بالقدر الكافى فقط ، في نفس الوقت ، فيما يعدو ذاتها من أشياء ، ولا تخشى من أن تجعل هذه العلاقة محدودة جداً . وضع أثناء ذلك في الكفة الأخرى الثقل الأقل وزناً (ذلك الثقل الذى يرجع عادة كفة ميزان الاهتمام) ولتضغط أقبل ما تضغط ، باختصار ، على وعى اتباع بطلتك ، وخاصة الذكور منهم ، واجعل من ذلك مجرد مركز اهتمام يسهم في أهمية المركز الأعظم : ولتر على أى حال ما يمكن فعله بهذه الطريقة . وهل هنالك مجال أفضل للمهارة اللازمة ؟ إن الفتاة تخلق بشكل لا يمكن إخفاءه كمخلوق فائن ، وستكون المهمة ترجمتها إلى أسمى عبارات هذه التركيبة ، وبقدر الإمكان علاوة على ذلك إلى التركيبة كلها ، فإذا اعتمدت عليها وعلى شئونها الخاصة اعتماداً كلياً فعليك أن تذكر أن ذلك سيوجب عليك أن تصورها أو أن « تفعلها » بحق : really "doing" her ، كما كان يحلو لجيمس أن يصف عملية التصوير الفنى (١).

وهكذا نرى كيف استطاع جيمس عن طريق تلك الصرامة الفنية المنظمة الرفيعة التي ألزمها أن يقيم على تلك المساحة من الأرض كومة متناسقة من اللبنة التي تكون من الناحية البنائية أثراً فنياً رائعاً . كذلك فقد كان مصمماً بالرغم من إدراكه لضرورة وضع هذه اللبنة لبنة لبنة ألا يلدغ مجالاً لشيء يخرج عن المستوى أو المجال الذي اختاره ، وبالرغم من ذلك فإنه - باعترافه - لم يأل جهداً للترفيه عن القارئ : « ولعل هذا هو المستول عن تطور قصتي بما فيها من تعقيدات . فقد كان من الجوهرى أن تكون هذه الفتاة شخصية متعددة الجوانب - كان هذا على الأقل هو الضوء الذي رأيتها فيه - غير أنه كان لا بد من أضواء أخرى متضاربة متصارعة ، وذات ألوان مختلفة . . لاستخدامها لإثبات ذلك . . . وهكذا وجدت نفسي ذات صباح وفي حوزتي جميع تلك الشخصيات الأخرى اللازمة للمساهمة في تاريخ إيزابيل آرثر . . لقد عرفت فيهم الأجزاء الملموسة لحبكتي » .

أما الآن فلنحاول تتبع كيف حقق جيمس هذه الخطة الفنية في الرواية ذاتها .

أدرك جيمس من بادئ الأمر أن عليه أولاً أن يثبت شخصية بطلته وأن يكشف للقارئ عن حقيقتها ويرسم قواعد علاقاتها بمن حولها : قبل أن يقذف بها في معمعة الدراما الإنسانية التي تزلزل كيائها النفسى والعاطفى ، ففوضى وقتاً طويلاً في بداية الرواية للتعريف بها لا عن طريق السرد أو الخبر ، بل عن طريق المشهد الحى والكشف عن الكثير مما يدور بوعيا أو بوعى الآخرين بخصوصها .

قدم لنا أولاً صورة واضحة زاهية للمنزل الربيعى القديم الذى ستنزل به إيزابيل عندما تحل بالإنجلترا وقدمنا إلى ثلاثة رجال يتلقى اثنان منهما نبأ وصولها في برقية مقتضبة ترسلها زوجة أحدهما - والدة الآخر - من أمريكا قائلة إنها ستحضر معها ابنة أخت « مستقلة »

ويعجب الرجال لهذا القول لا يلرون ماذا تعنى مسر تشيت بكلمة « مستقلة » ، أعنى الاستقلال الاقتصادى أو استقلال الشخصية . ومنذ البداية نجد إشارات عابرة إلى شخصية مسر تشيت ذاتها أيضاً ، فتعلم أنها امرأة شاذة نوعاً ما في معاملتها للناس وفي ميلها إلى الاستقلال والاعتماد على النفس ونكتشف في ذلك أحد أسباب اهتمامها بإيزابيل التي تشبهها في بعض النواحي :

ولكن جيمس يسعى قبل أن يلقى لهؤلاء الرجال بهذا النبأ إلى التعريف بهم . أما الأول وهو رجل مسن يجلس في ظل شجرة كبيرة مغطياً قدميه بغطاء من الصوف ، فيبدو من تقاسم وجهه أنه أمريكى لم يغير كثيراً من طريقة حياته الأمريكية بالرغم من الثلاثين عاماً التي قضاها في إنجلترا ، كما يبدو أنه رجل طيب كريم على معرفة بطباع الناس وخلفهم :

« لا بد أنه عرف كثيراً من الرجال وإن كان وجهه يتم بابتسامته الباهتة عن بساطة تكاد تكون ريفية ، تلك الابتسامة التي تبدو على وجهه الواسع الحاد وقضى عينه المرححة وهو يضع ببطء وعناية فتجان الشاى على المنضدة . كان حسن الهندام في حلة سوداء ، يغطى رجله بغطاء مطروح ويلبس في قدميه شياً سميكا مطرزاً . وجلس على الحضرة بجواره كلب « كولى » جميل يلاحظ وجه سيده بنفس الدقة التي ينظر بها هذا السيد إلى البيت الذى يبدو أكثر جلالاً ، بينما كان كلب آخر يوزع اهتمامه بين الرجلين الآخرين » .^(١)

أما الرجلان الآخران فأحدهما « رجل قوى البنية بشكل ملحوظ في الخامسة والثلاثين من عمره يبدو وجهه لإنجليزياً بقدر ما يبدو وجه الرجل المسن شيئاً آخر ؛ يتنعم بوجهه وسم نضر صريح ذى تقاطع مسقيمة ثابتة ، وعين رمادية اللون تبدو فيها الحيوية ، ولحية

(١) « صورة سيده » (طبعة أكسفورد ، ١٩٦٢) ص ٣
من الآن فصاعداً سنشير إلى رقم الصفحة من هذه الرواية بعد الفقرة
أستفد من حسن مباشرة .

غزيرة كستنائية : وكان هذا الشخص يبدو سعيداً لامعاً غير عادي - يشع حوله جو من المزاج السعيد الذي أنخصبته حضارة رفيعة - جو يجعل كل من يراه تقريباً يحسده . أما صاحب فكان مختلفاً تمام الاختلاف وبالرغم مما قد يشبهه من حب استطلاع قوى فإنه على العكس من الآخر لم يكن ليثير في نفس المرء تلك الرغبة العمياء في أن يجد نفسه مكانه . كان طويل القامة نحيل ، يبدو عليه ضعف البنية وتفككها - له وجه قبيح ، مريض ، ذكي ، فاتن ، ولحية وشارب لا يزيدان من جماله بشكل من الأشكال . كان يبدو ذكياً ومريضاً وهما صفتان لا تبدوان متفتن (ص ٤) :

ومن حديث الرجال الثلاثة يبدو أن الأول وهو لورد واربرتون يدعى السام بينما عيل الثاني وهو رالف تشيت إلى السخرية من الأشياء وعلم الثقة بها ، ولكنه بالرغم من مرضه دائم المرح ومحاولة التخفيف عن والده المريض الذي يعتقد بدوره أن ابنه لم يتمتع قط برصته في الحياة ، بالرغم من مرحلة الدائم .

ويتطرق الحديث تدريجياً إلى موضوع الزواج فيقول الأب للورد واربرتون إن خير علاج للماء أن يجد لنفسه امرأة ويتزوجها « إن السيدات هن اللاتي سيخلصننا - غير أني أعني خير السيدات ، لأنني أفرق بينهن - تقرب من امرأة طيبة وتزوجها فتصبح حياتك شائعة أكثر مما هي الآن » . ذلك بالرغم مما يعلمه ابنه وصديقه خبر العلم من أن تجربته هو في الزواج لم تكن ناجحة تماماً . ويحذر مستر تشيت لورد واربرتون بتصميم وفي شيء من المزاج من التفكير في الزواج من ابنة أخت زوجته . ويعجب لورد واربرتون لذلك بلهله بوجود مثل هذه الفتاة فيخبره صديقه بأمر البرقية التي أرسلتها الخالة من أمريكا . يقول مستر تشيت : « يجب ألا تفكر في هذه الفتاة إذ قد لا تصلح لأن تكون زوجاً صالحاً . . . أو ربما تكون هي مخطوبة فعلاً » . وإن لم تكن مخطوبة فهو يرجو ألا تكون قد

جاءت بحثاً عن زوج . ويعد لورد واربرتون تحذير مستر تشيت قسوة من جانبه ولكنه يقول :

« من المحتمل جداً أن تكون مخطوبة ، لقد عرفت كثيراً من الفتيات الأمريكيات وكن دائماً مخطوبات ، وإن لم أجد مطلقاً أن هذا يغير من الأمر شيئاً . أما عن كونى زوجاً صالحاً فاني لست متأكداً من ذلك . على كل يمكن للمرء أن يحاول »

ولكن الأب يقول بابتسامة : « حاول كما يحلو لك ولكن لا تحاول مع ابنة الأخت هذه » . وتبدو معارضة للفكرة معارضة مقرونة بشيء كبير من الفكاهة :

ويحتم اللورد ، بقدر أكبر من الفكاهة « ربما تكون في النهاية لا تستحق المحاولة » . (ص ١١) .

وببداية الفصل الثاني نعلم أنه بينما كان مستر تشيت وضيغه يتبادلان هذا الحديث ، بغتة يرى رالف تشيت الذي كان يتجول قليلاً في الحديقة - فتاة غريبة تقف عند مدخل المنزل ويجري نحوها كلبه وهو ينبح نباحاً يرم عن الترحيب أكثر مما يرم عن شيء آخر ، ويلحظ رالف كيف تترك الفتاة بسرعة ترحيب الكلب فتتحنى للتلفظ دون تردد بينما يستمر هو في ثرثرته ، ويرى رالف أنها فتاة طويلة القامة ترتدى ثوباً أسود وتبدو جميلة لأول وهلة ويعجب رالف لهذا الأمر إذ يعلم أن المنزل قلماً يرتاده الضيوف نظراً لمرض الأب . ويراهما الرجلان الآخران في نفس الوقت ويتساءلان من تكون ، بينما يتقدم رالف نحوها فتسأله وهي ما زالت تحمل الكلب الصغير « هل هذا كلبك يا سيدى ؟ » فرد قائلاً « لقد كان كلبى منذ لحظة ولكنك تبدين بغتة وكأنه تملكينه » .

فرد قائلة « ألا يمكن أن نشترك فيه ؟ إنه في منتهى اللطف » .

وينظر إليها رالف فيجد أنها جميلة جداً ، فيقول « يمكنك أن تعتبره ملكاً لك كلية » :

ويلاحظ أن الفتاة تتمتع بثقة كبيرة بنفسها وبالناس ولكن هذا الكرم المفاجئ من جانبه يدفع بحمرة الخجل إلى وجهها فتقول « يجب أن أخبرك أني في الغالب ابنة خالتك » .

فرد قائلا « في الغالب » ثم يردف وهو يضحك « كنت أظن أن الأمر مؤكد ! » .

وتخبره الفتاة بأنها وصلت منذ نصف ساعة مع والدته التي تطلب إليه أن يذهب لرؤيتها في الساعة السابعة إلا ربعا . فيشكرها ويرحب بها . ويلاحظ رالف أنها :

« كانت تنظر إلى كل شيء بإدراك واضح - إلى رفيقها وإلى الكلبين وإلى الرجلين اللذين يجلسان تحت الأشجار - وإلى المنظر الجميل الذي يحيط بها » ، ثم تقول « لم أرى في حياتي أجمل من هذا المكان . لقد تحولت في جميع أنحاء المنزل . إنه منزل ساحر بدرجة غير معقولة » : (ص ١٢) .

وعندما تسأله عن رفيقه يخبرها أن أحدهما والده والآخر صديق لها هو لورد واربرتون ، فتبدى سعادة قائلة « لقد كنت أرجو أن يكون هناك لورد . إن هذا تماماً كما في الروايات » . ويعتذر رالف لأنه لم يعرف بوجودها قبل ذلك ويشير إلى أن والده مريض ثم يأخذها ليقدمها له فيستقبلها الأب بلطف وطمينة كبيرين . وتبدو إيزابيل ذكية ، سعيدة بما ترى ، خالية من التكلف ، فعندما تعلق على جمال المنزل ويرد الأب مجاملا بقوله إنها هي جميلة أيضاً ، تجيب دون تكلف : « نعم إنى جميلة » . ثم يلى ذلك حديث بينها وبين رالف الذي يتوق إلى مواصلة الحديث معها . يعجب رالف لعدم تقابلها من قبل فتخبره أن السبب هو خلاف نشب بين أبيها وخالتها بعد وفاة والدتها ولكن خالتها قد عادت فزارتها بعد وفاة والدها ثم تضيف :

« لقد كانت لطيفة جداً معي . واقترحت أن أذهب معها إلى أوربا » .

ويرد رالف « فهمت » لقد تبنتك » .

« تبنتني ؟ » وتحمل الفتاة بينما تعود الحمرة إلى وجهها تصحبا نظرة سريعة تنم عن الألم ، يزعج لها محدثها . لقد أساء تقدير وقع كلماته . وأثناء ذلك يقرب لورد واربرتون الذي كانت تلح عليه الرغبة في رؤية إيزابيل عن قرب . وتستقر عينا إيزابيل المتسعتان عليه ثم تقول « آه » ، كلا ، إنها لم تبنتني - إنى لست مرشحة للتبني » . ويتمم رالف « إنى في شدة الأسف - لقد كنت أعنى - أعنى - » ولم يكن يعرف تماماً ما يعنى : « كنت تعنى أنها أبدت اهتماماً بي ، أنها أخذت يدي . نعم ، إنها تحب أن تهتم بالناس وتأخذ بيدهم . لقد كانت لطيفة جداً معي ولكن » ثم أضافت برغبة بادية في الإيضاح . « ولكني شغوفة جداً برتي » .

« أتحدثون عن مسز تنشيت ؟ » هكذا ابتدرهم الرجل المسن من كرسيه « تعالى هنا يا عزيزتي وحديثي عنها . » « إنى دائماً شاكر لأية معلومات ألتقاها عنها » .

وترددت الفتاة قلباً مبتسمة ثم أجابت « إنها حقاً طيبة جداً » ثم ذهبت لزواج خالتها الذي داعبته كلماتها : أما لورد واربرتون فظل واقفاً مع رالف تنشيت ثم قال له بعد برهة « لقد كنت ترغب منذ وقت قصير في أن تعرف فكرتي عن امرأة تثير الاهتمام . . ها هي ذى ! » . (ص ١٧ ، ١٨) .

ومنذ البداية نجد تركيزاً على فكرة الحرية والاستقلال ، في برقية مسز تنشيت أولاً وفي كلمات إيزابيل ذاتها ثانياً ، ثم من ثم مسز تنشيت في حديثها مع رالف .

وهكذا يقدم لنا جيمس بطلته عن طريق هذه المقابلة بينها وبين عدد من الشخصيات التي ستلعب دوراً هاماً في حياتها والتي تبدو سريعة التأثير بها وباستخلاص الكثير عنها في هذه اللحظات القصيرة التي تعرفها فيها . فنحن نلاحظ كيف يظهر الأب ميلاً لها منذ اللحظة الأولى وكيف تثير اهتمام الشابين الذكيين لورد واربرتون

ورالف تشيت ، كما نلاحظ اعتدادها بنفسها وبجمالها واهتمامها بكل ما حولها .

وينظم جيمس مادته في شكل عدد من المشاهد التي تلقى مزيداً من الضوء على هذه الفتاة . فياخذنا أولاً إلى الوراء (الفصل الثالث) ليقدم لنا مشهد المقابلة الأولى بين الخالة وابنة أختها - وذلك بعد أن يعرفنا بهذه الخالة - ثم يرينا كيف رأت هذه السيدة ما أعجبها في هذه الفتاة الغربية الصريحة التي تفضل قضاء وقتها بمفردها في غرفة داخلية « حبيس » بعيدة عن بقية المنزل والتي تبادل خالتها عندما تعرفها بنفسها بقولها « لا بد أنك خالتي المحبونة » ، أو التي ترد عندما تقول لها الخالة :

- « إذا عرفت أنك ستكونين مطيعة وتفعلين كل ما أمرك به فسأخذك إلى فلورنسا » .

- « أفعل كل ما تأمريني به ؟ لا أظن أنني أستطيع أن أعد بذلك » .

- « لا : إنك لا تبدين من هذا النوع . إنك تفعلين ما تريدين . ولكني لا أستطيع أن ألومك على ذلك » .

- « ولكن مع ذلك ، فالذهاب إلى فلورنسا يجعلني أعد أن أفعل أي شيء تقريباً » (ص ٢٧)

ثم يأخذنا جيمس إلى حضرة أخت إيزابيل وزوجها (الفصل الرابع) ليسمعنا كيف يتحدثان عن إيزابيل . أما الأخت فتتوق إلى زواج أختها التي تراها فتاة ذكية شغوفة بالقراءة والمعرفة وأن كل ما تحتاج إليه هو الفرصة المواتية . ولكن الزوج يرى أن إيزابيل آخر فتاة يمكن أن يفكر في الزواج منها وأنه لا يفهمها . ويضيف أن آخر ما تحتاج إليه هو فرصة تجعلها تنمو وتتطور أكثر مما هي . ويختم الزوجان حديثهما بالقول بأن إيزابيل دون شك تشعر بالعظمة منذ زارتها خالتها ، ودعيتها للسفر معها إلى أوروبا .

ثم ينفذ بنا جيمس إلى ذهن إيزابيل نفسها ليرى تأثير دعوة خالتها عليها واستجابتها لتلك الفرصة الرائعة في فقرة من فقرات الرواية المميزة :

« سواء شعرت بالعظمة أم لا ، فإنها على أي حال تشعر بالاختلاف ، تشعر وكأن شيئاً حدث لها . وعندما وجدت نفسها بمفردها في المساء جلست برهة تحت المصباح وبدأها خالتيان وقد أهملت أعمالها المألوفة : ثم قامت وتجولت في الغرفة ثم من غرفة إلى أخرى ، مفضلة الأماكن التي لا يصلها ضوء المصباح الشاحب ، لقد كانت قلقة ، بل ومضطربة ، وأحياناً كانت ترتجف قليلاً . إن ما حدث لها أهم بكثير مما يبدو ، لقد حدث حقاً تغيير في حياتها . أما ما سيأتي به هذا التغيير فما زال غير محدد على الإطلاق ، ولكن إيزابيل كانت في موقف يجعل لكل تغيير قيمته . كانت ترغب في أن تترك الماضي وراءها وأن تبدأ من جديد ، كما تقول لنفسها . ولم تكن هذه الرغبة في الحقيقة وليدة هذه اللحظة ، بل كانت شيئاً مألوفاً لديها كصوت سقوط المطر على النافذة ، كانت هذه الرغبة السبب في بدايتها صفحة جديدة مرات كثيرة جداً . أقفلت عينها وهي جالسة في أحد أركان حجرة الجلوس المظلمة الهادئة ، ولكن ذلك لم يكن نتيجة لرغبتها في أن تغفو وتتناسى ، بل لأنها على العكس من ذلك كانت تشعر بأنها في حالة صحو شديد وترغب في أن تكبح جماح إحساسها برؤية أشياء كثيرة في وقت واحد . لقد كان خيالها بطبيعته نشطاً بشكل مضحك ، فإذا لم يكن الباب مفتوحاً قفز من النافذة ، ولم تكن معتادة في الحقيقة أن تحبسه وراء الأقفال ، وفي اللحظات الهامة ، عندما كانت تفضل أن تستخدم عقلاها فقط ، كانت تدفع ثمن إسرافها في تشجيع قلربتها على رؤية الأشياء دون الحكم عليها ، أما الآن : وعندما شعرت أن ناقوس التغيير قد دق فقد حضرها تدريجياً عدد من صور الأشياء التي ستركها وراءها ، عادت إليها سنوات حياتها ، وجلست

تستعرضها لفترة طويلة من الوقت ، في سكون لا يدهده سوى دقائق الساعة البرنزية الكبيرة . لقد كانت حياة سعيدة جداً كما كانت هي شخصاً محظوظاً جداً حقاً .

لقد كانت هذه هي الحقيقة التي ظهرت بكل وضوح . لقد تمتعت بخير الأشياء ، في العالم الذي لا تدعو فيه ظروف كثير من الناس إلى الحسد ، كان عدم تعرضها أبداً لشيء كرهه حقاً ميزة كبيرة . لقد بدا لإيزابيل أن الشر كان مجهولاً لها ، لأنها لمست من معرفتها بالأدب أن ذلك كثيراً ما يكون مصدر الاهتمام والعبرة . ولكن والدها قد جنبها ذلك — والدها الوسيم الذي أحبه كثيراً والذي كان يكره الشر بشدة . لقد كانت سعيدة أشد السعادة ببنتها له ، بل لقد شعرت إيزابيل بالزهو في أبوتها لها . كان يبدو لها منذ وفاته وكأنه يدير لأولاده جانبه الأكثر شجاعة وكأنه قد أفلح في تجاهل القبح الكائن في الحياة العملية بالقدر الذي تمنى تجاهله . ولكن هذا إنما رفع من حنانها نحوه ، فلقد كان من المثل أن تفترض أنه كان مسرفاً في الكرم ، مسرفاً في السباحة ، مسرفاً في عدم اهتمامه بالمسائل المادية القبيحة لقد كان والدها ينظر إلى الحياة نظرة كبيرة ، ولم يكن قلقه واضطراب سلوكه في بعض الأحيان إلا دليلاً على ذلك كان يجب أن تكون شريكة لوالدها فقد كانت العضو الوحيد من بناته الثلاث الذي عوضه عن كل الأشياء الكريهة التي لم يذكرها ، وفي أخريات أيامه لم يقلل من رغبته العامة في ترك العالم — الذي ازدادت فيه صعوبة سلوك الإنسان كما يحلو له كلما تقدمت به السن — سوى ألم الفراق من ابنته الذكية المتفوقة الممتازة . . . أما أختها إيديث فكانت أكثر منها نجاحاً في اجتذاب الآخرين .

فقسعة عشر شخصاً من عشرين (بما في ذلك الأخت الصغرى نفسها) كانوا يعترفون بأن إيديث تفوق أختها في جاهلها تفوقاً لانهاياً . أما الشخص العشرين فلن يكفي بقلب هذا الحكم ، بل يرفقه عن نفسه باعتبار التسعة

عشر الآخرين سوقيين في ميولهم الجمالية . كانت إيزابيل في قرارة نفسها ترغب رغبة لا حدها في الفوز بالاعجاب ، بل إنها كانت تفوق في ذلك أختها إيديث ، ولكن طبيعة هذه الفتاة كانت تقع على عمق بعيد كما أن الاتصال بينها وبين السطح كان يحول دونه عشرات النزوات القوية كانت ترى الفتيان يتهاقن في أعداد كبيرة على رؤية أختها ولكنهم بوجه عام يحشونها هي ، كانوا يعتقدون أن الحديث معها يستلزم استعداداً خاصاً . كانت معروفة بحبا للقراءة فكان ذلك يحبطها بخلاف من السحب كما لو كانت إلهة في ملحمة . كانت الفتاة المسكينة تود أن يظنها الناس ذكية ، ولكنها كانت تكره أن تعتبر شديدة الشغف بالكتب ، كان من عاداتها أن تقرأ سراً وبالرغم من قوة ذاكرتها إلا أنها كانت تتجنب كل ما قد يبدو مباهاة بمعلوماتها . كانت ترغب رغبة قوية في المعرفة ولكنها في الحقيقة كانت تكاد تفضل على الكتاب أي مصدر آخر للمعلومات ، كان لديها حب استطلاع كبير وكانت دائماً التطلع والتعجب . كانت تحصل بداخلها رصيداً كبيراً من الحياة ، وكانت أعمق متعها أن تشعر بالاستمرار بين حركات روحها وخطبات العالم . (ص ٣١ - ٣٤)

ويذهب جيمس ليؤكد لنا أن كل ذلك لم يبعد عنها الفتيان تماماً فقد كان بينهم من خفق لها قلبه وعقله معاً . وبالاختصار فقد تمتعت إيزابيل بكل ما تتمناه فتاة في مثل سنها من الحنان والاعجاب والحلوى والزهور وفرص الرقص والاستمتاع بالموسيقى والقراءة ، فتاة لم تعرف الألم ولم تختبر الشر . يمر كل ذلك أمام ذاكرتها في شكل مشاهد وأحداث ، وهي تجلس في ذلك الركن المظلم من الغرفة الهادئة .

وكان لا بد لجيمس أن يطلعنا هنا على إحدى علاقاتها بهذا العالم المتصل بكل هذه الذكريات ولذا فهو يقدم ذلك الشاب الأمريكي الذي يحب إيزابيل ويتقدم لها في هذه اللحظة عارضاً حبه بكل عزم وتأکید

ولكن إيزابيل التي ترى في هذا الحب قيда لحريتها ،
ترده خائباً ، وإن كان هو يبدو وكأنه لن يقبل الهزيمة :
ذلك هو كاسبار جودود الذي يستمر في عرض حبه
وإخلاصه لها إلى النهاية .

ولا يتم هذا التعريف بإيزابيل دون أن نراها كما
يراهها رالف ابن خالتها ، الشاب الذكي الفيلسوف الذي
يمثل أحد أعمدة الرواية لما يتمتع به من وعى فذ وتعاطف
مع البطلة لا يعوقه عن أن يراها بالرغم من حبه لها
بموضوعية نافذة ، ولما يلعبه في حياتها من دور فعال .
يذهب رالف للترحيب بوالدته وقبل أن يلور
بينهما حديث كاشف عن إيزابيل ، يكشف لنا جيمس
أولاً عن شخصية هذا الشاب ، فنعرف أنه جاء إلى
إنجلترا طفلاً بصحبة والديه وتلقى تعليمه في مدارس
إنجليزية ثم في جامعة أمريكية ثم أتمه في جامعة أكسفورد
الإنجليزية ، وكان الأب يرغب في خلق توازن بين أثرى
إنجلترا وأمريكا في شخص ابنه . كان الأب أحد
أصحاب البنوك وسرعان ما وجد الابن طريقه إلى عمل
أبيه ولكن مرضه يمنعه من العمل المجدد ، ولذا فهو يحيا
الآن حياة خالية من العمل أو الاهتمام الجدى : « وقد
أنفذه من وطأة قسوة التضحية بالحياة العاملة معين كبير
من عدم الاهتمام ، إلا أن رائحة الفاكهة المحرمة كثيراً
ما كانت تداعب أنفه مذكرة إياه بأن أجمل المتع هي
نشوة العمل » . يشير رالف اهتمام إيزابيل ، كما تشير
هي بذكاها وجهالها وإقبالها على الحياة اهتمامه ونشوقه
إلى معرفة المزيد عنها ، فيخاطب والدته قائلاً :

« أما الآن فحدثيني عن هذه الفتاة . ماذا تنوين
أن تفعل بها ؟ » .

وتجيب مسر تشيت على الفور « أنوى أن أطلب من
والدك أن يدعوها للبقاء في جاردن كورت ثلاثة أو
أربعة أسابيع » .

ويقول رالف « دعك من هذه الرسميات ، إن
والدى سيدعوها لذلك بطبيعة الأمر ! » .

« ومن أدراك بذلك ! إنها ابنة أختي أنا ، وليست
ابنة أخته » .

« بالله يا والدتي العزيزة ، ما كل هذا الإحساس
بالملكية ! إن هذا ادعى لأن يدعوها والدتي للبقاء هنا
ولكن بعد ذلك - أعني بعد ثلاثة شهور (فن المصححك
أن تدعو الفتاة المسكينة أن تبقى هنا ثلاثة أو أربعة
أسابيع هزيلة) - ماذا تنوين أن تفعل بها ؟ » .

« أنوى أن آخذها معي إلى باريس . أنوى أن
أشترى لها ملابس » .

« آه طبعاً . ولكن بخلاف ذلك ؟ » .

« سأدعوها لقضاء الخريف معي في فلورنسا » .
ويقول رالف « إنك لا ترتفعين عن مستوى
التفاصيل يا والدتي العزيزة . إنى أود أن أعرف ماذا
تنوين أن تفعل بها بوجه عام » .

وتعلن مسر تشيت « أفعل واجبي ! » ثم تضيف
« أظنك تشعر بشفقة كبيرة نحوها » .

« لا ، لا أظن أنى أشفق عليها ، إنها لا تبدو لي
وكانها تثير الشفقة . لكنى أحسدها . ولكن قبل أن
أؤكد من ذلك خبرتي قليلاً عما تربيته واجبك نحوها » .
« إنى أرى واجبي في أن أريها أربعة بلاد أوروبية -
وسأترك لها اختيار اثنتين منها - وفي منحها فرصة انقار
اللغة الفرنسية التي تعرفها جيداً الآن » .

ويقطع رالف جبينه قائلاً « إن هذا يبدو جافاً
بعض الشيء - حتى بالرغم من حرية اختيار اثنتين من
هذه البلاد » .

فتقول الأم ضاحكة « إذا كانت هذه الخطوة جافة ،
فيمكنك أن تترك لإيزابيل أمر ربيها ! فهي دائماً مثل
مطر الصيف » .

« أتعني بذلك أنها مخلوقة موهوبة ؟ » .

« لا أدري إذا كانت مخلوقة موهوبة أم لا ، ولكنها
فتاة ذكية - ذات إرادة قوية ، ومزاج حاد . ولا تنوى
أن تشعر بالملل » .

ويقول رالف « يمكننى أن أنجبل ذلك » ثم يضيف بغتة « كيف تتفان أنها الاثنين ؟ » .

« أتعنى بذلك أنى ملة ؟ لا أظن أنها تجدنى كذلك ، لافى أعرف أن بعض الفتيات قد يجدننى كذلك ، ولكن إيزابيل أكثر فطنة من ذلك . أظن أنها تجد عندى شيئاً من الترفيه . إننا نتفق لافى أفهمها ، أعرف أى نوع من الفتيات هى . إنها صريحة جداً وأنا صريحة جداً . إننا نعرف تماماً ما نتوقعه الواحدة من الأخرى . »

« آه يا والدنى العزيزة ، إن المرء يعرف دائماً ما يتوقعه منك ! إنك لم تبعثى الدهشة فى نفسى إلا مرة واحدة ، اليوم ، عندما قدمت لى ابنة خالة جميلة لم يخطر لى وجودها قط على بال . »
« أظن أنها جميلة جداً إذن ؟ » .

« جميلة جداً حقاً ، ولكنى لا أصمم على ذلك . إن ما بلغت نظرى هو ما توحى به من أنها شخص معين . من هذه المفارقة النادرة وما هى ؟ أين وجدتها وكيف تعرفت عليها ؟ » . (ص ٤١ - ٤٣) .

وهكذا يستمر الحديث بين رالف ووالدته كاشفاً عن اهتمام رالف بإيزابيل واهتمامه بوجه خاص بما تنوى الأم أن تفعله بها ولكن الأم ترد قائلة عندما يكرر سؤالها عن ذلك « إنك تتحدث عنها كما لو كانت متراً من القماش . لافى لن أفعل بها شيئاً على الإطلاق ، وهى نفسها ستفعل كل ما تريد ، لقد عرفتنى بذلك . »

ثم نرى رالف يصطحب إيزابيل فى جولة حول المنزل لتشاهد إيزابيل اللوحات التصويرية الجميلة بينما يرى رالف أنها أجدر بالنظر والتأمل من هذه اللوحات . فهى إلى جانب ذكائها واستقلالها جميلة جداً .

وهكذا تتضح أمامنا تدرجياً صورة حية واضحة المعالم لشخصية فتاة جميلة ذكية حساسة مثقفة ، تعتد برأىها وحرمتها وتسعى لمعرفة المزيد عن العالم والناس وتهم بكل ما حولها . أما رالف فيجدها مثيرة جداً للاهتمام وكأنها هبة من السماء قد وهبت له فى الوقت

الذى كاد يفقد اهتمامه بكل شيء ، ويعتقد أنها أفضل بكثير من أجود عمل فنى ، وأن فى رؤيتها متعة تفوق كل شيء فى الوجود . « فهى أنفوس من لوحة فنية لتيتيان أو تمال لإغريقى أو كاتدرائية قوطية » (ص ٦٥) وبالرغم من أنه يقبل على الاستمتاع بهذه الفرصة النادرة إلا أنه يدرك أنه لا يملك مفتاح هذه الكاتدرائية ولا يفهمها تماماً . إنها ذكية وكريمة وطبيعتها جميلة حرة ولكن ماذا ستفعل بنفسها ؟ ولكن هذا سؤال غير عادى ؟ فعظم النساء لا يصنعن شيئاً على الإطلاق بأنفسهن ، بل ينتظرن فى سلبية إلى أن يأتى رجل ويقرر مصيرهن فى الحياة . ولكن إيزابيل مختلفة . إنها توحى للمرأة بأن لها أها أفأ شخصية . ويتمنى رالف أن يكون حاضراً لمشاهدها عندما تنفذ تلك الأهداف .

وتمر الأيام وبالرغم من رغبتها فى رؤية عدد أكبر من الناس إلا أنها تستمتع بقضاء الوقت بصحبة زوج خالتها الذى تجلس بجواره تتحدث إليه وتمطره بأسئلتها . أو بصحبة رالف الذى يصحبها للتجديف أو التجول بالحديقة الواسعة أو ما حولها فى العربة الصغيرة التى يملكها مسر تنشيت .

وذات يوم يحل بجاردن كورت زائر هو لورد واربرتون الذى كانت إيزابيل قد رآته لمدة نصف ساعة عند وصولها واكتشفت أنه يعجبها . ويبقى الضيف بضعة أيام يدعو فى نهايتها إيزابيل لزيارة قصره . وتذهب إيزابيل بعد أن تأتى الأخوات لزيارتها ودعوتها رسمياً . وتعرف إيزابيل أن إحساسها الأول بالنسبة للورد واربرتون كان صادقاً فهى تعجب به بعد أن تعرفه عن قرب نتيجة لحديثهما معاً ولحديثها عنه مع رالف الذى يظنه لطيفاً جداً ومحظوظاً جداً ، بينما ترى فيه إيزابيل لأول وهلة بطلا رومانسياً ثم تكتشف أنه نبيل من آخر طراز ، فهو ديموقراطى النزعة ومعارض للطرق العتيقة ولكنه بالرغم من ذلك يحتفظ بقلبه وأملاكه ومركزه ولا يفكر لحظة فى التخلص منها ، ولذا فهى ترى فى

موقفه شيئاً من الخداع وعدم المنطق وتتوق لرويته في
بوتقة الاختبار. ولكن مستر تشيت يؤكد لها أنه
وإن قامت بالبلد ثورة فإن أحداً لن يمس لورد
واربرتون بسوء ، لأنه محبوب جداً .

وتشهد إيزابيل قائلة « إذن فلن يمكنه أن يصبح شهيداً
حتى ولو أراد ذلك ! إن هذا موقف يدعو إلى
الأسى » .

ويرد الرجل المسن « إنه لن يصبح شهيداً أبداً إلا
على يدك » .

وتهمز إيزابيل رأسها ، قد يبدو أن هناك شيئاً
مضحكاً في أنها فعلت ذلك بلمحة من الحزن :
« لن أجعل من أى إنسان شهيداً » .

« لى أرجو ألا تصبحى أنت شهيدة » .
« أرجو ذلك » ولكن هل تشعر نحو لورد
واربرتون بالشفقة كما يفعل رالف ؟ » .

ونظر زوج خالتها إليها فترة ، بنظرة عطف ثابتة
« نعم أظن أنى أشعر نحوه بالشفقة في نهاية الأمر »
(ص ٧٨) .

ويمكن القول هنا بأنه كما تمثل إيزابيل الغشاة
الأمريكية فإن لورد واربرتون يمثل الحضارة الإنجليزية
بقيمها وتقاليدها وعراقتها ، بينما يبدو رالف نتاجاً
للحضارتين الأمريكية والإنجليزية معاً ، أما كاسبار
جودود فيمثل الحضارة الأمريكية الخالصة :

وتشعر إيزابيل أن لورد واربرتون يعجب بها
ونحس نغمة غريبة تزحف في حديثه معها وتبعث في
نفسها الخوف - الخوف من أن يعبر لها عن حبه لها -
هذا في الوقت الذى تقيها صديقها هنريتا ستاكبول
الصحفية الأمريكية بوصول كاسبار جودود الذى
مايلبث أن يكتب لها طالباً روثيتها ، وبينما تستغرق إيزابيل
في قراءة هذا الخطاب في الحديقة وهى تشعر بالضيق
تلقت لرى لورد واربرتون واقفاً أمامها :

وهكذا نرى جيمس لا يألُ جهداً في معالجة
موضوعه فهو لا يعتمد على المشهد الحى والصورة
المجسمة فقط بل يعتمد على الصورة اللفظية والحدث
الرمزى والتلميح ليوفى الموضوع حقه من الناحية الفنية
أو التكنيكية . فايزابيل مثلاً مثل العمل الفني في جمالها
وإثارتها للانتباه ، ورالف يتنازل عن ملكيته لكلبه
لمجرد أن تبدى إيزابيل إعجابها به ، ومستر تشيت يقول
إن الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يجعل من لورد
واربرتون شهيداً هو إيزابيل بينما يتخفى ألا تصبح هى
بدورها شهيدة . أما في هذا الموقف بالذات فإنه - بينما
تشعر إيزابيل بالضيق لنبا وصول كاسبار وتخشى أن
يعكر وصوله صفو الجو الجميل الذى تتمتع به في
جاردن كورت ، فإنها تحس عندما يقف لورد
واربرتون أمامها في الحديقة بعد انتهائها من قراءة خطاب
كاسبار « أن ابتسامته كانت سارة وودية بصفة خاصة
وقد بدا شخصه كله وكأنه يشع هذا الإحساس الطيب
والحياة الطيبة الذين شعرت بسحرهما في شعورها الأول
نحوه . وكأن هذه الابتسامة قد أحاطت به كمنطقة من
الجو الصيفى الصحو » (ص ١٠٧) .

ومرة أخرى يطلعتنا جيمس على ما يدور بخاطر
هذه الفتاة وهى تواجه هذا الموقف الذى تخشى فيه
أن تتقدم لها هذه « الشخصية الكبيرة » بطلب يدها
للزواج والذى تشعر فيه بشيء من حب الاستطلاع
والجزع في نفس الوقت . أما الجزع فيتكون من عدة
عناصر لم تكن كلها غير سارة . فقد قضت إيزابيل في
الواقع عدة أيام تحللها فيها ونجحت في فصل السار عن
المؤلم من هذه العناصر :

« لم تكن منلهفة على إقناع نفسها بأن مالكا عظيماً من
ملاك الأرض ، كما سمعت لورد واربرتون يدعى ، قد أصابته
سهم حسنها . فقد كان التقدم بهذا الطلب من مثل هذا
المصدر يحمل معه حقاً من علامات الاستفهام أكثر مما
يجب . لقد أحست إحساساً قوياً بكونه « شخصية كبيرة » ،

وشغلت نفسها بتأمل هذه الصورة . وبالرغم مما قد تعرض له من إضافة دليل آخر على استقلالها الذاتي فإنه يجب القول بأنه كانت هناك لحظات كان يمثل فيها إمكان إعجاب شخصية كبيرة بها درجة من الإهانة ، بل ودرجة من المضايقة فهي لم تعرف شخصية كبيرة من قبل ، ولم يكن في حياتها شخصية كبيرة بهذا المعنى ومن الممكن ألا توجد مثل هذه الشخصيات في بلدها . عندما كانت تفكر في شخصيات ممتازة كانت تفكر في ذلك على أساس الخلق والذكاء وخفة الروح ، وما يمكن أن يجبه المرء في عقل الشخص وحديثه . هي ذاتها شخصية ذات طابع معين — كان يتعين عليها أن تدرك ذلك ، وحتى ذلك الوقت كانت رؤيتها للوعي الكامل تشغل نفسها لحد كبير بالصور المعنوية ، وبما إذا كانت الأشياء تسر روحها السامية أم لا . أما لورد واربرتون فكان يلوح أمامها ضخماً مضيقاً مثل مجموعة من الصفات والقدرات التي لا تقاس بهذه القاعدة البسيطة ، بل تتطلب تقديراً من نوع آخر — تقديراً أحسست الفتاة التي اعتادت الحكم السريع الحر — أنه ينقصها الصبر اللازم للقيام به . فهو يبدو وكأنه يطلب منها شيئاً لم يجروا أحد آخر أن يطلبه منها . وكان ما تحسه هو أن شخصية بارزة في مجال الملكية الأرضية ، ومجال السياسة والمجتمع قد فكرت لاجتماعها في خطة تنسم بشيء من الظلم داخل النظام الذي تعيش وتتحرك فيه ، وأحسست بغريزة معينة ، غير مسيطرة ولكنها مغربة تقول لها أن تقاوم وتنتم لها أن لها في الواقع نظاماً ومداراً خاصاً بها . وتقول لها أشياء أخرى كثيرة متضاربة . كأن فتاة مثلها لا تخطئ إذا سلمت نفسها لمثل هذا الرجل وإنه لمن الشائق أن ترى شيئاً من نظامه من وجهة نظره هو . وإنه من ناحية أخرى فعلى أى حال من الواضح أن جزءاً كبيراً من هذا النظام سيبدو لها في كل لحظة كمجرد تعقيد للأمور ، بل وإن بالنظام بأكمله شيئاً جامداً يتسم بالغباء ويجعله حملاً ثقيلاً . وبالإضافة إلى ذلك

فقد كان هناك شاب أمريكي ليس له نظام على الإطلاق ولكن كانت له شخصية مستحيل عليها أن تحاول إقناع نفسها بأن الأثر الذي تركه في نفسها أثر منير ، (ص ١٠٧ - ١٠٩) .

وعرض عليها لورد واربرتون الزواج فعلا ولكنها بالرغم مما تشعر به نحوه من ميل وإعجاب وتقدير وما يديه هو نحوها من حب خالص نقي — مثل المصباح الذي يضئ باستمرار في مكان لا تهب به رياح — فإنها ترفضه برفق واحترام وشعور بالشكر . لأنها لا تستطيع الزواج من لورد واربرتون . « لقد فشلت هذه الفكرة في إثارة أى شعور مستنير في صالح حرية استكشاف الحياة التي تدب بها للآن أو التي كان بمقدورها أن تدب بها الآن » (ص ١١٧) .

أما ما أقلقها وأثار العجب في نفسها فهو أنها لم تعان إلا قليلاً جداً مقابل رفضها هذه « الفرصة الرائعة » ، وتنضح لنا أهمية هذه الفرصة عندما نرى رد فعل أصدقائها لهذا الرفض . أما مسر تششيت الذي تذهب إليه لتنبئه أولاً بهذا الخبر فهو الوحيد الذي يشعر أنها أصابت بالرفض . أما مسر تششيت فتستنكر هذا الرفض ويعجب رالف لما يمكن أن تأمل فتاة ترفض شخصاً مثل لورد واربرتون أن تفعل بحياتها .

ترفض إيزابيل كذلك الشاب الأمريكي كاسبار جودوود الذي يتبعها عبر المحيط سعياً وراء إجابة أفضل مما حصل عليه في ألباني . ترفضه إيزابيل لأن الزواج منه يعني الحد من حريتها وخاصة بعد أن رفضت في سبيل هذه الحرية رشوة كبيرة هي الزواج من لورد واربرتون . هذا بالإضافة إلى أنه كان يبدو لها « ذاك مربع جداً وكان قوامه مستقيماً جامداً جداً ، وكانت هذه الأشياء توحى بنقص في سهولة التوافق مع حركات الحياة العميقة » .

وهكذا ترفض إيزابيل ما تقدمه لها الحضارة الإنجليزية العريقة وما تقدمه لها الحضارة الأمريكية

الشابة . وكأنها ما زالت تبحث عن شيء أفضل .

ويبدأ فصل هام في حياة إيزابيل عندما تتعرف بسيدة أمريكية مستوطنة في أوربا هي مدام مرل صديقة مسز تشيت التي تحضر لزيارتها في الوقت الذي يرقد فيه مسر تشيت على فراش الموت . وتترك إيزابيل لأول وهلة ترى فيها مدام مرل - عندما تسمع شخصاً يعزف البيانو فتذهب إلى حجرة الجلوس لتراها وتظهرها نحوها تعزف بمهارة فائقة - تترك أنه سيكون لهذه المرأة شأن كبير في حياتها . تجد إيزابيل في مدام مرل سيدة ذكية أنيقة جميلة تلفت النظر بمعرفتها وخبرتها وطريقة سلوكها ، وتخبرها خالتها أنها سيدة لا تخطئ أبداً وأن بمقدورها أن تتعلم منها الكثير . أما عندما تذهب لاستطلاع رأي رالف فيبلى هذا أنه لا يميل إليها كثيراً ولكن دون أن يذكر لذلك أسباباً معينة . ولذا فإن إيزابيل لا تتقبل آراءه التي لا تغير من علاقتها بـ مدام مرل شيئاً ، بل على العكس نجد هذه الصداقة تنمو وتقوى .

وموت مسر تشيت تاركاً لإيزابيل ثروة ضخمة تقدر بسبعين ألفاً من الجنيهات . ويرجع ذلك إلى تدخل رالف الذي أقنع والده أن يترك لإيزابيل نصف نصيبه من ثروته قائلا : أريد أن أضع بعض الربح في شراعيها . إنني أود أن أمكنها من الوفاء بمطالب خيالها . وبالرغم من نخوف الأب من وقوعها فريسة في يد زوج يسعى وراء ثروتها إلا أن رالف يرى أن تلك مغامرة لا مفر منها .

أما إيزابيل التي لم تكن تتوقع شيئاً من هذا القبيل فتكاد تصاب بشبه ذهول تام ، وتترأى وهي لا تدري ما تظن بأمر هذه الثروة الكبيرة . ولكنها بعد أن ترسل شيكاً لكل من أختها في أمريكا ، تبدأ في التفكير في كيفية استخدام هذه الثروة ومدى الفرص التي تمنحها لها ، وما تعنيه من قوة وما تستلزمه من جدية . وتبدي إيزابيل نخوفها من كل هذه الثروة وما تعنيه من حرية

لرالف عندما تسأله عما إذا كان يعلم بأمرها أو بسبب ترك والده لها . فهي تخشى أن تخطئ وتود أن تعلم كيف تستعملها ولكن رالف يقوى عزيمتها قائلاً : « إن الثروة قد تخيف الضعفاء ولكنها قوية » . فتساءل : « ولكن كيف تدري أنني لست ضعيفة ؟ » فيرد : « آه لو كنت ضعيفة ، فاني سأكون قد بعثت نفسي » . (الفصل الحادي والعشرون) .

وتعلم مدام مرل في هذه الأثناء بما أصاب إيزابيل من حظ وافر وكأنها تشعر بشيء من الحسد ولكن ذكاءها الشيطاني يرشدها إلى وسيلة تفيد عن طريقها من ثروة هذه الفتاة الساذجة المثالية فتعمل على تقديمها لشخص يدعى جلبرت أوزموند تقول إنه صديق قديم لها وتصفه بأنه فنان وشخصية متميزة يتعين على إيزابيل لقاءها . أما مسز تشيت فتصحب إيزابيل إلى لندن فباريس ومنها إلى فلورنسا حيث يقيم أيضاً هذا الرجل الأمريكي المستوطن بأوربا دون أن تعلم ما يدور بخلد صديقتها . وفي منتصف الكتاب تقريباً يترك جيمس إيزابيل تتأمل مصيرها وماضيها وحاضرها ، ليقدم لنا أوزموند وابنته بانسي ويكشف لنا عن شيء من العلاقة التي تربط أوزموند بـ مدام مرل . وعلى عادة جيمس يبدأ أولاً بوصف الفيلا الأنيقة التي يقطنها أوزموند وبعض محتوياتها قبل أن يقدم لنا أوزموند نفسه الذي يقدم لنا وصفاً دقيقاً لمظهره (ص ٢٤٦) . أما ابنته فتاة صغيرة ترى بصحبة الراهبتين اللتين قد أتيئتاها من المدرسة ، مطيعة ، ربتها الراهبات على الطاعة والخضوع للسلطة ، يصفها والدها بأنها زهرة نقية . وهي تمثل نمطاً من الفتيات اهتم جيمس بتصويره في كثير من أعماله . وفي هذا المشهد وبعد انصراف الراهبتين ، يكشف الروائي للقارئ عن العلاقة التي تربط أوزموند بـ مدام مرل وعن شيء من شخصيتهما الحقيقية . أما أوزموند فيتضح من كلام مدام مرل أن أسوأ صفاته ليس حب الذات كما يدعى هو ، بل التكاسل . لكن مدام مرل

تخبره أنها تريد أن يقوم بعمل ما في فلورنسا وتكشف له عن خطتها التي تلخص في أن يتقرب من إيزابيل ويتزوجها ، مشيرة إلى جمالها وشخصيتها الجذابة وثروتها الكبيرة . ويتضح من خلال هذا الحديث التفاهم التام بين هذين الشخصين اللذين يبدو أن متعاونين متفاهمين وإن لم يكونا متحابين كما كانا في وقت من الأوقات . ويعد أوزموند بزيارة إيزابيل وإن كان يفضل ألا يرى رالف الذي لا يحبه ، أما الحالة فلا يعبأ كثيراً لها .

وفي بداية الفصل التالي (التاسع والعشرين) تشير مدام مرل في حديثها مع إيزابيل مرة أخرى إلى أوزموند ولكن بصورة أقل تأكيداً أو صراحة مما تفعل في إشارتها لأوزموند عن إيزابيل ، معبرة عن رغبتها في أن تعرف به كواحد من غير معارفها ومن أطف وأهم الرجال في أوروبا . وتصوره مدام مرل على أنه شخص غير عادى ومثير للاهتمام ويستحق دون شك أن تعرفه إيزابيل .

وخلال هذه الفترة تستمتع إيزابيل بكنوز فلورنسا الفنية وتستسلم في نشوة غامرة لتأثير ما تراه من لوحات فنية وتماثيل رائعة وكنائس قديمة ومبان جميلة ، يقودها لذلك رالف الذي يتجدد حماسه الأول لهذه الأشياء وهو يقدمها لابنة خالته الشابة الممتلئة شوقاً واهتماماً .

ثم يأتي أوزموند لزيارة مدام مرل وتقدم هذه له إيزابيل . ويصور لنا جيمس مشهداً رائعاً غنياً بمدلولاته . تجلس إيزابيل ساكنة بعيداً في الظل لمشاهدة المشهد الرائع بين هذين الشخصين الرائعين وكأنها تنصت لحفلة موسيقية سيفسدها حتماً إن نهى تدخلت في الحديث . ومنذ البداية تشعر وكأن هذين الشخصين يقومان بتمثيل دور أعداء خصيصاً لاكتساب هذه الفتاة التي تبهرها مهارتهما في الحديث وفي السلوك بحيث لا تكاد تبدى حراكاً .

وبالرغم من أن جيمس يهدف كما يقرر في المقدمة إلى كشف الأمور عن طريق وعي إيزابيل إلا أنه يستخدم أيضاً وعي رالف أحياناً ، بل ومدام مرل أحياناً أخرى . فهنا مثلاً لا ترى إيزابيل ولا يمكن أن ترى ما يدور خلف الستار بين مدام مرل وأوزموند . ولكن لديها فرصة استنتاج شيء عن حقيقتيهما من ملاحظات رالف عنهما . وكى يتضح لنا إصراف إيزابيل في الاعتماد على النفس وحرية الاختيار نراها بالرغم من رغبتها في استطلاع رأي رالف في مدام مرل وأوزموند لا تتقبل وجهة نظره . هذا علماً بأن رالف لا يفصح عن رأيه في كليهما وإنما يكفي بالتمسح أولاً ثم بالانفصاح فيما بعد (عندما يشعر بخطورة الموقف) . فيقول عن مدام مرل مثلاً إنها سيدة ماهرة جداً وأنها تبدو كاملة بل درجة تقلقه . أما عن أوزموند فيقول إنه يجمل كل شيء عنه فيما عدا كرهه للسوقية والابتذال وما يبدو من أن هذا هو شغله الشاغل . ومهما يكن من أمر فإنه يبدو من الواضح أن رالف لا يميل إليهما ، بل وإنه بالرغم من رفضه الانفصاح عما يدور بخلده إلا أنه لا يدع مجالاً للشك لدى إيزابيل في أنه لا يوافق عليهما ، ولكنها مبالغة في الاعتماد على رأيها ، ترجع ذلك إلى حالته النفسية ومرضه .

فبنتما تسأله إيزابيل مثلاً إذا ما كان جيمس أوزموند يرد قائلاً :

« هل أعرفه ؟ ... نعم أعرفه ، لا أعرفه جيداً ولكن بوجه عام بالقليل الكافي . لم أعشره قط كما يبدو أنه لم يجد قط أنه لا يمكنه الاستغناء عن صحبتي . من هو وما هو ؟ إنه أمريكي غامض لا يمكن تفسيره . عاش هنا في إيطاليا طيلة ثلاثين عاماً أو أقل قليلاً . لماذا أقول إنه لا يمكن تفسيره ؟ لا شيء سوى تغطية لجهل . فأنا لا أعرف ما سبق من حياته ولا أسرته ولا أصله . ومن يدري لعله بالرغم من ذلك أمير متكرر ، فهو يبدو كذلك بعض الشيء . وعلى أي حال فهو يبدو كأمير

« إنها شخصية ممتازة إذا أردت شخصاً تعرفينه »
وما دمت ترغبين في رؤية العالم فلن يمكنك الحصول
على دليل خير منها »
« أظنك تعني بذلك أنها دنيوية ؟ »
« دنيوية ؟ إنها الدنيا الكبيرة المستديرة ذاتها ! »
(ص ٢٧١) :

وواضح أن نعمة رالف التي لا تخلو عادة من
الفكاهة والسخرية تحمل كثيراً من المعنى هنا . وقد
تساءل لماذا لا يفصح رالف برأيه في مدام مرل ؟
السبب كما يكشف لنا جيمس هو أن رالف كان يعتقد
أن المرأتين لا تعلمان كل شيء عن بعضهما وأنه بمجرد
أن تكتشف إحداها شيئاً من ذلك فإن علاقتهما ستفتر
وأن إيزابيل لن يلحقها من ذلك أدنى ضرر .
لذا وتذهب إيزابيل بصحبة مدام مرل لتناول الشاي
مع أوزموند وابنته وأخته الكونتيسة جيميبي وبندل
أوزموند جهداً خاصاً للحفاوة بإيزابيل دون ابتذال
أو سوقية ، ويربها تحفه وقطعة الفنية ، ويفضى إليها
بشيء غير قليل عن نفسه وعن عدم اهتمامه بالنجاح
أمام العالم واكتفائه بالأفعال شيئاً . وترك الزيارة أثراً
قوياً في نفسها بينما يخرج القارئ بشعور لا يمكن التخلص
منه بأن البيت يشبه المتحف ، وأن كل شيء به بما في ذلك
سلوك صاحبه قد جهز خصيصاً للعرض . ويزورها
أوزموند في بيت خالتها خمس مرات في أسوعين مما
يلفت نظر الخالة ورالف ولكن رالف لا يعتقد أن
إيزابيل ستقبل أوزموند حتى لو تقدم طالباً يدها .
أما إيزابيل فتشعر أنه مثير للاهتمام - وكان الصورة التي
تركها في نفسها زيارتها لمنزله في أعلى التل تبقى وتقوى
بتكرار لقائهما . . صورة رجل هادئ الطبع ، ذكي ،
حساس ، ممتاز .

ويذهب الجميع إلى روما حيث تلتقي إيزابيل
صدقة بلورد واربرتون الذي يبدو أنه ما زال يحيا .
ويتكرر لقاء الأخير بأوزموند ويندرك ما يسعى إليه هذاء

تنازل عن الإمارة في فورة من السخط وبقي في حالة
تأفف منذ ذلك الوقت . كان يعيش في روما ، ولكنه
اتخذ له مقراً هنا في السنوات الأخيرة ، أذكر قوله إن
روما أصبحت سوقية . إنه يخشى السوقية بدرجة كبيرة
هذا هو اتجاهه الخاص ، فليس له اهتمام آخر على ما أعلم .
يعيش من دخله الذي لا أظنه كبيراً بدرجة سوقية . إنه
رجل فقير ولكنه شريف - هكذا يصف نفسه . تزوج
في شبابه وفقد زوجته ، واعتقد أن له ابنة . وله أيضاً
أخت ، متزوجة من كونت ما من هذه الناحية . أذكر
مقابلتي لها فيما مضى : إنها ألطف منه ، فيما اعتقد ،
ولكن من الصعب تحملها . أذكر أنه كانت هناك بعض
الشائعات عنها ولا أظن أنني أشير عليك بمعرفتها . ولكن
لما لا تسألن مدام مرل عن هؤلاء الناس ؟ إنها تعرفهم
خيراً مما أعرفهم أنا » (ص ٢٦٨) :

أما بخصوص مدام مرل ، فعندما نتحدث لإيزابيل بأنه
لا تعجبنا الطريقة التي يتحدث بها رالف عنها فانه يقول :
« إنني أتحدث عن مدام مرل تماماً كما أتحدث إليها
باحترام مبالغ فيه أيضاً أفعل ذلك لأن مزايا مدام
مرل مبالغ فيها دعيني أشرح . عندما أقول إنها
تبالغ فاني لا أعني أنها تبالي بالطريقة المبتذلة - أي أنها
تفاخر وتسرف في القول أو تصف نفسها وصفاً رائعاً .
ولكن أعني بالحرف الواحد أنها تذهب بالسعي وراء
الكمال إلى حد بعيد جداً - وأن مزاياها نفسها مبالغ فيها
فهى طيبة جداً ، وكرمة جداً ، وذكية جداً ، ومتففة
جداً ، ومهذبة جداً ، وكل صفاتها مبالغ فيها ،
وبالاختصار فهى كاملة جداً » . (ص ٢٧٠) :

ثم يردف رالف مخاطباً إيزابيل :
« إنه من الممكن أن يجد المرء نقصاً أو نقطة سوداء
في كل شخص آخر ، حتى أنت ، أما بالنسبة لمدام
مرل فلا شيء ، لا شيء ، لا شيء » .
وتقول إيزابيل « إنني أتفق معك تماماً . وهذا هو
السبب في حبي الشديد لها » :

المشهد الذي يكشف فيه رالف أخيراً لإيزابيل عن رأيه في خطبتها .

يجد رالف نفسه في حيرة بالغة فهو يعلم أن تدخله لكشف حقيقة أوزموند ومدى خداعه لابنة خالته التي يعزها أكثر من أى شيء آخر في الوجود ، إنما يمكن تبريره فقط إذا تأكد من نجاحه في إقناع إيزابيل ، أما إذا باءت محاولته بالفشل فسيقضى عليه ، إذ ستلومه إيزابيل وتستمر في طردها . وهكذا قضى رالف وقته شارباً نائماً منتقلاً بين أنحاء القصر كسفينة بغير دفة في مجرى صخري ، أو جالساً في الحديقة على كرسي كبير من الخيزران ماداً رجله وملقياً برأسه إلى الخلف وقبعته تغطي عينيه .

« كان يشعر برودة حول قلبه : لم يكره في حياته شيئاً مثلاً كره هذا الأمر . ماذا يستطيع أن يفعل وماذا يستطيع أن يقول ؟ فسواء جهر برأيه أو تظاهر بغير ما يعتقد فسيكلفه ذلك نفس الجهد . إذ لا يمكنه الموافقة باخلاص أو المعارضة بأمل » . (ص ٣٦٦)

أما إيزابيل فبالرغم من توقعها معارضة رالف لزواجها إذ من الطبيعي أن يكره ابن الخالة الزوج ويعارض ، إلا أنها كانت على استعداد لهذه المعارضة ، لأن تلوم رالف إذا لم يظهر مشاركة كافية . وتمضى ثلاثة أيام لا يتفوه فيها رالف ببنت شفة :

و ذات صباح تعود إيزابيل من نزهتها الصباحية لتجده في بقعة جميلة من الحديقة في جلسته المعتادة فتظنه نائماً . وبالرغم من أنها لضيقها قد أهملته بعدم الاكتراث إلا أنها لم تغفل عن ظهوره بمظهر من يشغله أمر . ولكنها كانت ترجع شروده جزئياً لسوء حالته الصحية أو لأسباب تتعلق بأعماله المالية . وتقف إيزابيل تتأمل لحظة من الزمن . ولكن رالف يفتح عينيه فتجلس بجواره ويدور بينهما الحديث التالي :

« معذرة ، لقد أيقظتك . إنك تبدو متعباً » .

فيقلقه الأمر ويشاور رالف الذي يرى أن خير وسيلة لإنقاذ إيزابيل هي عدم التدخل . وينقل إلينا جيمس بمهارة بالغة قلق أصدقاء إيزابيل بشأن أوزموند وتقربه منها عن طريق أحاديثهم الخاصة كما هو الحال بين رالف وواربرتون وملاحظاتهم المباشرة كما هو الحال مع هنريتا التي لا تخفى ضيقها منه .

« وقبل أن تترك إيزابيل روما يعبر لها أوزموند عن حبه بتمهي الاحترام واللياقة ولكنها ترفض مناقشة الأمر معه محتجة بأنها لا تكاد تعرفه وأنه خير لها أن يفرقا » . ويعلق جيمس على استجابة إيزابيل لهذا الموقف بقوله :

« وعندما انصرف ، وقفت برهة تتلفت حولها ثم جلست ببطء وبشيء من التمعن . جلست هناك إلى أن عاد رفاتها ، ويدها مطويتان ، تحمق في السجادة القبيحة . كان اضطرابها - الذي لم يتناقص - اضطراباً ساكناً جداً ، عميقاً جداً . أما ما حدث فكان شيئاً توقعه خيالها طيلة الأسبوع وتقدم لملاقاته ، ولكن هنا ، عندما حدث ، توقفت ، فبشكل ما تعطل هذا المبدأ السامى . لقد كان سلوك هذه الفتاة النفسى غريباً ، وكل ما أستطيع فعله أن أقدمه لكم كما أراه ، دون أمل في أن أجعلها تبدو طبيعية » . (ص ٣٣٧) .

وتقوم إيزابيل مع مدام مرل برحلة في الشرق الأوسط ، ولتلتقي بها مرة أخرى بعد عودتها ونزلها بقصر مسز تشيت في فلورنسا في أواخر الربيع أى بعد عام من الأحداث التي روينها . وفي هذا الجزء من الرواية نرى أثر إعلان خطبتها على كاسبار جودود الذي يحضر خصيصاً من أمريكا ليراها قبل أن تزوج ويعرف شيئاً عن ذلك الرجل الذي تزوجه (الفصل الحادى والثلاثون) ثم على خالتها التي تستنكر هذه الخطبة وخداع مدام مرل لها وتعد بأن تعمل على إقناع إيزابيل بالعدول عن رأيها بأن تطلب من رالف أن يحاول ذلك ، نرى هذا في عدد من المشاهد المتتالية ، لعل أهمها

ويقول رالف «إني أشعر بتعب شديد . ولكني لم أنم . كنت أفكر فيك » .

« أتعبت من ذلك ؟ » .

« تعبت جداً . فذلك لا يؤدي بي إلى شيء . فالطريق طويل ولا أصل أبداً » .

ثم قالت إيزابيل وهي تطوى مظلها « وإلى أي شيء تريد الوصول ؟ » .

« إلى نقطة التعبير كما يجب عما أظنه في أمر خطبتك » فأجابت بخفة « لا تفكر كثيراً في أمرها » .

« أتعتين أن ذلك ليس من شأني ؟ » .

« بعد نقطة معينة ، نعم » .

« تلك هي النقطة التي أود تحديدها . ظننت أنك قد تجديني مقصراً في حسن السلوك ، إذ لم أهتمك بعد » .

« لاحظت ذلك طبعاً وعجبت لماذا التزمت الصمت ؟ » .

« كانت هناك أسبابا كثيرة . سأخبرك الآن » .

وخلع رالف قبعته ووضعها على الأرض . ثم جلس ينظر إليها : وانتكأ إلى الخلف في ظل تمثال برنيني (الموجود في الحديقة) ورأسه يستند إلى القاعدة المرمرية ، وتدلى ذراعه إلى جنبه ، ويداه على جانبي مقعده الواسع . بدا في وضع يثير رشيقي وغير مريح . وتردد طويلاً . ولم تقل إيزابيل شيئاً . كانت عادة تشعر بالأسف نحو الناس عندما يجدون أنفسهم في حيرة ، ولكنها صممت ألا تساعد رالف في التفوه بكلمة لا تشرف قرارها الرفيع . وأخيراً قال رالف « لم أفق بعد من دهشتي . لقد كنت آخر شخص أتوقع أن أراه وقد وقع في الشرك » .

« إني لا أدري لماذا تقول وقع في الشرك » .

« لأنك ستوضعين في قصص » .

فأجابت « فإذا أحبيت القمص فيجب ألا يقلقك هذا » .

« إني لا أدري لماذا تقول وقع في الشرك » .

« لأنك ستوضعين في قصص » .

فأجابت « فإذا أحبيت القمص فيجب ألا يقلقك هذا » .

« هذا ما أعجب له . هذا ما كنت أفكر فيه » .

« إذا فكرت أنت فيمكنك أن تتصور كيف فكرت أنا . إني مقتنعة بأنني على صواب » .

« لا بد أنك تغيرت تغيراً كبيراً . فبذ عام كنت

تقدرين حريتك فوق كل شيء » . كنت تريد أن ترى الحياة » .

فقالت إيزابيل « لقد رأيته . وأعترف أنها لا تبدو لي الآن كما كان مفر لهذا الحد » .

« إني لا أدعي أنها كذلك . ولكني كنت أظن أنك تنظرين إليها نظرة ودية وتحاولين رؤية الميدان بأكمله » .

« لقد رأيت أنه ليس بمقدور المرء أن يفعل شيئاً عاماً هكذا . لا بد أن يختار المرء ركناً ويوليّه عنايته » .

« هذا هو اعتقادي . يجب على المرء أن يختار خير ركن . لم أكن أدري ، طيلة الشتاء . بينما كنت أقرأ

خطاباتك الممتعة ، أنك كنت تختارين . لم تذكر شيئاً عن ذلك . لقد جعلني صمتك أنحلي عن حيطتي » .

« لم يكن هذا أمر محتمل أن أكتب لك عنه . وإلى جانب ذلك ، فاني لم أكن أعلم شيئاً عن المستقبل . فقد

حدث كل هذا حديثاً . وحتى إذا كنت قد أخذت حيطتك فماذا كنت تفعل ؟ » .

« كنت أقول : أنتظري قليلاً » .

« أنتظر ماذا ؟ » .

فقال رالف وعلى وجهه ابتسامة مضحكة بعض الشيء « بينما وجدت يداه طريقهما المعتاد إلى جيبه :

« تنتظري نورا أقوى قليلاً مثلاً » .

« ومن أين كان لهذا النور أن يأتي ؟ منك ؟ » .

« ربما كان في استطاعتي أن أقدح شرارة أو اثنين » .

« كانت إيزابيل قد خلعت قفازيها . وأخذت ترتبهما وهما على ركبتيها — كانت رقة هذه الحركة عرضية . إذ لم تكن نظرتها نظرة مصالحة : « إنك تدور وتلف

يا رالف . . إنك ترغب أن تقول إنك لا تحب مسر أوزموند ولكنك خائف ! » .

« إنى على استعداد لأن أخرج ولكنى أخشى أن أضرب ؟ » « إنى على استعداد لأن أجرحه هو ، نعم — ولكن لا لأجرحك أنت . . إنى أخشاك أنت ولا أخشاه فإذا تزوجته فانه لن يكون من حسن حظى أن صرحت برأى » .

« إذا تزوجته ؟ وهل كان لديك أمل فى أن تنقذ عن عزمى ؟ » .

« بالطبع يبدو لك هذا ضرباً من العبث » .

فقالت ليزابيل بعد قليل « لا ، بل يبدو لى شيئاً يدعو إلى الرثاء » .

« إن هذا لا يغير من الأمر شيئاً . إن ذلك يجهلى مضحكاً لدرجة الرثاء » .

ربت ليزابيل مرة أخرى على قفازيها الطويلين « إنى أعلم أنك تكن لى مقداراً كبيراً من المحبة . . هذا شيء لا يمكننى التخلص منه » .

« بحق السماء لا نحاولى . احتفظى بذلك أمام ناظريك فسيفتعلك هذا إلى أى حد أتمنى لك أن تغلقى » .

« ما أقل فتلك لى ! »

ساد السكون لحظة وبدأت الظهيرة الحارة وكأنها تنصت ثم قال رالف « إنى أثق بك ، ولكنى لا أثق به » رفعت عينها ورمته بنظرة واسعة عميقة « لقد قلنا الآن ، وإنى مسرورة لأنك وضحت الأمر بهذه الدرجة ولكنك ستقاسى بسبب ذلك » .

« لن أقاسى إذا كنت عادلة » .

وقالت ليزابيل « إنى عادلة جداً » (ص ٣٧٠ - ٣٧١) .

بصور جيمس هذا الموقف بمنتهى الجمال والرفقة بحيث تضيق كل لسة وكل جملة من الحديث الجارى بين هذين الشخصين إلى شعورنا بإحساس رالف المرهف وحبه ليزابيل ورغبته الصادقة فى تخديرها وإلى إدراكنا لغضب

ليزابيل وشعورها ببطوليها لا فى الدفاع عن أوزموند فقط ، بل فى محاولتها للكشف عن فكرتها ورغبتها فى العدل تجاه رالف . يقول رالف معبراً عن مدى خيبة أمله فى مستقبلها :

« إن هذا لا يشبه فى شيء الزواج الذى كنت أتصورك ستعقدينه » . (ص ٣٧٢)

ثم يضيف مفسراً :

« لقد كنت أمتع النفس برويا فائدة لمستقبلك . . كنت أسرى عن نفسى بتخطيط مصير رفيع لك . لم يكن به شيء من هذا القبيل . فما كنت تهبطى بهذه السرعة » .

« أقول أربط » .

« إن هذا يعبر عن إحساسى بما حدث لك ، على أى حال . كنت تبدين لى وكأنك تخلقين بعيداً إلى أعلى فى زرقة السماء ، وكأنك تبحرين فى نور وضاء — فوق رموس الرجال . وبغثة يلقى شخص ما بوردة ذاهلة لم تفتح أكمامها — بقذيفة كان يجب ألا تصل إليك أبداً — وبسرعة تهبطين إلى الأرض . . إن هذا يؤلمنى ، يؤلمنى كما لو كنت أنا الذى سقطت » . (ص ٣٧٣) .

وتتعجب ليزابيل من قوله هذا بقولها : « إنه ما من شيء أرفع للفتاة من أن تزوج شخصاً يعجبها » فيجيب رالف :

« إن إعجابك بالشخص الذى نتحدث عنه هو ما أجروء على نقده ، يا ابنة خالتى العزيزة . كنت أتصور الرجل الذى تزوجينه ذا طبيعة أكثر نشاطاً وأكثر اتساعاً وحرية » . وتردد رالف ثم أضاف : « لا يمكننى التخلص من الإحساس بأن أوزموند بشكل ما — لنقل ، صغير » . لقد نطق هذه الكلمة الأخيرة دون ثقة كبيرة ، كان يخشى أن تغضب مرة أخرى . ولكن أدمسه أن بقيت هادئة ، وكان منظرها يوحى بأنها تفكر .

« صغرى ٩ » لقد جعلت الكلمة تبدو هائلة ،
« أظن أنه ضيق الأفق ، حب للذات . يأخذ نفسه
مأخذ الجلد بإسراف » :

ويستمر الحديث وكل يدافع عن وجهة نظره ،
والف بين نقائص أوزموند وإيزابيل تدافع عما تراه من
مزاياه ومحاسنه ويحتم رالف الجزء الأول من هذا الحديث
بقوله إنه ما تحدث بهذه الطريقة إلا لأنه يحب إيزابيل ،
ولكنه يضيف عندما تهمه بالتحيز نتيجة لذلك بأنه
يحبها حباً لا أمل فيه . وتقول إيزابيل في كلمات تعلق
بذهن القارئ ويذكرها بعد فشل زواجها واكتشافها
حقيقة زواجها :

« إنك تفعل خيراً بتحذيرى ، إذا كنت فعلاً منزعجاً
ولكنى لا أعد بالتفكير فيما قلت : سأنسى ذلك بأسرع
ما يمكن . حاول أنت أيضاً أن تنساه . لقد أدبت واجبك
ولا يمكن لأى إنسان أن يفعل أكثر من ذلك . لا أستطيع
أن أشرح لك ما أشعر به ، وما أؤمن به ، ولن أفعل
حتى إذا استطعت ذلك . إنى لا أفهم فكرتك عن مستر
أوزموند . لا يمكننى أن أفهم حقها ، لأنى أراه بشكل
مختلف تماماً . إنه ليس مهماً - لا ، إنه ليس مهماً ،
إنه رجل لا يعنيه المركز المهم على الإطلاق إذا كان
هذا ما تعنيه عندما تسميه « صغرى » ، إذن فهو
« صغرى » بالدرجة التى تحلو لك . أنا أسميه « كبيراً » -
إنه أكبر شيء أعرفه . هل تشكون أن أوزموند
ليس غنياً ؟ إن هذا بالذات هو سبب ميلى له . فن
حسن الحظ أنى أملك مالا كافياً . لقد مرت بي لحظات
كنت أود أن أذهب وأركع بجانب قبر والدك : لعله
قد فعل خيراً مما قصد عندما مكنى من أن أتزوج رجلاً
فقيراً - رجلاً تحمل فقره بعزة وعدم اهتمام . إن مستر
أوزموند لم يجر ولم يكافح - إنه لم يعبأ بأية جائزة
دنيوية . إذا كان هذا ضيقاً للأفق حباً للذات ، إذن فكل
شيء على ما يرام : إنى لا أخشى مثل هذه الكلمات .
ولست حتى مستاءة ، ولكنى آسفة فقط لأنك

ترتكب خطأ كهذا . قد تخطئ الآخرون ولكنى
أعجب أن تخطئ أنت . فأنت يمكنك أن تعرف الرجل
الكريم إذا رأيت واحداً ، فلك عقل ممتاز . أما مستر
أوزموند فلا يرتكب أخطاء . إنه يعرف كل شيء ،
يفهم كل شيء وروحه أكثر الأرواح رقة وحناناً
وسمواً . لقد كونت فكرة خاطئة : إنه لمن المؤسف ،
ولكنى لا أستطيع أن أقول شيئاً . فهذا شأنك أنت
وليس شأنى » . (ص ٣٧٥ - ٣٧٧) .

ويحتم رالف بقوله : « لقد قلت لك فى العام الماضى
إذا وجدت نفسك فى مأزق فأسألك وكأنى قد بعث
نفسى : هذا ما أشعر به اليوم » . ويضيف أنه يظن
الإنسان فى مأزق إذا كان على خطأ . وتجب إيزابيل
« إنى لن أشكوك من أى مأزق » . (ص ٣٧٧) .

وهكذا تسد إيزابيل أذنها عن سماع النصيحة وتجرد
نفسها سعيده بخطبتها لرجل تحبه وتحترمه ، تستسلم له
بتواضع وتنزوجه بخسر وتشعر أنها بزواجها منه
لا تأخذ فقط ، بل تعطى أيضاً . أما أوزموند فكان نجاحه
فى الحصول على إيزابيل أكبر حافز للسلوك المثلثى :
فكان محباً مثالياً ، عطوفاً رقيقاً ، واثقاً من نفسه :

أما أول إشارة إلى فشل هذا الزواج فتأتى من مدام
مرل فى حديث لها مع شاب أمريكى وصديق قديم
لإيزابيل ، يود الزواج من بانسى أوزموند ويرى أن
مستر أوزموند أى إيزابيل تستطيع أن تساعد ، ولكن
مدام مرل تنصحه بالألا يكون السبب فى توسيع شقة
الخلاف بين الزوجين : يجب لإدوارد روزير بانسى
ويرغب فى الزواج منها ولكن الأب يعتقد أنه ليس
كفاً لها لأنه ليس غنياً بالدرجة الكافية . ولكن مدام
مرل ترى أن تحتفظ به مؤقتاً ، بينما ترفض إيزابيل
مساعدته رغم عطفها عليه لأنها تترك موقف الأب منه ،
تبادل بانسى الحب ولكن أوزموند واثق من أنها لن
تعصى له أمراً فقد رباها تربية صحيحة .

وجدير بالذكر أننا نرى كلا من إيزابيل وزوجها أول ما نراها بعد الزواج من خلال نظرة روزير لها - روزير جامع التحف الذى يترك أصالة الشيء وقيمه الحقيقية بنقض النظر عن قيمته الكتالوجية أو المالية ، وبينما يبدى إعجابه بإيزابيل وقلقه على سعادتها فهو الذى ينطق أيضاً بكثير من الأحكام على أوزموند فى مجرى تعبيره عن استيائه من موقفه من حبه لبانسى ، فعندما يقول مثلاً : « إن بانسى لا تأبه مثقال ذرة بمال الشخص » ، فرد إيزابيل « ولكن أباه يأبه كثيراً » ، يقول « آه لقد أثبت ذلك » . كذلك فأننا نراها من خلال موقفهما بالنسبة لحب بانسى وروزير .

وتسير الأحداث بسرعة أكبر فى الجزء الثانى من الرواية وكان جيمس يعوض عن بقاء الجزء الأول وخلوه نسبياً من الأحداث ، فيحشد هنا عدداً من المشاهد الرائعة التى تحمل القصة إلى نهايتها المحتومة .

ومرة أخرى يظهر لورد واربرتون على مسرح الأحداث بصحبة رالف الذى يحضره إلى إيطاليا نظراً لاشتداد المرض عليه وحاجته إلى الانتقال إلى جو أكثر دفئاً . ومرة أخرى يبدى الصديقان قلقهما على إيزابيل وشكهما فى سعادتها عندما يكتشف كل منهما أن حجة الآخر فى الحضور إلى روما لم تكن سوى عذر واه لرؤيتها . ويدرك الاثنان أن إيزابيل لن تشكو تعاسها لأحد ، فهى تضع على وجهها قناعاً سميكاً من الملوء والآلية . ثم يحضر إلى روما كاسبار جودوود وهنريتا ستاكبول صديقة إيزابيل وتكمل الدائرة .

وتبدأ الأمور فى التعقيد عندما يبدى لورد واربرتون اهتماماً ببانسى ، وتظهر مدام مرل بفتة فى روما بعد أن ظلت بعيداً لمدة طويلة بعد زواج إيزابيل . وتلاحظ إيزابيل تغيراً فى سلوكها ومبالغة فى الابتعاد عنها وكأنها تذكر قول رالف إن مدام مرل تسرف فى كل شيء حتى إن كانها يبدو مبالغاً فيه كما تعجب لما تسرب لها مدام مرل ذات يوم من أنها إنما تبتعد حتى لا تسبب لها

أية مضايقات ، خاصة وأنها صديقة قديمة لأوزموند ، وترجو لإيزابيل إذا ما وجدت ما يثير غيبتها أن تلومها هى لا أوزموند .

وذات صباح تعود لإيزابيل من نزهتها لتجد مدام مرل وأوزموند فى وضع يلقى كثيراً من الضوء على بعض ما ساورها من شكوك عن مدى علاقتهما . إذ تجد أوزموند جالساً بينما تقف مدام مرل وبينهما إحدى النظرات التى تطول بين شخصين رفعت الكلفة بينهما : وقبل أن تنصرف مدام مرل وبعد أن يتركهما أوزموند تنفض هذه لإيزابيل بما يدور بخاطرها بشأن إعجاب لورد واربرتون ببانسى وتشير إلى أنه بمقدورها أن تجعله يتزوج بانسى بما لها من تأثير عليه ، مذكرة إياها بأنها إذا كانت قد رفضت هى الزواج منه فلا أقل من أن تهين له فرصة الزواج من أخرى .

وفى الفصل التالى نرى لإيزابيل تفكر فى هذا الأمر وترى أن زواج بانسى من لورد واربرتون سيسعد زوجها . هى تريد أن تسعد زوجها . لماذا لا تساعد إذن على إتمام هذا الزواج ؟ غريب أن يعجب لورد واربرتون ببانسى « الدمية » الصغيرة الهادئة ، ولكن من يعلم ما يعجب الرجال . وفى الوقت الذى تقرر فيه لإيزابيل أنه من الجميل فعلاً أن يتم هذا الزواج يدخل أوزموند ويفسد كل شيء . فهو يصمم بدوره أنه بما لها من نفوذ على لورد واربرتون يمكنها أن تساعد على إتمام هذا الزواج . وتتساءل لإيزابيل فيما بينها وبين نفسها : هل يتصور أوزموند أن إيزابيل ستساعد فى جعل لورد واربرتون الذى ما زال يحب زوجة أوزموند على أن يتزوج ابنته ؟ لا لن تفعل ذلك .

وفى الفصل الثانى والأربعين الذى يعد من خير فصول « صورة سيدة » تواجه إيزابيل هذه الصورة كما تواجه صورة مدام مرل وأوزموند كما رأتهما فى اجتماعهما الذى يدل على الألفة والقرب . وفى نظرة إلى الوراء تستعرض إيزابيل زواجها ، وكيف خدعت

فيه ، كيف خدعها أوزموند ، وكيف خدع بها هو بدوره . لقد ظلها مستسلم له ولآرائه وتعاليدِهِ . لقد كان أسوأ شيء بالنسبة له أن اكتشف أن لها شخصية خاصة وفكراً خاصاً . كان يتصور أنها ستتقبل آراءه وتجعل منها آراءها . فلما أبدت أنها ستستخدم قدرتها على الحكم على الأشياء ، بل وستظهر احتقاراً لآرائه لم يكن باستطاعته إلا أن يكرهها :

« لم يكن هذا نتيجة لخطئها — إذ لم تمارس هي أى نوع من الخداع ؛ لقد أعجبت وصدقت . خطت الخطوات الأولى بمنتهى الثقة ، وبفتنة وجدت أن المنظر اللانهائى للحياة المتكاثرة ، حارة ضيقة في نهايتها حائط كالحج : وبدلاً من أن توصل إلى أماكن السعادة العالية حيث يبدو العالم للمرء من تحته ، وحيث ينظر إلى أسفل بشعور من الرفعة والامتياز ، ويحكم ويختار ويشعر بالشفقة ، إذا بها توصل إلى أسفل ، إلى الأرض ، إلى الممالك المحدودة ، بممالك الحزن والضيق حيث تسمع من أعلى أصوات حياة أناس آخرين ، حياة أسهل وأكثر حرية ، وحيث تعمل على جعل الشعور بالفشل أكثر عمقاً . كان شعورها العميق بعدم الثقة بزوجها — كان هذا ما أظلم الحياة لها . . . لقد حدث ذلك تلقائياً — لم يحدث حتى نهاية السنة الأولى من حياتهما معاً ، تلك السنة التي اتسمت أول الأمر بألفة تدعو إلى الإعجاب . ثم بدأت تتجمع الغلال ، كما لو كان أوزموند عن عمد وسوء نية تقريباً قد أطفأ الأنوار ، الواحد تلو الآخر . كان النفس في بادئ الأمر رقيقاً غير واضح ، وكانت لا تزال ترى طريقها فيه . ثم ازدادت كثافته بصفة مستمرة ، وحتى إذا انتشع من وقت لآخر أحياناً فقد كانت هناك أركان بالذات من المنظر الذي يمتد أمامها — أركان حالكة الظلام لا يمكن اختراقها . (ص ٤٦١ — ٤٦٢) .

ويصور هذا الفصل خبر تصوير يئس إيزابيل ووحشتها ، فهي حريصة أشد الحرص ألا يرى أصدقاؤها

وخاصة رالف ما أصاب حياتها من فشل وما حل بها من ظلمة . ويناقش الأصدقاء فيما بينهم بؤسها وفشلها ؛ لورد واربرتون ورالف ، جودوود ورالف ، أما الوحيدة التي تحدث إيزابيل صراحة كمحادثتها فصديقتها هنريتا ستاكبول . وعندما يشتد المرض برالف ويقرر العودة إلى إنجلترا فتطلب إيزابيل من كامبار جودوود أن يصحبه في سفره ، يشعر الجميع أن إيزابيل تود التخلص منهم جميعاً (لا لمجرد أن أوزموند يكره أصدقاءها) ، بل لأنها تشعر أنهم جميعاً يلاحظونها ، ويودون اكتشاف دخليتها . تقول هنريتا « إنك مثل الغزال الجريح الذي يسعى بعيداً نحو الظل الداخلى » . (٥٤٦) . أما رالف فأنكر كلماتها لها : « لقد كنت أرغب في الحياة من أجلك . . . ولكن يبدو أنى لا أستطيع أن أقدم لك أية خدمة » . ولكنها إذ تشعر بأن نهايتها قد حانت وعمدى عطفها عليه تقول « إذا استدعيتنى فسألبى النداء » فيرد قائلاً « سأبقى هذه المتعة إلى النهاية » .

وسرعان ما تصل برقية من مسز تشيت تطلب من إيزابيل بناء على رغبة رالف الحضور إذا أمكنها ذلك . تصل هذه البرقية في وقت نشد فيه الأزمة بين إيزابيل وزوجها نتيجة لظن أوزموند أن إيزابيل قد عملت على إبعاد لورد واربرتون عن بانسى ، كما تلومها مدام مرل على ذلك . ويبدى أوزموند عدم موافقته على سفر إيزابيل لرؤية رالف الذي يكرهه . وفي هذه الحالة من البؤس واليأس ، تثير إيزابيل شفقة الكونتيسة جيميني أخت أوزموند التي لا تحبه كثيراً ، فتكشف لها عن حقيقة العلاقة بين أوزموند ومامم مرل وأن بانسى ابنتها ، وتؤكد لها أن مدام مرل قد رتبت زواجها من أوزموند كي تحقق لابنتها حياة رغدة .

وتكاد تنهار إيزابيل تحت وقع الصدمة ولكنها تقرر السفر . وتذهب قبل سفرها لزيارة بانسى التي أعادها والدها إلى اللير الذي تعلمت فيه ليعبدها عن روزيير

الذى باع جميع تحفه ليتزوجها ولكن الأب رده خائباً .
وهنا نرى مثالا آخر لقسوة أوزموند وماديته — إذ
يضحي بسعادة ابنته أملا في حصولها على زوج أغنى
وأهم اجتماعياً . ونرى الفتاة الرقيقة ترتعد خوفاً من
والدها وترجو لإيزابيل ألا تهجرها وتعد لإيزابيل بالعودة
وهناك أيضاً تقابل إيزابيل مدام مرل بعد أن عرفت
حقيقتها . ولكن مدام مرل التى تستنتج ما حدث تحبها
أن ابن خالتها رالف هو فى الحقيقة المسئول عن كل
ما حدث لها ، فهو الذى أقنع والده أن يترك لها كل
تلك الثروة .

وقبل وفاة رالف تشكره إيزابيل على عطفه عليها
ومساعدته لها وتعترف له ببؤسها وبمحاولتها إخفاء ذلك
عنه ، ولكنه يخبرها أنه كان يعلم طيلة الوقت ما تعانیه .
وهكذا يقترّب الصديقان فى لحظة من السعادة العميقة
والرضا . ويؤكد لها رالف بآخر أنفاسه تقريباً . أنها
« وإن كانت موضع كره فقد كانت أيضاً موضع
حب ، لا بل عبادة » .

وللمرة الأخيرة يجتمع الأصدقاء حول وفاة رالف
ويواجهنا السؤال : ماذا تفعل إيزابيل الآن؟ تعلم إيزابيل
أن لورد واربرتون على وشك الزواج من فتاة
أرستوقراطية وإن كان سلوكه نحوها لا يقتنعها تماماً أنه
تغلب على حبه لها . أما كاسبار جودوود فيظهر أمامها
مرة أخرى ليعرض عليها حبه ويرجوها ألا تعود
لزوجها وتبقى معه ؛ ولكنها ترفض . وكان جيمس
يلدرك ما قد يشهده قرار بطلته من شكوك فى أذهان
القراء ، فيقدم لنا لمسة إنسانية بارعة عندما يصور
إيزابيل وقد احتضنها جودوود فى فورة من الحب
العارم ، فتشعر بضعف مفاجئ وكأنها تصبوا للاستسلام ،
وتحس لأول مرة مدى إخلاصه — وكأن حبه « يلفها
ويرفعها عن الأرض » فى الوقت الذى تشعر فيه بثقل
من الرصاص يشدها إلى أسفل . ولكنها تتخلص من

بين فرائجه لتندفع فى الظلام نحو المنزل بسرعة ودون
تردد .

وهكذا نرى لإيزابيل ترفض الحب والخلاص من
السجن المظلم الذى تحولت إليه حياتها لتعود إلى زوجها ،
لأن ذلك هو الطريق الوحيد الذى تراه أمام الزوجة التى
تتمتع بضمير رائع وإحساس بالواجب ، وتقبل نتائج
عملها الحر واختيارها وخطئها . طالما نوقشت هذه النهاية
وادعى القراء أنها لا تتمشى مع بقية الأحداث ولا تتفق
مع شخصية البطلة . فهم يتوقعون لإيزابيل الحرية المستقلة
التي لا تخضع للتقاليد أن تترك زوجها . ولكن الواقع
غير ذلك ، فإيزابيل الحرية الطليقة هي لإيزابيل الفتاة
الجرينة التي لم تختبر الحياة ، أما لإيزابيل التي تعود إلى
روما فهي لإيزابيل الزوجة التي عرفت الحياة والتي
فقدت حريتها ولكنها ما زالت تحتفظ بفكرتها عن الحق
والواجب ، بل وعن نفسها وعن نزاهتها وقيمتها . فكما
نجد كلمتى الحرية والاستقلال تسودان الجزء الأول من
الكتاب نجد كلمتى الشرف والواجب تتكرران بشكل
ملفت فى الجزء الأخير منه .

تلك إذن لمحة عن صورة السيدة التى يقدمها لنا
جيمس فى بناء متناسق مترابط بحكم التنظيم ونسيج فنى
يفيخ حيوية وثرأه ، ويعتمد على اللفظ المعبر والصورة
والرمز . لقد أصاب ف . ر . ليفيز عندما أطلق على
جيمس تعبير « الروائي الشاعر » وفسر ذلك بالإشارة
إلى قول هوثورن الروائي الأمريكى « إن جيمس دائم
البحث عن صور تتخذ مكانها فى تقابل تصويرى جميل
مع الحقائق النفسية التى يعنى بها . فهذا البحث بالطبع
من جوهر الشعر »^(١) . فإذا أضفنا إلى ذلك قول
جوزيف كونراد أن جيمس « مؤرخ الضمير الرائع »^(٢)
لوجدنا أن عمق اهتمامات جيمس وجلتها تتضح أولاً فى

(١) انظر "The Great Tradition," p. 129.

(٢) انظر "Views on the Art of the Novel," pp. 227- 282.

نوع المسائل النفسية والخلقية التي تشغله وفي عكوفه على تصويرها فنياً خير تصوير ثانياً ، فهذا في الواقع جوهر اهتمامه بالحياة والفن .

وهكذا نرى أن روعة « صورة سيده » لا تكن فقط في أهمية الموضوع الذي عاجله وفي روعة شخصية البطلة ، بل وفي المقدرة الفنية التي صور بها هذا الموضوع . أما من ناحية البناء ، فبالرغم من تعدد الشخصيات وثرائها مثلاً فإنها جميعاً لازمة وهامة بالنسبة للخطة الكلية للرواية . ففي تقابلها وتضادها توضح بعضها بعضاً وتسهم بتصميمها في الخطة الكلية . ففي تقابل لورد واربرتون وأوزموند ، وكاسبار جودود وأوزموند ، ورالف وأوزموند مثلاً تتضح لنا شخصية أوزموند وما قد يمثل . فهو من ناحية الفنان المدعى والإنسان الأناني الضيق الأفق ومن ناحية أخرى الأمريكي المستوطن في أوروبا الذي تنقصه صفات الأوربي الحقيقي والأمريكي معاً ، بينما يمثل واربرتون نتاج الثقافة الإنجليزية الحقيقية الذي تغلب عليه صفاتها الحميدة ، ويمثل جودود الحياة الأمريكية بما تمتاز به من صراحة واستقامة وما قد يصحبهما من حاجة إلى الصقل ، بينما يجمع رالف صفات كل من الحضارتين إلى جانب صفاته الشخصية من ذكاء ورقة ووعي رائع ، كذلك الحال بين الشخصيات النسائية في الرواية . فمدام مرل المغتربة الأمريكية الكاملة لا تملك من الصفات الأمريكية شيئاً ولكنها تملك صفات الحضارة الاجتماعية التي تمثلها وكأنها - في سعة تجاربها ومعرفتها الاجتماعية وصعوبة الإمساك بها - العالم الكبير المستدير بأكمله كما يصفها رالف ، تقابلها مسز تشيت بصراحته وحسنها وسلوكها الذي يترك كما يشير ليفز أثراً كحد السكين . ثم هناك الكونتيسة جيميني سيده المختمعة التي فشلت في إخفاء أمر مغامراتها ولكنها ما زالت تحمل قلباً رقيقاً يحن لإيزابيل في محنتها وإن كانت لضعف شخصيتها وسيطرة مدام مرل عليها لم تتمكن من تحذير إيزابيل في

الوقت المناسب . هناك أيضاً هنريتا ستاكبول الصحفية الجريئة الحرة التي تمثل المرأة الجديدة ونوعاً آخر من استقلال الشخصية يقابل استقلال إيزابيل ، كما تمثل البراة الأمريكية التي تزدهر في تعرضها الحر للعالم ؛ يقابلها نمط الزهرة النقية والبراة التي يسبح حولها بسياج من العناية والحيلة الذي يمثله بانسي .

أما استخدام جيمس للصورة والرمز في روايته هذه للتعبير عن الحقائق النفسية والخلقية والكشف عن حقيقة الشخصيات وتطورها فيحتاج لمقال مستقل ؛ فإذا اتخذنا على سبيل المثال تصويره لشخصية إيزابيل في مراحل مختلفة من قصتها لوجدنا مثلاً كيف يراها رالف بادئ الأمر كعمل فني رائع ألقت به المقادير في طريقه ، ثم كيف تشعر إيزابيل بعد عودتها من رحلتها الطويلة في الشرق الأوسط من أنها أكبر سناً وأنها كالعامل الفني تزداد قيمته بمضي الوقت ، ثم كيف ياملها روزير جامع التحف الخبير وهي تقف في أحد أبواب بيتها المذهبة في روما ، ثم كيف نشعر أن أوزموند قد أفلح في إضافة تحفة نادرة إلى مجموعته ، تحفة خدع هو في حقيقتها ، إذ لم يدرك مدى أصالتها وكأنه حطمتها بلمسته ، إذ نلاحظ كيف يحلو لإيزابيل بعد فشل زواجها أن تجلس بين أطلال روما وآثارها التي تهدمت وتحطمت وكأنها واحدة منها .

ومن ناحية أخرى يراها رالف في بادئ الأمر كسفينة يود أن يضع شيئاً من الريح في شراعها ثم نراها في النهاية كسفينة تتقاذفها الأمواج في بحر عاصف . كذلك يتصورها رالف طائراً محلقاً فوق رعوس الجميع ثم يشير عند خطبتها إلى أنها أمسكت وستوضع في قفص ، بينما نشعر طيلة الوقت بوجود فكرة الفخ الذي تسعى مدام مرل لإيقاع إيزابيل فيه والتي تسعى هي نحوه نتيجة لمثالياتها وجهلها بالحياة . وفي النهاية تشعر إيزابيل بأنها محبنة ذلك القصر الكبير الذي أثنى أوزموند تبعاً لذوقه الخاص والذي أصبح رمزاً لذلك الزواج

البسيطة الجميلة ، التي تضع اللمة النهائية لبطلته ذات
الضمير الرائع :

« تلقت حولها من كل ناحية ؛ وأنصتت قليلا ؛
ثم وضعت يدها على المزلاج . لم تكن تدرى من قبل أين
تنجّه ، ولكنها عرفت الآن . عرفت أن هناك طريقا
مستقيما جداً » .

غير أن تصوير جيمس للشخصيات واستخدامه
للصورة والرمز والأسلوب المعبر ليست إلا بعض
جوانب عذته الفنية . ولعل ليفيز يعبر عن ذلك خير
تعبير عندما يقول : « إن اهتمام جيمس الدائم والعميق
بالحقائق النفسية يجد تعبيراً لا فيما يجب أن يسمى
باستخدام الرمز فحسب ، بل أيضاً في معالجته
للشخصيات والأحداث والحوار وفي كلية الحكمة ،
حتى إنه عندما يبدو وكأنه يقدم لنا رواية سلوك فهو
يعطينا شيئاً أكبر شيئاً يلعب فيه الشعر دوراً أساسياً » (١)

(١) Leavis, "The Great Tradition," p. 129.

الفاشل القائم فعلا على التكاليد التي تسحقها كالرحى
كما يقول رالف . وترى إيزابيل نفسها بدلا من ذلك
الإنسان الحر الذي كانت تتخيله ، مجرد أداة حديدية
معلقة استخدمتها مدام مرل وأوزموند لأغراضهما
الخاصة . وعندما تفكر في وفاة رالف تحسده ، وترى
في فكرة العدم الكلي فكرة جميلة كرويا حمام بارد في
حوض من المرمر في حجرة مظلمة ، في بلد حار .
وفي النهاية عندما يعرض عليها كاسبار جودوود فكرة
البقاء معه بعيداً عن زوجها قائلاً إن العالم مكان كبير
جداً وترد قائلة لا بل العالم صغير جداً . يبدو لها العالم
في الواقع أكثر اتساعاً منه في أي وقت آخر ، يبدو
و كأنه يمتد وينسع أمامها كبحر هائل . حيث تطفو هي
في حياة لا قاع لها . وتشعر وكأن المساعدة التي كانت
تتوق لها قد جاءت في سيل جارف . ولكنها ترفض هذه
المساعدة . وعندما تتخلص من فراغ كاسبار في
الحديقة وتذهب بعيداً عنه نحو باب المنزل يعبر جيمس
عن لحظة الرؤيا التي تنبثق أمام إيزابيل بهذه الكلمات

الجميلة
علا من هذا

الأشعار الغنائية لسافو

بمستم

الدكتور إبراهيم الصميم بكسر

وإيوريجيوس Eurygyos : وكان الأول يعمل سابقاً للخمر بقاعة المدينة ، وكان هذا العمل مقصوداً على شباب الأسر الكريمة الذين يتميزون بحسن المظهر ، وتحدثنا أخبار الرواة بأنها هاجرت من مسقط رأسها إلى مدينة ميتلني Mytilene عاصمة الجزيرة حيث عاصرت الفترة العصبية التي كانت تحتاج المدينة في ذلك الوقت ، إذ كانت الديمقراطية تعمل على الإطاحة بطبقة النبلاء القديمة ، وذلك تحت زعامة جماعة من الباحثين عن الشهرة والمجد على رأسهم ميلانخروس Melanchros وميرسيلوس Myrsilos والحكيم بتاكوس Pittakos . وليس هناك ما يدعو إلى الشك في صحة الرواية التي تقول إنها لجأت إلى صقلية فراراً من حالة الاضطرابات التي سببتها تلك الثورات في جزيرة ليسبوس ، فقد كانت صقلية وطناً ثانياً لكثير من المنفيين السياسيين ، وبما لا شك فيه أن أهل سيراكوز Syracuse بصقلية قد أقاموا تكريماً لها تماثلاً هو قطعة رائعة من أعظم ما نحتته الفنان سيلانيون Sitanion في القرن الرابع ق. م. ، وقد ظل هذا التمثال يزين قاعة مدينتهم حتى سرقه فيرس Verres في القرن الأول ق. م Cf. Cic. In ver. II. iv. 126-127

سافو هي أعظم شعراء الشعر الغنائي اليوناني ، وقد وضعها ديونيزيوس الهاليكارناسي (Lit. comp. 23) على رأس قائمة شعراء هذا اللون من الشعر ، وجعل أناكريون Anacreon وسيمونيديس Simonides في المرتبة الثانية بعدها .

كانت سافو معاصرة للشاعر ألكايوس Alcaeus وعلى معرفة به ، وإن فاقت شهرتها شهرته ؛ وكان لها معاً أثر كبير على أسلافهما . كان اسم سافو يلقى نوعاً من السحر على الأجيال التي جاءت بعدها من إغريق ورومان ، فنسجوا حول حياتها وأعمالها القصص والروايات ، حتى أصبح من الصعب الآن التمييز بين ما هو حقيقي منها وما هو مخنلق .

ولدت سافو Sappho (أو Psappho) باجماع معظم الآراء في الأولمبياد الثاني والأربعين (أي حوالي عام ٦١٢ - ٦٠٩ ق. م. قارن سويداس ، تحت اسم سافو) بمدينة إريسوس Eresos في جزيرة ليسبوس Lesbos ، من أبوين كريمين ينتميان إلى طبقة ملاك الأراضي . كان أبوها يسمى سكاماندرونيموس Skamandronymos وأما Kleis : وكان لها ثلاثة إخوة : لارنخوس Larichus وخاراكسوس Charaxos

وفي ميتليني عاشت سافو حياة رائعة مذهشة ، فقد جمعت حولها جماعة من بنات جنسها في معهد خاص للربح فيه على فنون الشعر والموسيقى ، وكانت تطلق على معهدها هذا اسم *μοισοπόλων οίκια* أى بيت راقيات الفنون (cf. fr. 108) ولكن يبدو أن هذا المعهد كان يعنى شيئاً أكثر من مجرد مدرسة يجتمع فيها الفتيات لتلقى بعض المحاضرات عن الشعر والموسيقى فقد كانت عضواته تشكلن ما يسمى *θίασος* ، أى اجتماع ديني مقصور على الفتيات وكان مكرساً للإلهة أفروديت . ولم تكن جماعة سافو هي الوحيدة من نوعها في ميتليني . كانت هناك جماعات أخرى تحت إشراف بعض المنافسات لسافو مثل جورجو *Gorgo* وأندروميذا *Andromeda* . ولم تكن علاقة سافو بمن علاقة طيبة ، إذ قامت بينهن وبينها منازعات ، مصدرها الحقد والغيرة ، الأمر الذى ساعد على نشر الشائعات عنها ، فاتخذت الكوميديا من ذلك موضوعاً للضحك والتسلية ، مما جعل البعض يسيئون الظن بها ويصدرون ضدها أحكاماً قاسية . وكان يربط جماعة سافو ببعضهن ويراثتهن روابط صداقة متينة وحب وودعة . ولم يكن ماكسيموس التري على خطأ حين قارن علاقة سافو بتلميذاتها بالعلاقة التى كانت تربط سقراط بأتباعه (Max. Tyr. 24) . ووجه الخلاف بينهما أنه بينما بكل سقراط يجمع حوله الشباب بتأثير شخصيته وسحر موضوع البحث عن الحقيقة ، كانت سافو مرتبطة مع فتياتها بروابط دينية أو نصف دينية على الأقل . لم يكن إذن بيت خادמות الإلهة أفروديت وراقيات ربات الفنون *Musae* مدرسة أو كلية للموسيقى والشعر ، بقدر ما كان أولاً وقبل كل شيء اجتماعاً لبعض الفتيات تحت زعامة إحداهن ، وقد كرسن أنفسهن جميعاً لعبادة الإلهة أفروديت . وكانت جماعة سافو هذه تختلف في طابعها عن جماعات الفتيات في إسبرطة ، اللاتى كن يقمن ببعض التاموس الدينية الخاصة بالإلهتين أرتميس *Artemis* وهلين *Helen* فن الواضح أنهن لم يكرسن حياتهن كلية للعبادة ، كما

ومن العجيب ألا نرى فيما وصلنا من أشعار سافو ما يشير إلى هجرتها لصقلية . ويبدو أن سافو كانت صغيرة عندما كانت في صقلية ، حتى أنها لم تترك في نفسها أثراً عميقاً ، أو أنها كانت منغمسة في حياستها الخاصة لدرجة أنها لم تلاحظ العالم الجديد الذى دخلته . وعلى أية حال فقد عادت سافو إلى ليسبوس وأنفقت باقى أيامها في مدينة سيتليني .

وقد تزوجت سافو وأنجبت بنتاً أطلقت عليها اسم أمها *Kleis* . فهى تقول في إحدى شلراتها (٣١) (١) .
« إلى ابنة صغيرة لطيفة تشبه الزهرة الوضاعة ،
الاهى محبوبتى *Kleis* ، التى لا أرضى بغيرها بديلاً ،
حتى ولو أعطيت كل ليديا أو ليسبوس البديعة » .

ورغم أن اسم زوجها وهو كيركيلاس *Kerkylas* من جزيرة أندروس *Andros* ما هو إلا أسطورة في نظر البعض ، إلا أنه لا يوجد أدنى سبب يجعلنا نعتقد أنها لم تزوج ، نحدد أن عدم الزواج كان تقليداً شائعاً بين مثيلاتها في ذلك العصر . ولكن الأمر الذى لا يقبله العقل ، إذ يبدو بعيداً عن الواقع ، هو القصة التى تحكى أنها أحببت شخصاً يدعى فاون *Phaon* ، وأنها ألقت بنفسها من فوق صخرة ، لتتخلص من تياريح الهوى . وحقيقة الأمر تتضح بجلاء عندما نعلم أن فاون *Phaon* لم يكن رجلاً ، بل قوة إلهية مرتبطة بالإلهة أفروديت *Aphrodite* (Cf. Ath. 2, 69 d) . ويبدو أن رواية حب سافو لفاون قد شاعت على أثر ظهورها في الكوميديا الحديثة ، كما جاء في ميناندر (Fr. 312, Koch) ومن المحتمل أنها جاءت نتيجة تفسير خاطئ لبعض أشعار سافو نفسها ، التى جاء فيها وصف لجمال هذا الإله *Phaon* . وعلى أية حال فإن تاريخ وفاتها غير معروف ، ومن المحتمل أنها قد عمرت طويلاً ، وهذا إن صح الزعم القائل بأنها كانت تقصد نفسها عندما شكت من بياض الشعر ووهن أعضاء الجسم (Fr. 118, appendix, p. 434; cf. fr. 42)

١ - أرقام الشذرات لأشعار سافو حسب ترتيبها في طبع
Lyra Graeca by J.M. Edmonds

كانت تفعل تابعات سافو ، وإن كان يبدو من أغنية
أللكان Alcman المسماة «أغنية العذراء» أن فتيات
إسبرطة كن يعشن في حو من المودة العاطفية . وهذا
يشير إلى احتمال وجود تشابه بين الحالتين .

كانت سافو وفتياتها يحرصن دائماً على الاحتفال
بالإلهة أفروديت والإلهات التابعات لها : أعني إلهات
الرشاقة Χάριτες ، وربات الفنون al Mouson
وإن لم يكن هذا هدفهن الوحيد من الحياة : فقد كن
يوهفن أنفسهن للزواج : وكان عندما يأتي تكتب لهن
سافو أغنيات الزفاف . وبعد ذلك تقطع علاقتها بهن .
ولكن حتى يحين هذا اليوم . فقد كن يعشن حياة منعزلة
بعيدة عن مجتمع الجنس الآخر . وأفكارهن وعواطفهن
كانت متجهة ناحية بعضهن ورائدتهن سافو . وقد
أشرفت سافو على رغباتهن الناضجة وتمكنت من
توجيهها الوجهة الصالحة . بأن تسلت في نفوسهن
بالتعاطف معهن وبالفهم الصادق لمشاعرهن وإحساسها
العميق بضرورة انجذابها نحوهن . وما بقى لنا من
أشعارها يبين لنا إلى أى مدى دخلت سافو حياة
فتياتها ، وتكم كانت تبادلهن الحب والمودة . وكيف
استطاعت أن تعبر عن روح رغباتهن .

قد لا يستطيع البعض ، من وجهة النظر الحديثة .
تقدير مثل هذا النوع من المجتمعات تقديراً صحيحاً .
فلم تكن العقيدة فيها شعوراً ذاتياً بالجمال . بل عبادة
حقيقية لإلهة تؤمن بها سافو وفتياتها كل الإيمان : إذ
كانت أفروديت إلهة موجودة في نظر سافو وفتياتها ،
وعبادتهن لها كانت تفرض عليهن اتخاذ موقف معين
نجاه الحياة . كانت أفروديت تعتبر راعية جمال المرأة ،
ومن ثم فإن جمال من يعبدنها أمر معترف به وجدير
بالتكريم ، وكان هذا الجمال يناقش بحرية ويقبل على
أنه سبيل للحب والإخلاص . إن عقيدة الجمال هذه
غالباً ما كان يساء توجيهها ، ولكن يبدو أنها كانت
تطوراً طبيعياً في ديانة تقبل العطايا الطيبة عندما تأتي
من الآلهة . وما لا شك فيه أن مثل هذه المجتمعات في
إسبرطة كانت تعقد فيها مسابقات رياضية بين الفتيات ،

مثل ما كان يحدث في الاحتفال بأعياد الإلهة هيرا
في أولمبيا (cf. Paus. ١, 16, 2-8) ، أما في
ليسبوس فقد اتخذ الاحتفال بأفروديت شكلاً أبسط
وأكثر اتصالاً بالإلهة . فلم يكن النشاط الأساسي في
الرياضة : بل في الغناء . كانت أفروديت تكرم ربات
الفنون : وكان من المعتقد أن الاحتفال بهن يتطلب
الأغاني ، وكانت سافو تدرب الفتيات المكرسات
لأفروديت على الغناء .

لم تكن أفروديت الإلهة الوحيدة للحب ، كما أنها
لم تكن إلهة الحب فحسب . فقد كانت الشهوة وجميع
الرغبات الجسدية من اختصاص إروس Eros ، أما
أفروديت فكان اختصاصها أعم وأشمل واختلف عن
ذلك : فهي إلهة الجمال أكثر منها إلهة الرغبة فيه ، كما
أنها إلهة الأزهار والبحر الباسم ، وقوتها تكمن في البهجة
والفتنة التي تلقها بسحرها على المريثات ، ومن ثم فإن
Eros الرغبة و Peitho الاغراء تابعان لها ،
كما صورهما فيدياس Pheidias في أولمبيا Olympia .
ولكن حيث إن جمال التكوين الإنساني يصور
أروع وأعظم ما في الكائنات من فتنة : فلا بد
وأن تكون واهبته مشولة أيضاً : ولو مشولية
غير مباشرة . عن السحر الذي ينزل بكل من يقع
نظرهم عليه . ومن ثم اعتبر الإغريق هبة أفروديت
كنوع من الجنون واعتقدوا أن زنارها يحتوي على فنون
الغواية «التي تسلب حتى لب الحكيم» (cf. Paus.
٧. 10, 216-217) وكما تمثل أرتميس Artemis المثال
الكامل للبراءة : فإن أفروديت تمثل اللحظات المفاجئة
للجمال المذهل الذي يطرق على المريثات فيغوى من يقع
نظرهم عليها ويجعلهم في حالة بعيدة كل البعد عن
خبرتهم العادية . وحتى يوريبيديس Euripides كان
يرأها قوة حقيقية للطبيعة . قوة ، وإن كانت قاسية ،
إلا أنها منصفة : واعترف سوفوكليس Sophocles
بقوتها التي لا يستطيع أحد الصمود أمامها . أما سافو
فكانت نظرتها إليها تختلف عن ذلك ، فإن سحر الجمال

الفيزيقي بكل أشكاله ، والعواطف التي يوقظها هذا الجمال في الفتيات اللاتي لم تطمس مشاعرهن بالزواج والولادة ، كل هذا كان بالنسبة لسافو المادة التي تصوغ منها أغانيها .

كان شعر سافو يعنى أساساً بالحياة في جماعتها ، فقد كانت تكتب في مناسبات محددة ولأفراد معينين ، وكانت أشعارها تعكس مشاعرهم نحو جماعتها ونحو أفراد هذه الجماعة . ويتحتم على من يريد منهم قصيدة من أشعارها أن يحاول أولاً أن يعرف الظروف التي كتبت فيها هذه القصيدة . قد يكون صواباً ، وهو أمر سهل ميسور ، تعميم معنى أشعارها وتطبيقه على مواقف إنسانية عامة ، ولكن سافو كتبت لأفراد معينين لم صفات وطباع محددة ويختلفون عنا كثيراً ، وهذا ما يجب أن يوضع في الاعتبار . إن طبيعة هذه المسألة يمكن أن ترى بوضوح في القصيدة الأولى من كتابها الأول ، وهي عبارة عن أنشودة موجهة إلى أفروديت : « أي أفروديت الخالدة ، يا ذات العرش الوضاء ، يا بنت زيوس ، يا مدبرة الأمور ، إلبك أقدم بالضراعة : أي ملكتي ، لا تفعمي قلبي بالآم والأحزان ، بل أقبلي إلى هنا ، إن كنت قد استمعت من قبل إلى صوتي ذات مرة عن بعد وأنت تطلين من علي ، إن كنت قد تركت بيت أبيك الذهبي وأقبلت بعد أن ماكنت زمام عربتك . إن يجعئك المليحتين السريعتين قد أحضراك فوق الأرض المعتمدة ، وقما ترفرفان بأجنحتكما القوية عبر السماء خلال الهواء ، وسرعان ما وصلتا . وأنت ، أيها المباركة ، والابتسامة تملو وجهك الخالد ، قد سألت عم ألم في ، ولماذا أدعوك ، وماذا في قلبي الثائر أريده أن يحدث أكثر من أي شيء آخر : « من تلك التي تودين الآن أن يوقعها الإغراء في حبك ؟ من تلك التي تلحق بك الأذى ، أي سافو ؟ وحتى لو كانت تفر منك الآن ، فإنها سرعان ما سوف تسعى إليك ، وإذا كانت لا تتقبل منك هداياك ، فإنها مع ذلك سوف تعطيك ، وإذا كانت لا تحبك ، فإنها سوف تقع سريعا في

هواك ، رضيت أم أبت » . تعالى إلى الآن كما فعلت من قبل ، وخلصيني من الهموم القاسية ، وحققى كل ما يتطلع إليه قلبي ، حققى ، وكوفى حليفى في المعركة » .

إن الغرض من كتابة هذه القصيدة واضح إلى حد كبير . فإن سافو تستنجد بأفروديت ، لعلمها أن الإلهة قد أسرعت لنجرتها من قبل . في وقت آخر ، كان يمكن لمثل هذه الأبيات أن تعد تعبيراً عن بعض المشاعر كتبها شاعرة لتخفف بها عن نفسها من ضغط أفكارها عليها . ولكن في حالة سافو ، وقد كانت تكتب أشعارها لتغنيها هي أو أفراد جماعتها ، فلا بد أن تكون هذه الضراعة لأفروديت قد ألفت لمثل هذا الغرض . إنها ضراعة حقيقية موجهة إلى إلهة حقيقية عاشت سافو على خدمتها . إن الصديق واضح في القصيدة بصورة لا تقبل الشك ، فالقصيدة تتحدث عن حادثة وقعت في حياة سافو ، ولكن سافو ، على غير ما هو متوقع ، لا تذكر اسم المحبوبة ، بل تترك الموقف غامضاً . القصيدة وصلتنا كاملة ، وليس هناك ما يدعو إلى القول بأن اسمها ذكر بعد ذلك فيما لم يصلنا من القصيدة ولعل السبب في عدم ذكر الاسم هو أن سافو كانت قد غنت هذه القصيدة في حضور الفتاة المحبوبة بين باقي أفراد الجماعة ، وأنها كانت معروفة لدى جميع الحاضرات (Cf. Wilamowitz, Sappho und Simonides, p. 48)

هذه القصيدة توصلنا إلى قلب الحياة في جماعة سافو ، فهي ترينا كيف أن هذه الحياة كانت تسيطر عليها الإلهة أفروديت التي تعبدها وتكرهها تلك الجماعة . فطالما كانت الفتيات عضوات في هذه الجماعة ، فقد كان في إمكانهن تبادل الحب مع بعضهن ومع سافو . وليس في مثل هذه العلاقة أي غضاضة من وجهة النظر الأخلاقية اليونانية ، وحيث إنه لا يوجد أي دليل أكيد على أن هذا الحب كان مثوباً بالأنانية أو البحث عن المتعة الجسدية ، فليس هناك ما يدعو إلى توجيه أي اتهام ضد هذا الحب ، جرياً وراء قراءه أخلاقية أكثر

وكان من دواعي الفخر لنساء عصرها أن يقال عنهن
إنهن كسافو في الثقافة والحكمة وكتابة الشعر. (Luc. Merc.
Cond. 36) ولعل وجود سيدة ساقطة في ليسبوس تحمل
نفس اسم الشاعرة سافو. (Suid. cf. Ael. V.H. 12, 19 ;
SV. Phaon) من الأمور التي أدت إلى إشاعة الخلط
بين الشخصيتين عند بعض الرواة . كما أن التفسير
الخاطئ لكلمة *ἑταῖρα* التي تحمل في الغالب معنى
« محظية » من الأمور التي أدت إلى نفس الشيء ،
فالكلمة تحمل أيضاً معنى « صديقة حميمة » وقد
استعملتها سافو نفسها في هذا المعنى في إحدى قصائدها
(Ath. 15, 571 d)

...τάδε νῦν ἑταίραις

(شذره ١٢) ταῖς ἑμαῖσι τέρπειν κάλως ἀείσαι
« سأغني الآن لصديقاتي هذه الأغنيات غناء متقناً » .
أما عظمتها كشاعرة فأمر يكاد يكون متفقاً عليه من
جميع الرواة والنقاد ، فقد رفعها البعض إلى مصاف
الإلهة واعتبرها إلهة عاشرة لربات الفنون التسعة Muses
(cf. Anth. Pal 71, 407, 718 ; 9, 66, 506 ; Plut.
Amat. 18) وأشعارها في رأى البعض الآخر
تفوق كل شعر دبجه يراع امرأة ، كما يفوق
شعر هوميروس كل شعر جاء على لسان رجل
(cf. Anth. Pal. 7, 15) وكان من عادة سقراط أن يطلق
عليها اسم « سافو الجميلة » أثناء حديثه عنها ، رغم أنها
كانت ضئيلة وسمره ، وذلك لجمال أشعارها وروعها ،
(Max. Tyr. 24 (18), 7) ، تلك الأشعار التي تمنى
سولون الحكيم ذات يوم أن يحفظ بعضاً منها ثم لثأت
المنية (Stob. Fl. 58, 29) c

إن طبيعة عواطف سافو يمكن أن ترى بوضوح
من هذه الأبيات الرائعة التي تتحدث فيها عن فتاة رحلت
عنها ، وتستعيد أيام حياتهما معاً في شكل محادثة دارت
بينهما قبيل الرحيل (شذره ٨٣) .
« إذن فاني لن أرى أنتيس مرة أخرى » .

صرامة من القواعد اليونانية . فهذا الحب كان يختلف
تماماً عن اللواط الذي كان موجوداً في بلاط
بوليكرايتس Polycrates (طاغية جزيرة ساموس
في النصف الأخير من القرن السادس ق . م) ، وبالرغم
من أن الجماعتين كلتاهما لها طبيعة تكاد تكون واحدة ،
وهي انغزال الجنس اجتماعياً عن الجنس الآخر ، إلا أن
الحب في جماعة سافو كان أسمى بكثير عن مستوى
الحب في البلاط السالف الذكر . فقد كان الحب في
جماعة سافو تطوراً طبيعياً بين جماعة تؤمن إيماناً صادقاً
بالحب وإلهته ، هذا إلى جانب أن الحب بينهن كانت
تصونه قيود صارمة من القيم الروحية ، وتسمو به حاسة
سافو الأخلاقية الخاصة . حقاً كانت مشاعرها تجاه
العداوى في كثير من الأحيان مشاعر عاطفية ، ولكنها
لم تكن بحال « شاعر جنسية » . فشاعرها كانت مليئة
بالرقة والود ، فهي تحس بلوعة الفراق وذل المهجران ،
ولكن هذه كلها مشاعر طبيعية لشخصية كسافو تحس
إحساساً عميقاً وتعبر بوضوح عما تحس . وإنه لمن سوء
الحظ لطبيعة سافو الغريبة وعبقريتها الفذة أن الشذرات
الباقية من أشعارها محوطة بالغموض ومليئة بالأفكار
المتضاربة ، فهي أحياناً لودعية ، وأحياناً أخرى
خيالية ، وفي بعض الحالات عاطفية ، بل وعاطفية
جداً حتى لثبدو مرقية تسوواويين ، مما دعا البعض ،
من لا يتوخون الدقة في إصدار أحكامهم ، إلى اتهامها
بالخلاعة والمجون ، واعتبارها امرأة ساقطة ، وهذا
يتنافى تماماً مع الاحترام الذي كان يبديه كتاب العصور
القدمية أثناء حديثهم عنها . فأرسطو (Rhet. 1398 B)
يحدثنا عن تقدير معاصريها واحترامهم لها ، حتى إن
حكومة بلدها قد مجدها ونقشت صورتها على قطع
العملة . (Pollux IX, 84) . ويضعها سقراط في
مصاف الحكماء (Plat. Phaed. 235 B) ولا يملك
المرء ، عند سماع أغانيها ، إلا أن يتوقف عن
الشراب ويخفى كأسه خجلاً (Plut. Symp. VII, 8, 2)

«إني حقاً أود أن أموت . لقد تركتني وهي تبكي
بلمسوع غزيرة وقالت لي «وأسفاه ! كم نحن نصاء !
على الرغم مني ، يا سافو ، أرحل منك ، أقسم
لك . « وأجبتها بهذه الكلمات « اذهبي وابتهجي ، فقط
اذكريني ، فأنت تعرفين مدى شغفي بك . وإن كنت
لا تذكرين ، فاني أذكرك بما نسيت ، أذكرك
بالأوقات السعيدة البهيجة التي أمضيناها معاً . فكم من
مرة ، وأنت بجانبني ، قد زينت خصل شعرك المهدلة
بجدائل من زهر البنفسج والورد الهيج ، وعقدت حول
عنقك الرقيق قلائد من مئات الأزهار ، وضمخت
جلدك البض ، وأنت في صديري ، بكثير من العطور
الملكية الثمينة ، وكل ما تتمناه (فتاة أيونية ناعمة)
حصلت عليه ، وأنت تجلسين على حشية لينة ، من
أبدى وصفات رفيفات . وليس هناك من (تل) أو
مكان مقدس أو (جدول ماء) لم نذهب إليه ، ولم
(عملاً) الربيع (المبكر) أي غابة يشدو (البلابل)
المتنوعة (إلا وتجولت فيها معي) »

وبالرغم من أن القصيدة لم تصلنا بدايتها ولا نهايتها ،
وكثير من أبياتها متناثرة ، إلا أنها مع ذلك تمدنا بطبيعة
الحياة بين سافو وجاعاتها . فالقصيدة تسجل محادثة
استعادت فيها سافو الساعات الخلو التي أمضتها مع
صديقها التي اضطرت إلى الرحيل عنها والتي قال عنها
بعض المعلقين إنها كانت تسمى أثيس . فهي تبدأ
بكلمات مختصرة غير منمقة يتجلى فيها الأسى بوضوح ،
ثم تنتقل سافو إلى ذكر ألوان المنع المختلفة التي كانت
تمضي فيها حياتها مع صديقاتها : في الاحتفالات ،
حيث كن يترنن بالزهور ويتضمخن بالطيب ، وفي
زيارة الأماكن المقدسة حيث يحتفلن بأعياد الإلهة
أفروديت ، وفي التجوال بين المناطق الخلوية التي حينها
الطبيعة بجمال فتان وبين الأعراس وجدول المياه حيث
تصطح البلابل بشدوها العذب الذي يبعث في النفس
النشوة والطرب .

إن الإلهة ، التي كانت سافو وصوحيباتها يقمن
على خدمتها ، هي أفروديت ، ولكن التفاصيل الدقيقة

للطريقة التي كانت تقدم بها طقوس عبادتها تكاد تكون
مجهولة تماماً . وأفضل ما وجد فيها وصلنا من شعر
سافو ، وله صلة بهذه الطقوس ، شذرة تتألف من
أربعة أبيات (شذرة ١١٧) تصف مذبحاً من الأغصان
نصب تكريماً للإلهة أفروديت وإلهات الرشاقة Xárites
« . . . أما أنت ، يا ديكا ، فانسجي بيديك
الرقيقتين جدائل بديعة واجدليها معاً بأغصان الزهور .
فإن الإلهة (أفروديت) تهتم بكل ما أبدعت زينتته
بالأزهار ، وكذلك ربات الرشاقة المباركات يزداد
استحسانهن له ، ولكنهن يتحولن عن كل الأشياء التي
لا تتوجها الزهور » .

ويبدو من هذه الأبيات أن طقوس الإلهة أفروديت
كانت تتم في الهواء الطلق ، وربما في أحد الأعراس
المقدسة . وهناك بيتان يؤكدان هذه الفكرة (شذرة
١١٢) .

« لقد طلع البدر علينا ، واتخذت العذارى أماكنهن
حول المذبح . . . »

وربط إلهات الرشاقة بالإلهة أفروديت أمر طبيعي
ومعروف ، فهو ميروس في الإلياذة (٥ ، ٣٣٨)
يجعل إلهات الرشاقة ينسجن رداء مقدساً للإلهة
أفروديت ، وفي الأوديسا (٩ ، ٣٦٤) يتغنى
ديمودوكوس Demodocus بالطريقة التي كن
يفعلن بها الإلهة أفروديت ويضمخنها بالزيت عند
ذهابها إلى قبرص .

وكانت الإلهة تستدعى لحضور هذه الطقوس
بالأغنيات . ولدينا شذرة (٦) تدل على أن هذه
الطقوس كانت عبارة عن مآدبة تدعى إليها الإلهة
لتشارك فيها :

« أي إلهة الحب ، أقبلي ، أيتها القبرصية ، وصبي
برقة لرفيقاتي ورفيقاتك الرحيق المزوج بالبهجة في
الكووس الذهبية » .

ولا بد أن تكون هذه الأبيات جزءاً من أنشودة
إتهال من سافو إلى أفروديت . ومن المحتمل أن تكون

الكؤوس الذهبية كؤوساً خاصة بالطقوس الدينية تستعمل في المناسبات الكبيرة ، كالأواني الذهبية التي يصفها بتدار وهي تستعمل في حفلات الزفاف (Ol. vii. I ff) . وأفروديت نفسها هي التي تصب الخمر ، وإسناد الوظيفة إليها شخصياً يجعلنا نعتقد أن شرب الخمر كان جزءاً من الطقوس . وهي باعتبارها إلهة للنماء ، فقد كانت ، كالإله ديونيزيوس Dionysius مرتبطة بالخمر واهب الحياة . وكانت إلهات الرشاقة تستدعى أيضاً بمثل هذه الكلمات (شذرة ٦٨) .

«أى إلهات الرشاقة ، ذوات الأذرع الوردية الطاهرة ، أقبلن ، يا بنات زيوس ، وكانت ربات الفنون مرتبطة بإلهات الرشاقة ، والربط بينهما طبيعي ومعقول ، فعبادة إلهات الرشاقة تشتمل على الفناء ، وهو من اختصاص ربات الفنون ، ومن ثم فإن ربات الفنون كانت هي الأخرى تستدعى لمثل هذه الولايم (شذرة ١٢٩) .

«أى ربات الفنون ، أقبلن أيضاً ، واتركن (ماواكن) الذهبي» .

وهذا البيت يجمع بينها (شذرة ١٠١) .

«والآن ، أقبلن ، أى إلهات الرشاقة الرقيقات ، وأنن أيضاً ، أى ربات الفنون الشقراوات» .

وكان يرتبط بعبادة أفروديت أيضاً حبها الصغير أدونيس Adonis . وكان روحاً من أرواح الفناء ، ولد من شجرة الآس (Ovid. Met., x, 512) التي أصبحت رمزاً تدل عليه . كانت القرايين التي تقدم إليه هي ثمار الخريف ، وكانت أحواض الزهور يطلق عليها اسم «حدائق أدونيس» (Plat. Phaed., 276 b) وكان أدونيس يحيا ويموت كل عام . وبالرغم من أن عبادته لم تلق رواجاً في معظم أنحاء العالم اليوناني ، إلا أنها كانت ذات أهمية كبيرة في ليسبوس . ولا بد وأن تكون سافو قد كتبت عن عبادته بعض الأغنيات ، فان ديوسكورديس Dioscorides قد كتب يحدثنا عنها بأنها كانت «تشارك أفروديت في نخبها ،

عندما كانت تنوح من أجل سليل كينيراس الصغير (وهو أونيس ، cf. Ox. Class. Dict., p. 193) في الدغل المقدس للآلهة المباركة» (Anth. Pal. vii. 407) إن النخب من أجل أدونيس يعبر عن النخب لغروب شمل الحياة عن الحمول والحدائق ، والأغنية التي كتبها سافو لهذه المناسبة تحمل طابع الأغنية الشعبية ، وقد وصلنا من هذه الأغنية بيتان (شذرة ١٠٣) هما حوار بين أفروديت ووصيفاتها اللاتي ربما كن حرائس الغاب . ومن المحتمل أن هذه الأغنية كانت تغنى سافو ممثلة أفروديت ويرد عليها فتيات جماعها مثلن فابعات أفروديت . ويمكن أن ترتب على النحو التالي :

الحرائس : أى كيميريا (اسم لأفروديت) ، إن أدونيس الرقيق في التزع الأخير ، إذا ينفى علينا أن تفعل ؟

أفروديت : أضربن صدوركن ، يا فتيات ، وهزقن ثيابكن .

إن رنة الحزن والنخب على الإله المحضّر تبدو بجلاء في الأغنية ، ومثل هذه النغمة الحزينة تظهر أيضاً في العبارة «ὦ τὸν Ἀδωνίαν» ويلاء لأدونيس (شذرة ٢٥) .

كانت جبرينا Gyrinna وأثيس Athis وأناكتوريا Anactoria أحب الفتيات إلى قلب سافو (Max. Tyr. 24, [18]) والقصيدة التالية تبين مدى شغفها بالأخيرة (شذرة ٣٨) .

«في رأى البعض أن أحسن ما على الأرض السوداء جيش من الفرسان ، وفي رأى البعض الآخر جيش من المشاة ، وفي رأى غيرهم أسطول من السفن ، ولكن بالنسبة لى فهو من محبة المرأة . ومن السهل توضيح ذلك لأى إنسان . فان هيلين ، التي كانت تفوق كل البشر جمالا ، فضلت على أفضل الرجال (وهو زوجها مينلاوس) من دمر كل شرف طرواده (باريس) دون أن تفكر مطلقاً في طفلتها (هيريون) ووالدها الأجزاء ، ولكن أضلها الحب فجعلها تذهب بقلبها

تمامها الجديد وهي تتذكر أثينس بشوق وحنين
(شذرة ٨٦) .

« أثينس ، إن عزيزتنا أناكتوريا تسكن بعيداً »
في سارديس ، ولكنها كثيراً ما تبعث بأفكارها إلى
هنا ، وتفكر في الأيام التي تكنا نحياها معاً ، عندما كنت
بالنسبة لها إلهة مجيدة ، وأغانيك أحب الأغاني إليها .
ولكنها الآن قضت بين نساء ليديا ، كالقمر بعد غروب
الشمس ، كالقمر في الأصابع الوردية وهن من حولها
كالنجوم ، كالقمر الذي ينشر ضوءه عبر البحر
الأجاج وفوق الحقول المزهرة أيضاً ، بينما الطفل ينزل
جميلاً على الأرض ، والورود نحيا من جديد وكذلك
الحشائش الرقيقة والنباتات المزدهرة . وفي غالباً
ما تروح وتغفو عندما تتذكر حبا لأثينس الدمشقة ،
ويتحرق قلبها الرقيق بلا شك شوقاً وحنيناً ، وتصرخ
بنا عالياً أن نذهب إليها هناك ، وما تود أن تقوله ،
فتحن تعرفه جيداً ، أنا وأنت ، لأن الليل ، الذي تنسج
خيوطه الأزهار والذي يملك آذاناً كثيرة ، يطلعنا على
كل ما يبتنا .

إن المناسبة التي أثارته سافو لكتابة هذه الأبيات
يمكن تخمينها على النحو التالي : ترى سافو القمر يطلع
من البحر عبر ميثيني ويجعل ليديا على مرأى البصر ،
الأمر الذي يذكرها بصديقها التي تعيش في سارديس
تحت ضوء نفس القمر . ومشاعرها هنا ليست مشاعر
الحب بقدر ما هي مشاعر التعاطف والمشاركة الوجدانية
فقد أثارها الحب الذي تكنه الفتاة البعيدة لأثينس .
وتدخل سافو في الموضوع مباشرة حتى تبدو القصيدة
وكانها رد فعل لحبا هي . وطبيعة عاطفتها تظهر من
التشبيه بالقمر ، فهذا التشبيه يبين كم كانت سافو تجد
المتعة في جمال الفتاة ، وقصورها لرفعة شأنها بين الفتيات
الليديات بالقمر بين النجوم تصوير رائع ، لا لأنه
تصوير مناسب وجميل فحسب ، بل لأنه تصوير فرضه
عليها القمر نفسه وهو يتلألأ فوقها مضئاً في كبد السماء ،
إن الفتاة التي تشير إليها هذه القصيدة هي أثينس ،
والفتاة الأخرى التي رحلت إلى ليديا هي أناكتوريا .

بعيداً ، فمن السهل دائماً أن تسهل المرأة ، عندما تفكر
باستخفاف فما هو قريب وعزيز . وهذا ما يجعلني
أذكر الآن أناكتوريا ، التي رحلت هنا ، والتي
أفضل سماع وقع خطاها الجميل وروية وجهها المشرق
الوضاء ، على جميع عجلات ليديا الحربية ومشاتها
المسلحين . إنني أعلم حلم اليقين أن المرأة لا يستطيع أن
يحصل على الأكل ، ولكن أن يرغب فيما يشاركه فيه
غيره ، أفضل من أن ينساه .

هذه القصيدة تلقي ضوءاً على عواطف سافو
وفها ، فهي قصيدة عن الحب ذاته . وما تريده سافو
هو حضور أناكتوريا الذاتي ، والجملة التي تعبر فيها
عن هذه الرغبة هي بيت القصيد ، وعلى الرغم من
بساطة هذه الجملة ، إلا أن الكلمات فيها قد أحسن
اختيارها ، حتى إن كلامها يعطي التأثير المطلوب في
الحال . ولهذا القصيدة أهمية أخرى ، فهي تلقي ضوءاً
على رأى سافو في الحب من خلال ذكر هيلين . واسم
هيلين بالذات له أهمية كبيرة ، لأنه يفسر طبيعة الحب .
إن سافو لم تهمل هيلين ، كما تهمل الكابوس عندما
قارنتها بثيتيس Thetis (شذرة ١٢٠ من الكابوس
في Lyra Graeca) ، ولم تمتدحها ، ولكنها تقرر
أنها فعلت ما فعلت بسبب الحب وحده . وسافو في
موقفها هذا تجاه هيلين أقرب إلى موقف هومر من أي
شاعر آخر من شعراء الإغريق ، والفرق بينهما أن فهم
هومر لمشكلة هيلين يأتي من الخارج ، أما فهم سافو لها
فمن الداخل . فسافو تفهم هيلين ، لأنها هي نفسها
تحب ، وتعلم جيداً أن المرأة عندما تحب ، فإن كل
شيء ، فيما عدا الحب ، لا يعني شيئاً بالنسبة لها .

إن الدور الذي لعبه الليديون في هذه القصيدة يبين
لنا إلى أي مدى كانت ليسبوس قريبة من آسيا العظيمة
القوية ، وتقدير هذه القوة حتى قلدها بمدنا محل لفهم
قصيدة أخرى تتعلق بفتاة أخرى من تلميذات سافو
وصديقاتها وهي أثينس ، الموقف هنا واضح تمام
الوضوح . فتاة ما قد رحلت إلى سارديس Sardis
في ليديا Lydia ، وسافو تفكر فيها وهي في

وتلخص فيها حبها القديم لأنتيس . وفي هذه القصيدة بيت من أجمل ما كتب في هذا المعنى (شذرة ٤٨) :
« أى أنتيس ، كنت أحبك ذات يوم ، منذ أمد بعيد » .

وهي في نفس القصيدة تصفها عندما رأها لأول مرة ، وكانت سافو ما تزال في ريعان صباها ، بأنها كانت صغيرة غير مكتملة

« وعندما كان شباني في أوج ازدهاره ، كنت في نظري مجرد طفلة صغيرة غير مكتملة » .

وهناك بيتان في نفس الوزن ، وربما كانا من نفس القصيدة ، يشران إلى قصة الحب القديم بينهما (شذرة ٨٩) .

« لقد أحسنت صنماً إذ أنيت ، فقد كنت في شوق إليك ، فأنت تشعلن قلبي غراماً بك » .

فهذه الأبيات المتناثرة تشير إلى قصة عاطفية ، فإن سافو وهي في ريعان شبابها ترى أنتيس ، ولا تأبه لها في أول الأمر ، ولكنها تقع في حبها ، وتبادله أنتيس العاطفة ، ثم ترحل عنها إلى أندروميذا ، فتغضب سافو وينكسر قلبها إلى حد كبير .

هذه الحادثة تكشف لنا عن مشاعر سافو نحو فتيات جاءتها . ومثل هذه العلاقة كانت تصل إلى ذروتها عندما ترحل عنها إحدى الفتيات إلى بيت الزوجية . ففي هذه الحالة كان يتنازع سافو عاملان . الأول مشاعرها الخاصة لانفصال إحدى صديقاتها عنها ، وكانت هذه المشاعر تلهمها كتابة قصيدة تعبر فيها عن أحاسيسها الخاصة . ولكن كان عليها أيضاً أن تكتب أغنية الزفاف ، وكانت هذه تصور بروح مختلفة تماماً . وأحسن ما يصور الحالة الأولى قصيدة مشهورة ،

كتبها سافو في حفل عرس ، عندما رأت العروس تجلس بالقرب من حريسا ، وهذه القصيدة ترينا كيف أن سافو أحست الموقف إحساساً عميقاً (شذرة ٢) .

« يبدو لي أن هذا الرجل ند للآلهة ، إذ يجلس أمامك ويستمع ، وهو قريب منك ، إلى نغمت صوتك

وهناك أشعار أخرى جاء فيها ذكر أنتيس ، والدليل على حب سافو لها هو أشعارها . فبعد كتابة القصيدة السابقة ، تركت أنتيس سافو وانضمت إلى جماعة أندروميذا Andromeda منافسة سافو . فكتبت سافو تقول (شذرة ٨١) .

« انظري ، إن الحب ، الخلو المر ، مفكك الأعضاء ، ذلك المخلوق الذي لا يفهر ، يعصف في ، بيننا أصبحت أنت ، يا أنتيس ، تكرهين التفكير في ، وهربت إلى أندروميذا بدلا مني » .

كانت أندروميذا مثل سافو ترأس جماعة من الفتيات . وكان الخروج من جماعة إلى أخرى يعتبر خيانة شخصية . وقد قارن أحد النقاد (Max. Tyr. 24 [18])

علاقة سافو مع أندروميذا بعلاقة سقراط مع السفسطائيين بروديكوس Prodicus وجورجياس Gorgias وبروتاجوراس Protagoras ، وقال « كانت في بعض الأحيان تخطنين ، وأحيانا أخرى تدحس دعوامهن أو تتجاهلهن ، تماماً كما كان يفعل سقراط » . وقد وصلنا من أعمال سافو مثلاًن يوضحان هذه العلاقة . في الأول مخاطب سافو فتاة معجبة ، بأندروميذا وتوضح لها أخطاء منافستها (شذرة ٩٨)
« أى امرأة رفيعة في ملابس رفيعة تلك التي تلهب صدرك ، مع أنها لا تعرف كيف تسدل رداءها إلى ما فوق خلاخيل أقدامها » .

وفي مناسبة أخرى توجه خطابها إلى أندروميذا في سخرية مريرة (شذرة ١٢١) :

« إني أنشرف بتقديم أزكى تحياتي إلى ابنة الملوك الكثيرين » .

كما جاء ذكر أندروميذا في بيت آخر (شذرة ١٢٥)
« لقد جصلت أندروميذا على صفقة راححة » .

وليس هناك ما يشير إلى طبيعة هذه الصفقة ، وإن كان من المحتمل أن يكون المقصود بها ذهاب أنتيس إلى جماعة . وإذا كانت سافو تعامل منافستها أندروميذا بطريقة عاجلة ومرتعلة ، فإنها تعامل عدم وفاء أنتيس لها بمجدية كبيرة . ويبدو أن سافو قد كتبت قصيدة

العذبة وضحكائك الساحرة ، التي تجعل قلبي يخفق بين جوانحي . فعندما أنظر إليك ، أرى بروخيا ، تعززي الألفاظ أو تخونني تماماً ، ويتعقد لساني عن الكلام ، وفي الحال تسرى في بدني نار هادئة ، وتغيم عيني ، وتطن أذني ، ويتصبب مني العرق ، وتثاب جسدي كله رعدة ، وأصبح شاحبة كالعشب ، حتى لأبدو وقد صرت قاب قوسين أو أدنى من الموت .

لا شك أن المناسبة التي أثارت سافو لكتابة هذه الأبيات هي حفل عرس ، لا لأن كلمة *swmp* تحمل معنى « زوج » ، ولكن لأنه في حفلة الزفاف فحسب يمكن للفتاة أن تجلس بجوار الرجل وتتحدث معه في حرية . ومن المحتمل أن تكون الفتاة محبة والحفل مقام في منزل أبيها . ووجود سافو بالحفل يرجع إلى أنها أستاذة الفتاة ورئيسة الجوقة التي ستغني أغنية الزفاف . ولكن فيما يخص مشاعر سافو الخاصة ، فإنها منفصلة عن واجبها حيال العروس ، فهي تشعر بالخسارة التي حاقت بها كنتيجة حتمية لهذا الزواج . والآثار الناجمة عن عواطفها المتأججة آثار فيزيقية ، كما هو واضح من ألفاظ القصيدة ، وقد جاءت مثل هذه التعبيرات في شذرات أخرى لسافو . فهي تصف الحب (شذرة ٢٨) بأنه « مسبب الألم ، ناسج خيوط الأقاصيص » (قارن شذرة ٤٢ ، ٧ - ٨) . وفي مكان آخر تقول (شذرة ٥٤) :

« أما بالنسبة لي ، فإن الحب يعصف بروحي ، كما تعصف ربيع عاتية بشجرة عالية . »
وفي نهاية القصيدة تقول بأنها موشكة على الموت . والتعبير طبعي وصادق بعد الأعراض الفيزيكية التي انتابتها . إن الرغبة في الموت تعبر شائع بين الشعراء منذ العصر الهلنستي ، وبالرغم من أنه قائم على عواطف حقيقية ، إلا أنه أصبح « كليشيه » يقتضيه الإخلاص الصادق . أما بالنسبة لسافو ، فإنها عندما تقول إنها تود أن تموت ، فهي تعني ما تقول ، لأن تبايح الهوى يسبب المجران

تكاد تقضى عليها ، حتى إن الموت لا يبدو أمراً حتمياً فحسب ، بل ومرغوب فيه أيضاً . ولا بد أنها كانت في مثل هذه الحالة عندما قالت : « وإني لتسيطر على رغبة ملحة في أن أموت ، وأرى ضفاف نهر أخيرون التي تغطيا أزهار اللوتس الندية » . (شذرة ٨٥ ، ١٠ - ١٢) وعندما قالت « إني حقاً لود أن أموت » (شذرة ٨٣ ، ٢) .

وإذا كانت هذه مشاعر سافو عندما رأت إحدى فتياتها الأثيرات تجلس بجوار عريسها ، فإن الشذرات الباقية لنا من أهازيج العرس *ambalaua* التي كتبها تؤكد لنا أنها كانت تستطيع أن تكبح جماح عاطفتها الشخصية ، وتكتب أغنيات في غاية الجمال والشفافية لتغني في حفل الزفاف التقليدي .

كانت لأهازيج العرس أنواع مختلفة تبعاً لزمان ومكان الحفل الذي ستغني فيه . وكانت حفلات العرس تبدأ عادة بوليمة العرس ، التي كان يحضرها العريس وعروسه ، وكانت هذه الوليمة تقام بمنزل والد أحدهما ، وكان يمكن للسيدات الحضور . وكان لهذه الوليمة طابع ديني ، إذ كان والد العروس يقدم القرابين للآلهة الزواج ومن بينها الإلهة أفروديت ، ومعرفة سافو لهذه الطقوس تتضح من وصفها لإحدى هذه الولائم في الأولب (شذرة ١٤٦) .

« كان هناك وعاء من الأمبروزيا المخلوطة معداً من قبل ، وقد أخذ هيرميس إبريق الخمر وصب للآلهة . وعندئذ رفع الجميع أقداحهم ، وأراقوا قرباناً من الخمر وتمنوا للعريس أطيب التمنيات جميعها » .

وأياً كان العريس والعروس المقام لهما هذا الحفل في الأولب ، فلا شك أنه صورة طبق الأصل لحفل على ظهر الأرض . وليس من الواضح أن الأغنيات كانت تغنى عادة أثناء هذه الولائم ، وليس في أغنيات سافو الخاصة بحفلات الزواج ما يشير إلى ذلك بصورة واضحة . ويبدو أنها كانت تبدأ في نهاية الوليمة . وكان

الحفل ينتهى عندما تصل إلى منزل الزوجية الجديد عربية العروس التي كان تغطيها وبجانبها العريس وبالجانب الآخر الإشبين المسمى *πορνεύσιος* . وقد وصف لنا لونجوس *Longus* ، وهو أحد الشعراء العارفين بتقاليد ليسبوس الذين قرأوا أشعار سافو ، نموذجاً ريفياً لمثل هذه الحفلات (*Longus, Daph. & Ch. IV. 40*) «وعندما يأتي الليل ، كان المدعوون يصحبونهما إلى مخدع الزوجية ، كان البعض يعزفون بالآلات والبعض الآخر يعزفون بالزمار ، وآخرون يحملون في أيديهم اللوانيس والمشاغل وهم يسرون في مقدمة المركب . وعندما يصلون إلى عتبة المخدع كانت تتطلق الأغاني في نبرات جافة خشنة تشبه أصوات الفئوس والمعاول .»

والأغنية التي كانت تغنى على هذا النحو هي أغنية الزفاف الحقة (*ὕμνος*) وقد ورد وصف مماثل في هومر (*It. XVIII 491-496*) :

«كان هناك أعراس وولائم ، وكانوا يخرجون العرائس من حجراتهن ، ويسرون بهن خلال المدينة تحت أضواء المشاعل ، وكانت أغاني العرس التي كانت تتردد إذ ذاك عظيمة ، كان الفتية الراقصون يدورون ، ومن حولهم ترتفع أصوات النايات والزمار ، وكانت كل واحدة من السيدات تقف مشدوهة عند الباب الأمامي .»

لم يصلنا من شذرات سافو ما يشير إلى هذا المركب وإن كان بعضها يمكن ربطه بالاحتفالات الأخيرة منه ؛ عندما يتوقف الجميع أمام مخدع العرس . وكما جعل لونجوس المحتفلين بالعرس الريفى يغنون في «أنغام جافة خشنة» فقد تركت سافو في هذه الأغاني أساليبها الشاعرى المعتاد ، واستخدمت أسلوباً مغايراً قريباً من لغة الحوار المتداول بين الناس . ولعل السبب في وجود الصخب والتهريج وفحش القول في حفل الزفاف يرجع إلى فكرة إبعاد الحظ السيئ عن العروسين بجعلهما

يبدوان أقل سعادة مما هما . ومثل هذا الفحش والصخب يرى بوضوح في أغنية الزفاف الموجودة في نهاية مسرحية «السلام» لأرستوفانز ، ولكن هناك من أشعار سافو ما يكفي لتوضيح ذلك . كان المزل عند سافو أقرب إلى المداعبة منه إلى الفحش . كان «البواب» شخصية هامة ، ومن ثم يستحق المداعبة بالتهكم عليه . كان على البواب أن يوصد الباب على العروسين ويمنع أصدقاء العروس من الدخول لمساعدتها ، إذا ما صاحت مستنجدة . وقد جعله ثيوكريتوس *Theocritus* يقول وهو يباشر عمله «الجميع بالخارج» (*ἔνδοι πᾶσαι*) ثم يوصد الباب (*cf. Theoc. XV. 77*) وكان هناك بالطبع بعض أفراد الجوقة من أصدقاء العريس الذين كانوا يتهكمون عليه . وفي هذه الآيات تهكم سافو من أقدامه الضخمة (شذرة ١٥٤) :

«إن أقدام البواب يبلغ طولها سبعة أذرع ، ونعاله مصنوعة من جلد خمسة من الخيوان ، واشتغل بها عشرة من صانعي النعال .»

وبمثل هذه الروح المرحية تداعب العريس وتهكم على طول قامته وتقول إن السقف يجب أن يرفع عندما يدخل (شذرة ١٤٨) :

«ارفعوا السقف عالياً، مرحباً باله الزواج *Hymen* ارفعوها عالياً ، أيها العمال المهرة ، مرحباً باله الزواج *Hymen*»

فالعريس قادم وكأنه أريس ، مرحباً باله الزواج *Hymen* .

وهو أطول من أطول رجل ، مرحباً باله الزواج *Hymen* .

ومن ناحية أخرى فإنه من الطبيعي أن تمتدح سافو العروس ، وهي صديقتها ، وتبين كم هي جميلة ، وكيف أن العريس محظوظ بالزواج منها . وهنا سرعان ما يتحول موقفها من المزل إلى الثناء : وأحسن مثال لهذا الانتقال يمكن أن يرى بوضوح من بعض الآيات

التي تبدأ بتهنئة العريس وتنتهي بأنشودة تنتهي فيها
بالعروس (الشذرات ١٥٥ - ١٥٦ ، ١٥٨) :

« أيها العريس السعيد ، هنيئاً لك ،

فقد تحقّق لك الزواج كما تمنيت ،

وحصلت على العروس العذراء كما تمنيت ،

إن وجهها البديع يفيض رقة وعذوبة .

وأنت أيها العروس ، إن شكلك بديع للغاية .

عينك ذات لون عسلي ، ووجهك يغمره الحب .

وقد حببتك أفروديت بالتشريف والتكريم .

ويبدو أن مثل هذه الأغاني كانت تنتهي بمثل هذه

الكلمات (شذرة ١٦٢) :

« إلى الملتقى أيها العروس ، إلى الملتقى أيها العريس

الموثر » .

وهناك لون آخر من أغنيات الزفاف قد لا نجد له

مثيلاً لدى شعراء الإغريق في غير أعمال سافو . ففي

إحدى الشذرات التي وصلتنا نجد حواراً بين العروس

وفتاة أخرى تمثل العنصرية (شذرة ١٦٤) :

العروس : أي عذريتي ، أي عذريتي ، إلى أين

مريت وذهبت بعيداً عني ؟

العنصرية : إلى حيث لن أعود إليك ثانية ، إلى حيث

لن أعود إليك ثانية .

ومثل هذه الأغنية لا بد وأن تكون مستمدة من

الأغاني الشعبية ، وهي تذكرنا بالحوار الذي يتبادل

فيه أفروديت وتابعاتها النحيب على أدونيس (شذرة

١٠٣) . ومن المحتمل أن العروس كانت تقوم بدورها

في الأغنية ، وترد عليها إحدى زميلاتهن من فتيات

سافو .

لم يلعب الرجال إلا دوراً ضئيلاً في حياة سافو ،

ومن ثم لم يأت لهم ذكر في أشعارها إلا نادراً . فقد جاء

ذكر لأخيها نخاراكسوس Charaxus في بعض

الأشعار . وقد حدثنا هيرودوت (II. 135) عن القصة

التي أثارت سافو لكتابة هذه الأشعار . راجع نخاراكسوس

إلى ناوكراتيس Naucratis المستعمرة اليونانية
في دلتا النيل بمصر . وهناك التقى بمحظية مشهورة يطلق
عليها اسم رودوبيس Rhodopis ووقع في غرامها ،
وصرف مبالغ طائلة من أجل تحريرها ، وعندما عاد
إلى وطنه ، عثقه أخته سافو على تصرفه هذا في إحدى
قصائدها .

كانت ناوكراتيس إحدى المراكز الهامة للتجارة

اليونانية ، ومن المحتمل أن نخاراكسوس كان قد رحل

إلى هناك لأموور تتعلق بتجارة النبيذ من ليسبيا (cf. Ath. 396 b).

ولكن أهم ما في القصة هو الجدية والصرامة

التي قابلت بها سافو تصرف أخيها ، وإن في معارضتها

لهذا التصرف الطائش مع امرأة من هذا النوع لدلالة

أكيدة على رفعة مستوى سلوك سافو نفسها . ولعل

الاسم الذي عرفها به هيرودوت ، وهو رودوبيس ، هو

اسم الشهرة الذي كان يطلقه عليها المحبون ، والاسم الحقيقي ،

وهو ماجاء ذكره في أشعار سافو ، هو دورينغا Doricha

(cf. Stob. XVII, 808; Pap. Oxy. XV, 1800, I.

Phot. s.v. 'Ροδωνίδος ἀνδρῶν) . وإذا لم

تكن القصيدة التي أشار إليها هيرودوت قد وصلتنا ، فقد

وصلتنا على الأقل شذرات تشير فيها سافو بعناء إلى

دورينغا . فقد جاء في إحدى الشذرات (٣٧) :

« أيها القبرصية (أفروديت) لعل دورينغا تجدك

أكثر مرارة ، ولا تفاخر مرة ثانية بقولها إنها قد

وصات إلى الحب الذي كانت تتوق إليه نفسها .

لقد كان يكفي سافو أن تعيد إليها دورينغا حب

أخيها لها ، وقد عبرت عن هذا الأمل بتمنيتها لدورينغا

أن تجد الحب مرأً . ومن المحتمل أن هذه الشذرة جزء

من القصيدة التي أشار إليها أثيناينوس (xiii. 596 b)

بأن سافو عثقت فيها دورينغا لأنها نخلت وبر أخيها .

وإذا كانت سافو تستخدم في الحديث عن دورينغا

ألفاظاً قاسية ، فإنها سرعان ما تصفح عن أخيها . ولدينا

شذرة هي افتتاحية لقصيدة ترجو فيها سافو لأخيها عوداً

حميداً إلى الوطن ، وتعده بأنها ستغفر له كل أخطائه

(شذرة ٣٦) :

لسانك لا يهفو إلى قول ما هو مئى ، فلن يعلأ الحياء
عينيك ، بل ستحدث عنه بحكمة .

وذلك رداً على أشعار ألكايوس يقول فيها (شذرة
١٢٤) :

« أى سافو الطاهرة ، يا ذات الحصل البنفسجية
والابتسامة العذبة ، بنفسى كلام أود لو أقوله لك ،
ولكن الحياء يمنعنى » .

وربما جاء ذكر لزوجها في بعض الأشعار المفقودة
(cf. Rose, H.B. G. L. p. 96)

وبالرغم من أن الجزء الأكبر من أشعار سافو كان
يتصل بحياتها الخاصة ، إلا أن هناك بعض الشذرات
التي لا علاقة لها بها . الحياة .
من هذه الشذرات :

« إن من يبدو جميلاً فهو جميل المظهر ، ولكن
الفاضل سرعان ما يكون جميلاً أيضاً » . (شذرة ٥٨)
« إن الثراء بلا فضيلة ليس رقيقاً مأمون الجانب ،
ولكنهما لو اجتمعا معاً يكونان قمة الحظ السعيد » .
(شذرة ١٠٠)

« إن الموت بلاء ، هكذا يمتد الآلهة على الأقل ،
وإلا لكانوا قد ماتوا هم أنفسهم منذ أمد بعيد » .
(شذرة ٩١)

هذه هي سافو وهذه هي بعض الشذرات التي
وصلتنا من أعمالها التي يقال إنها كانت تملأ تسعة كتب.
ومن الواضح أنها كانت واثقة كل الثقة من نفسها
وفنها ، وقد عاشت أشعارها كل هذه القرون الطويلة
وما زالت تحمل نفس الروعة والبهجة والطرافة التي
كانت عليها وقت كتابتها لأول مرة ، ومن ثم فهي
تعتبر أعظم امرأة شاعرة أنجبها الطبيعة حتى الآن ، فإن
ذوقها السليم ، وصدقها المتناهي في التعبير ، وخيالها
البديع ، وقوة عاطفتها ، لمى مميزات وهبتها لها إلهات
الفنون وربات الرشاقة ، فجعلن منها شخصية خارقة
تفوق مستوى البشر ، ولذا نراها قد كرسنا معظام
حياتها وفنها لمن ، كما أن أشعارها تفوح دائماً برائحة
عبر وحين .

« أى حرائس البحر الشقراوات ، أرجو أن تسمعوا
لأخى أن يعود سالماً ، وأن تحققوا له كل رغبات قلبه
الصادقة ، كما أرجو ، وقد زالت عنه كل أخطائه
السابقة ، أن يصبح بهجة لأصدقائه ، وخطراً على
أعدائه ، ولعل بيتنا لا يصيبه الخزي بسبب أى رجل .
كما أرجو أن يكون راغباً في أن يجعل أخته تملأ فخراً
به ، ولعله ، عندما يعود في يوم قريب ، يعمل ، وهو
في عز فرحة مواطنيه به ، على إزالة الألم المرير والكلمات
الجارحة للشعور ، التي أصر قبل رحيله أن يعلأ بها
قلبي ، ولعله يحصل ، إن أراد ، على زوجة جذيرة به
وبعقد شرعى ، أما أنت ، أيها الكلبة السوداء المؤذية
(والمقصود بها دورخيا بلا شك) ، فلعل سموم شرك
تذهب هباءً ، وتسعين لاصطياد فريسة أخرى ،
لم يقتصر احتقار سافو لدورخيا ، بل تعداها إلى
أخريات . فلدينا شذرة (٧١) يقال إنها موجهة إلى
امرأة غير متعلمة (cf. Stob. Flor. IV, 12) .

« عندما تموتن فسوف ترقدين في عالم النسيان
ولن يذكرك أحد ، لأنك لم تقوى بدور تجاه الورود
نواج بيريا Pieria ، فهناك الظلام ، وفي الظلام
سوف تجوسن في منزل الموت ، وتتجولين بين أشباح
عدمة القيمة لا وزن لها » .

ولهذه الأبيات أهمية خاصة ، لأنها تطلعننا على رأى
سافو بأن الخلود الحقيقي في كتابة الشعر والأغاني ،
وهي أول من عبر عن هذا الاعتقاد . كانت سافو
تؤمن بهذا الرأى إيماناً صادقاً ، حتى إنها كتبت بفخر
ولكن ببساطة (شذرة ٧٦) :

« إني أقول إن شخصاً ما سيتذكرنا حتى في الأيام
المقبلة » .

كما تقول أيضاً (شذرة ١١) :

« ولكنى حصلت على النجاح الحق من إلهات الفن
الشقراوات ، وعندما أموت لن أصبح نسياً منسياً » .
ويحدثنا أرسطو (Rhet. 1.9) بأن ألكايوس هو
الشخص الذى كتبت له سافو تقول (شذرة ١١٩) :
« إذا كنت ترغب فيما هو عف ونيل ، وإذا كان

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والفاهرة بحال الدين أبي المحسن يوسف

بسم
الأستاذ إبراهيم الأسياري

تمهيد

وامم علم التاريخ في نشأته نشأة الأمة العربية ، فكان حديثاً عن أنساب الناس حين كانوا قبائل مترحلة لم تستقر الأماكن تحت أرجلها ، كما كان حديثاً عن أيامهم ومآثرهم حين تشاحنوا على مواقع الحبيبات حيث الحصب ، وحين ظهر من بينهم الأنجاد والأعاجاد : وعندما استوت لهم مدن كان حديثهم عنها يمثل التاريخ الجامع لشئونهم الكثيرة ، وشاعت عصبية الوطن بعدما اختفت عصبية النسب وإذا هذه الأوطان تختصمها المؤرخون بكتب خاصة .

ومن أقدم ما انتهى إلينا من ذلك - أعني الحديث عن البلدان - أخبار الحيرة لهشام بن محمد الكلبي (٢٠٤ هـ) . وقد أخذ مؤرخو كل إقليم منذ القرن الثالث في جمع ما يتصل بتاريخ إقليمهم ، فكان من ذلك تاريخ مصر والإسكندرية للواقدي أبي عبد الله محمد بن عمر (٢٠٧ هـ) ، وأخبار مكة للأزرقي أبي الوليد محمد بن عبد الله (٢٢٣ هـ) ، ثم فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٢٥٧ هـ)

وما إن أهل القرن الرابع الهجري حتى انضمت إلى هذه المدرسة التاريخية مدرسة أخرى تعنى بالحديث عن خطط البلاد ، وكان أول من ألف في ذلك أبو عمر محمد بن يوسف الكندي (٣٥٠ هـ) .

ومضت هاتان المدرستان المختصتان بالمدن تتسعان للكثير مع القرون اللاحقة ، وكان ممن كتبوا عن مصر في الجانب التاريخي :

١ - ابن يونس عبد الرحمن بن أحمد الصديقي (٣٤٧ هـ) وله تاريخان : أحدهما لأهل مصر ، والثاني للغرباء الواردين عليها .

٢ - أبو عمر محمد بن يوسف الكندي (٣٥٠ هـ) وله : فضائل مصر المحروسة .

٣ - ابن زولاق الحسن بن إبراهيم (٣٨٧ هـ) وله : الذيل على تاريخ الصديقي .

٤ - المنجم علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس (٣٩٩ هـ) وله : تاريخ أعيان مصر .

٥ - الحضرمي أبو القاسم يحيى بن علي (٤١٦ هـ) وله : ذيل أيضاً على تاريخ الصديقي .

٦ - المسيحي عز الملك محمد بن عبد الله (٤٢٠ هـ) وله : تاريخ مصر .

٧- أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي (٨٥٢٩) وله : الرسالة المصرية ، ذكر فيها من اجتمع بهم من أهل مصر وما شاهد من آثارها .

٨- ابن الصيرفي أبو القاسم علي بن منجب (٨٥٥٠) وله : الإشارة إلى من نال الوزارة .

٩- إبراهيم بن وسيط شاه (٨٥٩٩) وله : جواهر البحور ووقائع الدهور في أخبار الديار المصرية .

١٠- موفق الدين عبداللطيف البغدادى (٨٦٢٩) وله : أخبار مصر .

١١- ابن أبي طى يحيى بن حميد الحلبي (٨٦٣٠)

١٢- القفطى جمال الدين علي بن يوسف (٨٦٤٠)

وله : تاريخ مصر .

١٣- التيفاشي أحمد بن يوسف (٨٦٥١) وله :

سجع الهديل في أخبار النيل .

١٤- أبو المظفر وحيد الدين منصور بن سليم

الإسكندري (٨٦٧٤) وله : تاريخ الإسكندرية .

١٥- ابن ميسر المصري أبو عبدالله محمد بن علي

(٨٦٧٧) وله : أخبار مصر ، وهو يعد ذيلًا على تاريخ

مصر للمسيحي .

١٦- ابن دانيال شمس الدين أبو عبدالله محمد

الخزاعي (٨٧١٠) وله : عقود الجواهر فيمن ولي مصر

١٧- الأدفوى أبو الفضل جعفر بن ثعلب

(٨٧٤٩) وله : الطالع السعيد الجامع لأسماء فضلاء

الصعيد .

١٨- ابن الدرهم الموصلى تاج الدين علي بن

محمد (٨٧٦٢) وله : الانصاف بالدليل في أوصاف

النيسل .

١٩- ابن مرزوق التلمساني شمس الدين محمد بن

أحمد (٨٧٨١) وله : أشرف الطرف للملك الأشرف .

٢٠- ابن الطولوني حسن بن حصين بن أحمد

(٨٨٣٢) وله : النزهة السنية في أخبار الخلفاء والملوك

المصرية .

٢١- المقرئى تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥) وله : عقد الجواهر الأسقاط من أخبار مدينة القسطنطينية والسلوك .

٢٢- ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (٨٥٢)

وله : الإعلام بمن ولي مصر في الإسلام .

٢٣- الباعوني أبو الفضل محمد بن أحمد (٨٧١)

وله : فرائد السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك .

٢٤- ابن تغرى بردى جمال الدين يوسف

(٨٧٤) وله : النجوم الزاهرة ، الذى ستحدثك عنه

وعن كتابه .

٢٥- السيوطى جلال الدين عبد الرحمن بن

أبي بكر (٩١١) وله : حسن المحاضرة في أخبار مصر

والقاهرة ، وتحفة الكرام بأخبار الأهرام .

٢٦- الباعوني محمد بن يوسف (٩١٦) وله :

الإشارة الوافية .

٢٧- ابن إياس محمد بن أحمد (٩٣٠) وله :

بدائع الزهور في وقائع الدهور .

وتتالى من بعد ذلك في هذا المبدأ مؤلفون بأساليب

تقارب وتباعده من المنهج الذى بدأه السابقون .

أما عن مدرسة الخطط فقد بدأها - كما قلنا -

الكنتلى (٨٣٥٠) ثم جاء من بعده :

١- ابن زولاق الحسين بن إبراهيم بن الحسين

(٨٣٨٧) وعنه يقول ابن خلكان : وله كتاب في

خطط مصر استقصى فيه .

٢- القضاعى أبو عبدالله محمد بن سلامة (٨٤٥٤)

وله : المختار في ذكر الخطط والآثار .

٣- أبو عبدالله محمد بن بركات النحوى (٨٥٢٠)

وهو تلميذ القضاعى . وقد ذكره حاجى خليفة فيمن

كتب في خطط مصر ولم يذكر اسم مؤلفه .

٤- الشريف محمد بن إسماعيل الجوانى ، وله : النقط

لمعجم ما أشكل من الخطط ، قال عنه حاجى خليفة :

وقد نبه فيه على معالم قد دثرت .

٥- ابن نشوان محي الدين عبدالله بن عبد الظاهر (٦٩٢ هـ) وله : الروضة البهية الزاهرة والخطط المصرية القاهرة .

٦- ابن المتوج تاج الدين محمد بن عبد الوهاب (٧٣٠ هـ) وله : إيقاظ المنفعل وإيعاظ المتوسل ، بين فيه أحوال مصر وخططها إلى سنة ٧٢٥ هـ .

٧- المقرئ تقي الدين أحمد بن عبد القادر (٨٤٥ هـ) وله : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

٨- علي مبارك (١٣١١ هـ) وله : الخطط التوفيقية .

ابن تغري بردى

بالقرب من مدرسة السلطان حسن (حتى القلعة الآن) وفي دار كانت للأمير منجك اليوسفي ، وفي حدود سنة (٨١٢ هـ) كان مولد مؤلفنا يوسف بن الأمير تغري بردى .

على هذا تلميذه أحمد بن حسن التركماني ، المعروف بالمرجى ، في ترجمته للمؤلف بآخر كتاب المنهل الصافي . ويشاركه هذا الرأي ابن العماد الحنبلي في كتابه شذرات الذهب عند الكلام على حوادث سنة (٨٧٤ هـ) ، وابن إياس في تاريخه .

وبخالفهم السخاوي في كتابه الضوء اللامع فيقول : « ولد في شوال تحقياً سنة ثلاث عشرة وثمانمائة تقريباً » ويعيننا أن نقول إن الذي ذكره تلميذه التركماني كان نقلاً عن المؤلف نفسه ، فهو يقول : سأله عن مولده فقال : مولدى بالقاهرة ... في حدود سنة اثنتى عشرة وثمانمائة تقريباً ...

وكان أبوه تغري بردى مملوكاً رومياً جميل الطلعة اشتراه السلطان برقوق وجعله من مماليكه ، وحين شب أعتقه وضمه إلى إحدى فرق الممالك السلطانية .

وبعد أن توفى برقوق وتولى ابنه فرج بن برقوق الأمر مكانه ، نبه شأن تغري بردى فتولى نيابة دمشق ، إلى أن كان دخول تيمور لنتك إلى الشام وانهمز فرج ابن برقوق بجيوشه أمامه ورجوع تغري بردى معه . ثم عاد تغري بردى إلى نيابة دمشق للمرة الثانية بعد خروج التتار عن الشام ، غير أنه ما لبث أن اتهم بالخيانة العظمى ، فهرب إلى التركمان وبقي هناك إلى أن عفا عنه السلطان ، وتزوج من كبرى بناته فاطمة ولده نيابة دمشق للمرة الثالثة ، فبقي عليها إلى أن وافته منيته سنة ٨١٤ هـ . وحين ترك هذا الأب دنياه خلف من ورائه أبناء ستة - كان أبو المحاسن أصغرهم ، وكان عندها في الثانية من عمره - وبنات أربعاً منهن : خوند فاطمة ، زوج السلطان فرج ، وبيرم ، وكانت زوجة لقاضى القضاة ناصر الدين بن النديم الحنفى ، وبعد وفاته تزوجت قاضى القضاة جلال الدين البلقينى الشافعى .

ونشأ رجلنا أبو المحاسن يتماً ، ذاق اليم مبكراً ، فقد توفى أبوه وهو في الثانية من عمره كما مر بك ، فتولى تربيته زوج أخته بيرم قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن النديم إلى أن مات ابن النديم سنة تسع عشرة وثمانائة ، فتولى تربيته الزوج الثانى لبيرم وهو قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقينى الشافعى ، فأخذ في تحفيظه القرآن الكريم ، وما إن أتم حفظه حتى كان الفتى قد كبر وترعرع واستعد لتلقى والتعلم ، فحفظ مختصر القدورى في فروع الحنفية ومضى يستزيد في دراسة المذهب الحنفى ، وهو منهج زوج الأخت الراحل ابن النديم ، ولم يلتفت للمذهب الشافعى وهو مذهب زوج أخته البلقينى ، فتفق بالشيخ شمس الدين محمد الرومى ، وبقاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء الحنفى قاضى مكة ، وبقاضى القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفى ، ودفعه ميله إلى المذهب ألا يأخذ النحو وغيره من علوم أخرى إلا عن أحناف إن وجد ، فأخذ النحو عن تقي الدين الششنى الحنفى ، وقرأ

المقامات الحزبية على قوام الدين محمد بن محمد الحنفى ، وأخذ البديع والأدبيات عن شهاب الدين أحمد بن عمر شاه الدمشقى الحنفى .

وكانت له ملازمة لمشايخ عصره وإفادة من أدبهم ومن علمهم مثل : شهاب الدين أحمد بن حجر ، وقاضى القضاة جلال الدين أبى السعادات بن ظهيرة قاضى مكة ، والعلامة بدر الدين بن العليف ، وقطب الدين أبى الخير بن عبد القوى ، وكان هذان الأخيران شاعري مكة فأخذ عنهما أبو المحاسن الكثير من شعرهما وتأدب بأدبهما ، وكانت له غير هذا سماعات كثيرة على مشايخ كثيرين يخاف أن ننقل بذكر أسمائهم .

ثم حبَّب إليه علم التاريخ فلأزم مؤرخى عصره مثل قاضى القضاة بدر الدين محمود العيني ، والشيخ تقي الدين المقرئى .

وكان له ولع بالفروسية فأجاد فنونها ، كلعب الرمح ورمى النشاب ولعب الكرة ، كما حذق فنون النغم والضروب والإيقاع وفاق فى ذلك أهل زمانه .

وكان إلى هذا كله ورعاً دينياً خفيفاً مع حسن محاضرة ولطف منادمة وحشمة زائدة ، وحياء كثير وميل إلى الخير ومحبة لأهل العلم والفضل والصلاح .

وهذه الحياة الجامعة بصَّرت أبا المحاسن بأن يشارك فى أمور كثيرة وأن يخالط فئات مختلفة ، وحين أخذ فى التأريخ استقامت له من تلك الحصيلة الكبيرة مادة غزيرة ومكتته هذه المناقل المختلفة من أن يسلك سبلاً متنوعة :

ولقد كان هذا القرن التاسع الهجرى من أهم القرون التاريخية ، فلقد أظلم مع أبى المحاسن جملة من مشهورى المؤرخين فى مصر ، منهم من نشأ فيها ومنهم من أُلِم بها مثل ابن خلدون والمقرئى وابن حجر والعيني وابن عرب شاه وخليل بن شاهين والخالدى بهاء الدين بن محمد العمري ، وابن الصدى ، والسخاوى ، وابن

لياس ، والسيوطى وعبد الباسط بن خليل الحنفى ، وابن الطولونى حسن ، وابن زنبيل أحمد الرَّمَّال .

هذه العصر الحافل بالمؤرخين والكتب التاريخية هو الذى أظلم أبا المحاسن ، وقد عاش أبو المحاسن بين أجيالهم فلقد عاصر المقرئى والعيني وابن حجر وعاصره ابن الصيرفى والسخاوى وابن لياس . وحين قبض الله عليه المقرئى ثم العيني أصبحت زعامة التأريخ فى مصر لأبى المحاسن .

مؤلفاته

١ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى . وهو يضم تراجم الأعيان والناهبين من أوائل الدولة التركية من المعز أيلك التركمانى إلى زمن المؤلف . وقد أراد به مؤلفه أن يجعله ذيلًا للوافى ، تأليف الصفى . وقد أخذت دار الكتب المصرية فى طبعه وتولته عنها دار التأليف والترجمة .

٢ - الدليل الشافى على المنهل الصافى ، وهو مختصر للمنهل الصافى ، ومنه مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٣ - مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة والخلافة . اقتصر فيه على ذكر الخلفاء والسلاطين ، وهو اختصار للدليل الشافى ، ومنه مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٤ - منهل الظرافة لذيل مورد اللطافة . ويشمل أسماء أمراء مصر إلى سنة ٨٨٤ هـ ، ومنه نسخة بمكتبة برلين .

٥ - حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور : جملة مؤلفه ذيلًا لكتاب السلوك للمقرئى فبدأه من حيث انتهى ، أى من سنة ٨٥٦ هـ ، وقد خالف المقرئى فى طريقته فأطال فى التراجم إلا ما جاء ذكره فى كتابه المنهل الصافى . ومنه مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٦ - نزهة الرائي في التاريخ . وهو تاريخ متصل على السنين والشهور والأيام وفي مجلدات عدة ، منها الجزء التاسع في مكتبة أكسفورد . ويضم حوادث السنين من ٦٧٨ - ٧٤٧ هـ .

٧ - البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر ، مرتب على السنين . ومنه جزء صغير بالمكتبة الأهلية ببغداد يحوى حوادث السنين من ٣٢ - ٧٢ هـ .

٨ - منشأ اللطافة في ذكر من ولي الخلافة . يؤرخ لمصر من أقدم أزمانها إلى سنة ٧١٩ هـ . ومنه نسخة بالمكتبة الأهلية ببغداد .

٩ - نزهة الإلباب في اختلاف الأسماء والألقاب .

١٠ - حلية الصفات في الأسماء والصناعات ، مرتب على الحروف يشتمل على مقاطيع وتواريخ وأدبيات .

١١ - البشارة في تكملة الإشارة ، وهو ذيل على كتاب الإشارة للمحافظ الذهبي .

١٢ - الانتصار للسان التتار ، وهو في معاني اللغة التركية .

١٣ - كتاب في الرياضيات والموسيقى .

١٤ - السكر الفاضح والعطر الفائح ، في التصوف ، ومنه نسخة بمكتبة الإسكوريال . ثم كتابه :

١٥ - النجوم الزاهرة .

وهو من أهم ما ألف أبو الحسن ، يؤرخ فيه لمصر منذ الفتح الإسلامي إلى الدولة الأشرافية سنة ٥٨٧ هـ مع استطرادات كثيرة في أخبار البلاد المحاورة ، وهو مرتب على السنين وفي آخر كل سنة تراجم من مات فيها وزيادة النيل ونقصانه . . يقول ابن تغري بردي في خطبة هذا الكتاب :

وأما بعد فلما كان لمصر ميزة على كل بلد بمنزلة الحرمين الشريفين ، أحببت أن أجعل تاريخاً للوكها مستوعباً من غير ميسر ، فحملني ذلك على تأليف هذا الكتاب وإنشائه ، وقمت بتصنيفه وأعبائه ، واستفتحته

بفتح مصر وما وقع لهم في المسالك ومن حضرها من الصحابة ومن كان المتولى لذلك ، وعلى أي وجه فتحت : صلح أم عذوة من أصحابها ، وأجمع في ذلك أقوال من اختلف من المؤرخين وأهل الأخبار وأربابها ، وذلك بعد اتصال سندي إلى من ولي عنه منهم رواية ، ليجمع الواقف عليه بين صحة النقل والدراية ، وأطلق عنان القلم فيما جاء في فضلها وذكرها من الكتاب العزيز ، وما ورد في حقها من الأحاديث وما اختصت به من المحاسن فصار لها على غيرها بذلك التمييز ، ثم أذكر من ولها من يوم فتحت وما وقع في دولته من العجب ، واحداً بعد واحد لا أقدم أحداً منهم على أحد باسم ولا كنية ولا لقب ، ثم أذكر أيضاً في كل ترجمة ما أحدث صاحبها في أيام ولايته من الأمور ، وما جرده من القواعد والوظائف والولايات في مدى الدهور ، ولا أقصر على ذلك ، بل أستطرد إلى ذكر ما بنى فيها من المباني الزاهرة ، كالميادين والجوامع ومقاييس النيل وعمارة القاهرة ، أولاً بأول أذكره في يوم مبتاه وفي زمان سلطانه ، مستوعباً لهذا المعنى ضابطاً لشأنه ، على أنني أذكر من توفي من الأعيان في دولة كل خليفة وسultan باقتصار ، بعد فراغ ترجمة المقصود من الملوك مع ذكر بعض الحوادث في مدة ولاية المذكور في أما قطر من الأفطار ، وأبدأ فيه بعد التعريف بأحوال مصر بولاية عمرو بن العاص في المملكة الإسلامية ، ثم ملك بعد ملك كل واحد على حدة ، وما وقع في أيامه إلى الدولة الأشرافية الإبنالية ، وسميته :

« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » .

والله الموفق والمنان ، وبالله المستعان .

ويقال إن الصحبة التي كانت بين المؤلف والأمير محمد بن جقمق هي التي حملته على أن يأخذ في تأليف هذا التاريخ ، وكان في نيته أن يختمه بحكمة غير أن المنية عاجلت ابن جقمق قبل أن يأخذ المؤلف في تأليف هذا

التاريخ الكبير ، فلقد كانت وفاة ابن جقمق نحواً من سنة ٨٣٢ هـ .

ولما فتح السلطان سليم العثماني مصر ووقع له هذا الكتاب أمر بنقله إلى التركية فنقله شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا قاضي السكر بالأناضول يومئذ . ويقول شمس الدين ساي في كتابه قاموس الأعلام التركي أنه ترجم إلى اللغة اللاتينية وإلى لغات أوربية أخرى .

وقد ذكر حاجي خليفة أن المؤلف قد لخص هذا الكتاب وسماه « الكواكب الباهرة في النجوم الزاهرة » وقال : وهو مجلد أوله الحمد لله الذي زين السماء الدنيا بالنجوم الزاهرة . . . الخ . ثم قال : ذكر أنه اختصره حلواً من أن يختصره غيره على تبويبه وفصوله واقتدى في ذلك بجماعة من العلماء كالذهبي والمقرئ ، فإن الذهبي اختصر تاريخ الإسلام بسير النبلاء ، ثم اختصر سير النبلاء بالعبر ، ثم اختصر العبر بالإشارة إلى وفيات الأعيان .

وقد اهتم بنشر كتاب النجوم الزاهرة المستشرقون منذ زمن بعيد ، فأخرج منه المستشرق الهولندي جونيل مجلدين كبيرين في أربعة أجزاء مع مقدمة وملاحظات باللغة اللاتينية طبعت بمطبعة بريل في مدينة ليدن من سنة ١٨٥١ - ١٨٥٥ م .

ويشمل المجلد الأول السنين من ٢٠ - ٢٥٣ ، والثاني ٢٥٤ - ٣٦٥ هـ .

كما أخرج المستشرق الأمريكي وليم يوير منه عشرة مجلدات مع مقدمة باللغة الإنجليزية وقد طبعت بكاليفورنيا من سنة ١٩٠٩ - ١٩٢٩ وتشتمل على السنين من ٣٦٥ - ٥٦٦ هـ ، ومن سنة ٨٠١ - ٨٧٢ هـ . ومن هذا نرى أن الجزء الخاص بالسنين من ٥٦٧ - ٨٠٠ هـ ، لم يخرج . وقد أخذت دار الكتب المصرية في طبع هذا الكتاب كله طبعة محققة فصورت للنسخة الخطية المحفوظة منه بمكتبة أياصوفيا وقد

أصدرت الجزء الأول سنة ١٩٢٧ وينتهي بسنة ١٤٣ هـ ومضت تخرجه مع الأعوام أجزاء كل جزء يضم حقبة من السنين - وقد ذيل كل جزء بفهارس واسعة مختلفة وقد انتهت إلى الجزء الرابع عشر .

ثم تولت دار التأليف والترجمة بوزارة الثقافة الأجزاء الباقية ، وسوف تخرج قريباً .

وقد أعادت دار التأليف طبع الأجزاء الأولى التي طبعت في دار الكتب واقتطعت منها الفهارس لتضمها كلها معاً في آخر الكتاب بعد تمام طبعه . وهذا شيء مما جاء في كتاب النجوم الزاهرة عن ولاية الظافر :

ذكر ولاية الظافر على مصر

الظافر بالله أبو منصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن الأمير محمد ، ابن الخليفة المستنصر معد بن الظاهر على بن الحاكم منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد ، التاسع من خلفاء مصر من بني عبيد ، والثاني عشر منهم ممن ولي من أجداده خلفاء للغرب .

بويح بالخلافة بعد موت أبيه الحافظ في جهادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسة ، وهو ابن سبع عشرة سنة وأشهر ، لأن مولده في يوم الأحد منتصف شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسة . وأمه أم ولد تدعى ست الوفاء ، وقيل : ست المني .

قال العلامة شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلى سبط ابن الجوزي في تاريخه مرآة الزمان - بعد أن سماه يوسف ، والصواب ما قلناه أنه إسماعيل - قال : « وكانت أيامه مضطربة لحدائث سنة واشتغاله باللهو ، وكان عباس الصنهاجي لما قتل ابن سلاور وزير له واستولى عليه . وكان له ولد اسمه نصر ، فأطعم نفسه في الأمر وأراد قتل أبيه ، ودس إليه سماً ليقتله ، فعلم أبوه واحترز وأراد أن يقبض عليه فاقدر ، ومنعه

مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وقبح عليه ذلك ، وقال :
 إن فعلت هذا لم يبق لك أحد ويفر الناس عنك . فشرع
 أبوه بلاطفه (يعنى الوزير عباس يلاطف ابنه نصراً)
 وقال له : عوض ما تقتلنى اقتل الظافر . وكان نصر
 يتألم الظافر ويعاشره . وكان الظافر يثق به وينزل في
 الليل إلى داره متخفياً . فنزل إليه إلى داره وكانت
 بالسيوفيين داخل القاهرة ومعه خادم له . فشرى وتام
 الظافر ، فقام نصر فقتله ورمى به في بئر . فلما أصبح
 عباس (يعنى الوزير أبا نصر المذكور) جاء إلى باب
 القصر يطلب الظافر ، فقال له خادم القصر : ابنك
 يعرف أين هو (ومن) قتله . فقال عباس : ما لابنى
 فيه علم . وأحضر أخوى الظافر وابن أخيه فقتلهم
 صبراً بين يديه ، وأحضر أعيان الدولة وقال : إن
 الظافر ركب البارحة في مركب فانقلبت به فغرق . ثم
 أخرج عيسى ولد الظافر . ففترقوا عن عباس وابنه ،
 ونار الجنود العبيد وأهل القاهرة وطلبوا بثأر الظافر من
 عباس وابنه نصر . فأخذ عباس وابنه نصر ما قدروا
 عليه من المال والجواهر وهربا إلى الشام ، فبلغ الفرنج
 فخرجوا إليهما ، وقتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً ،
 وقتل نصر في السنة الآتية . انتهى .

وقال القاضي شمس الدين أحمد بن خلكان :
 « بوع يوم مات أبوه بوصية أبيه . وكان أصغر أولاد
 أبيه سناً . كان كثير اللهو واللعب ، والتفرد بالجوارى ،
 واستماع المغاني . وكان يأنس بنصر بن عباس . فاستدعاه
 إلى دار أبيه ليلاً سرّاً بحيث لا يعلم به أحد . وتلك الدار
 في المدرسة الخنزية السيوفية الآن ، فقتله بها وأخفى
 أمره . قال : وقصته مشهورة ، وذلك في نصف
 المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وكان من أجس
 الناس صورة . والجامع الظافرى الذى بالقاهرة داخل
 باب زويلة منسوب إليه ، وهو الذى عمره وأوقف
 عليه شيئاً كثيراً . انتهى كلام ابن خلكان . قلت :

والجامع الظافرى هو المعروف الآن بجامع الفاكهانيين
 على الشارع الأعظم بالقرب من حارة الديلم .

وقال ابن القلانسي : « إن الظافر لما قتله أخواه

يوسف وجبريل وابن عمهما صالح بن الحسن . «
 قلت : وهذا القول يؤيده قول ما نقله أبو المظفر من
 أن عباساً قتل أخوى الظافر وابن عمه صبراً (أعنى
 لما بلغه قتلهم للظافر قتلهم به) غير أن جمهور المؤرخين
 اتفقوا على أن قاتل الظافر نصر بن عباس المقدم ذكره .

قال : وكان الظافر قد ركن إليهم (يعنى أخويه
 وابن عمه) وأنس بهم في وقت مسراته . فاتفقوا عليه
 واغتالوه . وذلك في يوم الخميس سلخ صفر . وحضر
 العادل عباس الوزير وابنه ناصر الدين نصر وجماعة
 (من) الأمراء والمسلمين (للسلام) على الرسم . فقبل
 لهم : إن أمير المؤمنين ملثا الجسم . فطلبوا الدخول
 إليه فنعوا . فألحوا في الدخول بسبب العيادة فلم يمكنوا .
 فجمعوا ودخلوا القصر وانكشف أمره . فقتلوا الثلاثة
 وأقاموا ولده عيسى وهو ابن ثلاث سنوات . ولقبوه
 بالفائز بنصر الله وبايعوه . وعباس الوزير إليه تدبير
 الأمور . ثم ورد الخبر بأن طلائع بن رزيك فارس
 المسلمين قد امتنع من ذلك وجمع وحشد وقصد
 القاهرة : وكان من أكابر الأمراء . وعلم عباس أنه
 لا طاقة له به . فجمع أمراء وأسبابه وأهله وخرج
 من القاهرة فلما قرب من عسقلان وغزة خرج عليه
 جماعة من خيالة الفرنج . فاغتر بكثرة من معه . فلما
 حمل عليهم قتل أكثر أصحابه وهزموا . فأنهزم هو
 وابنه الصغير وأسرا ابنه الكبير الذى قتل ابن سلاز مع
 ولده وحرمة وماله وكراعه . وصار الجميع للفرنج .
 ومن هرب مات من الجوع والعطش . ووحمل طلائع
 ابن رزيك إلى القاهرة : فوضع السيف فيمن بقي من
 أصحاب عباس . وجلس في منصب الوزارة . انتهى
 كلام ابن القلانسي . وما نقله غالبه مخالف لغيره من
 المؤرخين . والله أعلم .

وقيل غير ذلك : أن خدام القصر كتبوا إلى طلائع
ابن رزيك وهو والى قوص وأسوان والصعيد يخبرونه
بقتل الظافر ويستنجدونهم على عباس وابنه نصر . وكتب
إليه فيمن كتب القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز
ابن الحباب قصيدته التالية التي أولها :

دعنى عن نظم القريض غواذى

أوشف فؤادى شجوه البهادى

وأرق عيى والعيون هواجع

أهروم أقضت مضجعى ووسادى

بمصرع أبناء الوصى وعثرة الذ

سبى وآل الذاريات وصاد

فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم

ومالهم من منعة وزياد

أولئك أنصار الهدى وبنو الردى

وسم العدا من حاضرين وباد

لقد ملد ركن الدين ليلة قتله

بخبر دليل للنجاة وهاد

تدارك من الإيمان قبل دثوره

حشاشة نفس آذنت بنفساد

وقد كاد أن يظنى تأتى نوره

على الحق عاد من بقية عاد

فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم

ومصرعهم لم تكتحل برقاد

وهى طويلة كلها على هذا المنوال فى معنى التجلية .
وقد نقلتها من خط عقد لا يقرأ إلا بجهده . فلما بلغ ذلك
طلائع بن رزيك جمع ودخل القاهرة فى تسع شهر
ربيع الأول ، وجلس فى دست الوزارة ، وتلقب
بالمالك الصالح ، وهو صاحب الجامع خارج بابى زويلة
وأخرج جسد الظافر من البئر التى كان رعى فيها بعد
قتله وجعله فى تابوت ومشى بن يديه حافياً مكشوف
الرأس ، وفعل الناس كذلك ، وكثر الضجيج والبكاء
والعويل فى ذلك اليوم .

وقال بعضهم وأوضح الأمر ، وقوله : إن الظافر
كان قد أحب نصر بن عباس حباً شديداً ، وبقي
لا يقارقه ليلاً ونهاراً . فقدم مؤيد الدولة أسامة بن
منقذ من الشام ، فقال لعباس الوزير يوماً : كيف
تصبر على ما أسمع من قبيح القول ! قال عباس :
وما يقولون ؟ قال يقولون : إن الظافر بنى على ابنك
نصر . فغضب عباس من ذلك ، وأمر ابنه نصرأ ،
فدعا الظافر لبيته فوثب عليه وقتله ، وساق نحواً مما
سقتاه من قول أبى المظفر وابن خلكان . وانتهى كلامه
وقال صاحب كتاب المقتلين فى أخبار الدولتين :
« ولما تم أمر الظافر ركب بزي الخلافة وعاد إلى القصر ،
ولم يقدم شيئاً على انتقامه من ابنى الأنصارى لما كان
يبلغه عنهما فى أيام والده الحافظ » .

وخبر ابنى الأنصارى أنهما كانا من جملة الكتاب
وتوصلا إلى الحافظ ، فاستخلصهما فى ديوان الجيش
قصداً لتمييزهما ، وهما غير قانعين بذلك ، لما يعلمانه من
إقبال الحافظ عليهما ، فوثبا على السادة من رؤساء
الدولة مثل الأجل الموفق أبى الحجاج يوسف كاتب
دست الخليفة ومشورته ، ومن يليه مثل القاضي
المرتضى المحنك ، والخطيرى البواب ، فتجراً على
المذكورين وغيرهم من الأمراء مع قلة درية . فتتبع
القوم عورتهم ، والخليفة الحافظ لا يزداد فيهما إلا
رغبة ، ووقع لها أمور قبيحة ، والقوم يبلغون الخليفة
خبرهم شيئاً بعد شيء ، وهو لا يلتفت إلى قولهم .
ولا زال ابنا الأنصارى حتى صار الأكبر شريك
الأجل الموفق فى ديوان المكاتبات ، ولكن خصص
الموفق بالإنشاء جميعه . فلما تولى ابن الأنصارى نصف
الديوان نعت بالقاضى الأجل سناء الملك ، بعد أن
وصاه الخليفة الحافظ أن يقنع مع الموفق بالرتبة ويدع
المباشرة ، ويخدم الموفق . وصبر الأجل الموفق على
ذلك مراعاة لحاظ الخليفة . وأما ابن الأنصارى الصغير
فانه تجند فتأمر فى يوم ، وخلع عليه بالطوق وما يلزم

الأمرية ، وصار أمير طوائف الأجناد . فقال الناس : هو الأمير الطارى بن الأنصارى ! وبينما هم في ذلك مرض الخليفة الحافظ ومات ، وآلت الخلافة لولده الظاهر هذا . فترجع لما كنا عليه من أمر الظاهر مع ولدى الأنصارى المذكورين . فركب الخليفة الظاهر بعد العشاء الآخرة في الشمع بالقصر ، ووقف على باب الملك بالإيوان الجاور للشباك ، وأحضر ابنى الأنصارى واستدعى مولى السر ، وهو صاحب العذاب ، وأحضرت آلات العقوبة ، فضرب الأكبر بحضوره بالسياط إلى أن قارب الهلاك ، وثنى بأخيه كذلك ، وأمر بإخراجهما وقطع أيديهما وسل ألسنتهما من قسيهما ، وصلبا على بابى زويلة الأول والثانى زماناً .

وأقام الظاهر ابن مصلح المغربي وزيراً مدة شهرين فخرج عليه ابن سلا ، وكان والياً على البحيرة والإسكندرية ، ولم يرخص بوزارة ابن مصلح المذكور ، وتابعه عباس وكان والياً على الغربية ، وهو ولد زوجته ، فلما بلغ الوزير ابن مصلح ذلك ، خرج إلى الصعيد لكونه لم يطق لقاء ابن سلا ومن معه على غير موافقة من الخليفة الظاهر . ودخل ابن سلا إلى القاهرة وزيراً ، فما طابت به نفس الخليفة الظاهر بالله ، فباشر الأمور مباشرة بمجد . وأقام الظاهر خليفة إلى أوائل سنة تسع وأربعين وخمسة ، ولم يصف بين الخليفة والوزير عيش قط ، وجرت بينهما أمور ، وثبت عند ابن سلا كراهة الخليفة فيه ، فاحترز على نفسه منه ، وأقام كذلك أربع سنين وبعض الخامسة ، حتى قتله نصر بن عباس اغتيالاً في داره . وذكر أن ذلك بموافقة الخليفة الظاهر على ذلك ، لأن هذا نصراً كان قد اختلط بالخليفة اختلاطاً دائماً أدى إلى حقد أكثر أهل الدولة له على ذلك . ونحش عباس على نفسه من ولده نصر المذكور لما تم منه في حق ابن سلا ، فرمى بينه وبين الخليفة بموهومات قبيحة ، حتى قتل نصر الخليفة أيضاً . ودفنه في داره التي بالسبوقيين ، وقتل أستاذين معه :

ولما علم الخليفة استخلف ولده بعده ، وهو أبو القاسم عيسى ، ونعت بالفائز بنصر الله ، وكان عمره يومئذ خمس سنين . أخرجه الوزير عباس من عند جدته أم أبيه الخليفة يوم قتل عمه يوسف وجبريل ابنى الحافظ — وهما مظلومان — بتهمة أنهما قتلا أخاهما الخليفة الظاهر حسداً على الرتبة لينالها بعده . وليس الأمر كذلك ، بل عباس الوزير وولده نصر قتلاه ، فراحما الخليفة هذا الصغير مقتولين ، فتنزع واضطرب وغشى عليه . ولازمه ذلك وكثر به .

قلت : وقول هذا عندى في قتل الخليفة الظاهر أثبت الأقاويل . وبكلامه أيضاً يعرف جميع ما ذكرناه في أمره من أقوال المؤرخين ، فإنه ساق أمره على جلسته من غير إدخال شيء معه .

وأما تفصيل أمر عباس الوزير وابنه نصر فإن عباساً كان رجلاً من بنى تميم ملوك الغرب ، ودخل عباس القاهرة فاجتمع بالخليفة ، فأكرمه وأنعم عليه بأشياء ثم خلع عليه بالوزارة على العادة ولقبه ، فباشر عباس الوزارة وحكم الأمور وأكرم الأمراء وأحسن إلى الأجناد لينسبهم العادل ابن سلا . واستمر ابنه نصر على مخالطة الخليفة الظاهر ، حتى اشتغل الظاهر عن كل أحد بآبى عباس المذكور ، وأبوه عباس يكره خلطته بالخليفة . وانتهى الخليفة معه إلى أن يخرج من قصره لزيارة ابن عباس بداره التي بالسبوقيين ، بحيث لا يعلم عباس بذلك . فلما علم استوحش من الخليفة لجرأة ابنه ، وتوهم أنه ربما يحمله الخليفة على قتله ؛ فقال عباس لابنه سرّاً : قد أكثرت من ملازمة الخليفة حتى تحدث الناس في حقك معه مما أزعج باطنى ، وربما يتناقل الناس ذلك ويصل إلى أعدائنا منه ما لا يزول ، ففهم ابنه نصر عنه وأخذته حدة الشباب ، فقال نصر لأبيه : أيرضيك قتله ؟ فقال : أزل التهمة عنك كيف شئت . فخرج الخليفة ليلة إلى نصر بن عباس على عادته فقتله بالجماعة الذين قتل بهم الوزير ابن سلا ، وقتل

أيضاً أسناذين كانا مع الخليفة الظافر ، وطمرهم في بئر هناك . وأصبح عباس فبايع عيسى بن الظافر ، ولقبه الفائز ، على ما يأتي ذكره في أول ترجمة الفائز .

ولما تم لعباس ما قصده من قتل الخليفة وتولية ولده الخلافة ، كثرت الأقاويل . ووقع الناس على الخبر الصحيح بالحاس . فاستوحش الناس قتل هؤلاء الأئمة . وكان طلائع بن رزيك والياً على الأشمونين ، والبهنسا . فتحرك حاشداً على عباس ، ولبس السواد وحمل شعور النساء حرم الخليفة على الرماح . فتدخل أمر عباس وتفرق الناس عنه . وصار الناس تسمعه المكوره في الطرقات من كل فج . حتى أنه رمى من طاق ببعض الشوارع وهو جائز بهاون نحاس ، وفي يوم آخر يقدر بمملوءة ماء حاراً ، فقال عباس : ما بقي بعد هذا شيء . فصار يدبر كيف يخرج وأين يسلك . فأشار عليه بعض أصحابه بتحريق القاهرة قبل خروجه منها فلم يفعل ، وقال : يكفي ما جرى . فلما قرب طلائع بن رزيك إلى القاهرة خرج عباس وابنه ومعهما كل ما يملكانه طالباً للشرق ، فحال الفرنج بينه وبين طريقه ، فقاتل حتى قتل وأسر ولده نصر . وفاز الفرنج بما كان معه : وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وأما ولده نصر فنذكر أمره وقتله في أول ترجمة الفائز بأوسع من هذا إن شاء الله تعالى .

وكانت قتلة الخليفة الظافر هذا في سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة على قول من رجح ذلك : وله اثنتان وعشرون سنة . وكانت خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام . وتولى الخلافة بعده ولده الفائز عيسى .

ونذكر إن شاء الله أمر قتله أيضاً في ترجمة الفائز بأوسع من هذا هناك .

السنة الأولى من ولاية الظافر بأمر الله أبي منصور إسماعيل على مصر وهي سنة خمس وأربعين وخمسمائة .

فيها مطرت اليمن مطراً دماً . وبقي أثره في الأرض وفي ثياب الناس .

وفيها في المحرم نزل الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي صاحب الشام على دمشق وحاصرها ، فراسله صاحبها مجير الدين ، وخرج إليه هو والرئيس ابن الصوفي وبذل له الطاعة وأن يخطب له مجير الدين بعد الخليفة والسلطان ، وأن ينقش اسمه على الدينار والدرهم ، فرضى نور الدين وخلع عليه ورحل عنه . وعاد وافتتح قلعة اعزاز .

وفيها اختلف وزير مصر ابن مصال المغربي والعادل ابن سلاز وجمعا المساكر واقتلا : فقتل الوزير ابن مصال ، واستقل ابن سلاز بالوزير والملك . وقد ذكرنا نحو ذلك في ترجمة الظافر هنا .

وفيها توفي أبو المفاخر الحسن بن ذي النون الواعظ (ابن أبي القاسم) كان فاضلاً صالحاً إماماً فقيهاً حنفياً المذهب ، كان يعيد الدرس خمسين مرة . ومن شعره :

مات الكرام ومروا وانقضوا ومضوا
ومات بعدهم تلك الكرامات

وخلفوني في قوم ذوى سفه
لو أبصروا طيف ضيف في الكرى ماتوا

وفيها توفي الأمير أبو الحسن علي بن سلاز وزير الظافر الحلة . كان شجاعاً جواداً إلا أنه كان على عادة أهل الحلة رافضياً خبيثاً .

وفيها توفي قتيلا الوزير علي بن سلاز وزير الظافر صاحب الترجمة بديار مصر . كان يلقب بالملك العادل . وتولى الوزير بعده عباس أبو نصر الذي قتل الظافر ، حسب ما ذكرنا ذلك كله مفصلاً .

وفيها ملكت الفرنج عسقلان بالأمان بعد أن قتل من الفريقين خلق كثير : وكان قد تهادى القتال بينهم في كل سنة إلى أن سلموها . وأخذ الفرنج جميع ما كان فيها من النخائر وغيرها .

السنة الثانية من ولاية الظافر على مصر وهي سنة
ست وأربعين وخمسة .

فيها دخل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه
السلجوقي إلى بغداد ، وخرج الوزير ابن هبيرة وأرباب
الدولة إلى لقائه فأكرمهم .

وهذا الرجل الذي عَشَى نفسه بهذه الأعمال الكثيرة
وظل مكباً عليها إلى ما قبيل وفاته ، لم يسلم من نقد
رجلين مؤرخين ممن عاصروه ، وهما ابن الصيرفي
والسخاوي . وما أكثر ما توغر المشاركة في عمل
صدور المعاصرين ، ثم إنا ما عرفنا السخاوي ترك
علماً من أعلام عصره دون أن يجرحه وينقده وما نجا
منه المقرئ شيخ المؤرخين في عصره ، ولا ابن
خلدون شيخ مؤرخي الإسلام .

ولقد ظل أبو المحاسن مشغولاً بعمله وتأليفه
لا يصرفه عنه صارف إلى أن توفاه الله في يوم الثلاثاء
خامس ذي الحجة سنة أربع وتسعين وثمانمائة .

وحسب هذا الراحل عزاء عما ترك من عمل
صالح ، ما كتبه عنه تلميذه أحمد بن حسن التركاني
في ترجمته له :

« ونرجو إن أطال الله عمره وفسح في أجله ليملأ
خزائنه من العلوم والمصنفات في كل فن ليعلمي
باتساع باعه في التصنيف والتأليف » .

ثم قول ابن إياس فيه : « وهو الذي قد خلف
أبا المحاسن على زعامة المؤرخين بمصر : وضع لنا حقاً
أنه كان رئيساً حشماً فاضلاً خفياً المذهب وله اشتغال
بالعلم وكان مشغولاً بكتابة التاريخ » .

ثم حسب ابن تفرى يردى في وصف نفسه شعره
الذي يقول فيه :

تجارة الحب غدت في حب خود كاسده
ورأس مالى هبة لفرحى بفائده

وفيها توفي أحمد بن منير بن أحمد الأديب
أبو الحسين الطرابلسي الشاعر المشهور المعروف بالرفاء .
ولد سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة بطرابلس . وكان
بارهاً في اللغة العربية والأدب إلا أنه خفيث اللسان كثير
الفحش . حبسه الملك تاج الملوك بوري صاحب دمشق ،
وعزم على قطع لسانه ، فاستوهبه منه الحاجب يوسف
ابن فيروز فوهبه له فنفاه . وكان هجاء خلاق كثير ،
وكان بينه وبين ابن التيسراني مهاجاة ، وكان رافضياً .
وكانت وفاته بحلب في جمادى الآخرة . ومن شعره :

جنى وتجننى والفؤاد يطعمه
فلا ذاق من يجنى عليه كما يجنى
فان لم يكن عندي كعبي وسمعى
فلا نظرت عيني ولا سمعت أذنى

وفيها توفي الأمير تمرتاش بن نجم الدين اليلغازي
الأرتقي صاحب مازدين وديار بكر . كان شجاعاً
جواداً عادلاً محباً للعلماء والفضلاء يبحث معهم في فنون
العلوم . وكان لا يرى القتل ولا الخبس . ومات في ذي
القعدة ، وكانت مدته نيماً وثلاثين سنة . وقام بعلمه
ابنه .

وفيها توفي حيدرة بن الصوفي الذي كان أقامه
مجير الدين صاحب دمشق مقام أنبيه ، ثم وقع منه سعي
بالفساد ، فاستأجراه مجير الدين إلى القلعة على حين
غفلة فضرب عنقه لسوء سيرته وقبح أفعاله .

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة ، قال :
وفيها توفي أبو بكر محمد بن أبي حامد بن عبد العزيز بن
علي الدينوري البتيع ببغداد . والمبارك بن أحمد بن
بركة الكندي الحبار .

أمر النيل في هذه السنة : الماء القديم ست أذرع
وأربع وعشرون أصبعا . مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً
وثلاث عشرة أصبعا .

• • •

مدام بوشارى السجوتاف فلوبير

ببشام
الاستاذ على أدبهم

لأسلوبه إيقاع موسيقى ، ولذلك كان يقرأ ما يكتب بصوت مرتفع ليتحاشى الكلمات المحوشية والحروف المتنافرة ، وكان الذين يمرون بجانب داره — كما يروى لنا النقاد الدانمركى جورج براندز — يسمعون وهو بعيد قراءة ما يكتب فيعتقدون أنه يحام يحرب ما سبقوله أمام المحكمة ، وقد كان الكاتب الروائى الرومى الكبير إيثان ترجنيف صديقاً حميماً لفلوبير ، وكان كثيراً ما يزوره في أثناء إقامته بفرنسا ، وقد أعلن أنه مما يثير العطف ويبعث على الإشفاق أن يراه وهو أقل الناس صبراً عاكفاً على المهادنة في استبعاد العبارات الغامضة ، والتركيب المستغلقة ، باذلاً في سبيل ذلك أقصى ما في طاقته من الجهد ، وروى عنه استرانشى أنه حاول في أحد مشاهد رواياته وصف حديقة نبات الكرنب في ضوء القمر ليلاً ، فسأل نفسه « كيف يبدو منظر حديقة الكرنب في ضوء القمر وقد أرخى الليل سدوله ؟ فأرجأ الوصف حيناً من الزمن حتى جاءت الليلة المناسبة ، فخرج من داره يحمل مفكرة في يده ، وغشى إحدى حدائق الكرنب ليبدون بالتفصيل الدقيق ما شاهده ، ولذلك كان لإنتاجه بالقياس إلى غيره من مشاهير الكتاب الروائيين قليلاً ، فقد كان يكتب في

جوستاف فلوبير في طليعة كبار الكتاب البارزين في تاريخ الأدب الفرنسى ، وهو يعد في تاريخ الأدب العالمى أحد الأساتذة الرواد في كتابة الرواية الواقعية ، ولم يبلغ فلوبير هذه المكانة الرفيعة في عالم الأدب لأنه كان كاتباً موهوباً فحسب ، وإنما ظفر بها لأنه أراد ذلك ، وعقد عليه العزم ، ولم يلسخ جهداً ، ولم يحجم عن أية تضحية في سبيل تحقيق رسالته الأدبية ، وهى مسألة لها وزنها في تقويم عبقريته وتقدير أدبه ، ولم يعط كاتب من الكتاب أساويه العناية التى أسبغها فلوبير على أسلوبه ، ولم يأخذ أحد من الكتاب نفسه في مزاوله الكتابة بالشدّة في تحرير الكلام وضبطه وتصفيته وتنقيحه التى ألزمها فلوبير وفرض على نفسه قيودها الثقيلة وتكاليفها المرهقة ، كان يمضى ثمانية أيام — كما يقول إميل فاجيه في كتابه القيم عنه — من العمل المتصل ليكتب صفحة واحدة ، وكان يصحح ما يكتبه ويبعد عليه الكرة منقحاً ومصححاً ، ويفحص كل كلمة ويزنها ويعرضها على أذنه ليختبر وقعها في السمع ، ويتعرف جرسها ، وكان يقيم لنفسه عقبات لا لزوم لها تحريماً لمراعاة الدقة والإحكام في الكتابة ، فلا يكرر لفظة بعينها في الصفحة نفسها ، ويعمل على أن يكون

بطء شديد ، وقد قضى قرابة سبع سنوات في كتابة أشهر رواياته ، وهى رواية مدام بوفارى ، كما قضى بعد ذلك ثلاث عشرة سنة في كتابة روايته « بوفارى وبيكيشيه » ولم تكن قد كملت حينما أدركته الوفاة .

وفلوبير في تحريره الدقة في الوصف ونفاذ ملاحظاته وبراعة تعليقاته خليفة للكاتب الروائى الفرنسى الكبير بلزاك ، ولكنه في فرط عنايته بأسلوبه وتثقيف جملة وتنطسه في اختيار ألفاظه تقيض لسابقه العظيم ، وهذه الزايا والصفحات تجعل فلوبير ممثلاً له « مره » فقد كانت الحاسة الناقدة مسيطرة عليه وعلى عصره ، ولكن تمكنها منه وسيطرتها عليه كانت تفوق سيطرتها على سائر الكتاب المعاصرين له ، وكان هو نفسه يقول عن بلزاك لصديقه لويز كوليه « أى رجل كان يمكن أن يكون بلزاك لو أنه عرف كيف يكتب ! » .

وكان فلوبير يحتمل هذه الآلام المبرحة في التأليف ويتعرض لأزمات اليأس ونوبات الضيق والكرب لا رغبة في الشهرة ، ولا استجابة لحرصه على جمع المال ، ولا بغية التقرب لامرأة يود اسمائها ، ونيل عطفها واعجابها ، وإنما بدافع إخلاصه للفن الذى كان يعد مبشراً برسائله وكاهناً في محرابه ، ومن أقواله في إحدى رسائله « إنى لا أعبا فتيلاً بالدنيا ، ولا بالمستقبل ولا بما سبقوله الناس ، ولا أطمع في منزلة وطيدة ، ولا أنطلع حتى إلى الشهرة الأدبية التى كنت في بواكر أيامى أقضى الكثير من الليالى حالماً بها » ، ولم يكن فلوبير بطبيعته صالحاً للاستمتاع بأى لون من ألوان السعادة الدنيوية التى عرفها الكثيرون من هم أقل منه شأنًا ودونه منزلة ، فحينما نال كتابة « مدام بوفارى » شهرة موقوتة تسرب إليه الشك في قيمته ، وكتب إلى صديقه دى كامب « أود لو استطعت أن أجده ميلاً لجمع قنار من المال حتى أشتري جميع النسخ الموجودة من « مدام بوفارى » وألقى بها جميعاً في النار ولا أسمع شيئاً مرة

ثانية عن هذا الكتاب » ، وكانت سبب الحالات النفسية الغالبة عليه والتي كانت تبعثه على إعلان مثل هذه التصريحات النزعة الكليبية العريضة في نفسه ، وقد كتب في إحدى رسائله يقول « برغم أنى والحمد لله لم ألق قط عناء على يد أحد الناس ، وبرغم أن حياتى لم تكن تنقصها الوسائل التى أستطيع بها أن أنتحى زاوية وأنسى الناس جميعاً فانى مع ذلك أمقت شركائى في الحياة ولا أشعر أبداً بأنى زميل لهم » وقد أثارت الحياة نقمته فظلم يعانى الضيق والمال ، وقال في ذلك لصديقه دى كامب « إن مخدر الملل الذى غمست فيه نفسى في إيهان الشباب سيكون له تأثيره حتى أواخر أيام حياتى ، إنى أمقت الحياة ، نعم إنى أمقت الحياة وأجتوى كل شئ عيلى كرفى بأن الحياة يجب أن تحتمل ، فالأكل وارتداء الملابس والوقوف على قدمى ذلك كله يكلفنى ما لا أطيق من العناء ، ولقد رسفت في قيود هذا الشقاء بكل مكان حللت به » وربما كان سبب ذلك فرط حساسيته ، وهذا الضيق بالحياة يبلى واضحا خلال روايته مدام بوفارى ، ولذا كان يقول عن هذه الشخصية العجيبة التى أوجدها « مدام بوفارى هى أنا » .

وكان فلوبير في كتابته يعتمد إخفاء عواطفه ، وقمع ميوله ، وأهوائه ، وكبت حيويته ، لأنه كان يعتقد أن التجرد التام من تبود الميول والأهواء لازم للفن الصادق والكتابة الجيدة ، ويؤكد لنا فرنسيس ستيجملر - أحد من اتصلوا بدراسة حياة فلوبير - أنه لم يكن من هؤلاء الذين تتملكهم العواطف الدنيئة في الحب وتعصف بنفوسهم عواصفه ، ولم يجرب في حياته الميل إلى البقاء مع حبيبته أبداً الدهر أو الشعور بأن غيابها عنه سيقتل في وجوه أبواب الجنة ، ولم يكن الحب في رأيه أكثر من متعة جسدية ، ويستدل على ذلك بما كتبه إلى صديقه لويز كوليه قائلاً « إذا كنت تحسبن أن الحب هو الطبقة الرئيسى في الوجود فإن

جوابي عن ذلك هو النفي ، أما إذا كنت تريد أن
طبق إضافي فإني أوافقك ، وإذا كنت تعني بالحب أن
يظل الإنسان مشغولاً بمن يحب وأن لا يعيش إلا معها
وأن لا يرى في الأشياء التي ترى في الدنيا غيرها وأن
ملاً التفكير فيها نفسه وأن يشعر بأن حياته مرتبطة
بحياتها وأنها قد أصبحت شعبة من نفسه فإني أرد على
ذلك بالنفي ، وإني لم أشعر قط بضرورة معايشة أي
إنسان ، نعم قد شعرت بالرغبة وأما بالحاجة فلا .

وقد ولد فلوير بمدينة روين في ١٢ ديسمبر سنة
١٨٢١ وهو ابن آشيل كليوفاس فلوير الذي كان
كبير جراحي مستشفى المدينة ، وكان هو نفسه نجل
طبيب بيطري ، وكانت والدته آن جستن كارولين
فليريو ، وكانت تنسب من ناحية والدتها إلى أقدم الأسر
في نورماندي السفلى ، وكانت شديدة الاعتزاز بنفسها ،
وقد أورثت ابنها الاستعداد لاضطراب الأعصاب والليل
إلى احتقار الناس العاديين ، ومهما يكن من الأمر فإنها
كانت شديدة التوفر على العناية بنجلها ، وكان هذا من
أسباب إعراضه عن الزواج ، فقد قضى حياته عزباً .

وكان فلوير طويل القامة ، قوى البنية ، وقد مال
في شبخته إلى البدانة ، وكان كبير الأنف ، عالى
الجبين بارز العينين ، كث الشارب ، وقد ولد في
مستشفى هوتيل ديبه ونشأ بها ، وظل هناك حتى بلغ
الثامنة عشرة من عمره ، وأرسل إلى باريس للدراسة
القانون ، ودرس في الليسيه طالباً خارجياً ، ولم يبذل
في دراسته جهداً ، وظهر تعلقه بالأدب مبكراً ، ففي
الحادية عشرة من عمره اشترك مع بعض رفاقه في تمثيل
رواية من تأليفه .

ولم يكن فلوير في طفولته أو شبابه كثير الأصدقاء
وقد وصفته سيدة عرفته في مطلع شبابه فقالت « كان
جوستاف فلوير في ذلك الوقت يبدو كأنه يوناني في
مقابلة السن ، وكان طويل القامة ، نحيف الجسم ، رشيق

الحركة كالرياضي المصارع ، غير شاعر بمواهبه العقلية
والجسدية ، وغير حافل بتقاليد المجتمع . . . وحينما
قلت له أن النفوذ والشهرة من الأشياء المرغوبة والتي لها
قيمة أصغى لحديثي في غير اكتراث وقد علا وجهه
الابتسام ، وكان يعجب بما هو جميل في الطبيعة والفن ،
وقال إنه سيعيش من أجل ذلك دون أن يفكر في
مصلحته الشخصية ، ولم يحلم قط بالمجد أو المنفعة ،
وكان الذي يفيض على نفسه السرور أن يجد شيئاً يبدو
له أنه جدير بالاعجاب ، والمتعة التي يجدها الإنسان
في الاجتماع به والقرب منه باعثاً تحمسه لكل ما هو
نبيل ، وتفوقه العقلي يبدو في فريته القوية ، والذي
ينقص طبيعته هو الاهتمام بالأشياء الخارجية النافعة ،
فاذا سمع قول الناس أن الدين والسياسة أو الشؤون
العملية شائقة مثل الأدب والفن فإنه يفتح عينيه من
التعجب والرائاء لحالة القائلين بذلك .

وهكذا كانت حالة فلوير حينما قدم باريس
سنة ١٨٤٠ للدراسة القانون ، وقد مل الحياة بها وكره
ما يسمى « حياة الطلبة » ولم يكن قد وضع خطة لحياته
الأدبية بعد ، وكان يقضى أكثر أيامه وحيداً في شقته
الصغيرة وما يكاد يفتح كتاباً من كتب القانون حتى
يطوى صفحاته ويستلقي ساعات في فراشه ملئخاً
والمأ ، لقد صار ممن يؤثرون الاسترسال مع الأفكار
والغوص في التأملات .

وكان يتردد من الحين إلى الحين على مرسم براديه ،
وهناك لقي في أحد الأيام فيكتور هيجو وعرف السيدة
لويز كوليه وكانت إحدى النساء المتأدبات المعروفات
في ذلك العهد ، وفي سبتمبر وأكتوبر سنة ١٨٤٠
قام برحلة في جبال البرانس وجزيرة كورسيكا ،
وكان لهذا التغير في أسلوب حياته أثره الحسن في حالته
النفسية ، ووصفه لجزيرة كورسيكا في الوسائل التي
بعث بها إلى أصدقائه يتم على قدرته الفائقة على الوصف
التي تجلت بعد ذلك في مؤلفاته .

وفي سنة ١٨٤٥ مات والده ، وتوفيت شقيقته كارولين في السنة التالية ، وأصبحت والده تعيش في عزلة ، فقصم على مغادرة باريس التي كان لا يستريح إلى الإقامة بها وترك دراسة القانون التي كان يكرهها وأثر أن يعيش في كرواسيه القريبة من روين بمنزل يستطيع أن يرى منه نهر السين والقوارب مصعدات فيه ومنحدرات ، وفي الضفة الثانية التلال المكسوة بالخضرة .

وقضى في ذلك المكان أربعة وثلاثين عاماً حتى أدركه الموت ، وعاش عيشة دراسة وعكوف على العمل لم يتخللها سوى رحلة إلى بريتانى مع صديقه ماكسيم دى كامب سنة ١٨٤٦ ورحلة معه كذلك إلى الشرق سنة ١٨٤٩ وزيارات لباريس في فترات غير منتظمة . ولم يقبل على الأدب إقبالاً جدياً إلا في سنة ١٨٤٦ وبدأ يكثر من القراءة والاطلاع ويكتب مذكراته ويسجل تعليقاته على ما يقرأ في رسائله إلى أصدقائه ، ويضع خططاً لحياته المقبلة ، وشرع في كتابة أصول روايته « لأغراء القديس أنطونيوس » ، وفي هذه السنة نفسها بدأت علاقته المعروفة بالسيدة لويز كولييه ، وظلت حتى سنة ١٨٥٤ وكانت هي العلاقة العاطفية الوحيدة في حياة فلوير .

وفي سنة ١٨٤٩ قام بالرحلة إلى الشرق السابق الإشارة إليها مع صديقه ماكسيم دى كامب وزار مالطة ومصر (وقد أصعد في النيل إلى قنا) وسوريا وفلسطين والقسطنطينية وأثينا وجزءاً من بلاد اليونان ، وفتن بما شاهد من مناظر ، وعاش باقي أيام حياته يحلم بالعودة إلى تلك البلاد الحافلة بالأطلال الدوارس والآثار التاريخية ، وأعجب أعما اعجاب بأهرامات الجيزة وأثنى المول ، وكتب في ذلك يقول « بلغنا سفح التل الذي تقوم فوقه الأهرامات في مساء الساعة الرابعة يوم الجمعة الموافق اليوم السابع من ديسمبر سنة ١٨٤٩

وأطلقت العنان للجواد الذي امتطيته وكذلك فعل ماكسيم ووقفنا عند قدمي أبي المول ، وتلقاه منظره الذي لا يمكن وصفه طافت بذهني خواطر شتى ، وحال لون وجه صاحبي حتى صار في بياض صفحة الورقة التي أكتب عليها ، وحيما أقبل المساء وغربت الشمس بدا أبو المول والأهرامات الثلاثة جميعاً وردية اللون كأنها غارقة في الضوء ، ونظر إلينا هذا الوحش الجبار العجوز نظرة جامدة مخيفة ، ولن أنسى ما عشت الانطباع الغريب الذي خلفه ذلك المنظر في نفسي ، وقضينا ثلاث ليال عند أقدام هذه الأهرامات القديمة ، والقول الصريح أنها رائعة ، وكلما أطلت إليها النظر بدت لك أكبر وأضخم ، وأحجارها التي تبلى على مسافة عشرين خطوة مثل أحجار رصف الطرق تقرب في الحقيقة من حجم الإنسان ، وحيما تنسلقها تزداد علواً مثلما يتسلق الإنسان جبلاً .

وبعد سنة ١٨٥٠ أصبحت حياة فلوير مقصورة على حوادث حياته الأدبية ، وصار تاريخه تاريخ كتبه التي شغل بتأليفها ، وكان يقضي معظم العام في كرواسيه مقبلاً على التأليف ، ولا يسمح لنفسه بالراحة إلا مدة أيام قلائل ، وكان لا يذهب إلى روين إلا إذا كان هناك بعض أعمال تقتضى ذلك ، وحيما كان يزور باريس كان يجتمع بسانتيف وتيوفيل جوتييه وغيرهما من الكتاب والأدباء ، وفي أواخر حياته كان يلقي الفونس دوديه ولاميل زولا والأخوين إدمون جوناكور وجيل جوناكور وتلور بينهم أحاديث عن الأدب والفن ، وفي بعض هذه الزيارات كان يجتمع برينان وتين وجورج ساند .

وشغل في المدة من سنة ١٨٥٠ إلى ١٨٥٦ بكتابة روايته المشهورة « مدام بوفاري » وقد ظهرت في مجلة « ريشي دى بارى » من أول أكتوبر سنة ١٨٥٦ إلى ١٥ ديسمبر من السنة نفسها ، وفي يناير وفبراير سنة

١٨٥٧ شغل بالقضية التي اتهمته فيها اللولة بالخروج على الآداب في رواية مدام بوقاري ، وقد برأته المحكمة ولكن بعد أن أبدى القاضي ملاحظات شديدة حول قيمة الكتاب من الناحية الأخلاقية .

وفيا بين سنة ١٨٥٧ وسنة ١٨٦١ شغل بتأليف رواية سلامبو وإتمام رواية لإغراء القديس أنطونيوس ، وظهرت سلامبو سنة ١٨٦٢ بعد أن بذل في كتابتها جهوداً أدبية ضخمة وقام ببحوث تاريخية وأركيولوجية وفيا بين سنة ١٨٦٢ إلى سنة ١٨٦٩ عاد إلى دراسة عادات المجتمع الحديث ووصف أحواله وكانت نتيجة هذه الدراسة رواية التربية العاطفية التي ظهرت في سنة ١٨٦٩ .

وبعد سنة ١٨٧٠ تكاثرت عليه المحوم والأحزان ، وكان بطبيعته ميالا إلى الحزن والتشاوم ، وقد قوى هذا الميل في نفسه تقدم سنه والأحداث السياسية وما لقيته رواياته « سلامبو » و « التربية العاطفية » من قلة الزواج وسوء التقدير ، يضاف إلى ذلك تعرضه لمرض عصبي أصابه كانت نوبات هيجانه تشكل خطراً مستمراً على حياته ، وكان قد فقد منذ زمن أخته وصديقه الحميم لي بوثيان كما فقد صداقة ماكسيم دي كامب ، وفقد والدته سنة ١٨٧٢ وتقدم في الشيخوخة ، وحفت به العزلة الموحشة ، ولم تسعه في هذه الفترة سوى رعاية قريبته مدام كومفيل وصداقة جورج ساند التي ساندته وكتبت إليه رسائل مشجعة تنطوي على كثير من التقدير والاعجاب والتشجيع ، كما راقه تفتح ملكات تلميذه جي دي موباسان ، وقد علمه فلوير العناية الشديدة بالأسلوب والتخرج من اللبادة إلى سرعة الإخراج ، ووجد فيه بحق خير متمم لرسائله ومقلد في الكتابة الفنية لطريقته وخطته .

وفي سنة ١٨٧٧ أخرج مؤلفاً به ثلاث قصص لم يلق النجاح المنتظر ، وأخذ يستمد بعد ذلك لكتابة

رواية « بوقار وبيكيشيه » وكان يؤثرها على سائر مؤلفائه ، وقد بذل في كتابتها جهداً جباراً وبرغم ذلك مات قبل أن يتمها ، وكان يتوى أن يخرجها في مجلدين ، ولكن المواد التي تركها لم تكن تكفي إلا مجلداً واحداً ، وقد مات في أعقاب نوبة سكتة قلبية في صباح اليوم الثامن من شهر مايو سنة ١٨٨٠ وهو في الثامنة بعد الخمسين من عمره ، وكانت جنازته في اليوم الحادي عشر من مايو ، ولم يكن عضواً في الأكاديمية الفرنسية ، ولم تلقى خطب على قبره سوى كلمة وداع من لايبير أحد أصدقاء أسرته وصاحب مجلة كانت تصدر في روين :

وقد كانت تغلب على فلوير خليقتان ، وهما الحياء والكبرياء ، والحياء بطبيعته يغري بالكبرياء ، كما أن الكبرياء تزيد الحياء قوة وسيطرة على النفس ، وكان فلوير حياً ومتكبراً إلى حد كبير ، فكان لا يطبق المعارضة في المناقشة ، وكان أصدقاؤه يعرفون ذلك ويتحاشون مخالفته خشية ثورة الغضب التي تتملكه وتهدد حياته حينما يمارضه أحد في آرائه ومذاهبه ، وكان شديد الاحتقار لأدب القرن التاسع عشر ، وكان يرى أن كل ما لا يعنيه ليس له قيمة ، وهذا المزيج من الحياء والكبرياء كان يجعله حريصاً على أن يتحدث عن نفسه ، ولكنه مع ذلك لم يكن يشعر بالارتياح في ذلك ويسره أن يسمع الحديث عن نفسه ولو أنه يسبب له قلقاً وإزعاجاً ، وقد أفسدت سرعة غضبه ما بينه وبين صديقه ماكسيم دي كامب ، وبطبيعة الحال كان يضيء بالتقد ، فحينما كتب سانت بييف عن « مدام بوقاري » مقترراً ومطرياً كتب فلوير يقول « إن مقال سانت بييف صالح كل الصلاحية للبورجوازية ، وقد بلغني أنه أحدث تأثير عظيم في روين » .

وهذه الكبرياء المقترنة بالحياء وفرط الحساسية جعلت فلوير يعيش في عزلة دائم التذمر ، وكان يحبس

نفسه في صومعته بكرواسيه مضمراً الاحتقار للبشر
منطوياً على همومه في صحت وإبائه ، ولا يسمح إلا لعدد
قليل من الأصدقاء بالاقتراب منه ، ولم يسمح لأية امرأة
أن تقتحم عليه عزله لتؤنس وحشته برغم التوسل إليه
للسماح بذلك ، وقد عاش هكذا طوال حياته ، وقد
أدرك منذ مستهل شبابه أنه سبطل يعيش على هذا النمط ،
ففي الثامنة عشرة من عمره كتب يقول « لا تحسبني
متردداً في اختيار وظيفة ، فاني في الحقيقة لن أختار
أية واحدة ، لأنني شديد الاحتقار للناس إلى حد أنني
لا أريد أن أسدى لهم خيراً أو أن أسبب لهم ضرراً » ،
وفي الخامسة والعشرين من عمره كتب يقول « الجو
أكدر ، والنهر أصفر اللون ، والحشائش خضراء ،
ولا تكاد تظهر أوراق الشجر ، إنها آخذة في الظهور ،
لأنه الربيع أو أن السرور والحب ، ولكن قلبي ليس به
ربيع ... ومن عجيب الأمور أنني قد ولدت بمثل
هذا الإيمان القليل بالمعادة ، وحينما كنت في أولى
مراحل الشباب طالعتني صورة ما سألتني في الحياة من
متاعب وهموم ، لقد كانت تشبه رائحة المطبخ الكريمة
التي تأتي من خلال النافذة ، فقبل أن تلمس الطعام
بيدك تدرك أنه يسبب لك المرض » وفي الثلاثين من عمره
كتب يقول « من يوم ليوم أشعر بأن نفوري من زملائي
البشر يزداد وهذا مما يسرني » ويقول كذلك « أحب أن
أرى الإنسانية وكل ما يحترمه الإنسان وقد هان شأنه
واستخف به وبخر منه وكره وانتقص ، وهذا سبب
ما عندي من الاحترام القليل للإنسان » .

ولقد كانت حساسيته تجعله سريع الغضب ،
وسرعة الغضب كانت في دورها تجعل الحزن غالباً على
طباعه ، وحزنه كان يحيله كارهاً للبشر ، وكرهته
للبشر كانت تثير حقداه عليهم ، ولذلك كان يمتد
السخف والغباء ويحبهما في الوقت نفسه ، لأنه يجد فيهما
مجالاً لاشباع هوايته في الزرابة بالناس واستصغار

شأنهم ، وهكذا كان فلوبر الكاتب الروائي الفنان
ينظر إلى الإنسانية نظرة خوف واشمئزاز وسفوية
واستخفاف ، وقد أمضى حياته وهو يقول لنفسه وبعيد
القول ويكرره إن الإنسان صغير والفن عظيم ، فهو
يحتقر الإنسان ولكنه في الوقت نفسه يخدم الفن في
حماسة وإخلاص وتفان .

وكان فلوبر رومانسياً وواقعياً في الوقت نفسه ،
وقد بدأ ظهوره في عالم الأدب في منتصف القرن التاسع
عشر ، فاجتمعت في نفسه مؤثرات الأربعين سنة السابقة
والأربعين سنة اللاحقة ، وهو منذ طفولته كان يؤثر
الأحاسيس العارمة ، وقد ولد ونشأ في مستشفى ،
وكان يتسلق في طفولته مع صغار الأطفال الحيطان
ليروا الجثث في قاعة العمليات ، وكان يحلم كثيراً
بالعودة إلى الشرق ويجزئه أنه لا يستطيع أن يعيش في
ربوعه ، كتب إلى صديق له يقول « أما الرفيق القديم
العزيز متى تعود إلى الاستقاء فوق رمال الإسكندرية
أو إلى الرقاد في ظلال أشجار اللذاب على شاطئ
الدردنيل ؟ وكان يميل إلى الحزن ويستطيعه ويجد فيه
متعة تبعثه على تحليله تحليلًا وافيًا ليزداد به تشبهاً وله
تقديرًا ، ومن أقواله « لم أر قط طفلاً دون أن أذكر
أنه سيصير رجلاً عجوزاً وشيخاً هاماً ، ولا رأيت مهيداً
إلا ذكرت القبر ، وكلما نظرت إلى امرأة بدت لحاظي
صورة هيكلها العظمي ، ولهذا تحزنني المناظر المرحية
المفرحة والمناظر المحزنة لا تؤثر في نفسي كثيراً » وهذا
الميل إلى تذوق الحزن واستطلاع الخفايا الغامضة والنزوع
إلى الشرق وأضوائه الساحرة هي العناصر التي تتكون
منها النزعة الرومانسية ، ولكنها ليست الأساس الذي
تقوم عليه .

وأساس الرومانسية هو النفور من الواقع والرغبة
الملحة في الحرب منه ، ولذا تضيق الرومانسية بدقة
الملاحظة ، لأن الملاحظة تستدعي الخضوع للواقع ،

والاستعانة بالعقل في دراسته ، وجعله نقطة الابتداء ، ومحور التركيز والاهتمام ، وهي تحرر نفسها من الواقع عن طريق الخيال والتحويل على الحساسية الفردية ، وبرغم العناصر الرومانسية التي كانت في نفس فلوير فإنه كان يميل إلى مواجهة الواقع وتأمله ودرسه ، ففي السابعة عشرة من عمره كان يدون ملحوظاته عن الناس العاديين الذين يلقاهم وعن مدرسيه وأترابه من الطلبة ، وقد ولد قوى الملاحظة ، نافذ النظرات ، قادراً على وصف الواقع ، وكان يعجب بكبار الشعراء الذين مثلوا الزعتم ، الزعة الواقعية والزعة الرومانسية مثل هوميروس وأخيلوس وشيكسبير وبيرون وفكتور هيجو وشاتوبريان ورابليه وجيتي وفولتير ولابرير ولي ساج ، أى أنه كان من ناحية يعجب بالذين أوتوا الخيال العظيم المخلق والذين وهبوا الملاحظة الدقيقة الحاسمة ، وكان يحب أن يرى الأشياء بدقة ووضوح بحيث لا تخفى عليه فيها خافية ، وكان يميل في الوقت نفسه إلى أن يتخيل المشاهد الفخمة ، والمناظر الرائعة الفخمة ، أى أن عقله كان موزعاً بين حب استطلاع الواقع والحاجة في الوقت نفسه إلى انطلاق الخيال وخصوبته وقد كانت مؤلفات فلوير نتاج اجتماع هاتين الزعتين في نفسه ، فبعد إخراج مدام بوفارى الواقعية الزعة أتم رواية سلمبو ، وهي رومانسية الزعة ، وبعد رواية سلمبو كتب رواية « التربية العاطفية » وبعد الانتهاء منها شرع في تأليف « إغواء القديس أنطونيوس » وبعدها كتب رواية « بوفار وبيكنشيه » ، ويمكن أن نستخلص من ذلك أنه كان في توالى مؤلفاته يرضى الزعتين الكامنتين في نفسه ، وحينما كان يؤلف ما يشبع خياله كان يعود بعد ذلك إلى تأليف ما يقنع نزعة الواقعية .

وكانت هناك فكرة غالبية على تفكير فلوير ، وهي أن الأدب يجب أن يكون « غير شخصي » أى أنه يجب

أن لا يظهر المؤلف في مؤلفاته ، ويجب أن لا يقحم مشاعره وأفكاره ومعتقداته ، وأن لا يجعل كتاباته تنم على أفكاره وآرائه وحالاته النفسية ، وقد أكد هذه الفكرة مئات المرات في الرسائل التي كان يبعث بها إلى جورج ساند ، قال عن روابته مدام بوفارى « موضوع الرواية وشخصياتها وتأثيراتها كل ذلك من خارج نفسي . واعتقد أن هذا ما يجب أن يكون ، وما تكتبه لا تكتبه لنفسك ، وإنما تكتبه للآخرين ، والفن لا شأن له بالفنان ، فإذا كان لا يحب اللون الأحمر أو اللون الأخضر أو اللون الأصفر فإن هذا مما يضر به ، والألوان جميلة ، ولا بد من رسمها ، ويقول في رسالة أخرى « ليس في استطاعتنا أن نعرف هل كان شيكسبير حزيناً أو مسروراً ؟ وعلى الفنان أن يسلك بحيث يجعل الأجيال التالية تظن أنه لم يعيش قط ، وكلما قلت قدرتي على تكوين فكرة عنه بدا لي أنه أعظم شأناً ، ولا أستطيع أن أتخيل شيئاً عن شخصية هوميروس أورابليه ، وحينما أفكر في ميشيل أنجيلو لا أرى سوى ظهر رجل مسن ضخم الجسم يعمل في نحت تماثيله في الليل على ضوء المشعل » .

وهذه الفكرة تؤكد الجانب الواقعي في فلوير ، لأن الفن الواقعي قوامه الخضوع للموضوع ومحاولة النظر إليه في وضوح ودقة ، والمشاعر التي تقوم بنفس الإنسان في مواجهة الأشياء قد تجعله لا يراها على حقيقتها وإنما يراها كما يود أن يراها ، فالتجرد وعدم التأثر من مستلزمات الواقعية ، ونحن بطبيعة الحال لا بد أن نشعر ، ولكن علينا أن لا نطلق العنان لمشاعرنا حينما نصف مشاعر غيرنا ، لأن التداخل من جانب مشاعرنا حينما نصف مشاعر غيرنا يغير الصورة التي نحاول تصويرها ، والفنان الواقعي حقاً لا تسيطر عليه نزعاته الشخصية ، وفنه نفسه يرغمه على أن يكبح جراح شخصيته ،

رواية مدام بوفارى

وفى سنة ١٨٥٠ كانت النزعة الرومانسية قد أجهدت نفسها ، وكان بلزاك وستندال ومرعيه قد مهلوا السبيل لتنفوق الفن الواقعى دون أن يشعروا الميل الى هذا التدفق ، إشباعاً وافيّاً ، وبرغم أن هؤلاء الكتاب الثلاثة قد ساعدوا على خلق تنفوق الواقعية فإنهم لم يمثلوا الأدب الواقعى تمثيلاً كاملاً ، وقد قام بهذا التمثيل فلوير وبوجه خاص فى رواية مدام بوفارى .

ويعرف قراء بلزاك أنه يبدأ رواياته بالاسهاب فى وصف البيئة ومختلف الأمكنة التى تقع فيها حوادث الرواية ، ويتقلب فيها أبطالها ، ويعنى بوصف دقائق المسكن الذى يقيمون به وملابسهم وسمات وجوههم وطريقتهم فى التعبير عن أنفسهم ومختلف مظاهر كيانهم الطبيعى ، ويروى لنا بعد ذلك أخبار تحركاتهم وأفعالهم ، أما فلوير فيمزج من أول الرواية وصف البيئة والمظاهر الطبيعية بوصف الأخلاق والأمزجة والأعمال ، فحينما يظهر أبطاله ويتحدثون يمثل لنا بيئتهم فى خلال حديثه عن الصفات المميزة لهم ، ففى أول لقاء بين بوفارى ولما يصف له المزرعة وروالت العجوز ولما وبوفارى فى صفحة واحدة ، ويسير على هذا النمط فى مختلف فصول الكتاب .

وفلوير يعيش مع أشخاص رواياته ، فرى ما يرون ، ويشعر بما يشعرون : وهذه هى الواقعية الحقة ، ورواية مدام بوفارى حافلة بالشخصيات الحية ، وكلهم ناس عاديون ، ولكن لكل واحد منهم مع ذلك خصائصه ومميزاته ، فهم ليسوا طرزاً معروفة ولا مختصرات موجزة للإنسانية . ولما هم شخصيات نابضة بالحياة بادية السمات والملامح .

والحياة الرتيبة المملة الحالية مما يشوق ويعجب تؤثر تأثيراً سيئاً فى أصحاب الخيال الواسع والطموح البعيد ، وقد يصد هذا التأثير إلى حد وقوع المأساة ، وهذا هو المهور الذى دارت حوله رواية مدام بوفارى ،

يرى بعض الناس أن الواقعية هى الأمانة فى الفن ، وقد كان فلوير يفهم الواقعية على هذا الأساس ، ولذلك كان يلتزم أقصى حدود الأمانة فى رواياته الواقعية ، ولكنه شعر بأن الرومانسية يصحبها لون من ألوان الدجل والشعوذة والخداع والمبالغة والتضليل يمويه به الكاتب على نفسه ويخدع قراءه ، والخيال قد ينتم فرصة انطلاقه بلا كايح ليعن فى تزييف الواقع وخلق الأوهام ، وفلوير فنان له ضمير يحرص على تحرى الحقائق ، ويعنى ببذل الجهود فى التعرف على الطلائع وتصوير الواقع ، وكان لذلك يقدر صعوبة الفن الواقعى ، فإن على الفن الواقعى أن يتناول الناس العاديين ، وهم ليست لهم مميزات بارزة تميز بعضهم من بعض ، وبرغم ذلك فإن على الكاتب الواقعى أن يكون دقيقاً فى وصفه ، أميناً فى تصويره ، يظهر الفروق الدقيقة بين الناس العاديين ، وعليه كذلك أن يذون شائناً فى عرضه بارعاً فى تصويره حتى لا تملنا واقعته ، ويحملنا على الاهتمام بأشخاصه العاديين .

وتعد رواية مدام بوفارى فى طليعة الروايات التى استوفت شرائط الواقعية ، وقد ظهرت فى وقت كان مناسباً لظهورها ، فقد كانت موجة الأدب الرومانسى قد أخذت فى الانحسار ، ومل قراء الأدب المبالغاب الرومانسية ، وفى عالم الأدب كما فى عالم الفكر بوجه عام كلما سادت نزعة من النزعات تستنفذ جهودها وتمهد السبيل لظهور نزعة مناقضة لها ، وبعد التحليل فى الخيال تميل إلى أن نرسو على شاطئ الواقع ، ولما كان الواقع نفسه لا يخلو من رتابة مملة لذلك سرعان ما تمل النفس وترتد إلى الخيال حتى تضيق ذرعاً بنوع آخر من الرتابة .

وفي تصوير فلوير لمدام بوفاري قلم لنا صورة من أروع الصور النسائية في الآداب العالمية ، فقد استقصى حوادث حياتها وأرانا تطور مشاعرها وتتابع الحالات النفسية التي استولت عليها واستبدت بها ، ولقد كان والدها روالاً رجلاً عطوفاً ولكنه مجرد من العاطفة الدينية والحاسة الأخلاقية ، حسيّاً إلى حد ما قليل الجدية وبه شيء من الزهو والخيلاء ، وكانت لا تكاد تعرف والدتها ، وقد نشأت نشأة حسياً اتفق في ضيعة والداها ، وظلت بها حتى بلغت الثالثة عشرة من عمرها وتعلّمت القراءة والكتابة دون أن تقوم بعمل أي شيء في الضيعة ، وقرأت رواية بول وفرجينيا في طفولتها ، وهي رواية لها تأثيرها في إيقاظ الأحلام الرومانسية ، وبخاصة في نفس حساسة نزاعة إلى الاسترسال مع تلك الأحلام مثل الطفلة إيمّا التي صارت فيما بعد مدام بوفاري ومن سمات النزعة الرومانسية تطلع الإنسان إلى ما وراء آفاق حياته الراهنة ، ومن شأن هذا التطلع أن يجعل صاحبه غير قادر على تبين ما في حاضره من مزايا ونواح مقبولة ، والرغبة في التغير الدائم من أعراض النزعة الرومانسية ، وقد ظهرت هذه الأعراض على إيمّا منذ بلوغها الثانية عشرة من عمرها ، وألحقها والدها في الثالثة عشرة بدير الرهبانيات ، وقرأت روايات السير ولتر سكوت التاريخية ، فامتلاً خيالها بصور العصور الوسطى والفرسان والقلاع والجسور التي تفتح وتغلق ، وقرأت أشعار لامارتين العاطفية ، وأخرجت من الدير وعادت إلى ضيعة أبها ، ولم تكن والدتها هناك لتحمل عنها أعباء الضيعة ، وكان لهذا الانتقال من الحياة الدينية الحاملة التأملية إلى حياة الضيعة الرتيبة الخشنة اليومية وقعه السيئ في نفسها ، ولذلك كانت تنتظر من يتقدها من الضيعة والإشراف على شؤونها ، ويلوح في أفق حياتها وهي تعاني التبرم بحياتها شارل بوفاري ، وكانت مستعدة للترحيب بأي رجل يتقدم لها ويطلب يدها ، وكان يبدو لها أن كل رجل قادر على إشباع أحلامها الرومانسية

وأستفادها من الرتبة المملة التي تعيش فيها وتعاني أوصالها .

وقد استطاع فلوير في وصفه لشخصية شارل بوفاري أن يتغلب على صعوبات جمّة ، فشارل بوفاري أقرب إلى أن يكون طرازاً من الناس منه إلى أن يكون له شخصية ، أو هو شخصية بغير شخصية إن صح هذا التعبير ، وهو مخلوق سلبي تشكّله البيئة كما شاءت مثل الماء الذي يأخذ شكل الإناء الذي يحتويه ، وهو خلو من الذكاء والإرادة والخيال ، لا يفكر ولا يحلم ولا يكاد يرى شيئاً بعينه ، فهو صدى لأفكار غيره من الناس ، ورغباته تملي عليه ، وهو المنفذ ، ومشاعره نفسها تأخذ الصورة المطلوبة لها ، وهو يحب زوجته ولكن كما تريد هي أن يحبها ، ويحب طفلته ولكن بالأسلوب الذي يفرض عليه ، وقد تزوج في أول الأمر نزولاً على إرادة والدته وعلا بإشارتها ، وهي التي اختارت له الزوجة الملائمة في تقديرها ، وماتت زوجته الأولى ، أما في المرة الثانية فقد تزوج باختياره المرأة التي أحبها ، وكان والدها قد أصيب بكسر في ساقه فاستدعى الطبيب الريفى شارل بوفاري لمعالجتها ، وكان شارل حينذاك قد فقد زوجته الأولى ، ووفق شارل في علاج الساق المكسورة واقتضاه ذلك أن يتردد غير مرة على ضيعة ريوالت ، وتكرر لقاءه للآنسة إيمّا ، ولما أتم علاج الساق المكسورة وكان ريوالت قد علم بفجيئته في زوجته الأولى دعاه في ذات صباح وقسم له أجر العلاج وأهدى إليه ديكاً رومياً وقال له وهو يربت على كتفيه : لقد جربت هذه الفجيئة ، وكنت في هذا الموقف نفسه ، وحينما فقدت زوجتي العريضة كنت أذهب إلى الحقول لأخلو بنفسى وسقطت على جذع شجرة ، وبكيت ودعوت الله . . . وكنت مستطار العقل إلى حد أني لم أر شيئاً وفكرة الذهاب إلى المقهى منفرداً ملأت نفسي نفوراً . . . وكرت

الأيام يملو بعضها بعضاً وبالتدريج تولى هذا الشعور ، لقد ذهب وغاص في الأعماق ، أعنى بذلك أن شيئاً يبقى في القاع كما يقول الناس ، يبقى راسخاً في قلب الإنسان ! ولكن ما دام هذا هو حظنا جميعاً فعليتنا أن لا نستسلم لليأس ، ولا نريد الموت لأن غيرنا قد مات ، وعليك أن تتجلد يا سيد بوفاري ، وكل هذا سيزول ، فاحضر لزيارتنا ، وابنتي تفكر فيك في بعض الأحيان ، أتعرف ذلك ؟ وهي تقول إنه يبدو أنك قد نسيتها .

وعمل شارل بنصيحته ، فكان يتردد على الضيعة ويقص عليه الشيخ صاحب الضيعة طريف أخباره ، وتأكدت العلاقة بينه وبين إيمما ، وشجع ذلك شارل على التغمس لخطوبتها ، وتم الزواج ، ولكن بعد انتهاء شهر العسل أدركت إيمما أنها لا تحب زوجها ، ورأته على حقيقته رجلاً عادياً لا نصيب له من الخيال ولا عناية له بملبسه والمحافظة على مظهره الخارجي وليست له آراء مبتكرة ، وإنما هو يردد كالبغايا الآراء الشائعة الممجوجة ولا يميل إلى ارتياد المسرح ومشاهدة أحدث الروايات التمثيلية وحياته في مجموعها بطيئة بليدة مكونة من أشياء صغيرة وتفاصيل لا قيمة لها ، ولم يسوئها منه أنه من الناس الذين يمرون بالحياة دون أن يستبطنوا أسرارها ودخائلها فإن معظم الناس من هذا القبيل وإنما ساءها بوجه خاص أنه كان لا يفهم شيئاً ولا يحسن النظر حتى من الزاوية الضيقة التي يعيش بها ، وهو لا يرى ما يتجاوز أنفه ، وهو يعيش لأنه يجد ما يحسك عليه ريقه ويقيم أوده ، وهي تعيش في المستقبل وهو يعيش في حاضره ، وهو مستغرق في الواقع ، وهي مسترسلة في الأحلام وهو كالمقيد بالمكان الذي يحتويه ، وهي هاربة بأفكارها وطموحها من مستقر وجودها ، فهو في رأسها يمثل الحاضر الذي تضيق به وتمتته ، وإذا حدثته فهو لا يصغي لها ولا يفهم مدلول حديثها ، وكل ما تحدثه عنه متاف لطبيعته ، وقا قبلته خطيباً

ورضيته زوجاً لا لأنها أحبه وإنما يدافع من رغبتها في التغير وميلها إلى مفارقة البيئة التي تعيش بها وتجربة لون آخر من ألوان الحياة ، وكانت تقمها على حاضرها تزداد حدة مع مرور الأيام ، فهي لا تكف عن التطلع إلى التغير الذي يحلم به ، كانت كالملاح الذي ألقت به السفينة الفارقة على شاطئ مهجور ، فهو لا يني يلبس الطرف في الوحشة المهددة به مترقباً رؤية الشراع الأبيض لائماً في الأفق غير عارف إلى أي مكان تدفع به الرياح ، ولكنها تنتظر في كل صباح مجئ يوم الخلاص وحينما تغرب الشمس ويقبل الليل يغمر نفسها الحزن وتعاود التطلع إلى الغد المأمول .

ودعيت مع زوجها إلى حفلة أقامها مركز من أعيان الريف في ضيعته ، وكان شارل قد عابجه وهذا آلام برة أصيب بها ، وارتدت إيمما خيراً ما عندها من الملابس وأزييت ورقصت مع أحد الحاضرين على نغمات الكمان ، وقد زادها حضور هذا الحفل ضيقاً بحياتها فعادت غاضبة نائمة ، وأخذت تحلم بالحياة في باريس وغشيان المسارح والصالونات ، وتحدثت نفسها بأن هذا هو الوضع الذي يلائمها ويرضى نزعاتها ، وصارت حياتها الحاضرة تبدو لها في صورة أضال من حقيقتها وأزل من مستواها الحقيقي ، وقوى شعورها بأن زوجها أكثر فظاظاً وأشد نكراً ، فكانت تقول لنفسها : ما أشد فقره ولجذاب نفسه وما أحقره وأهون شأنه ! ! :

وفي هذا الموقف العصيب والحالة النفسية المتأزمة ظهر في أفق حياتها العاشق المنتظر في صورة الشاب الرسيم الرشيق ليون كاتب أحد الخامن في مدينة بونفيل القريبة من روين ، وكانت قد أغرت زوجها بالإقامة بهمة البلدة وولدت له بها طفلة ، وكان ليون مثلها يحلم بالحياة في باريس ، ومحبة الموسيقى ، وكان هما دار بينهما من الحديث في أول لقاء قولها له : « إنى لا أعرف

أجمل من الجلوس إلى جانب الموقد في المساء مع كتاب جيد بينما الريح تعصف بزجاج النافذة والمصباح يرسل الضوء الباهر في الحجرة .

فقالت إيمما وقد حدثت إليه النظر بعينها الواسعتين السوداوين « هذا ما أراه تماماً » فاسترسل ليون قائلاً « إن الإنسان ينسى كل شيء والساعات مضي بعضها في أثر بعض وينتقل الإنسان في البلاد التي يحسب أنه يراها » وأفكار الإنسان التي يحملها تيار الرواية تجد متعة في كل تفصيل وإيضاح أو تتابع سرد أخبار المغامرات وتصبح هذه الأفكار أجزاء من الشخصيات المختلفة ، ويتوهم الإنسان أنه هو نفسه الذي يتنفس في ملابسها .

فأجابت إيمما « هذا حقيقي ، هذا جد حقيقي » ففضي ليون يقول « ألم يحدث لك أن صادفت فكرة غامضة ، فكرة غير واضحة تأتي من بعيد وبرغم ذلك تعبر عن أعماق مشاعرك الخفية ؟ »

فأجابت إيمما « لقد لحظت ذلك في أغلب الأوقات ، وهذا سبب ولوعي بالشعر بوجه خاص ، فلاني أرى أن الشعر أرق حاشية من الشعر وأنه يفجر الدموع من عيوننا بسهولة أكثر » .

فقال ليون « ولكن برغم ذلك سرعان ما تدميته ، وأنا على نقيض ذلك أحب قراءة القصص التي تسترسل بدون اعتراض وتكاد تجعلك خائفة وأكره الأبطال السوقيين والمواطن المبتذلة » .

وتكررت مناسبات التقيانها وشعر كل منهما بتقارب ميولها ولكنهما لم يتبادلا مع ذلك ألفاظ الحب وعباراته ، وشعر ليون بأنها تحاول بكتانها عواطفها لإرغامه على إعلان حبه لها .

وكانت تردد في خلال ذلك كراهتها لزوجها شارل ، وكان اعتقاده بأنه لا يدخر وسعاً في العمل على إسعادها يبدو لها كأنه إهانة تدل على فرط الغباء ، وأنه

أجمل من غروب الشمس ، وبخاصة بجانب البحر ، فأجابها ليون قائلاً « آه ، لاني أهتم بالبحر » فأجابته قائلة « ألا نرى أن العقل يبدو أكثر حرية وانطلاقاً حينما نواجه هذا الامتداد غير المحدود ، وأن روحنا تسمو حينما نتأمله ، وأنه يوحي إلينا أفكاراً عن المثل الأعلى وعن اللانهاية ؟ »

فأجابها ليون قائلاً « هذا هو نفس ما يشعر به الإنسان في المناطق الجبلية ، ولي ابن عم قد سافر إلى سويسرة في السنة الأخيرة ، وقد أخبرني أن الإنسان لا يستطيع أن يتصور شعر البحيرات وجمال منحدرات المياه وتأثير الأنهار المتجمدة الضخم ، وهذه أشجار صنوبر سامقة بصورة لا تكاد تصدق متناثرة في ميول جبالها وبيوت صغيرة معلقة على هاويات وعلى مسافة ألف قدم في الأعماق أودية تلوح للناظرين حينما ينجلي الضباب ، وأمثال هذه المناظر يجب أن تملأ نفوسنا بالحفاصة وتوحي إلينا العبادة والنشوة الروحية ، ولذلك لا يدعشني هذا الموسيقىقار الشهير الذي كان من عادته أن يذهب إلى أحد المواقع الفخمة ويعزف على البيانو ليثير خياله ويزيده نشاطاً » .

فسألته إيمما « هل أنت موسيقار ؟ »

فأجابها قائلاً « كلا ، ولكنني شديد الولع بالموسيقى » .

« وأي نوع من أنواع الموسيقى تفضل ؟ »

فأجابها « أوه ، الموسيقى الألمانية ، لأنها جد حاملة »

« أعترف الأوبرات الإيطالية ؟ »

فأجاب ليون « لم أعرفها بعد ، ولكن في نيتي أن أوالى الذهاب إليها في السنة التالية ، حينما أعزم المعيشة في باريس وأفرض من دراستي القانونية » .

وحينما قال شارل بوقاري في عرض الحديث « أن زوجتي تؤثر أن تظل دائماً في حجرتها لتقرأ » أجابه ليون قائلاً « إن شأنها في ذلك كشأنى ، ولا شيء بالتأكيد

نوع من إنكار الجميل ، وغلب على تفكيرها الاعتقاد بأنه هو العقبة القائمة في طريق سعادتها وأنه سبب الشقاء الذي تعانيه وألقت عليه تبة متاعها جميعها ، وكانت تود لو أن شارل أوسعها ضرباً حتى يجد مبرراً لكرهها له وضيقها به والعمل على الانتقام منه ، وكانت في بعض الأحيان تعجب من خواطرها الشريرة ، وبرغم ذلك كله كان عليها أن تتكلف الابتسام ، وتزعم أنها سعيدة ، وتدعى ذلك لتحمل الغير على تصديقها .

وكرهت هذا الرياء ومالت إلى الهرب مع ليون إلى أي مكان كان ما دامت تجد فيها حياتها وتتخلص من رتابة عيشها الملل ، ولكنها كانت في الوقت نفسه تشك في حبه لها فإذا تصنع ؟

كانت كلما فكرت في ذلك تنهر من عينها الدموع ويشد بها الكرب ، ولم يطمئن ليون لبقاء هذه العلاقة التي لم تسفر عن حب واضح صريح فأثر الابتعاد ونأى بجانبه عنها ، فأخذت تلوم نفسها وتأسى على ابتعاده عنها فقد كان النور الذي أضاء في ظلمات حياتها ، والأمل الوحيد الذي تعلقت به في نوبات يأسها ، فلماذا أضاعت من يلها هذه الفرصة السعيدة ولماذا لم تحرص على اجتذابه وتيسير أسباب اقترابه ، واكتساب عطفه وحبه ؟ وطاف ببالها أن تذهب إليه معتلة متوسلة ، وترتمي بين يديه ، ولكنها أحجمت عن ذلك ، وكبر عليها الأمر وضاعف الأسف رغباتها وأطال حشرتها وأصبحت ذكرى ليون تثير شجاءها ورواقد آلامها .

وأخذت تبدأ ثورة حبا له وتنطفئ وقدة هيامها به ، وساءت حالتها النفسية واعتلت صحتها ، وفي هذه الفترة ظهر رودلف بولانجييه صاحب ضيعة لاهيست القريبة من يونفيل ، وهو رجل أعزب له دخل سنوي لا يقل عن خمسة عشر ألف من الفرنكات ، وكان قد جاء إلى شارل ليجري عملية فصله لخادمه ، وحضرت مدام بوفاري لإجراء العملية ، ونظر إليها بولانجييه

بعد انتهاء العملية وتبادل بعض الأحاديث مع الحاضرين ومنهم مدام بوفاري وقال لها « لقد سررت بمعرفتك » ودفع أجر إجراء العملية بغير اكتراث وانصرف .

وأعجب بولانجييه بدمام بوفاري ، واستماله جمالها ، وكان في الرابعة بعد الثلاثين من عمره ، وفي طباعه شدة وصرامة ولكنه كان واضح التفكير ، وله خبرة بأحوال النساء وطول معاشرته لمن جعلته يجيد فهمهن ، وقد أخذ يفكر في إيماء لأنها حسنة فائنة ، وقال لنفسه « إنني أتصور أن زوجها غاية في الغباء وهي من غير شك قد شتمت معاشرته ، وأظافره قلرة ، وهو لم يحل ليحيته منذ ثلاثة أيام ، وهي بطبيعة الحال ترى أن معيشتها في هذه البلدة الصغيرة عملة ، وتفضل أن تعيش في المدينة وترقص في كل مساء ، وهذه المسكينة لا بد أن تكون نزاعة إلى الحب ، فإذا قال لها أي رجل ثلاث كلمات مهلبة فلنأخذ ستعبده عبادة ، وإنني واثق من ذلك ، وستكون شديدة الحب قوية العطف ولكن كيف أنخلص منها بعد ذلك ؟ » وأخذ يفكر بين يدي عشيته التي ملها وبدأ يزهد فيها ، وقال لنفسه « لأنها أرغرت بها جمالا وأكثر نضارة . . . » وعقد العزم على إيجاد علاقة معها وشرع يفكر في أقرب السبل إلى ذلك ، واستقر رأيه على اغتنام الفرص ، وأن يزور شارل في بعض الأوقات ويدعوه لزيارته مع زوجته ، وتسنع الفرصة المنتظرة ويلقى إيماء ، ويقول لها في حديثه معها :

« لقد عاكسني الحظ في أشياء كثيرة ، ولقد عشت دائماً وحيداً ، آه فلو كان لي هدف في الحياة أو لو أقيمت عطفاً أو قابلت أحداً . . . لو حدث ذلك لكنت استنفذت كل ما عندي من طاقة ولكنك تغلبت على كل عقبة . »

فأجبت له إيماء « لا أظن بعد كل شيء أن حالتك يرقى لها » .

فسألتها قائلاً « أظنن ذلك ؟ » .

فقلت بعد أن ترددت لحظة « بعد كل شيء أنت حر وغني » .

فقال « لا تسخرى مني » فنفت ذلك عن نفسي .

وقال لها في خلال هذا الحديث « إنى لم أجد مثل هذه المتعة في الاجتماع بأى امرأة قبلك ولكنك تستينينى وسأكون كجسد خيال مر بحياتك ، ولكن لا ، من المؤكد أننى أمثل شيئاً فى أفكارك وحياتك » .

وكان هذا اللقاء والحديث فى المعرض الزراعى ، وصحبها رودلف حتى أوصلها إلى باب منزلها وودعها وعاد أدراجه .

ومر على هذا اللقاء ستة أسابيع لم يرها فيها وقال لنفسه « إنها إذا كانت قد أحببتى من اليوم الأول للقائنا فإن ذلك الحب سيقوى ويزداد ، وستكون شديدة الشوق إلى لقائى » وحيثما زارها تأكد من إصابة ظنه ، ووجد الفرصة ساحة لمصارحتها بحبه لها ، والواقع أن لما لقيت رودلف فى الفترة التى طغى فيها الملل على نفسها ولها فى غيابه ، وشعرت بأنها فى حاجة إلى حب يستولى عليها ، ويزود عنها السأم الذى تعانیه ، فهى كانت تحرص على الدخول إلى عالم الحب لا إلى رودلف ، وكان رودلف الذى هبأ لها الفرصة ، وأشبع فى نفسها تلك الرغبة ، وقد عرفت منه الحب ، وعاشت فترة فى عالم غريب لامع كله أحلام ومتعة ونشوة ، فهى تحب الحب نفسه لا رودلف ، ورغبتها أن تعرف الحب هى سبب الخطيئة الأولى التى وقعت فيها ثم يقع الخلاف بينها وبين رودلف وهو مأساة حياتها ، فقد اتفقت معه على أن تهربا معاً ، ولكن رودلف غير فى آخر لحظة رأيه ، ونكث وعده ، ونقض وعده ، وأرسل إليها رسالة يقدم بها أعذاره ، وكان لهذه الرسالة أسوأ وقع فى نفسها ، وانهارت أحلامها ، وفكرت فى الانتحار ، ومرضت مرضاً شديداً ، وحيثما خفت وطأة المرض صحبها زوجها شارل إلى المسرح ، وهناك

لقيت ليون ، وأعاد ذلك اللقاء تيران حبهما القديم إلى الاشتعال ، وتجددت العلاقة الغرامية بينهما ، ولكن الشاب ليون لم يقو على الثبات أمام عواطفها القوية المحتاجة ، وتعرضت لصدمة زادت همومها ، وبلبلت خواطرها ، وأوقعها فى حيرة عز عليها المخرج منها ، فقد أصبحت الصكوك التى كانت تستدين بموجبها وتسرف فى نفقاتها دون أن يعلم شارل واجبة الدفع ، وصارت مهددة فى كل لحظة بالحجز على ما فى منزلها وكل ما تملك هى وزوجها ، ولجأت إلى ليون وتوسلت إليه أن يعمل على استئانة المبلغ المطلوب سداده لتتعاشى الحجز ، ولكن ليون لم يوفق فى مساعيه ، ولم يبق أمامها إلا أن تستل كرامتها وتنزل عن كبريائها ولابائها وتذهب إلى رودلف تلتمس منه أن يتقنها من ورطتها ، ويصف لنا فلوير لقاءها لرودلف فى الفصل من الثامن الجزء الثالث من الرواية فيقول « سألت نفسها ماذا تقوله له وما الذى نوت أن تبدأ به الحديث ، ومضت فى طريقها وعرفت الأشجار والأدغال القائمة فوق الرابية والقصر الرابض فى سفحها وشعرت بخنوها السابق عليه يعود إليها ، وخفق بالحب قلبها الموجع ، ودخلت من باب الحديقة الصغير كما كانت تفعل فى الأيام السابقة ، ومشت فى الساحة الكبرى التى كان يحف بها صفان من شجر الزيزفون وكانت أغصانه تتأيل ويسمع حفيفها فى الرياح ، وأخذت الكلاب المقيدة بالسلاسل تنبح ، ولكن لم يظهر أحد برغم الضجة التى حدثت ، وصعدت على الدرج الواسع المنحدر الذى يؤدى إلى الممشى المرفوف وكان به حجرات عدة على طريقة الأديرة أو الفنادق ، وكانت حجراته فى أقصى آخر الممشى من ناحية اليسار ، وخشيت أن لا يكون هناك ، والواقع أنها كانت تأمل أن لا يكون هناك ، وبرغم ذلك كان هو أملها الوحيد ، وفرصتها الوحيدة للخلاص ، ولذلك انتظرت لحظة لكي تستعيد جأشها وتشد من عزمها ، واستعانت

بالتفكير في أزمته الراهنة على ابتعاث شجاعته ،
ودخلت الحجرة ، وكان جالساً إلى جانب الموقد وقلمه
فوق حاجز الموقد وقد أشعل غليونه .

فقال وقد نهض مسرعاً « ها أنت ! » .

« نعم ها أنا ذا ، لقد جئت أسألك النصيحة
يا رودولف » .

« إنك لم تتغيرى ، إنك دائماً فاتنة » .

فأجابت في مرارة « أوه ، إن محاسن قليلة
يا صديقي ما دمت تزدريها » .

فأخذ يحاول تفسير سلوكه معتبراً عن نفسه بكلمات
غامضة لأنه لم يستطع أن يبتكر أعذاراً أقوى وترك
نفسها تقبل كلماته وتتأثر أكثر من ذلك بصوته ورويته
حتى تظاهرت بتصديقه أو ربما صدقته فيما قاله عن
سبب انقطاع العلاقة بينهما ، لقد كان سرّاً يتوقف عليه
شرف شخص ثالث ، بل حياته ، وقالت وقد نظرت
إليه في حزن « لقد شقيت كثيراً » .

فأجابها متفلسفاً وحسن ، هذا هو نصيب الإنسان
العادي في الحياة » . فضت إنما تقول « مهما يكن من
الأمر فإنني آمل أن حظك كان سعيداً منذ افترقا » .

« أوه ، من هذه الناحية لم يكن هذا بوجه خاص
ولا ذاك » .

« ربما كان الأحسن أننا لم نفرق » .

« نعم . . . ربما » .

فسألته قائلة « أحقاً نظن ذلك ؟ » واقتربت منه
وتابعت الحديث بعد أن تهتت تهدياً عميقاً « أوه ! لو
كنت تعلم يا رودولف ! لقد أحبيتك حباً قليل النظير ،
وأمسكت بيده وجلسا حيناً من الزمن مثل جلستهما في
اليوم الأول لقاتهما في المعرض الزراعي ، ولما رأته أنه
يجاهد في إخفاء حنوه بدافع الكبرياء قالت وقد ارتمت
على صدره « كيف تنتظر أن أعيش ببلونك ؟
لا يستطيع الإنسان أن يعود فقدان السعادة ، لقد كنت

بالسة ، وخطت أنه كان يجب أن أموت : : : في حين
أنك - أنت تمنيتني » .

ولقد كانت هذه هي الحقيقة ، فقد عمل على ذلك
في السنوات الثلاث الأخيرة ، بدافع ذلك الحب الذي
يميز الجنس الأقوى ، واسترسلت إنما في حديثها محاولة
لإغراءه كالمهرة العاشقة وبحركات رشقة من رأسها « إنك
مقيم بنساء أخريات ، قل الحق ، أوه ! إني أفهم ذلك
وأنا أعذرهن ، وأظنك أغويتين كما أغويتني ، وأنت
رجل فيك كل الصفات التي تمكنك من أن تجعل نفسك
محبوباً ، ولكننا سنبدأ ثانية أليس كذلك ولا تزال يجب
كل منا الآخر ؟ انظر ! إني أضحك وأشعر بالسعادة !
. . . تحدث إلى ! ! » .

كان منظرها فاتناً جذاباً وقد تفرقت الشموع في
عينها مثل قطرات الندى في غلالة زهرة زرقاء ،
وجلسها إلى ركبتيه وداعب شعرها الذي انعكست عليه
أشعة الشمس الغاربة ، بظهر يده ، فأحنت رأسها فقبل
في رفق جنبها بطرف شفته » .

وهتف قائلاً « ولكنك تبكين ! فما سبب ذلك ؟ »

فاشتد تشجيعها ، وظن رودولف أنه مجرد تعبير عن
حبها ، ولكن لما كانت لا تزال صامتة فقد ظن أن
هذا آخر جهادها مع الاحتشام ، فغنى يقول « أوه
ساحبي ! إنك أنت المرأة الوحيدة التي أعنتي بها ،
ولقد كنت قاسياً وأحمقاً ، إني أحبك وسأظل أحبك
دائماً . . . فما شأنك ؟ أرجوك أن تخبريني ، وركع على
ركبتيه إلى جانبها .

« حسن ، لقد دمرت حياتي يا رودولف ! أتعريني
ثلاثة آلاف فرنك ؟ » فقال وقد أخذ ينهض من ركوعه
بالتبرجع وعلت وجهه سباب الجدة « ولكن . . . ولكن
هل هذا حقيقي . . . » .

فضت مسرعة في حديثها قائلة « أنت تعرف أن
زوجي قد وضع أمواله في يد المخاي ، وقد هرب

الهامي ، وكان علينا أن نقترض ، والمرضى لا يدفعون ،
وضيعة والده لم تصف بعد ، وسنحصل على المسال
قريباً ، ولكن إذا لم نجد ثلاثة آلاف فرنك فإن منزلنا
سيحجز عليه اليوم ، ولقد يحدث ذلك في أية لحظة ،
وقد جئتكم معتمدة على صداقتك .

ففكر رودلف الذي اشتد فجأة اصفرار وجهه
« أوه ! هذا هو السبب الذي جاءت من أجله » ولكنه
قال في هدوء تام « ليس عندي ما يعادل هذا المبلغ
يا عزيزتي » .

وكان بلا شك صادقاً فيما قال ، ولو كان يملك هذا
المبلغ لأعطاه لها من غير شك ، ولو أنه باعتبار القاعدة
عامة من أعمال العطف التي لا ترتاح لها النفس ، وليس
أكثر قضاء على الحب من طلب المساعدة المالية ،
فنظرت إليه في صمت دقيقة أو دقيقتين ، ثم قالت :
« ليس عندك هذا المبلغ ! » وكررت ذلك قائلة « ليس
عندك المبلغ ! ... » كان يجب أن أجنب نفسي هذا
العار الأخير ، إنك لم تعجبي قط ولست خيراً ممن
الآخرين ! » .

ولكن رودلف اعترض حديثها قائلاً إنه هو نفسه
في ضيق مالي ، فقالت « إنني حزينة من أجلك ! نعم
أنك مأزوم في الواقع » ورأت بتدقيق مأسورتها مرصعة
في أحد الأركان فقالت « حينما يكون الإنسان مأزوماً
لا يكون عنده ألواح من الفضة في كرتافة بتدقيقه
ولا يشتري ساعة حائط مغلقة بعظم السلحفاة ولا صفاير
مطلية ولا تعويذات لسلسلة ساعته ، فعنده كل
ما يريد ... » وأنت في رغد من العيش ، وعندك
جوستي ، ولك ضياع وغيابات ، وتذهب للصيد
وتقضي جزءاً كبيراً من وقتك في باريس ، وإذا لم
يكن عندك شيء سوى هذه الأزرار (وتناولت أزرار
القميص من المشجب) فانك تستطيع أن تحصل منها على
المال ! آه إنني لا أريدها ! احتفظ بها .

بين فروع الأشجار ، وظهر وجه رودلف في وسط كل منها ، وأخذ عددها في التكاثر وتقارب بعضها من بعض ، وانخفضت أخيراً ، وعرفت حينئذ أضواء المنازل التي كانت تضيئ خلال السحاب في الأفق ، ثم أخذت تلوك موقفها على حقيقته ، وقد بدا أمامها كالملاوية الفاعرة ، ولطئت كأن صدرها كان سيتمزق ، وانقدت في نفسها حاسة بطولية جعلتها تكاد تشمر بالسعادة ، فانطلقت إلى أسفل التل وعبرت الجسر الخشبي واجتازت الممر الضيق ، وبعد أن عبرت الميدان وصلت إلى حانوت الكيميائي

ولم يكن هناك أحد ، وهمت بالدخول ، ولكن يمكن أن يحضر أحد على صوت الجرس ولذا تلمست طريقها إلى الحائط وقد حبست أنفاسها حتى وصلت إلى باب المطبخ حيث كانت هناك شجرة مشتعلة فوق الموقد ، وكان جستن يحمل طبقاً للخارج ، فقالت لنفسها « أوه ! أنهم يتناولون عشاءهم وعلى أن أنتظر » ولما عاد قرعت النافذة قرعاً خفيفاً ، فخرج ، فقالت له « اعطني مفتاح الحجرة التي في الطابق العلوي حيث يوجد »

« ماذا تعنين بذلك ؟ » . . ونظر إليها وقد عرته الدهشة لاصفرار وجهها فقد بدا أبيض اللون في ظلمة الليل ، وظهرت له غاية في الجمال وقد حفها الجلال كأنها طيف مائل ، وبدون أن يفهم ما كانت تريده أدرك أن شيئاً غريباً سيحدث ، ولكنها بادرت بسرعة إلى القول في نغمة رقيقة منخفضة متوسلة « إلى أريد ، إعطني إياه » .

وكانا يستطيعان أن يسمعا من خلال الحاجز الرقيق صوت السكاكين والشوك في حجرة الطعام ، وادعت أنه تريده لقتل الفيران التي منعها من النوم .

فقال « ولكن لا بد من أن أخبر السيد هومز » . فأجابته قائلة « إن الأمر لا يستحق إزعاجه » ، وسأخبره في الحال ، أرجوك أن تربني النورية .

وذهبا إلى الممر الذي يقضي إلى باب العمل ، وكان هناك مفتاح معلق على الحائط ، وصاح الكيميائي الذي بدأ يقلق « جستن ! »

فقال « اصعد إلى الطابق العلوي ، فتبعها ، وفتحت المفلق بالمفتاح وانجهت إلى الرف الثاني مباشرة (لأن ذاكرتها خلتها جيداً) وأمسكت بالزجاجة الزرقاء ورفعت سداتها وأدخلت يدها وتناولت كمية من المسحوق الأبيض وشرعت في ابتلاعها .

فصاح بها ممسكاً بيدها قائلاً « توقف ! » .

فأجابته « ألزم الصمت » ، وإلا حضر بعض الناس » .

فلم يدر ما يصنع ، وأراد أن يدعو أحداً لنجدة ، ولكنها طلبت إليه أن لا يقول شيئاً لأن الخطأ جميعه سيقع على سيده ، وذهبت إلى بيتها ، وشعرت فجأة بالارتياح كأنها قد أنجزت واجباً .

وهكذا وصف لنا فلوير عودة أمها خائبة من قصر رودلف ، وتصميمها على تناول السم ، وكيف ذهبت إلى دار الكيميائي هومز وابتلعت الزرنيخ .

ولما عاد شارل إلى المنزل ووجدها سألها « ما الخبر » وطلب منها أن توضح له جلية الأمر ، وكانت حينذاك جالسة إلى مكتبها وقد أتمت كتابة رسالة له وطونها ، بعد أن أثبتت بها التاريخ والساعة ، وقالت له في لهجة جادة « لا تقرأ هذه الرسالة إلا غداً ، وبين هذا وذاك أرجوك أن لا توجه إلى أي سؤال » .

ويشتد بها الألم وتسوء حالتها ، ويسرع شارل إلى الرسالة ويفضها ويقرأها ويعرف أنها تناولت السم ، ويطلب النجدة ، وتتقاذفه لجج الحزن ، فتقول له إنما « لا تبك ، فبعد قليل لن أتبعك أبداً » .

فيقول لها شارل « ولماذا ؟ ما الذي دفعك إلى ذلك ؟ » .

فتجاوبه قائلة « كان على أن أفعل ذلك يا عزيزى »
فيقول شارل « ألم تكون سعيدة ؟ وهل أخطأت ؟
لقد بذلت كل ما فى وسعى ؟
« هذا حق » . . . أنك طيب جداً . . . »

وأمرت يدها فى بقاء على شعره ، وعمقت عنوبة
هذا الإحساس حزنه ، وشعر بأن حياته جميعها تنهار
أركانها حينما فكر فى أنه سيفقدها فى الوقت الذى
تعترف فيه بحبها له .

واضطرب شارل بعد موتها إلى أن يبيع كل ما يملك
من الأشياء الفضية وأثاث المنزل ليسدد الديون ، وفتح

فى النهاية درج مكتب إيما فوجد فيه الرسائل التى كان
يبحث بها إليها ليون ، وصورة رودلف ، فتضاعف
حزنه وكبر عليه الأمر ، ورفض أن يرى مرثاء
وأوى إلى حجرته معزلاً الناس وكان يتمشى فى حديقة
داره جيئة وذهوباً وهو يبكي بصوت مسموع ، وفى
ذات يوم وجده طفلة الصغيرة ميتة وفى يده نخالة
طويلة من شعر إيما الأسود اللون .

وهذه هى مأساة مدام بوفارى التى بذل فلوبر
فى كتابها جهداً جباراً فجاءت طرفة من طرائف الفن
الخالدة فى موضوعها وفى أسلوبها .



رسالة منطقية فلسفية للورثج فتنجشتين

بسم الله
الدكتور عزى اسلام

بدلاً من إقامة نسقات فكرية أو ميتافيزيقية متكاملة .
أصبحت الفلسفة لديه بمعنى آخر فلسفة للفلسفة ،
وأصبح عمل الفيلسوف عنده هو أن يكون فيلسوفاً
للفيلسوف بتحليله لما يقول :

كما تعود أهمية فتنجشتين أيضاً إلى أنه كان أول
من نادى بأن قواعد المنطق - إن هي ، إذا حللناها -
إلا قواعد اللغة ، فأوجد بذلك نوعاً من التوازي بين
قواعد كل منهما على أساس أن صورة المنطق ، ومن
ثم صورة الفكر شيء واحد : وقد تبعه في هذا
الكثير من الفلاسفة فيما بعد مثل كارناب :

هذا فضلاً عن الأثر البالغ الذي تركه فتنجشتين
في كل التيار الفكرى الوضعى والتحليلى المعاصر ،
الأمر الذى جعل دراسة الفلسفة في اتجاهها التحليلى
أو الوضعى المنطقى شيئاً متعذراً بغير دراسة أفكار
فتنجشتين وتحليلاته المنطقية التى اعتبرها برتراند رسل
لعمرها واتساع مجالها حدثاً هاماً في تاريخ الفلسفة .

حياة فتنجشتين

ولد للنسيج جوزيف يوهان فتنجشتين
Ludwig Joseph Johann Wittgenstein في

يعتبر فتنجشتين ، على الرغم من النقد الذى
يوجه إلى فلسفته بصفة عامة ، أحد العلامات الهامة
على طريق الفكر الفلسفى المعاصر ، حتى لقد ذهب
بعض مؤرخى الفلسفة المعاصرة مثل بنشر Pitcher
إلى القول بأن فتنجشتين كان واحداً من كبار فلاسفة
القرن العشرين إن لم يكن أعظمهم بالفعل :

وتعود أهمية فتنجشتين إلى أن فلسفته - وخاصة
تلك المتمثلة في رسالته المنطقية الفلسفية - كانت بمثابة
نقطة تحول حاسمة في تاريخ الفلسفة المعاصرة والمنطق
الجديد ، ولم يكن ذلك راجعاً إلى ما توصل إليه من
نتائج فلسفية بقدر ما يرجع إلى المنهج التحليلى الذى
اتبعه في بحثه الفلسفى ، حتى أن كثيراً من المعاصرين -
على حد تعبير دافيد بول في كتابه عن فلسفة
فتنجشتين - يؤكدون أن كل طرق التفلسف القديمة
أصبحت غير مقبولة منذ ظهور مؤلفات فتنجشتين :
وتعود أهمية فتنجشتين كذلك إلى أن فلسفته
كانت أشبه ما تكون بالثورة على الفلسفة التقليدية
وذلك بدعوته إلى تغيير المفهوم القديم للفلسفة
فأصبحت عنده عبارة عن تحليل للغة التى نتكلم بها في
الفلسفة أو نعبّر بها عما نشير به من مشكلات فلسفية

وقد اختار فتنجشتين بعد انتهاء الحرب مهنة التدريس ، وتدرّب عليها في الفترة بين عامي ١٩١٩ ، ١٩٢٠ في كلية المعلمين بفينا ، ومارس هذه المهنة لمدة ست سنوات ثم استقال منها عام ١٩٢٦ . وبدأ في خريف العام نفسه في عمل استغرق فيه طوال سنتين كاملتين ، وهو بناء منزل في فينا لإحدى أخواته وقد تعرف إليه في تلك الأثناء مورييس شليك مؤسس جماعة فينا وفريدريش فايزمان أحد أعضائها ، ثم عاد إلى كبروج مع بداية عام ١٩٢٩ وقدم برسائله المنطقية الفلسفية للحصول على درجة الدكتوراه ، وحصل عليها في يونيو من العام نفسه ، وأصبح ابتداء من عام ١٩٣٠ زميلاً في كلية تريبنيتز . وقد ظل فتنجشتين يعمل في كبروج حتى نهاية العام الجامعي ١٩٣٥-١٩٣٦ ثم رحل إلى الترويج وظل بها لمدة عام تقريباً بدأ فيه تأليف كتابه «أبحاث فلسفية» ، ثم عاد إلى كبروج عام ١٩٣٧ وخلف جورج مور عام ١٩٣٩ على كرسي الفلسفة بها حتى قامت الحرب العالمية الثانية فاشترك فيها مساهماً في الأعمال الطيبة بمستشفيات لندن ونيوكاسل . ثم اعتزل كرسي الفلسفة بالجامعة عام ١٩٤٧ وانتحل إلى أيرلندا وظل بها إلى أن أكمل الجزء الثاني من كتابه «أبحاث فلسفية» ، وقد تبين له في تلك الأثناء أنه مريض بالسرطان الذي ظل يعاني منه حتى توفي في كبروج عام ١٩٥١ .

أعماله :

لم يكن فتنجشتين مكثراً في إنتاجه الفلسفي بل كان مقلاً ، حتى إنه لم ينشر في حياته إلا كتاباً واحداً هو «رسالة منطقية فلسفية» ، ومقالا له بعنوان « بعض ملاحظات على الصورة المنطقية » . وكل ما نشر من كتاباته — سواء قبل وفاته أو بعدها — كان عميقاً يصعب فهمه أحياناً حتى بالنسبة لتلاميذه الذين كانوا يستمعون إلى محاضراته ، الأمر الذي أدى إلى ظهور

السادس والعشرين من شهر أبريل عام ١٨٨٩ بالنمسا وتلقى أول تعليم له بالمنزل حتى سن الرابعة عشرة ثم التحق بمدرسة لينتز Lintz في شمال النمسا لمدة ثلاث سنوات التحق بعدها عام ١٩٠٦ بالأكاديمية الصناعية في بولين وظل بها حتى عام ١٩٠٨ حين سافر إلى إنجلترا والتحق بجامعة مانشستر للدراسة الهندسة واستمر بها حتى عام ١٩١١ . وقد شغل في هذه الفترة — بالإضافة إلى دراسته — بأبحاث قام بها في الملاحة الجوية ، انتقل من تجاربه فيها على الطائرات الشراعية إلى إنشاء محرك نفث للطائرات وكان عمل المحرك أول الأمر هو موضع اهتمامه ، إلا أنه سرعان ما ركز كل اهتمامه على تصميم المحرك ، وكان هذا التصميم في أساسه عملية رياضية الأمر الذي دفعه إلى الاهتمام بالرياضة فأتجه أولاً إلى الرياضة البحتة ثم إلى أسس الرياضيات وفلسفتها ، وبدأ بدراسة الجزء النظري من أسس الرياضيات فقرأ كتاب «أصول الرياضيات» لبرتراند رسل الذي كان قد ظهر عام ١٩٠٣ . وفي عام ١٩١١ توقف فتنجشتين عن دراسة الهندسة وانتحل إلى ينا Jena في ألمانيا لكي يناقش أفكاره عن أسس الرياضيات مع فريجه G. Frege الذي نصحه بالتوجه إلى كبروج للدراسة مع رسل ، فعاد إليها في السنة نفسها وظل بها يدرس الفلسفة والمنطق والرياضيات فضلاً عن علم النفس والموسيقى وفلسفة الجمال حتى خريف عام ١٩١٣ حين ارتحل إلى هولندا وأقام لنفسه بها كوخاً صغيراً بالقرب من مقاطعة سكولدن ، عاش فيه مضرغاً للفلسفة حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ فتطوع في جيش النمسا ، ووقع في الأسر أثناء انهيار الجيش النمساوي الهجري في نوفمبر من عام ١٩١٨ ، وظل أسيراً حتى أغسطس من العام التالي ١٩١٩ بأحد معسكرات الاعتقال في جنوب إيطاليا ،

كثير من الكتب الحديثة يحاول مؤلفوها شرح أفكار فتنجنشتين الفلسفية التي أوجزها في مؤلفاته القليلة . وخير مثال لذلك ظهور أكثر من خمسة أبحاث في السنوات العشر الأخيرة ، يحاول أصحابها - وأغلبهم من تلاميذ فتنجنشتين ، مثل أنسكوم Ancombe أن يفسروا ما ذهب إليه في رسالته المنطقية الفلسفية التي ظهرت لها ترجمتان إنجليزيتان حتى الآن مختلفتان إلى حد ما في تناول النص الأصلي الذي كتبه فتنجنشتين باللغة الألمانية .

وفيما يلي أهم مؤلفات فتنجنشتين الفلسفية ، مرتبة ترتيباً زمنياً :

١ - المذكرات Notebooks التي كتبها في الفترة بين عامي ١٩١٤ ، ١٩١٦ وقد ترجمتها إلى الإنجليزية أنسكوم التي قامت بنشرها كذلك بالاشتراك مع فون رايت عام ١٩٦١ في بلاكويل بإنجلترا وتعتبر هذه المذكرات بصفة عامة نموذجاً طيباً لأفكاره الفلسفية الأولى التي ركزها بعد ذلك وبلورها في رسالته المنطقية الفلسفية .

٢ - « رسالة منطقية فلسفية »

Logisch — Philosophische Abhandlung ونشرت باللغة الألمانية عام ١٩٢١ ، ثم باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٢ بالعنوان اللاتيني الذي عرفت به وهو Tractatus Logico-Philosophicus بعد أن ترجمها أوجون Ogden وكتب لها رسل مقدمة طويلة وسأتناول بالتفصيل أهم أفكار فتنجنشتين في هذه الرسالة فيما بعد .

٣ - « بعض ملاحظات على الصورة المنطقية »

Some Remarks on the Logical Form وهو مقال باللغة الإنجليزية نشر في « منشورات الجمعية الأرسطية عام ١٩٢٩ ، يستكمل فيه فتنجنشتين الإطار المنطقي الذي أسهب في الحديث عنه في رسالته

المنطقية الفلسفية ويمكننا القول بأن هذه المؤلفات الثلاثة والرسالة بصفة خاصة توضح الأثر الكبير الذي تركه كل من فريجه ورسل في تفكير فتنجنشتين المنطقي والرياضي وقد عسير فتنجنشتين عمن ذلك في مقدمة رسالته بقوله « لأنني لن أشير إلا إلى مؤلفات فريجه التي أنا مدِين لها ، كما أنني مدِين لكتابات صديقي برتراند رسل من حيث استشارة أفكارى هذه » .

٤ - مؤلفان كبيران مكتوبان باللغة الألمانية على الآلة الكاتبة (لم ينشرا بعد) .

(١) الأول منهما بحث يقع في حوالي ثمانمائة صفحة مقسمة إلى أجزاء وفصول .

(ب) والثاني يحمل اسم « ملاحظات فلسفية » Philosophische Bemerkungen وكان موضوعهما عاما شاملا ، وإن كان فتنجنشتين يعطي فيهما اهتماماً خاصاً لفلسفة الرياضيات ويمثلان موقف فتنجنشتين الفلسفي بصفة عامة سنة ١٩٣٠ حين بدأ يراجع أفكاره الفلسفية الأولى .

٥ - محاضرات فتنجنشتين فيما بين عامي ١٩٣٠

— ١٩٣٣ ، وهي بعض الملاحظات التي استطاع جورج مور جمعها من محاضرات فتنجنشتين ومناقشاته في كمبردج في تلك الفترة وقد نشرت بالعنوان السابق في مجلة مايند عام ١٩٥٤ (عدد يناير سنة ١٩٥٤ من صفحة ١-١٦ ، وعدد يولية من صفحة ٥٣٠-٥٥٩ ، وعدد يناير ١٩٥٥ من صفحة ١-٢٧) ثم أعاد مور نشرها ضمن مجموعة مقالات له ظهرت بعنوان « بحوث فلسفية » Philosophical Papers عام ١٩٥٩

٦ - « الكتابان الأزرق والبنّي » Blue and

Brown Books وهو العنوان المختصر لهذين الكتابين اللذين ظهرتا في مجلد واحد عام ١٩٥٨ (وقد أعيد طبعهما عام ١٩٦٠ ، ثم عام ١٩٦٤) والكتاب

٩ - « قصاصات » Zettel

وهي مجموعة من الملاحظات التي كتبها فئجنشتين على قصاصات في الفترة بين عام ١٩٢٩ ، وعام ١٩٤٨ . وأغلب الملاحظات المنشورة في هذا الكتاب تتعلق بالفترة بين عامي ١٩٤٥ ، ١٩٤٨ - وقامت بترجمتها أنسكوم ونشرتها بالاشتراك مع فون رايت عام ١٩٦٦ . وتعتبر هذه الملاحظات عن أهم أفكار فئجنشتين الجديدة التي ظهرت مرتبة مبلورة في كتابه « أبحاث فلسفية » .

١٠ - « أبحاث فلسفية »

Philosophische Untersuchungen

وهو مكون من جزئين انتهى فئجنشتين من أولهما عام ١٩٤٥ ، أما الجزء الثاني فقد كتبه بين عامي ١٩٤٧ ، ١٩٤٩ وقد قامت أنسكوم بترجمتها إلى اللغة الانجليزية ونشرته بالاشتراك مع ريز Rhees عام ١٩٥٣ (وأعيد طبعه عام ١٩٥٨ ، ثم عام ١٩٦٣) . ويعتبر هذا الكتاب (١) بمثابة المراجعة الأخيرة أو التصحيح النهائي لأفكار فئجنشتين السابقة ، وقد عبر عن هذا المعنى بقوله في مقدمة الكتاب - إنني قد اضطررت أن أتبين أخطاء جسيمة فيما كتبت في الكتاب الأول مثل فكرته عن الأنا وحديه وفكرته عن النظرية المنطقية : (٢) كما يعتبر في الوقت نفسه بمثابة تطوير لأفكاره القديمة الواردة في رسالته المنطقية الفلسفية ، أو هو بمثابة إعادة ترجمة لهذه الأفكار القديمة في سياق فلسفي جديد متطور .

• • •

الرسالة المنطقية الفلسفية

Tractatus Logico-Philosophicus

تعتبر رسالة فئجنشتين المنطقية الفلسفية من أهم المؤلفات التي ظهرت في الثلاثينيات الأخيرة ، سواء بالنسبة للمنطق أو بالنسبة لفلسفة التحليل المعاصرة :

الأزرق عبارة عن محاضرات ألقاها فئجنشتين في كبردج أثناء العام الجامعي ١٩٣٣ - ١٩٣٤ ، أما الكتاب البني فقد أمله على اثنين من طلبته هما فرانسيس سكينر F. Skinner وأليس امبروز A. Ambrose أثناء العام الدراسي ٣٤ - ١٩٣٥ . وترجع تسمية هذين الكتابين بالأزرق والبني إلى لون الغلاف الذي كان كل منهما مغلفا به ، بحيث تداول تلاميذ فئجنشتين قراءة هذه الكتب مع تسميتها بلون الغلاف الذي كانت النسخة الأولى من كل منهما مغلفة به . وترجع أهمية هذين الكتابين إلى أنهما توضحان بصفة خاصة كثيراً من العبارات الغامضة في رسالته المنطقية الفلسفية ، كما أنهما توضحان تطور أفكاره الفلسفية - وخاصة الكتاب الأزرق - لأنه كان يحتوي على ما أسماه فئجنشتين بالفلسفة الجديدة التي تمثلت فيما بعد في كتابه « أبحاث فلسفية » :

٧ - « ملاحظات على أسس الرياضيات »

Bemerkungen über die Grundlagen

der Mathematik وهي مختارات من ملاحظات كتبها فئجنشتين فيما بين عامي ١٩٣٧ - ١٩٤٤ ترجمتها أنسكوم ونشرتها بالاشتراك مع ريز Rhees عام ١٩٥٦ ثم أعيد طبعها عام ١٩٦٤ وهي تمثل أفكار فئجنشتين الجديدة المتعلقة بأسس الرياضيات بصفة خاصة وبالعلاقة الرياضية بالمنطق بصفة عامة .

٨ - « محاضرات في الجمال وعلم النفس والدين »

وهي مقتطفات من العدد القليل من المحاضرات التي ألقاها فئجنشتين في كبردج عام ١٩٣٨ عن فلسفة الجمال فضلاً عن عدة ملاحظات كتبها فئجنشتين عن علم النفس والدين في ذلك الوقت (وقد جمع هذه المحاضرات والملاحظات ريز R. Rhees ، وسميثيز Y. Smithies ونشرها سيريل باريت Barrett عام ١٩٦٦ .

فهي كانت ذات أثر بالغ في الفكر الفلسفي بصفة عامة ، وفيما يتعلق بالاتجاهات الفلسفية المؤيدة للاتجاه التحليلي المنطقي خاصة ، مثل مدرستي كمبريدج وأكسفورد وكذا فلسفة الوضعية المنطقية .

ولا يكاد الإنسان يغالي في القول بأن هناك شبه إجماع بين دارسي الفلسفة المعاصرة على أهمية «رسالة» فتنجشتين وأثرها البالغ في الفكر الفلسفي المعاصر فيقول رامزي مثلاً في كتابه «أسس الرياضيات» (صفحة ٢٧٠) «إن الرسالة كتاب له أهمية غير عادية ويستحق أن يولييه كل الفلاسفة اهتمامهم الشديد» ، كما يقول ماكسويل في كتابه «الفلسفة والتحليل اللغوي» (صفحة ٩٣) «إن الإنسان يستطيع القول — بلا — بالغة — إن كل الفلسفة الانجليزية التالية لظهور الرسالة ، كانت متضمنة في الرسالة نفسها على نحو أو آخر» . ويعبر ستينوس عن هذا المعنى أيضاً في كتابه «رسالة فتنجشتين المنطقية الفلسفية» (صفحة ١٦) بقوله «إن الرسالة كانت ذات أثر بالغ في الحياة الفكرية المعاصرة» وهو المعنى ذاته الذي يذكره بنشر في كتابه «فلسفة فتنجشتين» (صفحة ٦) حين يقول «إن الرسالة أحدثت تأثيراً عميقاً في كل ما تلاها من أفكار فلسفية» ، مؤكداً بذلك قول موريس شليك بأن ظهور رسالة فتنجشتين كان بمثابة نقطة تحول حاسم في تاريخ الفلسفة .

هذا ويمكننا تلخيص أهمية رسالة فتنجشتين بصفة عامة في أنها قدمت لنا طريقة مثيرة وجديدة في كيفية تناول المشكلات القديمة للفلسفة ، وذلك بتحليل القضايا التي نصوغ فيها هذه المشكلات تحليلاً منطقياً يوضح أن أغلبها ليست إلا مشكلات زائفة وإنها لم تنشأ إلا نتيجة لسوء فهم منطق اللغة . ولقد كان لهذه الفكرة أبلغ الأثر في فلسفة التحليل

المعاصرة المتمثلة في مدرستي كمبريدج وأكسفورد ، وخاصة عند رايل وأوستن وستروسون وويزدم .

ولقد عبر دافيد بول في كتابه فلسفة فتنجشتين المتأخرة عن أهمية المنهج الذي اتبعه فتنجشتين بقوله «يكفي أن نقول إن فتنجشتين قد ابتدع طريقة جديدة للتفلسف ، بل إن كثيراً من المعاصرين يؤكدون أن كل طرق التفلسف القديمة أصبحت غير مقبولة في الفلسفة منذ ظهور مؤلفاته» . كما أن فكرة فتنجشتين عن تحقيق القضايا في «الرسالة» بمقارنتها بالدافع الخارجي ، كانت ذات أثر بالغ في ظهور مبدأ التحقق عند فلاسفة الوضعية المنطقية بصفة عامة ، وبعد أن تطور في فلسفة إير Ayer إلى ما يعرف بالتحقق الفعلي والتحقق الممكن .

فضلاً عن أن الرسالة كانت تطبيقاً للمنطق الرمزي على أوسع نطاق ، على حد تعبير بلا نشارد في كتابه «العقل والتحليل» (صفحة ١٣٥) ، كما كانت في الوقت نفسه استكمالاً للنقص الموجود في محاولات رسل وفريجه المنطقية .

كما ويعتبر فتنجشتين في «رسالته» أول من تكلم في المنطق المعاصر على أنه مجرد علامات اتفاقية لا تكشف عن طبيعة الأشياء ، الأمر الذي جعله ينتهي فيها إلى أن قضايا المنطق كلها تحصيلات حاصل.

تكوين «الرسالة» .

تعتبر رسالة فتنجشتين المنطقية الفلسفية تعبيراً موجزاً عن تأملاته في الفلسفة والمنطق والرياضيات لفترة لا تقل عن ست سنوات آخرها عام ١٩١٨ حين انتهى من كتابة مسودتها قبل أن يقع أسيراً في العام نفسه أثناء اشتراكه في الحرب العالمية الأولى . وقد نشرت الرسالة لأول مرة باللغة الألمانية عام ١٩٢١ في المجلة السنوية لفلسفة الطبيعة ثم غير فتنجشتين عنوان الرسالة إلى الإيم اللاتيني الذي

تكون العبارة رقم ٤,٥ شرحاً للعبارة رقم ٤ وللعبارات الموجودة بين رقم ٤ ورقم ٤,٥ وهكذا .

وتتكون أيضاً من عبارات فرعية أخرى رقمها فتجنشتين بأعداد مثوبة مثل ١,١١ وهذه تكون تعليقا على العبارات ذات الرقم العشري مثل ١,١ وبالتالي على العبارة الأساسية رقم ١ وهكذا تنفرع العبارات بحيث تكون كل عبارة فرعية جديدة شرحاً لما سبقه أو تمهيداً لما يأتي بعدها من عبارات ، وفي هذا الصدد يقول فتجنشتين في بداية رسالته « إن الأعداد العشرية كأرقام للقضايا المنفصلة توضح الأهمية المنطقية للقضايا ، وقد ركزت على هذا الموضوع أثناء حديثي في هذا الكتاب . فالقضايا ١ ، ٢ ، ٣... الخ هي بمثابة الشروح للقضية ن كما أن القضايا ن م ١ ، ن م ٢... الخ تعتبر بمثابة التعليقات على القضية نوم ... وهكذا .

إلا أن فتجنشتين لا يلتزم التزاماً دقيقاً بهذه القاعدة فهو أحياناً يستخدم عبارات مرقمة بأعداد مثوبة أو ألفية لكي يتناول بها القضية الأصلية مباشرة ، كما هو الحال في العبارة رقم ٢,٠١ التي تكون تعليقا على العبارة السابقة لها مباشرة وهي رقم ٢ إذ ليس في الرسالة وجود لعبارة رقمها (٢,٠) ، وكالعبارة رقم ٣,٠٠١ التي تكون تعليقا على العبارة السابقة لها مباشرة وهي رقم ٣ إذ لا وجود لعبارة رقمها (٣,٠٠) أو (٣,٠) في الرسالة .

ولقد كانت طريقة كتابة الرسالة على هذا النحو من أهم الأسباب التي أدت إلى وصف هذا الكتاب الهام بالصعوبة بل وحتى بالغموض ، وهو رأى يجمع عليه كل من تناول « الرسالة » بالدراسة مثل ارستينوس الذي يلحظ إلى أن « الرسالة » عمل فلسفي بالغ الصعوبة ، ويعترف صراحة بعدم فهمه بعض عباراتها فيقول في مقدمة كتابه « رسالة فتجنشتين

اقترحه جورج مور بعد ترجمتها إلى اللغة الانجليزية على غرار الاسم اللاتيني الموسوم به كتاب سينوزا « رسالة لاهوتية فلسفية » Tractatus Theologico-Politicus وقد قام أوجدن بترجمة الرسالة إلى اللغة الانجليزية بمعاونة بعض المتخصصين في الفلسفة من أصدقاء فتجنشتين مثل فرانك رامزي ، ونشرها كيجان بول في حوالي ثمانين صفحة باللغة الألمانية ، تقابلها صفحات ماثلة عليها الترجمة الانجليزية ، مع مقدمة لرسول تقع في سبع عشرة صفحة يلخص فيها أهم أفكار فتجنشتين الفلسفية ويشرح أهم المصطلحات الواردة بها .

وتتكون « الرسالة » من سبع قضايا أساسية – هي في نظر فتجنشتين أكثر عبارات الكتاب أهمية – رقمها بأعداد صحيحة تبدأ من ١ وتنتهي بالعدد ٧ وهي على التوالي :-

١ – العالم هو جميع ما هناك .

٢ – إن ما هو هنالك ، أي الواقعة ، هو وجود الوقائع الذرية .

٣ – الفكر هو الرسم المنطقي للوقائع .

٤ – الفكر هو القضية ذات المعنى .

٥ – القضايا عبارة عن دالات صدق للقضايا الأولية . (والقضية الأولية هي دالة صدق نفسها) .

٦ – إن الصورة العامة لدالة الصدق هي : [ق ، غ ، ن ، (غ)] وهي تقرأ هكذا : نسبة القضية المعنية إلى سياقها في حالي الاثبات والنفي .

٧ – إن ما لا يستطيع الإنسان أن يتحدث عنه ، ينبغي أن يصمت عنه .

كما تتكون أيضاً من عبارات فرعية أخرى رقمها بأعداد عشرية مثل ٤,٥٢١,١ تكون شرحاً للقضايا الأساسية السابقة أو تعليقا عليها ، فتكون العبارة رقم ١,١ مثلاً تعليقا على العبارة رقم ١ كما

٦ - براند بلانشارد الذي ذهب في كتابه « العقل والتحليل » إلى أن منطق فنتجنشتين في الرسالة قد بلغ حداً من الصعوبة أن كان منطق هيرجل إلى جانبه شيئاً واضحاً مفهوماً .

والواقع أن من يقرأ رسالة فنتجنشتين يصطدم لأول وهلة بهذه الصعوبة أو بهذا الغموض ويصبح حاله كحال بقشر الذي يقول في مقدمة كتابه « فلسفة فنتجنشتين » إن الرسالة كتاب صعب في عباراته عبارة عبارة ، وغالباً ما يشعر الإنسان أثناء قراءته إياها لأول مرة بأنه قد فشل في فهم ما قد قيل في كل عبارة على حدة . إلا أن فنتجنشتين لم يكن يعتمد الصعوبة أو الغموض في رسالته ، بل كان يرمى دائماً إلى الوضوح بقدر الإمكان ، حتى إنه جعل من الوضوح الكامل شرطاً أساسياً للفلسف ، وجعل وظيفة الفلسفة مقصورة على مجرد توضيح القضايا والعبارات بتحليلها تحليلًا منطقيًا يكشف عما إذا كانت ذات معنى أو لم تكن . ولقد عبر فنتجنشتين عن هذا المعنى في أكثر من موضع من رسالته ، وخاصة في العبارة رقم ١١٦ التي نقول « إن كل ما يمكن التفكير فيه على الإطلاق يمكن التفكير فيه بوضوح ، وكل ما يمكن قوله ، يمكن قوله بوضوح » .

ونحن لو تخيلنا عن محاولة فهم كل عبارة من العبارات الأساسية في الرسالة على حدة ، لوجدناها أشبه ما تكون بالكل المترابط ولأضحت أماننا خطأ فكرياً متصلاً يبدأ من العبارة رقم ١ وينتهي بالعبارة رقم ٧ ماراً بالعبارات الفرعية المتوسطة التي تزيده ليضاحاً وغنى وثراء . فهو يتكلم في العبارة الأولى عن العالم وتحليله ، ثم يتناول الوحدات النهائية التي ينحل إليها العالم . وهي الوقائع الذرية في العبارة الثانية ، ثم يربط بين الفكر وبين هذه الوقائع الذرية في العبارة الثالثة ، ثم بين الفكر واللغة في العبارة الرابعة ، وبالتالي بين اللغة وبين العالم فيكون الفكر هو القضية ذات

المنطقية الفلسفية « إن عبارات هذه الرسالة تنقسم إلى أربعة أنواع هي :

أولاً : عبارات اعتقد أنني أفهمها وأظن أنها عبارات هامة ، وهي بالطبع أحسن أجزاء الرسالة .
ثانياً : عبارات اعتقد أنني أفهمها ، وإن كنت أظن أنها عبارات مفضلة ، ولذا فإن قيمتها تكون نالية لقيمة العبارات الأولى .
ثالثاً : عبارات لم أفهمها ولذا فلأنني لا أستطيع تحديد قيمتها .

رابعاً : عبارات تبدو من ناحية مما يمكن فهمه إلا أنها تبدو من ناحية أخرى تعطينا انطباعاً غامضاً غير محدد ، ولذا فهي ليست مما يتعذر قبوله أو رفضه .
٢ - ماكسويل تشارلزورث الذي يذهب في كتابه « الفلسفة والتحليل اللغوي » إلى أنه لا يوجد شيء في تاريخ الفاسفة كله يمكن أن يساعدنا على فهم الرسالة ، فهي مكتوبة على شكل سلسلة من الأقوال الفلسفية المفككة الغامضة .

٣ - فرانك رامزي الذي يذهب في كتابه « أسس الرياضيات » إلى أن الرسالة كتاب يصعب فهمه إلى أقصى حد .

٤ - أنسكوم التي ذكرت في كتابها « مقدمة لرسالة فنتجنشتين » إن الأفكار في كتاب فنتجنشتين كانت مضغوطة جداً حتى أصبح من الضروري أن يتوقف الإنسان عند كل كلمة لينظر في معناها حتى يمكنه أن يفهم عباراته الأمر الذي جعل باتون Paton يذهب في التمهيد الذي صدر به كتاب أنسكوم إلى القول بأن الكتاب يتطلب مجهوداً كبيراً من القارئ حتى يستطيع أن يفهمه .

٥ - ماكس بلاك الذي يقول في مقدمة كتابه عن رسالة فنتجنشتين أننا لانكاد نجد عملاً فلسفياً من الصعب فهمه والسيطرة عليه كما هو الحال بالنسبة لرسالة فنتجنشتين .

فالفلسفة ليست نظرية من النظريات ، بل هي فاعلية . ولذا يتكون العمل الفلسفى أساساً من توضيحات ، ولا تكون نتيجة الفلسفة عدداً من القضايا الفلسفية إنما هي توضيح للقضايا . فالفلسفة يجب أن تعمل على توضيح وتحديد الأفكار بكل دقة ، وإلا ظلت تلك الأفكار معتمة ومبهمة . إذا جاز لنا هذا الوصف .

والتحليل عند فتنجشتين هو السمة البارزة في فلسفته ، بل إن بعض مؤرخي الفلسفة المعاصرة - مثل ماكويل - يذهبون إلى أننا نستطيع أن نتكلم لأول مرة بطريقة صحيحة عن وجود فلسفة للتحليل حينما نتكلم عن فلسفة فتنجشتين .

وهو يستخدم التحليل كمنهج في الفلسفة لا كفاية فلسفية ، فهو لا يستهدفه مجرد تقسيم العالم إلى عدد من الوقائع ، أو لرد اللغة إلى عدة قضايا ، إنما يستخدمه كى يوصله إلى غاية أبعد من ذلك ، هي توضيح المشكلات الفلسفية - وخاصة الميتافيزيقية - التى إذا حللناها زال عنها كل غموض ، واتضح أنها مشكلات زائفة ، أو أنها ليست بمشكلات أصلاً.

والتحليل عند فتنجشتين لا يضيف إلى معرفتنا معرفة جديدة ، ولا تنتج عنه مبادئ جديدة ، بل هو مجرد طريقة توضح ما نقوله - لكى نتبين بناء عليها - ما له معنى من كلامنا وما لا معنى له .

ومنهج التحليل عند فتنجشتين كما يتمثل في الرسالة المنطانية الفلسفية ، يعتمد على رد ما هو مركب إلى عناصره الأولى ، أو وحداته الأولية البسيطة التى لا تنحل إلى ما هو أبسط منها . فالعالم عنده بناء على ذلك ينحل إلى وقائع (عبارة رقم ١٠١) ، والوقائع تنحل إلى أشياء أو يسائط (عبارة رقم ٢٠١) ، كما أن اللغة تنحل إلى مجموعة من القضايا الأولية (٤٠٥٢) والقضية الأولية تنحل إلى أسماء (٤٠٢٢) وهكذا .

المعنى . ثم يحلل اللغة في العبارة الخامسة ، منهيًا إلى أن جميع القضايا عبارة عن حالات صدق للوحدات الأولى التى تنحل إليها اللغة وهى القضايا الأولية . ثم يتكلم عن تعميم القضية وكيفية الوصول إلى صورة عامة لكل قضية ذات معنى ، أى تكون حالة صدق لقضايا أولية موضحاً الصورة العامة لدالة الصدق في العبارة السادسة ، ثم يختم رسالته بالعبارة السابعة التى ينصحنا فيها بأن نسكت عن الكلام إذا لم نستطع أن نقول كلاماً يأخذ شكل الصورة العامة لدالة الصدق الواردة في العبارة السادسة التى تعبر عن الصورة العامة للقضايا ذات المعنى .

• • •

فلسفة فتنجشتين في الرسالة :

يمكننا أن نعرض بإيجاز لأهم أفكار فتنجشتين الواردة في رسالته - وخاصة ما يتعلق منها بالفلسفة والمنطق وكانا موضع اهتمامه الرئيسى فيها - من خلال عرضنا لتحليلاته المختلفة ، وذلك على النحو الآتى :-

أولاً : معنى الفلسفة ووظيفتها :

يربط فتنجشتين بين الفلسفة والتحليل ، وهو بذلك يعطى للفلسف بعبارة جديدة غير الأبعاد التى كانت تستخدم في إقامة نسقات فكرية ميتافيزيقية متباسكة . فالفلسفة عنده منهج يتبع وأملوب يصطاع في تناول المشكلات وليس تفكيراً تأملياً مجرداً يهدف إلى إقامة نسقات مثالية ، إنها طريقة لحل مشكلات الفلسفة لا إلى خلق مشكلات جديدة وإضافة صعوبات أخرى في طريق الفكر الإنسانى . إنها تحليل للمشكلات عن طريق تحليل عبارات اللغة التى نصوغ فيها تلك المشكلات وقد عبر فتنجشتين عن ذلك المعنى بقوله في العبارة رقم ١١٢ : إن موضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقى للأفكار .

ثانياً : تحليل العالم :

يبدأ فثجنشتين رسالته المنطقية الفلسفية بالحديث عن العالم في حين أن الغرض الأساسى من فلسفته في هذه الرسالة هو تحليل اللغة ، وبيان كيف يكون سوء فهمنا لمنطقها هو السبب في كثير من مشكلات الفلسفة . وكان الأولى به أن يبدأ بحته باللغة وتحليلها إلا أنه فضل أن يبدأ بتحليل العالم . وأرجح أن يكون مرجع تفضيله هذا إلى أن تحليل اللغة بالطريقة التى ذهب إليها في رسالته يستلزم تحليل العالم أولاً لأن صدق أو كذب القضايا الأولية التى تنحل إليها اللغة إنما يتوقف على مدى مطابقتها ، للواقع الخارجى ، لأن القضية الأولية ليست إلا وصفاً لواقعة من الوقائع التى ينحل إليها العالم .

والعالم عند فثجنشتين ، هو جميع ما هنالك ، (عبار رقم ١) ، فهو يتكون من كل ما هو موجود ، وإن كان وجود هذه الموجودات يتبدى في شكل وقائع لا في شكل أشياء بسيطة منفصلة . ولذا فالعالم عنده هو مجموع الوقائع لا الأشياء ، (١،١) ، أى أن الواقعة هى الوحدة الأولى التى ينتهى إليها تحليل العالم وإن كانت هى نفسها تنحل بدورها إلى أشياء . وهو في هذا يتفق مع رسل الذى يذهب في « فلسفة الذرية المنطقية » إلى أن « العلم الخارجى لا يمكن وصفه وصفاً كاملاً بواسطة مجموعة من الأشياء المفردة ، بل يجب أن نلتحل في اعتبارنا أيضاً هذه الأشياء التى أسميها بالوقائع » ، فالواقعة عند رسل ليست شيئاً جزئياً ، بقدر ما هى مركبة من شىء (أو أكثر) بالإضافة إلى صفاته وعلاقاته .

كما يتفق كذلك مع تشالز بيرس الذى يذهب إلى أن الوجود الخارجى يتعلق أولاً بالوقائع ولا يتعلق بالأشياء إلا من حيث عناصر هذه الوقائع .

ثالثاً : تحليل الوقائع

لا يكاد القارىء لرسالة فثجنشتين يجد تعريفاً محدداً لمعنى الواقعة ، إنما يمكن القول بأنها هى ما تجعل القضية صادقة أو كاذبة . وهو يستخدم كلمة واقعة في رسالته على أكثر من نحو : -

(١) فالواقعة إما مركبة (Tatsache) (fact) تتكون منها وقائع أخرى أبسط منها وإما بسيطة لا تتكون من وقائع أخرى أبسط منها ، ويسمى فثجنشتين بالواقعة الذرية Sachverhalt . والوقائع الذرية هى : -

١ - أبسط ما يمكن أن ينحل إليه الوجود الخارجى فإذا قلت مثلاً « سقراط حكيم » جاء هذا القول معبراً عن واقعة ذرية ، أما إذا قلت « سقراط حكيم وأفلاطون تلميذه جاء قولك معبراً عن واقعة مركبة لا واقعة ذرية بسيطة .

٢ - على من كونها أبسط وحدات ينتهى إليها تحليلنا للعالم ، إلا أنها هى في حد ذاتها مما يمكن تحليله . وليس في هذا تناقض ، فالواقعة الذرية بسيطة من حيث أنها أبسط مستوى من الوقائع يمكن أن ينتهى إليه تحليلنا للعالم ، وهى مركبة بمعنى أنها تتكون من أشياء أو عناصر بسيطة . وهذا ما يفسر لنا قول فثجنشتين « إن العالم مجموع الوقائع لا الأشياء » (عبارة رقم ١٠١) لأن الأشياء بالنسبة له ليس لها وجود مستقل منفصل عن الوقائع التى تلتحل في تكوينها - « فن جوهر الشىء أن يكون مكوناً ممكناً لواقعة ذرية ما » (٢،١١) - ولذا فالأشياء تتضمن إمكان حملها لأية حالة من حالات الواقع (٢،١٤) - « وكما أننا لا نستطيع تخيل الأشياء المكانية خارج المكان ، ولا الأشياء الزمانية خارج الزمان ، فكذلك لا نستطيع أن نتخيل شيئاً ما معزولاً عن إمكان ارتباطه بأشياء أخرى (٢،١٢١) وعلى ذلك

فالشئ في ذاته ليس له وجود منفصل عن الواقعة،
يعنى أن ما له وجود هو الوقائع لا الأشياء ، وإن
كان وجود الوقائع معتمداً على وجود الأشياء .

٣ - أنها مستقل بعضها عن بعض بحيث أننا
« لا نستطيع من وجود أو عدم وجود واقعة ذرية
ما أن نستنتج وجود أو عدم وجود واقعة ذرية
أخرى » (٢٠٦٢) فن وجود واقعة ذرية ولتكن ق
(الكتاب أزرق) مثلاً لا نستطيع أن نستنتج وجود
واقعة أخرى ل (الكتاب على يمين القلم) أو علم
وجود واقعة أخرى مثل م (الكتاب بين القلم
والخبرة) إذ ليست هناك ضرورة منطقية ولا واقعية
تستلزم مثل هذا الاستدلال .

٤ - أنها مكونة من أشياء مرتبطة بعلاقات
معينة وليست مجرد مجموعة من الأشياء ، وفي هذا
الصدد يقول فتنجشتين « ان التركيبية التي قوامها أشياء
هى التي تشكل الواقعة الذرية » (٢٠٢٧٢) « ففى
الواقعة الذرية تتشابه الأشياء أحدها بالآخر كحلاقات
السلسلة » (٢٠٣) « أوهى ترتبط بعضها ببعض على
نحو محدد » (٢٠٣١) والطريقة التي تتشابه بها
الأشياء فى الواقعة الذرية يسميها فتنجشتين ببنية
الواقعة ، أما إمكان ترابط الأشياء على نحو معين ،
أى إمكان قيام هذه البنية فيسميه بصورة الواقعة .
وعلى ذلك فبنية الواقعة تتعلق بالواقعة نفسها ، بينما
صورة الواقعة تتعلق بالأشياء التي تتكون منها هذه
الواقعة وبإمكان ترابط هذه الأشياء على هذا النحو أو
ذاك ، أى فى هذه الواقعة أو تلك .

٦ - هى ليست ثابتة بل متغيرة ، أما الثابت فهي
الأشياء التي تتكون منها الوقائع الذرية ، ويعبر
فتنجشتين عن هذا المعنى بقوله فى العبارة رقم ٢٠٢٧١
« ان الشئ هو الثابت ، وهو الموجود ، أما المتحول
المتغير فهو البناء المركب من أشياء » والتركيبية التي
قوامها أشياء هى التي تشكل الواقعة الذرية . ولتوضيح

ذلك أقول : لو كانت أمامى ثلاثة أشياء أرمز لها
بالرموز ا ، ب ، ج مرتبة على النحو التالى فى
واقعة ذرية (ب بين ا ، ج) فإن هذه الواقعة
يمكن أن تتغير بتغير العلاقة الموجودة بين العناصر التي
تكونها ، فتصبح مثلاً (ا بين ب ، ج) وتكون هذه
واقعة جديدة غير الواقعة الذرية الأولى . وقد تتغير
هذه الواقعة الجديدة فتصبح مثلاً (ج بين ب ، ا)
وهى واقعة تختلف عن الواقعتين السابقتين .. وهكذا
ظالت ا ، ب ، ج ثابتة بينما تغيرت الوقائع بتغير
الروابط التي تربط بين هذه العناصر الثابتة .

(ب) والواقعة أيضاً إما أن تكون موجبة فتشير
إلى ترابط الأشياء على نحو معين فى الواقع الخارجى
كأن أقول (القلم على يمين الكتاب) ويكون القلم
موجوداً بالفعل على يمين الكتاب . وإما أن تكون
سالبة فلا تمثل الطريقة التي توجد بها الأشياء فى
الواقع الخارجى ، وفى هذا الصدد يقول فتنجشتين
ان « وجود الوقائع الذرية أيضاً يسمى بالواقعة الموجبة
وعدم وجودها يسمى بالواقعة السالبة » (عبارة رقم
٢٠٠٦) . ولتوضيح ذلك نفترض أن العالم كله
يحتوى على ثلاثة أشياء هى ا ، ب ، ج نسميها
على التوالى بالرموز التالية : ل ، م ، ن فى هذه
الحالة يمكننا أن نكون القضايا الذرية الآتية :

١ - ل م بحيث تشير إلى الواقعة الذرية المكونة من
ا ، ب ولنرمز لها بالرمز ق .

٢ - م ن بحيث تشير إلى الواقعة الذرية المكونة من
ب ، ج ولنرمز لها بالرمز ق م .

٣ - ل ن بحيث تشير إلى الواقعة الذرية المكونة من
ا ، ج ولنرمز لها بالرمز ق م .

ولنفرض أن القضيبين الأوليتين ل م ، م ن
فقط صادقتان ، أما القضية الأخيرة (ل ن) فهي
كاذبة . فى هذه الحالة سيكون العالم مكوناً من

واقعتين ذريتين فقط هما ق₁ ، ق₂ بحيث يعبر اتصالهما معاً عن كل الصدق الموجود في العالم .

لكن قد يكون هناك من يعترض على ذلك القول بأننا أحملنا في حديثنا عن العالم شيئاً آخر بالإضافة إلى ق₁ ، ق₂ هو عدم وجود الواقعة المكونة من ١ ، ٢ . في هذه الحالة يمكن القول بأن العالم مكون من ثلاث وقائع هي : ق₁ ، ق₂ ، لا ق₃ . وسنحتاج بالتالي إلى قضية سالبة لا موجبة لكي نعبر بها عن لا ق₃ أو عن عدم وجود ق₃ . ولكن لكي يكون قولنا هذا صحيحاً ، لا بد - بناء على رأي فتجنشتين - أن يكون هناك في الواقع الخارجي ما يجعل هذه القضايا صادقة ، لأنه إذا كانت القضية الأولية صادقة ، كانت الواقعة موجودة ، وإذا كانت كاذبة ، كانت غير موجودة . (عبارة رقم ٤,٢٥) ، وهو شرط متوفر بالنسبة للقضيتين الأوليتين (ل م) ، م ن اللتين تعبران عن الواقعتين ق₁ ، ق₂ على التوالي ، لكنه لا ينطبق على القضية الثالثة لا (١ -) التي عبرنا عما تشير إليه بالرمز لا ق₃ . إلا أن الرمز لا ق₃ لا يعني وجود الواقعة ، أو هو يعني عدم وجود مجموعة مكونة من ١ ، ٢ في الواقع الخارجي .

إذن ما الذي يقابل هذه القضية السالبة في الواقع الخارجي ؟ يقابلها عدم اتصال ١ ، ٢ في مجموعة واحدة أو واقعة ذرية معينة ، وعلى ذلك فإن صدق لاق ٣ يرجع إلى انفصال ١ عن ٢ أو عدم وجود واقعة مكونة من ١ ، ٢ في العالم .

رابعاً : تحليل اللغة :

كان تحليل اللغة هو المهدف الأساسي من فلسفة فتجنشتين بصفة عامة ، وفي رسالته المنطقية الفلسفية على وجه الخصوص ، وقد عبر فتجنشتين عن هذا المعنى في أكثر من موضع من رسالته . وهو حين يحلل اللغة ينتهي إلى أن أبسط وحدة تصل إليها هي

القضية لا الاسم ، كما كان الحال في تحليله للعالم حين انتهى إلى الوقائع لا إلى الأشياء . « فاللغة هي مجموع القضايا » (عبارة رقم ٤,١٠١) كما أن العالم هو مجموع الوقائع لا الأشياء .

هذا ويمكننا تصنيف القضايا عند فتجنشتين طبقاً لتحليلاته المختلفة في الرسالة على النحو الآتي :

١ - من حيث الصدق أو الكذب - وهي عنده ثلاثة أنواع :

١ - قضايا صادقة بالضرورة ، أي صادقة في جميع الظروف الممكنة ولا يمكن تصورهما على أنها كاذبة على الإطلاق ، ويسمى فتجنشتين بقضايا تحصيل الحاصل Antology ويمثل لها بالقضايا المنطقية والقضايا الرياضية ، مثل قضايا الذاتية (١ ، ٢ ، ٣) ، والقضية الرياضية (٢ + ٢ = ٤) . وهي في نظره لا تقول شيئاً فاني لا أعرف مثلاً أي شيء عن حالة الطقس حين أعرف أن السماء إما أن تمطر أولاً تمطر ، (عبارة رقم ٤,٤٦١) ..

٢ - قضايا كاذبة بالضرورة ، أي كاذبة في جميع الظروف الممكنة ، ولا يمكن تصورهما على أنها صادقة على الإطلاق ، ويسمى فتجنشتين بقضايا التناقض مثل (١ لا ١) أو (١ هي ب ولا ب) .

٣ - قضايا يمكن تصورهما على أنها صادقة ، كما يمكن تصورهما على أنها كاذبة ويكون حكمنا في هذه الحالة على مدى صدق القضية أو كذبها بناء على مقارنتها بالوجود الخارجي الذي تصوره ، وهي القضايا التجريبية أو قضايا العلوم .

ب - من حيث المعنى .. وهي عند فتجنشتين على نوعين هما :

١ - قضايا لها معنى لأنها تقول شيئاً مثل القضايا

التجريبية أو العلمية التي تتحدث عن الوجود الخارجى فتجيب رسماً له سواء كان هذا الرسم مطابقاً للواقع فتكون القضية صادقة ، أو غير مطابق للنمو الذى يوجد عليه الواقع فتكون كاذبة .

٢ - قضايا خالية من المعنى لأنها لا تقول شيئاً بحكم تركيبها مثل قضايا الرياضة وقضايا المنطق وكذا قضايا الميتافيزيقا .

فقضايا المنطق تحصيلات حاصل ولذا فهى قضايا تحليلية لا تجربنا خبراً جديداً عن الواقع الخارجى وهذا ما يفسر السبب فى « علم إمكان إثباتها تجريبياً بأكثر من رفضها تجريبياً ، إذ لا يكفى فى قضية المنطق استحالة أن تنقضها أية خبرة ممكنة ، بل لابد لها كذلك من استحالة أن تؤيدها أية خبرة ممكنة » (العبارة رقم ١٢٢٢) .

وقضايا الرياضيات أيضاً تحصيلات حاصل طالما أن « الرياضيات هى إحدى طرق المنطق » عبارة رقم ٦٢ عند فتنجشتين . ولذا فصدق أو كذب القضية التحليلية رياضية كانت أو منطقية لا يتوقف على مدى مطابقتها للواقع الخارجى لتتحقق مما إذا كانت تصوره أم لا ، بل يتوقف على مدى اتساق القضية نفسها بحيث لا تبطل متناقضة بذاتها ، كما هو الحال فى القضية الرياضية التى هى عبارة عن معادلة ، والتى يكون صدقها موجوداً فى القضية نفسها لا بمقارنتها بالوجود الخارجى . فإذا كان هناك تعبران يرتبط أحدهما بالآخر بعلاقة التساوى ، مثل $٦ + ٤ = ١٠$ ، فإن ذلك يعنى إمكان استبدال أحدهما بالآخر ويلزم أن يكون ذلك بارزاً فى التعبيرين معاً على حد سواء ، عبارة رقم ٦٢٢ أى واضحاً فى القضية نفسها .

وهذا ما ينطبق أيضاً عند فتنجشتين على قضايا الفلسفة وخاصة الميتافيزيقا « فعظم القضايا والأسئلة التى كتبت عن أمور فلسفية ليست كاذبة ، بل هى

خالية من المعنى ، فلسفاً نستطيع إذن أن نجيب عن أسئلة من هذا القبيل ، وكل ما يسعنا هو أن نقرر عنها أنها خالية من المعنى عبارة رقم ٤٠٣ .

ج - من حيث الكيف .. وهى عنده نوعان هما :

١ - قضايا موجبة - وهى التى تفيد فى رسالة فتنجشتين أن الأشياء الموجودة فى العالم الخارجى قد ترابطت على نحو معين فى واقعة ما ، وهى قد تكون صادقة إذا جاء ما تفيد به القضية رسماً صادقاً للواقع الخارجى وإلا كانت كاذبة .

٢ - قضايا سالبة - وهى التى تفيد فى فلسفة فتنجشتين أن الأشياء الموجودة فى العالم الخارجى ليست مترابطة على نحو معين مثل « (لا ع) ب » وهى أيضاً قد تكون صادقة أو كاذبة بقدر تصويرها للواقع الخارجى .

د - من حيث الكم .. وهى عند فتنجشتين على نوعين رئيسيين هما : -

١ - قضايا تصدق كل منها على واقعة واحدة فقط ، كأن أقول « سقراط مفكر » أو « القلم على يمين الكتاب » ، وهى ما يسميها فتنجشتين بالقضية الأولية Elementarsatz ويسمها رسل بالقضية الذرية فى مقابل الواقعة الذرية التى ترسمها هذه القضية .

والقضية الأولية هى الوحدة النهائية التى يرتد إليها تحليلنا للغة ، هى أبسط أنواع الكلام لأنها تعبر عن أبسط أنواع الوحدات التى ينحل إليها الوجود الخارجى وهى الوقائع الذرية . وكما أن الواقعة الذرية تتكون من أشياء ، فكذلك تتكون القضية الأولية من أسماء تشير إلى هذه الأشياء . وكما أن الأشياء ترتبط فى الواقعة الذرية على نحو أو آخر ، فكذلك ترتبط الأسماء فى القضية الأولية على هذا النحو أو ذاك بحيث تيجي رسماً صادقاً أو كاذباً لما هو موجود فى الواقع ،

والقضية الأولية لا ترسم الواقعة الذرية فقط عند فتجنشتين ، بل لأنها تثبت وجودها أيضاً ، وهو في هذا الصدد يقول « إن أبسط قضية ، أى القضية الأولية ، تثبت وجود واقعة ذرية ما » عبارة رقم ٤,٢١ . فاذا قلت « ا على عين ب » فهذا يعنى أن الوجود الخارجى موجود على النحو الذى أوضحته . وهو كون ا على عين ب بالفعل — إذا كانت القضية صادقة . وهذه الفكرة عند فتجنشتين هى ما تسمى باسم النظرية التصويرية للغة ، تلك النظرية التى لزم عنها قوله بفكرة تحقيق القضية — وهى الفكرة المعروفة فى الفلسفة الوضعية بمبدأ التحقق — على الرغم من أنه لا يكاد يستخدم كلمة تحقق verification فى فلسفته ، بل نجده يستخدم كلمة مقارنة فيقول فى العبارة رقم ٢,٢٢٣ « لكى نكشف عما إذا كان الرسم صادقا أو كاذبا يلزم أن نقارنه بالوجود الخارجى » ، كما يقول فى العبارة رقم ٤,١٥ « أن الوجود يقارن بالقضية » .

كما ترتب أيضاً على قول فتجنشتين بتحقيق القضية بمقارنتها بالواقع الخارجى ، نتيجة على جانب كبير من الأهمية فى فلسفته وهى القول بالأنا وحيدة (أو الأنانية Solipsism) أو بالثنائية الذاتية المتطرفة . إذ أن مقارنة الوجود بالقضية تم حين تكون الواقعة حاضرة فى خبرة الشخص الذى يعتقد هذه المقارنة حتى يمكنه معرفة ما إذا كان هناك تطابق بينهما أم لا . ولما كانت الخبرة شيئاً خاصاً بالضرورة ، شيئاً شخصياً أو ذاتياً ، لزم عن ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يعرف شيئاً على أنه موجود باستثناء ما يقع فى خبرته هو ، الأمر الذى يجعل معنى العالم مقصوراً على ما يدركه الإنسان ويستطيع أن يعبر عنه باللغة . كما يضيف من مفهوم اللغة ذات المعنى فتصبح محدودة بما يقوله الإنسان من قضايا تعبر عما يقع فى خبرته هو . وقد عبر فتجنشتين عن هذه النتيجة بقوله « إن معنى أن العالم هو عالمى ، يتبدى فى الحقيقة

القائلة بأن حدود اللغة (اللغة التى أفهمها) تعنى حدود عالمى » (عبارة رقم ٥,٦٢) وهو بهذا يقترب إلى حد كبير من مثالية بركلى الذاتية المتمثلة فى عبارته المشهورة « الوجود هو الإدراك » ، وإن كان قد حاول التخلي عن هذه الفكرة فى فلسفته المتأخرة بعد ذلك .

والقضايا الأولية مستقلة منفصلة كل واحدة منها عن الأخرى ، شأنها شأن الوقائع الذرية التى ترسمها : فلا تتضمن أية واحدة منها واحدة أخرى ولا تتناقض معها لأن كل استدلال منطقى يتعلق عند فتجنشتين بالقضايا غير الأولية ، « فلا يمكن استدلال أية قضية أولية من قضية أولية أخرى » (عبارة رقم ٥,١٣٤) ، فاذا قلت مثلاً « سقراط حكيم » فإن صدق هذا القول لا يستلزم صدق أو كذب القول بأن « سقراط أثينى » . أو بالعكس والقضايا الأولية تتصف كذلك بصفة بالغة الأهمية بالنسبة لمنطق فتجنشتين ، وهى أنها أسس صدق للقضايا « بمعنى أن القضايا الأولية هى التى تخلع الصدق على القضايا » (عبارة رقم ٥,١٠) طالما أن « القضايا هى كل شيء » ينتج عن القضايا الأولية « (عبارة رقم ٤,٥٢) بناء على اتخاذ إجراء معين إزاء إحدى القضايا الأولية . ويمثل فتجنشتين لهذه الإجراءات بالنهى والجمع المنطقى والضرب المنطقى والتعميم ... مثل (لاق) التى تنتج عن القضية الأولية (ق) بتطبيق لإجراء النفى .

٢ - قضايا لا تصدق كل منها على واقعة واحدة بل أكثر ، ولذا فهى ليست قضايا بالمعنى الحقيقى عنده بقدر ما هى دالات صدق للقضايا الأولية . وفتجنشتين يستخدم كلمة دالة function بالمعنى الذى تستخدم به فى الرياضيات ، فاذا كانت ص = ٢ من ٥ + ، مثلاً ، كانت ص هى دالة ص بمعنى أن قيمته هى التى تحدد قيمة ص ، وأن قيمة ص تتوقف على قيمة ص ،

فلو كانت قيمة س هي ٣ في المثال السابق ، كانت ص = ١١ . وهذا هو نفس المعنى الذي يذهب إليه فتجنشتين حين يقول إن جميع القضايا عبارة عن دالات صدق للقضايا الأولية ، بمعنى أن صدق هذه القضايا أو كذبها يتوقف على صدق أو كذب القضايا الأولية . فإذا كانت كل من ق ، ل قضية أولية ، كانت العبارة (ق ، ل) وكذا العبارة (إما ق أو ل) مثلاً دالة صدق لكل من القضيتين الأوليين ق ، ل بمعنى أن صدق أو كذب أى من العبارتين يتوقف على صدق أو كذب ق وكذا على صدق أو كذب ل . ومثل هذا النوع من القضايا (أو بالأحرى دالات الصدق تبعاً لنظرية فتجنشتين) ينقسم بدوره إلى نوعين في « الرسالة » هما :

(١) قضايا مركبة :- وتحدث عما هو مركب من واقعيتين أو أكثر ، ولذا فهي تتكون من أكثر من قضية أولية واحدة . مثل قولي « سقراط حكيم وأفلاطون تلميذه » الذي يتكون من قضيتين أوليين هما « سقراط حكيم » و « أفلاطون تلميذ سقراط » [أو قولي « القلم على يمين الكتاب وهو قلبي » وهو قول يتكون من قضيتين أوليين هما : « القلم على يمين الكتاب » و « القلم قلبي » .

والقضايا المركبة ليست إلا دالات صدق للقضايا الأولية التي تتركب منها عند فتجنشتين ، بمعنى أن صدقها أو كذبها إنما يتوقف على صدق أو كذب هذه القضايا الأولية :

ب - قضايا عامة (كلية) مثل قولي « الإنسان

مفكر » ، وهو قول لا يشير إلى فرد أو جزئية واحدة [بل يتكلم عن صفة تصف بها أو خبر نخبر به عن أى فرد أو جزئية يمكن أن يتدرج تحت فئة معينها] هي موضوع الحديث . ومثل هذه القضايا ليست بالقضايا الأولية لأنها لا تشير إلى واقعة فردية واحدة ،

بل هي دالات صدق لقضايا أولية أجرينا عليها لإجراء التعميم بحيث يتوقف صدقها أو كذبها على صدق أو كذب القضايا الأولية التي عممتها : فإذا كانت لدى قضية أولية مثل « سقراط عاقل » وأجريت عليها إجراء التعميم فوضعت اسماً متغيراً (إنسان) بدلا من الاسم الثابت (سقراط) لحصلت على القضية الكلية التالية « الإنسان عاقل » وهي عند فتجنشتين مجرد دالة قضية وليست بالقضية ، لأن صدقها أو كذبها يتوقف على صدق أو كذب القضايا الأولية التي تتكون من أسماء مثل سقراط ، محمد ، هي كل قيم متغير القضية الكلية (أى الإنسان) :

• • •

موضع الرسالة في فلسفة فتجنشتين :

تعتبر الرسالة تعبيراً صادقاً عن فلسفة فتجنشتين في المرحلة الأولى من مراحل تفكيره الفلسفي ، وكان يعتقد - وقت كتابته إياها - أنه قد توصل بها إلى حل جميع مشكلات الفلسفة فراه يقول في مقدمة الرسالة ان الأفكار التي سبقت هنا يستحيل الشك في صدقها ، أو هي أفكار مقطوع بصدقها ، ولذا فأنني أعتقد أن ما هو أساس في مشكلات الفلسفة قد تم حله نهائياً : إلا أنه بدأ يراجع أفكاره مرة أخرى بعد أن تبين فيها بعض الأخطاء ، نتيجة لمناقشاته مع بعض أعضاء جماعة فينا مثل شليك وفايزمان ، فضلاً عن نقد بيرو سرافا Sraffa وفرانك رافري الذي يعطى له فتجنشتين أهمية كبرى في مقدمة كتابه « أبحاث فلسفية » .

ومما لاشك فيه أن أهم نقد وجه إلى رسالة فتجنشتين كان منصباً على الفكرة الرئيسية التي تدور حولها رسالته ، وهي معرفة حدود اللغة حتى لا نتكلم فيما لا يمكن الكلام فيه ولا نقول إلا ما يمكن أن يقال . ولما كان كل ما يمكن قوله عند فتجنشتين

٢- وإما ألا نعتقد في صحة هذه العبارات ،
وفي هذه الحالة لا نستطيع أن نحكم على القضايا
الواردة في الرسالة بأنها خالية من المعنى .

بمعنى آخر أننا نجد حوراً في هذا النقد ، لأن
المعيار الذي أحكم بناء عليه بخلو قضايا الرسالة من
المعنى ، هو نفسه أحد أجزاء الرسالة ، فهو أيضاً
خال من المعنى وبالتالي لا يصلح لأن يكون معياراً
استخدمه في الحكم على غيره طالما أنه هو نفسه لا يفيد
أى معنى .

والرأى عندى أن فتجنشتين حين قال إن عباراته
الواردة في الرسالة على الرغم من أنها خالية من المعنى
إلا أنها تعتبر لغوا له أهمية ، كان يفيد نفس المعنى
الذى ذكره من قبل عن تحصيل الحاصل ، وعن معنى
الصفير في الرياضة : فعلى الرغم من أن قضايا تحصيل
الحاصل والتناقض لا تفيد شيئاً ولا معنى لها عند
فتجنشتين ، إلا أنها ليست خالية تماماً من المعنى «إنها
جزء من الجهاز الرمزي ، على نفس النحو الذى
يكون فيه «الصفير» جزءاً من الجهاز الرمزي الخاص
بالحساب» (عبارة رقم ٤٠٤٦١١) . وكأن فتجنشتين
كان يريد القول بأننا كما نستخدم الصفير في الجهاز
الرمزي الخاص بالحساب على الرغم من أنه لا يشير
إلى فئة معينة من الأشياء ولا يعتبر متغيراً شأنه شأن
بقية الأعداد الأخرى ، وكما أننا نستخدم تحصيل
الحاصل وكذا التناقض في الجهاز الرمزي الخاص
بالقضايا وإمكانات الصدق ، فكذلك نحن نستخدم
قضايا الفلسفة لكي نرفع فوقها ونجاوزها على الرغم
من أنها في نظره خالية من المعنى .

وعلى العموم ، فقد بدأ فتجنشتين يراجع أفكاره
الفلسفية الواردة في «الرسالة» فيما بعد ومن بينها
أفكاره عن اللغو والخلو من المعنى وكذا فكرته عن
الدرية المنطقية ، ونظريته التصويرية للغة ، وفكرته

هى قضايا العلم الطبيعى التى تتناول العالم الخارجى ،
كانت قضايا الفلسفة والميتافيزيقا بوجه خاص خالية
من المعنى ، وكانت قضاياها الواردة في الرسالة نفسها
مجرد لغو لا معنى له . ولقد كان فتجنشتين نفسه
واعياً بذلك الموقف لكنه كان يحاول تبريره . فيذهب
إلى أنها قضايا ذات فائدة على الرغم من خلوها من المعنى
لأنها تكون في نظره أشبه بالدرجات التى يستخدمها
الإنسان في الصفود إلى أعلى فيتجاوزها ، ثم يلقى
بالسلم بعيداً بعد أن يكون قد حقق وظيفته فيقول
في هذا الصدد : إن قضاياى توضح الموقف على النحو
التالى : إن من يفهمنى سيعلم آخر الأمر أن قضاياى
كانت بغير معنى وذلك بعد أن يكون قد استخدمها
(سلياً) في الصفود ، أى صعد عليها ليجاوزها .
(عبارة رقم ٦٠٥٤) :

إلا أن هذا التبرير الذى فسر به فتجنشتين
موقفه من قضاياها الفلسفية لم يكن تبريراً مريحاً لدى
الكثيرين مثل كارناب ورسل وكورنفورث وغيرهم .
لكننا إذا ما ناقشنا هذه الفكرة ، فربما يتبين لنا أن
نقدر رسالة فتجنشتين على هذا النحو وهو كذلك
بحاج إلى تبرير ، لأننا إذا ما اعتبرنا أن قضايا الرسالة
مجرد لغو ، فسنكون قد توصلنا إلى هذا الحكم
اعتماداً على بعض عبارات الرسالة نفسها - مثل
العبارة رقم ٤٠١٠٣ ورقم ٦٠٥٢٢ ورقم ٦٠٥٣ التى
تفيد أن قضايا الفلسفة والميتافيزيقا خالية من المعنى :

ونحن في هذه الحالة : - ١- إما أن نعتقد في
صحة هذه العبارات . وبالتالي يكون لها معنى . ومن ثم
فاننا نحكم على الرسالة بأنها خالية من المعنى أو مجرد
لغو . لكن هذه العبارات هى بعض عبارات الرسالة
نفسها ، فهى بالتالى خالية من المعنى شأنها شأن بقية
عبارات الرسالة ، وعلى ذلك فهى ذات معنى ، وهى
خالية من المعنى في الوقت نفسه وهذا تناقض .

عن طبيعة المعنى وفكرته عن الأنا وحدية . . . وغير ذلك .

فهو مثلا يتخلى عن فكرته التي افترض بها «رسالته» من أن العالم ينحل إلى وقائع ذرية تتكون من أشياء أو من بسائط منطقية . . إذ أن السبب الأساسى الذى دعا فتجنشتين إلى القول بتحليل العالم إلى وقائع ، كان هو ضرورة وجود وحدات أولية ينحل إليها العالم ، لكي تقابل الوحدات الأولية التي تنحل إليها اللغة — أى أن تحليله للعالم على هذا النحو جاء تبريراً لتحليله للغة إلى مجموعة من القضايا الأولية .

ولما غير فتجنشتين من وجهة نظره بتحليل اللغة في فلسفته المتأخرة (التي تتمثل في كتابه « أبحاث فلسفية تخلى بالتالى عن فكرته السابقة في تحليل العالم .

• • •

وأخير لم يكن فتجنشتين مهماً بالنتائج الفلسفية التي يتوصل إليها بقدر اهتمامه بالمنهج الجديد الذى يجب اتباعه في الفلسفة وهو المنهج التحليلي . ولقد تركت هذه الفكرة في كثير من الفلاسفة المعاصرين أثراً بالغاً ، فضلاً عن تأثير أفكاره الفلسفية ذاتها في فلسفة الوضعية المنطقية وفلسفة التحليل اللغوى .

فلقد تأثر برتراند رسل بأفكار تلميذه فتجنشتين المتعلقة بالنظرية المنطقية فزاه يقول في مقدمة مقالته عن « فلسفة اللرية المنطقية » التي نشرت عام ١٩١٨ « انه معنى إلى حد كبير بشرح الأفكار التي تعلمها من صديقه وتلميذه السابق لدفيج فتجنشتين » .

كما كان تأثير فتجنشتين في رودلف كارناب أشد وضوحاً وخاصة فيما يتعلق بفكرته عن خلو قضايا الميتافيزيقا من المعنى ، وليس أدل على ذلك من أن كارناب خصص لهذا المعنى مقالا بعنوان « حذف الميتافيزيقا باستخدام التحليل المنطقي للغة » وهي نفس الفكرة التي دعا إليها أيضاً في مقاله « المنطق القديم والمنطق الحديث » . فضلاً عن تأثيره في آير Ayer وخاصة فكرته عن تحقيق القضية وارتباط معناها بمدى مطابقتها للواقع . وكذا فكرته عن خلو قضايا الميتافيزيقا من المعنى ، تلك الفكرة التي نجد صدها دائماً عند كل فلاسفة التحليل اللغوى المعاصرين مثل جلبرت رايل الذي يذهب في مقال له بعنوان « تعبيرات مضللة » الى أن العبارات الميتافيزيقية من هذا النوع لأنها في حقيقتها خالية من المعنى . وهي نفس الفكرة تقريباً التي نجدها عند فايزمان وويزوم وغيرهما .



فن الحب لأوفيدوس

بسم
الدكتور محمد عبد الرحيم البوزيد

كلية الآداب - جامعة القاهرة

وقد ظهر شعراء الإليجي منذ سنة ٧٠٠ ق م ، ويمكننا أن نعرف الموضوعات المختلفة التي طرقتها الشعراء اليونان الأوائل مثل الأغنيات التي كان يتغنى بها وقت الشرب والموضوعات الحماسية التي تدور حول الحرب والسياسة والقصص المأخوذة من واقع الحياة أو من وضع الخيال والنقوش المسطورة على المقابر والمراثيات . وقد جعل شعراء الإسكندرية لهذا النوع من الشعر صورة أدبية مميزة وابتعدوا به عن أغراضه السابقة وأضافوا إليه صورة حية من عندهم فكان « كاليماخوس » شاعر الإسكندرية أكبر داع للقصيدة الشعرية القصيرة وسيد الشعر الإليجي بعد كتابته لقصيدته المعروفة « الأسباب » Aitia ، كما كتب أشعاراً عن الحب مثل قصيدته « خصلة بيرليكيس » التي كتب عنها الشاعر الروماني كاتوللوس . وقد تأثر أيضاً بكتاب غير كاتوللوس بشعراء الإسكندرية فكتبوا عن الحب بالشعر الإليجي .

ولكن الرومان - وليس كاليماخوس - هم أول من ابتكروا شعراً إليجياً لا يتحدثون فيه عن قصص الحب عامة بل يعبرون عن تجاربهم العاطفية الذاتية : كما نجد في كاتوللوس الذي أحب لسيا Lesbia

كان « أوفيدوس » Ovidius شاعراً مثقفاً حمل إليناً ثقافته الواسعة سواء تلك التي أخذها عن اليونان وبخاصة شعراء الإسكندرية أو تلك التي استقها من الرومان الذين سبقوه أو عاصروه . وأعطى أوفيدوس للوزن الإليجي باتقانه وسيطرته عليه صورته النهائية واستخدمه في مجال أوسع فكتب به في الحب ، وفي بخالج المرأة من نزعات ، وفي الشعر التعليمي ، وفي الذم وفي الأحزان . ووجد أوفيدوس آذاناً صاغية من العالم الأوربي الذي استجاب لكتاباته أكثر من استجابته لأي كاتب روماني آخر .

أما عن الحب فقد كتب شاعرنا كتباً كثيرة منها كتاب في « الغزليات » Amores وآخر في « رسائل البطلات » Heroides وثالث عن « طلاء وجه المرأة » Medicamina Faciei ورابع عن « فن الحب » Ars Amatoria وخامس عن « الشفاء من الحب » Remedia Amores .

وكانت هذه الكتب جميعاً بالشعر الإليجي الذي يقوم على بيتين من الشعر ، الأول بالوزن السداسي ، والثاني بالوزن الخامس . ومن الصعب تحديد موضوع هذا اللون من الشعر عند اليونان والرومان .

وجالوس الذي أحب « ليكوريس » Lycoris
وتيبولوس الذي أحب ديليا Delia وپروپرتيوس الذي
أحب « كينثيا » Cynthia وأخيراً أوفيدوس الذي
كان يحب « كورينا » .

فكان الشعر الإليجي هو أقوى أنواع الشعر
المصادر عن ذاتية الشاعر . وبالرغم من أن الغموض
يكتنف أصل هذا النوع من الشعر وقطوره عند الرومان
فإن كاتولوس قد خطا في ميدانه خطوة هامة أصبح
لها تأثير كبير على من أتى من بعده من شعراء الرومان
ومن ثم على الأدب في العالم . فقد أصبح الحب أهم
موضوع للشعر الإليجي .

والشعراء الذين ينتظرون من الشاعر أن يلزم
بتعاليم أخلاقية قد يجدون في أوفيدوس شاعراً
مستهزئاً . ولكن علينا أن نلاحظ أنه كان طبيعياً في
تفكيره ومصطلحاته ، وأنه كان يكتب للتسلية التي
هي من أهداف الأدب . وقد كان الحب موضوع
حديث من سبقوه منذ كتابة « الملاحم » حتى « الدراما » .
فلم يكن في كتابات « أوفيدوس » ما يثير الشهوات
أو ما يناق الأخلاق . حقاً إنه كان يكتب عن الحب
ولكنه كان يكتب عن تجربة في أمر خطير في عالمنا
وهو جنس النساء ولم يظهر أي شاعر روماني معرفة
عميقة بهذا الموضوع أكثر منه ، وكالم يظهر أي
شاعر مقلدة مثله على سرد القصص .

ولد « بوبليوس أوفيدوس ناسو » Publius Ovidius
Naso في ٢٠ مارس سنة ٤٣ ق.م بمدينة « سولمو »
Sulmo التي يطلق عليها الآن اسم « سولمونا »
Sulmona وتبعد نحو تسعين ميلاً شرقي روما . وتقع
في مقاطعة « بايليجني » Paeligni في وسط إيطاليا
ويحدثنا أوفيدوس عن جوها البهيج وجداولها الكثيرة
وكانت أسرته من طبقة الفرسان .

ومعظم معلوماتنا عن حياته مستمدة من مقطوعة
له في كتابه « الأحزان » Tristia (الأحزان —

الكتاب الرابع — المقطوعة العاشرة) بالإضافة إلى
ما يخبرنا « سنكا الأكبر » و « كوينتيليانوس » عن
تعاليمه البلاغية ومميزاته بوصفه شاعراً . اهتم والده
بتربيته وأراد له العمل بوظائف الدواة فأرسله مع
أخيه الذي كان يكبره بسنة إلى روما ليتعلما فن البلاغة
والخطابة حيث درسا على يد « أريديوس فوسكوس »
Arellius Fuscus و « پوركيوس لاترو » Porcius Latro
وقد أظهر أوفيدوس ميلاً إلى الشعر أكثر من ميله إلى
الخطابة . وبعد ذلك ذهب إلى أثينا كغيره من أبناء
الأغنياء إذ كانت أثينا تعتبر جامعة العالم الروماني .
وذهب أيضاً إلى آسيا الصغرى مع صديقه الشاعر
« ماکر » Macer وعند عودته التحق ببعض الوظائف
الصغيرة مثل وظيفة التريومفير كابينتاليس
Triumvir Capitalis ^(١) و« الكنتومفير » Centumvir ^(٢)
ولكنه سرعان ما ترك هذه الوظائف المضمينة التي أرادها له
أبوه واحتشد لكتابة الشعر فقد كانت لديه فطرة قوية
نحو الشعر منذ الصغر وقد شجعه على ذلك كونه
الوارث الوحيد لممتلكات أبيه بعد وفاة أخيه . وطرق
أوفيدوس الحب للحياة السهلة المريحة موضوع الحب
في أشعاره التي كتبها بالوزن الإليجي ، هذا الوزن
أصبح على يديه في صورة جديدة تخالف ما كان عليه
في شعر « پروپرتيوس » و « تيبولوس » فكان هذا
الوزن أكثر صفلاً وصفاء من ذي قبل ، يتناسب في
سرعة وخفة ورونق .

وقد جعله مناسباً للإنتاج السريع ذي التأثير المشيع
دون أن يضمته تعمقاً كبيراً . وهكذا ابتدأ عهد
جديد وشعر الناس بوجوده عندما نشر أوفيدوس

(١) يتكون هذا المنصب من ثلاثة قضاة يفصلون في المنازعات
بين الميبدو الأشخاص من الطبقات الدنيا ويأفرون السجن ويحضرون
موت المجرمين .

(٢) محكمة من مائة شخص يفصلون في القضايا الخاصة بالملكية
والوراثة .

حوالى سنة ١٦ ق. م طبعته الأولى من « الغزليات » Amores وقد كتب كتاباً أخرى فكانت محاولته الثانية فى « رسائل البطلات » وهى مجموعة من الرسائل الأدبية الشعرية ترفع السيدات من الأساطير إلى أزواجهن الغائبين أو محبين . وطرق بعد هذه الرسائل موضوعاً تعليمياً عن زينة المرأة فكتب عن « طلاء الوجه » ، وبعد السنة الأولى الميلادية نشر مؤلفه عن « فن الحب » قصده به أن يعالج الحب كعلم ثم كتب « الشفاء من الحب » عندما أحس أن مؤلفه « فن الحب » لا يروق الامبراطور « أوغسطس » الذى كان يهدف إلى تقويم الأخلاق . ثم تحول إلى موضوع آخر أكثر جدية فجمع عدة قصص من الأساطير تحدث فيها عن تحول شخص أو شيء إلى شكل مغاير وصاغها بليرته على مرد القصص فى إطار مناسب أكسبها نوعاً من الوحدة ، وهذه القصص احتواها كتابه المسمى « التغيرات » Metamorphoses وفى نفس الوقت الذى كان مشغولاً فيه بكتابة التغيرات كان يكتب كتابه عن « التقويم الرومانى » Fasti .

وبينما كان يواصل كتابته لهذا الكتاب حلت به ملمة نغصت عليه حياته إذ كان يعيش فى روما فى هدوء مع زوجته الثانية التى برهنت على إخلاصها وولائها له ويقدره الجميع لمقدرته الأدبية إذ جاءه أمر امبراطورى سنة ٨ ميلادية وهو فى سن الخمسين بالنفى إلى « ترمى » Tomi التى تقع على البحر الأسود كما صودرت جميع كتبه من المكتبات العامة فى العاصمة . وقد كان نفى أوفيدىوس من النوع الذى يطلق عليه « رليجاتيو » Relegatio وهو أبسط أنواع النفى إذ أن المنفى يؤمر بأن يعيش فى بلد معينة خارج إيطاليا بينما يحتفظ بحقوقه كمواطن ولا تصدر أملاكه . ويذكر أوفيدىوس بأن الامبراطور لم يسلبه الحياة أو الغنى أو حق المواطن^(١)

(١) Nec vitam nec opes nec ius mihi civis ademit.

ويقول فى مكان آخر إن جميع ما فعله هو أنه أمرنى بأن أترك وطن آبائى^(٢) . ولكن كان وقع الخبر عليه كالصاعقة فتألم كثيراً إذ كان يجب عليه أن يترك روما بمنشوراتها وجمتمعها الذى أحبه وكذلك زوجته ومنزله وأصدقائه إلى مكان قصى دون روما فى الحضارة والمدنية ويختلف فى اللغة والعادات .

وكان من نتائج تأثره أن أحرق وهو فى طريقه إلى المنفى بعضاً من أشعاره ومن بينها كتاب « التغيرات » الذى لم يتمكن من مراجعته جميعه ولكن لحسن الحظ كانت هناك نسخ منه فى أيدي أصدقائه الذين نشروه . ونحن لا نعرف حتى الآن السبب الحقيقى فى نفى أوفيدىوس . وهو نفسه يخبرنا بأن نفيه يرجع إلى شيئين : « قصيدة » و « غلطة »^(٣) والقصيدة هى « فن الحب » Ars Amatoria تلك القصيدة التى تتنافى مع اصلاحات أوغسطس الاجتماعية بما تحتويه من أشياء مفسدة للأخلاق . ويتضح ذلك مما يذكره أوفيدىوس فى الجزء الثانى من كتاب الأحران^(٤) . ولكن بما أنه قد مضى ما يقرب من عشرين سنين على نشر هذا الكتاب فإنه لا بد وأن يكون السبب المباشر لنفيه هو الغلطة ويذكر أوفيدىوس بأنها غلطة error وليست جريمة (scelus)^(٥) . ولكنه يلوذ بالصمت ولا يفسر أنا طبيعة هذه الغلطة بل يقول إن سبب نفيه سوف

(١) Nil nisi me patriis iussit abire focis.

(٢) كتاب الأحران - الجزء الثانى - سطر ٢٠٧ : duo crimina, carmen et error.

(٣) Carmina fecerunt, ut me moresque notaret iam demum visa Caesar ab arte meos. Trist. 11.7.

« إن قصائدى عانت السبب فى أن قيصر وصنى وأخلاق بالعار بسبب الفن (فن الحب) الذى ظهر لمدة طويلة ضلت » .

كان فن الحب قد نشر فى سنة ٢ ميلادية .

Tristia I. iii. 37

(٤)

بكتاب «رسائل من پونتوس» Epistulae ex Ponto كما كان هناك مقطوعته المعروفة باسم «إيبيس» Ibis وهي قصيدة هجاء ضد شخص أراد أن تصادر أملاكه. وكتب أيضاً قصيدة تعليمية بالوزن السداسي (ذلك الوزن الذي كتب به أيضاً «التغيرات») عن الأسماك والحيوانات البحرية المختلفة في البحر الأسود. كما نسب إليه مقطوعات أخرى مثل المقطوعة المسماة «شجرة عين الجمل» Nux التي يتحدث فيها عن آلام هذه الشجرة التي يذفها المارة بالحجارة دون جريرة ارتكبتها.

كل هذه القصائد ينقصها المرح الذي نشاهده في قصائده الأولى ونجد فيها آلامه وتوسلاته الكثيرة إلى الأباطرة فقد قضى في المنفى ما يقرب من عشرين سنة قضى منها أربعاً تحت حكم الإمبراطور تيبيريوس خليفة أوغسطس ولكنه لم يمنع الإذن بالعودة إلى إيطاليا. وهكذا مات في المنفى كبير القلب سنة ١٨ ميلادية.

أعماله

الغزليات

تحدث أوفيدوس عن محبوبته «كورينا» Corinna ولم تكن كورينا شخصية حقيقية بل كانت من نسج خيال الشاعر. وقد خالف الشاعر بذلك المأثور عن شعر الحب الإليجي. فلقد سبقه من قبل الشاعران «تيبولوس» و«بروبيرتيوس» وكان كل منهما يحب معشوقته حقاً فكان الأول يحب «ديليا» Delia وكان الثاني يحب «كينثيا» Cynthia ولكن معشوقة أوفيدوس لم تكن سوى شخصية خيالية جعلها موضوعاً لتجاربه الذاتية.

ونعتقد أن شاعرنا ربما نحاض من التجارب العاطفية الكثير، وأن تجاربه هذه كانت متنوعة المواقف رغم وحدة الشخصية التي اتخذها موضوعاً

لا يبوح به وسيكون في طي الكتمان^(١). وعلى كل فقد آذت هذه الغلطة الإمبراطور أوغسطس^(٢). ونظراً لأن أوفيدوس يخبرنا بأن عينيه كانتا السبب^(٣). فهذا يدل على أنه كان شاهد عيان لعدو ما أغضب الإمبراطور. فما هو إذن هذا الشيء؟ اختلفت الآراء في كنهه، فمن قائل إنه ربما كانت هناك مؤامرة ضد أوغسطس ولكن كان يجب حينئذ أن يعاقب المتآمرون عقاباً صارماً بدلاً من نفهم مع الاحتفاظ بحقوقهم المدنية. ومن قائل إنه ربما رأى زوجة أوغسطس في الحمام. ومن قائل إنه ربما كان عشيق جوليا (Julia) حبيسة الإمبراطور أو تستر على علاقتها الفاسقة ففي سنة ٨ ميلادية، وهي نفس السنة التي نفى فيها أوفيدوس، نفى الإمبراطور حفيده إذ أن أفهاما الخزية تتعارض مع سياسة أوغسطس لإزاء حماية الأخلاق كما تحمل العار لمنزله فربما رأى أوفيدوس عملاً مشيناً أنه هذه الحفيدة... إلى غير ذلك من الافتراضات.

واستغرقت رحلته من روما إلى «تومي» - تلك التي كان بعضها بجزراً وبعضها الآخر برأ ما يقرب من سنة - وقد كان هذا المنفى أمراً قاسياً بالنسبة لشاعر حساس متحضر كأوفيدوس فقد قامى الكثير من مرارة المنى والمرض وجو تلك البلاد القارس البرد كما كان دائم الشكوى من نقص الكتب والأصدقاء من الأدباء ومن هجوم القبائل المتبربرة المحيطة بالمنطقة التي كان يقطن بها وكان تواقاً للعودة إلى وطنه أو على الأقل إلى منفى آخر ألبق من تومي. كل هذه الآلام والآمال المذكورة في أشعاره التي كتبها في المنفى وأهمها كتاب «الأحزان» Tristia وأتبعه

(١) Tristia. IV. x. 99

(٢) Tristia. II. 133, 209

(٣) Tristia. III. v. 49 : peccatumque oculos est habuisse meum.

«وإن خطي هو أن لي عينان»

لتجاربته . وربما أوحى ذلك لنا بأن «كورينا» كانت خلاصة النساء اللاتي صادقهن الشاعر في حياته فهي حيناً متزوجة ، وحيناً بغير زوج ، وثارة نراها تستدعي الإعجاب وأخرى نراها عارية من الحياء . وهذا يعزز ما نراه من أن كورينا كانت النموذج الذي اتخذهُ الشاعر لكل المواقف العاطفية التي عاناها في حياته رغم تعددها وتباينها بل تناقضها أحياناً :

ويحتوى كتابه عن الغزليات تسعاً وأربعين إليجية تختلف في تنوعها وقوة جيشائها مما كتبه أسلافه في هذا الميدان . وهى توضح لنا ميله الشديد لمغامرات الحب . إنه يقول : «وأخيراً فإن أبة فتاة يعجب بها شخص في أى حى من أحياء روما بتطلع إليها حياً»^(١).

وكتاب الغزليات يشتمل على ثلاثة كتب :

يتحدث في الكتاب الأول عن كيوييد إله الحب وكيف أنه يلزمه بالكتابة عن الحب وأنها أفضل من الكتابة عن الحرب ثم يذكر أنه أسير عند كيوييد . ويتحدث في المقطوعات الأخرى عن إخلاصه لسيدة حقيرة ومحاولته الكلام بلغة تلميحية في حضرة زوج معشوقته . واستعطافه البواب لكى يفتح الباب لمعشوقته : واعتذاره لضرب معشوقته ولعنه للقوادة التى تعلم معشوقته كى تستخدم مفاتيحها للاستمتاع والكسب ، وإخباره معشوقته بأن الحب يجب ألا يدنس ، وشكره لأحد الخدم بعد أن سلم رسالة حب من أجله ورجاؤه الفجر ألا يسرع بالرحيل . ويتحدث في الكتاب الثانى عن محاولته أن يشفى معشوقته عن رحلة اعتزمت القيام بها وتمنيه لها بولادة سهلة عندما يأتيها المخاض . وإطرائه لبلدته «سولمو» Sulmo تلك التى لا يتقصها إلا حضور معشوقته . واعترافه بعبوديته لمعشوقته كورينا . ويحتج على سيادة في المقطوعة السابعة لاتهامها إياه بأنه أحب خادمتها . وفي المقطوعة

(١) كتاب الغزليات الثانى - المقطوعة الرابعة .

العاشرة يعترف بأنه يحب وأنه يرجو أن يقع في حب فتاتين في وقت واحد .

ويصف في الكتاب الثالث سسباق العربات الذى حضره مع معشوقته ، ويغتر في المقطوعة الثالثة زوجاً غيوراً بأنه بقدر ما هو يراقب زوجته بعناية بقدر ما هو تميل إلى الرذيلة . وفي السادسة يلعن نهراً عاق مروره إلى معشوقته .

وفي الثامنة يندب حفظه لأن معشوقته قد فضلت عليه رجلاً ثرياً . وفي التاسعة يشكو الإلهة «كيريس» لأن عيبتها قد فصله عن معشوقته . ويذكر في الثانية عشرة كيف أن أشعاره قد أعلنت عن معشوقته حتى أصبح له منافسون كثيرون . ويصف في الثالثة عشرة عيد الإلهة «يونو» الذى حضره مع زوجته ، ونلاحظ أن كتابه هذا يحتوى على مقطوعات أوحى له بكتابة مؤلفه عن «فن الحب» وذلك مثل المقطوعة الرابعة من الكتاب الأول حيث ينصح معشوقته بالسلوك الواجب عليها اتخذاه في حضرة زوجها ، أو المقطوعة الثامنة من الكتاب نفسه حيث يتحدث عن نصائح القوادة للعاهرة

البطلات

أما كتابه عن البطلات فهو مجموعة من رسائل خيالية من سيدات من عصر الأبطال أو الأساطير إلى أزواجهن أو عشاقهن الغائبين . وتظهر هذه الرسائل مقننة أو فيديبوس على سرد القصص وفهمه لأخلاق النساء . ويعتبر هذا الكتاب أكثر أعمال أوفايد يوس ذبوعاً .

فهناك مثلاً رسالة بينيلوبي Penelope إلى زوجها «أوديسوس» تشكو ما هى فيه بسبب علم عودته من حرب طرواده . والرسالة التى تبعث بها «بريسيس» Briseis محظية «أخيليس» توثب فيها أخيليس لعودته عن إنقاذها من «أجاممنون» الذى استولى عليها .

من ذلك الشيء الذى يسكن القلب ، وإذا كان الانسان مضطراً للبقاء في المدينة رغبة منه أو بالرغم منه فعليه ألا يقترب من الأماكن التي تعود أن يقابل محبوبته فيها : ويجب أن يقطع علاقته بأصدقائها ويحرق رسائلها ويمزق صورتها ويتخذ لنفسه فتاة أخرى .

التغيرات

قام أوفيدوس بكتابة مجموعة هامة من القصص التي تبلغ مائتين وخمسين قصة معظمها عن الأساطير اليونانية يتحدث فيها عن تحول شخصي أو شيء ما إلى شكل مغاير له تماماً كشجرة أو صخرة أو طائر أو حيوان أو زهرة أو جسم مهادى . . . وهذه التغيرات تحدث بسبب الحب والحقد والانتقام الذي ينتاب الآلهة والأبطال أو المحبين الغضاب . وجعل الشاعر بدايتها مقترنة بائسداء الخليقة حتى عصر يوليوس قيصر الذي وصفه بأنه قد تحول إلى نجم .

فيتحدث مثلاً عن «سكيلا» Scylla إحدى حوريات البحر التي أحبها إله البحر «جلاوكوس» ولكنها صدته عن حبها فذهب إلى الإلهة كيركي «Circe» الشهيرة بالسحر كي تساعد على أن تحبه سكيلا ولكن الإلهة الساحرة نفسها أحبت جلاوكوس فلم يستجب لحبها فصمتت على ألا تتمتع سكيلا بحب جلاوكوس وسممت المكان الذي كانت سكيلا قد تعودت أن تستحم فيه وكان نتيجة ذلك أن تحولت سكيلا إلى وحش بحري واتخذت الشكل الذي نشاهده في الفن — وإن كان وجهها لا يزال وجه حورية جميلة ولكن بقية جسمها اتخذ صورة وحش في شكل كلاب تنبح . وقد واجهها أوديسيوس في رحلته البحرية بعد سقوط طرواده . وقد كان مسرح حوادث أسطورة سكيلا في مضيق مسينا حيث توجد صخرة في الجانب الإيطالي من المضيق

والرسالة التي تبعها «أوينوني» Oenone إلى باريس Paris تذكره فيها بأيام شبابهما الحلوة على منحدرات جبل «إيدا» Ida بطرواده وكيف أنه خط اسمها على الأشجار هناك ثم تساءل إن كان سيقراً خطابها أم أن زوجته الجديدة (هيلين) ستمنعه من ذلك . أو الرسالة التي تبعها (ديونو) ملكة قرطاجنة إلى «أيناس» الذي هجرها فعزمت على الانتحار .

وكل رسالة من هذه تعبر عن مأساة ولكن في كل منها تنوع في الحوادث ، وتصوير مغاير لشخصياتها أمدها أوفيد يوس بروح من عنده ووضعها في قالب حتى بمقدرته التي لا تجارى في فن القصص رغم أنه أخذ موضوعاتها عن غيره .

نظرية وجه السيدات

وهي عبارة عن كتاب يوضح الطريقة التي تتبعها السيدات في صيغ وجوههن . ووصلت إلينا في شذرات مكتوبة بالوزن الأليجي : ويعتبر كتاباً تعليمياً .

الشفاء من الحب

لاقت كتب أوفيدوس عن الحب شيئاً من عدم الاستحسان حمله على أن يسترضي هذه المشاعر بكتابه الذي أطلق عليه «الشفاء من الحب» .

وفي هذا الكتاب يذكر مثلاً كيف يجب على الإنسان أن يقلع عن الحب قبل أن يتملك منه . وإذا لم يستطع فليتنظر قليلاً حتى يفرغ الحب جميع ما في جعبته ويستنفد قواه . وبعد أن ينهل الإنسان من كأس الحب حتى يرتوى ويشعر بالمرض فليبحث عن عمل كالزراعة ، أو فلاحه البساتين أو الرماية أو صيد الأسماك ليشغل به نفسه فإن الحب ينتصر على البطالة . ويمكن للإنسان أن يرحل بعيداً فليس هناك ما يفضل السقر الطويل وتغيير المناظر للتخلص

تسمى باسمها ، ومن هنا أضيفت الأسطورة القائلة بأنها قد انتابها تغير آخر بمرور الزمن وتحولت إلى صخرة .

وكانت طريقة سرد أوفيدْيوس لهذه القصص غالباً ما تقوم على المزج بين القصص . ونلاحظ أنه رغم أن هذه القصص عديدة إلا أنه يسودها الوحدة كما تسود قصص «الف ليلة وليلة» ، وربما كانت قصص أوفيدْيوس أكثر وحدة فإن موضوعات قصصها متشابهة وتسودها روح رومانتيكية أسطورية واحدة . وقد اتبع أوفيدْيوس طريقة شاعر الاسكندرية «كاليماخوس» في كتابه «الأسباب» Aitiaie المكون من عدة آلاف من الأبيات في قالب قصصي فجمع بين العمل الطويل والقصص القصيرة فيحتوى كتاب التغيرات خمسة عشر جزءاً .

وأخذ أوفيدْيوس موضوعه هذا عن الشعراء وكتساب المسرحية اليونان الذين طرّقوا موضوع الأساطير ، كما أخذ عن بعض الفلاسفة اليونان ، مثل «بيثاجوراس» Pythagoras الذى يقول بتناسخ الأرواح وأن الأشياء تتغير دون أن تفتى .

كما أنه تأثر أيضاً بشعراء الاسكندرية فقد طرّق بعضهم موضوع التغيرات كما في مؤلف «نيكاندروس» (القرن الثانى قبل الميلاد) المسمى Heteroionumena «أشياء تغيرت» وهو يشتمل على مجموعة من القصص .

وكتب أحدهم ويدعى «بويوس» Boeus في تاريخ غير معروف Ornithogonia «أصل الطيور» ويتعلق بتغير البشر إلى كائنات مجنحة .

وكان هذا نموذجاً لعمل شبيه كتبه «إميلْيوس» Aemilius Macer أحد معاصري أوفيدْيوس . وتأثر أيضاً بالرومان ، مثل فرجيلْيوس خاصة عندما تحدث عن رحلة «أينياس» : ونلاحظ أنه لم

يشد بالوطنية الرومانية ولم تكن هدفه كما كانت عند فرجيلْيوس . حقاً لقد تحدث عن يوليوس قيصر كما تحدث أيضاً عن أوغسطس ولكنه لم يتخذ الأخير محوراً لحديثه بل ذكره كأنه آخر أعجوبة حيث يقول إنه يعتبر مجدداً خالداً ليوليوس قيصر أن يكون أباً لأوغسطس وإنه حينما يترك أوغسطس العالم الدنيوى سوف يحكم في السماء ويصبح إلهامجيب الدعوات .

من هذا يتضح أن معظم هذه القصص كانت معروفة ولكن أوفيدْيوس سردها بطريقة مختصرة بليغة وأكسبها لوناً جذاباً لا يستطيع القيام بمثله سوى رجل ذى مقدرة أدبية . وقد تحرر أوفيدْيوس في سرده لبعض هذه القصص كما أنه قد ذكر بعضاً من قصص الأساطير التي ليس لها علاقة بالتغيرات كاختطاف «هروسرينا» مثلاً وموت «أخيليس» وقصة حب «يراموس» لثيسي Thisbe .

وقد طلى أوفيدْيوس هذه الأساطير بطلاء جديد وأكسبها حيوية أثرت في الأدب والفن في العصور الوسطى والنهضة الأوروبية .

ولقد كانت الأساطير القديمة مظهرًا واضحًا من مظاهر ثقافات كثير من اليونان والرومان المثقفين ، وبخاصة الشعراء فلاغربة في أن يطرّق أوفيدْيوس المثقف هذا الموضوع مثلهم وأن يسبق عليه من معلوماته الوفيرة وذاكرته القوية وخياله الخصب وتصوره اللامح حياة جديدة .. ولاغربة في أن تتأثر أيضاً حضارة العصور الوسطى والنهضة الأوروبية بهذا الموضوع ..

التقويم الروماني Fasti

كتب أوفيدْيوس قصيدة هي تقويم للسنة الرومانية ولذلك تعتبر قصيدة تعليمية . وقد وصل إلينا منها ستة كتب يتحدث في كل منها عن شهر من أشهر النصف الأول من السنة وذلك من شهر

ينأير حتى شهر يونيو وفيها وصف الأعياد والطقوس الدينية والأساطير والحوادث التاريخية المتصلة بأيام خاصة : وقد استقى أوفيدوس مادتها من السجلات القديمة للدولة الرومانية والتاريخ والأساطير وعلم الفلك .

ونحن نأخذ أوفيدوس نفسه بأنه استخدم السجلات القديمة .

ونحن نعرف أن «فيروس فلاكوس» Verrius Flaccus كتب تقويمياً شبيهاً بما فعله أوفيدوس خصوصاً ما يختص بأيام الأعياد والاحتفالات السنوية كما كتب «فارو» Varro عن الآثار الرومانية القديمة والمعتقدات الدينية الشائعة . وكذلك كتب «إننيوس» Ennius وغيره «حوليات» Annales عن الموضوع نفسه : . وكتب «كلوديوس توسكوس» Clodius Tuscus عن علم الفلك — فمن المحتمل أن يكون أوفيدوس قد استقى معلوماته من هؤلاء جميعاً .

وقد عرض الشاعر «پروپرتيوس» في أواخر أيامه للأساطير ولمثل هذه الموضوعات الأثرية عندما يثس من الحب وعندما شجعه «ماكيناس» وزير أوغسطس على ذلك فطرق هذه الموضوعات بالوزن الإليجي وبذا يكون قد خلق لوناً جديداً من الشعر الإليجي اقتبس أوفيدوس لكتابة تقويمه إذ أنه خالف الشعراء التعليميين السابقين أمثال «لوكريتيوس» و «فرجيليوس» الذين استخدموا في أشعارهم وزناً غير الوزن الإليجي وهو الوزن السداسي .

ويذكر أوفيدوس^(١) أنه كتب اثني عشر كتاباً ولكن ليس لدينا سوى ستة ولا يوجد ما يثبت وجود الستة الباقية حتى يكمل الجزء الخاص بنصف السنة الثاني فمن المحتمل أنها قد أحرقت مع ما حرقه

(١) كتاب الأحزان — الجزء الثاني — سطر — ٥٤٩ .

من كتاباته عند ترك روما منفاه أو أنها لم تكن معدة للنشر وعلى أية حال لا يمكن الجزم برأى قاطع في هذه المسألة :

ويمتاز وزن الإليجي فيها بالركة والسهولة ولكنه لم يبلغ من السمو والإيقاع الهرموني ما نجده عند كبار الشعراء ، كما يتلاعب أوفيدوس فيها بتصوراته وخياله :

وقد خلق أوفيدوس شعراً وطنياً وربما كان يهدف إلى إرضاء الإمبراطور أوغسطس حتى يأخذ في القصر الإمبراطوري مكان الشعارين «فرجيليوس» و «هوراتيوس» اللذين كانا قد توفيا، خاصة بعد كتاباته عن الحب التي لم تكن تساعد الإمبراطور على نشر القيم الأخلاقية في المجتمع الروماني ولكن جاء فيه غيباً للأمال :

الإحزان (Tristia (Sc. Carmina)

وكتب أوفيدوس في منفاه أغاني حزينة في صورة رسائل بالوزن الإليجي تظهر حزنه العميق لنفسه وما يقاسيه في هذا المنفى .. ويشمل مؤلفه هذا خمسة كتب تقوم على الترتيب الزمني كما أن أوفيدوس لا يذكر فيها أسماء الأشخاص المرسله إليهم حتى لا يتعرضوا لغضب الإمبراطور .

والكتاب الثاني منها يقوم على موضوع واحد أما باقي الكتب فتشتمل على عدة رسائل متنوعة لها مقدمة وخاتمة فيذكر مثلاً في المقطوعة الأولى من الكتاب الأول — الذي يحتوي على إحدى عشرة مقطوعة مجموعها ٧٣٨ بيتاً ، يذكر إرسال الكتاب إلى روما وأنه لم يعتن بتخليفه لما كانت عليه حالة كاتبه المنفى من الأسى وأنه ليس عنده أمل في أن يجسر أحد الأشخاص على تقديمه للإمبراطور .

والمقطوعة الحادية عشرة هي الخاتمة وفيها يعتذر عن العيوب والشوائب التي تكابد منها قصائده إذ أنها

بالفراسات الأدبية واللغوية . كما أن اليأس قد تطرق إليه بدرجة كبيرة جعلت أمله ضعيفاً في العفو عنه .

« رسائل من بوتوس »

Epistulae ex Ponto

ولأوفيدوس أربعة كتب يطلق عليها « رسائل من بوتوس » - أي - « رسائل من توى » .

وهي تعتبر امتداداً لكتبه « الأحزان » فهي من النوع نفسه ومنظومة أيضاً بالوزن الإلجى . وتختلف عن الأحزان في أنه يذكر فيها أسماء الأشخاص الذين يرقع إليهم كتبه .. وقد كتبت الكتب الثلاثة الأولى فيما بين سنة ١٢ و ١٣ ميلادية .

أما الكتاب الرابع فقد نشر بعد وفاة أوفيدوس . ونلاحظ أن الأحزان والرسائل من « بوتوس » تسودها الرثابة لأنها تصور أحزان أوفيدوس العميقة التي يرددها بكثرة .

كما أن أسبابه المطرود يقلل من تأثير الجانب الحزن الذي يستجيش العواطف رغم أنها تمس أحياناً شغاف القلوب .

ويذكر أوفيدوس نفسه أن أشعاره في المنفى لم تكن جيدة مثل تلك التي كتبها في روما .

إيبس Ibis

كتب أوفيدوس في منفاه إلى جانب هذه الأشعار مقطوعة عنوانها « إيبس » Ibis مقلداً في ذلك شاعر الاسكندرية « كاليماخوس » الذي كتب مقطوعة بهذا العنوان هاجم فيها « أبولونيوس الروديس » Apollonius Rhodius ولفظ « إيبس » Ibis يطلق على طائر ذى عادات قلرة كان يترى في أماكن كثيرة من الإسكندرية (Strabo, p. 823) .

ويظهر أنه كتبها في « توى » في بداية منفاه إذ يذكر أوفيدوس نفسه (Ibis 7) أنه لم يكتب سطرأ

كتبت أثناء رحلة شاقّة عبر نهر الأدرياتيک ونهر إنيجه أما الكتاب الثاني فقد كتبه في المنفى ورفعته إلى أوغسطس ويختلف عن باقي الكتب كما ذكرنا في أنه لا يحتوي على عدة رسائل بل على موضوع واحد فهو عبارة عن دفاع مطول يبلغ ٥٧٨ بيتاً عن كتابه « فن الحب » وكتبه بلمغة تقرب من اللغة الخطابية في المحاكم . ويذكر ضمن دفاعه أنه بالرغم من أن كتابه « فن الحب » يعتمد أنه يعلم الزنا إلا أنه ليس هناك من يتهمة شخصياً بهذا السلوك السيئ وربما كانت تسود أشعاره الحرة ولكن لانشوب حياته شائبة .. وأنه ليس من الواجب على الشعراء أن يكونوا قد مارسوا جميع ما يقولونه في أشعارهم ، ومع أن الشعراء كانوا قد طرّقوا موضوع الحب إلا أن أوفيدوس هو الوحيد الذي لحقه اللوم من جراء ذلك .

ويسرد فيه قصة حياته وأعماله وكان يرجو أن يتبدل العقاب الذي لحق به ويقنع بمنفى يكون ألبق من بلدة « توى » ، منفى يناسب زلته اليسيرة .

والقصائد في هذه الكتب صادرة عن نفس مغدبة مفعمة بالشكوى التي تستدعي الشفقة والرحمة لصاحبها ، كما يكثر فيها التوسل الذي يصل إلى درجة الذلة والعبودية فكان يبت كتبه آلامه وأحزانه وما ينتابه من مشاعر فهو أحياناً يعطف على زوجته ويظهر فيها تقديره إياها ويتحدث عن إخلاصها ويصف آخر ليلة قضّاها في روما ويرفع قصيدة إلى صديق تنحى عنه أو إلى شاعر صديق أسعده نجاحه ، ويأمل أن يتجاوز من مصير كالذي حل بشاعرنا . وأحياناً أخرى يرسل إلى أصدقائه في روما ويصف متاعبه وأحزانه ووحده في « توى » ويحثهم على مساعدته في محنته . أو يتحدث عن برودة المنطقة التي يعيش فيها ووحشتها . أو يهاجم الشخص الروماني الذي حط من قلد شاعرنا الذي كتب ضده مقطوعته المسماة « إيبس » Ibis ونشعر فيها بألم أوفيدوس بسبب الوحلة وتحايله عليها

واحداً يحمل روح العداة لأحد خلال الخمسين سنة التي انقضت .

وفي القصيدة قاموس من الشتائم واللعنات ساقها أوفيدوس ضد شخص مجهول الاسم اضطهد زوجته وأصدقائه وحاول أن تصادر أملاكه ليستفيد منها . ويقال إن هذا الشخص هو الذي يشير إليه في كتابه الأحران ، (الكتاب الأول - المقطوعة السادسة - سطر ١٤ : الكتاب الثالث - المقطوعة الحادية عشرة ؛ السطر الثاني والسطر العشرون ؛ الكتاب الرابع - المقطوعة التاسعة - السطر الخامس عشر وما بعده) .

وقد صب على رأس ذلك العدو كل لعنة خطرت على باله سواء من الأساطير أو التاريخ ساعده على ذلك معرفته الواسعة بالأساطير .

وكتب أيضاً مقطوعة تعليمية Haleuticon « الصيد في البحر » بالوزن السداسي وهي الوحيدة من بين كتابات أوفيدوس التي كتبت بهذا الوزن إذا استثنينا « التغيرات » - عن السمك وبعض المخاوف الأخرى الموجودة في البحر الأسود . ويذكر المؤرخ بلينيوس Plinius أنه كتبها في أواخر أيامه وهي غير كاملة ولم يصل إلينا منها سوى ١٣٢ بيتاً ويتحدث في القسم الأول منها عن طرق دفاع هذه المخلوقات عن نفسها حسب ما وهبها الطبيعة ، وفي قسمها الثاني عن أنواع السمك الموجودة هناك ، ونشرت بعد مماته دون مراجعتها .

هناك مقطوعات أخرى مطبوعة في بعض الطبعات القديمة لأوفيدوس ولكن ليس من المؤكد أنها له مثل « Nun » وهي شجرة « عين الجمل » تشكو من المارة الذين يقدفونها بالحجارة بالرغم من أنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها ولا ذنب لها سوى أنها مشمرة ، وعدد أبياتها ١٨٠ بيتاً وربما كتبت في نهاية حياة أوفيدوس وترمز إلى الشاعر نفسه الذي لاقى الكثير

من الاضطهاد : والإطراء على الامبراطور (الأسطر ١٤٣ - ١٤٦) يرجع أصحاب الرأي القائل بأنها لأوفيدوس . وكذلك مقطوعة يطلق عليها Consolatio ad Liviam وهي عزاء في ٤٧٤ بيتاً إلى « ليڤيا » لموت دروسوس Drusus ويذكر فيها كيف أن الامبراطورة « ليڤيا » كانت تنتظر عودة ابنها « دروسوس » منتصراً بعد أن كان يمسك في المانياسنة ٩ وحاز عدة انتصارات على أعداء روما ولكن موته فجأة وحمل جثته إلى روما لدفنها أفعم قلبها بالحزن . ولكن خلوها من اطرائه المسهب والشكوى من حالته التي عودنا إليها في كتاباته المرفوعة إلى القصر الامبراطوري والمستوى اللغوي الذي كتبت به هذه المقطوعة والذي هو دون مستوى كتابات أوفيدوس يجعلنا لانعزوها إليه .

وهناك أشعار أخرى كتبها أوفيدوس ولكنها فقدت ولم تصل إلينا مثل مأساة « ميديا » Medea (الأحران - الكتاب الثاني - سطر ٥٥٣) وقد امتدحها النقاد القدماء خصوصاً من الناحية البلاغية ولم يتبقى لنا منها إلا بيتان . وكتب أوفيدوس قصيدة رثاء يرقى بها الإمبراطور أوغسطس (رسائل من بونتوس - الكتاب الرابع - المقطوعة السادسة ، السطر السابع عشر) .

كما كتب قصيدة في مدح القصر الامبراطوري باللغة الجيتية وهي لغة القوم الذين كان يعيش معهم في منفاه (رسائل من بونتوس - الكتاب الرابع - المقطوعة الثالثة عشرة السطر ١٩ - ٣٦) ، والجيجانتوماخيا Gigantomachia (الكتاب الثاني من الغزليات المقطوعة الأولى - السطر ١١ - ١٦) وهي عبارة عن ملحمة أسطورية تصف موقعة بين الآلهة والعمالقة .

وقصيدة عرس Epithalamium لفابيوس ماكسيموس Fabius Maximus (رسائل من بونتوس

— الكتاب الأول — المقطوعة الثانية — السطر ١٣١).
كما كتب قصيدة رثاء لماركوس فاليريوس ميسالا
M. Valerius Messala (رسائل من بونتوسوس
— الكتاب الأول المقطوعة السابعة — السطر ٣٠).
وقصيدة مدح لقيصريوس في سنة ١٣ ميلادية (رسائل
من بونتوسوس — الكتاب الثالث — المقطوعة الرابعة —
السطر الثالث). كما كتب أيضاً مقطوعات أخرى
مثل liber in malos Poetas وهي عن ضعاف
الشعراء (كونيتيليانوس — نظم الخطابة (٦ — ٣ —
٩٦).

فن الحب Ars Amatoria

كتب أوفيد يوس شعراً تعليمياً من نوع جديد :
حقاً لقد كتب الشعراء من قبله هذا النوع من الشعر
مثل «إيليوس» و «لوكرتيوس» و «فرجيليوس»
ولكنه يختلف عنهم في أنه كتب شعراً تعليمياً عن
الحب . فابتدأ بكتابة مقطوعة قصيرة لم يبق لنا منها
إلا ما يقرب من مائة سطر يطلق عليها « عن تطرية
الوجه » De medicamina Facie أو Medicamina
faciei feminae « تطرية وجه المرأة » يتحدث فيها عن
أطرية التجميل التي تستعملها النساء لتزيين وجوههن .
أما كتبه الثلاثة المسماة « فن الحب » Ars Amatoria
أو Ars Amandi وقد أطلق عليها أوفيد يوس الاسم
الأخير (١) : وفي الكتابين الأولين تعاليم للرجال أما
الثالث ففيه تعاليم للنساء . ويحتوى الكتاب الأول على
ما يجب أن يفعله الرجل عند اختيار المرأة التي يريد
أن يستحوذ عليها ويقول مثلاً «أولا اقض على
أرنبتك فإن الصائد يعرف كيف ينشر شبكته كي
يصطاد الوعل وصائد السمك يعرف المياه المليئة
بالأسماك أما عن الحب فإنه لا يحتاج إلى السفر بعيداً

Ars. Am. i. l. (١)

ففي روما في إمكانه أن يجد جميع أنواع الجمال في
احتفالات النصر أو في المسرح حيث تتجمع الحسان
هناك كالنحل مرتديات أفخر الثياب ولا يرغبن في
مشاهدة المسرحية أكثر من رغبتهن أن يرمقهن الناس :
وكذلك في السيرك حيث يمكنك الجلوس بجوار امرأة
وهناك يمكنك التحدث معها بسهولة ولا تنتظر كي
تكون المرأة هي الباذنة بل كن جريئاً وسوف
لا تصادف صعوبة وامطرها بوابل من المدح والثناء :
ولا تبدأ بأهدائها الهدايا فإن هذا خطأ وسوف تجد أنه
لا نهاية لهذا الأمر إذ ستطلب منك الهدايا دون انقطاع
مختلفة الأسباب لذلك . ادرس الفنون الجميلة وغذ
عقلك حتى يمكنك إدخال السرور عليها بحديثك .
ولا تتحدث إليها كأنك أستاذ بل ابتعد عن الأسلوب
العالي في حديثك . ادع السكر فإنه يساعدك على أن
تقول ما لا تستطيع أن تقوله وأنت صاح . ولا
تدعها تعرف عنك الإلحاح . وباختصار فإن هذا
الكتاب يعلم الحب كيف ينال حبيبته .

وفي الكتاب الثاني يعلم الشاعر تلميذه كيف يحتفظ
بمحبوبته فيقول مثلاً « وإن المظهر الحسن له أثره
ولكن العادات الحسنة لها أيضاً قيمتها . إن الكلمات
السارة كالموسيقى تعتبر غذاء للحب . ويجب أن يمتنع
الشخص عن العراك والمنازعات ويجب أن يسمع المحبوبة
دائماً أموراً سارة » .

ويقول إن المال يلعب دوراً كبيراً في الحب
فربما لا يحتاج الحب الثرى إلى تعلم فن الحب فإن المال
هو جواز المرور إلى كسب ود المحبوبة . رقه عن
محبوبتك إذا كانت مريضة . ولا تندفع في عواطفك
واجعل نفسك تدرجياً شخصاً لا يستغنى عنه . وعندما
تأكد أنها تتوق إليك اتركها لمدة قصيرة حتى يكون
غيابك سبباً في ازدياد شوقها إليك ولكن لا تتركها
لمدة طويلة فإن البعيد عن العين بعيد عن الخاطر :
ولا تتجسس عليها ولا تسألها عن سنها .

روما ، إنه فن الكياسة والرقّة ومعاملة المحبين ، وقد كتب هذا الفن التعليقي بالوزن الإنجليزى واستفاد - كما نخبرنا هو - من تجاربه ، ولا شك أن كتابة هذا لم يعجب فلاسفة الأخلاق وإن كان أوفيدوس لم يقصد به - كما يذكر - حرائر الرومانيات ، بل الجوارى المعتقات .

ولكن ذلك ليس إلا ذراً للرماد فى العيون . كما أنه كان ضد ما يرى إليه أوغسطس من اصلاحات ومع ذلك فقد كان كتابه هذا فيه صقل للذوق والعادات الرومانية كما أنه يدعو إلى نواح فنية وأدبية فهو الذى يقول بأنه يجب ألا نزين الجسم فقط بل العقل أيضاً ، فواجب على الرجل أن يهتم كما تهتم المرأة بالموسيقى والشعر والرقص . كما يعطينا صورة للحياة فى عصره خصوصاً ما كانت تزين به المرأة :

ولا يتحدث أوفيدوس عن الحب ذى العاطفة الجماعية التى هى بعيدة عن مجتمعه المحب للملذات : وفى رأيه أن المحبين لو استمعوا إلى نصائحه عن الحب لما كانت نهايتهم مفاجئة ولما كان « تريبوس » مثلاً قد فقد عقله بحبه « فيلومبلا » أخت زوجته ولما تحول إلى طائر بسبب آثامه ولما كانت « ديدو » قد ائتمرت بسبب حبها لأينياس الذى هجرها . ولعرفت « فايدرا » خطأها عندما أحبت « هيبوليتوس » ابن زوجها . إن فن الحب شئ جديد على روما وكذلك فن الرقة والكياسة يعتبر طقساً جديداً للرومان كان أوفيدوس كاهنه الأكبر .

وقد تأثر الأدباء المحدثون بفن الحب لأوفيدوس مثل « مكاولى » Macaulay الذى يصفه بأنه أحسن أشعار أوفيدوس وكذا تأثر به « جيته » فى كتابه « الإليجيات الرومانية » وكان أوفيدوس شاعره المفضل كما أنه يقال إن قصة الرسام الإيطالى الشهير « تيزيانو » Tiziano (١٤٧٧ - ١٥٧٦) المسماة « أريادنى على جزيرة ناكوس » استوحاها من كتاب

وفى الكتاب الثالث بوجه نصائحه للنساء فيقول : « يجب أن يسرعن والا يبخلن بعواطفهن عندما يكن باقات فإن الكبر والتجاعد والشعر الأبيض تلتحق بهن سريعاً . إن المنظر الحسن شئ جميل إلا أنه نادر . ولكن بشئ من الزينة تصبح المرأة جذابة وبلونها يفقد الوجه الجميل فتنته . إننى أعتقد أن ماتفعله نساؤنا فى الوقت الحاضر أمر معقول ليس لأننا نملك ذهباً أو نلبس ملابس فاخرة ولكن لأننا نعرف كيف نستمتع بملاذ الحياة ولأننا انصرفنا عن عادات أسلافنا الخشنة حيث كانت تقبع المرأة فى عقردارها تحميك الملابس أو تغزل حتى تقتل وقت فراغها . تزينى بالملابس ولكن لا تغالى فيها وتعطرى واعتنى بأسنانك وانظرى كى لا تكون أرجلك مشعرة وتعلمى فن التجميل ولكن إياك أن تستخدمى المساحيق أمام زوجك فإن منظر المساحيق أثناء استخدامها شئ بغض .

تعلمى كيف تمشين وكيف تضحكين بل كيف تبكين لأنه هناك الصواب والخطأ فى استعمال أى شئ وإذا أردت أن تحافظى على جمال وجهك تحمكى فى أعصابك فليس هناك امرأة أقبح منظرأ من تلك التى يستحوذ عليها الغضب وإذا أصبحت عواطف محبوبك باردة دعيه يشتم رائحة غريم له ، لاتدعيه يعتقد أنه الحصاة الوحيدة على الشاطئ ، لاتكونى نهمة ولا تكثرى من تعاطى المسكرات فليس هناك منظر أشنع من منظر المرأة السكرى ... الخ .

وكل ما ذكره أوفيدوس ممكن حدوثه فى أية عاصمة أو مدينة كبيرة فالمرأة هى المرأة لم تتغير وكذلك الرجل هو الرجل والطرق التى يتبعها كل إزاء الآخر واحدة فى جميع العصور : إنه يتحدث عن مجتمع محب للمباهج والملذات ولايسوده الحب العميق الذى يذتهى بفهر أو يأس أو موت ، وفى رأيه أنه ليس هناك اخلاص دائم . وفنه هذا جديد على

« فن الحب » وليس من قصة « كاتولوس » المشهورة في ذلك الموضوع .

نصوص

من الكتاب الأول — تعاليم للرجال

عليك أولاً أن تجتهد لتجد من تحب ، أنت يا من تخوض المعركة للمرة الأولى ، سيكون مجهودك ثانياً أن تكسب ود من أحببت ، وعليك ثالثاً أن تجعل الحب يستمر مدة طويلة . هذا هو سبيلي ، هذا هو ميداني الذي سوف ترسمه عروبي ، هذا هو الهدف الذي سوف تقترحه عجلات عروبي .

وما دامت الظروف تسمح وما دام في استطاعتك أن تذهب إلى أى مكان مطلق العنان فاختر من تقول لها : « إنك أنت الوحيدة التي تعجبني » . فإنها لن تأتي إليك من نفسها عليك أن تبحث عن الفتاة التي تروق عينيك . إن الصائد يعرف جيداً أين ينصب شباكها للغزلان . ويعرف جيداً في أى الوهاد يقيم الوعل النائر . إن الطيور تعرف الأشجار . ومن يمسك بالشص يعرف في أى المياه تسبح أسماك كثيرة . وأنت أيضاً يا من تبحث عن نخبه حباً طويلاً الأمد عليك أن تعرف أولاً أى مكان ترتاده الفتاة دائماً .

إننى لا أطلب منك أن تبسط شراعك للريح أو أن تقطع طريقاً طويلاً حتى تجدها . وبرغم أن « پرسپوس » أحضر « أندروميديا » من بين الهنود السود^(١) . وبرغم أن الرجل الفريجي اختطف

(١) ربما يقصد بالهنود السود سكان إثيوبيا « أندروميديا » بنت « كفيوس » Cepheus ملك إثيوبيا التي ادعت أنها أجمل من حوريات البحر فاكان من إله البحر « بوسيدون » إلان صب جام غضبه على وطنها وأرسل وحشاً بحرياً لتخريبه وأشارت النبوة أنه لا يمكن إنقاذ الوطن إلا بالنصحية بأندروميديا لهذا الوحش وقد قيدت قفلاً إلى صخرة على الشاطئ . وأصبحت عرضة لهذا الوحش ولكن « پرسپوس » باقى في الوقت المناسب وينقذها ثم يتزوجها وترحل معه إلى بلاد اليونان .

الفتاة اليونانية^(٢) إلا أن روما ستعطيك فتيات جميلات كثيرات جداً حتى إنك لتقول : « إن في روما كل ما في العالم من فتيات جميلات »^(٣) .

ويعطى « السيرك » الفسيح فرصاً كثيرة للراغبين في الحب . فلا حاجة هناك للأصابع التي تعبر بها في كلام صامت ولا حاجة للمنى لإشارة بالإيماء . فاجلس بجوارها فليس هناك عائق يمنحك من ذلك ثم اقرب منها ما أمكن حتى تتلامسا .

وهذا أمر سهل إذ أن صف المقاعد يحمل على هسلات التلامس إن لم تكن هي راغبة فيه ، فبحكم المكان يجب أن تلمس الفتاة . وعليك هنا أن تبحث عن بداية لحديث التعارف ودعها تسمع منك أولاً حديثاً عاماً . ولتسأل عن أصحاب الجياد التي تتقدم في الحلبة ولا تضع الوقت . ومهما يكن الأمر فكن في صف ذلك الذي تكون هي في صفه . ولكن عندما يمر الاحتضال للزدهم الذي يتنافس فيه الشباب فصفق لفينوس سيدة الحب بأيد مشجعة^(٤) وإذا سقط غبار عن طريق الصدفة على صدرها — كما يحدث عادة — فلتنفضه عنها بأصابعك .

وإذا لم يكن هناك غبار فلتنفض الالشي . وليكن لديك أى مبرر لما قممت به ، وإذا تهدل معطفها واسترسل على الأرض فلتلمه ولترفعه من الأرض المعفرة في نهاية وحيدته ستري عينك حتماً قدمها برضاها جائزة لك على ما قممت به .

(١) يقصد « باريس » الذي اختطف « هيليني » ورحل معها إلى طروادة بنسب « تفرى » .

(٢) يخمد أنه سهل أن تجد الجمل في روما دون مشقة السفر للبحث عنه في بلاد ذئبة عن روما .

(٣) شرح أوفيدوس هذا الاحتفال في كتاب الغزليات (Amores, 3, 2. 43 ff.) ويبدأ الحفل من قصة الكابيتول إلى سوق المدينة (الفورم) ثم إلى السيرك . وكان يحمل المختفون تماثيل من الناج يصفق لها عند مرورهم عشاق أصحاب هذه التماثيل فيصفق مثلاً المحبون لفينوس لغة الحب ويصفق الجنود لمارس إله الحرب .

ولنتظر كذلك خلفك كى لا يكون هناك من يضغط على ظهرها الرقيق . إن العقول تأسرها أشياء صغيرة ، فلقد أفاد الكثيرون من تهيئة وسادة الفتاة بأيد متوثبة ، أو التهوية بمروحة رقيقة ، أو وضع مقعد تحت قدمين رقيقتين ولتدع جسدك يروق بنظافته كما يروق بوعاء^(١) المعارك . لتكن عباةك ملائمة لجسدك ولا تكن ملطخة ، ولا تدع سر حذائك متجعداً ، واحلر ألا يعلو أسنانك الصداً . ولا تجعل قدميك غير ثابتتين وتسبحان في حذاء واسع . ولا تشوه خصلات شعرك بحلاقة رديئة . واحلن شعرك ولحيتك عند حلاق ماهر ، ولا تجعل أظفرك طويلة تتخللها القذارة . ولا تجعل الشعر ينمو في خياشيمك ولا تكن أنفاسك ذات رائحة كريهة .

من الكتاب الثانى

تعالم للرجال

إن العاشق يتوج في سرور أشعارى بأكاليل النصر ويفضلها على قصائد شعراء الملاحم : هكذا فعل الغريب ابن « پريام » فبسط شراعه الوضاء مصاحباً عروسه التي اختطفها من مدينة « أميكلاى »^(٢) Amyclae المحاربة . وهكذا فعل من حملك ، يا « هيبوداميا »^(٣) في حربته المنتصرة وحملك على عجالات أجنبية .

لماذا تتسرع ، أيها الشاب ؟ إن سفينتك تبحر في وسط المحيط والميناء الذى أنشده بيني وبينه أمد

(١) الوعاء ، القبار .

(٢) يقصد باريس الأمير الطروادى الذى اختطف هيلين من من اسبرطة .

(٣) يقصد « بيلوپس » Pelops الذى أتى من آسيا الصغرى إلى بلاد اليونان وأحب « هيبوداميا » وتزوجها بعد أن فاز في سباق العربات على أبيها الذى جعل هذا الفوز شرطاً لمن يريد أن يتزوجها .

بعيد . ليس كافياً أن تكون قد كسبت الفتاة عما مهدت لك من طريق : إنك قد حصلت عليها بفنى وبفنى عليك أن تحتفظ بها . وليست الجرأة في الاحتفاظ بمن كسبتها بأقل من الجرأة في البحث عنها : وللحظ في ذلك نصيب ولكن الأمر في حاجة إلى فن إن « مينوس » Minos لم يستطع أن يسيطر على أجنحة الرجل^(١) . ولكننى أعد العدة للسيطرة على الإله المجنح كيويدي . إنه لمخدوع كل من يلجأ إلى فن تساليا^(٢) وأن يتعاطى ما ينزعه من جهة المهر^(٣) . إن أعشاب « ميديا »^(٤) Medea لن تعمل على أن يعيش الحب ... فلو أن الحب يمكن الاحتفاظ به عن طريق السحر وحسب لكأنك قد احتفظت (ميديا) باين « آيسون »^(٥) Aeson كما احتفظت « كيركى » بأوديسيوس . إن أشربة الحب الصفراء تضر الفتيات : لأنها تؤثر في العقل ولها من القوة ما يدفع إلى الجنون . لتبتعد هذه الأشياء المدنسة إكن رجلاً حبيباً كى تحب . ولن يمنحك الوجه أو الشكل فقط هذا الشيء رغم أنك قد تكون « نيريوس »^(٦) Nemesis الذى كان « هوميروس » القلماء مفتوناً به ، أو الفنى البافع « هيلاس »^(٧) الذى اختطفته حوريات المياه

(١) بعد أن شيد « ديدالوس » قصر اللايرته في كريت أراد أن يعود إلى وطنه أثينا ولكن « مينوس » ملك كريت لم يوافق على عودته فاضطر « ديدالوس » لأن يصنع لنفسه أجنحة يطير بها إلى بلاده .

(٢) كانت « تساليا » في شرق بلاد اليونان مشهورة بالسحر .

(٣) غشاء ينمو على جهة المهر (Hippomanes) عند ولادته ويستخدم كشراب للحب .

(٤) كانت « ميديا » مشهورة بالسحر الذى ساعدت به حبيها « جاسون » كى يستولى على الفراء الذهبى .

(٥) يقصد جاسون .

(٦) كان « نيريوس » أجمل وأعظم ثائفاً من كان في جيش اليونان ما عدا « آخيلوس » (الإلياذة - الكتاب الثانى - سطر ٦٧ وما بعده) .

(٧) ذهب « هيلاس » إلى إحدى الينابيع كى يشرب فأخذت حوريات المياه بجاله واختطفوه إلى داخل المياه .

ذلك فقد خضعت لمروعة رجل : : : قبل الاستسلام
سرحل منتصراً . لتسلم إذا قاومت فبالخضوع
سوف تتحاشى المنتصر . عليك فقط أن تفعل
ما تأمرك به ، لم إذا لامت ، وافق على أى شئ
توافق عليه : أكد ما تؤكد وأنكر ما تنكره ،
واضحك إذا ضحكت ، وتذكر أن تبكى إذا بكى .
دعها تسطر دستورها على حياك : : : إن الحب نوع
من الحرب : أيها الجبناء ، ابتعدوا . إن أعلام
الحب هذه يجب ألا يحرسها الجبناء : إن الليل
والشتاء والرحلات الطويلة والآلام المبرحة وكل جهد
موجود بداخل المعسكر الأنيق .

أيها القوم ، احتفوا بي أنا شاعركم : تفنوا
بمدحى . اجعلوا اسمى يتغنى به في جميع أنحاء
العالم ، فقد أعطيتكم السلاح . إن إله الحدادة قد
أعطى الأسلحة لأخيلوس . فانتصروا كما انتصر بما
منحت لكم من عطايا . ولكن إذا قهر أى منكم
الأمازونيات^(١) بلاحى فليخط على غنائه :
« إن « ناسوا »^(٢) هو سيدى » .

الكتاب الثالث — تعاليم للنساء

إن المرأة لا تلوح باللهب أو الأقواس القاسية :
وبنسر أن أرى أن هذه الأسلحة تؤذى الرجال :
غالباً ما يخدع الرجال وأما الفتيات فغالباً لا يخدعن ،
وإذا سألت : فإن جرائمهن في الخداع قليلة . إن
« جاسون » الخداع طرد ميديا بينما كانت في ذلك
الوقت أمماً ، وأنت زوجة أخرى إلى أحضان ابن
« أيسون »^(٣) . وفيما تخصص دورك يا ثيسوس فإن

- (١) تقول الأساطير إن الأمازونيات نساء جليات محاربات
كن يقطن منطقة « سيثيا » Seythia .
(٢) كان اسم أوفيدوس هو : « بوبليوس أوفيدوس
ناسو » Publius Ovidius Naso .
(٣) يقصد « جاسون » .

المنذبات . فلتنصف إلى المزايا الجسمية مواهب
عقلية : إن الجبال مينة مريعة التهشم فكلاً تقدم
العمر يصبح الجبال أقل بريقاً ثم تقتطفه السنون
نفسها ، فليس البنفسج دائم الازدهار والزنبق
لا يفتح ثمره دائماً . وعندما تذبل الوردة تجف
ويبقى الشوك . أيها الإنسان الجميل ، سرعان ما يصبح
شعرك أبيض وتظهر التجاعيد التي تحفر جسمك ،
فلتجعل لك الآن روحاً ، تلك التي من خصائصها
أن تبقى ولتضفها إلى جمالك^(١) ولأنها الوحيدة التي
تبقى معك حتى تفارق الحياة . ولا تهمل في تثقيب
نفسك بالفنون الجميلة أو أن تتعلم اللغتين . إن
« أوديسيوس » لم يكن جميلاً بل كان فصيحاً ورغم
ذلك فإنه أشعل نار الحب في قلبي لإلهتين من
إلهات البحر : : : وإذا لم تكن الفتاة مشبعة بما فيه
الكفاية أو ودوداً لمن يحبها ، فلتتحمل حتى النهاية
ولتأبى فسوف تصبح طيبة فيما بعد .

إن الغصن الموعج ينثى من شجرته باللين وإنه
لينكسر لو استخلمت قوتك . وباللين تسبح خلال
المياه وإنك لا تستطيع أن تقهر الأنهار بدلاً من أن
تقبض عليك الأمواج إذا سبحت ضد التيار . إن
اللين يستأنس الغرور وأسود « نوميديا » Numidia .
ورويداً رويداً يخضع الثور للمحراث الريفي : وهل
كان هناك أعنف من « أنالنتا »^(٢) النوناكريه^(٣) ورغم

- (١) يذكرنا هذا بقول شاعر العربية أبي الطيب المتنبي :
وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه ولو أن مافي الوجه من حراب
يفير من الدهر ما شاء غير ما وأبلغ أقصى العمر هو كعاب
(٢) بنت « ياسوس » Jasus ابن « ليكيجوس » ملك
أركاديا . وكانت مشهورة بالصيد كما كانت ضد فكرة الزواج
وقد أحبها « ميلانيون » Milanion ولم يستحوذ على قلبها
ويزوجها إلا بعد وقت طويل وجهد كبير أثناء مشاركتها الصيد
« أنظر 1.1.9 Proportius » .
(٣) أي الأركادية « من أركاديا » أمبة إلى « نوناكريس »
وهو اسم جبل في إقليم أركاديا .

«أريادنى» قد وقعت فريسة للطيور البحرية وتركت وحيدة في مكان غير معروف^(١) ... إن «أينياس» له شهرة بالتقوى ومع ذلك فإن الضيف يا «ديلو» أملك بسيف وسبب للموت^(٢). أخبركم عن سبب هلاككن؟ إنكن لم تعرفن كيف تحبين. إنه كان ينقصكن المهارة. إن المهارة تجعل الحب يستمر... والآن تذكرن الشيخوخة. وهكذا لن يضيع وقت سدى. وما دامت الظروف تسمح ولا تزلن في ربيع العمر فالعين لأن السنين تمر مر المياه الجارية، والموجة التي مرت لا تستدعى ثانية، والساعة التي انقضت لا يمكن أن تعود. استفيدي من وقتك. إن الوقت ينسل بخطى سريعة. وليس المستقبل كالماضى في الجمال.

لئنى أبدأ بالعناية بالجسد. إن العنب ينمو جيداً من الكروم المعنى بها وعلى التربة المعنى بها تشمخ عيدان القمح. إن الحب هبة الإله. إن كل واحدة مفتونة بما لها من جمال خلاب ولكن منكن من تحتاج لمثل هذه الهبة. إن العناية تكسبك الجمال، والإهمال يطمسه ولو كان شبيهاً بجمال فينوس. وإذا لم تكن نساء الماضى يعتنين بأجسادهن وكذلك لم يكن للرجال القدماء أجساد تحظى بالعناية، وإذا كانت «أندروماخي» تتلذذ في عبادة خشنة فأى غرابة في ذلك؟ لقد كانت هناك في الماضى بساطة خشنة ولكن روما الآن في عصر ذهبي وتملك الثروات الطائلة للعالم المشهور... إننا الآن في عصر حضارة غيرت من حياتنا...

ولكن لا تثقلن آذانكن بالأحجار الكريمة التي يجمعها الهندي الأسود من المياه الخضراء ولا تحضرن منقلاات بملايس قد حيكت بالذهب. وابتعدن عن الثروة التي تبحثون بها عنا. إننا نؤخذ بالأناقة

الطبيعية. لا تدعى شعرك بغبر نظام. إن لمسة باليدن واحدة تكسبك الجمال وتسليك إياه. وليس الزينة طريقة واحدة. لتختر كل ما يناسبها ولتستشير في ذلك الأمر مرآتها. إن الوجه البضاوى يفضل فرقا للشعر على الرأس يترك بدون زينة.... وتميل الوجوه المستديرة إلى أن تكون في الشعر عقدة صغيرة تترك في أعلى الجهة بحيث تظهر الأذن.... وقد تصبغ إحدى النساء شعرها بأعشاب ألمانية وتبحث بفنها عن لون أفضل من لونه الطبيعى. وتسير امرأة أخرى مثقلة بشعر مستعار... لقد نصحتك ألا يذبح من لبطيك رائحة كريهة وألا تكون رجلاك مخدوشة بشعر حاد.... لا تدعى حبيبك بحمد علب حليك موضوعة على المنضدة.

إن الفن المختفى يساعد جمالك. من ذا الذى لا يؤذيه رؤية الصباغة تلوث جميع الوجه عندما تنزلق لتقلها وتسقط على صدرك الدافئ؟! فهناك أشياء كثيرة ليس من الصواب أن يعرفها الرجال. إننا معشر الشعراء دعاة للجمال المعشوق. إن «نميسيس» وكذلك «كينثيا» مشهورة. إن الغرب والشرق يعرف «ليكوريس»^(١).

ولم يكن غرض أوفيدىوس لإثارة اللذة بل التسلية ولم يكن ينظر إلى الأشياء شزراً بل كان يبتسم لها.. لقد خلقت عالماً يسر به القراء فكانت رسالته موجهة إلى المجتمع المثقف في العاصمة وإدخال السرور عليه ومساعدته على ذلك حيويته وفطنته وشعوره العميق بالجمال سواء الجمال الجسمانى أو جمال الطبيعة وكذلك خياله الخصب القادر على الخلق فلم يكن له نظير بين

(١) «نميسيس» Nemesis «إحدى معشوقات شعر

«ثيولوس» و «كينثيا» معشوقة الشاعر «پروپرتيوس»

«ليكوريس» معشوقة الشاعر جالوس الذى كان أول حكمه من

قبل الرومان عن مصر.

وجميعهم شعراء الغزل الرومان.

(١) جزيرة تاركوس Naxos.

(٢) يقصد «أينياس» الذى استضافته «ديلو» ملكة

قرطاجنة وأحبته ثم انتحرت بعد أن تركها وفشلت في إيقانه معها.

الرومان في سرد القصص ولم تكن شهرته ترجع إلى أنه كتب موضوعاً عن الحب ذلك الموضوع المحبب إلى النفس أولئك القائلين للإيجي وإنما ترجع إلى قدرته كقصاص ماهر خصوصاً سرده لقصص «التغيرات» التي تعتبر كتاباً قيماً في الأساطير القديمة التي يشع منها شعر سهل ، سلس ، شفاف .

لقد كان شاعراً بالسليقة وإن كان شعره لم يبلغ جلال شعر من سبقوه خصوصاً فرجيليوس ولهذا السبب ترك باعترافه الكتابة في شعر الملاحم كشيء خارج عن نطاق قدرته ولكنه كرس نفسه لأن يكون مترجماً لحصره وإن كانت كتاباته يسودها التطويل الملل ، كما أن فلسفته لم تكن عميقة ويعيب عليه بعض النقاد استهتاره وعدم ميالاته بما تحتمه الأياقة وإنه لم يكن متديناً كما أن قصصه لا تظهر خيالا محلقاً ويكثر من الحيل البلاغية واللفظات الملحة مما جعل «سككا» يلومه ويصف هذه الأشياء بأنها عبث أطفال (Seneca, Q.N. III, XXVII, 12...) ويصفه بأنه مولع بمهارته .

وأهم كتبه التي تأثر بها الغرب هو كتاب «التغيرات» ذلك الكتاب الذي يسرد فيه بسرعة وطلاقة وحيوية وتأمل وسهولة قصص الحب والمغامرات .

وقد نالت «قصص البطالات» في العصور الوسطى الإعجاب وأوحت للناس فكرة الرومانسية التي امتاز بها حب الفرسان في ذلك العصر .

وعندما ظهرت فكرة الرومانسية بوضوح في القرن الثاني عشر كانت ترجع في بعض أسبابها إلى المسيحية من ناحية احترام العذراء وعدم المبالاة بمناعب الجسد ولكن من بين الأسباب التي ساعدت على نمو هذه الفكرة كتابات أوفيدوس فقد عالج الحب باعتباره علماً كما كانت مؤلفاته

مفعمة بالعواطف وقد استجابت روحه الحساسة للشعور الشخصي والطبيعة . لذلك كان لأوفيدوس تأثير كبير على الآداب الأوروبية خصوصاً ما يتعلق منها بالحب الرومانسي وتأثر بقصصه الأدباء الفرنسيون والإيطاليون كما تأثر الأدباء الانجليز . وقد بدأت قصصه تدخل الأدب الأوروبي في القرن الثاني عشر كما يظهر من القصص الشعرية الفرنسية المسماة «يراموس وثيسي» وهي قصة عاشقين بالسين ويقول عنها أوفيدوس بأنه لم يأخذها عن الرومان أو اليونان بل أخذها عن الشرق (Ovidius. Metam. 4. 55-160) وهي تشبه رواية «روميو وجوليت» إذ أن العاشقين تفرقهما العداوة بين أسرتهما ويتقابلان سرّاً ويموتان نذيجة وهم خاطئ عند علم كل منهما بموت الآخر . وقد ذاعت هذه القصة وكثيراً ما كان يستشهد بها نقلا عن أوفيدوس كثير من الأدباء الفرنسيين والإيطاليين في القرن الثاني عشر وما بعده . وفي القرن الثالث عشر ترجم كتاب التغيرات الذي يعتبر أهم كتاب أثار الطريق للرومانسية .

وترجم هذا الكتاب في القرن الثالث عشر إلى اللغة اليونانية حيث كان في متناول الحضارة الشرقية التي كانت تنزعها الامبراطورية البيزنطية وقد كان يطلق على هذه الفترة من العصور الوسطى بفترة «أوفيدوس»

وفي القرن الرابع عشر عرف تشوسر Chaucer أوفيدوس أكثر من أي كاتب لاتيني آخر ولقد أعجب بالتغيرات التي كانت مستودعاً خصباً للقصص ، وملهماً لمصوري النهضة الحديثة فأخذ تشوسر عنها قصة «يراموس وثيسي» وجعلها قصته الثانية في مؤلفه (Legend of Good Women) كما أن كتابه المسمى (The Duchess) يبدأ وينتهي بقصة Ceyx و Alcyone (Metam. 11. 410-748.)

إن تأثره فيها بشخصية «ديلو» عند أوفيدوس في كتابه التغيرات أعمق من تأثره بشخصية «ديلو» عند فرجيلوس في إنبادته .

وفي الواقع إن اشارات شكسبير عن الأساطير يرجع معظمها إلى أوفيدوس وقد ترجم آرثر جولدينج Arthur Golding (١٥٦٥ - ١٥٦٧) كتاب التغيرات فأثرت دون الحاجة إلى قراءتها مباشرة عن الأصل اللاتيني في عقلية شكسبير وشعره .

وكان اهتمام أوفيدوس بالحب والأشياء الخارقة للطبيعة مناسباً لعصر شكسبير بل لشكسبير نفسه . واستمر تأثير أوفيدوس إذ أن كتابات «ميلتون» Milton تردد صدى «التغيرات» من حيث لغته وطريقة تفكيره كما تأثر أيضاً «دریدن» Dryden «ماتيوپريور» Mathew Prior وبوب Pope الذين كتبوا شعرهم بال Heroic Couplets التي تعتبر أوفيدية . وقد أثر جيته Goethe (١٧٩٥) بكتاب «فن الحب» في مؤلفه (الإجليات الرومانية) وتأثر به الشعراء الغنائيون في القرن التاسع عشر أمثال «وردزورث» Wordsworth و «شيلي» Shelley اللذان يدينان له في كتاباتهما وقد ذكر «كيتس» Keats بأنه ليس هناك مادة أمام الشاعر أروع مما في التغيرات .

من هذا كله نرى مدى تأثر أدباء الغرب بأوفيدوس .

ونرى أيضاً أن أوفيدوس كان على حق عندما كان مولماً بكتبه . وارتبه الأمر الذي عابه عليه بعض الرومان القدماء .

وكذلك كتابه المسمى The House of Fame به كثير من وصف أوفيدوس لمنزل الشهرة في التغيرات (Metam 12. 39 F) وقد أفاد أيضاً من خطابات أوفيدوس الخيالية في «رسائل البطلات» كخطاب أوفيدوس الخاص بباريس وهيلين في Pretty Coquette Criseyde وقد تأثر تشوسر أيضاً بالتقويم الروماني كما يظهر من قصته Lucretia في كتابه المسمى The Legend of good Women إن مقدرة تشوسر على كتابة قطع مطولة في الوصف والمقارنات ترجع إلى دراسته الكلاسيكية .

وبعد اختراع الطباعة مباشرة أخذ في طبع «رسائل البطلات» تباعاً وكان أول ترجمة لها بالانجليزية سنة ١٥٦٧ وبعد خمس عشرة سنة من ذلك التاريخ استرعت هذه الأشعار نظر «خريستوفر مارلو» Christopher Marlowe الذي أحرقت أشعاره علناً بأمر الكنيسة سنة ١٥٩٩ .

كما تأثر به عصر الملكة إليزابيث فتأثر به «إدموند سبنسر» Edmund Spenser (١٥٩٠ - ١٥٩٦) في قصته Faerie Queene وتأثر به شكسبير بقصة بيراموس وثيسبي في روايته Midsummer-Night's dream وإن كانت معلوماته في اللاتينية أقل بكثير من معلومات سبنسر إلا أن شكسبير تأثر كثيراً بكتابات أوفيدوس حتى أنه يمكن كتابة كتاب كامل عن هذا التأثير فأخذ مثلاً مقطوعته الشعرية المسماة Venus and Adonis عن أوفيدوس متأثراً بكتابه «الغزلات» Amores وقد اهتمدى النقاد إلى إشارات كثيرة في رواياته مكتوبة عن كتاب التغيرات مثلاً في روايته المسماة Cleopatra التي يقول عنها النقاد

رحلات حول العالم للكابتن جيمس كوك

بماتلم
الدكتور سليم أنطون

قسم علوم البحار بكلية العلوم - جامعة الاسكندرية

القطبية الجنوبية ، وكان وجود أستراليا ونيوزيلاندا وكثير من جزر المحيط الهادى ضرب من الخدس والتخمين ومنذ خمسة قرون فقط لم يكن العالم القديم يعرف شيئاً عن أمريكا ، ولم تكن استدارة الأرض قد ثبتت عملياً بالدوران حولها .

لم تكن الحضارة المصرية القديمة حضارة نهريّة فقط بل إنها كانت تحمل أيضاً ملامح الحضارات البحرية فأنشأت الموانئ على سواحل البحرين الأحمر والمتوسط وبنت الأساطيل التي قامت برحلات بعيدة مثل رحلة حتشبسوت حوالي ١٥٠٠ قبل الميلاد إلى بلاد البنوت أو الصومال . واشتهر الفينيقيون كملاحين مهرة جابوا البحر المتوسط واستكشفوا شواطئه ، بل إنهم غامروا بالخروج إلى السواحل الأوربية والأفريقية المطلة على المحيط الأطلنطي . أما الإغريق فقد مدوا تجارتهم البحرية إلى شواطئ البحر الأسود وحملتهم غزوات إسكندر الأكبر حتى الهند شرقاً مما أضاف الكثير إلى معلوماتهم الجغرافية . ولم يكن الرومان بحارة بارعين ولكن غزواتهم حول البحر الأبيض المتوسط وعلى الأخص في أسبانيا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا ، وسعت دائرة المعارف الجغرافية .

عشر سنوات ذهبية في تاريخ الكشوف الجغرافية ، هي نفسها سنوات مجيدة في حياة جيمس كوك . ففي ٢٨ أكتوبر ١٧٦٨ احتفل كوك بعيد ميلاده الأربعين . على ظهر سفينته « انديفر » ، وهو في مستهل رحلته الأولى حول العالم . وفي ١٤ فبراير ١٧٧٩ سقط قتيلاً على شواطئ هاواي في نهاية رحلته الثالثة ، بعد أن جاور الخمسين ببضعة أشهر . وفي خلال هذه السنوات العشر كان كوك قد أعاد رسم خريطة العالم ، بعد أن استكشف أو أعاد استكشاف كثير من جزر المحيط الهادى ونيوزيلانده . والساحل الشرقى لأستراليا والساحل الغربى لأمريكا الشمالية حتى مضيق بارنج شمالاً . كما استطاع أن يلقي نظره على القارة القطبية الجنوبية وأن يتنبأ بوجودها .

قصة الكشوف الجغرافية :

لا تكاد توجد الآن بقعة في العالم لم تستكشف بعد . وباستثناء بعض الأماكن المنعزلة في القارة القطبية الجنوبية فإن هناك القليل الذي يمكن إضافته إلى خريطة العالم . ولكن الأمر لم يكن كذلك في عصر كوك أي منذ مائتي عام حين كان العالم مجهل تماماً بوجود القارة

وفي خلال القرون الثمانية التي أعقبت سقوط الإمبراطورية الرومانية حوالي عام ٤٠٠ انتقلت حركة الكشف الجغرافية إلى العرب وأهل الشمال . جاب العرب المحيط الهندي ووصلوا في رحلاتهم التجارية إلى مدغشقر وموزامبيق في الجنوب وإلى الهند وسيلان والصين في الشرق . أما أهل الشمال فقد عبروا من الترويج إلى أيسلندة ومن اسكتلندا إلى جرينلاند ومنها إلى سواحل اللابرادور في شمال أمريكا .

وباندلاع الحرب الصليبية توقفت التجارة بين الشرق وأوروبا ، وقاطع العرب كل الدول الأوروبية عدا البندقية التي احتكرت التجارة مع العرب وكونت ثروات طائلة من بيع منتجات الشرق إلى بقية أوروبا ، مما دفع البرتغال وجنوه إلى محاولة الوصول إلى الهند عن طريق الدوران حول أفريقيا .

وهكذا بدأ عصر الكشف الجغرافية بمحاولات البرتغاليين الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح للوصول إلى الهند وجزر التوابل والتي انتهت بنجاح فاسكودى جاما عام ١٤٩٨ . وفي نفس الوقت تقريباً عبرت السفن الأسبانية المحيط الأطلنطي تحت قيادة كريستوفر كولومبوس واكتشفت جزر الهند الغربية ، وإن كان قصدها الأصلي الوصول إلى جزر الهند الشرقية بالأبحار غرباً . واصل الأوروبيون بعد هذا استكشاف السواحل الأمريكية من الشمال إلى الجنوب بقصد العثور على منفذ يؤدي إلى جزر التوابل في الشرق . وفي عام ١٥١٩ تمكن ماجلان على رأس بعثة أسبانية من اختراق المضيق الذي يعرف باسمه في الطرف الجنوبي من القسارة الأمريكية ، ثم الأبحار شرقاً في المحيط الهادى والوصول إلى جزر الهند الشرقية ، فكان بحارته أول من استطاعوا الأبحار حول العالم .

احتكر البرتغاليون الطريق حول أفريقيا ، والأسبان الطريق حول أمريكا الجنوبية ، وظلت لهما السيادة البحرية تاركين لإنجلترا وفرنسا محاولون الوصول

إلى الشرق بالبحث عما كان يعرف « بالمر الشمالى الغربى » في شمال أمريكا الشمالية و « المر الشمالى الشرقى » في شمال آسيا ولكن هذه الجهود الجريئة لم تحقق أى نجاح حتى تمكنت هذه الدول من هزيمة أسبانيا والبرتغال ومن ثم اتجهوا إلى الجنوب أيضاً .

وبتغير القوى البحرية في أوروبا ، أصبح من الطبيعى أن يتغير اتجاه هذا النشاط فبينما كانت الكشف الجغرافية الكبرى من نصيب أسبانيا والبرتغال خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر نجد أن هذا النشاط انتقل إلى هولندا وإنجلترا وفرنسا وروسيا . وبنهاية القرن السادس عشر بدأ الهولنديون والإنجليز الاتجار مع الهند ، ولما كانت أستراليا تقع خارج الخطوط الملاحية بين أوروبا وجزر الهند الشرقية ، فإن سواحلها بقيت دون أن تستكشف بدقة حتى عصر كوك .

هذه لحظة سريعة عن التقدم الذى أحرزته البشرية في الكشف الجغرافية قبل عصر كوك . وقد قصدنا بها أن نعرف العالم الذى ولد فيه كوك قبل أن نتحدث عن الرجل .

حياة جيمس كوك :

ولد جيمس كوك في ٢٨ أكتوبر ١٧٢٨ في قرية صغيرة في منطقة يوركشير بالقرب من ميناء ويتبي المطل على بحر الشمال . وقد نشأ في أسرة فقيرة مما اضطره إلى مغادرة المدرسة ليعمل أجيراً مع والده في الزراعة . وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره كان يشتغل كباحر تحت التدريب على ظهر مركب صغير يعمل في تجارة الفحم بين شمال وجنوب إنجلترا . واستغل أوقات فراغه في دراسة الرياضة والملاحة حتى ليقال إنه ، عندما انتهى من فترة تدريبه ، كان يعرف من الملاحة أكثر من أى مستكشف سبقه إلى المحيط الهادى . وسرعان ما أصبح كوك ضابطاً في البحرية التجارية وهو في الرابعة والعشرين من عمره وكان يستطيع أن يحصل

على وظيفة ربان لو قنع بالعمل على السفن التجارية .
وعندما اندلعت الحرب بين المستعمرين الإنجليز
والفرنسيين في شمال أمريكا عام ١٧٥٥ ، وجد كوك
فرصته في ارضاء طموحه في العمل في المياه البعيدة
فتقدم متطوعاً إلى البحرية الإنجليزية كباحر بسيط ،
وعمل على ظهر السفينة انجل تحت امرة الكابتن سير
باليسر ، الذي سرعان ما اكتشف كفاءته وخبرته .
نال كوك ترقية سريعة واشترك كضابط في الحرب
الدائرة في شمال أمريكا ، ولكن هذه المشغوليات لم تبعده
عن كتب الرياضة والفلك وغيرها حتى يرفع من
مستوى تحصيله في المدرسة . وكان الإنجليز يستعملون
لمهاجمة كيوبك وانتزاعها من أيدي الفرنسيين ، وكان
بجراحهم رهناً بقدرتهم على الملاحة في نهر سانت لورانس
فكلف كوك بعمل مساحة للنهر بين كيوبك والبحر ،
وقام فعلاً خلال أسبوع من العمل تحت جنح الظلام
برسم خريطة دقيقة لهذه المنطقة ونجح في ارشاد سفن
الأسطول بتحديد المخرى الملاحي بوساطات عوامات
حتى تستطيع السفن الكبيرة الصعود في النهر دون عقبات
واقترن احتلال الإنجليز لكيوبك بالمهمة التي قام بها
كوك مما أكسبه حظوة لدى رؤسائه .

اشترك كوك بعد ذلك في استعادة نيوفوند لاند
عام ١٧٦٢ وقام بعمل مساحة جزء من الشاطئ فعين
في وظيفة « مساح بحري لساحل نيوفوند لاند والبرادور »
وظل في هذه الوظيفة حتى عام ١٧٦٧ ، أعد خلالها
عددًا من المجلدات في الارشاد الملاحي لهذه المنطقة ،
والتي صدرت (١٧٦٦ - ١٧٦٨) تحمل دليلاً على
كفاءته وتمكنه من علوم المساحة البحرية . وفي خلال
هذه السنوات أيضاً ارتفع صيته كرياضي وفلكي
برصده الكسوف الشمسي في ٥ أغسطس ١٧٦٦ ،
وكتابه في الحلة العلمية « المراجعات الفلسفية » .
وفي عام ١٧٦٨ كانت الجمعية الملكية - وهي
أكبر هيئة علمية في بريطانيا - تعد العدة لارسال بعثة

إلى مكان قصي من العالم لرصد كوكب الزهرة . فمن
المعروف أن كوكب الزهرة - مثله في ذلك مثل عطارد
- أكثر قرباً إلى الشمس من الأرض إليها ، وأنه يدور
حول الشمس في مدار داخل مدار الأرض حولها .
وفي أوقات معينة نادرة تمر الزهرة بين الأرض والشمس
فعلاً بحيث تتحرك على وجه الشمس كنقطة سوداء
ويتربق الفلكيون حدوث هذه الظاهرة لأنهم يستطيعون
من تعيين المدة اللازمة لعبور الكوكب حساب المسافة
بين الأرض والشمس . وتستلزم هذه العملية رصد
الكوكب من نقطتين تفصلهما مسافة بعيدة على سطح
الأرض . وقد وقع الاختيار حينئذ على جزيرة تاهيتي
في جنوب المحيط الهادى لمشاهدة عبور كوكب الزهرة .
وعرضت الأدميرالية ارسال سفينة تحمل البعثة العلمية إلى
هذه الجزيرة التي كان كابتن « واليس » قد اكتشفها
حديثاً لحساب بريطانيا .

عاد كوك إلى إنجلترا بعد أن كانت ترتيبات الرحلة
قد تمت فوقع الاختيار عليه - وهو في الأربعين من
عمره - لقيادة هذه البعثة . ومنذ هذه اللحظة سوف
نرى أن حياة جيمس كوك ترتبط بالبعثات الكشفية
الثلاث التي قادها والتي وصفها في يومياته الشهيرة
بحيث يصعب علينا أن نفصل بين حياة كوك ورحلاته
ويوميانه ، مما يدعونا لأن نعالج هذه الموضوعات
كعناصر متداخلة في دراسة أكثر شمولاً .

عصر جيمس كوك :

أدت اكتشافات كوك إلى إلقاء الضوء على خريطة
العالم ، فاستطاع برحلاته أن يرفع الحجاب عن بقاع
كانت مجهولة للعالم المتحضر ، وأن ينقى ويدحض
كثيراً من الشائعات والنظريات عن وجود معالم جغرافية
خيالية . وحتى نتبين الدور الذي لعبه كوك ، ونتمكن
من تقويم جهده ونتأمله فالتنازع نعرض هنا إلى حدود
العالم في عصر كوك ، والمعلومات التي كانت تحت يده

عن الأرض التي اكتشفها فيما بعد ، وعن النظريات التي كانت تراود العلماء وتشغل حيزاً من معتقدات الجغرافيين والملاحين في ذلك العصر .

فمع انتهاء القرن السادس عشر كان هناك تقدم واضح في معلومات الأوربيين عن توزيع اليابس والماء على سطح الأرض . واحتلت أمريكا مكانها كمساحة شاسعة من اليابس على خريطة العالم . وأخذت الرحلات خلال القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر تسد الثغرات في معلوماتنا عن خريطة العالم ، وعلى الأخص في المحيط الهادئ ، أضخم المحيطات وأحدثها اكتشافاً . ولكن « المحيط الجنوبي » ظل يمثل مساحات ضخمة من المياه التي لم تبحر فيها أية سفينة . فحتى رحلة كوك الثانية لم تكن الدائرة القطبية عند خط عرض ٣٠° ٦٦° جنوباً قد عبرت بعد ، بل إن عدداً قليلاً من السفن كان قد أبحر حتى ٣٠° جنوباً . وطبيعي أن تبقى هذه المياه مثاراً لخيال الجغرافيين والملاحين ، وأملًا يراود المستعمرين ومكاناً للتنافس بينهم ؟

شغل الجغرافيون والمستكشفون في ذلك الوقت ثلاث قضايا هامة دار حولها كثير من النقاش ، وقدر لكوك أن يقدم للعالم - خلال رحلاته الثلاث - حلاً لهذه القضايا الثلاث التي تعرض لها هنا .

أولاً : القارة الجنوبية :

والتي عرفت حينئذ بأرض الجنوب المجهولة (Terra Australis Incongenita)

بدأت الرحلات الهامة في المحيط الهادئ تتجه خلال القرن السابع عشر إلى البحث عن أرض ضخمة مجهولة إلى الجنوب من هذا المحيط . ويرجع أصل هذه العقيدة إلى المصور الكلاسيكية ، عندما اعتقد الجغرافيون بوجود أرض في الأطراف الجنوبية من العالم . ووضع بطليموس الجغرافي هذه

الأرض على الخريطة كجزء من اليابس يمتد بين أفريقيا وآسيا على طول المحيط الجنوبي . وبالرغم من أن كثيراً من آراء الجغرافيين القدامى قد تداعت وانتهت في العصور الوسطى ، فإن نظرية بطليموس بقيت ذات أثر قوي ، كما ظلت خرائطه كمرجع أساسي حتى اكتشف الطريق البحري إلى الهند .

ووجدت الفكرة القديمة قبولاً لدى كثير من مشاهير الجغرافيين في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، مثل الجغرافي الهولندي « ميركاتور » ، الذي لم يضعها فقط في خرائطه ، بل أنه برر ضرورة وجودها بأن مثل هذه الكتلة من اليابس لازم لموازنة القارات في النصف الشمالي من الكرة الأرضية . ورغم أن هذه النظرية التي تدعو إلى التوزيع المتوازن لليابسة على سطح الكرة الأرضية لم تقبل من الجميع ، فإنها كانت عاملاً أساسياً في إحياء نظرية القارة الجنوبية .

وجاءت الكشوف المتتالية وكل منها يحمل بعض الأمل في وجود مثل هذه القارة . فعندما عبر ماجلان المضيق الذي يعرف باسمه في الطرف الجنوبي من قارة أمريكا الجنوبية ، كانت هناك أرض تمتد إلى الجنوب . وظلت خرائط الأوربيين تظهرها لسنين عديدة كجزء من القارة الجنوبية الضخمة . حتى أثبت سير فرانسيس دراك أن هذه الأرض التي تعرف باسم (Tiera del Fuego) ما هي إلا جزيرة صغيرة تنتهي جنوباً برأس هورن . ولكن نتائج بعض الرحلات الاستكشافية التالية كرحلات شوتن وكبروس وجانزون ظلت تؤيد هذا الاحتمال ، فقد اتجه معظم المستكشفين في ذلك العصر إلى أن يأخذوا كل أرض جديدة تكتشف إلى الجنوب على أنها جزء من القارة القطبية الجنوبية . وظل هذا السؤال قائماً حتى عصر كوك : هل توجد حقاً هذه القارة الجنوبية وإذا كان الأمر كذلك فما هي طبيعتها وامتدادها الجغرافي ؟

ثانياً : القارة الاسترالية :

بدأ الهولنديون استكشاف واستعمار جزر الهند الشرقية ومنها وصلوا إلى سواحل أستراليا . ولكن هناك من يرى أن سفن أسبانيا والبرتغال بلغت أستراليا قبل الهولنديين . ويعتمد هذا الرأي على بعض الخرائط التي يرجع تاريخها إلى عام ١٥٣٠ . بينما يرفض جمهرة من العلماء هذا الرأي ويعتقدون أن هذه الخرائط تعتمد على الخيال أو على أحاديث الأهالي في جزر الهند الشرقية .

جاء اكتشاف القارة الأسترالية متأخراً . فقد كانت تقع خارج الخطوط الملاحية بين أوروبا وجزر الهند الشرقية . وحتى عندما عرف بوجودها فإن استكشافها واستعمارها تأخر كثيراً بسبب التقارير غير المشجعة التي عادها الرحالون الأوائل الذين أغروا على طول السواحل الغربية القاحلة . ومن أمثلة هذه التقارير ما جاء في وصف واحد منهم للشمال بأن « الجانب الأكبر منه صحراء ويسكنه في بعض الأماكن قوم سود قسا متوحشون » !

استطاع الهولنديون في القرن السابع عشر أن يطردوا البرتغاليين والإنجليز من جزر الهند الشرقية ويستولوا على تجارة التوابل . وكان أهم مركز تجاري لهم ميناء باتافيا في جزيرة جاوه التي نعرفها الآن باسم جاكرتا . والواقع أن الهولنديين لم يخلوا فعلاً سوى جزيرة جاوه واكتفوا بإقامة مراكز تجارية على الجزر الأخرى . وقد وجدت شركة الهند الشرقية الهولندية أن احتلال أستراليا عملية غير اقتصادية . وخاصة أن التقارير الأولى للمكتشفين الأوائل لم تكن مشجعة . ومن ناحية أخرى فقد كان الهولنديون يرفضون أن يروا أوروبا آخر يستقر في هذه الأرض لذلك أعلنوا ملكيتهم لها وادخلوها في خرائطهم وأسموها هولندا الجديدة .

لعل أول من اكتشف أستراليا هو وليم جازنون

الهولندي ، الذي أبحر على طول الساحل الجنوبي لغينيا الجديدة ثم تابع رحلته جنوباً حتى وصل إلى مضيق كارينتاريا في شمال أستراليا واستمر يتحرك على طول ساحله الشرقي حتى أجبرته عداوة الأهالي على العودة . ولكن أهم رحلة استكشافية تسبق رحلة كوك كانت بقيادة ابل تاسمان الهولندي عام ١٦٤٢ أي قبل رحلة كوك بأكثر من مائة وعشرين عاماً ، وكان الحاكم الهولندي لجزر الهند الشرقية فان ديمن يرغب في معرفة نطاق هذه الأرض الجديدة فأرسل بعثة بقيادة تاسمان ، الذي غادر باتافيا متجهاً إلى الغرب حتى جزر موريشياس في المحيط الهندي ثم قفل عائداً إلى الشرق والجنوب الشرقي ليقع على جزيرة كبيرة أطلق عليها اسم أرض فان ديمن هي ما نعرفها اليوم بجزيرة تاسمانيا في جنوب شرق أستراليا . ومن هنا اتجه تاسمان شرقاً مع الرياح الغربية حتى وقع بعينه على نيوزيلاند . فأبحر على طول ساحلها الغربي ومن هناك عاد إلى جاوه ماراً بشمال غينيا الجديدة .

يرى بعض الكتاب أن رحلة تاسمان كانت « فشلاً رائعاً ! » فن سوء حظه أنه دار حول أستراليا دون أن يراها . ولكنه استطاع بذلك أن يحصر المساحة التي يمكن أن تقع فيها القارة الجنوبية : كما أثبت أن أستراليا ليست جزءاً من القارة الجنوبية : وإن كان قد توهم أن نيوزيلاندا جزء من القارة الجنوبية وبالرغم من هذا فإن رحلة تاسمان تعد من أنجح الرحلات الكشفية فقد أدت إلى إضافة تاسمانيا ونيوزيلاندا وعدد آخر من الجزر الصغيرة إلى خريطة العلم . وفتحت الباب على مصراعيه لرحلات كوك التالية .

ثالثاً : الممر الشمالي الغربي :

ذكرنا فيما سبق أن الطرق البحرية إلى جزر الهند الشرقية كانت تقع في أيدي الأسبان والبرتغاليين ، بينما بقيت دول شمال غرب أوروبا بعيداً عن هذا الميدان في وقت كانت النزعات القومية تفرق بينها ، وكان

التنافس على المستعمرات والاتجاه إلى التوسع هو الصفة الغالبة بينها . وكان طبيعياً أن تتجه هذه الدول إلى البحث عن طريق آخر إلى الشرق ، وأن يكون بحثها في مناطق لم تستكشف بعد . وانفرد الانجليز والهولنديون بمحاولة الوصول إلى جزر الهند الشرقية بالأبحار حول شمال آسيا شرقاً أو أمريكا غرباً . وقد بدأت محاولات البحث عن « الممر الشمالي الشرقي » في شمال آسيا وانتهت أولاً . ومن ثم اتجهت جهود الرحالة إلى العثور على « الممر الشمالي الغربي » على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية . وتتعاقب رحلات المستكشفين فروبشير الانجليزي (١٥٧٦ - ١٥٧٨) وجون دافيز (١٥٨٥ - ١٥٨٧) على نفقة تجار لندن ، ثم هنري هلسون (١٦٠٩ - ١٦١٠) في خلسة الهولنديين ، وباتون (١٦١٢) وبيلوت وبافين (١٦١٥ - ١٦١٦) وقد كشفت هذه الجهود عن تفاصيل كثيرة في خريطة الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية ، ولكنها لم تنجح في الكشف عن ممر يؤدي إلى المحيط الهادى . وبقيت هذه المشكلة معلقة ليعاود كوك المحاولة في رحلته الثالثة .

• • •

هذه هي القضايا الثلاث التي شغلت بال الجغرافيين والملاحين والمستعمرين والساسة في هذا العصر ، وقدر لكوك أن يغير بشكل حاسم في أفكارهم جميعاً نتيجة للحقائق الجغرافية الجديدة التي عاينها من رحلاته . لم يكن كوك وحده في الميدان ، ويجدر بنا أن نأخذ فكرة عن الرحلات المعاصرة له حتى نستطيع أن نقدر النجاح الذي حازه بالمقارنة بما أحرزه معاصروه من المستكشفين في نفس المياه التي أبحر فيها كوك . ففي عام ١٧٦٤ غادر جون بيرون إنجلترا ، بتعليمات للبحث عن جزر بيس وجزر فالكولاند ولكنه لم يجد الجزر الأولى التي قيل إنها شوهدت عام ١٦٨٤ ، واستولى على مجموعة جزر فالكولاند التي توجد بالقرب من مضيق ماجلان ، حاسباً أياها جزر بيس ، وكان

بوجانفيل الفرنسي قد استعمرها في رحلة سابقة ، واستطاع بيرون في رحلته عبر المحيط الهادى أن يكتشف عدة جزر وأن يقدم بعض الأدلة على وجود أرض إلى الجنوب ، وهو زعم لم تثبت صحته بعد ذلك .

لم تنجح هذه الرحلة كثيراً ، فقرر إرسال سفينتين بقيادة كل من واليس وكارتريت ، ولكن السفينتين افرقتا عند دخولهما المحيط الهادى ، وانحلتا مسارين مختلفين ، فاكشفت الأولى جزيرة تاهيتى الكبيرة واكتشفت الثانية مجموعة جزر سانتا كروز ، وصححت موقع عدد من الجزر التي سبق اكتشافها .

وأهم الفرنسيون في هذا النشاط برحلات لويس انطوان دى بوجانفيل الذي قاد عامى ١٧٦٣ ، ١٧٦٥ رحلتين لاستعمار جزر فالكولاند ثم ذهب في عام ١٧٦٦ ليسلم هذه الجزر إلى أسبانيا ومنها اتجه إلى ريودى جانيرو حيث اصطحب معه سفينة تموين ليبدأ رحلة حول العالم عبر فيها المحيط الهادى بقصد البحث عن حل لمسألة القارة الجنوبية . فزار جزيرة تاهيتى بعد اكتشاف واليس لها ببضعة أشهر ، ثم اكتشف مجموعة جزر ساموا ثم زار عدداً من الجزر التي تقع إلى الشرق من استراليا ، ومنها اتجه إلى الساحل الشمالى لغينيا الجديدة في طريق عودته إلى فرنسا التي وصلها عام ١٧٦٩ ، بعد أن غادر كوك إنجلترا في رحلته الأولى .

يوميات الكابتن كوك :

من تقاليد البحر أن يحتفظ قبطان السفينة بسجل يكتب فيه بانتظام الأحداث التي تمر بها السفينة . وعندما تكون الرحلة غير عادية ، والأصقاع التي تمر بها السفينة غير معروفة ، يصبح دفتر الأحوال هذا عملاً له أهمية كبيرة ، وخاصة إذا كتبه قبطان مثل كوك ، ذلك العالم اللطيف ، ذو الحاسة السادسة للكشوف الجغرافية ، والذي كان يعرف تماماً أبعاد المهمة المنوطة به ، ويعرف كيف يحققها على أكمل وجه

ممكّن . ويوميّات البحر هذه هي المصدر الرسمي لأي كشف جغرافي جديد ، ومرجع للعلماء في التاريخ للكشوف الجغرافية ، وخاصة عندما تتنازع الأمم شرف سبق إلى هذه الفتوح سواء عن رغبة علمية أو نزعة استعمارية . ولكن هذه اليوميّات في حالتها الأصلية أصبح عبئاً على القارئ الباحث أو القارئ العابر بما فيها من تفاصيل قد لا تحت بصلة كبيرة للموضوع الأصلي . لذلك يعمل أصحابها أو الناشرون على إعادة كتابتها بعد تصفيتها من التفاصيل غير الأساسية . وهذه اليوميّات لمشاهير المستكشفين تعطينا عادة صورة حية لظروف المعيشة على ظهر السفينة ، وانفعال الكاتب بالأرض الجديدة وأهلها ، والأهداف الحقيقية لهذه الرحلات ومدى نجاحها .

صدرت يوميّات كوك على مراحل متتالية وتحت عناوين مختلفة . ففي عام ١٧٧٢ - ١٧٧٣ نشر دكتور هوكسورث كتاباً تحت عنوان « رحلات » وتولى فيه تحرير حكاية كوك عن رحلته الأولى تحت عنوان « وصف لرحلة حول العالم في السنوات ١٧٦٨ - ١٧٧١ » .

أما قصة الرحلة الثانية فقد كتبها الكاتب كوك نفسه بالاشتراك مع جورج فورستر ابن الدكتور فورستر العالم الطبيعي ، والذين صحباه في رحلته الثانية وتولى دوجلاس إصدارها في جزئين عام ١٧٨٤ تحت عنوان « رحلة إلى القطب الجنوبي وحول العالم » .

أما يوميّات الرحلة الثالثة فقد قام كوك بكتابتها حتى مصرعه ثم تولى الملازم « كنج » - الذي رقى فيما بعد إلى قبطان - كتابة بقية الرحلة حتى العودة إلى إنجلترا . وقد نشرت الرحلة الثالثة بواسطة دوجلاس أيضاً في ثلاثة أجزاء عام ١٧٨٤ ، تحت عنوان « رحلة إلى المحيط الهادى . . . لعمل استكشافات في نصف الكرة الشمالى » .

أثارت رحلات كوك كثيراً من الخيال ، وأقبل الكثيرون على قراءتها مما جعل الناشرين يتبارون في إصدارها بمختلف اللغات وفي طبعات وأحجام عديدة وتحت عناوين متباينة . ويستطيع القارئ أن يتبين هذا الاقبال من مقدمة أحد الناشرين عام ١٨٣٣ ، والتي أعرض هنا جزءاً منها ، يقول الناشر « بين كل الملاحن الذين عرفهم العالم ، كان الكاتب كوك أكثرهم قدرة ومهارة كما فاقهم بكثير في النجاح الذي حققه . وقد أخذ وصف رحلاته الثلاث ، منذ أمد طويل ، مكاناً متفوقاً على أى أعمال مماثلة . فنشرت أعماله في جميع الأحجام ، ويمكن أن يقال أنها أصبحت مرجعاً أساسياً للمدارس : وجزءاً لا غنى عنه في مكتبة رجل البحر » .

الرحلة الأولى :

كان الهدف الأول لهذه الرحلة هو رصد كوكب الزهرة من جزر تاهيتى أثناء عبوره عام ١٧٦٩ . ولكن الآمال الكبيرة في احتمال الكشف على القارة الجنوبية دعت البحرية إلى تخصيص سفينة تحمل بعثة الجمعية الملكية إلى تاهيتى ثم تنجّه بعد ذلك إلى القارة المشرودة التي كان الكل يعتقد أنها أكبر من أوروبا وآسيا مجتمعتين وأنها سوف تفيض بالثروة والرخاء على أول دولة ترفع علمها عليها . تولى كوك قيادة هذه الرحلة وكان تمكنه في علوم الفلك والملاحة قد رشحه لتولى رئاسة هذه البعثة العلمية ، التي كانت تضم عدداً من العلماء منهم شارل جرين الفلكى وجوزيف بانكس عالم النبات المعروف الذى منح لقب سر وانتخب فيما بعد عضواً بالجمعية الملكية وصار رئيساً لها لمدة تزيد على الأربعين عاماً ، وترك للمتحف البريطانى مجموعات نباتية لا تقدر بثمن . وقد صحب بانكس في هذه الرحلة صديقه دكتور سولاندر وعدداً من مساعديه ، حتى يقوموا ببحوث في التاريخ الطبيعى . وقد نجح كوك في التعاون مع مجموعة العلماء وتيسير مهمتهم ، كما كان للحماس

بانكس واخلصه وتعاونه مع كوك الفضل الأكبر في النجاح الذي حققته البعثة . وقد أعطت هذه المجموعة من العلماء البعثة طابعاً جديداً لم تعرفه الرحلات الماثلة من قبل .

ووقع الاختيار على السفينة « انديفر » التي بنيت في ويتبي لتجارة الفحم . وهي سفينة ذات ثلاثة قلاع تبلغ حمولتها ٣٦٨ طناً ، وتمتاز بغاطس صغير ، وسعة كبيرة وامكانية رفعها على الشاطئ لعمل الإصلاحات الضرورية وكانت هذه كلها كما أثبتت حوادث الرحلة مميزات كبيرة لسفينة سوف تبحر لمسافات طويلة في مياه ساحلية لتتمكن من رسم الشواطئ الجديدة التي ستكتشفها .

غادرت « انديفر » إنجلترا في ٣٠ يولييه ١٧٦٨ ، وهي تحمل ٩٤ فرداً على ظهرها . وفي يناير ١٧٦٩ كانت تمر بكاب هورن في طريقها إلى المحيط الهادى وفي ١٣ أبريل بلغت مياه تاهيتي وبدأت في الاتصال بالأهالى . وفي خلال ثلاثة أشهر من الإقامة استطاع كوك - بفضل النظام الدقيق الذي فرضه على بحارته - أن يحافظ على علاقات المودة مع الأهالى . وأخيراً جاء يوم ٣ يونيه المنتظر الذي ثبت كما يقول كوك « أنه صالح تماماً لأغراضنا كما كنا نرجو . فلم تر صحابة واحدة طول اليوم وكان الهواء شفافاً فحصلنا على كل ميزة يمكن أن نتمناها في ملاحظة عبور كوكب الزهرة على قرص الشمس » وهكذا أمكن للبعثة أن تراه في الزهرة من مكانين أو ثلاثة على الجزيرة . وبالإضافة إلى هذا قامت مجموعة العلماء بعدة رحلات داخل الجزيرة وعلى طول الساحل لدراسة الجزيرة من عدة وجوه مختلفة .

ولإلى هنا كانت المهمة المعلنة للبعثة قد انتهت ، ولكن الأدميرالية كان لها هدف آخر ، ففي مظهر مغلق كان كوك يحمل أوامر سرية بأن يتقدم من تاهيتي إلى الجنوب بقصد الكشف عن القارة (التي توجد إلى جنوب مسار والاس) حتى تصل إلى خط عرض

٤٠° إلا إذا وقعت عليها قبل ذلك ، أما إذا لم تكتشفها أو أية علامات تدل عليها في هذا المسار ، فعليك أن تتقدم للبحث عنها إلى الغرب ، بين خط العرض السابق ذكره وخط عرض ٣٥° حتى تكتشفها أو تقابل الساحل الشرقى للأرض التي اكتشفها تاسمان والتي تسمى الآن نيوزيلانده . . وإذا فشلت في اكتشاف القارة . . فعليك عندما تصل إلى نيوزيلانده أن تلاحظ خطي العرض والطول اللذين تقع عندهما هذه الأرض ، وأن تكشف أكثر ما يمكنك من سواحلها بقدر ما تسمح حالة المركب ، وصحة بحارتها ، وغزونك من الأكل » وهكذا لم يكن رصد عبور الزهرة سوى الهدف المعلن لبعثته كان الهدف الحقيقي لها هو الكشف عن القارة الجنوبية ، وإضافة أرض جديدة للامبراطورية . وقد زود كوك عند سفره بكثير من المعلومات والخرائط والمراجع ، كان بينها كتاب دى بروس^(١) الفرنسي عن تاريخ الملاحة حول أرض الجنوب ، والذي كان يحوى عدة بيانات هامة عن القارة الجنوبية ، ودعوة حارة إلى الفرنسيين للقيام بعمل استكشاف في هذه المنطقة وتكررت هذه الدعوة في بريطانيا عام ١٧٦٦ بواسطة كالندر ، ثم جاء داريميل ، وكان من غلاة المؤمنين بوجود هذه القارة والداعين للبحث عنها ، ألف كتاباً صغيراً جمع فيه بيانات عن الرحلات السابقة لهذا الجزء من العالم ، وأعطى مخطوطاً منه إلى جوزيف بانكس قبل أن تغادر البعثة إنجلترا . وكان من رأى داريميل أن هذه القارة تقع على مسافة قصيرة إلى الغرب من أمريكا الجنوبية . ولهذا السبب فإن كوك عندما غادر كاب هورن في طريقه إلى تاهيتي اتخذ كما يقول في مذكراته « مساراً أكثر انحرافاً إلى الغرب من أية سفينة فعلت ذلك من قبل ، ولكن هذا لم يسفر

(١) de Brosses' : Histoire des navigations aux terres Australes.

عن أى كشف حتى وصلنا إلى المنطقة المدارية حيث اكتشفنا عدة جزر .

غادرت البعثة تاهيتى فى ٣١ يوليه ١٧٦٩ أى بعد عام من بدء الرحلة . وهنا يبدأ جانبها الشيق من الناحية الجغرافية . واصطحبت البعثة معها أحد الأهالى بناء على رغبته . وقد قدم توييا ، وهذا اسمه خدمات جليلة للبعثة فى مراحلها التالية . وما كاد كوك يتحرك غرباً حتى عُثر على مجموعة من الجزر سماها جزر الجمعية تكريماً للجمعية الملكية ، ثم اتجه جنوباً بحثاً عن القارة المنشودة ، حتى قطع ١٥٠٠ ميل ووصل إلى ٤٠° جنوباً دون أن يعثر لها على أثر فغير اتجاهه إلى الغرب ليصل فى ٧ أكتوبر إلى نيوزيلانده .

اكتشف تاسمان نيوزيلانده عام ١٦٤٢ ، ولكن هولندا لم تستطع احتلالها ، بل إن أحداً من الأوربيين لم يرها حتى وصل كوك . وكان تاسمان يظن أنه اكتشف جزءاً من القارة الجنوبية ، ولم يكن كوك يدرك عند وصوله إذا كانت هذه هى القارة الجنوبية ، ونراه يعلق على هذا قائلاً : « هذه الأرض أصبحت موضوعاً لكثير من المناقشات الشيقة ، ولكن يبدو أن الفكرة العامة تقول إننا وجدنا أرض الجنوب المجهولة » . لذلك عندما وصل كوك إلى الساحل الشرقى ، وهو الساحل الذى لم يره تاسمان أبداً ، قرر أن يبحر على امتداده حتى يتمكن من فحصه وأن يضع حداً لهذه المناقشات .

تحرك كوك ببطء فى اتجاه الجنوب حتى رأس « ترن آجين » (Cape Turn Again) ثم عاد ثانية فى اتجاه الشمال ليرسم خريطة الساحل ، ثم دار حول الجزيرة الشمالية واستكشف المضيق المعروف باسمه والذى يفصل بين الجزيرتين الرئيسيتين لنيوزيلانده ، وكان تاسمان قد اعتبره خليجاً مغفلاً . ثم دار حول الجزيرة الجنوبية ، وانتهى من رسمها بدقة فى مارس ١٧٧٠ . واستطاع أن يستكشف ٧٤٠٠ ميل من السواحل فى أكثر قليلاً من ستة أشهر ، وأن يرسمها

بدقة كبيرة ، لا تزال تشهد حتى اليوم بقدرته على الملاحظة ، وكفاءته فى المساحة البحرية . وعندما حاول أحد المستكشفين الفرنسيين أن يعمل خريطة لجزء من الساحل فيما بعد ، وجد أنه « عندما قارنت خريطتى بخريطة كوك وجدت أنها على درجة من الضبط والدقة فى التفاصيل حتى أنها إدهشتنى بدرجة تفوق قدرتى على التعبير » . لأننى أشك إذا كانت سواحلكم الفرنسية قد رسمت بدقة أكبر .

وبانتهاء هذه المرحلة من الرحلة ، عرف كوك أن نيوزيلانده ليست القارة المنشودة . ولكنه كان قد نفذ تعليمات الأدميرالية بالضبط ، وكان يستطيع أن يعود إلى إنجلترا مباشرة . ولكنه كان يود أن يسلك الطريق الذى يمكن فيه احتمالات الكشف الجغرافى . وكان أمامه أن يعود عن طريق كاب هورن فى أمريكا الجنوبية حتى يدرس احتمال وجود القارة الجنوبية فى هذه لأصقاع ، ولكنه رأى أن يقضى الأبحار فى هذه العروض المتطرفة « فى أعماق الشتاء بسفينة لم تعتبر كافية لمثل هذه المغامرة » . ولهذا السبب أيضاً رفض كوك الأبحار إلى رأس الرجاء الصالح مباشرة . وقرر أنه « يجب علينا أن نعود من جزر الهند الشرقية ، ولهذا السبب يجب علينا عند مغادرة الساحل أن نتجه غرباً حتى نقع على الساحل الشرقى لهولندا الجديدة ثم نتابع اتجاه الساحل إلى الشمال حتى نصل إلى طرفها الشمالى . وهذه الفكرة تحركنا فى اتجاه البحر فى مطلع يوم السبت ٣١ مارس ١٧٧٠ . » وأثبتت هذه الخطوة نجاحاً كبيراً ، فقد وقع نظرم على الأرض مرة أخرى فى ١٩ أبريل « لقد حددت موقع هذه الأرض بخط عرض ٣٨° وأعطيها اسم نقطة هيكس (Point Hicks) الضابط الأول الذى كان أول من رآها » ولكن كوك لم ير أرضاً فى اتجاه الجنوب ورفض أن يذكر إذا كانت هذه الأرض التى اكتشفها تتصل مع تاسمانيا أو أرض فان ديمن التى اكتشفها تاسمان أم لا . وبدلاً من أن

وقد أثبت هذا الحادث أن السفينة كانت اختياراً موقفاً بسبب غاطسها الصغير الذي يسمح لها بالانحار في المياه الضحلة . وفي خلال الفترة التي قضتها البعثة على الشاطئ استطاعت أن تستكشف جانباً من الأرض وأن ترى وتصطاد لأول مرة حيوان الكانجارو أكبر حيوان ثدي في استراليا .

وفي ٤ أغسطس أنزلت أنديفر إلى البحر وتحركت شمالاً على طول الساحل لبضعة أيام ، ولكن القناة بين الحاجز المرجاني والساحل كانت تضيق باستمرار مما يزيد في أخطار الملاحة حتى قرر كوك وضباطه أن يخرجوا إلى البحر عند أول فتحة في الحاجز، ولكنهم ما كادوا يفعلون حتى وجدوا أنفسهم في مأزق أشد خطورة . فإن الأمواج والرياح وتيارات المد كانت تدفع بهم نحو الحاجز المرجاني وبجهد كبير استطاع كوك أن يبعد سفينته عن الصخور حتى تمكن في أول فرصة مواتية أن يزلق مع التيار خلال إحدى الفتحات إلى المياه الهادئة بين الحاجز والساحل ،

واصل كوك رحلته شمالاً حتى وصل إلى الطرف الشمالي لاستراليا في ٢١ أغسطس ونراه يكتب « إنني الآن على وشك أن أغادر الساحل الشرقى لهولندا الجديدة الذي سرت بمحاذاته من خط عرض ٣٨° حتى هذا المكان والذي لا أشك مطلقاً أن أحداً من الأوروبيين قد رآه من قبل ، . . . » .

غادر كوك استراليا إلى غينيا الجديدة خلال ممر تورس ، وهكذا أثبت كوك أن استراليا وغينيا الجديدة منفصلتان تماماً ، وهي حقيقة أثبتها تورس قبل قرن ونصف قبل ذلك ولكنها كانت موضع شك في عصر كوك ، الذي نراه يعلق على بعض الخرائط ويقول في تواضع « لقد اعتقدت دائماً قبل أن أرى هذه الخرائط أنه لم يكن معروفاً إذا كانت هولندا الجديدة وغينيا الجديدة أرضاً واحدة متصلة أم لا . لقد حسنا الآن النقاش في هذا الموضوع تماماً ، وكما أعتقد فإن هذا

يتجه كوك جنوباً ليفحص هذا الأمر ، قرر أن يتجه شمالاً على طول الساحل تاركاً هذه المسألة ، حتى عرف عام ١٧٩٨ أن تاسمانيا جزيرة منفصلة تماماً عن استراليا . وفي أثناء الرحلة شمالاً كانت البعثة تنزل من وقت لآخر على الشاطئ وتتصل بالأهالي الذين كانوا يقابلونهم بكثير من الشك . وفي أحد الأماكن عاد بانكس ، وسولاندر بثروة من النباتات بدرجة جعلت كوك يطلق على الخليج الذي كانت تحيط به الحضرة من كل جانب اسم خليج النبات ، والذي لا يزال يعرف بهذا الاسم حتى اليوم . وإلى الشمال قليلاً اكتشف في ٦ مايو موقع بورت جاكسون الذي احتلته فيما بعد مدينة سيدني .

وبدأت الرحلة تدخل مرحلة خطيرة باقترابها من الحاجز المرجاني العظيم الذي يمتد ١٢٠٠ ميل على طول الساحل الشرقى لاستراليا . فقد وجدوا أنفسهم في المنطقة المحصورة بين الحاجز والساحل ، وهي منطقة تقتضي كثيراً من الحذر أثناء الملاحة بسبب الشعاب التي تختفي تحت سطح الماء وتكون عقبات ملاحية خطيرة . ولمسافة ألف ميل كان هناك دائماً رجل في مقدمة السفينة ليقبس عمق المياه تحتها ، ورغمما عن هذه الحيلة فقد وقعت أنديفر صباح يوم ١٠ مايو في مأزق خطير كان يمكن أن يقضى على السفينة وبجاراتها . فبعد أن مروا بعدد من الشعاب المرجانية الخطرة وبدأ لهم أنهم دخلوا في مياه عميقة، اصطدمت بصخرة لم يتبينوها، وبقيت السفينة مستقرة عليها على مسافة من الشاطئ . وعمل الجميع على إنقاذ سفينتهم فأداروا المضخات والتواكل ما يمكن الاستغناء عنه من السفينة حتى عامت مع ارتفاع المياه أثناء المد التالي . وقد تبين فيما بعد أن السفينة قد نجت بأعجوبة حين اكتشفوا أن الثقب الأكبر في قاع السفينة بقي مسدوداً بواسطة حجر كبير استطاع كوك أن يقود السفينة بخدر إلى مكان مناسب على الساحل حيث رفعت السفينة على الشاطئ لاصلاحها .

الأمر كان معروفاً من قبل ، ولكن ليس على نطاق عام ، لأننى لا أدعى لنفسى أكثر من أننى أوضحت نقطة كانت غامضة .

وصلت البعثة إلى باتافيا لتقضى بعض الوقت فى الراحة وإصلاح السفينة وتموينها ، ولكنها تعرضت لأمراض المناطق الحارة مثل الملاريا والسلستاريا فسقط خلال عشرة أسابيع ثلاثون من الرجال ، كان من بينهم تويبا الذى رافق السفينة من تاهيتى . ثم مات جرين الفلكى بعد أن غادرت السفينة باتافيا فى ٢٧ ديسمبر عام ١٧٧٠ فى طريقها إلى رأس الرجاء الصالح حيث قضت البعثة شهراً . وفى ١٢ مايو ١٧٧١ وصل كوك ورفاقه إلى إنجلترا بعد غيبة استمرت أكثر من سنتين وتسعة أشهر .

كان تقرير كوك إلى الجمعية الملكية غير مرضى تماماً ، فان رصد عبور الزهرة لم يأت مجدداً فى تحديد المسافة بين الأرض والشمس . ومن ناحية أخرى لم تصل البعثة إلى حل لمسألة القارة الجنوبية . وعدا هذا فان رحلة كوك - بصرف النظر عن آثارها السياسية - قد أضافت كثيراً إلى جغرافية الكرة الأرضية . فقد أظهرت نيوزيلانده كجزيرتين منفصلتين ، وليست جزءاً من القارة الجنوبية كما ظن تاسمان ، كما أنها ضيقت النطاق الذى يمكن البحث فيه عن القارة الجنوبية . وبالرغم من أن كوك ليس المكتشف الأول لاستراليا فانه أضاف الساحل الشرقى بأكمله إلى المعلومات السابقة عن السواحل الأخرى ، وأثبت أن هذه القارة منفصلة تماماً عن غينيا الجديدة . واستطاع كوك أن يدعم كل هذه الاكتشافات بخرائط غاية فى الدقة .

ولعل من أهم النتائج الإيجابية لرحلة كوك ، قلوته على المحافظة على صحة بحارته فى وقت كان مرض الأسقربوط العدو الأكبر للرحلات الطويلة . وأولا الكارثة التى حلت بالبعثة نتيجة للأمراض المعدية لانتهت الرحلة دون ضحايا . فقد عرف كوك باتخاذ إجراءات

مشددة لحماية صحة بحارته ، مثل تزويده البحارة بعصير الموالح وإدخال الخضروات فى الأكل والعناية بنظافة أماكن البحارة . وهكذا كان فى استطاعته أن يعلن - عندما وصل إلى باتافيا - «لأننى أقول بكثير من الرضى لأننى لم أفقد رجلاً واحداً نتيجة للمرض خلال الرحلة بأكملها» .

الرحلة الثانية :

عاد كوك إلى إنجلترا فى وقت تزايد فيه اهتمام فرنسا بالمحيط الجنوبي واحتمال الكشف عن القارة الجنوبية. فاكشف كرجيولن (Kerguelen-Trémarec) فى فبراير ١٧٧٢ الجزيرة التى تعرف باسمه فى جنوب المحيط الهندى ، وعاد إلى فرنسا فى نفس الشهر الذى غادر فيه كوك إنجلترا فى رحلته الثانية . كذلك سافر ماريون (Marion-Dufrense) وكورزيت Corzet فى رحلة إلى الجنوب حيث اكتشف جزيرة ماريون ثم جزيرة كورزيت فى يناير ١٧٧٢ . وهذه الجزر الثلاث تقع فى المحيط الهندى جنوب خط عرض ٤٥ . واعتبرت بوساطة مكتشفها كنقطة متقدمة للقارة الجنوبية المنشودة .

لم تكن إنجلترا بغافلة عن هذا النشاط الفرنسى فى وقت اشتد فيه التنافس الاستعماري ، فقررت الأدميرالية الإنجيزية إرسال كوك فى رحلة ثانية ليجد حلاً نهائياً لمشكلة القارة الجنوبية . وأختبرت سفينتان حديثتان حملتهما ٤٦٢ و ٣٣٦ طناً ، ولم يدر أى جهد فى إعدادهما لهذه المهمة بدرجة تفوق أى بعثة سابقة . تولى كوك قيادة السفينة الكبيرة رزوليوشن (Resolution) بينما قاد السفينة الثانية أدفنتشر (Adventure) الكابتن فورنو (Furneaux) الذى خلع كلاً من ثان تحت قيادة وليس فى بعثة سابقة . وفكر العالم الطبيعى بانكس الذى رافق كوك فى رحلته الأولى أن ينضم إليه فى مهمته الجديدة ولكن هذه الفكرة لم تتحقق وسافر مع كوك عالم فى التاريخ الطبيعى - من أصل ألماني - هو جوهان

فورستر (Johann Forster) مصطحباً ابنه جورج ،
الذى شارك كوك في كتابة رواية هذه الرحلة .

وفي يوم ١٣ يولييه ١٧٧٢ غادرت السفينتان
بليموث ، وكانت التعليمات المكتوبة بتاريخ ٢٥ يونيه
تدب على الأثر الكبير الذى تركته الرحلات الفرنسية على
البرنامج الموضوع ، والذى بشرحه كوك فيقول : كان
على بعد مغادرة رأس الرجاء الصالح أن أتقدم إلى
الجنوب وأن أبذل جهدى كى أقع على رأس
سيريكسزيون التى قال عنها مسيو بوفيت إنها تقع في
خط عرض ٥٤° جنوباً وخط طول حوالى ٢٠° ١١°
شرق جرينتش . فاذا اكتشفت هذه الرأس ، كان على
أن أثبت إذا كانت جزءاً من القارة التى جذبت أنظار
الجغرافيين والملاحين القدامى ، أو إنها جزء من جزيرة .
فاذا ثبت الاحتمال الأول ، كان على أن أبذل جهدى
في اكتشاف أكبر جزء منها بقدر ما أمطع وأن آخذ
بيانات وملاحظات من كل نوع بقدر ما يكون نافعا
للملاحة أو التجارة أو بعد تقدما في العلوم الطبيعية . وقد
تلقيت أيضاً توجيهات بأن ألاحظ عدد السكان ، إن
وجدوا ، وما يتصفون به من ذكاء ومهارة ومزاج
واستعداد للتعاون . وأن أبذل جهدى بكل الوسائل
الصحيحة كى أنشئ صداقة وأعقد حلفاً معهم ، وأن
أقدم لهم هدايا من الأشياء التى بقدرتها ، وأن أدعوهم
للتجارة ، وأن أظهر لهم كل أنواع الأدب والاحترام .
أما إذا أثبت أن هذه الرأس جزء من جزيرة فقط ،
أو إذا لم أتمكن من العثور على الرأس المذكورة فإن
على في الحالة الأولى ، أن أعمل المساحة اللازمة للجزيرة
ثم أواصل الاتجاه جنوباً ، بقدر ما أستطيع الحكم على
احتمال العثور على القارة الجنوبية وهو ما يجب أن أفعله
أيضاً في الحالة الأخيرة ثم على أن أتقدم شرقاً لمزيد من
البحث عن القارة المذكورة ، كذلك أن أكتشف
الجزر التى يحتمل وقوعها في هذا الجزء الذى لم يستكشف
بعد من نصف العالم الجنوبي ، وأن أبقى في العروض

المنطرفة وأن أنفذ اكتشافاتى كما ذكر سابقاً بالقرب من
القطب بقدر ما تسمح الظروف حتى أكون قد درت
حول العالم ، وعندئذ يجب أن أتقدم نحو رأس الرجاء
الصالح ومنها إلى إنجلترا .

غادرت السفينتان رأس الرجاء الصالح في ٢٢
نوفبر ١٧٧٣ في طريقهما نحو الجنوب وبالرغم من
الصيف الجنوبي فقد وزعت الملابس الثقيلة على البحارة ،
إذ كان الجو يزداد برودة . وسرعان ما شوهد أول جبل
ثلجى في ١٠ ديسمبر ، ثم حاول كوك البحث عن
أرض بوقيه التى كان يعتقد أنها رأس متقدمة للقارة
الجنوبية ، ولكنه لم يجد أى أثر للقارة أو الجزيرة . وفي
يوم ١٧ يناير ١٧٧٣ ، عبرت البعثة الدائرة القطبية
الجنوبية لأول مرة في تاريخ الإنسان ولكن كوك لم يقع
بهذا ، وواصل التقدم حتى خط عرض ٦٥° ٦٧° في
جو متزايد البرودة وظروف ملاحة خطيرة بسبب
الضباب والأمطار والثلوج والجبال الثلجية ، حتى
اضطر للعودة قائلاً : لم نستطع التقدم أكثر من ذلك فإن
نطاق الثلج كان مغلقاً تماماً إلى الجنوب على طول المسافة
من الشرق إلى الجنوب الغربى دون أقل شاهد لوجود
أى فتحة فيه . وفي هذه الظروف افترقت السفينتان
ولم تتمكن من التلاقى إلا بعد ثلاثة أشهر في نيوزيلانده
التي اتفق على اختيارها من قبل كنقطة التقاء في مثل
هذه الأحوال ، وكمكان مناسب لقضاء فصل الشتاء .

ومن نيوزيلانده قصد كوك تاهيتى فوصلها في ١٦
أغسطس ١٧٧٣ ومن هناك زار عدداً من الجزر
واستكشفها من بينها مجموعة جزر « تونجا » التى سماها
جزر فريندلى نظراً للعلاقات الطيبة بين سكانها وحسن
استقبالهم للغريباء .

وقبل أن يتجه إلى الجنوب في مهمته الأساسية قرر
المرور بنيوزيلانده وبالقرب من ساحلها افترقت
السفينتان مرة ثانية في ٣٠ أكتوبر وفشلت كل محاولة
للتلاقى وفي ٢٥ نوفمبر بدأ كوك بحثه للمرة الثانية في

اتجاه الجنوب وفي خلال هذا الصيف الجنوبي اخترق الدائرة القطبية مرتين عند خطى طول 140° ، 106° غرباً ، ووصل إلى خط عرض 70° جنوباً وفي يوم ١٤ ديسمبر شاهدوا أول جبل ثلجي وفي خلال الأسابيع الستة التالية أبحرت البعثة في جو قطبي ، تعطينا قصة الرحلة وصفاً تفصيلياً له . هو أول تسجيل دقيق لهذه الأجواء . ففي ١٤ ديسمبر قابلوا عدداً من الجزر الثلجية الضخمة ثم كمية من الثلج المفكك . وبتقدمهم أكثر ازداد عدد الجزر الثلجية بسرعة كما ازدادت كميات الثلج المفكك . وسرعان ما أفلتوا من هذه الثلوج ، ولكن بعد أن تلقوا عدة صلصات قاسية من الأجزاء الكبيرة رغم حرصهم على تفادها . وفي ٣٠ يناير ١٧٧٤ ، في الصباح الباكر ، رأوا ثلجاً في الأفق إلى الجنوب ، في أضواء بيضاء ثلجية غير معتادة ، فعرفوا أنها تدل على اقترابهم من حقل من الثلوج . وسرعان ما كانوا على مقربة من حافته ورأوه منشراً شرقاً وغرباً على امتداد البصر ، وشاهدوا من مكانهم النصف الجنوبي من الأفق مضاء بأشعة من الضوء المنعكس من الثلج إلى ارتفاع كبير ، ورأوا بوضوح ٩٧ جبلاً ثلجياً في وسط الحقل وكان كثير منها في منتهى الضخامة وكانت تبدو على شكل سلسلة من الجبال يرتفع فيها الواحد فوق الآخر حتى يضيعوا في السحاب . وكانت الحافة الخارجية أو الشمالية لهذا الحقل مكونة من ثلج مفكك مفتت ولكنه متراكم بعضه على بعض بدرجة لا تسمح لأى شيء باختراقه . وكان يبلغ الميل عرضاً وفي وسطه يوجد ثلج صلب في جسم واحد متصل تبين أنه من المستحيل التقدم في هذا الاتجاه .

وصل كوك في بحته جنوباً حتى خط عرض 71° وهي أقصى نقطة بلغها إنسان جنوباً وظلت كذلك مدة نصف قرن بعد كوك . وهنا وصل كوك إلى القرار التالي « سوف لا أقول أنه من المستحيل في أى مكان التقدم أكثر إلى الجنوب ولكن المحاولة قد تصبح

عملاً خطيراً ومتهوراً أعتقد أنه لا يخطر على بال رجل في مثل موقفى . وقد كان من رأى فعلاً ومن رأى معظم الموجودين على السفينة أن هذا الثلج يمتد مباشرة حتى القطب ، أو ربما يتصل على أرض ما ويحيط بها منذ أيام صحيحة . وأنه هنا ، أى في جنوب خط العرض الذى بلغناه يتكون في الأصل كل الثلج الذى رأيناه متناثراً في الشمال ، والذى يفصل فيما بعد بواسطة العواصف أو عوامل أخرى ، وتحمله التيارات إلى الشمال والى لوحظ أنها تتجه دائماً في هذا الاتجاه في هذه العروض المتطرفة . وعندما اقتربنا من هذا الثلج سمعنا بعض طيور البنجوين ولكننا لم نرها أو نرى طيوراً أخرى أو أى شيء آخر يجعلنا نعتقد أن هناك أرضاً على مقربة منا . ولكننى أعتقد أنه لا بد أن يكون هناك أرض إلى الجنوب خلف هذا الثلج . وإذا وجدت هذه الأرض فإنها سوف لا تعطى ملجأ أفضل لهذه الطيور أو أى حيوانات أخرى من الثلج نفسه والذى لا بد أنه يغطيها تماماً » .

وبدلاً من أن يعود كوك إلى الجزر التى يعرفها في الشمال فانه اتجه إلى الشمال الشرقى حتى وصل إلى جزيرة إيستر في شرق المحيط الهادى ومنها إلى تاهيتى ثم زار عدداً من الجزر المعروفة واكتشف جزيرة كبيرة هي نيو كاليدونيا (New Caledonia) واستكشف سواحلها واتصل بأهلها ثم اكتشف جزيرة نورفولك قبل أن يصل إلى نيوزيلانده لتكوين السفينة وإعطاء بعض الراحة لرجالها . وهنا استطاع أن يجد بعض الشواهد التى تدل على أن سفينته الثانية « ادفنتشر » قد سبقته إلى زيارة نيوزيلانده . غادر كوك نيوزيلانده في ١٠ نوفمبر إلى الجنوب الغربي حتى خط عرض الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية ثم تقدم في اتجاه الشرق حتى وصل إلى كاب هورن دون أن يرى اليابسة ، وهكذا سقط أى احتمال لوجود القارة المنشودة في جنوب المحيط الهادى بين خطى عرض 50° ، 60° . واستمر

كوك في اتجاهه شرقاً فاكشف جزيرة ساوث جورجيا في جنوب المحيط الأطلنطي وهي جزيرة صخرية قاحلة مغطاة بالثلوج القطبية ، وتعد نقطة متقدمة للقارة القطبية الجنوبية . ثم واصل تقدمه شرقاً فاكشف مجموعة جزر ساندويتس الجنوبية ، وأبحر على مقربة من جزيرة بوفيه ولكنه لم يرها ، حتى ألقى مرساه السفينة أمام رأس الرجاء الصالح في ٢١ مارس وهنا عرف أن السفينة « ادفنتشر » قد سبقته في العودة بسة كاملة . وبعد زيارة قصيرة لجزر الآزور وصلت « رزوليوشن » إلى إنجلترا في ٣٠ يولييه ١٧٧٥ بعد أكثر من ثلاث سنوات وبعد أن قطعت أكثر من ٦٠ ألف ميل أى ما يكفى للدوران حول الأرض مرتين . ولعل أكبر نجاح حققه كوك في هذه الرحلة ، هو نهايتها السعيدة فلم يفقد من بين ١١٢ رجلاً سوى ثلاثة بسبب الحوادث ورجلاً واحداً فقط بسبب المرض . وكان من المعتاد أن تفقد السفن ثلث بحارتها في هذه الرحلات الطويلة ، ولكن اهتمام كوك بنظافة عتابر البحارة وملاصهم وإصراره أن يأكلوا وجبات متنوعة ، وأن يحتوى طعامهم على خضروات ولحوم طازجة ثم تزويد مخازن السفينة بالخضروات والحساء المحفوظ كل هذا حفظ للبحارة صحتهم فلم يمت واحد منهم بمرض الأسقربوط .

كان البرنامج الذى قام به كوك برنامجاً هرقلياً . في وقت كان تحديد موقع السفينة في البحر عملاً صعباً معرضاً لكثير من الخطأ . وكانت الصعوبة المعتادة تكن في تحديد خطوط الطول وكان كثير من الاكتشافات تفقد أو يصعب العودة إليها مثل ما حدث في جزيرة بوفيه . ولكن كوك استعان بالأدوات الملاحية الحديثة وكان من أهمها جداول ملاحية جديدة وكرنومترات غاية في الدقة ، مما ساعده على بلوغ الدقة الكبيرة التى عرفت بها خرائطه وتقاريره .

نالت رحلة كوك الثانية شهرة واسعة وحسب نئين قيمتها نذكر أن أحد المستكشفين الفرنسيين وهو فرانسوا لابروز أرسل في رحلة استكشافية إلى المحيط الهادى بعد عشر سنوات من رحلة كوك (١٧٨٥ - ١٧٨٨) . ورغم كفاءته وبرنامجه الحافل فان رحلته أثمرت قليلاً ولكنه تقبل الأمر راضياً وأعلن في كثير من السباحة « لقد أنجز مستر كوك الكثير من الأعمال - حتى إنه لم يترك لى شيئاً سوى الاعجاب بعمله . . . » .

ولندع الآن كوك يكتب تقريره عن هذه الرحلة مبدئاً نتائجها ، يقول كوك : « لقد قمت الآن بالدوران حول المحيط الجنوبي في خط عرض متطرف ، واخترقته بطريقة لا تدع مجالاً للشك في احتمال وجود قارة إلا بالقرب من القطب أبعد من أن تصلها الملاحاة . وبزيارتي مرتين للبحر المدارى فأننى لم أنته برأى قاطع بالنسبة للكشوف القديمة فقط ، ولكننى قمت باكتشافات جديدة كثيرة : وتركت - كما أعتقد - القليل جداً الذى يمكن عمله في هذا الجزء من العالم . ولهذا فأننى راض ، تماماً لأن الهدف من هذه الرحلة قد تحقق من جميع الوجوه : وأن نصف الكرة الجنوبي قد استكشف بدرجة كافية وأن نهاية قاطعة قد وضعت للبحث عن قارة جنوبية : والتي أثارته - في بعض الأوقات - انتباه بعض القوى البحرية خلال القرنين الماضيين تقريباً : كما كانت نظرية محبة بين الجغرافيين من كل العصور .

لأننى لا أنكر أن هناك احتمالاً لوجود قارة أو مساحة كبيرة من اليابسة بالقرب من القطب : بل على العكس لأننى من أنصار هذا الرأى : بل أن هناك احتمالاً أننا رأينا جزءاً منها . فهذا البرد الشديد والجزر الكثيرة والحقول الواسعة من الثلج العائم : كلها تنحولى لإثبات أنه لا بد أن يكون هناك أرض إلى الجنوب . ولقد أوردت بعض الأسباب التى تجعلنى أقنع أن أرض الجنوب هذه لا بد أنها تقع أو تمتد امتداداً أكبر نحو

الشمال في مواجهة المحيط الأطلنطي الجنوبي والمحيط الهندي وإثني أضيف إلى هذه الأسباب البرد الذي عانىءه إلى درجة أكبر في هذه البحار عن المحيط الهادى الجنوبى عند نفس خطوط العرض

ثم نختتم حديثه معلقاً على نتائج رحلته فيقول : « إذا كنا قد توصلنا لاكتشاف قارة هناك لكننا أقدر على إرضاء حب الاستطلاع ، ولكننا نرجو ونحن لم نجد لها بعد كل هذا البحث الماضى أن نقلل من الحس والتخمين فى المستقبل بشأن العوالم غير المعروفة والتي لا ترأى فى حاجة إلى الاستكشاف . ولكن مهما كان حكم الرأى العام على الأشياء الأخرى فأننى - بكثير من الرضى ودون أن أدعى أى فضل سوى قبائى بالواجب - أختتم هذا الحديث بملاحظة تدعمها الحقائق وهى أننا اكتشفنا امكانية المحافظة على الصحة بين هذا العدد من ركاب السفينة ، ولمثل هذه المدة الطويلة ، وفى مثل هذه الأجواء المتنوعة ، وفى وسط هذه الصعوبات والمتاعب المستمرة . وأن هذا سوف يجعل هذه الرحلة مرموقة بين المهتمين بهذه الناحية الإنسانية ، عندما يفقد النقاش حول القارة الجنوبية قدرته على جذب الانتباه وإشاعة الفرقة فى الرأى بين الفلاسفة » .

الرحلة الثالثة :

عاد كوك إلى وطنه حيث نال كثيراً من الشهرة وأسبغ عليه كثيراً من التقدير فاستقبله الملك جورج الثالث ورق إلى رتبة أعلى وعين مديراً لمستشفى جرينتش . وخلال العام التالى لعودته كانت البحرية البريطانية تستعد لإرسال بعثة إلى شمال المحيط الهادى للبحث عن الممر الشمالى الغربى الذى أوردنا عجالة عنه فيما سبق . ولما كانت المحاولات السابقة قد بدأت جميعاً من المحيط الأطلنطي لاختراق شمال القارة الأمريكية من الشرق إلى الغرب ، فقد كان هناك فسحة من الأمل فى العثور على هذا الممر بالبحث فى الاتجاه المعاكس وخاصة

أن الساحل الأمريكى الغربى المطل على المحيط الهادى لم يكن معروفاً بدرجة كافية . وطلب من الكابتن كوك الاشتراك فى اختيار قائد لهذه البعثة ، ولكنه عرض أن يتولى قيادتها بنفسه فقبل هذا العرض فى الحال وبترحيب كبير . ولعل هذه القصة تلقى بعض الضوء على شخصية كوك وهو الذى أمضى معظم سنى حياته فى أسفار بحرية بعيدة ، وكان يستطيع - وهو الزوج والأب - أن يركن إلى الراحة والدعة ليتمتع بما نال من الشهرة والمجد .

كان الهدف الرئيسى من رحلة كوك الثالثة هى البحث عن الممر الشمالى الغربى ، وقد عرفنا كيف فشلت الجهود الأولى للبحث عن هذا الممر . وفى عام ١٧٤٥ أعلنت الحكومة البريطانية عن جائزة قدرها ٢٠ ألف جنيه لأية سفينة تجارية بريطانية تكتشف ممراً من خليج هدسون . وحاول عدد من السفن دون جدوى أن تنال هذه الجائزة ، فقررت الحكومة تعديل شروط الجائزة لتشمل السفن الحربية ، وأن تمتد البحث إلى مناطق أخرى غير خليج هدسون . وهكذا استقر الرأى أن تكون مهمة كوك الأساسية هى البحث عن هذا الممر من الساحل الباسيفيكي . وتعاكس الأوامر الصادرة إلى كوك الأفكار السائدة حينئذ عن موقع هذا الممر ، فنتطلب إليه عند وصوله إلى هذا الساحل أن يتقدم شمالاً على طول الساحل « حتى خط عرض ٦٥° أو أكثر إذا لم تعرضك أراض أو ثلوج وأن تأخذ حذرَكَ أن تضع أى وقت فى استكشاف أنهار أو فتحات أو لأى سبب آخر ، حتى تصل إلى خط العرض ٦٥° المذكور سابقاً وعندما تقطع هذه المرحلة ، عليك أن تبحث بدقة عن مثل هذه الأنهار أو الفتحات وتستكشفها بقدر ما يبدو من امتدادها واتجاهها نحو خليج هدسون أو خليج بافن . وإذا تبين لك من ملاحظاتك أو من المعلومات التى قد تحصل عليها من الأهالى . . أن هناك تأكيداً أو حتى احتمال لوجود ممر

مائي يصل إلى الخليجين السابقين أو إلى واحد منهما ،
فعلبك في هذه الحالة أن تبدل أقصى ما لديك من جهد
لتمر خلاله . . . » .

وهناك أهداف جانبية للرحلة تظهر في الأوامر
الصادرة إلى كوك ، الذي كان عليه في طريقه إلى
شمال المحيط الهادى أن يستولى على الأراضي التي
لم تكتشف بعد بواسطة الدول الأخرى وأن يفحص
بلدة بعض الجزر التي قيل إنها شوهدت مؤخراً بواسطة
الفرنسيين عند خط ٤٨° جنوباً وعلى خط الطول
التقريبى لجزر موريشياس .

عاد كوك مرة ثانية إلى سفينة مرزوليوشن ووضعت
تحت لوائه سفينة ثانية هي ديسكافرى (Discovery)
بقيادة كابتن كلارك وتولى الملازم كنج أخذ الأرصاد
الفلكية اللازمة على ظهر السفينة رزوليوشن وقام
أندرسون طبيب السفينة الذي صاحب كوك في رحلته
الثانية ببحوث التاريخ الطبيعى ودراسة الأهالى من
حيث العادات والتقاليد واللغات . وكان بين رجال كوك
« فانكوفر » الذي اشتهر كقائد لرحلة استكشافية تالية
ووليم بلاى الذى عرف فيما بعد كقبطان للسفينة
المشهورة بونتى التي حدث عليها العصيان بالقرب من
جزر تاهيتى عام ١٧٨٩ . وصاحب كوك معه أيضاً
أوماى من أهالى جزر الجمعية ، وكانت السفينة ادفنتشر
قد أحضرته معها إلى لندن . وقد قدم أوماى خدمات
جليلة للبعثة حتى غادرها في موطنه الأصلى . كذلك
حملت السفينتان عدداً من الحيوانات النافعة بقصد
تربيتها في الجزر التي سبق اكتشافها .

غادرت رزوليوشن بليموث في ١٢ يولييه ١٧٧٦ ،
وتبعها ديسكافرى بعد بضعة أيام . وتوقف كوك في
جزر كانارى حيث يرتفع جبل تاناريف بقمه الشهيرة
وحاول طبيب المركب أن يصل إلى القمة ولكن الوقت

لم يسعفه بفحص الجبل الذى درسه الكسندر فون هومبولت
فيما بعد بدقة كبيرة في عام ١٧٩٩^(١) .

اتخذ كوك طريقه نحو رأس الرجاء الصالح ، ومنها
اتجه إلى جزيرة كرجيولن التي اكتشفها الفرنسيون
جنوب المحيط الهندى . وكان كرجيولن قد أذاع تقارير
مشجعة عن هذه الجزيرة ولكن كوك وجدها مجردة
وموحشة إلى أقصى درجة . وأعلن طبيب المركب
« ربما لم يكتشف مكان في أى من نصفى الكرة عند
نفس خط العرض يعطى ميداناً قديراً لعالم التاريخ
الطبيعى مثل هذه البقعة الجرداء » .

بعد هذا قضى كوك بضعة أيام في تاسانيا ثم أسبوعين
من شهر فبراير ١٧٧٧ في نيوزيلاند وأمضى ثلاثة
شهور في دراسة جزر فريندلى قبل أن يصل في ١٢
أغسطس إلى جزيرة تاهيتى .

وفي ٢ نوفمبر غادر كوك تاهيتى في طريقه إلى
مهمته الأساسية في شمال الباسيفيكي . وإلى الشمال من
خط الاستواء عثر كوك على جزيرة مرجانية صغيرة
تعلوها أشجار جوز الهند ، حيث قضت البعثة عيد
الميلاد وسمتها في هذه المناسبة جزيرة كريستاس . وفي
١٨ يناير ١٧٧٨ شاهد كوك مجموعة جزر أسماها جزر
ساندويتش نسبة إلى القائد الأول للبحرية الإنجليزية
وواحد من غلاة المتحمسين للكشوف الجغرافية . وقد
ظلت هذه الجزر تعرف بهذا الاسم مدة طويلة قبل أن
تحمل اسم جزر هاواى بلسان أهلها الأصليين . ولا تعد
هذه الجزر اكتشافاً جديداً لكوك فقد عرفها الأسبان
في القرن السادس عشر ، ولكن شيئاً لم يعرف عنها
خلال المائتى عام السابقة . قام كوك بدراسة هذه الجزر
بقدر ما اتسع له الوقت - ومن أكثر ملاحظات البعثة
طرافة أنه بالرغم من المسافة التي تفصل هذه الجزيرة
عن باقى جزر المحيط الهادى فإن لغتها قريبة الشبه من

(١) أنظر الكون لألكسندر فون هومبولت « الدكتور سليم
أنطون » تراث الانسانية ، المجلد الثانى ، العدد الثالث .

لغة تاهيتي حتى أمكن التفاهم مع الأهالي بسهولة .
ولفت نظر البعثة ما يتمتع به الأهالي من طبيعة سمحة
وانطلاق كبير وقوام جميل وخبرة في السباحة .

وفي ٧ مارس وصلت البعثة إلى الساحل الغربي
لأمريكا الشمالية الذي كان يعرف في ذلك الوقت باسم
نيو اليون New Albion . وهنا كان كوك يقف على
عتبة استكشافات جغرافية جديدة فهذا الساحل شمال
٤٠° شمالاً بعد - باستثناء المناطق القطبية - أكثر سواحل
القارات حاجة إلى الاستكشاف والدراسة . وكانت كل
المعلومات القليلة لدى كوك قد تجمعت نتيجة لرحلات
الأسبان على طول الساحل إلى الشمال من مستعمراتهم
في غرب المكسيك .

واصلت البعثة سيرها شمالاً بمحاذاة الساحل وعند
منطقة سماها كوك رأس فلاتري Cape Flattery
(٦٥° ٤٨' شمالاً) كتب كوك يقول « عند خط
العرض هذا وضع الجغرافيون مضيق جowan دى فوكا
الخيالى . أننا لم نر شيئاً يشبهه أو وجدنا أقل احتمال لوجود
مثل هذا الشيء » .

وفي ٢٩ مارس وجدت السفينتان مرفأ ملائماً لها
في خليج نوتكا على الجانب الغربي لجزيرة عرفت فيما
بعد باسم جزيرة فانكوفر ، لكن كوك لم يقينها كجزيرة
وهنا قضت البعثة شهراً في إصلاح السفينتين وقلاعهما
بواسطة الأخشاب المتوفرة بكثرة . وكانت هذه المدة
فرصة كافية للراحة وتكوين السفينتين والاستعداد
للمرحلة التالية من الرحلة . كذلك أمكن للبعثة أن تقيم
صلات طيبة مع الأهالي ، وأن تعرف الكثير عن عاداتهم
وطرق معيشتهم .

أبحر كوك إلى الشمال في محاذاة الساحل ولكن دون
أن يراه إلا لماماً ، فقد اضطره الجو العاصف من ناحية
ورغبته في الوصول إلى المنطقة الشمالية بسرعة إلى
التغاضى عن هذه الفرصة لرسم خريطة لساحل ، وهو
في هذا كان ينفذ الأوامر الصادرة إليه بعدم إضاعة

الوقت قبل الوصول إلى المنطقة المنشودة التي ما كاد
يصلها حتى بدأ يتفحص الساحل بدقة وخاصة فتحات
الخلجان ومصبات الأنهار . واستمر يتابع ساحل الاسكا
ويشاهد جبالها العالية ثم يمر على جزر الوتيان حتى يصل
إلى طرف أمريكا الشمالية في أقصى الغرب ثم يدخل
ممر بارنج ثم مضيق بارنج الذي يفصل أمريكا الشمالية
عن آسيا والذي لا يزيد عرضه عن ٥٥ ميلاً ويصل
المحيط الهادى بالبحر القطبي الشمالى .

وكان فيتاز بارنج (Vitus Bering) الدانمركي قد
اكتشف هذا المضيق عام ١٧٢٨ وهو في خلسة بطرس
الأكبر قيصر روسيا . ورغم أن وجود هذا المضيق
كان معروفاً للرحالة الروس ، فإنه لم يكن معروفاً بشكل
كاف في أوروبا الغربية وكانت الخرائط الأوربية ترسم
الطرف الشمالى لالاسكا إلى الشرق بعيداً عن موقعه
الحقيقى . وعلى هذا يعلق كوك « إن قارة أمريكا
الشمالية تمتد أكثر إلى الغرب مما يمكن أن نتوقعه من
الخرائط الحديثة الأكثر شهرة » . ثم يضيف « وهذا
يجعل وجود ممر إلى خليج بافن أو خليج هدسون أقل
احتمالاً أو على الأقل يدل على أنه لا بد أن يكون أكثر
امتداداً » .

دخل كوك ممر بارنج وتقدم في البحر القطبي
الشمالى على كل من الجانبين الأمريكى والاسيوى ولكن
البحر كان مليئاً بالثلوج حتى أصبح التقدم مستحيلاً .
وكان الشتاء يقترب فقرر كوك العودة إلى الجنوب بعد
أن وصل إلى خط عرض ٤٤° - ٧٠° شمالاً . وفي
طريق عودته قابل كوك في جزر الوتيان مجموعة من
الروس وكان رئيسهم يدعى إسماعيلوف وكان يعرف
الكثير عن جغرافية المنطقة فأعطى كوك كثيراً من
المعلومات والخرائط ، كما أن كوك سلمه تقريراً مرفقاً
به خريطة حتى يقوم بإرساله إلى رؤسائه في البحرية
البريطانية .

اختار كوك جزر سانلويتش لبعضى فيها الشتاء وما كاد يصل مياهها حتى اكتشف جزيرة هاواي أكبر جزر هذه المجموعة ، والتي لم يرها في زيارته الأولى . قوبلت البعثة بترحاب كبير ولكن الأمور سرعان ما انقلبت عندما افتقد البحارة أحد القوارب وحاولوا استعادته من الأهالي . وكانت طريقته التقليدية احتجاجاً واحد من شيوخ الأهالي على السفينة لحين إعادة الأشياء المسروقة . ولكن هذه الطريقة التي طالما نجحت كانت وبالا على كوك . فبينما كان مع مجموعة من البحارة على الشاطئ يحاولون أن يصحبوا واحداً من الأهالي إلى السفينة ، تجمع جمهور غاضب والتحم في معركة سريعة مفاجئة . وتأنى النهاية النعسة سريعاً ، كما يصفها تقرير البعثة :

« يرى بعض الحاضرين ، أن البحارة ، وأولئك الذين كانوا موجودين في القوارب ، قد أطلقوا النار بدون أوامر من الكابتن كوك ، وأنه كان يحرص على أن يمنع مزيداً من إراقة الدماء ، لهذا فانه من المحتمل ، أنه في هذه الظروف كانت إنسانيته سبباً في مصرعه ، فقد لوحظ أنه بينما كان يواجه الأهالي لم يلق أى تهديد ، ولكنه عندما استدار ليعطى أوامره للقوارب ، طعن رأوه يسقط ، وجروا جسده بطريقة غير إنسانية على الشاطئ ، حيث أحاط به الأعداء الذين تحاطفوا الخنجر بين أيديهم ، كل يحاول أن يشترك - بشغف وحشى - في نهايته » .

وعندما أطلقت رزوليوشن مدافعها على الشاطئ ، لم ير أى أثر للقائد . وبعد أيام قليلة أعاد الأهالي إلى البحارة المحزونين بقايا من جسد قائدهم . ونخم الحزن على الرجال الذين فقدوا في كوك قائداً شديد السم على سلامتهم وصحتهم ، والذي ذهب معه «روح الاستكشاف والتصميم والشجاعة التي لا تقهر» ،

تولى كابتن كلارك قيادة البعثة وحاول أن يتابع مهمة كوك فوصل إلى كامشاتكا (Kamchatka) في شرق سيبيريا ثم دخل مضيق بارنج في ٥ يولييه ولكن الثلوج عادت تعوق سيره كما حدث مع كوك في الصيف السابق فانقلب عائداً عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولكنه لم يعيش ليتم رحلة العودة فقد مات في ٢٢ أغسطس ١٧٧٩ . ووقعت مسؤولية القيادة على كابتن جور (Gore) : الذي كان يقود ديسكافري منذ وفاة كوك والذي انتقل الآن إلى السفينة رزوليوشن ، بينما رقى الملازم كنج ليقود ديسكافري والذي تعطينا يومياته القصة الرسمية للرحلة بعد وفاة كوك .

وفي ٤ أكتوبر ١٧٨٠ وصلت السفينتان إلى قاعدتهما في إنجلترا بعد غيبة أكثر من أربع سنوات ودون أن تفقد سوى خمسة من الرجال بسبب المرض .

• • •

كان قد مضى بضعة أشهر على سفر كوك في رحلته الأخيرة ، عندما أعلنت الجمعية الملكية اختيار كوك عضواً بها ومنحه ميدالية سير جودفري كوبلي (Sir Godfrey Copley) الذهبية على البحث الذي تقدم به إلى الجمعية عن الطريقة التي اتخذها في المحافظة على صحة بحارته ، بالإضافة إلى تقدير الجمعية لاكتشافاته الجغرافية العديدة ومساحته الدقيقة للسواحل المكتشفة . وكانت عضوية الجمعية الملكية في ذلك الوقت - ولا تزال - أكبر شرف علمي يمكن التطلع إليه في الجزر البريطانية .

منحت الميدالية الذهبية إلى كوك في غيابه بخطبة كلوا تقدير وتكريم من سير جون برمنجل . ولكن هذه الكلمات الحارة لم تصل إلى مسامع كوك على الإطلاق ، فعندما كانت عائته وأصلقاؤه ينتظرون عودته ، تلقوا خطاباً من كابتن كلارك بتاريخ ٨ يونيو ١٧٧٩ من كامشاتكا يقول فيه أن كوك لقي مصرعه في ١٤ فبراير ١٧٧٩ .

الرعاية لحقوق أسد الحارث بن أسد المحاسبي

بسم
الدكتور عبد الحليم محمود

كانت تفعل الأعاجيب في القلوب ، وبكتبه التي تبين
حسن الخلق ؛ وسائل وغايات ، والتي لا يزال لها إلى
الآن أريج عطري يتجدد على مر الزمن ، فيهدى
الحيارى ، وينير الطريق أمام السالكين .

* * *

ولكن من هو المحاسبي ؟ وما لنا نتعجل ، فتتحدث
عن المحاسبي في القمة قبل أن نبدأ معه من البداية ؟
إنه الحارث بن أسد المحاسبي ، وكنيته : أبو عبدالله
ولقد نشأ بالبصرة ، واستمر بها سنوات لا يتأتى
لنا تحديد ما في يقين جازم .

ثم ذهب إلى بغداد ، ويبدو أنه ذهب إليها في سن
مبكرة ، واستقر به المقام فيها ،
متى ولد ؟

إننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده ، إذ أن الكتب
القديمة التي تحدثت عنه ، لم تذكر ذلك ، بيد أن جميع
الملاحظات ترشد إلى أنه ولد - على التقريب - في العقد
السابع من القرن الثاني الهجري .

أما وفاته ، فإن الكتب التي أرخت له تحدد سنة
٢٤٣ هـ ثلاث وأربعين ومائتين للهجرة .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .
روى صاحب طبقات الصوفية بسنده ، عن
الحارث بن أسد المحاسبي بسنده أن رسول الله ، صلى
الله عليه وسلم ، قال :

« أثقل ما يوضع في الميزان : حسن الخلق » :

ولقد وضع المحاسبي هدفاً له في الحياة يسعى إلى
تحقيقه ، هو : « حسن الخلق » :

لقد وضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في نفسه ؛
ووضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في مجتمعه .

أما فيما يتعلق بنفسه ، فإنه أخذها بتحقيق صفة
العبودية على أساس من القرآن والسنة لا يحيد عنه ؛

وإنه ليبر عن شعاره في ذلك ، فيقول هذه الكلمة
التي تصفه حالاً ومقالاً :

« إذا أنت لم تسمع نداء الله ، فكيف نجيب داعي
الله ؟ ومن استغنى بشيء دون الله ، جهل قدر الله » .

ولم يجهل المحاسبي قدر الله ، فلم يستغن بشيء عنه
سبحانه .

وأما فيما يتعلق بالمجتمع ، فإن المحاسبي أخذ في نشر
حسن الخلق فيه بسمته ، واتباعه للسنة ، وبلروسة التي

وحياته الشخصية لا نكاد نعلم عنها شيئاً ، وقد
ممكنا أن نقول : « استنتاجاً » :

إنه قضى طفولته فى شىء من اليسر ، والرخاء ،
ذلك أن والده حينما توفى ترك ثروة تقدر بسبعين
ألف درهم .

وبروى المؤرخون أن المحاسبي ، حينما توفى والده
لم يأخذ من هذه الثروة شيئاً تورعاً : ذلك أن والده
كان يقول بالقدر : أى أنه كان قدرياً يدين بمذهب
المعتزلة : فلم يستعج المحاسبي أن يشترك فى الميراث
توسعاً فى تطبيق القاعدة الإسلامية التى تحرم التوارث
بين أهل دينين مختلفين .

وما من شك فى أن المحاسبي امتنع عن ذلك لمجرد
الورع ، والزهد فيما تجره الثروة وتستتبعه من تفكير
فيها ، وتدبير لها ، وتنمية وحفظ .

هذه الحادثة ترشد إلى أمور : الأمر الأول هو :
أن أسرة المحاسبي ، كانت أسرة ميسورة .

الأمر الثانى : هو أن والد المحاسبي كان من الذين
اشتركوا فى الثقافة الدينية ، والجدل الكلامى ، وساهم
فى ذلك بنصيب : وحدد المعسكر الذى يقف جندياً
فى جيشه .

وما من ريب فى أن العامة حينئذ لم يكونوا فى
صف المعتزلة ، وما كان الذى يدين بما يدين به المعتزلة
يفعل ذلك إلا بعد دراسة واختيار ، وأن الطريق
التقليدى الذى كان يتبعه الجمهور الأعظم من الأمة إنما
هو طريق أهل السنة .

والأمر الثالث الذى ترشد إليه الحادثة هو ورع
المحاسبي الذى حمّله على أن يزهد فى الميراث مع حاجته
إليه : تورعاً وتقوى .

ونبأ آخر ثابت من شىء عن شخصية المحاسبي ،
يقول الجنيد :

كنت كثيراً أقول للحارث : عزلى أنسى .

فيقول : كم تقول عزلى أنسى ! ؟ لو أن نصف
الخلق تقربوا منى ما وجدت بهم أنساً ، ولو أن نصف
الخلق الآخر نأى عنى ما استوحشت لبعدهم .

هذه القصة ترشدنا إلى قوة شخصية الإمام المحاسبي
والواقع أن الظروف والأحوال الثقافية التى أحاطت
بالمحاسبي ، ومواقف المحاسبي منها ، وحديث تلاميذه
عنه ، وإن كان نادراً . . . كل ذلك يرشد إلى أنه كان
صاحب شخصية إيجابية قوية .

ومما يستأنس به تأكيداً للقصة السابقة ، وإشارة إلى
ما للمحاسبي من شخصية قوية ، وبياناً عابراً عن بعض
أساليبه فى تأليف كتبه ، ما رواه الجنيد أيضاً بقوله :

كان الحارث المحاسبي يحب إلى منزلنا ، ليقول :
أخرج معى نصر : (نذهب إلى الصحراء) فأقول له
تخرجنى عن عزلى وأمنى على نفسى ، إلى
الطرق والآفات وروية الشهوات ؟ فيقول :

« أخرج معى ، ولا خوف عليك ، فأخرج معى ،
فكان الطريق فارغاً من كل شىء » ، لا نرى شيئاً
نكرهه .

فاذا حصلت معى فى المكان الذى يجلس فيه قال لى :
سلى

فأقول له : ما عندى سؤال أسأله
فيقول : سلى عما يقع فى نفسك .
فتنثال على السؤالات : فأسأله عنها : فيجيبنى
عليها للوقت .

ثم يمضى إلى منزله فيعملها كتاباً .
ترشد هذه القصة إلى أن المحاسبي لم يكن يخشى :
« الطرق والآفات وروية الشهوات » ، وأنه لم يكن
يؤثر العزلة وما فيها من أمن على النفس وعدم تشتيت
الفكر ، كلا : إنه يجابه الحياة محاولاً السير بها إلى
ما يراه حقاً وإصلاحاً .

أن تستأثر به وحدها ، ولكل منها مغرباتها ، ولكل منها منطقها .

ووقف المحاسبي : مستوعباً ، متأملاً ، متروياً .

هل طال به الوقوف ؟

متى خرج من تأمله ؟

متى استقر به الاتجاه ؟

ذلك ما لا نعلمه ، إذا نظرنا إلى الزمن .

بيد أن المحاسبي ، وإن لم يعن بالتأريخ لحياته ، تأريخاً زمنياً ، فإنه ترك لنا أثراً نفيساً ، أبان فيه عن بعض أحوال معاصريه ، وتحدث فيه عن حيرته الفكرية وعن أسبابها ، وعن كيفية خروجه منها .

وهذا الأثر نعتبره ، أساساً لكتاب : « المنقذ من الضلال » راسماً للإمام الغزالي تخطيطه ، موجهاً له إلى كتابته ، بل ورأساً له الطريق في حياته الروحية .

ولعل التشابه بين هذا النص الذي نثبته الآن ، وكتاب : « المنقذ من الضلال » يجعلنا نستنتج أن التشابه قوى بين المحاسبي ، والغزالي في حياتهما .

ولأهمية هذا النص بالنسبة ، للمحاسبي ولعصره ، وبالنسبة لصلته بكتاب المنقذ من الضلال ثقة وثيقة ، نثبته بأكمله ، وإن كان فيه بعض الطول .

وقد كتبه المحاسبي مقدمة ، لكتابه : « الوصايا » الذي طبع أجيراً بالقاهرة .

يقول المحاسبي - في مفتتح كتابه : الوصايا - بعد مقدمة موجزة .

« أما بعد : فقد انتهى إلينا : أن هذه الأمة تفرق على بضع وسبعين فرقة ، منها : فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرهما .

فلم أزل ، برهة من عمرى أنظر اختلاف الأمة ، وأتمسك المهاج الواضح ، والسبيل القاصد وأطلب من العلم والعمل ، وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد

أما فيما يتعلق بطريقته في التأليف : فإنه يعمل أحياناً على تلبية ما يرغب المتحدثون الإجابة عنه ، وهي طريقة حية : لأنها استجابة لما يحب المجتمع أن يرى الرأي الصريح فيه .

ولم تكن كتبه كلها على هذا النسق ، فإن بعضها كان إسهاماً في الحركة المقاومة لحركة الاعتزال : وكان بعضها حلقات في التخطيط الذي رسمه المحاسبي للإصلاح الأخلاق في المجتمع .

على أننا قد تعجلنا الحوادث مرة أخرى ، فتحدثنا عن المحاسبي في القمة ولم نتدرج معه تدرجاً طبيعياً .

ولنعد إلى المحاسبي أول مقدمه بغداد : كان ذلك فيما يبدو في سن مبكرة نسبياً .

وكانت بغداد حينئذ تخرج بمختلف التيارات الفكرية : ثقافة يونانية وافدة تريد أن تأخذ حق الإقامة سيده متغلبة .

وثقافة فارسية ، يحاول نشرها الفرس بما لهم من تأثير ونفوذ ، وبما لهم من مال و ثراء ، وبما لديهم من ترف فكري ، وبما في نفوسهم من كبت لزوال ملكهم يحاول أن يتنفس - شاعراً أو غير شاعر - في صورة ثقافة تنافس الثقافة الإسلامية البحتة .

وثقافة عربية مشوبة بثقافات أخرى ، تريد أن تجد حلاً للتعارض والتنافس بين مختلف الألوان والأجواء الثقافية .

.. وثقافة إسلامية بحتة ، تجاهد في أن تفوز في قيادة المجتمع إلى الهداية الربانية ، والرشاد الإلهي .

وجاء المحاسبي بغداد ، متعلماً ، ومثقفاً ، أو مستزيداً من العلم والثقافة : يبتغي السير على السنن المستقيم :

وأخذ في الدرس في جد واجتهاد : فتشعبت به الطرق ، وتجاذبت الثقافات المختلفة ، تحاول كل منها ،

العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله ، عز وجل ،
بتأويل الفقهاء .

وتدبرت أحوال الأمة ، ونظرت في مذاهبها
وأقويلها ، فعقلت من ذلك ما قدر لي .

ورأيت اختلافهم بجرأ عميقاً ، قد غرق فيه ناس
كثير ، وسلم منه عصابة قليلة ، ورأيت كل صنف
منهم يزعم أن النجاة في تبعهم ، وأن المالك : من
خالقهم ، ثم رأيت الناس أصنافاً :

فهم العالم بأمر الآخرة ، لقاءه عسير ، ووجوده
عزيز .

ومنهم الجاهل ، فالبعد عنه غنيمة .

ومنهم المتشبه بالعلماء ، مشغوف بدنياء ، موثر لما .

ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ، ملتصق
بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا .

ومنهم متشبه بالنسك ، متجر بالخير ، لا غناء
عنده ، ولا بقاء لعلمه ، ولا معتمد على رأيه .

ومنهم حامل علم ، لا يعلم تأويل ما حمل :

ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء ، مفقود الورع

والنقى .

ومنهم متوادون : على الهوى يتفقون ، وللدنيا

يتباذلون ، ورياستها يطلبون .

ومنهم شياطين الإنس عن الآخرة يصدون : وعلى

الدنيا يتكالبون ، وإلى جمعها يهرعون : وفي الاستكثار

منها يرغبون ، فهم في الدنيا أحياء ، وعن العرف

موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والسوء معروف .

فتفقدت في الأصناف نفسى ، وضقت بذلك ذرعاً

فقصدت إلى هدى المهتدين : بطلب السداد

والهدى ، واسترشدت العلم ، وأعملت الفكر وأطلت

النظر ، فبين لي : في كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ،

واجتماع الأمة : أن اتباع الهوى يعنى عن الرشد ،

ويضل عن الحق : وبطيل المكث في العمى ! !

فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي ، ووقفت عند
اختلاف الأمة ، مرتاداً لطلب الفرقة الناجية ، حذراً
من الأهواء المردية ، والفرقة المالكة : متحرزاً من
الاقترحام قبل البيان ، واتمست سبيل النجاة لمهجة
نفسى .

ثم وجدت باجتماع الأمة في كتاب الله المنزل ، أن
سبيل النجاة : في التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه ،
والورع في جلاله وحرامه ، وجميع حدوده والإخلاص
لله تعالى ، بطاعته ، والتأسي برسوله ، صلى الله
عليه وسلم .

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار
فرأيت اجتماعاً واختلافاً ، ووجدت جميعهم مجتمعين
على أن علم الفرائض والسنن : عند العلماء بالله وأمره .

وأن الفقهاء عند الله ، العاملين برضوانه الورعين
عن محارمه المتأسيين برسوله ، صلى الله عليه وسلم :
المؤثرين الآخرة على الدنيا : أولئك المتمسكون بأمر
الله وسنن المرسلين .

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتبع عليهم ،
والموصوفين بأفوا آثارهم ، وأقتبس من علمهم ، كما
فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرساً : كما
قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ :
فطوبى للغريباء » .

وهم : المنفردون بدينهم .

فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأتقياء ، وخشيت

بفتة الموت أن يفاجئنى ، على اضطراب من عمرى ،

لاختلاف الأمة ، فانكشئت في طلب عالم ، لم أجد لي

من معرفته بدءاً ، لم أقصر في الاحتياط ولم أن في النصيح

فقيض لي الرعوف بعباده ، قوماً وجدت فيهم

دلائل التقوى ، وأعلام الورع : وإيثار الآخرة

على الدنيا .

ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى ، ووجدتهم مجتمعين على نصيح الأمة لا يرجون أحداً في معصيته ، ولا يقنطون أحداً من رحمته :
يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء .

يحبون الله تعالى ، إلى العباد بذكرهم آياديه واحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى .
علماء بعظمة الله تعالى ، وعظيم قدره ، وعلماء بكتابه وسنته ، فقهاء في دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين عن البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين في مطامعهم وملابسهم ، وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتازين بالبلغة من الأقوات ، متقللين من المباح ، زاهدين في الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد ، مشغولين بيبهم موثرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكل امرئ منهم شأن يغنيه .

علماء بأمر الآخرة وأهويل القيامة ، وجزيل الثواب ، وأليم العقاب .
ذلك أورثهم الحزن الدائم ، والهم المضمي ، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا للآداب صفات ، وحددوا للورع حدوداً ، ضاق لها صدرى . وعلمت أن آداب الدين ، وصدق الورع : بحر لا ينجو من الفرق فيه شبيه ، ولا يقوم بحدوده مثلى ، فتبين لي فضلهم ، واتضح لي نصيحهم ، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ، والمصاييح لمن استضاء بهم ، والمهادون لمن استرشد بهم .

فأصبحت راغباً في مذهبهم ، مقتبساً من فوائدهم ، قابلاً لآدابهم ، محباً لطاعتهم ، لا أعدل بهم شيئاً ، ولا أؤثر عليهم أحداً .

ففتح الله لي علماً انفتح لي برهانه ، وأتار لي فضله ، ورجوت النجاة لمن أقربه أو ألتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، ورأيت الرين متراكماً على قلب من جهله وجحده ، ورأيت الحجة البالغة لمن فهمه ، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجباً على .

فاعتقدته في سرى ، وانطويت عليه بضميرى ، وجعلته أساس دينى ، وبنيت عليه أعمالى ، وتقلبت فيه بأحوالى .

وسألت الله عز وجل ، أن يوزعنى شكر ما أنعم به على ، وأن يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به ، مع معرفتى بتقصيرى في ذلك ، وأنى لا أدرك شكره أبداً . اهـ

ووجد المحاسبى نفسه حينئذ في معسكر أهل السنة على وجه العموم وفى تيار الصوفية منهم على وجه الخصوص .

ولم يكن المحاسبى ، ذا طبيعة سلبية ، فكان لا بد من أن يدخل المعركة .

ودخل المعركة في قوة قوية ، مسلحاً بالعلم والتقوى ومن أجل ذلك ، كان ذا أثر مزدوج .
لقد أثر باعتباره ، قدوة وأسوة .
وأثر باعتباره عالماً باحثاً .

وأثره كعالم ، كان يظهر في دروسه ومناقشاته ، ويظهر في كتبه .

كتبه

أما كتبه ، فإنها من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بمائتى مصنف ، حسبما روى السبكي في : « طبقات الشافعية » والمنائوى في : « الكواكب الدرية » .

وهذه الكتب - فى أغلبها الأعم - إنما هى فى هداية النفوس ، وترقيق القلوب ، والسير بالأرواح إلى عالم الفلاح : لأنها فى أغلبها فى علم التصوف والسلوك .

يقول النجاشي - كما جاء في الكواكب الدرية -
عن المحاسبي :

« هو إمام المسلمين في الفقه ، والتصوف ،
والحديث والكلام » . اهـ

ولقد كتب المحاسبي في هذه العلوم جميعها ، بيد
أن مسحته الظاهرة ، ونزعة الواضحة ، والكثرة
الكثيرة من كتبه ، إنما كانت في التصوف والكلام .
أما كتبه في الكلام ، فإنها قد فقدت . ولقد رأينا
قطعة لا بأس بها من كتبه في الكلام الذي فقد والذي
كان عنوانه : « فهم القرآن » .

ومنهجه في الكتاب ، يفهم من عنوانه : إنه كان
يرجع إلى القرآن في الرد ، ويتخذ منه مرشداً وهادياً .
ولعل السبب في إهمال كتبه الكلامية وفقدانها : هو
حملة الإمام أحمد بن حنبل ، عليها .

يقول الخطيب البغدادي ، في كتابه : « تاريخ
بغداد » جزء ٨ ص ٢١٤ .

« وكان أحمد بن حنبل ، يكره للحارث نظره في
الكلام ، وتصانيفه الكتب فيه ، ويصد الناس عنه » .
وبذكر هذه المسألة الإمام الغزالي في كتابه :
« المنقذ من الضلال » ، ويفصل الرأي فيها ويحسم
المسألة محل موفق فيقول :

لقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي
- رحمه الله - تصنيفه في الرد على المعتزلة .

فقال الحارث :

« الرد على البدعة فرض » .

فقال . أحمد :

نعم ، ولكن حكيت شبهتهم أولاً ، ثم أجبت عنها ،
فيم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق بفهمه ، ولا يلتفت
إلى الجواب ، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ؟
وما ذكره أحمد : حق ، ولكن في شبهة لم تنتشر
ولم تشتهر .

فأما إذا انتشرت ، فالجواب عنها واجب ،
ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية . ولقد أصاب
الإمام الغزالي التوفيق في رأيه .

وما من شك في أن المعتزلة إذ ذاك كانوا يعملون
جاهدين على نشر بدعتهم .
وأن بدعتهم كانت معروفة مشهورة .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان الإمامان : أحمد
والمحاسبي متعاصرين ، وحدث بينهما اختلاف في الرأي
يتعلق بالكتابة في المسائل الكلامية ، وحمل الإمام أحمد
على كتب الإمام المحاسبي في علم الكلام ، فقل تداول
الناس لها - فيما يبدو - واختفت شيئاً فشيئاً ، ولعل
بعضها لا يزال موجوداً ، بيد أننا لا نعلم عنها شيئاً .

على أن رأى المحاسبي في المسائل الكلامية معروف ،
تحدث عنه الشهرستاني وغيره ممن كتبوا في الملل
والنحل ، وهو الرأي السلفي ، ولم تكن حملة الإمام
أحمد عليه لرأيه وعقيدته ، فذلك أمر يتفق فيه الإمامان
وإنما كان انكار الإمام أحمد عليه للأسلوب والطريقة
التي ينصر بها الدين .

وما من ريب في أن ما قام به الإمام المحاسبي ، في
الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الانحراف : إنما هو
في الوقت نفسه انتصار للإمام ، أحمد بن حنبل ،
وتقوية له ، وعون على بلوغه غايته : رضى الله عنهما :

• • •

أما كتبه في أدب النفس وتركيتها ، وفي الإنابة
إلى الله ، والرجوع إليه ، وفي الرعاية لحقوق الله ، وفي
التصوف على وجه العموم : فقد بقي منها كثير ، عرفنا
عنه جملة صالحة ، لا تزال مخطوطة ، وطبع البعض في
أوروبا ، والقاهرة ، وسوريا .

ومن كتبه المخطوطة في دور الكتب :

١ - المسائل في أعمال القلوب والجوارح .

٢ - كتاب أدب النفوس .

٣ - كتاب المسائل في الزهد .

٤ - فصل من كتاب العظمة .

٥ - كتاب في المراقبة .

٦ - لإحكام التوبة .

٧ - كتاب العلم .

٨ - كتاب الصبر والرضا .

أما كتبه المطبوعة ، فتتحدث بكلبات موجزة عن كل منها ، ثم تفصل القول عن كتاب الرعاية .

١ - كتاب الوهم :

أول ما طبع ، للمحاسبي : « كتاب الوهم » طبع في القاهرة سنة ١٩٣٧ وقد عني بنشره الدكتور ا. ج. آربري ، وكتب مقدمته الدكتور : أحمد أمين وفي المقدمة يقول ، عن الكتاب :

« نحافيه منحي طريفاً يدل عليه اسمه ، فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار في الخوف والرجاء ، كما فعل غيره ، بل استعمل توهمه ، وبعبارة أخرى خياله في وصف شعور أهل الجنة وأهل النار ، وما يلقون من : سعادة وشقاء ، ونعيم وعذاب ، وأسلس لخياله القياد ، فتخيل ما تخيل وصور ما صور ، فهي لوحة جميلة لفنان أجاد ألوانها ، أو رواية رائعة ، لكاتب جمل منظرها ، وفصل مواقفها ، وصقل لغتها ، حتى يؤثر بالحقيقة التي تتضمنها في نفوس القارئ والسامعين ، أكبر الأثر وأبلغه » .

٢ - رسالة المسترشدين :

وطبع له في « حلب » رسالة المسترشدين . « حققه وخرج أحاديثه ، وعلق عليه : عبد الفتاح أبو غدة » .

وهذه الرسالة اللطيفة الحجم يوجه فيها المحاسبي الإرشاد للمسترشدين الذين يريدون أن يكونوا من ذوى الألباب العالمين بالله وبأمره .

ومنهاج ذوى الألباب - كما تحدده الرسالة - إنما

هو رعاية حدود الشريعة من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وما اجتمع عليه المهتمون من الأئمة .

وهذا هو الصراط المستقيم الذي دعا إليه عباده ، فقال جل وعز :

« وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل ، فترق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

وقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ » .

والرسالة : إنما هي إرشادات توضح بعض زوايا هذا المنهج ، فهي تتحدث عن التوبة ، والتقوى والخطرات ، والخوف من الله ، والصبر والرضا ، وغير ذلك من أحوال اللاتذنين إلى الله ، السالكين إليه .

٣ - كتاب الوصايا :

وطبع له في القاهرة أخيراً : « كتاب الوصايا » تحقيق وتعليق وتقديم : عبد القادر أحمد عطا .
والعنوان مكتوب هكذا : « الوصايا » أو النصائح الدينية ، والنفحات القدسية ، لنفع جميع البرية . وموضوعه هو موضوع الكتاب السابق ، وإن كان على صورة أوسع ، وبأسلوب فيه بعض الحدة ، وهو أقل تألقاً وجزالة من أسلوب الكتاب السابق .

٤ - كتاب الرعاية ، لحقوق الله عز وجل :

وكتاب الرعاية : هو أكبر الكتب التي بين أيدينا من كتب المحاسبي ، مخطوطة كانت تلك الكتب أم مطبوعة ، وربما لا يوجد فيما قد من كتبه ما هو أكبر منه ، ويقع في حوالى أربعين وستين صحيفة من القطع الكبير .

« فان الله تبارك وتعالى » أخبرنا في كتابه . . . »
وهذا التعبير أو ما في معناه : سار في جميع أجزاء
الكتاب ، ويضاف إليه الاستناد إلى السنة ، وقد كان
المحاسبي من المحدثين ، تلقى الحديث على أعلام السنة ،
وتلقى عنه أعلام السنة .

وبعد أن قدم المحاسبي « ضرورة حسن الاستماع »
بدأ في شرح معنى : الرعاية ، لحقوق الله . وهي أمر
عظيم ، أصبح عامة الناس — كما يقول المحاسبي — له
مضيعين :

وما من شك في أن : « كل ما أمر الله ، عز
وجل ، بالقيام به ، قد أمر برعايته » . « وكل حق
أوجه الله ، جل وعز ، على عباده في خاصة أنفسهم ،
أو فيما أوجب لبعضهم على بعض : فقد أمرهم بحفظه
والقيام به ، وذلك رعاية حقه الذي افترضه عليهم » .

وسواء أقلت : الرعاية لحقوق الله أم قلت :
« التقوى » فان المعنى لا يكاد يختلف ، ذلك أن التقوى ،
إنما هي : اتقاء الشرك لما دونه من ذنب ، من كل
ما نهى الله عنه ، واتقاء تضييع واجب مما افترضه الله .
والرعاية والتقوى هما : الاستجابة إلى الأمر
والإتناء ، عما نهى الله عنه .

ومن أجل ذلك تحدث المحاسبي ، عن التقوى بعد
شرحه لمعنى الرعاية توضيحاً للرعاية وبياناً لها ، وبين
جزاء المتقين وأنهم : « في مقام أمين » ، ويقال لهم عن
الجنة :

« ادخلوها بسلام آمين » .

والناس دائماً يريدون الأمور ، محددة مرسومة ،
فيسألون عن الخطوة الأولى التي يخطوها من يريد أن
يسلك الطريق إلى الله ؟ وعن كيفية البدء في الإعداد
للمقام بين يديه ، سبحانه .

« فليكن أول ما تبدأ به من العدة لذلك المقام :
تقوى الله ، عز وجل ، في السر والعلانية ، ليأمن قلبك

وهو على كل حال أهم كتبه في نظر القلماء
والمحدثين ، حتى لقد عرف به ، وإذا لم يذكر أحد
المؤرخين القدماء من كتب المحاسبي إلا كتاباً واحداً :
فانه يكون الرعاية ، وهو بالنسبة للمحاسبي ، كاحياء
علوم الدين بالنسبة للغزالي ، وقد حاول المحاسبي أن
يشرح فيه الطريق الذي يحقق الرعاية ، لحقوق الله تعالى
ويبدأ المحاسبي « كتاب : « الرعاية » بالحمد
والثناء على الله ، سبحانه وتعالى ، ثم يتحدث عن حسن
الاستماع :

« فقدم حسن الاستماع منك ، لما أجبته به ، لعل
الله عز وجل ، أن ينفعك بفهم ما أجبته عنه : من
الرعاية ، لحقوق الله عز وجل ، والقيام بها ، فان الله
تبارك وتعالى ، أخبرنا في كتابه . أنه من استمع كما
يحب الله ويرضى ، كان له فيما يستمع إليه ذكرى .
يعنى : اتعاضاً ، ثم يذكر المحاسبي الآيات الدالة على
هذا والأحاديث .

ويرى القارئ في هذا النص الذى نقلناه من
الصحيفة الأولى للكتاب أمرين :

الأمر الأول : أن المحاسبي ، يفترض مخاطباً ،
يخاطبه ، أو سائلاً يسأله والمحاسبي يجيبه .
والواقع أن الكتاب كله يسير على هذا النسق :
أسئلة من مخاطب وإجابات من المؤلف .

وما من شك في أن بعض الأسئلة التى أوردها
المحاسبي قد سئلها بالفعل ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن
بعض كتب المحاسبي ألف استجابة لأسئلة .

يبد أن كتاب : « الرعاية » يظهر فيه — في
وضوح — من التناسق والترتيب والتخطيط ما يبعد
الظن بأنه ألف استجابة — مجرد استجابة — لأسئلة
وقتيية .

أما الأمر الثانى الذى يتبينه الإنسان من النص ، فهو
أن المحاسبي يرجع إلى الكتاب الكريم ، يستند إليه في
آرائه ، إنه يقول :

في ذلك المقام مع قلوب المتقين ، حين ينجز لهم ما وعدهم : من الأمن ، والغبطة ، والسرور .

فالتقوى أول منزلة العابدين ، وبها يدركون أعلاها ، وبها تركوا أعمالهم ، لأن الله ، عز وجل ، لا يقبل عملاً إلا ما أريد به وجهه .

ولكن الإنسان قد يكون مغترّاً بخدوعاً بعبادته :

فكم من متكشف في لباسه ، متدلل في نفسه ، آخذ من حطام الدنيا اليسير ، ومن مصل ، وصائم ، وغاز ، وحاج ، وباك ، وداع ، ومظهر للزهادة في الدنيا ، والرفض لها على غير صدق ، ولا إخلاص ، ولا صلاح حقيقى :

وإذا ما أراد إنسان من هؤلاء : أن يزن أعماله بموازين الدين ، إذا استيقظ فؤاده ، فأراد أن يعرف أين هو من المخلصين ؟ فعليه أن يرجع إلى نفسه ، ويعرض أيامه التي خلعت من عمره في عبادته وينظر : هل آتى عليه يوم منها حفظ فيه جوارحه وقلبه عما كره الله ؟ ! وهل سلم من العجب ، والكبر ، والحسد ، والشماتة ، وسوء الظن ؟ !

ولعله بعد هذا العرض يتواضع ويبدأ في إصلاح أمره :

على أن التقوى ، وإن كانت أول منازل السالكين ، فإنها معنى عام ، يبدأ أول ما يبدأ ، حينما يعلم الإنسان أنه عبد مريب : «لأن أول ما يلزمك في صلاح نفسك الذى لا صلاح لها في غيره ، وهو أول الرعاية : أن تعلم أنها مربوبة متعبدة ، فإذا علمت ذلك علمت أنه لا نجاة للمربوب المتعبد إلا بطاعة ربه ومولاه» : والطاعة سبيل النجاة .

والعلم هو الدليل على السبيل :

ولا بد للتقوى من المحاسبة ، وقد كان المحاسبى كثير المحاسبة لنفسه ، بل إنه لم يسم المحاسبى ، إلا لهذه المحاسبة .

وقد روى عن النبي ، صلى الله عليه وسلم :

« الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت » .

وقوله : دان نفسه : يعنى حاسب نفسه .

ولقد قال سيدنا عمر ، رضى الله عنه :

« حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم

قبل أن توزنوا ، وسيثوا للعرض الأكبر » .

وكتب إلى أبي موسى : « حاسب نفسك في الرخاء

قبل حساب الشدة » .

هذا الذى قدمناه للآن يعتبره المحاسبى ، كالمقدمات

العامة للموضوع ثم يأخذ في وصف : « منازل التوابين »

ويبين فيه اختلاف الفطر والجللات :

فن الناس من نشأ على الخير ، فرعاية حقوق الله ،

عز وجل ، عليه أسهل .

ومنهم تائب بعد صبوته ، وراجع إلى الله عن

جهالته ، وإنه ليدخل في نطاق قوله تعالى : « والذين

اهتوتوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » .

أما الثالث : فانه المصر على ذنبه المقيم على سيئاته ،

إنه : « محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار من قلبه ،

فيتوب إلى ربه من ذنبه ، فيلحق بصاحبيه الذين من

قبله : الناشئ على غير صبوة ، والمنيب بالتوبة إلى

خالقه تعالى .

ما الذى يبعثه على التوبة وترك الإصرار ؟

أما الذى يبعثه على التوبة وترك الإصرار : فهو

الخوف والرجاء ، يقول تعالى :

« وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن

الهوى ، فإن الجنة هى المأوى » .

فأخبر عز وجل ، أننا لما خاف ربه نهى نفسه عن

الهوى ، ولقد وصف الله أوليائه بأنهم يدعونه رغباً

ورهباً : أى راجين خاتفين .

وينال الخوف والرجاء ، بأن تصبح المعرفة بعظم

قدر الوعد والوعيد واضحة صافرة والله ، سبحانه قد

خوفنا بالعقاب لنخوف أنفسنا ورجانا لرجيها ، وما
يعين على ذلك ، وقد أمرنا الله به : أن نفكر في المعاد ،
وهجوم الموت ، وعظيم حق الله عز وجل ، ووجوب
طاعته .

وحقاً إن الفكر في ذلك ثقیل على النفس بيد أنه
مما يخفقه علم الإنسان بعظيم قدر ما ينال بالفكرة من
المنافع في الدنيا والآخرة : ذلك أن في نعيم الطاعة في
الدنيا والظفر بنعيم الآخرة سعادة لا تعد لها لذة المعاصي
ولن يتذكر متذكر ، أو يفكر في المعاد والنجاة
مفكر ما لم يجتمع همه ، فطريق الفكرة ومفتاحها ، إنما
هو : « اجتماع الهم مع المطالبة بالعقل والتوكل على
الرب لا على العقل » .

واجتماع الهم إنما هو بعدم تشتت القلب والجوارح
في ميادين اللعب واللهو ، يقول ابن مسعود ، رضي
الله عنه :

« طوبى لمن لم يشغل قلبه بما ترى عيناه ، ولم ينس
ذكر ربه بما تسمع أذناه » .

على أن المصيرين في منازل شتى : فمنهم من كثرت
ذنوبه ، ومنهم من قلت ذنوبه ، ومنهم تائب من بعض
ذنوبه وهو مصر على البعض الآخر .

وعلاج كل ذلك هو إدمان الفكر بالتخويف ،
كالداء إذا عضل لم يبرأ صاحبه إلا بدوام التداوى ؛
وإدمان الفكر بالتخويف يستمر إلى أن تسخو نفسه
بالتوبة الخالصة النصوح التي يوقن فيها أنها كانت بمنة
ربه وتفضله ؛ سبحانه ، لا بقوته هو فيستأهل بذلك
الزيادة من الله عز وجل لأنه يقول :

« لئن شكرتم لأزيدنكم » .

وفي التفسير : لأزيدنكم من طاعتي :
على أنه إذا سحت نفسه بالتوبة فتاب ، فانه يجب
أن يستمر في تيقظه وحذره ، فان الاهتمام والحذر إن
ألزمهما قلبه بوقظاه ، فيما يستقبل من عمره ، فإذا استمر
على توبته دخل تحت قوله تعالى :

« رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » .

ومما لا ممارسة فيه : أنه لا بد للخلق أجمعين من
معرفة حقوق الله ، عز وجل ، بأسبابها وأوقاتها وعللها
وإرادتها ووجوبها ، وفيهم هي ؟ وأياها بدأ الله عز وجل
به خلقه ؟

فعلى العبد أن يبدأ بما بدأ الله عز وجل ، به فيبدأ
برعاية حقوق الله عز وجل في قلبه إذ عنه تكون أعمال
الجوارح ، وجمل حقوق الله عز وجل في القلب
ثلاث : اعتقاد الإيمان ومجانبة الكفر ، واعتقاد السنة
ومجانبة البدعة ، واعتقاد الطاعة ومجانبة الإصرار على
ما يكره الله عز وجل من عمل قاب وبدن .

وجمل حقوق الله ، عز وجل - في الجوارح :
القيام بالحركات فيما أوجب الله تعالى ، وترك الحركات
وهو السكون عما كره الله عز وجل .

على أنه مع كل ذلك ، لا بد من مراعاة حقوق
الله ، عز وجل ، عند خطرات القلب الداعية إلى كل
خير وشر :

وقد تكون الخطرات من هوى النفس ، والله
سبحانه وتعالى ، يقول :

« إن النفس لأمارة بالسوء » .

وقد تكون خيراً .

ومهما يكن من شيء فانه إذا عرضت الخطرات
عرضها على الكتاب والسنة : فما وافق قبله وما خالف
رفضه : يجب أن يشهد له العلم ، أن الله عز وجل ، قد
أمر بها وتنبأ إليها ، أو أذن فيها بأسبابها وعللها ووقتها
وإرادتها فيها ، فانه قد يقبل الخطرة يرى أنها داعية إلى
سنة وهي بدعة ، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهي
معصية ، وقد يرى أنها داعية إلى خير وهي شر :
كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل ، وإلى التنزه
عن الخلق بالفكر ، وإلى الرجاء على العمل بالعجب
والعزة ، وإلى المنافسة بالחסد ، وإلى الغضب لله عز

وجل بمعنى البلاء في الدين والدنيا للمسلمين واعتقاد استحلال ما حرم الله عز وجل ، منهم ، ونحو ذلك من الخطرات ، وإلى القدر^(١) بتنزيه الله عز وجل ، وإلى رأى جهنم^(٢) : بنفى التشبيه ، وإلى التشبيه : بنفى رأى جهنم ، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد ، وإلى الخروج بالسيف بالغضب لله عز وجل ، أو إلى الإرجاء بتعظيم الأقدار وتنزيه الإيمان من النقصان .

وقد نخطر الخطرة تدعو إلى بدعة في الجملة يحسبها سنة ، ومما يدل على ذلك : أن قلوب أهل البدع إذا خطر بها الخطرات تدعوهم إلى بدعة عدوها سنة ، فكذلك أهل السنة : لن يدع العدو أن يدعوهم إلى البدع عند غفلتهم من حيث لا يشعرون ، ولولا ذلك ما ابتدع أحد بدعة بعد اعتقاده للسنة في عبادة ولا غيرها لأنه قد يدعو العدو إلى الابتداع في زهد ، وفي رضائه ، وتوكله ، فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم ، ورضاءهم ، ويقينهم بمخالفته السنة واعتقاده البدعة ، وهو يرى أنها سنة ، كما اعتقد قوم الزهد في الدنيا بتضييع العيال وترك وجوب حق الوالدين ، والتوكل بترك الاكتساب على الأهل والأولاد والخروج في السفر بلا زاد ، والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين وبحريم الدماء والدعاء وترك التقي أن المعاصي لم تكن ، وبلاشتغال بالله ، عز وجل ، بترك الفرائض وترك النوافل ، ودعوى البصائر واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب : من القطع على ما في ضمائر الخلق وما يسرون ويكتُمون ، ويحتجون في ذلك بآثار : مثل قوله ، صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن ينظر بنور الله » .

وكل فرقة ممن ذكرنا تحتج بالآثار ، والكتاب ،

(١) القول بالقدر : هو القول بحرية الإرادة : أي أن الإنسان حر فيما يأتي وفيما يدع من الأفعال ، وليس مجبورا من الله على عمل من الأعمال .

(٢) رأى جهنم في الصفات : هو أن الصفات هي الذات .

والمقاييس ، ولكن يطول ذكرها ، وإنما أردنا تحذير جملتها ، ليعرفها العالم المثبت بالكتاب والسنة .

وكذلك الخطرات التي تدعو إلى تدوين القلوب من غير عبادات بالأعمال : كالقدر .

ورأى جهنم ، والرفض ، والاعتزال ونحوه ، فلن يميز العبد بين ذلك ، وبين ما أحب الله عز وجل ، من الأعمال والسنن إلا بشاهد العلم . اهـ

لقد تعمدا نقل هذا النص السابق بطوله ، لأنه يدل على اتجاه المحاسبي في الجانب العقدي أي أنه يحدد اتجاهه بالنسبة للفرق الموجودة في عصره ، وهو نص غاية في الأهمية ، من الناحية الصوفية ، ومن الناحية الكلامية : أما من الناحية الصوفية ، فإن المحاسبي يحمل على من يدعو إلى الإخلاص بترك العمل وإلى التنزه عن الخلق بالفكر ، ويرى أن ذلك خطرات شيطانية ، وكذلك الأمر في كل خطرة ، تدعو إلى نوع من الزهد ، والرضا ، والتوكل الذي يخالف زهد الأئمة ورضاءهم وتوكلهم ويقينهم ، أي يخالف السنة .

ومن أمثال ذلك اعتقاد قوم الزهد في الدنيا بتضييع العيال ، وترك وجوب حق الوالدين .

ولأنه لمن الانحراف الشيطاني - فيما يرى - أن يمتنع قوم عن الاكتساب على الأهل والأولاد ، أو الخروج في السفر بلا زاد تحت تعلقة التوكل ، أو أن يرضى بالبلاء يقع بالمسلمين ويحرم الدواء ويمتنع عن الدعاء وكل ذلك تحت تعلقة الرضا

إلى آخر ما ذكره المحاسبي من ذلك .

أما من الناحية الكلامية ، فإن هذا النص يبين أن المحاسبي ، لا ينتسب إلى المعتزلة ولا إلى الجهمية . ولا يقول بالتشبيه ، ولا بالتعطيل ، ولا بوجوب تحقق الوعيد ، وأنه ليس من المرجئة ، وليس من الشيعة .

إن هذا النص الذي جاء في صورة عابرة : يشير إلى بعض ما كان يمكن أن يفصل لو أننا عثرنا على

الكتب التي فقدت ، ولكن أهميته لا تقل بسبب إجماله ،
إذ هو واضح كل الوضوح في بيان موقف المحاسب من
الفرق الكلامية ، ومن الاتجاهات المنحرفة في التصوف .
ثم بعد هذا يأخذ المحاسب في شرح ما يتدلى به
الإنسان من أداء الفروض وترتيب ذلك .

فإذا عرض للعبد أمران واجبان في وقت واحد بدأ
بأوجههما ، مثال ذلك في الوالدين : فإن العبد يبدأ بحاجة
والدته ، لأن برها مقدم في سنة النبي صلى الله عليه
وسلم ، وكذلك إذا وجب عليه الحج بالاستطاعة المالية
وعليه دين حل مواعده ، فليؤد إلى الدائن حقه .

وإذا عرض له واجبان ، لأحدهما وقت يفوت
والآخر لا يفوت وقته بدأ بما يفوت وقته قبل الآخر ،
كالرجل يريد الحج في وقت فيه ساعة من الأيام ، فيأمره
والده أن يقيم إلى آخر الوقت للحج فليطعهما .

وإذا كان في فرض ، فعرض له فرض دونه :
لم يخرج منه إلى ما هو دونه حتى يتمه ، كما إذا كان
في الحج المفروض محرماً به ، فكتب إليه والداه بالحضور
فليتمه ولا يخرج منه .

وإذا كان في فرض فعرض له فرض أوجب
منه : قطعه بعد ما يحل فيه كالصلاة ، وكما إذا أمره
والداه ألا يخرج من بلدهما ، فيحضر التقير لظهور
المشركين على المسلمين وليس في وجوههم من يقوم
بقتالهم ، فعليه الخروج وترك المقام .

وإن عرضت له نافلة وهو في واجب لم يقطعه من
أجلها .

وكذلك الفضل والتطوع : يبدأ بالأفضل فالأفضل
على أن الواجب أن يبادر الإنسان بالعمل على نجاة
نفسه حتى لا يكون مثله كمثل من قال الله ، فيه :

« حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني لعلى
أعمل صالحاً فيما تركت » .

قال الله ، عز وجل ، مجيباً :

« كلا إنها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ
إلى يوم يبعثون » .

قال عبد الرحمن بن يزيد ، لرجل يعظه :
يا فلان ، هل أنت على حال ترضى فيها الموت ؟
قال : لا

قال : فهل أجمعت للنقلة إلى حال ترضى فيها
الموت ؟

فقال : لا ، ما سنحت نفسي بذلك بعد .

قال : فهل بعد الموت دار فيها مستعيب ؟

قال : لا

قال : فهل تأمن بغته الموت ؟

قال : لا

قال : ما رأيت مثل هذا الحال رضى بها عاقل .

والعاقل هو الذي يتوب - قبل الموت - أى على
القور ، توبة طاهرة عن الذنوب والخطايا : بأن لو قيل
له : إنك تموت الساعة ، فإنه لا يجد عنده ذنباً يحتاج
إلى التوبة منه ، فيسأل النظرة من أجله .

ولقد أجاد سيدنا عمر بن عبد العزيز : في الحصى
على الذكر والفكر ، حينما قال في خطبته :

« ألا ترون أنكم تتقلبون في أسلاب المالكين ،
ويرثها منكم الباقون ، كذلك حتى تردون إلى خير
الوارثين ، وأنتم تجهزون كل يوم غادياً أو راحاً إلى الله
عز وجل ، تضعونه في صدع من الأرض ، ثم في
بطن صدع ، قد توسد التراب ، وخلف الأحياب ،
وقطع الأسباب ، موجه للحساب ، غنى عما خلف ،
فقير إلى ما قدم » .

• • •

ثم يبدأ المحاسب شرح وتحليل الرذائل النفسية ،
ووصف العلاج لها : تلك الرذائل التي تحبط الأعمال
وتغنى الإخلاص :

« إرادة العبد العباد بطاعة ربه » .

يقول تعالى :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » .

وقد روى عن معاوية بن أبي سفيان ، وروى عن مجاهد ، في تفسير هذه الآية قالاً : « هم المرءون » .

والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وكلام الصحابة والتابعين ، رضى الله عنهم في التحذير من الرياء ، لا تكاد تحصى .

ومن أشد ما يروى في ذلك حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن أبي هريرة - فيما رواه مسلم - سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها : قال : قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ولكنك قاتلت ، لأن يقال جرئ ، فقد قيل ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ، قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ، ليقال : عالم وقرأت القرآن ، ليقال : قارئ ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ، قال : ما تركت من سبيل تحب أن يتفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ولكنك فعلت : ليقال جواد ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار » .

وفي رواية ، أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، خطب على فخذ أبي هريرة ، وقال : « يا أبا هريرة أولئك أول

وأول هذه الرذائل هو : « الرياء » ويستفيض المحاسب في الحديث عن الرياء استفاضة تتناسب مع تغلظه في النفوس وتشعبه بحيث يظهر فيها لا يكاد يحصى من الأعمال ، على أن جميع أعمال البر عرضة ، لأن يعصف بها الرياء ، فتصبح كسراب بقيعة . ومن أجل كل ذلك كتب عنه المحاسب حوالى خمس وعشرين ومائة صحيفة أى ما يزيد قليلا على ربع الكتاب ووضعه تحت عنوان كتاب : « الرياء » .

ويبدأ المحاسب ، كتاب الرياء على الصورة العادية في كتاب الرعاية كله : سؤال السائل ، وإجابة المؤلف قلت : قد وصفت لى مراقبة الله - عز وجل - وذكره الرعاية لحقوق الله عز وجل ، ووجوه طلبها .

والأول من الواجب والفضل ، فما تخاف على إن قمت لذلك ؟

قال : أخاف عليك أن تفسده بما يبطل ثوابه في آخرتك ، ويذهب بحلاوته من قلبك .

قلت : ذلك أعظم للحسرة : أن أتغنى ثم يحبط ويبطل عملى ، وما ذاك المعنى ؟ .

وما يحبط عمل المتغنى : أن يحب ، أن يحمد ويوقر بسبب عبادته .

ولا بد من الإخلاص التام ، حتى يصل الإنسان إلى منزلة الخاصة .

وما من شك في أن الإخلاص : منزلة الأقوياء والخاصة من العابدين ، ولكن الجميع مطالبون به وعلى قدر إخلاصهم يكون ثوابهم .

وقد سأل رجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله : فيم النجاة ؟ فقال :

« ألا تعمل بما أمرك الله به تريد الناس » .

فسأله عن نجاته في أعماله ، فأخبره بترك : الرياء .

لا غنى للعبد إذن عن تركه : فإذا سألت الآن عن مفهوم الرياء فانه :

خلق الله ، عز وجل ، تسع بهم نار جهنم يوم القيامة ،
فذلك أعظم الرياء عند الله ، عز وجل .

وإذا كان هذا إرادة غير الله بالطاعة ، فإن من
أنواع المرائين من يريد الله ويريد الناس أيضاً ، وذلك
أقل من السابق ولكنه أيضاً رياء .

يقول تعالى :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ،
ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

ويقول ، صلى الله عليه وسلم ، في حديث قدسي ،
عن الله عز وجل :

« أنا أغنى الشركاء عن الشريك من عمل لي عملاً ،
وأشرك معي شريكاً ودعت نصيبي لشريكى » .

ومن أخس أنواع الرياء : أن يتظاهر الإنسان
بالعبادة ، طمعاً فيما في أيدي الناس وجباً في أن يبرره
بما يظهر من طاعة ربه .

لا بد إذن من المهادنة والمكابدة والتيفظ ، لمداخل
الشیطان والنفس الأمارة وليس ذلك بسهل في مبدأ
الأمر ، والناس في هذا متفاوتون ولكن ، الله ، سبحانه
وعد بأن يعين الذي يبدأ مخلصاً في السير إليه ، حيث
قال ، سبحانه :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . . . » .

ثم يأخذ المحاسبي ، في وصف ألوان من الرياء
عديدة تأتي على شكل خطرات تتردد في النفس ،
ليكون الإنسان منها على حذر ، وبين المראה في
الفروض ، والمראה في السنن .

ثم يتحدث عن بعض ما ينشأ عن الرياء من الأخلاق
المرذولة المذمومة .

ومن هذه الأخلاق التي تنشأ عن الرياء : مثل
المباهاة بالعلم ، والعمل ، والتفاخر بالدين والدنيا ،
وحب الغلبة .

أما علامة المرائي : فهي حب الحمد والثناء ،
وإظهار العمل من أجل الاحترام والتبجيل والمدح .

ومن أجل كل ذلك ، لا بد من إخلاص النية ،
ولا بد من أن يصل الإنسان إلى أن يكون ممن وصف
الله من عباده ، مادحاً لهم ، فقال :

« يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ،
ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ، ويتبوا وأسيراً ،
إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ،
إننا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله
شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما
صبروا جنة وحريراً » .

أما من تحدث إلى الناس بما عمل من الطاعة ، يريد
بذلك وجه الله ، وحضهم على الاقتداء به ، فليس من
الرياء في شيء ، ولأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك
من الدنيا وما فيها .

وقد ختم المحاسبي ، كتاب : « الرياء » بقوله :

وقد روى أن ابن السماك ، قال لجارية له : « مالي
إذا أتيت بغداد فتفتحت لي الحكمة ؟ » قالت له جاريته :
يشحد لسانك الطمع ، وصدقت : إن العبد يكثر
الكلام بالخير عند الغنى ، ما لم يتكلم به عند الفقير ،
يهيج الطمع على ذلك ، أو تعظيمه للدنيا وكذلك يظهر
الخشوع وغيره من الطاعات .

ويبدأ المحاسبي بعد ذلك في : « كتاب الإخوان
ومعرفة النفس » ولا يقصد المحاسبي أن يتكلم في هذا
الباب على الصداقة وشروطها وواجباتها ، أو عن
النفس من ناحية التصور الفلسفي لها : جوهرأ ، كانت
أم عرضاً ، وقديمة أم حديثة كلا ، وإنما يريد أن
يتحدث في الموضوع من ناحية الإعانة على ذكر الله
والتقوى ، فقد يترك الإنسان الرياء فترة من الزمن
عازماً على ألا يعود إليه ، ثم تخور عزيمته ، وينتكث
في طريقه .

ولأجل ألا يحصل ذلك لا بد من قطع كل سبب يكون عنه الزلزل والفتنة ، فإذا ما زل مع ذلك : فلا بد من المسارعة إلى الإقلاع قبل أن تألف النفس المعصية ، وتتمكن في القلب حلاوة الشهوة .

وقد يكون من أسباب الزلزل : مجالسة الذين لا يسلم الإنسان معهم — بسبب مجالستهم — من الزلزل ، ومثل صاحب السوء ، كمثل صاحب الكبر يعني الحداد : إن لم يحرقك بشرره يعقب بك من ربحه .

ولقد قال سيدنا عمر : احذر صديقك إلا الأمين من الأقوام ، ولا أمين إلا من خشى الله ، كل هذا إذا أنس من نفسه ضعفاً ، أما إذا كان يمكنه أن يغير اتجاه أصحابه ويتغلب على تياراتهم فيوجههم إلى الخير ، فذلك حسن .

يقول إبراهيم التيمي :

« إن الرجل ليأقن القوم وهم يخوضون في الباطل ، فيصرفهم إلى الذكر ، فيكون له أجره وأجرهم » .

وبعد هذا الكتاب ، كتاب آخر يرتبط به ارتباطاً وثيقاً ، حتى لقد كان يمكن أن يكونا كتاباً واحداً ، ويكونان بذلك وحدة متحدة ، ذلك هو : « كتاب التنبيه على معرفة النفس وسوء أفعالها ، ودعائها إلى هواها » . ونكتفي في هذا بما ذكرناه سابقاً .

ومن الرذائل الخبيثة في النفس : « العجب » فسيبه هلك أئمة الضلالة ، وبالعجب تكبر المتكبرون وافتخروا المفتخرون ، واختال المختالون .

ولقد روى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه » .

وقد يكون العجب بالدين :

والعجب بالدين بوجوه أربعة : بالعمل والعلم والرأى الصواب والرأى الخطأ ، فالعلم : ما حفظ وفهم من الكتاب والسنة وقول علماء الأمة .

وأما الرأى الصواب : فما استنبط قياساً ، على الكتاب والسنة والإجماع ، مشبهاً بها حكمة مثل حكمة . وأما الرأى الخطأ : فما كان من غير استنباط من كتاب ولا سنة ولا إجماع الأمة . وإنما هو : تأويل بغير الحق ، وانتحال له على سبيل الجهل ، من قبل هوى النفس ، مع اعتراض من الظن أنه حق .

فأما الإعجاب بالعمل والعلم والرأى الصواب ، فعنى واحد : لأنه كله منة من الله عز وجل ، ونعمة منه .

فجملة العجب بالدين : حمد النفس على ما عمات أو علمت ، ونسيان النعم من الله ، عز وجل ، عليك بذلك فحمد النفس ونسيان المنعم : هو العجب بالدين . أما إذا رأى الإنسان أن ما به من نعمة — مالا أو قوة ، أو علماً أو سداداً في الرأى ، أو طاعة وعبادة فن الله : فانه بذلك ينفى العجب عن نفسه ، يقول تعالى :

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً » .

ويستفيض في الحديث عن العجب بالدنيا ، وبأعمال الطاعة ، وبالعلم ، وبالنفس ، وبالحسب ، مع أن الله تعالى يقول :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومع قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لابنته ولعمته : يا فاطمة بنت محمد ، وبأصفياء بنت عبد المطلب : عمة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « اعلموا لأنفسكم ، فاني لا أغني عنكم من الله شيئاً » .

ويتحدث المحاسبي عن العجب بكثرة العدد ، ويذكر رداً على ذلك قول الكافرين :

« نحن أكثر أموالاً وأولاداً » .

ثم يأخذ المحاسبي في كتاب : « الكبر » والكبر : من علامات الذين لا يؤمنون بالآخرة ، يقول تعالى :

« فالدين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » .

وما أُلحِد كثير من الملحدين ، أو انحرَف كثير من المنحرفين ، إلا بسبب الكبر : إن الله يصرفهم عن رؤية آياته والاعتبار بها بسبب كبرهم .
« سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق » .

وإن الله ، سبحانه وتعالى ، يطبع : « على كل قلب متكبر جبار » .

وقد ينشأ الكبر عن العجب في الدين بالعلم والعمل ، فإذا كان من قبل العلم ، فإن العالم إذا أعجب بعلمه ، أخرجه عجبه إلى الكبر تعظماً على العباد ، فيتكبر على العوام ، وإن كان بعضهم أتقى لله عز وجل ، منه وذلك الذي خافه عمر — رضى الله عنه — على العلماء ، حين قال : « تواضعوا لمن تعلمونه ولا تكونوا من جبايرة العلماء ، فلا يقوم علمكم عند الله بجهلكم ، أى لا يزكو عند الله إذا تكبرتم به » .

ومن العباد قوم ضلال ، قد جمعوا إلى الضلال الكبر ، لا يرون أن أحداً يقول : الحق على الله عز وجل ، غيرهم وأنه لا مهتد في الأرض غيرهم ، وهم الذين يقولون : إن القرآن مخلوق ، وهم الذين يقولون بالوقف ، والذين يقولون باللفظ ، والذين يكذبون بالقدر ، والذين ينكرون أن الله عز وجل ، يرى في الآخرة والذين يغلطون الموازين ، ومنهم الرافضة^(١) والمرجئة ، والحرورية^(٢) والذين يكذبون بالشفاعة ، ويشتمون أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والذين يشتمون عائشة أم المؤمنين المبرأة من الإفك ورحمها الله ، ولولا ما أكره أن يطول الكتاب بذكرهم لذكرتهم فكل هذه الفرق آفة غير جائرة عن الطريق :

(١) الرافضة : هم الشيعة .

(٢) الحرورية : هم الخوارج .

لا يرون أحداً يقول بالحق ، وأنه لا مهتد في الأرض غيرهم جهلاً بالله عز وجل ، وتكبراً على عباده ، كما روى العباس ، رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« يكون قوم يقرءون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يقولون : قد قرأنا القرآن ، فن أقرأ منا ؟ ومن أعلم منا ؟ » . ثم التفت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إلى أصحابه ، فقال :

« أولئك منكم أيها الأمة ، أولئك هم وقود النار » . وقد يكون الكبر عن الرياء :

ويجب على كل إنسان : أن يعلم ، أن أصل بن آدم : من التراب الذى يوطأ بالأقدام لأنه من حمأ مسنون والله ، سبحانه تعالى ، يقول :

« قتل الإنسان ما أكفره : من أى شيء خلقه ؟ ! من نطفة خلقه فقدره » .

ثم إن الله تعالى ، لا يحب المستكبرين ، ويقول ، صلى الله عليه وسلم :

« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » .

ثم يتحدث المحاسبي عن : « الغرة بالله عز وجل » ويميز بين الغرة والرجاء فبعض المغترين : يظن أن الغرة منه رجاء ، فيقيم على معاصي الله ، عز وجل ، ويظن ذلك حسن الظن منه ، وليس ذلك بحسن ظن ، كما قال وهب : حسن الظن بالله ما جانب الغرة : وقيل للحسن : إن قوماً يقولون نرجو الله عز وجل ، ويضيعون العمل ، فقال :

هيات هيات ، تلك أمانهم يترجعون فيها من رجاء شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً هرب منه .

ويتحدث المحاسبي في كتاب : « الغرة » عن غرة أهل النسك ، وغرة الفقهاء ، وغرة الوعاظ ، وغرة المتكلمين .

ثم يأخذ في شرح الحسد : أسبابه ومضاره ، وما من ريب في أن جملة الحسد المحرم : أن يكره الحاسد ما يرى من غيره من النعم ويجب زوالها عنه . وأما المنافسة في خيري الدنيا والآخرة . وأن يحب ما يرى بغيره من النعم ، أن يكون له مثله غبطة منه ، دون أن يكره بغيره ما يرى به من النعم ، فهذا لا يأس به ، بل إنه مما يحسن ومن هنا كان قوله : صلى الله عليه وسلم :

« لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله عز وجل ، مالا فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله عز وجل علماً ، فهو يعمل به ويعلمه الناس » . فذلك الذي هو المنافسة في الخير .

ويحتم المحاسبي : « كتاب الرعاية » ب « كتاب تأديب المرید » يذكر فيه سيرة المرید في ساعات الليل والنهار : إنه يرسم فيه الدستور الذي يسير عليه المسلم ، في حياته ، حينما يعزم على أن يأخذ سمت الإسلام الصحيح .

وفيه يقول المحاسبي :

فنعوذ بالله من الحيرة بعد الهدى : ومن العمى بعد البصر . ومن الإعراض عن الله تعالى : بعد الإقبال إليه . ونسأله السلامة والعون على ما يحب ويرضى . . .

أثر المحاسبي وكتابه «الرعاية» في الفكر الإسلامي

إن تأثير المحاسبي في الأجيال التالية له : لا ينكر . إنه من الواضح . أن تلميذه الأكبر - وإن لم يلتق به - كان الإمام الغزالي :

إن الإمام الغزالي . يعترف بأنه قرأ كتب الحارث المحاسبي . قال ذلك في كتابه : « المنقذ من الضلال » . ولقد قرأ أيضاً سيرة الحارث المحاسبي . ويتحدث عن الخلاف الذي كان بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل ثم إنه ينقل عنه في كتابه : « الأحياء » كثيراً من الآراء والنصوص .

وفي كتاب : « الأحياء » يقول عنه الإمام الغزالي ، دون تحفظ ولا استثناء ، هذا التقدير الحائل : « المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة » .

وله سبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وأعوار العبادات .

وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه . اهـ

هذه الشهادة أو التقدير من الإمام الغزالي ، كان له أثر كبير في كتاب : « الأحياء » فإن كتاب الأحياء : تضمن تقريباً كتاب : « الرعاية » وكلمة الشيخ زاهد الكوثري ، رحمه الله ، سبق أن ذكرناها في المقدمة التي كتبناها ، لكتاب الرعاية : إذ يقول :

« لقد تبطن الإمام الغزالي : كتاب الرعاية في كتابه الإحياء » .

ولكن أثر المحاسبي كان أيضاً كبيراً قبل الإمام الغزالي ، يقول السبكي عنه :

« عالم العارفين في زمانه ، وأستاذ السائرين ، الجامع بين علمي الباطن والظاهر » .

ويقول الشعراني عنه ، إنه : « أستاذ أكثر البغداديين » .

لقد كان رحمة الله عليه ، أستاذ أكثر البغداديين وعلم العارفين في زمانه ، وامتد تأثيره إلى الإمام الغزالي ، وإلى الصوفية من بعده : واستمر هذا التأثير قرناً قرناً ، واستمر تقدير العلماء الصوفية له قرناً قرناً : حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى ، وكان المناوى صاحب التأليف الكثيرة المشهورة المعروفة : كتب عن المحاسبي في كتابه : « الكواكب الدرية » يقول :

المحاسبي البصرى : علم العارفين في زمانه ، وأستاذ السائرين في أوانه . عالم سار بنا فضله ، وصوفى طار نبيله : برع في عدة فنون : وتكلم على الناس فأراهم الجوهر المكنون : وأحيا القلوب بوعظه ، وشف الأسع بدر لفظه ، تصانيفه مدونة مسطورة ،

وأقواله مبوبة مشهورة وأحواله مصححة مذكورة ،
وكان في علم الأصول راجحاً راجحاً . وعن الخوض في
الفضول جانحاً . وللمخالقين الزائغين قامعاً وناطحاً ،
وللمريدين مريباً وناصحاً . . .

قال التيمي : هو إمام المسلمين في الفقه ،
والتصوف ، والحديث ، والكلام وقال غيره له
المصنفات النافعة الجمّة ، بحيث تبلغ نحو مائتي مؤلف ،
وناهيك برعايته ، وكتبه في هذه العلوم ، أصول لمن
صنف فيها .

قال في الأحياء : المحاسبي خير الأمة في علم
المعاملة ، وله سبق على جميع الباحثين عن عيوب
النفس ، وآفات الأعمال . وأعواد العبادات ، وكلامه
جدير بأن يحكى على نفسه .

على أن التقدير الذي نحب أن نسجله هنا : هو
ما كتبه الأستاذ لويس مسينيون عن كتاب : « الرعاية »
في كتابه مصطلحات التصوف :

« إن المحاسبي : سما فيه بالتحليل النفسي إلى مرتبة
لا نجد لها مثيلاً في الآداب العالمية إلا نادراً » .

وبالأمس القريب خصص التلفزيون في الجمهورية
العربية المتحدة عدة حلقات للمحاسبي وكتابه :
« الرعاية » في برنامج : « دنيا ودين » تحدث فيها عميد
كلية دار العلوم ، وعميد كلية أصول الدين ، والسيد
الدكتور عيسى عبده ، تحدثوا فيها عن المحاسبي كممثل
لمنهج معين من مناهج المعرفة ، وكممثل للاتجاه الصوفي
السليم ، وتحدثوا عن كتاب : « الرعاية » باعتباره من
الكتب ذات القيمة الذاتية الخالدة .

النص ———— ووص

النص الأول

باب منازل التوايين

اعلم أن الناس مختلفون في ذلك على ثلاث منازل ،
لا رابع لها :

فهم من نشأ على الخير ، لا صبوة له إلا الزلة عند
الشهوة ، كالزلة التي لم يعر من مثلها النبيون ،
والصديقون ، ثم يرجع إلى قلب طاهر لم تعتوره
الشهوات ، ولم يغتد اللذات من الحرام ، ولم تعقبه
الذنوب ، ولم يعل قلبه الرين^(١) ، ولم تغلب عليه القسوة
فرعاية حقوق الله عز وجل ، والقيام بها على هذا
أسهل ، والحنّة عليه أخف ودواعي النفس له أقل

(١) الرين : الدنس

وأضعف ، لأن قلبه طاهر ، والله عز وجل عليه
مقبل ، وله محب ومتول ، والولى لا يتخذل وليه ،
والحييب لا يسلم إلى الملكة حبيبه .

وقد جاء في الحديث يعجب ربك للشاب ليست به
صبوة ، أى يسر به ، ويعظم قدره عنده لأن العجب
على وجهين :

أحدهما المحبة بتعظيم قدر الطاعة ، والسخط بتعظيم
قدر الذنب في الجرأة .

والوجه الثاني : الاستكثار للشيء ، وإنما يعجب
استكثاراً للشيء ، الجاهل الذي لم يكن يعرف الشيء
فلما رآه استكثره وتعجب منه ، وجل الله جل جلاله عن
هذا الوصف وإن كان قد قرأ بعض القراء : (بل

عجبت^(١) فليس هو على الاستكثار لما لا يعلم ومعنى قوله يعجب ربك للشاب ليست له صبوة : أى أن الله عز وجل : يحب له ، راض عنه ، عظيم قدره عنده .

وروى في بعض الحديث عن شريح : أن للشاب الناشئ على عبادة ربه ومحبة أجر سبعين صديقاً .

وروى معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن الله عز وجل ، يقول : « أيها الشاب الباذل شبابه لى ، التارك شهوته من أجل ، أنت عندي كبعض ملائكتي » .

فن أظهر من هذا قلباً ، أو من أولى بالمعونة والتوفيق ممن لم يركب الذنوب عند بلوغه ونشأ على طاعة ربه وعبادته ، واعتاد القيام بحقه ورعاية حقوق الله عز وجل ، عليه خفيفة لطول عادته للقيام بها وتركه الركون إلى أضدادها ، قليل مكابדתه ومجاهدته ، طويل بالله عز وجل شغله واشتغاله .

وآخر نائب من بعد صبوته ، وراجع إلى الله سبحانه ، عن جهالته ، ونادم على ما سلف من ذنوبه في أيامه ، قد أعطاه العزم ألا يعود إلى تضييع شيء من غرضه ، ولا معاودة شيء مما سلف من ذنوبه ، والنفس منه تنازعه إلى عادتها لترده برغبتها إلى لذتها ، وهو يقمعها ، ويجاهدها ، ويخوفها عواقب ما كان منها ، وعلوه يذكرها ما فاتها ويدعوها إلى ما تركت من شهوتها ، وهو يذكرها قبيح ما كان منها . ويعظم منه الله عز وجل ، عليها بتقلتها عما يسخط به ربها عليها ، فما لبث إلا قليلاً - أن صدق الله ، عز وجل في مجاهدته ، وأمسك نفسه عن الشهوات التي تنقص عزمه - حتى يمدد الله عز وجل ، بمعونته ، فيسهل عليه سبيل الطاعة كما ضمن لمن أناب إليه ، فقال عز وجل :

« والذين اهتلوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم^(١) » . وقال عز وجل :

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً وإذا لآتيناهم من لدنا أجر عظيماً . ولهديناهم صراطاً مستقيماً » .

فوعدهم الله تبارك وتعالى : أن يحملهم على الطريق المستقيم ، ويربهم الحق نهاراً سرمداً ، لأنه كريم يتقرب ممن يتباعد منه ، فكيف بمن يتقرب إليه ؟ ويتحجب إلى من يتبغض إليه . فكيف بمن يتحجب إليه ؟

وكذلك روى أبو هريرة ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : يقول الله عز وجل : « يا ابن آدم إن تقرب إلى فترا تقرب إلى إليك شبراً . وإن تقربت إلى شبراً تقربت إليك ذراعاً . وإن تقربت إلى ذراعاً تقربت إليك باعاً . وإن أتيتني سعياً أتيتك هرولة » .

وإنما هذا على حسن المعونة ، وسرعة الإجابة والهداية بالسداد والتوفيق ، والاكتناف بالعصمة . فلم يلبث هذا النائب إلا يسيراً حتى يقبل الله ، عز وجل عليه بمعونة فيقلب له هوى نفسه ويقوى منه ضعفه . ويميت منه دواعي شهواته . فيقهر العقل منه الهوى . ويغلب العلم منه الجهل . ويسكن قلبه الخوف والهم . ويواصل فيه الأحرار بعد طول طوره . واتصال أفراده بالدنيا . كلما ذكر ما كان منه من ذنوبه حاج خوفه ، وغلب همه وطال حزنه : فاذا غفل عن الذكر وسها عن الفكر . نازعته نفسه قال إلى بعض الزلل الذي لم يعر من مثله الصالحون عند غفلاتهم وسهوهم ، ثم يرجع إلى الله - عز وجل - بقلب طاهر من الرين والدنس ، قد فطمه عن عادته وأعقبه بالخوف من الأمن والإصرار ، وبالرجاء الصادق من الغرة

(١) وفي هذا المعنى قوله تعالى : (والذين جاهدوا فينا ، لهدينهم سبيلنا » .

(١) يشير إلى الآية الثانية عشرة من سورة الصافات وهي : « بل عجبت ويسخرون » .

النص الثاني

باب منازل أهل الرعاية ، لحقوق الله عز وجل ،
في رد الخطرات وقبولها في أعمال القلوب والجوارح
على قدر منازل أهل القوة والضعف .

والراعون ، لحقوق الله عز وجل ، في منازل
شقي ، وقد ينتقل كل راع منهم في تلك المنازل على
قدر قوته وضعفه ، فأول منزلة من الرعاية ، وأهلها
أقوى الخلق في الرعاية لحقوق الله عز وجل ، الرعاية
عند الخطرات بعد اعتقاد جمل حقوق الله عز وجل ،
فلا تخطر بقلبه خطرة من أعمال قلبه ، إلا جعل الكتاب
والسنة دليلين عليها ، فلم يقبلها باعتقاد الضمير ،
وبتركها يسكن قلبه في مجال الفكر من التقي وغيره ،
إلا أن يشهد له العلم أن الله عز وجل ، قد أمر بها
ونذب إليها ، أو أذن فيها بأسبابها وعملها ، ووقتها
وإراداتها فيها ، فانه قد يقبل الخطرة ، يرى أنها داعية
إلى سنة وهي بدعة ، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهي
معصية وقد يرى أنها داعية إلى خير وهي شر ،
كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل ، وإلى التنزه
عن الخلق بالفكر ، وإلى الرجاء على العمل بالمعجب
والغرة ، وإلى المنافسة بالحمد ، وإلى الغضب لله عز
وجل ، بمعنى البلاء في الدين والدنيا للمسلمين واعتقاد
استحلال ما حرم الله عز وجل منهم ، ونحو ذلك من
الخطرات ، وإلى القدر بتزيه الله عز وجل ، وإلى
رأى جهنم : بنفى التشبيه ، وإلى التشبيه : بنفى رأى
جهنم ، وإلى الاعتزال بثبوت الوعيد ، وإلى الخروج
بالسيف بالغضب لله عز وجل ، أو إلى الإرجاء بتعظيم
الأقدار وتزيه الإيمان من النقصان ،

وقد تخطر الخطرة تدعو إلى بدعة في الجملة بحسبها
سنة ، وما يدل على ذلك أن قلوب أهل البدع إذا خطر
بها الخطرات تدعوهم إلى بدعة عدوها سنة ، فكذلك
أهل السنة : لن يدع العدو أن يدعوهم إلى البدع عند

والتسوية ، فهو من سالف ذنوبه هارب لرحمة ربه
عز وجل ، بهربه طالب حتى يلقاه آمناً من عذابه ،
وقد جاء في الحديث عن النبي ، صلى الله
عليه وسلم :

« إن العبد ليذنب الذنب ، فيدخله ذنبه الجنة ،
قيل : يا رسول الله ، وكيف يدخله ذنبه الجنة ؟ قال
لا يزال نصب عينيه تائباً منه هارباً منه حتى يدخله الجنة .
وقيل لسعيد بن جبير : من أعبد الناس ؟ قال :
رجل أصاب من الذنوب ، فاذا ذكرها اجتهد .
وروى عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :
« خياركم كل مفتن تواب » .

يخبرك : أن خيار أمته لم يعرفوا من الزلل ، وأن
علمهم بالله عز وجل ، لن يدعهم حتى يرجعوا إليه
بالتوبة والإنابة .

والثالث مصر على ذنبه ، مقيم على سيئاته ، يقبله
الموى وضعف الخوف ، مفر مع ذلك بأن لله عز
وجل ، معاداً يبعث فيه وهو لا يتغشاه به ، ومقاماً
يوقفه فيه ويسأله عما كان منه ، وثواباً وعقاباً يصرفه
من بعد السؤال إلى أحدهما ، ثم يحل فيه مخلداً ، إلا
ما شاء الله الملك الكريم من بعد التخليد في العذاب الأليم
فهذا إقرار بالإيمان في قلبه قد زایل به الجحد ،
وصدق به الرب عز وجل . والقلب بالشهوات مشغول
عن الفكر . والرين له مانع عن الذكر إلا الخطوة
تبيح من الإيمان بذكر المعاد ثم لا تجد موضعاً تستقر
فيه . لما غلب على قلبه من القسوة وتتابع فيه من الغفلة ،
فقلبه هائج باشتغال الدنيا . لا يلزمه ذكر التخويف .
ولا يتفرغ للفكر . ولا يجد حلالة الذكر وكيف
يكون للذكر فيه مستقر . والأشغال تنازعه ، والغفلات
تقلب عليه ؟ فهذا محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار
من قلبه . فيتوب إلى ربه من ذنبه . فيلحق بصاحبيه
الذين من قبله : الناشئ على غير صبوة والمنيب بالتوبة
إلى خالقه تعالى .

غفلاتهم من حيث لا يشعرون ، ولولا ذلك ما ابتدع أحد بدعة بعد اعتقاده للسنة في عبادة ولا غيرها . لأنه قد يدعو العدو إلى الابتداع في زهده وفي رضائه وتوكله ، فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم ، ورضاءهم ويقينهم بمخالفته السنة واعتقاده البدعة . وهو يرى أنها سنة ، كما اعتقد قوم الزهد في الدنيا بتضييع العيال وبترك وجوب حق الوالدین . والتوكل بترك الاكتساب على الأهل والأولاد . والخروج في السفر بلا زاد ، والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين . وبتحريم الدواء والدعاء . وترك التقي أن المعاصي لم تكن وبالاشتغال بالله عز وجل . بترك الفرائض . وبترك النوافل ودعوى البصائر ، واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب : من القطع على ما في ضمائر الخلق وما يسرون ويكتُمون . ويحتجون في ذلك بآثار : مثل قوله : صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن ينظر بنور الله » .

وكل فرقة ممن ذكرنا تختج بالآثار : والكتاب . والمقاييس . ولكن بطول ذكرها . وإنما أردنا تحذير جملتها . ليعرفها العالم المثبت بالكتاب والسنة .

وكذلك الخطرات التي تدعو إلى تدوين القلوب من غير عبادات بالأعمال : كالقدر ورأى جهنم والرفض والاعتزال ونحوه . فلن يميز العبد بين ذلك وبين ما أحب الله عز وجل من الأعمال والسنة إلا بشاهد العلم . لأن الله عز وجل . أمر بذلك أو ندب إليه وأذن فيه ولا تخطر خطرة فينفيا . أو يحجب قلبه عنها . إلا أن يشهد له العلم . أن الله عز وجل . قد نهى عنها وذمها بسببها وعللها وأوقاتها . فانه قد تخطر بقلب العبد الخطرة داعية إلى خير فينتفي . وهو يحسب أنها شر . وقد تدعو إلى سنة فينفيا وهو يحسب أنها بدعة . يزينها له عدوه . ومما يدل على ذلك : أن قلوب أهل البدع : إذا خطرت بها خطرة تبعهم على اعتقاد السنة نفوها وحسبوا بدعة

ولن يدع العدو أن يدعو العبد المريد إلى نفى خطرات التنبيه على الخير والشر لئلا يقبلها ، لأن على العباد وإن أرادوا الله عز وجل ، أن يصيبوا الحق بذلك .

وقد ذم الله عز وجل . قوماً ولم يعذرهم . بأن رأوا أن الشر خير والخير شر . فقال جل وعز :

« وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا^(١) » .

وقال عز وجل :

« أفن زين له سوء عمله فرآه حسنا^(٢) » .

وقال حذيفة : رضى الله عنه : لرجل سأله عن الرجل : يقاتل يريد وجه الله عز وجل ، فيقتل ، ولم يوفق للحق . فقال : ليدخل النار ممن يقتل أكثر من كذا وكذا ولكن من قاتل يريد وجه الله عز وجل ، فأصاب الحق فهو في سبيل الله .

ومن لم يوفق للحق . لم يوفق للخير . وكذلك الذي ينفي خطرات من الخير يحسبها سواء ولا يميز بين ذلك إلا بشاهد العلم من الكتاب والسنة ، وإذا تبين له بشاهد العلم إحدى الخطرتين . أنها مما أحب الله عز وجل من عمل قلب أو اعتقاد سنة قبلها وعزم عليها : وإن تبين له بشاهد العلم أنها مما كره الله عز وجل أو ذمه في كتاب الله عز وجل . أو في سنة النبي - صلى الله عليه وسلم - أو اجتمعت^(٣) عليه العلماء نفاها عن قلبه وحجب قلبه عنها ، فإن لم يقين له عند إحدى الخطرتين ما هي ، أمي مما أحب الله عز وجل . أو مما كره الله تعالى ؟ وقف وثبت ابتداء أو يشهد العلم له بأحد الأمرين فيقبل أو ينفي . وهو في فسحة حتى يتبين بالنظر بقلبه . أو بسؤال العلماء . إن كان مما لا يبلغه علمه فانه إن لم يفعل ذلك لم آمن عليه . أن يضل بغير دليل . فيه تقد الشر ويحسب أنه خير أو ينفي الخير ويحسب أنه شر .

(١) ١٣ : ١٠٤

(٢) ٣٥ : ٩

(٣) اجتمعت العلماء على أنها لا يكره الله عز وجل .

عليه وسلم ، فجعل بعض فرضه أوجب من بعض ،
إذا اجتمع القرضان ، وفرض فرضاً له وقت يفوت ،
إن جاز وقته بغير عذر قبل أن يؤدي كان العبد عاصياً
لربه ، وفرض فرضاً له وقتان . فمن أداه في أول وقته
كان ذلك أفضل عليه وإن أداه في الوقت الثاني لم يكن
مأزوراً وأوجب الله عز وجل ، ألا ينال فرضه بما حرم
على عباده ولا يؤثر على فرضه نافلة مما يتقرب به إليه ،
فعليك وعلى العباد ألا يؤخروا من فرضه ، ما أوجب
أن يبدأ به ، ولا يقدموا ما أمر أن يؤخر بعد غيره من
الغرض ولا يتركوا فرضاً ، لطلب قرابة بنافلة ولا غيرها

النص الثالث

باب ما يشق به العجب بالرأى الخطأ

قلت : أفرأيت نفى العجب بالرأى الخطأ ، إذا
كان ليس بنعمة فأذكر منة الله عز وجل ، بذلك ،
ولا أضيف ذلك إلى نفسى فم أففيه ، إذ تبين لى أنه
بلية وخذلان ، أو نقص في الدين ؟

قال : قد ينفى العبد العجب بالرأى الخطأ بتهمة
نفسه ، وترك الاستحسان لشيء من رأيه إلا بدليل بين
وحجة واضحة من الكتاب والسنة ، أو قياس عليهما
واستنباط حكم في نازلة .

قلت : وكيف يتهما ؟ وما الذى ينال به تهمتها ؟
قال : لمعرفته ما بنيت عليه في الخلقة أن من شأنها
السهو والغفلة ، ولما جرب منها من كثرة غلطها ، وكثرة
زللها ، وسوء تأويله ما لا يحصى مراراً كثيرة ، في
كل ذلك يرى أنه مصيب ، لا يشك عند نفسه في ذلك ،
ثم يقين له بعد أنه قد كان غفل وغلط ، وكان استجابة
لذلك من قبل الهوى ، وتزيين الشيطان ، ولو لم يبعثه
على تهمتها إلا ما يعرف من عامة هذا الخلق : من غلطهم
وقولهم في دين الله ، عز وجل ، بغير الحق ، وكلهم
يزعم فيما يدعى الحق وهو على باطل ، وهو - مع ما هو
عليه من الباطل - لا يشك أنه حق صادق ، وأن من

ويعرف الشر ثم يعتقد ، أو يعرف الخير ثم يجانبه ،
ولو تبين ذلك لم آمن ذلك عليه أيضاً ، فإذا فعل ذلك
فقد رعى حقوق الله عز وجل ، في جوارحه فلا يخطر
بقلبه خطرة تدعو إلى القول بلسانه ، فيعتقد المم بها ،
ولا يأذن للسانه ، أن ينطق بها ، حتى يتبين له في العلم
بالكتاب والسنة ، أو في إجماع الأمة أن الله عز وجل ،
أمر بها أو نذب إليها وأباحها ، وكذلك الداعى إلى
الاستماع إلى صوت من الأصوات ، فيعتقد المم إلى
الإصغاء إلى ذلك الصوت ، إلى أن يتبين له في العلم أن
الله عز وجل ، قد أذن في ذلك ، أو نذب إليه
أو أباحه .

ألا ترى إلى ما جاء في الحديث عن ابن عمر ، عن
النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه مر بزمارة راح ،
فوضع أصبعيه في أذنيه ، وعدل عن الطريق ، حتى
قبل له : إن الصوت قد انقطع ، ففتح سمعه ، فلم يأذن
له إلى ما كرهه الله عز وجل .

وكذلك إن خطرت خطرة تدعو إلى نظرة ، لم
يعقد المم بها ، ولم يدع بعصره يتردد في النظر إليها إن
كانت نظرة فجأة ، حتى يعلم أن الله عز وجل ، قد
أمر بها ، أو نذب إليها أو أباحها ، وكذلك يداه :
لا يعقد المم ببطشهما وحركاتهما ، بل لا يخل بينهما وبين
البطش ، وكذلك الرجلان لا يخل بينهما وبين المشى حتى
يعلم أن الله عز وجل ، قد أمر بها ، أو نذب إليها أو
أباحها ، في كتاب أو سنة أو في إجماع الأمة .

قلت : فإذا رعبت حق الله عز وجل ، عند
الخطرات التي تدعو إلى عقد ضمير القلوب ، والخطرات
التي تدعو إلى المم بحركات الجوارح وسكونها ، فما
تخاف على بعد ذلك ؟ وهل يجب على غير ذلك ؟

قال : نعم ، إن الله عز وجل ، أوجب فرائضه في
كتابه نصاً في التلاوة وكثير من نص التلاوة مجمل
بالفرض ، يحتاج إلى التفسير بما في سنة النبي صلى الله

خالفه مبطل كاذب من جميع أهل الأديان ومن أهل البدع من المسلمين ، وكثير من أهل الفتيا والرأى .

وقد علم أن النفوس طبعها بعضه قريب من بعض ، بل كلها لا تفرى من السهو والغفلة ، وما نفسه إلا من أنفس الخلق من ولد آدم ، عليه السلام ، بنيت كبنيتهم ، وغريزته كغريزهم ومع ذلك فإن المزين لهم واحد ، وهو الشيطان المرصد لهم بالعداوة ، والباغى لهم الزلل والعصيان فإذا أثبت في قلبه هذه المعرفة بنفسه أتهمها ولم يجعل بما يستحسن دون النظر في الكتاب والسنة ، أو مساءلة أهل العلم والبصيرة ، ولم يزل ذلك شأن الصالحين العارفين بأنفسهم ، ولم يزلوا متهمين لآرائهم ، خائفين من أنفسهم . من ذلك ابن مسعود ، اختلف إليه شهراً في مسألة عن امرأة مات عنها زوجها ولم يدخل بها ولم يسم لها صداقاً . فلم يجبه شهراً مخافة الخطأ في إجابته إياهم عما سألوه عن ذلك : تهمة لنفسه وخشية لخطئها ، ثم قال لما لم يجد بداً من القول فيها قال : أقول فيها برأى فإن كان صواباً فمن الله ، عز وجل ، وإن كان خطأ فمن نفسى .

وروى عن أبي بكر ، رضى الله عنه ، مثل ذلك .

وقال عمر ، رضى الله عنه : إن الرأى كان من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، صواباً ، لأن الله ، عز وجل ، كان يريه : وهو منا الظن والتكلف .

وقال أبو سعيد ، رضى الله عنه : قال الله - عز وجل - لم وهم أصحاب نبيه ، صلى الله عليه وسلم : « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم »^(١) .

فكيف فيمن دونه من الناس ؟

وقال قتادة في قوله عز وجل : لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم . فأنتم أطيش أحلاماً ، فاتهم رجل رأيه وانتصح كتاب ربه ، عز وجل .

(١) ٤٩ : ٧

وقال أبو سعيد الخدرى ، رضى الله عنه : يقول الله تعالى ، لنبيه ، صلى الله عليه وسلم ، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ، وقال : ونحن أصحابه ، فأنتم أعجز رأياً .

وقال ابن مسعود ، رضى الله عنه :

« أيها الناس أتهموا الرأى ، ولقد رأيتنى وأنا أهم أن أضرب بسيفى في معصية الله ، عز وجل ، ومعصية رسوله ، صلى الله عليه وسلم » .

وقال سهل بن حنيف :

« أيها الناس : أتهموا آراءكم » .

وقال عمر ، رضى الله عنه ، أتهم رجل رأيه ، ولقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أقدر لرددت على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يعنى يوم صالح النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قريشاً يوم الحديبية في إجابته إياهم ، والأحاديث في ذلك كثيرة ، وتركنا ذكرها كراهية التطويل .

قلت : فإذا ثبتت المعرفة بذلك فاتهم رأيه ، كيف يثبت حتى لا يخطئ ؟

قال : تعلم أن من كتاب الله ، عز وجل ، آيات محكمات قد أجمع المسلمون على تفسيرها ، ومنه ما يشبه ويمكن فيه التأويل ، وذلك الذى اختلف فيه ومنه مشتبه ولم يختلف فيه إلا أهل الزيغ الذين أخبرنا الله عز وجل : أنهم يبتغون تأويله ، ابتغاء الفتنة ، لما في قلوبهم من الزيغ والفسالة : وكذلك سنة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بهذه المنزلة .

فليعلم العبد المرید للصواب : ليدين الله عز وجل ، به أن من الكتاب والسنة محكمات بين التلاوة مفسراً باجماع وأن ذلك واضح لا يحتاج فيه إلى النظر والبحث ، ولا يجب على النفس التهمة في قبولها واجتنابها إياه ، وأن الذى يمكن فيه الخطأ والصواب ، لضعف ابن آدم وسهوه ، وغفلته وغلبة هواه له ، وترين علوه له :

العلم بالإيمان به ، وترك تأويله ، وذلك فيما لا يجب على العباد فيه حكم يعملون به ، فهذا ما ينفي عنك العجب بالرأى الخطأ ، حتى لا تعجب إن شاء الله خطأ في دين الله - عز وجل - من غلط تأويل ولا قياس . قلت : فالعمل الذي لم يمن به على كيف العجب فيه .

قال : الاتكال على قوتك وصبرك لما جريت من نفسك ونسيانك انتظار منة الله - عز وجل - بذلك . وقد روى الأحنف بن قيس عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن داود عليه السلام ، قال : يا رب إن بني إسرائيل يسألونك بآبرهم وإسحاق ، ويعقوب ، قال ابن عباس في هذا الحديث : إن داود - صلى الله عليه وسلم - حدث نفسه أنه إن ابتلى يستعصم .

وقال محمد بن كعب والمقبري في هذا الحديث : وإن الله ، عز وجل ، قال : إني ابتليهم فصبروا ، قال : يا رب وأنت إن ابتليتني صبرت ، قال : أما إني ابتليهم ولم أخبرهم بأى شيء ابتليهم ، ولا في أى شهر ولا في أى يوم ، وأنا مخبرك في سنتك في شهرك هذا ، ولكن داود لم يصبر على الابتلاء ، فاحرز نفسك :

ما اختلف فيه ، أو حادثة يحتاج فيها إلى القليل والقياس على الكتاب والسنة والاجماع : فعند ذلك يثبهم نفسه ، ويتثبت ولا يعجل ، إذ كان الخطأ في ذلك منه ممكناً ، فالعجلة وترك التثبت غرور وخطأ وترك التفقد للدين والتحرز من القول على الله لغير الحق : فلا يعجل ، ويتثبت ولا يجترئ ويتجنب ولا يقبل ولا يعتقد ما يستحسنه قلبه وزين في عقله إلا من كتاب أو سنة أو ما اجتمعت عليه الأمة ، أو تأويل فيما اختلف فيه شبه للكتاب والسنة والاجماع أو قياس مساو لذلك إذا كان ممن يجوز له القياس والنظر ، وإن لم يكن ممن له أن يقيس ولا ينظر سأل العلماء ونظر في أقوالهم وإلى ما ذهبوا إليه ، وإن كان ممن لا يحسن أن ينظر ويميز من الذين لا يعرفون حلالاً من حرام ، ولا يحسنون التمييز لضعف عقولهم ، فليس على أولئك إلا التقليد للعلماء ، إذا سألوهم عند الحاجة ، وذلك كالأعجمي وبعض النساء ممن لا يحسنون التمييز ، وإن كان من المتشابه الذي وجب على المؤمنين الإيمان به ، ووكّل علمه إلى الله ، عز وجل ، وقف وعلم أنه ليس له تأويله ، وبذلك وصف الله عز وجل : الراضين في

كتاب الله
علاستك

ثلاث مسرحيات للوبي دي فيجا

بمقام
الدكتور محمود عالى مكي

مسرح لوبي دي فيجا

يعتبر لوبي دي فيجا أعظم أعلام المسرح الإسباني على الإطلاق ، وهو في إسبانيا والعالم الناطق بالإسبانية بمثابة شيكسبير في الأدب الإنجليزي ، وما زالت رواياته تمثل حتى اليوم على مسارح البلاد التي تستخدم اللغة الإسبانية دون أن يفقدها الزمن غضارتها وجديتها . على أن مسرح لوبي دي فيجا لم يقدر له في العالم الخارجي ما قدر لمسرح شيكسبير من ذبوع وشهرة ، ولكن ذلك راجع إلى طبيعة كل من المسرحين ، فالإنجليزي أكثر اهتماماً بالتوازن النفسية إذ أن ميدانه هو الإنسان وسلوكه وأعماله مما هو مشترك بين سائر الأمم والمجتمعات ، أما مسرح لوبي فانه إسباني خالص قبل كل شيء ، هو مسرح وطني تتمثل فيه حياة إسبانيا لا في عصره فقط ، بل لأنه يعكس لنا حياة هذه الأمة منذ العصر الروماني حتى وقت المؤلف ، وليس معنى ذلك أن مسرح لوبي دي فيجا خال من تلك الشخصيات التي تعتبر نماذج بشرية عامة ، غير أنه وسماها دائماً بسمه بلاده الخاصة بحيث لم يكن من السهل فهمها وتمثلها إلا في نطاق بيئتها .

عصر لوبي دي فيجا

وقد كان لوبي صورة صادقة لإسبانيا في عصره ، وربما كان مسرحه جماعة للقيم الفنية والأدبية في ذلك العصر الذي اصطلح على تسميته بالعصر الذهبي El Siglo de Oro للأمة الإسبانية ، وهو في فنه المسرحي يعتبر نظيراً وقريباً لأديب آخر عبقرى هو ميغيل دي ثيرفانتيس سافدرا Miguel de Cervantes Saavedra صاحب تلك الرواية الخالدة التي تعد أشهر أثر أدبي إسباني على الإطلاق : « دون كيشوتي دي لامانتشا » ، وهي التي تمثل مع مسرح لوبي الروح الإسبانية خير تمثيل .

أما هذا الذي يطلق عليه اسم « العصر الذهبي » في إسبانيا فانه هو الذي يوافق أوج الإمبراطورية الإسبانية خلال القرن السادس عشر ، ثم بده اختلال هذه الدولة في أواخر هذا القرن والقرن التالي كله ، وإذا كانت إسبانيا قد ظهرت في خلال الفترة الأولى من حكم الأسرة المعروفة باسم « أسرة النمساويين » Casa de Austria باعتبارها الدولة الأوربية الأولى من الناحيتين السياسية والعسكرية ، فان اصطلاح « العصر

الذهبي « ينبغي ألا نخدعنا ، فإن هذه العظمة التي أتيحت لإسبانيا كانت تحمل في طياتها عناصر الانحلال ، وهكذا لم يكد القرن السابع عشر يستهل حتى كانت إسبانيا في تراجع وتحلف مطرد لم يزل يشتد طوال القرنين التاليين ، ولعل ذلك العصر الذي هو موضوع حديثنا لم يكن « ذهبياً » حقيقة إلا في الفنون والأدب : هو عصر ثيرفانتيس أكبر روائي عرفته إسبانيا ، وعصر لوبي دي فيجا وكالديرون Calderon وتيرسو دي مولينا Tirso de Molina عباقرة المسرح ، وعصر بروجيتي Herruguete وجريجوريو فرنانديث Gregorio Fernandez مثالي إسبانيا الشهيرين ، وعصر خوسيه دي ريبيرا José de Ribera وموريليو Murillo وثورباران Zurbaran وفيلانكث Velazquez أمراء فن التصوير .

وقد كانت بداية هذه النهضة الإسبانية الهائلة التي كان لها في أول الأمر ظاهر سياسي وعسكري يوحى بالقوة وإن كان ينطوي على مبادئ الانحلال هي استيلاء الملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيل على غرناطة آخر معاقل الإسلام في الأندلس في سنة ١٤٩٢ : وهكذا اختتم آخر فصل من فصول التاريخ الإسلامي في هذه البلاد بعد صراع طويل استمر خلال نحو ثمانية قرون وبعد أن قدم العرب والمسلمون لإسبانيا ولأوروبا عن طريق الأندلس خلاصة تجربة حضارية تركت على أرض شبه الجزيرة آثاراً عميقة لم تندثر معالمها حتى الآن غير أن هذا الاحتكاك الديني الطويل بين الإسلام والمسيحية على أرض إسبانيا أوهم ساسة هذه البلاد وقادة الكنيسة فيها بأن عظمة إسبانيا لن تبدأ إلا من حيث تنتهي سيادة المسلمين في البلاد ، وعلى ضوء هذا الاعتقاد ينبغي أن نفهم تاريخ إسبانيا الحديث ، فقد كان القضاء على غرناطة الإسلامية موحياً باتمام الوحدة الدينية وبانتهاء تلك الحرب الطويلة التي دارت على أرض الأندلس قروناً طويلة . ومن هنا كانت سنة

١٤٩٢ من السنوات الحاسمة ذات المدلول العميق في التاريخ الإسباني . لا سيما وأنه وقع في نفس السنة حدثان لا يقلان خطراً عما يعنيه التخلص من آخر ملاذ للإسلام في أرض شبه الجزيرة . أولهما طرد اليهود من إسبانيا ، وبهذا بدا لإسبانيا المسيحية أنها قد استكملت عناصر وحدتها الدينية . ثم كشف أمريكا بعد أن وصلت سفن كريستوفر كولمبس إلى العالم الجديد في ١٢ أكتوبر سنة ١٤٩٢ .

وقد بدا لإسبانيا المسيحية بالفعل منذ هذه السنة أنها مقبلة على عصر من العظمة لم تشهده أبداً من قبل ، وأكدت هذه العقيدة سلسلة من الانتصارات المتوالية قفزت بإسبانيا إلى مكان الصدارة في أوروبا خلال سنوات قليلة . ففي سنة ١٥٠٤ غزت الأساطيل الإسبانية إيطاليا فاحتلت مملكة نابلي وجزيرة صقلية أي نحو نصف إيطاليا الجنوبي . ثم بدأ تطاع إسبانيا إلى شمال إفريقيا . ففي سنة ١٤٩٧ احتلت مليلة ، ثم المرسى الكبير سنة ١٥٠٥ ووهران سنة ١٥٠٩ . وفي السنة التالية وصلت أساطيل إسبانيا إلى بحاية وطرابلس . وتأكدت سيطرة إسبانيا على جزر كنارياس .

وفي سنة ١٥١٢ استكملت إسبانيا وحدتها الجغرافية السياسية باحتلال إمارة نبرة الواقعة على الحدود بين فرنسا وإسبانيا . وكان ذلك هو آخر خطوة في توحيد إسبانيا كلها بصورتها الراهنة بعد أن اتخذ عرشاً مملكتي قشتالة وأرغون بالزواج المعقود بين إيزابيل وفرناندو ، وبعد أن تم الاستيلاء على مملكة غرناطة .

ولا تمضي على ذلك سنوات حتى يتسع نطاق السياسة الأوروبية الإسبانية منذ أن يلي عرش إسبانيا حفيد الملكين الكاثوليكين كارلوس الأول (المعروف باسم شارلوكان أو شارل الخامس) في سنة ١٥١٧ . وفي عهد هذا الملك وصلت الإمبراطورية الإسبانية إلى حد بعيد من الاتساع ، إذ تكاثرت ثمرة زواج ابنة الملكين الكاثوليكين بالأمير النمساوي الأرشيدوق فيليب

المعروف بلقب الجميل ، وهكذا ورث عن أبيه ملك إسبانيا ومستعمراتها الجديدة في أمريكا بالإضافة إلى عرش النمسا والإمبراطورية الألمانية والبلاد الواطنة وممتلكات أسرة بورجوني وجنوب إيطاليا وصقلية وسردانية .

واستمر حكم كارلوس الأول حتى سنة ١٥٥٦ ، وزادت الإمبراطورية الإسبانية في عهده اتساعاً بعد فتح المكسيك (١٥١٩ - ١٥٢١) وبيرو وشيلي (١٥٣١ - ١٥٤١) والاستيلاء على تونس (١٥٣٥) . وبعد أن هزمت الجيوش الإسبانية ملك فرنسا فرانسوا الأول في معركة باغيا (١٥٢٥) . وهكذا نرى أن إسبانيا لم تلبث أن صارت صاحبة الكلمة الأولى في أوربا .

وظل الأمر كذلك خلال الشطر الأكبر من حكم خلف كارلوس الأول وابنه فيليب الثاني (١٥٥٦ - ١٥٩٨) ، وكان من أبرز ما تم في عصره القضاء على ثورة الموريسكيين من بقية المسلمين في جبال غرناطة بين سنتي ١٥٦٨ و ١٥٧٠ ثم الانتصار على الأسطول العثماني في موقعة ليبانتو Lepanto البحرية في سنة ١٥٧٠ ، وأخيراً ضم البرتغال وممتلكاتها في أمريكا (البرازيل) وأفريقيا إلى التاج الإسباني (١٥٨٠) . فضلاً عن فرض سيطرة إسبانيا على جزر الفلبين (١٥٨١) وغيرها من جزر المحيط الهادى . وهكذا نرى الإمبراطورية الإسبانية تبلغ أوج اتساعها وقوتها ، وتصبح أعظم قوة سياسية في القارة الأوربية . غير أن إسبانيا لم تنعم بذلك طويلاً ، إذ كان من المفارقات أن عصر فيليب الثاني نفسه هو الذى بدأ فيه انحلال إسبانيا ولا سيما منذ أن استطاعت بريطانيا تحطيم الأسطول الإسباني المشهور المعروف باسم «الأسطول القاهر» La Armada Invencible (الأرمادا) في سنة ١٥٨٨ ، وبهذا تبدأ قوة إسبانيا العسكرية في الاضمحلال ويستمر ذلك طوال القرن السابع عشر ، وبصورة خاصة حينما يبدأ طرد المسلمين الموريسكيين في سنة ١٦٠٩ ،

وكانت العصية الدينية هي التي حملت ملوك إسبانيا على اتخاذ هذا الإجراء . ولكنهم لم يفتنوا إلى مدى ما قدر أن يصيب إسبانيا من جراء طرد هذه المجموعات الكبيرة من سكان البلاد ، ويقدر المؤرخون عدد هؤلاء بأكثر من نصف مليون . ولا شك في أن هذا العدد أقل بكثير من الحقيقى ، وقد أدى هذا إلى حرمان إسبانيا من عنصر كان من أكثر عناصر أهلها نشاطاً وخبرة . إذ كان هؤلاء المسلمون هم الذين يضطلعون بوجوه النشاط الحيوى من زراعة وتجارة وصناعة . ولهذا فأننا لا نلبث أن نرى أوضاع إسبانيا الاقتصادية تتدهور تدهوراً سريعاً . ورافق ذلك سلسلة من الكوارث السياسية والعسكرية تعاقبت خلال حكم فيليب الثالث (١٥٩٨ - ١٦٢١) وفيليب الرابع (١٦٢١ - ١٦٦٥) وكارلوس الثاني (١٦٦٥ - ١٧٠٠) ، نذكر منها الحروب المستمرة مع فرنسا وإنجلترا . واستقلال هولندا وانفصالها عن الإمبراطورية الإسبانية (سنة ١٦٤٨) ثم انفصال البرتغال بدورها (سنة ١٦٦٥) . ولا ينهى القرن السابع عشر ويبدأ في إسبانيا حكم أسرة البوربون حتى تكون إسبانيا قد فقدت مكانتها باعتبارها الدولة الأوربية الأولى ، وتصبح فرنسا هي ورثتها في هذا الميدان .

حاولنا في الصفحات السابقة أن نوضح الخطوط العامة للعصر الذى عاش فيه لوبى دى فيجا . إذ أن أديب إسبانيا المسرحى الأول لم يكن بمعزل عن أحداث هذا العصر ، بل شارك فيه وصوره وكان مسرحه تعبيراً صادقاً له ، وإن كانت أمثال هذه العبقريات الخارقة للطبيعة لا يسهل إخضاعها لمقتضيات الأحوال السياسية والاجتماعية أو قياسها بهذا المقياس الضيق المحدود .

المسرح الإسباني قبل لوبى دى فيجا

يمكن أن نقول إنه لم يكن هناك مسرح بمعنى الكلمة في إسبانيا قبل لوبى دى فيجا ، وإنما كانت هناك

وهي تتألف من واحد وعشرين فصلا ، وكان ذلك مما جعلها غير صالحة لأن تمثل على خشبة المسرح بصورتها الراهنة ، ولكنها مع ذلك تعد خطوة طيبة في السبيل التي سلكها المسرح الإسباني حتى يبلوغه مرحلة النضج .

ومن يستحقون الذكر من بين هذا الرعيل الأول من المؤلفين الإسبان الإشبيلي لوبي دي رويدا Lope de Rueda الذي ولد في أوائل القرن السادس عشر وتوفي سنة ١٥٦٥ ، وكان صاحب فرقة مسرحية محبوب بها مدن إسبانيا ، وقد أنثى ثيرفانتيس على مسرحه ثناء عظيما ، وكان متأثراً في فنه بما كانت تقدمه الفرق المسرحية الإيطالية التي كانت تضطرب في جنبات إسبانيا في ذلك الوقت . والمؤلف الثاني الذي يعتبر مبشراً بلوبي دي فيجا هو خوان دي لاكويغا Juan de la Cueva (١٥٥٠ - ١٦١٠) وكان على عكس سابقه يعمل على تجنب الموضوعات الهزلية والشعبية ويحاول أن يخلق مسرحاً أكثر جدّاً وقيمة أدبية ، إذ كان يستلهم تمثيلاته من المسرح الإغريقي ومن التاريخ الوسيط والمعاصر ، ولعل أهم ما برز فيه هذا المؤلف هو ما استوحى مادته من المدونات التاريخية والأشعار الملحمية المرتبطة بتاريخ إسبانيا والتي كانت تتناقل شفاها جيلًا بعد جيل^(١).

لوبي دي فيجا : حياته

إذا كان مؤرخو الأدب الإسباني قد وفقوا في السنوات الأخيرة إلى معرفة الكثير عن هذا الشاعر العبقرى خالق المسرح الإسباني فإن في حياته وجوانب شخصيته أركاناً ما زالت تستحق مزيداً من الدراسة والتحليل . فالواقع أن لوبي دي فيجا يعتبر « حالة

محاولات يتفاوت نصيبها من التوفيق . وأول ما نعرفه من صور الأدب المسرحي في القرن الخامس عشر هو بعض التمثيلات ذات الطابع الديني أو اللاهوتي كل منها من فصل واحد ، وكانت هذه التمثيلات تعالج ما من شأنه أن يلهب الروح الدينية في ذلك العصر الذي كان الصراع فيه بين الإسلام والمسيحية يوشك على أن يتقرر مصيره الحاسم . فكانت الموضوعات التي يطرقها المؤلفون - وأغلبهم من رجال الكنيسة - تتناول السيد المسيح وحياته وآلامه وعن حيوات القديسين والقديسات ومواضيع اللاهوت التي تجسد فيها المعاني الروحية والقيم العقيدية والأسرار الصوفية ، فنحن نجد من شخصيات هذا المسرح اللاهوتي : الأبد والحب والفضيلة والشرف والخطيئة والإرادة والشر والشیطان والموت .

ولعل أول من أخرج المسرح من رحاب الكنيسة إلى الشارع هو الراهب الشاعر الموسيقي خوان دي لا إنتينا Juan de la Encina (١٤٦٨ - ١٥٢٩) وكان أديباً موسيقياً يعمل في بطانة أحد النبلاء الإسبانين ثم انخرط في سلك الرهبنة فكان راعياً لكنيسة مالقة ، ثم ارتقى في السلك الكنسي حتى أصبح أسقفاً لمدينة ليون ، ولم تمنعه ثقافته الدينية من معالجة الشعر الغنائي والمسرح الشعبي ، وإن كانت مسرحياته بسيطة في الشخصيات والحوار ، وعلى كل حال فهو يعتبر أول من ألف تمثيليات ذات موضوعات شعبية عادية بعد أن كان المسرح الإسباني البدائي مرتبطاً بالدين والكنيسة ، وهذا هو ما جعل مؤرخي الأدب الإسباني يطلقون عليه لقب « أبا المسرح الإسباني » .

ومن المسرحيات التي ترجع كذلك إلى ذلك العصر تمثيلية « لائستينا » La celestina (القوادة) التي تنسب إلى طالب كان يدرس في جامعة سلمنقة هو فرناندو دي روخاس Fernando de Rojas ، وقد كتبت هذه المسرحية في سنة ١٤٩٧ ، ويبدو عليها الطابع البدائي ، إذ هي أشبه بقصة طويلة أكثرها حوار ،

(١) انظر هرامستا عن « المسرح الإسباني في القرن السابع

عشر » - في « المجلة » - العدد ١٦ ، أبريل سنة ١٩٥٨ ص ٤١-٥١ .

نفسية « كثيرة التعقيد متشابكة الأطراف شأنه في ذلك كشأن الكثيرين من عباقرة الفكر والفن والأدب ، وقد كان نشر مجموعة كبيرة من « رسائل » لوبي الخاصة في السنوات الأخيرة مما أعان على فهم كثير من هذه النواحي الغامضة من شخصيته ونفسيته^(١) ، كما أننا نجد في ثنايا مؤلفاته الغنائية والقصصية والمسرحية إشارات كثيرة إلى نفسه وإلى تفاصيل حياته ، ولو جمعت كل تلك التفاصيل ودرست دراسة علمية فاحصة بالإضافة إلى رسائله ومكاتباته فانه من الممكن أن يكون كل ذلك أساساً لبحث مستفيض تحلل فيه نفسية هذا الأديب العبقري ويصلح مدخلا إلى دراسة فنه .

ولد لوبي فيلكس دى فيجا لى كاربيو Lope Felix de Vega Carpio في ٢٥ نوفمبر سنة ١٥٦٢ في مدريد من أبوين أصلهما من قرية قريبة من مدينة سانتا ندير Santander (في شمال إسبانيا على البحر الكنتبرى) ، وكان من أسرة متواضعة معجورة تنتمى إلى عامة الشعب في ذلك العصر الذى كان التباين الطبقي فيه من أسس الحياة الاجتماعية . وكان والد لوبي حائكاً فقيراً لم يكن لديه من سعة المال ما يعلم به أبناءه ، ويذكر لوبي دى فيجا نفسه أن أخته إيزابيل كانت أمية لا تعرف حتى مجرد التوقيع باسمها .

ويشير لوبي في بعض ما كتبه إلى حياة والده التى كانت مزيجاً من المغامرات العاطفية العنيفة والتدين العميق : فقد هرب من بلده سانتا ندير إلى مدريد بعد أن أغوى إحدى النساء واختطفها على ما يبدو ، غير أن زوجته أم لوبي : فرانسيسكا فرنانديث فلورس Francisca Fernandez Flores لم تلبث أن لحقت

(١) مثل المجموعة التى نشرها جونتال دى أميشوا ومهد لها بدراسة قيمة بعنوان : « لوبي دى فيجا من خلال رسائله » - في أربعة أجزاء

A. Gonzalez de Amezua : Lope de Vega en sus cartas, Madrid, 1935-43.

به وتمكنت من استنقاذه من بين ذراعى خيلته . كذلك نعرف من حياة والد لوبي دى فيجا أنه كان على كثرة مغامراته الغرامية وولوعه بالنساء كثيراً ما تنابه نزعات متدينة صوفية يحاول فيها التكفير عن خطاياهم فيعود المرضى ويكثر من التصدق ويسلك حياة التبتل والزهد ، ونحن نعرف من بين أفراد أسرة لوبي عمه ميجيل دل كاربيو Miguel del Carpio الذى كان أحد قضاة محكمة التحقيق La Inquisicion ويذكر عنه أنه كان من أكثر هؤلاء تعصباً وصرامة وقسوة ، حتى إنه كان مضرب المثل في ذلك .

وإذا كان حقاً ما يذكر من قوانين الوراثة فإننا نجد في أسرة لوبي دى فيجا التى انحدر منها كثيراً من الخصائص التى ميزت حياته . فنحن نرى في أصله المتواضع الفقير ما يفسر لنا نزوعه إلى الشعبية وكرهيته للنبلاء وللطبقات الممتازة المتعجرفة ، ونرى في حياة أبيه من التذبذب بين اللهو والولوع بالنساء وحياة الزهد والعبادة ما سنراه بعد ذلك لدى لوبي دى فيجا نفسه من ذلك في صورة أجلى وأكثر تناقضاً ، وأخيراً نجد عنده ما نلاحظه عند عمه من العصبية الدينية والبعد عن التسامح .

ولسنا نعرف الكثير عن طفولة لوبي دى فيجا ، غير أننا نعلم أنه أخذ العلم في صباه في أحد معاهد اليسوعيين ، وأنه وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره هرب مع صبي صديق له إلى شقوية Segovia لسبب لا نعرفه ، غير أن ذلك يدل على ما كانت تتميز به شخصية لوبي منذ صغره من نزعة إلى التمرد والانطلاق . كذلك نعرف من أخباره في صباه المبكر أنه قام في هذه السنوات المبكرة بترجمة قصيدة الشاعر كلاوديانو عن « اختطاف يروسرينا » De raptu Proserpinae من اللاتينية إلى الإسبانية ، وكانت هذه الترجمة الشعرية باكورة إنتاجه الأدبي .

ولم يلبث لوبي أن التحق بخدمة أسقف مدينة أبله. ثم التحق بجامعة ألكالا دي إينارس Alcalá de Henares (وهي بلدة قريية من مدريد كانت تدعى في أيام المسلمين قلعة عبد السلام). وذلك في سنة ١٥٧٦ على وجه التقريب. ثم استكمل دراسته في جامعة سلمنة Salamanca بين سنتي ١٥٨٠ و ١٥٨١.

ولم يكد لوبي يجاوز سن البلوغ حتى بدت ميوله إلى النساء. وبدأ في خوض مغامرات غرامية لم تنته إلا قبل موته بقليل. فنحن نعرف أنه وهو في السابعة عشرة من عمره قد عشق امرأة متزوجة هي إيلينا أوسوريو Elena Osorio زوجة أحد الممثلين. واستمرت صلاته بهذه المرأة نحو خمس سنوات. وسجل لنا قصة غرامه هذه في إحدى رواياته هي التي تحمل عنوان «لادوروتيا» La Dorotea.

غير أن المرأة اللعوب انصرفت عن لوبي وآثرت عليه رجلاً آخر من أسرة نبيلة مما حمل لوبي على هجائها هي وأسرته في أبيات عنيفة جارحة. وكان من آثار ذلك أن لوبي قدم للمحاكمة بتهمة القذف. وحكم عليه في ٧ فبراير ١٥٨٨ بالنفي من مدريد مدة ثمانية أعوام.

وفي ١٠ مايو ١٥٨٨ تزوج لوبي من إيزابيل دي أورينا Isabel de Urdina التي كان قد اختطفها من قبل في ٨ فبراير بعد خروجه من السجن. وكانت إيزابيل هذه ابنة أحد المثاليين المشهورين وأخت حاكم مدريد. غير أنه لم يبق مع زوجته إلا أياماً قليلة، فقد عادت الزوجة إلى المغامرة تلح على لوبي من جديد، فاذا به يتطوع في الأسطول البحري الأسباني المعروف باسم «الأرمادا». ويذكرنا هذا بانغراط ميغيل دي ثيرفانتيس أديب إسبانيا الأكبر وصاحب رواية «دون كيخوتي» في سلك الأسطول أيضاً واشترآكه في موقعة ليبانتو البحرية ضد الأتراك. وأبحر لوبي دي فيجا من ميناء لشبونة في ٢٩ مايو على ظهر المركب

«سان خوان» تاركاً زوجته في أشد حالات الحزن والقلق. غير أن مغامرة لوبي الحربية انتهت على نحو محزن يشبه ما انتهت به مغامرة مؤلف «دون كيخوتي» الخالد. وإذا كان هذا قد وقع في الأسر فلننا نعرف أن «الأسطول القاهر» قد تحطم كله على أيدي البريطانيين في سنة ١٥٨٨. وكانت تلك الكارثة مؤذنة بأفول الشمس عن الإمبراطورية الإسبانية التي لم تكن الشمس تغيب عنها. وعاد لوبي دي فيجا مثل آلاف غيره من الإسبان وقد استبد بهم القنوط واليأس.

واستقر المقام بأدينا المغامر بعد عودته في بلنسية إذ كان قرار نفيه من مدريد ما زال قائماً. وهناك قضى أياماً هادئة في دفء منزله ومع زوجته وأبنائه. وانقطع لوبي في تلك الفترة إلى الكتابة، إذ لم يكن لديه وسيلة أخرى لكسب العيش إلا حرفة الأدب. وهو يشير في مسرحياته التي ألفها حينئذ إلى نفيه وبعده عن مدريد ثم التحق بخدمة اللوق أنتونيو ألفاريث دي توليدو Antonio Alvarez de Toledo فاشتغل كاتباً له. ورافقه في رحلاته إلى طليطلة (١٥٩٠) ثم إلى ألبا دي تورميس Alba de Tormes. وفي هذه البلدة توفيت زوجته إيزابيل سنة ١٥٩٥، فبكاهما في قصائد مؤثرة أشار فيها إلى وفاته لها ووجه أياها، ثم لم تلبث بنتاه منها أنتونيا Antonia وتيودورا Teodora أن لحقتا بأمهما بعد قليل.

ومع ذلك فإن إخلاصه لذكرى زوجته المتوفاة لم يدم طويلاً. إذ نعرف أنه تعرض للمحاكمة بتهمة علاقات غير شرعية بامرأة متزوجة هي أنتونيا تريليو دي آرمتا Antonia Trillo de Armenta (سنة ١٥٩٦). ولم يكتف بذلك، بل إلى هذه الفترة نرجع أيضاً صلاته بمحطة جميلة متزوجة هي كاميلو لويندا Camila Lucinda وكانت زوجة ممثل مغموور رحل إلى بعض المستعمرات الإسبانية في أمريكا وكان قد أحب هذه المرأة حباً عنيفاً مضطراً، وعاشت

معه في طليطلة ثم في إشبيلية حيث استقر بعد ذلك ، وأنجب منها سبعة أبناء .

وفي سنة ١٥٩٨ تزوج لوبي دي فيجا من جديد ، وكانت امرأته هذه خوانا جواردو Juana Guardo ابنة تاجر غنى كان متعهداً بتوريد اللحم والسمك إلى القصر الملكي . ومضى أعداء لوبي من هذا الزواج وتندروا به . إذ اعتبروه صفقة رابحة لم يسع فيها إلا من أجل ثروة زوجته . وعاش لوبي مع زوجته في طليطلة ثم انتقل إلى مدريد حيث استقر بها منذ سنة ١٦١٠ ، وإن كان بين وقت وآخر يعود إلى طليطلة وإشبيلية حيث يعيش فترات مع خليلته الممثلة كاميللا لوئيندا .

وفي سنة ١٦١٣ توفيت زوجته الثانية خوانا جواردو . فعادت حياته إلى الاضطراب من جديد ، فانتقل فترة إلى طليطلة حيث عاود مغامراته الغرامية بينما كان يفكر في الانخراط في سلك الرهبنة . وهو ما حدث فعلاً في سنة ١٦١٤ حين غير لوبي منهاج حياته أو هكذا كان يبدو . إذ أصبح قسيساً منقطعاً إلى حياة التبتل والرهبنة . والواقع أن لوبي كان مخلصاً في رغبته هذه ، إذ كان يشعر بثقل خطاياه وكان يسعى إلى التحرر منها والانقطاع إلى حياة أخرى ينعم فيها بسكينة الروح .

غير أن لوبي كان ضعيفاً أمام نفسه الهوائية المتقلبة وعواطفه العنيفة المضطربة . إذ لم يلبث وهو بأخرة من عمره أن وقع في غرام جديد . فقد عشق امرأة أخرى هي مارتا دي نيفارس Marta de Nevares وكانت مثل النساء السابقات في حياته متزوجة . وأحب لوبي هذه المرأة بكل جوارحه ، وهو يصورها لنا تصويراً نرى منه كيف كان يعتبرها جاع كل ما في المرأة من جمال وفضيلة . وعاش لوبي مع مارتا السنوات الأخيرة من حياته . وأنجب منها بنتاً هي أنتونيا كلارا Antonia Clara . غير أن القدر يعود فيلاحقه بأرزائه . فتصاب مارتا بالجنون ثم تفقد البصر ، وتموت بعد ذلك في سنة ١٦٣٢ وهي تناهز الأربعين سنة . وكان الله أراد

أن ينتقم من لوبي وهو على شفا قبره لمن أغوى من نساءه فيفجعه بابنته الحبيبة إلى قلبه أنتونيا كلارا ، إذ يقبض لها فتي كان يخدم في البلاط الملكي يدعى كريستوبال تينوريو Cristobal Tenorio . فلا يزال يغويها حتى يحملها على الهرب معه .

ويقضى لوبي سنواته الأخيرة في داره في مدريد وحيداً لا مؤنس له ، منقطعاً إلى كتبه وإلى حديثه الصغيرة وإلى صلواته التي أراد أن يكفر بها عن حياة قلقه لم يستروح خلالها نفحات السكينة .

ويبدو أن النكبات المتوالية التي حلت بلوبي في تلك السنوات هي التي عجلت بوفاته . فقضى نحبه في ٢٧ أغسطس سنة ١٦٣٥ . وتنكر القدر للأديب العظيم حتى بعد موته . إذ أن الدوق دي سيسا الذي كان لوبي يعمل كاتباً له كان من الجحود والقسوة بحيث أبي أن يتولى نفقات الجنازة ودفن رفات لوبي بعد أن كان قد وعد بذلك . مما أدى إلى دفن جسده في إحدى المقابر العامة حيث اختلطت برفات الكثيرين . وهكذا لم يعد أحد يعرف الآن مستقراً للموضع الذي دفن فيه أديب إسبانيا الخالد .

وقد تقلب لوبي دي فيجا خلال حياته في وظائف الكتابة الخاصة لبعض النبلاء كان أولهم الدوق دي ألبا Duque de Alba (سنة ١٥٩٠) والكونت دي ليموس Conde de Lemos (١٥٩٨) . غير أن أهم شخصيات النبلاء الذين اتصل لوبي بهم هو الدوق دي سيسا Duque de Sessa . وكان لوبي يوليه حبه ويخلص في خدمته إخلاصاً أشبه بالتذلل المقيت ، ومع ذلك فقد كان الدوق دي سيسا هو الذي تنكر لذكرى صديقه بعد موته فأبي أن يتكفل بنفقات دفنه وجنازته . على أنه كان يوده ويقربه في حياته . وكان من مظاهر ذلك أنه منحه ضيعتين في قرطبة وفي أبلّة كانتا تدران على الشاعر الأديب ما يقوم بأود حاجته .

مسرح لوبي دى فيجا

ربما لم يعرف تاريخ الأدب الأسباني ، بل الأدب العالمى كله أدياً له خصوصية لوبي دى فيجا ووفرة إنتاجه وكثرة الآثار الجيدة من هذا الإنتاج . وقد كان لوبي ناثرأ شاعراً وإن كان الشعر أغلب على إنتاجه ، وقصبيق هذه الصفحات عن تعداد عناوين مؤلفاته التى تناولت كل الألوان الأدبية المعروفة فى عصره ، فقد عالج الرواية الطويلة والقصة القصيرة وكتب فى التاريخ والزهد ، أما الشعر فانتا نراه كذلك قد استخدمه فى الأدب الملحمى والقصصى والدينى والغنائى ، وربما كان لوبي هو أبرز الشعراء الغنائيين فى العصر الذهبى على الإطلاق . ولا يقاربه فى ذلك أحد من معاصريه .

أما آثاره المسرحية فانتا لا نعرف كاتباً فى العصور القديمة ولا الحديثة له مثل هذا العدد من المسرحيات . ويقدر مونتالبان الذى ترجم حياة لوبي عددا ما كتبه من مسرحيات بألف وثمانمائة ، وبنص لوبي نفسه على أنه كثيراً ما كان يكتب المسرحية الواحدة فى أربع وعشرين ساعة . صحيح أن هذه المسرحيات ليست فى مستوى واحد من الجودة ، ومع ذلك فانه ليس من بينها ما يمكن أن يعتبر رديئاً ، بل إن كثيراً منها تعتبر من أجمل نماذج المسرح العالمى .

وقد عالج مسرح لوبي كل ما يمكن أن يسهه التفكير من موضوعات : ففيه المسرحيات الدينية التى كانت تتألف كل منها من فصل واحد وتدور حول المسيح وآلامه أو الأسرار اللاهوتية والميتافيزيقية ، والمحاورات الفلسفية ، وتدخل فى هذا الباب مسرحيات مستوحاة من التوراة بعهدىها القديم والجديد ، ومن حيوات القديسين والقديسات أو الأساطير الدينية . ومن مسرحياته ما هو مستمد من الميثولوجيا الإغريقية القديمة ، ثم نجد جانباً كبيراً من أعماله يدور حول موضوعات تاريخية ، ولا يكاد يند عن مسرح لوبي

التاريخى عصر من العصور ، إذ نجد فيه ما كتب عن العصر الرومانى وعن التاريخ القديم سواء فى إسبانيا أو فى بلاد أخرى ، وأما العصور الوسطى فاللوبي عشرات من المسرحيات تتبع فيها تاريخ إسبانيا منذالعصر القوطى حتى أيامه ، وصور فيها حياة إسبانيا بمختلف ممالكها المسيحية والإسلامية على السواء .

ولم يخل مسرح لوبي من آثار ترك فيها الحقيقة إلى الخيال والتاريخ إلى الأسطورة ، وجنح به خياله الخصب إلى الخوض فى كل موضوع . نجد منها ما عالج به القصص المتداولة بين الرعاة ، وقصص الفروسية ، ومسرحيات استلهم فيها الأدب القصصى السائد فى إسبانيا خلال العصور الوسطى ، منها ما هو مأخوذ من مجموعات عربية مثل « ألف ليلة وليلة » ومنها ما هو مستوحى من القصص الإيطالية التى كان لها ذبوعها فى إسبانيا بحكم خضوع إيطاليا فى ذلك الوقت للإمبراطورية الإسبانية ، وأهم هذه القصص هى التى كتبها بوكاتشو Boccaccio وبانديلو Bandello وجيرالدى تشنتيو Giraldi Cinthio ، هذا فضلا عن القصص الإسبانية الأصلية .

وهناك جزء كبير من مسرح لوبي يمكن أن نطلق عليه المسرح الاجتماعى وهو يصور لنا المجتمع الإسبانى فى ذلك الوقت تصويراً رائعاً ، وهو فى ذلك لا يكاد يعزب عنه شيء ، نجد فيه حياة الملوك والنبلاء فى قصورهم والمزارعين فى حقولهم وقطاع الطرق والفجر والطبقات الوسطى ورجال الكنيسة .

كل شيء كان يستطيع قلم لوبي السحرى أن يحوله إلى مسرح ، وكل شخصية تخطر على البال مهما كبرت أو صغرت كانت صالحة لكى تختل مكانها من أدبه . وإن القارئ لمسرح لوبي ليعجب لهذا العدد الهائل من الشخصيات التى رسمها فى براعة ودقة لكل أنواع النماذج البشرية أو الخيالية : الآلهة الوثنيين والأبطال الأسطوريين والأنبياء والقديسين والرموز والأشباح ،

والملوك ، والنبلاء ، والجنود والبحارة والطلبة والمتسولين وأهل الشطارة ، واللصوص وقطاع الطرق والأميرات وسيدات المجتمع الراقي والخدمات والقوادات ، والعاهرات .

وأهم ما يميز مسرح لوبي دى فيجا هو الطابع الشعبي الغالب عليه ، فهو مسرح « جماهيري » بمعنى الكلمة ، غير أنه ينبغي ألا نفهم من ذلك أنه مسرح يهدف إلى إرضاء الجمهور على حساب الفن ، بل هو موجه لإرضاء الجميع ، يجد فيه ذوو الثقافة الراسخة والذوق الناضج ما يشبع فضولهم ، ويغلب ألباب الجمهور العادى بما فيه من حركة وإثارة . هو من هذه الناحية مثل مسرح شيكسبير ، ووجه العبقريّة في هذين المؤلفين أنهما عرفا كيف يقدمان أدباً يأخذ منه القارئ أو المتفرج ما يرضيه مهما كانت ثقافته ومستواه . وإن كان هناك فرق واضح بينهما هو أن شيكسبير كان يهتم بالنوازع النفسية وهى قدر مشترك بين الناس جميعاً ، بينما كان مسرح لوبي وطنياً إسبانياً قبل كل شيء ، وهذا هو ما جعل لشيكسبير عالمية أوسع وأبعد مدى مما كان لهذا الأديب الإسباني الكبير .

وقد كان لوبي كما ذكرنا من أسرة متواضعة فقيرة ، ولعل هذا هو ما جعله خير مترجم لروح الشعب نفسه ، ونحن نرى في كثير من أعماله تصويراً لشعير الطبقات الشعبية وإحساساً ولا سيما في علاقاتها بطبقة النبلاء الإقطاعية المتعجرفة ، كذلك نجد فيه صورة لإسبانيا المسيحية المتعصبة التي كانت تعتبر نفسها حامية للكاثوليكية مجاهدة في سبيلها . وإن كنا نرى مع ذلك صوراً للمسلمين الموريسكيين تستثير الإعجاب والتقدير وهذا وإن بدا من المفارقات أمر طبعى منطقي ، فقد كان الموريسكيون الإسبان الذين احتفظوا بديانتهم حتى عصر لوبي من أهم عناصر المجتمع وأكثرها نشاطاً وفاعلية وكان كثير من الإسبان المسيحيين يكونون لهم مودة وعطفاً على الرغم من عصبية الكنيسة والحكومة .

أما اليهود فقد رسم لهم لوبي صورة منفردة تثير الاستمراء وهى بدورها ليست إلا تعبيراً عن شعور الشعب الإسباني كله نحو هذه الطائفة التي طالما تألمت على الأندلس الإسلامية وإسبانيا المسيحية على السواء . ومن مظاهر هذه الروح الشعبية في مسرح لوبي كثرة ما يرد فيه من أغان ومقطوعات كانت مما يتردد على ألسنة الناس على مختلف طبقاتهم . وهذا هو ما جعل لمسرحه طابعاً غنائياً واضحاً ولا سيما حينما ينساب إلى شاعريته . ولعل أعظم ميزة لمسرح لوبي دى فيجا هى التنوع الذى لا يعرف الحدود ولا الخضوع لقلب معين . وإذا كان المسرح بعد تطوره قد تحدت مذاهبه وأصبحنا نعرف الكتاب المسرحيين ونقوم خصائصهم سالكين إياهم في مدارس وطوائف . فإن لوبي دى فيجا يستعصى على ذلك ، فنحن نجد في رواياته كل ما سنأتى لنا به المدارس المسرحية التالية لعصره حتى اليوم : فيه الانبعاية والابتداعية وفيه العاطفية الحاملة . والواقعية المنطرفة ، وفيه الحركة المتوثبة والتفكير الفلسفى الهادئ . . . بل إن من الغريب أن نرى لوبي مع هذا الإنتاج الهائل الذى لا نعرفه توفر لأديب مسرحى آخر — لم يعمد إلى نقل إحدى مسرحياته من مسرحية أخرى كما يفعل كثير من المؤلفين عفواً أو عمداء ، فهو لا يكرر أبداً . وكل ما كان يأتى به جديد يختلف عما سبقت له كتابته .

وهذا هو ما جعل لوبي دى فيجا يعتبر « أمة وحده » فالمسرح من قبله كان في بدايته الأولى المتعثرة ، وكان من المنتظر أن يمر وقت طويل حتى يكتمل نضجه ، ولكن لوبي كان في تاريخ المسرح الإسباني « حالة » استثنائية غريبة لا تستقيم مع سنن التطور أو النمو ، إذ نرى فيه المسرح الإسباني وقد اكتمل فجأة وبغير مقدمات ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن إنتاجه سواء من ناحية الكم أو الكيف يعتبر كثيراً على عشرات من المؤلفين معاً . وقد كان معاصرو لوبي يشعرون بذلك ، وتكفيينا

مشرحة « بيربانيث وحاكم أوكانيا »

إذا وضعنا نصب أعيننا ذلك الإنتاج الهائل الذي خلفه لوبي دى فيجا والذي ضاع منه الكثير وإن كان ما بقي منه مئلاً عشرات من المجلدات فإنه يمكن للقارئ أن يقدر مدى الصعوبة في التعريف حتى بمختارات قليلة من آثاره المسرحية المشهورة ، إذ أنها لن تمثل إلا جانباً محدوداً من إنتاجه ، غير أنه لا حيلة لنا في ذلك ما دام المجال لا يسمح بأكثر منه .

ولعل من أجمل مسرحيات لوبي وأصدقها تصويراً لفنه هذه التي وقع عليها اختيارنا ، وهي التي تحمل عنوان *Peribanez y el comendador de Ocaña* وهي مسرحية مستمدة من أغنية شعبية كانت متداولة في الأندلس في خلال أسطورة ربما كان لها أصل تاريخي :

ويرفع الستار في الفصل الأول على منظر احتفال بزفاف ، فترى العروسين اللذين كانا قد انتبيا نواً من عقد مراسم الزواج : *بيربانيث Peribanez* وهو فلاح من أسرة متواضعة وإن كان ميسور الحال ، وكاسيلدا *Casilda* وهي كذلك فلاحه رائعة الجمال فيها بساطة الريفيات وشرفن وكرم أخلاقهن . ويقدم لنا لوبي هنا لوحة فولكلورية رائعة تمثل لنا هؤلاء المزارعين البسطاء في أفراحهم وحفلات زواجهم وما يتخللها من رقص وأغان شعبية ، وربما كانت تلك الأغنية التي يشترك فيها الموسيقيون وأهل قرية أوكانيا *Ocaña* من أجمل ما اشتمل عليه ذلك الفصل :

ليرحب بالعروسين
شهر مايو المشرق
والمروج المرحه
والعبون والأنهار
ولترفع أشجار الحور
رؤوسها المتوجة بالخرصة

في تقدير هذا الأديب شهادة أديب إسبانيا الأكبر ثيرفانتيس الذي سماه « الأعجوبة الجامعة للعبقريات » *El Fenix de los Ingenios* و « المارد الخارق لنواميس الطبيعة » *El Monstruo de la Naturaleza* ، وما نظنه أبعد في هذا الوصف ولا جنح إلى الإحالة .

وقد كان من الرسوم التي وضعها لوبي للمسرح الإسباني واستقرت منذ ذلك حتى اليوم تقسيمه للعمل المسرحي إلى ثلاثة فصول ، وهو تقليد لم يكن معروفاً من قبل ، ولم ينقطع في إسبانيا إلا فترات قصيرة تأثر فيها المسرح الإسباني بالمسرح الفرنسي خلال القرن التاسع عشر^(١).

(١) هناك طبعات كثيرة لمجموعات من مسرحيات لوبي دى فيجا بعضها تم في عصر لوبي نفسه إما بأذنه أو سطواً بغير علمه ، وفي هذه الطبعات كثير من التعريف والتشويه بما كان يدخله المثلون أنفسهم هل خشية المسرح ، وهو أمر طالما شكاه لوبي . وهناك مسرحيات أخرى ظلت مخطوطة في مختلف مكتبات العالم حتى وقت قريب . وفي أواخر القرن التاسع عشر بدأ المجمع الفئوي الملكي في مدريد في إعداد طبعة جديدة للمسرح لوبي ما بين سنتي ١٨٩٠ و ١٩١٤ ، وقد نشرت هذه المجموعة التي لم تضم إلا مسرحياته المشهورة المتداولة في خمسة عشر مجلداً ضخماً ، وقد اشتمل معظم هذه المجلدات (من الثاني إلى الثالث عشر) على دراسات تمهيدية لعالم إسبانيا الكبير منندث ييلايو *Menendez Pelayo* ، ولما كانت هذه الطبعة كما ذكرنا غير كاملة ولا مستوفية لكل آثار لوبي المسرحية فقد شرع المجمع الفئوي بعد ذلك في طبع مجموعة أخرى للمسرحيات التي كانت أقل نصيباً من الشهرة والتداول أو التي لم تكن قد نشرت بعد أو التي كان مشكوكاً في نسبتها إلى لوبي ثم أثبتت الأبحاث الحديثة صحة هذه النسبة ، وقد اضطلع بهذا العمل الناقد الأدبي إميليو كورتاريلو إلى موري *Emilio Cotarelo y Mori* فنشر في هذه المجموعة ٢٥٨ مسرحية في ثلاثة عشر مجلداً يبلغ عدد صفحات كل منها نحو ٧٠٠ من القطع الكبير وبحروف بالغة الصغر والدقة . ومع ذلك فقد تبين بعد ذلك أن هاتين المجموعتين لم تستقصيا مسرح لوبي كله ، فقام بتبليها الباحث جونزالث دى أميثوا *Gonzalez Amezua* بمجموعة تحت عنوان « مسرحيات مخطوطة مجهولة لوبي دى فيجا » (مدريد سنة ١٩٤٥) . أما الدراسات والأبحاث حول لوبي فإنها ربما احتاجت إلى كتاب خاص لتمدادها ، ويكفي أن نشير إلى أن من أهمها ما كتبه منندث ييلايو والباحث الإسباني المعاصر إنترامباسا جواس *Joaquin Enrambasaguas* الذي تخصص في دراسة لوبي وإنتاجه الأدبي .

ولتحيهما أشجار اللوز
بثمارها الجديدة
وليشرع عليهما الفجر الضحوك
سيوفاً خضراء
قد عطرها ندى السحر
ملقياً عليهما نثراً من أزهار السومن

ويمضى الفلاحون في غنائهم ورقصهم ويتوالى أهل
القرية على بيربانيث وعروسه مهيتين إياهما ، فقد كان
الرجل طيباً محبوباً من الجميع ، وبينما الكل منصرفون
إلى شأتهن إذا بجيلة شديدة وأصوات استغاثة تقترب من
المجتمعين ، ثم يقدم رسول يبلغهم بما حدث : أن حاكم
قلعة أوكانيا كان في حفلة من حفلات مصارعة الثيران
قريباً من المكان الذي كان الفلاحون يحتفلون فيه بزواج
صاحبهم بيربانيث ، وتعقب الحاكم ثوراً ضخماً ثم
شرع في الإلقاء عليه بأنشطته ، ولكن الجبل نشب في
عنق جواده ، فالتقى به إلى الأرض ، وهاجمه الثور
فأصابه بجراحات شديدة . ولا تمضي لحظات حتى يأتي
الرجال وقد حملوا الحاكم وهو فاقد الوعي . وتنفض
حفلة الزفاف ويقوم بيربانيث وامرأته في شهامة ومروءة
بالعناية بأمر الحاكم ، وتسهر كاسيلدا على تخريبه ،
غير أن الحاكم لا يكاد يتألم نفسه حتى يستطير له وهو
يرى جمال العروس ، فيشتتها ، ويخاطب نفسه قائلاً :

« أليس من سوء تصرف الأقدار

أن يكون هذا الجمال من نصيب فلاح جلف ؟ »

ويشفي الحاكم من جروحه بفضل عناية بيربانيث
وكاسيلدا ، ويشكر الزوجين على ما لقيه لديهما من
إكرام وحفاوة ويعدهما بالمكافأة الجزلة ، ثم يمضى وهو
يسر رغبة عارمة في إغواء امرأة ذلك الفلاح الذي
لا يكن له - بحكم عتجهيته وعجرفته - إلا الاحتقار ،
إذ لا يراه يصلح حتى ليكون واحداً من أتباعه
وخدمه .

ونرى بعد ذلك بيربانيث وامرأته وحدهما في
محاورة بعد ذهاب حاكم أوكانيا . وتقول المرأة الهبة
لزوجها الوفية له إن الحاكم وعد بمكافأتهما على حسن
صنيعهما ، ولكنه يشعر بالغيرة ويتملكه شعور غامض
بأن تزول الحاكم في داره فال غير طيب . ولكن الزوجة
الودود تزيل مخاوفه ، ويدور بين الاثنين بعد ذلك
حوار غزلي يتحدث فيه الاثنان عن حقوق الزوجين
والترامتهما ، وهو حوار رقيق ربما كان من أجمل
القطع الغنائية في هذه المسرحية ، وقد عرف لوبي فيه
بمقدرته وبراعته كيف يستثير إعجاب المتفرجين
وعطفهما على هذين الزوجين المتحابين اللذين يعبران
في غير عمل ولا افتعال عن هذه العاطفة بين رجل
وامرأة ارتباطاً برباط الزواج المقدس .

وننتقل في المنظر التالي إلى قصر الحاكم حيث نسمعه
وهو يتحدث نفسه عن الفلاحة الجميلة التي استولت
على قلبه ويعبر عن حسده لذلك « الجلف » الريفي الذي
يتمتع بهذه المرأة ، ثم يستدعى إلى حضرته أحد أتباعه
« لوخان » ويأمره أن يستدعى إلى حضرته أحد أتباعه
« لوخان » ويقول له إنه لن يصل إلى المرأة حتى يغمر
زوجها بفضله وعطاياه ، « فأكثر الأزواج الذين
يغفلون عن شرفهم إزاء الإغراء بالمال والجاه » ، ونحن
نرى في هذه المحاورة القصيرة صورة لأولئك الأتباع
والخدم الذين لا هم لهم إلا إرضاء شهوات سادتهم حتى
ولو كانوا يقومون في سبيل ذلك بأدوار لا تشرف
المصطلح بها . وينصح « لوخان » سيده باهداء بيربانيث
زوجاً من البغال ، ويذكره بمدى ضعف النساء أمام
إغراء المادية .

ونشهد في المناظر التالية حديثاً بين بيربانيث
وكاسيلدا وهو يستعد للذهاب إلى أوكانيا ، وتذكره
زوجته بما وعد الحاكم به من مكافأتهما على صنيعهما
وتشير عليه في سداجة الريفيات بأنه لا بأس بأن يطلب

من الحاكم ما يستعين به على شأنه ، فثقل هذا السيد النبيل الذى قدما له المعروف من قبل لا يمكن أن يرده خائبا ، بل لا بد أن يكون ذا كراً لفضله ومروءته .

ونعود إلى مشهد يدور فيه الحوار بين حاكم أوكانيا وأتباعه الذين يريدون أن ييسروا له سبل الاتصال بامرأة بريانيث ، وهو يسألهم كيف يمكن أن يهذى إلى الرجل البغلين وغيرهما من الهدايا دون أن يرتاب في الأمر ، وفيما هم في هذا الحديث إذا بخادم يعلن إلى الحاكم أن بريانيث واقف على بابه ينتظر الإذن بالدخول . ويستطير الحاكم فرحاً ، وهو يرى الزوج الفخور قادماً عليه دون دعوة ولا ميعاد ، ويرى في ذلك بشرى خير بأن الأمر موشك على أن يستقيم له وأنه سرعان ما سيقضى مأربه . ويستقبل الحاكم بريانيث في حفاوة بالغة ، ويهذى إليه البغلين وهدايا أخرى قيمة من أبسطة ثمينة وحلى لزوجته . ولا يرى الفلاح الساذج في هذا الكرم الذى يستقبله الحاكم إلا دليلاً على وفائه واعترافه بالجميل ولا يتطرق إليه الشك في نواياه .

وفي المناظر الأخيرة من هذا الفصل نرى الملك إنريكي الثالث Enrique III الذى يصوره لنا لوپى دى فيجا في صورة الملك العظيم العادل الذى يتطلع إليه الشعب في حبة وإعجاب ، وكان الملك قد أتى إلى طليطلة ليشهد احتفالاتها الدينية التى تقام في شهر أغسطس ، ونحن نرى بعد ذلك بريانيث وزوجته مع عدد من أهل قريتهما وقد أتوا ليتفرجوا على الاحتفالات ولينظروا إلى موكب الملك . ونرى حاكم أوكانيا وقد أتى بمصور يجلسه على مقربة من بريانيث وأصحابه ويكلف المصور بأن يرسم صورة لكاسيلدا لكى يتقلها بعد ذلك على لوحة يحتفظ بها في داره ، ويقوم المصور بمهمته . وينتهى بذلك الفصل الأول .

وببدأ الفصل الثانى بعدة مناظر في القرية التى يسكنها بريانيث ، فترى الفلاحين مجتمعين يتحدثون عن تلك

تلك الاحتفالات الدينية التى شهدها الرجل هو وأهله في طليطلة ، ونحن نرى الحديث يجرحهم بعد ذلك إلى الكلام عن كنيتهم الصغيرة وصورة القديس سان روكى التى توجد بها ، فيسوق الإيمان الساذج بعضهم إلى اقتراح تجديد تلك الصورة القديمة وتكليف أحد المصورين في طليطلة بذلك ، ويعهدون بالمهمة إلى بريانيث ، فيقبل ويستعد للسفر .

ويوزع حاكم أوكانيا الذى أمضته الرغبة في امرأة بريانيث إلى أحد أتباعه « لوخان » بأن يتنكر في زي أحد المزارعين ويلتحق بالزمرة التى تعمل في جمع المحصول بأرض بريانيث حتى يهتئ لسيده فرصة اقتحام دار الرجل في غيبة منه . ويتنزه هذه الفرصة على عادته فيرسم لنا لوحة رائعة بديعة لهؤلاء المزارعين وهم بعد انتهائهم من الحصاد مغلدون إلى أغانيهم التى تنبض بحمارة الإيمان . ونرى بعد ذلك « لوخان » تابع الحاكم وقد تجسس على بيت بريانيث وعرف مسالكه يعوذ إلى سيده ويدله على الطريق حتى يقتحم مخدع كاسيلدا منزهراً فرصة غياب زوجها في طليطلة . ولكن الزوجة الوفية المخلصة لا تكاد تحس به حتى تغلق بابها وترفض لقاءه ويعود الحاكم خائباً بعد أن أحس به رفاق بريانيث الذين يتظاهرون بالنوم على باب داره ، ويحاول الحاكم الحديث مع كاسيلدا وهى مطلة من النافذة فيصارحها بحبه لها وبرغبته في وصالها وبعدها بالمال والجاه لزوجها لو انقادت له ، وهنا يجرى لنا لوپى ذلك الحوار البديع بين المرأة الوفية لزوجها المحافظة على شرفه وذلك المتصور الذى يريد أن يشتريها بماله ، وفيه تقول كاسيلدا :

« وإذا كان الحاكم يحبنى كما يقول
أكثر مما يحب روحه وحياته
وإذا كان يريد أن يشتري شرفى وعفتى
بعبارات من الغزل الكاذب

فلأقل له إننى أكثر حباً لبريانيث
بعبادته التى حلال لونها واغبر
منى لحاكم أوكانيا ذى الجاه والثروة
بطيلسانه الموشى بخيوط الذهب»

وهذه الأبيات التى أدخلها لوي دى فيجا فى ثنايا
هذا الحوار هى ألفاظ الأغنية الشعبية الشائعة التى استمد
منها لوي المسرحية كلها .

ثم تهب كاسيلدا برفاق زوجها الراقدين أمام
دارها بالنهوض : ويرى الحاكم أنه سيفتضح أمره ،
فيهرب على عجل ، وقد أقسم على أن ينتقم من المرأة
الشريرة وأن يذل قيادها طوعاً أو كراهية .

ونرى بعد ذلك فى المنظر التالى بريانيث وهو فى
مرسم المصور الطليطلى الذى أراد أن يكلفه برسم
صورة جديدة لقديس القرية ، ويكون من الصدف أن
يكون هذا المصور هو نفسه الذى قام برسم صورة
كاسيلدا من أجل حاكم أوكانيا . وبينما يتأمل بريانيث
الصور المتناثرة فى المرسم إذا به يرى صورة امرأته ،
ويستبد العجب بالرجل فيسأل المصور عن شأن تلك
الصورة ، ويبوح له هذا بالسر : أن الحاكم أمره
برسمها لامرأة ريفية تيمه هواها دون أن تظن هى
لذلك . ويقع الخبر على بريانيث وقع الصاعقة وإن
كان يخفف من ألمه ما يشهد به المصور من أنها ليست
على علم بشئ . ويخاطب بريانيث نفسه مقلباً الأمر
على وجوهه : كيف يفعل مع ذلك الحاكم الذى كان
ينبغى عليه أن يدين له بالطاعة والذى قدم إليه هو الخير
 والمعروف ثم لم يكن من جزائه إلا أنه حاول الاعتداء
على شرفه ؟ والمقطوعة التى يقدمها لنا لوي على لسان
بريانيث فى هذا المقام من أجمل ما كتب فى تصوير
الغيرة والغضب للشرف المنتهك ، وفيها البيت الذى
جعل لوي ختاماً لكل فقره :

« ما أسوأ حظ الفقير يا رب

إذا خطر له أن يتزوج بامرأة جميلة ! »

ويتفق بعد ذلك أن يوجه الملك إلى حاكم أوكانيا
رسالة يأمره فيها بتعبئة عدد من فرسان البلدة لكى
يشتركوا فى الحملة التى كان يعدها لقتال المسلمين فى
غرناطة ، وتمن للحاكم فكرة تعينه على إدراك مأربه
من المرأة التى زاده إعراضها عنه تصميماً على نيلها ،
فيأمر باخراج مائتين من رجال البلدة : مائة من النبلاء ،
ومائة من المزارعين . ويعن للحاكم أن بسند قيادة كتيبة
المزارعين إلى بريانيث فيرضى بذلك كبريائه ويعده
عن منزله فى الوقت نفسه . ويلجأ الحاكم إلى تابع آخر
من أتباعه « ليوناردو » فيأمره بأن يتعقب « لينيس » بنت
عم كاسيلدا وصديقتها وأن يتظاهر لها بالحب ويعزمه
على الزواج منها حتى يتيسر له عن طريقها الوصول إلى
المرأة العنيدة .

ونمضى الخطة كما رسم الحاكم : فيعاهد ليوناردو
ولينيس على الزواج ويقول لها إن الحاكم نفسه يريد أن
يخطبها لتابعه وأن يتحدث إليها فى شأن الخطبة ، وتلح
لينيس على ابنة عمها أن تستقبل الحاكم فى دارها ،
ويقدم بريانيث فى هذه اللحظة ولكنه لا يكاد يستقر
قليلاً مع امرأته حتى يأتيه رسول من قبل الحاكم
يستدعيه إلى حضرته . وبهذا ينهى الفصل الثانى .

ونشهد فى أول مناظر الفصل الثالث كيف يقص
الحاكم على أتباعه مدى نجاحه فى تنفيذ مشروعه : فانه
لم يستدع بريانيث إلا ليعلن إليه أنه اختاره لكى يتولى
قيادة المزارعين المائة ، ويتضحك الحاكم من براءة
الفلاح المسكين الذى ظن أن فى ذلك تشریفاً له فأنفق
أكثر ما لديه من مال قليل على شراء عدة الحرب
والظهور بمظهر القيادة . وترى بريانيث بعد ذلك على
رأس فرقته المتواضعة وهو يؤدى قسم الولاء للملك أمام
الحاكم ، ويبالغ هذا فى تمثيل الدور ، فيمنح بريانيث
لقب « فارس » ويسلم إليه سيف « الفروسية » وحينئذ

يقف الفلاح الفارس فيوصي الحاكم في آيات كلها تعريض بأن شرفه وأسرته أمانة في يديه . ويوقع كلام بيريبانث بعض الاضطراب في نفس الحاكم ولكنه لا يكاد يذكر كاسيلدا وامتناعها عليه حتى تقوى عزيمته على اغتصابها في نفس هذه الليلة بعد أن يخرج زوجها على رأس فرقته إلى دار الحرب .

ويقدم لوبي بعد ذلك مشهداً طريفاً للعرض العسكري الذي تقوم به فرقنا النبلاء والفلاحين ، ويظهر هو نفسه على المسرح تحت اسم « بيلاردو » (١) الذي اعتاد أن يشترك به في كل المسرحيات التي ألفها باعتباره واحداً من أهل القرية المتفرجين على الاستعراض ، فيجري مقارنة بين جيشي الفلاحين والنبلاء ، ويقول إن هؤلاء الأخيرين على جمال زيهم وحسن سلاحهم لا يرون عربياً مسلماً إلا تولاهم الذعر وأطلقوا سوقهم للريح كأنهم أرانب مذعورة تهرب من كلاب صيد ، ونحن نرى في هذا التعليق الساخر مدى ما كان يكتنه لوبي من الاحتقار لهؤلاء النبلاء ومدى اعتداده وإعجابه بأولئك المزارعين المتواضعين .

ويطمئن الحاكم إلى ذهاب بيريبانث فيستعد

(١) اعتاد لوبي دى فيجا في كثير من مسرحياته أن يقدم نفسه دائماً في دور ثانوي لا يظهر حل المسرح إلا عدة خطوات تحت اسم « بيلاردو » ، وهو في هذه الأدوار يقص علينا شيئاً من تفاصيل حياته في المسرحية مما يجعل الحوار المنسوب إلى بيلاردو في مسرحه مرجعاً عظيم القيمة فيما يتصل بترجمة حياته . وهو مثلاً في هذه المسرحية يظهر نفسه فلاحاً عجوزاً يسألونه عن سنه فيقول إنه في التاسعة والستين من عمره وهو يلقي بتعليقات ساخرة لا تخلو من القنوط بكثرة ما كتب ، إذ يقول إنه لم يتعلم في مدرسة وإنه ربما لا يحسن القراءة وإن كان من الطريف أنه مع ذلك يجيد الكتابة . وولم لوبي دى فيجا بإظهار نفسه على المسرح في أدوار قصيرة عابرة يشبه ما جرى عليه الفنان الإسباني جويا Goya من تصويره لنفسه في مكان ثانوي من الصور التي تشتمل على جموع كثيرة من الناس . ومثل هذا نراه اليوم كذلك في ميدان الفن السينمائي في الروايات التي يخرجها هيتشكوك إذ يصير هذا المخرج دائماً على أن يحتفظ لنفسه بلمحة سريعة يظهر فيها في دور ثانوي لا يستغرق إلا ثوان معدودات .

لاقتحام داره والظفر بزوجه . غير أن الفلاح الغيور كان في رية من أمر ما يدور وراء ظهره فإذا به لا يبلغ مشارف البلدة حتى يترك فرقته ويعود في المساء متخفياً إلى القرية . ويتوجه بيريبانث إلى منزل صديق وجار له حتى يتسلل من هناك إلى بيته دون أن يحس به أحد . ويترصد الرجل بعد ذلك في ركن من أركان داره منتظراً ما سيحدث . أما الحاكم فإنه يتمكن عن طريق أتباعه من اقتحام البيت ، وتستيقظ كاسيلدا على أصوات غريبة في دارها ، وإذا بها ترى الحاكم بهجم عليها محاولاً اغتصابها ، فتدافع المرأة عن شرفها في بسالة واستماتة ، ويخرج بيريبانث في هذه اللحظة من مكانه ولا يتردد في قتل الحاكم بنفس السيف الذي كان قد قلده إياه في صبيحة ذلك اليوم .

ثم يحمل بيريبانث زوجته على ظهر جواده ويتوجه إلى طلبلة حيث كان معسكر الملك إنريكي الثالث . ونرى بعد ذلك مشهداً يظهر فيه الملك وزوجته وقد أتاهما رسول من أوكانيا يبلغهما أن أحد المزارعين اغتال حاكم المدينة ، فيهيج الملك ويعتبر ذلك إهانة له ويأمر بالبحث عن المزارع القاتل وزوجته . ولا يكاد النداء يتردد بذلك حتى يستأذن في الدخول إلى محضر الملك أحد المزارعين ، وإذا به بيريبانث نفسه أتى هو وزوجته ليسلما نفسيهما وليشرحا قضيتهما ، ولا يتأكد الملك من صدق الفلاح المتواضع حتى يعفوه عنه ويأمر بضيقه له ولأسرته وبقلده سيف الفروسية بنفسه . وبهذا ينزل ستار الحتام .

مسرحية فوتي أوبيخونا

وهذه المسرحية الثانية Fuente Ovejuna تعتبر من أشهر آثار لوبي دى فيجا وأروعها ، وإذا كانت الأولى التي عرضناها في الصفحات السابقة مستوحاة من حديث أسطوري يدور حول أغنية شعبية

فان « فونتي أوبيخونا » مسرحية نقلها لوبي من صفحات التاريخ .

ونحن نرى في أول مناظر الفصل الأول محاوره تجرى بين فرنان جومث دى جثمان قائد بلدة فونتي أوبيخونا (من أعمال قرطبة) ورودريجو خيرون Rodrigo Giron القائد الأعلى للجماعة قلعة رباح الدينية^(١) . وقد رسم لنا لوبي من خلال هذه المحاوره في لمحات سريعة خاطفة شخصية القائد فرنان جومث دى جثمان Fernan Gomez de Guzman ، فنحن نرى أنه فارس لا تنقصه الشجاعة ولا الجرأة ، غير أنه مغرور متكبر يحقر عامة الشعب كما لو كانوا من طينة غير طينته ، وهو مستبد لا يراعى خلقاً ولا ضميراً في معاملة الناس . ثم يستكمل لوبي صورة القائد من خلال محاوره أخرى تجرى بين فتاتين ريفيتين من أهل قرية فونتي أوبيخونا هما باسكوالا Pascuala ولاورنثيا Laurencia ، إذ نعرف من هذه المحاوره أن فرنان جومث طالما غرر ببنات القرية مستنداً

(١) جماعة قلعة رباح Orden de Calatrava هي إحدى الجماعات الدينية العسكرية التي تأسست في إسبانيا المسيحية على غرار الطوائف التي أنشئت في أوروبا في عهد الحملات الصليبية مثل « فرسان المعبد » و « الاسبتارية » وغيرها ، وكانت هذه الجماعات رد فعل لطوائف مماثلة أسسها المسلمون الأندلسيون في إسبانيا من المرابطين المجاهدين الذين كانوا يقومون بحماية الثغور ، ولهذا كان يطلق عليهم اسم « للماورين » أو « الثغريين » أو « أهل الرباط » . وقد ظهرت أول جماعة من هذا النوع في إسبانيا المسيحية في عهد ملك قشتالة سانتشو الثالث في سنة ١١٥٨ ، وهي المذكورة هنا في مسرحية لوبي والتي كان يطلق عليها اسم « فرسان قلعة رباح » إذ كانت تتخذ ثغر قلعة رباح Calatrava (في المنطقة الواقعة بين مملكة قشتالة والأندلس الإسلامية) مركزاً لأعمالها العسكرية . ثم أسست بعد ذلك جماعة « فرسان سانت ياقب » Orden de Santiago وقد سميت بذلك لأن الهدف من تأسيسها كان حماية الحجاج المسيحيين إلى مدينة سانتياجو في شمال غرب إسبانيا ، وتأسست من بعد جماعة ثالثة هي المعروفة باسم « فرسان القنطرة » Orden de Alcántara ، وكان لفرسان هذه الجماعات نفوذ كبير في خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر كما نرى من خلال أدب العصر الذهبي .

إلى جباهه وسلطانه ، وهو لا يرى ولا يسمع بامرأة جميلة إلا حاول اغتصابها يعاونه في ذلك أتباعه وعلى رأسهم أورتونيو Urtuño وفلورس Flores وهما إمعنان لا عمل لهما إلا تملق الحاكم وكسب رضاه حتى على حساب كرامتهما ، بل إنهما لا يتورعان عن استغلال النساء له .

ثم نشهد منظراً يجمع بعض شباب القرية والفتاتين باسكوالا ولاورنثيا ، ونسمع فيه جدلاً بريئاً ساذجاً وإن كان حافلاً بتلك الحكمة التي تجرى على ألسنة القرويين في غير تعمل ولا اصطناع ثقافة حول الحب ، فبعضهم ينكر وجوده وآخرون يؤكدونه ، ونفهم من هذا الحديث أن الفتى فروندوسو Frondoso متعلق بلاورنثيا وأنه يريد الزواج منها .

ويدخل المسرح بعد ذلك فلورس تابع القائد فرنان جومث وقواده فيعلن إلى أهل القرية قرب وصول القائد بعد عودته من الحملة الظافرة التي اضطلع بها هو والقائد الأعلى لطائفة قلعة رباح ضد سكان مدينة « تيوداد ريال » Ciudad Real الثائرين . ويروى فلورس خبر الحملة في عبارات طنانة يسبح فيها للمديح على سيده ويشير إلى بسالته واقتداره على فنون الحرب ، ولا تخلو عباراته من إشارة إلى قسوة القائد عند الحديث عن افتتاحه المدينة عنوة واستياحتها لجنوده وإيقاعه الوحشي بالثائرين . ولا نلبث بعد ذلك أن نرى القائد وهو يدخل في كبرياء وقد اجتمع كبار أهل القرية لاستقباله وتهنئته ومعهم فرقة من الموسيقيين والمنشدين وهم يرفعون أصواتهم بنشيد حماسي . ويتقدم واحد من عمد القرى التابعة لفونتي أوبيخونا فيقدم للقائد باسم هؤلاء الريفيين البسطاء هدبة مما جمعه له : عربة كاملة محملة من الدجاج والخنازير واللحوم والخبز وغير ذلك . وينصرف الجمع ، ولكن القائد يأمر باستبقاء باسكوالا ولاورنثيا ويحاول أن يدخلهما إلى قلعة حتى « يربهما

الانتقام لا من الشابين المتحابين فحسب ، بل من أهل القرية جميعاً .

ويبدأ الفصل الثاني بمشهد يضم كبار رجال القرية وعلى رأسهم العمدة إستييان Esteban والد لاورنثيا وخوان روخو عمها وغيرهما وهم يتحدثون عن بعض شئون عملهم من الزراعة والفلاحة . ثم يدخل عليهم القائد بين تابعيه الوفيين فلورس وأورتونيو . ويتشعب الحديث بين المجتمعين ، ونسمع القائد وهو يخاطب كبار رجال القرية في تعال واحتقار . ثم يسبهم جميعاً ويقول إنهم جهلة مزمتمون ، فهم يغارون على نساءهم حتى كأن الله لم يخلق الشرف إلا بينهم مع أن هناك من النساء المدنيات المتحضرات من كن يتمنين أن يصفى أمثال القائد شرف وصاله عليهن . ويغضب رجال القرية وينصرفون فيتابعهم فرنان جومث بإساءاته وإهاناته دون أن يبالي بكبر سنهم أو مقامهم في القرية . ويحاول فلورس وأورتونيو أن يخففا حدة غضبه وينصحانه بالمداواة والرفق ولكنه يجيبهما في عجرفة : « أترأى يريدون أن يسوا أنفسهم وهم السوقه العبيد بالسادة النبلاء من أمثالي ؟ » ثم يتساءل القائد عن فروندوسو فيقال له إنه ما زال في القرية ، فيبجح ويصبح :

« أبحرؤ على السير في أنحاء ذلك المكان

رجل حاول قتلى ؟

وهل هان قلد الرجال

حتى يتحدى مثلى — ممن إذا شهروا سيوفهم

ارتعدت قرطبة وغرناطة فرعاً —

صبي حقير من جملة فلاحي هذا الريف

حتى إنه يوجه إلى صدرى السهم في وعيد ؟

إن هذا لنذير بقرب قيام الساعة يا فلورس ! »

ويتساءل أورتونيو كيف تركه حياً حتى تلك اللحظة ، فيقول فرنان جومث إنه لو أراد لضرب

ما أحرز من غنائم ، ولكن لاورنثيا تسأل أورتونيو : « ألا يكفي سيديك ما أهدى إليه من لحوم ؟ » فيجيب التابع في مجون وصفاقة « إنه لا يريد إلا الحكماء أنثى ؟ » وتنظر إليه الفتاتان في احتقار وترفضان دخول القلعة وتصرفان إلى شأنهما .

ويظهر الملكان الكاثوليكيان فرناندو وإيزابيل بعد ذلك ، فترأى في معسكرهما يأذنان بالدخول لاثنتين من كبار أهل مدينة ثيوداد ريال ، فيعرضان على الملكين ما أصابهما على أيدي القائد الأعلى للجماعة فرسان قلعة رباح والقائد فرنان جومث ، ويشكو الرجلان من الفظائع التي ألحقها بهن القائدان ويقولان إن فرنان جومث عاد إلى قلعته في فونتي أوبيخونا حيث يعامل أهلها على نفس الصورة القاسية المستبدة . ويستاء الملك لذلك ويأمر دون مانريكي Don Manrique أحد أعوانه وثقاته بأن يذهب إلى فونتي أوبيخونا ويطلب إلى القائد تقديم حساب عن أعماله .

ونرى بعد ذلك لاورنثيا وفروندوسو يتطارحان الغرام في حفل على شاطئ النهر ، ويطلب القى الريفي إلى صاحبه أن يحدد موعداً لزوجاهما . وفي هذه اللحظة يقرب القائد فرنان جومث مطارداً ظلياً كان يحاول اقتناصه في رحلة صيد ، ويغضب القائد لالتقائه بالفتاة وحدها في ذلك المكان الخالي — إذ أن فروندوسو كان قد اختفى وراء بعض الأشجار — ويحاول القائد استمالة القروية الجميلة بلبس الكلام وبالوعود ويقول لها إنه لا يفهم تمنعها هذا مع أن من نساء القرية المتزوجات من وهبنه حين في غير جهد . ولكن الفتاة تصده في عنف وحينئذ يستشيط غضباً ويحاول اغتصابها بالقوة ، فيخرج فروندوسو ويلتقط من الأرض قوس القائد وتبالة ويهدده بالقتل لو أنه اقترب من الفتاة ، وحينئذ يتركها القائد وإن كانت « الإهانة » التي لحقته من جانب الشاب الغيور قد أثارت ثأثرته ، فهو يقسم على

أعناق أهل القرية جميعاً في ساعة واحدة ، غير أنه يريد أن يوقع بهم انتقاماً لم يسبق له مثيل . ثم يتحدث عن لاورنثيا فيقول إن تمنعها عليه هو الذي يلهب من جذوة غرامه وإنها لو كانت مثل غيرها من النساء الطيبات السهلة الانقياد لما أولاها عنايته .

وتظهر بعد ذلك لاورنثيا وباسكوالا ومنجو وهو فلاح كهل ، ويتحدث الجميع عن آخر جرائم القائد ، ويتمدحون بشجاعة فروندوسو الذي واجهه مدافعاً عن شرف لاورنثيا ، على أنهم يجمعون على أنه من الخير لفروندوسو أن يترك البلدة ويختفى عن الأنظار إذ أن القائد لن يتركه في سلام فقد أقسم على أن يشنقه من فرع شجرة . وفي هذه الأثناء تلحق بالمجتمعين فتاة ريفية هي خائيتنا Jacinta هاربة من مطاردة خدم القائد وجنوده ، فهرب الفتاتان الأخريان ولا تجد من الرجال إلا منجو الذي يتعهد لها بأن يحميها على قدر طاقته . ويظهر بعد ذلك جنود القائد فيحاول الفلاح الشيخ أن يمنعهم من اختطاف الفتاة ، ويدور الشجار بينه وبين الجنود ، ثم يأتي القائد على أصوات العراك ، فيناشده منجو أن يكف أتباعه عن المرأة الوحيدة العزلاء . ولكن الغضب يستبد بفرنان جومث فيأمر جنوده بأن يجلدوا منجو حتى يدموا ظهره . أما خائيتنا فانها تستعطف القائد ثم تنذره فيقول لها إن جزاء قاحتها هو ألا تكون من نصيبه هو ، بل طعمة سائفة لرجاله وأتباعه .

ونرى بعد ذلك كهول القرية وبعض رجالها ونفوسهم تغل بالثورة والتمرد وهم يروون آخر فعلات القائد من جلد منجو والاعتداء على خائيتنا وغيرها من النساء ، ثم يتغير اتجاه الحديث بعد أن يأتي فروندوسو لكي يخطب لاورنثيا إلى أبيها إستييان . ويوافق أهل الفتاة . ولا تلبث بعد ذلك أن ترى الاحتفال بزواج الشابين وما يتخلل الحفلة من أغان وأحاديث مرحة ، غير أن الجو يكفهر فجأة باقتحام القائد وجنوده للعرس

ويأمر فرنان جومث بالقبض على فروندوسو وإيداعه السجن بتهمة إهانة « فرسان قلعة رباح » التي يمثلها القائد ، ويستشفع له كهول القرية ، ويهب أبو العروس إستييان للدفاع عن صهره ولكن القائد يأمر جنوده بانتزاع رجمه منه وبأن يوجعوه ضرباً ، وتحتج الفتاة على ما أصاب زوجها وأباها ، فيأمر بسجنها هي أيضاً تحت حراسة عشرة من الجنود .

رأينا في أواخر الفصل الثاني كيف كانت كلمات إستييان التي واجه بها القائد فرنان جومث دى جثان نذيراً باشتعال الثورة عليه بعد أن فاض الكأس وتقطعت جبال الصبر ، وأما الفصل الثالث فان الستار لا يكاد يرفع عن مناظره الأولى حتى نرى كبار أهل القرية وهم مجتمعون يتدبرون أمرهم ، ونرى إستييان وقد أصبح هو محرك الثورة والحاض عليها :

« كهل قد خضبت شيبته الدموع

يسائلكم أيها الفلاحون الشرفاء :

أى ماتم عليكم أن تقيموا

على وطن ذليل ضاع شرفه ؟

وإذا كانت قد بقيت لديكم مسكة من شرف

فاذا أنتم فاعلون ولم يبق من بينكم

من لم يلحقه من هذا المتوحش عار الإهانة ؟

أجيونى : هل فيكم أحد

لم يصب من قبله فى حياته أو شرفه ؟

ألا تجتمعون فينبأكمى بعضكم إلى بعض ؟

فاذا لم يبق لديكم ما يمكن أن تبكوا على فقده

فا تنتظرون ؟ وإلام أنتم ساكتون ؟ »

ويتداول شيوخ القرية فيما بينهم وتنتقل أولى الصيحات منادية بالانتقام ، وفجأة تقنم عليهم المكان لاورنثيا وهي مشعة الشعر ممزقة الملابس . ويصبح إستييان وهو لا يكاد يتعرف عليها : « أليست هذه هي ابنتى ؟ » فتقول له :

« لا . . . لست ابتك . . . »

لأنى لو كنت كذلك لما تركت هذا الطاغية يختطفنى
دون أن تحرك يداً للانتقام !

أو تحاول استرجاعى من أيدي هؤلاء الخونة .

إننى لم أكن قد أصبحت بعد فى عصمة فروندوسو

حتى أطالبه هو باعتباره زوجى

بأن يأخذ بثأر شرفى المنتهك ،

بل كنت أنت المكلف بعبء ذلك ! »

وتمضى لاورنثيا فى استنفارها لحمية رجال القرية

فتدعوهم « أشباه رجال ! . . . ضرب من البواجن ! . . »

لأنكم تسكنون على انتهاك أعراض نساتكم ! . . . فلماذا

تتقلدون السيوف وتصطنعون مظاهر الرجولة ! » وهى

تصرخ أخيراً بأنه من الخير لهذه البلدة أن يخلو منها

« أنصاف الرجال » هؤلاء وأن يهب نساؤها للدفاع عن

شرفهن ما دام رجالها على هذه الصفة من الذل والخنوع .

وتوثى صبيحة لاورنثيا ثمرتها فاذا بالرجال وكان من

بينهم المتردد والخائف يجتمعون يداً واحدة على الانتقام

والثأر ، وتجمع لاورنثيا النساء فهيب بهن أيضاً أن

يثأرن لشرفهن ، ويستجيب لها النساء فيقررن أن

يتسلحن بدورهن ويهاجمن قلعة القائد .

ونرى بعد ذلك القائد فى قلعته يحيط به جنوده وهم

يقتادون فروندوسو مقيد اليدين والرجلين والقائد يأمرهم

بأن يشنقوه ويعلقوه من برج القلعة حتى يكون عبرة

ومثلاً لأهل القرية . وهنا نسمع من الخارج أصوات

ضجيج ترتفع وتقرب ، ويأتى جنود القائد فى فرج

فيعلنون عليه النبأ : لقد اندلعت الثورة وأقبلت جموع

الفلاحين نساء ورجالاً فافتحمت الأبواب وهى تنادى

بالموت للطاغية وأعوانه . ولا يجد القائد بداً من الهرب

ولكننا نسمع صوته من الخارج وهو يصرخ صرخة

مدوية ، إذ قطع عليه الثائرون الطريق وقتلوه هو ومن

عهد للمقاومة من أصحابه ، بينما يعمد الآخرون للفرار
بعد أن ينتم منهم أهل القرية شر انتقام .

ثم يظهر لنا الملكان فرناندو وإيزابيل وقد استأذن

عليهما فلورس ذراع القائد الأيمن وكان قد أفلت من

ثورة « فونتى أوبيخونا » بعد أن جرح ، ويأتى فلورس

لكى يشكو إلى الملكين ما فعله أهل القرية بالقائد ، وهو

يصف لنا قسوة انتقام القرويين ، فيقول إنهم مزقوا

لحمه وإن النساء تناهبن ما تنائر من أعضاء جسده ،

ثم مضى الثائرون إلى داره فهبوا وأعملوا فيها التحريق

والهدم ، ثم يطلب من الملكين توقيع العقوبة على

الثائرين . ويتأثر الملك بما صوره فلورس من أمر هذه

الثورة الجائحة ، فيأمر بأن يحقق ثقافته فى الأمر ويروا

ما الذى أدى إلى الثورة وأن يعاقب الجناة .

ونرى بعد ذلك أهل القرية وهم يحملون رأس

فرنان جوث على حربة ويهتفون بحياة بلدهم وبحياة

الملك ، إذ أن ثورتهم لم تكن موجهة إلا ضد القائد

الطاغية المستبد ، دون أن تتجاوز ذلك إلى التمرد على

الملك أو حكومته ، وهم يعرفون أن الملك سيبحث إليهم

عن محقق فى أمر مقتل القائد فيتداولون فيما يكون جوابهم

جميعاً فى التحقيق .

ويأتى القاضى المرسل من قبل الملك ونسمع التحقيق

مع عدد من أهل القرية من رجال ونساء وفتيان وأطفال

فهو يسألهم عن قتل القائد ، فاذا بجواب واحد يردده

الجميع : « فونتى أوبيخونا » ، ويستشيط القاضى غيظاً

فيأمر بتعذيبهم حتى يعترفوا ويقروا ، ولكنهم يصممون

على ذلك الجواب .

ويتكرر التحقيق ، والسؤال والجواب لا يتغيران :

— من الذى قتل القائد ؟

— فونتى أوبيخونا يا سيدى .

ويكاد صواب القاضى يطير ، فيصيح فى غضب :

— ومن هو فوتى أوبيخونا ؟

— الكل فى واحد ! . . .

الروسى يحول حفلات عرض « فوتى أوبيخونا » إلى مظاهرات صاخبة تهتف بسقوط القيصر وحكومته الإقطاعية الغائلة^(١) .

ونرى القاضى بعد ذلك فى محضر الملك ، وهو يقول له إنه حاول أن يعرف من هو المسئول عن مصرع القائد ، فلم يتلق منهم إلا جواباً واحداً أجمعوا عليه هو أن « فوتى أوبيخونا » قتله ، ويقول القاضى إنه لم يستطع استكشاف الحقيقة حتى بعد أن قام بتعذيب ثلاثمائة من أهل القرية ، حتى الأطفال دون العاشرة لم يكن عندهم إلا ذلك الجواب . ويستأذن القاضى فى أن يدخل على الملك طائفة من أهل القرية حتى يسائلهم بنفسه ، ويدخل هؤلاء فيصفون ما كانوا يلاقون على أيدي القائد وأعوانه من عنت وعبث بالأرواح ونهب للأموال وهتك للأعراض . ويقتنع الملك فيعلن عفوه عن القرية وقبوله لحجج أهلها .

وبهذا تنتهى مسرحية « فوتى أوبيخونا » التى تعتبر من أروع ما كتب لوبى دى فيجا . ولعل أجمل ما فيها هو ما تضمنته من تمثيل واقعى حى لروح الشعب كله ، فالبطل هنا ليس فرداً بعينه ، بل القرية كلها ، ونحن نرى أن المسرحية تنتهى دون أن نعرف من هو الذى قتل القائد فرنان جومث ، وقد تعمد لوبى أن يبرز هذا المعنى ، فلب المسرحية هو تصوير ثورة شعبية بمعنى الكلمة على حاكم إقطاعى مستهتر مستبد . ولهذا فإن « فوتى أوبيخونا » كانت من أول طلائع ما يمكن أن نسميه « الأدب الثورى » وهذا هو ما يفسر انتشارها وذيوعها ، فقد ترجمت إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها من اللغات فى وقت مبكر ، بل إن من الطريف أن نذكر أنها ترجمت إلى الروسية وكانت كثيراً ما تعرض فى مسارح روسيا القيصرية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، إذ كانت تعتبر متنفساً لطبقات الشعب الفقيرة الكادحة ضد سطوة الحكام الإقطاعيين المستبدين ، وكثيراً ما كان الجمهور

وليس من العسير علينا أن نجد تفسير هذه الظاهرة ، فنحن نرى فى مسرح لوبى ولا سيما فى هذين الأثرين المسرحيين اللذين عرضناهما : « بيربانيث » و « فوتى أوبيخونا » تصويراً لأول مظاهر الصراع الاجتماعى بين الطبقات ، وهو يلح على هذه الحقيقة ، ويرسم لنا صورة قائمة للنبل الإقطاعيين بكل ما يتصفون به من جشع وأنانية وقسوة ونزوع إلى الفوضى وإستهتار بكل الشرائع السماوية أو المدنية ، ولوبى يحدد لنا الطبقات المتصارعة تحديداً واضحاً ، فنحن نرى فى المسرحيتين المذكورتين ذلك التضاد الواضح بين كتلتين : عامة الشعب وسلطة الملك من ناحية والإقطاع من ناحية أخرى . ويجدر بنا أن نشير إلى أن لوبى ملكى النزعة وهو يصور السلطة الملكية على أنها الشرعية المستنيرة التى لا تتردد فى الوقوف إلى جانب الشعب ، بينما نجد السادة الإقطاعيين هم العقبة الوحيدة فى سبيل التقدم الاجتماعى ، ويجب ألا نعتبر ائتلاف الشعب والملك هنا من المفارقات ، فقد كان النظام الملكى هو السائد المعترف به فى تلك العصور ، والواقع أن ملوك إسبانيا فى تلك الفترة التى يصورها مسرح لوبى كانوا ذوى نزعة تقدمية ديمقراطية ، وكانوا فى صراع دائم مع طبقة النبلاء والسادة الإقطاعيين . وكثيراً ما كانوا يقفون إلى جوار الشعب العامل فى كفاحه ضد هؤلاء الإقطاعيين الذين كانوا لا يكفون عن استغلاله ، ونهب ترواته . هذا مع أنهم لم يبدلوا أبداً أية تضحية فى سبيل قضية البلاد ، حتى الصراع مع المسلمين الأندلسيين خلال القرن الخامس عشر لم يكن يتجشم مثوته إلا

(١) من حسن الحظ أن هذه المسرحية ستشتر أيضاً بالعربية قريباً ، فقد اضطلع الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بترجمتها كاملة وسيتمكن لقراء العربية أن يقرأوها فى مستقبل قريب .

الفلاحون الفقراء ، ونحن نرى بهذه المناسبة كيف يسخر لوبي من هؤلاء النبلاء في مسرحية « بريانيث » فيقول إنهم لا يكادون يرون أندلسياً مسلماً ، بل لا يسمعون باسم فارس مسلم إلا ملاً الرعب قلوبهم. فولوا عنه فراراً .

وهناك ناحية أخرى نراها تتكرر في مسرح لوبي : هي مسألة الدفاع عن العرض المنتهك والانتقام المروع من المعتدى على الشرف ، وفي المسرحيتين اللتين عرضناهما في الصفحات السابقة أروع مثل على علاج مسألة « العرض » عند لوبي ، والحل الذي يأتي به لوبي لهذه العقدة هو القتل . . . القتل الذي لا يعرف التردد أو الاحتكام لأي قانون . . . بل القتل الرهيب القاسي الذي لا بأس فيه بأشنع صور المثلة كما نرى في مسرحية « فونتي أوبيخونا » ، فالشرف لا يسلم كما قال الشاعر العربي إلا إذا أريق على جوانبه الدم . وهذا المفهوم للشرف هو الشائع في البيئة الإسبانية قديماً وحديثاً ، وهو الذي أبرزه الأدباء الإسبان منذ لوبي دي فيجا حتى غرسيه لوركا ، إذ نراه كذلك في إسبانيا القرن العشرين في مسرحية « بيت برنارد ألبا »^(١) . وهنا ننبه مرة أخرى إلى تطابق هذا المفهوم لدى الإسبان ولدى العرب ، ولستنا نشك في أنه من جملة ما ورثه الشعب الإسباني عن الأندلس العربية .

مسرحية « كلب البستاني »

ونعرض أخيراً لأحد آثار لوبي المشهورة ، وهي « كلب البستاني » El perro del hortelano وهي تنتمي إلى لون مسرحي آخر يختلف عن اللونين اللذين عرضنا النموذجين السابقين لهما ، فهذه المسرحية ليست مستوحاة من أسطورة شعبية مثل « بريانيث » ولا من حدث

(١) « بيت برنارد ألبا » لفيدريكو غرسيه لوركا ، ترجمة د. محمود علي مكي ومراجعة الدكتور حين مؤنس ، سلسلة روثم المسرح العالمي رقم ٢٣ ، سنة ١٩٦٢ .

تاريخي واقعي مثل « فونتي أوبيخونا » ، بل تندرج تحت ما يمكن أن ندعوه « مسرح المجتمع » ، إذ يصور فيها لوبي العادات والتقاليد المتبعة في المجتمع الإسباني المعاصر له ، تصويراً لا يخلو من النقد والسخرية .

وتدور أحداث المسرحية في نابلي بإيطاليا ، وإن كان معظم أبطالها إسبانيين ، فنحن نعرف أن نابلي وجنوب إيطاليا وصقلية كانت منذ القرن الخامس عشر تابعة للإمبراطورية الإسبانية . ويرفع الستار في الفصل الأول عن جانب من قصر إحدى سيدات المجتمع الراقى الإسباني ، وهي الكونتيسة ديانا دي بلفلور Condesa Diana de Belflor ونرى ديانا في ساعة متأخرة من الليل وهي تتعقب شبح رجلين يهربان من قصرها ، وتزعج السيدة وتنادى خدماً وتعنفهم على إهمالهم حراسة القصر حتى إنهم يتركون رجالاً غرباء ينسلون إليه في ظلام الليل . على أننا نعرف منذ بدء الرواية شخصية هذين الرجلين اللذين اقتحما القصر ، فهما تيودورو Teodoro الكاتب الخاص للسيدة وأمين سرها وخادمه تريستان Tristan ، أما السبب في دخولهما القصر خفية فهو أن تيودورو على علاقة غرامية بوصيفة السيدة مارثيلا Marcela ، وإن كان الاثنان يتستران على هذه العلاقة خوفاً من أن تطردهما السيدة من خدمتها . وتوظف ديانا جميع خدام القصر ووصيفاته وتبدأ في مساءلهم حتى تهتدي إلى حقيقة من اقتحم منزلها ، وأخيراً تكشف لها الخادمة أناردا Anarda عن سر تلك العلاقة الغرامية بين تيودورو ومارثيلا . وتغضب ديانا إلا أنها تكتم غضبها وتستوضح مارثيلا الحقيقة ، فتعترف لها الوصيفة بكل شيء ، وبأن تيودورو بنو الزواج منها . وهنا يضع لوبي أيدينا على جانب من جوانب نفسية المرأة لا يكاد يستطيعه إلا أديب موهوب مثل لوبي يعرف كيف يصل إلى أعماق النفس الإنسانية فنحن نرى أن ديانا النبيلة التي تعز بحسبها ونسبها والتي تؤمن بالفروق بين الطبقات لا تكاد تعرف بنياً ذلك

الحب بين وصيفتها وخادمتها حتى تدركها الغيرة ، وتولد فيها الغيرة شعور الحب ، غير أنها كانت تكتم هذا الحب وتحاول مقاومته ، إذ تراه حباً مستحيلاً لا يوصل إلى نتيجة . فديانا خاضعة لحكم تقاليد العصر التي تفرض بين الطبقات الاجتماعية أسواراً وحلوداً لا يمكن تخطيها . فهي لا تستطيع الزواج من ذلك الشاب الذي يعتبر واحداً من جملة خدمها ، ولكن اكتشافها لحقيقة الصلة بين تيودورو ووصيفتها ماريثيلا يثير في نفسها هيب الغيرة . ويحملها على التفكير في انزعاج هذا الرجل الذي أحبه من بين ذراعى خادمتها . وهنا نرى براعة لوبي في تحليل نفسية تلك المرأة النبيلة المتفطرة . فقد أثار اكتشافها للحقيقة في نفسها إعصاراً عنيفاً . فهي باعتبارها امرأة تريد أن تظفر بهذا الرجل وتنزعه من امرأة أخرى غريبة لها . وهي مع ذلك لا تستطيع الزواج منه . فلا يبقى أمامها إلا أن تفسد العلاقة بين الاثنين وتنتظر حتى يحل الوقت تلك العقدة . ومن هنا جاء العنوان الذي اختاره لوبي لمسرحيته . إذ هو تشبيه للسيدة بكلب البستاني الذي يقول عنه المثل الإسباني المعروف إنه « لا يأكل ولا يدع الناس يأكلون » Como el perro del hortelano : ni come ni deja comer

وتعزم ديانا على أن توحى إلى أمينها الخاص بحبها له بطريق غير مباشرة ، إذ أن كرامتها ومستواها الاجتماعي يفرضان عليها ألا تنزل إلى مصارحته بفرامها ، فتدعوه إلى محضرها وتسلمه رسالة ترعم أنها من صديقة لها من سيدات المجتمع الراقي تهيم حباً برجل يجهل حقيقة شعورها . وتقول في هذه الرسالة إن حبها لهذا الرجل ينبع من غيرتها من امرأة أخرى يبادلها الحب . وتطلب ديانا من كاتبها أن يبدى رأيه في هذه المسألة ، وتلدور بين الاثنين محاوراة بدیعة حول الحب وكيف ينبع من الغيرة ، مع أن المؤلف هو أن الغيرة هي التي تتولد عن الحب . وتكرر المحادثات بين ديانا وكاتبها ، ويخالج

هذا الشك في أنه هو المقصود بتلك القصة المصطنعة ، ولكنه يستكثر على نفسه أن نجبه ، لا سيما وأنها حريصة على عدم البوح له بشيء ، ثم إنه تهاافت عليها كثير من النبلاء ولكنها لا توليهم عنايتها . ونحن نرى كيف يتنافس على الظفر بقلب ديانا الجميلة اثنان من الكبراء : الكونت فيديريكو Conde Federico والماركيز ريكاردو Marqués Ricardo ، ولكن المرأة اللعوب التي يعجبها أن تكون موضعاً للتدليل ومثاراً للمنافسة لا تصدهما ولا تقربهما ، بل تدع لكل منهما بصيصاً من الأمل في الظفر بها . وهي تفعل مثل ذلك بكاتبها المسكين الذي لا يكاد يدخل في روعه غرامها به . حتى تستدعيه وتقول له إنها موافقة على زواجه من وصيفتها . وإن كانت تأمرهما بأن يتجنبيا كل لقاء يمكن أن يسيء إلى سمعة دارها .

وبكل لنا لوبي في أول الفصل الثاني ملامح شخصية تيودورو . وهو يبدو هنا رجلاً ضعيف الشخصية لا يكاد يرى من سيدته ما يوحى بحبها له حتى يعامل خطيئته الوصفة في جفاء وتكبر . فاذا ولت له ديانا ظهرها عاد إلى حبه الأول مستكيناً مستغفراً .

ونرى مثلاً لذلك حينما تستدعيه ديانا . فتقول له مصطنعة البراءة وعدم المبالاة إنها قررت أخيراً أن تزوج . غير أنها متحيرة في أمرها إذ لا تدري من تختار : الكونت فيديريكو أو الماركيز ريكاردو ، ونسأله أن يشير عليها . ولكنه يمتنع عن إبداء رأيه فتقول له إنها تفضل الزواج من الماركيز وتأمره أن يذهب لكي يبشره بأنها اختارته زوجاً لها . وحينئذ يقطع رجاء تيودورو من سيدته . ويرى ماريثيلا فيهرع إليها متودداً راغباً في الصلح . فتسخر هذه من طمعه في تخطي الحواجز الاجتماعية والزواج من سيدته . وتعلن إليه أنها قررت قطع صلتها به وأنها قد أصبحت خطيبة فايو الذي يعمل أيضاً في قصر ديانا . ويستعطف تيودورو

مخرج لم من ذلك هو اغتيال كاتب ديانا والتخلص من منافسته المزرية بقدرهما .

ويفكران حينئذ في استخدام أحد المجرمين المخترفين الذين كانت تفص بهم مدينة نابلي ، فيذهبان إلى إحدى الحانات التي يجتمع فيها أمثال هؤلاء وتسوقهم الصدقة إلى أن يختاروا لتنفيذ مهمة قتل تيودورو رجلاً كان يبدو لهم رئيس مجموعة من الأشرار تجلس في الحانة دون أن يعرفوا أن ذلك الرجل هو نفسه « تريستان » خادم تيودورو وموضع ثقته الذي عمه خير سيده منذ أصبحت ديانا تغدق عليه المال والعطايا : وينتظر أصحاب تريستان بقبول المهمة ويطلب إلى النيلين « مقدم الأتعاب » ، ويقول لهما إن خير وسيلة لقتله هو الالتحاق بخدمته حتى تسنح فرصة للإنتهاء عليه .

ثم يلتقي تريستان بسيده تيودورو فيطلعه على ما دبر الماركيز ريكاردو والكونت فيديريكو لقتله ، ويوضح تيودورو لخادمه بما يلقي من عنت ديانا وتقلبها ، إذ أنها وإن كانت قد صرحت له بحبها إياه لا تجرؤ على أن تتخذ زوجاً لما يفصل بينهما من فوارق فرضها المجتمع ، فيفكر الخادم الوصول الذكي في حيلة يهيئ بها أمر زواج سيده من ديانا . وأخيراً يبتدى تريستان إلى الحل المنشود ، فان للسيدة ديانا جاراً نبيلًا عجوزاً هو الكونت لودوفيكو Conde Ludovico كان قد أرسل ابنًا وحيداً له يدعى تيودورو إلى جزيرة مالطة منذ عشرين سنة ، ولكن مركباً حريباً من مراكب المسلمين في بزررت (تونس) أغارت على الجزيرة وأسرت تيودورو ومضت به إلى بلاد المسلمين ، ومضت السنون وانقطع أثر هذا الابن وإن كان أبوه الكونت لم يفقد الأمل في عودته . فلماذا لا يتقدم كاتب السيدة ديانا شخصية هذا الابن المفقود ويصبح بذلك وريث الكونت لودوفيكو وبهذا يصبح له من الجاه والثروة ما يكون به نداءً لديانا وجديراً بطلب يدها ؟ ويتكفل تريستان

الفناة حتى تستجيب له أخيراً ، وتعود بينهما المياه إلى مجاريها ، ولكن بعد أن يعلن أن الكونتيسة قبيحة الشكل والخلق ، وهنا تدخل ديانا إلى المسرح فتسمع إلى كل هذا الحديث ، ولكنها تتظاهر بأنها لم تسمع شيئاً ، وتأمره بأن يأتي ثقلبه رسالة ، وإذا بالرسالة موجهة إليه هو وفيها تقول له إن الرجل الفقير المتواضع إذا باحت له سيدة ثرية نبيلة بحبها فان من الحاقة أن يتحدث مع أخرى ، وتصرف غاضبة. ويندم تيودورو على تسرعه بمضالحة ماريثا فلا يكاد يراها حتى يطلب إليها أن تقطع كل صلاتها به . ثم يأتي الماركيز ريكاردو مسرعاً بعد أن أبلغ بنبأ قبول ديانا الزواج منه ، وهرع لرؤية الفناة اللعوب فتصطنع السداجة وتقول له إنها لم تقرر شيئاً بشأن الزواج وإنه ربما كان خدم القصر قد سمعوا ثناءها عليه فظنوا أنها قد اختارته زوجاً ، وتعتذر له عما حدث من سوء الفهم والتأويل . وأما تيودورو فانه ينفجر أخيراً ويقول لها إنه لا يفهم تصرفاتها إذ هي تحول بينه وبين ماريثا غير أنها لا تمنحه بصيصاً من الأمل في وصلها . وتغضب ديانا وتصارحه بأن غيرتها من خادماتها ماريثا هي التي تدفعها إلى ذلك وأنه حر يستطيع أن يتزوج ممن يشاء باستثناء تلك الوصيفة ، وتثور ثائرتها فتهاول بالصفعات على وجه كاتبها حتى تخضب قميصه بالدم . على أنها لا تلبث أن تأتي إليه مراضية ملاطفة وتأمر له بألف إسكودو (العملة الإسبانية حينئذ) حتى « يشتري قميصاً جديدة » .

ونرى في الفصل الثالث المتنافسين على قلب ديانا : الماركيز ريكاردو والكونت فيديريكو وقد شهدا ما وقع من ضرب السيدة لكاتبها ثم مصالحتها له ، وهما يعلقان على ذلك في تشكك وتوجس ، ويهجن في خاطرهما أن هناك علاقة مريبة بين ديانا وكاتبها ، وأنه لو تسربت أنباء هذه العلاقة إلى الخارج لأصبحت فضيحة تلوث أسماء الجميع ، وحينئذ يرى السيدان النيلان أن خير

بتدبير الأمر بحيث تنطلي الحيلة على النبل العجوز ،
فيتزيا بزي تاجر أرمنى ويذهب إلى الكونت بعد أن
يخترع قصة قد أحسن حبك أطرافها : فهو يقول إنه
تاجر قادم من بلاد الأرمن وإن له أباً كان من تجار
الرفيق ووقع له يوماً صبي أسره المسلمون في مالطة
فاشتراه ورباه في بيته مع أبنائه ، وأن هذا الصبي الذي
كانوا يدعونه تيودورو نشأ مع أخت للتاجر ، فلما بلغ
سن الشباب أحب الفتاة واتصل بها بغير زواج حتى
حملت منه ، وخشى هو على نفسه من أبيها فهرب من
أرمينيا وبخثوا عنه كثيراً دون أن يوفقوا إليه ، وأخيراً
بعث التاجر والد الفتاة ابنه إلى إيطاليا لكي يتحرى عنه
لا لكي يرغمه على الزواج من ابنته ، بل ليجرد الاطمئنان
إلى أنه حتى يرزق ، إذ كان يحبه حباً عظيماً . ويمضى
تريستان التاجر الأرمنى المزيف في قصته فيقول إنه
سمع أخيراً من جارية يونانية في نابلي أن هناك شاباً يدعى
تيودورو يعمل في خدمة الكونتيسة ديانا دى بلفلور ،
وأن أوصافه تتفق مع أوصاف الفتى الذى يبحث عنه ،
فذهب التاجر إلى هناك واجتمع به وعرف منه أنه هو
فعلا الفتى الهارب ورجاه هذا لا يذبح خبره إذ أنه لا يريد
أن يعرف أحد عنه أنه كان عبداً . ولكن التاجر قرر
أن يبلغ الكونت لودوفيكو نبأ ابنه المفقود الذى كان
يائساً من عودته . وتنطلي القصة الملفقة على الكهل ،
ويستطير قلبه فرحاً ويقرر الذهاب إلى دار الكونتيسة على
الفور حتى يجتمع بابنه .

ويكون تيودورو في هذه الأثناء قد علم نبأ المؤامرة
المدبرة لاغتياله . فيذهب إلى سيدته ويبلغها أنه قد عزم
على ترك نابلي والعودة إلى إسبانيا إذ أن حياته في خطر
ولا أمل في إمكان زواجه منها ، وتوافق هى على ذلك
وهى منخرطة في البكاء ، إذ أنها بدأت تحب كاتبها
حباً صادقاً . ونشهد أخيراً موقف الوداع المؤثر بين
ديانا وتيودورو ، ولكن لا نلبث أن نرى الكونت

لودوفيكو يفتح المكان وهو لا يتألك نفسه من الفرحة
وتوتر الأعصاب ، ويبلغ الكونتيسة نبأ عثوره على
ولده المفقود ، ثم يرتضى بين ذراعى تيودورو وهو
ييكى . وتفاجأ السيدة بهذا الخبر ، ولكنها تبتهج وترى
فيه حلاً لمشكلتها فها هو ذا تيودورو قد أصبح نبيلًا
يعمل لقب « كونت » الذى أورثه إياه أبوه ، وبهذا
تتمكن من الزواج به بلا غضاضة . وهكذا تقرر عقد
قربانها به في نفس تلك الليلة .

غير أن الفتى تذكره النخوة . فينفرد بها ويصارعها
بأن كل هذا ليس إلا أكلوبة اخترعها خادمه ، وتكبر
هى فيه ذلك ولكنها تهمة بالغباوة وتنصحها بأن يقبل
ما ساقه إليه القدر من خير وسعادة ، وتنتهى المسرحية
بينما نرى نبلاء المدينة مهنتين للعروسين اللذين يقرران
زواج ماثيلا خطيبة تيودورو السابقة من فاييو أحد
خدم ديانا وتريستان من دوروتيا إحدى خادمتها .
وينزل الستار وتيودورو يخاطب جمهور المتفرجين قائلا
لهم إنه يرجوهم ألا يذيعوا سره على الملأ .

وتعتبر رواية « كلب البستاني » من أكثر روايات
لوبي نجاحاً بين الجماهير ، إذ حشد فيها المؤلف كل
العناصر التى تعتبر مقومات العمل المسرحى الناجح ،
ولا سيما إذا كان يدخل في باب « الملهاة » . وقد وفق
لوبي كل التوفيق في رسم شخصية الخادم الظريف
« تريستان » الذى نراه يتمصص مرة شخصية مجرم
محترف مصطنع لدور « قاتل الفتاة » ومرة أخرى
شخصية تاجر أرمنى يتكلم لغة غريبة ملفقة مضحكة ،
وهو في كل ذلك لا يكف عن الحركة وتدبير الخيل
واختراع الأكاذيب .

والرواية بوجه عام محكمة البناء متماسكة التكوين ،
ولعل خير ما فيها هو تحليل نفسية النبيلة المدللة التى
تعبث بقلوب الرجال والتى تثير الغيرة في نفسها جذوة
الحب الكامنة لرجل أقل منها مقاماً وقدرًا ، غير أنها

أن كل ذلك لا ينال من قيمتها المسرحية وجودتها الفنية .

• • •

عرضنا في الصفحات السابقة بعض آثار لوبي دى فيجا ، وهي ليست إلا جزءاً بالغ الضآلة من إنتاج هذا العبقرى الذى كان يقول عن نفسه إنه « كان يكتب يديين في وقت واحد » ، غير أنه يمكن أن يقدم لنا مثلاً على عبقرية هذا الأديب الإسباني الذى حول كل شيء إلى مسرح ، والذى يعتبر أعظم المؤلفين في هذا الميدان خصوبة وأكثرهم إنتاجاً منذ وجد المسرح حتى اليوم .

تصمم على انتزاعه من منافستها حتى تظفر بذلك في النهاية . ومن هنا تعتبر رواية « كلب البستاني » من أول الأعمال المسرحية التي تولى جانباً كبيراً من اهتمامها إلى تحليل التوازع البشرية ولا سيما تلك التي تختلج في نفس المرأة .

صحيح أن هناك بعض ما يؤخذ على هذه المسرحية وهو ما نجده من تكلف وافتعال في بعض الأحداث ، مثل ما نراه من الاعتماد على الصدقة في التقاء الكونت والماركيز بخادم تيودورو وظنهما أنه مجرم محترف ثم تكليفهما إياه بقتل سيده ، أو في السهولة التي انطلت بها خدعة الخادم الماكر على الكونت لودوفيكو ، غير



تاريخ آداب اللغة العربية بمرجى زيدان

بمقام
الأستاذ محمد عبد الغني حسن

أولاً : سيرة حياة

إن مصادرها في الترجمة لحياة جرجى زيدان - مؤرخ العرب والإسلام والحضارة الإسلامية والأدب العربي - كثيرة متنوعة ، فقد تناولته بالدراسة والترجمة بضعة كتب ظهر بعضها في العقد الأخير من القرن التاسع عشر في حياة الرجل ، كمثل كتاب «مرآة العصر» الذي أصدره إلياس زخورة سنة ١٨٩٧ في ثلاثة أجزاء ، فكان أقدم مصادرها لسيرة هذا الرجل المتعدد جوانب الثقافة .

على أن هناك ترجمة مختصرة دقيقة له ملحقة بآخر كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، أو على وجه الدقة ملحقة بذيل الجزء الرابع من هذا الكتاب ، الذي لم يكمل الرجل ينهي من تأليفه حتى فاجأته المنية في شهر يوليو سنة ١٩١٤ ، فرأى القائمون على إصدار الكتاب من أسرة دار الهلال أن يختصموا (بخلاصة ترجمته وذكر مؤلفاته على ما يقتضيه موضوع الكتاب . . .) .

وتكاد تداني هذه الترجمة من ناحية الزمن ، تلك الترجمة الموجزة الدقيقة التي كتبها الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير « المقتطف » بقلمه في عدد سبتمبر

سنة ١٩١٤ من مجلة « المقتطف » فلم تزد على صفتين ، ولكن جاء في متنها وهامشها تصحيح مهم لما جاء في الترجمة الملحقة بكتاب تاريخ آداب اللغة العربية خاصة باشتراك جرجى زيدان في تحرير المقتطف ، فقد جاء في تلك الترجمة أن إدارة المقتطف طلبت إلى جرجى زيدان سنة ١٨٨٦ « أن يتولى إدارة أشغالها ، والمساعدة في تحريرها ، ففعل » . ولكن الدكتور يعقوب صروف في ترجمته لجرجى زيدان أنكر أن يكون صاحبنا قد حرر في « المقتطف » شيئاً ، إلا خاتمة السنة الحادية عشرة ، وهي نصف صفحة فقط ، كتبها جرجى زيدان لما كان مشتغلاً بإدارة المقتطف ! ومعنى هذا أن الثمانية عشر شهراً التي اشتغل فيها جرجى زيدان بالمقتطف كانت (للإدارة) فقط ، ولم يجر فيها قلمه (بالتحرير) إلا على نصف الصفحة التي أشار إليها الدكتور يعقوب صروف . . .

وقد اضطر صروف - على أدبه وحيائه - إلى تصحيح هذه الواقعة « إظهاراً للحقيقة » كما قال في تأييده وترجمته لزميله وصديقه جرجى زيدان . . . وعلى الرغم من هذا التصحيح المقصور في مجلة المقتطف سنة ١٩١٤ ظل كثيرون من مؤرخي سيرة جرجى زيدان ومترجمي

حياته يقعون في الوهم ، ويذكرون أن جرجى زيدان قد شارك في تحرير المقتطف . ومن هؤلاء الأرب لويس شيخو اليسوعى الذى ذكر فى كتابه « الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين » أن مجلة المقتطف انتدبت جرجى زيدان « ليكتب فيها ، فنشر عدة مقالات مستحسنة » ! ! مع أن هذا التدب كان للإدارة لا للتحرير . وقد جرى على هذا الوهم بغير تحقيق لفيى من أفاضل المحققين الذين نكن لهم كل تقدير : كالأستاذ عمر رضا كحالة فى موسوعته الكبيرة العظيمة « معجم المؤلفين » . والأستاذ طاهر الطناحى فى الفصل الجيد الذى كتبه فى كتاب « عصاميون عطاء من الشرق والغرب » : والأستاذ محمد رجب البيوى فى البحث الطيب الذى كتبه عن جرجى زيدان فى العدد ٥٢٢ من مجلة الثقافة ، الصادر فى ٢٨ من ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، والدكتور محمد يوسف نجم فى كتابه « القصة فى الأدب العربى الحديث » ، وهو ينقل عن الترجمة الملحقمة بتاريخ آداب اللغة العربية نقلاً حرفياً .

وهذه الحقيقة فى سيرة حياة جرجى زيدان قد آن لها اليوم أن تتضح بعد أن ظلت منزوية فى ركن من الإغفال والنسيان منذ قام بتصحيحها والتنبيه إليها الدكتور يعقوب صروف فى سنة ١٩١٤ .

ولو أن هذا التصحيح المهم قد جاء من رجل غير أستاذنا المغفور له الدكتور صروف ، الذى عرفنا الكثير من خلقه العظيم ، لقلنا إنه تصحيح ذو غرض ، ولكن الرجل كان صادقاً فى تصحيحه — كعهده فى أمره كله — وما علمنا أن أحداً قام بالرد على الدكتور يعقوب صروف ليناقضه فى هذه الحقيقة التى لا نعلم له مصلحة خاصة فى تصحيحها .

ولست هذه هى الواقعة الوحيدة فى حياة جرجى زيدان التى تحتاج إلى تصحيح ، فهناك تاريخ وفاته الذى اضطرب فيه بعض من ترجموا له . فقد ذكر « معجم

المؤلفين » أنه توفى بالقاهرة فى ٢١ أيلول « سبتمبر » سنة ١٩١٤ . وذكر شارحو ديوان الشاعر محمد حافظ إبراهيم المطبوع سنة ١٩٣٧ أنه توفى فى شهر أغسطس سنة ١٩١٤ ، بل ذكرت مجلة المقتطف فى عدد أغسطس سنة ١٩١٤ أن صاحب الهلال توفاه الله بغنة فى يوم الثلاثاء مساء فى ٢١ يوليو سنة ١٩١٤ . . ولا نجد مفرأ من أن نأخذ بقول أهل الفقيى أنفسهم « فهم أدرى بتاريخ وفاته فقيدهم ، كما هم أعلم بكثير من أمره . فقد جاء فى الترجمة التى ظهرت فى ذيل الجزء الرابع من « تاريخ آداب اللغة العربية » أن مؤلف هذا الكتاب توفى فى ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ .

على أن هذا الخلاف اليسير الحين فى يوم وبعض يوم ، وشهر بعض شهر ، يذكرنا بما وقع فيه مترجمو سيرة الفكر الثائر : أديب اسحاق ، فقد كادوا يجمعون على أن وفاته كانت سنة ١٨٨٥ ، إلا واحداً فقط هو المستشرق الدكتور كرنيلوس فاندريك ، الذى ذكر تاريخ الوفاة صحيحاً فى سنة ١٨٨٤ ، حيث يؤكد هذا قرينة أخرى قوية ، وهى أن نعى أديب اسحاق فى المقتطف كان فى عدد يوليو سنة ١٨٨٤ فليس من المعقول أن تكون الوفاة قد وقعت فى سنة ١٨٨٥ (١) ! !

هاتان حقيقتان لا بد من تصحيحهما والتنبيه إليهما فى معرض الحديث عن جرجى زيدان ، بمناسبة الحديث عن كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وما عدا ذلك من الحقائق والوقائع مما يتصل بسيرة هذا المؤرخ اللغوى الأديب الكبير فلا اعتراض لنا عليه .

وإذا كانت بضعة من الكتب قد أمدتنا بمعلومات هامة عن سيرة جرجى زيدان ، كما أن عشرات من المقالات فى المجلات قد زودتنا بحصيلة من المعارف

(١) كان لنا حظ السبق إلى تصحيح تاريخ وفاته أديب اسحاق فى بحث لنا نشر بمجلة « المعرفة » التى تصدر بدمشق عدد شهر فبراير سنة ١٩٦٥ .

العام ، خافت والدتي أن يطول مقامي ويضيع مستقبل . وكانت تكره المطاعم . وكانت منذ طلبتي والدي لمساعدته تلح عليه أن لا يطول مقامي ، وهو يعدها . . فلما مضت السنة الأولى ألحت عليه أن يخرجني ويبدلي إلى المدرسة ، فقال لها : إنه قد أتم دروسه ، ولا فائدة من كثرة الدرس ، إلا إذا كنت تتوین أن تجعله كاتباً أو معلماً ، فضلاً عن أن كثرة التعليم تجعله متفرباً متأقفاً ، لا يأكل إلا بالشوكة والسكين ، وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الأفرنجي ! ! ! .

على أن هذا المطعم كان نعمة كبرى على الغلام جرجي زيدان فيما بعد . . . فقد كان — بمن يحويهم من نخبة الطاعين — مثاراً لطموح الفتى واتساع اهتماماته . فقيه التقى باليازجي : وعبدالله البستاني اللغوي وغيرهما ، واستمع إلى أحاديثهم ومناقشاتهم ، وفيه التقى بطلبة الطب في الكلية الأميركية التي أنشأتها الإرسالية الأمريكية في بيروت سنة ١٨٦٦ . ولا شك أن هؤلاء الطلبة قد أثاروا حماسه لطلب العلم . ولا شك أنهم هم الذين دلوه على طريق الدخول في مدرسة الطب هناك . فدرس العلوم الإعدادية التي تؤهله للالتحاق بقسم الطب في الكلية سنة ١٨٨١ . ولم تزد مدة دراسته الإعدادية هذه على شهرين ونصف شهر . وتصور لنا هذه المدة القصيرة روح العزيمة والجد التي تجلت في الفتى منذ أول أمره . وإلى هذه الروح يشير خليل مطران في رثائه له بقوله :

ألا في سبيل الله حكمتك التي
جلاها « هلال » مالى الكون مقمر
وجد به رضى الصعاب : فما كبا
إلى أن دهاء جسدك المتعثر

ولقد كان لهذا المطعم أثر آخر في اهتمامات جرجي زيدان التي تجلت بعد هذا في اطلاعاته الواسعة على حضرة من اللغات الأجنبية . فقد التقى فيه بأحد الحرفاء

الضرورية لترجمة حياة المؤرخ زيدان ، فإن هناك « مذكرات خاصة » للرجل قد رجع إليها ونقل عنها الأستاذ طاهر الطناحي ، وهو يترجم لصاحبنا في كتاب « عصاميون عطاء من الشرق والغرب » الذي أصدرته دار الهلال سنة ١٩٥٤ . ولا شك أن هذه المذكرات التي كتبها صاحبها في جو من الصراحة التامة وعدم التخرج من ذكر الفقر وصعوبات الحياة — تلقى أضواء ساطعة قوية على حياة هذا الرجل الذي تعد سيرته درساً عظيماً لكل من يريد النجاح في الحياة .

وتدلنا مذكرات جرجي زيدان الخاصة ، على طراز من الرجال ندر أن تقع العين من مثله على كثير . فكثير من الناس — وخاصة من بلغوا شيئاً في الحياة — يتنكرون لماضيهم ، ويستحون أن يذكر هذا الماضي البئيس أمامهم أو يذكروه هم على أطراف ألسنتهم . . ويحاولون أن يطمسوه طمساً ، ويودون — بجذع الأنف — لو يحى من تاريخهم . . . ولكن العصامي جرجي زيدان كان غير هذا . . لقد كان أبوه صاحب مطعم متواضع في بيروت ، وقد جمع إلى الفقر الأمية في العلم ، فلم يظفر بتعليم . . . ولكن ذلك لا يمنع صاحبنا أن يقول في مذكراته : « نشأت في صباى وأنا أرى والدى يخرج إلى دكانه في التفجر ، ولا يعود إلا في نحو منتصف الليل أو قبيله . وأرى والدتي لا تهدأ لحظة من الصباح إلى المساء . . . »

واضططر الغلام جرجي زيدان — وهو في الحادية عشرة — أن يجيب دعوة أبيه إياه لمساعدته في المطعم ، ولو كاتباً للحسابات على الأقل ! ووجد الأب من ابنه عوناً نافعاً فحبسه في المطعم وحجزه عن إتمام تعليمه الذي كانت نفسه تتحرق إليه . . . وخشيت الأم وخشى معها ابنها على مستقبله . ويحدثنا جرجي زيدان في مذكراته الخاصة بعبارته السمحة الطيبة قائلاً : « ولما مضى على اشتغالي في ذلك المطعم عام وبعض

« الزبائن » المترددين عليه للطعام ، - وهو المعلم مسعود الطويل - الذى كان يشغل بتعليم الشبان اللغة الإنجليزية فى مدرسة خاصة فتحها لهذا الغرض ، ولم يتوان جرجى زيدان عن الانضمام إلى هذه المدرسة المسائية ، وما هى إلا خمسة أشهر حتى كان صاحبنا يقرأ « رحلة كوك » بالإنجليزية فى سهولة ويسر .

وكان كتاب رحلة كوك أول كتاب يقرؤه الفتى بالإنجليزية ، إلا أن كتباً عربية كثيرة قد سبقت إلى يديه ، وحصل عليها بماله الذى كان يقطعته من مصروفه . والغرام بشراء الكتب واقتنائها - مهما كانت أثمانها - ظاهرة نلفت النظر فى حياة زيدان . ويروى لنا هو نفسه فى مذكراته الخاصة كيف اقتنى لأول مرة فى حياته كتاب « مجمع البحرين » للشيخ ناصيف البازجى ، فيقول : (كنت أسمع بكتاب مجمع البحرين ، وأحب اقتنائه . لكنى كنت أستغليه ، لأن ثمنه على ما أظن كان أربعة فرنكات أو خمسة . ففى ذات يوم كنت جالساً بالمطعم ، فر غلام ويده هذا الكتاب مستعملاً ، وهو عرضه للبيع ، فاشتريته منه بتسعة قروش بروتية ، أى أقل من نصف ثمنه ، وفرحت به كثيراً . ولما رجع والذى سألتى عنه ، فأخبرته أنى اشتريته بتسعة قروش ، فزعل ، وقال : « أندفع فى هذا الكتاب تسعة قروش ، وتبدل الدراهم بورك ؟ » . فزعلت ، ولم أجبه . ولما انصرفنا للبيت فى المساء ، وكانت الوالدة قد أعدت لنا العشاء ، أظهرت أنى لا أريد الطعام ، وذهبت للنوم ، وأنا أتوقع أن يدعوانى ، ولا يتركانى أنام جائعاً . وسمعت والذى تعنف والذى لإغضابى حتى نمت بلا أكل ، ولكنه أصر على رأيه . . . واتفق أن جاء أمين فياض - أحد أصدقاء والذى - للسهرة عنده فى تلك الليلة ، وكان يتوعد إلى ، فسأل عنى ، فقيل له إنى نمت . واغتنمت والذى هذه الفرصة ، وشكت إليه عناد والذى . فسأله عن سبب غضبه ، فقال : « إنه يصرف

الدراهم فى شراء الورق بلا فائدة ! » فأجابه : « اشكر الله الله يا أبا جرجى أن ابنك يتفق الدراهم فى شراء الكتب ، وليس فى السكر ونحوه . إنها نعمة يجب أن تشكر الله عليها » وسمعت كلمات هذا الصديق وأنا أتظاهر بالنوم وللحال اشتد مساعد والذى ، وقامت فأيقظتنى ، وأجلستنى إلى المائدة ، وطببت خاطرى ، وكذلك والذى . . . ولا تزال هذه الحادثة نصب عيني . . .)

لقد كان الحافظ إلى التعلم عند جرجى زيدان شخصياً وطبيعياً ، ولكن ظروفًا مواتية أعانت على تقوية هذا الحافظ ودفعه إلى الأمام ، على الرغم من عدم مواتة الظروف المادية التى كانت تعيش فيها أسرته . ولم يبال الفتى بهذه الظروف المعاكسة وحاول دائماً أن يتغلب عليها . وعلى أبواب السنة العشرين من عمره ، وفى سنة ١٨٨٠ ، كانت قد ظهرت الطبعة الثانية لكتاب « سر النجاح » لصمويل سميلى الذى ترجمه الدكتور يعقوب صروف وأصدرته مطبعة المقتطف ، وفى هذا الكتاب صور نماذج بشرية نجحت فى الحياة ، وتغلبت على ما فيها من عقبات ، استناداً إلى العزيمة والدأب ، والجد والكفاح ، وعدم تسرب الملل واليأس إلى النفس . واقتنى الفتى نسخة من هذا الكتاب ، ورأى بعد قراءته أن المطالب العالية فى الحياة لا يقف دونها ما قد يتوهمه الناس حوائل وموانع . وكانت قراءته لهذا الكتاب مما دفعه دفعاً إلى الالتحاق بقسم الطب بالكلية الأمريكية :

ودخل جرجى زيدان مدرسة الطب ببيروت سنة ١٨٨١ ، وكان من أحسن طلابها استماعاً للأستاذة ، وإقبالاً على العلم ، وعكوفاً على الدرس ، على الرغم من انشغاله فى الوقت نفسه بأمور معاشه . وتشير المصادر إلى أنه اضطر إلى ترك كلية الطب فى العام الثانى بسبب « الاختلال المشهور الذى حصل فى تلك المدرسة »^(١)

(١) الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين -

لأب لويس شيخو ص ٧١ .

ويشير مصدر آخر حديث إلى أنه في سنة ١٨٨١ وقعت في الكلية حادثة « الحرية الفكرية » ، ويشير الأب لويس شيخو - نقلاً عن مجلة الهلال - إلى ما حدث في المدرسة من المنازعات التي كان لزبدان فيها نصيب وافر ، ثم ما حصل بين المعلمين من الانقسام بسبب التعليم بالإنجليزية بدلاً من العربية .

وقد استطعت بعد طول تنقيب وتنقيب أن أجِد في السنة السابعة من مجلة المقتطف تفصيلاً - بقلم الدكتور يعقوب صروف نفسه - لحادث المدرسة الكلية الطبية ببيروت ، وما لابس من استقالة ثلاثة من المشتغلين بالتدريس فيها ، وهم الدكتور كرنيلوس فانديك المستشرق المشهور ، وأستاذ الباثولوجيا بها ، والدكتور أدون لويس أستاذ الطبيعيات والكيمياء ، والدكتور وليم فانديك نجل العلامة كرنيلوس ومدرس المسادة الطبية والحيوان بالكلية .

وانته جرجي زيدان بعد ذلك إلى دراسة الصيدلة بدلاً من الطب مع لفيف من رفاقه المبعدين من الكلية ، وامتحنته لجنة خاصة محايدة من علماء سورية وأطبائها ، منهم الكولونيل مراد بك حكيمباشي العسكر ، والدكتور فانديك ، والدكتور لويس ، فقال شهادة الصيدلة بالنجاح في العلوم الآتية : اللغة اللاتينية ، والطبيعيات ، والحيوان ، والنبات ، والجيوولوجيا ، والكيمياء العضوية والمعدنية ، والتحليل الكيمي ، والمواد الطبيعية ، والأقرباذين العلمي والعمل .

وجاء إلى مصر بعد ذلك ، ورغب أن يدخل مدرسة الطب المصرية ، ولكن طول الدراسة فيها صرفه عنها ، فاشتغل بالعلم ، والصحافة محرراً في جريدة « الزمان » . ورافق الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ مترجماً . وقد أكسبته هذه الرحلة كثيراً من التجارب الجديدة عليه .

وفي سنة ١٨٨٥ عاد إلى بيروت من مصر ، وكانت قد سبقته إليها شهرته العلمية واللغوية التي كسبها بقراءاته الواسعة ، فانتخب عضواً بالمجمع العلمي الشرقي . وهناك تعلم العبرانية والسريانية وأنقطنهما وأضاف إليهما بعض اللغات السامية والشرقية الأخرى . وفي سنة ١٨٨٦ زار إنجلترا وجمال جولة مفيدة في متاحفها ومكتباتها الشهيرة . وفي شتاء العام نفسه عاد إلى مصر حيث طلب إليه أصحاب مجلة المقتطف أن يتولى « إدارته » لا « تحريره » كما سلف القول . فنهض بالمعبء على خير وجهه . ولكنه أكر أن يستقل بالعمل وحده ، فاستقال من إدارة المقتطف سنة ١٨٨٨ حيث تفرغ للكتابة والتأليف ، وفي هذه الفترة أتم تأليف كتابه « تاريخ مصر الحديث » .

ولم يكن « تاريخ مصر الحديث » أول الكتب التي ألفها جرجي زيدان . فقد سبقه بضعة من الكتب ، ولعل أول كتاب ألفه هو « الفلسفة اللغوية » الذي ظهر سنة ١٨٨٥ والذي قدمه إلى الهيئات والمجامع العلمية الدولية . فظفر بعضوية « المجمع الآسيوي الملكي » في إيطاليا . وتستطيع أن تحكم على العبقرية المبكرة لهذا العالم البعثة إذا عرفت أنه أتم تأليف « الفلسفة اللغوية » ولم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين . . .

أما أولى روايات جرجي زيدان التاريخية ، فهي رواية « الملوك الشارد » التي أتمها حوالي سنة ١٨٩٠ ، والتي تصور عصر محمد علي أدق تصوير .

وإذا كان كتاب « الفلسفة اللغوية » هو أول كتاب علمي لغوي ألفه جرجي زيدان ، فإن كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » هو آخر كتاب علمي أدبي صنفه ، فما كاد ينتهي من الجزء الرابع في صيف سنة ١٩١٤ حتى أدركته منيته في شهر يوليو من العام نفسه ، على أن أول جزء من هذا الكتاب - الذي هو موضوع بحثنا اليوم - قد صدر في صيف سنة ١٩١١ ، فكانه قضى

في تأليف هذا الكتاب ثلاث سنوات ، وإن كان قد نشر طائفة من فصوله في مجلة « الهلال » سنة ١٨٩٤ أى بعد صدورها بعامين اثنين .

ولقد دخل جرجى زيدان ميدان الصحافة الأدبية بأنشائه مجلة الهلال الشهرية سنة ١٨٩٢^١ . وفي أول سبتمبر من ذلك العام صدر أول أعداد الهلال يحمل فيما يحمله من مقالات وبحوث ودراسات ، مقدمة لمنشئة ، يكشف فيها عن خطته وأهدافه من إصدارها قائلاً : « لا بد للمرء فيما يشرع فيه من فائحة يستل بها ، وخطة يسير عليها ، وغاية يرى إليها . أما فاتحتنا فحمد الله على ما أسبغ من نعمه ، وأفاض من كرمه . والتوصل إليه أن يلهمنا الصواب ، وفصل الخطاب ، وأما خطتنا فالإخلاص في غايتنا ، والصدق في لهجتنا ، والاجتهاد في وفاء حق خدمتنا . ولا غنى لنا في ذلك عن معاضدة أصحاب الأقلام من كتبة هذا العصر في كل صقع ومصر ، أما الغاية التي نرجو الوصول إليها ، فأقبال السواد على مطالعة ما نكتبه ، ورضائهم بما نكتبه ، وإغضائهم عما نتركبه . فأذا تبيح لنا ذلك كنا قد استوفينا أجورنا ، فننشط لما هو أقرب إلى الواجب علينا . . »

وعلى الرغم من دخول « الهلال » ميدان الصحافة الأدبية منافسة « للمقتطف » التي أنشئت قبلها ببضعة عشر عاماً^٢ ، فقد استقبلت الرصيفة القديمة زميلتها الجديدة استقبالا كريماً في باب « الهدايا والتعاريف » من عدد سبتمبر سنة ١٨٩٢ ص ٨٤٤ ، معرفة بها وبأبوابها ، مثنية على « منشئها الكاتب الفاضل جرجى أفندي زيدان » ، موجزة الحديث عن انسجام عبارتها وجمعها لأشتات الفوائد ، متمنية لها أتم النجاح .

(١) ذكر الأب لويس شيخو أن الهلال صدر في تشرين الأول (أكتوبر ١٨٩١) ، وهو وهم .

(٢) صدرت للمقتطف أولاً في بيروت سنة ١٨٧٦ عن الدكتورين يعقوب صروف وفارس نمر ، ثم انتقلت إلى مصر بعد ذلك بخمس سنوات حيث ظلت توالد إصدارها إلى سنة ١٩٥٢ .

وقد ظل اسم « الهلال » وجرجى زيدان متلازمين حتى بعد وفاة صاحب الهلال سنة ١٩١٤ . وما أغفل شاعر أو كاتب أو خطيب هذا التلازم في حفل التأبين الذي أقيم لجرجى زيدان في نادي الاتحاد السوري في ٢٨ مايو سنة ١٩١٥ ، أى بعد عشرة أشهر من وفاته . فنجد الشاعر أحمد شوقي يقول :

قد أكل الله ذياك « الهلال » لنا

فلا رأى الدهر نقصاً بعد إكمال

ولا يزل في نفوس القارئ له

كرامة الصحف الأولى على التالى

فيه الروائع من علم ومن أدب

ومن وقائع أيام وأحوال

وفيه همه نفس زانها خلق

هـا لباغى المعالى خير منوال

ونجد الشاعر حافظ إبراهيم يقول عن زيدان

صاحب « الهلال » ، واليا جرجى صاحب « الضياء » :

وكم فزت من رب « الهلال » بحكمة

وكم زنت من رب « الضياء » بيانى

ثانياً : آثاره ومؤلفاته

لقد كان جرجى زيدان متعدد النواحي الثقافية ، فلم يقف بالمعرفة عند حد . وقد هيأته ثقافته الطبية والصيدلية والطبيعية الأولى لكي يكون مؤرخاً وأديباً ولغوياً علمي المنهج . فهو مؤرخ أدب لم تنجح به عاطفة ولم يمل به خيال في الأحكام . وإنما هو صاحب عقلية علمية منهجية تجريبية . وقد ظهرت هذه العقلية في أكثر ما كتبه وألفه من كتب . فحين أخرج لنا كتابه « تاريخ مصر الحديث » ، مبتدئاً من تاريخ القراعنة حتى العصر الحديث ، لم يكتف بالانكباب على الكتب يقرأها ويستخرج منها مادة كتابه التي نسقها تنسيقاً بديعاً ، ولكننا رأيناها يتجه إلى « المعينة » و « المشاهدة »

و « التجربة » : كما كان يفعل الجاحظ . وكما أوصى مؤرخنا « ابن خلدون » أن يفعل المؤرخون حسين يورخون . فزرى جرجى زيدان يحصل على ترخيص من وزارة الأوقاف بتفقد الآثار العربية . ثم يجشم نفسه عناء الرحلة والنقلة إلى الآثار التي تحدث عنها في كتابه : حتى يكون كلامه كلام الخبير المحرب ، ثم هو لا يبالي أن يرحل في سبيل « المعينة التاريخية » إلى ما وراء « حلفا » آخر الحدود المصرية . ويقول في مقدمته لكتاب « تاريخ مصر الحديث » : « فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها . ولا سيما ما كان منها قديماً . كجامع عمرو . وجامع ابن طولون . والجامع الأزهر . وجامع السلطان حسن . وجامع السلطان برقوق . وجامع قايت باي . وجامع الغوري وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها . وتسلفت ما صعب مسلكه منها . ولا سيما أسوار القاهرة القديمة وأبوابها . كباب النصر ، وباب الفتوح . وباب الشرية وغيرها . ومن هذه الأماكن ما قد تداعت أركانها وصعب الصعود إليه إلا بالمخاطرة . فكثيراً ما كنت أخاطر بحياتي لهذه الغاية . ومن الآثار التي تفقدتها . ما عدا الجوامع والمشاهد والتكيات والشوارع . قصر الشمع أو دير النصراري في مصر القديمة . ودار التحف العربية في جامع الحاكم بشارع النحاسين . وغير هذه من الأماكن في القاهرة وضواحيها كالقناطر الخيرية وغيرها .

أما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها أيضاً . ولا سيما ما هو منها في مصر العليا . مبتدئاً من أهرام الجيزة بجوار القاهرة . إلى ما وراء وادي حلفا آخر حدود مصر . فزرت خرائب سقارة . وأسنا . وطيبة . والكرنك . وبيبان الملوك . وجبل السلسلة . وأنسى الوجود ، وأبأ سنبل وغيرها . ومثل ذلك آثار مصر السفلى مبتدئاً بالمطرية ، فأتريب وغيرها . وفي مصر العليا فضلاً عن الآثار المصرية القديمة آثار استحكامات

وبنايات بناها المماليك أو غيرهم في حال محاربتهم حكومة البلاد أو دفاعهم عنها . كل هذه الأماكن تفقدتها جيداً إتماماً لمعدات التأليف . . . » .

ومن هنا يتضح لك منهج جرجى زيدان في تأليفه . فهو ليس ججاج مادة . ولا حاشد معارف . بقدر ما هو محقق لها ومعين لها بالنظر . ما استطاع إلى ذاك سبيلاً . وتمتاز كتابات جرجى زيدان — وخاصة العامة — بحسن عرضها . وتنسيقها . وتنظيم الأفكار فيها . ولعله تأثر في هذا بكتابات المستشرقين ودراساتهم . فهو ينحو نحوهم من طول ما عاناه من مطالعة كتبهم ونحوهم . وقد وفق الله جرجى زيدان إلى أن يضع معلوماته الغزيرة ودراساته الجادة في أسلوب علمي واضح مشرق العبارة . في غير تعمل ولا تصنع ولا تعقيد ولا غموض . فهو يؤدي إليك المعاني المرادة في بلاغ حسن بعيد عن الزخرفة والوشى . وينزل الألفاظ منازلها على أمدار موضعها من الكلام . وفي ترسل سهل يسير لا معازلة فيه ولا تكلف . وقد أحسن المغفور له أنطون الجميل نعت أسلوب جرجى زيدان بقوله : « من الكتاب من هم كالسبل الجارف المروع . يتدفق مرغياً مزبداً . فيشب وثبات عظيمة . وينحدر شلالات فخمة . يقف عندها المرء متبهاً . ومنهم من يشبه ذلك الجدول المترقق على الحصباء . العاكس في قاعه الهدى زرقاء الماء . بناغيه على ضفتيه الزهر الندى . وبطرب الأسماك بغريبه الشجي . وليس زيدان ذلك السبل الجارف . ولا هذا الجدول المترقق . بل هو يشبه النهر الهادي . كنه النيل مثلاً في واديه . يسير بكل سكون ووقار . فيحمل في طياته الحياة والثروة . فيحول الجلب خصباً . والتراب تيراً . . . » ومن هنا وجدت مؤلفات جرجى زيدان وكتاباته . وحتى رواياته . سبيلها إلى نفوس القراء في كل أرض عربية أو تعرف العربية .

الكثيرة الموقفة التي لقي فيها المستشرقون وغير العرب أشياء جديدة عليهم . ويكفي أن نذكر هنا رأى العالم المنصف الدكتور يعقوب صروف في مؤلفات جرجى زيدان على جملتها : « . . . واستخلص من ذلك كتباً ممتعة في آدابها ، تشهد له بسعة الاطلاع ، وأصالة الرأى ، والبراعة في التوبيع والتنسيق ، فكان لهذه الكتب شأن كبير شرقاً وغرباً . وترجم بعضها إلى كثير من اللغات الشرقية والغربية . وبحث في تواريخ دول الإسلام . وألف فيها كتاباً جليلاً ، وبني على نوادرها سلسلة من الروايات التاريخية الفكاهية : جمع فيها زبدة تواريخ تلك الدول على أسلوب لا يمله القارئ . . . » (١)

ثالثاً : كتاب تاريخ آداب اللغة العربية

تمتاز كتب جرجى زيدان في التاريخ والأدب واللغة والسير والتراجم بأصالتها . وبأنها أثرت المكتبة العربية ، وبأنها فتحت في البحث العلمى ميادين جديدة لم يكن للناس في عهده بها عهد . . . ويكفى لبيان حيوية هذه الكتب أنها شغلت العلماء والباحثين والناقدين بنقدها ومناقشتها . والكتاب الجيد هو الذى يثير من القضايا ما لا يدع للناس سبيلاً إلى السكوت عنه . وقد كان جرجى زيدان من العلماء الذين يرحبون بالنقد ولا تضيق صدورهم به . وكثيراً ما رأينا يستحث العلماء على نقد مؤلفاته . ولا يكتفى منهم بتقريبها ، كما كانوا يفعلون في عصره - ولا يزالون يفعلون - إبقاءً على الود وإيثارة للعافية . . . ومما يؤكد هذه الحقيقة أنه لما أصدر روايته « المملوك الشارد » في سنة ١٨٩٢ أهدى نسخة منها إلى صديقه الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير المقتطف رجاء الكتابة عنها . وندع الدكتور صروف يكمل بقية الحديث قائلاً : « تلقينا بالأمس نسخة من رواية المملوك الشارد التي وضعها جناب صديقنا الأديب جرجى أفندى

ونستطيع أن نقسم مؤلفات جرجى زيدان إلى مؤلفات تاريخية : ومؤلفات في اللغة : ومؤلفات في تاريخ الأدب : ومؤلفات في الاجتماع : وروايات . أما مؤلفاته التاريخية فهي :

- ١ - تاريخ مصر الحديث .
- ٢ - تاريخ تمدن الإسلام .
- ٣ - تاريخ العرب قبل الإسلام .
- ٤ - تاريخ الماسونية العام .
- ٥ - تراجم مشاهير الشرق .
- ٦ - التاريخ العام .
- ٧ - تاريخ إنكلترا .
- ٨ - تاريخ اليونان والرومان .
- ٩ - أنساب العرب القدماء .

أما مؤلفاته في اللغة فهي :

- ١ - الفلسفة اللغوية .
 - ٢ - تاريخ اللغة العربية .
- أما مؤلفاته في الاجتماع فهي :
- ١ - علم الفراسة الحديث .
 - ٢ - طبقات الأمم .
 - ٣ - عجائب الخلق .

وليس له في تاريخ الأدب إلا كتابه الخالد :

« تاريخ آداب اللغة العربية » في أجزائه الأربعة .

أما رواياته فيبلغ عددها اثنين وعشرين رواية تدور مع تاريخ العرب من الجاهلية : ومع تاريخ الإسلام منذ الفتوح إلى العصر الحديث .

وعلى الرغم من أن جرجى زيدان قد أفاد في بحوثه ودراساته من كتب المستشرقين والأجانب ، فإن كثيراً من كتبه ورواياته قد ترجم إلى لغات أجنبية وشرقية . ولا يقولن قائل إن بضاعة المستشرقين قد ردت إليهم بهذه الترجمات ! فإن كتب جرجى زيدان مملوءة بمعارف ومعلومات من استباطات الرجل واجتهاداته

(١) مجلة المقتطف - عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ - ص ٢٨٤ .

زيدان . فاعتذرنا عن انتقادها ، وأردنا أن نقرظها بذكر موضوعها وإظهار محاسنها ، والإغضاء عما نلته عيباً فيها ، فأبى إلا أن ننتقدها انتقاداً . فأجبنا الطلب وقرأنا الرواية على ما نحن فيه من كثرة الأشغال . وضيق الوقت ، وعلقنا عليها السطور التالية . . . »^(١)

ولما ظهر كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » سنة ١٩١١ صبر النقاد عليه حتى ظهر جزؤه الثاني بعد الأول . فاستقبلوه بالنقد والتعليق والمناقشة — مما سنعرض له بعد قليل — ولكن مؤرخنا العظيم لم يجزع للنقد ، ولم يهتز له . بل انتضى قلمه الهادئ الرزين برد الحجة بالحجة ، وبقرع البرهان بالبرهان . في أدب جم ، وعلم غزير ، وصبر جميل . حتى لم تبد من بين شفثيه لفظة نابية . . . أو كلمة جارحة .

والحق أن كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان يعد رائداً في التأليف في تاريخ الأدب العربي على ما لم يسبق إليه ، ومن هنا كان الاهتمام بهذا الكتاب ، لمكانه من الريادة في هذا الميدان .

والحق — أيضاً — أن جهداً كريماً في هذا الميدان قد سبق به الشيخ حسين المرصفي في كتابه « الوسيلة الأدبية » الذي تحدثنا عنه في العدد السادس من المجلد الرابع من « تراث الإنسانية » . فقد خطا المرصفي خطوة — على صغرها — في ميدان التاريخ الأدبي على حسب العصور ، لا على حسب الموضوعات ودراسة النصوص كما كان يفعل القدماء . وهذه حقيقة لا ينبغي أن يفوتنا التنويه بها في مقام التحقيق :

وجاء بعد الشيخ حسين المرصفي تلميذه في دار العلوم المرحوم حسن توفيق العدل الذي تخرج فيها سنة ١٨٨٧ ، أي قبل وفاة أستاذه المرصفي سنة ١٨٩٠ بثلاث سنوات . فتنبه إلى ما في تاريخ الأدب حسب

(١) مجلة المقتطف — السنة السادسة عشرة — سنة ١٨٩٢ —

ص ٣٤٧ .

العصور من مزية . وأكد هذا المعنى في نفسه ما أتبع له من بعثة في ألمانيا واتصال بالمستشرقين هناك . وخاصة « بروكلمان » الذي كان قد وضع كتابه في تاريخ الأدب العربي على طريقة العصور . وإن كان لم يظهر مطبوعاً إلا في سنة ١٨٩٨ . وأعجب المرحوم حسن توفيق العدل بهذه الطريقة . فلما عاد من ألمانيا ليشتغل بالتدريس في دار العلوم قدم هذه الطريقة إلى طلبته فيها على هيئة مذكرات عنوانها « تاريخ آداب اللغة العربية » . ويذكر المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد أنها ضيقت بعد وفاته سنة ١٩٠٦ بمطبعة مدرسة الفنون والصنائع الخديوية^(١)

وجاء المرحوم محمد بك دياب — وهو من رجال دار العلوم أيضاً — فأصدر في التاريخ الأدبي على وفق العصور كتابه الموسوم : « تاريخ آداب اللغة العربية » الذي ظهر في جزئين سنة ١٨٩٩ — ١٩٠٠ م . وانتهى القرن التاسع عشر بهذه الكتب الثلاثة في تاريخ الأدب العربي على حسب العصور . ألفها ثلاثة من أساتذة دار العلوم أو أبنائها .

وجاء القرن العشرون فإذا بالأستاذ محمد حسن ناثل المرصفي^(٢) يصدر في سنة ١٩٠٨ كتابه : « أدب اللغة العربية » مرتباً ترتيباً زمنياً كذلك . وفي سنة ١٩٠٩ يظهر كتاب « أدبيات اللغة العربية » لجمعية من أبناء دار العلوم هم محمد عاطف . ومحمد نصار . وعبد الجواد عبد المتعال . ولا يطول بنا الزمن بعد هذا أكثر من عامين اثنين حتى نرى مؤرخنا جرجى زيدان يصدر كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » على نحو واسع مبسط مفصل لم يألّفه الناس فيما صدر قبله من كتب في

(١) مجلة الكتب — عدد يوليو سنة ١٩٠٦ — ص ١٢٨٠ .

(٢) كان الشيخ محمد حسن ناثل مرصفي من نون « أدباء » في وقته . وهو أزهرى ، ولا يتعمق في در « هو » كما ذكرنا في حديثنا غير الذين ازدهروا في « الأعلام » ونقلنا عنهم عمر رضا كعدنة في « معجم المؤلفين » . ومن آثاره في الصحافة الأدبية مجلة « الجديد » التي كانت تحفة رائعة . توفي سنة ١٩٣٥ .

تاريخ الأدب العربي . ويظهر الجزء الأول من هذا الكتاب في سنة ١٩١١ بهذا الاسم الجديد لهذا العلم الذي هو من مبتكرات جرجي زيدان . وقد سبق جرجي زيدان المرحومين حسن توفيق العدل ومحمد دياب ومحمد حسن نائل المرصفي ، ومحمد عاطف وزملاءه إلى تسمية هذا العلم بعلم « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فإنه في سنة ١٨٩٤ وفي السنة الثانية من مجلة « الهلال » كان قد نشر فصولاً تحت عنوان : تاريخ آداب اللغة العربية ، فكان بذلك أول واضع لاسم هذا العلم ، وعنه أخذ الأساتذة السابق ذكرهم عناوين كتبهم التي سبقوا بها في الصدور والظهور منذ سنة ١٨٩٩ ، وإن كان كتاب جرجي زيدان لم يظهر - على شكل كتاب - إلا في سنة ١٩١١ .

وقد يكون جرجي زيدان على حق حين يقول عن نفسه إنه أول من كتب في « تاريخ الأدب العربي » على هذا النحو ، وإنه أول من سمي هذا العلم باسم « تاريخ آداب اللغة العربية » : فإن الفصول التي بدأ بنشرها في مجلة الهلال منذ سنة ١٨٩٤ تحت هذا العنوان الجديد ، هي أقوى مؤيد لدعواه ، على أن جهود هؤلاء الرواد الذين ذكرناهم في هذا السبيل لا يجوز إغفالها أو التقليل من قدرها .

وقد استقبل الدكتور يعقوب صروف الجزء الأول من « تاريخ آداب اللغة العربية » بكلمة في مقتطف أغسطس سنة ١٩١١ تكاد تكون تقريباً للكتاب وعرضاً موجزاً له . قدمها بهذه الأسطر : « لصديقنا جرجي أفندي زيدان - صاحب الهلال - فضل لا ينكر على أبناء العربية ، بما ألفه فيها ، وآخر ما أنعمنا به الجزء الأول من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وهو يبحث في تاريخ آداب هذه اللغة في عصر الجاهلية وعصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي » .

واكتفى الدكتور صروف في كلمته عن الجزء الأول بالتعريض والعرض : فلما ظهر نقد الجزءين الأولين

والثاني لحفنة من أفاضل العلماء ، لم يجد « صروف » بداً - حين حديثه عن الجزء الثالث في عدد سبتمبر من المقتطف سنة ١٩١٣ - من أن يدخل ميدان النقد بكلمة وجيزة يقول فيها : « ولا شبهة في أن كثيراً من مقالاته وأحكامه يفتقر إلى التحقيق والتحصيل ، ولكن ذلك يكون بعد هذا الجمع والتبويب . . » ويلاحظ ما في هذه الكلمة من كياسة ولباقة ، فقد رضى الناقد هنا بمرحلة الجمع والترتيب - على ما فيها من مأخذ وأخطاء ، على أن يأتي التحقيق بعد ذلك في مرحلة تالية . . . ! والحق أن كلمة الدكتور صروف هنا كانت دفاعاً عن صديق من صديق ، في معركة سل عليه النقد فيها سيوف نقدهم !

وتتجلى الروح العربية الخالصة في مؤلفات زيدان عامة ، وفي « تاريخ آداب اللغة العربية » خاصة ، فهو يدافع عن العرب في كل موقف ، ويغلي في تقديرهم إلى درجة كبيرة ، ويضعهم من حيث الثقافة والعقيلة في مستوى لا يقل عن مستوى الأمم ذات الحضارات القديمة كال يونان والرومان ، وينفي عنهم ما قد توهمه البداوة جهالة وتخلفاً . فيقول مثلاً في موضع الحديث عن درجة ارتقاء عقولهم : « وقد يتبادر إلى الأذهان أن أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجية ، لبعدهم عن المدن وانقطاعهم للغزو والحرب . . . ولكن يظهر مما وصل إلينا من أخبارهم أنهم كانوا كبار العقول ، أهل ذكاء ونباهة واختبار وحكمة . وأكثر معارفهم من ثمار قرايحهم ، وهي تدل على صفاء أذهانهم ، وصدق نظرهم في الطبيعة وأحوال الإنسان ، مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة »^(١) ويذهب في تقدير حكمتهم درجة أخرى أكثر إغلاء في المرمي ، فيمدحهم زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة بما « لا يقل شيئاً عن أحكام أكابر الفلاسفة . . . »^(٢)

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الأول - طبعة سنة ١٩٥٧ - ص ٣٤ . (٢) المصدر نفسه ص ٣٥ .

لصديق حسن خان القنوجي الهندي من علماء المسلمين
في القرن التاسع عشر .

وعاد جرجي زيدان بعد قليل ليصحح الرأي في
هذا الموضوع الذي أثاره فقال إن هذه الكتب وأمثالها
تعد من المآخذ الأساسية لدرس آداب اللغة ، ولكنها
لا تصح أن تسمى تاريخاً لها بالمعنى المراد بالتاريخ اليوم^(١)
وتتجلى القيمة الحقيقية لكتاب « تاريخ آداب اللغة
العربية » لجرجي زيدان في مزايا كثيرة تنكشف بأدنى
نظرة عند القارئ المحقق المنفطن لقيمة ما يقرؤه ، وأول
هذه المزايا ما هدف إليه جرجي زيدان من « بيان منزلة
العرب بين سائر الأمم الراقية ، من حيث الرقي الاجتماعي
والعقل » . ولم يتخل هذا الهدف عن عيني « زيدان »
لحظة واحدة في خلال الألف وخمسة مائة صفحة التي
يحتويها هذا الكتاب الضخم .

على أن جرجي زيدان لم يكتف - في معرض إثباته
لحقيقة العقلية العربية الحصبة - بتقريرها فقط ، ولكنه
يثبت بالوقائع والأدلة ما تقلبت عليه عقول العرب
وقرائعهم ، وما كان لهم من أثر في العصور المتعاقبة
عليهم ، وما كان لتلك العصور وأحداثها من أثر في
تاريخ تطورهم العقلي والحضاري .

ولا يكتفى صاحبنا بالوقوف عند هذا الحد أو
بلوغ هذا المبلغ ، ولكنه يقف عند كل علم من علوم
العرب وقفة طويلة مستأنية ، يتابع فيها نشأته ، وتطوره ،
ويراقب - مراقبة دقيقة واعية - نموه ونضجه وتشعبه
وانحلاله أو ازدهاره . فعل ذلك في الشعر الجاهلي ، وفي
العلوم الطبيعية والرياضية في العصر الجاهلي ، وفي
الخطابة في الجاهلية و صدر الإسلام . وفعل مثل ذلك
وأكثر منه في العصر الأموي والعباسي والمغولي والعثماني
والعصر الحديث الذي يبدأ منذ بداية القرن التاسع عشر .
ففي النحو - مثلاً - نراه يتحدث عن نشأته ، وأول

تم يمضي جرجي زيدان في إعظام تقديره للعلوم
عند عرب الجاهلية فيقرر « أن العرب عرفوا كثيراً من
الأمراض ومعالجتها ، وناهيك بما عرفوه وتوسعوا فيه
من أحوال الأعضاء وأوصافها ، وهو من قبيل علم
التشريح ، وهم يعبرون عنه بخلق الإنسان . وقد ألف
أدباء المسلمين كتباً كثيرة في هذا الموضوع نقلاً عن
العرب ، سيأتي ذكرها بين مؤلفات أهل اللغة . والمتأمل
فيما حوته من أسماء الأعضاء وأوصافها يتبين له أن أولئك
الجاهليين كانوا على معرفة بتشريح الأعضاء . . . »^(٢) .

وقد بلغ من غلو جرجي زيدان في هذا التقدير أن
الدكتور شوقي ضيف - الذي عهد إليه تحقيق الطبعة
الأخيرة من « تاريخ آداب اللغة العربية » والتعليق عليها ،
والإضافة إليها - وجد نفسه مضطراً إلى أن يعلق على
هذا الغلو قائلاً : « ينبغي ألا نبالغ في معرفة عرب
الجاهلية بالطب ، فإن ما كان عندهم من ذلك لا يتجاوز
ملاحظات أولية بسيطة »^(٣) ! !

ولم يُخل جرجي زيدان بين العرب ومعرفة لهم
تاريخ آداب اللغة العربية وسبقهم إليه ، كسبقهم في
موضوعات أخرى . ويقرر - في هذا الشأن - أن كتب
التراجم التي ألفها العرب فيها كثير من علم تاريخ
الآداب ، لأنهم يشفعون الترجمة بما خلفه المترجم له من
الكتب ، ويبينون موضوعات هذه الكتب ، وقد
يجاوزون هذا التبيين إلى وصفها^(٤) . وعد من هذه
الكتب المتخصصة في البحث عن المؤلفين ومؤلفاتهم
كتاب « الفهرست » لابن النديم ، و « مفتاح السعادة »
لطاشكبري زاده ، و « كشف الظنون » عن أسامى
الكتب والفنون « لحاجي خليفة ، و « أبجد العلوم »

(١) المصدر نفسه ص ١٩٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٩ بالهامش .

(٣) مقدمة جرجي زيدان لكتاب تاريخ آداب اللغة العربية -

ص ٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٠ .

من علله ، وأول من ضبط قواعده وألف فيه ، ومذهب البصريين والكوفيين . وكل هذا في معرض الحديث عن النحو في العصر العباسي الأول . فإذا بلغ العصر العباسي الثاني عالج موضوع النحو والنحاة فيه معالجة ملائمة ، فإذا بلغ - بعد عشرات وعشرات من الصفحات - العصر العباسي الثالث تناول موضوع النحو والنحاة فيه على ضوء ما تطور من دراسته ، مع بيان ما حدث فيه من تخلف أو توقف أو ابتكار ، وهكذا يمضي في بقية العصور حتى العصر الحديث .

وهكذا يتناول الرجل كل علم ، وكل موضوع في كل عصر من عصور الأمة العربية ، فيلقى عليه من الأضواء ما يكشف عن حقيقته ونموه أو تخلفه .

ولا يرضى صاحبنا من الحديث عن موضوعات العلوم وفنون الأدب بهذا القدر ، ولكنه يقف عند رجال هذا الموضوع ، أو أعلام هذا الفن ، يترجم لكل واحد منهم ترجمة قد تقصر إلى بضعة من السطور وقد تطول إلى بضع من الصفحات . فترجمته للإمام مسلم صاحب الجامع الصحيح في حديث الرسول عليه السلام تبلغ ستة أسطر^(١) ، وترجمته للمؤرخ الأديب الشاعر صلاح الدين الصفدي صاحب كتاب « الوافي بالوفيات » تبلغ أربع صفحات أو تقاربها^(٢) .

ومن المؤرخين والمؤلفين من يكتفى في تراجمه للرجال بذكر أخبارهم التي ينقلها عن مصادر ومراجع لا يرى ضرورة للإشارة إليها . ولكن جرجي زيدان قد أفاد من المستشرقين في هذه الناحية . فهو يذكر في كل ترجمة المصادر والمراجع التي يمكن الرجوع إليها لمن يريد أن يتوسع في الموضوع . أو لمن يريد أن يتبدى إلى مآخذه ومصادره . ولقد كان بعض المؤرخين العرب يكتفى بذكر المصادر والمآخذ جملة في صدر كتابه أو في مقدمته ، كما فعل مؤرخنا المصري

العسقلاني « ابن حجر » في كتابه « الدرر الكامنة » ، في أعيان المائة الثامنة « المطبوع بجيدر أباد الدكن بالهند سنة ١٣٤٨ هـ سنة ١٩٢٩ م . ولكن جرجي زيدان يذكر المآخذ والمصادر عقب كل ترجمة لكل علم ، شاعراً كان ، أم خطيباً ، أم مؤلفاً ، أم فقيهاً ، أم مفسراً ، أم محدثاً ، أم لغوياً ، أم صحافياً . . .

ولا يكتفى هنا بالمصادر العربية ، ولكنه يضيف إليها المصادر الأجنبية - أوربية كانت أم أمريكية . ففي ترجمته - مثلاً - للشاعر الجاهلي : « تأبط شراً » يذكر مآخذ الترجمة لحياته على هذا النحو قائلاً : « وأخباره في الأغاني ٢٠٩ ج ١٨ ، والشعر والشعراء ١٧٤ ، وخزانة الأدب ٦٦ ج ١ . وكتب عنه بور BAUR بالألمانية مقالة في سيرة حياته وشعره ، في المجلة الشرقية الألمانية سنة ١٨٥٦ »^(٣) .

ولا تقتصر المصادر والمآخذ التي يسجلها جرجي زيدان في تراجم الأعلام الأدبية على القديمة ، ولكن الرجل كان متابعاً لأحدث الكتب في وقته . ففي ترجمته للمؤرخ بدر الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ يضيف إلى مآخذ ترجمته كتاب « الخطط التوفيقية » لعلي مبارك باشا . وفي ترجمته للشاعر الجاهلي : المتلمس ، يضيف إلى المصادر القديمة مصدراً معاصراً له وهو كتاب « شعراء البهرانية » للأب لويس شيخو اليسوعي المتوفى سنة ١٩٢٧ .

وحين يذكر جرجي زيدان كتب المؤلفين والأعلام الذين يترجم لهم ، أو دواوين الشعراء الذين يتناولهم بالدراسة ، لا يكتفى بذكر أسماء تلك الكتب وعناوينها ، ولكنه يشير إلى أماكن نسخها الخطية إن كانت مخطوطة ، وإلى أماكن طبعتها وتاريخ الطبع إن كانت مطبوعة . وقد استعان في ذلك العمل بالجهد الضخم الذي بذله المستشرق الألماني بروكلمان في كتابه « تاريخ الأدب

(١) الجزء الثاني من تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٤٦ .

(٢) الجزء الثالث - ص ١٧٤ - ١٧٨ .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ١٦٢ .

العربي» . ولكنه لم يكن في الأمر كله عالة على بروكلمان، فقد أفاد من رحلاته وزياراته هو المتعددة إلى مكتبات أوربية كثيرة ، كما أفاد من تردده على « دار الكتب المصرية » واستثناسه الدائم بفهارسها . كما أفاد خاصة من مكتبة المرحوم أحمد تيمور باشا .

وتعد تعريفات جرجي زيدان بالكتب التي خلفها الفكر العربي الإسلامي على مر العصور حتى عصرنا الحديث الذي ظهر فيه كتابه - أدق وأوجز تقويم لهذه الثروة الطائلة من إنتاج الثقافة العربية، والعقيدة الإسلامية. فقد يقوم الكتاب أو ديوان الشعر في سطر أو في بضعة أسطر ، أو في صفحة كاملة أو قريب منها ، فيقدم إلى القارئ صورة صحيحة دقيقة عن الكتاب الذي يقوم . ولا شك أن هذا التعريف للكتب التي ظهرت في العربية على مر العصور يعد مرآة صادقة صافية لتطور الحياة الفكرية عند العرب ، كما يعد مقياساً دقيقاً لهذا التراث الضخم ، وميزاناً مضبوطاً لمد التيارات الفكرية العربية وجزرها .

وإذا كان كثير من تلك الكتب التي وصفها جرجي زيدان حتى وفاته سنة ١٩١٤ قد تغير حاله إلى الطبع بعد أن كان مخطوطاً ، كما أن كثيراً من تراجم الرجال قد استحدثت فيها دراسات وكتب جديدة منذ وفاة جرجي زيدان حتى يومنا هذا ، وإذا كانت موضوعات البحث حتى عصر زيدان قد جدد عليها دراسات جديدة لم تكن في عهده ، كما أن كشوفاً أدبية ولغوية وتاريخية قد ظهرت في الميدان منذ لقي جرجي زيدان ربه ، فإن طبعة جديدة منقحة مزيّدة من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » كانت ضرورية . ولقد نهض بهذا العبء الضخم رجل من علمائنا حمّال لمثل هذه الأعباء، هو الدكتور شوقي ضيف الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

وظهرت الطبعة الجديدة من « تاريخ آداب اللغة العربية » بتحقيقات الدكتور شوقي ضيف وتعليقاته

وتصويباته واستلزاكاته وإضافاته الثمينة سنة ١٩٥٧ . ومن عجائب المقدور أن يقوم الدكتور شوقي ضيف بعد أربعة وأربعين عاماً بتحقيق أمانة الدكتور يعقوب صروف التي تمنّاها على المؤلف في حياته بتحقيق الكتاب وتمحيصه . ولا أحسب الدكتور شوقي ضيف قد بلغ الغاية من هذا ، ولكن مجهوده الضخم المضي يظهر واضحاً في كل صفحة من صفحات هذه الطبعة .

ومن مظاهر الروح العلمية في هذه الطبعة الجديدة « لتاريخ آداب اللغة العربية » أن الدكتور شوقي ضيف قد أسقط عنصر المجاملة من حسابه ، مع أن ولدى جرجي زيدان هما اللذان ندياه للقيام بهذا العمل . فقرأ يصحح الخطأ في حرية تامة في التعبير . فقد عدّ جرجي زيدان الشاعر « عبدالله بن الدميني » من شعراء الجاهلية . وهنا نجد في الهامش تعليقا من المحقق يقول فيه : « أخطأ المؤلف في عد ابن الدميني من شعراء الجاهلية ، فهو إسلامي »^(١) . ولا غنى في سرد أمثلة من هذه التحقيقات الثمينة ، فهي كثيرة واضحة تشهد بعلم المحقق وسعة اطلاعه وطول مراجعته ومعاودته للمصادر والمراجع . ولكن يظهر أن الدكتور شوقي قد أجاز لنفسه التغير والتعديل المطلق في مادة الكتاب . كما فعل في صفحة ٢٤ من الجزء الأول - مثلاً - فقد أباح لنفسه أن يصلح قليلاً في النص كما يعترف هو نفسه في الهامش . بل جاوز الدكتور شوقي ضيف الحد في صفحة ٢٤٦ من هذا الجزء أيضاً ، فوضع أسماء أربعة من رجال الحديث المشهورين في العصر الأموي بدلا من أربعة آخرين مغضوبين وضعهم جرجي زيدان في الطبقات السابقة . وكان من الممكن أن يبقى الدكتور شوقي ضيف الأسماء الأربعة التي وضعها زيدان في صلب الكتاب ، وأن

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - ج ١ ص ١٧٨ .

رابعاً : نبـوـصـ مـخـتـارـة

لعل كلام جرجى زيدان نفسه عن « تاريخ آداب اللغة العربية » وأقسامها يكون أصدق تعبير عن قضية كان الرجل أول من حمل لواءها بشمول واتساع وتفصيل ، فلنسمعه هنا يقول : (وإذا نظرنا إلى آداب اللغة العربية وأخواتها الساميات ، رأيناها تنطبق على ما تقدم بوجه اجمالى . أما عند التفصيل فأتينا نجد بين آداب هذه اللغات وتلك فرقاً كالفرق بين طبائع الأمتين . فالشعر عند الساميين أقدم آدابهم ، لكن أكثره غنائى ، وليس فيه من الشعر القصصى إلا نطف قليلة . أما التمثيل فيظهر لأول وهلة أنه بعيد عن آداب العرب ، وسرى أنه موجود فيها . . . ولا غرو إذا امتازت اللغات الأوربية بالشعر القصصى والتمثيلي ، فإن اللغة العربية وأخواتها تمتاز بنوع من الآداب كبير الأهمية ، ليس منه في لغات الأفرنج إلا نطف ، نعني « الأمثال » فأنها جزء مهم من آداب اللغات السامية ، ولا سيما العربية والعبرانية ، وتندر في سواها .

وآداب اللغة العربية التي هي موضوع هذا الكتاب أغنى سائر الآداب السامية ، بل هي على الإجمال أغنى آداب سائر لغات العالم . . . لأن الذين وضعوا آدابها في أثناء التمدن الإسلامى أخلطوا من أم شتى جمعهم الإسلام أو الدولة الإسلامية ، وفيهم العربى والفارسى والتركي والهندي والسورى والعراقى والمصرى والرومى والأرمينى والبربرى والنيجى والصقلبي وغيرهم . . . وكلهم تعربوا ونظموا الشعر العربى ، وألفوا الكتب العربية ، في الأدب والنحو والتاريخ والطب والعلم والفلسفة ، فاحتوت آداب اللغة العربية بسبب ذلك على أحسن القرائح ، وشتات الأخلاق والآداب والطبائع ، وأدخلوا فيها كثيراً من أساليب السننهم الأصلية بدون قصد أو تعمل .

يضع في الهامش الأسماء الأربعة التي يراها أولى من غيرها . . .

وكما أجاز الدكتور شوق ضيف لنفسه الزيادة — حيث لا تجوز الزيادة — في الكتاب ، فإنه أجاز لنفسه الحذف ، والحذف الكثير ، بلا داع يبرره ، ولا سبب يسوغه . ففى مقدمة جرجى زيدان للجزء الثالث التي يرد بها على منتقديه ، نرى المحقق الفاضل يحذف ما يقرب من أربع صفحات تناول موقف الرجل من المنتقدين ، كما تناول موضوع انتقاد « تاريخ آداب اللغة العربية » وأسماء ناقديه وإيجاز الرد عليهم . ولا يفوتنا هنا — للتاريخ فقط — أن نذكر أسماء هؤلاء المنتقدين ، وهم الأب لويس شيخو اليسوعى الذى نشر نقده في مجلة المشرق ، والسيد كاشف الغطاء الشيعى النجفى وقد نشر نقده في مجلة « العرفان » التي كان يصدرها أحمد عارف الزين في صيدا ، والأب أنستاس مارى الكرملى ، وقد نشر نقده في مجلة « لغة العرب » التي كان يصدرها في بغداد ، وأستاذنا المرحوم الشيخ أحمد الأسكندري الذى نشر نقده في مجلة « المنار » في سنتها الخامسة عشرة والسادسة عشرة .

ونعرد هنا فنؤكد قضية اهتمام جرجى زيدان بالنقد وإيمانه بفائدته وعدم ضيق صدره به . ومن ماثوراته في هذا السبيل قوله : « لا جدال في أن الانتقاد أكثر فائدة من التقرير ، وقد يتبادر إلى الأذهان أن انتقاد الكتب يحط من قدرها أو يذهب بفضل أصحابها ، وهو خلاف الواقع . وإذا رأينا له مثل هذا التأثير أحياناً فلأن الكتاب المتقدم لم يكن يستحق عناية المنتقدين . ولو ترك بلا انتقاد لكان أسرع إلى السقوط . أما الكتب الهامة فأنها تزداد بالانتقاد شيوعاً ورواجاً ، ويزداد أصحابها رسوخاً في عالم الشهرة »^(١).

(١) تاريخ آداب اللغة العربية — ج ٣ ص ٤ .

ونريد بتاريخ آداب اللغة العربية بسط ما تقلبت عليه اللغة وآدابها من أقدم أزمانها إلى الآن . . . فهي - بهذا الاعتبار - تقسم إلى أطوار ، لكل منها شأن يمتاز عن سواه ، وقد لاحظنا في تقسيم هذا التاريخ ما توالى على الأمة من الانقلابات السياسية أو الأدبية ، وما كان من تأثير ذلك على المواهب والقرائح .

ويمكن قسمة تاريخ آداب اللغة العربية حسب علومها وآدابها ، أو حسب الأعصر التي توالى عليها . ونريد بقسمتها حسب العلوم أن نستوفي الكلام في كل علم على حدة من نشأته إلى الآن ، على أن نبداً بأقدمها ، وننتدرج إلى أحدثها ، فنبدأ بآداب الجاهلية ، فنذكر تاريخ الشعر مثلاً وتراجم الشعراء من نشأته ، وما تقلب عليه من الأدوار في الجاهلية والإسلام إلى اليوم . ونفعل مثل ذلك في الخطابة وغيرها من آداب الجاهلية ، وبالفقه والتفسير والأدب والنحو واللغة وغيرها من الآداب الإسلامية . وهكذا نفعل بالعلوم الدخيلة منذ دخولها وما تقلب عليها إلى الآن .

أما قسمتها حسب العصور ، فيراد بها الكلام عن العلوم كلها معاً في كل عصر على حدة . وهذا الذي اخترناه في هذا الكتاب ، لأنه يصور حالة العصور المختلفة ، وما يكون من تأثير السياسة وانقلاباتها في العلم والأدب . ولذلك فقد قسمنا تاريخ آداب اللغة العربية إلى قسمين كبيرين : يفصل بينهما أهم انقلاب أصاب العرب من أول عهد تاريخهم إلى الآن . . . نغني ظهور الإسلام . فهي بهذا الاعتبار تقسم إلى آداب اللغة قبل الإسلام وآدابها بعده . وقسمنا آدابها قبل الإسلام إلى عصرين : عصر الجاهلية الأولى ، وعصر الجاهلية الثانية ، وقسمنا تاريخها بعد الإسلام إلى أعصر أو أطوار ، تناسب انقلاباتها السياسية أو الاجتماعية : وهي :

١ - عصر صدر الإسلام .

٢ - العصر الأموي .

٣ - العصر العباسي .

٤ - العصر المغولي .

٥ - العصر العثماني .

٦ - العصر الحديث .

وقسمنا العصر العباسي إلى أطوار بحسب التقلبات السياسية كما ستراه في مكانه (١) .

وننتقل من هذا النص إلى نص آخر يعرف فيه جرجي زيدان الشعر ، فيقول : (الشعر من الفنون الجميلة التي يسميها العرب الآداب الرفيعة . وهي الحفر والرسم والموسيقى والشعر . ومرجعها إلى تصوير جمال الطبيعة . فالحفر يصورها بارزة ، والرسم يصورها مسطحة بالأشكال والخطوط والألوان ، والشعر يصورها بالخيال ، ويعبر عن إعجابنا بها وإرتياحنا إليها بالألفاظ ، فهو لغة النفس ، أو هو صورة ظاهرة لحقائق غير ظاهرة . والموسيقى كالشعر . . . هو يعبر عن جمال الطبيعة بالألفاظ والمعاني . وهي تعبر عنه بالأنغام والألحان ، وكلاهما في الأصل شيء واحد .

هذا هو تعريف الشعر في حقيقته ، ولكن علماء العروض يريدون بالشعر الكلام المقفى الموزون ، فيحصررون حدوده بالألفاظ ، وهو تعريف للنظم لا للشعر . . . وبينهما فرق كبير ، إذ قد يكون الرجل شاعراً ولا يحسن النظم ، وقد يكون ناضلاً وليس في نظمه شعر . . . وإن كان الوزن والقافية يزيدان الشعر طلاوة ووقفاً في النفس ، فالنظم هو القالب الذي يسبك فيه الشعر ، ويجوز سبكه في الشعر .

وقد تقدم ابن خلدون خطوة أخرى في تعريف الشعر ، فقال : « الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ،

الجارى على أساليب العرب المخصوصة به « فهو يجعل
التقنية والوزن من شروط الشعر ، وبشروط أيضاً
استقلال كل بيت منها بغرضه ، وهو تقييد لا باعث
له ، إذ قد ترى في الكلام المنشور معاني تؤثر في نفسك
تأثير الشعر ، وذلك كثير في كلامهم ، والحكم فيه
للذوق . ومن أصعب الأمور أن تعرف الشعر ، وتجعل
له حدوداً جامعة مانعة ، كما تعرف الصرف أو النحو
أو القلك أو غيرها من العلوم والآداب . ولكنك إذا
قرأت قولاً فيه خيال شعري تعرفت الشاعرية فيه ،
وشعرت بلذة ذلك التعرف وطربت له . وقد يكون
ذلك التثنية قولاً ، وإنما أطربك ما فيه من أساليب الكناية
أو الاستعارة . . . فإذا سبكته في قالب شعري زاد
رونقاً وطلاوة ، فإذا غنيت على توقيع الألحان زدت
طرباً به . فالوزن يزيد الشعر طلاوة ، من قبيل التوقيع
الموسيقى في الألفاظ والحركات ، لا من قبيل المعنى .
فإذا قرأنا لبعضهم نثراً يصف به ذهوله في الحب ،
فيقول : « إذا جئت دار الحبيب ليلاً لحاجة لي أتمسها ،

فلا أدخل الدار حتى أنسى ما جئت له » فهذا معنى
شعري ترتاح إليه النفس ، لكن ارتياحها يكون أكثر
إذا نظم ذلك المعنى شعراً ، كقول المجنون :

فيا ليل ! كم من حاجة لي مهمة

إذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيا

ويكون وقعه في النفس أشد إذا غنى عن لحن

مطرب .

وعلى ذلك فيدخل في الشعر كثير من أقوال العرب
التي نعتها من قبيل الأمثال أو الحكم الماثورة المبينة على
الكتابة ، كقولهم : « المرء بأصغريه لا يبرديه ، وعاد
الأمر إلى نصابه ، وصاحت عصافير بطنه ، ونحو
ذلك » .

فالشعر بالمعنى لا بالوزن والقافية . . . وقد رأينا
بعض متقدمي العرب يرون هذا الرأي في تعريف
الشعر ، فقد قال بعضهم : « الشعر كلام وأجوده
أشعره » ولم يقيده بالوزن ولا القافية . وقال آخر :
« الشعر شيء تجيش به صدورنا ، فتقدفه على ألسنتنا » .



أدولف بنيامين كونستان

معلم

الأستاذ أحمد درشاد

رجل غير واقعي

يجعل بنا في مقدمة هذه الدراسة، قبل أن نرفع الكلفة بيننا وبين بنيامين كونستان (Benjamin Constant) القول بأن هذا الرجل الذي كان يفتخر بخبرته في فنون الغرام، وأنه اتخذ الهيام هادياً ورسولاً، لا يجد في نظرنا مكاناً له بين كبار الأحبة ولا مجلساً له مع أهل الهوى :

لا نريد اتهامه باتخاذ ربات الحجال سبيلاً للتسلية، وإنما نلظنه يعتبر النساء - على الأقل الراقع عاشرهن - زميلات مرفهات أو صديقات في وسعهن منافسته في ذكائه. كان حبه لمن يلبس ثوب الصداقة أكثر من رداء الشهوة، وكان يميل إلى رؤية نفسه محبوباً أكثر منه كونه محباً؛ ليكون دائماً في مأمن من حرارة الحب أو الإطالة في عمره.

وسنراه في الثلاثين من عمره وسط صديقات تحاول كل واحدة منهن أسره بسحرها وإلحاحها، لتجعل منه شريك حياتها، ناسية أنه حريص كل الحرص على التمتع بحريته؛ وأن إلحاح النساء عليه في مجال الغرام جعله يفتح مدام دي شاربير

(Mme de Charrière) التي اعتاد استشارتها في أموره بقوله: « رغم إلفهامهن أني لا أكن لمن إلا الصداقة، كن يطلبن مني الزواج مبديات استعدادهن للتضحية من أجل حق بشرفهن وبكل ما يملكن... ». وفي الواقع، كان بنيامين يميل إلى الترويح الذهني أكثر من ميله إلى لذة الشهوة الجسدية. وإن صادف وهزته هذه الشهوة، جعل استمتاعه بها مع بنات الهوى. كان كل همه التفتن في المغازلة التي يسميها مونتسكيو « بألح الكاذب ».

إن تشاؤمه، ورخاوته، وتردده، وسرعة غضبه، وخوفه من المسؤولية وقلقه المستمر من الخديعة، شحنت حياته بالمضايقات والمتاعب والفشل، وجعلت منه « رجلاً غير واقعي » على حد تعبيره.

إن هذا الكاتب - السويسري المولد - الفرنسي الثقافة، الإنجليزى النزعة - ليس إلا مجموعة من المتناقضات. وهو يعترف بأنه لم يذق طعم الحنان في صباه - وهي الحقيقة - ولكنه بمجرد أن يشعر بالشفقة عليه من أحد، يسخر منه ويهزأ به. وبينما يصرح بأنه يكره الحياة ويحتقرها، يهتمها بأنها لم تجلب إليه الرفعة المنشودة، ولا علو الصيت المرتقب. وأنه إن دافع عن

له ، بفضل طول الصبر والثبات . ويعلق كونستان
معتزلاً بدوره : « إن منظر تلك السعادة جعلني أندم
على عدم بحثي عن مثلها ، فلم أكن بعد قد اتصلت
بامرأة استطاعت بحبا لي أرضاء كبريائي . . . وأمام
اضطراب شعوري ، قلت لنفسى : إلا من حبيبة
تعشقي ؟ » .

هل سمعته أيها القارئ العزيز ؟ إن كل ما يصبر
إليه ، وكل ما ينشده ، لا أن يحب ولكن أن يرى نفسه
محبوباً ! إن المسكين قد فاته أن يحبنا لا ينمو ولا يثبت
إلا عندما ننسى حبنا الذاتي !

ولستأنف كلامنا عنه باستشهادات مستفاد من
قصته ، إذ يقول : « في اللحظة التي كان قلبي فيها
متفتحاً للحب ، وطموحى تواقاً إلى النجاح ، وقع
نظري لحظة على الينور (Ellénore) فخلتها خير
فريسة لي » . أهذا هو كلام الحب الصادق أم الرجل
النهاز للفرص الذي لا يهمه إلا إشباع هوايته بايقاع
أكبر عدد من النساء في حباله ولا يرغب إلا في اذلال
المرأة باسم الحب ؟ ولكن هناك ما هو أسوأ ! إنه كثيراً
ما يخلط بين الحنان العميق الصادق وبين عاطفة طارئة
مزاج متقلب ، إذ يقول : « إن أية عقبة تقف في سبيل
حياتي كانت تؤزقني . والحب الكاذب الذي كنت
أبديه منذ حين ، كان ينحلي إلى أني أشعر بلهيبه في
أحشائي » . والأمر الذي يحيرنا في استجلاء شخصية
هذا الرجل الذي اتخذ اللعب بالقلوب هواية ، هو قوله
في قصة « أدولف » : « الويل للرجل الذي لا يعتقد في
أبدية رابطة الحب » . ثم هو يقول مستأنفاً الكلام عن
مغامراته مع الينور : « وكنت أشعر بأن رابطة حبنا
لا يمكن أن تلوم » .

وإذا عارضنا أحد في هذا الحكم متعللاً بأن هذا
الشعور إنما ينطبق على أدولف بطل الرواية ، لا على
بنيامين ، فرجوه الاطلاع على المذكرات الخاصة التي

قضية عادلة ، فسرعان ما يتفقد صبره ويعلل ذلك
بقوله : « إن الكفاح يتعبني ، وكل ما أريده هو
الراحة » . وأنه إن تفاني في مساعدة إخوانه ، فن باب
الحماقة لا الحب . وأنه إن افتخر بحريته الشخصية ،
نجدّه أسير النساء ، أسير الميسر وضحية التقلبات
السياسية . وأنه إن أكد بأن العقيدة لم تجد سبيلاً إلى قلبه
وأكب على تأليف المجلدات ضد الأديان ، نراه
يعترف للدوق دي بروي (Duc de Broglie) قائلاً :
« لقد جمعت حوالي أربعة آلاف حادثة تعزز رسالتي
ضد الأديان ، لكنني بعد تفكير عميق ، استبعدتها لعدم
جدواها . وأنه إن تاق إلى رؤية اسمه يلمع بين أهل
عصره ، وأفكاره تملأ صلورهم ، نراه يعترف وهو
في سن السابعة والثلاثين قائلاً : « لقد ضقت ذرعاً
بالعالم وأهله حتى فقدت الأمل في أن يستظرفني أحد ،
فيا ليتني مت قبل هذا ! » وأنه إن انتظر طويلاً للعثور
على زوجة شابة جميلة لطيفة كفيلة بضمان حياة رتيبة
له ، نجدّه يتزوج لأول مرة بامرأة دميعة لا يحبها
ولا تحفظه بالغيب . ثم يتعلق بصديقة قديمة ، يتركها
مدة ، لينزوجها بعد خمسة عشر عاماً . وأنه كان يمثل
عدم الاستقرار ، ولكنه بدل الاعتراف بذلك ، يحاول
التخلص من هذا العيب ليقع في أعمال صبيانية ومهاترات
تافهة .

ولكى نعطي صورة واضحة لحكنا هذا عليه ،
فلا يسعنا إلا أن نتركه يتكلم عن نفسه . إنه يقول في
مذكراته : « إن ذكرى عشرين عاماً من حياتي قد
ضاعت وأصبحت ملكاً لمن استحوذ عليها دوني ، الأمر
الذي سيجعلني أحقر نفسي وسيبسط من همتي إلى اليوم
الذي تتغلب فيه عزيمتي على ترددي » . ولكننا سنرى أن
هذا التردد المزدول الذي يسميه « بعذاب الحياة الأكبر »
سيلازمه طيلة حياته دون استطاعته التخلص منه .

ونراه في كتابه « أدولف » (Adolphe) يقص
علينا اعترافات أحد أصدقائه نجح في الفوز بحب امرأة

كتبها المؤلف والتي يقول فيها بالحرف في سنة ١٨٠٧ :
« سأبدأ بكتابة قصة هي في الواقع تاريخ حياتي » .

ولا نريد أن نعتقد القارئ أننا سنلازم هذه القسوة
في الحكم على عواطف وتصرفات بنيامين كونستان ،
الرجل ذي القلب الرحيم الذي ذبل قبل الألوان ،
وصاحب القريحة الوقادة ، والمثلل السريع ، بل إننا
نطمئن القارئ بأن الرجل يستحق أن نبعد عنه كل
ما من شأنه أن يقلل من مكانته ، لأنه في الحقيقة ، رغم
ما فيه من تباين في الصفات والأخلاق ، يعتبر كاتباً
ماهرأ يتمتع بسليقة الأديب ذي الأسلوب الساحر
الأخاذ . وسحر بيانه كفيل بأن يجلب له الغفران على
زلاته . ولا يجد القارئ متعة في قراءة أروع مؤلفاته
فحسب ، بل يجد لذة في استعادة قراءتها . كما أن نبل
الكلمات التي منسردها فيما يلي ، خير شفيح للتغاضي
عن أخطائه وأطوار طيشه : « إنني أمقت كل مدح
يتلمس العذر لإعجابه بمنطقه . إنني أمقت كل مختال
يدبر دفة الحديث حول نفسه ، ويحلل للسامعين
شخصيته بدلا من الاعتراف بأخطائه . إنني أمقت ذلك
الضعيف الذي يلقي تبعية ضرر ضعفه على الآخرين
ولا يعترف بأنه هو مصدر ذلك الضرر » .

إن ما يضيف على بنيامين كونستان صبغة العظمة
ويرفعه في أعيننا هو قضاؤه سني الصبا وأطوار الشباب
دون عقاب يكبح جماحها . وليس الخطأ من عنده ، بل
يقع التقصير على أولئك الذين كان من واجبه السهر
على تربيته . ومع ذلك فهو لا ينحو باللائمة على أبيه
ولا على مدرسيه رغم أنهم جميعاً أفرغوا في قلبه الشك
والجحود بالإيمان في سن يكون فيها الشباب عادة مغم
القلب بالتفاؤل وقوة الإيمان . لهذا لا يجب علينا أن
نرى فيه بعين الدهشة ، تلك الطبيعة المعقدة وميله إلى
التهور أكثر من التوادة ، وإلى التردد أكثر من الثبات ،
وإلى الاندفاع أكثر من الحزم !

ويرى بعض النقاد في بنيامين الرجل الجاف الذي
لا يعرف الرحمة ، ولكنه في الواقع ، كان يخفي وراء
ذلك قلباً روثوفاً مليئاً بالطفية . وهو يكره في الرجال
تظاهرهم بأحاسيسهم وتأثرهم وحدهم على صاحب
المصيبة لأن غرضهم في نظره ، لا مشاطرته أحزانه
وأتراحه ، بل لباس فداحة الأمر ثوب التفاهة . ويقول
في مذكراته : « إنني من أولئك الذين يحترمون آلام
الغير ، وأدعو الله أن يحفظني من إطفاء لهيبها في قلوبهم
بعبارات المواساة التقليدية ، لأنها في نظري تدنيس
لنلك الآلام . ولا يثيرني شيء أكثر من رضا المكوم
عنها » .

ونجده في اعترافاته رجلاً متساعماً ، يميل إلى الصلح
والمصالحة ، ولولا رجاحة عقله لظنناه يؤمن بالقضاء
والقدر وما كتب على الجبين ، وهو يقدر ضعف
الإنسان ، لذلك فهو يترقب به ويحلم عليه . ويقول في
هذا : « لا يوجد الرجل الكامل ولا يمكن أن يكون
الإنسان صريحاً كل الصراحة ولا خبيثاً كل الخبيث » .
ويؤثر عن مونتني (Montaigne) قوله : « إن
الإنسان متباين الصفات ومتلون الأخلاق » . وإذا كانت
هذه الصفة لا يمكن خلصها على كل إنسان فإنها تنطبق
تماماً على بنيامين كونستان ، ذلك المخلوق الحوائي
المزاج ، الرقيق العاطفة الذي تسيره الأهواء كيف
شامت ، لا يعرف ماذا يريد ، ولا يدري ماذا يفيد ،
كأنه لعبة في أيدي الظروف ، يدس نفسه في مآزق
ولا يستطيع الخروج منها حتى يخيل لناقديه أنهم أمام
رجل زبقي ، يفلت من بين الأصابع ، أو رجل غامض
لا يمكن استشفاف أفكاره ونواياه ، أو استكشاف
اعوجاجه وانحرافاته !

وكتب عن نفسه في ذات يوم يقول : « لقد هدمتني
الحياة وجوها الذي يخفق كل موهبة . . لا أدري كيف
أصف سروري لوجودي وحيداً . . . إن العزلة هي
دوائي الوحيد » .

١٧٤٢ : فقد لفظت أنفاسها الأخيرة بعد وضعه بأسبوعين .

قضى الصبي شبابه دون أن يشعر بأى عطف أو حنو . كما سبق أن قلنا . ولم يستطع أبوه أن يسهر على تربيته أو يسدى إليه النصائح لكثرة تنقلاته وما اتصف به من خجل مشوب بكبرياء . وساحة مملوءة بخشونة فضلاً عن عدم وجود تجاوب نفسي بينه وبين ابنته .

ترعرع الشاب بين أيدي عدد من المدرسين والمربين غربي الأطوار والأحوال : كان مربيه الألماني يضربه ويركله ثم يمنح عليه ، وكان مدرسه الفرنسي لا يعتقد في الأدباني ويميل إلى الفسوق ، وكان أستاذه البلجيكي موسيقاراً ضعيف الغزيرة يترك تلميذه يلتهم المؤلفات المفسدة للأخلاق . وهناك مدرس فرنسي آخر هجر المحاماة للتدريس وحكم عليه بالنفي ، كان يرغم الشاب على نقل مسودات مؤلفاته التاريخية التافهة ، وراهب فرنسي ترك التبعد . مثقف ومجامل إلا أنه كان خائر الإرادة انتهى به الأمر إلى الانتحار من أجل حب فتاة .

هكذا تناولت تربيته عدة أيدي متنافرة متناقضة إلى أن رأى والده إلحاقه بجامعة أكسفورد بالانجلترا . ولكن تبين له أن الجامعة لا تقبل إلا من بلغ العشرين عاماً بينما ابنته كان لا يزال في الثالثة عشرة . عاد به أبوه إلى سويسرا حيث كلف به أحد المدرسين لتثقيفه ، ثم أخذه بجامعة ايرلنجن (Erlangen) في سنة ١٧٨٢ . أظهر الفتى ذكاء ومثابرة في تحصيل العلم ولكنه كان على جانب كبير من « الشقاوة » الأمر الذي جعله يترك ألمانيا ويلحق بأبيه الذي أدخله جامعة اديمبورج لاستكمال دراسته : وكان عمره ستة عشر عاماً .

أقام الفتى عند أستاذ في الطب يوجر غرافاً في بيته لبعض الطلبة . ونشأت بين كونستان وبين زملائه صداقة أدت إلى قيام محاورات ومناقشات وتحقيقات

ولعله كتب هذا وهو يفكر فيما قاله بسكال (Pascal) بأن المصائب تنصب على رأس الإنسان ، لأنه لا يعرف كيف يستجيب في غرفة . ولو أن كونستان التزم هذا العلاج لكفانا مؤونة البحث عن دراسة سكناته وحركاته لفهمه .

حياته وآثاره

كان هذا الكاتب ، بملاحه النبيلة ، ووجهه المعبر ، وشعره الأحمر المتجمد ، وعينه الصغيرتين ، وقامته الطويلة المنحنية ، وكثفيه الضيقين ، وساقيه الرفيعتين ، يخفى في ثيابه أكثر من رجل عظيم ولكنه لم يكن واحداً منهم ، وعاش أكثر من حياة ولكن لم يستد بواحدة منها . لقد سار وراء الحب دون أن يصل إليه ، وحاول الاعتقاد بأنه يعشق ولكن إله الحب كان لا يثق في تصرفاته ، فأصم أذنيه لكي لا يستمع إلى ندائاته الوهانة . ويرجع ذلك إلى ميله لجلب العراقل لنفسه ، والوصول إلى غايته عن طريق الأشواك ، والتصرف دون النظر في العواقب أو الشعور بالمسئولية في أموره وأحواله ، حتى يبدو كأنه شخصية « فودفيل » . فغامراته تنتهي عادة بمبارزة أو بانتحار غير موفق ، بل إنك لا تعرف أكان صريحاً في شعوره أم مخائلاً ، صادقاً أم كاذباً . ومن أقواله عن نفسه : « إن خير صفة خلعتها على السماء هي أني جعلت من نفسي مادة للسخرية ! » وكان يجدر به أن يضيف بأنه يجد لذة في جعل الآخرين مادة لسخريته .

ولد في لوزان يوم ٢٥ من أكتوبر سنة ١٧٦٧ من أسرة فرنسية بروتستانتية الأصل ، استقرت في هذه المدينة منذ أوائل القرن السابع عشر . كان والده جوست كونستان دي ريبيلك (Juste Constant de Rebecque) من مواليد سنة ١٧٢٦ يعمل ضابطاً برتبة يوزباشي في فرقة سويسرية تابعة لولندا . أما أمه هنرييت دي شانديو (Henriette de Chandieu) ، المولودة في عام

عن الفن والأدب والفلسفة . ولكنه تعرف في هذه الأثناء ، للأسف ، بموسيقار إيطالي تعلم منه لعب الميسر أكثر من فن الموسيقى . وتعلق بهذا الداء إلى آخر يوم في حياته .

وبعد إقامة سنة ونصف في اسكوتلندا ، توجه إلى باريس في مارس سنة ١٧٨٥ بناء على رغبة أبيه . وكان يبيت في دار الكاتب جان باتست سوار (Jean-Baptiste Suard) ويتلاقى مع زواره الأدباء . ووكّل به الميسر بوميه وهو رجل تافه عتال ، فكان يطوف به على المواخير وبيوت الدعارة ، وعلم والده بالحياة التي يعيشها ابنه فأمره بالذهاب إلى بروكسل حيث نبض قلبه بأول حب .

• • •

هام بنيامين كونستان بمسدام جوهانو (Mme Johannot) البالغة من العمر ثلاثين عاماً، وهي سويسرية ساحرة الجمال على قسط واغر من الذكاء : متزوجة من رجل أعمال عين بعد الثورة الفرنسية نائياً في الجمعية الثورية . كان هذا الحب يقوم على الفضيلة ولم يدم إلا دوام سخابة الصيف .

تلقى بنيامين أمراً من أبيه يحتم عليه العودة إلى سويسرا . فأقام في مدينة لوزان وأكب على الدراسة وبدأ يكتب « تاريخ الوثنية » متأثراً بأفكار الفيلسوف الفرنسي هلفيسيوس (Helvétius) صاحب كتاب « الروح » .

دخل قلب الفني حب جديد في شخص مدام هارييت تريفور (Mme Harriet Trévor) وهي سيدة انجليزية في الخامسة والثلاثين من عمرها ، افترقت جسدياً عن زوجها ، سفير إنجلترا في تورينو بإيطاليا . كانت لا تزال تتمتع بحسن نادر وجمال أخاذ ، وكان لها أكثر من معجب . انضم بنيامين إلى جماعة المعجبين بهذه السيدة وأرسل إليها كتاباً بث فيه غرامه وشرح لها

النيران المتأججة في فؤاده من أجلها ، فلم تقبل إلا صداقته بينما كان يطمع فيما هو أكثر من الصداقة ، فلنهب إليها وارتمى تحت قدمها في تمثيلية عجيبة ، ثم راح يضرب رأسه في الحائط ، مما جعل مدام تريفور في وضع محرج دفعها إلى تهديته ونصحه ، لكنه انصرف مهدداً بالانتحار . لم ينفذ تهديده هذا ، بطبيعة الحال ، كما لا يخفى على القارئ ، وراح يتردد عليها مكتفياً بالصداقة .

ولقد ذكرها في كتيبه المسمى « الكراسي الحمراء » (Le Cahier Rouge) الذي حرره سنة ١٨١١ وقص فيه الحوادث التي مرت به في العشرين سنة الأولى من عمره ، ويقول عن هذه السيدة : « كانت تستقبلني في بيتها ونمكت منفردين فيه حتى الثالثة صباحاً دون أن يحدث بيننا أي شيء ، فقد كنت خجولاً للغاية رغم غرامي الشديد بها . ولم أكن أعلم وقتئذ أنه كان يجب على أن آخذ ثمرة الحب غلاباً لا استجداء . كنت أستجدي ، في الواقع ، ولا أنال شيئاً إطلاقاً . كانت مدام تريفور تنظر إلى كعشيق من طراز فريد . ولما كانت النساء عادة يحبن كل ما يشبع غرورهن ، فلم تستنكر تصرفاتي وتعودت عليا » .

لم تدم هذه الصداقة وانتهت عند عودة بنيامين إلى باريس بأمر والده .

مدام شاربيير وكونستان

تعرف بنيامين أثناء وجوده في العاصمة الفرنسية ، بسيدة تتمتع بقلر واغر من الثقافة والذكاء أثرت في مصيره تأثيراً ملموساً ، هي مدام دي شاربيير (Mme de Charrière) الهولندية الأصل البالغة من العمر سبعة وأربعين عاماً ، بينما لم يكن فتناً قد ناهز العشرين . كانت لا تزال تحتفظ بقسط كبير من الجمال والدلال . تزوجت هذه السيدة بعد الثلاثين من عمرها برجل سويسري له أملاك شاسعة ، رقيق الطباع لكنه فاطر

الشعور ، الأمر الذى جعلها تهرب من الحياة الزوجية إلى الإنشاء والتحرير . وعندما جاءت إلى باريس لطبع إحدى قصصها ، تقابلت مع بنيامين .

ويحق لسانت بوف (Sainte-Beuve) أن يقول بأن هذه السيدة اللامعة ساهمت أكثر من أى إنسان آخر على شحذ قريحة كونستان . ويجدر بنا - وإن بدا هذا غريباً - الاعتراف بأن هذه القريحة كانت مزدانة أصلاً بعدة معلومات ومعارف متنوعة قبل أن يعرف هذه السيدة . فرغم حياته المختلة ومجونه ومسرره على موائد الميسر ، استطاع تعلم اليونانية واللاتينية والإنجليزية والألمانية والإيطالية ، وأن ينشر مقالات ذات شأن ، وأن يقرأ عدداً ضخماً من كتب الأدب والفلسفة والتاريخ .

وخلال الأعوام الثمانية التى قضها مع مدام دى شارير ، كان إما يرأسها أو يزورها في ضيعتها بمدينة كولومبييه (Colombier) . ويذكر ذلك في كتابه « الكراسى الحمراء » حيث يقول : « كم من أيام وليال قضيناها في المسامرة ! وكم كانت مدام دى شارير قاسية في حكمها على الناس ، وكم كنت أنا ساخراً بطبيعتي ، الأمر الذى جعلنا في مجابوب تام » .

مل بنيامين مع طول الوقت تلك المسامرات والأحاديث الجافة الجديدة المشبعة بالتشاؤم ، الخالية من الفكاهة والمرونة . أما مدام دى شارير ، فقد فهمت صعوبة الاحتفاظ بجانبها ، بمثل هذا الفتى الطموح القلق المتقلب الملىء بالشهوة ، التواق إلى الحرية ، والاستقلال .

وفرت صلة بنيامين بـ مدام شارير عندما تعرف بـ مدام دى ستال (Mme de Staël) ، بيد أن هذا الفتور لم يمنع الصديقة السابقة من الاحتفاظ بالشاب الذى خفف عليها وطأة حياتها الكئيبة ، حتى إنها كتبت في سنة ١٨٠٥ ، قبيل وفاتها ، تقول عن صلتها بكونستان : « إن من الخبوط ما يكون رقيقاً ودقيقاً

حتى لا يكاد يرى ، ولكن صلابته تجعله لا يتقطع أبداً » .

وعندما علم بموتها صرح قائلاً : « لقد خسرت صديقة وفيه وأصبح العالم في نظري خالياً من الناس » . إذا كانت مدام دى شارير أثرت في عقلية فتاها ، فإنها لم تفلح في التأثير على أخلاقه وطباعه . فهو لا يزال يصرف وقته في الميسر ويستدين . وأرادت سيدة عجوز تعرف أسرته أن تزوجه من فتاة في السادسة عشرة من عمرها ، جميلة ولها إيراد يبلغ تسعين ألف جنيه سنوياً ، قاصدة بذلك إبعاده عن ذلك الداء . ولكن اتضح أن الفتاة مخطوبة . فإما كان من والد بنيامين - على أثر فشل هذا الزواج واستمرار ابنه في لعب القمار ، إلا أن أوغد إليه رسولا ليحضره إليه ، بيد أن الفتى هرب إلى إنجلترا . والعجيب أنه بمجرد وصوله إلى هناك ، اشترى كلبين وفرداً ! ثم راح يطوف المدن البريطانية بحثاً عن أصدقائه وزملائه في الدراسة . وانتهى به المطاف إلى اديمبورج .

وأخيراً فكر في ضرورة العودة إلى والده ، فوصل إليه وكله خوف من عتابه ، ولكنه استقبله دون غضب أو فرح وهو يلعب الورق مع ضباط من أصدقائه ، مبادراً إياه بقوله : « آه ! أنت هنا ! كيف جئت ! » فقال : « تارة راكباً جواداً وطوراً عربية » . فرد عليه أبوه قائلاً : « لا شك أنك متعب . اذهب إلى الفراش » . ظل بنيامين ثلاثة أيام في عزلة تامة ، ثم ذهب لزيارة مدام دى شارير ولييت عمه في لوزان . ويجمل بنا القول هنا بأن كونستان كان يكره أسرته ومسقط رأسه لكثرة ما صبه أبوه في صدره من مساوئ الأرستقراطية السويسرية .

تشريفاتى وزوج

وجد الفتى نفسه في أوائل سنة ١٧٨٨ محروماً من دفء الحياة العائلية ، مهموماً من تجارب الحب والغرام ،

غادرة تركت معاشرتها له أسوأ الأثر في نفسه ، فأصيب بأزمة تدهورت على أثرها صحته ، ولم يكتسب من رجال البلاط إلا العداء والحسد ، فقدم استقالته وترك عمله في عام ١٧٩٤ ليعود إلى سويسرا قرير العين لبعده عن عالم لم يهضم أخلاقه وتصرفاته .
ولنذكر هنا أنه قبل مغادرته بلاط الأمير بسنة تعرف بشارلوت دى هاردنبرج (Charlotte de Hardenberg) التي سنراه يتزوجها في عام ١٨٠٨ .

وصال يدوم خمسة عشر عاماً

وصل بنيامين في هذه الفترة من حياته إلى منحن هام حيث تعرف بمدام دى ستال التي فرضت سيطرتها عليه بحدة ذكائها وقوة حيويتها . امتازت هذه السيدة بميول تحررية ، وضمن لها قلمها صيتاً مدوياً في الأوساط الأدبية .

تزوجت في عام ١٧٨٦ من البارون دى ستال هولشتاين (Staël-Holstein) سفير السويد في باريس ، ولم تجد نجاحاً في بلاط لويس السادس عشر . ثم رأت من الحكمة أن تترك العاصمة الفرنسية بعد انهيار الملكية ، فلبت إلى إنجلترا ، ثم إلى سويسرا حيث جمعت حولها في قصرها بمدينة كوبي (Coppet) عدداً من النبلاء القارين من وجه الثورة الفرنسية . وفي هذا القصر ، تحت مقابلة بنيامين مع مدام دى ستال لأول مرة في ١٩ سبتمبر ١٧٩٤ .

لاحظت عليه علامات الخجل بما بدا عليه من ارتباك في مشيته ، كما كان مدعاة للسخرية والضحك في نظرها ، بقامته الطويلة وبصره الضعيف ، لكنها غيرت رأيها فيه بعد مجالسته ومحادثته ، إذ اكتشفت فيه المحدث اللبق الواسع الاطلاع حتى إنها طلبت منه العودة إلى زيارتها مرة أخرى .

عاد إليها ليلظل معها حتى عام ١٨١٠ . وكثيراً ما حاول بنيامين التخلص من مزاج هذه السيدة الحاد

توافقاً إلى إيجاد عمل شريف يشغله عن قلقه ، وينشله من البطالة التي يعيشها ، لذلك نراه يقبل وظيفة تشريفاتي في بلاط أمير دوقية برانسويك (Duché de Brunswick) شارل الثاني السياسي المرن والإداري المخلص ، والأديب النابه . وبالرغم من تقدير بنيامين لهذا الأمير ، كان يمتدح حاشيته ولم ينسجم مع النوق الألماني وأحس بكمراهية طبيعية لسكان البلد . ويقول في ذلك : « إن الألمان قوم ثقيل في التفكير وفي المزاج وفي التسلية وفي الملل » . وكانت سخرية بنيامين وتصرفاته موضع استياء من النبلاء والعظماء في البلاط ، فكانوا يعاملونه بحفاء وصلابة ، فكان يهرب من الجو بقراءة اليونانية ودراسة تاريخ ألمانيا وركوب الخيل واللعب على البيانو ومكاتبه مدام دى شارير . بدأت خطاياتها تحمل إليه كل حب وحنان ، ثم راحت تظهر شيئاً فشيئاً العتاب ، إذ نجحت الأقاويل الخبيثة المغرضة في بث بنور الشك في قلب هذه السيدة وإضعاف تلك الصداقة النقية الطويلة .

هكذا وجد بنيامين نفسه في عزلة ، مكوم القواد ، مكسور الخاطر ، فقرر الزواج في مايو ١٧٨٩ من وللملين دى كرام (Wilhelmine de Cramm) الوصيغة في بلاط شارل الثاني . لم تكن هذه الزوجة جميلة ، بل بالعكس دمية تحمل أثر الجدرى في وجهها ، حمرة الأجفان ، نجيفة القوام ، عارية من كل ثقافة ، وفقيرة فوق كل هذا . عاش الزوجان فترة ساد فيها التفاهم . ولكن سرعان ما انقلبت وللملين من امرأة وديعة مطيعة إلى خاتنة لرباط الزوجية مع أمير روسي . وعلم بنيامين بهذا فتركها ثم طلقها في سنة ١٧٩٥ .

إن هذا الشاب الذي جاء إلى ألمانيا في الواقع ليرتب حياته ويضمن لنفسه مستقبلاً باهراً بما حباه الله من ذكاء ، وسعة اطلاع وقوة قريحة ، والذي استقبل الثورة الفرنسية بحماس ، لم ينجح إلا في الارتباط بامرأة

ولهجتها الآمرة ، ولكن سرعان ما كانت تهيمن عليه فيطيط له المقام بجانبها . كان يشعر بحاجته إلى هذه « المرأة الذكر » ليقوى من عزيمته ويبعد عن نفسه التردد .

وبعد انتهاء عهد الإرهاب في فرنسا ، رأت مدام دى ستال العودة إلى باريس ، ظناً منها أن في التناف المعجيين بها وانتشار صيتها ، سيجعل نجمها يتألق في سماء فرنسا . ولكن سرعان ما خاب أملها ، فعادت أدراجها إلى كوبي في نوفمبر سنة ١٧٩٥ ، أي بعد شهر من تكوين حكومة الإدارة الفرنسية (Directoire) المكونة من خمسة أعضاء والتي ظلت في الحكم أربعة أعوام .

لم يذهب بنيامين إلى سويسرا مع مدام دى ستال لاعتقاده أن النظام الجديد مستكتب له الحياة . وطلب التجنس بالجنسية الفرنسية بصفته منحلاً من أسرة بروتستانتيّة مهاجرة . ثم اشترى ضيعة بمبلغ ٣٠,٠٠٠ فرنك في ضاحية باريس .

وظهر أول كتيب له بعنوان « قوة الحكومة الحاضرة في فرنسا وضرورة الانضمام تحت لوائها » . (De la Force du Gouvernement actuel en France et de la nécessité de s'y rallier)

ثم أعقبه مؤلفين آخرين هما :

« رد الفعل السياسي »

(Des réactions politiques)

« عواقب الإرهاب »

(Des effets de la Terreur)

وبعد أن عاد الوفاق بين مدام دى ستال والحكومة الفرنسية ، سمح لها بالعودة إلى فرنسا على ألا تقطن باريس . فأقامت في ضيعة بنيامين وكان في نيّتها أن تجعل منه وزيراً . وقبل أن تهتم بأمره رأت أن تؤدي خدمة جليلة لصديقتها القديم تاليران (Talleyrand) حيث استطاعت تعيينه وزيراً للعلاقات الخارجية ، أما كونستان ، فجعلت منه سكرتيراً في مساعيا

ومباحثاتها ودسائسها حتى أُنعت به وأنهكته إلى درجة جعلته يكتب إلى عمته لتبحث له عن زوجة . لقد مل خليلته الأدبية المتعبة ومل استعبادها له وعدم الاستقرار الذي يعيش فيه ، وإن كان في قرارة نفسه قد اعتاد على تلك الحياة المضطربة الصاخبة بصالوناتها السياسية ، التي كان يحتدم فيها مع الصحفيين الذين كانوا يعتبرونه فرنسياً دخيلاً .

وفي أوائل عام ١٧٩٧ ، أذنت الحكومة لمدام دى ستال في الإقامة بمدينة باريس حيث عادت إلى دسائسها . وهكذا ساعدت باراس (Barras) أحد الأعضاء الخمسة في « الإدارة » ، في التخلص من اثنين من زملائه ومن كثير من أعضاء البرلمان . ثم قامت بعد ذلك تناهض الإجراءات التعسفية التي اتخذها باراس ، وتستنكرها بعنف .

ووصف بنيامين أعمالها هذه بالطيش وعدم الروية فصبت عليه غضبها هو الآخر . ورأى باراس أن يتخلص من ثروة ونقد مدام دى ستال ، فأصدر أمره بطردها من الأراضي الفرنسية .

ظل كونستان في باريس ليحاول أن يبنى عزم باراس ويقنعه بإصدار العفو عن مدام دى ستال . وفي هذه الأثناء تقابل مع سيدة تدعى جولي تالما (Julie Talma) سبق له التعرف بها على أثر عودته من بلاط شارل الثاني .

ويجدر بنا أن نذكر كلمتين عن هذه السيدة التي نجد شها بينها وبين بطلة قصة كونستان المشهورة .

ولدت سنة ١٧٥٦ ، ورقصت على مسرح الأوبرا وهي في التاسعة من عمرها . ثم تزوجت سنة ١٧٩٠ بالمثل الكبير تالما الذي لم يك وفياً لها .

كانت جولي تتمتع بحسن فادر وبجمال وثناء وثقافة ، راجحة العقل ، قوية العزيمة ، صادقة الحكم ، لمح صالونها خلال حكومة الإدارة . عشقت بنيامين

ولكنه لم يشعر نحوها إلا بالصدقة والاحترام ، فاستيقنت أنها لن تستطيع استمالة ذلك الرجل الثائر ، فانصرفت عن حبه . وماتت بمرض ذات الرئة بين ذراعى بنيامين فى مايو ١٨٠٥ ، فخلد ذكرها فى صفحات جميلة تحمل عنوان « رسالة عن جولى » (Lettre sur Julie) طبعت سنة ١٨٢٩ .

آنا لندسى وكوئستان

رجعت مدام دى ستال إلى فرنسا بفضل مساعى بنيامين ، وفى رأسها أكثر من مشروع ، وأولها إيقاع الجبرال بونابارت فى حبائلها ، وهو يومئذ أكبر رجل فى الجمهورية . وعملت على مقابلته عند تاليران فى باريس عام ١٧٩٨ ، وحاولت جاهدة إغراءه بذكائها أكثر من جمالها . ولكنها أخفقت تماماً لأن بونابارت كان يحقت المرأة التى تشغل بالسياسة . فتوجهت مدام دى ستال مكسورة الخاطر ومهزومة إلى كوين وبصحبته بنيامين كاتم سرها ووكيل أعمالها ومشاطرها أحرانها وآلامها .

وعندما عاد بونابارت من مصر وأحدث انقلاب ٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩ الذى مهد لقيام الامبراطورية ، كانت مدام دى ستال وبنيامين فى باريس : واختلفت نظرتهما لهذا الحدث حيث تشاءم بنيامين بينما رأت هى فيه فجر الحرية . لذلك راحت تؤلم الولايم وتبدي اعجابها بنابوليون وبأعماله ، وهى ترى من وراء ذلك أن تجعل من بنيامين كوئستان عضواً فى المجلس الاستشارى (Tribunat) بمساعدة تاليران . وقد تم لها ما أرادت .

وقبل أن نسير وراء بنيامين فى وظيفته الجديدة ونتصدى لأرائه السياسية ، يجمل بنا الكلام عن آنا لندسى (Anna Lindsay) التى تعرف بها ، لما لها من شبه كبير ببطله قصته المسماة « أدولف » .

لأنها فتاة متوسطة الحال من أصل أيرلندى ، قامت بترتيبها الدوقة فريتيس جيمس (Fritz-James) فى لندن حيث تقيم . واجتلبها تيار المدنية وقامت بعدة مغامرات غرامية ، ثم استقرت مع شخص يدعى لاموايون (Lamoignon) أنجبت منه ولدين . وذكرها شاتوبريان فى مذكراته قائلاً عنها « إنها سيدة جميلة ساحرة ولكنها ذات مزاج عنيف » .

وعندما أجمعت على الحياة فى باريس سنة ١٧٩٩ ، اتصلت بجولى تالما وترددت على صالونها ، وتقابلت فيه مع بنيامين وتبادلا حباً جنونياً .

كانت « آنا » تطمع فى حياة رتيبة بالزواج من بنيامين ولكنه لم يكن ليفكر فى القران بها ، بل كان همه أن يزيد اسمها فى قائمة عشيقاته . وتراسلا ، واجتمعا ليفترقا على أمل التلاقى مرة أخرى . وتصرف هذا الرجل لا يدهشنا ، فقد عودنا على تصيده النساء اللاتي يشبهن فى أخلاقه وأطواره العجيبة ، ثم تركهن لينسأهن فى أحضان غيرهن .

بطل التحرير

لترك مغامرات بنيامين فى الهوى لنقتفى آثاره فى مهمته السياسية . لم يحاول التزلف إلى رجال الحكم ، بل راح ينتقد موقف الحكومة من أعضاء المجلس الاستشارى . فهاجم الحكومة لعدم اعطائها الوقت الكافى لرجال المجلس للدراسة القوانين ، وطالب بحقه وحق زملائه فى فحص التشريعات فحصاً حراً . كان مذهبه السياسى يركز على الدفاع عن الفرد بما له من حقوق لا تقل عن حقوق الدولة نفسها ، مما أكسبه لقب « بطل التحرير » .

لم يعترف بمبدأ السلطة ولا بمبدأ الأغلبية وإنما بمبدأ الاستقلال الفكرى . ومن المأثور عنه قوله فى أهمية المعارضة : « ما هى حقوق وواجبات المعارضة ؟ إذا كان وجودنا لا فائدة منه ، فليستغفوا عنا . وإذا كانوا

مدينة وايمر (Weimar) بالذات حيث يقيم فيها أناس من ذوى الشهرة العالمية في مجال الفكر والقلم ، فقبلت عرضه . وهناك في جو من الهدوء المناسب ، استطاع كونستان أن يقوم بتأليف كتابه عن الدين .

السير وفق سهاج مخطط

كان بنيامين يتردد على المكتبات العامة ليطالع على أهم المؤلفات اليونانية في اللاهوت والعلوم ويتصل بكبار المفكرين والمؤرخين والعلماء ، وكثيراً ما اجتمع على موائد الطعام بالشاعر الفيلسوف الألماني جوته ويقول عنه : « أنه رجل ذكي عميق التفكير ، له آراء جديدة ، ولكنه أقل الذين عرفتهم بساطة » . وكثيراً ما جالس شيلر وأمضى معه أمسيات في التسامر . وكان اعجابه بهذا الأخير أكثر من اعجابه بجوته .

ظل يتابع أبحاثه طيلة سنة ١٨٠٤ حتى إذا ما ملها ، راح ينتقل ، للترويح عن نفسه في المدن الألمانية ، ولا سيما لايبزيغ وفرانكفورت . كما كان ينزح إلى جنيف ولوزان وكوبي ، لكنه كان يفضل فايمار حيث يقول : « في هذه المدينة أجد ما يشجعني على اتحام مؤلفي الذي اعتبره أهم حدث في حياتي » .

بدأ يشعر بأن صلاته وعلاقته بمدام دي ستال لم تأت بالثمرة التي كان يريجوها ، رغم تضحياته ، كما يتضح من يومياته : « منذ أن تركت العزلة ، أصبحت لا أقوم بأى عمل قيم . . . أين السعادة التي كنت أشعر بها في العزلة ! . . . لقد أصبحت لا أجد اللذة التي ضحيت لها بكرامتي ، ولا الكرامة التي ضحيت لها باللذة ! » .

ولما عزمت مدام دي ستال في ديسمبر ١٨٠٤ على الذهاب إلى إيطاليا لتجد الجو الملائم لكتابة روايتها المقبلة ، انتهز بنيامين الفرصة للاستجمام ، ذهب إلى فرنسا . وجد هناك بعض صديقاته ، فأثر الإقامة مدة أطول من التي قدرها لنفسه . وتردد على جوليت

في حاجة إلينا فليعطونا الوسائل الكفيلة بقيامنا بالمهمة التي علينا من أجلها » . ثم أضاف : « إذا حدث ضرر حاسبونا عليه ، وإن حُسرتنا حرباً أو تأخر عقد السلام ، اتهموا المعارضة . يبقى علينا أن نصبح مسؤولين عن التقلبات الجوية وأن نسير الرياح والعواصف لإغراق الأساطيل وإهلاك الحرث » . وأنهى كلمته بهذه العبارة التي أغضبت بوناپارت : « بلون استقلال المجلس الاستشاري لن يكون هناك تناسق في الأعمال ولا حياة للدستور ، بل سيزجح الشعب تحت نير العبودية والصمت ، الصمت الذي سوف تسمعه أوروبا بأسرها »

وفي اليوم التالي ، استهدف بنيامين لهجمات الصحافة وثورة بوناپارت الذي صاح متوعداً المعارضة بقوله : « هناك اثنا عشر أو خمسة عشر من ذوى الأفكار المجردة يجدر بنا إلقاؤهم في البحر . فهم بمثابة الجرائم العالقة بي والتي يجب أن أقضى عليها » .

أما بنيامين ، فإنه لم يتفاعل عندما رأى بوناپارت يقبض شيئاً فشيئاً بيد من حديد ، على كل السلطات معلناً أن « الحكومة الفرنسية تمثل الشعب صاحب السيادة ولا يمكن قيام معارضة ضد السيادة » . ولم يندم بنيامين عندما رأى نفسه ، في يناير ١٨٠٢ ، معزولاً من المجلس الاستشاري مع عشرين من زملائه الأحرار .

لم يطق البقاء في هذا الجو الخانق وعاد إلى ضميمته في ضواحي باريس مشطاً الهمة ، خائر القوى . لقد أسكنت قنعة السلاح وطلقات المدافع صوت الحكمة والمقل !

وفي هذه الأثناء مات البارون دي ستال ولم يكن في الواقع إلا زوجاً اسمياً . ورأى بنيامين من واجبه أن يتقدم للزواج من أرملته ، ولكنها رفضت عرضه لأنه يفقدها لقب « بارونة » التي تريد التمسك به .

وعندما أبدت تعبها من النفي المستمر ، قال لها بنيامين إنه مستعد لمصاحبتها إن هي ذهبت إلى ألمانيا وفي

« إما أنها مجنونة وإما أنا المجنون ، ولا أدرى كيف سينتهي الأمر بيننا » .

واستطاع بالرغم من حياة القلق التي يعيشها ، الانتهاء من تأليف كتابه عن الوثنية الذي ابتدأه منذ عشرين عاماً ، ولكنه لم يطبع إلا في سنة ١٨٣٣ تحت اسم « الوثنية عند الرومان » .

(Du polythéisme romain)

وفي أوائل عام ١٨٠٧ ، ألف ، في مدى خمسة عشر يوماً قصته المشهورة « أدولف » التي راح يتناولها على بعض أصدقائه ، ولكنها لم تظهر في السوق إلا سنة ١٨١٦ ، بعد أن تناولها عدة مرات بالتنقيح . وسوف نحلل هذه القصة في آخر دراستنا .

بلغ بنيامين كونستان الأربعين من العمر « دون أن يحقق القحار الذي كان ينشده » على حد تعبيره . وسبق له أن قال عن نفسه قبل ذلك ببضع سنوات « إن ما ينقصني في حياتي هو السير وفق منهاج مخطط » . ثم نراه يقول بعد ذلك : « لم اتخذ قراراً حاسماً لثقتي بقصر الحياة الإنسانية » .

إن مثل هذه العقلية ، ومثل هذه الطريقة في تفهم الأمور والأشياء لا تدهشنا إذا كان بنيامين قد وصل إلى عنوان القوة والسن دون أن يعثر على الحياة التي طالما تمنّاها ، ليكون محط أنظار معاصريه . إنه بلا أسرة ، ولا زوجة ، ولا أصدقاء ، ولا حب ، ولا سعادة . ولا نجاح ، ولا أي مشروع مخطط للمستقبل . هذه كانت حياة هذا الرجل الذكي المثقف الذي معه ضعف عزيمته ، من اختراق أبواب الحياة ، وكبله بالسلاسل حتى أنه بدل أن يرتفع صيته ، ظل منزوياً وغير معروف إلى حين .

ونود التنويه هنا بملاحظتين عن بنيامين : الأولى أن علاقته بمدام دي ستال لم ترفع من معنويته ، بل كانت مصدر متاعب ومضايقات له . صحيح أن هذه العشيقة المنسلطة كانت تعترف بموهبة صديقها ولكنها

ديكاميه (Juliette Récamier) التي لم يكن قد هام بها بعد ، وزار أتنا لندسي التي ما زالت تبحث عن زوج شرعي ، واتصل بجولي تالما التي أصيبت بداء الصدر وأشرفت على الموت ، وتقابل مع شارلوت دي هندنبرج التي كانت تأمل في أسر قلب بنيامين بعد أن فشلت في حياتها الزوجية مرتين .

هكذا أمضى بنيامين أجمل الأوقات في باريس ، ثم توجه إلى كوبي في يوليو ١٨٠٥ ، وكانت مدام دي ستال قد عادت إليها بعد رحلتها الموفقة ، فوجدتها أكثر تفتحاً لدواخل قلبها ، وأكثر فيضاً في شعورها . وكان المعجبون بها يحفون من حولها ويستمعون بلذّة إلى الانطباعات التي تركتها « المدينة الخالدة » في نفسها . لم يستغ بنيامين هذا المنظر واستاء من هذه الجموع ودخلت الغيرة قلبه على صديقه ، وقامت محاولات لتهديته وترويضه . وروى آخر الأمر تمضية الشتاء في جنيف . وعرضت مدام دي ستال أن يقوم بدور تمثيلية لراسين وأخرى لفولتير ، ولكنه لم يحسن دوره ، بينما أظهرت مدام دي ستال مقدرة فائقة على التمثيل .

لم تنسه هذه التسلّيات مهنته ككاتب حيث يقول : « كم أريد الانتهاء من كتابين أحدهما في السياسة والآخر في الدين ، لأترك أثراً خالداً من بعدى » .

وفي سنة ١٨٠٦ ، نشر مقتطفات من كتابه في السياسة الذي استغرق أربع مجلدات طبعت فيما بين ١٨١٨ و ١٨٢٠ تحت عنوان : دراسات في السياسة الدستورية

(Cours de Politique Constitutionnelle)

وفي شهر مايو من هذه السنة ، استدعت مدام دي ستال صديقها كونستان إلى أوكسير (Auxerre) حيث كانت تقيم مؤقتاً للإشراف على طبع روايتها الجديدة كورين (Corinne) . وما أن اجتمع العشيقان حتى قام الشقاق بينهما ، ويقول في ذلك :

كانت مشغولة عنه بمصلحتها الخاصة ، وكانت ترى فيه العشيقة أكثر من الأديب ، العشيقة الذى يستطيع إشباع رغباتها وملذاتها أو يخفف من حدة الشدائد التى كانت تستهدف لها من جراء تهورها . والملاحظة الثانية ، أن الشهرة التى حظى بها بنيامين فى آخر حياته ، كانت سياسية أكثر منها أدبية . فالصدقة والصدقة وحدها هى التى جعلت منه روائياً . وهذا الرواى لم يسجل التاريخ اسمه إلا بعد وفاته بوقت طويل .

شارلوت وكونستان

ورد اسم شارلوت دى هردنبرج فيما سبق من الكلام . ويجعل بنا هنا أن نذكر طرقاتاً من جوانب حياتها المتصلة بكونستان .

تنتمى هذه المرأة العاطفية فى شعورها ، الهوائية فى مزاجها ، البسيطة فى تفكيرها ، إلى أسرة ثرية من هانوفر (Hanovre) . كانت على وشك الطلاق من زوجها الأول عندما تعرفت بصاحب هذه الدراسة ، فى برانسويك ، واشتعل قلبها حباً به . ولكن لم تكن لديه الرغبة فى الزواج منها بعد أن مر بتجربته مع ولهمين .

رأت شارلوت ، أمام هذه الصلصة أن تتركه مدة من الزمن ، ولكنها لم تستطع ذلك بدافع عاطفتها الفياضة . وعندما أظهر لها حنانه تمتعت عنه . فغضب . فطلبت منه الصفح ، فلم يبد اهتماماً . فأصرت على أن يعتذر ، فتهرب ، فتملكها الغضب بدورها وقررت قطع علاقتها به نهائياً . فاستحلفها أن ترضى بزيارته لها ، فقبلت ولكنه تراجع .

ومرت عشر سنوات ، وكان كونستان فى هذه الآونة قد تعلق بمدام دى ستال . فما كان من شارلوت إلا أن عقدت قرانها الثانى على الفيكونت ألكسندر دى ترتر وهو رجل دنى لا ضمير له :

وتلاقى بنيامين بشارلوت فى باريس فى شتاء عام ١٨٠٤ - ١٨٠٥ وأفرغ كل منهما ما فى قلبه من متاعب ومآسى للآخر وانفقا على الزواج ، ولكن كان عليهما الانتظار ثلاث سنوات : فكونستان كان مقيداً بمدام دى ستال من جهة ، ولم يقبل زوج شارلوت طلاقها من جهة أخرى إلا مقابل مبلغ وفير من المال . وفى مايو ١٨٠٧ ، التقى العشيقتان فى باريس . ويقول كونستان فى مذكراته : « كثيراً ما أذهب إلى مدام دى ترتر وأشعر بسحر جمالها وبطبيتها وحنانها مما يجعلنى أحس بالسعادة بجانبها وأن قرانى بها فيه راحة الحياة .

ولكنه سرعان ما كان ينتقل من التفاؤل إلى التشاؤم ، ومن اليقين إلى الشك ، فيضيق فى مذكراته : « قضيت سيرة مع شارلوت . هل تنطفىء جذوة هذا الحب ويحل محلها السأم ؟ هذا ما أخشاه ! إن يهرها أخذ فعلاً ولكنها قلقة الشعور ولا تعرف تنويع الحديث . »

ومع كل ، فإن كانت مدام دى شارير ، وأنا لنسمى ، وجولى تالما ، وحتى مدام دى ستال ، لم يستطعن الاحتفاظ به ، فإن شارلوت استطاعت ذلك . صحيح أن كونستان عندما سيصل إلى الخمسين من عمره سيهم بامرأة أخرى . ولكن هذه المغامرة ستبلغ التفاهة حداً يجعل شارلوت لا تعطيها أية أهمية .

ولكن لا تتعجل الحوادث : فشارلوت لا تحمل اسم مدام كونستان بعد . وعندما ستحملة ، ستضطر إلى الانتظار بعض الوقت للإقامة فى عرش واحد . ففى أواخر يونيو ١٨٠٧ ، ذهبت إلى ألمانيا لتصفية موقفها مع ألكسندر دى ترتر . وأرسلت مدام دى ستال رسولا من قبلها إلى كونستان ليخبره بأنها ستنتحر إن لم يعد إليها : هب كونستان يلبي نداءها ، فلما وصل إليها وجدها تضحك وتلهو وسط زوارها ، فغضب وتركها مع بطانتها التى لم يسترح لها ، وذهب إلى لوزان . ألحت

وزوجه بالهزيمة : فذهبت شارلوت إلى والد زوجها ،
وتوجه هو إلى كوبي عند مدام دي ستال .

مناهضة الاستعمار

رأى كونستان : بعد أن أمضى شهراً وشهوراً في
كوبي ، بين البطالة وحدة المزاج وعقاب الضمير ،
أن يسافر إلى ألمانيا مع شارلوت للتعرف على أسرهما .
وهناك أقام في قصر والدتها وشعر بالنشاط يدب في
أوصاله ، ولكن إلى حين . لأن البروتوكول الألماني
المتشدد لم يرقه . وخلال فترة النشاط تلك ، حرر
« الكراسة الحمراء » وزار مدينة برانسويك التي أمضى
فيها ست سنوات من شبابه ، ثم عاد منها محملاً
بالذكريات المحزنة المؤلمة .

بدأ يعمل الحياة حتى مع زوجته كما بدأ هذا الملل
يجعله بأسف على الأيام التي عاشها في نزاع مع مدام
دي ستال « ذلك البركان المنقذ » الذي انطلقاً بالنسبة له ،
والذي قد يلهب مرة أخرى لأناس آخرين .

وفي هذه الأثناء : وصلته أنباء هزيمة نابليون في
روسيا ، وهبت على أوروبا ريح الحرية . وبدأت قلوب
الناس تتفتح لآمال جديدة : وشاطر كونستان الناس
حماسهم ورأى أن نهاية الإمبراطور قد قربت : فنبش
في هانوفر رسالة ضد نابليون تحت عنوان « روح الغزو
والسلب »

(De l'esprit de Conquête et de l'Usurpation)

إن هذه الرسالة التي تشرف كاتبها . تعتبر بحق ،
ذات قيمة كبيرة حتى في أيامنا هذه : ذلك لأن
الاستعمار لا يزال يصب سموه في العالم بواسطة أذنابه .
ونستحق هذه الرسالة : في الواقع ، دراسة دقيقة وإفية
ولكن نظراً لضيق المقام . سنتطلف منها هاتين
الفقرتين :

« إن الدفاع عن الوطن شيء . والاعتداء على
أقوام لم وطن يدافعون عنه شيء آخر . إن روح الغزو

مدام دي ستال في عودته إليها ولكنه تلكأ في الاستجابة
فذهبت هي إليه . ويقول في مذكراته : « جاءت إلى
وارتمت تحت قدمي وراحت تصرخ بشكل يفتت
الأكباد المتحجرة . وعدت معها إلى كوبي ورضيت
بالإقامة فيها ستة أسابيع . إن شارلوت تنتظري في
أواخر سبتمبر . فما العمل ؟ هل أدوس على مستقبلها
وعلى سعادتي ! » .

مرت الأسابيع الستة ومرت الأشهر وكونستان
لا يستطيع الفكاك من مدام دي ستال .

وأخيراً تقابل مع شارلوت في باريس سنة ١٨٠٨
وكانت قد تخلصت من رابطة الزوجية وتنتظر تكوين
حياتها الجديدة .

لم تكن لدى كونستان الشجاعة الكافية ليفتح
مدام دي ستال بمكنون صدره خوفاً من « أظافرها أن
تمزق لحمه » حسب قوله .

وأخيراً قرر الزواج من شارلوت في يونيو ١٨٠٨
على شرط أن يظل هذا القران طي الكتمان بعض الوقت .
رضيت شارلوت ، في بادئ الأمر ، عن هذا الشرط .
ثم رأت أن زوجها كثير التغيب ، كثير الأسفار إلى
كوبي ، فطلبت منه أن يثوب إلى رشده وأن يتصرف
تصرف الرجل القوي الحازم .

لم يستطع ذلك إلا في مايو سنة ١٨٠٩ عندما ضرب
ضربته القاضية بتقديم زوجته إلى مدام دي ستال التي
رأت نفسها أمام الواقع : فراحت تكيل له أنواع المهجو
والشتم ووصمته بعدم الوفاء والأنانية والجبن . وبعد
ذلك أملت عليه شروطها : لا بد من بقاء الزواج سراً
إلى إيجاد حل مشرف لموقفها : وخلال البحث عن حل
لهذه الورطة : يجب على بنيامين أن يعيش في كوبي ؛
أما شارلوت فلتذهب حيثما أرادت .

ولما لم يمكنه الوقوف في وجه هذه الطلبات ولا
الصمود أمام تيار ذلك العتاب ، اعترف كونستان

أستحقه ، لا كما يميل إلى أنهم يرفضون هذا المركز
لى .

وأخيراً قرر الفوز بهذا المركز بعد أن انضم إلى
الملكية الدستورية ، نشر عدة كتيبات يوضح موقفه ،
نذكر منها : « تأملات في النظم » (Réflexions sur
les Institutions) و « التفرقة بين السلطات »
(Distinction des Pouvoirs) و « حرية الصحافة »
(Liberté des Journaux) و « مسؤولية الوزراء »
(Responsabilité des Ministres) .

نالت مؤلفاته التحررية هذه كل تقدير وكان
موضع حفاوة وولائم وحفلات . ويقول في ذلك وقد
عمه السرور : « لقد انتشر صيتي » .

إن كل شيء أصبح يتسم في وجه كونستان
وتفتحت أمامه الأبواب على مصاريعها لمهام جديدة .
ولكن في هذه اللحظة شعر بحج جارف طارئ لا يناسب
وقاره يدفعه نحو مدام جوليت ريكاميه .

كاتب سياسى لامع

كانت مدام ريكاميه تعتبر أجمل نساء عصرها ،
ترعى القلوب تحت قدمها ، تتمتع بسحر لا يقاوم
وذكاء وقاد . كانت تعيش في المنفى مثل صديقتها
مدام دى ستال ، خلال حكم نابوليون . ولما عادت إلى
فرنسا في يونيو ١٨١٤ ، فتحت صالونها الأدبي لكبار
الشخصيات المشتغلة بالسياسة والأدب والفن والعلم .
ومع أن كونستان كان يعرف هذه السيدة منذ عشرين
عاماً دون أن يشعر نحوها بأكثر من الود والصدقة ،
ومع أنه كان يعرف عنها فتورها الجنسي إزاء عشاقها
— وما أكثرهم — أحس « بالنار تأكل أحشاءه » كما
لو كان في سن الثامنة عشرة ، كما يقول :-

وكتب في فجر هذا الحب الأسطوري يقول :
« كنت أمضى أُمسيتي لدى مدام ريكاميه ، المرأة التي
عشت معها في سويسرا ، ورأيتها في أكثر من مناسبة

تحاول الخلط بين هاتين الفكرتين . لبعض الحكومات ،
عندما ترسل جيوشها من قطب إلى آخر ، تتكلم عن
الدفاع عن حياضها ، كأن كل مكان تضم فيه النيران
يصبح من أملاكها . . . » .

وقال أيضاً : « إن القوة التي تمكن شعباً من
استعباد الشعوب الأخرى تعتبر في أيامنا هذه ميزة
لا دوام لها . فالأمة التي تسير على هذا المنهج الاستعماري
تضع نفسها في موقف أخطر من الموقف الذي تضع فيه
الأقوام الضعيفة نفسها . إن مثل هذه الأمة تصبح عظم
الاحتقار والاشتمزاز من أهل الدنيا بأسرها . وأن
الضمير العالمي والأمانى القومية والسخط العام تقف في
وجهها . وأن هذا الضمير وتلك الأمانى وذلك السخط
تصب ثورة غضبها على رأس تلك الأمة لتدمرها » .
ولانكون مبالغين إذا قلنا بأن هذه الكلمات تنطبق
بالحرف على الأمم الاستعمارية الموجودة الآن . ولو أن
كونستان لم يسطر غير هذه الكلمات لكففت لذكراه
الخلد في سجل التاريخ وفي القلوب المحبة للتحرر .

وبعد هزيمة نابوليون في معركة لاينبرج واضطراره
إلى التنازل عن الإمبراطورية ونفيه في جزيرة الب
(Elbe) : عاد كونستان إلى باريس سنة ١٨١٤ وحده ،
تاركاً زوجته في هانوفر عند أهلها .

وجد الناس الذين أغدق عليهم نابوليون الألقاب
والأموال يحاولون التقرب من الملك الجديد لويس
الثامن عشر . ورغم التقدير الذي لقيه من الصحف التي
امتدحت رسالته ضد الاستعمار ، انتاب كونستان
شعور متناقض جعله يكتب في مذكراته بتاريخ ٢٩
مايو ١٨١٤ : « لا أعرف شيئاً عن مصرى : فلم تغدق
على رجل عبارات الثناء أكثر مما أغدقت على ، ولم يعلن
رجل من العزلة التامة أكثر مما عانيت » .

ثم أضاف بعد يومين : « أعتقد أن الناس
يكرهونى ، وقد يكون هذا وهماً منى . ولكنى في
الحقيقة أنا المستول عن عدم وضعى في المركز الذي

هذا ونادى بالعفو العام ، وقرب إليه كونستان باعتباره أعظم كاتب سياسى فى عصره .

اتخذت مقابلة نابوليون له صفة الصراحة والود ؛ وكلفه باعداد الدستور . دهش كونستان من هذا التكليف بقدر ما سر منه . ودفعه اعتقاده فى حسن نية نابوليون إلى أن يقوه بما كلف به ويتجزه فى بضعة أيام .

رأى الامبراطور أن يكافئه . فعيه فى مجلس الدولة . وأظهر كونستان من الهمة والكفاءة ما جعله ملتقى الأنظار . ونستطيع القول بأنه كان يعتبر فى ذلك الوقت أكبر شخصية سياسية فى نظام الحكم القائم .

ولكن انهار هذا الصرح بعد مائة يوم على أثر موقعة « واترلو » ونفى نابوليون إلى « سانت هيلانه » . وكتب كونستان فى مذكراته يوم ٢١ يونيو ١٨١٥ ، ليلة تنازل الامبراطور : « يا لهؤلاء الأندال ! إنهم خدموه بخاس عندما داس الحرية بقدميه . وتخلوا عنه عندما أقامها ! » .

وعاد لويس الثامن عشر والتف حوله النبلاء وطلبوا معاقبة الذين خدموا نابليون . وكان المقصود بذلك بنيامين . فما كان من هذا الأخير إلا أن أرسل خطاباً إلى الملك يبرر فيه موقفه ويبرهن بأنه ظل متمسكاً بالآراء التى تخدم مصلحة الوطن فى ظل التحرر .

أنقذته هذه الرسالة من ذل المنفى . حتى إن رئيس الشرطة قال له : « لقد نجحت رسالتك وأقنعت الملك » فرد عليه بكل بساطة : « أعتقد ذلك لأنها أقنعتنى أنا نفسى » .

واتضح له أن الملكيين يحاولون انقاص قدره فى الصالونات ، فصمم على ترك البلاد . ويقول فى مذكراته بتاريخ ٢٤ يوليو ١٨١٥ : « سأترك فرنسا لمدة طويلة . لأنى منهوك القوى . قد شمت الناس ومدام ريكاميه . إن قلبى ورأسى فى حاجة إلى الراحة .

ولم أشعر وقتها بأية جاذبية نحوها : وإذا فى على حين غرة . أجد نفسى فريسة حب جارف . ولا أدري هل أصابى مس من الجنون أم أصبحت أحمق ؟ ولكن أملئ أن أتخلص من هذا المأزق » .

ثم كتب بعد ذلك بأيام : « إن هذا الشعور . للأسف : لا يتركى وحمى الحوى انسابت فى مفاصلى وامتلكت جسمى وعقلى . لقد انتهى عهد العمل والسياسة والأدب . نعم كل شيء انتهى ليبدأ عهد جوليت بالسيطرة على حياتى » .

كاد هذا الحب ينطفىء فى غده لولا نصيحة السيدة جوليانا كروودنر (Juliana Krüdner) التى كان لها نفوذ على القيصر اسكندر الأول . وكانت تميل إلى التصوف وعلم النفس . لقد نصحته بالصبر والأمل . ولكنه مل الانتظار والأمل وأصبح منهوك القوى « يقضى الليل راكماً يصلى أو مستلقياً على البساط » . غريق وجدانه إلى أن ثاب إلى رشده من شعوزة تلك المرأة ، وعاد إلى العمل والسياسة والأدب .

وفى هذه الأثناء . رجعت أوروبا أنباء عودة نابليون من جزيرة الب إلى فرنسا . ونشر كونستان فى جريدة « جورنال دى بارى » بتاريخ ١١ مارس ١٨١٥ مقالا ينتقد فيه حكم نابليون الاستبدادى الذى سبب غزو الوطن . ثم نشر مقالا آخر فى « جورنال دى ديبا » بتاريخ ١٩ مارس ، أعنف من الأول . مؤكداً أفكاره التحررية ، مشبهاً نابوليون بالطاغيتين تيمور لنك وجنكيز خان .

كان لذهذين المقالين دوى كبير ، ولكنهما أغضبا أنصار الملكية وأنصار بوناپارت . ووصمه الأولون بالهوى والآخرين بالوقاحة .

وفى يوم ١٩ مارس المذكور ، ترك لويس الثامن عشر باريس ليدخلها الامبراطور فى اليوم الثانى .

كان من المنتظر أن ينتقم نابوليون من السياسيين الذين خانوه وأن يحكم بالحديد والنار ، ولكنه لم يفعل

سأذهب إلى سويسرا وإلى زوجتي . وهذا كل ما أطلبه من الله » .

ولكنه لم يترك فرنسا إلا بعد ثلاثة أشهر من هذا التاريخ ، قاصداً بروكسل حيث لحقت به زوجته في أوائل ديسمبر . ثم سافروا إلى إنجلترا في ١٥ يناير سنة ١٨١٦ . وفي لندن ، رأت قصة « أدولف » النور بعد تسعة أعوام من تحريرها . واشتراها الناشر منه بسبعين جنياً ذهباً .

أعمال النائب الكبير

عندما عاد كونستان إلى باريس في سبتمبر ، وجد نفسه في عزلة تامة : فلا وظيفة ، ولا صديق حتى أصبح غربياً في وطنه .

كانت الانتخابات على الأبواب ، وكانت شعارات المرشحين ومناقشتهم تافهة إلى درجة جعلت كونستان يفضل البقاء في قصره العاجي . وروح عن نفسه باستئناف كتابة مذكراته عن « المائة يوم » (Mémoire sur les Cent-Jours) التي بدأها في إنجلترا . وظهرت في جزئين بعد انتهائه من تحريرها بأربع سنوات . وفي هذه الأثناء ، علم بمرض مدام دي ستال ، فذهب إليها وظل بجوارها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في سنة ١٨١٧ ، ولم نعرف مدى ألمه على موتها لأن مذكراته تقف عند سنة ١٨١٦ .

عاد بنيامين بعد ذلك إلى أعماله الأدبية . فراسل عدة صحف تحريرية ، وألقى سلسلة من المحاضرات عن الدين ، وبدأ يطبع كتابه المسمى « دروس في السياسة الدستورية » الذي يضم مذهبه وآراءه وأفكاره واقتراحاته فيما يتعلق بالحكومة النيابية والدستور في فرنسا . واعتبر هذا البحث القيم ميثاق المعارضة البرلمانية لعدة سنوات .

كان ضمان حقوق الفرد في نظر بنيامين ، يمكن في كلمة « الحرية » وكان واجب الحكومة عنده ،

ضمان هذه الحرية في جميع أشكالها : حرية الفكر ، حرية الصحافة ، حرية الدين ، حرية السياسة ، حرية الاقتصاد أي حرية التصرف في الأموال المكتسبة بالبراث أو من العمل الإنساني . ولكننا نلاحظ فيما يتعلق بهذه العبارة الأخيرة ، تحفظاً يقربه من الاشتراكية إذ يضيف شارحاً : « إن الملكية بصفتها من المرافق الاجتماعية ، تصبح من اختصاص تشريع المجتمع وعلى ذلك يكون للمجتمع حقوق عليها » .

ولدينا ملاحظة أخيرة : فانه وإن بنى مذهبه على مبادئ ثورة ١٧٨٩ وبالتدقيق على وثيقة حقوق الإنسان ، فهو لا يبعد الانتخابات العامة ولا يهتم بالمشاكل الاجتماعية ، وبالتالي لا يثنى على الديمقراطية . هل تنسى كلمته المشهورة التي تبدو ساحرة لأول وهلة ولكن لا يمكن التسليم بها ولا أخذها على علاتها . يقول كونستان : « إن الحرية في رأيي هي انتصار الفردية على السلطة التي تريد أن تحكم بالوسائل الاستبدادية وعلى الجماهير التي تطالب بحق استبعاد الأغلبية للأقلية » يتضح لنا بتحليل هذه الفكرة الخلاصة في ظاهرها ، أن الفرد يجب أن يكون فوق السيادة وفوق الأمة وفوق الدولة ، أي يجعل البلد بدون حكم وبدون مراقبة ، الأمر الذي لا يتفق مع المنطق السليم .

كان كونستان يأمل بعد تجربته المؤسفة في المجلس الاستشاري ، أن يكون في يوم من الأيام ، المدافع عن الحرية والعدالة على منصة الخطابة . ولقد تهيأت له هذه الفرصة في سنة ١٨١٩ عندما انتخب عضواً في مجلس النواب ، حيث ظل محتفظاً بهذه العضوية إلى يوم وفاته . كان عضواً معارضاً وخمساً عنيداً لحزب اليمين . لم يكن بالخطيب المقهور بيد أنه كان قادراً على حسن العرض والاقناع .

وإذا كان كونستان مكروهاً من اليمين ، فلم يكن محبوباً من أعضاء حزبه ، ونعني بهم الأحرار لتبعيتهم للبرجوازية التي كانت تهتم بالمحافظة على مركزها وعلى

أموالها ومظهرها، وتسخر من أمثال هذا الرجل الصريح الذى لا يعبأ بالتقاليد والعادات الملية بالخداع والرياء والمخاتلة .

وفى سنة ١٨٢٦ بدأ بإصدار الجزء الأول من كتابه المفضل المسمى « الدين فى منبعه وأشكاله وتطوره » (La Religion considérée dans sa source, ses formes et ses développements) الذى يقول عنه البروفسور هنرى بيير (Henri Peyre) « إن كونستان يبدو فيه من كبار الباحثين فى الأدب اليونانى من ذوى الأفكار الفريدة ، متقدماً فى هذا المضمار على كينيه (Quinet) ورينان (Renan) . » ولم يظهر الجزء الخامس والأخير من هذا العمل إلا بعد وفاة المؤلف بسنة .

كان كونستان يمثل الاستقلال البرلمانى قلباً وقالباً ، كما كان يمثل المقاومة ضد الاستبداد ، كان الشباب الذى يحب فيه حسن البصيرة والنزاهة يحفظ خطبه عن ظهر قلب ويقرأ بشغف واهتمام كتبه ومقالاته . وكانت الرسائل تندفق عليه من كل أنحاء فرنسا معبرة عن التقدير له والاعجاب به .

وفى سنة ١٨٢٩ أخذ السخط يزداد فى البلاد على أثر الأوامر الملكية التى راح يصدرها شارل العاشر وريث عرش لويس الثامن عشر . وقبل ثورة الشعب فى يوليو ١٨٣٠ ، أعلن كونستان فى البرلمان قائلاً : « إننا لا نهجم الامتيازات الملكية وإنما نطالب الملك فقط بالتنسيق بين السلطات ، وذلك إما بطرد مستشاريه أو بقيام انتخابات جديدة » . كان كونستان يريد ، بمعنى آخر ، إما تغيير الوزراء أو حل مجلس النواب .

واختار الملك حل المجلس ، وجاءت الانتخابات فى صالح المعارضة على غير ما كان يحسب . وكان على شارل العاشر إما أن يخضع أو أن يتنازل عن العرش . ولكنه اختار حلاً ثالثاً : وهو ضربه بعرض الحائط توجيهات المعارضة ، فقامت الثورة . وكان كونستان

فى الريف متعباً ملازماً الفراش يعود الأكلاء حتى إن لافاييت (Lafayette) ، رجل اليسار المعروف ، أرسل إليه يقول : « إن الناس يلعبون هنا دوراً فيه ضياع رؤوسنا ، فقدم رأسك ! » .

لب كونستان نداء الواجب وذهب إلى باريس . وكان ضمن المائتين وواحد وعشرين عضواً فى مجلس النواب الذين وقعوا على وثيقة عزل الحكومة وانتخاب لويس فيليب ملكاً . ورأى الجالس الجديد على العرش أن يكافئ بنيامين ، فعينه رئيساً لمجلس الدولة .

ومات المترجم له فى ١٠ ديسمبر ١٨٣٠ ، وسار فى جنازته ، باعتباره بطلاً شعبياً ، أهالى باريس والوزراء وأعضاء البرلمان وقواد الجيش : وحمل الشباب نعشه على أكتافهم تعظيماً لرجل السياسة والأدب الذى استحق تقديرهم واحترامهم .

قصة أدولف

عندما ظهر كتاب « أدولف » ، لم يلق أى فهم أو تقدير من معاصريه . وعندما خصه الكاتب المعروف سانت بوف بدراسة فى سنة ١٨٥٢ ، لم يكن معروفاً إلا من رجال الأدب . ولم يحظ بالشهرة إلا بعد وفاة مؤلفه بأربعين عاماً ، متخذاً مكانه بين روائع الأدب الفرنسى . وحكم عليه الناقد الكبير البير تيبوديه (Albert Tribaudet) بقوله : « ألف بنيامين كونستان هذا الكتيب الذى سيظل لابساً ثوبه القشيب عبر الزمن : إنه قصة حياة فاشلة ، لا قصة فاشلة . والدليل على ذلك هو أن الرواية السيكولوجية فى فرنسا ، لم تزد خلال نصف قرن ، أكثر من السير على منوال هذه القصة المأدبة المزنة الشاملة للأهواء والأحاسيس الإنسانية ذات الرنين المستمر الصدى ، مع تعهدها بالإضافة والتعديل والتبديل والتجديد ليس إلا . » ويقول تيبوديه أيضاً : « إن « أدولف » قصة عبودية راضية ، عبودية

وهذا ما فعله بنيامين كونستان . وفي تقديرنا أن اللينور هي مزيج من أنثى لندسي ومدام دي ستال وجولي تالما التي تكلمنا عنهن فيما سبق .

فاللينور : مثل « أنثى لندسي » : سيدة أجنبية لها طفلان تربطها علاقة غرامية : يقبض قلبها بالحنان والود ولكنها مستبدة ، حادة الطبع إلى درجة مضايقة معشوقها . ومركز أدولف وخدين اللينور في القصة هو مركز بنيامين وخدين « انا لندسي » . وأخيراً فإن الظروف التي تحيط بمأذى اللينور مستقاة من الظروف التي أحاطت بأنثى لندسي .

واللينور هي أيضاً مدام دي ستال في جهادها في الدفاع عن حبها وفي الرغبة الملحة في إطالة مدته وظهورها في مظهر الضحية . وأن بعض مواقف اللينور مع أدولف منقولة من المواقف التراجيدية الغرامية لمدام دي ستال مع بنيامين . وأن ما قاله كونستان في مذكراته سنة ١٨٠٤ عن حياته القلقة المشوبة بالآلام مع عشيقته تلك ، يمكن تطبيقه حرفياً على بطل الرواية : « كم أود ترك الشكوى ، لا من مصائب الحياة : بل من ناموس الطبيعة أى من الشيخوخة . إني أريد ، أنا الرجل ، ألا أتعمل انفعالات امرأة ضاع شبابها . لا أريد أن أطلب بالحب بعد اتصال دام عشر سنوات ووصولنا إلى حافة الأربعين من العمر . وكما أعلنت أن الحب هجر قلبي . وهو تصرع لم أرجع فيه إلا لتهديئة أزمات الألم والغضب التي كنت أخشاها » .

وأخيراً فإن كونستان الذي كان بجوار جولي تالما ساعة لفظها أنفاسها الأخيرة : نراه يتذكر ذلك الموقف الرهيب عند وصفه احتضار بطلة روايته .

إن أدولف يظن أنه يحب اللينور ولكن عندما يجد هذه المرأة شغوفة به ، يحاول الابتعاد عنها . لأنه صورة طبق الأصل لواضع القصة : فهو المعشوق المتردد أمام الحب . الذي يظل محبوباً بينما قد خلا قلبه من الغرام . لذلك كتب كونستان في يوم من الأيام هذه الجملة :

قام بتحليلها رجل وهب نفسه للحرية التي فضلها على كل شيء في حياته .

إن هذه الكلمات الوجيزة التي جاءت على لسان الناقد تعطى فكرة صحيحة عن القصة وعن طبيعة مؤلفها .

تقوم عبقرية كونستان على نجاحه في التخلص من كل ما هو جاف . وتشويق القارئ بأسلوب سلس خلاب . رغم خلو القصة من وصف الطبيعة . أو وضعها في إطار زخرفي . ورغم خلوها من التفاصيل عن الأبطال والأشخاص الثانويين ، ورغم خلوها من المفاجآت ومن تكرار الحوادث أو وصف الأخلاق أو المكان الذي تجري فيه فصول الرواية . ووقائع القصة تدور في قلوب استطاع بطلها - وهو الكاتب نفسه - أن يدرسها بدقة وأن يقوم بتشرحها ، لا ليدافع عن نفسه وإنما ليثبهما ويعود عليها باللائمة : ويكشف عن الآلام . لا للشكوى منها وإنما ليتحملها في سكون . ويقدم اعترافاته بشجاعة موضحاً أخلاقه بما فيها من رخاوة وضعف : عارضاً المواقف التي خاضها دون تميق ودون دموع . لأنه « كان أكثر أهل جيله رجولة وصراحة » حتى إنه جعل من نفسه على نفسه شاهداً وحكماً .

وإذا كان من السهل على القارئ أن يعرف في أدولف حياة كونستان : فمن العسير أن يتعرف على الشخصية التي تحفها اللينور .

بطلة القصة

يعتقد كثير من الناس أن هذه السيدة تتقمص شخصية النساء التي اتصل بهن الكاتب اتصالاً وثيقاً . ودون الوقوع في مثل هذا الاعتقاد المبالغ فيه ، يمكن القول : كما أن الرسام يستعمل مختلف الألوان ليخرج لوحته . ولأديب يتخذ من بعض الأشخاص الذين قابلهم في حياته صورة يستخرج منها شخصية البطل .

« بدهشنى أن أرى نفسى كريمة فى مهب الريح ، أنا الذى كثيراً ما رغبت فى التعلق بأى شئ » .

إن هذه الكلمة يمكن تطبيقها على أدولف . وفى الواقع يشعر هذا البطل بدوره بأنه غير قادر على ترك اللينور أو البقاء بجانبها ؛ غير قادر على الاعتراف بنهاية حبه لها أو إخفاء ذلك عنها ؛ غير قادر على الاحتفاظ بذكرها أو نسيانها .

وهذا الشعور المتناقض لاحتفائه فى حياة كونستان : فعندما كان يربط مصيره بمصير امرأة ما ، كان هذا الرجل المطاوع لعقله أكثر من قلبه ، لا يكشف إطلاقاً عن مكنون صدره أو عما يحول فى فؤاده . كان لا يتوانى فى البحث عن طريقة تعيد إليه استقلاله وحرية . بيد أنه كان عند انفصام حبل الصلة ، يتأسف على الملمات السابقة ويشكو من افلاته من ذلك الحب بدون روية . كانت هذه الشكوى وذلك الأسف يجعلانه يشعر فيها بعد ، بالعرفان وبالشفقة نحو التى تركها ، لأنه إذا كان الثبات ينقصه : فإن الشعور الرقيق متوفر لديه . ويقول فى مذكراته : « إن حياتى . فى الواقع : لا توجد إلا داخل نفسى ؛ ولا أظهر منها إلا جانبها الخارجى لمن يشاء . أما جانبها الداخلى فحماط بسور منيع لا يمكن لأحد اجتيازه . وربما نصل الآلام إلى هذا الجانب الداخلى عن طريق الناس ولكنهم لن يستطيعوا الاستيلاء عليه » .

والآن نورد فيما بعد ملخص قصة أدولف مع ذكر مقتطفات منها خلال سردها .

أدولف أو عدم القدرة على الحب

أدولف هو ابن وزير يعمل فى معية أمير ألماني . قد أنهى علومه فى جامعة جوتنجن Goettingue فى سن الثانية والعشرين . تبدو عليه علامات الحجل والتحفظ كوالده الذى يريد تدريبه على مهته ليرث مركزه فى يوم من الأيام . ويذهب أدولف للترويج عن

نفسه إلى مدينة مجاورة ويتعرف باللينور السيدة البولندية الشابة .

على أثر اضطرابات وقعت فى بولندا . انهار بيت أسرتهما ونفى والدها فى روسيا . وذهبت هى مع والدتها إلى فرنسا . وماتت الأم بعد بضع سنوات . فوجدت اللينور نفسها فى عزلة فعاشت بعض مغامرات عاطفية واستجابت لحب الكونت ب . . . وأصبحت خليلته . وعندما تعرفت بأدولف . كان قد قضى على علاقتها بهذا الكونت حوالى عشر سنوات .

وما أن رآها أدولف حتى سحره جلالها ووقارها ، فغازلها باضطراب نظراً لأنه كان غراً غير مجرب . لم يستطع أن يفتح لها قلبه شفاهة . ففاتها بغرامه كتابة : « متهمزاً فريضة سفر الكونت ، ويقول فى ذلك : » رأت اللينور رسالتى ، وهو أمر طبعى . ناشئ عن قلب رجل يصغرها بعشر سنوات . منعم بأحاسيس لم يعرفها من قبل ، تدعو إلى الصفح عنه أكثر من الغضب عليه . وردت على بحنان وزودتنى بالنصائح ومنحتنى صداقة خالصة . ولكنها أخبرتنى بأنها لا تستطيع مقابلتى قبل عودة الكونت » .

عاش أدولف فى قلق وحاول أن يجيد عن شرطها دون جدوى . ورأت هى ، خوفاً من تصرف متهور من جانبها . أن تلجأ إلى الريف بعض الوقت . وعاد الكونت وأعد وليمة كبيرة دعا إليها أدولف . وعند الذهاب إلى غرفة الطعام ، أعطى أدولف ذراعه إلى اللينور وراح يسر إليها بالآلام وآماله . ولتركه يتكلم : « إذا لم تسمحى لى غداً بمقابلتك فى الحادية عشرة ، فسأترك بلدى وأسرى وأبى وأقطع كل روابطى وأتخلى عن واجباتى ، ثم أذهب إلى أية جهة لأتخلص فيها من حياة يلذك جعلها جحيماً . فردت قائلة : « أدولف ! » ثم ترددت ، فقصت بحركة كمن يريد الابتعاد عنها . ولا أدرى كيف كانت ملامح وجهى فى هذه اللحظة ، ولكن كل ما أعرفه هو أنه لم يسبق لى أن تقلصت

عضلات وجهي بهذا الشكل : ونظرت إلى اللينور فلاحظت على وجهها خوفاً مشوباً بالحنان . ثم قالت : « سأقابلك غداً ولكنني أستحلفك . . . » ولم تكمل الجملة لأن المدعوين كانوا في إثربا . . .

ظلت اللينور في بدء الطعام حاملة متهدمة . ثم راحت رويداً رويداً تزيح كابوس الكتابة وتبتسم وتشارك المدعوين الحديث . ولاحظت في نظر حبيبها من معالم السرور والفران ما جعلها تعطف عليه . وعند العودة إلى قاعة الجلوس تتم أدولف قائلاً : « ها قد انضج لك أنك تسبطين على حياتي كلها . فإذا فعلت لك حتى تجدى لذة في إلأى ؟ » .

وعندما قابل اللينور . أعلمها بأنه لم يأت إليها لانكاره اعترافه بحبها . أو ليحدثها عن شعوره الذي لا يمحوه الزمن . وإنما ليرجوها أن تنسى ذكرى لحظة جنون بدر منه . وأن تقابله كما قابله أول مرة حتى لا يشعر بوخز الضمير لانفعال كان الأجدر به أن يخفيه في نفسه . ومما قاله لها : « إن حالي لا تخفى عليك . ولا أخلاقي المتناقضة ولا قلبي البعيد عن ملاذ الدنيا : المنعزلة وهو وسط الناس . المتألم من هذه العزلة . إن صداقتك هي سندی الوحيد في الحياة . . . لا آمل في شيء . ولا أطلب شيئاً حيث لا أريد إلا رؤيتك : ولا بد لي من رؤيتك لأعيش » .

تأثرت اللينور من هذا الكلام وانقادت لرغبة أدولف على شرط أن يلتزم جانب الوقار ولا يقابلها إلا ضمن زوارها . وأحترم هذا الشرط بعض الوقت ولكن سرعان ما دبت الغيرة في قلبه من المخاطين باللينور : فرأت تهدة له أن تقابله على انفراد في بعض الأحيان . ويقول أدولف : « هكذا تغيرت شروطها الصارمة بسرعة وسمحت لي بأن أصف لها حي واعادت تدريجياً على لغة الغرام : إلى أن اعترفت لي بأنها تحبني » .

وانتهى الأمر بها إلى الاستسلام له ، فراح يشول في نشوة المتصر : « هل يستطيع بشر أن يعطينا صورة صادقة لسحرك أيها الحب ؟ ! . . . » وهل يستطيع وصفك من ذاق طعمك ؟ » .

إذا كان أدولف قد شعر بارتياح لغزو قلب اللينور : فإنها كانت بدورها مسرورة بحبها الجديدة . ولكن ساورها القلق والخوف عندما لاحظت أن أدولف بدأ يتضايق من ملاحقتها له ، ورغبتها في الاستئثار به كله . ففي الواقع إذا كان أدولف يشعر بألم الفراق إن ابتعد عن اللينور : ولو بضع ساعات : وينشرح صدره عند ملاقاتها : فأننا نراه يقول في اضطراب : « أردت أن أجعل من اللينور مجرد عشيقة ولكن تبين لي أنها تريد رباطاً يدمج حياتي في حياتها » . وهذه تفكيره إلى أن صلته بها ستراخي بطبيعة الظروف . ويقول في ذلك : « إن علاقة اللينور بالكونت ب . . . وتفاوت السن بيننا : واختلاف مراكرنا : واضطراري إلى السفر الذي حان مواعده . إن كل هذه الاعتبارات دفعتني إلى أن أمتنع بها بأكبر قسط مستطاع من السعادة في أقصر وقت ممكن » .

وبدأ الكونت ب . . . يكشف ما يدور حوله . وبدأ أدولف يخشى على عشيقته ويسدى إليها النصيح . ولكنها قالت له في تشاؤم : « لا تخف على ولا تتألم من أجلي ولنستمع بالأيام وبالساعات . . . فنفسى نخدني بأنني ساموت بين قراعيك . . . » .

وإرضاء لالينور . طلب أدولف من أبيه مهلة ستة أشهر ليعود إليه . ولكن هذه المهلة . جلبت للعشيقين حدة المزاج وعصية في التصرف حتى دب الخلاف وقامت مشادات عنيفة بينهما : فهي تهمة بغشها وأن صلته بها كانت طارئة : وأنه حرّمها من حنان الكونت وعطفه . وجعلها في أعين الناس في مركز مشبوه .

ودارت بخلد أدولف أطوار حياته المشوبة بالقيود ، وشبابه المضيق في البطالة واستبداد الليتور به ، ولكن بكاءها استرق قلبه . فيحاول مواساتها ، فعاد إليها الهدوء بعض الوقت ، وصرحت له عند تأهبه للسفر قائلة : « إن الكونت منعتني من مقابلتك ولكن لن أخضع لهذا الأمر الاستبدادي . . . لأنه يستطيع الحياة بدوني ولا أستطيع الحياة بدونك » .

حاول أدولف أن يشرح لها الموقف وما عسى أن يلوكه الناس عنها ، فردت عليه بأن ذلك لا يهمها . فذكرها بابنيها المحتاجين إلى عطفها . فردت عليه بأنهما ابنا الكونت ويستغنى بهما . ثم انتهى النقاش على الوجه التالي : « إذا أنا قطعت علاقتي بالكونت . فهل سترفض رؤيتي ؟ فرد قائلاً : « لا بالتأكيد ، وكلما شعرت بتألمك ، كلما امتلأ قلبي ولاء لك . ولكن قدرى الموقف » . فما كان منها إلا أن ردت قاطعة : « قدرت كل شيء ! » .

وبعد يومين تقابلا في الدار التي استأجرتها وأطلعت على نيها في ترك الكونت . ولم يستطع : أمام هذا القرار الحاسم أن يبدي أية معارضة ، ورجاها أن تنسى كلياً ما سببه لها من ألم وأن تثق فيه .

وبدأت المداينة والمدارة بينهما : فالليتور لا تجرؤ على الإباحة بقلقها ، ولا هو يجرؤ على الشكوى من المتاعب والمضاعفات التي لم يستطع محاشاتها . ويقول في ذلك : « إن المدارة تضع في الحب عنصراً غريباً عنه يغير من طبيعته ويذبله » .

ولنتساءل : هل لا يزال في الواقع يحب الليتور ، بل هل أحبها في يوم من الأيام ؟ إنه أراد مغازلة امرأة ولكن دون السماح لها بالسيطرة عليه . وإنه أمر عجيب فالحب يحتاج ، لاستمراره وتوطيده - مهما شابه التطلع إلى الحرية - إلى التنازل عن جزء من هذه الحرية وعلى الناس الذين هم على شاكله أدولف في نزاع دائم

مع أنفسهم ويوغر صدورهم عدم الثقة ، ألا يعلموا بشيء لا يستطيعون انجازه . أو أن يعتزلوا العالم !

ولاحقوا هذا دفاعاً عن الليتور . فهي أيضاً مذبذبة بل ذنبها أكبر من ذنب معشوقها . إذ كان يجدر بها ، قبل استسلامها لهذا الحب الطائش أن تنظر إلى علاقتها الأولى وإلى سنها وأولادها . ولو فرضنا أنها نسيت كل هذه الاعتبارات : فكان يليق بها أن تذكر . أن الحب له أجنحة ولا يمكننا أن نوجهه حسب رغبتنا وأهوائنا . إننا نجدها حنونة صامته في بادئ الأمر . ثم تنقلب سريعاً إلى ضحية شاكية باكية منظملة غاضبة . ناسية أنه من المسير الاحتفاظ بأدولف صديقاً لحب انطفاة جذوته .

وبعد انقضاء نشوة الغرام الأول . انتابها المخاوف من ناحية تقدمها في السن . وهذا الشعور بالذات هو الذي جعلها تتصرف بهور . . . ومضت فترة السنة أشهر : فترك أدولف عشيقته واعدأ إياها بالعودة بعد شهرين . وبالرغم من تصريحه بأنه تركها على مضض . فانه ينتظر بقلق مرور الأيام ليعود إليها أو تعود هي إليه . ويقول : « قارنت بين حياة الاستقلال والهدوء وبين حياة الاضطراب التي يملها على هواها . فكنت أجد المتعة في الحرية وفي الذهاب والإياب والخروج والعودة حسبما يروق لي ذلك ! ! » .

ولما لم يف بوعدده . اتخذت الليتور العدة للذهاب إليه . فنصحها بتأجيل حضورها خوفاً من أن تنتابها أزمات عصبية جديدة . ولكنها جاءت إليه في تردد وأشيعته لوماً وعتاباً . فاستشاط غضباً . ويقول : « استسلمنا لغضب جنوني استبعدنا خلاله كل ملاطفة وكل رقة : وكنا فريسة للكراهية المتبادلة حتى خلنا أننا عدوان للدوان يريد كل منا تمزيق الآخر . بينما كنا في الواقع شخصين بائسين يعرفان نفسيهما حق المعرفة ولا يستطيع أحد غيرنا الحكم على تصرفنا » .

ويرفع من صيته بين الناس ، وأن يستثمر مواهبه فيما ينفعه .

حاول أن يشرح لها أن قوانين المجتمع أشد قوة من إرادة الأفراد ، وأنه من العبث أن يستمع الإنسان لنداء قلبه ، لأن العقل ينتصر عادة في النهاية ، وأن عرض الكونت يستحق الاعتبار . وهنا أطلقت اللي نور صرخة ، ثم فقدت وعيها وارتدت على الأرض ، فراح يطيب خاطرها ويسحب اقتراحه ويؤكد لها أن حبه لم يتغير ! لقد أراد من الرأي الذي أبداه أن يجعلها حرة الاختيار . ويقول : « وانتشت من كأس حبا الذي ظنت أني أبادلها إياه . وأكدت رفضها للكونت ، وأصبحت ملتزماً بها أكثر من ذي قبل » .

وبعد فترة ، علمت اللي نور أن أباه الذي صدر العفو عنه ، عاد إلى بولندا ووجد ثروته كما هي وأنه يريد بها بجواره . وأرادت أن تصطحب عشيقها . وبينما هي تفكر مع أدولف في الذهاب إلى والدها ، أنها نعيه .

رأى أدولف من واجبه أن يصطحبها لتسوية الميراث . ولم يرتح في القصر الذي ورثته محبوبته لأنه أصبح يعيش على نفقتها .

وقابل أدولف صديقاً لوالده هو البارون ت . . . السفير في وارسو . الذي نصحه بالابتعاد عن هذه المرأة التي لن يستطيع أن يتزوجها لكبر سنها ولسمعتها التي لاكتها الأفواه ، ثم أضاف : « نستطيع الزواج من أكبر العائلات . واعلم أن العقبة بينك وبين نجاحك في الحياة هي اللي نور » .

حاول أدولف الدفاع عن عشيقته ولكنه كان في قرارة نفسه مقتنعاً بكلام صديق والده الذي رن في أذنيه تماماً : فراح يسير الساعات الطويلة في مزارع الريف وهو يفكر في حياة رتيبة مع زوجة تفهمه وتقدره ويعجبها . ويقول : « لم أكن أهتم إلا باللي نور وبفنسي : باللي نور التي تستدر عطفى . وبفنسى التي لا تستحق

ولأول مرة في حياتهما لم يحاولا تصفية نزاعهما . ولما عاد أدولف إلى داره . وجد أباه على علم بحضور اللي نور . وقد قرر إبعادها عنه . فما كان من أدولف إلا أن شعر بعودة الحب إلى قلبه واستيقظت فيه روح حماية عشيقته . فراح يهزها في فراشها قائلاً : « لرحل فوراً ! هل لك في الدنيا شخص آخر يحملك غيري ؟ هل لك صديق خلافي ؟ أليست ذراعاي مأواك الوحيد ؟ » وقبل أن تفيق من الدهشة . وجدت نفسها مع فارسها في عرض الطريق . وبعد أن ضمها إلى صدره ولطفها . أخبرها بما كان نويه أبوه . شكرته على رقة شعوره . ثم تيننت المتناقضات في قصة حبيبها . فقالت له : « إنك مخطئ يا أدولف في حق نفسك . إنك كريم ، كلك ولاء لي لأنني مضطهدة ، وتظن أنك تحبني ، ولكنك في الواقع تعطف على فقط » . ويعترف أدولف للقارئ بشعوره هذا ، بيد أنه لا يعترف به لمحبوبته .

وبعد أن وجد مكاناً يأوى إليه . كتب إلى أبيه يرجوه ألا يغضب على اللي نور لأن هذا التصرف يزيد في نار الحب ولا يفهم عراه . فرد عليه أبوه بطمثته بأنه لن يشغل باله بمسألة صبيانية كهذه . ثم واجهه قائلاً : « إنك تضع أجمل سنى شبابك سدى وهي خسارة لن تعوض » .

اقتنع أدولف في قرارة نفسه بنصيحة أبيه لأن حياته تدور فعلاً بين البطالة والآنزواء . ومع كل ، ظل بجانب عشيقته عدة أشهر في عزلة عن الناس في مدينة صغيرة من مقاطعة « بوهيم » . وفي يوم من الأيام أخبرته اللي نور بأنها تلقت رسالة من الكونت يعرض عليها التنازل لها عن نصف ثروته مقابل تركها ذلك الوغد الذي سبب انفصالها . لم تلتفت اللي نور إلى هذا العرض ، ولم يرق أدولف هذا التصرف « لأنه ظن أن الوقت قد حان لاختار مهنة ويدخل حياة الجد والاجتهاد

الاحترام . . . وارتحت للأفكار الجديدة التي طرأت على ذهني ، ولقد رنا على نسيان نفسي لأتطلع إلى حياة أسمى ، حتى شعرت أن روحي تستيقظ من غفوة طويلة مخجلة .

لاحظت اللي نور على أدولف أنه يزداد قلقاً ، فعزت ذلك إلى الحياة المملة التي يعيشها بجانبها ، فعمدت . لتلطيف هذا الجو الخائق . إلى دعوة الأسر النبيلة القاطنة بجوارها لزيارتها . ولكنه لم يرتج لمجالة هذه الفئة الثرثرة التي كانت بدورها تحذره وتكرهه . ويقول في ذلك : « من العجب أني كنت ضحية اللي نور بينما كان الناس يبدون الشفقة عليها كما لو كانت ضحيتي . . . لقد أهملت . من أجل هذه المرأة ، كل مصالحى وملذات الحياة . ومع ذلك ، كنت أنا المحكوم عليه . »

حاولت اللي نور أن تشعل نار الغيرة في قلب معشوقها بالتفاف الشباب حولها . إنه كبرياء المرأة المحروجة من فتور عشيقها . فتريد اقناع نفسها بأنها لا تزال محط أنظار المعجبين . طلب أدولف منها الكف عن هذه المهزلة المضحكة . ليت طلبه ولكن السعادة كانت قد طارت من عشمها وأضحت حياتها مشوبة بالمنازعات والمخاصمات ، وكانت تقول له : « إنك لا تشعر بمدى الألم الذي تسببه لي ، ولكنك ستعرفه بعد أن تواريت في التراب . »

وفي هذه الأثناء : أرسل البارون ت . . كتاباً رقيقاً إلى أدولف يطلب فيه مقابلة . فذهب إليه ودار الحديث بينهما على كل شيء فيما عدا اللي نور . وشجعه الدبلوماسي على زيارته من وقت لآخر . وفي إحدى المقابلات : فاتحه البارون قائلاً : « أريد محادثتك بصراحة . ما الذي يرغبتك على البقاء في حالة أنت غير راض عنها ؟ لمن تعمل الخبير ؟ أتظن أن الناس هنا لا يعلمون شيئاً عن صلتك باللي نور ؟ إنهم على علم بالشقاق وبالحياة المريرة التي تعيشها . إن ضعفك

يفرك ، وعنفك يفرك ، وتهورك لن يسعد بهذه المرأة التي حولتك إلى رجل بائس . »

تردد أدولف بعض الوقت في العمل بتوصية السفير . ولكن اللي نور راحت تعد عليه خطواته وروحاته . الأمر الذي سود عيشته ، فانفجر معلناً للبارون : « نعم سأقتلع علاقتي بها . سأجد هذه الشجاعة . ويمكنك من الآن اخبار أي بعزى هذا . » بيد أن الشجاعة خائنه . فكتب إلى السفير خطاباً يطلب منه مهلة . فما كان من هذا الأخير إلا أن أطلع اللي نور على ذلك الخطاب . فحز ذلك في نفسها ومرضت .

وعندما ذهب لعيادتها في غرفتها ، نظرت إليه ولم تعرفه . فكلّمها ، فصاحت مرتعدة : « ما هذا الصوت ؟ إنه الصوت الذي أضرتني ! . . » وقرّر الطبيب المعالج أن المريضة في حاجة إلى الراحة التامة ، وطلب من أدولف ألا يطيل جلسته . وعندما صرح له برويتها ، قالت له : « لا أريد أن أسمع منك كلمة جارحة . إنى لا أطلب أى شيء . ولا أعارض في أى شيء . » ولكني أرجو هذا الصوت الذي أحبيته كثيراً وتسربت نبراته إلى أعماق قلبي ، ألا يدخله اليوم ليمزقه . حاول أدولف أن يخفف ما بها ويواسيها ويطمئنها معترفاً لها بذنبه ، معتذراً عنه لوقوعه تحت دوافع ولحظات قاسية خارجة عن إرادته ، وأنه لا بد لها من بدء حياة جديدة . فردت عليه قائلة : « لا تعانِب نفسك ، إنك كنت دائماً طيب القلب نحوى ولكني أردت المستحيل . إن الحب كان كل شيء في حياتي ولم يكن بالنسبة لك . »

بدأت اللي نور تضعف وتزل وأدولف يحضر لها الطبيب إثر الطبيب ، ويجلب لها أنواعاً من العقاقير دون جدوى . ويقول : « وأرادت البكاء ، لكنها لم تجد الدموع . وأرادت الكلام ، ولكنها فقدت صوتها ، فتركت رأسها يميل في استسلام على ذراعى وانخفض نفسها وانطفأت . . . وشعرت بأخر رباط لي ينقسم ،

وأصبحت أمام الحقيقة الخيفة التي فرقت بيني وبينها ،
وأصبحت الحرية التي كثيراً ما ندمت عليها ، ثقيلة
على كاهلي . وكم تأقت نفسي إلى ذلك الخضوع الذي
كثيراً ما ثرت من أجله ! » .

وعثر بين مخلفات اللينور على خطاب كانت رجته
احراقه دون قراءته ، فاطلع عليه بدافع الفضول ، فاذا
به عتاب موجه منها إليه . يقول الخطاب في مضمونه :
« لم تعاملني بهذه القسوة يا أدولف ؟ ما هو الجرم الذي
ارتكبته ؟ ألا أني أحبك ولا أستطيع الحياة بدونك ؟
ما هي هذه الشفقة الغريبة التي تمنحك من فهم عري
رابطة ثقيلة عليك وتشدك إلى مخلوقة بانسة تمزق
أحشاءها ؟ ... هل يطيب لك موتي يا أدولف ؟ إذن
لبدخل قلبك السرور : ستموت هذه المخلوقة الضعيفة
التي كنت تحبها ولكنك ضربتها بقسوة . ستموت
اللينور التي لم تعد تتحمل رؤيتها لأنها أصبحت عثرة في
طريقك . . ستموت وستعود أنت إلى الناس الذين تريد
الاختلاط بهم بفارغ الصبر وستعرفهم على حقيقتهم :
وربما تضيق في ذات يوم بهذه القلوب الجافة ، فتندم
على ذلك القلب الذي كان في حوزتك ويعيش بحنانك ،
وكان مستعداً لخوض الأخطار لحمايتك ، ولم تعد تكافئه
حتى بنظرة » .

« « «

قد تسألني أيها القارئ العزيز ، بعد هذا القدر من
القصة : ما الذي كان يستطيع عمله أدولف ليخفف
من آلامه وآلام معشوقته ؟

إن هذا السؤال بالذات ألقاه عدد كبير من القراء
على كاتب القصة بعد طبعها ، فكان جوابه الآتي :
« لم يكن هناك منفذ لموقف أدولف واللينور . وهذا
ما قصده بال فعل . لقد أظهرته مضطرباً قلقاً لأنه كان
يحب اللينور حباً ضعيفاً . ولو أحبها حباً جماً لما تغير
اضطرابه ولا قلقه على كل حال . كان يتعذب من
أجلها لغتور شعوره نحوها . ولو طغى شعوره لتعذب
لأجلها . ولما كان المجمع قاسياً في حكمه ، فلن يتورع
من استنكار حنان أدولف لأنه عار من أية روابط :
وعلى طالب السعادة في الحياة ألا يبتدئها بمثل هذه
العلة : لأن الإنسان متى سار في هذا الطريق ، فلا
مناص له من تحمل الآلام » .

إنه حكم قاس ولكنّه واقعي . ويسرنا أن نختم به
هذه الدراسة التي جعلت القارئ العزيز يقف على حقيقة
رجل غير مستقر ولكنه صريح ، رجل أديب رقيق
بقدر ما هو غزير المادة ، قوى التعبير . ولعلها تدفعك
إلى قراءة روايته إن كنت لا تعرفها ، وإلى إعادة
قراءتها إن كانت في حوزتك : وإني واثق من منحك
الكاتب كل رضاك .



الخطط التوفيقية لعلي مبارك

بسم
الدكتور عبد العزيز الشاوي
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الأزهر

مكانته في تاريخ مصر القومي :

يتمتع علي مبارك بصدارة واضحة بين رواد النهضة العلمية في مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . كان على حظ موفور من العلم وجمع بين الثقافتين العربية والفرنسية ، ففتح العلم أمامه باب الأمل واسماً لا حد لسمعته ، وباب الرقي طويلاً لا حد لطوله ، وتقلد العديد من المناصب الوزارية ، وهو الذي كان في مرتع صباه يبيت من الجوع طويلاً ، وانطلق يشارك في توجيه الحياة العقلية للمصريين ويسهم في تنظيم الجهاز الحكومي وسرعان ما برز بروزاً واضحاً قوياً في ميادين العلم والتعليم والتربية والتأليف ، وغدا يمثل طرازاً فريداً بل جهد الوزير العالم ودأب الباحث المحقق .

نشأته الأولى : طفولة مشردة :

ولد علي مبارك في قرية برنبال الجديدة (١) من

(١) توجد في الوجه البحري ثلاث قرى تحمل هذا الاسم : احداها في مركز صومق بمحافظة كفر الشيخ وتقع على الشاطئ الشرقي لفرع رشيد شمال مطوبس . وبرنبال القديمة وتسمى أيضاً برنبال البحرية وتقع على البحر الصغير بمحافظة الدقهلية . وبرنبال الجديدة مسقط رأس علي مبارك.

أعمال مركز دكرنس بمحافظة الدقهلية سنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٣ - ١٨٢٤ م) من أسرة ريفية رقيقة الحال مثقلة بوفرة الإنجاب على العادة الشائعة في المجتمع المصري وقتذاك ، إذ كان له سبع بنات شقيقات وإخوة ذكور من غير أمه . وعلي مبارك وهو يترجم لنفسه يسوق تسلسل آبائه على هذا النحو : مبارك ابن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجي . وظفر جده الأعلى الشيخ ابراهيم الروجي بمكانة سامية في البلدة فكان إمامها وخطيبها وقاضياً . وتوارث أبناؤه وحفدته هذه الوظائف فعرفت أسرته بعائلة المشايخ ، وأضيفت إلى وظائفها توثيق عقود الزواج والرقابة على الموازين والمكايل .

وكانت حكومة محمد علي ترهق الفلاحين من أمرهم عسراً بما تفرضه عليهم من نظام ضريبي جائر . وحدث أن أقطعت الحكومة أسرة المشايخ قسراً عنها قلداً من الأقطان لزراعتها ، وكانت هذه الأقطان مثقلة بضرائب متأخرة وطلبت منها سدادها مع الضرائب الجديدة ، واستخلت مع أفراد الأسرة الضرب والسجن وغير ذلك من وسائل التعذيب « كأسوة الفلاحين

فضاق خناقهم من ذلك لعدم اعتيادهم الإهانة ، وبعد بنظم ما بأيديهم ويبيعهم الموائش وأثاث البيوت ، رأوا أن لا ملجأ لهم من ذلك إلا القرار « (١) فارتحل أفراد أسرة المشايخ عن قريتهم وتفرقوا في البلاد . ونزل الشيخ مبارك بن مبارك والد علي مبارك في قرية الحماة من أعمال محافظة الشرقية . وكان علي مبارك قد بلغ من العمر وقتذاك ست سنوات ، ولم يطلب المقام للشيخ مبارك إذ لمس أن شعور أهل الحماة نحو الأسرة النازحة شعور غير طيب فارتحل عنها إلى عرب السباعنة وهم من عرب الخيش بمحافظة الشرقية . وعرف عن هؤلاء العرب أنهم يجلون رجال الدين ، وكان الشيخ مبارك رجلاً صالحاً على ثقافة دينية فظفر بتقديرهم وأصبح مرجعهم في المسائل الدينية ، وشيدوا مسجداً وعينوه إماماً وطابت له الإقامة في هذا المرتحل الحديد وانصرف يدبر شئون أسرته .

وكان علي مبارك قبل رحيله من قرية برنال الجديدة بدأ يتعلم على رجل كفيف من أهلها ، فلما استقر بأسرته المقام بين عرب السباعنة أسلمه والده إلى فقيه يدعى الشيخ أحمد أبو خضر ، وعلى يديه استظهر القرآن حفظاً ، ولكنه ما لبث أن نفر من هذا الفقيه ، إذ كان فظاً غليظ القلب أسرف في ضربه وإيذاؤه . وأراد أبوه أن يجبره على الرجوع إلى الفقيه ، لكنه أصر على الرفض وعول على الهرب ، وتدخل إخوته في الأمر وصرح لهم بأنه لا يريد أن يكون فقيهاً وأنه يفضل أن يكون كاتباً نظراً لما لمسه من مزايا يتمتع بها الكاتب « من حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام » ونزل الوالد على رغبة الابن ، فعهد إلى صديق له يعمل كاتباً بتعليمه الكتابة . ولكن ما لبث الصبي أن

(١) ترجمة حياة علي مبارك بقلمه . المخطوط التوفيقية ج ٩ .

رأى من الكاتب غلظة فاقت قسوة الفقيه ، إذ ضربه يوماً بمقلاة بن شجت رأسه لأنه أخطأ في الإجابة على سؤال في جدول الضرب . فآثر علي مبارك الهرب على احتمال القهر والضرب والهوان ، وكأنه كان يتطلع إلى أسلوب في التعليم أرقى من الأسلوب العتيق .

حار الوالد في تعليم الابن ، فأحاله إلى صديق آخر من كتبة المساحين كى يقوم على تعليمه ، فلزمه ثلاثة أشهر ثم طرده ، لأنه كان يفشى أسرار الرشا التي كان يتناولها من الأهلين ، وبقي في بيت أبيه يقرأ عليه ، ثم وفق الوالد في أن يجد لابنه وظيفة كتابية هي مساعد كاتب في مأمورية أبي كبير بمرتبة شهرى قدره خمسون قرشاً . وماطل الكاتب في دفع مرتبه إلى أن تسلم علي مبارك يوماً ما حصيلة الضرائب من إحدى قرى مركز أبي كبير ، فاستقطع منها مرتباته المتأخرة عن ثلاثة أشهر وترك له ايصالاً بتسلم هذا المبلغ ووضع الإيصال في كيس النقدية . فنقم منه الكاتب هذا التصرف وأغرى به مأمور المركز واتفق معه علي تجنيده واعتقه ، وظل في السجن بضعة وعشرين يوماً وهو مقيد بالحديد . وبذل الشيخ مبارك مساعيه وساعدته الظروف إذ كان محمد علي يزور منيا القمح بمحافظة الشرقية ، فرفع إليه ظلامة ، وأمر محمد علي بإخلاء سبيل الابن ، وعاد الوالد بالأمر إلى المأمور يطلب تنفيذه . وخرج علي مبارك من السجن ليعين كاتباً عند مأمور زراعة القطن بناحية أبي كبير وكان يسمى عنبر أفندى وجعل مرتبه خمسة وسبعين قرشاً في الشهر وجراية من الخبز تقدم له كل يوم . ولقي علي مبارك معاملة طيبة من عنبر أفندى .

هل يقف السادة امام العبيد ؟ حوار مثير بين الابن وابيه
لاحظ علي مبارك أن عنبر أفندى رجل حبشى أسود اللون وكأنه عبد مملوك . وزاد من دهشته أن رأى

علية القوم من أصحاب الثراء والحكام ومشايخ البلاد وقوفاً بين يديه وهو يلتقى عليهم بالأوامر « وكنت لم أر مثل ذلك قبل ، ولم أسمع به ، بل أعتقد أن الحكام لا يكونون إلا من الأتراك على حسب ماجرت به العادة في تلك الأزمان . وبقيت متعجباً متحيراً في السبب الذي جعل السادة يقفون أمام العبيد ، ويقبلون أيديهم ، وحرصت كل الحرص على الوقوف على هذا السبب » .

وفي اليوم التالي حضر الشيخ مبارك لزيارة ابنه . فقدمه إلى المأمور الذي بالغ في إكرام وفادته حتى خرج من عنده ولسانه يلهج بالثناء عليه . ودار في مساء نفس اليوم حوار مثير وطريف بين الوالد وابنه حول عنبر أفندى والأسباب التي قفزت به إلى شغل هذا المنصب الكبير . ولندع على مبارك يقص هذا الحوار « ولما سهرت مع والدي ليلاً جعلت كلامي معه في هذا المأمور ، فقلت له هذا المأمور ليس من الأتراك لأنه أسود ، فأجابني بأنه يمكن أن يكون عبداً عتيقاً . فقلت هل يكون العبد حاكماً مع أن أكابر البلاد لا يكونون حكاماً فضلاً عن العبيد ؟ فجعل هو يميني بأجوبة لا تقنعني ، فكان يقول لعل سبب ذلك مكارم أخلاقه ومعرفته ، فأقول : وما معرفته ؟ فيقول : لعله جاور بالأزهر وتعلم فيه . فأقول : وهل التعلم في الأزهر يؤدي إلى أن يكون الإنسان حاكماً ؟ ومن خرج من الأزهر حاكماً ؟ فقال : يا ولدي كلنا عبيد الله ، والله تعالى يرفع من يشاء . فأقول : مسلم ، لكن الأسباب لا بد منها ، وجعل يعظني ويذكر لي حكايات وأشعاراً لم أفتق بها ، ثم أوصاني بملازمته وامتثال أوامره ، وبعد يومين سافر عني وتركني عنده » .

أخذ على مبارك بوسائله الخاصة يتقصي الأخبار عن

نشأة المأمور وانصل بأحد الخدم المقرين للمأمور وعلم منه أنه كان عبداً اشتريته إحدى سيدات المجتمع في مصر بثمان بخت دراهم معدودة . ولما أنشأ محمد على المدارس الحديثة استطاعت هذه السيدة بما لها من نفوذ في مجتمع تركي أرستقراطي أن تلحقه بمدرسة القصر العيني الثانوية . وأبلغه الفراش أن خريجي هذه المدرسة يعينون حكاماً . فجاشت في نفسه رغبة جامحة في أن يلتحق بهذه المدرسة ، ولما سأله عما إذا كان يدخلها أحد من الفلاحين ، أجابه أن التحاق الفلاح بها أمر ممكن إن كانت لديه « واسطة » فقلق من هذا القيد ولكن لم تنفّر عزيمته وأخذ يجمع مزيداً من المعلومات عن المدرسة ، فعلم أن تلاميذها يتعلمون بالحنان وتقوم الحكومة بإطعامهم وإيوائهم وكسائهم ، وازداد إصراراً على الالتحاق بالمدرسة وأخذ يسأل عن مكانها في القاهرة وطريقة السفر إلى العاصمة ومقدار المسافة التي عليه أن يقطعها وأسماء البلدان التي يمر بها وصحت عزيمته على ترك عمله وطلب الإذن في زيارة أسرته فمنحه عنبر أفندى إجازة خمسة عشر يوماً ، واتخذ طريقه إلى القاهرة سرباً .

نقف هنا وقفة قصيرة لنقرر أن عاملين رئيسيين لعبا دوراً كبيراً في رسم مستقبل حياته ، هما : الآمال الكبار التي داعبت فؤاده وهو لا يزال شاباً يافعاً فأني أن يقنع بعمل صغير في معاونته موظف حكومي ومن ثم صمم على المضي في تحصيل العلم مهما لقي من مشاق وأهوال : أما العامل الثاني فكان حرصه على كرامته إذ ظل حادث سجنه عالقاً في ذهنه ، وكان يسأل نفسه عما يحدث لو نهج عنبر أفندى المأمور نهج الكاتب وألتي به في غياهب السجن « واستمرت الفكرتان في بالي ، وكانت همتي في التخلص من كل ذلك ومن أمثاله ، وأود أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى

غوائلها » وهذا القول دليل على أنه كان على حظ موفور من عزة النفس والطموح وإباء الضيم .

التحافه بالمدارس الحديثة :

وبينما كان على مبارك يقطع الطريق إلى القاهرة سيراً على قدميه التي بصية مع كل واحد منهم دواة وأقلام ، وعلم منهم أنهم تلاميذ مكتب منية العز ، وأن نجباء تلاميذ المدارس الابتدائية - مكاتب المبتدیان بمصطلح ذلك العصر - ينقلون إلى المدارس التجهيزية - أى الثانوية - دون واسطة ، فرأيت ذلك غاية مرغوب ، فلم أتأخر عن الذهاب معهم ودخلت المكتب ، وتفوق في دراسته واختير سنة ١٨٣٦ للالتحاق بمدرسة قصر العيني التجهيزية (١) وفي سنة ١٨٤٠ وقع عليه الاختيار لدخول مدرسة المهندسخانة واستمر محافظاً على تفوقه العلمي . وفي سنة ١٨٤٤ أوفد في بعثة علمية إلى فرنسا أطلق عليها بعثة الأمراء أو بعثة الأنجال لأنها كانت تضم بعض أبناء محمد علي وحفدته . وبعد أن أتم ستين في باريس عين ضابطاً في الجيش الفرنسي برتبة ملازم ثان في مدرسة المدفعية والهندسة الحربية بمدينة متر Metz ، وقضى فيها ستين آخرين تعلم فيها فن الاستحكامات وجاز امتحانها بنجاح وعين في الفرقة الثالثة من سلاح المهندسين بالجيش الفرنسي . ولما تولى عباس الأول حكم مصر أمر باستدعاء معظم أعضاء البعثات فعادوا إلى مصر وكان من بينهم على مبارك .

وفي حكم عباس الأول تقلد على مبارك عدة مناصب حكومية وظفر بتقدير هذا الوالى الذى عهد إليه بوضع مشروع جديد للنظام التعليمى فى مصر وأخذ به

عباس وأصدر قراراً بالموافقة على لائحة على مبارك التعليمية (١٧ رجب ١٢٦٦ - ٢٩ مايو ١٨٥٠) ورقاه إلى رتبة عميد وعينه ناظراً للمدرسة المهندسخانة وملحقاتها وظل يشغل هذا المنصب حتى نهاية حكم عباس . يقول مؤرخ التعليم فى مصر الحديثة إنه « قد أتيح للمدرسة المهندسخانة إدارة حازمة مستنيرة فى شخص ناظرها على مبارك . وكانت الفترة التى قضاها ناظراً لها من ١٨٥٠ إلى ١٨٥٤ من أحفل الفترات فى تاريخ حياته . والواقع أنها أعدت على مبارك وهياته للدور الخطير الذى سيقوم به فى إدارة التعليم وتوجيهه بعد ذلك فى عصر اسماعيل وبعد عصر اسماعيل (١) » .

ولما تولى محمد سعيد حكم مصر عزله من منصبه وألحقه بإحدى فرق الجيش المصرى كانت مسافرة للاشتراك فى حرب القرم . وقد لبث فى هذه المهمة ستين ونصف سنة تعلم خلالها اللغة التركية واتسعت مداركه وزادت معلوماته . ولما عاد إلى مصر حفت به المتاعب من يمين وشمال وعاش عيشة ضنكاً يشغل وظائف تافهة حيناً ، ويفصل منها أحياناً ، وتسوء حالته النفسية ، ويفكر فى العودة إلى قريته ليستغل فلاحاً ، ويفكر حيناً آخر فى مزاولة التجارة . وبينما هو يجهد الفكر فى إيجاد عمل يرتزق منه جاء الموت سعيد باشا فى مطلع سنة ١٨٦٣ وتولى اسماعيل حكم مصر . وعندئذ بدأت حياة على مبارك تأخذ اتجاهاً آخر ، وغدا العالم المغفور المتعطل نجماً يسلم فى سماء البلاد وأصاب فى الحياة العامة النجاح والجاه والمال والمركز السامى .

كان على مبارك زميلاً للوالى الحديد فى بعثة الأمراء إلى فرنسا ولذلك كان اسماعيل به حقياً . فعينه ناظراً

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر . مصر عباس الأول وسعيد . القاهرة ١٩٤٥ ص ١٠٦ .

(١) نقلت هذه المدرسة بعد سنة إلى أبى زعبل لتحل محلها فى قصر العيني مدرسة الطب البشرى .

لمدرسة الابتدائي فمهندساً للقناطر الخيرية وأظهر براعة في توزيع الماء بين فرعى رشيد ودمياط ، وأشرف على عمليات تعميق رياح المنوفية وإقامة قناطره ومبانيه ، وعين كبيراً لمهندسى المعية السنية . وحدث أن ناقش مجلس شورى النواب في نوفمبر ١٨٦٦ السياسة التعليمية وانتهت مناقشاته إلى عدة قرارات هامة كان من بينها إنشاء مدرسة ابتدائية في كل مديرية وتنظيم المكاتب الأهلية تحت إشراف الحكومة وإياحة الالتحاق بها للجميع « من عموم الناس بالرغبة بدون استثناء مسلم أو قبطي ، غني أو فقير . » ويتلقى جميع التلاميذ دروسهم معاً ما عدا دروس الدين ، فيفرد محل خاص للأقباط ويتدب غبطة البطريك أحد القسوس لتعليمهم الديانة المسيحية « حيث جميعهم أولاد الوطن » . ولم تكن هذه القرارات سوى مبادئ عامة تحتاج إلى إعداد فني واسع . وهنا تقدم على مبارك ، وكان يشعر بميل فطري نحو التعليم ، للعمل في الحقل التعليمي . فقدم لاسماعيل مذكرة تضمنت آراءه ومعهامشروع لائحة لتنظيم وإصلاح المكاتب الأهلية . وعرفت هذه اللائحة باسم لائحة ١٠ رجب ١٢٨٤ (٧ نوفمبر ١٨٦٨) وهي تؤرخ المحاولة الحقيقية الأولى لنظام قومي للتعليم في مصر وأوضح الطريق لمن جاء بعده من دعاة الإصلاح . وقبل أن تتم الموافقة على هذه اللائحة عين وكيلا لديوان المدارس في سبتمبر ١٨٦٧ ثم مديراً له وناظراً للأشغال وناظراً للأوقاف . وجمع كل هذه الوزارات في سراى درب الحماميز ليسهل إشرافه عليها ثم أضيفت إليه مصلحة السكك الحديدية . وقد وزع وقته بين هذه الوزارات طوال النهار وزللاً من الليل .

وقد أرسى مبادئ هامة في ميدان التربية والتعليم لاتزال معمولاً بها إلى اليوم . وليس هذا المقال مجال

التعرض لها . وقد أنشأ مدرسة دار العلوم لتخريج مدرسى اللغة العربية ، ومن المدارس الأخرى التي أقامها : الألسن والإدارة والمحاسبة ، كما أنشأ دار الكتب المصرية وأسس أول مجلة ثقافية في مصر الحديثة هي مجلة روضة المدارس . ولئن كانت شهرته ترتكز على أمرين : خدماته في التربية والتعليم ، وتأليف الخطط التوفيقية ، إلا أنه له مآثر أخرى تتصل بمنشآت الري وتوسيع الشبكة الحديدية في مصر وتنظيم القاهرة والمدن الأخرى وغير ذلك من الأعمال الهندسية والعمرائية .

وحدث أن فرت العلاقات بينه وبين الخديو اسماعيل بسبب دس الخاسدين له ، فانفصل عن مناصبه واعتكف في منزله سنتي ١٨٧٠-١٨٧١ ثم أعيد إلى ديوان المدارس ونظارة الأوقاف والأشغال . ولما ألف نوبار باشا وزارته الأولى في أغسطس ١٨٧٨ دخلها على مبارك وزيراً للمعارف والأوقاف . ولما سقطت هذه الوزارة في فبراير ١٨٧٩ خلفتها وزارة الأمير توفيق في ٢٢ مارس وتقلد على مبارك فيها نفس الوزارتين . ولم تعمر هذه الوزارة طويلاً وأعقبتها في ٨ من أبريل ١٨٧٩ وزارة شريف باشا ولكنه لم يدخلها وظل وزيراً متقاعدأ حتى نهاية حكم اسماعيل .

ولما تولى توفيق الحكم ظل على مبارك بعيداً عن المناصب الحكومية معتكفاً في داره . إلى أن ألف مصطفى رياض باشا وزارته في سبتمبر ١٨٧٩ فدخلها على مبارك وزيراً للأشغال . وفي عهد هذه الوزارة ظهرت مقدمات الثورة العرابية ولم يكن على مبارك من أنصارها ، بل كان يميل إلى الاعتدال وأخذ الأمور بالحكمة والحوادة . وقد سقطت الوزارة في سبتمبر ١٨٨١ نزولاً على إرادة الثوار . وتعاقت أحداث

الثورة سراعاً وانتهت بالإخفاق ووقوع البلاد فريسة للاحتلال البريطاني ، ولما ألف شريف باشا وزارته الرابعة سنة ١٨٨٢ عقب الاحتلال دخلها على مبارك وزيراً للأشغال وظلت هذه الوزارة في الحكم إلى أن استقالت في يناير ١٨٨٤ احتجاجاً على أمر الحكومة البريطانية لها بإخلاء السودان وكان لعل مبارك نصيب في الموقف المشرف الذي وقفته هذه الوزارة ، ووجد الإنجليز في نوبار باشا أداة طيعة لينة قبل تأليف الوزارة على قاعدة إخلاء السودان . ولم يدخل على مبارك هذه الوزارة بطبيعة الحال . وظل نوبار في الحكم إلى أن استنفذ الإنجليز أغراضهم منه ومن وزارته ، فأقبلت الوزارة في ٧ يونيو ١٨٨٨ ، وعهد توفيق إلى رياض باشا تأليف وزارة جديدة ودخلها على مبارك وزيراً للمعارف . وقد بقيت هذه الوزارة في الحكم من ١١ يونيو ١٨٨٨ حتى ١٢ مايو ١٨٩١ وكان هذا التاريخ هو آخر عهد على مبارك بالمناصب الحكومية إذ آوى إلى داره ، وأخذ ينتقل بين القاهرة وقرينته حيث أصيب بداء المثانة فعاد إلى القاهرة واشتدت عليه وطأة المرض إلى أن جاز إلى ربه في داره بالخلمية الجديدة في ١٤ نوفمبر ١٨٩٣ . وهو من الشخصيات المصرية القليلة التي عاصرت حكم محمد علي وإبراهيم وعباس وسعيد وإسماعيل وتوفيق وعباس حلمي . وكانت حياته خصبة حافلة بمجالات الخدمات والأعمال تجعل من صاحبها طرازاً فريداً بين الرجال .

مؤلفات على مبارك :

كان لعل مبارك فلسفته في الحياة ، فهو يرى أن أول واجب يؤدي إلى الشعب هو تعليم أبنائه ونشر التعليم بينهم وزيادة عدد المدارس حتى يصبح نابذة البلاد عناصر صالحة مستجة في المجتمع . ويعيش مع

هذا الواجب جنباً إلى جنب واجب آخر هو وضع الكتب المفيدة . فتأليف هذا النوع من الكتب هدف سعى إليه على مبارك بنفسه ودعا إليه القادرين على التأليف العلمي نهوضاً بالوطن وتوفية لما له من حقوق عليهم . ويقول في أداء هذين الواجبين « ولهذا التزمت في كل ما تقلدت من الأعمال ، وجميع ماتقلبت فيه من الأحوال ، أن أخدم وطني بكل مائاته يدي وبلغه إمكاني مما أراه يعود عليه بالفائدة والنفع قل أو جل ، كالسعي في استكثار المكاتب والمدارس ، وتعميم التربية والتعليم ، ونشر الكتب المفيدة ، إما بالاشتغال في تأليفها بنفسي ، أو الحث والتحريض عليها لمن أرى فيه أهلية القيام بها » .

ونمشيا مع ما أخذ به نفسه تميز على مبارك بالإنتاج العلمي والأدبي الوفير . ففضلاً عن كتاب الخطط التوفيقية له مؤلفات أخرى منها .

١ - حقائق الأخبار في أوصاف البحار . وقد نشر أول الأمر في حلقات متتابعة في مجلة روضة المدارس ثم طبع مكتملاً في مطبعة وادي النيل سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠) م .

٢ - تنوير الأفهام في تغذي الأجسام . طبع سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢) م .

٣ - نخبة النيل في تدبير نيل مصر . وقد طبع في مطبعة وادي النيل سنة ١٢٩٨ (١٨٨١) وقد أفرغ في هذا الكتاب ثقافته الهندسية في شئون الري ومشروعاته في مصر .

٤ - علم الدين . وهو قصة خيالية في أربعة أجزاء تقع أحداثها في مصر وأوروبا ، ويدور الحديث فيها بين أحد العلماء المصريين من خريجي الأزهر وقد أطلق عليه اسم علم الدين ، وبين عالم إنجليزي وقد

إلى مصر وتعلم اللغة العربية . ويبدأ الحديث في مصر ويتخذ العالم الإنجليزي موقف التلميذ من الشيخ المصري يستوضحه مظاهر الحياة المصرية التي يراها وتاريخ البلاد . ثم يرحل الرجلان إلى أوروبا فيقلب الموقف تماماً ، وإذا بالعالم المصري يتخذ موقف التلميذ ويسأل رفيقه الإنجليزي عن كل ما يراه في المجتمع الأوروبي . واستهدف على مبارك من وضع هذه القصة عقد مقارنة بين مظاهر الحياة والحضارة في الشرق والغرب لتنبه أذهان أهل الشرق إلى مزايا الحضارة الأوروبية الحديثة . والكتاب يزخر بمادة علمية وتاريخية واجتماعية غزيرة ومفيدة وطريفة وتضمن بحثاً في الموالد والأعياد والمواسم والمسارح ويسمبها «التباينات» وتعدد الزوجات ومضار تعاطي الخشيش . وقد طبع الكتاب في مطبعة المحروسة في الإسكندرية سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢) م .

٥ - الميزان في الأقيسة والمكايل والأوزان ويحتوى على دراسة مقارنة في تاريخ الأقيسة وغيرها في مصر القديمة وفي مصر الإسلامية . وقد طبع في القاهرة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١) م .

٦ - خلاصة تاريخ العرب وهو كتاب عربي من الفرنسية لمؤلفه سيدو . وطبع في القاهرة سنة ١٣٠٩ (١٨٩١-١٨٩٢) م .

٧ - تذكرة المهندسين .

٨ - تقريب الهندسة .

٩ - طريق الهجاء والتمرين وهو في جزعين .

١٠ - المزاحمة وتأثيرها في الارتقاء البشرى .

١١ - ومن الكتب التي أشير إليها ولم تطبع إلى اليوم كتاب يضحك وضعه بالاشتراك مع صالح مجدى

تناول فيه المؤلفان تاريخ مصر في مختلف العصور ابتداء من العصر الفرعوني ثم حكم الفرس وعصرى البطالة والرومان ثم العصر الإسلامى ووصلا فيه إلى سنة ١١٦٠ هـ (١٧٤٨) م أى إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى تقريباً وقد ذكر محمد مجدى وهو يترجم لوالده صالح مجدى (١) أن المؤلفين جمعا المادة العلمية لهذا الكتاب في نيف وأربعمئة كراسة وأنها لدى على مبارك وأنه يغلب على ظنه أنها مهيأة للطبع ، ولكن هذا الكتاب للأسف مفقود لانعرف عنه شيئاً .

١٢ - آثار الإسلام في المدنية والعمارة . ويقول الدكتور محمد درى باشا في ترجمته لعلى مبارك باشا إن هذا الكتاب كان آخر ما ألفه على مبارك ، وقد تناول فيه ما أدخله الإسلام من العمران في البلاد التي انتشر فيها ، وأنه لما انتهى من وضعه وتبييضه أعطاه لأحد علماء الأزهر لمراجعته ، وأن هذا الكتاب محفوظ في خزانة على مبارك .

الخطط التوفيقية : ملامحها العامة :

وأما كتاب «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة» فيمثل قمة لإنتاجه العلمى وأوج نضوجه العقلى . ويقع في عشرين جزءاً ، وهو موسوعة عربية كبرى أو دائرة معارف عربية خاصة بمصر . وقد سار على مبارك في وضع هذه الموسوعة على نهج المقرئى في خططه . وقد اشتهرت مصر الإسلامية بفن تأليف كتب الخطط . فهذا الفن كما يقول الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ، فن مصرى أصيل نشأ في مصر

(١) صالح مجدى هو علم من أعلام مدرسة الألسن أظهر نبوغاً في دراسة اللغة الفرنسية وتعاون مع على مبارك في الإنتاج العلمى.

الإسلامية ، وفيها دون غيرها من الأمصار الإسلامية
نما وترعرع . وكان الكندى أول من ألف فيه ،
ولم يكن يمضى قرن بعد ذلك حتى يظهر فيه مؤلف أو
أكثر يكتبون في خطط مصر ، وكان آخرهم تقي الدين
المقريزى (١) واتخذ على مبارك بصورة عامة خطط
المقريزى أساساً لخططه التوفيقية ، فتتبع مدن مصر
وقراها ، ووصف طبوغرافيتها ، فكان يتحدث عن
موقع المدينة أو القرية أولاً ، ثم يؤرخ لها من أقدم العصور
إلى الوقت الذى اندثرت فيه أو حتى القرن التاسع عشر
إذا كانت لاتزال قائمة ، ويصف ما بها من منشآت
ومرافق عامة مثل المساجد والزوايا والأضرحة
والكنائس والأديرة والمدارس والكتاتيب والوكائل
والحمامات والمستشفيات والمصانع والقصور والدور
ويثبت ما أصابها من تغير . ويقرن هذا الوصف
الطبوغرافى المسهب بترجمة لمن برز في كل بلدة ممن
ولدوا بها أو عاشوا فيها أو دفنوا في ثراها . وقد
أفرد على مبارك الأجزاء الستة الأولى لمدينة القاهرة ،
وخص مدينة الإسكندرية بالجزء السابع ثم أرخ لباقي
المدن المصرية في عشرة أجزاء تبدأ من الجزء الثامن
إلى الجزء السابع عشر . وأفرد الجزء الثامن عشر
لمقياس النيل منذ عهد الفراعنة حتى القرن التاسع عشر
والاحتفالات التى كانت تقام عند وفاة النيل في
مختلف العصور . وفي الجزء التاسع عشر تكلم عن
نوع النيل ورياحاته ومنشآت الري . أما الجزء العشرون
فقد أرخ فيه للنقود المصرية في العصر الإسلامى .

عرض سريع لمحتوى الخطط التوفيقية:

شرح على مبارك البواعث التى أملت عليه وضع
هذه الموسوعة العربية ، فقال إن مدينة القاهرة قد

(١) دكتور جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون في

مصر في القرن التاسع عشر . الطبعة الأولى ١٩٥٨ ص ١٠٥ ، ١٠٦

تعرضت لكثير من أحداث الزمن منذ أن شيدت على
عهد المعز لدين الله رابع خلفاء الدولة الفاطمية وأولهم
في مصر ، فحينما كانت القاهرة مدينة زاهرة عامرة ،
وحينما كانت واهنة واهية . وقال إن المقريزى المؤرخ
العربى الذائع الصيت قد شرح في كتابه «المواعظ
والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وهو الكتاب المشهور
باسم الخطط ، ما طرأ على القاهرة من تغير في معالمها
من منشآت وميادين وشوارع وما إليها ، وأسدى
بوضع هذا الكتاب خدمة جليلة للتاريخ . ولكن منذ
أن جاز هذا المؤرخ إلى ربه في أوائل سنة ١٤٤٢ لم يحفل
أحد بأن يرسم خطاه فيتابع تسجيل التطور التاريخى
والعمرانى والدينى والاجتماعى للقاهرة وسائر المدن
المصرية على الرغم من الحاجة الماسة الى القيام بمثل
هذا العمل ، فقد وقعت منذ وفاة المقريزى أحداث
عصفت ببعض معالم كانت قائمة على عهده فاندثرت
وكادت تصبح نسباً منسياً ، ونسبت منشآت لغير
أصحابها ، كما نفذت مشروعات هامة وظهرت
شخصيات قيادية تركت بصماتها في تاريخ البلاد .
ثم يقول على مبارك في وطنية دافقة «إن معرفة ذلك
حق علينا ، إذ لا يلىق بنا جهل بلادنا ، والنهاون
بمعرفة آثار أسلافنا ، التى هى عبرة للمعتبر وذكري
للمذكر . فهم وإن مضوا لسبيلهم ، قد تركوا لنا
ما يحثنا على اقتضاء آثارهم ، وأن نصنع لوقتنا ما صنعوه
لوقتهم ، وأن نجد في طريق الإفادة كما جدوا » .
ومن ثم جاشت في نفس على مبارك رغبة جامحة في
وضع مثل هذا المرجع العلمى ، وقد وصفه في تواضع
العلماء بأنه « كتاب واف بما لمصر من قديم وحديث
متضمن لذكر مبانيها الدائرة والموجودة ، ما يتبع ذلك
من أخبار أربابها وذكر نيلها ومنافعه وكيفية تصرفاته
ومواضعه » بيد أنه استشعر من أول الأمر ضخامة

المشروع وصعوبته لما يحتاجه من مجهود مضمّن ووقت فسيح لا يتسع له وقته بسبب أعباء المناصب الكبرى التي كان يتقلدها مجتمعة في يده ، ومن ثم عرض على صفوة من علماء مصر القيام بهذا المشروع العلمي الجليل فلم تلق دعوته استجابة منهم وانتهى به التفكير إلى أنه لا مناص من أن ينهض بمفرده بهذا العمل .

وقد استهل على مبارك الجزء الأول من الخطط التوفيقية بوصف المكان الذي أقيمت عليه مدينة القاهرة كقديمة لوصف هذه العاصمة مدة الخلفاء الفاطميين ثم انتقل إلى كتابة تاريخ مصر عبر العصور التاريخية منذ تأسيس القاهرة حتى السنوات الأخيرة من حكم الخديو توفيق فوقف عند سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧- ١٨٨٨ م) أي بعد الاحتلال البريطاني لمصر بسبع سنوات تقريباً ، وهي فترة اجتمع فيها مجد الوطن وبؤسه والتقى أمله الطالع بشمس الغاية ، وشهدت البلاد قيام عدة دول وأسرات تعاقبت على حكمها : فأرخ للدولة الفاطمية ثم للأيوبية والمماليك البحرية والمماليك البرجية والحكم العثماني لمصر والاحتلال الفرنسي وسنوات الاضطراب السياسي التي أعقبت خروج الفرنسيين ثم تولية أسرة محمد على حكم مصر حتى الثمانينات من القرن التاسع عشر - وعاد المؤلف بعد هذا السرد التاريخي إلى مدينة القاهرة يعين حدودها وتقسيمها الإداري في القرن التاسع عشر وعدد أقسام الشرطة والمرافق العامة بها من مستشفيات وصيديات ومدارس حديثة ومرفق المياه وذكر عدد المساجد والزوايا والربط (١) والخوانق (٢) والتكايا (٣) والأسبلة (٤) والمقاهي والحمامات العامة وموالد الأولياء وعدد سكان القاهرة حسب تعداد ١٨٨٢ وقد بلغ ٣٧٤,٨٣٨ نسمة ثم أورد احصائية طريقة

عن أصحاب الحرف في القاهرة وقد بلغ عددها ٧٥ حرفة . وكانت أكثر الحرف تعداداً هي حرفة الحمارية فقد بلغ عدد أفرادها ١٧٣٩ ، ويلاحظ أن وسيلة المواصلات الرئيسية لعامة الشعب في القاهرة وقتذاك كانت الحمير . وكان يلي الحمارية - من حيث العدد - النجارون (الدق) ثم عمال البناء ثم البقالون فالترزية ثم الصرمانية وهم المشتغلون بصنع الأحذية والبلغ وتصليحها . وكان أقل رجال الحرف تعداداً هم الصدفجية أي المشتغلون بتطعيم الأخشاب بالصدف وصانعو المنشآت .

وفي الجزء الثاني تكلم المؤلف عن شوارع مدينة القاهرة وحاراتها وعطفها ودروبها وما يتبع ذلك من أسواقها . وقد بدأ هذا الجزء بحى الحسينية . وكان يتكلم عن كل شارع من حيث بدايته ومساره ونهايته والأزقة التي تتفرع منه وما بني فيه من المساجد والزوايا والأضرحة والأسبلة والتكايا والمدارس

(١) الربط ويطلق عليها أيضاً الرباطات جمع رباط وهو مكان كان يعد لإقامة المتصوفة فيه وكان يضر الربط يخصم للسيدات المنتقلات أو المهجورات أو المطلقات أو المعجزات الأرامل العابدات .

(٢) الخوانق ويطلق عليها أيضاً الخانقاوات وهي كلمة فارسية معناها بيت العبادة ثم خصصت لإقامة المتصوفة . وكانت تحبس عليها الأوقاف السخية .

(٣) التكايا جمع تكية وهي مكان يقيم فيه الدراويش من الأعاجم .

(٤) الأسبلة جمع سبيل مكان يستق منه المارة بواسطة كوز من النحاس مربوط بسلسلة وكان تحت السبيل صهريج تخزن فيه المياه . كان يقام عادة فوق السبيل مكتب لتعليم الأطفال القرآن الكريم والكتابة .

والوكائل والكنائس والحمامات والقصور والخانات (١) وتتميز هذه الطبوغرافية الدقيقة بمادة تاريخية طريفة ، فإذا تكلم مثلا عن المنحر الذى اتخذ الخلفاء الفاطميون للذبح الأضاحى فى عيد الأضحى وصف وصفا شائقا خروج الخليفة فى موكبته الرائع لأداء صلاة العيد ثم الذبائح التى كانت تنحر فى ذلك اليوم وما يتخلل ذلك من مراسم ، ثم الأسسطة التى كانت تمتد إلى غير ذلك من صور للحياة الاجتماعية فى مصر أيام الفاطميين — وفى هذا الجزء وصف على مبارك قصر ابن طولون ومدينة القطائع وما طرأ عليها . وقد ترجم فى هذا الجزء أيضا لبعض الوزراء الفاطميين والأمراء المماليك وكبار مشايخ الطرق الصوفية ومن إليهم ممن أطلقت أسماؤهم على بعض المساجد والمنشآت العامة ، كما ترجم لبعض كبار موظفى الحكومة المصرية المعاصرين له مثل عبد الله باشا فكرى وزير المعارف فى وزارة محمود سامى البارودى ، وترجم أيضا لحسين باشا حسنى ناظر مطبعة بولاق الأميرية ، وحجاج الخضرى أحد أبطال المقاومة الشعبية فى مطلع القرن التاسع عشر والذى تميز بالبطولة والفدائية ، ورفلة عبيد أحد كبار التجار فى حى الجمالية ، وترجم لشيوخ قبيلة كتامة الذين وفدوا مع الفاطميين إلى مصر . واختتم هذا الجزء بمائة وخمسة وعشرين بحثا تناول فيها شتى الموضوعات فى التاريخ والمجتمع والطبوغرافية وما إلى ذلك مثل أسواق القاهرة القديمة سواء التى كانت قائمة فى شارع مرجوش أو الغورية أو فى شارع الخردجية بخط الجواهرجية ، وخزانة الكتب أيام

(١) خانات جمع خان وهو وكالة أو فندق ممد لاستقبال التجار والحجاج وبضائعهم أو أمتعتهم ودوابهم ويوجد به اصطبل للدواب وفى أعلاه غرف ينزل فيها الوافدون وتطل هذه المساكن على مساحة يطلق عليها المحوش يتوسط الخان . وكان يلحق بالخان بئر ماء وميضأة ومسجد صغير .

الفاطميين وخزانة الكسوة بشارع النحاسين وشتى أنواع الخزائن التى كانت قائمة فى هذا الشارع مثل خزانة الفرش وخزانة الخيم والأمنعة والسلاح والسرير وخزانة الطيب والجواهر والطرائف ، ثم مشيخة الجامع الأزهر وتجديد بناء المسجد الحسينى وبيان ما أنفق فى سبيل ذلك . ويلاحظ أن الفهرس الموضوع لهذا الجزء يتبع النظام التالى فى ذكر خطط القاهرة مع التقيد بترتيب الحروف الأبجدية فى كل قسم : الشوارع — الحارات — العطف — الدروب — الجوامع — الزوايا — المدارس — التكايا — الأضرحة — الأسبلة — الحمامات — الدور — القصور — الكنائس — المكاتب الأهلية — الوكائل — التراجم — المطالب (١) .

وفى الجزء الثالث سار على مبارك على نسق الجزء الثانى فتكلم عن بقية شوارع القاهرة ومنشآتها، وبدأ بشارع بين السورين . وعالج المؤلف موضوعين هامين فى هذا الجزء هما الأسطول الحربى المصرى على عهد الفاطميين وقواعده فى دمياط والإسكندرية وغيرهما ، ثم موضوع الرزق الإحباسية الموقوفة على جهات البر ، وأفاض فى شرح أنواعها وتطورها التاريخى . وقد حفل هذا الجزء بترجم لعدد كبير من الأعلام فى تاريخ مصر الوسيط والحديث سواء فى دنيا المال والاقتصاد أو فى عالم السياسة أو فى مجال العلم أو الدين أو الحرب أو الإدارة ، نذكر على سبيل المثال أحمد المحرقى كبير تجار القاهرة وقد ارتبط اسمه بأحداث الحملة الفرنسية على مصر وما تلاها ثم ابنه محمد المحرقى، والقائد جوهر الصقلى والشيخ محمد مرتضى الزبيدى من أبرز علماء مصر فى القرن الثامن

(١) المطالب يقصد بها أبحاث

عشر والذي شرح القاموس وأطلق على شرحه ثاج القاموس في عشرة مجلدات ، ثم الأمير أربك بك الذي أطلق اسمه على منطقة الأزبكية ، ثم الأمير حسن بك الجداوى ، كما ترجم ترجمة مقتضبة نوعا ما للأمير محمد بك الأتلى كبير بيت الألفية في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر . كما ترجم المؤلف لبعض المجاذيب من الدراويش مثل الشيخ على البكرى (١) والشيخة أمونة . وكان الاثنان وأضرابهما يمثلون قطاعا هاما في المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر هو قطاع الدراويش وقد اتخذ معظمهم الدجل والشعوذة وسيلة لابتزاز الأموال من البسطاء رجالا ونساء باسم الدين والدين منهم براء .

وتضمن هذا الجزء أيضا مائة وأربعة وستين بحثا تناول فيها موضوعات متنوعة نذكر منها على سبيل المثال تحديد مواقع الأرض الحكر (٢) فى القاهرة وأنواعها وأوجه استغلالها ، وإنشاء دار الكتب المصرية ودار الضيافة وزواج السلطان طومانباى آخر سلاطين دولة المماليك الشراكسة ، وخان الحمزاوى ، وأسوار القاهرة ، والمباني التى أزيلت عند بناء قصر عابدين ، ومسكن بونايرت فى

(١) كان هذا الجنوب يسكن سوقة الكرى فأطلق عليه اسم البكرى نسبة إلى السوقة وهو بذلك ، كما يقرر الجبرق ، لا يمت بصلة إلى أسرة البكرى . انظر الجبرق ج ٢ ص ٢٤٨ . وانظر قصته فى ج ٢ ص ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) الحكر نوع من أنواع استغلال الأرض الموقوفة ويكون تأجيرها لفرض معين كالبناء والفراش فيها دون تقيد بمدة معينة فهو تملك الاحتكر حق البقاء والقرار فى الأرض المحتكرة له مادام ملتزما بدفع أجرة المثل . انظر : محمد سلام مذكور . موجز الوقف من الناحية الفقهية والتطبيقية ١٩٦١ ص ص ٩٧ - ٩٩ . وانظر أيضا دكتور عبد المنعم البدرأوى : المدخل للعلوم القانونية ١٩٦٢ ص ص ٥٠٩ - ٥١١ .

بيت الأتلى بالأزبكية وسكنى محمد على فيه ، ومدرسة الألسن ، ومعنى لفظة الخور لغة وعرفا عندما تعرض لخليج الخور بشارع قنطرة الدكة ، وكذلك سراى العتبة الخضراء . وأفرد فى نهاية الجزء الثانى بحثا مستفيضا عن أسرة البكرى التى ينتهى نسبها إلى أبى بكر أول الخلفاء الراشدين ويضئ المؤلف على هذه الأسرة الكثير من عبارات التبجيل . وانتهاز الفرصة فترجم لأبى بكر الصديق ثم تكلم عن أصلاب أسرة البكرى وبعض فروعها وانتقل بعد ذلك إلى بيان الطرق الصوفية التابعة لمشيخة البكرى والتكايا التابعة لها ، وشرح تحت عنوان «العوائد الخصوصية للبيت الصديق» احتفالات المولد النبوى الشريف التى كانت تقام على مر العصور فى المشرق والمغرب العربيين ثم وصف هذه الاحتفالات فى مصر الحديثة وحرص على إبراز دور أسرة البكرى فى هذه الحفلات وما تنفقه فى سبيلها من أموالها . وقد جاء فهرس هذا الجزء متمشيا مع فهرس الجزء الثانى من حيث ترتيب ذكر المنشآت مع اختلاف يسير يتمثل فى تقديم أو تأخير بعضها فذكرها على النحو التالى : الشوارع - الحارات - العطف - الدروب - الجوامع - الزوايا - المدارس - الأضرحة - الأسبلة - المكاتب الأهلية - الكنائس - الحمامات - الوكائل - الدور - التراجم - المباحث والمطالب .

وأفرد على مبارك الجزء الرابع لمساجد القاهرة وابتدأ بتاج الجوامع وهو الجامع العتيق أو مسجد عمرو ابن العاص على أساس أنه أول مسجد أسس فى مصر الإسلامية ، فكتب فيه بحثا تناول فيه تاريخ إنشاء المسجد والتطور المعمارى الذى طرأ عليه من حيث التجديدات والزيادات التى أضيفت إليه ، وزوايا التدريس بهذا

المسجد : وانتقل المؤلف إلى ذكر مساجد القاهرة ملتزماً بالترتيب الأبجدي لأسمائها ، فبدأ - بعد جامع عمرو - بالجامع الأزهر وأفاض في عرض تاريخه عبر القرون ووصف الجامع من حيث حدوده وأبوابه ومقاصيره ومحاريبه وصحنه وأروقته ومناراته ومزاوله والقناديل التي تستخدم في إنارته والصهاريج التي تستخدم كستودعات للمياه العذبة والمدارس الملحقة بالجامع الأزهر ، وتطرق إلى شرح طرق التدريس في الأزهر وأساليب الامتحانات وطلبة الأزهر وعاداتهم ومأكلهم ، وترجم للعلماء الذين تولوا مشيخة الأزهر . والحق أن ما كتبه على مبارك عن الأزهر في هذا الجزء يعتبر كتاباً قائماً بذاته . ومضى بعد ذلك يستعرض مساجد القاهرة واختص المساجد الكبرى بالإسهاب والتأريخ لها ، ونذكر منها مساجد ابن طولون والحاكم بأمر الله والسلطان حسن والرفاعي والمسجد الحسيني والسلطان الخنق وأبي العلا وأولاد عنان والدمرداش . وجرياً على عادته ترجم لهذه الشخصيات التي أطلقت أسمائها على المساجد سواء كانت شخصيات دينية أو سياسية . واختص سيرة الحسين بن علي بن أبي طالب بإسهاب فترجم للحسين وخروجه من مكة إلى العراق واستشهاده بها والأحاديث التي كانت تروى وما اتخذته الشيعة يوم قتله والعادات التي لا يزال يتمسك بها الشيعة إلى الوقت الحاضر في شهر المحرم . وترجم المؤلف أيضاً لعدد من المتصوفة المدفونين بخانقاه سعيد السعداء . وانتهى في هذا الجزء عند مسجد الرومي .

* * *

ومضى على مبارك في الجزء الخامس على نفس النهج يؤرخ لبقية مساجد القاهرة مبتدئاً بحرف الزاى حتى آخر الأبجدية العربية . ومن أهم المساجد الكبرى التي أُرُخ لها في هذا الجزء زين العابدين والسيدة

زينب والسيدة سكينة والسيدة عائشة والسيدة فاطمة النبوية والإمام الشافعي وجامع المؤيد والظاهر والغوري والقاضي يحيى وجامع الكخيا - على مقربة من ميدان الأوبرا حالياً - وجامع الليث بن سعد بالقرب من مسجد الإمام الشافعي وجامع سنان باشا ببولاق على مقربة من شاطئ النيل وجامع قايتباي بقلعة الكيش والروضة والصحراء وجامع المؤيد وقوصون وجامع السادات الوفائية وجامع محمد علي بالقلعة وقد أسهب في وصف الجامع الأخير وجامع الامام الشافعي من قبل . وأورد المؤلف في هذا الجزء بياناً عن الأوقاف الموقوفة على جامع كل من الغوري وسيدى عقبة وقايتباي وكوم الشيخ سلامة والكيخيا ومحمد أبي الذهب والإمام الشافعي وجامع سنان باشا وملحقاته من السبيل والمكتب والخان الكبير ببولاق . وذكر في هذا الجزء أيضاً حادثين يعكسان صورتين من صور المجتمع في مصر وقد وقع أحدهما في النصف الأول من القرن الثامن عشر وثانيهما في نصفه الثاني . ويتلخص الحادث الأول في أن واعظاً تركياً أخذ يعظ المصلين في مسجد المؤيد خلال شهر رمضان ١١٢٣ (١٣ أكتوبر - ١١ نوفمبر ١٧١١) وحمل حملة عنيفة على ما يفعله فريق من المصريين بأضرحة الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل فوقها وحوطاً وجاهر بأنه لا يجوز بناء القباب فوق أضرحة الأولياء . وقد صادفت آراء هذا الواعظ التركي قبولاً من جمهرة المستمعين وتحمسوا لها ، إلا أن نهاية الواعظ كانت مؤسفة إذ تكتل ضده بعض علماء الأزهر وقاضي القضاة وانضم إليهم الباشا العثماني ومن ثم أصدر الأوامر إلى الجنود بتقي الواعظ وألقوا القبض على زعماء المصريين الذين ناصروه وأوسعوهم ضرباً وإهانة ونفوا بعضهم . أما الحادث الثاني فيتمثل في أغرب عملية نصب ارتكبت في القاهرة سنة ١١٧٣ هـ (١٧٥٩ -

بين العثمانيين وبين الزيدية انتصر فيها سنان باشا وسمى هذا الفتح بالفتح الثاني لليمن . وما ذكره على مبارك أمرين : أولهما أن سنان باشا ضم إلى الحملة العسكرية عدداً من الأمراء المماليك صناعق مصر فاستشهدوا جميعاً في حرب اليمن ، وثانيهما أن سنان باشا عين مرتين والياً على مصر وكانت المرة الأولى قبل حملة اليمن من ٢٤ شعبان ٩٧٥ حتى ١٣ جمادى الآخرة ٩٧٦ (فبراير ١٥٦٧ - ديسمبر ١٥٦٨) وكانت المرة الثانية بعد انتهاء حملة اليمن من أول صفر ٩٧٩ حتى سنة ٩٨١ (يونيو ١٥٧١-١٥٧٤) وأنه تولى الصدارة العظمى أى رئاسة الوزارة في الآستانة أربع مرات . ومن الشخصيات التي ترجم لها على مبارك في هذا الجزء أيضاً الملك الكامل وشجر الدر والظاهر بيبرس والسلطان المؤيد والأشرف قايتباي وقانصوه الغوري ومحمد أبو الذهب وعبد الرحمن كتخدا ، ومن الشخصيات الدينية الإمام الشافعي والشيخ أحمد السبكي وعقبة بن عامر وذو النون المصري وعمر بن الفارض والسيدة عائشة والسيدة سكينة والسيدة نفيسة كما كتب نبذة عن السيدة زينب .

وكان الجزء السادس هو ختام الأجزاء التي خصصها المؤلف لمدينة القاهرة . وقد استهل هذا الجزء بالكلام عن مدارس القاهرة فأرخ لست وتسعين مدرسة أنشئت منذ عصر الدولة الأيوبية وبعضها مدارس قائمة بذاتها وبعضها ملحق بالمساجد والبعض الثالث تحول عن غرضه الأصلي فأصبح يستخدم في أغراض أخرى بعيدة عن التعليم مثل مدرسة الأشرف ايتال وقد أنشأها بالصحراء حيث القرافة الكبرى . الملك الأشرف أبو النصر ايتال العلاني الناصري سنة ٨٦٠ هـ (١٤٥٦ م) فقد أصبحت مخزناً للبارود تتبع وزارة

(١٧٦٠) وهي حادث العترة الصغيرة التي احتفظ بها الشيخ عبد اللطيف كبير خدام مسجد السيدة نفيسة ونسج حول العترة قصصاً خيالية تدل على أنها تتمتع بكرامات شتى وتسامع الناس بهذه القصص حتى أصبحت العترة حديث القاهرة فأقبل أهلها من كل فج لزيارة العترة ويقدمون للشيخ النور والهدايا . وأوغل الشيخ في استغلال العترة والحماهير معاً ، فقال إنها لا تأكل إلا قلب اللوز والفسق ولا تشرب إلا ماء الورد والسكر المكرر ، فحمل إليه الأهالي هذه الأصناف بكميات وفيرة وعملوا للعترة قلائد وأطواق من الذهب الخالص . وسمع الأمير عبد الرحمن كتخدا - كبير الأمراء المماليك - بقصة العترة فأرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يلتمس منه الحضور ومعه العترة ليتبرك بها هو وأهل بيته . فركب الشيخ البغلة ووضع في حنجره العترة وتحف به الطبول والأعلام والجسم الغفير من الشعب حتى إذا وصل هذا الركب إلى دار الأمير أمر بادخال العترة إلى الحرم ليتباركن بها ، وكان قد أوصى بذبحها وطبخها وجمي بالغذاء وفيه لحم العترة فأكل منها الأمير والشيخ وضيوف الأمير من الأمراء والأعيان . ولما فرغوا من الأكل وتناولوا القهوة طلب الشيخ العترة ليعود بها إلى مقر عمله فأخبره الأمير بما حدث وأنه تأنيباً عنيفاً وأمر بأن يوضع جلد العترة على عمامته وأن يذهب بها كما جاء بموكبه وبين يديه الطبول والأعلام وعهد بشرذمة من الجنود بإيصاله وهو على هذه الصورة التكرار إلى المسجد النفيسى . وقد حفل هذا الجزء أيضاً بعدد من الشخصيات ترجم لها المؤلف نذكر منها سنان باشا الذي قاد حملة عسكرية عثمانية كبرى لإعادة فتح بلاد اليمن سنى ١٥٦٨-١٥٦٩ . وكان الزيدية قد تمكنوا من طرد العثمانيين من أغلب بقاع اليمن . ودارت حرب ضروس

الحرية . ومعظم المدارس التي أُرُخ لها على مبارك يرجع إلى القرن الثامن الهجري وإن كان بعضها يرجع إلى القرن السابع ثم القرنين التاسع والعاشر . ويلاحظ أن المؤلف لم يُورخ في هذا الجزء للمدارس الحديثة التي أنشئت في القاهرة في القرن التاسع عشر الميلادي مثل مدرسة الطب البشري والطب البيطري والمهندسخانة والزراعة والصيدلة والكيمياء والألسن والمعادن وغيرها . ومن المدارس انتقل إلى الزوايا وهي المساجد الصغيرة وقد أُرُخ لمائة وست وتسعين زاوية ، كان معظمها تقام فيه الشعائر وقليل منها معطل الشعائر وبعضها تنفق عليه وزارة الأوقاف أو « تحت نظر ديوان عموم الأوقاف » بمصطلح العصر وبعضها يعتمد على الوقف الأهلي ، إذ كان منشو هذه الزوايا يشيدون في بناء الزاوية بعض الحوائت أو بعض المساكن ويوقف إيرادها للانفاق منه على الزاوية . وكان المؤلف حريصاً على ذكر التجديدات التي عملت للزوايا على مر العصور فكان يذكر اسم الشخصية التي أمرت بتجديد الزاوية وما أنفق عليها في عمليات التجديد ثم يقرن ذلك بذكر الوقفية التي عملت للانفاق على الزاوية . وخير مثل يضرب في هذا الصدد زاوية الطحاوي بالقرب من الإمام الشافعي ، فقد جاء في الخطط في هذا الجزء السادس أن حمزة باشا الوالي العثماني أمر بتجديد الزاوية سنة ١٠٩٨ هـ (١٦٨٦-١٦٨٧) وأقام بها ميلا وحوضاً وساقية ومزولة زاسية ومزملة لشرب الماء . وفي حجة وقفته المؤرخة في ١٠٩٩ هـ (١٦٨٧-١٦٨٨) أنه أرصد على هذه الزاوية والمقام المدفون فيه الشيخ أحمد الطحاوي والسبيل والحوض والساقية جهات ير عديده ينفق من إيرادها على أجرة الحمال التي تحمل الماء يومياً من النيل إلى السبيل وحدد مرتبات شهرية تدفع بانتظام إلى كل من شيخ القراء والقراء بالزاوية

والمقام والبواب والقراش والخفير ومفرق الربعة وخدم كل من الزاوية والمقام والسبيل وكذلك ثمن زيت القناديل وأجرة الوقاد . وذكر المؤلف أنه توجد في القاهرة ست عشرة زاوية تسمى كل واحدة زاوية الأربعين ، وأن في معظم الزوايا أضربة لبعض المشايخ تعمل لهم حضرة يوماً في الأسبوع يتلى فيها القرآن الكريم والأوراد أو الأحزاب إذا كان الشيخ المدفون من المتصوفة ، كما يقام له مولد كل عام . ونستدل أيضاً من الدراسة الفاحصة للزوايا التي أُرُخ لها على مبارك أنه كان يقيم في بعضها مجنوب من الدراويش وغالباً ما يطلق على هذه الزاوية اسم هذا الشخص المجنوب ، ففي زاوية ابراهيم بن عصفير بشارع بين السورين كان يقيم فيها هذا الابراهيم وتبدو منه تصرفات غريبة ، فإذا مرت عليه جنازة وأهلها يكون هرع إلى النمش يمشي أمامه ويقول زلاية هريسة ويكررها . وقد مات هذا المجنوب سنة ٩٤٢ هـ إبان الحكم العثماني ودفن بالزاوية . ومن الزوايا التي من هذا القبيل زاوية الشيخ عبد الرحمن المجنوب بالحسينية وكان رجلاً مقعداً يجلس على الرمل صيفاً وشتاء وإذا جاع أو عطش قال : أطعموه أسقوه . وكان ثلاثة أشهر يتكلم وثلاثة أشهر يسكت ، وقد دفن في هذه الزاوية التي أطلق عليها اسمه . ومن الزوايا عاد على مبارك إلى استكمال بحث مساجد القاهرة فأرخ لسبعة عشر مسجداً مع تراجع لأصحاب بعضها . وانتقل بعد ذلك إلى الحوائق فأرخ لثماني عشرة خانقاه وكان من بينها خانقاه سعيد السعداء وبيرس وشيخو وقوصون ويونس وطناى النجمي وطبرس . وانتقل المؤلف بعد ذلك إلى الربط فتكلم عن سبعة ربط كان من بينها رباط البغدادية والحازن والقفري والمشتهى والست كليله . ومن الربط انتقل إلى التكايا فذكر عشرين تكية ، فذكر منها تكية المغاوري وشيخو والخلوتية

ودرب قرمز والسانية والسليمانية والمولوية والنقشبندية وتكية السيدة نفيسة وتكية السيدة رقية وتكية السادة الوفائية وتكية الهنود . ثم تكلم عن الأسبلة أو السبل في القاهرة فذكر خمسة وخمسين سيلاً كان من بينها سبيل أم عباس ورضوان بك والسلطان محمود والسلطان مصطفى والشيخ صالح وحسن كتحدا عزبان وخليل أغا مستحفظان وطوسن باشا والسب شوكار والسب عائشة وعائشة هانم والعاذلي والهياتم واليازجى . واستطرد على مبارك إلى الحمامات العامة في مدينة القاهرة فتكلم عن ستين حماماً منتشرة في أنحاء القاهرة ، كان من بينها حمام الأفندى وحمام الباشا وحمام الخليفة وحمام بابا وحمام الخواجة وحمام البشرى وحمام الثلاث وحمام الدرب الأحمر وحمام الذهبى وحمام السيوفى والشعرافى والصنادقية والصليية وطولون والعتبة الخضراء والعدوى والقطارين والغورية وقلاوون والكبخيا والقريبة والقاضى والمقاصيص والمؤيد والناصرية . واختتم المؤلف الجزء السادس بالكلام عن الكنائس الموجودة في القاهرة والتابعة لمختلف الطوائف المسيحية فذكر ست وعشرين كنيسة منها كنيسة الأرمن الكاثوليك وكنيسة الأروام وكنيسة خميس العهد وكنيسة الشوام والسبع بنات والسريانى والموارنة ، وذكر كنيسة واحداً لليهود ، ثم عاد وتكلم عن كنائس الأقباط الأرثوذكس المقامة في القاهرة حتى سنة ١٨٨١ وقد بدأ بالكنيسة البطيركية الكاثدرائية الكبرى وقال إنها معروفة أيضاً باسم الكنيسة المرقسية لأنها مرسومة باسم القديس مرقس الخوارى المبشر بالإنجيل في الديار المصرية ، كما أنها تعرف بالبطريكخانة وبالقلاية أيضاً ، وأن معنى القلاية مسكن الرئيس الروحى ، ثم عرض بالتفصيل لتاريخ إنشائها وكيف أن أخت السلطان العثمانى كانت قد مورت بمصر في طريقها من الآستانة إلى الحجاز لأداء

فريضة الحج وسارع المعلم إبراهيم الجوهري رئيس كتبة القطر المصرى بتقديم خدمات جليلة لها أثناء إقامتها في الديار المصرية في الذهاب ولعودة ، كما قدم لها هدايا قيمة تناسب مقامها . فأرادت مكافأته واستفسرت منه عما يريد فالتفت منها المساعدة في استصدار مرسوم من السلطان بالإذن في بناء كنيسة بالأزبكية ورفع الخزية عن الرهبان وغير ذلك من مسائل طائفية ، وقد استجابت الآستانة لهذه الطلبات وانتهى العمل في تشييدها سنة ١٨٠٠ وأخذ على مبارك يصف الكنيسة والهيكل المقامة بها والقباب والنقوش والأعمدة الرخامية وما إلى ذلك . وأرخ بعد ذلك لعدد آخر من كنائس الأقباط الأرثوذكس في القاهرة ومنها الكنيسة الأولى والكنيسة الثانية بحارة زويلة وكنيسة حارة الروم السفلى وكنيسة الشهيد جرجيوس وكنيسة حارة السقاين . وترجم لبعض مشاهير الأقباط في القرن التاسع عشر مثل دميان بك جاد شبحه وميخائيل جاد تادرس عريان وابنه عريان بك تادرس . ثم أردف ذلك ببحث عن تاريخ بطارقة الأقباط الأرثوذكس وقد بدأ فيه حيث انتهى المقرئ الذى كان قد وقف في سرده لتاريخ البطارقة عند البطيريك اثناسيوس ابن القس أبى المكارم بن كليل وكان هذا البطيريك هو السادس والسبعون في عدد البطارقة الذين تولوا الكرسي البطيريكى الإسكندري فآتم على مبارك تاريخ البطارقة مبتدئاً بالبطيريك السابع والسبعين وهو غبرائيل الثالث ومضى يستعرض تاريخ كل منهم الواحد بعد الآخر حتى وصل إلى البطيريك الثانى عشر بعد المائة وهو كيرولس الخامس وقد صدر أمر الخديو اسماعيل بتعيينه بطيريكاً في سنة ١٨٧٥ .

وقد أفرد المؤلف الجزء السابع لمدينة الإسكندرية

طويلا عن هزيمته في فارسكور ووقوعه في الأسر واقتياده إلى المنصورة وافتدائه بالمال الوفير . وخلص من هذا الاستطراد إلى القول بأن « غارة سندلويز سنة ١٢٤٨ على الديار المصرية لم تضر بالقطر ، وإنما أضرت باسكندرية لأن الفرنساوية والبندقين أضرموا فيها النار وتركوها حين علموا أنهم لا يمكنهم الإقامة بها وذلك سنة ١٢٥٠ » ثم تعرض لتاريخ الدولة الأيوبية ودولتي المماليك والحكم العثماني وشرح النظم السياسية والإدارية التي وضعها العثمانيون لحكم مصر وكيف تطورت هذه الأنظمة تطوراً أدى إلى استئثار الأمراء المماليك بالنفوذ ، وتكلم عن حركة على بك الكبير - ويسميه على بك أباطة - وفشل هذه الحركة واستمر يؤرخ لمصر إبان حكم أبي الذهب ومراد بك وإبراهيم بك حتى نزول الحملة الفرنسية أرض مصر . وخلص من هذا التاريخ إلى حكم عام ينسحب على الإسكندرية وغيرها من بلاد القطر إذ قال « ومن النظر فيما تقدم من أخبار المدد السابقة والتقلبات التي مرت على تلك الديار علم أن مدينة الإسكندرية وغيرها من بلاد القطر بعد أن كانت متوجة بتاج المهابة والإجلال رافلة في حلل السعادة والإقبال ، وكان وادى النيل مزيناً من كل جانب بالمدن الفخيمة ذات المعابد والهيكل المشيدة العظيمة ، تلوح على صغير أهلها وكبيرهم لوائح الثروة والابتهاج ، نالها من شدائد الأزمان ما أخرها عن هذه التقدّمات ... »

وانتقل من هذا التعميم إلى التخصيص وأخذ يتكلم عن تاريخ الإسكندرية منذ إنشائها على عهد الإسكندر وأبرز الرأي الراجح بين المؤرخين وهو وإن كان الاسكندر هو صاحب الفكرة في إنشاء المدينة لأن عصره لم يشهد سوى تخطيط المدينة وإقامة بعض المباني فإن الذي قام ببنائها هو بطليموس سوتير « فالاسكندر

فبدأ بموقع المدينة وما كان يوجد به إبان العصر الفرعوني وحكم الفرس لمصر وانتقل إلى حروب الإسكندر المقدوني وتأسيس مدينة الإسكندرية وتدرج إلى تاريخ مصر أيام البطالة والرومان وكيف اتخذ هؤلاء وأولئك الإسكندرية عاصمة للبلاد وخص مكتبة الإسكندرية ببحث خاص أوضح فيه مكانتها العلمية في العالم وقتذاك وانتقل إلى الفتح العربي لمصر وبناء مدينة القسطنطينية وانساق إلى نشأة الإسلام وأفاض في شرح السيرة النبوية العطرة ثم خلافتي أبي بكر وعمر والفتوحات التي تمت وقتذاك في آسيا وأفريقيا وعاد إلى فتح مصر وتكلم عن موقف المقوقس من العرب أثناء العمليات الحربية وحصار عمرو بن العاص لمدينة الإسكندرية ، وناقش موضوع حرق مكتبة الإسكندرية وفند الفرية القائلة بأن العرب هم الذين أعملوا فيها النار ، ثم تكلم عن عدد الولاة والحكام والملوك والخلفاء والسلاطين الذين تعاقبوا على حكم مصر منذ الفتح العربي ٦٤١ حتى قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ واستطرد إلى الأزمات التتوئية وموجات الغلاء والأوبئة التي تعرضت لها مصر خلال هذه الأحقاب ، واستعرض تاريخ بعض الولاة العثمانيين على مصر ، ثم شرح كيف فقدت الإسكندرية زعامتها السياسية والعلمية وكيف انتقلت هذه الزعامة إلى القسطنطينية فالقاهرة ، وأبرز دور صلاح الدين الأيوبي في إنهاء الحكم الفاطمي في مصر والصراع الحربي الذي اشتد أواره بينه وبين الصليبيين وتدرج إلى تاريخ الحروب الصليبية - ويسمى حرب الصليب - وخص بالذكر موقعة فارسكور سنة ١٢٥٠ ويسمىها « واقعة ستلويز المشهورة » وهو يقصد بلفظة ستلويز سانت لويس Saint Louis أي لويس المقدس وهو لويس التاسع ملك فرنسا وعاد فأطلق عليها « غارة سندلويز » وهو يتصد بهذه العبارة حملة لويس التاسع . وتكلم

له الفكرة الأصلية وإلى بطليموس ينسب تجسيمها وناقش الآراء المتضاربة حول مكان قبر الإسكندر ثم شرح التطور الذى طرأ على مساحة المدينة وعدد سكانها وحياثهم الاجتماعية فى العصرين البطلمى والرومانى وتكلم عن مسئلتى كليوباتره من حيث تاريخهما وأوصافهما والنقوش التى عليهما وانتقل إلى عمود السوارى فتناوله بالشرح وتكلم عن النثال الذى كان موجودا فوق هذا العمود ، وانتقل بعد ذلك الى الكلام عن أسوار المدينة وشارع كانوب وجزيرة فاروس والمنار القديم والرصيف الحجري المسمى هيتا ستاد الذى كان يصل جزيرة فاروس بشاطئ البحر ، ووصف الميناء الشرقى وسعته والقصور التى كانت تزخر بها المدينة فى العصرين البطلمى والرومانى ، وفنّد الرأى القائل بأن نبي الله دانيال مدفون بالإسكندرية فى أسفل كوم الدكة تأسيسا على أنه مات قبل بناء الاسكندرية بثلاثة قرون وأنه قضى حياته فى بابل ، كما استند الى رأى محمود باشا الفلكى . وتكلم عن جامع أثرى هو جامع الألف عمود أو جامع السبعين ويطلق عليه أيضا الجامع الأخضر وحدد موقعه وذكر سبب تسميته بالألف عمود وجامع السبعين ، وقرر أن هذا المسجد كان موجودا إلى زمن الحملة الفرنسية . وانتقل إلى تاريخ المدينة بعد الفتح العربى وما فعله المسلمون بها ومساحة المدينة على عهد الحملة الفرنسية وعدد الأبواب التى كانت يسورها القديم ووصف ضواحي المدينة فى العصرين البطلمى والرومانى واعتمد فى ذلك على ما ذكره سترابون وديودور وغيرهما . وانتقل الى الكلام عن خليج اسكندرية ومديرية مريوط ثم مدينة مريوط ثم بحيرة مريوط وعين حدود تلك المديرية والحاصلات الزراعية التى تجود فى أرضها وأوجه النشاط العمرانى

الذى كانت تزخر به هذه المديرية ، كما دخل فى تفاصيل عن مدينة مريوط وبحيرة مريوط وتكلم عن الإجراء الحربى الذى أقدم عليه الإنجليز مرتين فى مطلع القرن التاسع عشر وهو قطع سد أبى قير ، وكانت المرة الأولى فى سنة ١٨٠١ إبان الحرب التى خاضها الإنجليز لإجلاء الفرنسيين عن مصر ومحاصرتهم الجنرال مينو فى الإسكندرية ، والمرة الثانية فى سنة ١٨٠٧ عند قلوب الحملة البريطانية على مصر واحتلالها الإسكندرية وتطرق إلى وضع تاريخ موجز لحملة سنة ١٨٠٧ . وانتقل على مبارك إلى الكلام عن الإسكندرية فى القرن التاسع عشر وذكر عدد سكانها فقرر أنه بلغ فى سنة ١٨٣٠ مايقرب من ١٣٠ ألف نفس ثم قفز هذا الرقم فى سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤) — (١٨٧٥) إلى ٢٧٠ ألف نسمة ، وأشار إلى القرار الذى اتخذته الحكومة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بالإذن للسفن الأجنبية فى دخول الميناء الغربى وكان معظورا من قبل على هذه السفن دخوله ، وكان الميناء الشرقى هو المعد لرسو السفن الأجنبية على الرغم من الخطورة التى كانت تتعرض لها السفن فى الميناء الشرقى ، وشرح مانجم عن هذا القرار من ازدياد حركة السفن القادمة إلى الإسكندرية وتنشيط الحياة الاقتصادية فيها ، وانتقل بعد ذلك إلى حفر ترعة المجمودية سنة ١٨٢٠ والأسباب التى دعت إلى حفرها ووصف مسار الترعة والأهوسة التى أقيمت عليها ونفقات حفرها والمنافع التى عادت على المدينة من إنشائها وإحياء موات الأراضى فى إقليم البحيرة ، وذكر المباني التى ألحقت بالترعة وكان من بينها مسجدان أحدهما عند مخرج الترعة فى العطف و ثانيهما عند مصبها فى البحر المتوسط وهو جامع التاريخ ، ومنها مخازن الغلال الأميرية وحفر مجرى تحت الأرض

لتوصيل الماء العذب الى جهة الترسانة والجمرك ، وقد فتح في عدة مواضع منه موارد لأخذ السقائين والأهالى الماء فى أى وقت شاءوا . وانتقل المؤلف بعد ذلك إلى تعميق ميناء الإسكندرية ومد أرصفة ترسو السفن الكبيرة بجوارها للتخفيف من نفقات الشحن والتفريغ وإنشاء ترسانة بحرية وجهود المهندس الفرنسى سيريزى Caray فى بناء السفن ولم يفت على مبارك أن يشيد بكفاءة أحد الإسكندريين فى صناعة بناء السفن وهو الحاج عمر فإنه « كان صاحب إدارة ومعرفة طبيعية وإقدام على مثل هذه الأعمال مع الإصابة » وتكلم عن المدرسة البحرية التى أنشأها الحكومة لإعداد الشبان المصريين للعمل بحارة على السفن المصرية وإنشاء الفنار وقد وصف موقعه وارتفاعه وقوة إضاءته ، والحوض الخاف لإصلاح السفن وشرح طريقة استخدامه ، وتعرض بالشرح لقوة الأسطول الحربى المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وأورد عدة بيانات تفصيلية عن عدد السفن وأسمائها وعدد مدافعها وقوتها وعدد بحارتها وأنهم بلغوا ١٥,٦٤٣ وأن عدد عمال الترسانة البحرية ٤,٠٧٦ عاملا ، وعاد فذكر بيانا تفصيليا آخر عن القوات المسلحة المصرية - برية وبحرية - وأسماء الفرق والأسلحة التى تنتمى إليها وأنواعها وعددها والأماكن المرابطة فيها وما يتفق عليها ، ثم تكلم عن واقعة تسليم أحمد فوزى باشا قائد الاسطول العثمانى ٢٥ قطعة بحرية من الأسطول لحمد على عقب هزيمة الجيش العثمانى فى موقعة نصيبين فى ٢٤ يونيو ١٨٣٩ على يد الجيش المصرى ثم وفاة السلطان محمود الثانى فى ٣٠ يونيو ، وأورد على مبارك بيانا عن قوة هذه الوحدات وعدد رجالها . وخرج المؤلف من هذا السرد إلى أن الإسكندرية قد غدت مدينة ذات بأس

وقوة ، وقارن بين حالتها وقتذاك وحالتها عندما داهمتها حملة الجنرال بوناپرت سنة ١٧٩٨ ووصف دخول الفرنسيين الإسكندرية . وتكلم عن حصيلة الرسوم البحرية وقيمة البضائع الواردة والصادرة من سنة ١٨٢٣ حتى سنة ١٨٤٢ . وأفرد بحثا عن الإسكندرية إبان حكم ابراهيم باشا وبحثا آخر عنها إبان حكم عباس الأول . ويلاحظ أن على مبارك قد أشاد بحكم عباس الأول ولم يبخسه حقه كما فعل معظم الذين أرخوا لهذا الوالى . وكان على مبارك موضع تقدير عميق من عباس الذى استفاد به فى تنظيم المدارس وعينه ناظرا لمدرسة المهندسخانة وملحقاتها . تكلم على مبارك عن الأنظمة العسكرية التى أدخلها عباس على الجيش المصرى واهتمامه بإقامة الاستحكامات العسكرية فى الإسكندرية وغيرها من ثغور مصر الشمالية على ضوء ما كان يقترحه جاليس بك Gallies مدير الاستحكامات . وقال على مبارك إن عباسا قد أنشأ ثلاثة حصون جديدة فى كل من العجمى وأبى قير ومقابر اليهود التى أنشأ فيها أيضا مستودعا للمواد الحربية كان يسع تسعة آلاف قنطار بارود ، وأنه بنى عدة مستشفيات عسكرية كان من بينها مستشفى فى أبى قير ، وبنى ورشة للطوبجية فى وسط المدينة على مقربة من كوم الناصورة تشمل أقساما للنجارة والحداة والبرادة والسبك . وذكر على مبارك أيضا أن عباسا أمر بإجراء عملية مسح للشواطئ المصرية ابتداء من الإسكندرية شرقا حتى العريش ، وغربا حتى مرسى مطروح التى كانت تعتبر الحد الفاصل بين حدود مصر الغربية وبين طرابلس الغرب . وظل الأمر على ذلك حتى حكم الخديو اسماعيل فأتضح بما لا يدع مجالا للشك أن السلوم هى آخر بلدة مصرية تقع على حدود مصر الغربية وسجل ذلك التحديد فى خرائط عسكرية .

وقد أمر عباس بأن تمتد عمليات المسح لتشمل بحيرة مريبوط إلى حدود الأراضي الزراعية في إقليم البحيرة وإلى حدود الأراضي المرتفعة جهة وادى النطرون . وأشار إلى اهتمام عباس اهتماما زائدا بالمحافظة على صهاريج المياه في الإسكندرية لمواجهة الطوارئ ، وكانت أحداث قطع الإنجليز لسد أبي قير لاتزال ماثلة في الأذهان . ويلاحظ أن هذا الاهتمام بمسائل الطوارئ والتعزيزات العسكرية كان مرده إلى الأزمة السياسية التي قامت بين القاهرة والآستانة حول تطبيق قانون التنظيمات . وقد ظل هذا الاهتمام قائما لأنه بعد أن سويت أزمة التنظيمات اشتركت القوات المصرية في حرب القرم إلى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا . وأشار المؤلف في هذا البحث إلى الطريق العسكري الذي أنشئ من قلعة القباري إلى باب العرب ليجتازه الجنود في تحركاتهم ، وذكر المحطات الواقعة على الطريق من الإسكندرية إلى السلوم وانتقل إلى مشروع استخراج الإسفنج من الشواطئ المصرية في منطقة السلوم بمعرفة أحد الملتزمين لمدة عشر سنوات تبدأ من سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤-١٨٧٥ م) وفق شروط معينة . وتعرض المؤلف لتخطيط المنطقة الفضاء الواقعة بين ميناء البصل وميناء الشراقة حيث شيدت مستودعات ضخمة للبضائع الواردة والصادرة ، وأصبحت هذه المنطقة تعج بنشاط اقتصادي واسع لقربها من الميناء الغربي وشاطئ ترعة الحمودية حيث كانت السفن النيلية تفرغ شحناتها وفي نفس الوقت كانت السفن البحرية تشحن البضائع المصدرة إلى الخارج . كما أشار المؤلف إلى اهتمام عباس بتعمير جهات الحضرة والمنيرة والسيوف والرمل ، وخلص من هذه المشروعات المتعددة إلى المشروع الرئيسي وهو مد الخط الحديدي من الإسكندرية إلى القاهرة على عهد عباس واستعرض

المؤلف المحاولات التي بذلتها بريطانيا على عهد محمد علي لإنشاء خط حديدي من القاهرة عبر الصحراء إلى السويس وكيف وافق محمد علي أول الأمر على المشروع واستورد مقادير من القضبان والآلات ، ثم عاد فصرف النظر عن المشروع واستخدم القضبان في مد خط من طرا إلى شاطئ النيل لنقل الأحجار اللازمة لمشروع القناطر الخيرية ، وتكلم عن تنظيم الطريق البري من السويس إلى القاهرة فالإسكندرية على عهد محمد علي وكيف اتجه هذا الوالي لتصوير الأجهزة الإدارية التي تشرف على تنظيم هذا الطريق واختتم المؤلف البحث بشرح بعض الملاحظات التي أحاطت بإنشاء الخط الحديدي من الإسكندرية في اتجاه القاهرة . وأعقب على مبارك هذا البحث ببحث آخر عن الإسكندرية إبان حكم الخديو اسماعيل ، فذكر أن عدد سكانها حين تولى هذا الخديو الحكم في يناير ١٨٦٣ كان قد بلغ ١٧٠ ألف نفس ثم قفز في سنة ١٨٧٢ إلى ٢١٢,٠٤٣ نسمة ومن بين هذا العدد ٤٧,٣١٦ أجنبية . وأورد إحصائية عن استهلاك اللحوم في الإسكندرية وأوضح أن هذا الاستهلاك قد زاد زيادة كبيرة للغاية ، وأرجع هذه الزيادة إلى زيادة حركة النشاط التجاري في المدينة وارتفاع مستوى المعيشة بها ، ودلل على ذلك أيضا بإحصائية طريفة عن وسائل النقل في الإسكندرية ومنها يتضح أن عدد عربات الركوب وخطافها قد بلغ ١٤٣١ من عربات حنطور ومزدوجة ومفردة وعربات ركوب بالأجرة هذا عدا عربات أفراد أسرة محمد علي وتوابعهم وعربات الأجانب . ثم تكلم عن الشوارع التي فتحت في ذلك العهد وما تم تبليطه منها حتى سنة ١٢٨٧ (١٨٧٠ م) وإقامة تمثال محمد علي في ميدان المنشية وقد بلغت تكاليف إقامته مليونين من الفرنكات .

وانتقل الى الكلام عن التقسيم الإدارى للمدينة ، فقرر أن بها ثمانية أقسام للشرطة — أو الضبطية بمصطلح ذلك العصر — وأن فى كل قسمين معاونا واحدا . وتكلم طويلا عن ضاحية الرمل وجهود الحكومة لتعميرها وتنشيط حركة الاصطياف فى ربوعها وتيسير المواصلات بينها وبين المدينة . وانتقل إلى الكلام عن مساكن المدينة ودور قناصل الدول فى الاسكندرية التى اتخذوها مصيفا لهم ينتقلون إليها من القاهرة فى السكة الحديدية على نفقة الحكومة المصرية وانتقال الحكومة إلى الإسكندرية ثلاثة أشهر فى الصيف . وقرر أن محمد على هو الذى استن هذا التقليد ، وأوضح المنافع الاقتصادية والاجتماعية التى تعود على المدينة من انتقال الحكومة إليها صيفا . وتكلم عن مساجد الإسكندرية فقال إن بها من المساجد الجامعة ٤٩ جامعا ومن الزوايا ٩٧ وتضم بعض الزوايا أضرحة لبعض الأولياء بينما البعض الآخر خال من الأضرحة وتذكر على سبيل المثال من المساجد التى أرخ لها فى إسهاب أو إيجاز : مسجد أبى العباس المرسى وياقوت العرشى وتاج الدين بن عطاء الله الإسكندرى ونصر الدين والبوصيرى والشيخ تمراز والحجارى والمغاورى وعبد الرزاق الوفائى والحلوجى والصورى وسيدى جابر الأنصارى ونبي الله دانيال والطروشى وسيدى مجاهد وبجميع هذه المساجد أضرحة من تنسب إليهم . ومن المساجد الخالية من الأضرحة مسجد طاهر بك ومسجد سلطان ومسجد محرم بك ومسجد كرموز ومسجد الشيخ بالميدان ومسجد عبد اللطيف وهو معد لصلاة الخنازة . وانتقل الى الكلام بعد ذلك عن كنائس المدينة فقرر أن عددها ثلاث عشرة كنيسة : عشرة للنصارى وثلاث لليهود . وذكر أسماءها وأماكنها وتكلم أيضا عن فنادق الإسكندرية

ومستشفياتها وحماماتها العامة ومقاهيها ومسارحها وأسواقها والجمعيات الخيرية الأجنبية وشركات التأمين والبورصة وبيوت الرهن والشركات التجارية بها وطوائف الصناع ورجال الحرف والمدارس المصرية والأجنبية . وأفرد بحثا ضافيا عن ميناء الإسكندرية فتكلم عن المنشآت الحديثة التى تمت به إبان حكم اسماعيل من إنشاء حوض عائم من الحديد لإصلاح السفن يحل محل الحوض الذى كان محمد على قد أنشأه من الحجر والذى أصبح لايساير تطور صناعة بناء السفن ، وذكر أنه صنع فى فرنسا سنة ١٢٨٥ (١٨٦٨) - ١٨٦٩ . وحدد ارتفاعه وعمقه وعرضه ووزنه وقوة آلاته وقرر أن تكاليفه بلغت ١٢٦,٣٦ جنينها مصرى وقد أطلق على مبارك على الحوض لفظة دوك وهى مأخوذة من الكلمة التى تستعمل فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية dock وشرح أهمية وجود أحواض لإصلاح السفن فى الموانئ الكبرى ، والمقصود بكلمة حوض . ثم تكلم عن حاجز الأمواج الذى أقامته الحكومة من جزيرة رأس التين إلى العجمى لبقى الميناء طفيان الأمواج ويجعل السفن الراسية به بمنجاة من العواصف وجعل فيه البوغاز لمروى السفن فيه ، وبناء أرصفة للشحن والتفريغ ، ومد خطوط حديدية إلى أرصفة الميناء لتسهيل تلك العمليات ثم أورد سبع إحصائيات عن النشاط التجارى البحرى للإسكندرية ومقارنته بنشاط الموانئ المصرية سواء فى البحر المتوسط أو فى البحر الأحمر . ومن هذه الإحصائيات إحصائية عن عدد السفن التى دخلت ميناء الإسكندرية ابتداء من سنة ١٨٣٧ حتى سنة ١٨٧٢ وإحصائية ثانية عن عدد الوافدين من الأجانب على ميناء الإسكندرية خلال هذه الفترة وقيمة البضائع الصادرة والواردة إليه فى سنة ١٨٧٠ وإحصائية مقارنة عن قيمة

الصادرات والواردات في موانئ الإسكندرية ودمياط
 وبورسعيد والسويس والعريش والقصير وسواكن
 ومصوع ، وإحصائية أخرى توضح حجم التبادل
 التجاري بين مصر وبين كل من إنجلترا وفرنسا وبلاد
 اليونان وأمريكا والسويد والمغرب والنمسا وإيطاليا
 وبلجيكا وروسيا وألمانيا والشام وتركيا وأوربا وتركيا
 آسيا ، وإحصائية عن عدد السفن التي دخلت ميناء
 السويس في الفترة من سنة ١٨٤٩ حتى سنة ١٨٧٢
 وكيف تضاعف عددها حوالي أربع مرات ، ثم
 إحصائية أخرى عن عدد السفن التي دخلت موانئ
 سواكن والقصير ومصوع وحمولة هذه السفن .
 ومن ميناء الإسكندرية انتقل المؤلف إلى الكلام عن
 مصلحة وابورات البوطة الحديدية والنجاح الذي
 حققته واتساع نطاق أعمالها وتملكها ست وعشرين
 باخرة تجوب البحار ناقله المسافرين والبضائع والبريد
 وما تستهلكه كل سفينة في السنة من الفحم مقدراً
 بالأطنان ، وأورد إحصائية بأسماء خمس وعشرين باخرة
 من سفنها وقوة كل منها ، ثم أسماء ١١ من سفن البحرية
 المصرية وقوة كل منها ومجموع حمولتها ونذكر على
 سبيل المثال أسماء ثلاث سفن هي « المحروسة » وقوتها
 ٨٠٠ حصان ومخصصة لركوب الخديو ، و « مصر »
 وقوتها ٦٠٠ حصان ، ومخصصة لركوب المعية
 الخديوية ، و « الغربية » وقوتها ٥٠٠ حصان ، ومخصصة
 لركوب القاميليا الخديوية - أي العائلة الخديوية - ثم
 استعرض أسماء شركات الملاحة البحرية الأجنبية
 ونشاطها ومواعيد سفر سفنها ، وانتقل بعد ذلك إلى
 الكلام عن القوائد التي عادت على الإسكندرية من
 ربطها بالشبكة الحديدية وبأسلاك البرق وتكلم عن
 الشبكة الحديدية في مصر وطول الخطوط الحديدية
 مقدرة بالأميال ، وانتقل إلى الكلام عن سكك حديد

السودان وأقسامها ومحطاتها ، وشرح على مبارك الجهود
 التي بذلها حين تولى إدارة مصلحة السكك الحديدية في
 إنشاء المحطات والنهوض بمستوى الخدمة في هذه
 المصلحة ، ثم تكلم عن عدد الخطوط الحديدية ومحطات
 الوجه البحري والوجه القبلي والوقت الذي يستغرقه
 المسافر من محطة إلى أخرى . واختتم هذا البحث بالكلام
 عن طول الأسلاك البرقية الممتدة في مصر وفي السودان
 حتى سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤-١٨٧٥) مقدرة بالأميال
 الإنجليزية . وقرر حقيقة هامة هي أن مصر فاقت في
 استخدام البرق كثيراً من الدول الأوروبية مثل السويد
 وبلجيكا والدانمرك وهولندا والبرتغال . وأورد
 إحصائية عن جملة أسلاك البرق في كل من مصر
 والسودان عدا خطوط البرق الخاصة بشركة قناة
 السويس وشركة مالطة .

وابتداء من الجزء الثامن حتى الجزء السابع عشر
 استعرض على مبارك البلاد المصرية فيما خلا القاهرة
 والإسكندرية . وقد التزم بالترتيب الأبجدي في ذكر
 أسماء البلاد . ومن البحوث الهامة التي وردت في
 الجزء الثامن البحث الذي وضعه عن انتشار ظاهرة
 اجتماعية في مصر هي شرب القهوة وما أثاره رجال
 الدين من ضجة حول تحريمها أو إباحة شربها . وكان
 قد شاع استخدامهما بادية ذي بديء في أوساط
 المتصوفة لتساعدهم على السهر في حلقات الذكر . وقد
 جلب البن إلى مصر متصوفو اليمن ، واستطرد المؤلف
 إلى الكلام عن نبات البن في اليمن والحشة وأشار إلى
 بلدة الجبرت في الحشة وهي الوطن الأصلي لأسرة
 الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور ، فترجم
 لوالده الشيخ حسن الجبرتي . وتكلم عن القرار الذي
 أصدره الخرنال بونايرت بتحريم تعاطي الحشيش

أيام في بركة الحج - وهي قرية في شمال شرق القاهرة تقع في جنوبي الحانكة وشرق المرج - ثم استئناف سيرها إلى- الحجاز . ويستعرض المؤلف المحطات التي تقف عندها القافلة حتى تصل إلى الأراضي المقدسة بالحجاز ، والاعراض التي تتبع في إقامتها وفي ظلعها وتدابير الأمن للمحافظة على الحجاج والأموال ، ويشرح كيفية عمل الكسوة الشريفة التي تأخذها البعثة الرسمية معها وتنظيم موكب المحمل وما إلى ذلك من تفصيلات وافية ودقيقة . وقد جاء كل هذا الاستطراد عندما تكلم عن بركة الحج التي أشرنا إلى موقعها . ولما تكلم عن بني مزار وصف مصنع السكر في هذه المدينة وإنتاجه من السكر الأبيض والسكر الأحمر ومدة تشغيل هذا المصنع ليلا ونهارا أربعة أشهر ابتداء من مدة عصر عيدان قصب السكر ، وتكلم أيضا عن المباني الملحقة بهذا المصنع مثل المستودعات المخصصة لحفظ السكر ومساكن المهندسين الأجانب ووابور النور الذي يمد المصنع بالإضاءة وبالقوى المحركة لإدارة آلاته ، والخطوط الحديدية الممتدة إلى داخل المصنع وإلى أراضي تفتيش زراعة القصب في بني مزار. كما يحوى هذا الجزء وصفا للأعياد التي كان يحتفل بها المصريون في العصور القديمة وقد نقلها عن هيرودوت . وشرح المؤلف بعض المصطلحات التي ورد ذكرها في المصادر والمراجع التي تناولت تاريخ مصر الإسلامية ، ومن هذه المصطلحات نذكر على سبيل المثال : البقط ، البازدار ، مفردى ، مفارده . متفردون ، مفردون ، الديوان المفرد ، الزمامى ، الزماميون ، ديوان الازمة ، صاحب ديوان الزمام ، زمام دار ، خوندة ، خونديات خاتون ، خواتين . كما شرح بعض مصطلحات فنية في دراسة فلاحية الارض نذكر منها : المرجع ، الدهية ، البراش ، الرداد ، التلويق . ومن المدن التي

وشرب البوزة ومعاقبة من يخالف هذا القرار من المصريين بالحبس ثلاثة أشهر ، كما نص في القرار على حرق طرود الحشيش التي ترد إلى الجمارك المصرية . ولما جاء ذكر قرية انبابة - في شمال البحيزة على الشاطئ الغربى للنيل تجاه بولاق - شرح الموقعة المشهورة التي جرت بين مراد بك والجنرال يونابرت وهي التي يسميها الفرنسيون معركة الأهرام (٢١ يوليو ١٧٩٨) تمجيدا لانتصارهم فيها ، وقد أفاض على مبارك في شرح الأيام العصيبة التي شهدتها القاهرة والتي سبقت ولحقت هذه المعركة وقد استقى مادتها العلمية من الجبرقى . وتعرض لوصف مقياس النيل الذى كان موجودا في أسوان وشرح معنى لفظي اغريق واليتي - اللاتيني - ووصف خشب الدوم ومزايه . وشرح في هذا الجزء أيضا شرحا وافيا منطقة آثار أبي سمبل ويكتبها (ابسنبول) ومعابد إدفو وأرمنت والأشمونين . ومن المدن الهامة التي أرخ لها في هذا الجزء أبو تيج واخميم وأبو كبير وأرمنت والإسماعيلية وإسنا وأسوان وأشمون والأشمونين . ومن الشخصيات التي ظهرت لها تراجم في هذا الجزء ذو النون المصرى وابن جبير وابن زولاق وابن سينا وعبد الرحمن الناصر والشيخ محمد الخرشى وعلى الأجهورى والشيخ محمد عlish والشيخ محمد الإنابى والشيخ محمد احمد فرغل والشيخ عبد الرحمن البوتيجى والشيخ محمد السمعى وهؤلاء الثلاثة من أعلام أبي تيج . ومن الشخصيات الأجنبية سترابون اليونانى الجغرافى وفيزاغورس العالم اليونانى وبلوتارك العالم الفيلسوف . وقد تضمن هذا الجزء البلاد التي تبدأ اسماءها بحرف ا .

وفي الجزء التاسع بحث ضاف عن قافلة الحج المصرية ونظام خروجها من القاهرة وإقامتها خمسة

أرخ لها في هذا الجزء ، الباجور ، باقور ، بانوب ، بيا والبتاتون ، ويكتبها البتون ، البدارى ، بدرشين ، بردين ، بسيون ، بلييس ، بلقاس ، بلينا ، بنتا ، بنى سويف ، بنى عدلى ، بنى مزار ، بهتيم ، بهجورة . وفي هذا الجزء ترجم على مبارك لنفسه ترجمة مستفيضة تناولت حياته الخاصة والعامة . كما ترجم لتقى الدين احمد بن على المقرئ واستمد مادته العلمية عنه من كتاب أبى المحاسن التميمى المسمى بالمنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى . وترجم ايضا للشيخ ابراهيم الباجورى شيخ الجامع الأزهر والشيخ احمد الدردير من علماء الأزهر وإبراهيم المتبولى وعلى الخواص من كبار المتصوفة . . ومن الشخصيات الأجنبية التى ترجم لها : شامليون ويكتب على مبارك اسمه بالطريقة التركية جانبوليون ، وهو عالم الآثار المصرية القديمة الفرنسى الذى عكف على فك رموز اللغة الهيروغليفية فى القرن التاسع عشر ، كما ترجم لبعض الفلاسفة والعلماء اليونانيين وغيرهم من القرن الثالث والخامس والسادس للميلاد نذكر منهم اجاثمبر ، اتين البيزنطى ، اولنيودور ، بروكوب . وترجم أيضا لأحد العلماء الفرنسيين الذين اشتغلوا بالعلوم الطبيعية والنباتية وهو ريمور . ولم يغط هذا الجزء جميع البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف الباء فوقف عند جهوت وهى قرية تتبع مركز المحلة الكبرى بمحافظة الغربية حاليا وترجم لثلاثة من علمائها عاشوا إبان الحكم العثمانى .

★ ★ ★

وحفل الجزء العاشر بعدة أبحاث تتصل ببعض البلاد المصرية ذات الشهرة التاريخية ، مثل بوصير والبوطة وأبو قير - ويكتبها بوقير - وتروجه وتيس وحلوان . فلما جاء ذكر بوصير تكلم عن مقتل مروان ابن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية وحاول تحديد

المكان الذى لقي فيه هذا الخليفة مصرعه وهل هو بوصير الجيزة أو بوصير الفيوم ؟ واستعرض كتابات المقرئ وابن حوقل وأبى المحاسن وأبى الفداء وابن خلكان فى هذا الصدد . ولما تعرض للبوطة وهى قرية فى محافظة البحيرة كانت مسكنا لشيخ عرب البحيرة حسن بن برعى وأخيه شكر تعرض لقتلهما على يد المماليك الشراكسة الذين قطعوا رأسيهما وشربوا من دمهما وجزل بعضهم من لحمهما بالسيف وأفاض فى وصف نهايتهما جزاء خيانتهم للسلطان طومانباى . وعند أبى قير تكلم عن الخليج الناصرى (١) الذى حضره الناصر محمد ابن قلاوون وكانت هذه التركة تخرج من الرحمانية وتأخذ مسار خليج الإسكندرية القديم واستطرد إلى العلاقات بين مصر والصليبيين فى صيدا بالشام ، وبين مصر وجزيرة قبرص . وانتقل من التاريخ الوسيط إلى التاريخ الحديث فتكلم عن موقع أبى قير البحرية (اول اغسطس ١٧٩٨) وأبى قير البرية (٢٥ من يوليو ١٧٩٩) ونشر بعض منشورات بونايرت للشعب المصرى وناقش موضوع قطع سد أبى قير كإجراء حربى لحا اليه الإنجليز فى محاربة الفرنسيين . ولما تكلم عن تروجه - وهى مدينة قديمة فى جنوب غرب دمنهور - استعرض تاريخها منذ سنة ١١٧ هـ واستند إلى ما كتبه عنها المقرئ فى خططه والنويرى فى نهاية الأرب وكاترمير نقلا عن المقرئ فى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . وتعرض للمفاوضات التى جرت فى هذه البلدة سنة ٣٥٨ هـ بين جوهر الصقلى قائد الجيش الفاطمى أثناء زحفه من الإسكندرية إلى الجيزة وبين وفد يرأسه أبو جعفر مسلم وأسفرت عن عقد الصلح ، وانتقل إلى الكلام عن إقامة الظاهر بيبرس فيها ومقتل السلطان الأشرف خليل فيها سنة ٦٣٩ هـ . ولما وصل المؤلف

(١) كانت الترع تسمى فى ذلك الوقت خلجانا .

في ذكر المدن الى تنيس كتب تاريخا ضافيا عنها تناول الدور الذي لعبته في العصور القديمة وفي العصور الإسلامية على ضوء ما كتبه المقرئى والمسعودى وأبو السرى الطيب وأبو الفداء وغيرهم . وقال إن الحيتين اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم «واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا» (١) كانتا في تنيس لأخوين من بيت الملك قليمون من نسل اتريب بن قبطيم . وتكلم عن الشهرة العريضة التي أصابتها هذه المدينة في صناعة الثياب وتكلم عن الحياة الاجتماعية بين سكانها . ووضع بحثا مستفيضا عن حلوان وقال إنها كانت قرية مشهورة عامرة بالسكان منذ أكثر من ألف وثمانمائة وخمسين عاما خلت ثم أخنى عليها الدهر ففدت بلدا مهجورا حتى جردها وعمرها عبد العزيز بن مروان الذي ولى حكم مصر وأعجب بهوائها فترل بها سنة ٧٠ هـ ليكون بمنجاة من الطاعون الذي اتخذ مظهر الوباء في تلك السنة . وشيد بها المساجد والدور وغرس النخيل والكروم . وتابع المؤلف تاريخ حلوان عبر العصور فتكلم عن زيارة المأمون الخليفة العباسى لها سنة ٢١٧ هـ وذكر طرفا من زيارة هذا الخليفة لمصر ، وتعرض لخواص المياه الكبريتية التي تنبثق من عين حلوان وأهميتها في علاج الأمراض الجلدية ، وشرح مظاهر الاهتمام بتعمير حلوان منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر من إنشاء خط حديدى يربطها بالقاهرة . ولم يكن هذا الخط يبدأ من محطة باب اللوق كما هو الحال الآن ، بل كان يبدأ من قره ميدان بالقلعة ثم يمر على مقابر الماليك وشرق ضريح الإمام الشافعى إلى البساتين ويأخذ مساره الحالى . كما تكلم عن إنشاء

(١) سورة الكهف آية رقم ٣٢ والآيات التالية لها مكية

لقصة الآخرين .

حمامات للمياه الكبريتية بها وشق شوارع متبعة ومستقيمة من النيل إلى الحمامات وبناء فندق سياحى وفندق آخر للعلاج وذكر التسعيرة التي وضعت للنازلين فيه بمختلف الدرجات ، وعما اذا كانت الإقامة تشمل تناول الطعام أو مقصورة على المبيت . وتكلم عن التيسيرات التي قدمتها الحكومة لتشجيع الأهالى على بناء دور لهم في حلوان ، واستعرض النشاط الاقتصادى فيها وازدياد حركة البناء والتعمير خلال السنوات من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٧ ومن الوقائع التاريخية التي تعرض لها في هذا الجزء المدينة التي أرسلها المقوقس . ويصفه على مبارك بأنه صاحب الإسكندرية . إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان من ضمنها مارية وأختها سيرين ، ومارية هي التي ولدت للنبي ابنه ابراهيم وخلص من ذلك إلى القول بأن ثلاثة من الأنبياء صاهروا الأقباط هم ابراهيم الخليل تسرى بهاجر أم اسماعيل . ويوسف تزوج بانية صاحب عين شمس التي ذكرها الله في كتابه فقال «وغلقت الأبواب وقالت هيت لك» (١) ومحمد عليه الصلاة والسلام تسرى بمارية . وتكلم عن الحياة المترفة الرثية التي كان يجيها المتنصوفة في خانقاه سرياقوس والتي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣) م وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفى ولقب شيخها بلقب شيخ الشيوخ بعد أن كان هذا اللقب مقصورا على من يتولى مشيخة خانقاه سعيد السعداء . كما أفاض المؤلف في تحديد الأقاليم في مصر التي نزلت بها القبائل العربية بعد الفتح الاسلامى وذكر دخول معاوية بن أبى سفيان مصر وولاية محمد ابن أبى بكر الصديق عليها وقتله بها . وتكلم عن نظام الخلع في دولة الماليك وأفاض في وصف خلع أرباب السيوف وخلق أرباب الأقلام وخلق العلماء .

(١) سورة يوسف جزء من الآية رقم ٢٣ .

ووضع بحثاً عن نظام النيابة في دولتي الممالك وشرح
وظيفة النائب الذي كان يقوم مقام السلطان وكان صاحب
هذه الوظيفة يسمى ملك الأمراء ونائب الحضرة وكافل
الممالك ، وتكلم عن اختصاصاته المشعبة ووضعه في
الدولة وفي الاحتفالات الرسمية وفي المواكب ، ووصف
دار النيابة التي بناها الملك المنصور قلاوون سنة ٨٦٨٣ هـ .
وانتقل المؤلف من النيابة إلى الوزارة فتكلم عنها على
غرار ما فعل في كلامه عن النيابة . وتكلم عن التجربة
التي قامت بها الحكومة المصرية في النصف الأول من
القرن التاسع عشر لزراعة أشجار التوت لتربية دود
القز ، وذكر أن الحكومة حفرت أكثر من ألف ساقية
واستدعت خبراء من الآستانة لتدريب المصريين ،
كما زرعت أيضاً في نفس المنطقة وهي رأس الوادي
بمديرية الشرقية أشجار الزيتون لاستخراج الزيت
واستخدامه في صناعة الصابون . وفي هذا الجزء شرح
المؤلف بعض المصطلحات التاريخية نذكر منها على
سبيل المثال : بغلطاق ، بغلوطاق ، بغلطيقي ، صولقي ،
صوالقي ، الحياصة ، حوائص ، شيوب ، زراقة ،
قراسنقر ، آق سنقر ، شنتور ، شنتار ، طبلخانة ،
أمراء الطبلخانة ، شاد الشرايخاناه ، شاد الدواوين ،
شاد العمائر ، شاد الخااص ، شاد الزردخانه ، شاد
الحوش ، شادية ، أمير أخور ، جشار ، تشاهير ،
مروات ، الخانقاه . ومن المدن التي أرخ لها في هذا
الجزء ، عدا التي ذكرناها ، أبو قرقاص ويكتبها
بوقرقاص ، وبولاق الذكور ، ويكتبها بولاق التكرور ،
بورسعيد ، تلا ، جرجا ، الحيزة . وترجم في هذا
الجزء لعدد كبير من الشخصيات نذكر منها الشيخ
البوصيري صاحب البردة وابن خلكان والشيخ علي
البيومي من المتصوفة وابن السالوس وزير الأشرف
خليل والشيخ حسن الحدادي من علماء الأزهر وهو
لا ينسب إلى مبناء جده بالحجاز بل ينسب إلى الحدية

وهي قرية بمحافظة البحيرة ، على الشاطئ الغربي
لفرع رشيد وجنوبي مدينة رشيد ، وترجم لبعض
الصوفية الذين عاشوا أو دفنوا في خانقاه سرياقوس ،
وترجم أيضاً للأمير عيسى شيخ عرب بني عون
ولشيخ العرب سويلم بن جيب بالقليوبية وابنيه سالم
وسويلم . كما ترجم لبعض المستشرقين الفرنسيين مثل
كانترمير (١٧٨٢-١٨٥٧) وساسي (١٧٥٨-١٨٣٨)
وهربلورتلبي (١٦٢٥ - ١٦٩٥) . وقد غطى
على مبارك في هذا الجزء بقية البلاد التي تبدأ أسبازها
بحرف الباء ثم أحرف التاء والحاء والجيم والحاء والذال .

وحفل الجزء الحادي عشر بذكر عدد من أمهات
المدن ذات الشهرة التاريخية فتكلم عن دمنهور وتاريخها
في العصور القديمة والحديثة وتعرض بوجه خاص
لأحداث الحملة الفرنسية المتصلة بدمنهور والفترة التي
أعقبت خروج الفرنسيين من مصر والحرب بين محمد
علي ومحمد الأتلي والأزمة التي واجهها محمد علي حين
صدر مرسوم من السلطان بنقله من مصر إلى سالونيك
ومؤازرة علماء مصر لمحمد علي إبان هذه الأزمة
واستعرض تاريخ مدينة دمياط الحافل إبان الحروب
الصليبية وأفاض في شرح أحداث الفترة الحرجة التي
تولت فيها شجر الدر مقاليد الأمور عقب وفاة الملك
الصالح نجم الدين أيوب ريثما يحضر توران شاه ابن الملك
المتوفى وكانت حملة لويس التاسع قد نجحت في الاستيلاء
على دمياط والوصول إلى المنصورة تجاه البحر الصغير .
ومما هو جدير بالذكر أن علي مبارك يسمى قائد الحملة
روا دفرنس أي ملك فرنسا وهي نفس التسمية التي
أطلقها من قبل المقرئ في خطه (١) وانتقل إلى تاريخ
دمياط إبان الحملة الفرنسية ثم في فترة الصراع على

(١) المقرئ : الخطط . طبعة الشياح - لبنان - ثلاث مجلدات
المجلد الأول الجزء الثاني ص ٣٩٠ - ٣٩٢ .

الحكم في مصر بين محمد باشا خسرو والوالى العثمانى وبين عثمان بك البرديسى ، وتكلم عن مساجدها ومدارسها ووصف سمكة تظهر في مياه دمياط يطلق عليها فرس البحر وذكر منافعها . وسار على نفس النهج عند كلامه على رشيد وأفاض في وصف المدينة والحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية لسكانها وأخذ يعدد أنواع المحصولات التي تشتهر بها وذكر أنواع البلح وأصناف الأرز واستعرض تاريخ رشيد في العصور الوسطى ثم في القرن التاسع عشر وأطال في الكلام على الحملة البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧ وانتصار المصريين على البريطانيين في معركة رشيد والحماة . ولما جاء ذكر بلدة دندرة وصف معبدها وتاريخ إنشائه وانتقل منه إلى قصة إيزيس وأوزوريس وهاتور . ومن المصطلحات التاريخية التي شرحها المؤلف في هذا الجزء : خشداش ، خشداشية ، طواشي ، الفرارة ، الحواء ، البرك . ومن المدن التي أرخ لها في هذا الجزء - عدا التي ذكرناها - دراو ، الدر ، ديروط ، دشنا ، دكرنس ، الزقازيق ، زفتي . وقد ترجم لأبراهيم النسوق والوزير صاحب ولعدد وافر من علماء دمياط ودمهور ورشيد كما ترجم للسائح الفرنسي سافارى ويسميه « سوارى السياح الفرنسيساوى » وقد زار مصر في القرن الثامن عشر ، كما ترجم لسائح فرنسى آخر هو الأب سيكار ويصفه بأنه « سياح فرنساوى قسيس من طائفة الجزويت » . ترجم أيضاً لعلى باشا الجزائرلى أو الطرابلسى أو على برغل وهو والى العثمانى الذى لقي حتفه في مطلع سنة ١٨٠٤ في القرنين بصحراء الشرقية على يد الأمراء المماليك ، كما ترجم لبعض أعضاء البعثات العلمية الذين أوفدتهم الحكومة المصرية إلى أوربا في القرن التاسع عشر . ويغلب على هذا الجزء - الحادى عشر - في مجموعة طابع التراجم . وذكر الزوايا المنتشرة في أنحاء

* * *

وجاء الجزء الثانى عشر على غرار الأجزاء السابقة حافلاً بالبحوث في شتى الموضوعات فخاص بمتناً ضافياً عن الرزق الإجابسية ونشأتها وتطورها في مصر الإسلامية ، وأورد نصاً حرقياً لعهد أخذ على نصارى العرب من أهل نجران في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعدة عهود أخرى أخذها عمر بن الخطاب على نصارى الشام . وتكلم عن وضع الكنائس في ظل الإسلام مستشهداً بأحاديث نبوية وأقوال منسوبة إلى عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وما رواه الحسن البصرى ، ثم تكلم عن الجزية المقررة على الذميين وفتاتها وجواز رفع نسب هذه الفئات على ذوى الدخول الكبيرة . واستعرض حوادث الزلازل العنيفة التي تعرضت لها القاهرة في القرنين السابع والثامن الهجريين ، ووصف خروج السلطان أيام دولة المماليك إلى الصيد في سرباقوس أو شيرا ، ووصف ركوب السلطان من القلعة في الأعياد . وتكلم عن تحنيط الجثث عند قدماء المصريين وأطلق على هذه العملية تصبير الموتى . وشرح عاداتهم في الجنائزات وتكلم عن قصر أنس الوجود . وفي هذا الجزء شرح كيفية عمل السمك المقدد المعروف في الصعيد باسم الملوحة . وأرجع سبب انتشاره إلى أن سكان البلاد التي يكثر فيها قصب السكر يستطيعون أكل السمك المقدد ، وذكر أسماء الأراضي الزراعية في مصر تبعاً لنوعها وجودة الزراعة بها وسهولة رباها وما إلى ذلك ، وهى أسماء تبدو غريبة بالنسبة للقارى غير المتخصص في الشؤون الزراعية ، وحسبنا أن نذكر هنا من هذه الأنواع على سبيل المثال : البروية :

الشماعة ، الثنوية ، شق الشمس ، نقاء ، وسخ
مزدرع ، وسخ غالب ، مستبحر ، خرس ،
إلى غير ذلك من الأسماء . والمهم أنه يعطى مواصفات
لكل نوع من هذه الأراضي وأنواع الزراعات التي
تجود فيها وكيفية ربيها إلى غير ذلك من تفصيلات فنية .
واستعرض أنواع الخضر وفوائدها ، وانتقل إلى الكلام
عن بعض أنواع النباتات التي تزرع في مصر وتستخدم
في علاج بعض الأمراض والحميات مثل التزلات
المعوية والشعبية والمغص وآلام الظهر والمفاصل والربو
وأمرض القلب والحرب ، وتكلم عن النباتات التي يؤدي
تعاطيها إلى زيادة إفراز الكبد ، وذكر منافع شجر الخناء
ووصف تركيباً من زهرة الخناء تضاف إليها مواد أخرى
لتفتيت الحصى في الكلتيين ، وعلاج الطحال وإدرار
البول . وتكلم عن منافع الكزبرة وشرح أنواع
المشروبات التي تصنع من البلح أو الذرة أو الزنجبيل
وكيفية إعدادها للشرب ثم تكلم عن شراب البوزة
والدكاوى وغيرهما من المشروبات . ومن أهم المدن
التي تعرض لها على مبارك في هذا الجزء مدينة السويس
وقد شرح معالمها ، فتكلم عن شوارعها وأسواقها
ومساجدها وزواياها ووكائنها والشركات القائمة بها
والنشاط التجاري والاقتصادي بها وحركة الملاحة في
مينائها وبيان البضائع الأجنبية الواردة إليها بجرأ وحوض
إصلاح السفن والمناظر وما إلى ذلك من منشآت بحرية
في ميناء السويس . وتكلم عن تاريخ المدينة على عهد
الحملة الفرنسية وقلوم الجنرال بونايرت إليها ، وهو
يطلق عليه بانويرتو ، وانتقل إلى النشاط الذي دب في
المدينة وفي مينائها إبان الحروب الوهابية وإحار الحملات
العسكرية التي قامت تباعاً من ميناء السويس إلى ينبع
وجدة وتكلم عن المذهب الوهابي والحركة التي قادها
محمد بن عبد الوهاب . وانتقل إلى تنظيم الطريق البري

Overland Route من القاهرة إلى السويس عبر
الصحراء على عهد محمد علي ، وتحسين الخدمة في هذا
الطريق على عهد عباس الأول ثم مد الخط الحديدي من
العاصمة إلى السويس وتكلم أيضاً عن المنطقة المحيطة
بمدينة السويس وأشار إلى منطقة عيون موسى وغيرها .
ومن المدن الأخرى التي ورد ذكرها في هذا الجزء
أسيوط ، سمند ، سمالوط ، السنبلوين ، سوهاج ،
شبراخيت ، شربين ، الشهداء ، شبين الكوم ، شبين
القطاطر وتكلم عن واحة سيوة وعادات أهلها . وذكر
ثلاثة وأربعين بلداً يبدأ كل منها بكلمة شبرا مثل شبراخيت
وشبرا الخيمة وشبرا الخلة . ويتميز هذا الجزء من
الخطط التوقيفية بأنه يحوى شرحاً لعدد وفير من
المصطلحات التي شاع استعمالها في مصر في عصر دولتي
المماليك والحكم العثماني وبخاصة في الجيش والإدارة
وأنظمة الحكم والألعاب والصناعات اليدوية الدقيقة
ونذكر منها على سبيل المثال : الكراتة ، شبابه ،
طبردارية ، النقشة ، الخاصكي ، الحمقدار ، الكفت ،
الأكفات ، التزميك ، الشربوش ، الهناب ، حامل
المزرة ، اليسق ، كتاب الدرج ، كتاب الاست ،
الطشتخاناه ، البركاخاناه ، الحوانجخانه . وتضمن هذا
الجزء أيضاً تراجم لشخصيات كثيرة حسبنا أن نذكر
منها هنا : الخافظ وابن الأثير ومعروف الكرخي
وشمس الدين السخاوي المؤرخ وجلال الدين السيوطي
والعارف السوهاجي وزكريا الأنصاري وأبو بكر
المارداني أحد كبار رجال الدولة الطولونية ، وقد حبس
على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة أوقافاً وضباعاً
كان من بينها أسيوط ، وكان يصل إيراد هذه الأوقاف
إلى مائة ألف دينار في السنة . كما ترجم لنابليون بونايرت
ترجمة ضافية منذ مولده حتى وفاته في منفاه ثم إحصاء
رمتة ، أي جثته إلى فرنسا لدفعها في باريس على عهد

الملك لوى فيليب وترجم أيضاً لعالم فرنسى هو لارشيه Larcher (١٧٢٦ - ١٨١٢) الذى ترجم كتاب هيرودوت وعلق عليه ، كما ترجم للمؤرخ مانتون . وقد تناول هذا الجزء البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف السين وحرف الشين المعجمة .

واحتوى الجزء الثالث عشر موضوعات شتى فى التاريخ القديم والوسيط والحديث فمن موضوعات التاريخ القديم تعرضه لمدينتى صا الحجر وصان الحجر فقد استعرض تاريخهما فى العصور القديمة . كما تكلم عن مدينة طينة أو بيلوز Peluso وهى فى موقع بورسعيد الحالية والدور الذى لعبته هذه المدينة فى التاريخ القديم . على أن أهم ما جاء فى هذا الجزء خاصاً بالتاريخ القديم كان بلا شك مدينة طيبة - الأقصر الحالية - ويسمىها المؤلف طيوه ، فقد أفاض فى شرح آثارها سواء معبد الكرنك أو آثار البر الغربى مثل مدينة هابو - ويسمىها آبو - والرمسيوم والقرنة ومآثر الآثار التى حفل بها وادى الملوك . أما الموضوعات التى تعرض لها فى التاريخ الوسيط فكان نظام البريد فى الدولة الإسلامية عامة وفى مصر خاصة ، وتولى شجر الدر حكم مصر . وشرح الموجات البشرية من التتار الذين زحفوا على الشرق العربى وسقوط بغداد فى أيديهم وانتقل إلى الكلام عن مدينة بغداد وتاريخها ، وتكلم عن الهدايا التى كان يتبادلها حكام البلاد الإفريقية فيما بينهم ، ووصف صحراء عيذاب والطريق الذى يمر عبر الصحراء من قفط إلى ميناء عيذاب الواقع على البحر الأحمر وأسماها المحطات الواقعة على هذا الطريق . وتكلم عن معدن الزمرد ومواطن استخراجها فى الصعيد الأعلى ابتداء من قفط بمديرية قنا حتى أسوان وشرح خواص هذا المعدن واختلاف لونه حسب فصول

السنة وحالة الطقس ، وقال إنه يزداد توهجاً فى ضوء القمر حتى يكتمل بدرًا . ثم انتقل إلى الزبرجد وأنواعه وخواصه . ومن المصطلحات التى شرحها فى هذا الجزء : الشاليس ، اليزكية ، الكراع ، استادار ، الاقامات بمعنى الميرة . ومن المدن التى جاء ذكرها فى هذا الجزء طنطا ، طهطا ، طلخا ، طما ، طوخ . وترجم لعدة شخصيات منها السيد أحمد البدوى ورفاعة رافع الطهطاوى وعبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر فى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر . وقد شمل هذا الجزء البلاد التى تبدأ أسماؤها بأحرف الصاد المهملة والضاد المعجمة والطاء المهملة والطاء المعجمة .

وحفل الجزء الرابع عشر بعدة بحوث ووثائق تاريخية فتكلم ، وهو يذكر أسماء البلاد المصرية ، عن عجروود . وكانت إحدى محطات قافلة الحج المصرية ، وهى على بعد عشرين كيلو متراً غرب مدينة السويس ، وتقع حالياً على الخط الحديدى الصحراوى الذى يصل بين القاهرة والسويس وتقف عندها القطارات الحديدية التى تسير على هذا الخط . وكان هذه المحطة كانت نقطة انطلاق فكرى لعل مبارك فأخذ يذكر معلومات ضافية وطريفة عن الطريق التى كانت تسلكها قافلة الحج مارة بعجروود والمدن والدروب والمسالك والمغارات وآبار الماء والخانات والدور الواقعة على طريق الحج فى كل من مصر وشبه الجزيرة العربية حتى المدينة المنورة ومكة المكرمة ، ويصف مهام أمير الحج والترتيب الذى يوضع للحجاج فى ظعنهم وإقامتهم والأخطار التى يتعرضون لها فى الطريق من هجوم العريان عليهم وذكر أسماء القبائل والمناطق التى تسيطر عليها هذه القبائل . وتكلم عن وصول حجاج مصر والشام إلى رايع حيث يبدأ الإحرام . وانتقل إلى عيذاب كميناء تقصده

السفن القادمة من الهند واليمن، وكمركز يباع فيه اللؤلؤ الذى يستخرج من الجزر القريبة من الميناء ، وكطريق يسلكه بعض الحجاج قى الوجه القبلى إلى الحجاز .

ويذكر معلومات طريفة للغاية عن منطقة عيذاب وعادات سكانها والمتاعب التى يلقاها الحجاج القادمون من قوص إلى عيذاب فى طريقهم إلى جدة وكيف كان يتحكم سكانها فيهم ويشحنون بهم المراكب ويطلقون عليها الجلاب (جمع جلب) فيجلس الحجاج وكأن السفن أقفاص مليئة بالدجاج حتى يستوفى صاحب الجلبة ثمنها من رحلة واحدة وهو لا يبالي بالأخطار التى تتعرض لها الجلبة وهى تجتاز البحر الأحمر . وانتهاز المؤلف فرصة كلامه عن عيذاب فربط بين هذا الميناء وبين رحلة ابن بطوطة من إدفو إلى عيذاب وكيف تعذر عليه مواصلة رحلته إلى جدة فعاد من عيذاب إلى قوص ومنها صعد فى النيل إلى القاهرة ثم واصل سفره إلى الشام ماراً ببليس والصالحية والعريش ورفع، وتكلم عن القدس ومدن الرملة وطبرية وبيروت ودمشق وقبور الأنبياء الصالحين فى بعض هذه المدن الشامية مثل قبور إبراهيم واسحق ويعقوب وزوجاتهم ويونس وصالح وشعيب وسليمان وخالد بن الوليد وأبى عبيدة الجراح وعمر بن عبد العزيز وبلال مؤذن الرسول عليه السلام ، ثم انتقل إلى العراق فذكر أن قبر على فى مدينة مشهد على من بلاد العراق ، وأن أهل هذه المدينة كلهم رافضة أى شيعة ويحكمها نقيب الأشراف دون سواء ووصف المقبرة . ثم تكلم عن قرية أم عبيدة فى العراق حيث دفن بها أحمد الرفاعى ، وانتقل إلى مسجد على بن أبى طالب فى مدينة البصرة ومشهد الإمام الحسين بمدينة كربلاء ، وقبرى الإمام أبى حنيفة والإمام أحمد بن حنبل فى بغداد . وتضمن هذا الجزء أيضاً بحثاً عن العلاقات التجارية والسياسية والحربية فى

العصور الوسطى بين مصر وبين بعض الدول الأوربية مثل فرنسا والبندقية وجنوة وفلورنسه وغيرها من دول وإمارات حوض البحر المتوسط . وتكلم فى موضوع تعيين قناصل لبعض هذه الدول فى مصر منذ أيام الدولة الأيوبية ودولى المماليك البحرية والبرجية وتبع نشاطهم ومقار عملهم ومدى نجاحهم أو فشلهم فى رعاية مصالح بلادهم ، ثم انتقل إلى موضوع المحاولات التى بذلت لإيصال البحرين المتوسط والأحمر قبل شق قناة السويس . كما تضمن هذا الجزء بحثاً عن ترعة الفرعونىة شرح فيه الأخطار التى كانت تتعرض لها أراضي الوجه البحرى من مياه هذه الترعة وما كان يهددها من الفرق ، وتابع الجهود التى بذلتها السلطات الحكومية للمحافظة على جسور هذه الترعة منذ أواخر عصر المماليك فى سنة ١٢٠٧ هـ (١٧٩٢) وإبان الاحتلال الفرنسى وأوائل حكم محمد على حتى سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١) م . وانتقل إلى ملحة المماليك بالقلعة ويسمىها على مبارك « وقعة المماليك بقلعة الجبل بمصر » ويعلق عليها بقوله « وكان موتهم رحمة للبلاد وعمارة للبلاد وأمنت بعدهم السبل براً وبحراً » . ومن الأبحاث التى تضمنها هذا الجزء تدابير الحكومة المصرية فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى للحد من استهلاك الأقمشة المستوردة من جمهورية البندقية ، إذ كانت سيدات مصر يغالين فى تفصيل ملابسهن منها ، وكانت مودة ذلك الوقت تفصيل ملابس فضفاضة واسعة للغاية الأمر الذى أدى إلى استهلاك كميات كبيرة من الأقمشة الأوربية الفاخرة ، فحصل « التنبيه » فى الشوارع بالكف عن ذلك ، وفى أكتوبر ١٣٩٠ نزل رجال الحكومة إلى أسواق القاهرة وشوارعها وقطعوا أكام الملابس الواسعة التى كان النساء يرتدينها . وانتقل المؤلف إلى بحث فى التاريخ القديم عن منطقة العراية المدفونة

ويسمىها « العربيات المدفونة » في أيديوس على مقربة من البلينا بمحافظة سوهاج ، فشرح آثار هذه المنطقة وأسماء الشمس المقدسة عند قدماء المصريين وغيرهم من شعوب الشرق القديم . ومن الوثائق التي نشرها على مبارك في هذا الجزء نذكر ثلاثاً : هدنة عقدت بين حكومة جنوة ودولة المماليك البحرية على عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون وابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ، ووثيقة ثانية تاريخها ٤٢٢ هـ باسم « دستور يتضمن العامر والغامر من أرض القيوم » وتشمل بياناً عن شبكة الترع التي كانت منتشرة في إقليم القيوم وقتذاك . أما الوثيقة الثالثة فمنتشور أذاعه غازان ملك التتار على سكان مدينة دمشق بعد معركة مجمع المروج سنة ١٢٩٨ أعلن فيه لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وندد بسياسة دولة المماليك ، وكان سلطانها وقتذاك هو الناصر محمد بن قلاوون . وشرح على مبارك على عادته بعضاً من المصطلحات التي كانت ذاتة في العصور الإسلامية ونذكر منها على سبيل المثال : الحراوة ، النذب ، التنبول ، للطرائد ، الشوائى ، الحراقات ، بطس ، العشاريات ، بيكار ، يياكير . ومن المدن أو البلاد التي كتب عن تاريخها في هذا الجزء : العريش ، العسبرات ، العطف ، فارسكور ، فاقوس ، فرشوط ، الفرما ، القشن ، الشيخ فضل ، فوه ، القيوم ، القصير ، قفط ، القلزم ، قلوب ، قنا ، قوص ، القوصية ، قويسنا . وفي هذا الجزء تراجع لشخصيات عديدة نذكر منها : ابن خلدون وابن بطوطة وعبد الوهاب الشعراني وإمام المتصوفة في مصر في القرن العاشر الهجري وبعض أفراد أسرته والإمام الليث ابن سعد وابنه الإمام شعيب والبهاء زهير والشيخ حسن العدوى وأبو الحسن الشاذلي والكندي وعبد الرحيم القنائى والشيخ مكيان القيومى . وترجم أيضاً لعدد

وأفر من علماء فرشوط والقيوم وفارسكور وقنا غير ما سبق ذكرهم . وقد غدلى هذا الجزء البلاد التي تبدأ أسماؤها بحروف العين المهمة ثم العين المعجمة والقاف .

* * *

واستهل على مبارك الجزء الخامس عشر بالكلام عن مدينة كانوب ، وتقع مكان ضاحية أبي قير الحالية ، واستعرض تاريخها زمن الفراعنة وفي العصرين البطلمي والرومانى ومعابدها وبخاصة معبد سيرابيس الذى كان يقصده المصريون طوال العام لالتبرك والزيارة فحسب ، بل لما كانت تتخلل الحياة في كانوب من مجون وفسق بسبب كثرة النساء العاهرات وأماكن المجون واللهو غير البرى ، وخلص على مبارك من ذلك إلى القول بأن كهنة معبد سيرابيس كانوا أغنى رجال الدين في مصر قاطبة . ووقف المؤلف وقفة طويلة للغاية عند ذكر بلدة المطرية من ضواحي القاهرة وأثبت أن المطرية ليست عين شمس وإنما هي على مقربة منها ، وتكلم عن مسلاتها العديدة التي نقلت منها إلى رومه إبان الحكم الرومانى ، ثم انتقل إلى هياكلها قبل دخول المسيحية إلى مصر وأخذ يستعرض تاريخها عبر العصور وتتبع رحلة السيدة مريم وابنها عيسى عليه السلام ومعهما يوسف النجار من بيت المقدس إلى مصر وتجوأ لهم في مختلف البلاد المصرية وإقامتهم في المطرية . وتكلم عن الأحداث التاريخية الهامة التي وقعت في منطقة المطرية إبان الحكم الإسلامى حتى وصل إلى معركة الريدانية التي لقي فيها السلطان طومانباى آخر سلاطين دولة المماليك الهزيمة على يد السلطان العثمانى سليم الأول ، وشرح الأيام العصيبة التي سبقت ولحقت هذه المعركة ، وإقامة السلطان سليم في مصر ثمانية أشهر ثم رحيله إلى الآستانة والقرارات التي اتخذها عند رحيله ،

ونشر القصيدة المشهورة التي نظمها ابن اياس برثي فيها حالة مصر بعد أن ضاع استقلالها وأضحى ولاية عثمانية واحتل أرضها جنود عثمانيون حلقوا الذقون يضعون على رؤوسهم الطرايطر ، ووصفهم بأنهم ليسوا على حظ موفور من الشجاعة لأنهم يعتمدون في الحرب على سلاح المدفعية ، وسجل في هذه القصيدة أعمال التخريب التي ارتكبتها العثمانيون في أحياء القاهرة ومساجدها وتكدس جثث الموتى في الشوارع كأنها ذبائح عيد الأضحى . وانتقل على مبارك إلى الكلام عن موقعة عين شمس بين الفرنسيين والعثمانيين وهزيمة الأخيرين (٢٠ مارس ١٨٠٠) وأفاض في الكلام عن ثورة القاهرة الثانية وهي الثورة العارمة التي قام بها الشعب ضد الفرنسيين واستطالت ثلاثة وثلاثين يوماً وذكر مراحل هذه الثورة ودور الزعماء والشعب فيها وقد استمد من الخبر في المادة التاريخية عنها كما نقل عنه عدة حوادث تمثل المقاومة الشعبية في العصر العثماني وأوائل حكم محمد علي ، وكان بعضها لعلماء الأزهر وقد وقفوا من الأمراء المماليك في كل حادث وقفه ثم عن الإباء والعزة والكرامة . ونقل عن الخبر في أيضاً قصة وقعت في ربيع آخر ١٢٣٥ (١٧ يناير ١٨٢٠ - ١٤ فبراير ١٨٢٠) وهي تشبه في معظم عناصرها إلى حد بعيد حادث دنشواي (١٩٠٦) مع اختلاف النتائج في كل منها بطبيعة الحال (١) . وتكلم عن المحاولة التي قامت

بها الحكومة المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر لاستيراد أنواع معينة من الأغنام من أوروبا وتربيتها في مصر بغية استغلال أصوافها وشرح بالتفصيل المراحل التي مرت بها هذه العملية واجراءات الحكومة لتنظيمها . ومن الأبحاث التي جاءت في هذا الجزء الحملة العسكرية التي أرسلها السلطان العثماني إلى مصر بقيادة حسن باشا الجزائرلي سنة ١٧٨٦ لكسر شوكة المماليك واسترجاع نفوذ الدولة في مصر ، ونشر صورة القرمان الذي أرسله حسن باشا إلى أولاد حبيب بناحية دجوة . ومن المصطلحات التي شرحها على مبارك في هذا الجزء : الإخراق ، البرك ، المشاعلية ، نبدة البوش ، النيدة المعقودة ، الخبيص ، شجر البلسان والبسام ، عازق ، بيورلضي ، بيورلضيات ، وأنواع الأعلام الحربية مثل الشطفة ، والعصابة والصنحق . ومن المدن التي تكلم عنها كفر الزيات ، كفر الشيخ ، اللاهون ، المحلة الكبرى ، محلة روح ، المراغا ، مرصفا ، مغاغة ، ملوى ، مليج ، المنصورة ، منفلوط . وبالنسبة للمنصورة فقد أفاض في الكلام عن النهضة الصناعية التي شهدتها هذه المدينة في القرن التاسع عشر . أما منفلوط فقد أبرز معنى خاصا بها هو أنها كانت مسرحاً لحوادث القتل والشغب التي كان يلجأ إليها الأمراء المماليك في أواخر القرن الثامن عشر تحدياً للحكومة القاهرة واستخفافاً بالباشا العثماني .

إلى القاهرة وقابلوا وكيل محمد علي واجتمع الألبانيون وأمرؤا على قتل الإنجليزي، وخشى الوكيل عاقبة هذا التصرف ، واقترح التريث حتى يستدعى القناصل ويعرض عليهم المسألة . ولكن استنكر الألبانيون تأخير قتل الإنجليزي وتعلق قتله على رأى القناصل، وطالبوا بقتله فوراً وتهدهوا يذروهم إلى حى الافرنج ونهب المساكن وقتل جميع من بها من الأجانب فلم يسع الوكيل إلا أن أمر بقتله فزولوا به إلى الرميلة وقطعوا رأسه .

(١) قدم رجل إنجليزي من الإسكندرية إلى قرية كفر حشاد بمركز تلا بديرية المنوفية ليصطاد بها الحمام وصوب بنقته نحو حمامة ولكن أصابت الطلقة أحد الفلاحين في ساقه . ورأى أحد الألبانيين هذا الحادث، وكان يسلك يده هراوة غليظة فقال للإنجليزي : الانتهى أن يأتي إليك بعض الفلاحين ويضربوك على رأسك هكذا ؟ وأشار بما في يده إلى رأس الإنجليزي، إذ كان الألباني لا يتكلم الإنجليزية . فما كان من الإنجليزي إلا أن ضرب الألباني برصاصة سرعت في الحال، فاجتمع الفلاحون وقبضوا على الإنجليزي وسافروا به وسهم القتل

وقد ذكر في هذا الجزء إحدى عشرة قرية تتكون أسماؤها من كلمات مركبة تبدأ الكلمة الأولى في كل منها باسم معصرة مثل معصرة اطفيج ومعصرة سبالوط ومعصرة عرفة وكلها عبارة عن قرى . كما ذكر اثنتين وثلاثين بلدة تبدأ أسماؤها المركبة بكلمة محلة مثل محلة روج ومحلة المرحوم . وحفل هذا الجزء بتراجم لعدد كبير من الشخصيات نذكر منها المسعودي المؤرخ العربي ، وابن الحباب وابن زولاق وعبد اللطيف البغدادي والشريف الرضي وعثمان بك البرديسي والشيخ محمد الدواخلي نقيب الأشراف ، والشيخ محمد الشناوي من كبار المتصوفة ، والشيخ صادومه وهو أزهري فاسق ماجن ، وحمدان ابن الأشعث مؤسس فرقة القرامطة ، والشريف الرضي وأخيه المرتضى ، والشيخ محمد القاضي المعروف بابن فخر القضاة المنفلوطي ، وترجم أيضاً لطبيين عربيين برعا في الطب هما أبو بكر حامد بن سمجون وأبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة . كما ترجم لعدد وافر من علماء كل من المحلة الكبرى ومرصفا والمنصورة والمنزلة . وتضمن هذا الجزء البلاد التي تبدأ أسماؤها بحرف الكاف ثم اللام ثم الميم .

واستهل على مبارك الجزء السادس عشر بالكلام عن مدينة منف فشرح موقعها الجغرافي وتاريخها ومعبداتها ومقياس النيل الذي كان قائماً في منطقتها وتكلم عن عبادة أبيس عند قدماء المصريين وخاض بحثاً ضافياً عن أهرام مصر وعددها وأسماء بنائها وتاريخ إقامتها والأدوات التي استخدمت في بنائها وكيف تم تشييدها والأغراض التي استهدفها القراعنة منها ثم المحاولات التي قام بها فريق من الملوك والحكام الأقدمين لدخول هرم الخيزة الأكبر بإحداث فجوة فيه ، وتعرض للثلمة التي فتحها المأمون الخليفة العباسي في الهرم أثناء زيارته لمصر ومحاولة أحمد بن طولون فتح الهرم .

وانتقل من الكلام عن أهرام الخيزة إلى تمثال أبي الهول ويطلق على مبارك عليه «الصم» ويلاحظ أنه استعمل نفس التسمية التي أطلقها المقرئ في خطه على «الصم» (١) . ومن الموضوعات التي طرقتها المؤلف حمام الرسائل التي كانت تبث به السلطات الحكومية في مصر في القرن السابع الهجري حاملة رسائل السلاطين وكبار رجال الدولة ، وقرر أن ميت عقبة بالخيزة كانت أول مراكز انطلاق الحمام الزاجل وقد بلغ عدده نحو ١٩٠٠ طائر ، ووصف طريقة حمل الرسالة تحت جناح الطائر . ومن الأبحاث الهامة التي وردت في هذا الجزء نظام القضاء في مصر إبان الحكم العثماني ، وإدخال عناصر عثمانية في القضاء المصري واستعلاء كبير القضاة العثماني على القضاة المصريين . كما تكلم المؤلف عن ظاهرة اجتماعية في العصر العثماني - أو في أوائله بتعبير أدق - هي منع النساء من الخروج إلى الأسواق خوفاً من اختلاط الجنود العثمانيين بهن وقصدانهم لياقتهم البدنية . وقد استنيب من قرار المنع السيدات العجائز كما تقرر عدم السماح للسيدات بركوب الحمير وتقرير عقوبات رادعة على المخالفات لهذا القرار وعلى المكارية الذين يسمحون بركوب السيدات على الحمير . ومن المصطلحات التي تناولها المؤلف بالشرح في هذا الجزء : الأورجي الأورور . الأشل ، الجريب . ومن المدن التي أرخ لها : منوف والمنيا وميت غمر وسمنود . ويمكن أن يطلق على هذا الجزء بحق الجزء الخاص بالبلاد التي تبدأ بكلمة « منية » فقد ذكر على مبارك مائة واحداً وأربعين بلداً تبدأ أسماؤها المركبة بهذه الكلمة . ويلاحظ أن عدداً من هذه البلاد احتفظ بهذه النغمة دون تحوير أو تحريف ولا يزال يبدأ اسمها بها ، مثل منية الباسل ومنية الأشراف ومنية شنتنا عياش . وحدث في أسماء البعض الآخر تحريف

(١) المقرئ : الخطط طبعة الشيخ - لندن ثلاثة مجلدات

المجلد الأول الجزء الثاني ص ٢١٦ - ٢١٨ .

إلى كلمة ميت مثل ميت نمر وميت رهينة وميت عقبة وميت القرشي وميت فارس وميت أبو غالب وميت برة وميت حبيش القبلية وميت حبيش البحرية وميت يزيد ، كما حدث في أسماء البعض الثالث تحريف إلى كلمة منيا ، مثل منيا القمح وإن كانت تكتب أحياناً باسمها الأصلي منية القمح وأخيراً ، تخلصت تماماً بعض البلاد من لفظة منية مثل سمود . وقد ترجم المؤلف في هذا الجزء لعل بك الكبير وأحمد باشا الوالى العثمانى الذى حاول الاستقلال بمصر سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٤) م ، والشيخ أحمد العروسى شيخ الجامع الأزهر ، وعبد الوهاب العفيفى ، وعقبة بن عامر ، وأحمد بن قاسم شيخ عرب الوجه البحرى ، وابن سنذر وقصته مع عمر بن الخطاب . ولم يشمل هذا الجزء سوى أسماء البلاد التى تبدأ بأسمائها بحرف الميم .

وفى الجزء السابع عشر من الخطط التوفيقية تكلم عن الواحات المصرية فى غرب النيل وعددها وأسمائها والبلاد والقرى التابعة لكل منها وما يتصل بتاريخها من أحداث وأساطير وطرق المواصلات بينها وبين وادى النيل ومواردها الاقتصادية وعادات سكانها والامتيازات المقررة لهم كإعفائهم من السخرة والتجنيد وشرح واجباؤهم لإزاء الحكومة وتتلخص فى تقديم الإبل عند الحاجة وحراسة الدروب ، واستطرد إلى الكلام عن معدن أو حجر الشب ومواطن استخراجها فى مصر وفوائده والرسوم المقررة عليه أيام دولة المماليك وطرق تصديره . وتكلم عن القبائل العربية النازلة بين الواحات ووادى النيل وتحديد منطقة كل منها ، وقد قرن المادة العلمية عن الواحات بمعلومات طريفة للغاية عن بعض بلاد الواحات ، ووصف الرحلة من القسطنطين الى الواحة الخارجة ثم إلى دارفور ، وقد استقى على مبارك هذه المعلومات من رحلة قام بها

الشيخ محمد بن عمر التونسى وسجل أحداثها فى كتاب وضعه باسم « تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » . وانتقل على مبارك إلى وصف الآثار والقرى الواقعة فى المنطقة الممتدة من أسوان إلى وادى حلفا وتعرض لمعبدى كلبشة وأبي سمبل ثم تتبع الطريق من وادى حلفا إلى دارفور والمدن التى تقع على هذا الطريق والبعثة التى أوفدها الحكومة المصرية فى سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦) م من المهندسين والأطباء والعسكريين لاستكشاف أقرب طريق إلى تلك الجهة تمهيدا لإنشاء ما يلزم فيها من محطات ، وتكلم عن التكوين الانثوجرافى لسكان بلاد النوبة وعادات العرب الذين يسافرون فى القوافل التى كانت تسير بين شطرى الوادى ، وتكلم عن بعض الأديرة وانتقل منها الى غزو الفرس لمصر ثم الى صناعة النطرون ومواطن استخراجها فى مصر ، واعتمد فى ذكر المادة العلمية على ما كتبه علماء الحملة الفرنسية فى مصر عن وادى النطرون وصناعاته والطريق من وادى النطرون إلى الطرائة . وتكلم عن مشروعات إيصال نهر النيل بالبحر الأحمر لايجاد طريق مائى تسير فيه السفن من منف وغيرها من بلاد الصعيد إلى البحر الأحمر مباشرة ، ومن البحوث الطريفة التى جاءت فى هذا الجزء عادة القراعة فى ذبج الثيران التى تقدم قرايين لأهنتهم ، وأبرز حرص المصريين على أن يكون الثور خاليا من الشعر الأسود أو الأبيض احتراما للعجل أبيض الذى كان يتميز ببقع سوداء وبضياء ، وذكر معلومات إجتماعية ودينية طريفة للغاية فى موضوع تقاليد المصريين إزاء الثيران والعجول ، واستطرد إلى براهمة الهنود الذين يمتنعون عن أكل لحم البقر . وفى هذا الجزء نشر المؤلف وثيقة الوقفية التى أوقف فيها السلطان مراد الرابع سنة ١٠٣٦ هـ (١٦٢٦)

قرية وراق الحضرم شمال انبابة بالجيزة على الحرمين الشريفين . ومن البلاد التي أرخ لها في هذا الجزء : نبوه وتكلم عن مدرسة الزراعة التي انشئت بها في النصف الأول من القرن التاسع عشر كما أرخ لبلاد أخرى منها ههيا ودنقلة والفاشر ودارفور . ومن تراجم الشخصيات : الشيخ محمد النشرفي شيخ الجامع الأزهر والشيخ محمد المهدي وبعض ذويه والشيخ حسونة النواوي والشيخ محمد اسماعيل النفاوي والشيخ شهاب الدين احمد عبد الوهاب النويري مؤلف كتاب نهاية الأرب في فنون الادب ، وعرض على مبارك عرضا سريعا لأجزاء هذا الكتاب ، كما ترجم لوالد مؤلفه الشيخ تاج الدين النويري والشيخ محمد عمر التونسي .

وقد أنهى على مبارك عرض البلاد المصرية في الجزء السابع عشر بقرية اليهودية إحدى قرى مديرية البحيرة وترجم لأحد علمائها وهو الشيخ احمد برغوث بالعبرة التقليدية التي درج عليها الجبرتي وغيره «قدم الأزهر وتفقه على مشايخ العصر ومهر في المعقول والمنقول ونصدي للتدريس وانتفعت به الطلبة» ثم يختم هذه الخطوط عن البلاد المصرية بقوله «اعلم أن الكلام على خطط القاهرة من المهمات التي اعتنى بها أفاضل العلماء والمؤرخين ورؤساؤهم قديما» وقال إن الخطط جمع خطة بمعنى محلة أو بلد لانه يخطط عند التحديد . واستعرض مؤلفي كتب الخطط من المؤرخين العرب ، فقال إن أولهم أبو عمر محمد بن يوسف الكندي . وتابع أسماء زملائه الذين كتبوا في الخطط حتى انتهى إلى المقرئ .

وأفرد على مبارك الجزء الثامن عشر من الخطط التوفيقية للحديث عن مقياس النيل منذ عصور الفراعنة

حتى القرن التاسع عشر الميلادي . وقد قدم له بالكلام عن أهمية قياس درجة فيضان النيل في كل سنة ، لأن القياس هو القاعدة في ربط الضرائب وتوزيعها على البلاد على أساس أن الفلاحين لا يستطيعون زراعة الأرض وبالتالي الحصول على الإنتاج الزراعي الا اذا سقيت الأرض بماء النيل . وانتقل إلى المقياس التي استخدمت أيام قدماء المصريين في قياس ارتفاع الفيضان ، وكيف كانت آلة القياس تودع في معبد أطلق عليه اسم سيرايس أي معبد النيل ، وكان كهنة هذا المعبد هم المخصصون لاستعمال آلة المقياس . وتظهر في الخطط التوفيقية للمرة الأولى والأخيرة رسوم هي أشكال المقياس المختلفة وقد نقلها عن الرسوم الموجودة على الآثار المصرية ومما ذكره هيروودوت . ثم تكلم عن المقياس في مدة حكم الفرس والبطالة والرومان وانتقل إلى العصر الإسلامي ، وأسهب في الكلام عن المقياس على عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وعمليات ترميمه أو إعادة بنائه في عهود الحكم الإسلامي وواصل الحديث عن المقياس زمن الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين والفرنسيين وحكم أسرة محمد علي . وتكلم عن جزيرة الروضة ومساجدها ودورها ، وكتب فصلا عن جبر البحر وهو فصل ممتع أوضح فيه عناية المصريين البالغة باحتفالات وفاء النيل على مدار العصور ، وأشار إلى العادة التي درج عليها المصريون من إلقاء عروس في النيل وكيف أبطلها الإسلام عند دخول العرب مصر ثم وصف عيد الشهيد عند المسيحيين في اليوم الثامن من شهر بشنس القبطي وهو وصف لا يخلو من طرافة ، وعاد يصف الاحتفالات بوفاء النيل أيام الفاطميين وتدرج على مر العصور والأحقاب حتى وصل إلى سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) وذكر المرتبات التي قررتا الحكومة

المصرية لشيخ المقياس، ثم أورد جدولاً سجل فيه الحد الأعلى الذى بلغه منسوب مياه الفيضان ارتفاعاً والحد الأدنى هبوطاً منذ أن فتح العرب مصر سنة ٢٠ هـ حتى عزل الخديو اسماعيل سنة ١٢٩٦ هـ (١٨٧٩-٦٤٠) م وقد استغرق هذا الجدول أربعاً وسبعين صفحة من الخطط التوفيقية . وختم بحثه عن المقياس بذكر حادثين وقعا سنة ١٨٨٧ كان أولهما العثور فى بئر المقياس على حجر من الرخام من عهد الحملة الفرنسية ومتقوس على أحد وجهيه باللغة الفرنسية « السنة الثامنة عشرة من الجمهورية » وعلى الوجه الآخر باللغة العربية التاريخ الهجرى ١٢١٥ وهو يوافق سنة ١٨٠٠ . أما الحادث الثانى فهو عمل مقياس منرى على حائط الرصيف الشرقى لسراى حسن باشا المانسترلى فى زاوية السلم القريب جداً من المقياس الأصلى . واختتم على مبارك هذا الجزء بعدة بحوث ، نذكر منها : التغيرات التى حدثت فى شاطئ النيل فى منطقة القاهرة إذ كانت هناك مناطق من العاصمة ذكر أسماءها كانت تطل على النيل مباشرة ثم أصبحت بعيدة عنه وخلص من ذلك إلى القول بأن النيل أخذ فى الانتقال نحو الغرب مخلفاً أرضاً كانت مغمورة به ، ومن البحوث الأخرى ما يتعلق بخليج أمير المؤمنين فقد أتى على تاريخه منذ أيام الفراعنة والفرس والرومان وكيف أعاد عمرو ابن العاص حفر هذه التربة فى عام الرمادة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب وتكلم عن مسار التربة من القاهرة حتى مصبها فى البحر الأحمر والقناطر التى انشئت عليها فى منطقة القاهرة . وأخيراً وضع بحثاً مستفيضاً عن تاريخ قناة السويس وركز اهتمامه على التاريخ الحديث منذ عهد الوالى محمد سعيد باشا وتكلم عن عقدى الامتياز التى ظفروها دى لسبس والشروع فى حفر القناة سنة ١٨٥٩ ثم استعرض مراحل النزاع

بين الحكومة المصرية وشركة القناة وتحكيم نابليون الثالث امبراطور فرنسا ، وأسهب فى وصف حفلات افتتاح القناة وعناية الخديو اسماعيل الفائقة بأوجينى امبراطورة فرنسا . ويستفاد من كتابته عن تاريخ قناة السويس أنه كان ناقماً على سياسة التساهل التى درجت عليها الحكومة المصرية إزاء شركة القناة ، كما كان ساخطاً على مظاهر البذخ الشديد فى حفلات افتتاح القناة ، وقد قال تعليقاً عليها إنها تكلفت أكثر من مليون ونصف مليون جنيه وقرر أن هذا المبلغ يعادل سدس إيراد الحكومة المصرية فى سنة كاملة .

وأفرد الجزء التاسع عشر من الخطط التوفيقية لترح النيل ورياحاته ومنشآت الرى فى الوجهين البحرى والقبلى . وقد قدم له باعتذار قال فيه إنه سجل فى هذا الجزء ما كان موجوداً فى مصر من ترع ومنشآت وقت قيامه بتأليف الخطط التوفيقية سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥) م ثم استلرك قائلاً إنه « لا يحنى أنه نجد بعد ذلك أشياء أخر غير ما ذكر ، وبطلت أشياء ، فسبحان من لا يتغير » وقد بدأ بالكلام عن رباح وروضة البحرين ، وانتقل الى باقى الرياحات والترع فكان يتكلم عن مسار كل ترعة من مخرجها إلى مصبها أو نقطة تلاشيها ثم طولها وعرضها وارتفاع المياه فيها زمن الفيضان وزمن التحريق ، وأسماء البلاد والتواحي والكفور والنجوع التى تمر بها والمدبريات التى تروى أراضيها ، وعما إذا كانت ترعة نيلية أو صيفية وتاريخ تحويلها إلى صيفية ، وعما إذا كانت قديمة أو مستحدثة وتاريخ إنشائها ، وعدد العمال الذين اشتغلوا فى حفرها ، ومقدار الانقراض التى تخلفت عن حفرها ، والقناطر القائمة عليها وعدد عيونها وهل هى مبنية بالطوب الأحمر أو بالحجر . ثم لا يقصر كلامه على

هذه البيانات أو التفاصيل بل يقرنها بالكلام عن آلات الرى ويسميتها «الوابورات» التي أقيمت على كل ترعة وعددها ونوعها سواء كانت آلات ثابتة ويسميتها «ثوابت» أو متحركة ويطلق عليها «كوموبيل» وقوة كل منها مقدرة بالحصان وأسماء أصحابها . ويلاحظ من دراسة هذه الأسماء أن غالبية أصحاب الآلات كانوا من الأجانب والمتصرين واليهود وأفراد أسرة محمد على وأصهارهم وكبار الملاك الزراعيين مثل عائلات ذو الفقار باشا وشريف باشا وراتب باشا والمنشاوى باشا وراغب باشا والشواربى باشا وعباس باشا يكن وأحمد باشا الدرغلى والبدرأوى عاشور . وتعكس دراسة هذه الأسماء صورة اجتماعية اقتصادية قائمة هي أن الملكية الزراعية في مصر منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت مركزة في يد حفنة من الأجانب والأمراء والباشوات . وما يلاحظ أن على مبارك كان يطلق على نهر النيل اسم البحر الأعظم وعلى فرع دمياط البحر الأعظم الشرقى وعلى فرع رشيد البحر الأعظم الغربى . وفي تعرضه لترعة الوادى أطلق على شركة قناة السويس عبارة «كبابية الكنال» .

أما الجزء العشرون فقد خصصه المؤلف للكلام عن العملة وتطورها . فتتبع تاريخ العملة التي كانت متداولة في مصر منذ الفتح العربى على مر العصور التاريخية ثم انتقل إلى شكل النقود وقطر كل قطعة ذهبية أو فضية مقدرا بالمليمترات ، وعقد فصلا طويلا عن الصور والكتابة التي كانت ترسم وتنقش على النقود الإسلامية وأول من ضرب النقود في الإسلام ، وكيفية نقش التاريخ على العملة ثم عرج على العادة التي كانت متبعة من نقش الأدعية وأسماء

الملوك والولاة وألقابهم ونعوتهم على العملة . والأسماء الدالة على الرتب والوظائف ، وما كان ينقش مع أسماء الخلفاء على النقود من أسماء أبنائهم وأسماء العمال والولاة المستقلين وغير المستقلين . وانتقل المؤلف إلى الأندلس وبلاد افريقيا التي دخلها الإسلام فأفرد فصلا عن النقود التي ضربت في هذه الأقطار ، كما كتب عدة فصول أخرى تناولت شتى الموضوعات المتعلقة بالعملة ، مثل : القيمة الحقيقية للنقود ، حدة النقود وتقييمها ، عيار النقود ، نقود الذهب ، نقود الفضة ، نسب نقود الذهب والفضة بمصر ، ثمن الذهب والفضة في مصر ، النقود التي كانت متداولة في مصر عند قدوم الحملة الفرنسية إليها ، مقدار النقود التي ضربت إبان سنوات الاحتلال الفرنسى وما جنته الحكومة من أرباح وقتذاك ، العملة النحاسية ويسميتها «فلوس النحاس» وتضمن هذا الجزء عدة جداول إيضاحية هامة ، منها : جدول بأسماء البلاد الإسلامية التي كانت تضرب فيها العملة وقد بلغ عددها ٣٠٧ بلدة في أوروبا وأفريقيا وآسيا وكان بعضها مدنا وبعضها ولايات إسلامية والتزم في ذكر هذه البلاد ترتيب حروف المعجم . كما وضع المؤلف ثبنا طويلا يتضمن أنواع العملة العربية الفضية والبلاد التي ضربت بها وبيان أوزانها وتواريخها وأسماء الخلفاء الذين ضربت على عهدهم هذه العملات ابتداء من عبد الملك بن مروان . ويقع هذا الثبت في تسع وستين صفحة . ثم أردف هذا الثبت بجدول تفصيلي عن نقود مصر أوضح فيه اسم العملة ومكان وتاريخ ضربها واسم الخليفة أو السلطان أو الوالى الذى ضربت في عهده والوزن الرسمى للعملة بالبحرام والوزن الجارى والعيار الرسمى والعيار الجارى وسعرها الذى تتداول به إلى غير ذلك من بيانات فنية تفصيلية . وقد استغرق

هذا الجدول عشر صفحات كوامل . واختتم هذا الجزء الأخير من الخطط التوفيقية ببحث رائع صاف يقع في خمس وثلاثين صفحة تناول فيه القوة الشرائية للنقود في مصر عبر اثني عشر قرنا في مختلف عهود الحكم الاسلامي من سنة ٨٧ هـ حتى ١٢٨٦ (٧٠٦ - ١٨٧٠) م واستعرض في نظام رتيب فقرات الغلاء التي مرت بالبلاد وأزمات التكوين في المواد الغذائية وكيف كان عنف المجاعات عاملا في دفع الشعب إلى الثورة على الحكام . وكان يعتمد إلى الدراسة المقارنة لأسعار مواد التكوين في أوقات الرخاء وفي أوقات الشدة ، وتكلم عن تدفق العملات الاجنبية على مصر في القرن التاسع عشر . والعملات الذهبية والفضية التي ضربت في حكم إسماعيل وكيف جعل عيار الذهب واحدا وعشرين قيراطا . والحق أن هذا البحث يعتبر من أهم البحوث التي جاءت في الخطط التوفيقية ويعتبر مسك الختام . وقد اختتم على مبارك الخطط التوفيقية بهذه العبارات التي تم عن سمات الرجل العالم المتواضع المتدين فقال « وإلى هنا وقف بنا جواد القلم في مضمار البيان ، وإنا نسأله سبحانه وتعالى أن يجعل سعينا مشكورا ، وعملنا مقبلا مبرورا ، وأن ينفع بهذا الكتاب النفع العميم ، ويجعله سببا للفوز لديه بجنت النعيم . والمرجو ممن اطلع عليه من كل حر حسن نيته وطاب أديمه أن يسبل على ما يعثر عليه من المقوات جميل الأستار ، فقلما يسلم جواد من عثار ، سيما والإنسان محل الخطأ والنسيان . والحمد لله على التمام ، والصلاة والسلام على من هو للأنبياء والمرسلين ختام ، وعلى آله وصحبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون » .

مصادر ومراجع الخطط التوفيقية

تقلد على مبارك عديد المناصب الوزارية على عهد

الحديو إسماعيل ثم الحديو توفيق فعين ، على فقرات متصلة حيناً ومقطوعة حيناً آخر ومتباعدة حيناً ثالثاً ، وزيرا للأشغال والأوقاف والمعارف كما تقلد الإدارة العامة لمصلحة السكك الحديدية . ولا شك أنه استفاد من وجوده وزيرا في هذه الوزارات فرجع إلى محفوظات كل وزارة واستقى منها المادة العلمية اللازمة في إعداد الكثير من الأبحاث التي وردت في الخطط التوفيقية . وحسبنا أن نذكر هنا على سبيل المثال أن الجزء التاسع عشر يحوى تفصيلات ضافية فنية عن تروع النيل ورياحاته ومنشآت الري . ولا يستطيع باحث أن يكتب يمثل هذه الإفاضة والدقة والإحصائيات عن شبكة الترع الموجودة في مصر إلا إذا كانت سجلات وزارة الأشغال مسيرة أمامه يستقى منها المادة العلمية . ويكفي أيضا أن نشير إلى أنه ذكر ثلاثة وعشرين فرعاً تخرج من ترعة الحمودية ونخاض في تفاصيل فنية هندسية عنها . وقس على ذلك سجلات وزارة الأوقاف حيث توجد الوثائق والحجج التي أوقف فيها حكام مصر وغيرهم من أهل الخير الأراضي الزراعية وغيرها من العقارات على المساجد والزوايا والأسبلة والتكايا والحرمين الشريفين في مكة والمدينة . كما استمد من سجلات وزارة المعارف المادة الغزيرة عن المدارس وما يتصل بها . واستفاد من وجوده مديرا عاما للسكك الحديدية فرجع إلى الأوراق الرسمية عند كتابته عن الشبكة الحديدية في مصر . وعلى هذا فإن المصدر الأول للخطط التوفيقية كان الوثائق والأوراق الرسمية الموجودة في وزارات الأشغال والأوقاف والمعارف ومصلحة السكك الحديدية وغيرها من دواوين الحكومة .

وعلى مبارك يجيد اللغة الفرنسية وقد تعلمها أثناء

وجوده في فرنسا عضوا في بعثة الأنجال واستغل

معرفة بالفرنسية في الرجوع الى الموسوعة التي وضعها علماء الحملة الفرنسية عن مصر في عشرين جزءا باسم «وصف مصر» (١) ويطلق عليها على مبارك حينما «خطط فرنساوية» (٢) وحينما آخر «خطط مصر لفرنساوية» (٣) وكأنه يريد أن يؤكد إجادته للغة الفرنسية فلا يعتمد على هذه الموسوعة الفرنسية فحسب بل يعتمد على الترجمة الفرنسية التي قام بها المستشرق الفرنسي كانترير Etienne Quatremère لكتاب المقریزی «السلوك لمعرفة دول الملوك» فكثيرا ما يصادف الباحث في الخطط التوفيقية هذه العبارة «نقله كانترير عن كتاب السلوك» واعتمد ايضا على بحوث المستشرق الفرنسي دى سامى de Sacy . كما استغل معرفته باللغة الفرنسية في الرجوع إلى كتب الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر مثل فانسلب Vansleb الذي زار مصر سنة ١٦٧٢ (٤) والرحالة سافارى Savary ويسميه على مبارك «سوارى السواح فرنساوى» (٥) واعتمد على رحلة «ولين فرنساوى» (٦) ورجع الى كتاب كلوت بك ويسميه قولوط بك (٧) ، والى قاموس الجغرافية الاfrنجى ومنه استمد المادة العلمية لتراجم الشخصيات الأجنبية التي يتصل نشاطها بتاريخ مصر . وفي كتابة تاريخ مصر القديم رجع الى كتب العلماء

1) Description de l'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'Expédition de l'Armée française publié par les ordres de S.M. L'Empereur Napoléon le Grand. Paris, Imprimerie impériale (1809 — 1822).

الأجانب الذين كتبوا فيه قديما أو حديثا أو قاموا بأعمال البحث والتنقيب في الآثار المصرية في القرن التاسع عشر ونذكر من هؤلاء واولئك على سبيل المثال هيرودوت (١) وديودور الصقلي وسترابون (٢) وماريت (٣) وشانيلون (٤) .

وفي الخطط التوفيقية تبرز سمات مؤلفها فإذا هي صفات الرجل العالم الذي يتميز بالأمانة العلمية وينأى بنفسه عن مواطن أو شبهات السرقة الأدبية بمصطلح الوقت الحاضر الذي نعيش فيه — فهو حريص دائما على أن يذكر اسم المصدر أو المرجع الذي أخذ عنه . وكان يذكر أحيانا اسم الكتاب فقط وأحيانا أخرى اسم مؤلفه وأحيانا قليلة يجمع بين اسم الكتاب واسم المؤلف وأحيانا لا يذكر اسم الكتاب كاملا . ومن مظاهر الأمانة العلمية التي تميز بها على مبارك في الخطط التوفيقية أنه قرر قبل أن يتكلم عن تاريخ الكنائس والأديرة المصرية ويؤرخ للبطاركة الأقباط الارثوذكس منذ سنة ١٢٦٢ م حتى سنة ١٨٧٥ انه اعتمد في جمع المادة العلمية على «أكابر القسوس الشهيرة بمصر» (٥) كما سجل أنه استفاد من الأبحاث التي قام بها العالم المصري محمود الفلكي عن جذران أسوار الإسكندرية (٦) .

ومن المراجع الرئيسية التي استقت منها الخطط التوفيقية مادتها العلمية مؤلفات المقریزی وهي الخطط ، ودرر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة (ج ٨ ص ١٧) ، والبيان والإعراب فيمن دخل مصر من

(١) ج ٩ ص ٦٤ .

(٢) ج ٧ ص ٢٧ ، ج ٩ ص ٦٧ .

(٣) ج ١٤ ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٤) ج ٨ ص ٣١ .

(٥) ج ٦ ص ٧٢ .

(٦) ج ٧ ص ٣٥ .

(٢) ج ٧ ص ٤٣ .

(٣) ج ٢٠ ص ٤ .

(٤) ج ١٥ ص ٥٠ .

(٥) ج ١١ ص ٧٥ .

(٦) ج ٧ ص ١٦ .

(٧) ج ٧ ص ٥٠ .

الأعراب (ج ١٢ ص ١٠٥) والترجمة الفرنسية
لكتاب السلوك والتي سبقت الإشارة إليها ، وابن اياس
في «بدائع الزهور في وقائع الدهور» وكذلك الجبرتي
في «عجائب الآثار» .

ولا نستطيع في هذا البحث المحدود النطاق ان
نستعرض جميع مراجع الخطط التوفيقية ويكفي ان
نذكر بعضها منها : ابن جزلة خواص : منهاج البيان
فيما يستعمله الإنسان من الأدوية المفردة والمركبة (ج ٨
ص ٢٠) ، ابن خرداذبه : المسالك والممالك (ج ٩
ص ٧٠) ، ابن العوام : كتاب الزراعة (ج ٩
ص ٨٥) ابن زولاقي : سيرة الإمام المعز لدين الله
(ج ١٥ ص ٥٦) ، ابن عباد : المفخر العلية في
المآثر الشاذلية (ج ١٤ ص ٥٧) وابن بطوطة في رحلته ،
وابن جبير في رحلته : ذكر مشاهد بعض أصحاب
النبي والتابعين بقرافة مصر ، ورحلة النابلسي ، وابن
خلكان : وفيات الأعيان ، وابن أبي السرور البكري .
قطف الأزهار من الخطط والآثار ، وابن دقماق ،
وابن المنوج ، وابن كثير ، وابن الصباغ : فضائل
الائمة (ج ٥ ص ١٦) وابن الطولوني : نزهة السنية
في اخبار الخلفاء والملوك المصرية ، وابو عبد الله محمد
ابن عبد الرحمن القيسي : تحفة الألباب (ج ١٦
ص ٢) وأبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفي بعد
الوافي (ج ٩ ص ٦٩) وأبو الفداء (ج ١١ ص ٢٢)
وابراهيم بن عامر العبيدي : قلائد العقيان في مفاخر
آل عثمان (ج ٦ ص ٣٤ وج ١٠ ص ١٠٢) والشيخ
الصبان : اسعاف الراغبين في أهل البيت (ج ٥ ص ٦٠ ،
٢٢) والنجم الغزى : الكواكب السائرة (ج ٥
ص ١٧) والاسحاق : نزهة الناظرين (ج ٥ ص ١٩)
والحجي : خلاصة الآثار (ج ٦ ص ٣٧) والإدريسي :
نزهة المشتاق (ج ٨ ص ٩٥) والنووي : تهذيب

الاسماء واللغات (ج ٥ ص ٥٦) والشهاب بن أبي جحلة
التلمساني (ج ٥ ص ٥٦) وشمس الدين السخاوي :
الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، وعماد الدين
شاهنشاه : تقويم البلدان (ج ١٠ ص ١٦) وعماد الدين
الاصفهاني : تاريخ السلجوقية (ج ٩ ص ٣٥)
وتاريخ فتح المقدس (ج ١٠ ص ٣٨) وعلى أبي جابر
الاتبائي : مناهل الصفا باتصال نسب السادات الوفاية
بالمصطفى (ج ٣ ص) ومحمد بن عمر التونسي :
تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان (ج ١٧
ص ٣٣) ومحمد عبد المعطي الاسحاق : أخبار الدول
فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ج ٤
ص ١١١) وحسن العدوي : مشارق الأنوار (ج ٥
ص ١٠) ولسان الدين بن الخطيب : الاحاطة بما تيسر
من تاريخ غرناطة ومؤلفات عبد الوهاب الشعراني
وجلال الدين السيوطي والواقدي ويضاف إلى تلك
المراجع كتب : ديوان الانشاء ودرر القرائد المنظمة في
أخبار الحج وطريق مكة المعظمة (ج ١٤ ص ٨ ،
٥٢ ، ٥٤) وغير ذلك كثير كما رجع إلى كتاب
الاحصاءات المصرية لسنة ١٨٧٢ واستقى منه الكثير
من معالم تاريخ مصر الحديث . ولا يسع دارس الخطط
التوفيقية إلا أن يدرك الجهود الضخم الذي بذله
على مبارك في وضع هذه الموسوعة .

تقييم الخطط التوفيقية :

نهجت الخطط التوفيقية نهجا علميا إذ استقت
مادتها العلمية من المصادر والمراجع القديمة والحديثة ،
العربية وغير العربية ، ونصت على اسمائها وقد ظهر فيها
واضحا أثر الثقافتين العربية والفرنسية اللتين امتاز بهما
المؤلف . وفي الخطط التوفيقية محاولة رائدة لإعادة
كتابة تاريخ مصر القومي من جديد . ولحق أن الخطط
التوفيقية قد أضافت إلى تاريخ مصر القومي في فرعي

التاريخ القديم والحديث مادة علمية جديدة . ففما يخصص بالتاريخ القديم استفاد على مبارك من نتائج الكشف الأثرية التي أجريت في مصر في القرن التاسع عشر وما كتبه العلماء الأوروبيون عن التاريخ الفرعوني . وكانت الكتب العربية التي وضعت في العصر الإسلامي إذا تعرضت لتاريخ مصر القديم نخسته حقه لعدة أسباب منها جهل المؤلفين بحقائقه إذ كانوا لا يعرفون عنه إلا خليطاً من الأوهام ، ولأن العصور القديمة والموغلّة في القدم كانت لا تمثل في أذهان المؤرخين المسلمين سوى الوثنية القائمة على عبادة الأصنام وأن فراعنة مصر لم يكونوا حكماً مثاليين . يقول على مبارك عن التطور الذي طرأ على الدراسات التاريخية لمصر الفرعونية « إن أكثر الآثار القديمة كالأهرام والبرابي وغيرها مما بقي من أعمال الأمم الماضية والقرون الخالية لم يكن الغرض من ذكرها إلا كونها من عجائب الدنيا . ومعلوم أن الكتابة الطبرية المعروفة بالهيريوجليفيّة لم تنكشف حقيقتها إلا في هذا القرن ، فقد وقف الأفرنج على حقائقها من الكتابات الباقية على جدران الآثار المصرية والمباني الفرعونية ، وأخذوا مجدين اليوم في توسيع دائرة علمها ، فالتزمت أن أطالع ما كتب بخصوص تلك الآثار وألخص ما فيه الفائدة من غير إطالة ولا إكثار » (١) وهكذا حملت الخطط التوفيقية إلى قراء العربية معلومات صحيحة وجديدة عن تاريخ مصر القديم .

أما فيما يخص بتاريخ مصر الحديث فقد جاءت الخطط التوفيقية سجلاً حافلاً لمظاهر الحضارة التي أدخلت في مصر في القرن التاسع عشر مثل التوسع الزراعي ومحاولة إدخال الصناعات الكبيرة في البلاد وإنشاء القوات المسلحة البرية والبحرية والشبكة

(١) ج ١ ص ٣ .

الحديدية وأسلاك البرق التي مدت في طول البلاد وعرضها والمناظر التي أقيمت على الشواطئ المصرية لهداية السفن وإنشاء الحوض العائم في ميناء الاسكندرية ومشروع الطريق البري ثم إنشاء قناة السويس إلى غير ذلك من مظاهر استعراضنا طرفاً منها من قبل . وقد شارك على مبارك في تنفيذ بعض هذه المشروعات أو عاصرها أو كان قريب العهد بها فكتابتها عنها لها قيمتها ولها وزنها . ثم هو يضيف إلى التاريخ الحديث تراجم للشخصيات المصرية . ويمكن أن نقسم هذه الشخصيات إلى فريقين : فريق عاش في الفترة من وفاة المقريري سنة ١٤٤٢ حتى أوائل حكم محمد علي . وقد استقى تاريخ حياتهم من ابن آياس وابن زنبيل والجبرقي وغيرهم . أما الفريق الثاني فقد عاشوا في القرن التاسع عشر وتقلدوا المناصب القيادية في الحكومة . وكانت الخطط التوفيقية أول من ترجمت لهم لأنهم كانوا رفاق المؤلف في الدراسة في مصر أو في فرنسا أو في زمالة العمل الحكومي . وكانت ترجمته لهم في ضوء معلوماتهم واتصالهم بهم . وكان إذا أعوزته المادة التاريخية الكافية لوضع ترجمة أحدهم فإنه كان يطلب منه أن يكتب له ترجمة حياته بنفسه .

والخطط التوفيقية في تعرضها لتاريخ مصر القومي لم تقتصر على الجانب الإسلامي فقط ، بل شملت الجانب القبطي أيضاً فأرخت للكنيسة القبطية الأرثوذكسية ولبطاركة الكرازة المرقسية وترجمت لكبار الأقباط وأعيانهم . وحرصت على ذكر الكنائس والأديرة القائمة في مصر . وبجانب اهتمام الخطط التوفيقية بتاريخ مصر القومي فقد عنت بالتاريخ الإسلامي العام .

لقد كانت الخطط التوفيقية من العوامل التي أسهمت في نشر الوعي التاريخي في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وساعدت على إيجاد الحاسة التاريخية

لدى المتقنين ودفعتهم إلى العناية بالتاريخ كعلم بوجه عام وتاريخ مصر في عصورها المختلفة بوجه خاص . وتأسيساً على ماسبق نستطيع أن نقرر أن هذه الموسوعة قد ساعدت على تغذية الروح القومية وأدرك الشعب أن الحضارة المصرية هي أم الحضارات وأن له أعجادا يزهو بها في ميادين العلم والهندسة والفن والثقافة . والحديد في الخطط التوفيقية هو روح الفحص والنقد والمناقشة عند كتابة تاريخ مصر القومي . ويكفي أن نشير هنا إلى موقفين على سبيل المثال . فقد نفت الخطط التوفيقية على الحكومة المصرية تساهلها إزاء شركة قناة السويس حتى ظفرت بامتيازات مجحقة بحقوق البلاد ، كما أنها انتقدت التبذير الشديد في حفلات افتتاح القناة حتى بلغت نفقات الاحتفال سدس إيراد الحكومة المصرية في السنة . أما الموقف الثاني فقد ناقشت الخطط التوفيقية ما جاء في كتاب عجائب الآثار للجبرتي خاصاً بالعلاقة التي كانت تربط الفرنسيين بزينب بنت السيد خليل البكري نقيب الأشراف أيام الحملة الفرنسية . وعلى الرغم من أن كتاب عجائب الآثار استخدم عبارة مهذبة جاء فيها أن زينب كانت « من تبرج مع الفرنسيين » (١) ولم يذكر تفاصيل خارجة عن التقاليد كما فعل نقولا الترك في مذكراته ، فقد ناقشت الخطط هذا الموضوع وقالت « ولا التفت لما قاله الجبرتي مما لا يناسب شرف هذا البيت العالي المقدار ، سيما والأحوال الجارية في أوقات الفن لا يوقف لها على قرار ، ولا تعلم لها حقيقة ، ولا يوصل لها إلى أصل صحيح » (٢)

واعتمدت الخطط التوفيقية على العلوم المساعدة لتفسير التاريخ وفهمه مثل الوثائق والنبات والآثار

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٩٢ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ١١٣ .

والنقوش ، فهذه قل من استعمالها من قبل . وإذا كانت خطط المقرري قد أفادت من الوثائق والنقوش فإن الخطط التوفيقية قد خطت خطوات واسعة في هذا المضمار فهي تزخر بالكثير من الوثائق التاريخية وحجج الأوقاف والإحصائيات كما أنها تضم جزءاً قائماً بذاته عن النبات هو الجزء العشرون .

وابتعدت الخطط التوفيقية عن العبارات المسجعة وعمدت إلى الأسلوب السهل المرسل ولم تشذ عن هذه القاعدة إلا في مقدمة الخطط وفي الفقرة التي أنهى بها هذه الموسوعة . وإذا كانت الخطط التوفيقية قد سارت على نهج خطط المقرري حتى ليعتبرها البعض تكملة وتجديداً لها إلا أنها جاءت أكثر شمولاً وعمقاً وإحاطة بجميع المدن والقرى المصرية القديمة والحديثة ، كما أنها لم تهمل بالجانب السياسي فقط ولكنها أرخت للنواحي الحضارية والاجتماعية والاقتصادية ...

وقد استغرق وضع الخطط التوفيقية بضعة عشر عاماً ، فقد طبعت سنة ١٣٠٦ هـ (٦ سبتمبر ١٨٨٨ - ٢٧ أغسطس ١٨٨٩) أثناء توليه وزارة المعارف في وزارة رياض باشا الثانية) ، وقد ظلت في الحكم من يونيو ١٨٨٨ حتى ١٢ مايو ١٨٩١ . ولا يتبادر إلى الذهن أنه وضع هذه الموسوعة أثناء توليه الوزارة فلاشك أنه أنفق في وضعها بضعة عشر عاماً ونستدل على ذلك من عدة أدلة جاءت في سياق كتابته فمن ذلك أنه تعرض لتطور الحفلات التي أبدع المصريون في إقامتها احتفاءً بوفاء النيل منذ أقدم الأزمنة إلى عهد أسرة محمد علي ثم قال « وهاك شرح الجارى الآن يعني سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف هلالية » (١)

ووقعت هذه السنة الهجرية في الفترة التي بدأت من ١٨ فبراير ١٨٧٤ وانتهت في ٦ فبراير ١٨٧٥

ولنا على الخطط التوفيقية مأخذان هما التكرار والاستطراد. أما التكرار فقد كان يتناول موضوعاً بالبحث ثم يعود إليه فيذكره مطولاً أو مقتضباً في جزء آخر من الأجزاء العشرين التي تتكون منها هذه الموسوعة. ومثل هذا التكرار لا يلحظه القارئ العادي ولكن يلحظه ويسجله القاصص الباحث. ولئن قيل إن الضرورة هي التي دعت المؤلف إلى العودة إلى موضوع سبق بحثه فقد كان يكفي أن يحيل القارئ إليه ويتجنب التكرار. وقد وقع هذا التكرار عند ذكر بعض الحوادث وتراجم الشخصيات وفي الأزمان السياسية وتفسير بعض المصطلحات التاريخية. نذكر من صور التكرار حادث العترة المشهورة التي اتخذها كبير خدام مسجد السيدة نفيسة أداة للدجل والإثراء (ج ٥ ص ١٣٧، ج ٨ ص ٥٢-٥٣) وإنشاء دار الكتب المصرية ج ٣ ص ١٤ وح ٩ ص ٥١) وترجمة ذي النون المصري وهو من صوفية القرن الثالث الهجري (ج ٥ ص ٥٧-٥٨، ج ٨ ص ٣٩-٤٠) والأمير عبد الرحمن كتحدا وعماثره (ج ٤ ص ١٢-١٣، ج ٥ ص ١١٦-١١٨ وج ٨ ص ٥٣-٥٤) والأمير محمد بك الأتلي الكبير (ج ٣ ص ١٠٣، ج ١١ ص ٢٧-٣٤) والموقف السياسي الدقيق في مصر عقب وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب (ج ٧ ص ٢٥، ج ١١ ص ٤٣-٤٦، ج ١٢ ص ١١٤) ويشرح معنى «أمير أخور» مرتين (ج ١٠ ص ٨٠، ج ١٢ ص ٢٧). أما الاستطراد فقد أوغل فيه المؤلف إغالا بعيداً. ففي الجزء السابع - وقد أفرده لمدينة الاسكندرية - انتقل إلى الكلام عن الحروب الصليبية وحملة لويس

التاسع على مصر ووقوعه في الأسر في موقعة فارسكور. ولعله شعر بهذا الاستطراد فقال «وإنما خرجنا عن الموضوع» وأطلقنا في تفصيل حوادث هذه الأوقات ليعرف القارئ ما ورد على الديار المصرية. « (ج ٧ ص ٣٥) ولما تكلم في الجزء الرابع عشر عن عجزود استطراد إلى نظام قافلة الحج المصرية على نحو ما أوضحناه وقد كتب في هذا الاستطراد ما يقرب من تسع وعشرين صفحة. وينهج هذا المنهج الاستطرادي عند كلامه على عيذاب ورحلة ابن بطوطة.

ومثل هذه المآخذ لا تقلل من القيمة العلمية لهذه الموسوعة فهي - بتعبير الأستاذ الراجحي - غرة في تاريخ مصر العلمي ومأثرة خالدة لعل مبارك باشا (١). والواقع أنها مرجع للباحثين تتناول في أمانة التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والحضاري لمصر وطبوغرافية مدنها وقراها وواحاتها وثغورها وموانئها في العصور القديمة والوسيلة والحديثة.

ونختتم هذا المقال بنقطة أخيرة خاصة باللغظ الذي أثير حول المؤلف الحقيقي للخطط التوفيقية. فقد انطلقت بعض الألسنة تردد أن هذه الموسوعة لم تكن كلها من وضع علي مبارك بل كانت هناك مجموعات من مرسوميه ، وبخاصة المهندسين ، وقفوا وراءه وأسهموا معه في وضع هذه الموسوعة. وليس هناك دليل يستند هذا الإدعاء. وقد ذكر اثنان من الأساتذة الذين تعرضوا لتاريخ علي مبارك هذا القول. ولكن لم يزد دور كل منهما عن أنه porte - parole أي ناقل رواية. فأحدهما ، وهو الدكتور محمد أحمد خلف الله ، أشار إلى « هذه التهمة التي التصقت به »

(١) عبد الرحمن الراجحي : عصر اسماعيل . الجزء الأول .
الطبعة الثانية ١٩٤٨ ص ٢٤٠ .

ثم قرر تعليقاً عليها ، ونحن لا نستطيع أن ندعى هذه الدعوى ، ولا نستطيع أن نرفضها ، وإنما نقول إن هذا الكتاب قيم . « (٢) فهو لم يقطع برأى حاسم في هذا الادعاء بل تخلص منه بلباقة وسرعة وانتهى إلى أن الكتاب ذو قيمة . أما الأستاذ الآخر وهو المؤرخ عبد الرحمن الراجحي فقد ذكر ما يلي « ولئن قيل إن العلامة على مبارك استعان في وضع الخطط بطائفة من المهندسين من تلاميذه ومرعوسيه في وزارة الأشغال والمعارف ، فذلك لا ينقص من فضله ، ولا يقلل من عظم العمل الذي اضطلع به ، وحسبه أن إرادته وجهت مساعديه إلى معاونته في البحث والتفتيش ، وروحه تمتشى في جميع أبواب الكتاب ومباحثه . « (١) وهو قول فيه دفاع وتبرير على أسوأ القروض وهو أن الإدعاء صحيح ، ولكن لم يناقش سيادته هذا الإدعاء أساساً . وسنحاول أن نناقش مسرعين هذا الرأي بعيدين عن محاباة على مبارك أو التحامل عليه . إن وضع الخطط التوفيقية قد استغرق منه وقتاً امتد بضعة عشر عاماً ، كما أثبتنا من قبل ، ولو كان المؤلف قد استعان بطائفة من مرعوسيه لاستطاع بفضل معاونتهم وإسهامهم أن يفرغ منها في زمن يقل بكثير عن هذه السنوات الطوال . ومن المقطوع به أن الكفاية والهمة والجلد على العمل ، كل هذه الصفات كانت من أبرز سجايا على مبارك وقد قرر وهو يترجم لنفسه أنه كان لا ينام من الليل إلا قليلاً وذكر في مقدمة الخطط أنه كان قد عرض على لفيف من ذوي المقدرة العلمية وضع كتاب في موضوع الخطط فلم يجد منهم استجابة . فقام بمفرده بوضع الخطط التوفيقية . وكانت الصورة

(٢) دكتور محمد أحمد خلف الله : على مبارك وآثاره . لم تذكر

سنة الطبع . الناشر : مكتبة الانجلو . ص ١٥٤ .

(١) الراجحي : مرجع سبق ذكره . ص ٢٤٠ .

التي علفت في أذهان معاصريه أنه الوزير الفنى العالم الذى يعمل ويتج في صمت وينأى بنفسه عن المهاترات أو الثرثرة السياسية ولم يلمع في الحياة السياسية كما سطع في الحقل العلمى وبرز في ميادين الإصلاح والتعمير والإنشاء . وليس بكثير على عالم هذه صفاته أن يضع بمفرده الخطط التوفيقية . لقد وجع على مبارك إلى المحفوظات الرسمية في وزارات الأشغال والأوقاف والمعارف وغيرها من جهات حكومية . وفارق كبير بين الاستعانة بأشخاص يؤلفون له وبين الرجوع إلى المصادر الأصلية ، وهو عبء ثقیل فادح لا يتولاه إلا كل باحث يتمتع بالأصالة والتعمق في البحث والجلد عليه ، وهو أمر لا يستطيع أحد أن ينكره على العالم الباحث على مبارك . وفي رأينا أن هذا الادعاء مرده إلى الحقد والحسد . ومن المعروف أن الناس في كل زمان ومكان كانوا وسيظلون دائماً هدفاً لهجوم وحسد الكثيرين . وقد لقي على مبارك في حياته الكثير من المتاعب بسبب ما كان يحكيه له حساده من دسائس . ففي حكم محمد سعيد أبعد عن مصر سنتين ونصف سنة (١٨٥٤-١٨٥٦) تحت ستار إشراكه في حرب القرم . وفي حكم إسماعيل أقصى عن المناصب الحكومية فترة في سنتي ٧٠-١٨٧١ واعتكف في منزله بسبب وشاية الحاسدين وكان على رأسهم إذ ذاك إسماعيل باشا صديق . وجدير بالذكر أن المقرري تعرض لمثل هذا الاتهام بعد أن وضع كتابه الخطط فقد اتهم بأنه سطا على مسودات من كتاب للأوحدى في نفس الموضوع ، فأخذها وزاد عليها ، مع أن المقرري لم يقصر في ذكر المصادر والمراجع التي نقل عنها ، بل كان يستند كل حادث إلى صاحبه ، فلو كان قد اقتبس من الأوحدى لما كان يضيره أن يذكره . وتعرض شمس الدين السخاوي (٩٠٢) لموقف

شبيه لذين الموقفين . فبعد أن انتهى من وضع كتابه « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » تصدى معاصروه للتشجيع عليه ، ومنهم السيوطي ألف في انتقاده كتاباً سماه « الكاوى في تاريخ السخاوى » .

ونرجو أن يكون قريباً ذلك اليوم الذى تنهض فيه إحدى المؤسسات الثقافية بطبع هذه الموسوعة العربية طبعة حديثة مع وضع فهرس متنوعة لها وشرح بعض العبارات التى وردت بها واندثر الآن استعمالها .

نماذج من الخطط التوفيقية

تعمير ضاحية الرمل بمدينة الاسكندرية

وفي أقرب وقت صار ما حدث من الأبنية جهة الرمل يشبه مدينة قاسمة ما بين ناحية أبى قير وشرع الإسكندرية بما حوته من الانتظام والرونق والبهجة فى منازلها وقصورها الجملة وشوارعها وحوالياتها المشتملة على نفائس التجارات بعد أن كانت هذه البقعة عبارة عن كثبان من الرمل وأرض غير متفع بها ، وما كان يزرع منها إلا القليل ، وبعد أن كان الغبط الذى سعته ثمانية أفدنة أو تسعة أو عشرة لا يزيد حكره عن ثلاثة قروش صار الآن أرضاً لا يباع منها إلا بالدراخ والمتر من ريال إلى نصف بيتو ، وما ذاك إلا لكونها صارت من أعمار الأماكن لسكنى المعترين من التجار والأمراء بها ، وبها البساتين المشتملة على جميع أنواع الأشجار والأزهار والرياحين . وقد بلغ عدد سكانها الذين يقيمون بها فى وقت الصيف قريباً من ٧٠٠٠ نفس ، وفى وقت الشتاء على نحو النصف من ذلك . وأول من اشترى فى الرمل الخواجا سيزينيا (١) ، فإنه اشترى من ملك عائلة أبى شال ،

(١) هو زيزينيا Zizinia أحد الرعايا اليونانيين ثم اكتسب الجنسية الفرنسية واشتغل قنصلاً عاماً بلجيكا فى مصر وكان يطلق اسمه على إحدى محطات ترام الرمل ثم تغير اسم المحطة إلى قصر الصفا .

وكان لهم أرض متسعة ، جانباً عظيماً بمبلغ ٦٠ كيسة ، والآن وقد اشترت منه الحكومة شريطاً من الأرض لوضع السكة الحديد عليه ودفعت فى قيمة المتر ٥ فرنكات ونصفاً فعلى ذلك تكون قيمة الفدان الواحد ٢٣١٠٠ فرنك . ومما زاد فى الرغبة فيها وأكد أمر السكنى بها لإحداث السكة الحديد بينها وبين المدينة الأصلية ، فإنها سهلت على الناس الانتقال منها إليها وبالعكس ، فى كل أوقات السنة لا يتقطع الورد إليها ومن يقيم بها من الأغراب يجد جميع ما تطلبه نفسه خصوصاً اللوكاندة التى أحدثت هناك ، فإن بها كل ما يلزم مع الراحة والأمن . وفى الرمل نادى تجتمع فيه الناس يومى السبت والأحد من كل أسبوع ويشنفون مسامعهم بسماع الألحان والأصوات الحسنة ، وبها أيضاً ثلاث كنائس واحدة للكاتوليكين وواحدة للأروام وواحدة للأمريكيين . ومن المدارس ثلاثة لتربية الصبيان ، واحدة على ذمة الأروام وأخرى للفرنساوية وأخرى للتليانيين . وفى كل ساعة يقوم من اسكندرية قطر إلى الرمل ، وفى كل نصف ساعة يقوم قطر من الرمل إلى اسكندرية . وفى كل قطر عمال من طرف البوستة لنقل المكاتب وأوراق الحوادث وغيرها . وأجرة الركاب بحسب الدرجات : فعلى من يركب فى عربات الدرجة الأولى خمسة قروش ، ومن يركب الدرجة الثانية أربعة قروش ومن يركب الدرجة الثالثة ثلاثة قروش . ومما أكد الرغبة فى سكنى جهة الرمل ما أحدثه الحديد من المباني هناك بقصد إقامته وإقامة الفاميلية (١) فى فصل الصيف ، فإنه نشأ عن ذلك فتح شارع عظيم فى وسط التلول المقابلة لباب رشيد ، وأوله باب رشيد وينتهى إلى حدود الملاحة بأول أطيان قرية المنيرة ويمر بسرارى الرمل

(٢) يقصد على مبارك بلفظة الفاميلية العائلة أى أسرة الحديد .

الحدبوية وطوله من باب شرقى إلى السرايا ٤٠٠٠ متر
فى عرض ١٢ مترآ ومن السرايا إلى الملاحة ٤٠٠٠ متر
فى عرض ٨ أمتار ، وقد غرس فى جانبيه الأشجار
المظلة . « ج ٧ ص ٦٧ .

انشاء دار العلوم

« واستحدثت مدرسة دار العلوم بعد استصدار
الأمر بها وجعلتها خاصة لطلبة بقدر الكفاية يؤخذون
من الجامع الأزهر ممن تلقوا فيه بعض الكتب فى
العربية والفقه بعد حفظ القرآن الشريف ليتعلموا بهذه
المدرسة بعض الفنون المفقودة من الأزهر مثل الحساب
والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط مع
فنون الأزهر من عربية وتفسير وحديث وفقه على
مذهب أبى حنيفة النعمان ، وجعل لهم مرتب شهرى
يستعينون به على الكسوة وغيرها من النفقات، ورتب
لهم طعام فى النهار للغداء ، وجعل الصرف عليهم من
طرف الأوقاف ، ورتب لهم من لزم من المعلمين من

المشايع العلماء وغيرهم ليقوموا بأمر تعليمهم وتدريبهم
حتى يتمكنوا من هذه الفنون فينتفعوا وينفعوا ويجعل
منهم معلمون فى المكاتب الأهلية (١) بالقاهرة وغيرها
لتعليم العربية والخط ونحو ذلك . فلما أشيع هذا الأمر
وأعلن ، حضر كثير من نجباء طلبة العلم بالأزهر
يطلبون الانتظام فى هذا السلك ، فاختر منهم بالامتحان
جماعة على قدر المطلوب ، وصاروا فى التحصيل فحصلوا ،
وأثمر ذلك المسمى . وخرج منهم معلمون فى القاهرة
وغیرها ، وحصل النفع بهم ولهم . وأما المعلمون فى
غير العربية كالمهندسة والحساب واللغات ونحو ذلك
فتقرر أن يكونوا من نجباء التلامذة المتقدمين الذين
آتموا دروس المدارس العالية كالمهندسخانة والمحاسبة
والإدارة . « ج ٩ ص ٥١ .

(١) المكاتب الأهلية اسم أطلق على المدارس الابتدائية
الجديدة التى أنشئت فى عصر اسماعيل طبقا لما ورد فى لائحة رجب
١٢٨٤ وكان يصرف عليها من الموارد الأهلية التى رسمتها هذه
اللائحة .

تأثير القوى البحرية على التاريخ لألفريد ميهان

بمستم
الدكتور حسين فوزى النجار

أصله التاريخ :

ولكنيسة التي تبشر بالمسيحية في شعوب ترى أنها لم تهتد إلى رسالة السماء .

وعلى موج الخضم انطلقت الجموع الأوربية على شتيت نزعاتها إلى عالم استوى فيه لديها ما كان موطننا لأعرق الحضارات ، وما زال في فجر البداوة لم يلج محراب التاريخ بعد ، فلم يكن أيسر سبيلا من البحر على جهامته إلى تلك البقاع النائية البعيدة ، فقد جنبها اقتحام البرارى والتجمع في قوافل تخضع لبطش الأمير وسطوة السلطان وطمع الجبابة ، ومكن لها أن تحمل على صفحته جيوشا تحميها وتؤمن لها المستعمرات الجديدة ، ما كان في قدرتها أن تعبر إليها دولا تستطيع أن تتصدى لها وتمنعها من غايتها . أو سدودا تقف امامها مانعا دون غايتها :

ومضى الاستعمار الأوربي محتما بالبحر إلى حيث مكن لنفسه في بقاع عجزت عن أن تتصدى له وتمنعه .

وشهد البحر مصرع امبراطوريات استعمارية عجزت قواتها البحرية أمام قوى بحرية جديدة أشد

في عصر امتطى فيه الاستعمار متن الخضم مقتحما العباب في بحار فسيحة إلى أراض شهدت مولد الحضارات الأولى ، وأخرى كانت تعيش في حنايا الغيب بعيدة عن مجرى التاريخ حتى التقى بها في موجة الكشف الجغرافية الباهرة خلال القرن الخامس عشر في مغرب الأرض وفي أقصى المشرق ، وفي قلب الآجام الأفريقية المظلمة وفي جزر الباسفيك المزدانة بخضرة الغابات الاستوائية المتشابكة ، غدت الجوارى الماخرات والقلاع الساخنة عنوان القوة ومنبع الثراء للمغامرين والجواريين والباحثين عن الذهب وطلاب الثروة من التجار ، والآبدن في السجون ممن قذفت بهم حكوماتهم إلى تلك البرارى الموحشة في استراليا ونيوزيلندا وأصقاع الأمريكتين ، والفارين من الظلم والاضطهاد الديني والسياسي إلى منطلق حر في بلاد جديدة لا ينالهم فيها ضيم أو ضرر ، وللنول التي تشد القوة وتنطلق إلى الاستعمار وتكوين امبراطوريات لها فيما وراء البحار تعود عليها بالغنم والرخاء ،

دمشق مركزى امبراطوريتين أعقبت ثانيتهما الأولى، وكان امتدادهما أشبه بامتداد الدوائر المائية حول مركز سقوط حجر فى الماء . ولم يكن من قبيل المصادفة أن تكون قصبة الامبراطورية فى مركز متوسط تمتد حوائله أملاكها فى جميع الجهات . ولكن لأن التوسع كان يريا يمتد إلى حيث تستطيع الدولة أن تمد قواتها بالمؤن والعتاد وحيث تبقى القوات على اتصال بمراكز إعدادها وتجهيزها . فلم يكن للأسطول فى نظر الرومان ما كان للجيش من أهمية . وما كانت واجباته تتعدى الحراسة والنقل وحفظ الأمن فى البحار القريبة الضيقة كالآدرياتيك والبحر التيرانى . فلما اتسعت رقعة الامبراطورية اقتضى الأمر بناء أساطيل اقليمية فى الاسكندرية وشمال افريقية لحراسة سفن نقل القمح منهما إلى روما . كما تناثرت بعض القوات البحرية الصغيرة فى البحر الأسود وفى بحر المانش حين أصبحت بريطانيا ولاية رومانية ، وانتشرت قطع بحرية صغيرة فى الرين واندانوب ، كانت مهمتها ربط الامبراطورية بخلفة من المواصلات المكية إلى جانب الطرق البرية الطويلة الممتدة فى جميع أنحاء الامبراطورية والتي أقامها الأباطرة لتربط بقاعها الفسيحة فكانت متفجرة من متاخىر الانشاء الرومانى وصانت وحدة الامبراطورية طوال قيامها . ولم يكن من مهام تلك القطع البحرية الاشتباك فى القتال وما كانت أكثر من وحدات للحراسة فلم يجد القوط غناء أمامها حين أخذوا يهاجمون بيشنيا وليديا فى القرن الثالث فانسابوا عبر المضائق وفى بحر ايجه ينشرون الخراب والدمار فى غرب آسيا الصغرى وفى جزر البحر الأيخى وأخذوا يهددون آتينا ذاتها .

أما العرب فلم يعنوا ببناء قوة بحرية إلا بعد أن امتدت امبراطوريتهم امتدادها الفسبح شرقاً وغرباً .

وأقوى فأفسحت الميدان لها تروث من مستعمراتها ما تشاء .

وأصبح على الدول الاستعمارية ، لتحضى مستعمراتها ، أن تمتلك أسطولا قويا وقوة بحرية عتيدة . تستطيع أن تحضى خطوطها الملاحية . وتتصدى لكل مهاجم تسول له نفسه الهجوم على أراضيها فى الداخل أو عبر البحار . فلم يعد التوسع الامبراطورى قاريا تتبع فيه الدولة من الداخل إلى الخارج فى حدودها المجاورة أو القريبة منها . فاذا امتطت البحر أو خاضت معركة بحرية فى أماكن قريبة من قواعدها القارية أو من ثغورها ومراكز تموينها البحرية . ولم تكن القوى البحرية أكثر من قوات ثانوية لحماية السواحل أو لنقل الأمداد والمؤن لمسافات قصيرة إلى حيث يدور القتال الرئيسى فى البر . ولم تكن أكثر من سلاح تابع للجيش .

وقامت الامبراطوريات القديمة على اكتاف الفاتحين الغزاة ممن يقودون الجيوش البرية فيغبرون بها على الدول والاقاليم المجاورة فكان الامتداد المصرى فى عهد الدولة الفرعونية الحديثة ، امتدادا مع الأرض فى الشمال وفى الجنوب حيث لانتوى البحار الفاصلة تقدم الجيوش ، أو تفصل ماينها وبين قواعدها الأصلية ، واجتاح الاسكندر المقدونى سهول آسيا فى زحف متصل يقود قواته البرية من «الفلانكس» المدرعين الاشداء ، ورماة السهام من المشاة الخفيفة ، والفرسان المدربين تدريباً عاليا للعمل ضد الأجانب ، فى مهارة جعلت منه أعظم القواد المحاربين فى العصور القديمة ؛ فلم تكسف شمس معاركه سوى معارك نابليون فى العصر الحديث ، ولم يلجأ الاسكندر للبحر الا فى بعض العمليات الثانوية ، فتوسع فى البر إلى أقصى ما اتسعت له حياته من فتوح . ثم كانت روما

وحين دعته الظروف في فترة من الزمن إلى مواجهة قوات بحرية ، بنوا أسطولا في بحر الروم (البحر المتوسط) هزموا به البيزنطيين في موقعة ذات الصوازي وفتحوا قبرص وجرّدوا بعد ذلك الحملات البحرية للاستيلاء على جزر البحر وغزوا شواطئ الدولة البيزنطية غزوات سريعة يبدو أنها لم تبغ الفتح والاستقرار ، ولم يجذب العرب إلى البحر غير التجارة ، فامتطوا عبايه تجاراً بارعين أكثر مما امتطوه قباطنة محاريين ، وإن لم يحل هذا بينهم وبين انشاء السفن والشواني - على رأى ابن خلدون - وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة من وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والغرب والأندلس .

وكان اندفاعهم نحو البحر وليد الحرّة والشجاعة والمغامرة أكثر مما كان وليد الخبرة والدراية والتعلق بحياة البحر ، فحين اطلوا على شواطئه في موجة فتوحهم الباهرة اندفعوا نحوه غير هيابين فكان العربي من سكان الشواطئ - كما يقال - « يركب مركباً كما يركب جملاً » ، حيث يمتد البحر من أمامه كما تمتد الصحراء من ورائه إلى أبعد ما يرتد إليه بصره ، أما البدوي ساكن الصحراء فظل البحر لديه عالماً مجهولاً ، فكان أن نبى « عمر بن الخطاب » المسلمين عن الإغارة فيه . وعزل « أبي العلاء الحضرمي » واليه على البحرين . لما غزا بلاد فارس بحراً ، وكان قد عبر إليها الخليج في اثني عشر ألف من المسلمين قبل أن يستأذن الخليفة ، وغزا وغنم ولكنه فقد سفته فاقتحم طريقه في أرض معادية إلى البصرة ، وكان أهل البحرين قد زينوا له ذلك ، وهم أهل بحر فلم يخذله إقدامه عن السير

معه ، ومن قبل أبحر عثمان الثقفي من عمان مغيراً على سواحل الهند دون أن يلتقي نصيباً .

وصدق حلس عمر حين أمر بتسيير حملة بحرية ضد الأحباش ردّاً على غاراتهم على السواحل العربية ، نزلت على « أدواس » ونهبتها ولكنها هزمت في البر ، فلما طلب إليه معاوية - بعد ذلك - أن يأذن له بغزو قبرص ، وكتب إليه يقول : « يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص .. » . ولكن ساكن الحجاز كان غير ساكن الشام ، فكتب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص : « أن صف لي البحر ثم اكتب لي بخبره » فكتب يقول : « إنى رأيت خلقاً كثيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركن خرق القلوب ، وإن تمحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » . وأرسل عمرو إلى معاوية بنهاه عن ركوب البحر حتى لا يعرض الجنود لغدره .

وظفر معاوية من عثمان بما لم يظفر به من عمر ، وولج العرب هذا العالم الفسيح وغدا لهم ببحر الروم أسطول استطاع أن يواجه أسطول البيزنطيين حتى قبل أن مائتي سفينة للعرب غلبوا ألف سفينة للروم في موقعة ذات الصوازي .

ودخل العرب عالم الملاحة فأنزلوا إلى البحر السفن المثلثة الشراع وطوروا في أساليب الملاحة ومعداتها ما كان عوناً لأوربا في فنونها البحرية وفي نهضتها الحديثة ، فشقت طريقها في البحر إلى كشوفها الجغرافية في القرن الخامس عشر ، وانتهت منها إلى حركة الاستعمار الحديث وبناء الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى فيما وراء البحار .

ومنذ ذلك الحين احتل البحر مكانته العظمى في التاريخ ، وكتبت على صفحته أروع مغامرات الاستعمار وسبقت الدول البحرية غيرها إلى هذا الميدان الفسيح وأحرزت قصب السبق فيه ، وكانت البرتغال وأسبانيا ميزة المبادرة حتى اشتد بينهما الصراع فاحتكما إلى البابا فأصدر قراره عام ١٤٩٤ بتصوير خط تقسيم من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبي يمر بالأطلنطى إلى الغرب من جزر الآزور مسافة ٣٧٠ فرسخاً فكل ما يكشف إلى الشرق منه يكون للبرتغال ، وكل ما يكشف غربه يكون لأسبانيا .

وفى أعقاب الدولتين . البرتغال وأسبانيا - نزلت دول بحرية جديدة إلى ميدان الكشوف الجغرافية تدفعها حمى الاستعمار والاستغلال والحشع إلى الثراء ، وأتيح لهولندا أن ترث البرتغال وأن تصبح أعظم قوة بحرية في مطلع القرن السابع عشر ، وتبلغ امبراطوريتها أقصى امتداد بلغته . فلم يجد الانجليز حين بدأوا جولتهم الاستعمارية في البحار متأخرين عن سبقهم ، غير الهولنديين يسدون عليهم الطريق ، فجعلوا يتعقبونهم ويسطون على سفائنهم أينما كانت سواء في البحار الموسمية أو غيرها من البحار ولكن اتحاد العرشين الانجليزى والهولندى عام ١٦٨٩ تحت تاج وليم أورييج قد أوقف هذا الصراع إلى حين .

وكان الانجليز قد شهدوا من قبل مصرع النفوذ البرتغالى في البحار الموسمية وساهموا في القضاء عليه عندما هزموا البرتغاليين في « سورات » على مصب نهر « تبتى » عام ١٦١٢ ، فوضعوا أول دعامة لامبراطوريتهم في البلاد الموسمية الغنية . ونزل الفرنسيون هم الآخرون إلى الميدان فأسسوا « شركة الهند الشرقية الفرنسية » عام ١٦٦٤ . واصطدموا بالهولنديين والانجليز ، وشهدت بحار العالم

صراعاً معمولاً من أجل التجارة والرغبة في الثراء واحتلال الأراضي الغنية .

وبينما كانت المعارك الحامية تدور في القارة ، كانت البحار مسرحاً للقرصنة والسطو والنهب الاستعماري . وعلى قدر ما خلدت المعارك الحربية في التاريخ العسكرى وكتبت صفحة باهرة في استراتيجيات الحروب وتكتيكات المعارك ، لم يكن جناؤها يضاهي خلودها ، فقد كان الغنم كله في البحار على ما اتسمت به معارك البحر من ضالة وما شابه من طابع القرصنة ومغامرات القراصنة التي ألهمت أدب المغامرات أحداثها الشائقة أكثر مما ألهمت التاريخ وقائمه وتكتيكاتها البحرية .

وبينما كان مبدأ التوازن الدولى يحتذى ويطبق بصرامة في القارة فتشتبك الدول الأوربية في حروب طاحنة صبغت تاريخها الحديث بالدماء ، كانت تلك الدول تتوسع عبر البحار لا يحكمها غير التنافس والغلب ، فمن اكتشف منطقة أو رفع علم دولته على أرض غير مملوكة للدولة استعمارية أخرى ، أصبحت ملكاً للدولة صاحبة العلم ، وحين نظم مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ استعمار أفريقية قرر ألا تعلن دولة حمايتها لمنطقة دون إعلان هذه الحماية إلى الدول الأخرى ، وألا تعلن ضم منطقة ما إلى أملاكها ما لم يكن مؤيداً بالاحتلال العسكرى .

وكانت بريطانيا أشد الدول حفاظاً على مبدأ التوازن الدولى في القارة ، وما من سبب خاضعت من أجله الحرب ، إلا وكان هذا المبدأ هو الحافز الأول لها على الحرب ، وظل هذا المبدأ قائماً حتى قضى عليه الامتداد الشيوعى في شرق أوروبا في أعقاب الحرب الثانية ، وغدا التوازن قارياً أكثر منه اقليمياً . يقوم على المحالفات العسكرية والدعوة المذهبية لا تحكمه قاعدة ولا يقف أمامه حاجز غير رغبة الدولة ذاتها في اتباع السياسة التي

ترتضيها والانحياز إلى الجانب الذي تراه فضلاً عن امتداد المبدأ إلى كافة أنحاء العالم الأخرى ، فأصبح السلام الدولي رهناً بتوازن القوى بين الدول المتحالفة ، وبقيام دول جديدة حررت نفسها من الترام التحالف فقدت محور التوازن الحقيقي بين الطرفين المتصارعين . وتقف الجمهورية العربية المتحدة في هذا الفريق داعية إلى السلام العام والرخاء الدولي وحرية شعوب العالم . ومنذ القرن السابع عشر كان مبدأ التوازن الدولي هو السباج الذي يحكم السياسة الأوروبية يطبق في القارة فحسب دون أن يحكمه مبدأ أو قانون خارج القارة إلا قوة الدولة وقدرتها على التوسع وحماية أملاكها عبر البحار . وأصبح التفوق البحري دعامة السيادة للبحرية وسباج الأمن لأمالك الدولة البعيدة .

وعقد لواء السيادة البحرية لبريطانيا بعد تحطيم -الآرمادا- الأسبانية عام ١٥٨٨ . فشادت امبراطوريتها آمنة مطمئنة إلى تفوقها البحري الحاسم ، وإن لم تكن معركة الآرمادا بسبب التنافس الاستعماري بقدر ما كانت لأسباب تتعلق بالتراع بين الأسرتين المالكيتين في أسبانيا وانجلترا .

وكانت هولندا قد اقتنصت حريتها من أسبانيا قبل تحطيم الآرمادا بقليل عن طريق البحر حين أعوزها النصر في البر ، وعجز الثوار عن التغلب على القوات الأسبانية البرية المحتلة . فلجأوا إلى البحر ، واحتاوا ميناء « برل » الصغير فالتخذه المغامرون الهولنديون الذين عرفوا باسم « شحاذى البحار » قاعدة للغارة على القوات الأسبانية . ثم أطلقوا مياه البحر عليها حين حاصرت « قلعة ليدن » فتشتت شملها . وإذ لم يتخذ الهولنديين من إصرار الأسبان على قمع ثورتهم سوى اشتباك أسبانيا في حروب خارجية صرفتها عن قمع ثورة الأحرار الهولنديين ، ولم تنل هولندا

استقلالها الفعلي إلا في معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ . ثم انطلقت في جولاتها الاستعمارية شرقاً وغرباً إلى أقصى ما تحمّلها المواخر من بقاع الأرض .

وجاءت إنجلترا على آثارها ثم قفتها فرنسا وشهدت القرون الثلاثة التالية صراعاً استعمارياً حاداً بينهما ما لبثت أن خرجت منه هولندا لتبقى إنجلترا وفرنسا في ميدان الصراع الاستعماري وإن استطاعت إنجلترا أن تزيح فرنسا عن كثير من مستعمراتها وترثها فيها إلا أن فرنسا لم تسلم بالهزيمة وبقيت في الميدان تثير المتاعب في وجه بريطانيا العظمى التي تحولت من مملكة إلى امبراطورية كما يقول « ميهان » .

وقد اختار « ميهان » لكتابه « تأثير القوى البحرية على التاريخ » تلك الفترة التي اشتد فيها الصراع بين الدول الثلاث وانتهت بسيادة بريطانيا البحرية وتكوين امبراطوريتها التي وصفت بأنها لا تغيب عنها الشمس ، وهي الفترة من عام ١٦٦٠ إلى عام ١٧٨٣ . ففي عام ١٦٦٠ تولى شارل الثاني ، عرش إنجلترا فمد يد العون إلى « شركة الهند الشرقية الانجليزية » بعد أن كانت الحكومة الانجليزية قد أهملتها . وفي عام ١٦٦٤ أسس الفرنسيون شركة الهند الشرقية الفرنسية . وكانت هولندا قد أنشأت شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٦٠٢ بعد تأسيس الشركة الانجليزية بعامين . إلا أن الشركة الهولندية مضت قدماً في إقامة القواعد التجارية في البحار الشرقية بتعصيد الحكومة الهولندية وما لبثت أن كونت شركة الهند الغربية الهولندية عام ١٦٣١ للتجار مع العالم الجديد وأسسوا مستعمرة هولندية على مصب نهر الخدسن ، ودعوا عاصمتها امستردام الجديدة وقد أصبحت تحمل اسم « نيويورك » . بعد أن آلت إلى الانجليز . وفي الفترة ما بين عام ١٦٨٨ وعام ١٨١٥ . اشتبكت إنجلترا وفرنسا في سبعة حروب . كان الشافس

الأوربية ، ليكتب في كل دورة من دوراته صفحة من صفحات التاريخ الأوربي الحديث .

فأصداء التاريخ وحدها هي التي حملت ميهان على تلك الدراسة التي لم يسبقه إليها باحث وهي التي حملته على تقرير الدور البارز الذي لعبته القوات البحرية في التاريخ الحديث ، وإن لم تكن دراسته تاريخاً للمعارك البحرية بقدر ما كانت دراسة للأستراتيجية البحرية وقدرة الأساطيل على دعم سيادة الدولة وحمايتها .

الفرد ثاير ميهان :

كان تفكيره ولید الاستقراء العلمي الدقيق لما يمكن أن تقوم به الأساطيل الحربية والتجارية في دعم سيادة الدولة وحمايتها وجلب الرخاء لها ، بل إن هذا التفكير العلمي الواقعي قد أدى به في النهاية إلى النقيض من أفكاره ومبادئه الأولى ، فأصبح من دعاة الاستعمار وكان ينكره ويحمل عليه ، بل كان خصماً للامبريالية لا يبارى كما يقول عنه « بولستون » أحد مؤرخيه ، ولكن عدو الامبريالية غدا بعد هذه الدراسة وهو يرى أن الاستعمار أحد المقومات الثلاثة لبناء القوة البحرية أما الآخرون فهما بناء السفن في وقت السلم ، والتقدم الصناعي ونمو الانتاج في الدولة ، ولا تملك الولايات المتحدة منها — كما يقول — غير الأخير . فأخذ يدعوها إلى استكمالها ، وأشار عليها بالاستيلاء على جزر هاواي لتأمين الباسفيك . بل أصبح من دعاة سياسة العصا الغليظة التي آمن بها صديقه « تيودور روزفلت » . وقد ولد ميهان عام ١٨٤٠ لأب من رجال الجيش هو « دنيس هارت ميهان » كان يعمل أستاذاً للهندسة العسكرية بكلية « وست بوينت » الحربية ، ويأمل أن ينشأ ولده على غرار ضابطاً بالجيش ، إلا أن ألفرد اتجه إلى البحر فالتحق بالكلية البحرية في « أنابوليس » وتخرج منها ضابطاً في الأسطول عام ١٨٥٩ . وعاش

الاستعماري أبرز دوافعها .. وفي تلك الفترة شهدت القارة تطاحن الجيوش ، كما شهدت بروز عدد من القواد العظام كتبوا أروع الصفحات في تاريخ الحرب وتكتيكات المعارك ، لم تفد منها الدول التي خاضتها ما أفادت إنجلترا التي اتجهت إلى البحار ، وإن شاركت فيها بنصيب يجعل لها قدماً في اتفاقيات الصلح ، فقد رسم « بث » سياسة إنجلترا على أساس الاستفادة من حروب القارة للانفراد بالمستعمرات ، واعتمد على الأسطول أكثر مما اعتمد على الجيوش البرية .

وفي عام ١٨٧٣ ، كانت فرنسا قد خرت ساجدة أمام بروسيا في الحرب السبعينية وسلمت في صلح فرانكفورت عام ١٨٧١ بكل مطالب ألمانيا وكان الملك « وليم » قد توج امبراطوراً على الريح الألماني في هو المرايا بقصر فرساي في يناير عام ١٨٧١ قبل أن تنتهي الحرب وقبل صلح فرانكفورت ببضعة شهور . لتبدأ ألمانيا جولتها العنيفة في ميدان السياسة الأوربية وتخط معالمها التي قلبت موازين السياسة الدولية رأساً على عقب وأثرت في تاريخ أوروبا خلال السنوات التالية حتى نستطيع أن نقول إن أوروبا بدأت حقبة جديدة من تاريخها لعلها قد انتهت بهزيمة ألمانيا عام ١٩٤٥ .

فلذا كان ميهان قد اختار القرنين السابع عشر والثامن عشر موضوعاً لدراسته عن تأثير القوى البحرية على التاريخ في كتبه الثلاثة التي صدرت تباعاً من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩٠٥ فلأن القوى البحرية هي التي كتبت تاريخ أوروبا الحقيقي خلال تلك الفترة وهي التي حملت الاستعمار الأوربي على أمواج الخضم إلى بقاع ما كان يصل إليها إلا بالبوأخر والسفن والقلاع العائمة ، وهي التي جعلت الامتداد الامبراطوري بحرياً وليس قارياً ، وكان الاستعمار هو المحور الذي تدور حوالبه السياسة

حياة عادية لم يخض فيها معركة هامة إلا قليلا من المعارك الصغيرة في الحرب الأهلية ، لعلها هي التي أمدته بخبرته عن « الخليجان والطرق المائية الداخلية » فكانت وحياً لكتاب صغير كلف بكتابته عام ١٨٨٣ عن المعارك البحرية في الحرب الأهلية ، بعنوان « الخليج والمياه الداخلية » .
«The Gulf and Inland waters»

وكان قد اكتسب خبرة بحرية واسعة من رحلاته في المياه الآسيوية والأوروبية وسواحل الأمريكتين . ومن دراساته الخاصة للشئون البحرية خلال زيارته لأوروبا والشرق الأقصى وسواحل الأمريكتين .

وبدت ميوله نحو التاريخ البحري ، ويقال إنه أتى خلال تلك الفترة من حياته على كل الكتب والدوريات التي صدرت في عصره مما يتصل بالبحرية والتاريخ البحري والحرب وفاز بالجائزة الثالثة في مسابقة « المعهد البحري للولايات المتحدة » ، « يبحث عن » التعليم البحري للضباط والجنود Naval Education for Officers and Men كما أبدى اهتماماً جدياً بما يمكن أن يكون لإنشاء قناة برزخية من أثر على مكانة الولايات المتحدة الدولية .

وواتته الفرصة التي كشفت عن هوايته ومواهبه حين وصلته دعوة « الأميرال ستيفن . بولوس » مدير الكلية الحربية الجديدة في « نيويورك » برودى أيلاند ، عام ١٨٨٤ ، وهو على سفينة تجارة ييرو ، ليحاضر طلابها في التاريخ البحري والعمليات الحربية ، فكانت بداية حياة جديدة خلدها وجعلت منه أعظم داعية للأساطيل وأبرع مبشر للقوى البحرية على مدى التاريخ حتى وقتنا هذا ، فإذا كان كلاورقتر قد وضع أسس الحرب الحديثة فإن ميهان هو المبدع الخلاق لاستراتيجية القوى البحرية .

وكانت محاضراته أساساً لبحوثه ودراساته التي صدرت في كتب ثلاثة يكمل كل منها الآخر من حيث

الموضوع ومن حيث الامتداد الزمني للتاريخ . ولعله لم يبع أن يضع نظرية للاستراتيجية البحرية ، ولكن آراءه وأفكاره ومناقشاته التي تضمنتها كتاباته التاريخية ، وإن جاءت متأثرة مع السرد التاريخي . تكون في إطارها العام نظرية متكاملة . لفلسفة القوى البحرية ودورها في التاريخ ولأستراتيجية البحار وتكتيكات الأساطيل وغدت عاملاً مؤثراً في سياسة الدول البحرية خلال الفترة التالية من التاريخ ، لا سيما في ألمانيا واليابان فضلاً عن الولايات المتحدة ذاتها فقد وجدت نفسها تسير في نفس الخطوط التي رسمها لها ميهان . وإن لم تلق اهتماماً إلى آرائه حين ظهورها على عكس ما كان من الدول الأخرى التي حفيت بها ، وأبدت عناية بكتبه فترجمت إلى اللغات اليابانية والألمانية والإيطالية والروسية والفرنسية والأسبانية ، وإن لم يظهر لها حتى الآن ترجمة باللغة العربية ، ولعلها تلقى الآن من عناية السلاح البحري للجمهورية العربية المتحدة ما يتيح لضباط البحرية دراساتها والنظر فيها بما يتمشى مع نهضتنا البحرية الحاضرة .

وظهر كتابه الأول « تأثير القوى البحرية على التاريخ ١٦٦٠-١٧٨٣ » عام ١٨٩٠ وكان قد بدأ يلقي محاضراته على الطلبة في سبتمبر عام ١٨٨٦ بعد فترة قضاها متفرغاً للاطلاع والتحضير منذ كلف بهذا العمل عام ١٨٨٤ .

ويبدو أنه قد غنى باختيار كلمات العنوان ، ففي خطابه للناسر الانجليزى يقول إنه اختار عبارة « القوى البحرية Sea Power » لتجذب أنظار القراء مما يساعد على رواج الكتاب ، مفضلاً إياها على كلمة « Maritime » المشتقة من اللاتينية ، لأنها - كما يرى - لا تحمل من الحاذية ما تحمله العبارة المختارة ، فلفظ « قوة » كان من الألفاظ المتوارثة على لسان العصر ، عصر المحترعات

في كل لا يفصل تلازم فيه شخصية الرجل وذكاء
الانسان .

ويعتبر ميهان بموهبة الكاتب وإحساسه وفراصة
المؤرخ كما تبدوان في كتاباته واستقرائه الصادق للتاريخ
وتصويره للأحداث والبشر ، فترى الصورة أو الفكرة
تتجسم في ذهنه لتبرز في كتاباته وقد اكتملت لها كل
مقومات الحبوبة والثناء .

ويبدو إحساسه العميق بالأحداث في كتابيه اللذين
صور فيهما ذكريات حياته وهما :

١ - من الشراع إلى البخار : ذكريات بحار
From Sail to Steam : Recollections of Naval Life.
وصدر عام ١٩٠٧

٢ - الحناء القريب The Harvest Within.
وصدر عام ١٩٠٦

كما يبدو إحساسه بأحداث عصره في كتابه « الحرب
في جنوب أفريقية The War in South Africa » ،
وفي عدد من الموضوعات التي عرض لها بالبحث
والمناقشة ، جمعتها عدة مجلدات صدرت على التوالي
فيما بين عام ١٨٩٧ وعام ١٩٠٢ كان أولها بعنوان :

اهتمام أمريكا بالقوى البحرية في الحاضر والمستقبل
The Interest of America in Sea Power,
Present and Future
وصدر عام ١٨٩٧ مشتملا على ثمانية موضوعات
بدأ في كتابتها منذ سنة ١٨٩٠ حتى صدوره .

وبعد عامين أصدر المجلد الثاني بعنوان :
دروس من الحرب مع أسبانيا وموضوعات أخرى
Lessons of the War with Spain and Other articles.
وكان صدور المجلد الثالث عام ١٩٠٠ بعنوان :

مشكلات آسيا وتأثيرها على السياسات الدولية
The Problem of Asia and its Effect
upon International Policies.
وفي عام ١٩٠١ أصدر كتاباً من جزئين بعنوان :

العظيمة والقوى الجديدة التي أخذت تغير من حياة
الإنسان .

ويجمل الكتاب فلسفته البحرية ونظريته في استراتيجية
البحار وتكتيك المعارك البحرية . إلا أن الصورة
لا تكتمل من حيث الامتداد الزمني للتاريخ ، والعرض
العام للنظرية إلا بكتاييه الآخرين :
١ - أثر القوة البحرية على الثورة الفرنسية
والامبراطورية : ١٧٩٣-١٨١٢ .

The Influence of Sea Power upon the French
Revolution and Empire, 1793-1812.

ونشر في بوسطن عام ١٨٩٢ .

٢ - القوة البحرية وحرب عام ١٨١٢ .
Sea Power in its Relation to the War of 1812.
ونشر هو الآخر في بوسطن عام ١٩٠٥ .

ففي عام ١٨١٢ كانت كارثة نابليون في روسيا ،
وانحدار الشمس المحرقة التي زهت في سماء أوروبا
وأحرقتها إلى المغيب ، ثم كانت حرب الأمم التي حملتها
والتي غربت بها في أجواء سانت هيلانة الاستوائية .

وبعدها افتقدت بريطانيا ركاب المجد الامبراطوري
في عالم لا تغيب عنه الشمس يدين لها بالقهر والسلطان
الاستعماري أو يدين لها بالولاء الثقافي والسياسي
وغدت بحريتها أقوى بحرية تمخر عباب البحر تخال
بالسيادة وتردهى بالقوة والسلطان .

ولا تقتصر دراسات ميهان على هذه الكتب الثلاثة
أو ما سبقها من الدراسات المحدودة التي قام بها من
قبل ، بل كتب ترجمة قصيرة لحياة الأدميرال
فارجوت نشرت عام ١٨٩٢ ، كما ترجم حياة أمير
البحر الانجليزي نلسون في كتاب نشر عام ١٨٩٧
بعنوان « حياة نلسون The Life of Nelson » ، يعد
من أحسن كتب التراجم إذ صور حياته وعبقريته

العمليات البحرية الكبرى في حرب الاستقلال الأمريكية

«The Major Operations of the Navies in the War of American Independence».

وكلها كما نرى تدور حول البحر والاستراتيجية البحرية ، وإن لم يهمل الجانب السياسى في العلاقات الدولية ، فالصلة بين الاستراتيجية والسياسة جد وثيقة ، ولا تستوى دراسة الاستراتيجية ما لم تقم على إلمام عميق بالسياسة والشئون الدولية . فكثيراً — إن لم يكن في الأعم الأغلب — ما تنبئ الانجازات السياسية على استراتيجية الدولة واتجاهاتها العسكرية . فكتب في هذا الصدد مؤلفاً صدر عام ١٩١٠ بعنوان « اهتمام أمريكا بالشئون الدولية —

The Interest of America in International Conditions. »

وكان آخر ما نشر له مجموعة من مقالاته ورسائله صدرت عام ١٩١٤ ، آخر سنى حياته وقد اشترك العالم في أول حرب عامة مدمرة ، وحقت المعارك البحرية نظرة مبهان إلى أثر القوى البحرية في مصير الحرب . وإن لم يعيش حتى يرى ذلك أو يشهد صدور القانون البحرى الأمريكى سنة ١٩١٦ بأن يكون أسطول الولايات المتحدة أقوى أسطول في العالم .

أثر القوى البحرية على التاريخ

لعل شهرة هذا الكتاب تعود إلى آراء مبهان عن قوة الدولة البحرية وما لها من أثر على مصيرها السياسى والاستراتيجى ومكانتها الدولية مما يحدد في الواقع مكانها من التاريخ ، وإن لم يبلغ الكتاب من دقة البحث التاريخى وسلامة العرض ما بلغه كتابه عن « أثر القوة البحرية على الثورة الفرنسية والامبراطورية ١٧٩٣ — ١٨١٢ » . وهو كتابه الثانى في تلك السلسلة الممتدة من البحوث التى راح يؤكد فيها نظريته عن القوة البحرية ،

نماذج لضباط البحرية مستقاة من تاريخ البحرية البريطانية .

Types of Naval Officers Drawn from the History of the British Navy.

وكتاباً آخر صدر عام ١٩٠٢ بعنوان .

التفاتة إلى الماضى ونظرة إلى الأمام : دراسات في العلاقات الدولية البحرية والسياسية

Retrospect and Prospect, Studies in International Relations, Naval and Political.

وتدور هذه البحوث جميعاً كما نرى حول موضوعات الساعة مما يتصل بالسياسة الدولية التى عاصرها واستراتيجية البحار التى رسم خطوطها .

وبقى يزود المكتبة الانجليزية بمقالاته وبحوثه ومؤلفاته حتى عام ١٩١٤ فصدر له عام ١٩٠٧ كتاب :

Some Neglected Aspects of War

عرض فيه لبعض ما دار في مؤتمر لاهاى الثانى للسلام من مسائل تتناول التسليح البحرى وكان مؤتمر لاهاى الثانى قد عقد عام ١٩٠٧ بعد ثمان سنوات من عقد مؤتمر لاهاى الأول للنظر في خفض التسليح ومن بينها التسليح البحرى وحرب الألغام البحرية .

وفي العام التالى نشر بضع مقالات عن الإدارة البحرية « Naval Administration » كما أصدر عام ١٩١١ كتاباً عن الاستراتيجية البحرية بالمقارنة والقياس على العمليات العسكرية في البر دعاه :

« Naval Strategy Compared and Contrasted with the Principles and Practice of Military Operations on Land »

كما نشر عام ١٩١٣ في كتاب مستقل فصلاً كان قد اشترك به في كتاب « كلاوز » عن تاريخ البحرية الملكية ، يدور حول العمليات البحرية في حرب الاستقلال الأمريكية بعنوان :

إلا أنه وقد عرض نظريته في هذا الكتاب الأول ، فقد غدا أشهر مؤلفاته وأجدرها بالخلود ، ولا تعدو مؤلفاته الأخرى تأكيد هذه النظرية والتدليل على سلامتها .

ولا يدعى ميهان لنفسه فضل الأصالة أو الابتكار ، فقد أشار إلى ماورد عنها في كتابات «بيكون» و «رالي» منذ ثلاثة قرون ، كما ذكر أن «ثيوسيديد» و «ثموستوبلكس» و «أجزركيس» قد تناولوها من قبل ، إلا أن ميهان قد سبق الجميع دون شك في وضع نظرية محددة للاستراتيجية البحرية ، واتخذ من التاريخ معوانا له على توكيدها والتدليل على سلامتها . وفي هذا تكمن شهرته وذيوع صيته ، وبقاء كتابه في الشوامخ من تراث الإنسانية الفكرى ، فليس الرجل مؤرخا وإن اتخذ من التاريخ ميدانه الفسيح للبحث والاستقراء ، بل لعله في هذا المضمار مؤرخ ردىء ، ولكنه جاء بنظرية راح يشبها بوقائع التاريخ ، وبفكرة أخذ يدعو إليها فاستجابت إليها الدول على اختلافها ، ودفعت الولايات المتحدة إلى انتاجها فسارت ولما يمر ربع قرن على صدور هذا الكتاب ، في الطريق الذى رسمه لتصبح أقوى دولة بحرية في العالم .

ويبدأ ميهان كتابه بعرض مجمل لقيام الدول البحرية الكبرى وسقوطها ، ربط بينه وبين العوامل الأساسية التى يجب توفرها فى أمة تتطلع إلى السيادة البحرية ، وما أن استوفى هذه العوامل حتى بدأ تحليله للحروب البحرية فى أوروبا فيما بين عام ١٦٦٠ وعام ١٧٨٣ ، وهى فترة تمتد قرابة قرن وربع القرن شهدت أعنف صراع بين الدول الاستعمارية على صفحة البحار كما أشرنا من قبل . ويتخذ من الحرب بين هولندا وإنجلترا بداية لتلك الدراسة الشاملة ، وهى الحرب التى أعلنها لويس الرابع عشر على هولندا عام ١٦٧٢ ، واشترك فيها شارل الثانى إلى جانب

قريبه ملك فرنسا عام ١٦٧٤ ، بمقتضى معاهدة دوفر السرية عام ١٦٧٠ التى ضمن فيها لويس وقوف شارل إلى جانبه ، ودارت الحرب سجالا بين الفريقين فى البر ، وفى البحر وأبدى كل منهما شجاعة بحرية عظيمة وفيها ظفرت إنجلترا بمستعمرة «نيو امستردام» التى دعتها نيويورك .

ويتبع ميهان بنوع خاص الحروب البحرية التى خاضتها إنجلترا وانتهت بها إلى سيادة البحار فيشير إلى الأخطاء الكبيرة التى وقعت فيها إنجلترا وهددت مصالحها التجارية بالخطر أثناء حرب الوراثة الأسبانية . عندما شغلت بالمحافظة على مبدأ التوازن الدولى بالوقوف أمام أطماع لويس الرابع عشر عن مصالحها البحرية والتجارية فانضمت إلى المحالفة الكبرى ضد فرنسا حين أعلن لويس تنصيب حفيده «فيليب أنجو» ملكا على أسبانيا تنفيذا لوصية مليكها الراحل «شارل الثانى» عام ١٧٠٠ . ولم يكن قد أنجب وريثا للعرش ، على خلاف ما اتفق عليه مع «وليم الثالث» ملك إنجلترا بتقسيم ممتلكات اسبانيا بعد موت شارل الثانى . ودارت رحى الحرب فى بفاريا والأراضى المنخفضة وطال مداها بالرغم من الانتصارات الكبرى التى أحرزها الحلفاء ضد فرنسا فى «بلنهم» و«رمليزن» و «أدينار» و «ملبلاكيه» ، وأخيرا انتهت بصلح «اترخت» عام ١٧١٣ ، وظفرت فيه إنجلترا بنيو فونلاند ، ونوفا سكوشيا ، وخليج هدش ، من فرنسا كما استولت على متورقة وجبل طارق ، بينما انجده حلفاؤها بمغانمهم إلى القارة ، وظهر لأول مرة اهتمام إنجلترا بمصالحها الاستعمارية خارج القارة ، وتخرجت من تلك الحرب وقد أصبحت سيادة البحار ، وبدأت المنافسة الاستعمارية العنيفة بينها وبين فرنسا وهى المنافسة التى امتدت حتى بداية القرن العشرين .

ولم يبع ميهان من كتابه هذا - كما ذكر للأميرال لوس - أن يكتب تاريخا للوقائع البحرية ، بل كان يرمى إلى نقد المعارك وتحليلها أكثر مما يرمى إلى تتبع الأحداث والوقائع ، ولكنه عن طريق الاستقراء التاريخي استطاع أن يرسم صورة دقيقة للعلاقة القوية بين السيادة البحرية والمركز السياسى للدولة ، فعن طريق السيادة البحرية قضت إنجلترا على أطماع لويس الرابع عشر وطموح نابليون وانقذت - كما يدعى - الحضارة من أعدائها .

ويبدو أن حماسه للسيادة البحرية قد طفئ على مثله العليا القديمة فأخذ ينظر إلى الاستعمار البريطانى نظرة الانجليزى نفسه إلى المجد الامبراطورى ، ولم يكن تمجيده لبريطانيا فى الواقع إلا تمجيدها للسيادة البحرية طفئ فيه الحماس للنظرية على مثل الإنسان فبدا وكأنه من غلاة الداعين للاستعمار ، ولم تكن دعوته إلى القوة البحرية لتستقيم ما لم يكن لها هدف تحققة وخطة تقوم عليها مما ساقه إلى تبرير الاستعمار ، ولما كانت نظريته تقوم على الاستقراء التاريخي لقوة الدولة فقد وجد فى نمو البحرية البريطانية مصداقا لنظريته فكان حماسه لبريطانيا وليد الحماس للنظرية أكثر منه حماسا لشكل الاستعمار ووسائله فلم يناقش الشكل أو الوسيلة إلا من وجهة النظر الاستراتيجية والأسس التى تقوم عليها القوة البحرية التى تقوم عليها قوة الدولة الحقيقية .

والواقع أن نظرية ميهان ما هى إلا وليدة العصر الذى عاشه والأحداث التاريخية التى سبقت حين أصبح الامتداد الاستعماري بحريا أكثر منه قاريا وقامت الامبراطوريات عبر البحار أكثر مما قامت مع الامتداد البرى للجيوش الغازية ، وحين أصبحت السفن وسيلة المواصلات الرئيسية للبلاد البعيدة ، وحلت

ويشير ميهان إلى انتصار إنجلترا فى حرب الستين السبع عام ١٧٥٩ ويقول إن انتصار «ولف» على الفرنسيين فى كندا وسقوط «كويك» العاصمة فى يد الانجليز ، ما كان ليتم لو لم يعاونه الأسطول باقتحام مصب نهر سانت لورنس ، فمنع الامدادات الفرنسية من نجدة «متسكام» القائد الفرنسى فخسر المعركة رغم بسالته ومناعة تحصيناته ، وظفرت إنجلترا فيها عندما عقد صلح باريس عام ١٧٦٣ بكندا والأقاليم الواقعة شرق الميسسي ماعدا لويزيانا .

كما يؤكد أهمية القوى البحرية فى دراسته لحرب الاستقلال الأمريكية فيقول إن تفرق وحدات الأسطول الانجليزى قد حالت بينه وبين التفوق على أسطولى فرنسا واسبانيا المتحدين وكانت فرنسا قد اتخذت جانب الثوار علنا بعد أن كانت تساندتهم سرا إثر انتصارهم فى معركة ساراتوجا عام ١٧٧٧ ، فأمدتهم بجيش بقيادة «رشمبو» و «لافيت» ، كما انضمت اليهم أسبانيا خوفا على فلوريدا ، وأعلنت دول أوروبا الشمالية الحياد المسلح لتحول بين إنجلترا وتفتيش السفن المحايدة ، فأصبح انتصار الثوار مؤكدا . لاسيما بعد أن تمكن الأسطول الفرنسى من ابعاد الأسطول الإنجليزى عن الساحل ومحاصرة يوركتون بحرا ، بينما كانت القوات الأمريكية الفرنسية المتحالفة تحيط بالقوات الانجليزية برا ، فاضطر «كورنواليس» القائد الانجليزى إلى التسليم فى اكتوبر سنة ١٧٨١ ، واعترفت إنجلترا باستقلال الولايات المتحدة عام ١٧٨٢ .

ويبرز ميهان حقيقة يكررها ويؤكددها فى كل دراساته وهى أن الحصار البحرى عامل حاسم فى الحرب بين دولة برية وأخرى بحرية . يودى فى النهاية بكل انتصار تحرزه القوات البرية مهما كان ساحقا .

البحرية ثابتة لا تتغير ... وكأنها تقوم على صخرة صماء في السلم وفي الحرب .

وإن لم يأت ميهان بمجديد في تعريف الاستراتيجية والتكتيك . إلا أنه كان أول من فصل بينهما في الحرب البحرية . فلم تكن النظرة إلى الأسطول من قبل إلا أنه جزء من البناء العسكري للدولة الغرض منه حماية السفن التجارية والدفاع عن السواحل ضد أية عمليات للغزو ، وفي هذا يتميز ميهان على من سبقوه . فضلا عما نادى به وأكدته من أن القوة البحرية تستطيع أن تزود الولايات المتحدة ، كما زودت بريطانيا بالدعم الصلبة لقوتها ومكانتها الدولية .

والمحور الذي تقوم عليه دراسته للتاريخ البحري ، هو إثبات مالم تقوى البحرية من أثر في تاريخ الأمة ، والفكرة التي تثب على الدوام في كتاباته هي تأكيد الدور الذي تقوم به القوة البحرية للدولة في دعم مكانتها السياسية والدولية في العالم ، وتحقيق الأمن الاستراتيجي والقوة والتقدم والرخاء العام للأمة .

وعلى ضوء هذه الحقيقة التي أكدها ، انتقل إلى بحث الأسس التي تقوم عليها القوة البحرية للدولة وأجندتها في ستة عوامل رئيسية هي :

المركز الجغرافي - هيئة الأرض - الامتداد الاقليمي - السكان - الطابع القومي - النظام السياسي للحكم .

وأخذ يناقش كلا منها مبينا أثرها على التوبة البحرية ، مستقرا التاريخ اثباتها .

١ - المركز الجغرافي : Geographical Position

والمركز الجغرافي هو وضع الدولة بالنسبة لجيرانها وموقعها من البحر ، فكلما فصل البحر بين الدولة وجيرانها كانت في وضع أكثر أمنا ، ويمكن إدراك هذه الحقيقة من دراستنا للوضع الجغرافي لكل من

محل القوافل في نقل التجارة ، وأصبح من الضروري حماية السفن التجارية عن طريق التسليح الذاتي أو حراستها بالسفن الحربية التي تعد لهذا الغرض فحسب .

فمصر ميهان هو عصر التوسع البحري ، والامبراطوريات الاستعمارية فيما وراء البحار ، وعصر القباطنة العظام من ربابة الدولة ومن قراصنة البحار على السواء .

ومهما قيل إن نظريات ميهان وآراءه العديدة في السياسة والاستراتيجية جاءت متناثرة على طول السرد التاريخي دون رابط - كما تقول مرجريت سيروت - فإنها في الواقع تكون نظرية متكاملة نستطيع أن نجعلها في الأسس التالية :

١ - أبدع فلسفة جديدة للقوى البحرية تركت أعمق الصدى في الهيئات البحرية وفي الدول المتطلعة إلى القوة .

٢ - وضع نظرية جديدة للاستراتيجية البحرية ، لم يسبقه إليها باحث ، وإن كنا لاندعي أنه أبدع شيئا لم يكن معروفا ، ولكنه وضع ماهو معروف في إطاره العلمي .

٣ - غذى التكتيكات البحرية بآراء لها وزنها في معارك البحار .

وقد وضع ميهان حدا فاصلا بين الاستراتيجية البحرية والتكتيك البحري ، وهو الفاصل المعروف في الحروب البرية ، فالاستراتيجية تقوم على خواطر طبيعية لا تتغير كموقع الدولة من البحر وسياستها البحرية وقوة بحريتها واسطولها التجاري وقواعدها البحرية ، أما التكتيك البحري فيعني بالمعركة بعد بدايتها ، وعذته الأسلحة التي يصنعها الانسان وتطورها فيتغير معا لتطور السلاح البحري . بينما تبقى الاستراتيجية

للأقليم من أثر على القوة البحرية ، وعلى جاذبية البحر للسكان ، فطبيعة الساحل تحكم الانطلاق إلى البحر ، والموانئ الحيدة تزودها بالاحتمالات الرائعة . وطبيعة التربة اما تجذب الناس إليها أو تقذفهم بعيدا عنها إلى البحر سعيا وراء الرزق ، وقد اندفع الهولنديون إلى البحر . ولكن اعتمادهم الكلى عليه كان مصدر ضعف لا قوة . وخصب التربة الفرنسية قد حبس الفرنسيين على الأرض ونأى بهم عن البحر ، فلم تكن بهم حاجة إلى طلب الرزق عن طريقه مالم يكن السعى إليه ضروريا فيه . مثلهم في هذا مثل الولايات المتحدة الذين تقعد بهم ثروتهم عن الانطلاق نحوه .

أما الجزر وأشياء الجزر من الأقاليم كبريطانيا وأسبانيا وإيطاليا . فعليها حتى تكون قوة مؤثرة ، أن تمتلك بحرية على درجة كافية من القوة .

والبحر في ذاته حد فاصل ، وقوة الدولة هي في قدرتها على اجتياز هذا الحد الفاصل والانطلاق إلى ما وراءه .

٣ - الامتداد الاقليمي : Extent of Territory

ولا يعنى به سعة رقعة الدولة . أو امتداد مساحتها بالأميال المربعة . بل يعنى به الامتداد الساحلى للدولة . وملاءمة مرافئها للملاحة . والتناسب بين تعداد السكان وطول السواحل . ويضرب لذلك مثلا بولايات الجنوب التى يتمتع سكانها بروح حربية عالية . وزودتها الطبيعة بالفرص والخلجان والسواحل الممتدة . والموارد الغنية . ولكنها لم تكن تملك أسطولا حربيا أو تجاريا قويا ولم يكن أهلها ممن يخبون البحر . ولم يكن تعدادهم ليتناسب إطلاقا مع طول سواحلهم . فرجحت كفة الشمال وكان لهم النصر في الحرب الأهلية الأمريكية .

فامتداد السواحل وكثرة الطرق المائية الداخلية

الدول الثلاث المتنافسة حينذاك وهى : بريطانيا . وهولندا . وفرنسا . فإحاطة البحر بالجزر البريطانية قد جعلها في وضع أكثر أمنا من منافستها . فقد أمتها البحر من أى غزو برى . وحررها من الحاجة إلى جيش كبير يشغل ميزانيتها ويعوق تقدمها الاقتصادى ورخاءها المادى . وهى قريبة من القارة الأوروبية إلى الحد الذى يمكنها من ضرب أعدائها . وهى في الوقت نفسه بعيدة عنها إلى الحد الذى يجعلها تتأمن من الغزو . حيث يستطيع الأسطول البريطانى من قاعدته الرئيسية في الجزر البريطانية أن يوجه ضربات قاصمة للأعداء . وأن يقوم بحصار بحرى محكم للقارة . فضلا عما يقوم به من كفالة الأمن الاستراتيجى للدولة والدفاع عن البلاد . على تقيض فرنسا حيث يضطرها امتداد سواحلها على بحرين . إلى تقسيم أسطولها بين البحر المتوسط والمحيط الاطلنطى ويحرمها ميزة الحشد الاستراتيجى لقوتها البحرية . كما يضطرها وضعها في القارة وامتداد حدودها القارية امتدادا يحملها على تكوين جيش كبير للغزو أو الدفاع أمام جيران أقوياء . مما بنهك اقتصادها وأمدادها البشرية من المخبدين . مثلها في ذلك مثل هولندا حين استنفدت قواتها الحربية في الدفاع عن استقلالها ضد الغزو البرى .

ولمركز بريطانيا الجغرافى ميزة فريدة في السيطرة على طرق الملاحة الرئيسية إلى شمال أوروبا وعندما استولت على جبل طارق والجزر الرئيسية الهامة في البحر المتوسط أصبحت في وضع يمكنها من السيطرة عليه تلك السيطرة التى لعبت دورا بارزا في تاريخ العالم من الناحيتين الحربية والتجارية ، أكثر مما كان لأية رقعة مائية أخرى .

٢ - هيئة الأرض : Physical Conformation

ويقصد بها ما يمكن أن يكون للهيئة الطبيعية

كالاُنهار والبحيرات قد يكون عامل ضعف لا قوة ،
مالم يتناسب هذا الامتداد مع عدد السكان وكثرة
الموارد وتعلق الناس بالملاحة وحبهم للبحر .

٤ - السكان : Population

ولا يعتد ميهان في هذا المضمار بالتعداد العام
للسكان بقدر ما يعتد بعدد من يعملون منهم بالبحر
والصناعات البحرية ، أو على الأقل عدد من يستطيع
العمل في السفن الحربية والتجارية ، واستشهد على
ذلك بكل من فرنسا وانجلترا ، ففرنسا بالرغم من
أنها أكثر سكانا إلا أن عدد من يعمل منهم في البحر
أقل منه في انجلترا ، فضلا عن اهتمام الانجليز بالبحر
والتجارة ، وانصراف الفرنسيين باهتمامهم الأوفى
إلى الزراعة .

وما من شك في أن التجارة القومية زمن السلم
تعد من أسباب القوة التي تساعد الدولة على البقاء
والصمود في حرب بحرية ، وكلما عظم الاحتياطي
من العمال المهرة الذين يعملون زمن انسلم ، كلما
كانوا عنصرا من عناصر القوة زمن الحرب ، فلم
تكن انجلترا مثلا دولة من التجار هواة البحر فحسب
بل كانت تبنى السفن وتزود بها الأساطيل الحربية
والتجارية على السواء . وإذا كان الوقت هو العامل
المؤثر في سير الحرب ، فان على الأمم التي تعوزها
الروح الحربية وتكره التجيش وما يتطلبه من نفقات
باهظة . أن تبقى على الدرع الواقية للدفاع ليكون
لديها الوقت الكافي عندما تبدأ الحرب لمواجهة الموقف
الجديد وحشد القوى الفنية والبشرية الكافية لكسب
النصر .

ويفرق ميهان بهذا بين القوات العاملة فعلا
والقوات اللازمة ، فهما شيان لا يتماثلان ، وإن كان
من الضروري أن تظل النسبة بينهما متوازنة ، بمعنى

أن تحتفظ كل دولة بنسبة معينة من القوات تكون
من الكفاية بحيث تتيح لها في الوقت المناسب وفي
الساعة الحاسمة لإعداد القوات اللازمة للمعركة مع
كل ما يلزمها من عتاد .

ويختتم ميهان مناقشته بهذا العامل بقوله : « إن
اتجاه الأمة الطبيعي للصناعات البحرية والعمل في
البحار هو أهم ما تركز عليه القوة البحرية للدولة
من مقومات التفوق على مر العصور ، في الحاضر
أو في الماضي ، وهو ما يعوز الولايات المتحدة
كما قال حينذاك .

٥ - الطابع القومي : National Character

ومن العوامل التي تحدد مدى القوة البحرية للأمة
أو الدولة طبيعة المواطنين وميولهم العامة ، فقد أثبتت
أحداث التاريخ أن الأمم التجارية كانت على الدوام
أثما بحرية عظيمة ، فالليل إلى الكسب والاتجار
والقدرة على انتاج ما يلزم للتجارة هما اللتان تكونان
الطابع المميز للأمم البحرية ، فان توفرت هاتان
الطبيعتان لأمة من الأمم حملتها على متن الخضم طلبا
للثراء وحبا في التجارة لا يعوقها خطر ولا تخيفها
المهالك . فاذا ما اندفعت الأمة نحو الكسب والتجارة
ونجحت في إقامة حركة تجارية رابحة زمن السلم
كانت تلك هي خطورتها الأولى لارتداد البحار وحافزها
على بناء قوة بحرية قاهرة ، ولقد حملت التجارة
البحرية الواسعة بريطانيا على بناء السفن وإقامة القواعد
والصناعات البحرية التي جعلت منها أعظم قوة بحرية
في العالم الحديث .

زلقد جنى الانجليز والهولنديون - بالرغم مما قيل
عنهم احتقارا ، أنهم من التجار وأرباب الحوائث
- من الأرباح التجارية ما يفوق كل ما كسبه البرتغال
والأسبان من مناجم الذهب والفضة ، وزاد على كل

ما ادخره الفرنسيون من أموال ، على ما فيهم من
بخل وتقتير حال بينهم وبين استثمارها في التجارة
الخارجية .

وتحتاج التجارة إلى الأسواق ، حاجتها إلى انتاج
السلع التجارية ووسائل التجارة ، فكانت حركة
الاستعمار مرتبطة إلى أبعد مدى بحركة التجارة .
وكما كانت إنجلترا أوسع الدول تجارة ، فقد غدت
بالتالى أوسع الدول استعمارا ، وكما حققت لها قوتها
البحرية سيادة البحار ، فقد حققت لها التجارة أوسع
امبراطورية استعمارية .

وخص الانجليز بطبيعة استعمارية حققت
لاستعمارهم النجاح وأفادت عليهم كثيرا من الربح
فقد أقاموا مستعمرات مزدهرة حققت نوعا من
الرخاء رفع القوى الشرائية فيها فراجت التجارة
الانجليزية وواجهت تصل اليه دولة استعمارية اخرى .
ومن طبيعة الانجليز أن يستقر في الوطن النازح
ويوالم بين مصالحه الشخصية ومصالح وطنه القديم
والحديث على حد سواء ، فيقيم حيث يطيب له العيش
لايعتربه قلق أو حنين للعودة مع بقاءه على الولاء والود
لوطنه الأم . وتلك طبيعة أعوزت غيره من المستعمرين
فالمستعمر الاسباني مثلا ما كان يعنيه من المستعمرات
غير اجتناء الثروة واستغلال موارد المستعمرات دون
أن يعنى بتنمية تلك الموارد وإصلاحها . لذلك كان
الاستعمار الانجليزى أطول عمرا وأكثر ثباتا من غيره .

٦ - النظام السياسى للحكم :

Governmental Institutions

وبرى ميهان أن نوع الحكومة وطبيعة الحكام
وإمداد اهتمامهم بالبحر مما يؤثر تماما في قوة الدولة
البحرية واطراد نموها ، فاذا أبدت اهتماما بالبحر
ودفعت الناس اليه ، استطاعت أن تنشئ القوة
البحرية التي تريدها .

والحاكم الفرد - كما يعتقد رغم تفضيله للنظم
الديمقراطية - أقوى وأقدر على انشاء القوة البحرية ،
إذا ما تحققت له القدرة والكفاية ، مما تستطيعه أية
حكومة ديمقراطية ، ولكن المشكلة هي فيمن يخلف
هذا الحاكم القادر المستبد ، وهل يستطيع أن يواصل
الجهد بنفس القدرة والكفاية في بناء السفن الحربية
والتجارية .

ويتخذ ميهان من دراسته للحكم الانجليزى مثلا
واضحاً لاهتمام الحكومة بالبحر والسياسة البحرية
ويتبع الأدوار التي مرت بها لتحقيق السيادة البريطانية
على البحار ، فيقول إن بريطانيا بدأت جولتها
الاستعمارية أيام جيمس الأول فسلكت الطريق الذي
يصل بها إلى المستعمرات وضمان السيادة البحرية
وتنمية التجارة الانجليزية ، ويرد ذلك إلى قيام طبقة
واحدة بالحكم هي طبقة النبلاء ، وإن كنا نرى أن نمو
الطبقة البرجوازية في إنجلترا ونشاطها التجارى كان
أبعد أثرا في تنمية المصالح التجارية الانجليزية ،
والانجاء إلى البحر . والاهتمام بالقوة البحرية ، من أى
جهد أو نشاط بطبقة النبلاء . ولكنه عاد يقول إن
الحكومة البريطانية قد اختطت سياسة بحرية محددة
منذ البداية تقوم على سيادة البحر وتكوين امبراطورية
فيما وراء البحار قامت على تنفيذها بعيدا عن تدخل
المملك أو الأحزاب ، فقد جعلت منها هدفا قوميا يعلر
على الملك وعلى الأحزاب معا . وإن اعتراه الشك
في استمرار تلك السياسة على يد حكومة ديمقراطية
لانحب أن تثقل الميزانية بالنفقات الباهظة لقوة بحرية
كبيرة ، أو لاعداد قوة عسكرية دائمة . ويستشهد على
ذلك بما حاولته فرنسا أيام « كولبير » عندما أرادت
أن تكون دولة بحرية كبيرة ، ولكن خلفاء كولبير
انصرفوا عنها ، ولم تحصل الحكومة الفرنسية من

التجارة أو المستعمرات ما يعوضها الاتفاق على قوة بحرية كبيرة .

ويخلص من دراسته لسياسة الحكومات البحرية إلى أن الحكومة تحفظ سياسة بحرية للسلم وأخرى للحرب . فهي التي تسيطر على الأسطول زمن السلم وتقدر حاجته من العدة والعناد وتزوده بالضباط والبحارة اللازمين ، وهي التي تبت في رعاياها روح المغامرة وارتياح البحار وتشرف على الصناعات وقدرتها على امداد القوة البحرية بحاجتها . وهي التي تضع الخطوط الاستراتيجية لسياستها البحرية بما لها من تأثير على بناء القوة البحرية ، وهي التي تشجع أو تقتل الميل الغريزي في الأفراد نحو البحر . وعند الحرب تعدد الأسطول لمواجهة الحرية وتقوم بتحسين القواعد البحرية وتأمينها في المناطق النائية ، كما تؤمن مسار السفن التجارية بأعداد القوى البحرية المناسبة لحمولة الأسطول التجاري .

وتقرر الحكومة مدى تأثير القواعد البحرية على قوتها في البحر ، فتمثل منها مائتاه كفيلا بتحقيق الأمن الاستراتيجي لأسطولها الحربي وسفانيتها التجارية ولطرق المواصلات الرئيسية إلى مستعمراتها البعيدة ، فالبحار مسار محفوف بالمخاطر تزرخ بالخصوم والأعداء ، وكلما ارتكز الأسطول إلى قواعد رئيسية حصينة تمده بالمؤن والازواد وتتيح له ملجأ آمينا للحشد والانقضاء ، كان أكثر أمنا وأقلر على مجابهة الأعداء وحماية التجارة وطرق الاقتراب الرئيسية إلى المستعمرات .

وليست هذه القواعد مستعمرات بالمعنى المفهوم بل هي مراكز حاكمية لها أهميتها الاستراتيجية فحسب ، فليس لها طابع تجاري ، وقد امتلكت إنجلترا عددا منها أتاح لها فضلا عن قوة أسطولها سيطرة كاملة على

البحار لم ينازعها فيه منازع بعد معركة الطرف ١٨٠٥ وليس للولايات المتحدة من تلك القواعد ما لبريطانيا فزى بواخرها « كتيور البر لا تستطيع ابتعادا عن الساحل » .

والمستعمرات سند أكيد للقوة البحرية « فبالمستعمرات — كما يقول — ينفتح امتداد الدولة إلى اراض بعيدة ، نجد فيها سوقا رائجا لتجاريتها ، وعملا أوفر لسكانها ومأوى لأسطولها وموردا وفيرا لرخائها وثروتها » .

استراتيجية للبحر :

كانت أصدااء التاريخ تدوى في أذن ميهان فأوحت له بالفكرة الأساسية في كتابه وهي تأثير القوة البحرية على كيان الدولة ومصيرها تأثيرا يحدد دورها في التاريخ ، وعندما أخذ يقومها ويثبتها كانت أحداث التاريخ دائما أمامه تمده بالبرهان والدليل ، ليخرج منها بالحقيقة التي راح يشر بها ويدعو إليها طيلة حياته وهي أهمية القوة البحرية في بناء عظمة الدولة . وحملته الفكرة على وضع أسس محددة للسيادة البحرية ، كما حملته على استقراء مبادئ للاستراتيجية البحرية يمكن أن تقارن باستراتيجية الحرب أو تقف ندا لها . مادام قد أثبت أن الأسطول لم يعد جزءاً من بناء القوات البرية يسير في ركابها ويعاون في عملياتها الرئيسية ، وأنه بناء مستقل بذاته لا يقل دوره ، إن لم يفق دور القوات البرية ، بل انه ليرى أن القوى البحرية في كل صورها « هي الطريق الملكي المعبد للرخاء القومي ومكانة الدولة بين أقرانها » .

وجاءت أراء ميهان في الاستراتيجية البحرية مبعثرة في مؤلفاته الثلاثة وأخذت تتضح وتتحدد في كتبه الأخيرة .

والواقع أننا لا نستطيع أن نعرض لكتاب « تأثير

القوى البحرية على التاريخ» وحله دون كتب ميهان الأخرى فإنها جميعا تعالج موضوعا واحدا وكأنها كتاب واحد ، وإن ظفر كتابه الأول بالاهتمام فلائنه أجمل فكرته عن القوى البحرية وتبشيره بما لها من أثر حاسم على الأمم ثم كانت كتبه الأخرى تكرر ما جاء في كتابه الأول وإن اختلف الموضوع واختلفت الفترة الزمنية التي يتناولها .

ويبدو - وقد وضع فلسفة للسياسة البحرية . أنه قد شعر بخاجة هذه الفلسفة إلى الارتكاز على مبادئ استراتيجية تكون ندا لاستراتيجية الحروب البرية وقرينا لها فأخذ يجمع شتاتها ويحدد معالمها في دراساته الأخيرة .

واتخذ نظرية «جوميى» (١٧٧٩-١٨٦٩) في الحرب - وقد عاصره في شيخوخته - أساسا لدراساته الاستراتيجية ، فقرأ مؤلفاته . وأبدى اهتماما بكتابه « حملات الثورة والامبراطورية » و « موجز فن الحرب » . واعترف بفضلته حين تعلم منه أن ينظر إلى أحداث التاريخ البحرى كصور « لمبادئ حية » ، وكيف يقوم بنقد تحليل للمعارك والحملات البحرية ، كما عرف من دراسته أن « ليس ثمة حد فاصل بين الاعتبارات الدبلوماسية والعسكرية » .

وقد صاغ جوميى نظريته في الحرب على أسس رئيسية هي :

الموقع - خطوط الاقتراب - المواصلات - الحشد .
وأراد ميهان أن يصوغ مثيلا لتلك المبادئ للاستراتيجية البحرية وتكتيك الأساطيل ووجد فيها ما يصلح للبحار صلاحيته على الأرض ، وإن احتاج بعضها إلى التحوير والتعديل . فوضع بذلك أسس الاستراتيجية البحرية التي تركت لمسائها البارزة على سياسة القوى البحرية الكبرى جميعا ، وخطة كل منها .

وأحسن المواقع في الهجوم أو الدفاع ما تحتل المركز - فعلى البر كما في البحر - تسيطر مثل هذه المواقع المركزية على الخطوط الداخلية والمباشرة للهجوم . فالخطوط الداخلية ماهى إلا امتداد للموقع المركزى . أو اتصال عدة مواقع مركزية بعضها ببعض . وفى قدرة من يسيطر عليها أن يشد قواته على أية جبهة بأسرع مما يشدها العدو وتكون له ميزة الاستخدام الجيد المؤثر . « فالسويس مثلا تقع على خط اقتراب داخلى إذا ما قورنت برأس الرجاء الصالح ، مثلها فى ذلك مثل « بنما » إذا ما قيست « مضيق ماجلان » . وقناة كيبيل » بالنسبة « لسكا جراك »

ويبرهن ميهان على أن القيمة الاستراتيجية للموقع لا تتوقف على اتصاله بخطوط الاقتراب الاستراتيجية فحسب ، وإنما على قوته الذاتية ، وعلى كفايته من الموارد المحلية أو القريبة . فموقع دوفر وموقع جبل طارق يتشابهان إلى حد بعيد فى قربهما من الطرق البحرية ، وفى أنهما موقعان مركزيان يتميزان باشرافهما على طرق مائية ضيقة يعبرها عديد من السفن ، وقد يتفوق موقع منهما فى تحصيناته ، ولكنه يبقى متخلفا مادام يعتمد على موارد نائية كجبل طارق .

ويعنى ميهان بالمواصلات خطوط التحرك بين القوات ومراكز الأمداد . فالمواصلات كما يقول : « هي أعظم العوامل أهمية فى الاستراتيجية عسكرية كانت أو سياسية » و « عظمة القوة البحرية تكمن فى السيطرة عليها » و « القدرة على تأمين المواصلات ، وبالتالي عرققتها فى وجه العدو أقوى وأعظم ما يؤثر على شموخ الأمة » وهو مامتاز به القوى البحرية ، وعليها لهذا وحده أن تحرر من كل ما يعوق قدرتها من حيث العدو أو الموقع » وكلمتا طالت طرق

المواصلات ، كلما مست الحاجة إلى القوة البحرية .
وهو يصبح الموقع المركزي أكثر نفعا كلما كان أقدر
على تأمين طرق المواصلات . وهو ما كان لفرنسا
في حربها ضد اسبانيا والنمسا ، كما كان لانجلترا في
حربها مع فرنسا ، فقد تمكن الأسطول الانجليزي
من حصار السواحل الفرنسية ، كما تمكن من تأمين
المصالح البريطانية من البلطيق إلى مصر .

والحشد — كما يؤكد ميهان — من أبرز مبادئ
الحرب البرية والبحرية على السواء ، وما قيمة الموقع
المركزي إلا أنه يجعل عملية الحشد أكثر كفاية ويسرا ،
فاذا واجه الأسطول قوتين فعليه أن يحتشد ليجهز
على كل منهما منفردا ، وهو مبدأ يتقنه ميهان من
دراسته للمعارك التاريخية ، «فما من معركة إلا وكان
النصر أو كانت الهزيمة نتيجة لما جرى عليه الأخذ
بمبادئ الحرب » .

ويرجع تفوق الأسطول البريطاني إلى سلامة
استراتيجيته البحرية وتفوقها ، فقد اكتشفت الانجليز
منذ أزمنة طويلة أن بعض العمليات البحرية كانت
أكثر نجاحا من غيرها ، ففي الحرب مع هولندا واجه
أسطول شارل الثاني الهزيمة لأنه تجافى مبدأ الحشد
وقسم أسطوله قسمين ، قسم لمواجهة الأسطول الفرنسي
والآخر لمواجهة الأسطول الهولندي في وقت واحد .
وانتهت باحتلال الهولنديين لمدخل نهر التيمز ، ولم
يكن قد مضى غير خمسة عشر عاما حين أغلق
أسطول كرموبل القوى موافء هولندا على تجارها .
وفي الفترة ما بين عام ١٦٨٩ وعام ١٦٩٨ ، سير
الفرنسيون أساطيل عظيمة لاقتسام السيطرة على البحار
مع الانجليز الذين تحملوا من جراء المحاولة خسائر
جسيمة ، وفي خلال حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢—
١٧١٢) انسحب الأسطول الفرنسي من المحيطات ،

بينما ضاعف الفرنسيون من عدد الطرادات المغيرة
على السفن التجارية . وبالرغم مما فقدته الانجليز من
التجارة والتجار والسفن التجارية ، فقد ازدهرت
التجارة الانجليزية ، بينما اختفى التجار الفرنسيون من
البحر . وبدأ أن «حرب التعرض» ليست بديلا موفقا
للعمليات البحرية .

وكانت العمليات البحرية ضد فرنسا في حرب
السنين السبع (١٧٥٦—١٧٦٣) ، دليلا على تطور
الاستراتيجية البريطانية ، ففيها قام الأسطول البريطاني
لأول مرة بحصار «برست» ليحول بين الأسطول
الفرنسي والخروج إلى البحر مالم يشق طريقه بالقتال ،
ففرض الحمود على السلاح الهجومي الوحيد لفرنسا
وهو الأسطول ، وأصبحت عاجزة تماما عن استخدامه
استخداما له قيمته العملية ، بينما أخذت السفن
البريطانية في شن غارات سريعة على الساحل الفرنسي
لتبقى قوات فرنسا البرية مشتتة في الدفاع الساحلي ،
كما حشد الانجليز أسطولا في البحر المتوسط قرب
جبل طارق لمنع أسطول طولون الفرنسي من التحرك
لنجدة الأسطول الفرنسي على الجانب الآخر . وعندما
خلا البحر لهم أرسلوا الحملات للاستيلاء على
المستعمرات الفرنسية في جزر الهند الغربية ، وانهارت
التجارة الفرنسية بينما ازدهرت تجارة الانجليز .

وبانتهاء الحرب أدركت الحكومة الانجليزية أن
السيطرة البحرية هي مفتاح الرخاء والنجاح وبذلك
تحولت « مملكة بريطانيا — كما يقول ميهان — إلى
الإمبراطورية البريطانية » .

ويقارن ميهان بين استراتيجية البحرية الإنجليزية
واستراتيجية البحرية الفرنسية ، مناقشا الخطأ والصواب
في كل منهما ، بما يتمشى ونظريته إلى استراتيجية البحر ،
فيقول إن الاختلاف بينهما يعكس وجهات النظر

المتباينة للغرض الحقيقي من الحرب البحرية ، فإذا كان الغرض تأمين المواقع الساحلية ، كان الأسطول في هذا سلاحاً معاوناً وفرعاً من فروع الجيش ، وكانت تلك هي وجهة النظر الفرنسية ، بالرغم مما قاله « بيغو دي موروجي — Pigot de Moragues — أعظم رجال التكنيك في فرنسا حينذاك ، وأول مدير للكلية البحرية الفرنسية — من أنه « لا يوجد في البحر ميدان للمعركة يمكن الاحتفاظ به ، ولا مكان يجب الاستيلاء عليه » وإن كان التاريخ لا يدع شكاً في أن حروب البحرية الفرنسية كانت حروب « مواقع » وأن عمليات الأسطول كانت جزءاً من عمليات الهجوم والدفاع عن المواقع .

فإذا كان الغرض من القوة البحرية أن تتفوق على بحرية العدو للسيطرة على البحر ، فإن سفنه وأساطيله تغدو وهي الغرض الأصيل للاقتحام في كل الأحوال ، وكانت تلك هي وجهة النظر الانجليزية ، فكان على أسطولهم أن يحطم قوة العدو في البحر ، ويقطع عليه المواصلات إلى ممتلكاته ، وينضب موارده من الثروة التي يجنيها عن طريق التجارة ، ويكون من اليسر عليه أن يغلق عليه موانيه .

ويفسر لنا وجهة النظر الفرنسية ما تكبدته فرنسا في حروبها البرية بالقارة من نفقات - فرأت الاترهقها نفقات القوة البحرية ، وفضلت الطرادات والغارة على السفن التجارية ، وهذا النوع من العمليات ، وهو ما يعرف « بحرب التعرض — Guerre de Course » فضلاً عن قلة نفقاته يحقق الهجوم على التجارة البريطانية مورد القوة والثراء للإنجليز ، إلا أنهم أعملوا الأصل متشبثين بالفرع — كما يقول ميهان — وانصرفوا إلى العارة على تجارة العدو دون القضاء على قوته البحرية . وتاريخ التراع الفرنسي الانجليزي حافل بالأمثلة

التي تبرز أوجه التباين بين الاستراتيجيتين والتكنيك البحري لكل منهما ، فقد كان الفرنسيون يتجنبون القتال ما أمكن ، ولا يخرجون إلى البحر ما لم تضطرهم الظروف ويفضلون أسر السفن الانجليزية بدلاً من تدميرها ، فإذا اضطروا للقتال اختاروا جانب الريح لأن هذا يفرض على العدو « المخاطرة بالهجوم » ويمكنهم من « عرقلة اقترابه » ، بينما يفضل الانجليز اختيار الجانب المضاد للريح حتى يضمنوا دقة التوجيه عند الاقتراب بالتحكم في الدقة دون تأثير للريح ، وكانت « خططهم تقوم على الاقتحام لتحطيم سفن العدو » .

واستطاع الفرنسيون خلال الحروب النابليونية أن يوقعوا بالسفن التجارية الانجليزية لسنوات طوال وبشكل لم يسبق له مثيل ، ولكنهم لم ينجحوا في ارغامهم على التسليم والتفاهم ، وعلى العكس أخذت سيطرة الانجليز البحرية تطرد ، وأصبح ذوو السفن من الموانئ الفرنسية محفوفاً بالخطر فارتفعت نفقات المعيشة في فرنسا ، وازدادت متاعب الحصار القاري ، بينما اتسعت التجارة الانجليزية ، ونمت قوتهم البحرية . وحين أغفل الانجليز حصار الأسطول الفرنسي في « برست » خلال حرب الاستقلال الأمريكية ، ووزعوا قوتهم لحماية المستعمرات ، لم يقتنع الفرنسيون وحلفاؤهم تلك الفرصة للسيطرة على المانش وأنجحوا للسيطرة على المياه الأمريكية ، فكان تسليم « كورنواليس » أمام الأمريكيين والفرنسيين في « يوركتون » وكان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية .

وتقوم عقيدة ميهان الاستراتيجية على السيطرة البحرية التي تتحقق — كما يرى — بحشد القوى القادرة على طرد أساطيل العدو الحربية والتجارية من البحار ، « ولا يتأتى هذا — كما يقول — بالاستيلاء على السفن والقوافل البحرية قلت أو كثرت ، مهما كان خطرها على

موارد الثروة والتجارة ، وإنما يتأتى بامتلاك القوة البحرية الضاربة . التي تزيح أعلام العدو عن البحار ، فلا تخفق إلا فوق صوار أبنة أو شاردة ، والتي تسيطر على أعلى البحار ، فتجتازها التجارة غادية راسحة آمنة من سطوة العدو ، ولن تكون تلك القوة البحرية الضاربة إلا للأساطيل الكبيرة .

« فإذا لم يكن الغرض الكبير للأسطول هو المطاردة أو الهروب ، وكانت السيطرة على البحار ، فإن الطابع المؤثر لمثل هذا الأسطول ، هو قوة العمل الهجومى ، وليس السرعة ، فما من فائدة في الوصول أولاً ما لم تكن من القوة التي تجابه بها العدو عند وصوله » وهذا المبدأ — كما يعتقد — أصدق في البحر منه على البر ، فالمعجز في قوة النيران لا يمكن سده في البحر كما يمكن سده في البر باختيار المواقع الأرضية المناسبة ، وحيث يكون للسرعة جدواها ، وإن لم يكن على حساب قوة النيران ، لذلك أصبحت البوارج ذات المواقع الضخمة عماد الأسطول .

وإذا لم يكن للدولة أسطول قوى فإن أحسن ما تقوم به أن تحتفظ به داخل ميناء حصين لتلقى على العدو عبء حصاره حتى لا ينطلق إلى البحر ، وإن كان هذا لا ينقذه في النهاية من مصيره المحتوم أمام أسطول قوى .

ويخرج ميهان من مناقشته للسياسة البحرية للولايات المتحدة بمبادئ تكمل نظريته الاستراتيجية ، فتراه ينكر أن يعد الأسطول للدفاع فحسب ، وهو خطأ وقعت فيه الولايات المتحدة بسبب الخلط بين الدفاع من الوجهة السياسية والدفاع من الوجهة العسكرية ، فالدفاع من وجهة النظر السياسية يعنى استخدام الأسطول عند الاشتباك في حرب ، ويعنى من وجهة النظر العسكرية أن يقعد حتى يهاجمه العدو فيدافع عن نفسه ، تاركاً للعدو حرية اختيار الوقت وتحديد أسلوب

القتال . وليس من مهمة الأسطول أن يقوم بمثل هذا « الدفاع السلبي » عن السواحل ، فهذا من واجب الجيش ، فإذا قام به الأسطول فلن يكون رجاله المدربون أكثر من حراس للطواني ، وهي من الكثرة بحيث تحول دون حشد القوات البحرية ، فإذا كانت القلاع والطواني هي محور الدفاع الساحلى فإنها بالتالى تحقق للأسطول الأمن حين يلجأ إلى قواعده وموانئه ، وحتى إذا كان الأسطول لأغراض الدفاع فحسب ، فإن عليه أن يزيد من عدد بوارجه نسبياً ليحول بين العدو القادم من مناطق نائية وبين التفكير في الهجوم .

فالغرض الاستراتيجى في نظرية ميهان هو السيطرة على البحر ، والوسيلة هي التفوق في التسليح البحرى ، والقاعدة هي العمل الهجومى .

القنبلة الحارقة :

قد نصف كتابه كما وصفه كاتب معاصر ، بأنه أقوى من أية مادة متفجرة ، وقد نتفق على نعتة « بالقنبلة الحارقة » ، إذا ما أردنا أن نصور فقط ما كان لكتابها من تأثير بالغ في نمو القوى البحرية ، وفيما وصلت إليه قوة الأساطيل الحديثة ذات البوارج الضخمة ، والمدافع البعيدة المدى من عيار الست عشرة بوصة ، فلم يكن ميهان ممن تسوقهم نزع الشر إلى التدمير ، ولم يكن من أصحاب المزاج السوداءى ممن يتشون برؤية الدماء ، ولم يكن حتى من أرباب نظرية الاستعلاء الامبراطورى ، ولكنه رجل وصلت به دراساته إلى حقيقة آمن بها واعتنقها وبشر بها ودعا إليها وهي أن قوة الدولة في قوة بحريتها ، فإذا كانت نظريته في الاستراتيجية البحرية قد حملته على تأييد الاستعمار ، فإنه لم يكن في جوهره استعمارياً ، ولكنه عبر عن حقيقة عصره تعبيراً صادقاً .

وعاش ميهان ليرى دعوته تفرع أسمع الدول

الولايات المتحدة منذ ذلك الوقت قد سارت في الاتجاه الذي رسمه لها ميهان ، فتنبئ صديقه « ثيودور روزفلت » فكرته عن شق قناة بحرية في أمريكا الوسطى تربط الأطلنطي بالباسفيكي عندما تولى الرئاسة ، فإن شق هذه القناة - كما يقول ميهان - عمل استراتيجي جليل بشرط أن نسيطر الولايات المتحدة على كافة خطوط الاقتراب إليها .

وتحولت الولايات المتحدة عن استراتيجية الدفاع الساحلي إلى استراتيجية البحرية على المياه الخارجية للقارة الأمريكية فاستولت على الفلبين وجزر هاواي وبعض المواقع في أرخبيل ساموا وأصبح البحر الكاريبي في قبضتها بعد هزيمة أسبانيا في كوبا ، وسارت في بناء أسطول قوى حتى غدت واحدة من أقوى دول العالم البحرية ، وأخذت تتطلع إلى سيادة البحر حين طالب الرئيس ويلسون الكونجرس عام ١٩١٥ بأن يكون الأسطول الأمريكي على قدم المساواة مع أقوى أسطول في العالم ، ثم كان القانون البحري لعام ١٩١٦ ، بعد أقل من عامين على وفاة ميهان ، فغدت به أقوى دولة بحرية في العالم .

ولقي كتاب « ميهان » في بريطانيا ما لم يلقه في بلاده ذاتها ، فالانجليز أمة بحرية أقامت امبراطوريتها على متن الخضم ، وغدا أسطولها وله السيادة الثامة على البحار ، إلا أن الكتاب صدر في فترة تقدمت الحكومة البريطانية فيها برنامج للتوسع البحري يقوم على قاعدة مساواة الأسطول البريطاني بقوة أقوى أسطولين لأقوى الدول مجتمعين معاً ، وجاء الكتاب مؤيداً لنظرية البحرية على نظرية الجيش في الدفاع الاستراتيجي عن الجزر البريطانية ، إذ كان العسكريون من رجال الجيش يميلون إلى تحصين الشواطئ بالاستحكامات والقلاع ضد الغزو الخارجي . وما أسف الانجليز

كهزيم مدافع الأسطول القوية التي نادى بها ، وتركت آراؤه آثارها البالغة في سياستها البحرية وفي التسليح البحري ، كما كانت مثار النقاش عند الجيوبولتكين ، ابتداء من « ماكيندر » إلى « ستراوزهورني » و « هوسوفر » ، وفتحت ميدان الجدل قوياً في مستقبل القوى البحرية بعد التوسع في مد الخطوط الحديدية وبعد ظهور الطائرة كسلاح مقاتل ، وكوسيلة من وسائل النقل السريع ، وشهد ميهان التوسع القاري في مد الخطوط الحديدية ، ولعله سمع عن مشروع خط حديد الشرق « برلين - بغداد - رأس الخليج » . ولكنه لم يعش ليرى المستقبل الذي خطه الطيران ، ومن الطبيعي ألا يتصور حاملات الطائرات الضخمة كجزء من تسليح الأسطول ، وإن أشار مراراً إلى أن الاستراتيجية تصمد كصخرة صماء لا تتغير بينما يتطور التسليح ويتغير .

ولقد كان ميهان قد وضع الأساس النظري والعمل لقوة الولايات المتحدة البحرية ، فقد كانت دعوته من السعة والشمول حتى غدت نبراساً يهتدى لكل الدول التي تنشئ التفوق البحري ، بل كانت الشعاع الذي اجتذبت به بريطانيا في المحافظة على قوتها البحرية .

ويقال إن تأثيره في سياسة الولايات المتحدة البحرية بدأ حتى قبل أن ينشر كتابه هذا ، ففي تقرير وزير البحرية الأمريكية لعام ١٨٨٩ ما يتضمن الكثير من آراء ميهان التي وردت في محاضراته بكلية نيويورك البحرية وكان قد بدأها قبل ذلك بثلاث سنوات ، وعند دراسة الاحتياجات البحرية للولايات المتحدة بعد ذلك مباشرة ، تقدمت اللجنة التي شكلت لذلك - وقد اعتمدت في تقديرها على آراء ميهان - باقتراح بناء مائتي بارجة حديثة ،

ويمكن أن نقول إن السياسة البحرية التي اختطتها

لشيء « قدر ما أسفوا لأن » أمريكا هو الذي فتح أعين هذا الجيل من الانجليز على ما للقوة البحرية من أهمية وإن عادوا يقولون في نوع من الكبرياء إنه يسرهم أن يعترفوا لميهان بالفضل بصفته الأجنبي الوحيد الذي يحق له « أن يقدم لهم النصيحة في شئونهم الخاصة » . ووصف جلاد ستون كتابه « أثر القوة البحرية على الثورة الفرنسية والامبراطورية » بأنه « كتاب الجيل » ، وأشار « لورد سيد هام » إلى مؤلفاته بقوله : « لقد أصبحت لنا - لأول مرة - فلسفة بحرية تستند إلى التاريخ » .

وبالرغم مما تركه الكتاب من تأثير في نفوس الفرنسيين . حمل أساتذة الاستراتيجية الفرنسية على الاعتراف بتقدمه لاستراتيجيتهم البحرية ، فإنه لم يلقي من تقديرهم ما لقيه من تقدير في البلاد الأخرى ، ولعله قد أثار في نفوسهم ذكرى هزائهم الماضية في البحر ، وفي وصف « الأميرال راؤول كاستكس » الأستاذ بأكاديمية الحرب الفرنسية ، لأسلوب الكتاب بأنه « كريب » ما يصور شعور الفرنسيين حياله ، وإن لم يحل هذا الوصف بين « كاستكس » وبين تقدير الكتاب بقوله : إن هذا لا يقلل إطلاقاً من قيمة الكتاب وإبداعه الحق في ميدان النظرية الاستراتيجية » .

إلا أن الكتاب كان بالنسبة للألمان دستوراً احتلوه ، وساروا على هديه ، وإن أخطأوا في التطبيق الكلي

لنظرية ، وبلغ من تقديرهم له أن الامبراطور الشاب « غليوم الثاني » كتب عام ١٨٩٤ إلى صديق له يقول : « إنني لا أقرأ كتاب ميهان بل التهمه التهاماً وإنني لأحاول الآن أن أحفظه ظهراً لقلب ، فهو من أمهات الكتب العلمية ، تراه في كل سفى ، مرجعاً للقباطنة والضباط في أسطولى يقتبسون منه ويهتدون بهديه » . وإن حالت موارد ألمانيا وطبيعة موقعها الجغرافي بينها وبين التفوق البحري .

واحتفت به اليابان ، فكان الكتاب جزءاً من المهمات التي تصرف لضباط البحرية ، وبلغ بهم الإعجاب بميهان أنهم كانوا يستشيرونه في كل ما يتصل بإنشاء القوة البحرية من بناء السفن إلى العتاد وأنواع التسليح البحري ، ثم عرضوا عليه أن يكون المستشار الرسمي للبحرية اليابانية وإن اعتذر عن المنصب ، فقد ظلوا يهتدون بتعاليمه حتى أصبحت اليابان أعظم قوة بحرية في الشرق الأقصى ومنافساً خطيراً للولايات المتحدة وبريطانيا في البحر » .

ومن المؤكد أن ميهان الذي انتابه القلق ، وهو على فراش الموت عام ١٩١٤ ، من شعوره بأنه كان سبباً في نمو البحرية الألمانية ، كان سيغزو نادماً أكثر منه قلقاً لو قدر له أن يشهد كارثة الأسطول الأمريكي في « بيرل هاربر » على يد اليابان .

جار جستوا وبانتاجرويل لفرانسوارابليه

بمقام
الدكتور كوتر عبد السلام

أحب دراسة اللغات القديمة والتعمق فيها لاسيما اليونانية . وكان لرابليه الكثير من الأصدقاء من الكبراء كانوا يتولون حمايته من حقد رؤسائه وبطشهم . وعلى رأس هؤلاء الأصدقاء الحماة جوفروا ديستيساك الذي كان يمدّه بما يحتاج إليه من كتب ، وأسفار في أبحاثه ويحيطه بالرعاية حتى نهاية حياته .

ومنذ تلك الفترة المبكرة من الحياة العلمية لفرانسوا رابليه بدأ من حوله يدركون أنه أوسع الإخوان الفرنسيين علماً ، ولذا فقد توجس منه رؤساؤه خيفة واستشعروا الخطر من ناحيته فبدأوا يشنون عليه حرباً شعواء منذ حوالي سنة ١٥٢٣ ، ولكنه كان يتغلب على كيدهم له بمعاونة أصدقائه الذين تعهدوا بحمايته ، وبفضل جوفروا ديستيساك سمح البابا لفرانسوا رابليه بأن يلتحق بكنيسة سان نيرا وأن يصبح سكرتيراً لأسقفها . وكان رابليه في هذه الفترة يوان قراءاته المفضلة إلى نفسه ، و يقوم في الوقت نفسه بأداء واجباته الدينية كتلاوة القداس والوعظ والإرشاد .

ولن يلبث رابليه أن يمر في حياته بفترة مضطربة مالت فيها نفسه مع ميوله العلمية على حساب التزاماته

منهج البحث : حياة فرانسوا رابليه - مؤلفاته - فرانسوا رابليه الفنان - فرانسوا رابليه وعلم التريية الحديث - الآراء الدينية لفرانسوا رابليه مع مقتطفات مترجمة من مؤلفاته - لماذا تعتبر مؤلفاته من تراث الإنسانية .

حياة فرانسوا رابليه :

لم يتمكن الباحثون حتى يومنا هذا من تحديد السنة التي ولد فيها فرانسوا رابليه ، إلا أنهم يرجحون أنه ولد سنة ١٤٩٤ . وفرنسا هو الابن الثالث لأنطوان رابليه . وقد ولد في ضيعة أبيه في الدفينين بالقرب من مدينة شينوف . وتضم مؤلفات رابليه الكثير من الذكريات عن هذه الضيعة وهذه المنطقة .

ولقد كانت رغبة أبيه هي أن يكرسه لحياة الرهبنة . ولذا فقد بدأ فرانسوا دراسته الأولى في دير سوي وأتمها في دير « لا بوميت » بالقرب من مدينة أنجي . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره التحق بدير الكرودليه في فونتنييه - لو - كوت ، حيث رسم قسيساً .

وفي هذا الدير لم تلبث أن تكونت جماعة من عشاق البحث العلمي كان على رأسها فرانسوا رابليه الذي

الدينية . فلقد بدأ يدرس الطب محققاً بذلك رغبة كان يكنها في أعماقه من زمن طويل ، وحصل من جامعة مونبلييه على درجات علمية ثلاث في الطب كانت آخرها هي الدكتوراه سنة ١٥٣٧ . وبدأ فعلاً يمارس مهنة الطب في مدينة ليون . وفي سنة ١٥٣٤ قام بأول رحلة له إلى روما لاكتسب ولكن كطبيب . وكانت تلك مناسبة ثمينة بالنسبة له إذ أتيح له حضور جميع استقبالات البابا ، كما تمكن من التغلغل في حياة تلك المدينة والاعتقاد عليها ، وبعد عدة أشهر عاد إلى فرنسا . ويعتقد النقاد أنه ألف كتابه « جارجانتوا » بعد عودته من روما ، وربما كان ذلك في شهر أكتوبر سنة ١٥٣٤ .

ولقد كان للحماس الذي ظهر في كتابه هذا ضد جمود العصور الوسطى وما نشره فيه من نظريات تربوية وسياسية جديدة أثره في أن ينظر إليه المجتمع بعين الريبة والشك . ولذا فقد أثر رابليه الاختفاء من الحياة العامة بعض الوقت . وفي سنة ١٥٣٥ سافر إلى روما للمرة الثانية وانتهاز فرصة وجوده فيها فطلب من البابا أن يصفح عنه بسبب انفصاله عن البندكتان ، كما تمكن من الحصول منه على إذن بالالتحاق بدير سان مور الذي لم يلبث أن أصبح مدنياً خارجاً عن نطاق الكنيسة . وهكذا ألفى رابليه نفسه وقد تحرر من التزاماته كراهب ، واستمر يمارس مهنة الطب في ثياب غير كهنوتية . ثم عاد إلى مونبلييه للحصول على الدكتوراه في الطب سنة ١٥٣٧ كما أسلفنا . وبعد ذلك أخذ يقوم برحلات في وسط وجنوب فرنسا القصد منها الاختفاء عن الأعين حتى لا يضطهد بسبب مؤلفاته . وفي سنة ١٥٤٠ تولى جيللوم دي بيلليه حمايته ، ثم تولاها بعد وفاة هذا الأخير شقيقه رنيه دي بيلليه . وفي سنة ١٥٤٣ استطاع رابليه أن يحصل

من الملك على بعض الامتيازات و لاعادة نشر كتبه ومؤلفاته ، ولم يلبث أن نشر كتابه الثالث .

وحينما مات فرانسوا الأول غادر الكاردينال دي بيلليه البلاد ، لأنه كان من المقربين إلى هذا الملك ، وذهب للإقامة في روما حيث تبعه صديقه الوفي رابليه ، إلا أنه كان يعود إلى فرنسا من حين لآخر . وفي سنة ١٥٥١ أصبح ، بفضل جان دي بيلليه ، راعياً لأبروشية مودون . وكان رابليه يحصل على الغلة المادية لهذه الأبروشية دون أن يقيم فيها ، بل كان يقيم في سان مور بجوار صديقه وحاميه الكاردينال دي بيلليه . وانتهى من كتابة مؤلفه الرابع الذي نشر سنة ١٥٥٢ . ولكن البرلمان لم يلبث أن أمر بإيقافه . ومنذ ذلك العهد فقد الناس كل أثر لفرانسوا رابليه الذي ربما يكون قد توفي سنة ١٥٥٣ أو في بداية سنة ١٥٥٤ ، وظهر مؤلفه الخامس بعد وفاته فيما بين عامي ١٥٦٢ و ١٥٦٤ وما تزال نسبه لرابليه من الأمور المشكوك فيها .

مؤلفات فرانسوا رابليه :

وهكذا نرى أن فرانسوا رابليه قد خلف للإنسانية خمسة مؤلفات :

١ - باننا جرويل :

وأول هذه المؤلفات الخمسة هو « باننا جرويل » الذي نشر سنة ١٥٣٢ تحت اسم مستعار هو الكوفريباس نازيه . وقبل نشر هذا الكتاب كان قد ظهر في مدينة ليون كتاب غفل من ذكر اسم مؤلفه يحكى قصة مغامرات العملاق جارجانتوا . وحظي هذا الكتاب بنجاح كبير في الأوساط الشعبية . وأراد رابليه أن يستفيد من نجاح هذا الكتاب مجهول المؤلف ، وأن يمارس هذا النوع نفسه من كتب المغامرات فنشر مؤلفه الأول هذا « باننا جرويل » . إلا أن الفرق كان شاسعاً بين هدف المؤلف الشعبي الذي لم يكن يقصد

إلا إلى تسلية الطبقات الشعبية من القراء وهدف رابليه الذى أراد أن يجمع بين تسلية القراء بما فى جعبته الواسعة من دعايات استقفاها من قراءاته الكثيرة وبين إفادتهم بالكثير من التفاصيل عن الحياة الواقعية .

وفى هذا الكتاب يتخيل رابليه أسرة من العمالقة حجماً وعقلاً يفكرون بطريقة مختلفة عن طريقة الناس فى العصور الوسطى . وبانتاجرويل هو ابن جارجانتوا . ويأخذ رابليه فى سرد مغامرات هذا العملاق ليبدو فى ظاهر الأمر أنه يسلى قراءه كما فعل الكاتب الشعبى الذى سبقه ، إلا أن جو العمالقة هذا لم يكن فى الواقع إلا غطاء لما يريد التعبير عنه من أفكار جديدة مخالفة أو مناقضة لأفكار الكنيسة والجامعة فى ذلك الوقت . ولقد كان كبار الكتاب والمفكرين يتفنون دائماً فى خلق الوسائل التوجيهية تلك ليتمكنوا من نشر آرائهم وهم فى مأمن من بطش أصحاب السلطة وأولى الأمر كما فعل لافونتين فيما بعد حين اتخذ من دنيا الحيوان فى أقصاويه ستاراً يحتوى به ضد بطش أصحاب السلطة . ونلاحظ أن بعض فصول كتاب «بانتاجرويل» تباعد بعداً تاماً عن جو الدعايات الشعبية وتنشر الأفكار الإنسانية السامية التى حارب بها رابليه جمود العصور الوسطى لا سيما الفصول التى ينتقد فيها « روتين » العلوم القضائية والتى يدافع فيها عن الانجيلية .

٢ - جارجانتوا :

نشر رابليه كتابه الثانى « جارجانتوا » سنة ١٥٣٤ . وكما ذكرنا فيما سبق فقد ظهر هذا الكتاب إثر عودته من رحلته الأولى إلى إيطاليا . وبما أن جارجانتوا هو أبو بانتاجرويل فقد أصبح هذا الكتاب هو الأول بالنسبة للمحنة العمالقة هذه ، بينما اعتبر بانتاجرويل هو الكتاب الثانى .

وخطة هذا الكتاب هى :

(أ) طفولة جارجانتوا ودراسته - صولاته وجولاته فى الحرب - مكافأته لامستصرين بإنشاء كاتدرائية تيلم .

(ب) إذا تركنا جانباً جو العمالقة المفتعل هذا نجد أن الكتاب يصف الحياة الواقعية فى المنطقة التى عاش فيها رابليه وما تقوم عليه من تقاليد وعادات بكل دقة وأمانة ولذا فتعتبر هذه الفصول مرجعاً تاريخياً لحياة الفرنسيين فى هذه الفترة . وهذا الكتاب خاص بالذكريات الشخصية لفرانسوا رابليه نفسه .

(ج) فى هذا الكتاب يذكر رابليه رأيه فى صراحة تامة حول بعض المشكلات العامة كمشكلة التعليم والحرب والفتوحات ، ويهاجم علماء اللاهوت فى السوربون ويهاجم كذلك الرهبان الذين يركنون إلى الكسل والترف ويسدد ضرباته إلى الخرافات الدينية والشعوذة . ومن أهم مميزات هذا الكتاب أن بعض فصوله تحمل دعوة صريحة من المؤلف نحو العودة إلى تعاليم الإنجيل الخالصة وحدها والبعد عن تفسيرات علماء اللاهوت وإضافاتهم الخاطئة .

٣ - الكتاب الثالث :

ظهر هذا الكتاب سنة ١٥٤٦ . وبما يشير الانتباه أنه خلو من أى هجوم على الكنيسة أو الجامعة أو الحكومة ؟ ترى ما السبب فى ذلك ؟ هل تحلى رابليه عن حماسه وعن سياسته ؟ لقد كان ثمة عاملان حملاً رابليه على العدول عن سياسته الهجومية السابقة ، أو على الأقل على التخفيف من حدتها . وأول هذين العاملين أن الملك كان قد أباح سنة ١٥٣٤ للسوربون حرية التصرف ضد كل من يهاجم المعتقدات والأفكار القائمة ، ولذا فقد غادر رابليه مدينة ليون فى فبراير سنة ١٥٣٥ من

باب الاحتياط . وثاني هذين العاملين أن رابليه كان راغباً في التقرب إلى الملك وكسب وده .

وكان رابليه قد شتم موضوعات العمالة جارجانتوا وبانتاجرويل فجعل بطل هذا الكتاب : بانورج . وخطه الكتاب الثالث هي نفسها خطة الكتابين السابقين فهو يدرس الموضوعات الاجتماعية والعلمية والسياسية في قالب من قصص المغامرات . ومن أهم موضوعات هذا الكتاب موضوع الزواج . ويبحث بانورج موضوع الزواج فيقول لنفسه : « تزوج إذن » . ثم يعود فيبحث مضاره فيقول لنفسه : « لا تتزوج إذن أبداً » . ويأخذ في تأمل النجوم وتفسير الأحلام واستشارة العرافات والمنجمين والأطباء فلا يذله أحد من هؤلاء إلى رأى حاسم في هذا الموضوع أو يهديه إلى طريق يضمن له الوصول إلى السعادة . وتدور كل هذه المداولات والاستشارات في جو كوميدي سوف يستلهم منه مولير فيما بعد بعض مواقف تمثلياته الكوميدية . ويقطع بانتاجرويل ، الذي يقوم في هذا الكتاب بدور بعيد عن دور العمالة كما رأيناه في الكتابين السابقين ، يقطع الموضوع بأن يندد بالزواج الذي يتم دون رأى الوالدين ، ويخضع خضوعاً تاماً في هذا الموضوع لرأى والده .

ورغم الاحتياطات التي اتخذها رابليه في هذا الكتاب للتخفيف من حدة هجومه على الكنيسة والجامعة فقد صودر الكتاب كسابقيه واضطر المؤلف إلى الاختفاء في مدينة متر في مارس سنة ١٥٤٦ .

٤ - الكتاب الرابع :

في سنة ١٥٤٨ نشر رابليه أجزاء من الكتاب الرابع عبارة عن أحد عشر فصلاً تتسم بالتروى والبعد عن كل هجوم ضد علماء اللاهوت . وفي سنة ١٥٥٠

حصل من الملك على حق إعادة طبع مؤلفاته وأخذ للأمر أهنته وبدأ العمل . إلا أنه فيما بين عامي ١٥٥١ و ١٥٥٢ اشتد التنافس على السلطة بين البابا يوليوس الثالث والملك هنري الثاني . وأراد رابليه أن يتنهر هذه الفرصة ويهاجم البابوية مخفياً وراء وسائل التعمية المكشوفة التي كان يتفنن في خلقها ، إلا أن تلميحاته كانت تتجه رأساً ضد أطماع البابوات الدنيوية . وقد حدث هذا لسوء الحظ في وقت تم فيه الصلح بين البابا والملك . وهكذا أصدر البرلمان أمراً بمنع تداول هذا الكتاب كما منع من قبل الكتب الثلاثة السابقة .

٥ - الكتاب الخامس :

ظهر هذا الكتاب سنة ١٥٦٤ بعد موت رابليه بعدة سنوات وكما أسلفنا ما زال النقاد يشكون حتى الآن في نسبة هذا الكتاب للمؤلف لأن أسلوبه وطريقته في سرد الأحداث تختلف تماماً عن طريقة رابليه .

ومع ذلك فإن أسلوبه الساخر يبدو من حين لآخر في بعض فقرات من الكتاب بحيث يصعب على الناقد أن يقطع برأى فاصل فيما إذا كان الكتاب للمؤلف نفسه أم لكاتب آخر يتفنن في تقليده . وربما يكون من العسير بل من المستحيل إزالة الغموض المحيط بهذا الموضوع .

فرانسوا رابليه الفنان :

من أهم ما تتميز به مؤلفات فرانسوا رابليه نزعتان : هما التزعة الإنسانية ونزعة حب الطبيعة .

أما نزعة الإنسانية فتتجه إلى تقدير الإنسان ومنحه الثقة المطلقة . إن هذا الإنسان الذي جعلت منه الكنيسة في العصور الوسطى آلة صماء لترديد التعاليم الدينية عن ظهر قلب دون وعى أو إدراك صحيح لروحها الحق ومقصدها السليم ، والذي لم توله هذه الكنيسة أى قسط من الثقة يستطيع أن يصل إلى مستوى رفيع من

كل قيد التي يمنحها رابليه للإنسان موضع جدال بين النقاد ، إلا أن ذلك لا يمنع من إقرار فضل هذا الفيلسوف في أنه أول من أطلق تلك الصيحة التي ردت للإنسان اعتباره وكرامته وحرية بعد أن سلبتها منه العصور الوسطى لمدة طويلة . وهو في ذلك أشبه بني يطلق أول صيحة تدعو إلى طريق الحق في زمن كان الناس فيه يعمهون في ظلمات الضلالة والجهل .

الواقعية في أدب فرانسوا رابليه :

وإذا بحثنا مؤلفات رابليه من الناحية الأدبية وجدنا أنه من أوائل الكتاب الفرنسيين الواقعيين الذين يصفون الواقع بطريقة مجسمة دقيقة حية تجعل القارئ يعيش فيه بكل حواسه لا تخياله فقط ، كما أنه يملك فن إحياء الحوار حتى ليكاد القارئ يراه ويسمعه ويشارك فيه . ولذا فإن كتبه النابضة بالحياة تشد القارئ إليها شداً .

ورابليه كاتب ساخر مازح يعرف كيف يمزج الحد بالهزل والدعابة . ولا بد للقارئ من جانب كبير من اللباقة وسعة الإدراك ليفهم أن الهزل يخفى تحته كثيراً من الحقائق العميقة أو أنه وسيلة للتعمية يقصد بها إخفاء هجوم موجة ضد الحكومة أو الكنيسة أو آراء العصور الوسطى عموماً التي كان يفرضها القصر والسوربون على الناس فرضاً . ولم يكن من العسير اكتشاف ما وراء هذه التعمية وهذا ما جر على المؤلف المتاعب طيلة حياته واضطره إلى أن يحيا حياة مضطربة لا استقرار فيها ، كما أن هذا المزاح والسخرية كثيراً ما كانا يرتفعان إلى درجة الفكاهة العالية . وكم من فصل من مؤلفاته يعتبر فناً من فنون الفكاهة لم يفت مولير أن ينهل منها كما قدمنا . وتعتبر مؤلفاته من هذه الناحية صورة من شخصيته فلقد كان رابليه في حياته يمزج بين الحد والهزل ولذا فقد تناولت الأساطير شخصيته فأحاطتها بكثير من القصص التي ربما ذهب بعضها إلى

الكفاية إذا أحسن تعليمه وثقافته ، ويتخذ رابليه من نفسه مثلاً في هذا المجال . فلقد كان كما رأينا محباً للعلم مشغولاً به لا يكل ولا يمل من التحصيل والقراءة . فالإنسان ينبغي أن يكون غوراً للعلم ، وهو يستطيع أن يصل إلى الحقيقة المعنوية بدراسة أفلاطون وإلى الحقيقة القانونية بدراسة القانون الروماني ، وإلى الحقيقة الدينية بدراسة نصوص الإنجيل عن قرب ، وإلى الحقيقة العلمية بدراسة الطب والفلك والرياضيات والطبيعات . فإذا ما بلغ الإنسان هذا المستوى العلمي الرفيع فقد أصبح إنساناً كاملاً جديراً بالتقدير والثقة التامة .

أما حبه للطبيعة فقد كان كذلك نوعاً من الثورة ضد تعصب الكنيسة وجمودها في العصور الوسطى . فلقد كانت تمارس سلطة قاهرة للإنسان جسماً وروحاً ولذا فقد نادى رابليه بتحرير الجسم والروح معاً ، وساعدته دراسته للطب وممارسته له على الإعجاب بجسم الإنسان ودقة نظامه واعتبر ذلك النظام الدقيق جزءاً من نظام الكون ودقته . ولذا فقد كرس رابليه جانباً كبيراً من مؤلفاته لدراسة الحياة البدنية للإنسان وغذائه ووظائفه الطبيعية ، ونادى بمنح الجسم الحرية التامة في الحركة وتقويته بالرياضة البدنية والعناية بالقواعد الصحية . وجميع الآراء التي يعبر عنها في هذا الصدد تعتبر من أحدث آراء علم الصحة الحديث .

أما من الناحية الروحية فقد نادى رابليه بمنح الإنسان الحرية التامة في التصرف . فقد دلته تجربته الخاصة في نفسه على أن الإنسان خير بطبيعته جدير بكل ثقة . والإنسان العادي إذا منح الحرية التامة أحسن استغلالها دون أي تفریط أو إفراط . إن الطبيعة التي أنجبت الجمال والتناسق لا يمكن أن تكون مصدر شر أو أذى ولذا فالإنسان خير وينبغي منحه الثقة التامة والحرية المطلقة . وربما كانت تلك الثقة المطلقة والحرية الخالصة من

حد المبالغة . وما يذكر عنه دون تأكيد أن آخر كلمة قالها : « اسدلوا الستار » لقد انتهت المهزلة . ثم أطلق ضحكة ساخرة كانت خاتمة حياته .

وما ساعد رابليه على بلوغ هذا المستوى الأدبي هو سعة اطلاعه وأسلوبه الفنى . فهو يملك من الكلمات مالا حصر له ويستطيع أن يجد من الأساليب ما لم يصل إليه غيره ، كما أنه يملك القدرة على خلق كلمات وتعبيرات جديدة . وتعتبر جملة آية فى التناقض والكمال الفنى . إلا أن أسلوبه يختلط بكثير من الكلمات الشعبية التى ربما تهبط إلى مستوى السوق أو إلى حد البذاءة . ولا ينبغي أن نقسو على ذلك اثنان بسبب ذلك فإن أحداً من قراء عصره لم يكن يدهش إذ يرى هذه الكنوز الأدبية والفلسفة تختلط بهذه التعبيرات والألفاظ النابية . ولم تكن تلك الحرية المفرطة فى التعبير تؤذى شعور أحد . ولذا فيجدل بنا أن نؤوها على أنها عادة من عادات العصر . وقد تولت المطابع فى عصرنا هذا نشر مؤلفات هذا الكاتب الكبير بعد أن نقحتنا من هذه الألفاظ وتلك التعبيرات وإن كان معظم النقاد ما زالوا يفضلون نشر النصوص الأصلية على علاقتها . ويرى لابروير ، الكاتب الناقد الفرنسى الذى عاش فى أواخر القرن السابع عشر وصاحب كتاب « الطابع » ، يرى إزاء هذه المتناقضات أن رابليه شخصية من أغرب الشخصيات فهو فى آن واحد عملاق قادر على أن يسحر السوق والغواء كما يعتبر صحناً ممتازاً لأرفع الناس ذوقاً .

رابليه وعلم التربية الحديث :

إذا كانت مؤلفات رابليه قد عاشت حتى الآن وما زالت تقرأ بشغف فذلك لا لأنها تحوى قصصاً مسلية عن حياة العمالقة جارجانتوا وابنه بانثا جرويل ومن حولهما ، وكيف عاشوا وماذا كانوا يأكلون

وكيف وصلوا إلى تثقيف أنفسهم والمحافظة على صحة أبدانهم ، فحسب ، وإنما لأنها تعتبر أول مرجع لعلم التربية الحديث ، كما يعتبر رابليه من الرواد الأوائل لهذا العلم الذى يزداد كل يوم أهمية فى عصرنا هذا . وهو أول من نادى ، فى منهج تعليم العمالق جارجانتوا ثم ابنه بانثا جرويل ، بأن يتم هذا التعليم فى جو من الحرية التامة دون أى إكراه أو ضغط ، كما كان أول من وضع برنامجاً منظماً دقيقاً يسير عليه التلميذ دقيقة بدقيقة فيتم تثقيفه بطريقة كاملة دون أن يشعر هو بأى ملل ولا إجهاد ودون أن تضيق لحظة من وقته هباء . ويتنزه رابليه هذه الفرصة فيسخر من منهج التعليم الذى تبعه هو وأبناء جيله والذى كان يطبق على التلاميذ بالقوة . فقد بدأ جارجانتوا تعليمه على أيدي علماء اللاهوت فتعلم الحروف الأبجدية عن ظهر قلب فى خمس سنوات وثلاثة أشهر ، ثم حفظ بعض كتب متن اللغة والقواعد باللغة اللاتينية فى ثلاثة عشر عاماً وستة أشهر وأربعين . ثم كتاباً آخر فى قواعد اللغة اللاتينية مع بعض الشروح والمثنون فى ثمانية عشر عاماً وأحد عشر شهراً ، واستوعبه تماماً للدرجة أنه كان يستطيع تلاوته عن ظهر قلب تلاوة معكوسة من الآخر إلى الأول . ثم حفظ التاريخ الشعبى فى ستة عشر عاماً وشهرين وأخيراً حفظ طائفة من كتب البلاغة وكتباً أخرى على شاكلتها .

وهكذا يعطينا رابليه فى ذلك القالب التهكمى الساخر فكرة واضحة عن منهج الدراسة الذى كان متبعاً فى عصره . وبعد ذلك يعد للتلميذ جارجانتوا منهجاً آخر صحيحاً سليماً يجعل منه إنساناً صالحاً . ولنفارن فى النصين التاليين بين الطريقة التى كان يسير عليها جارجانتوا فى دراسته على أيدي علماء

اللاهوت ثم الطريقة الصحيحة التي أعدها له مدرسه
بونوقراط الذي يعبر عن آراء رابليه نفسه .

والنص الأول ، وتلك ترجمة له ، يعطينا فكرة
عن الطريقة السقيمة العقيمة التي كان يسير عليها
جارجانتوا واني خلقت منه إنسانا مغروراً تافها :
« لقد أمر بونوقراط في أول الأمر أن يسير جارجانتوا
على الطريقة التي اعتاد عليها ليرى كيف استطاع
أساتذته التقدمي أن يجعلوا منه إنسانا غيبيا وتافها
وجاهلا في كل هذا الوقت الطويل . وعلى ذلك فقد
نظم وقته بحيث يستيقظ ما بين الساعة الثامنة والتاسعة
سواء أكان النهار قد طلع أم لا . هكذا أمر أساتذته
التقدمي مستندين في ذلك إلى قول داود : « من
العبث أن تستيقظ قبل طلوع النهار » (١)

ثم يأخذ يتلوى ويتثنى ويشد أطرافه في فراشه
حتى يساعد أعضاء جسمه على تأدية وظائفها .
ثم يرتدى ملابسه حسب الفصل إلا أنه لا يجد غضاضة
في لبس رداء طويل عريض مبطن بفراء الثعالب .
ثم يمشط شعره بـمشط «ألمان» (٢) بأن يمسك به
بأصابعه الأربعة وإبهامه لأن أساتذته قالوا له إن كل
طريقة أخرى لتمشيط الشعر والاعتسال والنظافة هي
مضیعة لوقته في هذا العالم .

« ثم يأخذ في البصق والتقيء والسعال والصياح
والعطس . وبعد ذلك يتناول إفطاره ليتغلب على
الهواء الفاسد بالأطعمة الآتية : المقلبات والمشويات
وفخذ الخنزير ولحم الخد الحمر والحساء اللدسم

(١) آية الترتيل ١٢٧ استشهد بها رابليه استشهاده حرفياً كما
يقول « لا تقرّبوا الصلاة » ولا يذكر بقية الآية . وتتمتها التي لم
يذكرها رابليه هي : إذا كان الرب لا يبارك جهودك .

(٢) ألمان أستاذ من أساتذة السوربون الذين يمتنعون طريقة
القصر والجمود .

الذي يتناوله الرهبان في السادسة صباحاً . ولما قال له
مدرسه بونوقراط إنه لم يكن ينبغي له أن يفعل كل
ذلك قبل أن يؤدي بعض التمرينات لدى مغادرته
الفراش أجاب جارجانتوا قائلاً :

« ماذا ! ألم أقم بما يكفي من التمرينات ؟ لقد
انثيت ست أو سبع مرات في الفراش قبل أن أنهض .
ألا يكفي ذلك ؟ إن البابا الكسندر كان يفعل ذلك
بناء على نصيحة طبيبه اليهودي ، وإنه عاش حتى
الموت رغم أنف حساده . ولقد عودني أساتذتي
الأوائل على ذلك وقالوا لي إن الإفطار يقوى الذاكرة .
لذا فقد كانوا يبدؤون هم يومهم بالشراب . وإلى
أجد صحتي طيبة جداً وشهيتي في وجبة الغذاء أقوى .
ولقد قال لي الأستاذ توبال (وهو أول الليسانس من
جامعة باريس) إن الفائدة ليست في الجري بسرعة
ولكن في البدء مبكراً ، ولذا فإن صحة الإنسانية
لا تكون بالشراب كثيراً كثيراً كالكلاب وإنما
بالشراب في الصباح . ومن هنا كان هذا البيت
من الشعر :

إن الصبح في الصباح ليس هو السعادة - الشراب
في الصباح أفضل .

« وبعد أن يتناول إفطاره على أتم وجه يذهب إلى
الكنيسة حيث يحضرون له في سلة كبيرة كتاب
تفسير الإنجيل وقد أحيط بلفائف كثيرة فنقل وزنه
بسبب هذه اللفائف حتى أصبح أحد عشر قنطاراً
وستة أرطال قل عن ذلك أو زاد . وهناك يستمع
إلى نحو ستة وعشرين أو ثلاثين قداساً . وفي هذا
الوقت يأتي إليه قارئ الصلوات وقد تعثر في معطف
ثقيل ويخفف عنه التعب بالشراب المضاف إليه
النيذ . وفي الوقت نفسه الذي يشرب فيه يترنم
بكل هذه الصلوات وبدقة لاتسقط معها منه أية

قطرة على الأرض . وحين بهم بالخروج من الكنيسة يحضرون له على عربة يجرها ثور مسبحة القديس كلوديس التي كانت كل حبة فيها في حجم رأس الإنسان فيتلو عليها التسابيح أكثر من ست عشرة مرة وهو يتنزه في الأروقة والحدائق ، ثم يأخذ في الاستذكار نحو نصف ساعة على الأكثر وعينه مستقرتان فوق كتابه ولكن كما يقول الكاتب الساخر (١) روحه في المطبخ .

« ثم يجلس إلى المائدة . ولما كان بطبيعته بطيئا في إثارة شهيته فهو يبدأ وجبته بعدد مضروب في اثني عشر من أفخاذ الخنازير وألسته الثيران المدخنة والبطارخ وغيرها قبل أن يبدأ في تعاطي النيذ . وفي هذا الوقت يأخذ أربعة من القائمين على خدمته بإلقاء الخردل (المستردة) في فمه بالخاروف الواحد تلو الآخر ، ثم يشرب جرعة هائلة من النيذ الأبيض . وبعد ذلك يأكل حسب الموسم اللحم كما تسمح له شهيته ، ثم يكف عن الأكل حينما تبدأ بطنه تؤله . أما الشراب فليس له نهاية ولا قاعدة لأنه يقول إن المرء يكف عن الشراب حينما يرتفع الفلين الذي يتكون منه نعل مداسه إلى نصف قدم » (قصة جارجانتوا الفصل الحادى والعشرين) .

بهذه المبالغات التي يخلقها رابليه في دنيا للعمالقة التي تسود كتابه «جارجانتوا» يقصد كما قلنا إلى مهاجمة منهج التربية الذي طبق عليه والذي كان مازال يطبق في المدارس وفي الجامعة . ثم بعد ذلك يغير يروقراط مربي جارجانتوا منهج التربية المعيب هذا ويرسم منهجا آخر صحيحا سليما كما تبينه لنا الصفحة التالية المترجمة عن الفصل الثالث عشر «لجارجانتوا» .

(١) يقصد به تيرانس في ملهات الحصى .

« وبعد ذلك وضع له خطة للدراسة تكفل له عدم ضياع دقيقة واحدة ، من اليوم . وهكذا كان يقضى كل وقته في الدرس وطلب العلم : كان جارجانتوا يستيقظ في الرابعة صباحا . وبينما كان القائمون على خدمته يدلكون له جسمه كان قارته يتلو عليه بعض صفحات من الكتاب المقدس بصوت جهورى واضح ونطق صحيح سليم جدير بما يقرأ . وقد عهد بذلك إلى تابع شاب من مدينة باشيه (بالقرب من شيفرن حيث ولد رابليه) . ويدعى هذا التابع : أناخبوست (وتعنى باليونانية القاريء) . ومن أغراض هذا الدرس أن يتعلم تبجيل الله وعبادته والصلاة لله مرات عديدة إذ أن هذه القراءة كانت تبين جلاله وأحكامه السديدة الرائعة .

وبعد ذلك يرتدى ملابسه ويمشط شعره ويلبس غطاء رأسه ويتعطر . وفي خلال هذا الوقت تعاد عليه دروس اليوم السابق ، وكان هو نفسه يلقيها عن ظهر قلب ويطبقها على حياته العملية والإنسانية . وكان هذا الدرس يمتد أحيانا ساعتين أو ثلاث ساعات ، ولكن كان عادة يتوقف حينما يتم ارتداء ملابسه ، ثم يأخذ مدرسه في القراءة له لطوال ساعات ثلاث .

« وبعد ذلك يخرج إلى الهواء الطلق وهو يبدى دائما ما يعن له من ملاحظات حول دروسه ، ثم يبدأ في لعب الكرة أو الكرة الثلاثية (التي يلعبها فريق مكون من ثلاثة لاعبين في شكل مثلث) وهكذا يروض جسمه كما سبق له أن راض نفسه . وكانت الحرية المطلقة هي التي تسود اللعب فكانوا يكفون عنه حينما يطيب لهم ذلك ، وكان هذا التوقف يحدث حينما يتصلبون عرقا أو يلدوكمهم التعب . وحينما يفرغون من تخفيف أجسامهم وتدليكها بعناية يغيرون ملابسهم

ويبدأون تزهة لطيفة قبل أن يذهبوا لاستطلاع ما إذا كان الغداء قد أعد . وهناك في انتظار الغداء يأخذون في تزييد بعض مقتطفات من الدرس في وضوح وفصاحة .

وفي هذا الوقت تكون الشهية قد فتحت فيجلسون إلى المائدة طبقا لقواعد آداب الأكل . وفي بداية الوجبة تقرأ بعض القصص المسلية عن المغامرات القديمة يشرب خلالها جارجانتوا النبيذ الفانح للشهية . وبعد ذلك إما أن يواصل القراءة أو يسمرون معاً في مرح حسب ما يترأى لهم . ويكون الحديث في الأشهر الأولى عن طبيعة المواد الغذائية التي تقدم لهم وخصائصها من خبز ونبيذ وماء ملح ولحم وسمك وفاكهة وخضروات وجذور وعن طريقة إعدادها . وكان هذا يؤدي في وقت قصير إلى الإلمام بعلماء اليونان والرومان مثل بلين وأثينيه وذيوسكوريد وجالينوس وأرسطو وغيرهم . وخلال هذا الحديث كثيراً ما يؤتى إليهم على المائدة بكتب العلماء السابقين هؤلاء للتأكد مما يتناقشون فيه . ولقد وعى جارجانتوا في ذاكرته كل ما قيل في هذا الشأن حتى إنه لم يكن ثمة طبيب يعرف نصف ما يعرف . وبعد ذلك يتحدثون فيما قرعوا من دروس الصباح ويختمون الوجبة ببعض مربى السفرجل وينظفون أسنانهم بالسواك ويغسلون أيديهم وأعينهم بالماء النقي ويحمدون الله بأن يوجهوا إليه بعض الترتيبات في مدح عظمته وجلاله وقديسيته .

ثم يأتون بأوراق اللعب لا لمجرد اللهو بل لتعلم آلاف من اللعب ووسائل التسلية الجديدة المبنية كلها على الرياضيات . وهذه الطريقة أحب جارجانتوا علم الأعداد حتى إنه في كل يوم بعد الغداء والعشاء كان يقضى وقته في هذه المتع حتى اعتاد أوراق اللعب

والرياضيات . ولقد وصل علمه في هذه العلوم سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية حدّاً جعل معه أكبر العلماء يعترفون بأنهم بالقياس إليه يعتبرون لا يعرفون إلا الألمانية العويصة .

ولقد اتقن جارجانتوا جميع فروع الرياضيات من هندسة وفلك وموسيقى . وذلك لأنه كان يقضى فترة المضم في اللعب على جميع الآلات الموسيقية والتدريب على الأشكال الهندسية ، بل أنه وصل إلى ممارسة القوانين الفلكية .

نرى من هذا النص أن رابليه قد خط لتلميذه منهاجاً دراسياً منظماً . فهو يبدأ يومه في ساعة مبكرة ويقراءة بعض صفحات من الكتاب المقدس بلهجة صحيحة رصينة تمكنه من التعمق فيه وملء نفسه بالإيمان بجلال الله وقديسيته . ثم يأخذ في تكرار دروس الأمس فيؤدي التكرار إلى أن يحفظها عن ظهر قلب . وبعد ذلك يقضى مع مدرسه بعض ساعات في القراءة والدرس . ولما يدركه التعب يخرج إلى الهواء الطلق لممارسة ماشاء من رياضة فينشط جسمه وذهنه إلا أنه يكف عن ذلك إذا شعر بالتعب أو بعدم الميل إلى الاستمرار في اللعب . ثم يتناول طعامه ويستفيد من الوقت الذي يقضيه أثناء الطعام بأن يتناقش وأستاذه حول تركيب ما يقدم إليه من ألوان الطعام وما تحويه من مواد غذائية وأثرها في الصحة العامة ، ثم يقضى فترة الراحة بعد الغداء في لعب الورق بطريقة جديدة تؤدي إلى توسيع مداركه الرياضية ، وبعد ذلك يستأنف دراسته . وهكذا لا يضيع من وقته طوال اليوم دقيقة واحدة ، وفي الوقت نفسه لا يشعر هو بالتعب أو الملل أو الإجهاد .

وهذه الآراء التربوية كلها ، وإن كانت تبدو لنا اليوم عادية ومكررة ، إلا أنها كانت جديدة كل الجدة

في عصر رابليه بل واعتبرت هجوماً جريئاً على الطريقة المدرسية الكنيسية والجامعية المتبعة في عصره . وأهم هذه الأفكار فكرة الحرية المطلقة التي ينادى بأن تتمتع للطالب . فهو يرى أن الطالب ينبغي أن يدرس في جو من الحرية لا قسر فيه ولا إكراه وأنه لن يستغل هذه الحرية استغلالاً سيئاً أو يسيء التصرف فيها لأنه ، أي رابليه ، يوجه كلامه إلى المترين من الناس . أما الطالب الذي يسيء إدراك معنى هذه الحرية ويفرط في استخدامها فهو إنسان غير مترن وغير عادي التكوين فهو يسقطه من حسابه ولا يقصده بأى حديث . وغنى عن الذكر أن الحرية هي القاعدة التي يعتمد عليها علم التربية الحديث ولذا فيعتبر الفرنسيون رابليه المرجع الأول لعلم التربية .

وهذه أفكار صحيحة سليمة ينبغي أن تكون موضع اهتمام التربويين في العصر الحديث الذين ربما مالوا بعض الشيء إلى إهمال شأن هذا المسجل الحساس وهو الذاكرة . ومن جهة أخرى فإن العلم ، لا سيما في عصرنا هذا لا يني يتسع ويتشعب ، وينبغي للإنسان الراغب في الثقافة الصحيحة الكاملة أن ينهل قدراً معقولاً من هذا العلم الذي لا نهاية له ولذا فإن رابليه لم يكن على ضلال حين رأى أن الإنسان يجب أن يكون غوراً لا ينتهي من العلم . والرأس التي تعد طبقاً لنظرية رابليه التربوية لا يمكن وصفها بأنها محشورة حشراً بالمعلومات . ولذا فليس ثمة تناقض بينه وبين مونتيني في هذا الشأن .

الآراء الدينية لفرانسوا رابليه :

من أهم آراء فرانسوا رابليه التي أثرت تأثيراً مباشراً في أبناء جيله وفي الأجيال التي بعده هي آراؤه الدينية التي كانت تهدف إلى تحرير الدين من استعباد علماء اللاهوت وتخليصه من الخرافات والدجل والتفسيرات الخاطئة المتطرفة . ولذا فقد نادى أولاً بوجوب اللجوء إلى النص الأصلي للكتاب المقدس قبل اللجوء إلى أية تفسيرات من قبل الكنيسة . ثم نادى بإعداد القساوسة والرهبان إعداداً سليماً على أسس جديدة مخالفة تماماً للأسس التي كانت تطبق في إعداد القساوسة والرهبان حتى ذلك العهد . وكما نادى رابليه بالحرية المطلقة في التعليم عموماً فقد نادى بالحرية المطلقة بالنسبة لتعليم القساوسة والرهبان . وهذه الحرية مبنية على نفس فكرته في إعداد المواطن الصالح ، وهي أن الإنسان الطبيعي سليم التفكير إذا منح الحرية كاملة غير منقوصة فإنه يستعملها في غير ما إفراط أو تفريط . ومن بين مظاهر هذه الحرية علم فصل الرهبان عن الراهبات في الأديرة وخلق

أما عن فكرة أن المرء ينبغي أن يكون غوراً للعلم لا يرنوى منه أبداً وأنه يتخذ من نفسه في هذا السبيل مثالا يحتذى ، فيرى بعض النقاد أن رابليه يبالغ في فكرته هذه وأن معاصره المفكر مونتيني كان أبعد منه نظراً حينما نادى بأن يكون هدف التربويين هو خلق رموس حسنة الإعداد لا محشورة حشراً بالمعلومات ، ونجد أنه ليس ثمة تناقض على الإطلاق بين رابليه ومونتيني في هذا الصدد إذ أن رابليه كما رأينا في النص السابق لا يرى الاعتماد المطلق على الذاكرة ولا ينادى بالحفظ عن ظهر قلب ولا يحشو الرأس بما هي رغبة عنه من معلوماته . فالدرس ينبغي أن يكون متعة للدارس وأن يفهمه ويهضمه هضمًا تاماً . أما إذا وصلت الذاكرة إلى حفظه عن ظهر قلب من كثرة تكراره ومناقشته فلا ضير في ذلك . والذاكرة مسجل حساس لا سيما في الصغر وينبغي الاستفادة من طاقتها في تلقين التلميذ ما لا ينبغي أن ينسى من معلومات دون إرهاق أو إجهاد .

ومسيدات الطبقة الراقية زهور الجمال وذوات الوجوه
الملائكية ذوات المظهر النقي العاقل ، وكذلك المسيحيين
الإنجيليين . ثم تسترسل اللافتة قائلة : « ادخلوا حتى
نؤسس هنا العقيدة العميقة التي تفهم بها أعداد الكلمة
المقدسة » . ويفهم من هذه اللافتة إن تصدر المؤلف
هو العودة بالمسيحية إلى نصوصها الأصلية وتخليص
الطبيعة الإنسانية لدى الرهبان من أى كبت ، وهذان
هما الهدفان الرئيسيان لعصر النهضة . ويرى رابليه
أن ذلك ممكن التحقيق إن لم يكن بالنسبة للناس جميعا
فعلى الأقل بالنسبة للصفوة المختارة من ذوى النفوس
الجميلة التي تزداد جمالا وتألقا في جو الحرية المطلقة
هذا . ونسوق فيما يلي ترجمة لجزء مشهور من هذا
الفصل :

« افعل ما شئت »

لقد كانت حياتهم كلها تستخدم لاطبقا للقوانين
والوائح والقواعد بل طبقا لإرادتهم وحريرتهم الخاصة .
فكانوا ينهضون من فراشهم كما يحلو لهم ، ويشربون
ويأكلون ويعملون وينامون حينما تكون لديهم الرغبة
في ذلك . لم يكن أحد يوقفهم ولا أحد يضطربهم
إلى الشرب أو الأكل أو إلى إتيان أى عمل . هكذا
قرر جارجانتوا . وكانت القاعدة السائدة بينهم
هى هذه الكلمة :

افعل ما شئت

ذلك لأن الأحرار من الناس حسنى المولد والثقافة
حينما يعيشون في صحبة الأخيار فإن لهم غريزة طبيعية
وحاسة تدفعهم دائما إلى الأعمال القاضية وتبعدهم عن
المنكر الذى كانوا يسمونه الشرف . وهؤلاء حينما
نرهقهم بالإكراه والعبودية فإننا نبعدهم عن العواطف
النبلية التي تدفعهم نحوها الفضيلة الصريحة ذلك لأننا

حياة مشتركة طبيعية بين الحسنين في داخلها . وكان
من رأيه أن هذا الاختلاط سوف يأتي بأطيب الثمرات
لأنه سوف يخلق بين الحسنين صداقات سليمة متينة
وربما أدى إلى بعض الزيجات السعيدة بين الرهبان
والراهبات . وكانت هذه من أفكاره الجريئة فهو
يرى أن منع الزواج عن القساوسة والرهبان يضطربهم
إلى الخروج عن الطريق الطبيعى والصحيح في الحياة .
ولكى يجسد رابليه لقرائه هذه الأفكار الجريئة ويبين
صحتها في وضوح خلق في الفصل السابع والحسين
من كتابه « جارجانتوا » ديرا أطلق عليه اسم دير
« تيلم » . ومعنى كلمة تيلم باليونانية الإرادة الحرة .
وهذا الدير يختلف تماما عن غيره من الأديرة فهو
غير محاط بأى سور خارجي كما أنه نخلو تماما من أية
أجراس أو ساعات ولا تسير فيه الأمور إلا طبقا
للدوق العام والتفاهم التام بين الأعضاء . وهو يستقبل
النساء من سن العاشرة حتى الخامسة عشرة والرجال
من سن الثانية عشرة حتى الثامنة عشرة . وهو
لايستقبل إلا فتيانا أو فتيات حسنى الخلقة ومن عناصر
طبية وتعليم متين . وفي هذا الدير يحيا الرهبان حياة
مترفة مرفهة خالية من كل قيود . وهذا الدير كما
يصفه رابليه في روايته آية من آيات الفن والجمال
والترف . وغنى عن الذكر أن هذا الترف بعيد كل
البعد عن الدين وكذلك الشرط الخاص بجمال الخلقة
بالنسبة للرهبان ، ولكن رابليه كان في ذلك مسحورا
بترف القصور الملكية وغيرها في عصره .

والقاعدة العامة التي تسير عليها الحياة في هذا
الدير تختلف كما قلنا تماما عن المعتن الذي كان يسود
حياة الأديرة في ذلك الحين . فعلى باب دير تيلم
نجد لافتة تحظر الدخول على المنافقين ورجال القضاء
والمرايين ، ولا يسمح بالدخول إلا « للفرسان النبلاء

نحب دائماً أن نأتي ما يمتع عنا ونتوق دائماً إلى ما يحرم علينا .

وبهذه الحرية يدخلون في تنافس حميد فيحققون ما يرغب أي فرد فيهم في عمله . فإذا قال أحدهم أو لإحداهم « لنشرب » شرب الجميع . وإذا قال أحدهم : « لنلعب » لعب الجميع . وإذا قال أحدهم : « لنخرج إلى الحقول » ذهبوا جميعاً . وإذا تعلق الأمر بالقنص أو الصيد ذهبت السيدات وهن بمتطيات ظهور فرسات جميلات مطهومات ، وقد ارتدين الملابس الفاخرة والقفايزات الجميلة وأمسكت كل منهن بطير صغير من طيور الصيد . أما الرجال فيحملون بقية الطيور .

ولقد حصلوا جميعاً على ثقافة متينة نبيلة حتى إن لم يكن بينهم من لا يقرأ ويكتب ويفني ويلعب على الآلات الموسيقية ويتحدث خمس أو ست لغات ويكتبها نثراً وشعراً . ولم ير الناس من قبل فرساناً أكثر تقوى من هؤلاء ولا أكثر فناً في معاملة النساء . أو مهارة في كل ما يؤتي على الأقدام أو على صهوة الخيل ولا أكثر قوة وحركة ومهارة في استخدام السلاح من هؤلاء ، كما لم ير الناس من قبل سيدات أكثر أناقة ومهارة في الفنون النسوية ولا أكثر أدباً

وحرية من هؤلاء السيدات . ولهذا السبب فعندما كان يحين الوقت لأحد منهم لمغادرة الدير سواء بناء على طلب أهله أو لسبب آخر فإنه كان يصطحب معه من تكون من السيدات قد اختارته إعجاباً بتقواه وبزوجان . وكما عاشا حياة طيبة في تليم في جو من التقوى والصداقة فإنهما كانا يواصلان تلك الحياة في عش الزواج . وكانا يظنان متحايين حتى آخر أيامهما كما لو كانا في أول يوم من أيام الزواج .

وهكذا نرى أن فرانسوا رابليه قد نادى بالحرية التامة للربان والراهبات وإباحة الزواج بينهما وإعدادهما إعداداً سليماً وتعليمهما كل ما يتعلمه الناس خارج الأديرة من علوم دنيوية فضلاً عن العلوم الدينية .

لماذا تعتبر مؤلفات فرانسوا رابليه من التراث الانساني ؟

يتبين من هذا البحث أهمية مؤلفات فرانسوا رابليه ، وقصة جارجانتوا وبانتا جرويل بصفة خاصة بالنسبة للتراث الانساني . فهي تعتبر أصل علم التربية الحديث والداعية للكثير من الأفكار الإنسانية التحررية التي يدين بها المجتمع الانساني الحديث مثل فرانسوا رابليه من كبار المفكرين ورواد التقدم البشري .



سيرة الأميرة ذات الهمّة

بمّسلم
الدكتورة نبيلة إبراهيم

أولا والترك بعد ذلك . تفرض نفسها شيئا فشيئا على العصر العربي الأصيل . كما كان الحكام العباسيون يساعدونهم بدورهم في تثبيت أقدامهم في المجتمع العربي . أما العرب فقد أهمل أمرهم ، وظلوا يقبعون في ديارهم في البادية ويعيشون حياة تقرب كثيرا من حياة الجاهلية . على أن العرب لم يكونوا غافلين عن هذا التغير الجوهري في حياة الأمة العربية ومدى خطورته عليها : ولم يكن في وسعهم سوى أن يؤكدوا وجودهم في زحمة هذه الحوادث . وذلك عن طريق مساهمتهم فيها طوعاً واختياراً . كما تزحّت بعض القبائل العربية من موطنها في الصحراء خوفاً من انطماس تاريخها . واستوطنت مناطق أكثر تأثراً بحوادث العصر . وليس في وسعنا أن نعدد هذه القبائل . وإنما يهمنا أن نشير إلى قبيلة بني كلاب . لأن السيرة تحكي عن تاريخها وكفاحها . فقد هجرت قبيلة بني كلاب من موطنها في الصحراء . واستوطنت منطقة من أهم المناطق التي ساهمت في كفاح الأمة الإسلامية وهي منطقة الثغور الشامية التي كانت تقع بين الدولة العربية والدولة البيزنطية . وقد اختارت

لا يكاد يخلو تاريخ أمة من الأمم من عصر أطلق عليه الباحثون اسم «العصر البطولي» . ويتسم هذا العصر بمخاضات محددة لخصها شادفيك في كتابه «العصر البطولي» بعد استقصاء ودراسة شاملة للأدب البطولي في العالم بأسره فيما يلي : (أولاً: تقع الطائفة نصف المتحضرة من الشعب تحت تأثير الطائفة الأخرى المتحضرة . ثم ما تلبث الطائفة الأولى أن تشعر بكيانها وتطمح في السيطرة على الطائفة الأخرى .

ثانياً : تبدأ الطائفة نصف المتحضرة في تحقيق كيانها عن طريق الهجرة من موطنها الأصلي إلى مكان آخر .

ثالثاً : تتركز هذه الطائفة من الشعب بعد ذلك على تخليد ماضيها والفخر بحاضرها عن طريق أدبها البطولي .

وإذا نحن حاولنا أن نطبق هذه الخصائص على تاريخ الأمة العربية . فإننا نلاحظ أنها عاشت العصر البطولي في زمن من الأزمنة التي مرت بها . وربما بدأ هذا العصر مع العصر العباسي الأول أو قبل ذلك بقليل . ففي هذا العصر بدأت العناصر الغربية — الفرس

القبيلة هذه المنطقة بعينها لأنها كانت منطقة الصراع بين الأمة الإسلامية من ناحية والدولة البيزنطية من ناحية أخرى . وبعبارة أخرى كانت منطقة الصراع بين الدين الإسلامي والدين المسيحي ، وكان لابد لهذا الصراع من أن يحسم الموقف ، فلما النصر للدولة العربية والدين الإسلامي أو للدولة البيزنطية والدين المسيحي . وعلى ذلك فقد خرجت أسرة بني كلاب من موطنها القديم مدفوعة بدافعين نفسيين : أولاً : رغبتها في تأكيد وجودها في المجتمع الإسلامي الجديد . وثانياً : المساهمة في صنع تاريخ الدولة الإسلامية في وقت أوشك كيانها فيه على الانهيار . واستقرت أسرة بني كلاب في ملطية عاصمة الثغور . وهناك كونت جيشاً يعمل مستقلاً ومتطوعاً في سبيل نصرة الإسلام . هذا ما يذكره القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» . وربما كانت إشارة صبح الأعشى على إيجازها هي الخيط الأول الذي يربطنا إلى ربط سيرة الأميرة ذات الهمّة بالتاريخ . فهو يقول : «ومن بني عامر ابن صعصعة بنو كلاب : وهم بنو كلاب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة .. وكان لهم في الإسلام دولة بالهامة ، وكانت ديارهم حمى ضرية وهو حمى كليب ، وحمى الربرة في جهات المدينة النبوية ، وفدك ، والحوالي . ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشام فكان لهم في الجزيرة الفراتية صيت وملكوا حلب ونواجعها وكثيراً من مدن الشام . وذكر في مسالك الأبصار : أنهم ينتسبون إلى عبد الوهاب المذكور في سيرة البطال » .

ثم يقول بعد ذلك : « ولهم غارات عظيمة على بلاد الروم وأبناء الروم وبناتهم لا يزالون يبايعون من سبائهم . » (١)

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٤٠ (ط) .
وزارة الثقافة والإرشاد .

ومعنى هذا أن سيرة « الأميرة ذات الهمّة وولدها عبد الوهاب » قد نشأت تخليداً لتاريخ أسرة بني كلاب . ولعل هذا يحدد لنا زمان نشأة السيرة ومكانها . فزمان نشأتها يتحدد بتاريخ كفاح هذه الأسرة . وتحده السيرة بعصر عبد الملك بن مروان ، كما يتحدد مكان نشأتها بالمكان الذي استوطنت فيه الأسرة ساعة وراء الكفاح : أي أنها نشأت ببلاد الشام . ويؤكد لنا هذا أن أسلوب السيرة الذي يقرب من الفصحى كثيراً ما يختلط بلهجة الشام وعاميتها ، كما تقابلنا في السيرة بعض الألفاظ والعبارات اليونانية مثل عبارة « كريباً إليسون » وتعني « اللهم رحمتك » ، ومثل عبارة « لورك لورك » أي الأمان ، الأمان . وقد عرف سكان الثغور هذه العبارات نتيجة اختلاطهم بالروم .

ويمكننا بعد ذلك أن نقدم موجزاً للسيرة حتى تتمكن من بحث حوادثها في ضوء التاريخ ، ثم نفرغ من ذلك إلى البحث عن هدفها بوصفها عملاً أدبياً وعن خصائصها بوصفها عملاً شعبياً .

في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، ذاع صيت الحارث الكلابي بوصفه زعيماً لأسرة بني كلاب ، كما ذاع صيت مروان بن المهيم بوصفه زعيماً لأسرة بني سليم . ولما مات الحارث فرح العرب بموته لأنه كثيراً ما كان يزعجها بغاراته . أما زوجته التي كانت على وشك ولادة طفلها ، فقد قررت أن تهرب خوفاً من انتقام أعداء زوجها منها أو من طفلها ، فخرجت تحت جنح الليل مصطحبة معها خادمها «سلام» الذي كانت تثق في إخلاصه وأمانته ، ولكن ما إن خلاهما الطريق حتى أراد بها الخادم سوءاً . فدافعت المرأة عن نفسها دفاعاً أدى بها إلى ولادة طفلها وإلى وفاتها في الوقت نفسه . ولكنها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، طلبت من خادمها أن يرعى طفلها ، وأن يعلق على صدره تيممة

أعطتها له . ولما رأى الخادم الأم وهي مضرجة في دماها ، ترك الطفل بعد أن علق التيممة في صدره ، وولى هارباً . في هذا الوقت ، خرج الأمير دارم يطلب الفرجة لنفسه من هم يلقه ، إذ كان له ولد توفي في ذلك اليوم ، وقاده الطريق إلى المرأة المضرجة في دماها ، وبجانها طفلها يصرخ ، فأشفق على الطفل ، وأخذته ليربيه عوضاً عن ابنه المتوفى ، كما أطلق عليه اسمه وهو جندبة . ولما نسب جندبة عن الطوق ، ظهرت عليه أمارات البطولة التي ورثها عن أبيه . فخشى الأمير دارم منه وقرر أن يطلعه على حقيقة نسبه حتى يفارقه ، وكان دارم قد عرف ذلك من التيممة التي وجدها معلقة بصدر جندبة ، وسعد جندبة لسماح هذا الخبر ، وهب من فورهِ راحلاً إلى قومه بني كلاب ، ليقيم بطلاً محارباً بين صفوفهم ، وكانت مهمة جندبة تنحصر في الدفاع عن قبيلته ضد القبائل المعادية لها وبخاصة قبيلة بني سليم التي كانت تسعى إلى تصدّر الرعامة بين القبائل العربية بدلاً من قبيلة بني كلاب ، ولكن الأيام لم تمهل جندبة فتوفى تاركاً أخاه عطافاً ليقوم بدوره في الرعامة . ولم يمض وقت طويل على وفاة جندبة ، حتى ولدت زوجته ولداً سمي الصحصاح . وفي الوقت نفسه ولدت لعطاف ابنة سماها ليلى ، وثرى الصحصاح وليلى في بيت واحد . فلما كبرا دب الحب في قلوبهما وعزم الصحصاح على الزواج من ليلى ، ولكن عطافاً الذي كان يكن الكره للصحصاح وضع العقبات في سبيل إتمام هذا الزواج ، فقد تحمى على الصحصاح أن يقدم مهراً بالغاً لم يكن يملك منه شيئاً ، ولم يضعف هذا من عزم الصحصاح الذي قرر أن يقوم بمغامرات بطولية حتى يحصل على المهر المطلوب . وفي أثناء مغامراته ، بلغه أن مروة بنت الخليفة تتعرض لخطر بالغ من جراء هجوم بعض

الأعراب عليها ، فهم الصحصاح بإنقاذها واصطحبها إلى بيتها حتى لا تتعرض لخطر آخر . وهناك تقابل الصحصاح مع الخليفة الذي شكر له مروته وشهامته . ثم استعد الصحصاح للرحيل إلى ليلى عملاً بالهدايا من قبل الخليفة ، ولكنه لم يكدر يفعل هذا حتى استوفته الخليفة وطلب منه أن يصطحب مسلمة بن عبد الملك في حربه ضد الروم ، ونفذ الصحصاح ما أمر به ، استطاع بمصاحبة مسلمة أن يقضى على جيش الروم عند ديار بكر . وسعد الخليفة بهذه الأنباء التي شجعتَه على أن يأمر مسلمة والصحصاح باستئناف السير إلى القسطنطينية والعمل على إسقاطها ، ولكن المدينة الحصينة لم تسقط ، بل صمدت في إصرار . ولما طال زمن حصار المسلمين لها ، ابتنوا مدينة مواجهة لها ليستقروا فيها وسموها « المستجدة » . ولما بلغ الضيق بالروم أشده نتيجة هذا الحصار ، استقر رأيهم على استخدام الحيلة ، فقد اقترح أحد أباطهم ، وكان داهية ، أن يوضع في صندوق مقفل تحمله قافلة تترى بزي الأعراب ، وتسير به حتى تصل إلى جيش المسلمين المحاصر للمدينة . وهناك تتدعى القافلة أنها عثرت على هذا الرجل المسكين تعذبه جموع الرهبان لأنه يعترف بدين محمد . فأسرعت في اختطافه ووضعته في هذا الصندوق المغلق حتى لا يكتشف أمره ، وتمت الحيلة على المسلمين . فلما ركنوا إلى هذا الرجل الداهية ، استطاع أن يقتل بمعونة رجاله حشداً من جيش المسلمين ومع هذا فقد ظل الجيش الإسلامي مستقراً في مدينة المستجدة حتى وقع الملك ليون مع الخليفة اتفاقية الهدنة بوقف القتال .

ثم توفى الصحصاح تاركاً ولدين له . وقبل ولادتهما رأى في منامه رؤية تنبئ أنه سيرزق بولدين ، وأن الابن الأكبر سوف يوقع الظلم بأخيه الأصغر . فلما

ولد له الولدان سمي ابنه الأكبر وفقاً للنسب ظالماً ،
 « الأصغر مظلوماً » . ثم تحققت النبوة كاملة بعد موت
 الأب ، إذ وقع الابن الأصغر تحت وطأة ظلم أخيه .
 واستعان مظلوم بقبيلته لتحكم بينه وبين أخيه . فقررت
 القبيلة أن تكون الرحمة قسماً بين الولدين وبين أبنائهما
 من بعدهما إن كانوا ذكوراً . ثم ولد لظالم ولد سماه
 الحارث ، أما مظلوم فقد رزق بابنة سماها فاطمة .
 أما ظالم فقد شعر بالزهو وأخذ يستقصي خير ولادة
 لطفل أخيه . ثم وصلته الأنباء بأن أخاه ولد له ولد
 مات في حينه ، فقد حرص مظلوم على إخفاء أمر
 ولادة ابنته فاطمة ، وبالحق في هذا الإخفاء بأن سلمها إلى
 مرضعة لكي تنمي بها . وسرعان ما كبرت فاطمة وأخذت
 تظهر عليها أمارات البطولة النادرة إلى درجة أن أطلق
 عليها لقب « ذات الهمة » . ثم توالي الأحداث وتكشف
 الحقيقة لذات الهمة وتعرف قصة حياتها فتمتلئ غيظاً
 من عمها ظالم وتكن له الانتقام .

هنا تدخل ذات الهمة في مرحلة جديدة من حياتها .
 فقد شاء ابن عمها الحارث بن ظالم أن يتزوج بها ،
 إذ كان يحبها حقيقة . أما أبوه ظالم فقد رحب بهذا
 الزواج أيما ترحيب لعدة أسباب تسوقها على لسانه
 قال : « وقد عازمت على أن أزوجه بها لوجهين :
 الأول : لخصاها ، والثاني : أنها إذا صارت له انكسرت
 حرمتها وقل نشاطها وذهبت قوتها وبانكسارها
 نحن نبلى من أبيها سائر الأغراض » . (١)

ولكن ذات الهمة وجدت ذلك فرصة سانحة لكي
 تنتقم من عمها ومن ابنه معاً . فأعلنت رفضها الزواج
 من ابن عمها . كما أشاعت أنها لن تتزوج من أي رجل
 آخر لأنها وهبت نفسها للدفاع عن الإسلام والأمة

(١) سيرة الأميرة ذات الهمة وابنها عبد الوهاب ج ٦

ص ٢٣ (ط. عبد الحميد حنن) .

الإسلامية . ولم يأبه الحارث لإصرارها واستطاع بمعونة
 أفراد قبيلته أن يعقد قرانه على ذات الهمة ، ومع ذلك
 فقد عازمت ألا تدخل به . فاضطر الحارث لإزاء هذا
 الإصرار أن يستخدم الحيلة لدخول بها ، فقد استطاع
 عن طريق الحيلة أن يسقيها البنج ويفقدوها وعيها ،
 وتمكن بذلك من الزواج بها . على أن ذلك لم يدفع ذات
 الهمة إلى الاستسلام ، بل لأنها على العكس ازدادت
 كرهاً لابن عمها وعازمت على هجره على الرغم من
 أنها كانت قد حملت منه . فانتظرت حتى ولدت ابنها
 عبد الوهاب وقررت أن تتزوج به إلى منطقة الثغور
 حتى يشب في ظل الجهاد . ولكن ابن عمها لم يتركها ترحل
 دون أن يسيء إليها ، فقد أشاع أن الولد الذي ولدته
 ذات الهمة لا يتنسب إليه ، واستند في ذلك إلى أن الطفل
 لونه أسود مخالفاً في ذلك لون أبيه ولون أمه . عندئذ
 أرجأت ذات الهمة سفرها حتى تدفع عن نفسها هذه
 التهمة ، وقد تكبدت في سبيل ذلك أقصى المشقات ،
 إذ لعبت التوازع البشرية دوراً كبيراً مما زاد من
 تعقيد الأمر ، فمن راعب في الزواج منها ويرحب
 بطلاقها من الحارث ، ولذلك فهو يتحمس لتبرئتها ،
 ومن دنى النفس يسعد بالرشوة فيتخالف مع الحارث
 في سبيل إدانتها . على أن ذات الهمة تركت شهادات
 البشر العاديين ولجأت إلى أهل الكهانة والعرافة الذين
 أعلنوا براءتها . وعند ذاك تأهبت ذات الهمة للدخول
 في طور كفاح جديد يؤهلها للوصول إلى الشخصية
 الكاملة ، شخصية البطل المروق الذي يود كل فرد من
 أفراد الشعب أن يصل إليه . وتبدأ ذات الهمة هذه
 المرحلة باستقرارها في منطقة الثغور ، المنطقة التي
 يتجسد فيها الصراع بين العرب والبيزنطيين أو بعبارة
 أخرى بين الإسلام والمسيحية .

في هذا الوقت انتقلت الخلافة من بني أمية إلى بني

العباس . ولما تولى المنصور الحكم ، سعى إليه بنو سليم يكيّدون لبني كلاب . ووجد كلامهم أذنأ صاغية عند المنصور ، فأرسل إلى بني كلاب كتاباً يأمرهم فيه بالخضوع لسلطانه . وغضب بنو كلاب من الرسالة وقال أحد شيوخهم للنجاب : « يا شيخ ما الذى كان بيننا وبين المنصور حتى إنه عزلنا عن الملك ، وإنما كان أبونا محباً لبني أمية . وقد هلك الجميع وصاروا في القبور ، فارجع إلى صاحبك وقل له عرب البر لا يدخلون تحت طاعتك ، ومن جاء إلينا كانت سيوفنا إليه أقرب من كلامه . » (١) ولكن ذات الهمّة بما لها من لباقة وكياسة استطاعت أن تسوى الخلاف حتى لا تغضب الحاكم ، الأمر الذى قد يعوقها عن تحقيق هدفها . فقالت لعمها : « يا عماء لقد بالغت في الخطأ ، لما أن كان الأمر لبني أمية كنت في حقهم مليح ، ولما أن رجع الأمر لأهله عدلت عن الصحيح . والصواب أن تنهض بقومك وتسير إليه (أى إلى الخليفة) وتعذر فيما جرى منك ، وتعرض نفسك عليه وعلى خدمته لأن لك في ذلك الشرف . » (٢)

وبهذا مهدت ذات الهمّة لعلاقة طيبة بين قبيلتها وخلفاء بني العباس . كما أنها تمكنت من توحيد صفوف جيشها بخاصة بعد أن قتل عمها ظالم وولده الحارث في إحدى المعارك العربية الرومية . وعلى هذا الحال استقرت ذات الهمّة مترعة قبيلتها في منطقة الثغور وفي ملطية على وجه التحديد واستعدت لأداء رسالتها الكبرى وهى القضاء على العدو الخارجى الذى طالما تهدد حدود الدولة الإسلامية وكان يطمح في القضاء على الإسلام قضاء مبرماً .

وربما كان تحقيق هذا الأمر يسيراً على ذات الهمّة

(١) السيرة ج ٦٠ ص ٥٤ .

(٢) السيرة ص ٥٥٦٠ .

وجيشها لو أن جيوش الأمة الإسلامية بأسرها : المتطوعة منها والتابعة للدولة ، كانت متكاتفة . ولكن الأمر لم يكن يخلو من نفاق ومن حرص على المصالح الشخصية . أما النفاق فقد تجسد في عقبة السليمى أحد أفراد قبيلة بني سليم . وتحكى السيرة أن أمه رأت رؤيا غريبة قبل ولادته ، فلبّأت إلى الحكماء لكي يفسروا لها الرؤيا ، فقالوا لها : « يأتيك ولد شرانى يلقى الفتن بين الناس من النساء والرجال ، ويكون سفاك الدماء ، كثير الحيل والزنا مفسداً في الدين عاصياً لرب العالمين . » (١)

وولد عقبة وأصبح ذات يوم قاضياً متفهماً في أمور الدين الإسلامى . ولم تكن هذه الوظيفة المبهجة في الحقيقة سوى الدرع التى يتخفى وراءها عقبة ويحتمى بها ، فقد كان في الداخل يتواطىء مع المغرضين الذين يرغبون في الوصول إلى الحكم . وأما في الخارج فكان جاسوساً يعمل لحساب الدولة البيزنطية . ويمكننا أن ننصور مدى خطورة مثل هذا الرجل على الدولة الإسلامية لولا عين بني كلاب الساهرة على مصلحة الأمة العربية . فقد أخذت أسرة بني كلاب على عاتقها أن تحارب عقبة : أى تحارب النفاق في الوقت الذى كانت تحارب فيه العدو الخارجى المتربص بالدولة . كما أنها كانت تكشف عن أعماله التخريبية واطلع عليها الخلفاء أولاً بأول . ومع ذلك فإن الخلفاء كثيراً ما كانوا يتشككون في ادعاءات قبيلة بني كلاب ويرون أنها كانت من قبيل الافتراء ، حيث أن القاضى كان يبدو تقياً ورعاً من ناحية ، ولأنهم كانوا يودون الاحتفاظ بصداقة أسرة بني سليم التى ينتمى إليها عقبة من ناحية أخرى .

على أن هذا لم يضعف من عزيمة بني كلاب في

(١) السيرة ج ٧ ص ٨ .

محاربة عقبة . وقد كان في وسعهم أن يقتلوه ويريجوا الأمة من شره ، إذ أنه كثيراً ما كان يقع في أيديهم متلبساً بجرائمه ، ولكنهم لم يقدّموا على فعل ذلك لأن عبد الوهاب رأى النبي في رؤيا له وأخبره بأن عقبة سيتم قتله على يد أسرة بني كلاب بعد أن يتم النصر للمسلمين ويفتحوا أبواب القسطنطينية . حينئذ يصاب عقبة على باب الذهب أكبر أبواب مدينة القسطنطينية ، ويقف المسلمون المنتصرون ليشهدوا مصرع التناق . « فلما سمع الأمير عبد الوهاب ذلك ، أصبح وأعاد المنام على جميع الناس وأوصى كل من وقع به (أي : بعبقة) لا يقتله حتى يصح المنام عن النبي (ص) لأنه قال عليه السلام : من رأى فقد رأى حقاً لأن الشيطان لا يتمثل بي » (١) .

هذه النبوة وغيرها كانت أكبر دافع للمسلمين على الكفاح في صبر وعزيمة . فإذا كان الخلفاء قد اعتادوا على مناوئتهم طوراً ومصالحتهم طوراً آخر بسبب عقبة وأسرته ، فإن النبي الذي يطلع على الحقيقة كان مناصرهم على الدوام . وإذا كان جيش بني كلاب قد انشق على نفسه بعد رفض ذات الهمّة الزواج من ابن عمها إلى درجة أن انضم ظالم وابنه الحارث إلى الطائفة المرتدة المناصرة لأعداء البلاد ، فإن الله قد كفاهم شر ظالم وابنه بعد أن قتلا في إحدى المعارك . فإذا أضفنا إلى ذلك انضمام البطل الجريء المخلص محمد البطال إلى جيش بني كلاب ، يمكننا أن نقول إن الظروف أصبحت مهيأة للجيش العربي لخوض معركة النصر .

وقصة انضمام البطال إلى صفوف المحاربين قصة غريبة بعض الشيء . فقد ولد كسولاً وجباناً للغاية . كان « يفزع من الماء إذا سروا من الثور إذا هر ، وكلما

زقزق الفأر في الدار يهرب في ثياب أمه ... ومن جملة كسله أنه إذا كان نصفه في الظل والنصف الآخر في الشمس وهو نائم يكسل أن يزحف من الشمس إلى الظل . » (١) وذات يوم بينما كان جالساً بمفرده تحت ظل شجرة ، هوى سيف من السماء مندفعاً بقوة . إلى باطن الأرض . وأصيب البطال بفزع شديد حتى كاد يغشى عليه . فلما حاول أن يجتذب السيف ، وجدته قد نفذ إلى بطن ثعبان مهول وقضى عليه . فما كان من البطال إلا أن قال : « الله أكبر بان الحق وظهر ، وأزال الله الخوف والحذر ... فلا مفر من الموت ، ولا مهرب من القوت ... ثم إنه في ذلك الوقت هاجت به السريرة الخفية التي أودعها فيه رب البرية وعصفت في رأسه نحوه العرب ، ونزل من على تلك الراية وجذب الحسام وحمل في أوائل القوم . » (٢)

ولم يشأ محمد البطال أن يحارب في صفوف قبيلته بني سليم ، وإنما حارب في صفوف بني كلاب ، إذ رآهم أكثر استبسالا في سبيل الدفاع عن الدين الإسلامي .

على أن البطال لم يبرز في القتال كما برزت ذات الهمّة وابنها عبد الوهاب ، وإنما كان متفتناً في أساليب الحيل . وقد عبر هو عن ذلك فقال : « أنا ما صناعتى الحرب والطعن والضرب ، وإنما صناعتى في الحيل والخداع في حصن أو قلعة . » (٣)

وقد ساعد البطال في حيلة عاملان : معرفته بلغة الروم أي اللغة اليونانية ، ثم مقدورته على التنكر في أشكال عدة . ولم يستطع الروم رغم حرصهم البالغ منه أن يكشفوا أمره ، فاضطروا إلى تعليق صورته في الكنائس والأديرة حتى لا تتم خديعته على الناس . وقد

(١) السيرة ج ٧ ص ٧١ .

(٢) السيرة ج ٨ ص ٢ .

(٣) السيرة ج ٢٦ ص ٢١ .

(١) السيرة ج ٢٦ ص ٤٠ .

وصفه أحد الروم بقوله : « هذا البلاء النازل ، هذا الموت العاجل ، هذا البلاء الكامل ، هذا مفتت الأكياد الذى تذلل من حيله ومكره الأسود ، هذا الثعبان الأغبر ، هذا الموت الأحمر الذى فى جميع الكنائس مصور . » (١)

وليس فى وسعنا أن نحدد حيل البطال ، وإنما يكفى أن نقول إنه يعد المحرك الأول لحوادث السيرة . فقد كانت مهمته التسلل داخل بلاد الروم والمكوث بها زمناً يتيح له فرصة التعرف على بعض من يعرف خطط القتال فيهندي بذلك إلى معرفة نواياهم وينقلها بالتالى إلى جيش المسلمين . وقد تكون مهمته تضليل الروم حتى تم خطة جيش بنى كلاب بنجاح . فإذا تعذر فتح بلد على المسلمين ، يسرع البطال ويتفنن فى صنع حيلة حتى تسقط البلد فى أيديهم . وقد حدث هذا عند حصار عمورية ، فقد وقف المسلمون أمام أسوارها المنيعة عاجزين عن دخولها . عندئذ وقف البطال يتلمس الحيلة السريعة ، فرأى من بعيد أناساً يركبون الحمير ويحملون معهم أشياء ويتوجهون إلى أبواب المدينة . فلما وجدوها مغلقة تحدّثوا فيما بينهم باللغة اليونانية عن كيفية حمل هذه الأشياء إلى الملك . وفهم البطال حديثهم واقرب منهم وتحدث معهم باللغة اليونانية ، الأمر الذى جعلهم يتأكدون من أنه رومى . فلما ركنوا إليه هم بقتلهم ولبس زيهام وامتطى حميرهم مع بعض رجاله . ثم أفصح للحارس عن رغبته وكان قد بلغ بهذا الأمر فنسمح له بالدخول مع رجاله . وما كاد يدخل حتى أخذ يعمل على هدم جزء من السور تمكن المسلمون من التسلل منه . أما أعظم مهام البطال فهي تتبع تحركات عقبة . فإذا اقتلده داخل البلاد الإسلامية ، أسرع فى الرحيل إلى بلاد الروم ليعبث عنه . وما يزال مقتضياً

(١) السيرة ج ٢٨ ص ٥٤ .

أثره حتى يقبض عليه متلبساً بجريمته ثم يأخذه إلى الخليفة ليشهد على خيانه .

وبهذا نستطيع أن نقول إن القوة اكتملت لجيش المسلمين . فالقيادة السليمة وقوة الشخصية تمتثلان فى شخصية ذات المهمة ، والبطولة النادرة تمتثل فى عبد الوهاب كما أن المقبرة على ابتداء الحيلة بلغت قمته عند البطال . فإذا أضفنا إلى ذلك استبسال جميع أفراد الجيش وتضانيهم فى أداء واجبهام ، أدركنا أن عوامل النجاح قد تهيأت لجيش الشعب العربى .

ولم يكن يعنى انشغال المحاربين بالحروب العربية الرومية ، ابتعادهم عما يجرى داخل البلاد . ولم تكن أحوال الدولة الداخلية أقل اضطراباً من أحوال الخارجية ، فكما كان العدو الخارجى يتهدد البلاد عند حدودها ، كان الانتهازيون يتهددونها من الداخل . بل إنهم كثيراً ما كانوا يتعاونون مع العدو الخارجى فى سبيل القضاء على السلطة العربية الحاكمة . وهنا يبدو لنا أن العبء كان ثقيلاً على الجيش الإسلامى المرباط عند حدود الدولة . فلكى تستقيم الأمور للدولة الإسلامية لابد أن تتكاتف الأيدي للقضاء على عناصر الفساد فى الداخل ، والقوة المهددة للبلاد فى الخارج فى آن واحد . وهذا ما وضعه الجيش المحارب نصب عينيه ، فكانت خطته تسير وفقاً لهذا المرمى .

وربما كان تحقيق هذا الأمر يسيراً لو اتحدت الأمة الإسلامية حكومة وشعباً . ولكن هذا لم يكن يتحقق على الدوام فى عهود الخلفاء . وهنا تقدم لنا السيرة عرضاً تاريخياً مفصلاً منذ بداية عهد عبد الملك ابن مروان ، حتى نهاية حكم المعتصم بالله ، فترسم لنا صورة واضحة لكل خليفة وموقفه من حوادث عصره معتمدة فى ذلك على الحوادث التاريخية من ناحية ، وموقف الشعب إزاء ذلك من ناحية أخرى .

أبناء الشعب أن يسهموا بعد ذلك في حكم البلاد .
ولما كانت ذات الهمة وابنها عبد الوهاب والبطل قد
أدركهم الموت بعد أن أدوا واجبهم ، فقد حكم أولادهم
من بعدهم البلاد التي تم فتحها على أيديهم .

السيرة والتاريخ :

تعد السيرة حكاية شعبية بطولية ، وتختلف الحكاية
الشعبية عن الحكاية الخرافية في دوافعها وشكلها .
وليس هنا مجال للفرقة بين النوعين وإنما نكتفي بذكر
أهم خصائص الحكاية الشعبية .

الحكاية الشعبية البطولية تركز على الواقع تماماً ،
وهي في الغالب تعتمد على الحوادث التاريخية . فقد
يكون أبطالها تاريخيين ، وهي تلوثهم وتشكلهم وفقاً
لخيال الشعب . وبالمثل فإن الحوادث التي تحكيها
السيرة تركز إلى حد كبير على الحوادث التاريخية ،
ولكنها تحكيها من وجهة نظر الشعب أولاً وتدخلها
في نسج حكايتها ثانياً . أي أن السيرة لا تحكي التاريخ
العلمي الموضوعي وإنما تحكي التاريخ الشعبي . ويمكننا
أن ندرك الفرق بين التاريخ العلمي والتاريخ الشعبي
من خلال مقارنة الحادثة واحدة هي حادثة البرامكة .
فالطبري يبحث نكبة البرامكة بحثاً موضوعياً ويقول
إن الأسباب التي أدت إلى نكبتهم مختلف فيها . ثم
يأتي بالآراء التي قيلت بصدد هذا دون تعليق وتحمس
لرأى من الآراء لأن التاريخ العلمي لا يقبل القطع
برأى فيها .

وأما ما تذكره السيرة بصدد هذه الحادثة فيختلف
تماماً عما يرد في كتب التاريخ . لأن السيرة تحصر كما
ذكرنا على أن تربط الحادثة بنسج حوادثها ، وأن
تعرضها من وجهة نظر الشعب . وأما عن ربط هذه
الحادثة بتسلسل الحوادث في السيرة فيتضح فيما يلي .

ومن خلال هذا العرض يتبين لنا كيف أن بعض
الخلفاء كان عاكفاً على ملذاته ، غافلاً عن أحوال
الدولة ، منصفاً للنفاق الذي يتجسد في شخصية عقبة .
ولكن هذا لم يكن ليترك اليأس يتسرب إلى جيش
بنى كلاب ، وإنما كانوا يعتمدون في مثل هذه الظروف
على قوتهم واستقلال رأيهم . فإذا عارضهم الخليفة
أجابوه بقولهم « ودعنا في وجوه الكفرة لا لك
ولا علينا ، فيخرج الأمر من يدك ويدينا » فإذا
استشاط الخليفة غضباً وأمرهم بالرحيل من منطقة
الثغور أسرعوا وتحفوا في مكان قريب واستمروا في
نضالهم حتى تنكشف الحقيقة للخليفة فيعمل على
إنصافهم .

ثم ينتهي العرض التاريخي للسيرة بخلافة المعتصم بالله .
وهو أرشد الخلفاء العباسيين وأكثرهم نشاطاً ورجاحة
عقل كما تصوره السيرة . وفي عهده اتحدت الدولة
الإسلامية حكومة وشعباً في سبيل المصلحة العامة .
فتحت عمورية وهدد الجيش القسطنطينية وتم له
النصر بفتحها . وكان عقبة قد أسر منذ زمن وظل في
حراسة مشددة حتى يتم صلبه على باب الذهب .
واجتمعت حشود المسلمين لشهد مصرع النفاق على
باب الظلم والضلالة . عندئذ توجه المعتصم إلى عقبة
وقال له : « يا قاضي كيف ترى قول النبي (ص)
للأمير عبد الوهاب حينما وعده بصلبك ؟ هل صح
قوله في الرؤيا أم لا ؟ وفي اللحظة التي تم فيها صلب
عقبة هتف المسلمون في صوت واحد : « وقل جاء
الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » (١)

وبهذا حققت السيرة كل ما يصبو إليه الشعب العربي ،
فقد صلب النفاق وقضى على العدو الخارجي المهدد
لكيان الدولة في آن واحد . وحق للحكام الأبطال

(١) السيرة ج ٧٠ ص ٧٦ ، ٧٧ .

تقول السيرة : « وأما ما كان من الإمام الرشيد ، فإنه لما سار ووصل إلى ملطية ونزل عليها أمر بعمارتها . فجمعوا الصناع من سائر البقاع وشرعوا في البناء . وبعد ذلك سار الخليفة إلى بغداد ودخل فيها وجلس على كرسي خلافته . وكان عقبه حاضراً في ذلك المجلس . ونظر إلى جعفر بين يدي الرشيد ، وكل واحد يتكلم على قدر ما يشتهي ويريد ومن جملتهم الوزير جعفر ابن يحيى البرمكي ، وقد تكلم في حق الأمير (يعني الأمير عبد الوهاب ولد ذات الهمة) بما يليق بأخلاقه الكريمة . فصعب ذلك على الملعون عقبه ولم يستطع أن يسمع المدح في حق الأمراء . فنهض من وقته من مجلس الخليفة وقصد إلى داره ، وقد صح عنده تعصب جعفر للأمراء لأنه رآه يشكرهم الإحسان ويرد غيبتهم عند السلطان . فقال : وحق المسيح والحواريين لا بد أن أعمل على هلاك البرامكة أجمعين . » (١) ثم اتفق مع الفضل بن الربيع على أن يكتب خطاباً بخط جعفر البرمكي ، ويدسه له في عمامته عن طريق أقرب خادم له . وفي هذا الخطاب يسب جعفر الرشيد ويتهمة بأبشع التهم ، وقبل الخادم أن يفعل هذا في مقابل مساعدة عقبه له على زواجه بمن يحبها . ثم ذهب عقبه إلى الرشيد وأخبره بأن جعفر البرمكي يحقد عليه ويعمل على إبعاده عن كرسي الخلافة . وليس على الرشيد سوى أن يطلع على الرسالة التي يجيئها جعفر في عمامته حتى يتأكد من صدق قوله . . وفنش جعفر وعثر على الرسالة وأعقب ذلك إزال الرشيد النكبة بالبرامكة . ولم تكتف السيرة بربط حادثة البرامكة بجهن السيرة ، وإنما أسهبت في وصف نكبتهم وصدى هذه النكبة عند الشعب . ومن خلال هذا السرد الطويل نتبين كيف كان الشعب يحب البرامكة لكرمهم وحسن معاملتهم

(١) السيرة ج ١٢ ص ٢٥ .

إلى درجة أن صورت السيرة جعفر بوصفه ولياً . فقد هتف هاتف بجعفر قبل أن تحل به الكارثة وأنبأ بها . بل إن كرامات جعفر استمرت بعد وفاته . فقد اعتاد رجل أن يعيش على ما يقدقه عليه ، فلما مات جعفر جلس الرجل عند قبره يبكيه حتى غلبه النوم ، فرأى جعفر في رؤياه وأمره أن يرحل إلى البصرة ، فيذهب إلى حانوت معين وصفه له ، ويقول لصاحب هذا الدكان « بأمانة الفول اعطني ثلاثة آلاف دينار » (١) . وفوجيء الرجل عندما وجد صاحب الحانوت يقدم له ثلاثة آلاف دينار على الفور . وطلب منه أن يفسر له هذا الأمر الغريب . فأخبره صاحب الحانوت بأنه كان رجلاً فقيراً يبيع الفول . وفي ذات يوم خرج لبيع الفول فسقط المطر عليه وأغرق فوله . ورآه جعفر وعلم أنه فقير يسترزق من بيع هذا الفول . فغمره بعطفه وماله حتى اغتنى وفتح هذا الحانوت .

ولعلنا ندرك بعد ذلك الفرق الجوهرى بين التاريخ العلمى والتاريخ الشعبى . ومع هذا فالتاريخ الشعبى يعتمد أرباباً على حوادث التاريخ . وليس أدل على ذلك من أن السيرة اهتمت بذكر حادثة هجرة بنى كلاب إلى منطقة الثغور ليشتركوا في الحروب العربية البيزنطية . ولولا إشارة القلقشندي لهذه الحادثة لحسبناها خيالا صرفاً .

وليس في وسعنا أن نذكر الحوادث التاريخية العديدة التي ارتكزت عليها السيرة . فالمكان لا يتسع لذلك . ولكن حسبنا أن نشير إلى ما ذكره جريجوار في مقدمة كتاب « العرب والروم » لفازلييف . قال إن الأستاذ كنار « اكتشف في رواية الفارسية العربية المسماة بذات الهمة مادة وفيرة لا تزال زاهرة بالتاريخ تخللت شيئاً فشيئاً في ثنايا الأساطير وانتهت إلى آثار

(١) السيرة ج ١٢ ص ٤٥ .

مثل السيد البطال بعد أن كان المستشرقون يعتقدون أنها آثار لا تجد بمكان أو تاريخ . (١) .

وحسبنا أن يكون عبد الوهاب والسيد البطال شخصيتين تاريخيتين اشتركتا معاً في الحروب العربية البيزنطية . وقد قتل عبد الوهاب في تلك الحروب عام ١١٣ هـ ، كما قتل فيها البطال عام ١٢٢ هـ . وقد كانا صديقين في القتال تماماً كما هو الحال في السيرة . ففي عام ١١٣ هـ غزا عبد الوهاب مع البطال بلاد الروم . « فأنهزم الناس عن البطال وانكشفوا فجعل عبد الوهاب يكر فرسه وهو يقول : ما رأيت فرساً أجبن منك وسفك الله دمي إن لم أسفك دمك . ثم ألقى بيضته على رأسه وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت . أمن الجنة تفرون ؟ » (٢) .

السيرة بوصفها تراثاً شعبياً وعملاً أدبياً فنياً :

رأينا كيف أن السيرة تعد تراثاً شعبياً . ومعنى هذا أن الشعب يعيش حوادث عصره ، ويعبر عن موقفه من هذه الحوادث . وإذا عبر الشعب عن حوادث عصره ، فمعناه أنه ينتقدها ويثور على الفاسد منها ، وهو لا يكتفى بذلك ، وإنما يصور من خلال نسج الحوادث بالحياة الكاملة التي يطمح إليها . وهذا أول تعبير في السيرة عن الروح الجمعي . إنه التعبير المتفائل الذي يهدم الحياة التي مسختها القيم الفاسدة ليقم مكانها حياة يسودها العدل والصدق . فقد رأينا أن السيرة فضلاً عن ارتكازها على الشخصيات التاريخية البطولية مثل شخصية عبد الوهاب والسيد البطال ، خلقت شخصية أخرى تقابلها هي شخصية عقبة . وعقبة رمز أكثر من كونه شخصاً ، هو رمز

(١) قازيليف : العرب والروم (ترجمة د. عبد الهادي شعيرة ، هـ . فؤاد حسين) ص (٣) ط . دار الفكر العربي .

(٢) تاريخ الطبري حـ ٣ ص ١٥٥٩

للحياة التي ينبغي أن تنتهي لأنها لا تحقق الخير . ولهذا فقد صلب عقبة لأن وجوده لا يتفق مع الحياة الجديدة التي سعى إليها الشعب وحققها . وقد أصر أبطال السيرة على أن يقتل عقبة على باب الذهب بعد أن تفتح القسطنطينية ، أي بعد أن يقضى على العدو الخارجي ، وهذا معناه في مفهومنا الحديث أن كيان الدولة الداخلي والخارجي لا ينفصلان ، فموقف الدولة من أحدهما يعكس مباشرة موقفها من الآخر . ولعلنا نلمس هذا بوضوح في عصرنا ، فالقوى الخارجية المناوئة إذا استطاعت أن تتسلل في جسم دولة ، فإنما يعني ضعف الكيان الداخلي لهذه الدولة . وبالمثل فإن فساد الدولة الداخلي يمكن كل قوة متربصة بها في الخارج من التسلل داخلها . وهكذا يتبين لنا أن السيرة لم تكتف بسرد الحوادث ، وإنما تطورت بها لتحقيق هدف بعيد ، وهو هدف شعبي وفني حقاً .

فإذا انتقلنا إلى ذكر العناصر الفولكلورية التي تحتوى عليها السيرة فإننا نجد ما وافرة ، وهي تتمثل في المعتقدات والتطورات التي يؤمن بها الشعب ويعبر عنها في كل أشكال تعبيره . وأبرز هذه المعتقدات والتصورات تتمثل في الحلم والسحر . والحلم وفقاً للتصور الشعبي لا يعكس حقيقة الحياة اليومية ، وإنما هو حقيقة في حد ذاته . بمعنى أن ما يراه النائم في رؤياه لا بد أن يتحقق في الواقع . وقد سبق أن أشرنا إلى الرؤيا التي رآها الرجل الذي كان ينبغي حظه بعد نكبة البرامكة والتي تحققت بخدافيرها . ولولا إيمان الرجل بحقيقة الحلم لما سعى إلى تنفيذ ما أمر به في حلمه . وبالمثل تحققت الرؤيا التي رأى عبد الوهاب النبي فيها ، وكذلك الرؤيا التي رآها أم عقبة قبل ولادته .

والحلم : فضلاً عن أنه يكشف عن الحقيقة

المجهولة ، يؤدى وظيفة أخرى في السرد . فهو يساعد على خلق الحركة الجديدة ، إذ سرعان ما يتحرك الأبطال بعد أن يرى أحدهم رؤيا تكشف لهم عن مكان اختفاء عقبة أو عن المكان الذى أسر فيه عزيز لديهم .

والسحر قوة تكمن في الأشياء . وفي وسع هذه القوة أن تساعد البطل في تحقيق رغباته . وقد تكشف له عن حقيقة يجهلها . فقد دبر الروم مؤامرة لقتل مسلمة بن عبد الملك والصحاح معاً ، وذلك بأن أرسلوا جاسوساً متنكراً في هيئة زاهد ، استطاع عن طريق زهده أن يقترب منهما . فلما تم له ذلك وضع السم لهما في الطعام ثم اختفى . فلما مد مسلمة يده إلى الطعام ، « وأخذ لقمة وأراد أن يرسلها إلى فمه ، إذا بالخاتم الذى في يده يقطر ماء أصفر قطرات متدالة مثل المطر . فصاح على الملك (أى الصحاح) وقال له اصبر يا ملك العرب لا تأكل شيئاً من الطعام لأنه مسموم وكان في يد الأمير مسلمة خاتم له فص من قرن الحية وكانت أحكمة الحكماء الأوائل ومكتوب عليه أسماء وطلاسم . وكان هذا الخاتم لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين . ولما أرسل الأمير مسلمة إلى هذا المكان خاف عليه من هذه الأحكام ، فسلمه إليه وعرفه عن منفعة . » (١)

والسحر يكمن في الكلمة كما يكمن في الأشياء . فإذا هتف المحاربون بقوله تعالى : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » ، أنهزم المحاربون الأعداء على التو . وإذا هتفوا بقوله تعالى « لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ، اكتسبوا قوة غير عادية وانتصروا ، بل إن حجاج وهو أحد المحاربين الأبطال أصيب في رجله

(١) السيرة ج ٥ ص ١

ولم يعد يستطيع الوقوف ، فأدار أبو محمد البطل وجهه إلى قبلة البيت الحرام وصلى ركعتين وبسط يديه بالدعاء ساعة زمنية .. ثم دنا من حجاج وقال له : قم بقدره الله تعالى الذى رد عليك رجلك وخلصك مما كان قد تم عليك . فقام حجاج مثل الأسد الجسور وهلل في قيامه وكبر وتشهد بعلو صوته . » (١) .

وربما كان الاعتقاد في قوة الكلمة الدافع الأكبر وراء قول الأشعار البطولية قبل أن يخوض البطل المعركة مباشرة . فقد « كشف عبد العزيز العلوى رأسه وأخرج يده من جلباب درعه وهو ينشد هذه الأبيات :

ألا خبروها أننى اليوم باذل

لروحى في هيجائها بالقواضب

ولئن أرد الخيل أيضاً بصارمى

وأضرب أعناق الليوث السلاهب

ولو كان فيما بيننا ألف بلدة

لها ألف سور هان عندى مطالبي

وحق الذى حج الحجيج لبيته

ينادونه ليك من كل جانب

لاقتنمن الجرب حتى ترونها

بفيض نجيعاً مثل فيض السحاب

فإذا تجاوزنا المعتقدات والتصورات الشعبية إلى

ذكر نموذج من التعبير عن اللاشعور الجمعي ، فإننا نجد أنه يتمثل في صورة البطل منذ أن يولد حتى يبلغ مرحلة النضج والكمال . وقد سبق أن قدمنا نموذجين لحياة البطل يتمثلان في حياة حندبة وحياة ذات الهمة فقد ولد جندياً يتيم الأب ، ثم ماتت أمه بعد ولادته مباشرة وتربى لدى قوم غرباء . فلما كبر عرف حقيقة نسبه ، فانضم إلى قومه وأصبح البطل المرموق .

(٢) السيرة ج ٥ ص ٤٨

والانضمام مرة أخرى إلى أهله ، لأنه قد أصبح بالفعل بطلا مرموقاً .

وبالإضافة إلى المعتقدات والتصورات الشعبية ، وصور التعبير التي تنبع من اللاشعور ، هناك الحكايات الشعبية التي يحفظها الشعب في ذاكرته لاعتزازه بها . ومن ثم فهو يخلق لها مجالا في السيرة لكي يحكيها عن عمد . ومن ذلك ما يحكيه الراوى عن الصحصاح من أنه تقابل في قلب الصحراء مع ظبية راعه منظرها وهي تجرى مصطحبة أولادها . فجرى وراءها الصحصاح يبغي صيدها ، ولكنها أسرع ودخلت كهفا مع صغارها . وفي تلك اللحظة برز أسد جسور وهم بأن يقتك بالصحصاح . وفي تلك اللحظة نجسدت أمامه امرأة رائعة الجمال لم يدر من أين أتت . فضربت الأسد ضربة قضت عليه . وتعجب الصحصاح من ذلك وسألها ما إذا كانت إنسية أم جنية . فأخبرته - بعد أن سخرت منه ومن قوته التي يعتز بها ، بأنها ابنة ملك الجان عقهق الذي سجد للنبي عليه السلام . وهي بعينها الظبية التي جرى وراءها ، ورغب في اصطادها .

ومن ذلك حكايات الكهانة والعرافة . وقد رأينا كيف أنها استغلت في السيرة في حادثة تبرئة ذات المهمة من التهمة التي وجهها لها ابن عمها الحارث .

كل هذه العناصر الفولكلورية تحتوى عليها السيرة . وهي تتعلق جلها بتراث الشعب القديم . فهل معنى هذا ان أهمية السيرة ترجع إلى احتوائها على هذا التراث ؟ وبعبارة أخرى : هل يعنى التراث الشعبي ، القديم المتوارث ، أم القديم المتطور ؟ إن التراث الشعبي يعنى أولا وأخيرا شتى أشكال التعبير عن حياة شعب من الشعوب . وتتحدد حياة هذا الشعب بأصله والمكان الذي يعيش فيه ومصيره .

وبالمثل فقد تربت ذات المهمة لدى قوم غرباء أى أنها أبعدت عن أبيها وأمها . ثم عرفت في النهاية حقيقة نسبها فانضمت إلى أهلها وقد اكتملت شخصيتها وأصبحت بظلة السيرة الأولى . ولا تنفرد السيرة بهذين النموذجين ، ولكنها تحتوى على نماذج بطولية أخرى تكاد تتفق حياتهما مع هذين النموذجين . فإذا عرفنا أن صورة البطل هذه ترد بالمثل في الحكايات الخرافية والحكايات الشعبية في جميع أنحاء العالم ، استطعنا أن ننتهى إلى أنها تعبير تلقائى عن اللاشعور الجمعي كما فسره علماء النفس . ومصدر هذا التعبير هو إحساس الفرد بالعقبات التي تستكن في لاشعوره منذ طفولته حتى يصل إلى مرحلة التفرد والاكتمال . فالطفل الذي يولد من أبوين ، وما يلبث أن يشعر - حينما يكبر - بسيطرة الأب عليه الأمر الذي يدفعه إلى التقرب لأمه . حتى إذا ماشب عن الطوق ، اضطرب - مدفوعا بطبيعة الحياة التي تتميز بالاكتمال والكمال ، إلى الانفصال عن أمه . وفي هذه السن يشعر الابن باحتقار لأبيه وأمه ويحل في خياله محلها من هما أرفع مترلة . حتى إذا اكتمل الابن نفججه ووصل إلى مرحلة الرجولة الكاملة ، ارتد إلى عالم الواقع ، فيتعرف على أهله محفظا ببطولته ورجولته . هذا الإحساس اللاشعورى يخلفه الشعب مرة أخرى على صورة البطل . فالبطل إما أن يولد يتم الأب ، أو يستنكر الأب ولادته إثر نبوءة تطلعه على خطورة طفله . وفي هذا إشارة لعلاقة الابن بالأب في حياته الأولى . أما الأم فتحفظ بالطفل بعض الوقت بعد ذلك ، إلى أن يبعد عنها الطفل كذلك ، وفي هذا إشارة إلى تحركه الطبيعي نحو الاستقلال . حتى إذا كبر الطفل تعرف على أهله . أى أنه - بعد أن تم عملية الاستقلال والنضج ، لا يشعر بخطورة في

ومعنى هذا أن أى تغيير يطرأ على حياة هذا الشعب لا بد أن يترك أثره فى الشعب وبالتالي فى أشكال تعبيره .

أما بالنسبة للسيرة فقد تغيرت حياة الشعب العربى الممثل فى أسرة بنى كلاب تغيرا زمنيا ومكانيا واجتماعيا . وقد استطاعت السيرة أن تصور مرحلة الانتقال هذه أروع تصوير . فقد بدأت يعرض حوادثها فى قلب الصحراء ، حيث كانت تعيش أسرة بنى كلاب . وقد كانت تعيش هذه الأسرة فى أفق مكافئ ضيق وحيز زمانى محدود . أما المكان فهو الصحراء بتقاليدها المتوارثة . وأما الزمان فهو عصر ما قبل الإسلام وإن أتى عليهم الإسلام . ولهذا فإن حياة هذه الأسرة لم تتجاوز الصراع بين القبائل وبين أفراد القبيلة الواحدة . ثم خرج الصحصاح يطلب مهراً لىلى من وراء المغامرات . وقادته هذه المغامرات إلى بلاط الخليفة الذى وثق فى شجاعته وطلب منه أن يرحل مع مسلمة بن عبد الملك لمحاربة الروم .

وتعد هذه الحادثة نقطة تحول فى حياة الأسرة ، إذ أعقبها خروج الأسرة كلها إلى منطقة الثغور . وهذا معناه اتساع أفقهم المكافئ وكذلك أفقهم الزمانى نتيجة معاشتهم لحوادث عصرهم التى كانوا بعيدين عنها . وبالمثل فقد فتحت الحياة الجديدة أذهانهم لمفاهيم سياسية واجتماعية جديدة . فالحاكم ليس الشخص الذى يترجع على عرش الملك ويعيش حياة البذخ والترف بينما تدير حكومته أمور البلاد كيفما شئت ، وإنما هو ذلك الذى يعيش مع الشعب ويشعر الشعب بوجوده . فلما ظهر الخليفة هرون الرشيد أمام جيش الشعب مصطنعاً موقف الحاكم المترف الذى يأنف من شعب الصحراء وبخاصة عبد الوهاب الأسمر اللون ، اغتاظ أحد أفراد أسرة بنى كلاب ،

وخاطبه بالصراحة التى تربي عليها ، وسأله عن السبب الذى دفعه لاحتقار أميرهم وبطلهم عبد الوهاب ، لأنه أسود اللون ؟ وإذا كان الأمر كذلك فليبق هو خليفة للبيض ، وليصبح عبد الوهاب خليفتهم .

ثم إن الحاكم يتحتم عليه أن يترك فرصة للشعب ليسهم فى صنع حاضره ومستقبله . وقد أسهم شعب السيرة فى صنع حاضره ومستقبله ، فوضع يده على بؤرة النفاق وقضى عليه وعلى العدو الخارجى فى آن واحد .

إن سيرة الأميرة ذات الحمة تراث أدبى عربى يستحق كل تقدير . فقد جمعت فى ثناياها التراث القديم والتاريخ ومقومات الدولة السياسية والاجتماعية المثالية ، ثم مزجت كل هذا فى قالب قصصى متكامل ، يحقق هدفاً محدداً على الرغم من طولها البالغ . د. نبيلة ابراهيم

صفات البطل :

« قال الراوى » فلما رأى الصحصاح مصارع الأشباح ، وهذه الحريم فى بكاء ونواح ، أخذته الحمية ، فصاح فى عبده نجاح وقال والله هؤلاء حجاج بيت الله الحرام ، وزوار قبر محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، هؤلاء اللثام قطعوا عليهم الطريق وعوقبهم تعويفاً وأظنهم قتلوا كراتهم وأبادوا حماهم . ولقد سلوت حب لىلى باصطناع المعروف وإغاثة الملهوف ، ولا بد أن ألقى روحى على هذه الكتبية وأكشف إن شاء الله هذه المصيبة . فقال له عبده نجاح يامولاي لا تفعل ، واعلم أن ما قصد لأخذ هذه الأموال وحماها إلا رجال وأبطال وصناديد أقيال ، ولا بد أنهم تسعون فارساً ما بين مدرع ولا بس . ولا يخفى أن يكون واحد منهم مثلك ، والباقي لا يصبروا على فعلك . وقد كان فى هذه القافلة ما ينوف عن ستمائة فارس أو دون ذلك

فتركوهم هؤلاء ما بين مأسور وهالك ومطروح
تحت السنايك . والصواب يمولاي لاتعرض نفسك
على هذه المهالك ولا تعارك ، فلما سمع الصحصاح
من عبده ذلك الكلام نظر إليه وقال يا ابن اللثام
ما يقعد عن نصرة الحريم إلا كل لثم . ثم صاح من
أم رأسه : يا أندال البادية والطائفة الباغية العادية ،
أقسم بمن جعل البيت الحرام حمي للناس وأمنا من
الباس ، وأوضح منهجه وأعرض حجه لئن لم تخلوا
عن الحريم وما معهم من المال لأجعلن رقابكم بلا
علاصم وأجسامكم بلا جماجم وجراحكم ما ينفعها
مراهم وقد نصحتكم نصيح الليث الحازم . ثم
أنشد يقول :

ألا يارجال السود كفوا عن الطعن
وكفوا عن الأموال والحمل والظعن
أحجاج بيت الله تبتغون مغنا
وذلك فعل الشين يقضى إلى المحن
دعوهم وإلا والمظلل من منى
وحجاج بيت الله في سائر المدن
جعلتكم في القاع طعما لأسده
كذا الطير من نسر ويوم مع السن

التراث الاسطوري في السيرة :

« قال الراوى » : وكان الصحصاح قد كل من
السير وقد فرح قلبه بنظره إلى ذلك الدير ، وقال في
نفسه لعلى أجد عند بعض الرهبان فرجاً مما أنا فيه
ويفرج عن قلبي ما أعانيه . (وقال الراوى) بإسادة
يا كرام ، فبينما هو يتحدث نفسه بالمسير إلى الدير ،
وإذا هو بغزاة حسنة المنظر ، مليحة اثرى وهى
سائرة تتمخطر وعيناها تتوقدان كأنهما ياقوتتان
وحولها جماعة من الغزلان وهم خلفها كأنهم غلمان

وهى أمامهم كأنها ملك وسليطان . وعن يمينها وشمالها
غزلتان كالأتراك كأنهما لها حجاب وهى تتحدث
معهم . وكان الوقت عند غروب الشمس
وقد اصفرت أرجا . فمد الصحصاح إليها أسنانه
وأطلق نحوها عنانه فجرت الغزاة قدماه وقد لحقتها
تلك الغزلان وهى تجد والصحصاح لها فى الطلب ...
... هذا وقد دخلت الغزاة إلى غار فى الجبل وتبعتها
الغزلان وقد بقي الصحصاح حائراً ولهان وعليها ندمان .
فأراد أن يدخل خلفها إلى ذلك المكان فخاف على
الجواد بشرده منه فى ظلمة الليل وبيئ حاله بعده فى
الزبل . فرجع طالب الدير وإذا قد اعترضه أسد
كأنه شيطان . وكان الأسد طويل القامة عريض
الهامة أحمر أغبر ، قد جلله الوبر وهو يتمخطر على
الحجر ... وهجم على الصحصاح فهجم عليه
الصحصاح . وعندها صرخ الأسد على الصحصاح
صرخة قوية أقلب منها البرية وقد هجم عليه ولطمه
بيديه فأرماه تحته . فبينما هو والأسد فى ضراب وقرع
ودفاع ، وقد صارت روح الصحصاح فى النزاع ،
وإذا بجارية حسنة القوام مليحة الابتسام كأنها البلر
التمام قد أقبلت وصرخت على الأسد فارتجع عن
الصحصاح وخلاه . وراح فنظر الصحصاح إلى وجه
تلك الجارية فوجدها مبدعة للناظرين ونزهة للمتأملين .
فقدم إليها وقبل يديها وقال لها : أنت إنسية أم جنية
فقلت له : ايش لك بي وإيش لك بهذه القضية ؟
لا إنسية ولا جنية أنا فاعلة خير ساكنة بجوار أهل هذا
الدير ... أنا بنت عهق الحنى ملك الجان . وإن بنت
الحن ما يتغير حسننها ولا ينقص جمالها ، فالمليحة
مليحة والقيحة قيحة ، وفينا من تترى بهما أرادت
من الصفة الوحشية وصفة الطير وغيره وفينا للشر
وفينا للخير ولما آمن أبى تزلت على النبي صلى الله عليه

وسلم سورة قل أوحى .. إلى قوله إنه : استمع إلى
نفر من الجن »

النزاع بين افراد القبيلة الواحدة :

« قال الراوى » فلما أن كان بعد ذلك بأيام
جلسوا بين المشايخ الكرام . فقال ظالم لمظلوم اعلم أن
زوجتك وزوجتى حامل ، وأنت أمير وأنا أمير ،
فاجعل الشرط بيننا ويشهدوا هؤلاء المشايخ علينا ،
من جابت زوجته ولدا ذكراً كان الملك له
والإمارة من دون الآخر ويكون الأمر والنهى فى
الحرب له .. فقالوا مشايخ بنى الوحيد : وترضى
أنت بهذا الأمر ، فقال أى والله العظيم وإن جاءنا
ذكران بقيت الإمارة على حالها مشتركة بين الاثنين .
فشهد العرب بعد أن رضوا بذلك الحد ، لأنهم
تربية البر وهزلهم جد ... (قال الراوى) وبعد حين
أخذ المرأتين الطلق بإذن خالق الخلق ، فوضعت
زوجة ظالم ذكراً كأنه فلقه قمر ، ففرح به واستبشر
وقد سماه الحارث . وقال للداية اذهبي وكوفى فى
بيت أخى فإنى أخاف أن يكموا مايرزقون عند
الولادة من خوف الشهادة . فقالت له : دع عنك
المنافقة والشين ، كيف يكون هذا وأنتا أخوان .
فقال لها دعى عنك هذا الكلام واذهبي إلى بيت أخى
بسلام ... فعندها ذهبت الداية إلى بيت مظلوم وكانت
تحبه أكثر من ظالم لما فيه من الدين والخير وجودة
التمكين . فلما أن دخلت قالت لمظلوم : اعلم أن أخاك
قد بعثنى لأجل كذا وكذا . ثم لأنها جلست ساعة
وزوجة مظلوم تطلق ، فولدت جارية كأنها البدر
قوية السواعد والأطراف هائلة الأكتاف . فوقعت
على أمها الخدمة والحموم والغموم ، وقد فرغت من
زوجها مظلوم ...

التاريخ الشعبي :

« ... ولم يكن هناك يومئذ بلد ولا عمارة سوى
دير فيه راهب فطلبه المنصور إلى بين يديه ، فلما أن
حضر سأله عن اسمه فقال له « باغ » وهذه الأرض
اسمها « راد » وقد قرأت فى كتب الحكماء واطلعت
على الملاحم فرأيت فيها أنه لا بد أن تعمّر هنا مدينة
مذكورة إلى آخر الزمان . « قال الراوى » فقال له
الخليفة : كيف تبنى المدينة ههنا وهذه الأرض
ملآنة ماء : فقال له الراهب : لاتعرف قطع الماء إلا
منى . فقال له : افعل ما تريد . فمضى إلى مكان يعرفه
وسد الماء فانقطع . ونزل المنصور على الدجلة ثم
أمر بعمارة المدينة ... وسماها بغداد باسم الراهب
والأرض . »

الايمان بالمخبرات :

« قال الراوى » ونرجع لما كنا عليه من الكلام
بإذن محبي العظام . ولما تقدم أبو محمد البطل إلى
السهم الذى يتحرك فى التراب فجذبه بكلتا يديه فلم
يقدر . فجذب السيف الذى معه وحفر حوايه إلى
أن وصل إلى آخره ، وإذا بذلك السهم قد وقع فى
ثعبان عظيم ارتمنى وهو ملبط بالدم . وذلك الثعبان
من حلاوة الروح قد انقلب ودعه قد انسكب . ولما
رأى البطل ذلك تحير فى أمره وقال : الله أكبر بان
الحق وظهر ، وزال والله الخوف والحذر ..

الايمان بحقيقة العلم :

« ... وبالقضاء والقدر نزل الأمير تحت شجرة
كبيرة ظليلة لها أغصان متفرعات عن بعضها البعض
وكل غصن منها يظل الفارس والماته . فنام الأمير
عبد الوهاب تحتها وقد غرق فى نومه فسمع للشجرة
أنيئا كأتين الثكلى وهى تقول : أيها الأمير صدق

الله ورسوله . فإذا قمت من نومك قل لأصحابك
[يقطعوني وبهذا حكم الله تعالى فلا مرد لحكمه ولا دافع
لقضائه . ثم إنك تقطع أغصاني واحملني من مكاني .
فعلى يكون صلب عقبة الملعون على باب الذهب بعد
أن يقتل ثلاثمائة ألف على صلبه من سائر الأمم .
فانتبه الأمير عبد الوهاب من نومه وهو غزعان

مرعوب وسمع أنين الشجرة في يقظته كما سمعها في
نومه . فلما سمع ذلك قال : الله أكبر الله أكبر . فقال
الأمير أبو محمد البطال : ما الخبر فأعاد عليه القصة ففرح
الأمير أبو محمد البطال بذلك والأميرة ذات الهمة وقالوا :
والله هذا أحب إلينا من فتح القسطنطينية لأن ما يجري
على المسلمين شيء أشد مما يجري عليهم من عقبة .



الفردوس المفقود يكون ملنون

بقلم
الدكتور نظمي لوقا

١ - حياته

منذ ثلاثة قرون ونصف لم تكن البيوت في مدينة لندن العظيمة تحمل أرقاما ، بل كان الناس يميزون بعضها عن بعض بتمثال صغير أو شكل منحوت أو صورة زاهية الألوان ترمز الى مهنة قاطن البيت أو الحرفة التي يمارسها فيه . فقد كانت العادة المرعية حينئذ أن يتخذ الناس مساكنهم وحجرات معيشتهم البيئية الخاصة في الطبقات العليا من المنازل ، فوق حوائطهم ومتاجرهم ومكاتبهم التي تمثل الطبقة الأرضية من المبنى . وكانت لندن محدودة الحجم حيث قلب المدينة الآن ، اما ما يعرف اليوم بضواحي لندن السكنية فلم تكن في ذلك الحين الا ريفا متراميا بالحقول والمراعى .

وفي بيت من بيوت لندن ، وفي شارع يريد (أى شارع الخبز) كان المارة يرون على الواجهة نورا مبسوط الجناحين ، وهو شعار أسرة قاطنه الذى يحترف كتابة العقود الرسمية والوثائق القضائية . فهو وكيل أعمال قانونية يحرر للناس

وصاياهم واتفاقاتهم .. وكان فى بعض الأحيان يخرج موكله من ضائقاتهم المالية باقراضهم المال بفائدة معقولة .

وفى يوم قارس البرد صرصر الريح يتداول سماءه هزيم الرعد ووميض البرق . فى التاسع من شهر ديسمبر سنة ١٦٠٨ وجد جون ملتون - رب ذلك البيت ومحرر العقود ووكيل الأعمال القضائية ومنفج الكروب بالربا المعقول - ان من العسير عليه مواصلة عمله المعتاد ، وهو المكب الدءوب ، فقلبه كان يرقص طربا حتى ليكاد يكفه عن التحير والتحرير لينطلق بالشدو الذى يقط الهيبة ويزيل الوقار ! .. فنذ ساعات قلائل - فى الساعة السادسة والربع من صباح ذلك اليوم على وجه الدقة - صار أبا لفلان صغير جميل . وقال جون ملتون لنفسه « ليكون هذا الفلانة جونا آخر .. سميا لى » . وهكذا أطلق على الوليد اسم جون ملتون عندما تم تعميده فى الكنيسة القريبة من الدار ، وهى كنيسة «أول هالوز» .

ومثلما منح كاتب الاشغال القضائية ابنه جون

اسمه منحه أيضا - أو منحه الطبيعة وأفانين
الوراثة الغامضة - جانبا لا يستهان به من طبعه.
فجون ملتون الكبير - والد الشاعر - سمح لنفسه
أن يخالف أباه في بعض مسائل العقيدة ، حتى
لقد تعرض في هذا السبيل لمسخط ذلك الأب الى
حد اعلان براءته منه حتى نهاية حياته ، من غير أن
يلين أى منهما عن موقفه العنيد ، مما يدل على
الصلابة واستقلال الرأي في هذه الأرومة.
واستقلال الرأي ، والحفاظ الشديد على هذا
الاستقلال والاعتداد به سمات بارزة غاية البروز
في شاعرنا جون ملتون ، ولاشك في انها موروثه
عن ذلك الوالد .

وكان جون الأكبر - والد الشاعر - قد أثرى
وجمع مالا يعتد بقدره في زمنه . وكان يتحرى في
سلوكه أوامر ضميره ونواحيه ، ويصدر عن
وجدان مؤمن بما يصنع ، ويستمد من علمه ومعرفته
وقودا صالحا لطاقته ، فجعل يكدح في عمله بأمانة
واجتهاد منذ بكرة الصباح الى ساعة متأخرة ،
لا يأخذ في عمل حتى يتمه على أكمل وجه . فلما
أنعم الله عليه بولادة ابنه وجد من حقه وسطن نصب
العمل الشاق أن يضع القلم من يده قليلا ويخلد
الى التفكير محملا في النار يطالع فيها صورا من
صنع الأحلام ، عسى أن يرى فيها وليده وسميه
وقد بلغ مبلغ الرجال اولعله يرى أن يقتفى خطوات
أبيه وكيل أشغال قضائية ومقرض نقود بالربا
المعقول ، وقورا مبجلا بين رجال الأعمال وأرباب
الحرف والمهن . أو لعل موهبة أبيه المحدودة في
نظم الاهازيج والمقطعات الشعرية تنمو لديه فتصبح
ملكة مزدهرة تؤتى أكلها من أطياب القريض .
ولكننا لا نخال تصورات أبيه وأحلامه في ذلك
اليوم بالغة ما بلغت من الجموح والاسراف يمكن

أن نصل الى بعض ما كتب لهذا الوليد من مكانة
رافعة في عالم الشعر على اطلاقه ، وفي آداب العالم
أجمع على اختلاف اللغات وتباين العصور .
ومهما يكن من شيء فقد قرر ذلك الوالد أن
يقدم في شأن ابنه على أمرين : أولهما أن يتيح
لابنه جون تعليما متينا وأن ينشئه على تعاليم
المتطهرين (البيورitan) وهي العقيدة البروتستانتية
الخاصة التي آثرها وكيل الاشغال القضائية
بالانتماء اليها .

وفي السن المناسبة - وهي سن مبكرة - ارسل
جون ملتون الى مدرسة القديس بولس التي
التي أنشأها الدكتور جون كوليت في سنة ١٥٠٩
وصار يشرف عليها في ذلك العهد الكسندر جيل
وله شهرة واسعة بين ابناء جيله ، ذلك انه من احسن
نظار المدارس ومن أكثرهم استخداما للعصا وسيلة
للتعذيب والتعليم . وكان الفتى الصغير جون لا يكاد
ينتهي من تلقى علومه سحابة النهار في تلك المدرسة
حتى يجد بانتظاره في البيت مؤدبا خاصا يلقيه
مزيدا من الدروس والمعلومات .

ويخبرنا الشاعر العظيم فيما تركه من أقوال
وكتابات « اننى كنت منذ سنواتى الأولى بفضل
عناية أبى وهتته التى لا تعرف التوقف أو الابطاء
(جزاء الله عليها خير الجزاء ١) دائم الاطلاع على
اللغات وبعض العلوم التى تسمح بها سنى ، وذلك
كله على يد أساتذة ومؤدبين عديدين سواء فى البيت
أو فى مقاعد الدرس فى المدارس » ثم يقول فى
موضع آخر :

« لقد وجهنى أبى منذ حداثة صبأى الباكرة
الى دراسة الآداب الانسانية التى كنت استوعبها
بلهفة عظيمة ، حتى لقد كنت منذ بلغت الثانية
عشرة لا أترك دروسى لآوى الى فراشى قبل انتصاف

الليل . وكان ذلك في الواقع أول سبب من أسباب
إيذاء حاسة البصر ، فبدأت تتأبى فوق متاعب
ضعف عيني الطبيعي آلام الصداق المتلاحقة .

وفي سن الخامسة عشرة نظم ملتون ترنيمة
استقى مادتها من المزمور ١٣٦ أصبح ترتيلها شائعا
حتى اليوم في كنائس المتطهرين خاصة والبروتستانت
الانجليز بصفة عامة . وفي سن السادسة عشرة دخل
جون ملتون كلية المسيح في جامعة كمبريدج وهناك
أطلق عليه زملاؤه من طلاب الجامعة لقب « سيدة
كلية المسيح » لما اشتهر به من رقة البشرة وطول
الشعر الضارب بلونه الى حمرة النحاس ، وهو
ذلك اللون الذي يسميه العرب « اللون الأصحر »
 . وفي كلية المسيح ظل جون ملتون يعمل بدأب
على مدى سبع سنين .

وبعد أن حصل الطالب النابغ على درجة
البكالوريوس ودرجة الاستاذية (الماجستير) في
الآداب غادر جامعة كمبريدج ورحل الى قرية هورتون
في اقليم بكنجها مشاير ، وهي القرية التي كان والده
قد اعتزل عمله وتقاعد فيها . وكان رأى جون ملتون
قد استقر بعد تخرجه على أن يفرغ للشعر .

والواقع انه كان قبل مغادرته ، كمبريدج قد
كتب قصيدته الجميلة التي عنوانها : « صبيحة يوم
ميلاد المسيح » وقد كتب في ذلك الحين الى صديق
له ردا على رسالة قائلا : أراك تكثر من السؤال
عما اشغل به نفسي ، وعما أفكر فيه ؟ واني بعون
الله تعالى مشغول الفكر بالخلود . واغفر لي هذه
الكلمة ، فان هي الا همسة ألقى بها في مسامعك .
أجل أعلم اني أهيم جناحي للتخليق !

واستهواه هدوء حياة الريف ، فجعل من نفسه
وفكره مستقرا لجميع الصور الجميلة والأصوات
العذبة والأنغام الشجية . وانصرف الى كتابة

القصائد والمسرحيات الشعرية ، وأشهرها « كوموس
وهي تمثيلية من نوع مسرح الأقنعة - وهو نوع
كان مرغوبا جدا في تلك الأيام - كتبها لصديقه
هنري لاوس الذي كان يعتبر أبرز المؤلفين الموسيقيين
والملمحين بانجلترا في زمنه ، وقد تولى وضع
الموسيقى لكلمات تلك القطعة الأدبية .

وقد بلغ من حب وكيل الأشغال القضائية
المتقاعد بعد أن أثري أنه منح ابنه البكر « ميلغا
كافيا من المال في سنة ١٦٣٨ (أي عندما بلغ الثلاثين
من عمره) ليقوم بجولة سياحية في أرجاء القارة
الأوربية ، بالإضافة الى اجر ونفقات خادم في سن
الرجولة صحبه في هذه الجولة الطويلة الباهظة
التكاليف ليقوم بشئونه . وليس عجيبا على الإطلاق
أن تصبو نفس شاعرنا الى الطواف بالأمم ولا سيما
ايطاليا ذات الشمس الدافئة ، فهو قد عل ونهل
من اللغات القديمة ولا سيما اللاتينية جرعات
كبيرة على حد تعبيره ، وكان أدب دانتى وبترارك
وغيرهما من فحول أدباء الطليان زاد مائدة حافلة
أصاب منها كل جنى وشهى ومستطاب . وفي ايطاليا
على الخصوص أطال المكث والتلبث مستأنيا متأملا .
وعد مدائنها القديمة المعصورة بآيات الفن واعلام
الفكر وكنوز الثقافة القديمة والحديثة حطت رواحله
ولا سيما في رحاب جنوه ولجهورن وبيزا وفلورنسا
وروما والبندقية وميلانو . وفي « أرشترى » قرب
فلورنسا حظى بالتحديث الى فلكيها المشهور
« جاليليو » الذي كان يعيش هناك يومئذ رهين
محبيين من عزلة الشيخوخة وآفة العمى مستكينا
الى الهدوء بعد طول نضال مع اعداء حرية العقل
وحرية التجربة العلمية . وياله من موقف من مقارنات
القدر ، أن يقف جون ملتون الشاب الناضر الجمال
والوسامة الجميل العنيد خاشعا أسيفا على

شيخوخة العالم المصاب في بصره وهو الفلكي الذي صحح للناس معطيات أبصارهم وقوم لهم خداعها في أمر دوران الشمس حول الأرض كما كانوا يزعمون ... وهو لا يدري أن القديس له مثل هذه الضربة في ظهر الغيب بأخرة من عمره بعد نضال شبيه بذلك النضال في حومة السياسة والفكر .

وفيما هو بمدينة نابولي وصلته الأنباء من وطنه انجلترا أن استبداد حكومة الملك شارل الأول يجبر البلاد الى الثورة العلنية ، وهو يقول لنا بلسانه: « ان الانبياء الأسيفه عن وشك نشوب الحروب الأهلية في انجلترا دعنى للعودة الى بلادي ، لأنى وجدت من الحقارة أن أطوف بأفاق الدنيا خارج الحدود ووراء البحار طلبا للمتعة الذهنية والثقافة فى حين يقاتل أبناء وطنى ويسفكون دمهم فى المعارك على أرض بلادى دفاعا عن الحرية والتماسا لأسبابها ! »

واننا لنجد فى هذه العبارة الموجزة وجها جديدا لجون ملتون الذى كان حتى ذلك الحين عاشق فن وادب ورجل خيال ، فاذا به يتكشف عن رجل عمل ونضال ، ولم يلبث أن شد رحاله عائدا الى انجلترا .. ولكن مامن شئ ينم على أنه فكر لحظة واحدة فى امتشاق حسامه فى صفوف كرومويل وجيش البرلمان ضد الملك والملكية ، فالقلم دائما كان سلاحه . وعندما سنحت له الفرصة انبرى بذلك السلاح المضرب فى يده فكان أفعل من السنان عند احتدام الطعان .

وفى طريق عودته الى انجلترا نظم ملتون قصيدته فى تمجيد ذكرى صديقه « تشارلز ديوداتى » الذى وافته المنية أثناء رحلة ملتون فى بلاد القارة الأوروبية . وقد اقتفى شيلي أثر ملتون

بنظم قصيدته المشهورة « ادونيس » فى رثاء جون كيتس ، كما اقتفى أثره لورد تينسون فى قصيدته « الذكرى » تمجيدا لذكرى « آرثر هالام » .

وكان والد ملتون قد نقل مقره الى « ريدنج » وعاش الشاعر بعد عودته فترة من الزمن بالقرب من كنيسة « سانت برايد » وعن كُتب من شارع « فليت » - الذى أضحي اليوم شارع الصحافة فى لندن - وقضى بعض وقته فى تعليم ابنى أخته التى تزلت . ومن هنا انتقل الى بيت فى « الدرزييت ستريت » له حديقة وفيه عدد كبير من الحبرات ومتسع لكتبه الحبيبة اليه ويتوفر له جوار ساكن هادئ . والى هذا البيت أتى بزواجه الأولى « ماري باول » وهى بنية فى السابعة عشرة . ووالدها رتشارد باول من المملكين المتصين !

وبدأ ملتون حربه بالكتيبات فى سنة ١٦٤١ ولم يخطها الا فى سنة ١٦٦٠ ، ولم يكن له من موضوع فيها جميعها الا الحرية على اختلاف أنواعها . فدافع عن الحرية الدينية ، وعن حرية التعليم ، وعن الحرية المدنية ، وعن الحرية المنزلية وعن حرية الصحافة والنشر عموما . وقد طبع جانب من هذه الكتيبات والنشرات غفلا من اسم مؤلفها . ولعل أشهر هذه الكتيبات الخمسة والعشرين « خطبة للمسترجون ملتون فى الدفاع عن حرية الطبع بدون ترخيص ، مقدمة الى برلمان انجلترا » . وهذا هو العنوان الفرعى للكتيب ، أما العنوان الاصلى فهو « أريوبايتيكا » نسبة الى « أريوبا جوس » المحكمة العليا التى كانت تعقد بأثينا قديما فى الهواء الطلق وكانت أحكامها نهائية لا تقبل النقض وسبب هذه النشرة أو الخطبة المطبوعة أن قرارا

وكانت الصفحة الأولى من المجلد عبارة عن صورة للمؤلف الشاعر وهو في سن الحادية والعشرين . وبعد ذلك بأربع سنين انضم جون ملتون صراحة الى صفوف من اصدروا أمرهم بقطع رأس الملك باصدار كتابه « ايكونوكلاستس » في الرد على أنصار شارل الأول ، وكتابته « حقيقة الأمر في حقوق الملوك والحكام » . وقد بلغ من شدة الاقبال على طلب الكتاب الأول انه طبع خمس عشرة طبعة في غضون اثني عشر شهرا ، وامسى من أشهر الكتب في العالم يومئذ .

وفي سنة ١٦٤٩ عين مؤلف هذه الكتب والنشرات السياسية النزائية سكرتيرا لاتينيا لمجلس الشؤون الخارجية ، وكانت اللغة اللاتينية هي اللغة الدولية الدبلوماسية كالفرنسية والانجليزية في أيامنا هذه . فكان هو الذي يتولى ترجمة الوثائق والمذكرات الدبلوماسية من الانجليزية الى اللاتينية ومن اللاتينية الى الانجليزية .

وكان ملتون في هذه السن قد تنقل في مساكن شتى الى أن استقر في شارع الدوق بوستمنستر ، وهناك كتب رسالة سياسية عنوانها « دفاع عن الشعب الانجليزي » في سنة ١٦٥٠ ، وهو رد عنيف ساحق على كتيب من تأليف عالم فرنسي مرموق اسمه « سلاما سيوس » دفاعا عن سياسة الملك شارل الأول بطلب من الأمير الذي أضحي فيما بعد ملكا على انجلترا باسم شارل الثاني . وقد كتب ملتون دفاعه بتكليف رسمي من «مجلس الدولة» وهو مايقابل مجلس الرئاسة أو مجلس الوزراء . والحق أن لغة « الدفاع » كانت عنيفة حافلة بالمطاعن الشخصية والسباب ، بيد أن حقوق الشعوب عموما لم تظهر بأجلى من هذا البيان وأقوى من هذه الحجة .

صدر من البرلمان في سنة ١٦٤٤ يحرم على أي شخص أن ينشر كتابا أو كتيباً أو نشرة أو صحيفة ما لم يكن قد صدر له بنشرها ترخيص سابق . وفي دفاع ملتون الحار القوي عن حرية الطبع والنشر والفكر يقول بحق : « ما أكثر من يعيشون من البشر عالة وعبثا وكلا على الأرض . أما الكتاب الجيد فعصارة دماء الحياة التي تجري في فكره وروح نابغ ، وقد حنطت هذه العصارة واختزنت ذخرا للناس ، ولكي تكون لهم بها حياة تتجاوز آفاق الحياة » . وقد صدر هذا الكتيب بدون ترخيص ، ولم يسجل رسميا في ديوان المطبوعات ولم يحمل اسم طابعه أو ناشره ، بل اسم مؤلفه الذي تصدى لحمل المسؤولية مفردا .. وقد نشر كتيبه عن حرية التربية والتعليم في سنة ١٦٤٤ أيضا .

ولم يكن جون ملتون راضيا عن أعماله النثرية هذه كل الرضا ، بل كان يقول في التعليق على ذلك : « اني لا أستخدم بكتابتها سوى يدي اليسرى » أما يده اليمنى فللشعر دون سواه ، ميدانه الأثير الذي لا يعدل به شيئا . ولم تكن يمناه مشلولة ولا معطوبة مثوبة في تلك الفترة النثرية من حياته حاشا . بل هي كالفرند الصقيل المذخور في قرابه الى حين . وكانت يمناه التي تملك ناصية القريض تستجيب الى يوم موعود تتألق فيه آياتها كالنجوم الدراري .

وفي سنة ١٦٤٥ — وهي السنة التي منى فيها الملك شارل الأول بهزسته الساحقة في « نيزبي » صدر مجلد عنوانه : « اشعار من نظم مستر جون ملتون بالانجليزية واللاتينية تم نظمها في أوقات شتى » . وطبعت في هذه المجموعة أعمال شبابه الشعرية ومنها « الليجرو » و « بنسروزو »

ولا هراء في أن انكبأه الشديد على أداء واجبه الرسمي والوطني في معركة الحرية الدينية والسياسية والفكرية قد عجل بانهاء ضعف بصره الى فقدان هذه الحاسة كل فقدان . ونراه يسجل ذلك في دفاعه الثاني عن الشعب الانجليزي قائلا: « لقد خيرت بين نهوضي بواجب أسمى وبين فقدان حاسة البصر . ووجدتني عاجزا عن الاصاخة لنصح الطبيب ، وحتى ولو كان النصح موجها من لدن ايسكولايبوس . « ابي الطب » متحدثا الى من قدس أقداسه ا فليس يسعى الا أن أصدع بأمر وجداني الداخلي الذي تحدث الى بما تدعوني اليه السماء . فقررت أن استخدم القليل الذي بقى لي من بصرى في تأدية أعظم خدمة في مقدورى تأديتها لأمتى . وفي منتصف سنة ١٦٥٢ - وقد بلغ شاعرنا الرابعة والأربعين من عمره - أصيب بالعمى التام، ومنذ ذلك التاريخ لم يعد في مقدوره أن يعمل الا بسعونة سواء . وقد ظل مع هذا يقوم بواجباته الرسمية . ومن حسن حظ دارسى ترجمة حياته أن هناك خطا بديعا كان قد ارسله الى صديقه ليونارد فيلاراس الذي كان قد وعده بالتوجه الى « تيفينو » طبيب العيون الفرنسى الكبير بالاستفسار عن مدى امكان شفاء الشاعر من عاهته . وفي هذا الخطاب لانجد ملتون نائرا ساخطا يلعن الأقدار التى رمت به هذه الآفة القاسية ، بل تلقى مذعنا في هدوء وفكاهة حسنة لذلك الظلام الأبدى فى ايمان وجلد :

« أيا كان أمر شعاع الأمل الذى قد يكون مدخرا لى عند طبيبك الشهير ، فانى قد ولنت نفسى على أنى حالتى لا شفاء منها وتأهبت للحياة على هذا الأساس . . وقد وجدت الظلام الذى يكتنفنى أيسر على نفسى محملا - بكرم من الله وفضل

عظيم - وأنا موزع الأوقات بين الاستجمام والدرس وأصوات التحيات المنبعثة من الأصدقاء من حولى . ولئن كان قد كتب أنه « ليس بالخيز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الرب » فما الذى يمنعنى من الاطمئنان كذلك الى أن بصر الانسان ليس فى باصريه فقط ، بل فى هداية الله وعنايته ، وان فى هذين الكفاية والغناء له عن عينيه ؟ الحق أقول انه مادام الرب ينظر لى ويتمهدنى كما يتمهدنى الآن بالهداية والارشاد ، ويقودنى بيده العلية قدما على امتداد العمر ، فانى عن طيب خاطر - مادامت هذه مشيئته - انزل عن مقلى وامنحهما عطلتها الكبرى .. »

وبصبر عظيم ظل ملتون يكدح وينصب رغم الآفة القاسية واضطراب حياته البيتية : فقد كان زواجه الأول عاثر الجد ، ولم تفهمه بنت السابعة عشرة التى بنى بها وهو فوق الثلاثين ، ولكنه فى سنة ١٦٥٦ - أى بعد عماء بأربع سنين - تزوج امرأة يصفها بأنها قديسة ، وبعد خمسة عشر شهرا قصيرة من السعادة والهناء تزعتها الأقدار منه وتركه وحيدا محزونا حقا . ومع أن له ثلاث بنات من زوجته الأولى كن يقدمن له العون ما استطعن الا انهن عجزن عن فهم مزاج والدهن الخاص ، ويبدو أنهن كن كوالدتهن عاميات الذوق والعقل، فكان له نعمة تخالطها النعمة والتغصيص .

وفى سنة ١٦٥٨ مات بطل ملتون القومى .. مات اوليفر كرومويل . وكان قد شرع فى هذه السنة عينها ينظم ملحمة الكبرى : « الفردوس المفقود » بيد أن ملتون ظل محتفظا بمنصب « السكرتير اللاتينى للشئون الخارجية » الى أن صار فى حكم المقرر نهائيا عودة الملكية .

فلما كان الخريف التالي شرع فى صمت ينظم ملحمة الثانية « الفردوس المستعاد » وفيها يتحدث عن انتصار المسيح على الفوابة .

ولم ينشر « الفردوس المفقود » الا فى سنة ١٦٦٧ ، ولم يدرك عليه هذا المجلد من الشعر الثمين الفخم الا اقل القليل : لا أكثر من ستين جنيا اوفى سنة ١٦٧١ نشر « الفردوس المستعاد » و« شمشون الجبار » فى مجلد واحد ، وكان ملتون قد عاد الى الاقامة بلندن المعتمنة الكثيرة الضباب بعد انتهاء الوباء وبعد حريقها الكبير فى سنة ١٦٦٦ ، وظل مقيما بها الى أن وافته منيته فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٦٧٤ عن سبع وستين سنة تقريبا .

وقد ظل جون ملتون حتى نهاية حياته ينهض من فراشه فى الساعة الرابعة صباحا فى فصل الصيف ، وفى الساعة الخامسة صباحا فى وقت الشتاء .. ويأوى الى الفراش بانتظام فى الساعة التاسعة ، ويبدأ يومه بالاستماع الى فصل من الكتاب المقدس يتلى عليه ، ويختتمه بتدخين غليون منفردا بنفسه . وفيما بين هذين الوقتين يفكر ويصمم أعماله ويمليها ويراجعها وينقحها فى فترات متقطعة صدر النهار ، وفى المساء يسمر مع صديقه الود أو « أندرو مارفل » الذى كان يعاونه فى عمله عندما كان « السكرتير اللاتينى للشئون الخارجية » وكثيرا ما كان يلتبس الترفيه والتسرية بالاصغاء لأنغام الأرغن أو الباص ، لأن استجابته للموسيقى كانت عظيمة جدا .

وكانت نظرته الى الحياة دقيقة مرهفة صارمة كالنغم الموسيقى المضبوط . كان شعاره أن « من يسيطر على نفسه ويتحكم فى انفعالاته وشهواته ومخاوفه أحظى من أى ملك على الأرض وأقوى

وقد قبض على ذلك المناضل السياسى الخطير بقلمه ولسانه ، ولكن يبدو أن الحقد الملكى عليه لم يكن بعيد الجذور فسرعان ما صدر العفو عنه ، وانتقل ملتون الى شارع « جون » وهناك تزوج للمرة الثالثة . وتنقل بعدها فى يتين ، ولما حل « الطاعون الكبير » فى سنة ١٦٦٥ واجتاح مدينة لندن هجرها بين من ولوا الادبار من المدينة المنكوبة ، وأقام فى كوخ بمقاطعة بكنجهام بقرية « تشالفونت سانت جايلز » (وقد اشترته الأمة تخليدا لآثاره فى سنة ١٨٨٧) وكانت تسمى فى ذلك الحين « جايلز تشالفونت » . وقد اختاره وأعده لأقامته صديق شاب أديب من جماعة المهترئين (الكويكر) اسمه « توماس الود » . وفى ذلك الكوخ ، وفى حجرة صغيرة منخفضة السقف تفرها أشعة الشمس التى لا يستطيع أن يراها أتم جون ملتون اللساعات الأخيرة فى « الفردوس المفقود » تلك التحفة الفذة التى تعتبر من أعظم آيات التصوير اللفظى ، نظمها بالشعر المرسل حول سقوط آدم وحواء وحرمانهما من نعمة الرب وما ترتب على ذلك من نتائج فقدانها الجنة .

وكان الصديق توماس الود يتردد على الشاعر لقرب مسكنيهما فى الريف ويطالع له فى أعمال هومر باللغة الاغريقية ، ويسجل التعليقات التى يتفوه بها ملتون . وذات يوم طلب اليه الشاعر أن يتصفح مخطوط « الفردوس المفقود » ليبدى رأى فيه ، وعندما أعادها الشاب اليه وهومفتون بما قرأ قال له : « انك يامسدى قلت الكثير عن الفردوس المفقود ، فماذا عساك قائلا عن الفردوس المستعاد ؟ » . ولم يرد الشاعر عليه بغير الصمت ، وتجاهل سؤاله .

سلطانا « وقل بين البشر من كانت حياته صورة
مطابقة لفلسفته ومبدئة كجون ملتون في تعلقه
بالجمال وشدته على نفسه وسيطرته على زمامها
وتجلده الأدبي لطوارق الحداث التي كأنما احنقها
تحديه وجبرته فتعمدته بالامتحان العسير ، فكان
لها الكفاء الكريم والقرن الفصل الذي لا يجده
له أنف !

٢ - أدبه

ولئن كان جون ملتون الشاعر الوحيد الذي
آمن بالتطهر (البيوريتانية) إيمانا حقيقيا وعمليا ،
فقد كان في الوقت عينه ذا شخصية قوية جدا
بحيث لا يجوز أن نعتبره في المقام الأول ممثلا لتلك
العقيدة ، وإنما هو يمثل نفسه وطبيعته الخاصة
الفذة قبل كل شيء . فجون ملتون أعظم من جيله
كله بحيث لا يمكن ادماجه فيه ولا في أى جهة
محددة من أوجه نشاطه ، فهو شخصية فذة قائمة
بذاتها لا تنضوى تحت أى شمار أو عنوان أو مقولة
في عصره كله ، وتأثره ودينه لأسلافه جد قليل
في نهاية كل حساب ، حتى إزاء من أعلن صراحة
اعترافه بفضلهم عليه ، وهم على الأخص سبنسر
وجونسون وشيكسبير .. ثم إن له ميدانه الأوحده
على اختلاف افانين أدبه ، ألا وهو ميدان المشكلة
الخلقية كما تتراءى لعقله ووجدانه . وليس كذلك
شكسبير بتعدد آفاقه الذي يكاد لا يحيط به
الحصر . وانه لمهف الأذن للايقاع الموسيقى
المنساب في وقار وجلال ، وليس كذلك شعر
جونسون بخشوته النثرية وموسيقاه الوعرة ..

لقد كان ملتون يكتب لروح واحدة يعنيه
أمرها وخلصها ، تلك الروح روحه شخصيا . فكان
أول شاعر ينشئ عملا فنيا روحيا يجمع بين كمال

الفن القديم وحرارة الانفعال أو الوجدان الخلقى
الصميم الحميم على نحو ما يتراءى في الكتاب
المقدس بعهديه الجديد والقديم . ففي قلبه الكبير
نشب الصراع محتدما بين عبادة الطبيعة كما عاشها
الوثني وبين التدين الروحي كما عرفته المسيحية
المتنطسة . ومن امتزاج هذين النغمين العميقين قدم
لنا ملتون معزوفاته اللفظية الرائعة . وقد تنفوت
نسب هذا الامتزاج الثنائي على حسب سنوات
عمر ملتون ومراحل حياته الفنية ، إلا أن الامتزاج
موجود دائما . وما من شاعر سواه في الأدب
الانجليزى كان عميق التدين الى هذا الحد الكبير
وعظيم الحظ من روح الفنان في آن واحد .

ولعل أهم أعمال شبابه قصيدته عن صبيحة
ميلاد السيد المسيح ، وهى من أعذب الشعر وأغناه
بالموسيقى ، ثم أوبراه على طريقة الأقتنة المسماة
« كوموس » وموضوعها أخلاقي في المقام الأول
وكل مقومات العمل الدرامى فيها مجمدة أو مكبوتة
بحيث تظل الشخصيات عبارة عن فضائل مجردة
وأصوات ناطقة بوجهات النظر وليس لها كيان من
لحم ودم... وكل ما فيها من الشعر لا يخاطب إلا الأذن
والذهن ، ولا يكاد يحرك المشاعر فيما عدا ذلك
المشهد الذى تدخل فيه الفتاة الغابة وتنادى أخوتها
في أغنياتها الموجهة الى « الصدى العذب » .. ولكن
القارئ لذلك الشعر المترف الذهنى لا يتمالك
نفسه من الاعجاب الشديد بتلك التريمة المتعددة
الأصوات والمتغنية بالفضيلة فى أرقى نظم موسيقى
النبرات . فهو شعر للقراءة لا للاستماع فى ملاعب
التحليل لفقر المبنى الدرامى أولا وعدم اتصال
الشعر بالقلب مباشرة ، وإنما هو متنزّه ومراض
للعقل يرجع فيه النظر ويتملاه مستأنيا ومستمتعا
بجمال الأسلوب الشفوف كالبلور ، تلك الشفافية

التي يدرك النظر المتأمل انها جاءت نتيجة مراجعات وتشذيب وتصفية متكررة لم تبق بعدها الا الخلاصة النقية من كل شائبة وكأنها موسيقى خالصة في مقاطعها الرنانة ، سواء في ذلك المواضع المرسلة والمقفاة .

ولم يكن قد انقضى على ظهور مسرحية « العاصفة » لوليم شكسبير أكثر من عشرين سنة عندما ظهرت في الوجود أوبرا الأقمعة « كوموس » لجون ملتون ، ولكن الفارق المعنوي يبدو هائلا بالنسبة لهذه الفترة الوجيزة اذا نحن قارنا شخصية « أويل » الشيكسبيرية بشخصية « الروح الحارس » الملتونية ، فذلك الجنى الذى كان يتذمر تحت نير الانسان قد أخلى مكانه لملاك ذى رسالة خلقية يدرك غايته ولا يمكن أن يحيد به شيء دون تمامها . وكلا الروحين يغادر العالم بعد الفراغ من مهمته بيد أن الملاك الملتونى يصعد الى السماء وسط رؤى ميتولوجية ذات مغزى خلقى وعلى لسانه كلماته الأخيرة عن جمال العفة ، فى حين ينطلق الروح الشيكسبيرى لائذا بالفراغ كأنه الفراشة الهائمة ...

وثمة عبرة أخرى نخرج بها من هذه المقارنة بين الشاعرين الصلاقيين فى هذين العمليين وغيرهما من الأعمال أيضا . ففي حين يندمج شيكسبير فى مخلوقاته الفنية فلا نراه ، نجد ملتون فى حقيقة الأمر الكائن الوحيد الحى بمعنى الكلمة فى جميع أعماله الفنية . فبطلته فى كوموس هى ملتون بعينه ، وعلى لسانها ينطق ملتون بكل كلمة من كلمات القصيدة ويترجم عن تجاربه النفسية من خلال تجاربها ، ويعبر عن قننة الحواس وغوايتها التى عرفها وامتنحن بمقاومتها فى شبابه .. والمستوى الخلقى فى « كوموس » هو مستوى أخلاق ملتون

بغير زيادة ولا نقصان . مستوى رفيع متعال متوحد .. والفضيلة فى هذا المستوى متباعدة عن بنى البشر متساوية فوقهم - فضيلة واثقة بذاتها معتدة براسها تتجاهل سواد الناس وجماهيرهم المتردية فى الخطايا فلدى ملتون الشاعر مؤلف « كوموس » لا يكون الصفوة المختارة الا قلة قليلة ، كما كان الشأن عند أتباع « كلفين » فالملك الحارس لا يحرس ولا يرأى بنياته فى هذه المسرحية الشعرية الا أنقياء القلوب دون الاشرار وأنصاف الصالحين وما من شك أن معظم من شهدوا هذه المسرحية قد شعروا - ان هم أحسنوا الفهم - أنهم مستبعدون من زمرة الأخيار الأصفياء !

وملتون فى هذه الفترة من شبابه ، حتى الثلاثين أو بعديها قليلا ، كان لم يزل سليل عصر النهضة وسماته ظاهرة فى أعماله ، واضحة فى شغفه بالجمال وتحريه إياه فى خشوع الوثنى القديم ..

وقد اندمج بعد ذلك فى معترك السياسة بكثير من النثر ، ولم يكتب فى تلك المدة الا القليل من المقطعات الشعرية ، الى أن انتهت المرحلة النزالية السياسية بمودة الملكية وصار رهين محبسه : محبس العزلة عن السلطان فى عهد مناوى لمبادئه ومحبس العمى .

وفى هذه الهدأة المتفرغة للفن والثقافة كتب ملتون أعماله الثلاثة الكبرى . ثمرات فترة نضجه الرائع ، وهى الفردوس المفقود (وقد نشر سنة ١٦٦٧) والفردوس المستعاد وشمشون الجبار « وقد نشر معا فى سنة ١٦٧١ » فاذا بملتون آخر ، له وجه جديد غير معهود من قبل يتبدى للناس ، ويتربع على القمة بين الخالدين !

كانت محنته الخاصة - فى زواجه ثم عمه - ومحنته العامة فى قضية بلاده وأمته والدفاع عن حريتهما ضد الطغيان والتعصب ، ومشاركته فى عمليات التطهر والتنطس ونشر الدعوة اليهما .. كل ذلك جعل مزاجه العقلى يتجه الى الجسد وينطوى دائما على افتراض الصراع والتقابل الثنائى بين الشئ وضده ، وصار بطبعه النزالى المتجهم يتنكر للعدوبة التى سادت أشعاره فى صباه ، ويرى فى اطراد القافية زينة ينبوعها طبعه ، وصار ينحو الى موسيقى أشد خشونة وأخفى انساقا تعتمد كل الاعتماد على الايقاع ، ولذا لم يكتب فى سنوات نضجه شيئا غير الشعر المرسل ، وطرح وراء ظهره مع شبابه المطوى الناصر ألحان الغناء والأهازيج والمقطعات والريفات والموضوعات الخفيفة . وبذلك تخلص الشاعر الأعشى من سمات عصر النهضة التى رأيناها واضحة فى أسلوب شبابه وترك موضوعات الفن الى موضوعات الدين وحدها فتغنى بالخلق وسقوط الملائكة وسقوط الانسان وغزو المسيح للجنة كى يرثها الصالحون من البشر ، وحدثنا عن تضحيات شمشون الذى مات طائعا مختارا عندما تحقق أن موته سيجرمه موت أعداء بلاده وأمته .

ونخص بالحديث الفردوس المفقود ، وهو أهم أعمال ملتون ويت القصيد من هذه الدراسة ..

الفردوس المفقود ثمرة تأمل طويل لهذا المتطهر (البيوريتانى) فى صفحات الكتاب المقدس وأسفاره مصورا بالشعر المرسل الفخم تلك الرؤى التى أثارها لديه هذه التأملات ، غير تارك أيما شئ يتوسط بينه وبين الكتاب المقدس ، وبذلك سمح لنفسه وأتاح لها الحرية الكاملة فى تأويله ، ولكن فى إطار الايمان الكامل بما ورد فيه . فهو

يتقبل التاريخ المروى فى التوراة تقبيل التسليم بصحته وقداسته . بيد أنه يعيد روايته باعتباره مثلا لثقافة عصره ومعرفة أحوال زمنه وبأسلوب درامى . وكان من نتيجة ذلك أنه قام بعملية « اسقاط » لذاته ومشاعره ومعلوماته وتطلعاته وثقافته على الشخصيات التى صورها وأبرزها فى ملحمة ، سواء فى ذلك المخلوقات الآدمية البدائية والكائنات فوق البشرية ، المساوى منها وغير المساوى .

وكانت النتيجة العجيبة قيام صراع متصل بين ايمانه وطبيعته مما أدى بالقصيدة الى الانحراف عن هدفها والى توزع التعاطف بين أشخاصها رغم ارادة الشاعر ونيته الأصلية .

والمغزى الاخلاقى الذى يستخلص من سفر التكوين فى التوراة وجوب الاذعان لمشيئة الخالق سبحانه ، وان عصيانه خطيئة . ولكن ملتون الذى نظم « الفردوس المفقود » ليؤكد هذا المغزى كان مستقل التفكير والسلوك . بل لقد مضى الى أكثر من ذلك فى تأييد موقف الاستقلال الفردى فنادى بالتمرد على سيطرة الكهنة ، بل وسيطرة الملك نفسه ، وأطرى بحرارة الحكم باعدام الملك ومجد قاتليه . ومعنى هذا انه دون ارادته كان يمكن نفسه متعاطفا مع الشيطان فى ملحمة ، فالشيطان هو المتمرد الأعظم على السلطة العليا وعدو الرحمن المين . وبتقوى تكاد تكون آلية تغنى ملتون من شفتيه بمحامد الطاعة والاذعان ولكنه بسويداء فؤاده تغنى بأمجاد الحرية وعظمة التمرد على القيد والاصرار على الاستقلال فى الرأى والعمل ! وبذلك كان حتما لامناص منه أن يضع ملتون - وهو لا يدري - أعظم وأعمق جوانب ذاته فى شخصية الشيطان بأنفته وكبريائه ووعورة مزاجه .

لقد رأى ملتون من واجبه ، وهو المؤمن الصادق ، أن ينظم ملحمة « الفردوس المفقود » ليبرر طرق الرب أمام البشر ، ولكنه خرج فنيًا بنتيجة أخرى لأن هذه الغاية المنشودة لم تتجاوب مع نوازع قلبه ذات المسارب العميقة التي حفرتها تجربة حياته النضالية والنزالية ووجدت صدى وهوى من طبيعة التفرد لديه . وإنا لنراه في هذه الملحمة الهائلة يحاول ذلك بالخطب البليغة والحجج الدقيقة بعضها مستقيم وبعضها الآخر منطو على مغالطات . ولا ترتفع هذه الجوانب من القصيدة الى المستوى الأعلى ، فالعصر الشخصي الذاتى فيها قليل ، وقصاراها أنها جهد تلميذ أحسن الأخذ عن اللاهوتيين القدامى والمحدثين . بل لقد أثقل هذا الجانب قصيدته بالمجاذلات الفقهية عن سابق علم الله وعن كنه حرية الإرادة البشرية في إطار علم الله السابق وسالف تقديره لأفعال الخلق . وهى مباحث ينوء بها أى عمل فنى ولا مراء .

وأدعى للتناقض والاحساس بعدم الارتياح أن تأتى هذه المجاذلات الدقيقة على لسان كائنين بدائيين مثل آدم وحواء يتسوق المرء أن تكون فعالهما ثمرة رغبات وأحاسيس مباشرة مهتدين بالفريزة الغفل وبواعثها الساذجة ، فكيف ومن أين لهما استخدام أنواع القياس بهذه البراعة الارسطية والمدرسية (السكولاستية) وهكذا صارت الملحمة مسرحا لآراء عصر ملتون ومعسكرات الفكر فيه على تعدد مستويات الثقة ووجهات النظر ، مما خرج بالجو الاسطورى عن مبناء الحقيقى - على حد تعبير الناقد الفرنسى العظيم «تين» فى حملته على الفردوس المفقود معتمدا على هذه المفارقة فى بيان أوجه السخف فيها بشئ كثير من المبالغة.

والحقيقة أن المخيلة الخلاقة - الشكسبيرية مثلا - التى تخرج المرء من ذات نفسه وإطار عصره ومكونات ثقافته ليستدع أو يتصور كائنات أخرى غريبة عنه كل القرابة ، لم تكن من بين مواهب ملتون الذى كان شديد التركيز فى ذاته ومشكلاته الا أنه كان قادرا على التصور المترامى الآفاق ولكن قياسا على ذاته لا مبالينا لها فى الصميم .

وبهذه القدرة على التصور البعيد الآفاق الشمولى النظرة تتميز صورته من الفردوس المفقود، وتتمايز عن صور دانتى مثلا . وكثيرا ما وضع الدارسون جحيم كل منهما موضع المقارنة . فإذا جحيم دانتى مكون من جزئيات كثيرة التفصيلات، أما جحيم ملتون فهائل بصورته الكلية التى تطلق الخيال ولا تقيد ، وبذلك كان أثره فى النفس أهول من جحيم دانتى مرارا كثيرة . أما صورة خلق العالم عند ملتون فلا تقل عن صورة جحيم روعة وعظمة . فقد استطاع بمخيلته القوية أن يجعل نصوص سفر التكوين تنبض بالحياة التى تكاد ترى بالعيان وتلمسها اليدان .

أما وصف الجنة - جنة عدن - فقد قال بعض الناعين على ملتون انه أشبه بوصف حديقة انجليزية مترامية من حدائق قصور الرف . وهذه المفارقة فى براعة وصف جهنم وتخلقه عن ذلك المستوى فى وصف الجنة أن وصف الجحيم تناج تخيل لا أصل له من معطيات الحس المألوفة فى الدنيا ومن هنا جاء الابتكار الذى لا حدود له ولا قيود . أما وصف الجنة فله بالضرورة أصل محسوس فى الدنيا ، والمثل الأعلى لكل بستان أو حديقة لا بد أن يكون نابعا فى تخيله عن مألوف الشخص فى الواقع . ومع هذا كله فجنة ملتون من أبدع الأوصاف الشعرية الحية وقد غنى والحق يقال بترينها بكل مبتكر

من بهارج الزينة وأعاجيبها الآخذة بالألباب ، مما يجعل جنته من أبدع أحلام البشر المحيين للطبيعة.

وقد نقل ملتون الى هذه الجنة مأساة الضمير والوجدان ، وصور الانسان فيها حائرا مترددا بين الخير والشر معرضا للغواية مشفيا على السقوط . وقد أمدته التوراة بعناصر هذه المأساة التي خبرها في حياته . أليست الطبيعة قد نصبت له شراكها في فتنة المرأة وأوشكت بذلك أن تدمر حياته تدميرا ؟ لقد تزوج وهو في الخامسة والثلاثين فتاة ملكية العقيدة متعصبة أشد التعصب ، ثم هجرته هذه الزوجة بعد ذلك فانبرى في غضب شديد يطالب بسن تشريع يبيح الطلاق . ولم تستطع المراتن اللتان تزوج فيهما بعد ذلك أن تمحوا بحلاوة التوفيق والهناء مرارة نفسه وسخطه الجامح . فظل على اعتقاده أن الخطر الأكبر على روح الرجل كامن في المرأة ، وهو خطر هائل يستمد وباله وجسامته من شدة قابلية الرجل وحساسيته للحب . وبذلك أعاد النظر بما يقرب الرأي السائد في تقديس المرأة وتنزيهاها والتغنى بطهرها ورقتها وسمو مشاعرها . وكان هذا الرأي سائدا منذ المصور الوسطى ، وفي آداب الفرسان ، وبه تغنى الشعراء جميعا من قبله .. حتى لقد صوروا المرأة أنبل بطبيعتها من أن تطيق رغبات الرجل الجسدية ، فهي مخلوق ملائكي اثيري لا يناسبه إلا الحب الافلاطوني تجفو عن الجسد وان لم يجف الجسد عنها ..

وشتان هذا التصور السائد حينذاك وتصور ملتون ! فالمرأة عنده أقل من الرجل . مخلوق ناقص . مخلوق خطر مالم يحكم الرجل السيطرة عليها بحيث يسد منافذ شرها !

ومن وحى تجربته الأليمة وجد المداد الذي

صور به قصة حواء أم البشرية مع آدم ! فحواء ملتون فاتنة نزقة كثيرة النزوات والميوعة والانحراف عاجزة عن التفكير السديد ، وفريسة سهلة جدا للمغالطات وأحاييل العفلة ! ومن واجب الرجل أمام كل حواء ألا يتطامن لها ، بل يشعرها بسلطانه عليها ويصر على هذه المكانة بلا هوادة ، ولم يكن بلاء آدم واثمه الويل الا ثمرة تراخيه وتدليسه حواء .

ويتنرد ملتون على الاعتقاد السائد بتفضيل البكارة العذرية على الزواج ، فالحب الزوجي الذي يجعل من الرجل والمرأة جسدا واحدا وروحا واحدا هو المثل الأعلى للحب عنده وفي إطار هذا الحب الزوجي يرى الفضيلة الكبرى للرجل والمرأة معا وسعادتهما العظمى أيضا . وهو حب بعيد عن النقيضين على السواء : الفجور البهيمي والرهبانية أو الافلاطونية .

٣ - الفردوس المفقود

وقصة الفردوس المفقود هي قصة خلق آدم وحواء وسقوطهما كما ترويها التوراة في سفر التكوين ، وخلاصتها توشك أن تكون تكريرا معادا بلا زيادة ولا نقصان .. ولذلك فالأولى بالفرض من هذه الدراسة أن تتبع مشاهد القصة في شذرات مختارة من ملحمة ملتون تفي بالغاية من التعريف بالمضمون ومن ايراد النماذج بنصوصها الكاشفة لخصائص الأسلوب الفني في آن واحد :

✽ تبدأ الملحمة بدعوة يوجهها الشاعر الى عرائس الفن السماوية أن ترشده وتلهمه في صدد :

« أول عصيان بدر من البشر وثمره تلك الشجرة المحرمة التي جلب مذاقها القاتل لعنة الموت

على العالم ، وكل ما كان من ابتلائنا بفقدان جنة عدن ..

« ألا خبرينا - فالسما في علاها لاتخفى عن ناظريك شيئا ولا الجحيم في مهاويها - ما الذى حدا بجدينا الأولين وقد كافا فى رحاب النعيم ترعاهما السماء بأحسن الرعاية والتكريم أن يهبطا فيسقطا من العظوة الالهية بمخالفتها تحذيره الأوحد لهما ؟ من كان أول من أغواهما ليقدماعلى ذلك التمرد المشنوم ؟

« انه الافعوان الجهنمى ، فهو الذى استشار لواعج عذره زناد الحسد والانتقام فخدع أم البشرية ، وخبرنا كيف دفعت به كبرياؤه الى ما استوجب طرده من السماء ومعه كل أجناده من الملائكة المتمردين ، فصاح به صوت العلى القادر الجبار : الى مهاوى الهلاك التى ليس لها قرار الى شواطئ جهنم وسعيرها مكبلا بأغلال لافككك منها ، جزاء وفاقا لما اجترأت عليه من تحدى ذى الجلال والانعام !

« ولكن الشيطان لا يأس ، ويجمع أجناده ويقوم فيهم ذات وقت خطيبا فى كبرياء لاتعترف بالهزيمة ، ويستنهض عزائمهم :

« ان الذى يتربع عاهلا فى السماء لم يزل حتى الآن مستقرا على عرشه مؤيدا بسمعته القديمة وبالأذعان وراسخ العادة .. ولكننا نعرف مدى بأسه ، وبأسنا أيضا معروف لنا .. ولم يزل أمامنا أن نحقق أفضل جانب من غاياتنا .. وذلك الجانب الأفضل أن نعمل بخطة تامة الاحكام فنصل بالخديسة والختل الى ما لم نصل اليه قدما بالعنف والبطش ! وبذلك يعرف فى خاتمة المطاف على

كل حال أن من يقهر خصمه بالقوة الغاشمة فحسب لم يقهر منه فى الحقيقة الا نصفه !

« وفيما هو يتكلم أيد أقواله بملايين السيوف خرجت من أفخاذ أجناده فأضاء لمعانها ما حولها من الجحيم ، وارتفع صياحهم وقهقهوا بأسلحتهم فى ضراوة على دروعهم الرقاة ، ملعين تحديهم لمملكة السماء»

« وعقد أولياء الشيطان مؤتمرهم الكبير ليتشاوروا فيما يصنعون للاتصار على الرحمن وتخريب مملكة السماء الى أن استقر رأيهم على مهاجمتها من أضعف نقطة فيها وهى الخليقة الجديدة الانسان .. والى الجنة يرقى ابليس متسللا ويستعرض فى فكره ووصفه جميع مخلوقات الحياة المعجبة الى أن يأتى ذكر الانسان ، ذكر آدم وحواء فى نعيم الفردوس الأعلى :

« هاهما مخلوقان أنبل سائر المخلوقات هناك بكثير من حيث الهيئة:منتصبة قامتها فى استطالة.. فيهما مجد فطرى،وعريهما مهيب فى جلاله وجماله.. يبدوان سيدين على كل ماحولهما. أما هو فمجمول للتأمل والبأس.وأما هى فمجمولة للنعومة والرقّة والرشاقة واللفظ الجذاب ! هو مجمول لله فحسب ، وهى مجمولة لله من خلاله .. وهكذا مرا بى يدا فى يد ، فاذا هما أحب وأحلى زوجين من المخلوقات جمعت بينهما رابطة الحب .. أما هو فأدم أقرب أبناء سلالته الى الله فهو صنيعة يده مباشرة . وأما هى فأجل بنات أحشائها : حواء !

« ويتخذ الشيطان صورة أكثر من حيوان من حيوانات الجنة كى يتاح له الاقتراب منهما وسماع حديثهما ونجوى سرهما ، فيكتشف من أقوال آدم أن التحريم الأوحد الذى قطعه الله عليهما

الاقتراب من شجرة المعرفة والأكل من ثمراتها
أما حواء فكان حديثها كله عن جمالها ، وكيف نظرت
أول ما برزت للوجود الى صورتها فى صفحة عدير
من غدران الجنة فرأت نفسها أجمل الخلق ..
أجمل من آدم نفسه ، الى أن اقترب منها آدم :
« وأمسكت يدك الحانية بيدي ، واستلمت .. !
ومن ذلك الحين أدركت كيف يتفوق اللطف والحكمة
الصادرة عن الرجل على جمال الشكل ، وعرفت
أن الحكمة وحدها هى المتفردة بالجمال الحق .. ! »

✽ ويظهر الملك رفائيل ويجرى بينه وبين آدم
حديث عن عصيان ابليس يعجب له آدم جدا ، والملك
يحذره من عصيان الله فيكون مصيره كمصير
ابليس ويطرد من الجنة وتحل لعنة الموت على
الجنس البشرى كله . ويرى تعلقه الشديد بحواء
فيحذره من الافراط فى الشغف بها فيؤثر ذلك
على حصافته وحزمه ويجر الويلات عليه وعليها
وعلى سلالتهما جمعا .

ويتهز ابليس فرصة انشغال رفائيل بذلك
الحديث ويتوارى فى مكنن حتى اذا كان اليوم
التالى سمع حواء تطلب من آدم أن تعمل بعيدا
عنه ، لأن قربها منه يشغله عن عمله ويشغلها بما
يكون بينهما من نظرات وابسامات ، وعلى مضض
يتركها آدم تبعد عنه الى خيلة كثيرة الشجر
تجمع من ثمارها ، وهنا لحق بها الشيطان فى ذلك
الاطار الرائع من جمال الطبيعة ، فاتخذ صورة
الافعوان . وكان الافعوان فى الجنة لا يزحف على
بطنه بل يسير قائما وله جمال فتان :

« كان له عنق متألق من الذهب الضارب
الى الاخضرار ، قائما منتصبا فى رشاقة حلقات
جسده التى تسير فوق الأعشاب متهادية فى جمال
يأخذ بالألباب .. »

✽ وخاطبها الافعوان بلسان آدمى - فاسولى
على مسامعها بالثناء والتسلى .. وتعجب حواء لامره
وتعجب به . وتسأله يتفوه حيوان بلغته البشر ،
فأجابها ان ذلك تسنى له بعد أن أكل من ثمرات
شجرة معينة ، وبعد أكلها أوحى اليه أن يتوجه
الى حواء بالعبادة لأنها ملكة المحلوقات نورا ! ولما
طلبت منه أن يرشدها الى تلك الشجرة قادها
الى الشجرة المحرمة ، ففزع . وضحك الشيطان
ساخرا من مخاوفها قائلا :

« يامليكة الكون ! لاتصدقى تلك التهديدات
الصارمة بالموت . لن تموتى ! فكيف تموتين ؟
أبالثمرة ؟ حاشا ! بل ستمنحك حياة بالمعرفة . أريد
من يتوعذك ؟ انظرى الى فقد لست السرة المحرمة
وتذوقتها وهأنذا حى وقد زادت حياتى عسقا
واتسعا بتطلمي الى أسى مما قدر لى ! أهبل تغلق
أمام الانسان أبواب فتحت للحى حوان ؟ ان الله
لا يمكن أن يعاقبك على ذلك العمل الذى ينافى
العدل . ومدى يدك ايتها الالهة البشرية وتذوقى
منها ماشئت ! »

✽ وأخذت حواء تحدث نفسها بسا سعتة من
الافعوان :

« قيل لنا اننا يوم نكل من هذه الثمرة اجيبه
سيقضى علينا بالموت ! أهبل مات الافعوان ؟ لقد
أكل منها وعاش ، واكتسب معرفة وحار يحذق
الكلام والتفكير والتمييز والنقاش ، وهو الذى
كان قبل ذلك من العجاوات عقلا ولسانا . أهبل
لنا وحدنا وجدت عقوبة الموت ؟ أم علينا وحده
حرمت هذه الثمرة المباحة للبهائم والأبد ؟ ها
هنا تنمو هذه الشجرة ، وفى ثمرتها شفاء كل داء
وهى ملبحة فى العين شبه تنادى الآكلين ، وتغنى
على أكلها الحكمة وفصل الخطاب . فما ينغنى

أن أمد يدي اذن وأطعم من مناعمها الروح والبدن
مما ؟ .. ومدت يدها الرعاء في ساعة الشؤم تلك
الى الثمرة فاقتطفتها وأكلت منها ، ولاذ الافعوان
الغادر بالفرار الى جوف أجمة لقاء ..»

✽ وذهبت نشوة العمل المندفع ، وشرعت
حواء تفكر فيما أقدمت عليه وتتساءل ماذا سيكون
تأثير فعلتها على آدم :

« وكيف سأبدو لآدم ؟ أخبره بما طرأ على
من تغير ؟ ولكن ماذا لو أن الله رآني ونزلت بي
عقوبة الموت ؟ سأفنى وأصير الى العدم ويتزوج
آدم حواء أخرى ويعيش هائلا ! وهذا لن يكون
ما استطلعت أن أحول دونه ! الرأي الحازم اذن أن
أحتال على آدم حتى يشاركني فعلتي : ويأكل كما
أكلت ، ليشاركني مصيري من يؤسى أو نعمى !»
وهكذا كان أول ماتعلمته حواء من المعرفة
الحياة والمكر !

✽ وما ان عرف آدم منها ما صنعت حتى وقف
شاحبا مذهولا ، وكان قد قطف لها عقدا من ورد
الجنة فسقط من يده وذبل لساعته من شدة
غضبه وحزنه ، وقال لها :

« يا أجبل مخلوق ! يا آخر صنائع الله وابدعها !
يا من كمل فيها كل ماتصوره الفكر والنظر ! أيتها
المقدسة الطيبة الحبيبة الرقيقة ! كيف أضعت نفسك
وأضعتني معك بدسيسة من عدو خادع مجهول
هكذا على حين غرة ؟ نعم أضعتني معك ، لأنه
لا سبيل لى الا الموت معك ، فكيف لى أن أعيش
بدونك ؟»

✽ وانصرف آدم بعد قليل الى الترفيه عنها
بعد أن رآها دامعة العين :

« وعسى الله الا يؤاخذك بما صنعت ، فما
أخاله يرضى أن يفنى أجبل مخلوقاته بهقوة واحدة
في لحظة طيش .. ثم انى اخترت طريقى بلا رجعة
حيث تصيرين أسير ، فإن كنت ميتة فما أطيب نفسى
بالموت معك ، والموت معك كالحياء ! فنحن واحد
ولسنا بعد اثنين !»

وبكت حواء سرورا بحبه وعانقته وأتته بشمرة
الشجرة المشنومة وأطعمته منها . فانكشفت لهما
مناعم الجسد المتوقدة . واستسلما لنداء الشهوة
الأولى ولما آفاقا أدركا عريهما وأصابهما الخزي
فغطفا من أوراق شجر الجنة ليسترا عورتيهما
وأصابهما ندم شديد وأخذ ينحى على حواء باللائمة
ويرق لهما الله فلا يقضى عليهما بالموت فورا . بل
يكتفى بطردهما الى الأرض حيث يعمرانها ، ويكون
الموت أجلا مكتوبا وقدرا محتوما في ميقات يعلم
الله وحده متى يحين . ويكتب عليهما وعلى ذريتهما
الدأب والعمل والألم ضريبة ذلك الأجل من
الوجود الأرضى .

وبكت حواء لفراق الفردوس أحر البكاء ،
ولكن لا اراد لقضاء الله :

« وهبط بهما الملك الموكل بهما الى رحاب
الأرض من جهة المشرق ثم اختفى .. ووقف جدانا
الأولان ينظران بحسرة الى موضع فردوسهما
المفقود وذرفا الدمع السخين . ثم لم يلبثا أن جففا
عبرتهما ، وقد أبصرا الدنيا بأسرها بين يديهما ،
يختاران منها ما يشاءن للاخلاق الى الراحة ، وقد
وعدهما الله فى كامل رحته ان يسدد خطاهما
ويكلاهما بعنايته الصمدانية .. وهكذا شرعا يدا
فى يد يضربان معا فى مناكبها ...»

بعثة جون مري لاستكشاف المحيط الهندي

لـسيمور سيويل وآخرين

بقلم

الدكتور أنور عبد العظيم

عدا بعثة «مباحث» التي فُضت في العمل فيه تسعة شهور متواصلة وفيما يلي بيان بهذه البعثات وفقا لترتيبها الزمني :

١ - بعثة السفينة النمساوية الحرية ثوفارا (١٨٥٧ - ١٨٥٩) وقد عملت خلال رحلتها حول العالم في الجزء الجنوبي للمحيط الهندي بين جنوب أفريقيا وجزيرتي امستردام وسان بول على خط عرض ٤٠° درجة جنوب خط الاستواء وبين خطي طول ٢٠° - ٧٠° شرقا ثم اتجهت شمالا الى جزيرة سيلان ف ساحل الهند الشرقي بجوار « مدراس » ومن هناك يمت شطر أرخبيل الملايو وجنوب شرقي آسيا . ولهذه البعثة بالذات فضل السبق في العمل في المحيط الهندي وقد نشرت نتائجها في ٧ مجلدات بمعرفة رئيسها القومندان « فون أريير » بين سنوات ١٨٦١ - ١٨٦٩ .

إذا كان العالم قد اهتم في السنوات القليلة الماضية بدراسة المحيط الهندي اهتماما بالغا فقد كانت مصر من أسبق الدول التي فطنت الى هذا الأمر وذلك منذ نصف وثلاثين سنة اذ قدمت الباخرة « مباحث » التي كانت تابعة لمصلحة السواحل والمصايد في ذلك الوقت ببجارتها وضباطها وعليها بعثة مشتركة من علماء مصريين وانجليز لدراسة هذا المحيط . وتركت هذه البعثة أثرا خالدا في تاريخ الكشف العلمي للمحيطات وقلما يخلو مرجع من المراجع العلمية عن المحيط الهندي من ذكر لبعثة السفينة المصرية « مباحث » .

١ - تاريخ الكشف العلمي للمحيط الهندي :

انا اذا استعرضنا البعثات الشهيرة التي عملت في المحيط الهندي قبل تنفيذ البرنامج الدولي الذي تقدم ذكره لوجدنا أن أغلبها قد عمل لفترات قصيرة نسبية أو مر مرورا عابرا بهذا المحيط فيما

٢ - بعثة السفينة الانجليزية « تشالنجر »
التي طافت حول العالم بين سنوات ١٨٧٢-١٨٧٦م
وقد مرت بالجزء الجنوبي للمحيط الهندي مرتين
احدهما في عام ١٨٧٣ والثانية في عام ١٨٧٤ •
٣ - بعثة السفينة الألمانية « جازيل »
(١٨٧٤ - ١٨٧٦) وقد عملت هي الأخرى في
النصف الجنوبي للمحيط الهندي بين رأس الرجاء
الصالح وأستراليا مارة بجزر امستردام وسان
بول وريشون وموريس •

٤ - بعثة السفينة الألمانية « فالديفيا »
المعروفة ببعثة اغوار المحيطات (١٨٩٨ - ١٨٩٩)
وقد عملت هذه البعثة في المحيط الهندي
مخترة البحر الأحمر ومارة بسواحل الصومال
وكينيا وتنجانيقا ، ومن دار السلام اتجهت شرقا
حتى جزر سيشيل وشاجوس ثم اتجهت شمالا
الى كولبو في جزيرة سرنديب (سيلان) ومنها
الى جزيرة نيكوبار ثم سارت جنوبا فدرست
المنطقة الواقعة غربي سومطرة ومنها سارت في
خط رأسى تقريبا الى جزر امستردام وسان بول
بالقرب من خط ٤٠° جنوب خط الاستواء •

٥ - بعثة السفينة الألمانية « جاوس »
(١٩٠٢ - ١٩٠٣) المعروفة أيضا ببعثة القطب
الجنوبي •

Gauss Deutsche Südpolar Expedition
وقد عملت هذه البعثة بين خطي عرض ٢٥° -
٥٠° جنوبا بين خطي طول ٢٠° - ٨٠° شرقا في
جنوب المحيط الهندي في طريقها الى البحار
الجنوبية •

٦ - بعثة السفينة الانجليزية « سيلارك »
(١٩٠٥) وتعرف أيضا ببعثة « بيرسي سيلدن »
Sea lark Percy sladen Trust Expedition

وقد درست المنطقة الوسطى من المحيط
الهندي في شبه دائرة محصورة بين جزر شاجوس
وموريس وسيشيل ، وبخاصة في أرخبيل شاجوس
وقد نشر ستافلي جادير نتائج هذه البعثة بين
سنوات ١٩٠٧ - ١٩٣٦ :

٧ - بعثة السفينة الألمانية « بلانت »
(١٩٠٦ - ١٩٠٧) •

وقد درست هذه البعثة قطاعا مارا بشرقي
مدغشقر حتى جزيرة سيلان ثم يمت شطر
سومطرة وأرخبيل الملايو . وقد نشرت نتائجها
عام ١٩٠٩ في خمسة مجلدات ظهرت ببرلين •

٨ - بعثة السفينة الدانمركية « رانا »
(١٩٢٨ - ١٩٣٠) •

وقد دارت هذه السفينة حول العالم بتحويل
من مؤسسة كارلسبرج الدانمركية خصص
لبحوث علوم البحار •

Carlsberg Foundation Oceanographic Funds

وقد زارت البعثة المحيط الهندي خلال رحلتها
المذكورة من الجنوب مارة بسواحل مدغشقر
وأفريقيا الشرقية وجزر بروفيديانس - سسيفر
وسيشيل والملايدف (١) حتى سيلان ومنها الى
سومطرة وأرخبيل الملايو. وقد نشر الاستاذ يوهان
شميدت رئيس البعثة نتائجها في تسعة مجلدات
بين أعوام ١٩٣٢ - ١٩٦١ في كوبنهاجن •

٩ - بعثة السفينة الهولندية « ويليرود
سنيليوس » (١٩٢٩) •

(1) Providence, Ouf, Seychelles & Maladives
Island.

وعملت بالقطاع الشرقى لهذا المحيط حتى جزيرة جاوة ثم واصلت رحلتها في المحيط الهادى بعد ذلك • وقد نشر الاستاذ هانز بترسون نتائج هذه البعثة بين ١٩٥١ - ١٩٦١ فى عشر مجلدات فى جوتنبرج :

١٢ - بعثة السفينة الدانمركية « جالاتيا »
(١٩٥٠ - ١٩٥٢) •

وتعرف أيضا ببعثة الأغوار العميقة وقد دارت حول العالم مهتمة على وجه الخصوص بالبحث عن الحياة فى الأغوار السحيقة وفى المحيط الهندى قامت ببحث القطاع الجنوبي الشرقى بين مدغشقر وساحل أفريقيا ومن زنجبار وأخذت قطاعا مارا بجزر سيشيل حتى سيلان ثم فحصت المنطقة المحاذية لساحل الهند ومنها الى أرخبيل الملايو •

ونشر الاستاذ « يروون » مع الاستاذين جريف « وسبارك » نتائجها عام ١٩٥٦ فى كوبنهاجن هذه هى أشهر البعثات العلمية التى قامت بالعمل فى المحيط الهندى قبل تنفيذ البرنامج الدولى الأخير لمسح هذا المحيط وجدير بالذكر أنه فى عام ١٩٥٧ - ١٩٥٨ قامت عدة سفن تابعة لدول مختلفة ببحث هذا المحيط أيضا ضمن برنامج أبحاث « السنة الجغرافية أو الجيوفيزيائية الدولية » ومن بينها بعثات سوفيتية ويابانية • كما قام الفرنسيون ببحوث عديدة حول جزيرة مدغشقر منذ أوائل هذا القرن • كل هذا بالإضافة الى المعلومات التى جمعها قباطنة السفن الحربية التى تنتمى لدول مختلفة أثناء مرورها فى المحيط الهندى ولا يجب أن ننفل أيضا الآثار التى خلفتها بعثة المنطقة القطبية الجنوبية الفرنسية بقيادة الأميرال شاركو (١٩٠٣ - ١٩٠٥) فى الجزء

وقد درست هذه البعثة المنطقة الشرقية من جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) كما أجرت عدة بحوث أثناء قدومها من البحر الأحمر مارة بخليج عدن وساحل الصومال الشمالى ومنه رأسا الى جزيرة سومطرة متخذة مسارها على خط الاستواء تقريبا • وقد نشر الاستاذ فان ريل رئيس البعثة نتائجها بين أعوام ١٩٣٦ - ١٩٥٩ بمطابع بريل بليدن فى ستة مجلدات •

١٠ - بعثة السفينة المصرية « مباحث »
Mabahith Expedition (١٩٣٣ - ١٩٣٤) •

وهى البعثة موضوع هذا المقال وقد ركزت اهتمامها لبحث المنطقة الشمالية الشرقية للمحيط الهندى وقد نشرت أبحاثها فى عشرة مجلدات بين سنوات ١٩٣٥ - ١٩٦٠ بمعرفة المتحف البريطانى للتاريخ الطبيعى بلندن •

١١ - بعثة السفينة السويدية « الباتروس »
Albatross Expedition (١٩٤٧ - ١٩٤٨) •

وتسمى أيضا ببعثة « الأغوار العميقة » وقد نظم علماء السويد هذه البعثة عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة لتكون أول بعثة للكشف الاقيانوسى فى الفترة التى أعقبت الحرب الأخيرة (ويلاحظ أن السويد لم تدخل هذه الحرب ولم يحتلها جنود الألمان كما فعلوا بالدانمرك والترويج) وقد وجهت هذه البعثة اهتمامها للكشف عن تركيب قاع المحيطات واستخدام أجهزة جديدة لهذا الغرض لجمع عينات الرواسب من تحت قاع المحيط • وقد مرت هذه السفينة بخليج السويس فالبحر الأحمر وخليج عدن كما عملت بالمنطقة الوسطى للمحيط الهندى بين جزر سيشل وسيلان • ومن ثم اتجهت جنوبا الى خط عرض ١٠° جنوب خط الاستواء

الجنوبى من المحيط الهندى ونشرت نتائجها فى
تسعة عشر مجلدا .

وإذا اعتبرنا البحر الأحمر وحده كجزء من
المحيط الهندى نجد أنه قد حظى هو الآخر باهتمام
علماء البحار وخصصت بعثات للعمل فيه نذكر من
بينها بعثات « بولا » النمساوية فى عام ١٨٩٥
وبعثة « مباحث » (ديسمبر ١٩٣٤ - فبراير
١٩٣٥) المصرية وقد نشرت نتائجها جامعة القاهرة
فى مجلد صدر فى عام ١٩٣٩ ثم بعثة كالييسو
الفرنسية (١٩٥١ - ١٩٥٢) بقيادة القومندان
كوستو ونشرت نتائجها فى عام ١٩٥٥ والأعوام
التى تلتها .

ويتضح من العرض السابق أن بعثة السفينة
مباحث تأتى فى المرتبة العاشرة من ناحية التسلسل
الزمنى لبعثات الكشف العلمية فى المحيط الهندى
ولكنها تتميز عما سبقتها من بعثات بأنها عملت
فى منطقة تكاد لا تشاركها فيها غيرها من البعثات
الأخرى وهى المنطقة الشمالية الشرقية لهذا المحيط
بما فيها سواحل بحر العرب كما أنها كرس وقته
أكبر لبحث هذه المنطقة وفحصتها من النواحي
الطبيعية والبيولوجية والجيولوجية والهيدروجرافية
على حد سواء ، فلا عجب أن خرجت
هذه البعثة بحصيلة من المعلومات العلمية الجديدة
استأهلت نشرها فى عشرة مجلدات تضم بين
جنياتها عشرات المقالات وآلاف الصفحات بأقلام
المتخصصين فى هذه العلوم ، وإن كان أغلبهم من

(١) أنظر

Charcot J. (1906-1924) Expedition Antarctique Française (1903-1905), Science Naturelles, documents scientifiques. Masson et Cie (Paris) (10 volumes)

العلماء الانجليز فإن من بينهم أيضا علماء ينتمون
لجنسيات مختلفة . وجدير بالذكر أن التقارير
العلمية للبعثة المذكورة قد شملت بحثين كتبهما
عالمان مصريان هما الدكتور عبد الفتاح محمد^(١)
والدكتور محمود رمضان^(٢) من أماتذة جامعة
الاسكندرية : والبحث الأول منهما يدور حول بعض
الخواص الطبيعية لمياه المحيط الهندى وأما الثانى
فعن بعض الحيوانات القشرية التى جمعتها البعثة
كما أرسلت البعثة عينات من مياه البحر الى كلية
العلوم بجامعة القاهرة قام بتحليلها فى ذلك الوقت
الدكتور أحمد رياض تركى من أعضاء هيئة تدريس
قسم الكيمياء (رئيس المجلس الأعلى للبحث
العلمى فى الوقت الحاضر) .

٢ - تجهيز البعثة :

فى غضون عام ١٩٣٣ تم اتفاق بين الحكومة
المصرية والحكومة الانجليزية على أن تجهز سفينة
خفر السواحل المصرية « مباحث » لتقوم ببعثة
للكشف العلمى فى المحيط الهندى سميت على اسم
عالم الأحياء الاسكتلندى الشهير السير جون مرى
Sir John Murray
الذى رافق بعثة تشالنجر حول العالم بين سنوات
١٨٧٢ - ١٨٧٦ واشترك فى إصدار تقاريرها
العلمية - وذلك بناء على مباحثات مبدئية تمت
بين جامعتى القاهرة وكمبردج بهذا الشأن على أن
يقدم الجانب المصرى السفينة يبحارتها وملاحيهما

(١) رئيس قسم علوم البحار السابق بجامعة
الاسكندرية وعميد الكلية ثم وكيل هذه الجامعة .
(٢) أستاذ ورئيس قسم الحيوان بكلية العلوم
بجامعة الاسكندرية ووكيل الكلية .

وعلى أن يشترك بعض الباحثين المصريين كأفراد علميين ضمن البعثة ويتولى الجانب الانجليزى تزويد السفينة بالأجهزة والمعدات اللازمة للعمل ويكون ربانها وكذلك رئيس مجموعة العلماء عليها من الانجليز . كما تم الاتفاق أيضا على أن تبقى الأجهزة والمعدات على السفينة ملكا للحكومة المصرية بعد أن تحقق البعثة غرضها وأن تودع نماذج من العينات العلمية لدى الطرف المصرى ومجموعة أخرى تحفظ فى المتحف البريطانى للتاريخ الطبيعى بلندن كما يتولى الطرف الانجليزى نشر التقارير العلمية للبعثة بمعرفة المتحف المذكور . وفيما يلى التشكيل الرسمى لهذه البعثة :-

الأفراد العلميون

رئيس البعثة : اللفتانت كولونيل رهب سيور سيوسل

مساعد رئيس البعثة وكيمائى أول

: دكتور آف طومسون

كيمائيان : المستر كارى جيلسون

السيد / عبد الفتاح محمد (من جامعة القاهرة)

بيولوجيان : دكتور حسين فوزى مدير المصايد

، مصلحة السواحل بالاسكندرية (١)

المستترت.ت. ماكان

مساح وملاح : اللفتانت كومان دورو . فاركسون

(١) عميد كلية العلوم الاسبق بجامعة الاسكندرية ثم تولى مديرا لهذه الجامعة بالنيابة فوكيلا لوزارة الثقافة والارشاد ، وقد وكل اليه على السفينة مهمة طبيب البعثة ايضا .

طاقم السفينة

قبطان : ك.من ماكنزى

ملازم أول : أحمد بدر (المرحوم) ضابط أول أعالي البحار

ملازم أول : أحمد ثروت (حاليا لواء بحرى بالمعاش) ضابط ثان أعالي البحار

كبير المهندسين : و. جريجز

مهندس ثان : ملازم أول محمود مختار

مهندس ثالث : ملازم أول ادوار مرقس

عامل لاسلكى : لويد جونز

وبحارة السفينة وعمالها جميعهم من المصريين خلا ثلاثة استبدلوا فى الطريق

السفينة

أما السفينة « مباحث » فقد بنيت فى نيو كاسل بانجلترا عام ١٩٢٩ كسفينة لأعمال السواحل وابحاث المصايد وهى تنتمى للنوع المعروف بسفن (الجراتى) كانت تعرف وقتئذ فى انجلترا باسم « ميسى » وفيما يلى أبعادها وحمولتها :

الطول = ١٣٨ قدم العرض = ٢٣٫٦ قدم

حمولة الأذاحة = ٦١٨ طن الغاطس = ١٢٫٦

قدم من المقدمة ،

١٤٫٦ من المؤخرة

أثناء التحميل

الوقود = بالنفحم السرعة = ١١ عقدة

سعة المخزن = ١٦٠ طن خزانات المياه

= ٩٠ طن

مدى اللاسلكى = ٣٠٠ ميل قوارب مساعدة

الكحول أو الفورمالين أو في سائل «بوان» المثبت حتى تبقى على حالتها الطبيعية قدر الامكان .

أما العينات التي كانت تحتوى على أشواك كلسية تذوب في الحوامض فقد كانت تحفظ في الكحول وأما عينات البلانكتون ففي محلول مخفف من الفورمالين، وبالنسبة للأسماك فقد كانت تحقن أحيانا بالفورمالين ليتخلل أجسامها حتى لا يتطرق اليها الفساد تحت حرارة الجو الاستوائي . ولما لم يكن ضمن أعضاء البعثة رسام أو مصور فقد كانت ألوان الأحياء البحرية الحية تقارن في ضوء الشمس بمجموعة من الألوان القاسية المطبوعة وتدون أولا بأول . ولكي لا تتبخر سوائل حفظ العينات فقد كانت تطلع اغطيها بالشمع السائل .

وقبل ابحار السفينة أجريت بعض تعديلات فيها بورش مصلحة الموانئ والمنائر بالاسكندرية لتلائم أغراض الرحلة ومن هذه التعديلات ضم أحد قمرات السفينة للمعمل البيولوجي الكيماوى عليها لزيادة حجمه وتحويل قمرتين مفردتين الى قمرة مزدوجة للباحثين المصريين ، وتعديل مخزن الأسماك ليضم مخزنا للفحم سعته ٣٠ طنا مع اضافة ثلاجه وحجرتين للتبريد .

وبذلك أصبحت السفينة مهيأة للقيام بمهمة جديدة أثبتت فيها جدارة فائقة كما ضرب بحارتها وضباطها وعلماؤها أحسن المثل في تحمل مشاق العمل في البحار الاستوائية وتحت ظروف قاسية في البحر لمدة شهور تسعة لم تكن تتخللها في كثير من الأحوال سوى أيام قليلة أو بعض يوم للراحة وذلك حين ترمو السفينة على الموانئ المختلفة للتموين أو لعارض طارئ ، ولم تكن أجهزة تكييف الهواء معروفة في ذلك الوقت على السفن .

وقد زودت السفينة بالأجهزة العلمية والأدوات الضرورية لبعثة من هذا النوع في ذلك الوقت وأهمها :

ونش بخارى لسلك الواير (الجبر) بطاريتين سعة ٤٠٠٠ قامة ، ١٠٠٠ قامة (١)

ونش هيدروجرافى بخارى سعة ٣٠٠٠ قامة (السلك) ، ١٠٠٠ قامة

— سلك هيدروجرافى مجدول قطر ٤ ملليمتر أطوال مختلفة

— سلك واير اضافى لأعمال جر الشباك وقطره يزيد عن بوصة بأطوال (٣٥٠٠ ، ٢٥٠٠ ، ١٥٠٠ قامة) .

— جهاز سير الأعماق وتسجيل تضاريس القاع (اكسوندر) من نوع « أكاديا » .

بالاضافة الى مجسمات للأعماق ، كباشات ، قنينات قلابة لجمع عينات المياه من الأعماق المختلفة ترمومترات لقياس درجات الحرارة على الأعماق المختلفة ، مقياس للتيارات المائية من نوع « اكمان » أجهزة متيورولوجيه (للرصد الجوى) وقرص لقياس درجة شفافية الماء .. الخ

أما الأجهزة البيولوجية فتشمل أنواعا من شباك الجر وشباك البلانكتون والجرافات وأوانى وزجاجات حفظ العينات وأطنان من الفورمالين والكحول .

كل هذا بخلاف الأجهزة الملاحية وأجهزة المسح المغناطيسى وقد استعمل « المتول » أو سلفات المغنيسيوم في تخدير العينات قبل حفظها في

(١) القامة = ١.٨٢ مترا .

٣ - خط سير السفينة ورحلاتها :

في تقريره العلمى الأول للرحلة وصف سيمور سيويل خط سيرها منوها بأهم الأعمال التى تمت خلال البعثة ومفصلا لمواقع المحطات العلمية التى جمعت منها العينات وأعماقها وخواصها الهيدروجرافية والطبيعية ونحن نجمل هذا الجزء فيما يلى :

أبحرت السفينة «مباحث» من ميناء الاسكندرية فى صباح اليوم الثالث من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٣ الى بورسعيد ثم اجتازت القناة من ميناء بور توفيق على مدخل خليج السويس وهناك انتظرت بضعة أيام ريثما تصل بعض الأجهزة من الخارج . وفى الثامن من هذا الشهر غادرت البعثة الميناء متجهة الى الجنوب فى البحر الأحمر وبعد وقفة قصيرة على ميناء الفردقة زار العلماء فيها محطة الأحياء البحرية هناك واصلت السفينة رحلتها الأولى فى هذا البحر فى جو حار شديد القىظ ، وقد ألفت مراسيها فى ليالى متتابعة على جزيرة جبل زخير (يوم ٩/١٥) وحنيش الكبير (١٦ ، ٩/١٧) . وبرايم (٩/١٨) فى أقصى الجنوب . وقد جمعت البعثة بعض الأرصاد العينات من هذا البحر الا أن حظها لم يكن سعيدا فيه ، فقد فقدت أنبوبة لسير الأعماق حين قيامها بعملية من عمليات الجرف على ٢٠٩٤ مترا فى المحطة الثالثة لها فقدت الجرافة وجبلا من السلك المتصل بها طوله ٢٨٠٠ متر وكذلك عجلة عداد طول السلك .

ووصلت البعثة الى ميناء عدن يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٣ وبذلك تنتهى الرحلة الأولى لها . وتبدأ الرحلة الثانية للبعثة فى خليج عدن نفسه حتى جزيرة سومطره المجاورة لساحل الصومال وفى تلك الرحلة

أصاب سوء الطالع السفينة مرة أخرى فتوقفت الشلابة الكهربائية وفقدت البعثة بسبب ذلك تموينها من اللحم الطازج ، وعندما حاول المهندس « جريجز » اصلاحها كاد يفتنق بسبب غاز كلوريد الميثيل المستعمل فى التبريد ، فاضطرت البعثة الى العودة مرة أخرى الى ميناء عدن حيث مكث هذا المهندس فى المستشفى يومين ليستعيد نشاطه وصحته .

وأبحرت السفينة مرة أخرى بعد ذلك فى الثالث من اكتوبر نحو الشرق فى خليج عدن وامت بحث عدة محطات فيه ثم خرجت منه الى بحر العرب وبعد أن اتمت من محطاتها الهيدروجرافية رقم (٢٢) وكانت على عمق ٣٥٥٦ مترا أصيب « الوئش » الهيدروجرافى بعطب فعادت السفينة أدراجها الى الساحل الافريقى وقضت ليلة ٧ اكتوبر راسية فى الموقع المعروف باسم « غبة بنه » شمال رأس « على باش كيل » على هذا الساحل ، كما قضت ليلة ٩ اكتوبر بالقرب من صخرة الفيل على نفس الساحل .

وقد اشتغلت البعثة بعثة وعزم لمعرفة الخواص الطبيعية للمياه والقاع فى مدخل خليج عدن خلال الاسبوع التالى وأتمت جمع العينات والدراسة من محطات (١٩ - ٣٧) كما أخذت عدة جرفات ناجحة فى الجانبين الشمالى والجنوبى لمدخل الخليج المذكور ، ثم عادت مرة أخرى أدراجها الى ميناء عدن فوصلتها يوم ١٧ اكتوبر سنة ١٩٣٣ . ولقد تعثرت الجرافة خلال هذه الرحلة مرة أخرى على القاع عند المحطة رقم ٢٥ فقطع الحبل وفقدت البعثة بذلك جرافة أخرى ، كما لاحظت البعثة المحطة رقم (٢٩) على عمق ٢٠٧٢ مترا بالقرب من الساحل الافريقى أن حبل الجرافة

قد لف حول نفسه مرات عديدة ولم تستخرج شيئاً هذه المرة مما يدعو الى الاعتقاد بأن ثمة تيار عسيق جارف فى تلك المنطقة .

وقد كان لدراسة خليج عدن ومدخله بالتفصيل من الناحية الهيدروجرافية أن وضع للبعثة نظام تبادل كتل المياه والتيارات السطحية والعميقة بين الخليج والمحيط ، كما وضع من تسجيلات جهاز سبر الأعماق (الاكوسوندر) وعمورة قاع الخليج نفسه . فعلى مجموعة من الجبال ممتدة فى اتجاه من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، بينما الجزء الجنوبى من الخليج نفسه تعتوره قناة عمقها نحو ٢٠٠٠ متر .

وقبل أن تبدأ البعثة رحلتها الثالثة قضت المدة من ١٧ - ٢١ اكتوبر مرة أخرى فى ميناء عدن للتأمين والراحة واصلاح الأجهزة والاستعداد للرحلة القادمة ثم غادرت هذه الميناء متجهة فى محاذة ساحل العرب الى ميناء كراتشى بالهند وقتئذ (وتبع الباكستان الآن) وعرجت فى طريقها على جزر « خوريا موريا » حيث قضت يومين فى هذه المنطقة لتبحر شرقاً لدراسة بعض الشهاب المرجانية ولتقضى ليلة ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٣٣ عند رأس مدركة وليلة أول نوفمبر عند رأس مركز ثم تركت البعثة الساحل العربى فى ٦ نوفمبر الى كراتشى فتصلها فى العاشر منه .

وخلال هذه الرحلة الثالثة تم فحص المحطات من رقم ٣٨ الى ٦١ بالإضافة الى البحوث التى أجريت بواسطة القارب الصغير على الشهاب المرجانية فى جزيرة الحلانية من مجموعة جزر خوريا موريا . ويلخص سيمور سيويل أهم نتائج عمل البعثة فى منطقة بحر العرب بقوله « أن

المنطقة الجنوبية والجنوبية الشرقية من الساحل العربى تتميز بمنحدر قارى وعرض شديد الانحدار تكتنفه صخور جرانيتية . . ولقد اكتشفت البعثة فى هذا البحر منطقة متوسطة من المياه تقع بين عمق نحو ١٠٠ متر ، ١٣٠٠ متر تبدو خالية من الحياة تماماً . (١) بينما توجد أنواع مختلفة من احياء البحر بين السطح وعمق المائة متر وكذلك بين عمق نحو ١٣٠٠ متر والقاع .

« اما القاع نفسه فيكسوه طين ناعم اخضر اللون يشوبه غاز كبريتور الايدروجين (السام) وبخاصة بالقرب من رأس الحد . كما لم تشر البعثة على طول الساحل العربى على شهاب مرجانية حقيقية ثم أن الشطوط التى فحصناها وكان البعض يعتقد أنها من الشهاب الحقيقية ليست فى الواقع كذلك . وانما تتكون من الليثوثامنيوم . (وهو طحلب متكلس يسهم فى بناء الشطوط المرجانية) »

وبعد أن اتمت البعثة اكتشاف هذا الجزء من بحر العرب يمت شطر كراتشى حيث تم اصلاح (الونش الهيدروجرافى) ثم غادرت البعثة فى هذا الميناء فى يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٣٣ وهدفها العمل فى خليج عمان مارة بساحل بلوختان . وأمام هذا الساحل فقدت البعثة شبكة للجر على قاع عمقه ١٧٠٤ متراً ثم واصلت السير غرباً بحذاء هذا الساحل الى الخليج واشتغلت عدة محطات على مدخله ثم ألقت مراسيها أمام مسقط « ودبة ديبه » وقفلت راجعة الى رأس الحد لاجراء مزيد من البحوث على طمى القاع المشبع بغاز كبريتور .

(١) يعتبر هنا الكشف فى حد ذاته على جانب كبير من الاهمية

الأيديروجين وذلك قبل ان تتخذ سبيلها الى الساحل الهندى مرة أخرى لتزور ميناء بومباى فى هذه المرة . وقد قامت البعثة بمسح المنحدر الفارى الهندى قبل أن تصل بومباى فى ٨ ديسمبر من نفس العام .

وفى تلك الرحلة الرابعة التى شملت المنطقة فيما بين كراتشى وبومباى مسحت البعثة المحطات ذات الأرقام من (٦٢ - ٩٠) وخرجت من فحوص تلك المحطات بنتيجتين هامتين : تلخص الأولى فى أن المنطقة المتوسطة «الجرداء» من البحر تمتد شرقا من الساحل العربى حتى خليج عمان وتقع بين أعماق حدها الأعلى يتراوح بين عمق ٢٥٠ - ٦٠٠ متر تحت سطح البحر ، وحدها الأدنى خط عمق نحو ١٥٠٠ متر والحد الأعلى نفسه لتلك المنطقة يختلف عن جانبى خليج عمان فى السعة .

أما النتيجة الثانية فتتلخص فى أن تسجيلات جهاز « الاكوسوندر » قد أوضحت أن قاع تلك المنطقة من بحر العرب تكنتفه سلاسل جبال متعددة ، تمتد الأولى منها لناحية الغرب موازية لساحل بلوختان ، وثمة سلسلة ثانية تمتد فى اتجاه الجنوب الغربى حتى رأس الحد ، ولكنها لا تصل بتلك الرأس بل تقف منها على مسافة نحو ١٣٧ ميلا فى البحر . وتتميز هذه السلسلة الثانية بوجود فجوة فيها تقع على الناحية الجنوبية الشرقية وعمقها نحو ٣٦٥٨ مترا وهى بذلك تزيد فى العمق بنحو ٢٧٤ مترا عن مستوى قاع الخليج .

وفى الجنوب الشرقى من تلك الفجوة نفسها تقع سلسلة ثالثة من الجبال المغمورة تحت سطح البحر تتحول الى هضبة متسعة كلما اقتربت من ساحل الهند .

وتبدأ الرحلة الخامسة للبعثة فى الثالث عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٣٣ حيث مسحت السفينة المنطقة التى تقع فى مسارها بين بومباى بالهند ومبامبا فى كينيا على الساحل الأفريقى . وبذلك تكون البعثة قد اخترقت الجزء الشمالى الغربى للمحيط الهندى للمرة الثانية ولكن من الشرق الى الغرب فى هذه المرة . وبعد مسيرة يومين فى البحر من بومباى فقدت البعثة شبكة أخرى عند المحطة رقم ٩٢ على عمق ٣٧٢٢ مترا كما فقدت فوراء يوم ٢١ ديسمبر فى إحدى العمليات الهيدروجرافية فى المياه العميقة ست قنينات قلاية من قنينات جمع عينات الماء المعروضة باسم قنينات « اكسان » Bamba بالإضافة الى أربعة عشر ترمومترا من ترمومترا الأعماق . وفى يوم «عيد الميلاد» نفسه قامت البعثة بسبل أرساد هيدروجرافية على أكبر الأعماق التى وجدت حتى ذلك الوقت وهو عمق ينوف على خمسة آلاف متر .

وتتلخص نتائج هذه الرحلة فى الأرساد الهيدروجرافية القينة التى جمعتها البعثة فيما بين بومباى ومبامبا من ثلاث عشرة محطة على طول خط سيرها . وذلك قبل دخول السفينة الساحل الأفريقى ليلة ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٣ ورسوها فى ميناء مبامبا فجر أول العام الجديد . وكان لابد أن تقضى السفينة بتلك الميناء بضعة أيام أخرى تجدد فيها ما نفذ من حمولتها من الفحم ومن الماء وترقق ما تفتق من شباكها وتشحم آلاتها ويلتمس بحارتها وعلمائها خلالها بعض الراحة من أيام العمل المجهد بالبحر .

ثم استأنفت السفينة بعد ذلك سيرها يوم ٩ يناير سنة ١٩٣٤ فى رحلتها السادسة التى غطت

فيها المنطقة فيما بين ممباسا وزنجبار . ولم تكن هذه الرحلة سعيدة لكثيرين من سكان السفينة وفي ذلك يقول سيورسيويل رئيس البعثة « لم يكن الجو مواتيا بالمرّة ، اذ هبت علينا ريح عاصفة من الشمال الشرقى وواجهنا بحرا مضطربا وعلى الرغم من سوء الأحوال الجوية فقدواصلنا العمل مولين اهتمامنا فى أغلب الوقت لفحص مياه القناة العميقة بين جزيرة زنجبار وجزر ممبا

ومن الجزيرة الأخيرة اتجهنا شمالا للعمل فى المنطقة المتاخمة للساحل الأفريقى نفسه . ثم اننا اضطررنا للعودة الى زنجبار فى يوم ١٨ يناير سنة ١٩٣٤ لنزل الى البر كثيرين ممن اصابوا بحمى الملاريا ومن بينهم المستر « ماكان » وقد اتابهم هذا المرض اثناء اقامتنا فى ممباسا . وفى صبيحة اليوم التالى اتجهنا نحو الشرق واخذنا عينات بشباك الجر على عمق ١٢.٤ مترا ثم واصلنا السير شرقا وعلى الرغم من حدة الريح فقد نجحنا فى جمع عينات أخرى من عمق ٢٩٣١ مترا الا ان ازدياد الأحوال الجوية سوءا قد اضطرنا للعودة مرة أخرى الى زنجبار وذلك يوم ٢٤ ديسمبر حيث ارسلنا الى المستشفى كبير المهندسين جريجىز والمستر كارى جيلسون للاستجمام » .

وفى تلك الرحلة السادسة فحصت البعثة المحطات من رقم ١٠٣ الى ١٢٦ ومنها وضح أن الفونة^(١) غنية كمتابن من تسجيلات «الاكوسندر» أن ثمة دلائل على وجود سلسلتين جبليتين متوازيتين

تبدأ آن بالقرب من نقطة « ماليندى » على الساحل الأفريقى وتمتدان الى الجنوب بحذاء الجهة الشرقية لجزيرة ممبا .

وفى صباح يوم ٣٠ يناير استقبل سلطان زنجبار العلماء والضباط المصريين بصحبة رئيس البعثة والربان ماكنزى وحالما عادوا من هذه الزيارة أبحرت المركب فى طريقها الى جزر سيثيل .

وتبدأ السفرة السابقة للسفينة من زنجبار وتنتهى فى ميناء كولبو فى جزيرة سرنديب . وعلى مسيرة يومين من زنجبار فحصت البعثة المحطة رقم ١٢٧ حتى عمق ٤٠٩١ مترا وفى تلك الأثناء كسر « الونش الهيدروجرافى » فتوقف العمل واتجهت السفينة رأسا الى جزر سيثيل وقبل أن تصلها فحصت البعثة محطتين أخريين فى الطريق مستعينة فى ائزال آلاتها الهيدروجرافية بونش الجرافة ثم وصلت جزر سيثيل فى النهاية فى السادس من شهر فبراير سنة ١٩٣٤ حيث ألفت السفينة مراسيها فى ميناء فيكتوريا على جزيرة « ماهى » وحملت نحو خمسين طنا اضافيا من الفحم ثم غادرت هذه الجزيرة فى يوم ٨ فبراير الى كولبو عن طريق قناة « كارديفا » فى مجموعة اربخيل اللاديف حيث كان الجو مواتيا للسفر على الرغم من التيار العكسى الذى كان يعوق سير السفينة وتمكنت البعثة من الوصول الى كولبو بعد ظهر يوم ٢٢ فبراير .

وفى تلك الرحلة مرت البعثة فوق سلسلة جبال كارلسبرج المعنورة واكتشفت فيها فرجة عمقها نحو ١٦٥٠ مترا تقع بين جبلين ، كما تمكنت من أخذ عينة بالشباك من هذا العمق أخرجت أنواعا

(١) « الفونة » هى مجموعة الحيوانات التى تعيش منطقة ما وتقالها كلمة « الفلورة » بالنسبة للنباتات

شتى من حيوان القاع العميق وقطعا من الصخور.. وكانت البعثة حتى وقت رسوها على ميناء كولمبو قد تمكنت من فحص المحطات ١٢٧ - ١٣٥ .

وقضت السفينة فى ميناء كولمبو عقب تلك الرحلة قرابة شهر واحد ، وهى مدة أطول مما تمضيه عادة فى الموانى ، وذلك بالنظر لحاجة السفينة الى صيانة واصلاح ودهان ، وفى تلك الأثناء تمكن « فاركسون » من اجراء بعض المسح المغناطيسى فى أرخبيل الملايو من على ظهر قارب تابع لحكومة سيلان .

وتبدأ الرحلة الثامنة من وقت مغادرة السفينة كولمبو يوم ١٧ مارس سنة ١٩٣٤ وذلك للعمل فى المنطقة الواقعة جنوب شبه القارة الهندية فيما بين جزر الملايدف وأرخيبيل شاجوس ثم تتجه شمالا لفحص اللاجونات البركانية المحيطة بجزر الملايدف ومن بينها لاجونات : أدو ، ومالى ، وكولومادولو ، ومولاكو ، وهور سبورغ ، وفاديولو .. وبعد أن استقبل سلطان « الملايدف » أعضاء البعثة تعود السفينة مرة أخرى الى ميناء كولمبو فتصله فى اليوم الثالث عشر من شهر ابريل سنة ١٩٣٤ .

وفى تلك السفرة أتمت البعثة فحص ٢٢ محطة من بينها عشر محطات أجرى فيها « فاركسون » أرسادا مساحية ومغناطيسية ، كما اكتشفت البعثة لاجونا مغمورا على عمق ٢٣٨ مترا يمثل قصة بركان قديم وذلك فى الطرف الغربى لقناة كارديفا ، كما تكهنت البعثة أيضا بوجود تيار مائى تحتى قوى يمر فوق سلسلة جبال الملايدف المغمورة .

وتبدأ الرحلة التاسعة للبعثة من وقت مغادرة السفينة لميناء كولمبو فى اليوم التاسع عشر من

شهر ابريل عام ١٩٣٤ فى طريقها الى ميناء عدن مرة أخرى . وحالما وصلت السفينة الى خط عرض ٧° شمالا غيرت اتجاه سيرها الى الغرب عبر بحر العرب حيث أخذت البعثة أرسادا هيدروجرافية جديدة وجمعت عينات بالشباك والجرافات ومن بينها جرفة تمت على عمق ٤٧٩٣ مترا .. ومن عجب أن تلك الجرفة لم تخرج حيوانات هذه المرة بل معادن نفيسة تعرف باسم عقد المنجنيز وكانت مختلفة الاشكال والاحجام وقصد بلغ وزن ما استخرج فى هذه الجرفة وحدها من تلك العقد نحو ١٢٥ كيلوجراما .

ثم عبرت البعثة سلسلة جبال « كارلسبرج » المغمورة مرة أخرى واثبتت أن ثمة جبلين متوازيين فيما بينهما منخفض عميق ترسب فيه عقد المنجنيز فوق رواسب طمي « الفورمنيبرا »^(١) وحالما عبرت البعثة سلسلة كارلسبرج سارت بمحاذاة جانبها الجنوبى الغربى لمسافة ثم انحرفت لتعبر قناة سومطرة فتدخل خليج عدن مرة أخرى . وفى هذا الخليج أعادت البعثة تكرار أرسادها التى كانت قد جمعتها فى فصل الخريف السابق كما جمعت عينات من رواسب القاع وحيوانه ، وذلك قبل أن تدخل ميناء عدن نفسها يوم ٨ مايو سنة ١٩٣٤ .

وفى يوم ١٤ مايو تغادر البعثة هذا الميناء للمرة الأخيرة لتبدأ رحلتها العاشرة والأخيرة أيضا

(١) المنخربات (الفورامنيبرا) حيوانات أولية مجهرية وحثو الخلية ذات غلاف متكلس (من مادة جيرية) تعيش فى البلاتكتون فى الطبقات السطحية لمياه المحيطات وعند موتها تتساقط أغلفتها المذكورة على قاع المحيط كرزاذ المطر ، وعلى مر العصور كونت نوعا مميزا من الرواسب الطينية على قيعان المحيطات يعرف باسم طمي الفورامنيبرا أو المنخربات

.. وكان ذلك في أحد أيام عام ١٩٥٣ . وفي يميني أن هذه الرحلة القصيرة الأخيرة ربما كانت آخر عهد للسفينة بجمع العينات من البحر . ولقد كان من رأينا وقتئذ أن تبقى هذه السفينة بالميناء الشرقى بالاسكندرية وتحول لبيت من بيوت الشباب يخصص جزء منه لتحف بحرى صغير .

٤ - الآثار العلمية للبعثة مباحث :

ليس هناك من شك في أن الانجازات العلمية التي حققتها بعثة « مباحث » في الجزء الشمالى الغربى من المحيط قد خلدت اسم هذه البعثة ضمن قائمة البعثات العلمية العالمية التي أضافت اللثام عن كثير من أسرار البحار والمحيطات وساهمت في تقدم معلوماتنا عنها .

فقد قامت « مباحث » بعشر رحلات رائدة في هذا الجزء من المحيط كما وضحا آنفا فحصدت خلالها ٢٠٩ محطة عملية دونت أرصادها بدقة على الخرائط ويمكننا اجمال هذه الرحلات فيما يلى :

الرحلة	المنطقة	ارقام المحطات
الرحلة الأولى	من البحر الأحمر لعدن	١ - ١٨
الرحلة الثانية	من عدن لعدن	١٩ - ٣٧
الرحلة الثالثة	من عدن لكراشى	٣٨ - ٦١
الرحلة الرابعة	من كراشى الى بمباى	٦٢ - ٩٠
الرحلة الخامسة	من بمباى الى ممباسا	٩١ - ١٠٢
الرحلة السادسة	من ممباسا الى زنجبار	١٠٣ - ١٢٦
الرحلة السابعة	من زنجبار الى كولمبو	١٢٧ - ١٣٥
الرحلة الثامنة	من كولمبو الى كولمبو	١٣٦ - ١٦٥
الرحلة التاسعة	من كولمبو الى عدن	١٦٦ - ١٩٦
الرحلة العاشرة	من عدن الى البحر الأحمر	١٩٧ - ٢٠٩

فتبدأ بالاتجاه جنوبا لتكرر بعض الأرصاد الهيدروجرافية على خط طول ٤٥° شرقا . ثم تتجه غربا الى بوغاز باب المندب فتفحص مياهه وخواصها وتياراته مرة أخرى ، وتأخذ عينات من القاع بالكشاشات في جنوب البحر الاحمر حيث تنتهى الاعمال العلمية للبعثة فيه بالنظر لمرض الريان ، ثم تغد السفينة سيرها في هذا البحر بأقصى ما تستطيع من سرعة نحو الشمال فتصل ميناء السويس في يوم ٢١ مايو سنة ١٩٣٤ قبيل منتصف الليل بقليل .

وفي هذه السفرة الأخيرة أتمت البعثة فحص المحطات من ١٩٧ الى ٢٠٩ كما دعت عملها السابق على جانبى بوغاز المندب . ويتضح من البحوث والفحوص التي تمت خلال فصلين مختلفين من فصول السنة في تلك المنطقة أن هناك تغيرات موسمية واضحة للتيارات البحرية واتجاهها .

وهكذا مرت السفينة في قناة السويس للمرة الثانية قادمة من الجنوب خلال يومى ٢٢ ، ٢٣ مايو في طريقها الى ميناء الاسكندرية فوصلتها في الخامس والعشرين من هذا الشهر من عام ١٩٣٤ حيث كان في استقبالها جمع وافر من أسر البحارة ورجال البحرية والسواحل والموظفين الرسميين ، كما اقامت جامعة القاهرة فيما بعد لأعضاء البعثة استقبالا خاصا .. أما السفينة فقد عادت لقاعدتها في ميناء الاسكندرية حيث ظلت في مرسأها سنين طويلة بعد ذلك ، وأذكر اننى اصطفت طلاب قسم علوم البحار بجامعة الاسكندرية على ظهرها في رحلة تدريبية لجمع العينات خارج ميناء الاسكندرية بعد عودتها من المحيط الهندى بنحو عشرين عاما

ولقد ظهرت نتائج كل تلك الدراسات في المجلدات العشرة التي ضمت التقارير العلمية للبعثة بأقلام عشرات العلماء وأشرف على إصدارها المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي بلندن بين سنوات ١٩٣٥ - ١٩٦٠ .

وليس هنا مجال استعراض تفاصيل تلك التقارير العلمية بطبيعة الحال ، ولكننا نود أن نشير بخاصة الى تيجتين من النتائج الهامة التي وصلت اليها البعثة لما لها من شأن كبير ، وقد كنا قد أشرنا اليهما اشارة عابرة فيما تقدم من صفحات.

أما عن النتيجة الأولى فتتناول نظام تبادل التيارات المائية بين البحر الأحمر والمحيط الهندي عبر بواغاز باب المندب وقبل أن نفعل ذلك يجدر بنا أن نشير الى أن ثمة جبلا قائما يرتفع من قاع البحر عند مضيق باب المندب وينتهي على عمق نحو مائة متر تحت سطح الماء مكونا ما يعرف باسم « سد باب المندب » وعلى ذلك فلا تبادل مياه المحيط ومياه البحر الأحمر الا عن طريق عمق ضيق يرتفع بنحو مائة متر فوق قمة هذا السد ، حتى مستوى سطح البحر ويعرف علميا باسم « عمق السد » أو العمق الحر للماء الذي يتم التبادل من خلاله . ونظام التبادل المذكور يختلف في الصيف عنه في الشتاء ويتبع الى حد كبير نظام الرياح السائدة في كل موسم . ففي فصل الصيف تدفع الرياح الشمالية مياه البحر الأحمر السطحية العالية الملوحة عبر مضيق باب المندب الى خليج عدن وفي نفس الوقت تدخل مياه المحيط الهندي من فوق سد باب المندب الى أعماق البحر الأحمر محتفظة بخواصها في هذا البحر .

ولقد غطت هذه الرحلات المناطق الآتية من المحيط الهندي وأثرت معلوماتنا العلمية عنها وهي : البحر الأحمر - خليج عدن - الساحل الجنوبي لشبه جزيرة العرب - خليج عمان - شمال بحر العرب ووسطه - منطقة جزر زنجبار - جنوب بحر العرب - منطقة جزر الملديف في جنوب غربي سرنديب . ولم تقتصر دراسات البعثة على فحص خواص المياه وتوزيع درجات الحرارة والملوحة بين السطح والقاع فحسب ، بل شملت أيضا دراسة التيارات المائية السطحية والعميقة ودراسة الحيوانات البحرية وتوزيعها بين السطح والقاع وعلى قاع المحيط نفسه ومن بينها أنواع جديدة للعلم تنتمي لشتى فصائل المملكة الحيوانية . كما كان للبعثة فضل الكشف عن منطقة من المياه المتوسطة في بحر العرب تنعدم فيها الحياة تقريبا ويشوب قاعها غاز كبريتور الايدروجين السام .

أما الدراسات الجيولوجية للبعثة فقد تمخضت هي الأخرى عن اكتشاف سلاسل جبلية على قاع المحيط وعن كثير من التضاريس الأخرى التي تمتد قاع ذلك الجزء الشمالي الغربي منه سواء أكاف هضابا أو منخفضات ، كما حظيت دراسات اللافونات البركانية في منطقة جزر الملديف بأهمية خاصة من البعثة التي درست أيضا المجال المغناطيسي للأرض في تلك المنطقة .

وللبعثة الفضل في تسجيل أغوار تنوف على الخمسة الآلاف متر في هذا المحيط وفي تسجيل درجات عالية من الحرارة للمياه السطحية (مثل درجة ٣٣٫٣٣ مئوية عند محطة ١١ في البحر الأحمر) .

وأما فى فصل الشتاء فإن الآفة تنعكس ، إذ يدخل تيار مائى سطحى قليل الملوحة من المحيط الهندى الى البحر الأحمر بينما يفيض ماء البحر الأحمر المرتفع الملوحة من الطبقات تحت السطحية للماء منحدرًا من فوق سد باب المندب ليدخل المحيط الهندى ويتشرب فيه على الأعماق . وعلى ذلك فلو اختبرنا خواص المياه العميقة على جانبي سد باب المندب فى أى وقت لوجدناها تختلف اختلافا كبيرا من حيث توزيع درجات الحرارة والملوحة والخواص الأخرى . فها هو البحر والمحيط يلتقيان على السطح بينما على جانبي السد فى الأعماق يحتفظ كل منهما بخواص مياهه (١) .

وشبيه بذلك ما نجده من نظام تبادل التيارات المائية بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى فوق سد جبل طارق المغمور ، وعمق الماء فوق السد المذكور يبلغ نحو ٣٣٠ مترا أى يزيد على عمقه فوق سد باب المندب المغمور ، وفى تلك الحالة الأخيرة يدخل تيار سطحى مستمر من المحيط الأطلسى الى البحر الأبيض المتوسط وهو تيار أقل ملوحة وحرارة من مياه البحر الأبيض المتوسط بينما تفيض مياه البحر المتوسط الى المحيط الأطلسى منحدرًا من فوق سد جبل طارق وهى مياه ثقيلة مرتفعة الملوحة وتظل تحتفظ بخواصها وهى تسير على شكل تيار عميق فى المحيط الأطلسى لمسافة تزيد على الألف كيلومتر .

أما النتيجة الثانية الهامة لبعثة مباحث فهى اكتشافها لعقد المنجنيز على القاع . وقد كانت أول اشارة لوجود مثل هذه « المناجم » على قيعان المحيطات نتيجة لبعثة تشالنجر الشهيرة حول العالم بين سنوات ١٨٧٢ - ١٨٧٦ م . وهى « مباحث » تكتشف كميات كبيرة منها لأول مرة فى تلك المنطقة من المحيط الهندى . وتحتوى عقد المنجنيز المذكورة على عناصر المنجنيز والنيكل والكوبالت والنحاس والحديد وهى تترسب باستمرار ويبطء من ماء البحر فتكون كتلا فى مثل حجم البرتقالة أو أصغر أو أكبر . ونظرا لما لهذه المناجم على قاع المحيط من آثار اقتصادية بعيدة المدى فقد فكر العلماء جديا فى استغلالها اقتصاديا وبخاصة على قاع المحيط الهادى وقد زاد الاهتمام بها كثيرا عقب بحوث البعثات الدولية فى برنامج السنة الجيوفيزيائية الدولية فى المحيطات (١٩٥٧ - ١٩٥٨) . وتقدر كثافة توزيع ما يوجد من عقد المنجنيز على القاع فى بعض مناطق المحيط الهادى نتيجة لتلك البحوث بمازته نحو ١٠ - ١٥ كيلوجراما فى المتر المربع الواحد من القاع وهى ثروة تزيد بألاف المرات عما هو موجود فى مناجم الأرض كلها من هذه الخامات ثم انها منساجم لا ينضب معينها فهى فى نمو دائم .

وفضلا عن الآثار العلمية التى تركتها بعثة «مباحث» على النطاق الدولى فى سجل كشوف الاقيانوس فقد كان لهذه البعثة أيضا آثار محلية جليلة نذكر من بينها زيادة الوعي والاهتمام فى مصر بهذا الفرع الجديد من فروع المعرفة ألا وهو دراسة البحار والمحيطات ، وقد كان لذلك أثره فيما بعد فى انشاء قسم علوم البحار بجامعة الاسكندرية وعلى يد رجلين من رجال البعثة من

(١) قد يدعونا ذلك الى التأمل مرة أخرى فى تفسير الآية الكريمة (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) على ضوء هذا الكشف العلمى .

منهما بكتابة كثير من الأعمال الأدبية القيمة نذكر
من بينها كتابه بعنوان « حديث السندباد
القديم » .

المصريين وهما الأستاذ الدكتور حسين فوزي
والأستاذ الدكتور عبد الفتاح محمد ، فضلا عن أن
تلك الرحلة على ظهر « مباحث » قد أوجت للأول

* * *

جامعة القاهرة
علاء عبد الهادي

الراماينا

بقلم : محمد اسماعيل الندوي

التاريخ والفكر في الهند ، اذ أنهم استولوا على المناطق الشمالية بعد فتحها وطرد أهلها الى الجنوب كما جلبوا معهم حضارة أوربا القديمة ومنطقة الشرق الأوسط وتقاليدهما بعد أن عاشوا فيهما ربحا طويلا من الزمن . ولكن سرعان ما امتزجت حياتهم وتقاليدهم بأهالي الهند القدماء وظهرت حياة وثقافة جديدتان تتميزان بالخصائص الآرية والمزايا الهندية القديمة على السواء . وقد وضع «رجفيدا» (Reg-veda) أقدم كتاب ديني للآريين ، سجل فيه حياتهم وتقاليدهم وأفكارهم السهلة والساذجة تجاه الكون وخالقه . وهذه الظاهرة تدل على أن الآريين القدامى وجهوا عنايتهم منذ أول قدومهم الى تسجيل أفكارهم ونزعاتهم . ومن ثم توالى بعد «رجفيدا» صدور كتب كثيرة دينية . ولما كانوا في بادئ الأمر قد خاضوا معارك كثيرة وافتتحووا بلادا عديدة في شمال الهند ووسعوا رقعة بلادهم من الشرق الى الغرب . فقد ساعدت هذه الأحداث والوقائع على ظهور قصص وأساطير تصور حياتهم

تمتاز الهند بحضارتها الأصيلة وآدابها وفنونها وقلسفتها كاليونان ومصر ، لأنها كانت منبع الحضارة ومهد الثقافة . وقد تفجرت من أرضها ينابيع العلوم والفنون والمعارف التي تتسم بالأصالة وطابعها الخاص . وقد ساهمت في هذا المجال أمم كثيرة وطوائف عديدة نزحت الى الهند في العصور الساقطة واستوطنتها ومن أهمها بل وأكثرها قوة وأثرا وخلودا الأمة الآرية ، التي نزحت من أوربا الى آسيا واحتلت أولا بلاد الفينيقيين ثم ايران في حدود عام ١٥٥٥ ق.م تقريبا . ومنها نزحت الى الهند بعد نصف قرن تقريبا . ولقد اختلف المؤرخون في الموطن الأصلي لهؤلاء اذ يرى بعضهم أنهم كانوا من سكان « سيبيريا وتركستان » . وقال آخرون أنهم كانوا يقطنون بلاد « بامر » (Pamer) وقال بعضهم : أنهم كانوا يسكنون في ألمانيا وبولندا . ولكن أرجح الأقوال في هذا الصدد أنهم يقطنون جنوب روسيا (١) .

ومنذ قدوم الآريين الى الهند تغير مجرى

The Anvil of civilization by Leonard Cottrell (١)
p. 112

The History of the World by Rene Sedillot (١)
p. "

وعقليتهم وتقاليدهم وبطولتهم وقيمهم المعنوية على أبدع صورة وأجمل مظهر .

ان « الرامايانا » (Ramayana) أول ملحمة أو اسطورة في هذا الصدد تصور المرحلة الأولى من حياة الآريين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

وقد عاشت بين فترتي القرن الثاني عشر والعاشر قبل الميلاد في شمال الهند في ولايتي «أثاربراديش» (U.P.) و «وبهار» (Bihar) أسرتان كبيرتان لمملوكي الآريين وهما «كوسالاس» (Kosalas) «وفيديجاس» (Videhas) وكانت مدينة «أوده» (Oudh) عاصمة «دساراتا» (Dasa-ratha) ملك «كوسالا» . أما مدينة بته Patliputra or Patna فقد كانت عاصمة ملك «فيديجاس» الذي زوج ابنته «سيتا» لبطل الأسطورة الابن الأكبر لدساراتا وهو راما (١) .

وإذا كانت «الرامايانا» عبارة عن الأحداث التاريخية التي وقعت في هذه الفترة من الزمان ، فإنها لم تسجل في نفس الوقت على الصورة الحالية . بل مرت بمراحل كثيرة ، لأننا إذا نظرنا إلى القصص السنسكريتية القديمة وأساطيرها نجد أنها ظهرت منذ القرن العاشر قبل الميلاد . فقد تناولها الشعراء باعجاب وتقدير ونظموها بالشعر السنسكريتي . وهذه الأشعار لم تسجل في تلك الفترة بل ظلت تحفظها صدور الناس كما كان الحال في كل أمة عاشت في ظل البداوة . وبهذا مرت ملحمة «الرامايانا» التي ظهرت في القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً بمراحل عديدة ، وتناقلت إلى الألسن من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر حتى اتخذت هذا اللون البديع الأنيق في القرن الخامس أو

الرابع قبل الميلاد (٢) .

لقد ألفت هذه الملحمة باللغة السنسكريتية الناضجة ولذلك يرى بعض الباحثين أنها ألفت في القرن الخامس قبل الميلاد ، أي بعد مرور ما يقرب من ألف سنة على حدوثها ، لأنها تصور شطراً من الحياة الاجتماعية والسياسية لهذه الفترة . ويرى الأستاذ (F.W. Thomas) أنها ألفت في القرن الثاني قبل الميلاد تقريباً ، إذ كانت السنسكريتية في ذلك الحين هي اللغة الأدبية والرسمية . وقد ظهرت هذه اللغة بعد قدوم الآريين إلى الهند . وهي في الحقيقة فرع من لغات أوروبا القديمة التي نشأت منها اليونانية ثم الإنجليزية والألمانية وما إلى ذلك . ولذلك تسمى السنسكريتية «اللغة الهندية الآرية» (Indo-European)

كانت السنسكريتية في بادئ الأمر لهجة أوروبية تشبه اليونانية القديمة ، تكلم بها الآريون الذين نزحوا إلى الهند ، وافتتحوها ولاية بنجاب وقطنوها في أول الفتح . وقد مرت هذه اللغة مع الاختلاط باللغة الأصلية في الهند بعدة تغيرات كما سجلتها عدة كتب دينية هندوكية مثل «رجفيدا» و«يوجانيشاد» . ثم زادت رقعة الفتوحات واتسع سلطان الآريين الذي امتد إلى عدة مناطق هندية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، واحتلوا أربع ولايات كبرى وهي «بنجاب وأثاربراديش وبهار ومدهيا براديش» . وهذه الولايات الأربع لانزال حتى اليوم معقل المنصر الآري ومهد الحضارة الآرية . وقد أخذت هذه اللغة في التطور في نحو ألف سنة . وفي خلال هذه المدة وضعت لها قواعد النحو والصرف والمروض ، وألفت بها الكتب العلمية والأدبية .

Hinduism by M. Sen p. 73 and the Legacy of India p. 63.

The Legacy of India p. 67.

The Ramayana of the Mahabharata by

Romech C. Dutt p. 1

(١)

وفى القرن الرابع قبل الميلاد اتمت هذه اللغة بثلاث خصائص بارزة قسمتها الى ثلاثة فروع أو شعب : أولاها اللغة الكلاسيكية التى تكلم بها رجال الدين والكهنة . وقد توارثها هؤلاء كابرًا عن كابر فاحتفظوا بقالبها وصياغتها فى حب وتقدير للاحد لهما ، فأصبحت هذه اللغة كبنيان مرصوص بعد تأليف «بانى» (Pāṇini) — النحو الشهير — قواعد نحوية مبرونة لها ، وذلك فى القرن الرابع قبل الميلاد . وثانيها لغة الشعراء والأدباء . وبهذه اللغة ألفت الأساطير الهندية الشهيرة مثل «الراماينا» و «المهابارتا» . وثالثها لغة عامة المتعلمين والمثقفين السهلة التى ألفت بها معظم أجزاء كتب «الثيدا» كما ألفت بها أيضا كتب العلوم والفنون مثل السياسة والقانون والأدب والفن (١) . وفيما يتعلق بالأبواب والفصول فى ملحمة «الراماينا» يقول الأستاذ «رومش دوت» (Ramesh) — باحث هندوكى شهير فى الآداب السنسكريتية — انها فى الأصل تحتوى على ستة أبواب فقط وتنتهى بعودة الأبطال الى ديارهم بعد مغامراتهم الطويلة لسنين عديدة . ولكن الباب السابع الذى ألفت بعد قرون من حدوث وتسجيل هذه الملحمة هو فى الحقيقة معيار جديد للشعر السنسكريتى اذ تلوح فيه ملامح لغة جديدة حديثة ظهرت فى القرون الأخيرة قبل الميلاد .

وخلاصة القول أن الملحمة تحتوى على ستة أبواب أصلية وذيل فى الآخر يكون الفصل السابع ثم تنقسم الملحمة كلها والتى ألفت بالشعر الى ٥٠٠ مقطع أو قصيدة تتضمن ٢٤٠٠٠ بيت .. وبدراسة الباب السابع يظهر لنا بكل وضوح أنه ألفت قبل الميلاد اذ نجد فيه بلدانا وأحداثا ومشاهد لم تعرف فى عصر «راما» البطل واخوته بالمرّة .

(١)

وعلى هذا الأساس يمكن لنا القول بأن الملحمة تصور أحداث القرن العاشر قبل الميلاد ، ولكنها سجلت فى هذا قالب الشعرى فى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد (٢) .

وهذه الملحمة ككثير من الكتب الهندوكية القديمة لا يعرف مؤلفها على وجه التحديد .

وقد جاء فى «الراماينا» نفسها أن الراهب «الميكى» الذى ساعد «راما» فى محنته فى الغابة والذى شاهد وعاصر جميع مشاهد البطولية هو الذى نظمها بعد عودة «راما» من منفاه الى «أيودها» . ففى هذه الآونة لجأت اليه «سيتا» زوجة راما وماتت فى ديره ، لأن راما ثقاها الى الغابة . ولذلك أتاحت للراهب فرصة تربية ابنى «راما» اللذين عاشا فى كنفه تربية رهبانية . وقد جال بخاطره فى هذه الفترة الميل الى نظم مشاهد «راما» ومواقفه البطولية كلها بالشعر . فبدأ فى نظمها وقد استغرق هذا العمل منه خمسة وعشرين يوما . كلما قرض «الميكى» مقطعا حفظه ابنه راما فى نفس الوقت . وبهذا حفظا الملحمة كلها والتى تتكون من خمسمائة مقطع ، تتضمن ٢٤٠٠٠ بيت . وقد أقام راما احتفالا دعا فيه الراهب والميكى أيضا . فحضره «الميكى» مع ابنى راما اللذين أنشدا فى هذه الحفلة ملحمة «الراماينا» كلها . وقد أثارت هذه الملحمة دهشة راما واعجابه ، وكذلك أعرب الشعب عن اعجابه الشديد بها ، وتقديره العظيم لها . فأقبل الناس على حفظها بشوق ورغبة منقطعى النظر . وبهذا احتفظت بها الصدور وتناقلتها الألسن دهرا طويلا الى أن سجلت كتابة فى القرون الأخيرة قبل الميلاد (٣) .

The Wisdom of India by Lin Yutang p. 123. (٢)

The Wisdom of India by Lin Yutang p. 271. (٣)

The Legacy of India p. 40-41.

هذه الظاهرة تلقى الضوء على التأليف والتدوين في الهند في القرون الخالية ، لأننا نفهم أنها كالبندان المتحضرة الأخرى في العالم لم تسجل إنتاجها الأدبي والفكري من أول وهلة ، بل تداولت ألسن الناس «الرامايانا» دهرًا طويلا ، وحفظتها الصدور زمنا غير يسير ، حتى وجهت العناية أخيرا الى تسجيلها في الكتب بعد أن قطعت الهند مرحلة طويلة في ميدان العلم والفكر .

ولكن الرامايانا على الصورة الحديثة ليست جهود شاعر أو شاعرين بل ساهم في أداء هذه المهمة عدد من الشعراء البارزين الذين عاشوا خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد كما هو الشأن للملحة أخرى شهيرة ألقت بعد الرامايانا وهي «المهابهارتا» (Mahabharata) (١)

ويجدر بنا الآن أن ننظر الى النواحي الأدبية والفنية في هذه الملحة . وما من شك في أنها من أولى نماذج الأدب والقصص في الأدب السنسكريتي بل الأدب الهندي قاطبة . وهي غنية بالاحداث والمشاهد والحكايات والصور ، وتعتبر نواة أولى للأساطير والقصص والمسرحيات السنسكريتية الشهيرة التي ظهرت فيما بعد مثل «نالا» (Nala) و «ساوترى» (Savitri) وشكتلا . وهي صادقة فيما تحكى عن نفسها في موضع من المواضع إذ أنه لم تظهر قصة على وجه هذه الأرض قبل هذه القصة ، وهي التي تغذى جميع القصص وتمنح القوة لجميع الشعراء وهي درة يتيمة للشعر والشعراء (٢) .

إن «الرامايانا» تحمل المثل العليا والأهداف النبيلة والقيم الأخلاقية والأعمال البطولية التي تمثل جوانب إنسانية رائعة فيها الدرس والعبرة لكل (١) أنظر ما جاء في تقديم :

The Legacy of India p. 67.

The Ramayana of the Mahabharata

(٢)

إنسان يقرأها كما يلوح فيها وفي كل موقف من مواقفها الصفاء والجمال والصدق والبرقة والماطفة والهدف الأساسي فيها هو المرأة والبيت في حين أننا نجد ملحمة «المهابهارتا» تدور حول الرجل والحرب (٣) . وبما أنها أقدم تراث وصل اليها تتجلى لنا فيها معالم الهند القديمة كلها من حياة شعبها ومجتمعها وتقاليدها ومعتقداتها .

أما الناحية الفنية فيها فهي تعطى بوادر أولى وأساسا ثابتة للأساطير الهندية التي ظهرت فيما بعد ، لأنها تصور الغابات الهندية الشهيرة الممتلئة بالوحوش والحافلة بالأخطار والتي غامر فيها أبطال هذه الملحة أنفسهم وقضوا فيها سنين عديدة يهيمنون على وجوههم ويخاطرون بأنفسهم ويتنقلون من غابة الى غابة ومن بلد الى بلد من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب حتى جزيرة «سيلان» الشهيرة التي منحت هذه القصة الشهية جوانب إنسانية رائعة وبطولة عظيمة ومواقف بين النهرين الشهيرين «الجنجا والجنما» مثل «أوده وقنوج» و «واله آباد» ولكن لا يكاد يبين لنا في خلال هذه الملحة أثر المدن الشهيرة الأخرى مثل «دلهي» و «أجينا» اللتين لعبتا دورا كبيرا في الأدب السنسكريتي القديم ولا سيما في ملحمة «المهابهارتا» ومسرحية «شكتلا» (٤) وهذه الظاهرة تدل على أن نطاق هذه الدولة لم يتسع الى هذه المناطق . ومع ذلك يتضح لنا من خلالها معالم الهند كلها مثل طبيعتها الفتانة وجمالها الباهر وأنهارها الجارية وغاباتها المظلمة ووديانها ورعودها وأمطارها وسحبها .

وهذه الملحة أو الأسطورة تصور الحياة الروحية والقيم المعنوية لدى الهنود في هذه

The Wisdom of India p. 122.

(٣)

(٤) أنظر مقالنا عن «شكتلا» في مجلة «تراث

الإنسانية» الصادرة في أغسطس سنة ١٩٦٥ .

الفترة من الزمان . فلقد قطع الآريون مراحل عديدة في تطورهم التاريخي والفكري اذ مرت حياتهم حيناً بالمادية البحتة وحيناً آخر بالروحانية المحضة . وبما أن «الراماياتا» تصور أولى مرحلة حياة الآريين في الهند فترى أن حياتهم تموج بالروحانية والقيم الأخلاقية والمبادئ السامية .

ومن الأهداف الرئيسية فيها أنها تحث الانسان على التضحية . وأداء الواجبات نحو الانسانية ويذم الأنانية والحرص على تحقيق الأغراض الشخصية (١) . والسبب في ذلك أن الانسان في كل مكان قطع المرحلة الأولى من الحياة في الايمان بالله وقدرته وجبروته في هذا الكون . ثم ظهر عليه الطغيان والتمرد أخيراً مما حدى به في بعض الأحيان الى الكفر بالله والجسري وراء المادية والشهوانية . وقد وقعت الهند في هذا اللون من الحياة في العصور التي تلت «الراماياتا» كما تصورها ملحمة «المهابهارتا» . وهذا هو السبب في أن «كرشن» الشخصية الأسطورية في هذه الملحمة حمل لواء المعارضة ضد هذه الحياة (٢) .

وحينما ننظر الى القيم الروحية والمبادئ السامية في «الراماياتا» نجد أن أحسن ما يتصوره الانسان في هذا المجال الطاعة والخضوع والوفاء والاخلاص والمحبة والتضحيات والعفو والتسامح والكرم وما الى ذلك . وأول ما نصادفه في هذا الصدد أن الملك «دساراتا» يجب ابنه الأكبر راماً حياً جماً ، ولكنه يقع في خديعة زوجته الصغيرة الجميلة فيقطع لها العهد على تقي «راما» من البلاد وتولية ابنها «بهارت» العرش . ونجد أنه وفاء

(١) The critical survey of Indian philosophy by Dr. Chandradar p. 41

(٢) قد أوردنا التفصيل في هذا العدد في مقالتنا عن «جيتا» في مجلة «تراث الانسانية» الصادرة في أغسطس سنة ١٩٦٤ .

لعهد والده مع زوجته يترك البلاد ويهيم على وجهه في الغابات فيما يقرب من أربع عشرة سنة ، يعاني فيها الكثير من أنواع العذاب والتعب والارهاق . كل هذا حبا لوالده وطاعة وخضوعاً لمشيئته . وأما «سيتا» زوجته فتطيع زوجها الى حد العبادة وتضرب الأمثلة الرائعة للزوجة المثالية بوفائها واخلاصها وتضحياتها له حتى في أصعب اللحظات حينما يخطفها الملك «راون» ملك سيلان ويرغبها على الزواج منه .

وحينما يرافق راماً أخوه «لشمن» الى الغابة تصور هذه المشاهد نماذج حية لحب الاخوة بعضهم لبعض ، واخلاصهم وتضحياتهم . وفي ثانياً هذه المصائب والآلام يضطر راماً الى اعلان الحرب على راون ملك سيلان لانتقاد زوجته سيتا الوفية من قبضته الظلمة ، ولكن هذه الحرب هي الأخرى تعطى درساً أخلاقياً رائعاً لأنه يتجنب فيها اراقة الدماء ونشر الدمار في أول الأمر ، ويحاول بأقصى ما في وسعه من جهد لايجاد حل سلمي . وحينما تدور رحى الحرب بين الفئتين يحاول راماً بأقصى ما يستطيع أن لا تطفئ عليه ثورة الانتقام أو يسيطر عليه غضب أو قهر . فكان كل همه منحصر في انتقاد زوجته من الملك الطاغية الذي خطفها ووضعها تحت سيطرته ظلماً وطغياناً . تبدو لنا هذه الحرب ومن خلال هذه القيم المعنوية الرائعة حرباً مقدسة وليست حرباً دامية تصورها ملحمة المهابهارتا .

قد ساد الجانب الروحي هذه الملحمة الى حد كبير لأنها تروى على لسان راهب يصف معاركها ويسرد أحداثها سرداً دينياً مقدساً . ومن أجل هذه الصبغة الروحية والقيم المعنوية فيها يرى الباحث توماس (F.W. Thomas) أنها تمهد السبيل للبوذية التي نشأت بعد ظهور هذه الأسطورة فيما يقرب من ستة قرون لأنه طغى عليها كل ذلك الجانب

الروحي الذي يلمح في الرامايانا بأبدع مظاهره وأدق معانيه (١) .

ومن سميات الديانة الهندوكية الآرية بالنسبة الى الديانات السماوية السامية - مثل الاسلام واليهودية والمسيحية - أنها لا تعتقد في النبوة ولا يوجد فيها هذا التصور بتاتا . بل تؤمن بنظرية الأوتار أو التجسد وهي ظهور الله سبحانه في مظهر انساني واتخاذ قلبه لهداية البشرية وارشادها الى فعل الخير في هذا الكون . وقد نشأت هذه العقيدة لأول مرة في التاريخ الهندوكي في الرامايانا لأن « الفيدا » - أول كتاب في الفكر الهندوكي - يؤمن بتعدد الآلهة التي تملك طاقات هائلة في البر والبحر والشمس والنار والعواصف . وأما كتب « اليوبانيشاد » التي ظهرت فيما بعد فهي تعطي فكرة ناضجة عن الايمان بـ « براهمان » (Brahman) الذي لا مثيل له ولا نظير ولا شبهة اذ هو قوة هائلة تملك السموات والأرض وهذه العقيدة بدون شك تصور أقصى مرحلة للفكر الآري حيث تزول جميع الآثار الوثنية ويتجلى التوحيد بأبدع مظاهره كالديانات السماوية السامية . ولكن « اليوبانيشاد » لا يمكن تحقيق الاستفادة منه الا للمتعلين والعلماء فقط ، ولذلك كانت الحاجة ماسة الى عقيدة تتوسط بين الوثنية وبين التوحيد ، تؤمن بها جماهير الشعب الهندوكي التي لم تبلغ مبلغا كبيرا في مستواها الفكري ، وهذه هي نظرية الأوتار التي ظهرت لأول مرة في « الرامايانا » في شخصية راماً بطل الأسطورة . ثم تطورت تطورا كبيرا في ملحمة أخرى وهي المهابارتا وذلك في شخصية كرشن بطل هذه الملحمة ، وهذا هو السبب في اعتقاد جماهير الشعب الهندوكي من الطبقة المتوسطة حتى الآن بأن هؤلاء الأبطال هم الآلهة الذين تقمصوا

الانسان لهديته في هذا الكون في حين يعتقد الفلاسفة والعلماء من الهندوس أن هؤلاء شخصيات خالدة أسطورية في التاريخ الهندوكي وليسوا من الآلهة أبدا (٢) .

بعد استعراضنا لجوانب عديدة من الرامايانا ينبغي لنا القاء نظرات خاطفة على الجوانب الأخرى مثل المجتمع الهندوكي والتقاليد والمراسيم فيه وعلاقة الشعب بالملك وعلاقة الملك بالشعب وما إلى ذلك .

إن هذه الملحة تصور عصرها تصورا دقيقا بحيث تتجلى أمامنا جميع مظاهرها من العقائد والتقاليد والمراسيم والحياة السياسية والاجتماعية وتوحي لنا بأننا نعاين أبعاض هذه الملحمة ونشاهدهم أمامنا كشخصيات في نفس العصر والزمن والبيئة . وفي هذا العصر - كما تصور الرامايانا - كان الهنود متسكنين بالقيم الانسانية وأنبياء الروحية السامية والايان بالأوتار . وكانوا يعيدين كل البعد عن المادية والأفانية والشهوة النفسية . ومن أهم شواهد المجتمع في هذا العصر أن تعدد الزوجات كان شائعا . ومن أجل ذلك نرى أنك دساراتا قد تزوج بها يقرب من أربع زوجات . وهذه الظاهرة هي التي جلبت مشكلات وويلات عذبة كنفى راماً من بلده وموت دساراتا بسبب ذكريات ابنه الأكبر الذي اختار لنفسه القرية والنفي من أجل أبيه .

يقول الدكتور « رادها كرشنان » الفيلسوف الهندوكي الشهير ورئيس جمهورية الهند : إن هذه الظاهرة في الرامايانا سيئة للغاية لأنها تفتح المجال لتعدد الأزواج الذي لاخير فيه للانسان أبدا . وقد امتلات قصور دساراتا بالنساء والحريم ودعا الى الاكفاء بزوجة واحدة (٣) .

Hindulisa p 74

The History of life p 86.

(٢)

(٣)

The Legacy of India p. 64

(١)

وحيثما ننظر الى رامبا الذى تولى عرش أبيه بعد العودة من المنفى لا نجده مجرد ملك يملك الأرض ويأمر وينهى ، بل نجده بجانب ذلك محبا لشعبه عطوفا عليه ، كأنه أب ممتلىء قلبه بالحنان والشفقة والرحمة على بنيهِ . وكذلك أعرب الشعب عن شكره وتقديره واعجابه به الى حد بعيد حتى اتخذهُ بطلا أسطوريا والهيا من الآلهة .

وخلاف وصف الرامايانا لعصره يبدو لنا أنه عصر ذهبي عاش فيه شعبه متعا بما سادته من الطمأنينة والرفاهية والثراء . لأن هؤلاء الملوك سعوا وراء تحقيق رفاهية الشعب وتوفير أسباب الراحة له سواء أكان دساراتا أو رامبا - بطلس الملحمة الذى اتخذهُ الشعب الهيا من الآلهة لشدة اعجابه به وتقديره له . كذلك يتجلى رامبا فى الملحمة كبطل وانسان يتصف بالأخلاق العالية ويحمل قوى معنوية عظيمة .

وبهذا تركت الرامايانا أثرا قويا فى نفوس الهندوس واحتلت مكانة الصدارة بين غيرها من الملاحم والأساطير . كما ساهمت مساهمة كبيرة فى رفع معنوية الشعب ومنحه قوة روحية دافقة وإيقاظ شعور الحب والتضحية فى نفوس الهندوس لتقديس وطنهم ومعتقداتهم الدينية وشخصياتهم الأسطورية الخالدة الى حد العبودية .

ينبغى لنا الآن بعد تحليل الرامايانا تحليلا دقيقا ووصفها وصفا صادقا أن نقارنها بما يشبهها من الملاحم والأساطير لدى الأمم المتقدمة فى العصور الساقطة . وقد حاول بعض الباحثين وعلى رأسهم (Ramesh.C. Dutt) و (Lin Yutang) مقارنتها بملحمة يونانية شهيرة هى الأوديسيه (Odyssey) أن الأوديسيه هى إحدى

ملحمتى « هوميروس » (١) « الخالدين والأخرى هى « الألياذة » . وتتكون الأوديسيه من أربعة وعشرين نشيدا . يروى لنا الشاعر فى الناشيد الأولى (١ - ٤) محاولة « تليماخوس » البحث عن أبيه « أودوسيوس » الذى طال غيابه بعد سقوط « طروادة » . فلما وصل الابن الى بلاط « فيلاوس » عرف أن أباه قد وقع أسيرا فى كاليبسو . ثم يصف لنا الشاعر وصول بطل « الأوديسيه » الى أهل « فاياكيا » حيث يرحب به الملك (٥ - ١٢) ثم يعود « أودسنيسوس » ويعود ابنه الى « إيتاكا » ويتفقدان على تدبير حيلة للانتقام من العشاق الذين ضايقوا « نيلوبا » (Penelope) فى غيبة زوجها (١٣ - ٢١) فيقتلهم « أودسيوس » (٢٢) ثم يكشف عن شخصيته لزوجته ويسترد حكمه ويعيش آمنا فى وطنه (٢).

يقول الاستاذ (Lin Yutang) ان كلا من الرامايانا والأوديسيه يتناول الغربه والنفسى والتشريد ، لأن رامبا يهيم على وجهه فى الغابات تصاحبه زوجته المخلصة « سيتا » كما يخرج « تليماخوس » فى البحث عن أبيه الذى طال غيابه بعد سقوط طروادة . وثمة تشابه آخر بينهما وهو أن « سيتا » بطلة الأسطورة تقع فى اختبار شديد لوفائها وإخلاصها لزوجها وتخرج بنجاح فى امتحانها ولا يمس شرفها وعفتها خلال هذه الملحمة بشئ . وكذلك فى « الأوديسيه » تختبر « نيلوبا » زوجة الملك « أودوسيوس » بعد غيبة زوجها (٣) . وهى الأخرى تعود الى زوجها بعد أحداث طويلة . وهذه (١) وهو أعظم شعراء اليونان الذى عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد فى آسيا الصغرى فى إحدى المدن الآتية : « أثينا » و « أدنير » و « خيوس » و « كولوفون » . (أنظر : الموسوعة العربية الميسرة ص ١٩٢١)

(٢) أنظر : الموسوعة العربية الميسرة ص ٢٥٧ .

(٣) The Wisdom of India p. 122 — 123.

كهنة هذه الفلسفة (٢) . وهذه الظاهرة هي التي جعلت الضعف والانحلال يدبان في المبادئ التي نادت بها هذه الأساطير الخالدة .

ولكن الهندوس رغم كل التطورات التي طرأت على العقائد الهندوكية وفلسفتها على مرور الزمن يعربون عن تقديرهم وشكرهم للراماينا وأعاجيبهم بها الى حد كبير ، لأنها تتحلى بأعلى آيات القيم والمبادئ . وهذه الملاحم لاتزال تقرأ في المعابد والأماكن المقدسة وفي البيوت ليلا ونهارا للموعظة والعبرة والدرس .

ومن أهم الظواهر في الراماينا والتي جذبت اليها نفوس الهندوس وتمسكت وجدانهم وعواطفهم المثل العليا التي تضر بها سينا في هذه الملحمة كأمراة هندوكية مثالية . ولذلك لاتزال تعلق النساء الهندوكيات آمالهن العريضة على سينا ويستعدن ذكرياتها وبطولتها وتضحياتها وحبها المتفاني لزوجها واخلاصها له ووفاءها ليحاكيها في حياتهن الخاصة ويتمثلن في تقديس وعبادة .

قد استوحى عشرات من المفكرين الهندوس وزعمائهم الدينيين في شتى مراحل التاريخ الهندوكي من الراماينا ، ولا يزالون يستمدون منها أصولا ونماذج لحياتهم المعاصرة ويستلهمون منها الدروس والعبر والموعظة في حياتهم الروحية وسلوكهم الشخصي . فقد دعت شخصية راما الأسطورية المثالية الانسان الكامل للهندوس وهو الزعيم الروحي «رامانوجا» (Ramanuja) أن يرفع راية التوحيد في المنطقة الجنوبية في القرن الثاني عشر الميلادي . وكذلك دعا «راماناندا» (Ramananda) - المفكر الهندوكي الشهير في القرن الثالث عشر الميلادي - شعب شمال الهند

(٢) The Legacy of India p. 369 and A Critical Survey of Indian Philosophy p. 335.

الملحمة اليونانية تحمل تلك القوى المعنوية . والأخلاق الانسانية التي تمتاز بها طبيعة الهند وتصورها ملحمة «الراماينا» . ولذلك يقول الأستاذ (Ramesh Dutt) : ان كلا من راما وسينا يعطى أروع مثال للانسان الكامل الذي نبتغى وجوده في حياتنا ، ويمثل المثل العليا التي تتلمسها ونريدها . وهما يحملان قيما انسانية رائعة اذ تتمثل فيهما البطولة والشجاعة والمصابرة والصمود أمام الصعوبات والمشكلات . وبهذا يضرب كل منهما مثالا رائعا للحياة الفضلى . وهذه الحياة الطيبة هي التي يتطلع اليها الهندوس وتطالب بها دياتهم لتكون في سلوكهم ومعاملاتهم ، وتصور نفس هذه الحياة المثالية «الكوميديا الالهية» التي ألفها «دانتى» (Dante) في القرون الوسطى في أوروبا لاعطاء صورة أوروبا الروحية . ان قيما الانسانية ربما لا تتلاءم مع القيم القديمة . قبل المسيح وبعبء الى القرن الرابع عشر الميلادي الا أننا رغم ذلك نجد أنفسنا في ميسس الحاجة اليها اذ لايمكن لنا التغافل عنها مهما تغيرت الظروف ، لأنها تمثل مبادئ سامية للانسان في فترة من الفترات التاريخية القديمة (١) ان هذه القيم الروحية في «الراماينا» لم تلعب دورها في حياة الهندوس الى أمد بعيد بل سرعان ما طرأ عليها - كسنة هذا الكون - أنواع من التغيرات والتقلبات اذ ظهرت فلسفة جديدة تسمى بالسنسكريتية (Vasihnavism) وهي عبارة عن التقاء قدرة الله سبحانه مع الايمان بالله الذي وصل اليه الانسان . وقد نشأت هذه الفلسفة في القرن الثاني قبل الميلاد وأذابت آثار الراماينا والمهابهارتا الخالدة التي سيطرت على مجامع قلوب الناس ردحا طويلا من الزمن وذلك بفضل جهود

(١) The Ramayana of the Mahabharata p. 159.

الى التوحيد . أما الزعيم الروحي الكبير « كبير داس » (Kabirdas) الذى عاش فى نفس القرن تقريبا فقد دعا الى الوحدة بين الهندوس والمسلمين قائلا : ان اله محمد « صلى الله عليه وسلم » هو نفس الاله الذى يتمثل فى شخصية راما وعلى ابن أبى طالب (١) . وهذه كلها اشارات صوفية توحى لنا بأن الله قد تمثل فى شخصية راما كما تعتقد بعض الطوائف من الشيعة فى أن الله برز فى شخصية على بن أبى طالب ، ولا تزال تلتس من الرامايانا معظم الطوائف الهندوكية - ومن أبرزها « وشنو » (Vishnu) و « سيوا » (Siva) اللتان تشكلان أغلبية ساحقة فى الهند المعاصرة الروحية (٢) .

وبعد هذه الجولات الطويلة العريضة والنزهة الممتعة فى رياض هذه الملحة الشهيرة يحسن بنا الآن أن نقف وقفة غير يسيرة أمام ترجمتها الى شتى اللغات ، وتعريفها للأمم الأخرى واعجاب الناس بها فى عدد من أقطار هذه الدنيا، وزيادة العناية بها فى الأوساط الأدبية العالمية .

ولعل أقدم ترجمة للرامايانا قد ظهرت مبكرة فى لغة «تامل» أشهر لغات جنوب الهند فى سنة ١١٠٠ م . ثم توالى لها ترجمات كثيرة الى اللغات الهندية الرسمية والشعبية . أما الرسمية فقد ترجمها الشيخ عبد القادر البديوانى الى اللغة الفارسية - وهى اللغة الرسمية الهندية فى العصور الاسلامية كلها - وذلك فى عصر الملك المغولى الشهير « جلال الدين أكبر » الذى ازدهرت فيه العلوم والفنون وشهد أعظم نشاط لحركة الترجمة فى التاريخ الهندى أجمع . لقد بدأ الشيخ عبد

القادر البديوانى ترجمته الى اللغة الفارسية فى سنة ٩٩٥ هـ - ١٥٨٦ م وأنهاها فى سنة ٩٩٩ هـ - ١٥٩٠ م . كانت هذه الترجمة تتكون من عشرين جزءا ، وأهداها المترجم الى الملك جلال الدين أكبر فسر به الملك سرورا بالغا ، لأنه كان يوجه عناية كبرى الى الحضارة الهندوكية وفلسفتها بدون سابق مثال له فى تاريخ الملوك المسلمين الهنود أجمع . وتوجد نسخ خطية كثيرة من هذا الكتاب فى معظم مكتبات الهند حتى وقتنا هذا (٣) .

أما فى العصور الأخيرة فقد ترجمها الى اللغة البنغالية - لغة الشاعر طاغور - الأستاذ (Kritbas) والى اللغة الهندية الأستاذ (Tulasi Das) والى لغة « مارهااتا » لغة ولاية بمباى - الأستاذ (Sridhar) أما ترجمة «تولاسيداس» الى اللغة الهندية فتعتبر ترجمة قيمة ودراسة علمية دقيقة . ومن أجل ذلك ترجمت دراسته الى اللغة الانجليزية واللغات الأخرى .

كان هذا المترجم معجبا جدا بالرامايانا ومبادئها حتى انه كان يفتخر حين يسمى ويلقب بالرجمى اذ لاحت عليه الآثار الرجمية بسبب اعجابه بالرامايانا بكل جوارحه ، ولا يمانه القوى بما ورد فيها من التقاليد والمبادئ والتعاليم (٤) .

أما العناية بها فى العصر الحديث فى بلاد أوربا فقد وجدت فى «ايطاليا» أول ما وجدت حيث ترجمها الى اللغة الايطالية الأستاذ (Gorresio) فى ١٨٤٣ - ١٨٦٧ م على نفقة ورعاية « شارل البرت » - ملك ساردينا - ثم ترجمها الى الفرنسية الأستاذ (M. Hippolyte) وكذلك ترجمت الى اللغة الانجليزية فى مدينة كلكتا بالهند أيام احتلال

(٤) أنظر : مبرم تميورية (باللغة الأردية) للأستاذ السيد صباح الدين عبد الرحمن ص ٦٣ .

The Legacy of India p. 380.

(٥)

(١) The Ramayana of the Mahabharata p. 162 — 163.

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر ص ١٦٢ .

الانجليز في بداية القرن العشرين . وقد أعيد طبع هذه الترجمة في مدينة «بمباي» بمقدمة قيمة للأستاذ (Ramanuju) ثم طبع هذه النسخة بعناية من الأستاذ (Hemchandra Vidyaranta) في مدينة كلكتا في ١٨٨٥ م . ثم وجه الأستاذ (Ralph Griffith) عنايته الى ترجمة الأجزاء الستة الأولى من الرامايانا الى الشعر الانجليزى ، والجزء السابع وهو الملحق الى النثر الانجليزى (١) . وبهذا وصلت ملحمة الرامايانا الى أوروبا واحتلت مكانة مرموقة فى آداب أوروبا حتى أعجب بها أدباء أوروبا ورحبوا بها إعجابا وتقديرا وألّوا بها شرحا وتفسيرا تلخيص «الرامايانا»

بعد أن قمنا بدراسة علمية لملحمة «الرامايانا» وأبدينا مزاياها وخصائصها البارزة ، واستعرضنا مكاتبتها العلمية والأدبية لدى الأدباء والكتاب فى العالم ينبغى لنا الآن أن نلخصها لتكون لها فى أذهاننا صورة واضحة . وسنحاول هنا أن نلخص ما أورده الأستاذ (Ramesh Dutt) فى كتابه (The Ramayana of the Mahabharato) لأنه أشهر باحث فى أساطير الهند وآدابها . فقد بذل مجهودا كبيرا فى اعداد هذا الكتاب .

يقول فى خطته فى الكتاب : انه اختار من هذه الملحمة الكبيرة أهم الأحداث والوقائع والمشاهد التى لاغنى عنها ، والتى تعرض الكتاب عرضا صحيحا دقيقا . من بين ٢٤٠٠٠ بيت من أصل الملحمة اختار ٢٠٠٠ بيت فقط رعاية للسهولة والسرعة واقتصادا للوقت . ورتبها فى ٨٤ فصلا صغيرا فى أسلوب سهل أنيق وأردف كل فصل بلحوظات هامة دقيقة (٢) .

تبدأ الملحمة بوصف مدينة «أيودها» عاصمة دساراتا - ووصف جمالها وبهاثها ورفاهية أهلها وإيمان شعبها بالآلهة وأداء طقوسهم الدينية لها . كان الملك موضع الإعجاب والتقدير فى البلاد إذ كان يجلس بين يديه ويركع أمامه القساوسة والكهان . كان الملك نموذجا حيا للأخلاق العالية والمبادئ السامية . وكان الشعب فى هذا العصر يمارس لزراعة باقتناء البقر والغنى والغلة والذهب . كانت الأخوة والمحبة والمواساة والمساعدة من أهم مميزات هذا الشعب . أما الخداع والمكر والخيانة والسرعة والأخلاق الرذيلة فلم تعرف فى هذه البلاد مطلقا . وكذلك لم يشهد هذا العصر التفرقة ولا الفوارق الطبقية بل كانت جميع الطبوائف والجماعات تؤدى واجباتها أداء كاملا . وكانت هذه البلاد بعيدة كل البعد عن المعارك واستخدام السيوف والرماح ، بل كانت ترفع دائما شعارات السلم والأمن والطمأنينة . ومع ذلك فقد كانت تحرسها حراسة كاملة من كل جانب الأفيال القوية التى كانت تجلب من غابات الهملايا . كانت أيودها عاصمة جميلة عامرة مزودة بالعمارات الفخمة والهيكل العظيمة ومحفوظة بالسباتين والروضات . وطبقا للتقاليد الهندوكية عند اختيار الزوج للأميرات أعلن «جاناك» - ملك قيديحاس - مسابقة فى الرماية لاختيار أحسن رام كزوج لابنته «سيتا» . فيتدفق آلاف الأمراء من أطراف الهند وجوانبها على بلاط ملك قيديحاس التى تقع فى ولاية بهسار . وكان من بينهم «راما» ابن الملك «دساراتا» . وقد عرض الملك «جاناك» على هؤلاء الأمراء الوافدين أداء مهمة شاقة لاختبارهم ، وهى حمل وكسر أقدام وأثقل قوس يملكه من العصور الغابرة . وقد فشل فى تنفيذ هذه المهمة كل من حضر هذه المسابقة . وتقدم راما بدوره ، وما أن فتح وشد وتر القوس حتى تحطم القوس فى طرفه

(١) The Ramayana of the Mahabharata p. 161.

(٢) The Ramayana of the Mahabharate p. 161.

عين وارتفع منه صوت هائل مدو بلغ عنان السماء ،
وصم آذان الناس ، فأغمى على الحاضرين أجعين ،
وتردد صدهاء فى الجبال والوديان والغابات المحيطة
بالمدينة حتى سمعه الناس فى البلدان المجاورة .
ثم ساد الهدوء وأفاق الناس من غشيتهم . فقام
الملك يعاقق الأمير «راما» وأعرب عن رغبته المخلصة
فى تزويجه من ابنته الجميلة الحبيبة لديه تقديرا
لشجاعته وبطولته .

وقد وصل هذا النبأ الى الملك «دساراتا» فى
«أيودها» ، وكان جالسا ساعثذ على أريكته وبين
يديه وزرائه وقساوسته وندماؤه . فهناك الجميع
على بطولة راما وشهرته الفاتكة فى البلاد النائية
حتى طار الملك فرحة وسرورا ، وغادر بلاده لحضور
حفل زواج راما الى «فيديجا» . فاستقبله الملك
جاناك استقبالا منقطع النظير ، وأنزله منزلة السمع
والبصر ، وأدى بمناسبة مقدمة جميع المراسيم
الدينية . ثم أعد عدة ضخمة لحفلة الزفاف . فقد
غطى السرادق بالأكاليل والباقات من الزهور
والروائح والعطور وقرئت الأناشيد المقدسة من
«الفيدا» . ثم جلس العريس والعروس بين يدى
الكهنة يلتف حولهما آلاف مؤلفة من الناس ومن
بينهم الملوك والأمراء والوزراء والندماء ، حتى تم
الزواج بهرجان عظيم . ثم عاد راما مع عروسه
سيتا وأهله وذويه الى أيودها .

كان راما يعيش حياة طيبة مع زوجته ويؤدى
جميع واجباته الدينية ، لأنه كان راسخ الايمان
بالآلهة . اذ كان يعبدهم ويقدمهم حتى رضى عنه
الربهان والكهنة واحترموه احتراماً بالغا .

ولما بلغ دساراتا من عمره مبلغا كبيرا وضعفت
قواه عزم على تنويع ابنه الأكبر راما ليتسولى
عرشه . وعقد لهذا الأمر اجتماعا كبيرا حضره جميع
أبناء الشعب وأطلعهم على قراره بتولية ابنه راما

العرش . فوافق الجميع على هذا القرار ورضوا به
اذ أنهم كانوا يحبون راما حبا جيا ويقسّدونه
تقديسا بالغا . ثم أعدت العدة لتنويع راما فزينت
البلاد وزخرفت القصور واحتشدت الجساهير .
فقام راما المتدين التقى يصلى الى اله «نارين»
الذى خلق جميع المخلوقات ، وقدم له الهدايا
ووضعها ، على النار التى أوقدت لهذا الغرض .
ثم أخذ مابقى من النار وأكله بركة وثوابا واعتكف
الليلة كلها ساهرا على الحشائش الخضراء التى
فرشت بها أرض المعبد يعبد «نارين» ويطلب منه
العون والتوفيق . وكذلك فعلت زوجته «سيتا»
العنيفة الطاهرة اذ سهرت الليلة وظلت ضائمة حتى
ضلعت الشمس وخرج الآلاف لحضور احتفال
التنويع .

وفى غمرة هذه الفرحة والسرور ليوم التنويع .
حدثت حادثة غريبة غيرت مجرى الحياة لكل من فى
القصر ، وحطمت الآمال والأمانى ، وحولت الحياة
الجميلة الى ويلات ونكبات ومآسى . وهذه المآسى هى
التي خلقت أسطورة الراما يانا الخالدة التى تعتبر آية
الأدب والفن بين الآداب العالمية . كانت لدساراتا
الملك زوجة رابعة تسمى «كايكيا» ملكة «كيكياس»
التي أنجبت له ولدا شجاعا سمي «بهارت» . فكتبت
هذه الملكة تحب ابنها وتنفرد بحبه دون الآخرين
من أولاد «دساراتا» . وتحب راما وتحقد عليه .
فلما رأت الزينة والزخارف والبهجة والسرور فى
العاصمة كلها بمناسبة الاحتفال بتنويع راما راودت
نفسها على أن تحطها وتحولها الى حطام وخرائب
لبناء مجدها ابنها «بهارت» وتنسويجه بخلف أيام
دساراتا على العرش . لأنه لا أمل هناك فى اعتلاء
ابنها بهارت العرش اذ تم تنويع راما ، لأنه كبير
أبناء دساراتا ، والذى يستحق العرش ومن بخلفه
ابنه أو «لشن» أخوه من أبيه فهو الآخر أقرب

الناس الى راما وسوف ينال منه مالا ينسأله بهارت .

وقبيل افتتاح الحفلة يبحث الملك عن زوجته الرابعة «كايكيا» فلم يجدها فى حرم القصر . فاندھش الملك وزادت حيرته واشتد خوفه لأنه كان يحبها حبا كبيرا ووهب لها قلبه ووجدانه وشعوره وعواطفه وذلك لجمالها الساحر وسنها الصغيرة .

وبعد أن طال البحث عنها إذا هو يراها ملقاة على أرض غليظة تنفجر بكاء وتنهمر الدموع من عينيها . فدهش الملك لهذا المنظر الأليم وانحنى فوقها وحملها على ذراعيه ومسح الدموع من عينيها وسألها عن سر بكائها وألمها وأحضر لها جميع الأطباء والكهنة لمعالجتها . ولكنها مع ذلك تزداد بكاء وألما حتى صار الملك فى غاية الحيرة والخوف ومن شدة العطف عليها حلف على أن يحقق لها جميع طلباتها مهما كانت شاقة وصعبة على أن تفتح فمها وتحكى حكايتها . وحينئذ ابتسمت الملكة وقالت : انك عاهدتني أمام الآلهة على انجاز كل طلباتى . وطلبى منك الآن هو أن توقف تنويج راما وتنفيه الى الغابات لمدة أربع عشرة سنة وتولى ابنى «بھارت» على العرش . وقع هذا الكلام على قلب دساراتا كصاعقة وأظلمت الدنيا فى عينيه ، فلم يكذب بين له شيء ، وفقد وعيه وشعوره . ثم استعادهما بعد مدة ، وطلب منها أن تسحب هذا الطلب ولكنها أبت وأصرت على تحقيق ماوعدها به .

وقد انتهى موعد الاحتفال وارتفعت الشمس ثم ساد الظلام . وفى الصباح الباكر لليوم الثانى حضر «راما» الى أبيه وزوجته «كايكيا» ، ومس رجليلهما أدبا واحتراما ثم سأل أباه عن الوجوم السائد على وجهه ، وسأل «كايكيا» عن سكوتها ، فأجابت أن والدك قطع على نفسه وعدا يجب عليك الوفاء به ، وسأخبرك بهذا الأمر اذا وعدتني على

انجازه خضوعا لوالدك وطاعة له كابن مخلص .. فتعهد لها راما بتحقيق ما وعدها أبوه به . فتقول حينئذ : يجب عليك الآن أن تترك البلاد وتعيش فى الغابات لمدة أربع عشرة سنة وسيتولى أخوك بھارت الحكم بدلا منك .

يستعد راما للسفر وفاء لوعده أبيه . وهناتجلى المواقف الانسانية الرائعة وهى أن راما بعد قراره واستعداده للخروج من البلاد وللعيش فى الغابات يذهب الى زوجته سينا ويستأذنها وينصحها بالبقاء فى القصر مطيعة وخاضعة لكل من فيه من أبيه وأمه وأخيه بھارت الذى سيتولى العرش بعده وينصحها بخدمة هؤلاء وتوفير وسائل الراحة لهم . ولكنها تأبى الا أن تخرج معه وترافقه أينما ذهب وتشاركه السراء والضراء لأن أبواها علماها هذا الأمر منذ صغر سنهما ، وليست حياتها الا جزءا من حياة زوجها ، وان سعادتها تكمن فى سعادة زوجها وشقاءها فى شقائه .

ثم يذهب الى أخيه «لشمن» ابن ملكة «سوميترا» من والده ليستودعه فاذا هو الآخر مثل «سينا» يلح الحاحا شديدا على مرافقته ومشاركته فى محنته والمحافظة على سينا من الكرب والغم والمفارقة بنفسه من أجلها بسيفه ورمحه . ومع ذلك يحاول «راما» اقناعه بالبقاء لخدمة أبيه وأمه وأهله كلهم ، ولكن «لشمن» لا يرضى بذلك ولا يرى له عيشا فى «أيودھيا» بعد مفارقة أخيه الأكبر فيصحبه هو الآخر فى مغامراته .

ثم يقف الجميع بين يدى ملكة «كوساليا» والددة راما التى تنفجر بكاء من حديشهم ، ثم تتقدم باكية الى «سينا» وتقبل جيئها وتقول لها : انك تتركينى لتراقبين زوجك فى محنته . انك سعيدة بهذا القرار ، لأن الزوجة لها أن تضحي من أجل زوجها بكل غال وثمين وتصابه فى كل حين وآذ،

فلما حل موعده الرحيل جاءت العربية لتركب فيها
«سيتا» و «راما» و «لشمن» بعد أن جهزوا جهازا
كبيرا لهذا السفر بما يحتاجون من الأسلحة والأغذية
والملابس وما الى ذلك . وحضر آلاف من أبناء
الشعب الذين كانوا يكونون لراما احتراما بالفسا
وحبا فائقا ليوذعوه . كان المنظر قبل مغادرة القصر
مثيرا للغاية . فقد تعالت الصرخات من كل جانب
وانحدرت الدموع من عيون الناس . وكان كل
واحد يقف مكانه فى خشوع وبكاء . ثم حضرت
الملكات باقيات صارخات وجاء الملك دساراتا وهو
ينفجر بكاء . وما ان وقعت عيناه على راما حتى
وقع مغشيا عليه . فأمر راما سائق العربية فى أن يسرع
بالرحيل لأنه لا يملك القدرة على رؤية هذا المشهد
المثير المروع ، ولا يقدر على مشاهدة والده ولا أمه
ولاشعبه . وهم على ذلك الوضع فسارت العربية
بسرعة تاركة وراءها حياة القصور والجنات والأنهار
الى غابات لراحة فيها ولا طمأنينة ولا سكون ..
وبعد سفر مرهق طويل ولمدة ستة أيام وسط
الغابات ألفت هذه القافلة عصا الترحال فى موضع
من الغابة وتحت ظلال شجرة باحة عن مسكن
مريح لمدة يسيرة من الزمن تسترجع فيه أنفاسها
وتستجمع قواها ثم تواصل رحلتها .

وجمالها الساحر لم تطراً عليهما تغيير شامل . فقد
وصلوا في اليوم السادس الى جبل صغير يسمى
« شتراكوتا » بين نهري « الجنجا » و « الجمنا »
بقرب مدينة « اله آباد » والتي اتخذها الهندوس
فيما بعد مكاناً مقدساً لهم . ويقال : ان هسبؤلاء
قد التقوا هناك بشاعر شهير هو « المقدس والميكي »
الذي ألف ملحمة « الراما يانا » كما أسبقنا
القول (١) .

وهناك في أيودھيا لم ينس « ودماراتا »
 « راما » لحظة واحدة بل ظل يبكي عليه ويتحرق
 شوقا لرؤياه ويذكره . وكلما مضت الأيام كانت
 ذكرى راما تزداد شدة وعنفا حتى مات دماراتا
 بهذه الذكريات الحزينة ومن جراء ذلك .

خلال هذه الأحداث كلها لم يعرف « بهارت »
الذى أرادت له أمه تولية العرش بدلا من أخيه
« راما » شيئا مما حدث ، لأنه كان فى مهمة عسكرية
فى بلاد نائية . فلما عاد الى أيودها وجد فيها أحداثا
وتطورات لم يتصورها . فقد توفى والده
« دساراتا » ونفى أخوه الى الغابات . فدهش بما
حدث ، ورفض الجلوس على العرش كما أرادت له
أمه وخرج للبحث عن أخيه فى الغابات . وبعد
أيام حافلة بالتعب والارهاق وسط الغابات لاح له
عن كعب دير لراهب من الرهبان شيد بالأوراق
والأغصان على صورة كوخ صغير . فظن أن الراهب
الذى فيه سوف يدلّه على أخويه وسيتا . وكان هذا
الدير فى الحقيقة بيت سيتا الذى كان يحرسه
« لثمن » بسيفه وقوسه حتى لا يصيبها مكروه ،
وكان أخوه راما يخرج ويحبى . فدخل بهارت
الدير فوجده بيت راما فانكب على قدمي أخيه
يقبلهما فى حب وحنان لآحد لهما ، وطلب منه العفو
والتح عليه فى العودة الى البلاد وتولية العرش . فقام

(١) أنظر :

راما يعانقه ويقبله ويسأله في لهفة عن أحوال أبيه وأمه وأم لشنم وأم بهارت وشعب أيودھيا وكبار رجال السياسة والوزراء . فأخبره بهارت بأن دساراتا قد مات متأثرا بذكره والبكاء عليه . وأما أمه « كايكيا » فهي أيضا تلوم نفسها على ما فعلت وتقضي أيامها في بكاء وقلق وندم لأن أمانيتها هي التي قضت على حياة دساراتا وجلبت المأساة الكبرى للبلاد كلها . ثم أخبره أن الشعب هو الآخر يذكره ولا ينساه ، كما أن رجال السياسة يذكرونه باستمرار وينتظرون قدومه فنظر إليه . فإذا أمه الملكة « كوساليا » التي رافقته للبحث عن راما قامت بين يديه . وتحركت عواطفها حينما رآته في ملابس خشنة مصنوعة من الأوراق والأغصان كما رأت كذلك في نفس هذا المنظر « لشنم » أخاه الوفي وسيتا زوجته المخلصة . ولكن راما أبى العودة إلى أيودھيا قبل مضي أربع عشرة كما قطع والده على نفسه الوعد لزوجته « كايكيا » وذلك إيفاء له ، لأنه تعهد بذلك أمام الآلهة ، وهو الآن في السماء بين يديها . وحينئذ يقول « جابالي » الفيلسوف الهندى آنذاك الذى كان يشك في الآلهة وفي الآخرة : « كان عليه أن لا يترك عرشه بسبب الايمان بالأوهام ، لأنه لا يعرف على وجه اليقين أن والده يعيش الآن بين الآلهة في السماء أم لا ؟ ولكن راما يعلن ايمانه بالآلهة وبالآخرة بحماس واندفاع منقطعى النظير ويصر على توفية ما قطع والده على نفسه من التعاهد . ثم ينصح راما أخاه « بهارت » بنصائح غالية لرعاية أهله وشعبه وتوفير وسائل الراحة والرفاهية للناس وبذل كل الجهود في سبيل سعادتهم وطمأنينتهم ، ثم يودع بهارت ومن معه كلا من « راما ولشنم وسيتا » ليستكملوا مدتهم في الغابات بين البكاء والدموع ، ويحمل بهارت معه - عند عودته -

أحدية راما ليضعها على العرش ويحكم أيودھيا بالنيابة عنه . .

لقد بدأت الآن مرحلة جديدة في حياة راما . لأنه قرر مغادرة المناطق الشمالية من الغابات حيث يتردد عليه أهله ، وشد الرحال إلى الجنوب . فالتقى عصا الترحال في غابة مظلمة بقرب نهسر « جود اوارى » الذى يقع الآن على نحو مائة ميل تقريبا من مدينة بمباى . وقد رحب بهم هناك راهب كبير وهو « اجاستيا » وأعد لهم مسكنا بقرب مسكنه . ويذكر أن هذا أول وفد للآرين في جنوب الهند ، إذ أن هذه المنطقة كانت غاصصة بالدروديين - السكان الأصليين - ولم يتعرف هؤلاء حتى الآن على الديانة الآرية وتعاليدها . ولعل القدر قد شاء أن تكون محنة راما ورفقائه أول نافذة لتسرب الفكر الآرى إلى جنوب الهند .

وفي يوم ما من الأيام صادف راما في هذه الغابة المخيفة امرأة جميلة رآها واقفة تنظر إليه في دهشة وتعجب من جماله وشبابه . ثم تقع في حبه من النظرة الأولى فتتقدم إليه ثم تسأله عن اسمه وبلده . فيحكى لها قصته . وهي بدورها تحكى له قصتها وتقول : انها تسمى « سربا » - نكها - وهي ملكة البلاد ، وأخوها « راوان » ملك سبالان وهي انسانة غريبة تستطيع أن تتخذ عدة أشكال . ثم تعرب عن إعجابها الشديد به وحبها المتفانى له وتعرض عليه الزواج ليعيش معها حياة سعيدة في وسط الغابات ثم تدم أمامه « سيتا » زوجته المخلصة وتطعن في جمالها وكذلك تضع لشنم وتقول : انه ولد صغير لا يفهم ولا يعقل . ولا يتحمل راما هذه التهم ولا تلك الضغائن الموجهة في زوجته وأخيه فيقول لها بكل هدوء وبكل صراحة : انه متزوج من سيتا ، وهي زوجة مخلصة إلى أقصى حد

يمكن ، ولذلك لا يمكن له الزواج منها . أما لشمن فهو أعزب وفي ريعان شبابه وأنه في ميسس الحاجة الى الزواج والى اتخاذ رفيقة لحياته . وهو مستعد لأن يزوجها منه . فتعرب عن موافقتها على ذلك ولكن «لشمن» يحتقرها ويقول لها : انى خادم راما فهل ترضى بالزواج من خادم؟ فتثور غضبا من هذا الكلام متأللة وتهدد بالانتقام من الجميع بسبب هذه الاهانة التى وجهت اليها .

وذات يوم رأت «سيتا» غزالا جميل المنظر يتحلى بأنواع الحلى، ويتزين بأفخر أنواع الزينة مارا أمام بيتها . فنادت لشمن وأمرته باصطياد هذا الغزال والأتيان به اليها . ولكن لشمن منهما من اصطياد مثل هذا الحيوان، لأنه فيه خطرا عليها اذ لعله انسان اتخذ هذا الشكل لخداعها . فلم ترض سيتا بهذا العذر وطلبت من راما مطاردة الغزال واصطيادها . فأسرع راما وراء الغزال فاذا بسيتا تسمع صرخات راما . فتذهب الى لشمن وتلح عليه فى الذهاب لانتقاذ راما ولكنه يرفض مغادرتها ، لأنه على يقين من أن راما لن يمسه أذى اذ هو بطل شجاع لا يقدر أحد على ايدائه ، وأن راما قد أمره بحراستها والبقاء بجانبها ، وهذا الغزال وتلك الصرخات ماهى الا أشباح للارواح الخبيثة التى تهوم على وجهها لتنشر الشقاء على الأبرياء فى الغابة وهنا تمتلىء «سيتا» غضبا على لشمن فتقول له : انك تعاملنى بالمكر والخداع وتراودك نفسك فى أن يموت راما وتتخذنى زوجة لك . وهذا مستحيل . انى زوجة مخلصه له ، وحينئذ ينفجر لشمن بكاء ويقول لها : انه لا يزال يعتبرها الهة كما يعتبر أخاه الها كذلك ، ومن أعز أمانيه خدمتهما وتوفير وسائل الراحة لهما ، ولكنها تشك فى كلامه فيستعد للذهاب لنجدة راما اذا كان هو فعلا يستنجد به ، فيودعها ويتركها فى حفظ الآلهة ويخرج للبحث عن راما .

مدالليل ظلاله على الغابة . فاتهز «راون» ملك سيلان هذه الفرصة للانتقام من أجل أخيه التى أهانها «لشمن» ، ورفض الزواج منها . فجاء اليها على صورة راهب . ولما رآها دهش لجمالها ووقع فى حبها من النظرة الأولى فمدحها وسألها عن اسمها ونسبها . فظنته سيتا راهبا مقدسا لا يكتفى النسوايا الخبيثة . فحكى له قصتها وغربتها فى هذه الغابة ثم سألته عن بلده ومدة اقامته فى هذه الغابة وعبادته كراهب مقدس . فقال لها : انه ليس براهب بل هو ملك سيلان وملك الغابات . ثم أعرب عن حبه الشديد لها وعرض عليها الزواج منه على أن تملك سيلان وتحكمها كما تشاء . فلما سمعت سيتا هذا الكلام أمطرتة بوابل من الغضب واجابته معتزة بنفسها وناظرة اليه باحتقار ، انى زوجة مخلصه لراما البطل الشجاع ، والانسان المثالى ، والرجل المقدس كالألهة : ثم حذرته من الاقتراب منها والمساس بها ولكنه أمسكها وحملها على عاتقه ثم أركبها عربته وفربها الى بلاده، وكانت «سيتا» تصرخ وتولول طوال الطريق وتنادى على راما بين اللحظة والأخرى لانتقاذها ولكن عبثا كانت تناديه وتصرخ عليه ، لأنها اخترقت مجال هذه الغابة واقتربت من جزيرة سيلان عابرة البحار المحيطة بها .

بذل كل من راما ولشمن المستحيل فى البحث عن «سيتا» فى الغابات والأشجار والأنهار حتى وصلا أخيرا الى جبال «ماليا» حيث لقيا «سوجريفا» ملك بلاد «فاناس» . وكان يصحبه قائده وساعده الأيمن «هانومان» (Hanuman) والذى استولى أخوه على عرشه وعلى زوجته ، وطرده من بلاده ليقيم على وجهه فى الغابات والجبال .

استقبل «سوجريفا» كلا من راما ولشمن استقبالا حارا وتحركت عواطفه . حينما سمع قصة راما كلها من أول فنيه من أيودها الى خطف راون

لزوجته المخلصة . ثم اتفق كلاهما على مساعدة الآخر . لقد أصر «سوجريفا» على مساعدة راما وإعادة سينا اليه كما أقسم راما على مساعدة سوجريفا وإعادة عرشه وزوجته اليه .

وهنا صور الشاعر الحوادث التي وقعت بصور غريبة لانكاد نصدقها في ضوء الحقائق التاريخية فقد عرض «حانومان» في صورة قرد وكل من في بلاده في سيلان يزاو لون السحرو الشعوذة . وكذلك لانكاد نصدق عرضه للتقاليد والمراسم والآلهة في منطقة الجنوب على نفس الصورة الآرية ، لأن هذه المنطقة ظلت بميدة كل البعد عن أفكار الآريين ونزعاتهم وتقاليدهم ومن المؤسف أن الشاعر قد فشل في عرضه شئون هذه المنطقة عرضا صحيحا دقيقا أمينا من ناحية الأفكار والتقاليد ولله لحماسته في نزعة الآرية حاول اسباغها بالصبغة الآرية المحضة والبعد عن الحقائق التاريخية .

وطبقا لهذا التعاهد بينهما ذهب «سوجريفا» الى أخيه وحاربه وساعده راما في هذه المهمة حتى كلل سعى سوجريفا بالنجاح وهزم أخاه واستعاد عرشه .

ثم يعد سوجريفا المدة مع راما ولشمن لشن الحرب على «راون» لانقاذ سينا من قبضته الظالمه . فيرسل عشرة آلاف من رجاله الأبطال الى هذه المهمة ليجشوا أولا عن مكان راون في الغابات والجبال والأوغال شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى يطلعوا على مكانه وأساراه للزحف اليه بعدئذ .

فيتوغل هؤلاء الأبطال في الغابات والجبال والأدغال الى جزيرة سيلان حيث يرى «حانومان» - قائد الجيش - «سينا» حزينه كئيبة باكية تحت حراسة شديدة . وهنا وقف «حانومان» وقص للناس قصة راما كلها بصوت عال مدو حتى استولت

على الناس الدهشة والحيرة لهذه الجرأة ساعة الاستماع الى هذه القصة وحتى أن سينا التي سمعتها دهشت هي الأخرى بها ولم تصدق أذناها كل ما سمعت من «حانومان» وظنت أنها تحلم أو تتخيل ولكن حانومان دنا منها وأعطاهها علامة يؤكد لها أنها من زوجها راما ، وأن راما في طريقه الى الزحف نحو سيلان لانقاذها . حينئذ تطير سينا فرحها وسرورا ويشرق وجهها نورا وضياء ، وتبتسم شفتاها كما تتفتح البراعم ويعود لهما لونهما الباهر فيعود اليها جمالها واشراقها ، ثم تقبل على حانومان وتساله عن راما وصحته وعيشه بعد خطفها ، ثم عن لشمن وعن أيودھيا ، فيخبرها بما عنده من أخبار ويطننها على أن جيشا جرارا في طريقه الى محاربة «راون» في عقر داره ، ثم يستأذنها في العودة الى راما بعد أن يأخذ منها تذكارا يؤكد سلامتها وشوقها ولهفتها الى راما .

وقد علم «راون» كيف تمكن حانومان من التوغل في البحار والأنهار والوصول الى سيلان ومقابلة سينا في السجن واحراق جزء كبير من سيلان في هذه المغامرة . فاستدعى وزراءه ومستشاريه ليعقد مجلسا للتشاور معهم حول موضوع حانومان وأخباره ، وعن استعداد راما للزحف نحو سيلان، ومحاربة راون لانقاذ سينا . فأشار عليه معظمهم بالصمود أمام راما ومحاربه وتوجيه الهزيمة الى جيشه ، إلا أن بعض المخلصين له أشاروا عليه بتسليم سينا الى راما ومسالته ، ولكنه رفض رأيهم متمسكا برأى الأغلبية . وكان من بين هؤلاء المخلصين «بيهشان» «وأخوراون» نفسه وهو «كومباكارانا» فاضطر «بيهشان» بعد رفض رأيه الى مغادرة سيلان والانضمام الى صفوف راما وبهذا أطلع راما على أسرار بالغة الخطورة فيما يتعلق بالحرب مع رواون .

وبعد أن تم الاستعداد زحف راما الى سيلان
يصحبه جيش جرار لم يسبق له مثيل ، واشترك
في هذه المعارك أعظم القواد والأبطال ومن بينهم
أخوه «لشمن» البطل . ولما وصلوا الى سيلان
أعلنوا الحرب على راون لاستعادة سيتا . وقدواجه
راون القوة بالقوة ودارت بين الفريقين معارك
دامية سقط فيها أعظم القواد والأبطال لراون حين
هجم كل منها بجيشه بهجمات عنيفة موقعة على
جيش الآخرين ، فقد هجم أخو راون ثلاث مرات
على جيش راما وكذلك فعل « اندراجت » ابن
راون .

سجلت هذه المعارك مشاهد رائعة لايزال
يردها أبناء الهند كملحة مقدسة . وهذه المعارك
وحدها قد ترجمت الى عدة لغات ومن بينها اللغة
الانجليزية بسبب وصفها الرائع للمعارك والمشاهد
العظيمة للحرب المقدسة . لقد هجم راون مرتين على
لشمن وهزمه في كل مرة ولكن لشمن لم يقع في
يده . أما راما فقد حارب كبطل من الأبطال وهزم
في كل مرة كل من قابله ولم يذق طعم الهزيمة مرة
من المرات طوال المعارك .

كان ابن راون ساحرا كبيرا . وقد استعرض
الألعاب السحرية في هذه المعارك واختفى عن عيون
راما وأخيه لشمن وهزمها مرات عديدة ؛ ولكنه لم
يستمر في سحره مدة طويلة بل سرعان ما قتله
لشمن . وكذلك قتل راون سيف راما أخيرا ، وبقتله
انتهت المعارك وانتصر راما .

وتصف هذه الملحة أن الآلهة كلهم كانوا مع
راما في هذه الحرب يساعده ويشدون أزره
ويشجعونه . ولذلك انتصر على راون الشرير . ثم
أمر راما بإحراق جثة راون . فوضعت أكوام من
الخشب والصندل والزيت والروائح عليها ، وأشعلت
النيران فيها حتى تحولت جثته الى رماد .

ثم استقبل راما « سيتا » ولكنه لم يقربها خوفا
من الاشاعات التي أثرت حول علاقتها براون وذلك
بسبب اقامتها في قصره وسيطرته عليها مدة غير
يسيرة . وقد أدركت سيتا هذه الحقيقة ولذلك طلبت
الى لشمن اعداد نار حامية لتلقى فيها نفسها حتى
تثبت طهارتها وعفتها . فأعدت النار وألقت سيتا
نفسها فيها ولكن « اله النار » حفظها من كل سوء
وخرجت بريئة طاهرة من النار . فتوجه اليها راما
وعانقها . ثم أمر باعداد جهاز السفر الى أيودھيا
اذ انقضت الأربع عشرة سنة في الغابات وحان بذلك
الرحيل الى بلاده . وقبل مغادرته سيلان سلم سيلان
التي فتحها الى « سوجريشا » الذي ساعده في هذه
المهمة لأنه وعده بذلك أثناء اقامتهما في الغابة أيام
المحنة .

وقد أعدت العدة للرحيل وخرجت القافلة الى
أيودھيا مارة بالغابات والأنهار التي عاش فيها راما
أيام محنته . ولما وصلت أبناء قدومه الى أيودھيا
زينت البلاد بأجل الزينات ، وأقيمت الحفلات
لاستقبال العائدين من الأبطال . ولما دخل راما
عاصمته تدفقت عليه الجماهير من كل جانب ترحب
به ويمن معه ، وتهتف باسمه ، وتقدم له تحياتها
وتهانها . فقدمه بهارت الى العرش وأخذ أحذيته .
ثم قدم عليه الناس يهنئونه ويباركون كفاحه ومن
بينهم أمهاته وأخوته جميعا .

انتشرت الاشاعات مرة أخرى حول سيتا
واقامتها في سيلان تحت سيطرة راون . فأمرها راما
بمغادرة القصر الى الغابة والاقامة فيها الى أن تعرض
مرة أخرى ماثبت طهارتها وعفتها . فخرجت من
قصرها الى الغابة ولجأت الى الراهب « والميكي »
ومعها ولداها اللذان رباها الراهب تربية رهبانية
وفي هذه الغابة ماتت سيتا قبل أن يتم بينها وبين راما
لقاء آخر .

حكم راما أيودها لمدة طويلة من الزمان. وعاش الشعب في حكمه عيشة راضية طيبة تسودها الطمأنينة والرفاهية والأمن والسلام . ولم يسهم سوء طوال أيامه في الحكم . وارتفعت قيمهم المعنوية بامثالهم أمره لأنهم اعتقدوه انسانا مثاليا فحذوا حذوه ذراعا بذراع وشبرا بشبر في الخير والشر ، ثم صيروه شخصية أسطورية والهـا من الآلهة .

واليكم مشهد من أصل « الراما يانا » كنموذج لأسلوب الراما يانا ومنهجه وعرضه ، وهذا المشهد في الحقيقة مشوق ومثير يصور حياة راما في الغابة وحضور أخيه « بهارت » اليه ليحمله على العودة الى البلاد . ومن الجدير بالذكر أن ملحمة « الراما يانا » تتكون من نوعين من المقاطع : المقطع الأول يسمى « شاباي » (Chaupai) بالسسكريتية وهو يتكون من ثمانية أبيات حيث ينتهي الى ختام حديث أو فكرة ثم يليه « دوها » (Doha) وهو النوع الثاني - الذي يتكون من بيتين كسكلمة لشاباي .

شاباي (١) ٢٤٠

قام بهارت بين يدي أخيه «راما» وأخيه الآخر ومع صديق له ، ثم وقف صامتا احتراماً ، وقلبه خال من كل تفكير يشوبه من فرح أو حزن ، كأنه في عبادة . ثم قال لأخيه : اغفر لي ياسيدي واعف عني ثم وقس على قدميه كقطعة هامدة من الخشب .

وقد شعر «لشن» - المسكين - بالذي يقصده بهارت وخيل اليه أنه في عبادة الآن . ولا يمكنه أن يقترب منه أو يعانقه . فقد أصبح في حيرة شديدة بين شيئين يشده كل منهما الى جانبه : الأول أنه

(١) قد اخترنا هذا الفصل من أصل الراما يانا من ترجمة الباحث الهندي الشهير « تولسيداس » (Tulsidas) من الجزء الثاني ص ٧٣٢-٧٣٥ .

ينبغي له أن يقدم خدماته ويؤدي واجباته نحو أخيه راما . والثاني أنه يحب أخاه بهارت أيضا . وهذا الحب يشده هو الآخر اليه شدا عنيقا . فأيهما يختار؟ لقد أصبح الآن كطفل يلعب بطيارة ويشدها الى جانبه لتقوم ميزانها . وأخيرا ركع بين يدي راما وقال له : هاهو ذا بهارت جاء اليك ليحيئك . فاستفاق راما من غيبوته ، وحطم سكوته وقفز الى جانب بهارت راميا كل ما كان في يده من قوس ورمح وجعبة وعباءة .

دوها

هذا الرجل العطوف الرحيم قد وضع يده على قلب أخيه « بهارت » بعد أن فاض قلبه ولم يتمالك عواطفه فعاثقه معانقة حارة . وهذا المشهد المثير قد حرك قلوب الناس جميعا .

شاباي ٢٤١

لا يمكن لأحد من الشعراء مهما بلغ أمره أن يصف أو يعبر عن هذا الحب المتفاني ، ولا ذلك اللقاء الحار لأنهما فوق التصور وفوق الأسباب وفوق التفكير وفوق ما يدور بخلد انسان .

وأنا الشاعر لا أستطيع أن أعبر عن مدى حبهما بسبب عجزى كائنسان ضعيف . ان الشاعر يبذل جهده ولكنه لا يجد لمثل هذا الموقف تشبيها كاملا وكل ما يستطيعه أن يأتي بهذه الكلمات أو تلك التعبيرات لوصف ما يدور في قلبه وصفا صادقا كما أن الراقصة تعرض رقصتها في نطاق محدود لها لانخرج عنه . والحقيقة أن حب هؤلاء الاخوة كفيض لانهاية له وكبحر لاحدود له . ولا يمكن كشف غوامضه حتى لأي كاهن أو ساحر .

ولأجل ذلك لا يمتلك عقلي ما يصور به والالاني ما يعبر به تعبيرا صادقا ومثلي كمثل موسيقار يعجز عن ايجاد نغمات جميلة بوتر من الحشيش . حينما التقى كل من راما وبهارت تماقت

الآلهة اضطرابا وارتعشت خشية ورهبة ، ولكن
سيدهم أيقظهم من سكرتهم الحائرة فقاموا
يمطرون الأزهار والورود على أولئك الاخوة
ويمجدونهم ويقرظونهم .

دوها

رحب راما بـ « شاتروجانا » - شقيق
بهارات - ثم بالملاح كما رحب « لشن » بدوره
بأخيه بهارت مبديا له حبه وسروره .

شاباي ٢٤٢

ورحب « لشن » بشاتروجانا بكلمات رقيقة
صادقة مخلصة ، ثم رحب بالملاح بنفس الطريقة.
ثم سلم الاخوة القادمون على كل راهب من
الرهبان الموجودين . فدعا لهم الرهبان بالتوفيق
والسداد . ثم غمرهم السرور وعمتهم الفرحة
بدون حدود . وأخيرا اتجه « بهارت » مع أخيه
الى سينا وهما في غاية من الشوق والحنان وركعا
أمامها حتى مس جبينهما تراب قدميها وأعربا لهما
عن تقديرهما وشوقهما وطلب بهارت منها العفو .
فرفعت سينا جبينهما من التراب وأجلستهما

بجوارها . فأعرب كل منهما عن تقديره وشوقه
مرة أخرى . فدعت لهما سينا من أعماق قلبها أذ
غمرتها المحبة والعطف نحوهما بغير حدود حتى
أصبحت لا تملك الكلمات التي تعبر بها عما يختلج
في نفسها نحوهما . فلما رأى بهارت محبة سينا
وشوقها له ذهب عنه الروع وعاد له شعوره ووعيه
فاطمأن قلبه وهدأ باله واستراح ضميره .

ثم ساد المكان الهدوء والصمت الرهيب ، ولم
ينطق أحد بكلمة بل ظل الجمع ساكنا صامتا
لأن قلوبهم قد غمرت الفرحة والبهجة والسرور
وأصبحوا كأنهم نسوا أنفسهم . وفي هذه اللحظة
حطم الملاح سكوتهم اذ قدم بين أيديهم طلبه
بخضوع وأدب موجه كلامه الى راما .

دوها

يا سيدى ! قد حضرت اليك الملكة - أمك
وقائد الجيش والوزير والخدم وجواهر شعب
المدينة . وأيضا جاءك الراهب الكبير « واشست »
بعد أن عاشوا جميعا في قلق واضطراب وحزن
على غيابك زمنا طويلا وهم يطلبون الآن عفوك
وكرمك .



۱

فهرس المجلد الرابع

من:

تراث الإنسانية

ويشمل :

- ١ - فهرست الكتب
- ٢ - فهرست المؤلفين
- ٣ - فهرست بأسماء الباحثين

الكتب

رقم الصفحة	رقم الصفحة	احاديث الاثنين
٦٠١ - ٥٩٣	٢٧٣ - ٢٥٤	سانت بيغ
التمهيد لعلم النفس الاجتماعي	٣٥ - ٤١	احاديث خيالية
وليم مكدوجال	٢٣٦ - ٢٢٥	سادفج لاندور
ثلاث مسرحيات	٢١ - ٣	الادارة العلمية
لوبي دى فيجسا	٨٤٨ - ٨٢٥	فردريك تايلور
جارجتوا وباتاجرويل	٢٠٣ - ١٩٠	أدب الكاتب
فرانسوا رابليه	٦٨٠ - ٦٦٨	ابن قتيبة
الجماعة والمجتمع	٢٨٦ - ٢٧٤	أدولف
فرديناند تونيز	١٧٨ - ١٦٥	بنيامين كونستان
حول تعليم الخطيب	٤٢٠ - ٤٠٥	آراء جيروم كواينار
كوينتليان	٥٨٠ - ٤٩٥	اناثول فرانسى
الخراج	٩١٥ - ٨٩٤	الاشعار الغنائية
ابو يوسف	٨٢٤ - ٨٠٩	سافو
الخطط التوفيقية	١٣٢ - ١١٨	أعز ما يطلب
على مبارك	٤٠٤ - ٣٨٧	محمد بن تومرت
الديكاميرون	٢٢٤ - ٢٠٤	اقوال لاوتزو
جوفانى بوكاشيو	٥٨١ - ٥٦٤	لاوتزو
رحلات جليفر		البرنسيبيا
سويفت		اسحق نيوتن
رحلات حول العالم		بعثة المتحدية للكشف العلمى للمحيطات
جنس كوك		ويكيل طومسون
الرد على المنطقين		تأثير القوى البحرية على التاريخ
ابن تيمية		الفريد ميهان
رسالة منطقية فلسفية		تاريخ آداب اللغة العربية
لودلودفيج فتجنشتين		جورجى زيدان
الرعاية لحقوق الله		تاريخ جهانكشاي
الحارث المحاسبى		عطا ملك جوينى
رينيه		تأملات
شاتوبريان		مرقس أورليوس
سيرة الأميرة ذات الهمة		تحليل الجمال
سيرة عنتره		هوجارث
		تريستان وايزولد
		جوتفريدون شتراسبورج

رقم الصفحة	مبحث فى الفهم الانسانى	رقم الصفحة	الشاهنامة
٤٣٥ - ٤٥٠	جون لوك	٥٠٩ - ٥٣٠	الفردوسى
	مدام بوفارى		صورة سيدة
٦٦٢ - ٧٠٨	جوستاف فلوير	٦٣٤ - ٦٦٧	هنرى جيمس
	مروج الذهب		عجائب الآثار فى التراجم والأخبار
٢٥٣ - ٢٦٩	المسعودى	٥٥٣ - ٥٦٣	عبد الرحمن الجبرتى
	معيان الاختيار فى ذكر المعاهد والديار		عن الحرية
٢٨٨ - ٣٠٨	لسان الدين بن الخطيب	٤٦٧ - ٤٩٤	جون ستوارت مل
	مفاتيح العلوم		المواهل
٥٨٢ - ٥٩٢	الخوارزمى	٣٠٩ - ٣٢١	توماس هاردى
	الملل والنحل		فن الحب
١٥٠ - ١٦٤	الشهرستانى	٧٢٥ - ٧٤٢	أوفيدىوس
	النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة		قصة الاسيرين
٦٨١ - ٦٩١	ابن تفرى بردى	٩٥ - ١٠٤	بلاوتوس
	نهاية الأرب		الكشاف
٣٢٣ - ٣٥١	النويرى	٨٥ - ٩٤	الزمخشري
	النيبلونجلىد		كلىة ودمنة
٢٢ - ٤٠	الوسيلة الأدبية	١٧٩ - ١٨٩	ابن المقفع
	الحسين بن أحمد المرصنى		اللاؤوكون
٤٥١ - ٤٦٦		٥٣١ - ٥٥٢	جوتبولت لسنج

المؤلفون

رقم الصفحة	أوجين فرومنتان	رقم الصفحة	ابن تغرى بردى
دومنيك (١٨٢٠ - ١٨٧٦ م) ٢٨٧ - ٢٧٠	أوفيدىوس	النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (٨١٣ - ٨٧٤ هـ) ٦٨١ - ٦٩١	ابن تيمية
فن الحب (٤٣ ق م - ١٨ م) ٧٤٢ - ٧٢٥	بلاوتوس	الرد على المنطقيين (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) ١١٧ - ١٠٥	ابن الخطيب = لسان الدين بن الخطيب
قصة الأسيرين (٢٥٤ - ٢٨٨ م) ١٠٤ - ٩٥	بنيامين كونستان	ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ)	ادب الكاتب (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) ٢١ - ٣
أدولف (١٧٦٧ - ١٨٣٠ م) ٨٢٥ - ٨٢٨	بوليوس افيدىوس ناسو = افيدىوس	ابن المقفع	كليلة ودمنة (١٠٦ - ١٤٢ هـ) ١٧٩ - ١٨٩
تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني = ابن تيمية	توماس هاردى	أبو الحسن السعوى = السعوى أبو عبد الله = الحارث المحاسبى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف البلخي الخوارزمى = الخوارزمى أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد = الشهرستانى	أبو القاسم = الف دوسى أبو محمد = عبد الله بن مسلم الدينورى = ابن قتيبة
المواهل (١٨٤٠ - ١٩٢٨ م) ٣٢١ - ٣٠٩	تيتوس ماكسيوس بلاوتوس = بلاوتوس	أبو يوسف	الخراج (١١٣ - ١٨٢ هـ) ٦١٦ - ٦٠٢
جوتفريدفون شتراسبورج	جوتفريدفون شتراسبورج	أحمد عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم الفرسى البكرى = النويرى	أسحق نيوتن
القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣ (٥٦٤ - ٥٨١)	جوتهولت أفرام لسنج = جوتهولت لسنج	البرنسيبى (١٦٤٢ - ١٧٢٧) ٤٢٠ - ٤٠٥	الفريد ميهان
جوتهولت لسنج	جوتهولت لسنج	تأثير القوى البحرية على التاريخ (١٨٠٤ - ١٩١٤ م) ٩١٥ - ٨٩٤	أناطول فرانس
اللاؤوكون (١٧٢٩ - ١٧٨١ م) ٥٥٢ - ٥٣١	جورجى زيدان	آراء جيروم كواينار (١٨٤٤ - ١٩٢٤) ٢٠٣ - ١٩٠	
تاريخ آداب اللغة العربية (١٨٦١ - ١٩١٤ م) ٨٢٤ - ٨٠٩	جوستاف فلوير		
مدام بوفارى (١٨٢١ - ١٨٨٠ م) ٧٠٨ - ٦٩٢	جون ستيوارت مل		
عن الحرية (١٨٠٦ - ١٨٧٣) ٤٩٤ - ٤٦٧			

رقم الصفحة	رقم الصفحة	جون لوك
عطا ملك جوني = عطا ملك جوني	مبحث في الفهم الانساني	
تاريخ جهانكشاي (٦٢٣-٦٨١ هـ) ١١٨ - ١٣٢	(١٦٣٢ - ١٧٠٤ م) ... ٤٣٥ - ٤٥٠	
علاء الدين عطا ملك جوني = عطا ملك جوني	جيمس كوك	
علي بن الحسين بن علي = المسعودي	رحلات حول العالم	
علي مبارك	(١٧٢٨ - ١٧٧٩ م) ... ٧٤٣ - ٧٦٠	
الخطط التوفيقية (١٨٢٣)	جيوفاني بوكاشيو	
أو (١٨٢٤ - ١٨٩٣ م) ... ٨٤٩ - ٨٦٣	الديكاميرون (١٢١٣ - ١٣٧٥ م) ٢٣٧ - ٢٥٢	
فرانسوا رابليه	الحارث بن اسعد المحاسبي =	
جاجنتوا وبانتاجرويل (١٤٩٤ -	الحارث المحاسبي	
١٥٥٣ أو ١٥٥٤ م) ... ٩١٦ - ٩٢٧	الحارث المحاسبي	
فردريك تايلور	الرعاية لحقوق الله (العقد السابع	
الادارة العلمية (١٨٥٦-١٩١٥ م) ٢٢٥ - ٢٣٦	من القرن الثاني الهجري - ٢٤٣ هـ) ٧٦١ - ٧٨٤	
الفردوسي	الحسين بن احمد المرصفي	
الشاهنامه (٣٢٠ أو ٣٢٣ هـ) ٥٠٩ - ٥٢٠	الوسيلة الادبية (٨٨٩) ٤٥١ - ٤٤٦	
فرديناند تونيز	الخوارزمي	
الجماعة والجمع (م) ٦١٨ - ٦٣٣	مفاتيح العلوم (٣٨٧ هـ) ... ٥٨٢ - ٥٩٢	
لاوترو	الزمخشري	
اقوال لاوترو	الكشاف (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) ٨٥ - ٩٤	
(ورد في سجلات المؤلف	سافو	
انه عاش اكثر من ١٦٠ عاما ١٦٥ - ١٧٨	الاشعار الغنائية (٦١٠-٨٠ ق.م) ٦٦٨ - ٦٨٠	
لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن احمد	سافيدج لاندور	
السلاماني = لسان الدين بن الخطيب	احاديث خيالية (١٧٧٥-١٨٦٥ م) ٤١ - ٥٣	
لسان الدين بن الخطيب	سانت ييف	
معيار الاختيار في ذكر المعاهد	احاديث الاثني (١٨٠٤ - ١٨٦٩ م) ٣٥٤ - ٣٧٣	
والديار (٧١٢ - ٧٧٦) ... ٢٨٨ - ٣٠٨	سويقت	
لوبي دي فيجا	رحلات چليفر (١٦٦٧ - ١٧٤٥ م) ٣٢٢ - ٣٣٢	
ثلاث مسرحيات (١٥٦٢-١٦٣٥ م) ٧٨٥ - ٨٠٨	شانويريان	
لوبي فيلكس دي فيجا اي كاريو = لوبي دي فيجا	رينيه (١٧٦٨ - ١٨٤٨ م) ٧١ - ٨٤	
لودفيج جوزيف يوهان = لودفيج فتجنشتين	شهاب الدين النوري = النوري	
لودفيج فتجنشتين	الشهرستاني	
رسالة منطقية فلسفية	الملل والنحل (٤٧٩ - ٥٤٨ هـ) ١٥٠ - ١٦٤	
(١٨٨٩ - ١٩٥١ م) ... ٧٠٩ - ٧٢٤	عبد الله بن المقفع = ابن المقفع	
ماركوس فاييوس كوينتليانوس	عبد الرحمن الجبرتي	
حول تعليم الخطيب (٣٥١ - ٣٦٨ م) ٥٤ - ٧٠	عجائب الآثار في التراجم والاخبار	
محمد بن تومرت	(١٧٥٤ - ١٨٢٥ م) ... ٥٥٣ - ٥٦٣	
اعز ما يطلب (٤٦٩ أو ٤٢٧ أو		
٤٩٣ ٥٢٤ هـ) ... ٢٧ - ٣٨٦		
محمد بن عبد الله بن تومرت = محمد بن تومرت		

رقم الصفحة

وليم ماكندوجال

التمهيد لعلم النفس الاجتماعى

(١٨٧١ - ١٩٣٨ م) ... ١٢٣ - ١٤٩

وليم هوجارث

تحليل الجمال (١٦٩٧-١٧٦٤ م ٢٠٤ - ٢٢٤

ويكيل طومسون

بعثة التحدية للكشف العلمى

للمحيطات (١٨٣٠ - ١٨٨٢ م) ٤٩٥ - ٥٨٠

يعقوب بن ابراهيم = ابو يوسف

يوسف بن تغرى بردى = ابن تغرى بردى

يوناثان سويقت = سويقت

رقم الصفحة

مرقس اورليوس

تأملات (١٢١ - ١٨٠ م) ... ٢٨٧ - ٤٠٤

المسعودى

مروج الذهب (٢٤٦ هـ / ٢٥٣ - ٢٦٩

مهدى الموحدين = محمد بن تومرت

النويرى

نهاية الارب (٦٧٧ - ٧٣٣ هـ) ٢٣٣ - ٢٥١

هنرى جيمس

صورة سيدة (١٨٤٣-١٩١٧ م) ٦٢٤ - ٦٦٧

الباحثون

رقم الصفحة	ابراهيم الايبارى	رقم الصفحة	سعيد زايد
٢٥١ - ٢٢٢	نهاية الارب	٥٩٢ - ٥٨٢	مفاتيح العلوم
٦٩١ - ٦٨١	النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة	٧٦٠ - ٧٤٣	سليم انطون
٧٠ - ٥٤	ابراهيم سكر		رحلات حول العالم
٦٨٠ - ٦٦٨	حول تعليم الخطيب		السيد محمد بدوى
٢٢٤ - ٢٠٤	أشمار غنائية	٦٢٣ - ٦١٧	الجماعة والمجتمع
٢٥٢ - ٥٣١	احمد حمدى محمود		صوفى عبد الله
٢٧٨ - ٢٧٠	تحليل الجمال	٢٣٢ - ٢٢٢	رحلات جليفر
٨٤٨ - ٨٢٥	اللاؤوكون		عبد الحليم محمود
	احمد رشاد	٧٨٤ - ٧٦١	الرعاية لحقوق الله
	دومنيك		عبد الحميد يونس
	ادولف	٤٣٤ - ٤٢١	سيرة عنترة
	احمد رشيد		عبد العزيز الشناوى
٢٣٦ - ٢٢٥	الإدارة العلمية	٨٩٣ - ٤٨٩	الخطط التوفيقية
٤٢٠ - ٤٠٥	احمد سعيد الدمرداش		عزى اسلام
٧٤٢ - ٧٢٥	البرنسيبيا	٧٢٤ - ٧٠٩	رسالة منطقية فلسفية
٥٦٣ - ٥٥٣	احمد عبد الرحيم ابو زيد		على ادهم
١٦٤ - ١٥٠	فن الحب	٢٠٣ - ١٩٠	آراء جيروم كواينار
١٣٢ - ١١٨	احمد عبد الرحيم مصطفى	٤٠٤ - ٣٨٧	تأملات مرقس أورليوس
٩٤ - ٨٥	مجاناب الآثار فى التراجم والأخبار	٧٠٨ - ٦٩٢	مدام بوفارى
٦٦٧ - ٦٣٤	احمد فؤاد الاهوانى		على حسنى الخربوطلى
٥٨٠ - ٤٩٥	الملل والنحل	٢٦٩ - ٢٥٣	مروج الذهب
	احمد محمود الساداتى	٦١٦ - ٦٠٢	الخراج
	تاريخ جهاتكشاي		على درويش
	أمين الخولى	٣٧٣ - ٣٥٤	احاديث الاثنين
	الكشاف		على سامى النشار
	انجيل بطرس سمعان	١١٧ - ١٠٥	الرد على المنطقيين
	صورة سيدة		عيسى محمود ناصر
	نور عبد العليم	١٨٩ - ١٧٩	كليه ودمنه
	بمئة المتحدية للكشف العلمى		فؤاد شبل
	للمحيطات	١٧٨ - ١٦٥	١ - أقوال لاوتزو
	حسين فوزى النجار		التفسيرات أو فلسفة الين
	عن الحرية	٦٠١ - ٥٩٣	واليانج
	تأثير القوى البحرية على		فوزى شاهين
	التاريخ	٢٥٢ - ٣٣٧	الديكاميرون

رقم الصفحة

٨٠٨ - ٧٨٥	محمود على مكي
٤٠ - ٢٢	ثلاث مسرحيات
٥٨١ - ٥٦٤	مصطفى ماهر
١٤٩ - ١٣٣	١ - النيبلونجتلبد
	٢ - ترستان وايزولد
	منيرة حلمي
	التمهيد لعلم النفس الاجتماعي
	نبيلة ابراهيم
	سيرة الأميرة ذات الهمة
	٩٢٨ -
	نظمي لوقا
	١ - احاديث خيالية
	٢ - المواعيل
	يحيى الخشاب
	الشاهنامة
	٥٣٠ - ٥٠٩
	يحيى هويدي
	أعز ما يطلب
	٣٨٦ - ٣٧٤

رقم الصفحة

٩٢٧ - ٩١٦	كوثر عبد السلام
	جارجنتوا وبانتاجرويل
	محمد خلف الله احمد
	ادب الكاتب
	٣ - ٢١
	محمد سليم سالم
	قصة الاسيرين
	١٠٤ - ٩٥
	محمد عبد الفنى حسن
	الوسيلة الادبية
	٤٦٦ - ٤٥١
	تاريخ آداب اللغة العربية
	٨٢٤ - ٨٠٩
	محمد غلاب
	وينيه
	٨٤ - ٧١
	محمد فتحى الشنيطى
	مبحث فى الفهم الانسانى
	٤٥٠ - ٤٣٥
	محمد كمال شبانه
	معيار الاختيار فى ذكر المعاهد
	والذيار
	٣٠٨ - ٢٨٨

جامعة
علاء الدين